

قصة الحضارة ول ديورانت

قصة الحضارة - روسو والثورة - فرنسا قبل الطوفان - روسو الرومانسي - في الإبرميتاج

الفصل السادس

روسو الرومانسي

1762 - 1756

1- في "الإبرميتاج"

1757 - 1756

كان روسو قد انتقل إلى كوخ مدام دينيه في 9 إبريل 1756 مصطحباً غير الشرعية تريز لافاسير وأمها. وسعد بالعيش هناك حيناً، إذ أحب غناء الطيور وزقزقتها، وحفيف الأشجار وعبيرها، وهدوء الجولات المنفردة في الغابات. وكان في جولاته يحمل قلماً وكراسة ليقتنص الأفكار وهي تمرق منه. ولكنه لم يخلق للراحة والسلام. ذلك أن حساسيته ضاعفت كل عناء، وخلقت مزيداً من المتاعب. لقد كانت تريز زوجة وفيه ولكنها لا تستطيع أن تكون رفيقاً لذهنه، كتب في إميل يقول "ينبغي ألا يقترن الرجل الذي يفكر بزوجة لا تستطيع مشاطرته أفكاره" (1). ولم يكن بتريز المسكينة حاجة تذكر للأفكار، ولا كبير حاجة للكلمات المكتوبة. لقد بذلت له جسدها وروحها، واحتملت غضباته، وأغلب الظن أنها ردت عليها بمثلها، وسمحت له بأن يقترب من حافة الخيانة مع مدام دودتو، وكانت هي على قدر ما نعلم وفيه في تواضع باستثناء حادث لا سند لنا فيه إلا في رواية

بوزويل. ولكن أنى لهذه المرأة الساذجة أن تستجيب لذلك الاتساع والتتوع الجامح في عقل قدر له أن يزلزل نصف القارة؟ استمع إلى تفسير روسو:
"ماذا يظن القارئ إذا قلت له...إبني منذ اللحظة الأولى التي وقع عليها بصري حتى اللحظة التي أكتب الآن فيها لم أشعر قط بأقل حب لها، ولم أشته قط أن أملكها...وأن الحاجات البدنية التي أشبعت بشخصها كانت بالنسبة لي

صفحة رقم : 13065

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الرومانسي -> في الإبرميتاج

حاجات الجنس فقط، دون أن تتبعث إطلاقاً من شخصيتها؟..لقد كانت أولى حاجاتي، وأعظمها، وأقواها، وأشهرها، كلها في قلبي: الحاجة إلى رباط (روحي) حميم، حميم ما أمكن. وكانت هذه الحاجة الفريدة بحيث لا يشبعها أوثق الاتصال البدني، ولم يكن بد لها من وجود روحيين"(2).
ولعل تريز كانت ترد على هذه الشكاوى بردها، لأن روسو كان قد كف الآن عن القيام بوظائفه الزوجية. ففي 1754 قرر لطبيب جنيفي: "لقد تعرضت طويلاً لأقصى الآلام، لعدة حصر البول التي لا شفاء لي منها، والتي نجمت عن احتقان في مجرى البول يسد القناة سداً يستحيل معه فيها حتى قسطرات الدكتور داران المشهور"(3). وزعم أنه أفلح عن كل اتصال جنسي مع تريز بعد 1755(4) ثم أضاف "حتى ذلك التاريخ كنت صالحاً، ومن تلك اللحظة أصبحت طاهراً، أو على الأقل متيمماً بالطهارة.
وجعل وجود حماته معهما هذا المثلث حاداً إلى درجة مؤلمة. وقد عالها هي وزوجته ما استطاع من دخله الذي جاءه من نسخ الموسيقى ومن بيع كتبه. غير أن مدام لافاسير كان لها بنات أخريات تحتجن إلى مهور ويعشن في ضنك مقيم. وجمع جريم وديدرو ودولباخ فيما بينهم للمراتين معاشاً سنوياً قدره أربعمائة جنيه، وأخذوا عليهما العهد بكتمان الأمر على روسو مخافة جرح كبريائه. واختصت الأم نفسها وبناتها بمعظم المال (على رواية روسو)(5)، واستداننت باسم تريز، ودفعت تريز الديون، وأخفت أمر المعاش طويلاً، وأخيراً كشف روسو سره، فاستشاط غضباً على أصدقائه لإذلاله على هذا النحو. وقد زادوه غضباً بالإلحاح عليه في أن ينتقل من الإبرميتاج قبل حلول الشتاء، فالكوخ (في رأيهم) لم يعد للجو البارد. وحتى لو احتملت زوجته برد الشتاء فيه فهل في طاقة الأم احتمالها؟ وكان ديدرو قد كتب في تمثيلية "الابن الطبيعي"(6): "إن الرجل الصالح يحيا في مجتمع؛ ولا يعيش وحيداً غير الطالح". وخيل لروسو أنه المقصود بهذا القول، وبدأ الآن نزاع طويل لم تكن المصالحات التي تخللته إلا مهادات. وشعر روسو أن جريم وديدرو يحولان إغرائه بالعودة إلى مدينة فاسدة لأنهما يحسدانه على السلام الذي وجده بين

صفحة رقم : 13066

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الرومانسي -> في الإبرميتاج

الغابات. وقد كشف في خطاب أرسله إلى صاحبة الفضل عليه، مدام ديبييه، (وكانت في باريس) عن خلقه بصراحة ونفاد صبر. قال:

"أريد أن يكون أصدقائي أصدقاء لا سادة عليّ؛ أريد أن ينصحنوني لا أن يحاولوا التسلق عليّ؛ وأن يكون لهم كل المطالب على قلبي دون مطلب واحد يقيد حريتي. إنني لأراها غريب تلك الطريقة التي يتدخل بها الناس باسم الصداقة في شؤني دون أن يطلعوني على شؤنهم... وحرصهم الشديد على أن يؤديوا لي ألف خدمة يرهقني، ففيه لمسة من الاستعلاء تضمنيني؛ ثم إن كل إنسان في وسعه أن يفعل مثل ما يفعلون..."

وإنني لتوحيدي وانعزالي على الناس أشد حساسية من غيري. فلو فرضنا أنني تشاجرت مع إنسان يعيش وسط الزحام، فإنه يفكر في الأمر لحظة ثم تنسيه إياه عشرات الشواغل بقية النهار. أما أنا فلا يصرف أفكاري عنه شيء ولا أفتأ أقلبه في ذهني طوال الليل وأنا مؤرق، وأفكر فيه وأنا أتمشى وحدي من شروق الشمس إلى غروبها، وقلبي لا يهدأ لحظة واحدة، وإساءة من صديق كفيلة بأن تجعلني أعاني في يوم واحد سنوات من الحزن. وإن لي أنا العليل حقا في التسامح الواجب من أخوتي البشر نحو هفوات رجل مريض وغضباته... وأنا فقير، وفقري يخول لي بعض الرعاية (أو كذلك يخيل إليّ)."

"لا يدعشك إذن إن أنا أبغضت باريس أكثر فأكثر. ليس لي شيء أنتشده من باريس سوى رسائلك. ولن يراني أحد هناك ثانية أبداً. وإذا شئت أن تنبئني بأرائك حول هذا الموضوع، وبكل ما تبغين من قوة وعنف، فلك الحق في ذلك. فستلقي مني قبولاً حسناً، وستكون -عديمة الجدوى" (7).

وقد أجابته بما يكفي من العنف فقالت "أوه، دع هذه الشكاوى التافهة لمن خلت قلوبهم ورؤوسهم (8). ولكنها استفسرت مراراً عن صحته وراحته، واشترت له حاجياته، وأرسلت له الهدايا الصغيرة. "ذات يوم والحرارة بلغت من التجمد درجة قصوى، وجدت وأنا أفتح طرداً به عدة أشياء طلبت إليها أن تبتاعها لي جولة داخلية من الفانيليا الإنجليزية

صفحة رقم : 13067

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الرومانسي -> في الإبرميتاج

قالت إنها كانت تلبسها، ورغبت إلي في أن ألبسها صدرية داخلية، ورأيت في هذه الرعاية البالغة الودحاً شديداً. وكأنها تعرت لتكسوني حتى رحت في انفعالي أقبل الخطاب والجولة جميعاً غير مرة وأنا أذرف الدمع. وخالنتني تريز قد جننت (9)."

وخلال عامه الأول في الإبرميتاج صنف "قاموس الموسيقى" ولخص بلغته المجلدات التي ألفها الأبيي دسان-بيير عن الحرب، والسلام، والتعليم، والإصلاح السياسي. وفي صيف 1756 تلقى من المؤلف نسخة من قصيدة فولتير في الزلزال الذي أهلك خمسة عشر ألف شخص، وجرح خمسة عشر ألف آخرين في لشبونة في عيد جميع القديسين أول نوفمبر 1755، وقد تساعل فولتير كما تساعل نصف العالم لم اختارت العناية، المفترض فيها أنها خيرة، لهذه المذبحة العمياء عاصمة قطار كله كاثوليكي، وساعة-9.40 صباحاً كل الأتقياء يصلون فيها في الكنيسة. وفي نغمة من التشاؤم المطلق رسم فولتير صورة للحياة والطبيعة محايدتين حياداً قاسياً بين الشر والخير. وفي الفقرة التالية من الاعتراضات نقرأ رد فعل روسو لهذه القصيدة القوية:

"حين أدعشني أن أرى هذا المسكين، الغارق (إن جاز القول) في أسباب الثراء والتشريف، يشكو بمرارة أرزاء هذه الحياة، ويجد كل شيء خطأ، فكرت في مشروع جنوني هو أن أجبره على تحويل اهتمامه إلى نفسه، وعلى إثبات أن كل شيء صواب. إن فولتير وهو يبدو مؤمناً بالله لم يؤمن قط في الواقع بشيء غير الشيطان، لأنه إلهه المزعوم كائن خبيث لا يلدأ إلا بالشر، كما يقول. وسخف هذه القصيدة الصارخ بثير أشد التقزز من رجل ينعم بثراء فاحش، رجل

يحاول من حزن السعادة أن يشيع اليأس في قلوب أخوته البشر بما يصور من صورة رهيبه قاسية لكل الكوارث التي أعفي منها، أما أنا الذي يحق لي أكثر منه أن أعدد وأزن كل شرور الحياة البشرية، فقد فحصتها في غير تحيز، وأثبت له أنه ما من شر من جميع الشرور الممكنة يجب أن ننسبه للعناية، وألا نرده بالأحرى إلى إساءة استعمال الإنسان لقدراته لا إلى الطبيعة" (10).

صفحة رقم : 13068

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الرومانسي -> في الإبرميتاج

وعليه في 18 أغسطس 1756 أرسل روسو إلى فولتير "رسالة في العناية الإلهية من خمس وعشرين صفحة، بدأها بإقرار لطيف بفضل فولتير. قال:
"جاءتني قصائدك الأخيرة يا سيدي في عزلي، ومع أن جميع أصدقائي يعرفون محبتي لكتابائك، فلست أدري من كان ممكناً أن يرسل لي هذا الكتاب سواك. فقد وجدت المتعة والفائدة جميعاً، وتبينت فيه يد الأستاذ...ولزام علي أن أشكرك على المجلد وعلى صنيعك" (11).
ثم ناشد فولتير ألا يلوم العناية الإلهية على مصائب البشر. فمعظم الشرور راجع لحماقتنا، أو خطيئتنا، أو إجرامنا:
"لاحظ أن الطبيعة لم تحشد عشرين ألف بيت من ستة طوابق أو سبعة، وأنه لو كان سكان تلك المدينة الكبرى موزعين توزيعاً أكثر توازناً في مساكن أقل تكاثفاً، لكانت الخسارة أقل كثيراً، أو ربما انعدمت، وكان كل أهلها قد هربوا نعد أول هزة، ولرأيناهم في الغد على بعد عشرين فرسخاً، مرحين كأن شيئاً لم يصيبهم" (12).
وكان فولتير قد كتب أ، قلة من الناس من يودون أن يولدوا من جديد في نفس الظروف؛ فرد روسو بأن هذا لا يصدق إلا على الأثرياء الذين أتخموا باللذات، وملوا الحياة، وأعوزهم الإيمان؛ أو على الأدباء القاعدين، غير الأصحاء، الغارقين في تأملاتهم، الساخطين؛ ولكنه لا يصدق على بسطاء الناس كالتبقة الوسطى الفرنسية أو القرويين السويسريين. والذي يجعل من الحياة معضلة لنا هو إساءة استعمالها (13). ثم إن شر الجزء قد يكون خير الكل؛ فموت الفرد يتيح الحياة المتجددة للنوع. والعناية الإلهية عامة لا خاصة؛ فهي تسهر على الكل، ولكنها تترك أحداثاً نوعية للأسباب الثانوية والقوانين الطبيعية (14). وقد يكون الموت المبكر نعمة كذلك الذي أصاب أطفال لشبونة، وهو على أية حال غير ذي بال ما دام هناك إله، لأنه تعالى سيكافئ الجميع على ما أصابهم من معاناة لا يستحقونها (15).
ومسألة وجود الله تجاوز

صفحة رقم : 13069

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الرومانسي -> في الإبرميتاج

الحل بالعقل. ولنا أن نختار بين الإيمان والكفر، فلم نرفض إيماناً ملهماً معزياً؟؛ أما عن نفسي "فقد عانيت في هذه الحياة كثيراً، لهذا يملؤني الرجاء في حياة أخرى. وكل دقائق الميتافيزيقا لن تشككني لحظة في وجود عناية خيرة وفي خلود النفس. أنني أحس هذا، وأؤمن به، وأتمناه... وسأدافع عن هذه المعتقدات إلى آخر نسمة من حياتي" (16). واختتم روسو خطابه ختاماً لطيفاً، فقال إنه متفق مع فولتير على التسامح الديني، وأكد له "إنني أؤثر أن أكون مسيحياً على طريقتك لا على طريقة الصوروبون" (17). ورجا فولتير أن ينظم بكل ما في شعره من قوة وفتنة "كتاب تعليم مسيحي للمواطن" يتضمن قاموساً أخلاقياً يهدي الناس في فوضى العصر. وكتب فولتير إقراراً مهذباً بوصول رسالة روسو، ودعاها للنزول ضيفاً عليه في الدليس (18)، ولم يبذل محاولة منظمة لتنفيذ حجج روسو، ولكنه رد عليها بطريق غير مباشر بروايته "كانديد" (1759).

صفحة رقم : 13070

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الرومانسي -> العاشق

2- العاشق

حفل شتاء 1756-1757 بالأحداث لروسو. ففي فترة ما خلال تلك الشهور بدأ يكتب أشهر رواية في القرن الثامن عشر "جولي، أو هلويز الجديدة" وقد تصور لها أول الأمر دراسة في الصداقة والحب. فابنتنا العم جولي وكليبر تحبان سان-برو، ولكنه حين يغوى جولي تظل كليبر الصديقة الوفية لكليهما. فلما أخجله أن يكون الكتاب مجرد رواية غرامية، عمد إلى رفع القصة إلى مقام الفلسفة بتحويل جولي إلى التدين، والعيش في ولاء مثالي لزوجها فولمار وهو سيد شكاك استسلم لتعاليم فولتير وديدرو. يقول روسو في اعترافاته:
"كانت العاصفة التي أطلقتها الموسوعة. في ذلك الحين على أشدها. فلم يلبث الفريقان، اللذان بلغ سخطهما بعضهما على بعض نهايته، أن أصبحا أشبه بذناب غاضبة... لا مسيحيين ولا فلاسفة يرغب كل منهما في إثارة الآخر وإقناعه وهداية إخوانهم إلى طريق الحق. وكنت قد جهزت بالحقائق الصارمة للفريقين لأنني بطبعي عدو لكل أنواع التخريب، ولكنهم لم يستمعوا إلي."

صفحة رقم : 13071

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الرومانسي -> العاشق

فكرت في طريقة أخرى، بدت لي في بساطتي جديدة بالإعجاب؛ وهي التخفيف من كراهيتهما المتبادلة بأن أحطم تعصبهما، وأظفر لكل فريق ما للآخر من فضائل وحسنات تستحق تقدير الجميع واحترامهم. وأحرزت الفكرة... النجاح المرتقب، فقد قربت ووحدت الحزبين المتنافسين على هدف واحد هو سحق الكتاب...ولما رضيت..عن خطتي، عدت إلى الموقعين تفصيلاً...فأسفر هذا عن الجزأين الأول والثاني من "هلويز" (19). وكان يقرأ على تريز ومدام ليفاسير كل مساء صفحات من القصة عند المدفأة. وشجعتة الدموع التي كانت تذرفها تريز، فدفع بالمخطوطة إلى مدام ديبنيه حين عادت إلى قصرها الريفي، لاشترت، على ميل من الإبرميتاج. وفي مذكراتها استعادة للحدث: "حين وصلنا هنا...وجدنا روسو في انتظارنا. وكان هادئاً رائع المزاج للغاية. وأحضر لي رواية (جانبا منها) قد بدأها...وقد قفل إلى الإبرميتاج أمس ليستأنف هذا العمل، الذي يزعم أنه قوام سعادة حياته" (20). وبعد قليل كتبت إلى جريم:

"وبعد العشاء قرأنا مخطوطة روسو. ولست أدري هل أنا متحيزة ضدها، ولكني غير راضية عنها، إنها مكتوبة بأسلوب في غاية الروعة، ولكنها مسرفة في التفصيل، وتبدو غير واقعية ومفتقرة إلى الحرارة. ولا تقول شخصاً كلمة واحدة مما ينبغي أن تقوله، فالمؤلف هو الذي يتكلم دائماً. ولا أدري كيف أخرج من هذا المأزق، فلست أحب أن أذع روسو، ولا أستطيع أن أستقر على إدخال الحزن على قلبه" (21). على أن روسو، على نحو ما، بث الحرارة في جولي خلال الشتاء، أكان ذلك لأن قصة حب حية دخلت حياته؟ ذلك في 30 يناير 1757 زارته سيدة كان قد لقبها في باريس باعتبارها أخت زوج مدام ديبنيه. وكانت هذه السيدة، واسمها اليزابث-صوفي ديبيلجارد، قد تزوجت الكونت دودتو، ثم تركته، وأصبحت الآن خليفة عدة سنوات للمركز دسان-لامبير، الذي كان يوماً ما مزاحماً لفولتير على مدام دناتليه. وكان زوجها وعشيقتها كلاهما

صفحة رقم : 13072

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الرومانسي -> العاشق

قد انطلق إلى ساحة القتال. وفي صيف 1756 كانت الكونتيسة قد استأجرت قصر أوبون الريفي، على نحو ميلين ونصف من الإبرميتاج. وكتب لها سان-لامبير أن روسو على رحلة جواد قصيرة منها، واقترح عليها أن تسري عن وحدتها بزيارة الكاتب الشهير الذي أوقف الحضارة كلها موقف الدفاع عن نفسها. فذهبت في مركبة، فلما انخرزت في الوحل واصلت الرحلة سيراً، فوصلت وحداًؤها وثوبها ملطخان. "وجعلت المكان يدوي بضحكها الذي شاركتها فيه من كل قلبي" (22). وأعطتها تريز تغيير ملابس. ومكثت المركزية لتتناول "وجبة ريفية خفيفة" وكانت في السابعة والعشرين، وروسو في الخامسة والأربعين. ولم تكن باهر الجمال سواء في طلعتها أو قوامها، ولكن رقتها، وروحها المرحة أثارت حياته المظلمة. وفي العصر التالي أرسلت إليه رسالة لطيفة، مخاطبة إياه باللقب الذي اتخذته بعد أن استوطن جنيف ثانية:

"أيها المواطن العزيز، أعيد إليك الثياب التي تفضلت بإعارتي إياها. وقد وجدت عند رجوعي طريقاً أفضل كثيراً، ويجب أن أخبرك بمبلغ سروري بهذا، لأنه يبسر لي العودة إلى زيارتك. ويوسفني أنني لم أمكث إلا قليلاً...وسيكون أسفي أقل إذا كنت أكثر حربة، واثقة دائماً من أنني لا أزعجك. وداعاً يا مواطني العزيز، وأرجوك أن تشكر للأنسة ليفاسير كل ما أبدته نحوي من عطف" (23).

وبعد أيام عاد سان-لامبير من الجبهة. وفي إبريل استدعي من جديد للخدمة العسكرية، وما لبثت الكونتيسة المرحة أن خطرت إلى الإبرميتاج على سهوة جوادها ثياب الرجال. وصدم زوها روسو، ولكنه ما لبث أن أحس أنه يحتوي امرأة فانتة. فنطلق مع ضيفه سيراً في الغابات تاركاً تريز لواجباتها المنزلية وأخبرته مدام دودتو عن شدة محبتها لسان لامبير، وفي مايو رد زيارتها، فذهب إلى أوبون في الوقت الذي تكون فيه "وحيدة تماماً" كما قالت له. يقول "كنت أحياناً في رحلاتي المتكررة لأوبون أنام هناك...

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الرومانسي -> العاشق

وكننت أراها كل يوم تقريباً طوال ثلاثة أشهر. ورأيت شخصية جولي متمثلة في مدام دودتو، ثم لم أعد أرى غير مدام دودتو (في جولي)، ولكن بكل أسباب الكمال التي جملت بها معبودة قلبي" (24). وأسلم نفسه زمناً لهذا الهديان المحموم حتى لقد كف عن كتابة قصة، وراح بدلاً من هذا يكتب الخطابات الغرامية التي حرص على أن تعثر عليها في كوي أشجار أوبون. فقال لها أنه يجب، ولم يقل من محبوبته؛ ولكنها بالطبع. فوبخته، وأكدت له أنها ملك سان-لامبير جسداً وروحاً، ولكنها سمحت له بمواصلة زيارته وتودده الحار؛ والمرأة على أي حال تحيا حياة واحدة فقط حين تحب، وحياة مضاعفة حين يحبها اثنان. "لم تتكر على شيئاً يمكن أن تمنحه أرق الصداقات، ولكنها لم تمنحني شيئاً يجعلها خائنة". وهو يروي أبناء ما كانا يخوضان فيه من "أحاديث مستفيضة متكررة... خلال الشهور الأربعة التي أنفأها في صلة حميدة لا تكاد تضارحها صلة بين صديقين من الجنسين يحصران نفسيهما داخل الحدود التي لم تتجاوزها قط" (25). وفي روايتها لهذه العلاقة نجد الحركة الرومانسية على أشدها: فلا شيء في قصته يمكن أن يضارع هذه النشوات:

"لقد سكرت كلا بخرم الحب-حبها لحبيبها، وحبى لها؛ وامتزجت تنهداتها ودموعنا... ولم تنسَ نفسها قط لحظة واحدة في حميا هذا السكر اللذيذ، وأؤكد تأكيداً قاطعاً إنني أن كنت مرة، وأنا منساق بحواسي، قد حاولت حملها على الخيانة، فإنه لم يكن بي رغبة حقيقية في النجاح. ذلك أن واجب نكران الذات تسامى بعقلي... لقد كان من الممكن أن أقارف الجريمة، وقد قورفت مائة مرة في قلبي؛ ولكن أن ألوث شرف حبيبتى صوفي! أواه، أممك هذا؟! كلا! لقد قلت لها مائة مرة إنه محال... فإن حبي لها أعظم ما أن يغزيني بتملكها... تلك كانت اللذة الوحيدة لرجل أوتي مزاجاً من أكثر الأمزجة تاججاً، ولكنه ربما كان في الوقت ذاته من أجبن من أنجبتهم الطبيعة من البشر" (26).

ولاحظت مدام ديبينيه أن "ديها لم يعد يزورها الآن إلا لماماً، وسرعان

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الرومانسي -> العاشق

ما علمت بنياً رحلاته لأخت زوجها. فألمها النبأ. وكتبت إلى جريم في يونيو تقول "من القسوة على أي حال أن يهرب منك فيلسوف في أقل اللحظات توقعاً لهروبه" (27). وذات يوم في أوبون وجد روسو "صوفي" تبكي. ذلك أن سان-لامبير نمى إليها خبر عبثها هذا، وقد أبلغ بالخبر (كما قالت لجان-جاك) "بطريقة سيئة. إنه ينصفني، ولكنه مغبط... وأخشى ما أخشاه أن تكلفي حماقاتك الراحة والهدوء بقية أيامي" (28). واتفقا على أن الذي باح بالسر لسان-لامبير لا بد هو مدام ديبينيه، لأننا "كما نعلم أنه ترأسله". أو لعلها باحت به لجريم، الذي كان يلقي سان-لامبير بين

الحين والحين في وستاليا. وقد حاولت مدام ديبينيه في رواية ورسو- أن تحصل من تيز على خطابه التي تلقاها من مدام دودتو، واتهم مضيقته بخيانه في خطاب عنيف:

"هناك عاشقان (صوفي وسان-لامبير) عزيزان عليّ، وهما وثيقا الارتباط جديران بحب الواحد لصاحبه... وأحسب أن محاولات بذلت للتفريق بينهما، وأني استعملت لبث الغيرة في صدر أحدهما. ولم يكن الاختيار سديداً، ولكنه بدا محققاً لأغراض الحق؛ وأنت التي أشتبته في أنها مذنبه بهذا الحق. وهكذا كان يمكن أن يلصق بالمرأة التي أمن لها أعظم تقدير... عار قسمة قلبها وشخصها بين حبيبين، ويلصق بي أنا عار كوني أحد هذين التعيسين. ولو علمت أنك فكرت في هذا إطلافاً ولو لحظة واحدة في حياتك، سواء عنها أو عني، لأبغضتك حتى آخر نسمة من حياتي، ولكني لا أتهمك بالتفكير في هذا فحسب، بل بقوله أيضاً:

"أتعلمين كيف أكره عن أخطائي في الفترة القصيرة التي أنا مضطر للمكث فيها بقربك، بفعل ما لا يفعله أحد سواي: بمصارتك برأي الناس فيك وبالصدود التي عليك أن ترأبها" (29).

وأحزن عنف هذه التهم مدام ديبينيه، سواء أكانت مذنبه أم بريئة (ولا علم لنا بالحقيقة)، فأبلغتها إلى حبيبها البعيد جريم. وأجاب بأنه قد حذرهما من "المأذق الشيطانية"، التي ستورط فيها بانزال رسو النزق الغريب الأطوار

صفحة رقم : 13075

قصة الحضارة -> رسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> رسو الرومانسي -> العاشق

في الإبرميتاج (30). ودعت جان-جاك إلى شفرين، وحيته بالعناق والجموع، وأجاب على الدموع بمثلها، ولم تدل له بأي تفسير وصل إلينا علمه، وتعشى معها، ونام في بيتها، ورحل في الغد مودعاً بعبارات الصداقة.

وزاد ديدور الطين بلة. فقد أشار على رسو بأن يكتب إلى سان-لامبير معترفاً بميله لصوفي، مؤكداً له رغم ذلك وفاءها. ووعد رسو بأن يكتب (في رواية ديدرو) ولكن مدام دودتو رجته ألا يفعل، وأن يدعها تنفذ نفسها بطريقتها الخاصة من المآزق التي ورطها فيها هيامه وعبثها. فلما عاد سان-لامبير من الجبهة حدثه ديدرو بالعلاقة، مفترضاً أن رسو قد اعترف بها. ولام رسو ديدرو ورماه بخيانتته، ولام ديرو ورسو ورماه بخديعتته. ولم يتصرف تصرف الفلاسفة غير سان-لامبير. فقد جاء وصوفي إلى الإبرميتاج، و "دعا نفسه إلى العشاء معي... وعاملني بصرامة ولكن بروح الصداقة". ولم يوقع عليه عقوبة أشد من النوم والشخير بينما كان جان-جاك يقرأ عالياً خطابه المطول إلى فولتير. على أن مدام دودتو لم تشجع المزيد من اللقاءات بروسو. وأعاد لها الخطابات التي كتبتها بناء على طلبها، ولكن حين طلب خطابه إليها قالت إنها أحرقتها. يقول "جرؤت على الشك في زعمها هذا... وما زلت أشك. فلم تلق في النار قط خطابات كخطاباتي. لقد رأى الناس أن خطابات هلويز (لأبيلاز) حارة! فيا للسماء!، فماذا كانوا يقولون في خطاباتي هذه؟" (31) وانكفاً إلى عالمه الخيالي مجروحاً شاعراً بالخزي، واستأنف كتابه "هلويز الجديدة"، وسكب فيه عواطف رسائله المشوبة لمدام دودتو.

على أن صنوفاً جديدة من الدل كانت في انتظاره حين عاد جريو من الحرب (سبتمبر 1757) "لم أكد أتبين فيه جريم القديم" الذي كان فيما مضى "يعده شرفاً له أن ألقى عليه نظرة" (32) ولم يستطع رسو أن يفهم العالة في فتور جريو، ولم يعرف أن جريم عرف بأمر الخطاب المهين الذي أرسله إلى مدام ديبينيه. وكان جريم يقرب من جان-جاك أنانية، ولكنه فيما عدا ذلك نقيضه عقلاً وخلقاً فهو شكاك، واقعي، فظ، قاس (33). وهكذا فقد رسو صديقين بخطاب واحد.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الرومانسي -> لغظ كبير

3- لغظ كبير

وحدثت أزمة جديدة حين قررت مدام ديبينيه في أكتوبر 1757 أن تزور جنيف. وإليك قصة روسو: كتبت إليّ تقول "يا صديقي، سأقوم فوراً بالرحلة إلى جنيف، لأن صدري ساءت حالته، وصحتي اعتلت كثيراً، بحيث يتعين عليّ أن أذهب لاستشارة ترونشان". وزادت دهشتي لهذا القرار الذي اتخذ هكذا فجأة، وفي بداية أسوأ طقس في السنة... وسألتها من سيصحبها، فأجابت بأنه ابنها ومعلمه مسيو دليفان، ثم أردفت بغير اكتراث "وأنت يا عزيزي، ألا تذهب أنت أيضاً؟" ولم يخطر لي أنها جادة فيما تقول، لأنني في هذا الفصل مننت لا أكاد أقوى على المضي إلى حجرتي (أي السفر بين لاشفريت والإيرميتاج) فقد رحلت أمزح حول الفائدة التي يسديها مريض لآخر. ولم تكن هي ذاتها، فيما بدا لي، جادة في اقتراحها، وإلى هنا انتهى الأمر" (34).

وكان له مبررات وجيهة للزهد في مصاحبة المداد، فقد حالت دون ذلك آلامه وأوصابه، ثم كيف يستطيع أن يترك تريبز؟ أضف إلى ذلك أن الشائعات أرجفت بأن مضيقته حبل، من جريم على الأرجح، وصدق روسو القصة حيناً وهنا نفسه على النجاة من موقف مثير للسخرية. ولكن المرأة المسكينة كانت صادقة، فهي تعاني من السل، ويبدو أنها كانت مخلصه في رغبتها في أن يرافقها روسو، ولم لا يبهجه أن يعود، على نفقتها، لزيارة المدينة التي كان يفخر كثيراً بأنه مواطن فيها؟ وكتب ديبرو، العالم بشعورها، إلى روسو يناشده أن يأخذ طلبها مأخذ الجد ويستجيب له، ولو لما في ذلك من بعض الرد على إحساناتها. وأجاب روسو بأسلوبه المعهود:

"أحس أن الرأي الذي تراه مصدره غيرك. وفضلاً عن عدم ميلي لأن أدع نفسي أساق على غير إرادتي تحت ستار اسمك من شخص ثالث أو رابع، فإنني ألاحظ في هذه النصيحة الثانوية نزاعاً من الغدر لا يتفق وصراحتك، ويحسن بك أن تكف عنه مستقبلاً لأجلك ولأجلي" (35).

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الرومانسي -> لغظ كبير

وفي أكتوبر أخذ خطاب ديبرو وجابه عليه إلى لاشفريت وقرأهما "بصوت عالٍ واضح" على جريم ومام ديبينيه. وفي الخامس والعشرين من الشهر رحلت قاصدة باريس. وذهب روسو ليودعها وداعاً محرراً، يقول "ولحسن الحظ قامت في الصباح، وبقي لي من الوقت متسع للذهاب والغداء مع أخت زوجها" في أوبون. (36) وفي التاسع والعشرين (كما جاء في مذكرات مدام ديبينيه) كتب إلى جريم.

"قل لي يا جريم لم يعلن جميع أصدقائي أن من واجبي أن أصحب مدام ديبينيه؟ أمخطئ أنا، أم أنهم كلهم مسحورون؟... إن مدام ديبينيه مسافرة في مركبة أجرة لطيفة، ويصحبها زوجها، ومعلن ولدها، وخمسة خدم أو

ستة... فهل أحتمل أنا السفر في مركبة أجرة؟ وهل أطمع في القيام برحلة طويلة كهذه وبهذه السرعة الكبيرة دون أن يقع لي حادث؟ وهل عليّ أن أطلب وقوفها في كل لحظة لأنزل، أم عليّ أن أعجل بعداباتي وساعاتي الأخيرة باضطراري إلى فرض القيود على نفسي؟ (يلوح) أن أصدقائي المخلصين... مصممون على إرهابي حتى الموت" (37).

وفي 30 أكتوبر غادرت مدام دينيه باريس قاصدة جنيف، وفي 5 نوفمبر (في رواية المذكرات) رد جريم على روسو: "لقد بذلت ما وسعني من جهد لتجنب الرد القاطع على الدفاع الرهيب الذي وجهته إلي. وأنت تلح عليّ في أن أرد... إنه لم يدر بخلدي قط أنه كان من واجبك أن تصحب مدام دينيه إلى جنيف. وحتى لو كان دافعك الأول هو أن تعرض عليها صحبتك لها، لكان من واجبها أن ترفض عرضك، وأن تذكرك بما يجب عليك نحو مركزك، وصحتك، والمرأتين اللتين جررتهما إلى معتكفك؛ هذا رأيي... وأنت تجسر على أن تحدثني بعبوديتك، أنا الذي كنت طوال أكثر من عامين الشاهد اليومي على كل دلائل الصداقة البالغة الحنان والكرم، التي منحتها إياك هذه المرأة، ولو استطعت أن أصفح عنك لرأيتني غير جدير بصداقة إنسان. أنني لا أريد أن أراك ما حييت، وسأحسب نفسي

صفحة رقم : 13078

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الرومانسي -> لغط كبير

سعيداً إن استطعت أن أطرد من عقلي ذكرى سلوكك. سأطلب إليك أن تتساني وأنت تكف عن إزعاجي" (38). ومن جنيف كتبت مدام دينيه إلى جريم: "لقد تلقيت شكر الجمهورية على الطريقة التي عاملت بها روسو واستقبلت وفداً من صانعي الساعات للغرض ذاته... إن القوم هنا ينظرون إليّ نظرة الإجلال من أجله" (39). ونبهها تونشان إلى ضرورة بقائها عاماً تحت رعايته الطبية. وكانت تختلف مراراً إلى بيتي فولتير في جنيف ولوزان. وبعد حين لحق بها جريم، وقضيا معاً ثمانية أشهر في عيشة سعيدة.

وفي 23 نوفمبر 1757 كتب إليها روسو (كما يروي) يقول: إن كان ممكناً للإنسان أن يموت حزناً لما كنت الآن على قيد الحياة... إن الصداقة قد انطفت بيننا يا سيدتي، ولكن ذلك الذي مضى وانقضى ما زالت له حقوقه، وأنا أحترمها. فأنا لم أنسَ كرمك معي، ولك أن تنتظري مني ما يمكن من عرفان بالجميل لشخص لا أستطيع أن أحبه بعد...

"أردت أن أغادر الإبرميتاج. وكان ينبغي لي أن أفعل، ويزعم أصدقائي أنه لا بد من بقائي هناك إلى الربيع، وما دام أصدقائي يريدون هذا فسأبقى هناك إن وافقت" (40). وفي أوائل ديسمبر جاء دييرو لزيارة روسو، فوجده ساخطاً باكياً لما حل به من "استبداد" أصدقائه. وقد وردت رواية دييرو لهذه الزيارة في خطابه المؤرخ 5 ديسمبر إلى جريم: "إن الرجل مسعور Forcen ... لقد زرتة، ولمته على شناعة سلوكه بكل القوة التي منحنتني إياها الصراحة والأمانة. وقد دافع عن نفسه في ثورة

صفحة رقم : 13079

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الرومانسي -> لفظ كبير

غضب أجزنتتي... إن هذا الرجل يقف حائلاً بيني وبين عملي، ويربك عقلي؛ وكأني بجواري أحد المحكوم عليهم بالهلاك الأبدي... أي منظر هذا منظر رجل شرير ضار! لا تدعني أراه ثاني، فهو يحملني على الإيمان بالشیطان والجحيم" (41).

وتلقى روسو رداً من مدام ديبينيه في 10 ديسمبر. والظاهر أن جريم كان قد نقل إليها ملاحظات روسو عن "عبوديته" في الإيرميتاج، لأنها كتبت إليه بمرارة غير معهودة فيها:

"كل ما يسعني عمله الآن أن أرثي لك، بعد أن بذلت لك طوال سنوات عديدة كل أمارات الصداقة الممكنة. فأنت شقي جداً..."

"وما دمت مصمماً على مغادر الإيرميتاج، ومقتنعاً بأنه ينبغي لك أن تفعل، فإنه يدهشني أن يقنعك أصدقاؤك بعد إلحاح بالبقاء فيه. أما أنا فلا أستشير أصدقائي أبداً في أمر واجي، وليس عندي ما أزيد في أمر واجبك" (42).

وفي 15 ديسمبر، ورغم حلول الشتاء، غادر روسو الإيرميتاج ومعه تريز وكل متعلقاتها. أما أمها فقد أرسلها لتعيش في باريس مع بناتها الأخريات ولكنه وعد بأن يسهم في نفقاتها. وانتقل إلى كوخ في مونمورنس أجره له وكيل للوي-فرانسو ديوريون، أمير كونتي. هناك، وقد ولى ظهره لأصدقائه السابقين، أنتج في خمس سنوات ثلاثة من أعظم كتب القرن تأثيراً.

صفحة رقم : 13080

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الرومانسي -> خصامة مع جماعة الفلاسفة

4- خصامه مع جماعة الفلاسفة

كان مسكنه الجديد يقع فيما سماه "حديقة مون-لوي" وهو "حجرة واحدة" أمامها مرجة، وفي طرف الحديقة حصن قديم فيه "طاقة خالصة على الهواء". وكان عليه أن يستقبل زواره حين يجيئون "وسط أطباقي القذرة وقدوري المحطمة" ويرتعد مخافة أن ينخسف "أرض الحجرة التي تهدمت" تحت أقدام ضيوفه. ولم يكثر لفقره، فقد كان يكسب ما يكفيه

صفحة رقم : 13081

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الرومانسي -> خصامة مع جماعة الفلاسفة

بنسخ الموسيقى، أعتبط بكونه حرفياً كفنأ (43)، وبأنه لم يعد تابعاً لامرأة غنية. وكان يرد هدايا جيرانه اللطفاء حين يرسلونها إليه، فقد أحس أن من الذل أن يأخذ المرء أكثر مما يعطي. وأرسل له الأمير دكنوتي الدجاج مرتين، فأخبر الكونتيسة دبوليه أنه سيرد الهدية الثالثة إن جاءت.

ونلاحظ عرضاً كثرة الأرستقراطيين الذين ساعدوا ثورا التنوير. لا لموافقته على آرائهم بقدر تعاطفهم الكريم مع العبقريّة المحتاجة. لقد كان في نبلاء النظام القديم الكثير من عناصر النبل، وقد خصت الأرستقراطية روسو بصدقتها رغم تنديده بها. وكان الحرفي المعتز بنفسه ينسى نفسه أحياناً ويفخر بأصدقائه حملة الألقاب، قال في معرض حديثه عن مرجته:

"كانت تلك الشرفة قاعة الجلوس التي استقبلت فيها مسيو ومدام لكسمبورج، والدوق ديغيلروا، وأمير تنجري، ومركزير أمرنتيير، ودوقة مونمورنسي، ودوقة بوفليه، والكونتيسة دفالنتنوا، والكونتيسة دبوليه، وغيرهم من نفس الرتبة... الذين تنازلوا بأن يحجوا إلى مون-لوي" (44).

وكان منزل المرشال والمرشالة دللكسمبورج غير بعيد من كوخ روسو. وما لبثا عقب وصوله أن دعواه إلى العشاء فرفض الدعوة. ثم كرراها في صيف 1758 فرفضها ثانية. ثم أتيا حوالي عيد القيامة في 1759 ومعهما ستة من أصدقائهم النبلاء يتحدونه في معكفه. وراعه الأمر فقد اكتسبت المرشالة يوم كانت الدوقة دبوليه سمعة بأنها فتنت عدداً هائلاً من الرجال. ولكنها خلفت خطاياها وراءها وغدت في نضجها امرأة فيها فتنة الأمومة لا مجرد فتنة الجنس؛ وسرعان ما أذابت تحفظه الخجول وهمزته ليشارك في حديث حي. وتساءل الزوار لم يعيش رجل أوتي هذه المواهب في هذا الضنك. ودعا المرشال روسو وتريز ليذهبا ويعيشا معه حتى يمكن إصلاح كوخهما؛ ولكن

صفحة رقم : 13082

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الرومانسي -> خصامة مع جماعة الفلاسفة

جان-جاك ظل على مقاومته؛ وأخيراً اقتنع هو وتريز بأن يسكنا حيناً "القصر الريفي الصغير" الواقع في ضيعة لكسمبورج. فانتقلا إليه في مايو 1756. وكان روسو أحياناً يزور لكسمبورج وزوجته في بيتهما الفخم، هناك كان يغرى بسهولة بأن يقرأ عليهما وعلى ضيوفهما بعض فصول الرواية التي كان يكملها. وبعد بضعة أسابيع عاد هو تريز إلى كوخهما ولكنه واصل زيارته لآل لكسمبورج، وظلا هما على وفائهما له طوال تقلبات مزاجه. وشكا جريم من أن روسو "هجر أصدقائه القدامى واستبدل بنا قوماً من أعلى الطبقات" (45) ولكن جريم هو الذي نبذ روسو، وفي خطاب كتبه جان-جاك إلى مالزيرب في 28 يناير 1762 رد على من اتهموه بالتنديد بالنبلاء، وبالتودد إليهم: "سيدي، إنني أكره كرهاً شديداً تلك الطبقات الاجتماعية التي تتسلط على غيرها... ولا يضايقني أن أعترف لك بهذا وأنت لسلس أسرة مشهورة بعراقتها... إنني أبغض العظماء، أبغض وضعهم، وقسوتها، وأهواءهم... وردائلهم... بمثل هذا المزاج ذهبت كإنسان يجر جراً إلى قصر (آل لكسمبورج) الريفي في مونمورنسي. ثم رأيت سادته؛ وقد أحبوني، وأحبتهم يا سيدي، وسأظل أحبهم ما حييت... وإنني لأبذل لهم، لا أقول حياتي فتلك عطية هزيلة.. بل الفخر الوحيد الذي مس قلبي -وهو ذلك التشريف الذي أتوقعه من الخلف، والذي سيمنحني ما في ذلك شك، لأنه حقي، ولأن الخلف منصفون دائماً".

وكان يود أن يحتفظ بصديقة سابقة-هي مدام دودتو، ولكن سان-لامبير لامها على الشائعات التي ربطت فيها باريس اسمها باسم روسو، فأخبرت روسو بأن يكف عن الكتابة لها. وتذكر أنه أعترف لديدرو بحبه لها، فخلص الآن إلى أن ديدرو هو الذي ثرثر به في الصالونات و "عقدت النية على مقاطعته إلى الأبد"(46). ولكنه أختار أسوأ اللحظات والوسائل ففي 27 يوليو 1758 كان هلفتيوس قد نشر في كتابه "في العقل" هجوماً عنيفاً على الكهنوت الكاثوليكي. وأفضت

صفحة رقم : 13083

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الرومانسي -> خصامة مع جماعة الفلاسفة

الضجة المترتبة على هذا الهجوم إلى المطالبة المتصاعدة بخطر "الموسوعة" (التي كان قد صدر منها سبعة مجلدات) وكل الكتابات التي تنتقد الكنيسة أو الدولة. وكان المجلد السابع يتضمن مقال دالامبير المتهور عن جنيف، الذي امتدح فيه القساوسة الكلفنيين على عقيدة التوحيد التي يتكتمونها وناشد السلطات الجنيقية أن تسمح بإقامة مسرح. وفي أكتوبر 1758 نشر روسو "خطاباً إلى مسيو دالامبير عن المسرح" وكان على اعتدال لهجته إشهار حرب على عصر العقل، وعلى زندقة فرنسة منتصف القرن الثامن عشر وفساد خلقها، وقد بذل روسو في مقدمتها قصارى جهده في التبرؤ من ديدرو، دون أن يذكر اسمه صراحة: "كان من بين أصحابي أرسنارخوس" رجل صارم، عادل ولكنه لم يعد صاحباً لي ولست أريد مزيداً من صحبته، على أنني لن عن الأسف عليه وأن قلبي ليفتقده أكثر من كتاباتي، وأضاف في هامش معتقداً أن ديدرو قد أفشى سره لسان-لامبير:

"إن كنت قد امتشقت حساماً على صديق فلا تياس لأن هناك سبيلاً لرد الحسام إليه وإن كنت قد أشقيته بكلامك فلا تخف لأن في الإمكان مصالحته. أما الإهانة واللوم المؤذي وإفشاء السر وجرح قلبه بالخيانة فهذه كلها تسخطه عليك وهو تاركك إلى غير عودة(47)".

أما الخطاب الذي تبلغ صفحاته في الترجمة 135 فكان بعضه دفاعاً عن الدين كما يبشر به علانية في جنيف. كان روسو نفسه موحداً-أي رافضاً للاهوت المسيح كما سيدل على ذلك كتاب "إميل" بعد قليل، ولكنه حين تقدم طالباً المواطنة الجنيقية كان قد أقر بالعقيدة الكلفنية الكاملة، وفي هذا الخطاب دافع عن الدين القديم، وعن الإيمان بالوحي الإلهي، باعتبارهما أمرين لا غنى عنهما لأخلاق الشعب. "أن ما يمكن إثباته لأغلبية الناس بالعقل ليس إلا الحساب، إن ما يمكن إثباته لأغلبية الناس بالعقل ليس الحساب النفعي للمصلحة الشخصية" ومن ثم كان مجرد الدين الطبيعي سيهبط بالأخلاق إلى مستوى لا يزيد على تجنب اكتشاف الذنوب.

صفحة رقم : 13084

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الرومانسي -> خصامة مع جماعة الفلاسفة

ولكن اللاهوت كان مثاراً صغيراً للجدل في حجة روسو، أما همجيته الأمامية فكانت على اقتراح دلامبير بأن يصرح بإقامة مسرح في جنيف. هنا لم يكن العدو الخفي هو دالامبير، بل فولتير. فولتير الذي حجب سناء شهريته نزياً بجنيف، فخر روسو بمواطنته الجنيقية، حجياً أثار حنقه، فولتير الذي جرؤ على تقديم التمثيليات في جنيف أو قربها، والذي حث لامبير بلا شك على أن يضمن مقالاً في الموسوعة نداء بإنشاء مسرح جنيفي. فماذا؟ أتدخل في مدينة اشتهرت بأخلاقها البيورانية ضرباً من اللهو. كان في كل مكان تقريباً يمجّد الفساد الخلقي؟ أن الدرامات المحزنة تصور جريمة دائماً، وهي لا تظهر العواطف ما ظن أرسطو، بل تلهبها، ولاسيما عواطف الجنس والعنف. وأما التمثيليات الهزلية فنادرأ ما تعرض الحب الزوجي النقي، وكثيراً ما تهزأ بالفضيلة، كما فعل حتى موللي في مسرحيته "مبغض البشر". وكل الناس عليهم بأن الممثلين يحيون حياة العريضة والفساد، وأن معظم ممثلات المسرح الفرنسي الفاتتات هن مضرب الأمثال في فوضى الجنس، وبؤر ومصادر الفساد في مجتمع يعبدن. وربما كانت شرور المسرح هذه في المدن الكبيرة مثل باريس ولندن لا تؤثر إلا في شطر صغير من السكان، أما في مدينة صغيرة كجنيف (لا يسكنها أكثر من 14.000 نسمة) فإن سموها تتغلغل في جميع الطبقات، وتثير العروض أفكاراً مولعة بالجديد وحرباً بين الأحزاب(48).

وإلى هنا كان روسو يردد الرأي البيورتاني أو الكلفني في المسرح، ويقول في فرنسا عام 1758 ما قاله من قبل ستيفن جوسون في إنجلترا عام 1579، ووليم برين عام 1632، وجريمي كوليار عام 1698. ولكن روسو لم يقتصر على التنديد. فهو لم يكن بيورانياً؛ ومن ثم دعا إلى الرقص والمراقص تحت رعاية الدولة وإشرافها. وقال إنه ينبغي أن توفر أسباب الترفيه العامة ولكن من نوع اجتماعي وصحي، كالرحلات الخلوية، والألعاب في الهواء الطلق، والمهرجانات، والاستعراضات (هنا أضاف روسو وصفاً نابضاً بالحياة لسباق زوارق على بحيرة جنيف)(49). ويقول لنا روسو أن الخطاب "أصاب نجاحاً كبيراً" فقد بدأت باريس

صفحة رقم : 13085

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الرومانسي -> خصامة مع جماعة الفلاسفة

تمل حياة الفساد؛ ولم يعد هناك لذة في الانحرافات الخارجية على العرف التي أصبحت هي ذاتها عرفاً. فلقد أتخمت المدينة برجال يسلكون مسلك النساء، ونساء يتحرقن شوقاً إلى أن يكن كالرجال. لقد شبعنا من الدراما الكلاسيكية وأشكالها الطنانة المتكلفة ورأت حجارة قواد مدام دبومبادور وجنودها أما جند فرديريك الإيسارطيين. وكان الاستماع إلى فيلسوف يمجّد الفضيلة تجربة منعشة وسيزداد تأثير "الخطاب" الأخلاقي حتى يشارك هو وكتابات روسو الأخرى في إحداث عودة للبقاة تكاد تكون ثورية في عهد لويس السادس عشر. ولم يكن في وسع الفلاسفة أن يتوقعوا هذا. فالذي أحسوا به في إعلان روسو هو أنه عمل من أعمال الخيانة، لأنه هاجمهم في لحظة خطرهم الأكبر. ففي يناير 1759 حظرت الحكومة نهائياً نشر الموسوعة أو بيعها. وحين ندد روسو بأخلاق باريس رماه أخصائه القدامى بالنفاق. وقد تذكروا مطارده لمدام دودتو، وحين ندد بالمسرح نوها بأنه كتب "كان القرية" و "نارسييس" للمسرح، وأنه كان يختلف إلى المسرح. ورفض سان-لامبير برسالة جافية (10 أكتوبر 1768) نسخة "الخطاب" التي أرسلها إليه روسو: "لا أستطيع قبول هديتك، ولعل لك عذراً. على غير ما أعلم في الشكوى من ديبرو، ولكن هذا لا يعطيك حق إهانته علناً. فأنت لا تجهل طبيعة الاضطهاد التي يعانها... ولست أملك يا سيدي إلى أن أقول لك إن هذا العمل الشائن الذي افرقته صدمني كثيراً... كلانا يختلف في مبادئنا اختلافاً أشد من أن يتيح لنا أن ننسجم. فانسأ أنني موجود... وأني أعدك بأن أنسى شخصك، ولا أذكر عنك شيئاً إلا مواهبك"(50). على أن مدام ديبينيه حين عادت من جنيف شكرت روسو على النسخة التي بعث بها إليها، ودعته للعشاء فذهب، والتقى بسان-لامبير ومام دودتو آخر لقاء.

ووافاه من جنيف أكثر من عشرة خطابات ثناء. وحظر قضاة جنيف على فولتير عرض أي مسرحيات على أرض جنيف بعد أن شجعهم موقف روسو. ونقل فولتير مواهبه المسرحية إلى تورنيه. وانتقل هو إلى فرنيه. وأحس

صفحة رقم : 13086

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الرومانسي -> خصامة مع جماعة الفلاسفة

بوجع الهزيمة، فاتهم روسو بأنه هارب مارق، وأسف على تردي قطيع "الفلاسفة" الصغير إلى هوة صراع يفنون فيه أنفسهم. وكتب يقول "إن جان-جاك السيئ السمعة هو يهوذا الجماعة" (51) ورد روسو بخطاب (29 يناير 1760) إلى الراعي الجنيفي بول مولتو:
"أتحدثني عن ذلك الرجل فولتير؛ لم يلوث اسم ذلك المهرج رسائلك؟ لقد دمر ذلك التعس وطني (جنيف). ولو كان احتقاري له أقل لكرهته أكثر. وأنا لا أرى في مواهبه العظيمة إلا شيئاً مخزياً يضاف إلى خزيه، ويحط من قدره بسبب الطريقة التي يسخر بها... إيه أيها المواطنون الجنيفيون، إنه يكلفكم غالباً جزءاً إيوانكم له!" (52).
وأحزن روسو أن يعلم أن فولتير يخرج التمثيليات في تورنيه، وأن كثيراً من المواطنين الجنيفيين يعبرون الحدود إلى فرنسا ليشهدوا هذه الحفلات-لا بل ليشارك بعضهم فيها. ووجد استيأؤه مبرراً آخر للحرب حين طبع خطابه الذي أرسله إلى فولتير عن زلزال لشبونة في مجلة برلين (1760)، لأن فولتير فيما يبدو أعار المخطوطة في غير مبالاة لأحد الأصدقاء. فأرسل روسو الآن (17 يونيو) إلى فولتير خطاباً من أعجب الخطابات في رسائل هذا العصر الصاحب. قال بعد أن لام فولتير على نشر الخطاب دون إذنه:
"إنني لا أحبك يا سيدي. فلقد أذيتني أن تلميزك المتحمس لك أبلغ الأذى. لقد دمرت جنيف جزءاً على الملجأ الذي قدمت لك. ولقد نفرت مواطني من جراء المديح الذي مدحك به بينهم. وأنت الذي تجعل مقامي في وطني شيئاً لا أطيقه، أنت الذي ستضطرني للموت على أرض غريبة، محروماً من كل تعزيات المحتضرين، ملقي على كوم من أكوام المهملات في ازدراء، بينما يحيط بك كل ما يستطيع إنسان أن يطعم فيه من أسباب التكريم في وطني. فأنا باختصار أكرهك، لأنك هكذا شئت، ولكن أكرهك بمشاعر إنسان ما زال في وسعه أن يحبك لو كنت قد رغبت في حبي. ولم يبق من جميع المشاعر التي امتلأ بها قلبي نحوك سوى الإعجاب بعبقريتك الرائعة، وحب

صفحة رقم : 13087

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الرومانسي -> خصامة مع جماعة الفلاسفة

كتاباتك. وإذا كنت لا أكرم فيك غير مواهبك فليس الذنب ذنبي. ولن يوجد قصور أو نقص أبداً في الاحترام الواجب لها، ولا في المسلك الذي يقتضيه ذلك الاحترام" (53).

ولم يجب فولتير، ولكنه كان يدعو روسو سراً "المشعوذ" و "المجنون" (54) و "النسانس الصغيرة" وقد كشف فر سائله لدامبير عن نفس لا تقل حساسية وتأججاً عن نفس جان-جاك:
"وتلقيت رسالة طويلة من روسو. لقد جن جنوناً مطبقاً...فهو يهاجم المسرح بعد أن كتب هو نفسه تمثيلية هزيلة رديئة؛ هو يهاجم فرنسا التي تطعمه؛ وهو يجد خمسة أضلاع متعفنة أو ستة من برميل ديوجين ويتسلقها لينبحنا؛ وهو يتخلى عن أصدقائه. ويكتب إلى-إلى!-أشد ما سود به متعصب الصحائف إهانة...ولولا أنه قزم حقير لا أهمية له، انتفخت أوداجه غروراً، لما كان في الأمر أذى يذكر؛ ولكنه أضاف إلى وقاحة خطابه وعار التآمر مع منتطعي السوسنيين هنا للحيلولة بيني وبين إقامة مسرح لي في تورنيه، أو على الأقل لمنع المواطنين من التمثيل فيه معي. وإذا كان قصده من هذه الحيلة الوضيعة أن يعد لنفسه عودة ظافرة إلى الأزقة الحقيمة التي نشأ فيها، فذلك فعل وغد، ولن أصفح عنه ما حبيبت. ولو أن أفلاطون لعب على لعبة من هذا النوع لانتمت منه، فما بالك بتابع خانع لديوجين. إن مؤلف "الويزا الجديدة" ليس إلا وغداً شريراً" (55).
في هذين الخطابين اللذين كتبهما أشهر كاتبين في القرن الثامن عشر نستشف من وراء تيارات العصر التي يحسبها الناس غير شخصية، الأعصاب التي اشتد إحساسها بكل لكمة في الصراع، والغرور البشري المشترك الذي تضطرب به أفئدة الفلاسفة والقديسين.

صفحة رقم : 13088

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الرومانسي -> هلويز الجديدة

5- هلويز الجديدة

إن الكتاب الذي أخطأ فولتير في تسميته كان طوال ثلاث سنين ملاذاً لروسو من أعدائه، وأصدقائه، والعالم. بدأه عام 1756 وفرغ منه في

صفحة رقم : 13089

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الرومانسي -> هلويز الجديدة

سبتمبر 1758، وأرسله إلى ناشر في هولندا، وظهر في فبراير 1761 باسم "جولي أو هلويز الجديدة، رسائل عاشقين جمعها ونشرها ج.ج. روسو". وصياغة الرواية في شكل رسائل كانت عادة قديمة، ولكن لعل الذي دعا روسو إلى التصميم عليها هو محاكاته رواية رنشاردن "كلاريسا".

والقصة بعيد الاحتمال ولكنها نسيج وحدها. فجولي هي ابنة بارون ديتانج، وهي في السابعة عشرة أو نحوها. وتدعو أمها الشاب الوسيم سام-برو ليكون معلمها الخاص. ويقع أبلار الجديد هذا في غرام هلويز الجديدة، كما كان يمكن أن تتوقعه أي أم في دنيا الواقع. ولا يلبث أن يرسل إلى تلميذته رسائل حب حددت اللحن لقرن من القصص الرومانسي: "إني لأرتعد كلما تصافحت أيدينا، ولا أدري كيف يحدث هذا، ولكنها تتصافح دوماً. وإني أجفل حالما أحس لمسة إصبعك، وتأخذني حمى أو قولي حمى مصحوبة بهذيان بهذه المتع؛ وتتخلى عني حواسي شيئاً فشيئاً، فإذا خرجت هكذا عن طوري فماذا أستطيع أن أقول، أو أفعل، وأين أختبئ، وكيف أكون مسئولاً عن سلوكي؟" (56) ثم يقترح أن يرحل ولكنه يكتبني بالكلام دون الفعل:

"وداعاً إذن يا جولي المفرطة الفتنة... غداً سأكون رحلت إلى الأبد. ولكن تقي أن غرامي العنيف الطاهر بكلي لن ينتهي إلا بانتهاء حياتي، وأن قلبي المفعم بهذا المخلوق الملائكي، لن يهبط بنفسه إلى إفساح مكان فيه لحب ثان، وأنه سيوزع كل ولاته المستقبل بينك وبين العفة، وأنه لن يدنس لهيب آخر المذبح الذي عبدت عليه جولي (57). وقد تبتسم جولي لهذا التعبد، ولكن فيها من الأنوثة ما يمنعها من إقصاء مثل هذا الكائن المبهج عن المذبح. فتطلب إليه أن يؤجل قراره. فالاتصال الكهربائي بين الذكر والأنثى قد أحدث بها على أي حال اضطراباً مماثلاً، وسرعان ما تعترف بأنها هي أيضاً قد أحست باللدغة الغامضة: "منذ أول يوم التقينا فيه تشربت السم الذي يسري الآن في حواسي

صفحة رقم : 13090

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الرومانسي -> هلويز الجديدة

وعقلي، شعرت به فوراً وعيناك، وعواطفك، وحديثك، وقلمك المذنب كلها تزيد كل يوم أذاه (58)". ومع ذلك يتعهد بالألا يطلب مطلباً أشد إثمًا من قبلة "كوني عفيفة وإلا احتقرت، وسأكون جديراً بالاحترام وإلا عدت كما كنت، ذلك هو الأمل الوحيد الباقي لي، والذي يفضل الأمل في الموت". ويوافق سان-برو على أن يجمع بين الهذيان والعفة، ولكنه يعتقد أن هذا يتطلب معونة خارقة من السماء.

"أيتها القرى السماوية... انفخي فيّ روحاً تطيق السعادة العظمى! أيها الحب الإلهي! يا روح وجودي، آواه، أسندي لأنني أوشكت على السقوط تحت وطأة الوجد!... آواه كيف احتمل سيل السعادة المتدفق الذي يفيض به قلبي؟ كيف أطرده هو اجس عاشقة خانقة؟ (59). وهكذا طوال 657 صفحة. فإذا بلغنا صفحة 91 قبلته. والكلمات تقصر عن وصف "حالي بعد ذلك بلحظة، حين شعرت- إذ ارتعشت يداي- برعدة رقيقة-وشفتاي المعطرتان-شفتا جولي حبيبتني-تضغطان شفتي، وأنا بين ذراعيها! وبأسرع من البرق انطلقت من كياني نار مباحثة (60). فإذا وصلنا الرسالة التاسعة والعشرين وجدنا أنه أعواها، أو أنها أغوته. ويهيم هو في عوالم من النشوة، ولكنها تحسب كل شيء قد ضاع. "إن لحظة غفلة واحدة قد أسلمتني إلى تعاسة أبدية. لقد سقطت في وهدة العار التي لا مخرج منها" (61). وتموت أم جولي كمدأ حين تعلم بأن بكارتها فضت. ويقسم البارون أن يقتل سان-برو، فيخرج هذا في رحلة بحرية حول الأرض. وتتزوج جولي فولمار، وهو روسي كريم المولد. متقدم السن، تكفيراً عن ذنبيها وطاعة لأبيها، ولكنها تظل ترأسل سان-برو خفية، وتشعر نحوه بعاطفة أقوى من حبها الواجب عليها لزوجها. ويدهشها أن تجد فولمار إنساناً طيباً، وفيها حريصاً على راحتها، منصفاً كريماً

صفحة رقم : 13091

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الرومانسي -> هلويز الجديدة

مع الجميع، وذلك رغم إحداه. وفي رسالة كتبها لسان-برو تؤكد له أن الرجل والمرأة قد يجدان الرضى في "زواج المصلحة" ولكنها لن تعرف السعادة الكاملة أبداً. فانحرفها قبل زواجها يتقل ذاكرتها وأخيراً تعترف لزوجها بلحظة الإثم تلك. ويقول أنه علم بها، وصمم على ألا يذكرها أبداً. ويخبرها أنه لم يكن إثمًا قط. وتأكيداً لغفرانه لها يدعو سان-بور للحضور والإقامة مع الأسرة معلماً خاصاً لطفلهما، ويحضر سان-بو؛ ويؤكد لنا المؤلف أن الثلاثة يعيشون معاً في وفاق حتى يفرق بينهم الموت. ويغيب الزوج العجيب أياماً. وتخرج جولي وسان-برو للتجديف في بحيرة جنيف، ويعبران إلى سافوي، ويربها الصخور التي كتب عليها اسمها في منفاه، ويبيكي؛ وتمسك بيده المرتعشة، ولكنهم يعودان بريئين من الإثم في كلارنس في إقليم فو (62).

ويعجبان كيف يمكن لفولمار أن يكون بهذه الطبيعة دون إيمان ديني. ويفسر سان-برو هذه الظاهرة الشاذة، وهو كجولي بروتستنتي متمسك بدينه:

"إن فولمار الذي أقام في أقطار كاثوليكية رومانسية لم يغيره ما خبره من إيمان أهلها. بأن يرى في المسيحية رأياً أفضل. فقد رأى أن مذهبه لا يتجه إلى لمصلحة كهنتهم، وهو يتألف بجملته من حركات مثيرة للسخرية وورطانة بالفاظ لا معنى لها. ولاحظ أن ذوي الفطرة السليمة والأمانة مجمعون على رأيه، وأنهم لا يخرجون من الجهر برأيهم، لا بل أن القساوسة أنفسهم في الخفاء كانوا يهزؤون سراً بما يعلمون ويثبتون في الأذهان علانية، ومن ثم فكثيراً ما أكد لنا أنه بعد أن أنفق كثيراً من الوقت والجهد في البحث، لم يلتق قط بأكثر من ثلاث قساوسة يؤمنون بالله (63)". ويضيف روسو في حاشية، معاذ الله أن أوافق على هذه التأكيدات القاسية الطائشة! ومع ذلك يذهب فولمار بانتظام إلى

صفحة رقم : 13092

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الرومانسي -> هلويز الجديدة

الخدمات الدينية البروتستنتية مع جولي، بدافع من احترامه لها ولجيرانه. وترى جولي وسان-برو فيه "أغرب اللامعقول-إنساناً يفكر تفكير ملحد ويسلك مسلك مسيحي (64)".

وهو لا يستحق اللطمة الأخيرة، ذلك أن جولي تعهدت إلى فولمار وهي على وشك الموت بحمي أصابتها وهي تتقذ ابنها من الغرق بخطاب غير مختوم يعلن لسان-برو أنه كان على الدوام حباها الوحيد. وفي وسعنا أن نفهم دوام ذلك الحب الأول ولكن لن نجزي طول وفاء زوجها وثقته بها بمثل هذا الرفض القاسي وهي على فرش الموت؟ أن هذا لا يكاد يتفق والنبيل الذي أضفاه المؤلف على خلق جولي.

ومع ذلك فهي من أعظم اللوحات في القصص الحديث. وقد استلهمها روسو من محي ذكرياته الخاصة رغم أن (كلاريسا) وتشاردسن أوحى بها في أغلب الظن، الفتاتان اللتان قادا جواديهما عبر النهر في أنسي، والذكريات التي احتفظ بها في إعزاز لمدام دفران حين كانت تبسط عليه حمايتها في سنوات صباه، ثم لمدام دودتو، التي أشعرته بفيض الحب حين وقفت سداً أمام شهوته، وبالطبع ليست جولي واحدة من هاتين المرأتين، ولعلها ليست أي امرأة التقى بها روسو طيلة حياته، بل مثالا مخلقاً من أحلامه. وقد أفسد الصورة إصرار روسو على جعل شخصه كلها تقريباً تتكلم كروسو، فجولي تزريدها الأمومة عمقاً تغدو حكيمة من الحكماء، فتطيل الحديث في كل شيء من التدبير

المنزلي إلى الاتحاد الصوفي بالله. وهي تقول لابد أن نفحص صحة هذه الحجة، ولكن أي امرأة جديرة بالحب نزلت يوماً ما إلى مثل هذه التقاهة.
أما سان-برو فهو بالطبع أشبه الشخص بروسو، حساس لكل مفاتن النساء، تواق للركوع عند أقدامهن التي يحلم بها، ويسكب عبارات الولاء والحب البليغة التي ردها في وحدته. ويصفه روسو بأنه لا يفتأ

صفحة رقم : 13093

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الرومانسي -> هلويز الجديدة

يأتي عملاً مجنوناً ثم يحاول أن يثوب إلى رشده(65). وسان-برو إنسان متمزمت أشد التزمت بالقياس إلى لفليس الوغد السافر كما صورته وتشاردنسن. وهو الآخر لابد أن ينطق بلسان روسو، فهو يصف باريس بأنها دوامة من الشرور - غنى فاحش، وفقر مدقع، وحكومة عاجزة، وهواء فاسد، وموسيقى رديئة، وأحاديث تافهة، وفلسفة باطلة، وانتهيار كامل تقريباً للدين، والفضيلة، والزواج، وهو يردد مقال روسو الأول عن صلاح الإنسان الفطري وتأثيرات الحضارة المفسدة المحطة، ويهنئ جولي وفولمار على إثارهما حياة الريف الهادئة الصحية في كلارنس.
أما فولمار فأكثر الأشخاص أصالة في معرض روسو. فمن كان النموذج الذي حاكه المؤلف على غرار ه؛ لعله دولباخ، "الملحد اللطيف"، والبارون الفيلسوف، والمادي الفاضل، والزوج الوفي لزوجته واحد ومن بعدها لأختها. أو لعله سان-لامبير، الذي صدم روسو بتبشيريه بالإلحاد، ولكنه صفح عنه لمغازلته خليلته. ويعترف روسو صراحة باستخدامه النماذج الأصلية الحية والذكريات الشخصية:
"إن قلبي المفعم بما وقع لي، والذي لم يزل جياشاً بالكثير من الانفعالات العنيفة، أضاف الشعور بآلامه إلى الأفكار التي أوحى إلي بعها التأمل...وعلى غير وعي مني وصفت المواقف التي كنت فيها آنذ، ورسمت صوراً لجريم، ومدام ديبنيه، ومدام دودنو، وسان-لامبير، ولشخصي(66)".
وخلال لوحات الأشخاص هذه عرض روسو جوانب فلسفته كلها تقريباً. فأعطانا صورة مثالية للزواج السعيد، ولضبيعة تدار بكفاية، وعدالة، ورحمة؛ ولأطفال يبربون ليكونوا مزيجاً مثالياً من الحريو والطاعة، ومن ضبط النفس والذكاء. واستبق الحجج التي سيوردها في كتابه "إميل": أن يوجه التعليم أولاً لتربية البدن ليكون صحيحاً، ثم لتربية الخلق ليعود النظام الصارم، وبعد ذلك فقط لتربية الذهن ليعود الجدل العقلي. تقول جولي

صفحة رقم : 13094

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الرومانسي -> هلويز الجديدة

"إن السبيل الوحيد لجعل الأطفال طبعين ليس سبيل الجدل العقلي معهم، بل إقناعهم بأن الجدل العقلي فوق سنهم(67). وينبغي ألا نلجأ إطلاقاً للجدل العقلي، أو ألا يكون هناك أي تعليم عقلي، قبل سن البلوغ. وحرصت القصة حرصاً

شديداً على مناقشة الدين. فترى إيمان جولي يغدو الأداة لخلصها، وقد ألهمها الاحتفال الديني الذي قدس زواجها إحساساً بالتطهر والوفاء. ولكنه إيمان بروتستانتى خالص ذلك الذي يشبع في الكتاب. فسان-برو يسخر مما يبدو له من نفاق القساوسة الكاثوليك في باريس؛ ويندد فولمار بعزوبة الكهنة لأنها قناع يخفي وراءه الفجور، ويضيف روسو بشخصه هذه العبارة: "إن فرض العزوبة على جماعة كبيرة مثل قساوسة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ليس لمنعهم من أن يكون لهم زوجات، بقدر ما هو لأمرهم بأن يقتنعوا بزوجات غيرهم من الرجال(68)". ويصرح روسو بهذه المناسبة بتأييده للتسامح الديني، ويبسطه حتى على الملحد، "أن المؤمن الحقيقي لا يتعصب ولا يضطهد غيره. ولو كنت قاضياً؛ ولو قضى القانون بعقوبة الموت على الملحد؛ لبدأت بحرق كل مبلغ يشي بإنسان آخر، لأنه هو نفسه ملحد(69)".

وكان للقصة تأثير بالغ في تنبيه أوربا لمفاتيح الطبيعة وروائعها. ففي فولتير؛ وديدرو، ودالامبير، لم تشجع حمى الفلسفة وحياة الحضرة الإحساس المرهف بجلال الجبال وجمال ألوان السماء. أما روسو فقد تميز بولادته في أحضان أروع مناظر أوربا وقعا في النفوس. وكان قد مشى من جنيف متجولاً في سافوي عبر الألب إلى تورين، ومن تورين إلى فرنسا؛ واستمتع بمشاهد الريف وأصواته وعبيره؛ وأحس بكل شروق شمس كأنه انتصار الإله على الشر والشك. وقد تصور توافقاً صوفياً بين حالات مزاجه والمزاج المتغير للأرض والهواء؛ وعانقت نشوة حبه كل شجرة وزهرة، وكل ورقة عشب. وتسلق الألب إلى نصف ارتفاعها، ووجد نقاء في الهواء، خيل إليه أنه يطهر أفكاره ويجلوها. وقد وصف هذه التجارب بإحساس وحيوية جعلاً من تسلق الجبال، ولا سيما في سويسرا، رياضة من أكبر رياضات أوربا.

صفحة رقم : 13095

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الرومانسي -> هلويز الجديدة

ولم يحدث من قبل في الأدب الحديث أن ظفر الوجدان، والعاطفة المشبوبة، والحب الرومانسي، يمثل هذا العرض والدفاع المستقيمين البليغين. فلقد أعلن روسو، في تمرده على عبادة العقل من بوالو إلى فولتير، مكانة الوجدان العليا وحقه في أن يسمع في ترجمة الحياة وتقييم القصائد، وبرواية "هلويز الجديدة" أعلنت الحركة الرومانسية تحديها للعصر الكلاسيكي. وقد سبقها بالطبع لحظات رومانسية حتى في عز الكلاسيكية، مثال ذلك أن أوتوريه دورفيه داعب الريف في قصته "لاستريه" (1610-1627)، وأن الأنسة سكوديري أسهبت في وصف الغراميات في قصتها "أرطمين، أو قورش العظيم" (1649-1653)، كذلك زوجت مدام دلا فيبيت في الحب والموت في قصتها "أمير كليف" (1678)، وأدخل راسين هذا الموضوع في مسرحيته "فيدير" (1677)، وهي قمة العصر الكلاسيكي، ونحن نذكر كيف ورث روسو الروايات الغرامية القديمة عن أمه، وقرأها مع أبيه. أما جبال الألب فإن البرشت فون هالزر كان قد تغنى بجلالها (1729)، كذلك تغنى جيمس طومسن بجمال الفصول ورهبتها (1726-1730). ولا بد أن جان-جاك قرأ قصة بريفوست "مانون لسكو" (1731)، وأحاط علماً برواية رتشاردسن "كلاريسا" في ترجمة بريفوست (1747-1748) (لأنه كان يقرأ الإنجليزية بصعوبة). ومن قصة الإغواء تلك إلى ألفي صفحة (ولم تكتمل بعد) اقتبس شكل الرسائل في الرواية لصالحيتها للتحليل النفسي، وكما دبر رتشاردسن لكلاريسا نجية تدعى الأنسة هاو، كذلك دبر روسو لجولي نجية هي ابنة عمها كبير. ولاحظ روسو في غيظ أن ديدرو نشر تقريراً حماسياً لرتشاردسن (1761) عقب نشر جولي، فحجب بذلك سناء قصته جولي.

ولا تقل رواية جولي عن كلاريسا أصالة ومآخذ، وهي تسمى عنها كثيراً في أسلوبها والروايات غنيتان في شطحات الخيال متقلتان بالمواعظ. ولكن فرنسا، التي تبرز العالم أسلوباً، لم تر قط اللغة الفرنسية تتخذ مثل هذا اللون، والحرارة، والنعومة، والإيقاع، فروسو لم يكن مجرد مبشر

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الرومانسي -> هلويز الجديدة

بالوجدان، وإنما كان يملكه، فكل ما يمسه مشرب بالحساسية والعاطفة. وقد نبتم لنشواته ولكننا نجد أن ناره تدفئنا. وقد تكرر الخطب المقحمة ونمر بها مرور الكرام، ولكننا نمضي في القراءة، وبين الحين والحين تتجدد حياة القصة بمشهد شعر بع المؤلف شعوراً حاداً. كان فولتير يفكر بالأراء ويكتب بالأجرامات، أما روسو فكان يبصر بالصور ويؤلف بالأحاسيس. ولم تكن عباراته ووقفاته بريئة من الصنعة، فقد اعترف بأنه كان يقلبها وهو في فراشه حين تقصي النوم عن جفنيه عاطفة الفنان المشبوبة (70). يقول كانت "لابد من أن أقرأ روسو إلى أن يكف جمال عباراته عن فتنتي، وعندها فقط أستطيع أن أفحصه في روية وتعقل (71)".

ولقيت جولي النجاح في أعين الجميع إلا الفلاسفة. فوصفها جريم بأنها تقليد هزيل لكلاريسا، وتنبأ بأن النسيان سيطويها سريعاً (72). وقال فولتير وهو يهدر غضباً (21 يناير 1761) لا تزدي حديثاً عن رواية جان-جاك من فضلك، فلدق قرأتها لشدة أسفي، ولشدة أسفه لو كان لدي من الوقت ما يتسع لإبداء رأيي في هذا الكتاب السخيف (73). وبعد شهر أفصح عن رأيه في كتابه "رسائل حول هلويز الجديدة" الذي نشر باسم مستعار. فنبه إلى الأخطاء اللغوية، ولم تبد منه أي إشارة تدل على تقديره لوصف روسو للطبيعة وإن كان سيقصد جان-جاك بعد حين بتسلفه ربوة ليتعبد للشمس المشرقة. وتبينت باريس قلم فولتير، وحكمت بأن "الشيخ" عضته الغيرة بأنيابها.

وإذا ضربنا صفحاً عن هذه الوخزات، فإن روسو ابتهج بالاستقبال الذي ليقه أول عمل مطول له. يقول ميشليه "لم يعهد في تاريخ الأدب كله نجاح عظيم كهذا (74)". وظهرت الطبعة تلو الطبعة، ولكن المطبوع كان أقل كثيراً من الطلب ووقف الجمهور في طوابير أمام المكتبات لشراء الكتاب، وكان القراء الملهوفون يدفعون اثني عشر سواً في الساعة ليستعبروه، وقراء النهار يؤجرونه لغيرهم بقروونه في الليل (75). وروى روسو في اغتباط أن نبيلة طلبت مركبتها وقد تهيأت للذهاب إلى مرقص في الأوبرا، وشرعت تقرأ

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الرومانسي -> هلويز الجديدة

جولي خلال ذلك، وشوقتها القصة تشويقاً أغراها بالمضي فيها حتى الرابعة صباحاً بينما الخادمة والحيداء في انتظارها (76). وقد عزا انتصاره إلى اللذة التي يجدها النساء في قراءة قصص الغرام، ولكن كان هناك أيضاً نساء مللن حياتهن خليات، وتفن إلى أن يكن زوجات، وأن يكون لأطفالهن آباء. وتلقى روسو مئات الخطابات في نورنسي يشكره فيها أصحابها على كتابه، وكثر عدد النساء اللاتي عرضن عليه جبهن حتى انتهى به خياله إلى أنه "ما من امرأة في المجتمع الراقي لم أكن ألقى التوفيق في الاتصال بها لو حاولته (77)".

وكان من الطريف أن يكشف إنسان عن سريرته كشفاً كاملاً كما فعل روسو خلال سان-برو وجولي، وليس هناك أكثر طرافة وإمتاعاً من نفس إنسان تتجرد أمام الناظرين ولو تجرّيداً جزئياً أو لا شعورياً. تقول مدام دستال "هنا مزقت كل أقنعة القلب(78)". وبدأ الآن سلطان الأدب الذاتي، تلك السلسلة الطويلة الممتدة إلى زماننا، من إقضاءات الذات، من القلوب المحطمة في صفحات مطبوعة، من " النفوس الجميلة" التي تسبح في المأساة جهاراً نهاراً. وفشا بين الناس الإفصاح عن حرارة العاطفة، والإعراب عن الانفعال والشعور، لا في فرنسا وحدها بل في إنجلترا وألمانيا أيضاً. وبدأ يتلاشى الأسلوب الكلاسيكي، أسلوب ضبط النفس، والنظام، والعقل، والشكل، وأوشكت دولة "الفلاسفة" أن تتول. لقد أصبح القرن الثامن عشر بعد عام 1760 ملكاً لروسو(79).

صفحة رقم : 13098

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الفيلسوف -> العقد الاجتماعي

الفصل السابع

روسو الفيلسوف

1- العقد الاجتماعي

قبل نشر "هلويز الجديدة" بشهرين كتب روسو إلى مسيو لينبس (11 ديسمبر 1760) يقول:
"لقد طلقت حرفة الكاتب إلى الأبد. وبقيت خطيئة قديمة يجب التكفير عنها في كتاب مطبوع، وبعدها لن يسمع الجمهور مني أبداً. ولست أعرف حظاً أسعد من أن يكون الإنسان مجهولاً إلا من أصدقائه...ومنذ الآن سيكون نسخ الموسيقى شاغلي الوحيد(1)".
ثم كتب ثانية في 25 يوليو 1761:
"ظللت عاقلاً إلى الأربعين. ثم تناولت القلم، وهأنذا أضعه قبل أن أبلغ الخمسين، وأنا ألعن في كل يوم من أيام حياتي ذلك اليوم الذي دفعني فيه غروري الأحمق إلى تناوله، والذي رأيت فيه سعادتي، وراحتي، وصحتي، كلها تتطاير هباء دون أمل في استعادتها ثانية(2)".
أكان هذا منه تظاهراً؟ ليس بالضبط. صحيح إنه في 1762 نشر كتابيه "في العقد الاجتماعي" و"إميل"، ولكنهما كانا قد اكتملا قبيل 1761، وكانا "الخطيئة القديمة التي يجب التكفير عنها في كتاب مطبوع"، وصحيح إنه بعد ذلك كتب ريدواً على رئيس أساقفة باريس، وعلى مجمع الكنائس الجنيفي، وعلى طلبات من كورسيكا وبولندا بأن يقترح عليهما دستورين، ولكن هذه المؤلفات كانت مؤلفات مناسبات، دعت إليها أحداث غير

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الفيلسوف -> العقد الاجتماعي

متوقعة. وقد نشرت "الاعترافات" و "الحوارات" و "أحلام جوال منفرد" بعد موته. وهكذا التزم أساساً بتعهد الجديد. ولا عجب أن يشعر في 1761 أنه قد أرقق ونضب، لأنه كان قد ألف في خمس سنوات ثلاثة أعمال كبرى، كان كل منها حدثاً في تاريخ الأفكار.

ومنذ عام 1743 يوم كان سكرتيراً للسفير الفرنسي في البندقية، هدته ملاحظته لحكومة البندقية بالقياس إلى الحكومتين الجنيقية والفرنسية إلى تخطيط رسالة هامة في المؤسسات السياسية. وكان "المقالان" شرارتين بعثتهما تلك النار، ولكنهما كانا محاولتين متعجلتين لإثارة الانتباه بالمبالغة، ولم تتصف واحدة منهما فكره المتطور. وراح خلال ذلك يدرس أفلاطون، وجروتوريوس، ولوك، وبوفندورف. ولم تكتمل قط الرائعة الأدبية التي حلم بها. فروسو لم يوهب الذهن المنظم، الإرادة الصابرة، والطبع الهادئ الذي يتطلبه مشروع كهذا يقتضيه الاستدلال العقلي لا الوجدان فقط، وإخفاء العاطفة لا إعلانها، وكان مثل هذا الإنكار للنفس فوق طاقته. لقد كان هجرانه للتأليف اعترافاً منه بالهزيمة. ولكنه أعطى العالم عام 1762 قطعة رائعة من مخطوطه في 125 صفحة نشرت بأمر استرداد تحت عنوان "في العقد الاجتماعي، أو مبادئ القانون السياسي".

وكلنا يعرف الصيحة الجريئة التي استهل بها الفصل الأول "ولد الإنسان حراً وهو في كل مكان مكبل بالأغلال" وقد افتتح روسو كتابه بمبالغة مقصودة، لأنه عليم بأن للمنطق سلطاناً منوماً قوياً، وقد أصاب في ضربه على هذه النغمة العالية، لأن هذه العبارة أصبحت شعار قرن بأكمله. وافترض روسو هنا شأنه في "المقالين" وجود "حالة طبيعية" بدائية لم تكن فيها قوانين، واتهم الدولة القائمة بتدمير تلك الحرية، واقترح بديلاً عنها "إيجاد شكل من المجتمع يدافع عن شخص كل عضو فيه وعن متاعه ويحميها بكل ما أوتي من قوة مجموعة، مجتمع يظل الإنسان فيه رغم اتحاده مع الجميع يطبع نفسه فقط، ويبقى حراً كما كان من قبل... تلك هي المعضلة الأساسية التي يقدم لها العقد الاجتماعي الحل(3).

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الفيلسوف -> العقد الاجتماعي

يقول روسو أن هناك عقداً اجتماعياً، لا كتعهد من المحكومين بإطاعة الحاكم، كما جاء في كتاب هوبز (اللوباثان) "الوحش"، بل كاتفاق الأفراد على أن يخضعوا رأيهم؛ وحقوقهم، وسلطاتهم لحاجات ورأي مجتمعهم ككل. وكل شخص يدخل ضمناً في مثل هذا العقد بقبوله حماية القوانين العامة. والسلطة العليا في أي دولة لا تستقر في أي حاكم- فرداً كان أو جماعة-بل في "الإرادة العامة" للمجتمع، وتلك السيادة لا يمكن التخلي عنها أبداً وإن جاز تقويضها جزئياً إلى حين.

ولكن ما هذه "الإرادة العامة"؟ أي إرادة جميع المواطنين؛ أم إرادة الأغلبية فقط؟ ومن الذين يعتبرون مواطنين؟ إنها ليست إرادة الجميع، لأنها قد تناقض كثيراً من الإرادات الفردية. ولا هي دائماً إرادة الأغلبية الذين يعيشون (أو يصوتون) في لحظة بعينها، بل هي إرادة المجتمع باعتباره صاحب حياة وواقع مضافين إلى حيوات وإرادات الأعضاء الأفراد. (وروسو، كمفكر واقعي من العصر الوسيط، ينسب للجماعة مجتمعة، أو للفكرة العامة، واقعاً بالإضافة إلى واقع أعضائها الأفراد. فالإرادة العامة أو "روح الجماعة" يجب أن تكون الصوت المعبر لا عن المواطنين الأحياء فحسب، بل الأموات أو الذين لم يولدوا بعد، ومن ثم فالذي يعطيها طابعها ليس هو الإرادات الراهنة فحسب، بل تاريخ الجماعة الماضي وأهدافها المستقبلية. وما أشبهها بأسرة عريقة تفكر في نفسها على أنها واحدة على مر الأجيال، وتكرم أسلافها، وتحمي أخلاقها- (بمعنى أن أبا من الأباء قد يدفعه التزامه قبل حفدته الذين لم يولدوا بعد إلى مناقضة رغبات أبنائه الأحياء، وأن سياسياً ما قد يشعر بأنه ملتزم بالتفكير لا بلغة انتخاب واحد بل أجيال كثيرة). ومع ذلك فإن (صوت الأغلبية ملزم دائماً للباقيين جميعاً(4)). ومن له حق التصويت؟ كل مواطن(5). ومن المواطن؟ واضح أنه ليس كل بالغ ذكر. وروسو غامض جداً في هذه النقطة، ولكنه يمتدح دالامبير لتقريبه بين

صفحة رقم : 13101

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الفيلسوف -> العقد الاجتماعي

"طبقات الناس الأربعة... الذين يسكنون مدينتنا (جنيف)، وطبقتان من هؤلاء فقط تؤلفان الشعب. ولم يفهم كاتب فرنسي آخر... المعنى الحقيقي لكلمة المواطن(6). يقول روسو أن القانون، في الحالة المثالية، ينبغي أن يكون التعبير عن الإرادة العامة. فالإنسان بفطرته يغلب عليه الخير، ولكن له غرائز يجب التحكم فيها ليصبح المجتمع أمراً ممكناً. وليس العقد الاجتماعي تمجيد "حالة الطبيعة" فرسو يتكلم لحظة كما يتكلم لوك أو مونتسكيو لا بل فولتير:

"إن الانتقال من حالة الطبيعة إلى الحالة المدنية يتمخض عن تغير ملحوظ جداً في الإنسان، لأنه يحل القانون محل الغريزة في سلوكه، ويضفي على أفعاله، الفضيلة التي كانت تعوزها من قبل. ومع أنه في هذه الحالة (المدنية) يحرم نفسه من بعض المنافع التي تلقاها من الطبيعة. إلا أنه يكسب نظير ذلك منافع أخرى عظيمة جداً؛ فقدراته تحفر حفراً شديداً وتطور تطويراً كبيراً، وأفكاره توسع كثيراً وروحه كلها تسمو سموً عظيماً. ولولا أن مساوئ حالته الجديدة كثيراً ما تهبط به إلى مستوى أدنى من ذلك الذي تركه، لكان عليه أن يبارك على الدوام تلك اللحظة السعيدة التي نقلته من حالته الأولى إلى غير رجعة، والتي جعلته كائناً ذكياً وإنساناً بدلاً من أن يظل حيواناً غيباً عديم الخيال(7). وهكذا نجد روسو (الذي تكلم يوماً ما كما يتكلم فوضوي لا يفلسف كلامه تماماً) يناصر بكلية فداسة القانون عن الإرادة العامة. فإذا لم يتفق فرد ما كما يحدث في حالات كثيرة مع تلك الإرادة كما يعبر عنها في القانون، حق للدولة إكراهه على الخضوع(8). وليس هذا انتهاكاً للحرية لا صيانة لها، حنى للفرد المقاوم، لأنه بفضل القانون وحده يستطيع الفرد في الدولة المدنية أن يتمتع بتحرره من العدوان، والسرقة، والاضطهاد، وتشويه السمعة، وعشرات الشرور الأخرى. ومن ثم فإن المجتمع بإكراهه الفرد على إطاعة القانون إنما "يكرهه على أن يكون حراً" في

صفحة رقم : 13102

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الفيلسوف -> العقد الاجتماعي

الواقع (9). وهذه هي الحالة على الأخص في الجمهوريات، لأن "طاعة القانون الذي نضعه لأنفسنا هي الحرية" (10). الحكومة جهاز تنفيذي تفوض فيه الإرادة العامة مؤقتاً بعض سلطاتها. وينبغي أن تكون فكرتنا عن الدولة لا على أنها الحكومة فقط، بل الحكومة، والمواطنين، والإرادة العامة أو روح الجماعة. والدولة تكون جمهورية إذا حكمتها القوانين لا المراسيم الأوتوقراطية، وبهذا المعنى يمكن حتى اعتبار الملكية جمهورية إذا حكمتها القوانين لا المراسيم الأوتوقراطية، وبهذا المعنى يمكن حتى اعتبار الملكية جمهورية. أما إذا كانت الملكية مستبدة-أي إذا كان الملك يضع القوانين وينفذها-فليست هناك جمهورية أو دولة، بل طاغية يحكم عبيداً. ومن ثم رفض روسو الانضمام إلى أولئك الفلاسفة الذين امتدحوا "الاستبداد المستنير"-استبداد فردريك الثاني أو كاترين الثانية سبباً لدفع الحضارة والإصلاح قدماً. وكان رأيهم إن الشعوب التي تعيش في أجواء قطبية أو مدارية قد تحتاج إلى الحكم المطلق حفاظاً على الحياة والنظام (11)، أما في المناطق المعتدلة فيحسن المزج بين الأرسقراطية والديمقراطية. والأرسقراطية الوراثية "أسوأ الحكومات قاطبة"، والأرسقراطية الانتخابية أفضلها (12)، أي أن أفضل حكومة هي تلك التي تضع القوانين وتنفذها فيها أقلية من الرجال ينتخبون دورياً لتفوقهم الفكري والخلقي. أما الديمقراطية بوصفها حكماً مباشراً بواسطة الشعب كله فقد بدت لروسو مستحيلة. "لو أخذنا هذا اللفظ بمعناه الدقيق لم نجد ديمقراطية حقيقية، ولن توجد أبداً هذه الديمقراطية. فما يناقض النظام الطبيعي أن تكون الكثرة حاكمة والقلة محكومة. ومما لا يمكن تصوره أن يظل الناس مجتمعين بصفة مستمرة ليتفرغوا للشؤون العامة، وواضح أنهم لا يستطيعون إنشاء لجان لهذا الغرض دون تغيير في شكل الحكومة". ثم كم من الظروف التي يصعب الجمع بينها تقترض لهذه الحكومة؟

صفحة رقم : 13103

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الفيلسوف -> العقد الاجتماعي

أو لا دولة صغيرة جداً يمكن جمع الشعب فيها عاجلاً، ويمكن لكل مواطن فيها أن يعرف سائر المواطنين بسهولة؛ ثانياً، البساطة التامة في العادات، منعاً لتكاثر الأعمال وإثارة المشاكل الشائكة، ثم قدر كبير من المساواة في الرتب والثروات بدون أن تستطيع المساواة في الحقوق والسلطة البقاء طويلاً، وأخيراً قلة الترف أو انعدامه، لأن الترف مفسدة للأغنياء والفقراء جميعاً-للأغنياء بالافتناء، وللفقراء بالاشتراء. وهذا هو ما حدا كاتباً شهيراً (مونتسكيو) إلى اعتبار الفضيلة المبدأ الأساسي للجمهوريات، لأن هذه الظروف كلها لا يمكن توافرها بغير الفضيلة. ولو كان هناك شعب من الآلهة لكانت حكومة ديمقراطية أما البشر فليست هذه الحكومة البالغة الكمال مما يناسبهم (13). وقد تغري هذه الفقراء بسوء التفسير. فروسو يستخدم لفظ "الديمقراطية" بمعنى ندر أن ينسب له في السياسة أو التاريخ، وهو أنها حكومة تشرع فيها كل القوانين بواسطة الشعب كله المجتمع في مجالس قومية. والواقع أن "الأرسقراطية الانتخابية" التي فضلها هي ما يجب أن نسميه الديمقراطية النيابية-أي الحكومة التي يتولاها موظفون يختارهم الشعب لما يفترض فيهم من صلاحية عليا. على أن روسو يرفض الديمقراطية النيابية على أساس أن الممثلين أو النواب سرعان ما يشرعون لمصلحتهم لا للخير العام. "أن الشعب الإنجليزي يعتبر نفسه حراً ولكنه يخطئ بذلك خطأ فاحشاً؛ فهو حر فقط خلال انتخاب أعضاء البرلمان؛ وما إن يتم انتخابهم حتى تسيطر العبودية على الشعب فلا يعود له وزن" (14). فالممثلون يجب أن ينتخبوا ليشغلوا المناصب الإدارية والقضائية لا ليشرعوا، ويجب

أن تشرع جميع القوانين بواسطة الشعب في جمعية عامة، وأن يكون لتلك الجمعية سلطة إقالة الموظفين المنتخبين(15). ومن ثم وجب أن تكون الدولة المثالية من الصغر بحيث تسمح لجميع المواطنين بالاجتماع مراراً كثيرة. "وكلما اتسعت الدولة تقلصت الحرية"(16).
أكان روسو اشتراكياً؟ إن "المقال" الثاني نسب جميع ردائل الحضارة إلى إقرار الملكية الخاصة، ولكن حتى ذلك المقال رأى أن هذا النظام أعمق

صفحة رقم : 13104

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الفيلسوف -> العقد الاجتماعي

جنوراً من البنين الاجتماعي من أن يتيح للقضاء عليه دون ثورة فوضوية مدمرة. "والعقد الاجتماعي" يسمح بالملكية الخاصة بشرط رقابة الجماعة، فيجب أن تحتفظ الجماعة بكل الحقوق الأساسية، ولها أن تستولي على الأملاك الخاصة لخير المجتمع، ويجب أن تحدد أقصى ما يسمح للأسرة الواحدة بتملكه(17). ولها أن تؤمن على توريث الملكية، ولكن إذا رأيت الثورة تنحو إلى تركيز ممزق فلها أن تستخدم ضرائب التركات لإعادة توزيع الثروة والتخفيف من عدم المساواة الاجتماعي والاقتصادي. "يجب أن يتجه التشريع دائماً إلى الحفاظ على المساواة بالضبط لأن قوة الأشياء تتجه دائماً إلى القضاء عليها(18). ومن أهداف "العقد الاجتماعي" أن يصبح الأفراد الذين قد يكونون مختلفين قوة أو ذكاء متساوين في الحقوق الاجتماعية والقانونية(19). ويجب أن تفرض الضرائب العالية على الكماليات. "إن الحالة الاجتماعية لا تقيد الناس إلا إذا ملك كل فرد شيئاً ولم يملك أحد فوق ما ينبغي(20)". ولم يورط روسو نفسه في القول بالجماعية، ولا خطرت بباله قط (دكتاتورية البرولتاريا)، وكان يحنقر البرولتاريا الوليدة في المدن، واتفق مع فولتير على تسميتها (الرعا ع أو حثالة المجتمع)(21). وكان مثله الأعلى طبقة فلاحين تعيش مستقلة رعية الحال، وطبقة وسطى فاضلة تتألف من أسر كاسر فولمار في "هلويز الجديدة" وسيتهمه ببيير-جوزف برودون بتمجيد "البرجوازية"(22).
ترى أي مكان للدين في الدولة؟ لقد شعر روسو أن ديناً ما لا عنى عنه للفضيلة، "ما قامت دولة قط دون أساس ديني"(23).
"إن الحكماء أن حاولوا الكلام بلغتهم إلى القطيع العام بدلاً من لغته لن يستطيعوا إيصال ما يريدون إلى إفهامهم... ولكي يمكن شعب ناشئ من إثبات الأصول السليمة للنظرية السياسية... يجب أن تصبح النتيجة سبباً: فالروح الاجتماعية التي ينبغي أن تخلقها هذه المؤسسات يجب أن تسود أساسها نفسه، ويجب أن يكون الناس أمام القانون ما يجب أن يصبحوه بالقانون. إذن فالمشرع لعجزه عن الالتجاء إلى القوة أو للعقل

صفحة رقم : 13105

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الفيلسوف -> العقد الاجتماعي

يجب أن يلجأ إلى سلطة من نوع مختلف، قادراً على الكبح دون عنف.. هذا ما دعا آباء الأمم في جميع العصور إلى الالتجاء للتدخل الإلهي، ونسبة حكمتهم هم لألهتهم، حتى، تطيع الشعوب بخضوعها لقوانين الدولة كما تخضع لقوانين الطبيعة... دون عائق، وتحتمل نير الخير العام عن طيب خاطر" (24).

ولن ينتشبت روسو دائماً بهذا الرأي السياسي القديم في الدين، ولكنه في "العقد الاجتماعي" جعل من الإيمان فوق الطبيعي أداة للدولة، واعتبر القساوسة على أفضل تقدير ضرباً من الشرطة السماوية. على أنه رفض اعتبار الكهنة الكاثوليك الرومان كذلك، لأن الكنيسة زعمت أنها فوق الدولة، فهي إذن قوة مفسحة، تقسم ولاء المواطن (25). وفضلاً عن ذلك فإن المسيحي كما زعم - إذا أخذ لاهوته مأخذ الجد؛ يركز اهتمامه على الحياة الآخرة، ولا يقيم وزناً يذكر لهذه الحياة الدنيا، فهو إلى هذا الحد مواطن ضعيف. ومثل هذا المسيحي يكون جندياً وسطاً؛ قد يقاتل دفاعاً عن وطنه، ولكنه لا يفعل إلا تحت إكراه وإشراف مستمرين، وهو لا يؤمن بشن الحرب دفاعاً عن الدولة؛ لأن له وطناً واحداً فقط - هو الكنيسة. والمسيحية تبشر بالعبودية والتبعية الطيبة؛ ومن ثم كانت روحها موالية جداً للاستبداد بحيث أن الطغاة يرحبون بتعاونها. "إن المسيحيين الحقيقيين خلقوا ليكونوا عبيداً (26)". وهكذا اتفق روسو مع ديديرو، واستبق جيون، وكان في تلك الفترة أشد عنفاً في عداته للكاثوليك من فولتير؛ ومع ذلك شعر بأن ديناً ما لا غنى عنه؛ "ديناً مدنياً" تصيغه الدولة وتفرضه فرضاً على جميع سكانها. أما عن العقيدة:

"فإن عقائد الدين المدني يجب أن تكون قليلة؛ بسيطة؛ دقيقة العبارة؛ دون شروح أو تعليقات. فوجود إله قادر؛ ذكي؛ خير؛ ذي بصيرة وتدبر؛ ثم حياة أخرى؛ وسعادة الأبرار؛ وعقاب الأشرار؛ وقدااسة العقد الاجتماعي والقوانين؛ تلك هي عقائد الدين الإيجابية (27)".

وهكذا اعترف روسو بعقائد المسيحية الأساسية؛ على الأقل لأغراض

صفحة رقم : 13106

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الفيلسوف -> العقد الاجتماعي

سياسية؛ على حين رفض أخلاقياتها لغلوها في المسالمة والدولية - على العكس تماماً ومما درج عليه الفلاسفة من الاحتفاظ بأخلاقيات المسيحية مع رفض لاهوتها. وقد سمح بأديان أخرى في دولته الوهمية؛ بشرط عدم تعارضها مع العقيدة الرسمية. وهو يتسامح مع الأديان "التي تتسامح مع غيرها"؛ أما من يجسر على القول "بأنه لا خلاص خارج الكنيسة" فيجب طرده من الدولة، إلا أن تكون الدولة هي الكنيسة، والملك هو حبرها الأعظم (28). ولا يسمح بإنكار البنود الواردة في ديانة الدولة.

"وإذا كانت الدولة لا تستطيع إكراه أحد على الإيمان بهذه البنود، فإن في استطاعتها أن تتفقيه، لا لزندقته، بل بوصفه كائناً أرسقراطياً، عاجزاً عن محبة القوانين والعدالة محبة صادقة، وعن بذل حياته عند الحاجة في سبيل الواجب. وإذا سلك إنسان بعد إقراره بهذه العقائد علانية مسلك من لا يؤمن بها، كان عقابه الموت (29)".

وهذه الجملة الأخيرة هي أشهر الجمل في "العقد الاجتماعي" بعد "ولد الإنسان حراً وهو في كل مكان مكبل بالأغلال" وإذا أخذت بمنطوقها الحرفي كان معناها إعدام كل من يسلك مسلك من لا يؤمن بالله، أو الجنة أو النار، ولو طبقت على باريس ذلك الزمان لأنضبت تلك العاصمة من أهلها. ولعل حب روسو للعبارات المسرفة التي تهز القراء طوح به إلى أن يقول أكثر مما يعني. ولعله تذكر مجمع أوجزنورج (1555) الذي وافق فيه كل الأمراء الموقعين على قراراته على أن يكون لكل منهم الحق في أن ينفى من أملاكه أي شخص لا يقبل مذهب الأمير. وفي قوانين جنيف إذا أخذت حرفياً (كما حدث في حالة سرفيتوس) سابقة لوحشية روسو المفاجئة. وقد اعتبرت أثينا القديمة "رفض الاعتراف بالآلهة الرسميين" جريمة كبرى، كما حدث في نفي أناكساجوراس وقتل سقراط بالسم، وكان هذا

بالمثل القدر الذي بررت به روما الإمبراطورية اضطهادها للمسيحيين، وأخذ برأي روسو هذا في معاملة المجرمين يمكن أن يوصف الأمر باعتقاله ب،ه من أفعال المحبة المسيحية.

صفحة رقم : 13107

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الفيلسوف -> العقد الاجتماعي

أكان "العقد الاجتماعي" كتاباً ثورياً؟ لا ونعم. فهناك وهناك، وسط مطالبة روسو بحكومة مسؤولة أمام الإرادة العامة، تهديئاً تثيرته لحظات من الحذر، كما في قوله: "لا شيء يمكن أن يعدل خطر تغيير النظام العام غير الأخطار الكبرى، ويجب أن تعطل السلطة المقدسة للقوانين إطلاقاً ما لم تكن حياة الوطن في خطر" (30). ومع أنه حمل الملكية الخاصة اللوم على كل الشرور تقريباً، إلا أنه دعا إلى صيانتها لأنها ضرورة يدعو إليها ما آل إليه الإنسان من فساد لا صلاح له. وتساعل ألا تعيد طبيعة الإنسان، بعد أن يقوم بثورة، نظاماً وعبوديات قديمة تحت أسماء جديدة؟ "إن قوماً تعودوا الخضوع لسادة لن يدعوا السيادة تتوقف... فهم إذ يحسبون الإباحية حرية، تسلمهم ثوراتهم إلى أيدي مضللين لا يزيدونهم إلا رسوفاً في أغلالهم(31)".

ومع ذلك كان صوت روسو أكثر أصوات العهد ثورية. ففي هذا الكتاب كان خطابه موجهاً لكثرة الشعب، وإن غض من شأن الجماهير ولم يثق بها في غيره من كتبه. لقد كان يعلم إنه لا مناص من عدم المساواة، ولكنه أدانه بقوة وبلاغة. وأعلن في غير لبس أو غموض أن من حق الشعب أن يطيح بحكومة تصر على مخالفة الإرادة العامة. وبينما كان فولتير، وديدرو ودالامبير، يحنون للملوك أو الإمبراطوريات، أطلق روسو على الحكومات القائمة صرخة احتجاج قدر لها أن تسمع من أقصى أوروبا إلى أقصاها. وبينما اقتصر جماعة الفلاسفة، الغارقين في "الحالة الراهنة" على الدعوة لإصلاح تدريجي لشرور معينة، هاجم جان-جاك النظام الاقتصادي، والاجتماعي، والسياسي بحملته، وبشمول بدا معه كل علاج مستحيلاً إلا على الثورة. ثم أعلن أنها آتية: "محال أن تعمر ممالك أوروبا الكبرى أكثر مما عمرت. لقد كان لكل منها فترة مجدها، ومآلها بعدها إلى الاضمحلال... إن الأزمة تقترب، ونحن على شفا ثورة(32)". وتنبأ بوقوع تغييرات بعيدة المدى بعد أن تنشب هذه الثورة: "ستطلع إمبراطورية روسيا إلى غزو أوروبا، وستغزي هي نفسها. وسيصبح التنازح عاياًها أو جيرانها-سادتها وسادتها، بثورة أراها آتية لا ريب فيها(33)".

صفحة رقم : 13108

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الفيلسوف -> العقد الاجتماعي

على أن "العقد الاجتماعي" الذي نرى في نظرة مؤخرة أنه كان أكثر كتب روسو ثورية، أثار ضجة أقل كثيراً مما أثارته "هلوية الجديدة". فلقد كانت فرنسا مهياًة للانفراج العاطفي والحب الرومانسي، ولكنها لم تنتهياً لمناقشة الإطاحة بالملكية. وكان هذا الكتاب أكثر ما أنتج روسو إلى ذلك الحين من حجج مدعمة، ولم يكن يتبعه سهلاً كتتابع دعايات

فولتير المتألفة. ونحن الذين راعنا ما لقي من ذبوع متأخر، يدعشنا أن نعلم أن شعبيته وتأثيره بدأ بعد الثورة لا قبلها(34). ومع ذلك نرى دالامبير يكتب لفولتير في 1762 قائلا: "لا جدوى من مهاجمة جان-جاك أو كتابه بصوت عال جداً، فهو أشبه بملك في السوق" ("ليزال" (35)-أي بين العمال الغلاظ في سوق باريس المركزية، وبالنتضمين- بين جماهير الشعب). ولعل هذا كان غلواً في القول، ولكن لنا أن نعتبر عام 1762 تاريخاً لتحول الفلسفة من مهاجمة المسيحية إلى نقد الدولة.

وقل من الكتب ما أثار مثل هذا النقد الكثير. وقد أشر فولتير على نسخة من "العقد الاجتماعي" برودود على الهامش، فرداً على ما أشار به روسو من إعدام من يذنب بالكفر الإيجابي كتب "كل إكراه في العقيدة مردول(36)". ويذكرنا العلماء بقدم الدعوى بأن السيادة مستقرة في الشعب، فقد قدم مارسيلبوس البادواي، ووليم أوكيم، وحتى اللاهوتيون الكاثوليك أمثال بيلارمين، وماريانا، وسواريز، هذه الدعوى كأنها الضربة خلف ركب الملوك. وقد ظهرت من قبل في كتابات جورج بوكانان وجروتوس، وملتن، والجرنون سدني، ولوك، ويوفندورف... إن "العقد الاجتماعي" شأنه شأن فلسفة روسو السياسية والأخلاقية كلها تقريباً، هو صدى وانعكاس لجنيف بقلم مواطن على بعد كافٍ يتيح له تمجيدها دون أ، يحس بمخالبها. لقد كان الكتاب مزجاً من جنيف وإسبرطة، من "قواعد" كلفن و "قوانين" أفلاطون. وبين عشرات النقاد ذلك التناقض بين النزعة الفردية في مقالي "روسو" وحرافية القانونية في "العقد الاجتماعي". لقد رفض فيلمر في كتابه Parriarcha

صفحة رقم : 13109

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الفيلسوف -> العقد الاجتماعي

(1642) قبل مولد روسو بزمن طويل الفكرة التي تزعم أن الناس ولدوا متساوين، فهم في ميلادهم خاضعون للسلطان الأبوي ولقانون الجماعة وعاداتها. وروسو نفسه، بعد الصرخة الأولى للدفاع عن الحرية، أخذ يبتعد عن الحرية أكثر فأكثر متجهاً إلى النظام-إلى خضوع الفرد للإرادة العامة. والتناقضات التي تلاحظها في مؤلفاته هي أساساً بين خلقه وفكره، فلقد كان فردياً متمرداً بحكم مزاجه، وعلته، وافتقاره إلى الانضباط، وكان بيبياً (لا شيوخياً إطلاقاً، ولا حتى جماعياً) بحكم إدراكه المتأخر لاستحالة تكوين المجتمع الفعال من الخوارج. وعلينا أن نحسب حساباً للتطور، فأفكار إنسان ما هي دالة خبرته وعمره، ومن الطبيعي للمفكر أن يكون فردي النزعة في شبابه-فيحب الحرية ويبحث عن المثل العليا-وأن يكون معتدلاً حين ينضج، فيحب النظام ويرتضي الممكن. وقد ظل روسو من الناحية العاطفية طفلاً طوال حياته، ينكر العرف، والمحظورات، والقوانين، ولكنه حين فكر تفكيراً منطقياً أدرك أن في الإمكان بقاء الكثير من الحريات في نطاق القيود الضرورية للنظام الاجتماعي، وانتهى إلى أن يدرك أن الحرية في مجتمع ما ليست ضحية القانون بل ثمرته-وأنها تتسع ولا تضيق بطاعة الجميع لقيود يفرضونها على أنفسهم جماعة. وفي وسع الفوضويين الفلسفيين والشموليين السياسيين جميعاً أن يستشهدوا بروسو تأييداً لدعواهم(37)، وكلا الفريقين لا حق له في الاستشهاد، لأنه اعترف بأن النظام أول قوانين الحرية، والنظام الذي دافع عنه يجب أن يكون التعبير عن الإرادة العامة.

وقد نفى روسو أي تناقضات حقيقية في فلسفته فقال "كل أفكار متسعة، ولكني لا أستطيع عرضها كلها مرة واحدة(38)". وسلم بأن كتابه "في حاجة إلى أن يكتب من جديد، ولكني لست أملك من العافية ولا الوقت ما يسمح لي بذلك(39)", فحين كانت العافية متاحة له سلبه الاضطهاد وقته، وحين كف الاضطهاد وأتيح له الفراغ، كانت العافية قد تضاعلت. وفي تلك السنوات الأخيرة بات ينتشك في حججه، "أن الذين يفاخرون بأنهم فهموا "العقد الاجتماعي" فهماً تاماً أدكى مني". وقد أغفل تماماً، من الناحية العملية، المبادئ التي وضعها فيه، ولم يخطر بباله قط أن

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الفيلسوف -> العقد الاجتماعي

يطبقها حين طلب إليه وضع دستور لبولندا أو كورسيكا. ولو أنه مضى في خط التغيير الذي اتبعه بعد عام 1762 لانتهى به المطاف إلى حضن الأرسنقراطية، والكنيسة، وبما تحت سكين الجيولتين.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الفيلسوف -> إميل

2- إميل

أ - تربيته

في وسعنا أن نغتنق الكثير لكاتب استطاع في خمسة عشر شهراً أن يصدر "هلويز الجديدة" (فبراير 1761) و "العقد الاجتماعي" (إبريل 1762)، و "إميل" (مايو 1762). وقد نشر ثلاثتها في أمستردام، ولكن "إميل" نشر في باريس أيضاً بإذن من الحكومة حصل عليه مالزيرب العطوف بمخاطرة كبيرة. ومن حق مارك-ميشيل راي، الناشر الأمستردامي، علينا أن نحياه تحية عابرة، ذلك أنه بعد أن كسب أرباحاً لم يتوقعها من هلويز أوقف على تريبز معاشاً سنوياً مدى الحياة قدره 300 جنيه، وإذ تنبأ لإميل برواج أعظم من "العقد الاجتماعي" (الذي كان قد اشتراه بألف جنيه) دفع لجان-جاك ستة آلاف جنيه نظير المخطوطة الجديدة الأطول من سابقتها.

أما الكتاب فكان بعضه ثمرة مناقشاته مع مدام ديبنيه عن تربيته ولدها، واتخذ أول شكل له في مقال صغير كتب لبيسر أمة قادرة على أن تفكر وهي مدام دشونسو، ابنة مدام دويان. وقد قصد به روسو أن يكون تذليلاً لقصته "هلويز الجديدة": فكيف ينبغي أن ينشأ أبناء جولي؟ وخامره الشك لحظة في صلاحية رجل أودع كل أطفاله في ملجأ للقطاء، وفشل معلماً خاصاً في أسرة مابليه، للكلام في موضوع الأبوة والتربية. ولكن كعادته وجد لذة في إطلاق حبل خياله على غاربه دون أن يعوقه معوق من التجربة. ودرس مقالات "مونتيني" و "تليماك فينيلون"، ورسالة في الدراسات

لرولان، وكتاب لوك "خواطر في التربية". وكان "مقاله" الأول تحدياً له، لأنه صور الإنسان خيراً بفطرته ولكن أفسدته الحضارة بما فيها التربية. فهل في الإمكان الاحتفاظ بهذا الخير الفطري وتميمته بالتربية

صفحة رقم : 13112

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الفيلسوف -> إميل

الصحيحة؟ لقد أجاب هلفتيوس قبيل ذلك بأن هذا ممكن، وذلك في كتابه "عن العقل" (1758)، ولكنه قدم حجة لا مخطأ.

أما روسو فقد أستهل كتابه بفرض الطرق القائمة لأنها تلقن، بالصم عادة، أفكاراً بالية فاسدة، وتحاول جعل الطفا آلة طيبة في مجتمع منحل، وتمنع الطفل من التفكير والحكم لنفسه، وتشوّهه فتهبط بمستوى قدراته، وتلوح بملاحظات تافهة وأقوال قديمة مبتذلة. وقد أحمّد هذا التعليم المدرسي كل الحوافز الفطرية، وجعل، التربية عذاباً يتوق كل طفل إلى تجنبه. ولكن التعليم يجب أن يكون عملية سعيدة فيها تفتح طبيعي، وتعلم من الطبيعة والتجربة، وتنمية حرة لقدرات الطفل نحو حياة فياضة لذيدة. يجب أن تكون "فن تدريب الناس (41)" والإرشاد الواعي للجسم النامي ليبلغ الصحة، وللخلق ليبلغ الفضيلة، وللذهن ليبلغ الذكاء، وللوجدان ليبلغ ضبط النفس وحب العشرة والسعادة. وكان روسو يؤثر أن يكون هناك نظام تعليم عام تقوم عليه الدولة، ولكن بما أن التعليم كان يومها في يد الكنيسة فقد أوصى بتعليم خاص يضطلع به معلم أعزب ينقد أجراً نظير تكريس سنين كثيرة من حياته لتلميذه. وعلى هذا المعلم أن يبعد الطفل ما أمكن عن أبويه وأقاربه مخافة أن تصل إليه العدوى من ردائل الحضارة المتركمة. وأضفى روسو على بحثه صبغة إنسانية بتخيله أنه قد فوض بكامل السلطة تقريباً ليربي غلاماً طيباً جداً يدعى إميل. وهي فكرة لا يمكن تصديقها، ولكن روسو وفق في أن يجعل هذه الصفحات -وعددها 450- أمتع كتاب ألف في التربية إطلاقاً. وقد تناول كانت "إميل" لقرأه فاستغرق في قراءته استغراقاً أنساه الخروج للتمشي في نزهته اليومية (42). وما دامت الطبيعة ستكون الهادي والمرشد للمعلم، فسيعطى الطفل كل الحرية التي تسمح بها سلامته. وسيبدأ بإقناع مربيته بأن تحرر الرضيع من أقمطته لأنها تعوق نموه وتطور أطرافه تطوراً سليماً. ثم يقنع أمه بإرضاع طفلها بدلاً من أن تعهد به لمرضعة، لأن المرضعة قد تؤذيه بالقسوة أو الإهمال،

صفحة رقم : 13113

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الفيلسوف -> إميل

أو قد تظفر منه بفضل عنايتها الصادقة به بتلك المحبة التي يجب بالطبيعة أن توجه للأُم باعتبارها أول مصدر ورباط لوحة الأسرة والنظام الأخلاقي. وهنا ساق روسو عبارات كان لها تأثير جدير بالإعجاب على الأمهات الشابات في الجيل الجديد:

"أتريدون أن تردوا الناس جميعاً إلى واجباتهم الفطرية؟ ابدؤوا بالأُم إذن، وسوف تدهشكم النتائج. فكل الشرور تأتي في أعقاب هذه الخطيئة الأولى...والأم التي يغيب أطفالها عن بصرها لا تكتسب الاحترام الكثير، فليس هنا حياة أسرية، وروابط الطبقة لا تتقوى بروابط العادة، وليس هناك وجود بعد للأبَاء والأمهات والأخوة والأخوات. فهم أغراب تقريباً، فكيف يحب بعضهم بعضاً؟ إن كلاً منهم يفكر في نفسه.

"أما إذا تنازلت الأمهات بإرضاع أطفالهن، فسيكون هناك إصلاح في الخلق سينتعش الشعور الفطري في كل قلب، ولن تشكو الدولة فقراً في عدد المواطنين. وهذه الخطوة الأولى وحدها ستعيد المحبة المتبادلة ومباهج البيت خير ترياق للرديلة. عندها يغدو لعب الأطفال الصاحب متعة بعد أن كنا نحسبه شديد الإرهاق لنا، ويزداد إعزاز الأم والأب بعضهما لبعض ويقوى رباط الزواج...وهكذا يأتي الشفاء من هذا الشر الواحد بإصلاح شامل، فتستعيد الطبيعة حقوقها. وإذا أصبحت النساء أمهات صالحات أصبح الرجال أزواجاً وأباء صالحين(43).

هذه الفقرات المأثورة جعلت إرضاع الأمهات لأطفالهن شطراً من تغيير العادات الذي بدأ في العقد الأخير من حكم لويس الخامس عشر. وكان بوفون قد أذاع مثل هذا النداء في العقد السابع ولكنه لم يصل إلى نساء فرنسا. وبدأ الآن ظهور أجمل الصدور في باريس أعضاء للأُمومة فضلاً عن كونها مفاتن جسمية ساحرة.

وقسم روسو حياة تلميذه التعليمية إلى ثلاث فترات، اثنتي عشرة سنة طفولة، وثمانية سنوات صبي، وعمر غير محدود للإعداد للزواج والأبوة، وللحياة

صفحة رقم : 13114

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الفيلسوف -> إميل

الاقتصادية والاجتماعية. ففي الفترة الأولى يكون التعليم كله تقريباً بدنياً وخلقياً، وعلى الكتب والتعلم من الكتب، وحتى الديانة أن تنتظر نمو العقل، فالى أن يبلغ إميل الثانية عشرة لن يعرف كلمة في التاريخ، ولا يكاد يسمع ذكر الله(44). فتربية الجسم يجب أن يشرع فيها أولاً. ومن ثم يربى إميل في الريف لأنه المكان الوحيد الذي يمكن أن تكون الحياة فيه صحية طبيعية:

ولم يخلق البشر ليتكدسوا في كُتبان نمل، بل لينتسروا على الأرض ليفلحوها. وكلما حشدوا معاً فسدوا. والمرض والرديلة هما النتيجتان المحتومتان للمدن المكتظة. فأنفاس الإنسان تفتك بإخوانه البشر...والإنسان تفتسه مدنا، ولن تنقضي أجيال قليلة حتى ينقرض النوع الإنساني أو ينحط. فهو في حاجة إلى التجديد، وتجديده يكون دائماً من الريف. فأرسلوا أطفالكم إلى الخلاء ليجدوا أنفسهم. أرسلوهم ليستعيدوا في الحقل المكشوف تلك العافية التي فقدوها في الهواء الفاسد الذي يملأ مدنا المزدهمة(45).

وشجعوا الصبي على حب الطبيعة والخلاء، وعلى تربية عادات البساطة وعلى العيش على الأطعمة الطبيعية. وأي طعام أذ من ذلك الذي زرعه المرء في حديقته؟ أن الغذاء النباتي أصح الأغذية ومن شأنه أن يقلل كثيراً من الأمراض والعلل(46).

إن عدم اكتراث الأطفال باللحم من الأدلة على أن الميل لأكل اللحم غير طبيعي. وهم يؤثرون الأطعمة النباتية واللبن والفاكهة الخ.. فحذار أن تغيروا هذا الميل الفطري وتجعلوا أطفالكم أكلة للحوم. افعلوا هذا من أجل أخلاقهم إن لم تقبلوه من أجل صحته، إذ كيف نعلل أن كبار أكلة اللحوم هم في العادة أشد ضراوة وقسوة من غيرهم من البشر(47).

وبعد الغذاء الصحيح، والعادات الطيبة يعلم إميل البكور في الاستيقاظ. "رأينا الشمس تشرق في منتصف الصيف وسنراها تشرق في عيد الميلاد..

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الفيلسوف -> إميل

لستأ تؤومي الضحى، فنحن نلتذ بالبرد(48). وإميل يكثر من الاستحمام وكلما اشتد عوده قلل من حرارة الماء إلى أن يستحم أخيراً بالماء البارد، بل الثلج، صيف شتاء. وتفادياً للخطر يكون هذا التغير بطيئاً، تدريجياً، غير محسوس(49). ونادراً ما يلبس على رأسه أي غطاء، وهو يمشي حافياً طوال السنة إلا إذا خرج من بيته وحديقته. "يجب أن يعود الأطفال على البرد لا على الحر، فالبرد الشديد لا يضرهم إطلاقاً إذا تعرضوا له في بواكير حياتهم"(50). وشجعوا محبة الطفل الطبيعية للنشاط والحركة "فلا تتركوه على السكون إن أراد الجري، ولا على الجري إن أراد القعود... فليجر، وليقفز، وليزق ما شاء(51). وابتعدوا عنه الأطباء ما استطعتم(52). ودعوه يتعلم بالممارسة لا بالكتب ولا حتى بالتعليم. والمعلم الذكي يرتب المسائل والواجبات، ويدع تلميذه يتعلم من ضربة تصيب إبهامه أو صدمة تصيب قدمه، وهو يحميه من الأذى البالغ لا من الألام التي تربيته. إن الطبيعة خير هادٍ، ويجب أن تتبع في أمر الأذى الذي نعرفه في هذه الحياة: "فلنكن قاعدتنا التي لا نزاع عليها أن الدوافع الأولى للطبيعة صواب دائماً. ليس في القلب البشري خطيئة أصلية. فلا تعاقب تلميذك أبداً، لأنه لا يعرف معنى الخطأ. ولا تجعله يقول "سامحني"... فهو في أفعاله التي لا صبغة أخلاقية لها لا يمكن أن يأتي خطأ من الناحية الأخلاقية، ولا يستحق عقاباً ولا تقريعاً... فابدأ بترك بذرة شخصيته حرة في الإفصاح عن نفسها، ولا تقسره على شيء، وبهذا يتكشف لك على حقيقته(53)". على أنه سيحتاج إلى التربية الخلقية، فبغيرها يصبح إنساناً خطراً تعساً. ولكن لا تعظه. فأن أردت لتلميذك أن يتعلم العدل والرحمة كن أنت عادلاً رحيماً فليقلدك. "القدوة القدوة! فبدونها لن تتجح في تعليم أي شيء للأطفال(54)". وهنا أيضاً قد تجد أساساً طبيعياً. فالخير والشر (من وجهة نظر المجتمع) كلاهما فطري في الإنسان، وعلى التربية أن تشجع الخير

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الفيلسوف -> إميل

وتثبط الشر. ومحبة الذات عامة، ولكن في الإمكان تعديلها حتى لتدفع الإنسان إلى اقتحام الأخطار الداهمة حفاظاً على أسرته، أو وطنه، أو عرضه. فهناك غرائز اجتماعية تحفظ الأسرة والجماعة كما أن هناك غرائز أنانية تحفظ الفرد(55). والرحمة قد تتبع من محبة الذات (كما يحدث حين نحب الأبوين الذين يغذواننا ويحمياننا)، ولكنها قد تؤتي ثماراً شتى في السلوك الاجتماعي والمعونة المتبادلة. ومن ثم فإن نوعاً من الضمير يبدو أنه عام وغريزي. "ألق ببصرك إلى كل أمة في الأرض، وأقرأ كل سفر من أسفار تاريخها، ففي جميع ألوان العبادة العجيبة القاسية هذه، وفي هذا التنوع المذهل من العادات والتقاليد، ستجد في كل مكان نفس الأفكار (الأساسية) أفكار الخير والشر... ففي أعماق قلوبنا مبدأ فطري للعدل والفضيلة نحكم بمقتضاهم -رغم قواعدنا- على أفعالنا؛ أو أفعال غيرنا، أخير هي أم شر، وهذا المبدأ هو الذي نسميه الضمير"(56).

ومن ثم ينطلق روسو في مناجاة سنجدها تتردد حرفياً تقريباً في كانت:
"إيه أيها الضمير! أيها الضمير! أيها الفطرة المقدسة، والصوت الخالد الآتي من السماء، الهادي الأمين لإنسان هو جاهل محدود حقاً، ولكنه ذكي حر؛ أيها القاضي المعصوم والفيصل بين الخير والشر، الذي يجعل الإنسان شبيهاً بالله، فيك يكمن سمو طبيعة الإنسان وفضيلة أفعاله، لست أجد في نفسي إذا انفصلت عنك شيئاً يرفعي فوق البهائم-لا شيء إلا امتياز مؤسف-هو قدرته على أن يهيم من خطأ إلى خطأ بمعونة ذكاء طليق من كل قيد وعقل لا يعرف له مبدأ(57)".

إذن فالتربية العقلية يجب ألا تبدأ إلا بعد تكوين الخلق الفاضل، ويسخر روسو من نصيحة لوك بمناقشة الأطفال منطقياً:

"إن الأطفال الذين كانوا يناقشون عقلياً باستمرار يبدون لي غاية في البلاهة. فالعقل هو آخر ما ينمو من قدرات الإنسان وأسماءها-وأنت تريد أن تستخدمه لتدريب الطفل المبكر؟ وجعل الإنسان منطقياً هو الحجر الأعلى

صفحة رقم : 13117

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الفيلسوف -> إميل

في التربية الحسنة، ومع ذلك تريد أن تربي الطفل عن طريق عقله. إنك إذن تبدأ من الطرف الخطأ(58)".
كلا، بل يجب أن تؤجل التربية العقلية. "أبق ذهن الطفل (فكره) عاطلاً أطول ما تستطيع(59)", فإذا كانت له آراء قبل أن يبلغ الثانية عشرة فتق أنها ستكون سخيفة. ولا تزعه في هذه السن بالعلم، بهذا سباق لا نهاية له، كل ما نكتشفه فيه إنما يزيدنا جهلاً وغروراً أحمق(60). فدع تلميذك يتعلم حياة الطبيعة وأساليبها بالتجربة، دعه يستمتع بالنجوم دون الزعم بأنه يتتبع تاريخها.
ويمكن أن تبدأ التربية العقلية في الثانية عشرة، ويجوز لإميل أن يقرأ بعض الكتب. ويستطيع أن ينتقل من الطبيعة إلى الأدب بقراءة روبنسن كروزو، لأنها قصة رجل جاز-على جزيرة-بمختلف المراحل التي جاز بها الناس من الهمجية إلى المدنية. ولكن إميل لا يكون قد قرأ كتباً كثيرة حين يبلغ الثانية عشرة، وسيضرب صفحاً عن الصالونات والفلاسفة، ولن يكترب للفنون، لأن الجمال الحق الوحيد كائن في الطبيعة(61). ولن يصبح أبداً "موسيقياً، أو ممثلاً، أو مؤلفاً(62)", بل سيكون قد اكتسب مهارة كافية في حرفة ما ليكسب قوته بعمل يديه أن اقتضته الظروف يوماً ما (وبعد ثلاثين عاماً سيدم الكثير من المهاجرين الذين لا حرفة لهم على أنهم سخروا كما سخر فولتير من النجار النبيل(63). على أية حال يجب أن يخدم إميل المجتمع بيديه أو بعقله (رغم أنه وارث لثروة متواضعة)، "فالرجل الذي يأكل وهو عاطل ما لم يكسبه بجهده ليس إلا لصاً(64)".

ب - ديانتته

وأخيراً نستطيع أن نحدث إميل عن الله إذا بلغ الثامنة عشرة:
"إني أعلم أن الكثير من قرائي سيدهشهم أن يجدوني منتبهاً سير تلميذي خلال سنه الأولى دون أن أحده في الدين. إنه وهو في الخامسة عشرة لن يعرف حتى أن له نفساً، وقد لا يكون في الثامنة عشرة مهيناً بعد للإمام

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الفيلسوف -> إميل

بهذه الحقيقة... ولو كان عليّ أن أصور الغباوة في أفجع أشكالها لصورت معلماً متحذلقاً يلقن التعليم الديني للأطفال، ولو أردت أن أخرج طفل عن طوره لطلبت إليه أن يشرح ما تعلمه في دروسه الدينية... لا شك أننا يجب أن لا نضيع لحظة واحدة إن وجب أن نكون مستحقين للخلاص الأدبي، ولكن إذا كان تكرار ألفاظ معينة يكفي للحصول على هذا الخلاص فلست أرى لم لا نملأ السماء بالزراير العقاقق كما نملؤها بالأطفال(65)".

ثم جرد روسو أمضى سهامه على جماعة الفلاسفة، رغم إعلانه هذا الذي أثار غضب رئيس أساقفة باريس. وليتصور القارئ فولتير أو ديدرو يقرأان هذا الكلام:

"لقد استشرت جماعة الفلاسفة، فوجدتهم كلهم سواء في الغرور، والجزم، والدجماطية، يتظاهرون-حتى في شكوكيتهم المزعومة بأنهم عليمون بكل شيء، لا يثبتون شيئاً، ويهزأ بعضهم ببعض. وقد بدت لي... هذه الخاصة الأخيرة، النقطة الوحيدة التي أصابوا فيها. فهم ضعاف في الدفاع رغم تبجحهم في الهجوم. زن حججهم تجدها كلها مدمرة، وأحص أصواتهم تجد كلاً منهم يتحدث عن نفسه وحده... وما من واحد فيهم-إن تصادف واكتشف الفرق بين الباطل والحق-لا يؤثر باطله على الحق الذي اكتشفه غيره من قبله. فأين الفيلسوف الذي يعف عن خداع الدنيا بأسرها في سبيل مجده(66)".

ومع أ، روسو واصل تنديده بالتعصب، فإنه على نقيض ببل أدان الكفر لأنه أشد خطراً من التعصب. وقدم لقرائه "إعلاناً بالإيمان" رجا به أن يحول التيار من إلحاد دولباخ، وهلفتيوس، وديدرو، وعوداً إلى الإيمان-الذين التقى بهما في صباه، فمزج بينهما وأخرج من المزيج كاهناً وهمياً في سافوي، وأنطق هذا الكاهن الريفى بالمشاعر والحجج التي بررت (في نظر روسو) العودة إلى الدين.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الفيلسوف -> إميل

ويصور روسو كاهن سافوي قسيساً على أبرشية صغيرة في الألب الإيطالية. وهو يعترف سراً بشيء من الشكوكية، ويرتاب في الوحي الإلهي للأنبياء، وفي معجزات الرسل والقديسين، وفي صحة الإنجيل(67)؛ ثم يتساءل كما تسأل هيوم "من يجرؤ على أن يخبرني كم شاهد عيان يقتضيه إقناعنا بتصديق معجزة ما؟(68)" وهو يفض صلاة التضرع، فصلواتنا يجب أن تكون ترانيم لمجد الله، وتعبيرات عن امتثالنا لمشيئته(69). وهو يرى الكثير من مواد العقيدة الكاثوليكية حديث خرافة أو أساطير الأولين(70). ومع ذلك يشعر بأنه يحسن خدمة شعبه بكتمان شكوكه، وممارسة العطف على الجميع والبر بهم (مؤمنين مغير مؤمنين على السواء). وأداء طقوس الكنيسة الرومانية كلها بأمانة. فالفضيلة ضرورية للسعادة، والإيمان بالله، وبحرية الإرادة، وبالجنة، وبالنار، ضروري للفضيلة، والأديان رقم ما قارنت من جرائم جعلت الرجال والنساء أكثر فضيلة، أو على الأقل أقل قسوة ولؤماً مما كان يمكن أن يكونوا.

فإذا بشرت هذه الأديان بعقائد تبدو لنا غير معقولة، أو إذا أرهقتنا بطقوسها ومراسمها، وجب أن نسكت شكوكنا في سبيل الجماعة.

والدين صواب في جوهره حتى من وجهة نظر الفلسفة. ويستهل الكاهن الكتاب كديكارت بقوله "إنني موجود ولي حواس أتلقى من خلالها الانطباعات، هذه أولى الحقائق التي تسترعي انتباهي، وأنا مضطر إلى قبولها(71)". وهو يرفض رأي باركلي: "إن سبب أحاسيسي خارج عني، لأنها تؤثر فيّ سواء كان عندي داع لها أو لم يكن، وهي تخلق وتهدم مستقلة عني. إذن توجد كيانات أخرى فضلاً عني". ونقطة ثالثة ترد على هيوم وتسبق كانت: أنني أجد لدي القدرة على المقارنة بين أحاسيسي، إذن فقد وهبت قوة إيجابية للتعامل مع التجربة(72). وهذا العقل لا يمكن تفسيره على أنه شكل من أشكال المادة، فليس في فعل التفكير أمارة على عملية مادية أو ميكانيكية. أما كيف يستطيع عقل غير مادي يؤثر في جسم مادي فذلك أمر يجاوز فهمنا، ولكنه حقيقة تدرك للتو، ويجب ألا ننكرها لأجل الاستدلال

صفحة رقم : 13120

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الفيلسوف -> إميل

المجرد. وعلى الفلاسفة أن يتعلموا الاعتراف بأن شيئاً ما قد يكون حقيقياً ولو عجزوا عن فهمه-خصوصاً إذا كان يدرك بأسرع من جميع الحقائق.

والخطوة التالية (كما يسلم الكاهن) هي الاستدلال العقلي الخاص. فأنا لا أدرك الله بحسي، ولكن استدلت عقلاً على أنه كما أن في أفعالي الإرادية عقلاً هو السبب المدرك للحركة، كذلك هناك على الأرجح عقل كوني وراء تحركات الكون. وإن الله لا يمكن معرفته، ولكن أشعر أنه تعالى موجود وفي كل مكان. وأبصر قصداً في منات الحالات، من تكوين عيني إلى حركات النجوم، وينبغي ألا أفكر في أن أنسب إلى الصدفة (مهما ازداد تكاثرها "على طريقة ديدرو") تكييف الوسائل وفق الغايات في الكائنات الحية ونظام العالم، أكثر مما أنسب إلى الصدفة تجميع الحروف جميعاً لذيذاً في طبع الإنياذة(73).

فإذا كان هناك إله ذكي وراء عجائب الكون، فمحال أنه سيسمح بأن يهزم الحق هزيمة دائمة. ولا بد لي من الإيمان بإله يؤكد انتصار الخير، ولو لأتخاشى ذلك الإيمان الكئيب بانتصار الشر. إذن يجب أن أؤمن بحياة آخرة، بجنة تجزي فيها الفضيلة. ومع أن فكرة الجحيم تقزني، وأوثر عليها الاعتقاد بأن الأشرار يصلون نار جهنم في قلوبهم، فإنني متقبل حتى تلك العقيدة الرهيبة إذا اقتضاها ضبط الدوافع الشريرة في الإنسان. وفي تلك الحالة أتوسل إلى الله ألا يجعل الجحيم خالدة(74). ومن ثم كانت فكرة المطهر باعتباره مكاناً للعقوبة الممكن اختزالها للخطة جميعاً إلا أشدهم عناداً وعصياناً أكثر إنسانية من تقسيم الموتى كلهم إلى فريق المباركين إلى الأبد، والهالكين إلى الأبد. وهبنا عاجزين عن البرهان على وجود الجنة، فيالها من قسوة أن ننتزع من الناس هذا الرجاء الذي يعزيهم في أحزانهم ويشدد عزائمهم في هزائمهم(75). ولو انعدم الإيمان بالله وبالآخرة؛ لتعرضت الفضيلة للخطر وتجردت الحياة من معناها، لأن الحياة في الفلسفة الملحدة صدفة آلية تمر بمنات الآلام إلى موت أليم أبدي.

صفحة رقم : 13121

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الفيلسوف -> إميل

وعليه وجب أن نتقبل الدين على أنه في مجموعه عطية كبرى للبشر ول حاجة بنا إلى أن نعلق أهمية كبرى على شتى المذاهب التي مزقت المسيحية، فكلها خير إذا حسنت السلوك وغذت الرجاء. ومن السخف أن نفترض أن أصحاب العقائد والآلهة والأسفار المقدسة الأخرى سوف يحكم عليها بالهلاك، "فلو لم يكن على الأرض سوى دين واحد؛ ولو حكم على كل الخارجين عنه بالعقاب الأبدى. لكان إله ذلك الدين أظلم الطغاة وأفساهم(76). وعليه فلت يعلم إميل لوناً بعينه من المسيحية، ولكننا سنعطيه الوسيلة لأن يختار لنفسه حسبما يرنثيه عقله صواباً(77). وخير الطرق أن نمضي في الدين الذي ورثناه عن آباءنا أو مجتمعنا. ونصيحة كاهن روسو الوهمي هي "عد إلى وطنك؛ ارجع إلى دين آباءك، واتبعه بكل قلبك ولا تتخل عنه أبداً فهو بسيط جداً ومقدس جداً، وما من دين آخر تجد فيه الفضيلة أشد نقاء، ولا العقيدة أكثر إشباعاً للعقل(78)".

وكان روسو عام 1754 قد سبق إلى هذه النصيحة، وعاد إلى جنيف وعقيدتها، على أنه لم يق بوعده الذهاب إليها والإقامة فيها بعد أن يسوي أموره في فرنسا. وفي "رسائل من الجيل" التي كتبها بعد عشر سنوات تنكر لمعظم دين آباءه كما سنرى. وفي العقد الأخير من حياته سنجده بوصي غيره بالدين، ولكنه لا يكاد يبدي أماراً على الإيمان الديني أو الممارسة الدينية في حياته اليومية. وأجمع الكاثوليك والكلفنيون واليسوعيون على مهاجمته هو "وإعلان الإيمان" الذي ناب عن عقيدته لأنهما أساساً غير مسيحيين(79). وصدمة التعليم الذي اقترحه لإميل قراءه المسيحيين لأنهم رأوه في حقيقته تعليماً لا دينياً، وخامرهم الظن في أن فتى من أواسط الشباب، نشأ على غير دين، لن يعتنق ديناً بعد حين، إلا لداعي المصلحة الاجتماعية. وقد رفض روسو عقيدة الخطيئة الأصلية والدور الفدائي الذي يؤديه موت المسيح وذلك برغم قبوله الرسمي للكفنية. وأبى قبول العهد القديم بوصفه كلمة الله، وذهب إلى أن العهد الجديد "يحفل بأشياء لا يمكن تصديقها، أشياء ينفر منها العقل(80)". ولكنه أحب الأناجيل لأنها أعظم الأسفار تأثيراً وإلهاماً للنفس.

صفحة رقم : 13122

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الفيلسوف -> إميل

أيمكن أن يكون كتاب اجتمع له كل هذا الجلال والبساطة في وقت معاً من عمل إنسان؟ أيمكن أن يكون ذلك الذي احتوى تاريخه فيها مجرد إنسان؟...إي رقة وطهر في أفعاله، وأي نعمة تمس القلوب في تعاليمه، وما أسمى أقواله، وما أعمق حكمة مواظمه، وما أعظم إجاباته سداداً وتميزاً وأي إنسان، وأي حكيم يستطيع أن يحيى ويتألم ويموت دون ضعف أو تباها؟...إذا كانت حياة سقراط وموته هما حياة فيلسوف وموته، فحياة المسيح وموته هما حياة إله وموته(81).

ج - حبه وزواجه

حين أختتم روسو صفحات كاهن سافوا الخمسين وعاد إلى إميل تصدى لمشاكل الجنس والزواج. فهل يحدث تلميذه عن الجنس؟ لا تفعل حتى يسألك. فإذا سألك فأخبره بالحقيقة(82). ولكن افعل كل ما يتفق والصدق والصحة لكي توجل وعيه بالجنس. على أي حال لا تنبه هذا الوعي: "إذا اقتربت السن الحرجة فقدم للشباب من

المشاهد ما هو كفيف بالحد من رغباتهم الجنسية لا بإثارتها...أبعدهم عن المدن الكبيرة حيث يجعل لباس النساء اللاتي يعرضنه في زهو وتباه، وتعجل جراتهن دوافع الطبيعة وتستيقها، وحيث يعرض كل شيء على أبصارهم، لذات يجب ألا يعرفوا عنها شيئاً حتى يبلغوا من العمر ما يمكنهم أن يختاروا بأنفسهم...وإذا أبقاهم ميلهم للفنون في المدينة فأبعدهم عن...حياة التبتل. واختر بعناية عشراءهم، وشواغلهم وملاهيهم، ولا ترهم شيئاً غير الصور المحتشمة المثيرة للشفقة...وغير حسهم المرهف دون أن تثير حواسهم(83)".
وأقلقت روسو العواقب الوخيمة لعادة يبدو أنه عرفها معرفة خبير:
"حذار أن تترك الفتى ليلاً ولا نهاراً، وعليك على الأقل أن تقاسمه حجرته. وإياك أن تسمح له بالذهاب إلى فراشه حتى يأخذ الكرى بجفونه، ثم أجعله ينهض بمجرد استيقاظه...فلو أنه اعتاد هذه العادة الخطرة

صفحة رقم : 13123

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الفيلسوف -> إميل

لهلك. فسيتنبه جسمه ونفسه من تلك اللحظة فصاعداً، وسيحمل إلى الغير آثار...أضر عادة يكتسبها شاب".
ثم يضع هذا القانون لتلميذه.
"إن عجزت عن التحكم في شهواتك يا عزيزي إميل فأني أرثي لك، ولكني لن أتردد لحظة، فلن أسمح بالروغان من مقاصد الطبيعة. وإذا كان حتماً عليك أن تكون عبداً فإني أؤثر أن أسلمك إلى طاغية قد أنقذك منه، فمهما حدث، فإذ قادر على تحريرك من العبودية للنساء بسهولة أكثر من عبوديتك لنفسك(84)".
ولكن لا تدع رفاقك يغروروك بالذهاب إلى ماخور! "فلم يريد هؤلاء الفتيان إغرائك؟ لأنهم يرغبون في إفسادك...فحافزهم الوحيد هو غل دفين لأنهم يرونك خيراً منهم، فهم يريدون أن يجروك إلى الهوة التي تردوا فيها".
والزواج خير من هذا. ولكن ممن؟ يصف المعلم الممثل الأعلى للفتاة، والمرأة، والزوجة، ويحاول أن يطبع ذلك المثل على ذهن إميل هادياً له وهدفاً في البحث عن زوجة. وكان روسو يخاف النساء المسترجلات المسيطرات، الوقحات، ويرى سقوط الحضارة في تسلط النساء المسترجلات استرجالاً متزايداً على الرجال المخنثين تخنثاً متزايداً "في كل بلد تجد أن الرجال من النوع الذي تصنعه النساء...فردوا النساء إلى الأنوثة، نعد رجالاً مرة أخرى(85)". أن نساء باريس يغتصبن حقوق جنس دون أن يردن التخلي عن حقوق الآخر، وهن لذلك لا يملكن هذه ولا تلك مكتملة(86).
والقوم يتصرفون بطريقة أفضل في الأقطار البروتستانتية حيث الحشمة ليست أضحوكة بين المسفطين بل وعداً يبشر بأمومة أمينة(87). أن مكان المرأة في البيت، كما كانت الحال عند قدماء اليونان، ويجب أن تقبل زوجها سيداً ولكن يجب أن تكون صاحبة الكلمة العليا في البيت(88). وبهذه الطريقة تصان صحة النوع.

صفحة رقم : 13124

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الفيلسوف -> إميل

ويجب أن تهدف تربية الفتيات إلى إخراج أمثال هؤلاء النساء. يجب أن يربين في البيت على أيدي أمهاتهن، وأن يتعلمن كل فنون البيت، من الطهو إلى التطريز، وأن يحصلن الكثير من الدين، بأسرع ما يمكن، لأن من شأن هذا أن يعينهن على الحشمة، والعفة، والطاعة. وعلى البنت أن تقبل دين أمها دون جدل، ولكن على الزوجة أن تترضي دين زوجها (89) على أية حال لتتجنب الفلسفة وتحترق حياة الصالونات (90). على أنه يجب ألا تكره الفتاة على الإحجام الغبي، فينبغي أن تكون خفيفة الروح، مرحة، تواقفة، وأن تغني وترقص كما تشتهي، وتستمتع بكل لذات الشباب البريئة، ولتذهب إلى المراقص والألعاب الرياضية، وحتى إلى المسارح تحت الملاحظة الواجبة وفي صحبة طيبة (91). ويجب العمل على أن يظل ذهنها نشيطاً بقطاً إن أريد بها أن تكون زوجة صالحة لرجل مفكر "ولا بأس بأن يُسمح لها بقدر من التذلل" باعتبار هذا جزءاً من اللعبة المعقدة التي تختبر بها خطابها وتختار زوجها (92). إن الرجل هو موضوع الدراسة الصحيحة لجنس النساء (93).

فإذا ثبت هذا المثل الأعلى للفتاة والمرأة في أمال إميل جاز له أن يخرج ويبحث عن زوجته. وهو الذي يختار، لا أبواه ولا معلمه. ولكن من واجبه نحوهم ونحو حديهم عليه سنياً طويلاً، أن يستشيرهم في احترام. أتريد أن تذهب إلى المدينة وتتطلع إلى الفتيات اللاتي يعرضن هناك؟ حسناً جداً، سنذهب إلى باريس وسترى بنفسك حقيقة هؤلاء الأوانس المثيرات. وهكذا يعيش إميل برهة في باريس ويختاطب "المجتمع الراقي". ولكنه لا يجد فيه فتاة من النوع الذي وصفه له معلمه الماكر "إن ذاعاً يا باريس الذائعة الصيت، بكل ما فيك من ضجيج ودخان وقذارة، حيث كفت النساء عن الإيمان بالشرف، والرجال عن الإيمان بالفضيلة، إننا نبحت عن الحب والسعادة والبراءة، وكلما بعدنا عن باريس كان خيراً لنا (94).

وعليه يقل المعلم وتلميذه إلى الريف، وإذا هما يصادفان صوفي في قرية هادئة نائية عن الزحام المجنون. هنا (الكتاب الخامس) تتحول

صفحة رقم : 13125

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الفيلسوف -> إميل

رسالة روسو إلى قصة حب مثالية التصوير ولكنها مبهجة، تروى ببراعة كاتب قدير. فبعد تلك الأحاديث المسهبة في التعليم والسياسة والدين، يعود إلى الشاعرية والخيال، وبينما تنكب تريز على أشغال بيتها، يعاود أحلامه بتلك المرأة الرقيقة التي لم يجدها إلا في لحظات متفرقة من جولاته، ويطلق عليها اسماً اشتقه من آخر غرام أشتعل في قلبه. وصوفي الجديدة هذه ابنة سيد كان يوماً ما ثرياً، يعيش الآن في عزلة وبساطة قانعين. فتاة صحيحة الجسم، جميلة، محتشمة، رقيقة-ونافعة وتعين أمها بكفايتها السريعة الهادئة في كل شيء "ما من شيء لا تستطيع عمله بآبرتها (95)".

ويجد إميل المبرر لمعاودة لقائها، وتجد هي المبرر لمزيد من زيارته. وشيئاً فشيئاً يتضح له أن صوفي حائزة لكل الفضائل التي صورها له معلمه في صورة مثالية. فإلى للصدفة الإلهية! وبعد أسابيع يصل إلى القمة التي تدير رأسه، قمة لثم هذب ثوبها. وما هي إلا أسابيع أخر حتى يخطبها. ويصر روسو على أن تكون الخطبة احتفالاً رسمياً مهيباً فيجب أن نتخذ كل التدابير بالطوقوس وسواها-للتسامي بقديسية رباط الزوجية وإقرارها في الذاكرة، وبينما يرتعش إميل وهو على حافة النعيم، يحمله معلمه العجيب الذي يضرب بالحربة والطبيعة عرض الحائط على ترك خطيبته والغياب عنها عامين والسفر امتحاناً لمحبتهما ووفائهما. ويبيكي إميل ويصدع للأمر "إذا عاد وهو محتفظ بعذريته كأنما بمعجزة وجد صوف عفيفة في وفاء، فيتروجان، ويرشدهما المعلم إلى واجبات الواحد نحو صاحبه. فيطلب إلى صوفي أن تطيع زوجها إلا فيما يتصل بالفراش والمأكّل "ستهيمنين عليه طويلاً بالحب إذ جعلت وصلك له نادراً غالياً... وليكرم إميل عفة زوجته دون أن يشكو من برود عاطفتها (96). ويختتم الكتاب بنصر ثلاثي:

"ذات صباح" يدخل إميل حجرتي ويعانقني قائلاً: "هنئ ابنك يا أستاذي فهو يأمل أن يحظى بعد قلبي بشرف الأبوة. وما أعظم المسؤولية التي سنحملها وما أشد حاجتنا إليك؟ ولكن معاذ الله أن أدعك تربي

صفحة رقم : 13126

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الفيلسوف -> إميل

الولد كما ربيت الوالد، معاذ الله أن يقوم إنسان غيري بهذه المهمة اللذيذة المقدسة... ولكن واصل مهمة تعليم المعلمين الشابين. ابدل لنا النصح وأشرف علينا. وسيجلس قيادنا لك وسأحتاج إليك ما حييت... لقد أدبت واجبك فعلمي كيف أفتدي بك، بينما تستمتع أنت بالفراغ الذي تستحقه جزاء جهودك(97)".

لقد اتفق العالم عموماً بعد قرنين من الثناء، والسخرية، والتجربة على أن "إميل" كتاب جميل موح ومستحيل. فالتربية موضوع ثقيل، لأننا نتذكرها في ألم، ولا نحب أن نسمع المزيد عنها، ونكره أن تفرض علينا من جديد بعد أن أتمنا مدة الخدمة التي فرضت علينا في المدرسة. ومع ذلك فقد صنع روسو من هذا الموضوع المنفر رواية تسحر قارئها. فالأسلوب البسيط، المباشر الشخصي يأسرنا برغم ما شابه من تمجيد بليغ، ونحن ننساق للرواية ونسلم أنفسنا لذلك المعلم الكلي العلم، وأن ترددنا في إسلام أبنائنا له. ذلك أن روسو، بعد أن امتدح حذب الأم وحياتة الأسرة، يأخذ إميل من أبويه وينشئه في عزلة مضادة للفساد عن المجتمع الذي لابد له من العيش فيه بعد حين. وروسو لم يرب أطفالاً قط، لذلك لا يعلم أن الطفل المتوسط هو بـ "الطبيعة" لص صغير، غيور، جشع، مسيطر، ولو انتظرنا حتى يتعلم الانضباط دون أوامر، والاجتهاد دون تعليم، لشب إنساناً سيئ التكيف، بليداً قليل الحيلة، فوضوياً، قدر الجسم أشعث الشعر، لا يطاق. وأنى لنا هؤلاء المعلمون الخصوصيون الراجبون في تكريس عشرين عاماً من حياتهم لتربية طفل واحد؟ تقول مدام دستال (1810) أن هذا الضرب من العناية والاهتمام... ويضطر كل رجا إلى تكريس حياته كلها لتربية مخلوق آخر، ولا تتاح الحرية في النهاية إلا للأجداد ليهتموا بمصالحهم(98).

وأكبر الظن أن روسو أدرك هذه الصعوبات وغيرها بعد أن أفاق من نشوة تأليف كتابه. فقد جاءه في ستراسبورج عام 1765 أحد المتحمسين له وهو يتدفق ثناء وقال له "سيدي إنك ترى رجل ينشئ أبناءه على المبادئ التي أسعده أن يتعلمها من كتابك إميل". وقال روسو

صفحة رقم : 13127

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو الفيلسوف -> إميل

غاضباً "هذا أسوأ لك ولأبنك"(99). وفي الرسالة الخامسة من "رسائل من الجيل" بين أنه لم يؤلف إميل للأباء العاديين بل للحكام "لقد أوضحت في المقدمة أن اهتمامي كان بتقديم خطة نظام جديدة للتربية لينظر فيه الحكماء، لا طريقة يستخدمها الآباء والأمهات(100)". فهو كمعلمه أفلاطون انتزع الطفل من أذى أبويه مؤملاً أن يصبح صالحاً

لتربية أطفاله بعد أن اكتملت له التربي المنفذة. وكأفلاطون "ذخر في السماء أنموذجاً لحالة أو طريقة مثالية، حتى يشهدها كل راغب، فإذا شهدها استطاع أن يوجه نفسه وفقها(101)". وقد أذاع على الناس حلمه هذا، عسى أن يحمل الإلهام في بلدٍ ما، لبعض الرجال والنساء، ويعين على صلاح الحال. وقد فعل.

صفحة رقم : 13128

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> الهروب

الفصل الثامن

روسو المنبوذ

1762 - 1767

1- الهروب

عجيب أن يفلت من الرقيب كتاب يحوي ما حوى إميل من هجوم صريح على كل شيء إلا أسس المسيحية، وأن يطبع في فرنسا. ولكن الرقيب كان مالزيرب المتسامح العطوف. وقبل أن يأذن بالنشر حث روسو على أن يحذف فقرات من المؤكد أنها تدفع الكنيسة إلى العداء النشط. ولكن روسو رفض. ولقد نجا زنادقة آخرون من الاضطهاد لأشخاصهم بالتخفي وراء أسماء مستعارة، أما روسو فقد ذكر اسمه بشجاعة على صفحات غلاف كتبه. وبينما ندد جماعة الفلاسفة بإميل باعتباره خيانة أخرى للفلسفة، أدانه أحرار فرنسا وقضاة باريس وجنيف باعتباره مروقاً من المسيحية. وأعد رئيس أساقفة باريس، عدو الجنسين، للنشر في أغسطس 1762 رسالة قوية تهاجم الكتاب. وكان برلمان باريس المناصر للجنسين مشغولاً بطرد اليسوعيين، ولكنه أراد رغم ذلك أن يبدي غيرته على الكاثوليكية، وأتاح له ظهور إميل فرصة ليضرب ضربته دفاعاً عن الكنيسة. واقترح مجلس الدولة الذي كان يخوض حرباً مع البرلمان، ويكره أن يكون دونه غيرة على سلامة العقيدة، أن يلقي القبض على روسو. فلما نمت الخبر إلى أصدقاء روسو من النبلاء نصحوه بالرحيل فوراً من فرنسا. وفي 8 يونيو بعثت إليه مدام دكريكي رسالة تشي بانفعالها. قالت: لا ريب في أن أمراً صدر بالقبض عليك. فاستحلفك بالله أن تهرب... إن حرق كتابك لن يضريك أما شخصك فلا يطبق السجن. فاستشر جيرانك(1).

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> الهروب

أما الحيران فكانا مرشال ومرشالة لكسمبورج. وقد خشيا أن يتورطا في الأمر لو قبض على روسو (2)، فحناه هو وأمير كونتي على الهروب إلى سويسرا، وأعطوه مبلغاً من المال وعربة لعبير بها الطريق الطويل من فرنسا إلى سويسرا. وأدعن روسو على مضض. وترك تريبز في رعاية المرشالة. وبرح مومورني في 9 يونيو. في ذلك اليوم حضر مرسوم بالقبض عليه ولكنه نُفذ ببطء رحيم، لأن الكثيرين من رجال الحكومة سرهم أن يتركوه يهرب. وفي ذلك اليوم ذاته قال الأستاذ أومير جولي دفلوري لبرلمان باريس وهو يلوح بنسخة من إميل: "يبدو أن هذا العمل أُلّف لهدف واحد هو رد كل شيء إلى الدين الطبيعي، وتطوير ذلك النظام الإجرامي في خطة المؤلف لتربية تلميذه..."

وأنه ينظر إلى جميع الأديان على أنها تستوي في الخير، وعلى أنها كلها منبعثة من مناخ الناس، وحكومتهم وطبيعتهم.. وأنه بناء على هذا يجرؤ على هدم صحة الكتاب المقدس والنبؤات، ويقينية المعجزات الواردة في الأسفار المقدسة. وعصمة الوحي، وسلطان الكنيسة.. وهو يسخر من الدين المسيحي ويجدف عليه. ذلك الدين الذي هو وحده من صنع الله.

ومؤلف هذا الكتاب الذي جرؤ على وضع اسمه عليه يجب القبض عليه بأسرع ما يمكن. ومن الأهمية لمكان، أن تجعل العدالة من المؤلف وأولئك الذين... شاركوا في طبع هذا الكتاب وتوزيعه مثلاً وعبرة للناس بكل صرامة. ومن ثم فقد أمر البرلمان:

بأن يمزق الكتاب المذكور ويحرق في فناء القصر (قصر العدالة) أسف السلم الكبير، بيد كبير الجلادين، وعلى كل الذي يملكون نسخاً من الكتاب أن يسلموها إلى المسجل لإبادتها، ومحظور على الناشرين طبع هذا الكتاب أو توزيعه، وسيقبض على جميع بائعيه وموزعيه ويعاقبون طبقاً لنص القانون الصارم، ويجب القبض على ج-ج روسو وزجه في سجن الكونسيرجري في قصر العدالة (3).

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> الهروب

وفي 11 يونيو مزق وحرق إميل كما نص الأمر، ولكن روسو كان قد وصل إلى سويسرا. أمرت الحوذي أن يقف لحظة دخولي إقليم برن وخرجت من مركبتي، وخررت على وجهي، وقبلت الأرض وصحت في غمرة فرحي: "حمداً لك أيتها السماء، حامية الفضيلة، إنني ألمس أرضاً للحرية (4)".

ولم يكن مطمئناً كل الاطمئنان. فواصل ركوبه إلى إيفردون، قرب الطرف الجنوبي لبحيرة نوشاتل، في مقاطعة برن، وهناك مكث شهراً مع صديقه القديم روجان. أبحاث عن منزل في جنيف؟ ولكن في 19 يونيو أذان مجلس الخمسة والعشرين الذي يحكم جنيف كلاً من "الإميل" و "العقد الاجتماعي" لأنهما خارجان على التقوى، فاضحان، وقحان، مفعمان بالتجديف والافتراءات على الدين. وقد جمع المؤلف تحت ستار الشك كل ما من شأنه أن يضعف المقومات الرئيسية للدين المسيحي المنزل، ويهزها ويهدمها... ويتعاطم خطر الكتابيين ووجوب شجبهما لأنهما مكتوبان بالفرنسية (لا باللاتينية التي لا تعرفها غير القلة) بأسلوب شديد الإغراء، منشوران باس مواطن جنيفي(5). وعليه فقد أمر المجلس بحرق الكتابيين، وحرّم بيعهما، وأصدر مرسوماً بالقبض على روسو إذا دخل يوماً ما أرض الجمهورية. ولم يتعرض قساوسة جنيف على هذا التبرؤ من أشهر أبناء جنيف الأحياء. ولا ريب في أنهم شعروا بأن أي عطف يبذونه لمؤلف "إعلان بإيمان كاهن سافوي"، سيؤكد ما كشفه دالامبير عما يبطنونه من ميول للتوحيد، وانقلب عليه يعقوب فيرن الذي ظل صديقاً له سنين كثيرة، وطالب بأن يسحب روسو أقواله. يقول روسو وهو يذكر ذلك الموقف "لو سرت بين الجماهير أي شائعة عني لأضرت بي، وقد عاملني كل مروجي الإشاعات والمتفقيهن كأنني تلميذ مهتد بالجلد لأنه لم يحسن حفظ درسه الديني(6)". وتأثر فلونير من موقف غريمه، فلقد قرأ إميل، وتعليقاته ما زالت ترى على نسخته المحفوظة بمكتبة جنيف. وفي خطاب مؤرخ 15 يونيو كتب عن الكتاب "إنه خليط تهرف به مرضعة بلهاء في أربعة مجلدات بها أربعون

صفحة رقم : 13131

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> الهروب

صفحة ضد المسيحية من أجراً ما عرفنا... وهو يقول في الفلاسفة من الأشياء المؤذية قدر ما يقوله في المسيح، ولكن الفلاسفة سيكونون أكثر تسامحاً من القساوسة(7). على أية حال أعجبه "إعلان الإيمان" فقال عنه خمسون صفحة كاملة، ولكنه أضاف "من المؤسف أن يكون كاتبها... وغداً كهذا(8). وكتب إلى مدام دودفان صاحب مؤلف كاهن سافوي، مهما فعل ومهما يفعل(9).. ولما سمع أن جاك طريد لا مأوى له صاح "فليأت إلى هنا (إلى قريته).. يجب أن يأتي. سأستقبله بذراعتين مفتوحتين. سيكون هنا سيداً أكثر مني. سأعامله كأنه ابني(10)". وبعث بدعوته إلى خمسة عناوين مختلفة، ولا بد أنها وصلت إلى أحدها، لأن روسو أعرب فيما بعد عن أسفه لأنه لم يرد عليها(11). وفي 1763 جدد فلونير الدعوة، فرفضها روسو، واتهم فلونير بأنه حرض مجلس الخمسة والعشرين على إدانة "العقد الاجتماعي" و "إميل". ولكن فلونير أنكر التهمة، وبحق فيما يبدو. وفي بواكير يوليو 1762 أخطر مجلس الشيوخ برن روسو بأنه لا يستطيع السماح بوجوده في إقليم برن، وأن عليه أن يرحل عنه في بحر خمسة عشر يوماً وإلا واجه السجن. وتلقى خلال ذلك خطاباً رقيقاً من دالامبير ينصحه بأن يحاول الإقامة في إمارة نوشاتل، وكانت تقع في قضاء فرديريك الأكبر، ويحكمها إيرل ماريشال جورج كيث، الذي قال عنه دالامبير إنه سيستقبلك ويعاملك كما كان الآباء في العهد القديم يستقبلون ويعاملون الفضيلة المضطهدة(12). وتردد روسو، لأنه كان قد انتقد فرديريك زاعماً أنه طاغية في ثياب فيلسوف(13). ومع ذلك قبل في 10 يوليو 1762 دعوة ابنة أخي روجان مدام دلاتور، بأن ينزل بيتاً تملكه. موتيه-ترافير، على خمسة عشر ميلاً جنوب شرقي مدينة نوشاتل في بقعة سيصفها بوزويل بأنها واد بري بديع تحيط به الجبال الشاهقة(14). وحوالي 11 يوليو تقدم جان-جاك بالتماس إلى الحاكم، وبما تميز به من تواضع وإباء. كتب إلى: (ملك بروسيا).

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> الهروب

"لقد قلت فيك الكثير من سوء، وأغلب الظن أنني قائل فيك المزيد منه؛ ولكنني أنا مطارد من فرنسا ومن جنيف، ومن مقاطعة برن، جنّت ألتمس ملجأ وفي ولايتك... سيدي، لم أستحق منك فضلاً، ولا أطلب فضلاً، ولكنني أحسست بأن من واجبي أن أصرح لجلالتك بأنني في قبضتك، وأنني شئت أن أكون كذلك، ولجلالتك أن تتصرف معي كما تشاء". وكتب فرديريك إلى كيث في تاريخ غير مؤكد، وهو لم يفرغ بعد من حرب السنين السبع:

"يجب أن ننقذ هذا الشقي المسكين. فذنبه الوحيد أن له آراء غريبة يحسبها سديدة، سأرسل إليك مائة كروان، فتفضل بإعطائه منها ما يحتاج إليه. وأظنه سيقبلها عيناً بأسهل مما يقبلها نقداً، ولولا أننا نخوض حرباً، ولولا أننا أفلسنا، لبنيت له كوخاً بحديقة حيث يستطيع العيش كما عاش في ظني أباؤنا الأولون.... أظن أن روسو المسكين قد أختار المهنة الخطأ، فواضح أنه ولد ليكون ناسكاً مشهوراً، وأباً من آباء البرية يشتهر بنسكه وجلده لجسده. ختاماً أقول أن نقاء أخلاقيات صاحبك المتوحسن يعدل عدم منطقية عقله(15)".

أما المريشال، الذي يقول روسو إنه قديس بخيل، عجوز، شارذ الذهن، فقد أرسل إليه الزاد والفحم والخشب، وأقترح أن يبني له بيتاً صغيراً. وفسر جان-جاك هذا العرض بأنه أت من فرديريك، فرفضه، "ولكن منذ تلك اللحظة تعلقت به تعلقاً صادقاً حتى أصبحت أهتم الآن بمجده قدر ما كنت أرى انتصاراته إلى ذلك الحين ظالمة(16)". وفي أول نوفمبر، والحرب قاب قوسين من نهايتها، كتب إلى فرديريك يصف مهام السلم:

"مولاي:

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> الهروب

أنت حامي وولي نعمتي، وأن لي لقلباً خلق ليعرف الجميل، وأريد أن أبرئ نفسي معك إن استطعت. تريد أن تعطيني الخبز، أفليس بين رعاياك من يعوزه الخبز؟ أبعد عن عيني ذلك السيف الذي يومض ويجرحني... أن سيرة الملوك الذين أوتوا همتك عظيمة، وأنت لا تزال بعيداً عن ساعة منيتك، ولكن الوقت كالسيف، وليس أمامك لحظة واحدة تضيعها. أو تستطيع أن تعتزم الموت دون أن تكون أعظم الرجال قاطبة.

ولو أتيت لي يوماً أن أرى فرديريك العادل المرحوب يملأ بلاده في نهاية المطاف بشعب سعيد سيكون أباً له، إذن لذهب جان-جاك روسو عدو الملوك، ليموت فرحاً في أسفل عرشه(17)".

ولم يرد فرديريك رداً وصل إلينا علمه، ولكن حين ذهب كيث إلى برلين أخبره الملك بأنه تلقى توبيخاً من روسو(18). وحين خيل لجان-جاك أنه ضمن بيتاً يقيم فيه، أرسل إلى تريز لتلحق به. ولم يكن واثقاً من أنها ستأتي، لأنه أحس قبل ذلك بزم طويل بفتور محبتها له، وعزا هذا إلى توفقه عن الاتصال الجنسي بها، لأن "الاتصال بالنساء كان يؤدي صحتي(19)". فلعلها الآن تؤثر باريس على سويسرا. ولكنها حضرت. وكان لقاء ذرفاً فيه الدموع وتطلعا أخيراً إلى بضع سنين ينعمان فيها بالسلام.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> روسو رئيس الأساقفة

2- روسو ورئيس الأساقفة

ولكن السنوات الأربع التالية كانت أشقى ما لقبها. ذلك أن قساوسة نوشاتل الكلفنيين أدانوا روسو علانية بالهرطقة، وحظر القضاة بيع "إميل". واستأذن روسو راعي الكنيسة في موته في أن ينضم إلى شعب كنيسته، ربما ليهدئ ثائرة القساوسة، أو مدفوعاً برغبة صادقة في أتباع مبادئ كاهن سافوي، (أما تريز فظلت كاثوليكية)، فقبل واختلف إلى الكنيسة للصلاة، وتناول القربان "بعاطفة من القلب، وعيناها تملؤها دمع الحنان(20)". وأعطى الساخرين منه سلاحاً باتخاذ الزي الأرمني-قلنسوة من فراء،

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> روسو رئيس الأساقفة

وقفطان، وحزام. وأتاح له الروب الطويل أن يستر آثار حصر البول الذي ابتلي به. وكان يختلف إلى الكنيسة في هذا الزي، وارتداه وهو يزور اللورد كيث، الذي لم يعلق عليه إلا بتحيته بعبارة (السلام عليكم). وواصل الإضافة إلى دخله بنسخ الموسيقى، ثم أضاف إليها الآن أشغال الإبرة، وتعلم صناعة الدنتلا. كنت أحمل كالنساء مخدتي في زيارتي، أو أجلس لأشغل بالإبرة عند باب بيتي.. وأتاح لي هذا أن أنفق وقتي مع جاراتي دون أن أحي ملأ..(21). وأغلب الظن أن الناشرين أقنعوه في هذه الفترة (أو آخر 1762) بأن يبدأ كتابه "اعترافات" وكان قد أقسم أن يعتزل التأليف، ولكن هذا لن يكون تأليفاً بقدر ما هو دفاع عن خلقه وسلوكه ضد عالم من الخصوم، لا سيما ضد تهم جماعة الفلاسفة وشانعات الصالونات. أضف إلى ذلك أنه كان مضطراً إلى الرد على عدد كبير من مختلف الرسائل. وقدم له النساء على الأخص بخوراً معزباً من إعجابهم الشديد، لا لتعاطفهن فحسب مع المؤلف المطارد لرواية مشهورة، بل لأن نفوسهن كانت تهفو للرجوع إلى الدين، ولم يرين في "كاهن سافوي" وصانعه عدواً حقيقياً للدين، بل المدافع الشجاع ضد إلحاد يشيع الكآبة في النفوس. لمثل هؤلاء النساء ولرجال عديدين، غدا أب الاعتراف، ومرشداً للنفوس الضمائر. وقد نصحهم بأن يقيموا على دين شبابهم أو يعودوا إليه، ضاربين صفحاً عن كل الصعوبات التي يوحى بها العلم والفلسفة. فتلك العجائب البعيدة التصديق ليست هي الجوهر، ولا ضير في تحييتها في صمت، إنما العبرة بالإيمان بالله وبالخلود، فبهذا الأيمان والرجاء ستطيع الإنسان أن يتسامى فوق كل كوارث الطبيعة التي لا تقهم، وكل آلام الحياة وأحزانها. وطلب كاثوليكي شاب متمرد على دينه تعاطف روسو، فأجابه روسو ناسياً تمرداته ألا يهتم كثيراً

بالتواقة العارضة. "لو أنني ولدت كاثوليكيًا لظلت كاثوليكيًا، علمًا بأن كنيسةك تضع قيداً صحيحاً على شطحات العقل الذي لا يجد قراراً ولا شاطئاً حين يريد سبر أعماق الأشياء السحيقة(22)". وأشار على جل طلاب الحكمة هؤلاء

صفحة رقم : 13136

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> روسو رئيس الأساقفة

بالهروب من المدينة إلى الريف، ومن التكلف والتعقد إلى البساطة الطبيعية للحياة، والرضا الهادئ بالزواج والأبوة. وأحبت النساء اللاتي صدمهن القساوسة المتعلقون بالحياة الدنيا ورؤساء الدين المتشككون، هذا المهرطق الزاهد الذي ندد به جميع الكنائس، وإن اقتصر هذا الحب على الرسائل. فقالت مدام دبلو، النبيلة المحترمة، لجماعة من النبلاء والنبيلات، "ما من شيء يمنع امرأة ذات حس مرهف صادق من تكريس حياتها لروسو إلا أسمى ضروب العفة، لو كانت واثقة من أنه سيحبها حباً حاراً(32). وحسبت مدام دلاتور بعض ما جاء في خطابات له من مجاملات اعترافاً بالحب، فاستجابت في رقة وحرارة وتدفق وبعثت إليه بصورتها، مؤكدة أنها لا تتصفها. وابتأست حين أجاب بهدوء رجل لم يرها قط(24). إلا أن معجبات أخريات تمنين لو قبلن الأرض التي يمشي عليها، وأقامت بعضهن مذايح له في قلوبهن، ودعاه بعضهن المسيح المولود من جديد. وكان يصدقهن أحياناً، ورأى في نفسه المؤسس المطلوب لدين جديد(25).

وسط هذا التمجيد كله، أثار الشعب عليه كاهن أعلى من كهنة التمويل (الهيكل) كأنما لتأكيد القياس لبيدنيوه نائراً خطراً. ففي 20 أغسطس 1762 أصدر كرستوف ديومون، رئيس أساقفة باريس، رسالة لجميع الكهنة في أسقفية ليقربوا على شعبهم، ويعلنوا على الملأ، اتهامه لإميل ذات التسع والعشرين صفحة. وكان رجلاً صارم العقيدة طاهر السمعة، حارب الجانسنيين والموسوعية والفلاسفة؛ وبدا له الآن أن روسو، بعدما ظهر من انفصاله عن الملحدين، صد أنظم إليهم في مهاجمة الإيمان الذي يرتكز عليه في رأي رئيس الأساقفة نظام فرنسا الاجتماعي كله وحياتها الأخلاقية بأسرها.

واستهل اتهامه بالاستشهاد لما جاء في رسالة بولس الرسول الثانية إلى تيموثاوس:
"ستأتي أزمنا صعبة لأن الناس يكونون محبين لأنفسهم. متعظمين،

صفحة رقم : 13137

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> روسو رئيس الأساقفة

مستكبرين، مجدفين.. غير طاعين لو الديهم متصلفين، محبين للذات، دون محبة الله... أناس فاسدة أذهانهم ومن وجهة الإيمان مرفوضون(26)".

وهاهي قد جاءت تلك الأزمنة ما في ذلك شك:

"إن الكفر الذي تشجعه جميع الشهوات يلبس كل لبوس ليكيف نفسه على نحو ما وفق جميع الأعمار، والأشخاص والطبقات... فقد يستعير أسلوباً خفيفاً لطيفاً لعباً، ومن هنا الحكايات الكثيرة التي تستوي بذاءة وزندقة (روايات فولتير)، وترفه عن الخيال لأنها غواية للعقل ومفسدة للقلب. وقد يدعي الرجوع إلى الأصول الأولى للمعرفة متظاهراً بعمق آرائه وسموها، وبزعم له سنداً إليها، لكي يخلع نيراً يقولون إنه يجلل البشر بالعار. وقد يعلوا صوته كأنه امرأة غضبي فيهاجم الغيرة الدينية، ومع ذلك يبشر بالتسامح الشامل بحماسة. وقد يمزج الجد بالهزل في جمعه بين هذه الأساليب الكلامية المختلفة، ويخلط الحكم بالفحش، والحقائق الكبيرة بالأخطاء الكبيرة، والإيمان بالتجديف، ويأخذ على عاتقه باختصار-التوفيق بين النور والظلمة، وبين المسيح وبلبعال" (27).

وقال رئيس الأساقفة أن هذه الطريقة لجأ إليها إميل بصفة خاصة، فهو كتاب حفل بلغة الفلسفة دون أن يكون فلسفة حقاً، وطفح بننف من المعرفة لم تنثر المؤلف، وكل ما تفعله أنها تبرك قراءه لا محالة. أنه رجلٌ مولع بمفارقات الآراء والسلوك، يجمع بين بساطة العادات وخيلاء الفكر، بين الحكم القديمة وجنون التجديد؛ وبين احتجاب عزلته ورغبته في أن تعرفه الدنيا بأسرها. إنه يندد بالعلوم، ثم يصادقها. إنه يمتدح روعة الإنجيل، ثم يدمر تعاليمه. لقد أقام نفسه معلماً للنوع الإنساني ليخدعه، ومرشداً للشعب ليضل العالم، ونبياً للقرن ليهدمه، فبالها من مغامرة (28).

وهال رئيس الأساقفة ما أفترحه روسو من إغفال ذكر الله أو يدين لإميل حتى يبلغ الثانية عشرة أو حتى الثانية عشرة، فمعنى هذا أن "الطبيعة

صفحة رقم : 13138

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> روسو رئيس الأساقفة

كلها تكون قد تحدثت عبثاً بعظمة الخالق.. وأن كل تعليم خلقي سيفقد مساندة الإيمان الديني. ولكن الإنسان ليس بطبيعته خيراً كما زعم المؤلف. فهو يولد ملوثاً بالخطيئة الأصلية، وهو يشارك في إفساد البشرية العام. والمعلم الحكيم وخير المعلمين كاهن ترشده النعمة الإلهية-يتوسل بكل وسيلة سليمة ليغذي دوافع الخير في الناس، ويقتلع دوافع الشر، ومن ثم فهو يطعم الطفل بلبن الدين الروحي، لكي ينمو نحو الخلاص.. وبهذا التعليم وحده يمكن أن يغدو الطفل عابداً مخلصاً للإله الحق، وواحداً من رعايا الملك الأوفياء (29). وأن الكثير من الخطايا والجرائم ليظل باقياً حتى بعد هذا التعليم المجتهد، فما بالك بها إذا حرم الطفل منه. إن سيلاً عارماً من الشر يغرق في هذه الحالة (30)".

وقال رئيس الأساقفة في ختام كلامه إنه لهذه الأسباب:

"بعد استشارة عدة أشخاص عرفوا بورعهم وحكمتهم، وبعد التضرع لاسم الله القدوس، ندين هذا الكتاب لأنه يحوي تعليماً بغيضاً من شأنه أن يقلب القانون الطبيعي وأسس الدين المسيحي، وأن يرسي مبادئ تناقض تعليم الأنجيل الخلقي، وينحوا إلى تكدير سلام الدول. وترغم الثورة على سلطان الملك، ولأنه يتضمن الكثير جداً من الدعاوى الباطلة المفترية المفعمة بالحدق على الكنيسة وراعاتها. لذلك نحظر صراحة على جميع الأشخاص في أسقفيتنا أن يقرؤوا الكتاب المذكور أو يفتتوه، وإلا وقعوا تحت طائلة العقاب (31)".

وطبع هذه الرسالة "بامتياز الملك" وسرعان ما وصلت إلى موتيه-ترافير. وقرر روسو أن يرد عليها، وهو الذي كان على الدوام مصمماً على الكف عن الكتابة. وقبل أن يضع قلمه (18 نوفمبر 1762) كان قد أطلق له العنان حتى بلغ الرد 128 صفحة، وطبع بأمرستردام في مارس 1763، بهذا العنوان: "من جان-جاك روسو المواطن الجنيبي إلى كرسستوف ديمومون رئيس أساقفة باريس". وسرعان ما أدانه برلمان باريس ومجمع جنيف. ورد روسو على الهجوم الذي شنه عليه مذهلاً أوربا الكبيران

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> روسو رئيس الأساقفة

بالهجوم عليهما جميعاً. وراح الرومانسي الخجول الذي نبذ من قبل جماعة الفلاسفة يكرر الآن حججهم بجرأة مستهترّة.

وأستهل رده بسؤال ما زال يسأله جميع الخصوم بعضهم لبعض في هذا الجدل الذي لا ينتهي. "لم يتحتم عليّ أن أقول أي شيء لك يا صاحب النيافة؟ وأي لغة مشتركة يمكننا أن نتحدث بها، وكيف نستطيع أن يفهم الواحد منا الآخر(32)؟ وأبدى أسفه لأنه ألف كتاباً على الإطلاق، وهو لم يقل إلا حين بلغ الثامنة والثلاثين، وقد جره إلى هذه الغلطة أنه لاحظ مصادفة ذلك "السؤال التعس" الذي وجهته أكاديمية ديجون، ودفعه نقاد المقال إلى الرد عليهم، ثم أفضى كل جدل إلى جدل جديد... فألفيتي، إن جاز التعبير أعدو مؤلفاً في سن يهجر فيها المؤلفون التأليف عادة. ومنذ ذلك الحين إلى اليوم اختقت الراحة والأصدقاء(33)". وزعم أنه في حياته كلها كان:

"أكثر حماسة مني استفادة. ولكنني كنت مخلصاً في كل شيء. بسيطاً طبعاً، وإن كنت مرهف الحس ضعيفاً أفعل الشر كثيراً وأحب الخير دائماً. أتبع عواطف أكثر من مصالح. أخشى الله دون أن أخشى الجحيم. أجادل في الدين ولكن دون إباحة. لا أحب الكفر ولا التعصب، ولكن أمقت المتعصبين أكثر مما أمقت الملحدين. وأعترف بأخطائي لأصدقائي وأعلن آرائي للعالم كله(34)".

وأحزنه إدانة الكاثوليك لإميل أقل مما أحزن إدانة الكلفين. فهو الذي كان يعتز بلقبه "مواطناً جنيفياً" هرب من فرنسا أملاً في أن يتنفس في مسقط رأسه نسيم الحرية، وأن يجد من الترحيب ما يعزیه عما لقي من إذلال كثير. أما الآن "فماذا أقول؟ إن قلبي ينفلق؛ ويدي ترتعد، والقلم يسقط منها، وعليّ أن أصمت. ويجب أن أجتز في الخفاء أشد أحزاني مرارة(35). فها هو الرجل الذي اجترأ في قرن اشتهر بالفلسفة، والعقل والإنسانية، على أن يدافع عن قضية الله، هاهو قد وسم؛ وحرّم وطورد من بلد إلى بلد، ومن ملجأ إلى ملجأ، دون اكتراث لفقره، ولا رحمة

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> روسو رئيس الأساقفة

لأمراضه" ثم وجد ملاذاً آخر الأمر عند "ملك مستنير ذائع الصيت" وانزوى في قرية صغيرة رابضة بين جبال سويسرا، ظاناً أنه في النهاية، واجد العزلة والهدوء، ولكن طارده حتى هناك لعنات الكهنة. أن رئيس الأساقفة هذا "الرجل الفاضل، النبيل النفس، الكريم المحتد"، كان ينبغي أن يوبخ هؤلاء المضطهدين، ولكنه بدلاً من هذا أصدر الأذن في غير خجل، "وهو الذي كان يجب أن يدافع عن قضية المظلومين(36).."

وأحس روسو أن أشد ما ساء رئيس الأساقفة هو تعليم روسو أن الناس يولدون أحراراً، أو غير أشرار على الأقل، وقد أدرك بومون أنه لو كان هذا حقاً، ولو لم يكن الإنسان ملوثاً منذ مولده بوراثته خطيئة آدم وحواء، لسقط التعليم بكفارة المسيح، وهذا لتعليم لب العقيدة المسيحية. ورد روسو بأن تعليم الخطيئة الأصلية لم يذكر بوضوح في أي مكان من الكتاب المقدس. وقد أدرك أن رئيس الأساقفة قد صدمه الاقتراح بتحاييل تعليم الدين، فرد بأن تربية الأطفال على أيدي

الراهبات والقساوسة لم تقلل من الخطيئة أو الجريمة، فهؤلاء الأطفال بعد أن يكبروا يفقدون خوفهم من الجحيم، ويؤثرون لذة صغيرة حاضرة على الجنة التي وعدوا بها. ثم ما بال هؤلاء القساوسة أنفسهم-أتراهم نماذج للفضيلة في فرنسا المعاصرة(37)؟ ومع ذلك "فأنا مسيحي، مسيحي بإخلاص، طبقاً لتعليم الإنجيل، لا مسيحي متمذ للقساوسة، بل تلميذ للمسيح". ثم أضاف روسو وعينيه على جنيف "إنني في سعادة بالولادة في أقدس وأعقل دين في الأرض، ما زلت متعلقاً تعلقاً لا انفصام فيه بأيمان آبائي. وأنا مثلهم أتخذ من الأسفار المقدسة والعقل القواعد الوحيدة بأيماني(38)... "وأحس بلوم من أخبروه بأنه "مع أن كل أصحاب العقول الذكية يفكرون كما تفكر، فإنه ليس من الخير أن يفكر العوام على هذا النحو".

"ذلك ما يتصايحون به عليّ من كل جانب، ولعله ما كنت نفسك قائلة لي لو كنا وحيدين في مكتبك. هكذا الناس، فهم يغيرون لغتهم مع ملابسهم، ولا يقولون الحق إلا وهم في أروابهم، أما في ثيابهم التي

صفحة رقم : 13141

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> روسو رئيس الأساقفة

يبدون فيها أمام الناس فلا يعرفون إلا أن يكذبوا. وهم ليسوا مخادعين غشاشين أمام وجوه البشر فحسب، بل إنهم لا يخلون من أن يعقبوا كل من يابون أن يكونوا غشاشين كذابين علانية مثلهم، مخالفين في ذلك ضمائرهم(39)".

وهذا الخلاف بين ما تؤمن به وما نبش به هو سر الفساد في الحضارة العصرية. أن هناك تحيزات ينبغي أن نحترمها على ألا تحيل التربية إلى خداع هائل وتقوض الأساس الخلقى للمجتمع(40). فإذا أصبحت هذه التحيزات قتالة فهل نسكت على جرائمها؟

"الست أقول، ولا أرى، أن الدين الحسن لا وجود له...ولكن الذي أقول له...أنه ما من دين من الأديان التي سادت لم يثخن الإنسانية بالجراح. وكل المذاهب عذب بعضها بعضاً وكلها قدم لله قربان الدم البشري. وأياً كان مبعث هذه التناقضات فهي قائمة، فهل من الإجرام الرغبة غب إزالتها(41)؟".

وقبيل ختام رده دافع روسو عن إميل دفاع المحب المتميم بكتابه، وتساءل لم لم يقم لمؤلفه تمثال.

"هيني ارتكبت بعض الأخطاء، لا بل كنت دائماً مخطئاً، أفلا شفاعة لكتاب يشعر المرء في كل جزء فيه-حتى في أغلظه وحتى في الضرر الذي قد يكون فيه-بالحب الصادق للخير وبالغيرة على الحق؟. كتاب لا يشع غير السلام، واللفظ، والصبر، وحب النظام، وطاعة القوانين في كل شيء، حتى في أمر الدين. كتاب تؤكد فيه قضية الدين تأكيداً رائعاً، وتحترم فيه مكارم الأخلاق احتراماً كبيراً...ويصور الشر فيه على أنه حماقة، والفضيلة على أنها شيء محبب للنفوس...أجل، إنني لا أخشى أن أقولها..فلو أن في أوروبا حكومة وحدة مستتيرة حقاً.. لخلعت على مؤلف إميل أسباب التشريف العلنية، ولأقامت له تمثالاً...ولكن خبرتي الكبير بالبشر تمنعني من أن أتوقع تقديراً كهذا وأنا لم أعرفه معرفة تكفي لأن أتوقع ذلك الذي أتوه".

ولكنهم أقاموا له التماثيل.

صفحة رقم : 13142

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> روسو والكفنيون

3- روسو والكفنيون

لم يبتهج بخطاب روسو الذي وجهه إلى كرسنوف بومون غير بعض أحرار الفكر في فرنسا وبعض المتمردين السياسيين في سويسرا. وجاءت من البروتستانت معظم الردود "المفندة" لدعاوى روسو والموجه إلى المؤلف. ورأى قساوسة جنيف الكفنيون في الخطاب هجوماً على المعجزات وتزليل الكتاب المقدس، والإغضاء عن هذه الهرطقات معناه التمهيد من جديد للخطر الذي عرضهم له دالامبير. وغضب روسو من إجماع الأحرار الجنيبيين عن الجهر بالدفاع عنه، فأرسل (12 مايو 1763) إلى مجلس جنيف الكبير يتخلى عن مواطنته. وقد حضي عمله هذا ببعض التأييد المسموع في 18 يونيو رفع وفد إلى الرئيس الأول للجمهورية "احتجاجاً غاية في التواضع والاحترام من مواطني جنيف وسكان مدنها" شكوا فيما شكوا من مظالم، من أن الحكم الصادر على روسو غير قانوني، وأن مصادرة نسخ إميل من مكاتبات جنيف كانت عدواناً على حقوق الملكية. ورفض مجلس الخمسة والعشرين الاحتجاج وفي سبتمبر أصدر المدعي العام، جان روبرت ترونشان (أبن عم طبيب فولنتير)، خطابات مكتوبة من الريف "للدفاع عن إجراءات المجلس المختلف عليها. وناشد "المحتجون" روسو الرد على ترونشاني. وإذ لم يكن بروسو أي نية في البعد عن الشر، فقد نشر (ديسمبر 1764) تسعة "خطابات مكتوبة من الجبل" وهي رد من بيته الجبلي على أوليجاركية السهل الجنيفي. وكان ساخطاً أشد السخط على القساوسة والمجلس جميعاً، فهاجم الكفنية كما هاجم الكاثوليكية، وأحرق بذلك معظم جسور من خلفه. وقد وجه الخطابات من الناحية الشكلية لزعم المحتجين. واستهلها بتناول الأذى الذي لحق به من جراء الإدانة المتعجلة لكتبه وشخصه، دون أن تتاح له أي فرصة للدفاع. واعترف بعيوب كتبه. "لقد وجدت أنا نفسي الأخطاء الكثيرة فيها. ولست أشك في أن غيري قد يرون فيها أخطاء أكثر

صفحة رقم : 13143

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> روسو والكفنيون

وأنة ما زالت هناك أخطاء أخرى لم أدركها لا أنا ولا غيري... فبعد الاستماع إلى الطرفين سيحكم الجمهور.. وسينجح الكتاب أو يسقط وتنتهي القضية عند هذا(43). ولكن أكان الكتاب مؤذياً؟ أيمن أن يقرأ إنسان "هلوية الجديدة" "وإعلان إيمان كاهن سافوي" ثم يعتقد حقاً أن مؤلفها قصد هدم الدين؟ صحيح أن الكتابين حاولا تدمير الخرافة لأنه شر بلاء رزئت به البشرية، ولأنها محنة الحكماء وأداة الطغيان(44). ولكن ألم يؤكد ضرورة الدين؟ إن المؤلف يتهم بعدم إيمانه بالمسيح، وهو مؤمن بالمسيح ولكن بطريقة مختلفة عن طريقة متهميه. إننا نعتزف بسلطان المسيح، لأن فكرنا يوافق على تعليمه ولأننا نجدها تعاليم سامية. ونحن نسلم بالوحي منبثقاً من روح الله، دون أن نعرف كيف.. وإذ نقر بسلطان إلهي في الإنجيل، فإننا نؤمن بأن المسيح بشر بهذا السلطان، ونحن نقر بفضيلة في سلوكه تفوق فضيلة البشر، وبحكمة في تعاليمه تفوق حكمة البشر". وأنكر الخطاب الثاني حق مجلس مدني في الحكم في قضايا الدين (ناسيا العقد الاجتماعي). وفي إدانة إميل انتهاك لمبدأ أساسي من مبادئ حركة الإصلاح البروتستنتي، وهو حق الفرد في أن يفسر الكتاب المقدس لنفسه(45).

"لو برهنت لي اليوم في مسائل الدين مضطراً للإذعان لقرارات غيري، فسأتحول إلى الكاثوليكية غداً(46)". وسلم روسو بأن دعاة الإصلاح البروتستنتي أصبحوا بدورهم مضطهدين للتفسير الفردي(47). ولكن هذا لا يبطل المبدأ الذي لولاه لكانت ثورة البروتستنت على السلطة البابوية ظالمة. واتهم القساوسة الكلفنيين (باستثناء راعي) بأنهم اعتنقوا روح الكاثوليكية المتعصب، ولو كانوا أوفياء لروح الإصلاح البروتستنتي لدافعوا عن حقه في نشر تفسيره الخاص للكتاب المقدس. وجاد الآن بكلمة ثناء على رأي دالامبير في قساوسة جنيف:
"أن أحد الفلاسفة يلقي عليهم نظرة عجلى، ثم يتغلغل إلى أعماقهم،

صفحة رقم : 13144

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبؤ -> روسو والكلفنيون

فيريهم أنهم أريوسيون، سوسينيون، فيقول هذا، ويحسب أنه بهذا القول يشرفهم ولكنه لا يدرك أنه يعرض مصالحهم الدنيوية للخطر، وهو الأمر الوحيد الذي يقرر على العموم إيمان البشر في هذه الدنيا(48)".
وفي الخطاب الثالث تناول اتهامه برفض المعجزات. فنحن إن عرفنا المعجزة بأنها خرق لقوانين الطبيعة، فلن نستطيع أبداً أن نعرف هل الشيء معجزة أم غير معجزة، لأننا لا نعرف كل قوانين الطبيعة(49). فحتى في ذلك العصر كان كل يوم يشهد معجزة جديدة يحققها العلم، لا مخالفاً بذلك قوانين الطبيعة، بل بفضل معرفته بها معرفة أعظم.
كان الأنبياء في قديم الزمان يستنزلون النار من السماء بكلمتهم، أما اليوم فالأطفال يفعلون هذا بقطعة صغيرة من الزجاج (المشتعل). إن يشوع أوقف الشمس، وأي واضع للتقاويم يستطيع الوعد بمثل هذه النتيجة إذا حسب كسوف الشمس(50). وكما أن الأوربيين الذين يجرون عجائب كهذه بين الهمج يعدهم هؤلاء آلهة، فكذلك معجزات الماضي- حتى معجزات المسيح- ربما كانت نتائج طبيعية فسرتها الجماهير خطأ بأنها تعطيلات إلهية للقانون الطبيعي(51). ولعل لعازر الذي أقامه المسيح من بين الأموات لم يكن في حقيقة الأمر ميتاً. ثم، كيف أن تثبت معجزات معلم صدق تعليمه، إذ كان معلمو التعاليم المعنوية عموماً تعاليم كاذبة قد أجروا معجزات قبل إنها أيضاً حقيقية، كما حدث حين بارى سحرة مصر هارون في تحويل هارون في تحويل العصي إلى حيات؟(52). أن المسيح حذر من "المسحاء الكذبة" الذين يعطون آيات عظيمة وعجائب(53).
كان روسو قد بدأ خطابه بغرض مساعدة المحتجين من رجال الطبقة الوسطى، ولم يطلب توسيعاً لحق الانتخاب في اتجاه ديمقراطي، لا بل إنه في الخطاب الرابع يلتزم بالرأي بأن الأرستقراطية المنتخبة هي خير أشكال الحكم، وأكد لحكام جنيف أن المثل الأعلى الذي رسمه في "العد الاجتماعي" كان في صميمه متفقاً مع الدستور الجيني(54).
ولكن في الخطاب السابع أخبر أصدقاءه من البرجوازية المحتجة أن الدستور لا يقر سيادة المواطنين

صفحة رقم : 13145

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبؤ -> روسو والكلفنيون

ذوي الحقوق الانتخابية إلا خلال الانتخابات للمجلس العام ومؤتمره السنوي، أم في باقي السنة فالمواطنون مجردون من السلطة. وفي تلك الفترة الطويلة كلها يكون مجلس الخمسة والعشرين الصغير هو الحكم الأعلى في القوانين، وفي مصير جميع الأفراد تبعاً لذلك، والواقع أن المواطنين والبرجوازيين الذين يبدون أصحاب سيادة في المجلس العام، يصبحون بعد فضه عبيداً لسلطة استبدادية بغير دفاع لرحمة خمسة وعشرين مستبداً(56). وكان هذا أقرب إلى الدعوة للثورة. ولكن روسو استنكر هذا الملجأ الأخير. ففي خطابه الأخير أثنى على البرجوازية باعتبارها عقل طبقة في الدولة، وأكثرها حباً للسلام، محصورة بين طبقة أشرف غنية ظالمة، وجماهير متوحشة غبية(57). ولكنه نصح المحتجين بالصبر والمصابرة، وبأن يركنوا إلى العدالة والزمن لينصفاهم من مظالمهم. وأغضبت "خطابات الجبل" هذه أعداء روسو وساعت أصدقاءه. وأفزعت هرطقاته القساوسة الجنيبيين، وزادهم فزعاً ادعأوه أنهم يشاطرونه إياها. فأنقلب الآن عنف على القساوسة الكلفنيين ورماهم بأنهم "رعاع غشاشون، بطانة غبية، وذئاب مسعورة". "وأعرب عن إيثاره للكهننة الكاثوليك البسطاء في القرى والمدن الفرنسية(58). ولم يستعن "المحتجون" بالخطابات في حملتهم الناجحة لنيل المزيد من السلطة السياسية؛ واعتبروا روسو حليفاً خطراً لا يركن إليهم، فاعتزم ألا يشارك بعدها بأي نصيب في السياسة الجنيبية".

صفحة رقم : 13146

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> روسو وفولتير

4- روسو وفولتير

كان قد تساءل في الخطاب الخامس، لم لم يوح "المسيو فولتير" الذي "طالما زاره" أعضاء المجلس الجنيبيون، لهم "بروح التسامح تلك التي لا يني عن التثسير بها، والتي يحتاج هو إليها أحياناً؟ وأجرى على لسان فولتير حديثاً خيالياً(59) يحبذ فيه حرية الكلام للفلاسفة بحجة أن قلة لا تُذكر

صفحة رقم : 13147

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> روسو وفولتير

هي التي تقرأ لهم. وكان تقليده لأسلوب فولتير الخفيف الرشيق بارعاً. ولكنه صور حكيم فرنیه معترفاً بتأليفه لكتاب نشر حديثاً اسمه "عظة الخمسين" وكان فولتير أنكر أبوته غير مرة لأنه زخر بالهرطقات. ولا ندري أكان كشف روسو للسر متعمداً خبيثاً؟ على أي حال هذا ما رآه فولتير، وحنق منه أشد الحنق، لأنه عرضه لإمكان طرده من فرنسا من جديد، في الوقت الذي كان مستقراً فيه في فرنیه.

وصاح حين قرأ الخطاب الواشي "يا للمجرم! يا للوحش! كان يجب أن أضربه بالنبوت-نهم، سأمّر بضربه بالنبوت في جباله عن ركبتني مربيته؛" وقال متفرج "أرجو أن تهدئ روعك، لأنني أعلم أن روسو ينوي أن يزورك، وسيكون في فرنیه قريباً جداً". وصاح فولتير وقد بدت عليه نية الأذى "آه، فليأت فقط".

"ولكن كيف ستستقبله؟"

"سأقدم له العشاء، وأعطيه فراشي، وأقول له هاك عشاء طيباً، وهاهو أفضل فراش في البيت؛ فتفضل بقبول الاثنتين وانعم بالسعادة هنا(60)".

ولكن روسو لم يحضر. وثأر فولتير لنفسه بإصداره (31 ديسمبر 1764) كتيباً بقلم مجهول، سماه "عواطف المواطنين" هو لطخة من أشد اللطخ التي تلوث خلقه ومهنته سواداً. ولا بد من نقل ما جاء به ليصدق القارئ: "أنا نرثي للأحمق، ولكن حين تستحيل حماقته جنوناً فأنا نوثق رباطه. ذلك أن التسامح-هو فضيلة-يصبح عنها رذيلة.... لقد غفرنا لهذا الرجل رواياته، التي أذى فيها اللياقة والحياء كما أذى المنطق السليم. وحين خلط الدين بقصصه، اضطر قضائنا إلى محاكاة قضاة باريس.... وبرن... واليوم ألا يفرغ الصبر حين ينشر كتاباً جدياً يعتدي فيه اعتداءً مجنوناً على الدين المسيحي، وعلى الإصلاح البروتستنتي الذي يدعيه، وعلى كل خدام الإنجيل المقدس وكل هيئات الدولة؟-إنه يقول بجلاء،

صفحة رقم : 13148

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> روسو وفولتير

وبسمه صراحة، ليس في الإنجيل معجزات نستطيع أخذها حرفياً دون أن نطلق عقولنا....

"أهو عالم يجادل العلماء؟ لا... بل رجل مازال يحمل آثار فجوره المخزية... ويجر معه من بلد إلى بلد، ومن جيل إلى جيل، المرأة التعسة التي كان سبباً في موت أمها، والتي ألقى بأطفالها على باب مستشفى... جاحداً كل مشاعر الطبيعة، كإنكاره لمشاعر الشرف والدين..."

"أيريد أن يطيح بدستورنا بتشويهه، كما يريد أن يطيح بالمسيحية التي يدعيها؟ يكفي أن ينذر بأن المدينة التي يزعمها تنكره..... فإذا ظن أنها تمتشق الحسام (أي تقوم بثورة) بسبب (إدانة) إميل، فليصف هذه الفكرة إلى سخافاته وحماقاته.. ولكن يجب أن يخبر بأننا إن ترفقنا في عقاب رواية فاجرة، فإننا سنقسو في عقاب خائن لنيم(61)".

وكان هذا الكلام فعلة مخزية لا يشفع لها غضب فولتير ولا أمراضه ولا شيخوخته، (وكان الآن في السبعين). لأعجب إذا كان روسو لم يصدق قط (وحتى في يومنا هذا لا نكاد نصدق) أن فولتير هو كاتبه، بل نسبه إلى القس الجيني فيرن، الذي أكد عبثاً أنه ليس كاتبه. وأذاع روسو في لحظة من أجمل لحظاته رداً على "العواطف" (يناير 1765):

"أريد أن أدلي ببساطة بالتصريح الذي يبدو أنه مطلوب مني بهذا المقال. فما من علة صغيرة أو كبيرة، كما يدعي المؤلف، قد لوثت قط جسدي. والعلة التي أصابتنني ليس هناك أدنى شبهة بينها وبين تلك المشار إليها فقد ولدت معي، ويعرف الذين رعوني في طفولتي، الباقيون على قيد الحياة. وهي معروفة للسيدات مالوان، وموران، وتيري، وداران... فإذا وجد في هذه العلة أقل أمارة من أمارات الفجور، فأني أرجو أن يلعنني ويفضحني.. والمرأة العاقلة التي يقدرها العالم، والتي تعني بي في كوارثي.. لا يشقيها إلا مشاطرتها لشقائي. أما أمها فهي في

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> روسو وفولتير

الواقع فياضة بالحياة، وفي صحة سابعة، رغم شيخوختها (فقد عمرت إلى الثالثة والتسعين). ولم ألق قط، ولا تسببت في إلقاء على باب مستشفى ولا في أي مكان آخر... ولن أزيد.. اللهم إلا القول بأنني حين يحضرني الموت أؤثر أن أكون قد ارتكبت ما يتهمني به المؤلف، عن أن أكون كاتب كتيب كهذا..(62)"

ومع أن تسليم روسو أطفاله لملجأ للقطاء (لا إلقاءهم في العراء بالضبط) كان موضوعاً يعرفه المقربون في باريس (فقد اعترف به للمرشالة لكسمبورج)، فإن نشر فولتير كانت أول إفشاء علني لهذا السر. وخامر جان-جاك الظن في أن مدام ديبنيه أفشته عند زيارتها لجنيف، واقتنع الآن بأنها هي وجريم وديرو كانوا يأترون لتشيويه سمعته. وقد هاجم جريم روسو في هذه الفترة غير مرة في "الرسائل الأدبية(63)". وفي خطابه المؤرخ 15 يناير 1765 في معرض الحديث عن "خطابات من الجبل" انظم إلى فولتير في اتهام روسو بالخيانة: "إن وجد في أي مكان على الأرض جريمة تدعى الخيانة العظمى، فهي ولا ريب في مهاجمة الدستور الأساسي لدولة بالأسلحة التي أستخدمها روسو ليطيح بدستور وطنه".

والشجار الطويل الذي نشب بين فولتير وروسو من أفعج اللطخ التي لوثت وجه حركة التنوير. لقد باعد بينهما مولدهما ومركزهما. فولتير، ابن الموثق الموسر، تلقى تعليماً حسناً، لا سيما في الدراسات القديمة؛ أما روسو المولود في أسرة فقيرة وشبكة التكك، فلم يتلق أي تعليم نظامي، ولم يرث أي تقليد كلاسيكي، وقد قبل فولتير القواعد الأدبية التي وضعها بوالوا-"أحب العقل، ولتستق كل كتاباتك من العقل بهائنها وقيمتها(64)". أما في رأي روسو (كما في رأي فاوست وهو يغوي مارجريت بروسو) فإن "الوجدان كل شيء(65)". وكان فولتير لا يقل عن جان-جاك حساسية وسرعة انفعال، ولكنه عادة كان يرى من سوء الأدب أن يترك الانفعال يشوه فنه، وقد اشتم في دعوة روسو للوجدان والغريزة لا عقلية فوضوية فردية تبدأ بالثورة وتنتهي بالدين. وقد شجب فولتير بسكال، أما روسو

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> روسو وفولتير

فردده كالصدي. وكان فولتير يعيش كما يعيش أصحاب الملايين، أما روسو فكان ينسخ الموسيقى ليكسب قوته. وكان فولتير خلاصة كل لطائف المجتمع، أما روسو فكان يشعر بالقلق في المجتمعات، وكان أقل صبراً وأضيق صدرأ من أن تحتفظ بصداقة صديق. وكان فولتير ابن باريس، وربيب مرحها وترفها، أما روسو فكان طفل جنيف، برجوازيأ مكتئبأ، وبيورثانياً يكره تميز الطبقات الذي يجرحه، وألوان البذخ التي لا قدرة له على الاستمتاع بها، ودافع فولتير عن الترف لأنه يداول مال الأغنياء بتشغيل الفقراء، أما روسو فأدانه لأنه "يطعم مائة فقير في مدننا ويسبب هلاك مائة ألف في قرانا(66)" وذهب فولتير إلى أن آثام الحضارة ترجحها فنونها وما توفره من أسباب الراحة، أما روسو

فكان لا يشعر بالراحة في أي مكان، ويندد بكل شيء تقريباً. وأصغى المصلحون إلى فولتير، وأستمع الثوار إلى روسو.
إن هوراس وليلول حين قال إن "هذه الدنيا ملهاة لمن يفكروا، ومأساة لمن يشعرون(67)". أجمل في سطر واحد؛ على غير قصد منه؛ حياة أعظم عقليين من عقول القرن الثامن عشر تأثيراً في الناس.

صفحة رقم : 13151

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> بوزويل يلتقي بروسو

5- بوزويل يلتقي بروسو

في رواية بوزويل لزيارات خمس قام به لجان-جاك في ديسمبر 1764 تصوير غاية في اللطف لروسو. فلقد أقسم ذلك المعجب الذي لا مهرب منه يمينا مغلظة (21 أكتوبر) أنه "لن يكلم ملحداً؛ ولن يتمتع بامرأة؛ قبل أن يلقى روسو(68)" وفي 3 ديسمبر شد رحاله من نوشاتل إلى موتيه-ترافير. وحين بلغ برو في منتصف الطريق وقف بنزل وسأل ابنة صاحبه ماذا تعرف عن فريسته. وكان جوابها مقلناً:
"إن المسيو ورسو يحضر هنا كثيراً ويمكث أياماً مع مدبرة بيته؛ الأنسة ليفاسير. وهو رجل لطيف جداً؛ له وجه جميل؛ ولكنه لا يحب أن يأتي الناس ويحملوا فيه كأنه رجل له رأسان. يا للسماء! أن فضول

صفحة رقم : 13152

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> بوزويل يلتقي بروسو

الناس لا يصدق؛ أن كثيرين؛ كثيرين يأتون لبروه؛ وكثيراً ما يرفض لقاءهم. إنه مريض، ويكره أن يزعه أحد(69)".
ولكن بوزويل واصل رحلته بالطبع. وفي موتيه نزل بفندق القرية.
"وأعددت خطاباً لمسيو روسو أخبرته فيه أن سيداً أسكتلندياً عتيق الطراز في الرابعة والعشرين قدم بأمل لقائه. وأكدت له أنني جدير باحترامه...وفي خاتم خطابي بيت له أن لي قلباً وروحاً...والخطاب آية في بابه حقاً. وسأحتفظ به ما حييت برهاناً على أن في قدرة روجي أن تتسامى(70)".
وكان خطابه-الذي كتبه بالفرنسية-مزيجاً بارعاً من السذاجة المتعمدة والإعجاب الذي لا يرد:

"إن كتاباتك يا سيدي أذبلت قلبي. ورفعت روحي. وألهبت خيالي. صدقتي سيبهجك أن تلتقي بي. إيه يا سان-برو العزيز! أيها المعلم المستتير! أي روسو البليغ المحبوب! يحدثني قلبي بأن صداقة شريفة حقاً ستولد اليوم. لدي الكثير الذي أحدثك به. ومع أنني لسن إلا شاباً فقد خبرت من ألوان الحياة ما سيدهشك... ولكنني أتوسل إليك أن تلقاني وحدك... ولا أدري هلا أفضل أن ألقاك إطلاقاً من أن ألقاك أول مرة في صحبة. وأني مترقب رذك بفارغ الصبر (71).

وأرسل له روسو كلمة يقول إن في استطاعته الحضور إذا تعهد بأن تكون زيارته قصيرة. وذهب بوزويل "مرتدياً سترة وصدرية بدانتيللا مذهبة، وينطلون ركوب من جلد الغزال، ومنتعلاً حذاءً طويلاً. وفوق ذلك كله لبس معطفاً كبيراً من وبر الجمل الأخضر المبطن بفراء الثعلب". وفتحت تريز الباب "فتاة فرنسية قصيرة رشيقة أنيقة". وقادته صعداً إلى روسو-رجل ظريف أسمر اللون في زي الأرمن... وسألته عن صحته فقال: "مريض جداً ولكنني طلقت الأطباء". وأعرب روسو عن إعجابه

صفحة رقم : 13153

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> بوزويل يلتقي بروسو

بفرديريك وازدرائه للفرنسيين- "شعب جدير بالاحترار، ولكنك ستجد نفوساً عظيمة في أسبانيا". بوزويل: "وفي جبال اسكتلندا". وقال روسو عن اللاهوتيين أنهم "سادة يقدمون تفسيراً جديداً لشيء من الأشياء ويتركونه مغلقاً على الإفهام كما كان". وناقشا أحوال كورسيكا، وقال روسو أنه قد طلب إليه أن يشرع لها قوانين، وبدأ بوزويل تحمسه الدائم لاستقلال كورسيكا. ثم صرفه روسو بعد قليل، قائلاً أنه يود التمشي منفرداً.

وفي 4 ديسمبر استأنف بوزويل الحصار. وتحدث معه روسو ملياً، ثم صرفه: إنك "تزعجني. هذا طبيعي ولا حيلة لي فيه". بوازيل: "أرفع الكلفة معي". روسو "أمضي". وصحبت تيريزا بوازويل إلى الباب وقالت له "لقد عشت مع المسيو روسو اثنين وعشرين عاماً، ولن أتخلي عن مكاني لأكون ملكة فرنسا. وأنا أحاول الانتفاع النصيحة الطبية التي يسديها إليّ. وإذا مات سأضطر إلى دخول الدير (71).

وطرق بوازيل الباب مرة أخرى في 5 ديسمبر. وتأوه روسو "يا سيدي العزيز، يؤسفني عجزني عن التحدث إليك كما أشتهي" بوزويل: بحي هذه الأعذار وأثار الحديث بقوله: لقد اعتنقت الكاثوليكية وأنوي الاختفاء في دير روسو يل للحماقة! بوزويل: "أخبرني بحق أنت مسيحي؟" وقرع روسو صدره وأجاب: "نعم إنني أعتز بأنني مسيحي".

بوزويل (الذي كان مصاباً بالاكنتاب) قل لي: هل تعاني من الاكنتاب؟ روسو: لقد ولدت هادئاً، وليس بي ميل طبيعي للاكنتاب. لقد أصابتنني به الكوارث التي حلت بي. بوزويل: ما رأيك في الأديار، والكفارات، والعلاجات التي من هذا النوع؟ روسو: كلها سخافات. بوزويل: هل لك يا سيدي أن تضطلع بإرشادي الروحي؟ روسو: لا أستطيع. بوزويل: سأعود. روسو: لا أعد ببقائك. إنني أعاني ألماً، إنني أحتاج إلى مبولة كل دقيقة (73).

في عصر ذلك اليوم، في بيت القرية كتب بوزويل في أربع عشرة

صفحة رقم : 13154

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> بوزويل يلتقي بروسو

صفحة مجملأ لحياتي وبعث به إلى روسو. وقد اعترف فيه بحادث زنا أتاه، وسأل روسو ألا يزال في إمكاني أن أجعل نفسي رجلاً؟ وعاد إلى نوشاتل، ولكنه كان بباب روسو مرة أخرى في 14 ديسمبر وأخبرته تريز أن سيدها مريض جداً، وأصر بوزويل، واستقبله روسو "ووجدته جالساً وهو في غاية الألم". روسو: لقد غلبتني العلل، وخيبات الأمل، والحزن. إنني أستعمل مجساً. كل إنسان يعتقد أن من واجبي أن أصغي له. عد في العصر. بوزويل: وكم تطول زيارتي؟ روسو: "ربع ساعة، لا أكثر. بوزويل: عشرين دقيقة. روسو: هيا انصرف. ولكنه لم يتمالك نفسه من الضحك.

وعاك بوزويل في الرابعة وهو يحلم بلويس الخامس عشر. "إن الأخلاق تبدو أي أمراً غير يقيني. فأنا مثلاً أحب أن يكون لي ثلاثون امرأة. ألا أستطيع أن أشبع تلك الرغبة؟ لا. ولكن انظر، لو كنت غنياً لاستطعت أن تتخذ عدداً من الفتيات، وأحبلهن، وبهذا يزداد النسل. ثم أعطيهم مهوراً، وأزوجهن لفلاحين طبيين سيسعدون جداً بالزواج منهن. وهكذا يصبح زوجات في نفس السن التي كن يتزوجن فيها لو ظلن أبقاراً، وأكون أنا من ناحيتي قد أفدت بالاستمتاع بعدد كبير من مختلف النساء. فلما لم يقع من نفس روسو هذا الفرض الملكي، سأله "أخبرني من فضلك كيف أكفر عن الشر الذي ارتكبته؟" وأجاب روسو جواباً ذهبياً "ليس هناك تكفيراً عن الشر إلى الخير (74)". وطلب بوزويل إلى روسو أن يدعو للغداء، وقال روسو "غداً" وعاد بوزويل إلى الفندق منتعشاً غاية الانتعاش. وفي 15 ديسمبر تناول الطعام مع جان-جاك وتريز في المطبخ، وقد وجده نظيفاً مشرقاً. وكان روسو رائق المزاج، ولم تبدُ عليه علامات الاضطراب العقلية التي ستظهر فيما بعد. وكان كلبه وقطعته على وفاق مع بعضهما البعض معه. "ووضع بعض الطعام على صينية خشبية، وجعل كلبه يرقص حوله وغنى روسو. لحناً مرحاً بصوت

صفحة رقم : 13155

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> بوزويل يلتقي بروسو

رخيم وذوق رفيع. وتحدث بوزويل في الدين.. "أن الكنيسة الأنجليكانية أفضل المذاهب عندي. روسو: نعم، ولكنها ليست الإنجيل. ألا تحب القديس بولس؟ إنني أحترمه، ولكني أحسبه مسئولاً إلى حد ما عما في رأسك من اختلاط. لو عاش لكان قسيساً أنجليكانياً.

الآنسة ليفاسير: استلقى المسيو دفولتير يا سيدي؟ بوزويل: بكل تأكيد. ثم إلى روسو: أن المسيو دفولتير لا يحبك. روسو: أن المرء لا يحب من أذاهم أذى شديداً. أن حديثه ممتع جداً، لا بل إنه بفضل كتبه. وطال بوزويل المكث فوق ما تحتمله الضيافة، ولكن حين ودع "قبلني روسو مرات، وضمني بين ذراعيه بود رقيق". فلما وصل بوزويل إلى الفندق قالت ربه سيدي: أضنك كنت تبكي. وبضيف إنني أحتفظ بذكرى هذه الكلمات إطراءً صادقاً لإنسانيتي (75).

صفحة رقم : 13156

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبؤ -> دستور لكورسيكا

6- دستور لكورسيكا

بعد أن زار بوزويل فولتير في فرنیه، مضى في رحلته إلى إيطاليا ونابلي وكورسيكا، ربما بحث من روسو. وكانت كورسيكا بزعامة باسكالي دي باولي قد حررت نفسها من سيطرة جنوة (1755) ورحب روسو في "العقد الاجتماعي" من قبل بمولد الدولة الجديدة. "ما زال في أوربا بلد واحد مفتوح للمشرع. إنه جزيرة كورسيكا. والبسالة والإصرار اللذان برهن بهما هذا الشعب الشجاع على قدرته على استرداد حريته والدفاع عنها يستحقان المعونة من إنسان حكيم يعلمهم كيف يحتفظون بها. ونفسي تحدثني بأن هذه الجزيرة الصغيرة سوف تدهش أوربا يوماً ما(76)". ولو أخذ رأي فولتير لرأى أن روسو آخر رجل في أوربا يصح دعوته للتشريع. ولكن الذي حدث أن جان-جاك تلقى في 31 أغسطس 1764 الخطاب الآتي من ماتيو بوتافوكو، المبعوث الكورسيكي لدى فرنسا:

صفحة رقم : 13157

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبؤ -> دستور لكورسيكا

"لقد ذكرت كورسيكا يا سيدي في "عقدك الاجتماعي" على نحو يتيه به وطننا. وهذا الثناء من قلم مخلص كل الإخلاص كقلمك... أوحى بالرغبة القوية في إنك يمكن أن تكون المشرع الحكيم الذي يعين الأمة على الحفاظ على الحريات التي اقتنتها بدم كثير. وإنني أدرك بالطبع أن المهمة التي أجرؤ على الإلحاح عليك في الاضطلاع بها تحتاج إلى معرفة خاصة بالتفاصيل... ولكنك إن تفضلت أن تقبل المهمة فسأزودك بكل المعرفة الضرورية لإنارتك. وسيبذل المسيو باولي... قصاراه ليرسل إليك من كورسيكا كل المعلومات التي قد تحتاج إليها. ويشاطرنى رغبتى هذا الزعيم المرموق، لا بل جميع إخواني المواطنين الذين أتيج لهم الإطلاع على أعمالك، ويشاركنى مشاعر الاحترام التي تشعر بها أوربا كلها نحوك، والتي أنت أهل لها لأسباب كثيرة جداً(77)".

ورد روسو (15 أكتوبر 1764) بقبول المهمة، وطلب تزويده بالمعلومات عن طبيعة الشعب الكورسيكي، وتاريخه، ومشاكله. واعترف بأن العمل قد يكون "فوق طاقتي وإن لم يكن فوق تحمسي". ثم كتب إلى بوتافوكو، في 26 مايو 1765 يقول: "غير إنني أعدك أنه لن يكون لي اهتماماً فيما بقي لي من أجل غير نفسي وكورسيكا، وكل ما عدا ذلك من أمور سأقصيه عن أفكارى(78)". ثم عكف من فورهِ على وضع "مشروع دستور لكورسيكا".

واقترح روسو في مشروعه و"العقد الاجتماعي" في ذاكرته، أن يوقع كل مواطن على تعهد ملزم لا رجعة فيه بوضع نفسه- "جسدي وأملاكي وإرادتي، وكل قدراتي"- تحت تصرف الأمة الكورسيكية(79). وحيث "الكورسيكيين البواسل" الذين ظفروا باستقلالهم، ولكنه نبههم إلى أن فيهم رزائل كثيرة-كالكسل، وقطع الطريق، والعداوات، والوحشية- ومعظمها ناجم عن كراهيتهم لسادتهم الأجانب. وخير علاج لهذه الرذائل أن يعيشوا عيشة زراعية خالصة. وينبغي أن توفر القوانين كل إغراء للشعب ليلزم الأرض بدلاً من التجمع في المدن، فالزراعة تعين على الخلق الفردي

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبؤ -> دستور لكورسيكا

والصحة القومية، أما التجارة بأنواعها والمالية فتفتح الأبواب لكل ضروب الغش والاحتيال، ويجب على الدولة ألا تشجعها. ويجب أن يكون السفر كله على الأقدام أو على ظهور الدواب، وأن يكافأ الزواج المبكر والأسرة الكبيرة؛ وأن تسقط المواطنة عن الرجال الذين يظلون عزاباً إلى الأربعين. ويجب خفض الملكة الخاصة وزيادة ملكية الدولة. "بودي أن أرى الدولة المالك الوحيد؛ ولا يصيب الفرد من الملكية المشتركة إلا بنسبة خدماته(80)"، وينبغي إلزام السكان بفلاحة أراضي الدولة إذا اقتضى الأمر، وأن تشرف الحكومة على التعليم كله، وعلى الآداب العامة كلها؛ وأن تشكل الحكومة نفسها على غرار الولايات السويسرية (الكنتونات). وفي 1768 اشترت فرنسا كورسيكا من جنوه؛ وجردت عليها جيشاً؛ وعزلت باولي، وأخضعت الجزيرة للقانون الفرنسي. وكف روسو عن المضي في مشروعه؛ وندد بالغزوة الفرنسية لأنها انتهك "الكل عدل؛ وإنسانية؛ وحق سياسي، وتفكير سليم(81)".

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبؤ -> اللاجئ

7- اللاجئ

ظل روسو عامين يحيا حياة متواضعة هادئة في موتيه؛ يقرأ؛ ويكتب ويرعى مرضه، ويعاني من إصابة بعرق النسا (أكتوبر 1764)؛ ويحتفي بالزوار الذين تجيزهم تريز بعد الفحص. وقد وصفه أحدهم وصف عارف بالجميل فقال: "أنك لا تتصور أي سحر في الاجتماع به؛ ولا أي أدب صادق في سلوكه؛ ولا أي عمق في سلوكه؛ ولا أي عمق من الهدوء والبشاشة في حديثه. ألم تتوقع صورة مغايرة تماماً لهذه الصورة؛ وألم تصور لنفسك مخلوقاً غريب الأطوار؛ جاداً دائماً لا بل فظاً أحياناً؟ فيا لها من غلطة! إنه يجمع إلى سمات اللطف الكثيرة نظرة من نار؛ وعينين لم ير قط مثل لحيويتيهما. فإذا تناولت موضوعاً يهتم به، تكلمت عيناه، وشفته، ويداها-وكل ما فيه. وأنت تخطئ كل الخطأ أن تصورته إنساناً لا يكف عن التذمر. فهو على النقيض يضحك مع الضاحكين ويثرثر ويمزج مع الأطفال؛ ويسخر من مديرة منزله(82)".

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> اللاجئ

ولكن القساوسة المحليين كانوا قد اكتشفوا ما في "إميل" و"خطابات الجبل" من هرطقات، ورأوها فضيحة أن يمضي هذا الوحش في تلوين سويسرا بوجوده فيها. ورغبة في تهدئة ثائرتهم عرض (10 مارس 1765) أن يتعهد، في وثيقة رسمية "بالأ ينشر أبداً أي كتاب جديد في أي موضوع ديني، لا بل أن يتناوله عرضاً في أي كتاب جديد آخر... وأكثر من ذلك أنني سأظل شاهداً، بمشاعري وسلوكي، بالقيمة العظمى التي أعلقها على سعادة الاتحاد بالكنيسة (83)". واستدعاه مجمع كنيسة نوساتل للمثول أمامه والرد على تهم الهرطقة الموجهة إليه، فالتمس إعفاءه: "يستحيل على رغم صدق نيّتي أن أحتمل جلسة طويلة (84) وهو ما كان الحقيقة المؤلمة". وانقلب عليه راعي كنيسته، وندد به في مواظ علنية متهماً إياه بأنه عدو المسيح (85). وألهبت هجمات القساوسة شعب أبرشياتهم، فراح بعض القرويين يحصبون روسو إذا خرج للتمشي. وقرب نصف ليلة 6-7 سبتمبر أيقظته هو وتريز حجارة تقذف على جدرانها وتحطم نوافذها. وأحترق حجر كبير الزجاج وسقط عند قدمه. واستدعى جار له وكان موظفاً في القرية - بعض الحراس لإنقاذه، وتفرق الجمع، ولكن أصدقاء روسو الباقين في موتيه نصحوه بأن يبرح المدينة. وأتته عدة عروض تقد له الملجأ "ولكنني كنت متعلقاً بسويسرا تعلقاً منعني من أن أصمم على الرحيل عنها ما دام في استطاعتي العيش فيها (86)". وكان قد زار قبل عام "الأيل دسان-بيير"، الجزيرة الصغيرة الواقعة وسط بحيرة بينين، ولم يكن على الجزيرة سوى بيت واحد - هو بيت الوكيل، وخيل لروسو أن المكان بقعة مثالية لعاشق للعزلة يكره الناس. وكان يقع في كانتون برن التي طرده قبل عامين، ولكنه تلقى تأكيدات غير رسمية بأن في استطاعته الانتقال إلى الجزيرة دون أن يعشى الاعتقال (87). وهكذا، حوالي منتصف سبتمبر 1765؛ بعد ستة وعشرين شهراً في موتيه؛ ترك هو وتريز المنزل الذي أصبح عزيزاً عليهما وذهبا للإقامة مع

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> اللاجئ

أسرة الوكيل في مكان لا يتيح انعزاله "لا للجمهور ولا لرجال الكنيسة تكديره (88)". "وخيل إليه أنني سأكون في تلك الجزيرة أشد انعزلاً عن الناس... وأن البشر سيكونون أسرع نسياناً لي (89)". ورغبة في تغطية نفقاته أعطى الناشر دوبير حق نشر كل كتبه؛ "وجعلته مستودع جميع أوراقي؛ بشرط صريح هو ألا يستعملها إلا بعد موتي؛ لأن غاية أمني كانت أن أختم حياتي في هدوء؛ دون أن أفعل شيئاً يعيدني مرة أخرى إلى ذاكرة الجماهير (90)". وعرض عليه المرشال كيت معاشاً قدره ألف ومائتا جنيه؛ فوافق أن يأخذ نصفه. ودير معاشاً آخر لتريز واستقر معها على الجزيرة وهو لا يتوقع من الحياة شيئاً آخر. وكان الآن في سنته الثالثة الخمسين. وبعد ثلاثة عشر عاماً - في آخر سنة من عمره - ألف كتاباً من أروع كتبه اسمه "أحلام متجول وحيد" وصف في بلاغة مخففة معيشته على جزيرة سان-بيير "كانت أول وأهم متعة أتوق إلى تذوقها بكل حلاوتها هي حياة الدعة اللذيذة (91)". وقد رأينا في غير هذا الموضع مبلغ إعجابه ببليناوس؛ أما الآن، وفي بيده أحد كتب عالم نبات سويدي؛

فقد بدأ يعدد ويدرس النباتات التي وجدها على ملكه الصغير. أو كان إذ صحى الجو يفعل كما يفعل تورو على بركة فولدن:
"كنت أرتمي وحيداً في زورق أجدف به إلى وسط البحيرة حين يكون الماء هادئاً. هناك؛ وأنا ممدد بطولي كله في الزورق؛ وعيناى إلى السماء كنت أترك نفسي للماء يحملني هوناً كما يشاء؛ ساعات عدة أحياناً، وأنا غارق في منات الأحلام المبهجة(92)".
ولكن راحتته لم تطل حتى على هذه المياه. ذلك أن مجلس شيوخ برن أمره في 17 أكتوبر 1765 بأن يرحل عن الجزيرة والمقاطعة خلال خمسة عشر يوماً. وغلبيته الحيرة والهزيمة "فالتدابير التي كنت قد اتخذتها تأميناً لموافقة الحكومة الضمنية، والهدوء الذي تركت فيه لأستقر، وزيارات العديدين

صفحة رقم : 13162

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> اللاجئ

من أهل برن لي"، كل هذا حدا به إلى الاعتقاد بأنه الآن في مأمن من الإزعاج والمطاردة. والتمس من مجلس الشيوخ شيئاً من التفسير والتأجيل، واقترح بديلاً يانساً لحكم النفي:
"لست أرى لي غير سبيل واحد، ومهما بدا رهيباً، فأني سأأخذُه لا دون نفور فحسب، بل برغبة شديدة إذا تفضل أصحاب السعادة بالموافقة. وذلك إنني إن طاب لهم سأقضي ما بقي لي من أجل سجيناً في إحدى قلاعهم، أو في أي مكان آخر في ضبايعهم برون اختباره. وسأعيش فيه على نفقتي، وسأقدم ضماناً بالأكلفهم أي نفقة. وأقبل ألا أحمل ورقاً أو قلماً، أو أكون على اتصال بأي إنسان في الخارج. فقد سمحوا لي، وع بعض الكتب، بالاحتفاظ بحرية المشي بين الحين والحين في حديقة، وسيرضيني هذا.
أكان ذلك إيذاناً بانتهاء عقله؟ إنه يؤكد لنا عكس هذا:
"لا تظنوا أن وسيلة تبدو بهذا العنف هي ثمرة اليأس. فعقلي في تمام الهدوء في هذه اللحظة. وقد ترويت في اتخاذ قراري، ولم انتهِ إليه إلا بعد تفكير عميق. وأرجو أن تلاحظوا أنه إذا بدا هذا قراراً شاذاً فإن وضعي أكثر شذوذاً. فالحياة المضطربة التي أكرهت على أن أحيها سنوات عديدة دون انقطاع، خليفة بتعذيب رجل موفور العافية، فما بالكم بعليل تعس يراه التعب وسوء الحظ، ولم يعد له الآن من أمنية إلا أن يموت في هدوء وسلام(93)".
وكان رد برن أن أمرته بالرحيل عن الجزيرة وعن كل إقليم برن خلال أربع وعشرين ساعة(94).
فإلى أين يمضي؟ كان لديه دعوات إلى بوتسدام من فردريك، وإلى كورسيكا من باولي، وإلى اللورين من سان-لامبير، وإلى أمستردام من ناشره ري، وإلى إنجلترا من ديفد هيوم. ففي 22 أكتوبر كتب إليه هيوم الذي كان يومها سكرتيراً للسفارة البريطانية في باريس يقول:
"أن محنك العجيبة التي لم يسمع بمثلها، فضلاً عن فضيلتك وعبقريتك

صفحة رقم : 13163

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> اللاجئ

لا بد أن تثير عواطف كل إنسان فينحاز إليك، ولكني أعلل نفسي بأنك واجد في إنجلترا أماناً مطلقاً من كل اضطهاد، لا بفض ما تمتاز به قوانيننا من روح سمحة فحسب، بل بفضل الاحترام الذي يكتفه كل الناس هناك لشخصيتك (95)". وفي 26 أكتوبر غادر روسو جزيرة سان-بيير ورتب أن تظل تريز حياً في سويسرا، ورحل هو إلى ستراسبورج، ومكث فيها شهراً كاملاً دون أن يستقر على رأي. وأخيراً قرر أن يقبل دعوة هيوم إلى إنجلترا، ومنحته الحكومة الفرنسية جوازاً بالحضور إلى باريس. هناك التقى به هيوم أول لقاء، وما لبث أن شغف به، وتحدثت باريس كلها عن عودة للنفي. وكتب هيوم يقول "محال وصف أو تصور تحمس هذه الأمور لروسو... فلم يظفر شخص قط بما ظفر به من اهتمام القوم... لقد حجب بهاء فولتير وسواه حجباً تاماً (96)". ولكن الصدقة الوليدة أصيبت بصدع في المهد ومن العسير هنا أن نحدد الحقائق بدقة أو نرويها دون تحيز. ففي أول يناير 1766 أرسل جريم إلى قرائه التقرير الآتي:

دخل جان-جاك روسو باريس في 17 ديسمبر. وفي الغد تمشي في حدائق اللكسومبرج وهو يرتدي زيه الأرمي، وإذا لم ينبه أحد إلى الأمر فإن أحداً لم ينتفع بالمشهد. وقد أسكنه الأمير كونتي في التامبل حيث يعقد الأرمي المذكور بلاطه كل يوم. كذلك يتمشى يومياً في ساعة معينة في الشوارع الكبيرة القريبة من مسكنه. وهاهو ذا خطاب تداولته الأيدي في باريس خلال مكثه هنا، وقد لقي نجاحاً كبيراً (98)".

وهنا نقل جريم خطاباً زعم أن روسو تلقاه من فردريك الأكبر. وكان

صفحة رقم : 13164

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> اللاجئ

قد زيفه على روسو هوراس وليول. ولندع وليول نفسه يتحدث عنه في خطاب له إلى هوراس كونواي في 12 يناير 1766.

"أن الفضل في شهرتي الراهنة لتأليف تافه جداً، ولكنه أثار ضجة لا تصدق. ذلك إنني كنت ذات مساء في بيت مدام جوفران أسخر من ادعاءات روسو وتناقضاته، وقلت أشياء أضحكهم. فلما عدت إلى البيت دونتها في خطاب، وأريته في الغد لهلفتيوس ودوق نفرنوا، وقد سرا به كثيراً حتى إنهما، بعد الإشارة على بعض الأخطاء اللغوية... شجعاني على إطلاع الناس عليه. وأنا كما تعلم يطيب لي أن أهرأ بالدجالين سواء السياسيين منهم أو الأدباء مهما عظم قدر مواهبهم، لذلك لم أنكر الفكرة. وسرت النسخ مسرى النار، وهأنذا "أصبحت موضحة Et Me Voici (la mode... وإليك الخطاب (وهو مترجم حرفياً عن فرنسية وليول):

ملك بروسيا إلى مسيو روسو عزيزي جان-جاك

لقد لفظت جنيف ووطنك، لقد جعلتهم يطاردونك من سويسرا، البلد الذي أطيته كثيراً في كتاباتك، وقد أصدرت فرنسا أمراً باعتقالك. فتعال إليّ إذن، فأنا معجب بمواهبك، وتمتعني أحلامك، وهي (بهذه المناسبة) تشغلك فوق ما ينبغي وأطول مما ينبغي. وعليك أن تكون في النهاية حكيماً وسعيداً. لقد أثرت ما يكفي من الأقاويل بسبب غرائب لا تليق برجل عظيم بحق. فأثبت لخصومك أن في استطاعتك أحياناً أن تكون معقولاً، فمن شأن هذا أن يغيبهم دون أن يؤذيك. إن بلادي تقدم لك معتكفاً هادئاً، وإنني أرجو لك الخير، وأحب أن أساعدك إذا استطعت أن تستطيب مقامك. أما إذا واصلت رفض معونتي، فتأكد أنني لن أخبر أحداً بالأمر. وإذا أصررت على إجهاد نفسك لتجد نكبات جديدة، فاختر ما يحلو لك منها، فأنا ملك، وفي استطاعتي أن أحصل لك منها على ما يلبى رغباتك، وسأكف عن اضطهادك حين تكف عن أن تجد فخرك في أن تضطهدوه هو بالتأكيد ما لن يحدث لك أبداً بين خصومك.

صديقك المخلص فردريك (69)

أما وليول فلم يحدث له أن التقى بروسو قط. ولم يجد عقله الرفيع الثقافة، وثرأؤه الموروث معنى في كتابات روسو. وقد عرف عيوب روسو وحماقته من حفلات عشاء مدام جوفران، حيث كان يلتقي دييرو وجريم. وأغلب الظن أنه لم يدرك أن روسو الحساس إلى درجة العصاب، قد دفعته إلى مشارف الانهيار العقلي سلسلة من المجادلات الضيقات. ولو كان وليول على علم بهذا حقاً لكانت دعابته قاسية شائنة. على أننا ينبغي أن نضيف أنه حين طلب هيوم رأييه في إيجاد معتكف لروسو في إنجلترا، تعهد وليول بأن يمد الطريد بكل ضروب المعونة (100).
أكان هيوم على علم بهذا الخطاب؟ يبدو أنه كان موجوداً ببيت مدام جوفران حين لفق أول الأمر، وقد اتهم بأنه "شارك" في تحريره (101). وقد كتب إلى المركيزة دباربنتان في 16 فبراير 1766:
"إن الدعابة الوحيدة التي سمحت بها لنفسي في أمر خطاب ملك بروسيا المزعم كانت على مائدة عشاء اللورد أو سوري (102)". وفي 3 يناير 1766 قام هيوم بزيارة وداع لضيوف البارون دولباخ وأخبرهم بأماله في إنقاذ "الرجل القصير القامة" من الاضطهاد وتوفير أسباب السعادة له في إنجلترا. أما دولباخ فتشكك قائلاً يؤسفني أن أبدد الآمال والأوهام التي تدعك، ولكنني أقول لك أنه لن يمضي طويل زمن حتى ينقش عنك الوهم بصورة محزنة. إنك لا تعرف صاحبك، وأصارحك بأنك تحتضن ثعباناً في صدرك (103).
وفي صباح الغد غادر باريس إلى كاليه في مركبتي أجرة هيوم وروسو مع جان-جاك دلوز وسلطان كلب روسو. ودفع روسو نفقاته بعد أن رفض عروض هيوم ومدام دبوغليه، ومدام دفرديلان بمداه بالمال. فلما بلغوا دوفر (10) يناير) عانق هيوم، وشكره لأنه أتى به إلى بلد تسوده الحرية.

صفحة رقم : 13165

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> روسو في إنجلترا

8- روسو في إنجلترا

وصلوا إلى لندن في 13 يناير 1766 ولاحظ المارة زي روسو قلنسوته الفراء، وروبه الأرجواني، وحزامه، وأوضح لهيوم أنه يشكو مرضاً يجعل سر اويل الركوب القصيرة غير مريحة له (104). واقنع هيوم صديقه كوفواي بأن يقترح معاشاً للغريب الكبير، ووافق جورج الثالث على منحه مائة جنيه في العام، وأبدى رغبة في أن يلقي عليه نظرة سريعة بصفة غير رسمية. وحجز جاربيك لروسو وهيوم مقصورة في المسرح دروري لين في مواجهة المقصورة الملكية في ليلة تقرر فيها حضور الملك والملكة. ولكن حين زار هيوم روسو لقي عنناً شديداً في إقناعه بأن يترك كلبه الذي مزق نباحه بسبب حبسه قلب الغريب المنفي. وأخيراً "احتويت روسو بين ذراعي و... حملته على المسير في شيء من الإكراه (105)". وبعد الحفل دعا جاربيك روسو إلى عشاء لتكريمه وهناه روسو على تمثيله: "سيدي، لقد جعلتني أذرف الدموع على مأساتك، وابتسم لملهاتك، مع أنني لم أكد أفهم كلمة من لغتك".
وإلى هنا كان هيوم على الجملة مسروراً غاية السرور بضيفه. وكتب إلى مدام دباربنتان بعد وصوله إلى لندن بقليل يقول:

سألتني رأيي في جان-جاك روسو. وأني بعد أن راقبته في جميع النواحي... أصرح بأنني لم أعرف رجلاً أكثر منه لطفاً ولا أكرم خلقاً. فهو رقيق، متواضع، ودود، نزيه، مرهف الحس، فإذا بحثت عن عيوب فيه لم أجد سوى قلة صبر مفرطة، وميل لاحتضان شبهات ظالمة في خير أصدقائه... أما عن نفسي فبودي لو أمضيت حياتي في صحبته

دون أن يكدر علاقتنا مكرر. أن في سلوكه بساطة عجيبة. وهو في الأمور العادية طفل بمعنى الكلمة. وهذا من شأنه أن يسهل... لمن يعيشون معه أن يسوسوه (106)".
ثم يقول: "إن له قلباً حاراً ممتازاً، وفي الحديث كثيراً ما تشتد حماسته

صفحة رقم : 13166

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> روسو في إنجلترا

إلى ما يشبه الإلهام. واني أحبه حباً جماً وأرجو أن يكون لي في وده نصيب... لقد تنبأ لي فلاسفة باريس إنني لت أستطيع اصطحابه إلى كاليه دون شجار، ولكني أحسبني قادراً على العيش معه طوال حياتي في صداقة وتقدير متبادلين. وأعتقد إن من أكبر أسباب انسجامنا أن كلينا لا يحب الجدل، وهذا ليس حالهم. ويسؤهم منه أيضاً ظنهم إنه مغال في الدين؛ ومن الغريب حقاً أن يكون فيلسوف هذا الجيل، الذي لقي أشد اضطهاد أكثرهم تديناً (107)... أن به شوقاً إلى الكتاب المقدس، وهو في الحق أفضل من المسيحيين قليلاً (108)".
على أنه كان هناك صعوبات. ففي لندن، كما في باريس، توافد النبلاء والنبيلات، والمؤلفين والنواب على بيت السيدة آدمز في شارع بكنجهام، حيث أسكن هيوم روسو. وسرعان ما ضاق بهذه المجاملات، ورجا هيوم أن يجد له بيتاً بعيداً عن لندن. وجاء عرض بالعناية به في دير ولزي، فأراد أن يقبله، ولكن هيوم أقنعه بأن يسكن مع بدال في تشيزيك على التيمز على ستة أميال من لندن. فانتقل إلى هذا المنزل روسو وسلطان في 18 يناير وأرسل الآن في طلب تريز، وأزعج مضيفه وهيوم بإصراره على وجوب السماح لها بالجلوس إلى المائدة معه. وشكا هيوم في خطاب إلى مدام دبوغليه.
"إن مسيو دلوز يقول أن الناس يرونها شريفة محبة للشجار والثروة، ويظنون أنها أهم سبب في رحيله عن نوشاتيل (موتيه). وهو نفسه تعترف أنها من الغباء بحيث لا تعرف في أي سنة ميلادية نحن ولا في أي شهر من السنة، ولا في أي يوم من الشهر أو الأسبوع، وأنها لا تستطيع أن تتعلم أبداً القيم المختلفة للعملة في أي بلد. ومع ذلك فهي تحكمه حكماً مطلقاً كما تحكم المربية طفلاً. وقد اكتسب كلبه هذه السيادة في غيابها، فحبه لهذا المخلوق يفوق كل تعبير أو تصور (109).
ووصلت تريز خلال ذلك إلى باريس فاستقبلها بوزويل وتطوع باصطحابها إلى إنجلترا. وفي 12 فبراير كتب هيوم إلى مدام دبوغليه

صفحة رقم : 13167

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> روسو في إنجلترا

يقول "جاءني خطاب فهمت منه أن الأنسة مسافرة على جناح السرعة في صحبة صديق لي، وهو شاب في غاية الطيبة، وفي غاية اللطف، وفي غاية الجنون..وبه من الولع بالأدب ما يجعلني أتوجس من حدث مؤذ لشرف صديقنا(110). وقد ادعى بوزويل أنه برر هذا الإحساس السابق. وقد جاء في صفحات في يوميته، تالفة الآن(111)، أنه شارك تريز فرشها في نزل ثاني ليلة بعد رحيلها عن باريس. ثم ليالي عديدة بعدها. ووصلا إلى دوفر باكراً في 11 فبراير. وتقول اليومية: "الأربعاء 12 فبراير. ذهبت صباح أمس إلى الفراش مبكراً جداً، وفعلتها مرة، والجملة ثلاث عشرة. كنت في الحق محباً لها. وفي الثانية بعد الظهر قمنا في رحلتنا. في ذلك المساء صحب تريز إلى هيوم بلندن ووعدها بأنه "لن يذكر علاقتنا الغرامية حتى مماتها أو ممات الفيلسوف".

وفي المرة الثالثة عشرة أسلمها إلى روسو. ولقيها بقبلة كثيرة..وقد بدا في حال من الشيخوخة والضعف حتى "إنك (بوزويل) لم يعد فيك حماسة له(113) طبعاً". وفي تشيزيك، كما في موتيه، تلقى روسو من البريد أكثر مما أراد، وشكا من نفقات البريد التي كان عليه أن يدفعها. وذات يوم، حين جاءه هيوم بـ"شحنة" من لندن، رفض تسلمها، وطلب إليه أن يردها إلى مكتب البريد. ونبهه هيوم أن موظفي البريد في هذه الحالة سيفتحون الخطابات المرفوضة ويطلعون على أسرارهم. وتطوع الاسكتلندي الصبور بأن يفتح ما يرد من رسائل روسو إلى لندن وألا يأتيه إلا بما يراه هاماً منها. ووافق جان-جاك، ولكنه سرعان ما توجس شراً من عبث هيوم ببيده.

وأنته دعوات للغداء، شاملة للأنسة ليفاسير عادة، من الأعيان في لندن فاعتذر روسو من قبولها بحجة مرضه ولكن السبب على الأرجح هو كرهه إظهار تريز أمام عليّة القوم. وكان بيدي رغبته في الانزواء في أعماق الريف. فلما سمع رتشارد ديفنيورت برغبته هذه من جاريك،

صفحة رقم : 13168

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> روسو في إنجلترا

عرض عليه بيتاً في ووتن بداربيشير على 150 ميلاً من لندن. فقبله روسو مغتبطاً. وأرسل ديفنيورت مركبة تنقله هو وتريز، وشكا روسو من أنه يعامل معاملة المتسولين، وأردف قائلاً لهيوم "إن كانت هذه حقاً حيلة من حيل ديفنيورت، فأنت عليم بها موافق عليها، وما كان في إمكانك أن تسيء ألي بأكثر من هذا". وبعد ساعة (كما يقول هيوم)، جلس فجأة على ركبتني، وطوق عنقي بيديه، وقبلني بكل حرارة ثم قال وهو يبذل وجهي كله بالدموع: "أمكن أن تصفح عني يا صديقي العزيز؟ إنني بعد جميع دلائل الود التي تلقيتها منك، أجازيك في النهاية بهذه الحماسة وهذا المسلك السيئ. ولكن لي رغم ذلك قلباً جديراً بصدافتك، وأنا أحبك ولأقدرك، ولم تضع علي سدى أقل مكرمة من مكرماتك" فقبله وعانقه عشرين مرة بفيض من الدموع(113).

وفي الغد 22 مارس انطلق جان-جاك وتريز قاصدين ووتن، فلم يرهما قط بعد. ولم يلبث هيوم أن كتب إلى هيويليز تحليلاً بصيراً بحالة روسو وخلقه.

كان مصمماً تصميم البانس على الاندفاع إلى هذه العزلة رغم كل اعتراضاتي، أنا أتوقع لأنه سيكون تعساً في موقفه ذلك كما كان في الواقع تعساً في جميع المواقف. فسيكون محروماً تماماً من أي شغل يشغله، ومن الأصحاب ومن أي تسلية من أي نوع تقريباً. لقد قرأ أقل القليل في حياته، وطلق الآن كل قراءاته طلاقاً بانناً، ولقد رأى أقل القليل من الدنيا وليس به أي فضول ليري أو يلاحظ. والواقع أنه لا يملك الكثير من المعرفة، وكل ما فعله طوال حياته أنه أحس فقط، وإحساسه في هذه الناحية مرفه إلى حد لا أعرف له مثيلاً، ولكنه مع ذلك يشعره بالألم بأحد مما يشعره باللذة، وما أشبهه برجل لم تنزع عنه ثيابه فحسب، بل جاده أيضاً. ثم دفع به ذلك الموقف ليصارع قوى الطبيعة الغاشمة الصاخبة التي تلم على الدوام بهذا العالم الأسفل(114).

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> روسو في إنجلترا

ووصل وروسو وتريز إبلا ووتن في 29 مارس. وراقه البيت الجديد لأول وهلة. فوصفه في خطاب لصديق بنوشاتل: "بيت منعزل... ليس واسعاً جداً ولكنه مناسباً جداً، شيد في منتصف الطريق على جانب واد، وأمامه "أبداع مخضرة في الوجود" ومشهد طبيعي من مروج، وأشجار، ومزارع متفرقة، وعلى مقربة منه طرق للتنزه على ضفاف غدير. وفي أسوأ الأجواء أخرج في هدوء لجميع النباتات(115)". وكان آل ديفنبورت يشغلن قسماً من البيت حين يلمون به، وبقي به خدمهم ليعنوا بالفيلسوف و "مديرة بيته". وأصر روسو على أن يؤدي لديفنبورت ثلاثين جنياً في العام نظير الأجرة والخدمة.

ولم تعمر سعادتها أكثر من أسبوع. ففي 3 إبريل نشرت مجلة لندنية تسمى "سانت جيمس كرونكل" بالفرنسية والإنجليزية خطاب فردريك الأكبر المزعوم إلى روسو، دون إشارة إلى كاتبه الحقيقي. وحز الأمر في نفس جان-جاك حين نمي إليه الخير، وزاد من ألمه أن محرر المجلة وهو وليم سترهان كان صديقاً قديماً لهيوم. يضاف إلى هذا أن نعمة الصحف البريطانية في حديثها عن روسو تغيرت تغيراً واضحاً منذ برح تشريك، فكثرت المقالات التي انتقد الفيلسوف الغريب الأطوار، واحتوى بعضها على أشياء أعتقد أن هيوم وحده هو الذي يعرفها، ويمكن أن يزود بها الصحف. على أية حال شعر أن واجب هيوم كان يقتضيه أن يكتب شيئاً للدفاع عن ضيفه الأسبق. وسمع أن الاسكتلندي كان يسكن بلندن البيت الذي يسكنه فرانسوا ترونشان، ابن عدو جان-جاك في جنيف، وأغلب الظن أن هيوم كان الآن على علم بنقائص روسو.

وفي 24 إبريل كتب روسو إلى سانت جيمس كرونكل ما يأتي:
"لقد عدوت يا سيدي على الاحترام الذي يدين به كل فرد لملك بأن نسبت علناً إلى ملك بروسيا خطاباً امتلاً بمبالغة وغلا، وكان يجب بناء عليه أن تعرف إنه ما كان يمكن أن يصدر عنه. لا بل إنك جرؤت على نقل

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> روسو في إنجلترا

توقيعه كأنك رأيتته مكتوباً بيد. واني أخبرك يا سيدي أن هذا الخطاب زيف في باريس، ومما يحزنني ويمزق قلبي أن المحتال الذي كتبه له شركاء ضالعون معه في إنجلترا. وواجبك نحو ملك بروسيا، ونحو الحقيقة، ونحوي أيضاً، يقتضيك أن تنتشر خطابي هذا، الموقع بأمضائي، تصحيحاً لخطأ لا شك إنك كنت تلوم نفسك على ارتكابه لو علمت أن مؤامرة خبيثة سخرت لها. واني أقدم لك خالص تحياتي".
جان-جاك روسو(116)

وفي وسعنا الآن أن نفهم لم ظن روسو أن هناك "مؤامرة" عليه. فمن غير خصومه القدامى، فولنتير، وديدرو، وجريم، وغيرهم من نجوم التنوير، يمكن أن يدبروا هذا التغيير الفجائي في لهجة الصحف البريطانية من الترحيب والتكريم إلى الهزاء والتحقير؟ وفي نحو هذه الفترة نشر فولنتير "خطاباً إلى الدكتور ج. ج. يانسوف"، غفلاً من اسمه، أعاد فيه ذكر الإشارات المؤذي للشعب الإنجليزي في كتابات جان-جاك كقولهم إنهم ليسوا في الحقيقة أحراراً، وأنهم شديدي الولع بالمال، وأنهم ليسوا بطبيعتهم طبييين. وأعيد نشر أكثر الفقرات إيذاء في كتيب فولنتير في دورية لندنية تسمى (للويدز افننج نيوز (117)).

وفي 9 مايو كتب روسو إلى كونواي يطلب إليه وقف المعاش الذي يمنح له مؤقتاً. وألح عليه هيوم في قبوله، فرد عليه روسو بأنه لا يستطيع قبول أي امتياز يأتيه من وساطة هيوم. وطالبه هيوم بالتفسير. ويبدو أن روسو قد انتقل الآن إلى حالة من الشك والغضب. ففي 10 يوليو بعث إلى هيوم بخطاب من ثماني عشرة صفحة من القطع الكبيرة، لا يسمح طوله المفرط بنقله هنا كاملاً، ولكنه من الأهمية البالغة لهذا الشجار الأشهر بحيث يقتضينا الأمر أن نتذكر بعض فقراته الرئيسية: "إنني مريض يا سيدي، وليس بي كبير ميل للكتابة، ولكن بما أنك طلبت التفسير، فلا بد من تقديمه لك....

صفحة رقم : 13171

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> روسو في إنجلترا

إنني أعيش خارج العالم، وأجهل الكثير مما يدور فيه... ولا أعرف إلا ما أشعر به... "إنك تسألني في جرة من هو الذي يتهمك؟ أنه يا سيدي الرجل الوحيد في العالم كله الذي... أود تصديقه، إنه أنت... وإذا أشير إلى ديفد هيوم بشخص الغائب، فإني جاعلك الحكم فيما ينبغي أن يكون رأيي فيه". واعتترف روسو في إسهاب بأفضال هيوم، ولكنه أرفد:
"أما إذا تحريت عن الخبر الحقيقي الذي صنعه بي، فإن هذه الخدمات ظاهرية أكثر منها جوهرية،.. فأنا لم أكن نكرة تماماً بحيث أنني لو وصلت وحيداً. لما لقيت عوناً ولا مشورة.. وإذا كان مستر ديفنبروت قد تفضل بإعطائي هذا المسكن فهو لم يفعل ذلك لإرضاء مستر هيوم الذي لم يكن يعرفه. وكل الخير الذي أصابني هنا كان يصيبني في الطريقة ذاتها بدونه (هيوم) ولكن الشر الذي أصابني ما كان يقع لي. إذ لم يكون لي أعداء في إنجلترا؟ وكيف لم يتفق أن يكون هؤلاء الأعداء بالضبط أصدقاء لمستر هيوم؟
"وقد نمى إلى أيضاً أن ابن المشعوذ تروشان، ألد خصومي، لم يكن فقط صديق مستر هيوم بل محسوبه أيضاً، وأنهما يسكنان معاً...."

وكل هذه الحقائق مجتمعة تركت في انطباعاً جعلني قلقاً... وفي الوقت نفسه لم تصل الخطابات التي كتبتها إلى وجهتها، وتلك التي تلقيتها كانت مفتوحة؟ وهذه كلها تناولتها يد مستر هيوم".
"ولكن ما الذي حدث لي حين رأيت خطاب ملك بروسيا المزعوم منشوراً في الصحف العامة؟.. لقد كشف لي شعاع من النور، سر ما طرأ على اتجاه الشعب البريطاني نحو من تغيير فجائي إلى حد مذهل؟ ورأيت في باريس مركز المؤامرة التي تنفذ في لندن.. فحين نشر هذا الخطاب

صفحة رقم : 13172

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> روسو في إنجلترا

المزعم في لندن لم ينس مستر هيوم ببنت شفة، ولا كتب لي شيئاً، وهو العليم ولا ريب بأنه خطاب زائف...."
"لم يبق لي غير كلمة واحدة أقولها لك. إن كنت مذنباً فلا تكتب إلي، إذ لا جدوى من الكتابة، وثق إنك لن تخدعني.
ولكن إن كنت بريئاً فتفضل بتبرير نفسك.. وإلا فوداعاً إلى الأبد(118)".
وكان رد هيوم موجزاً (22 يوليو 1766) ولم يجب عن التهم، لأنه خلص إلى أن روسو مشرف على الجنون. وكتب إلى ديفنبروت يقول إن جاز لي أن أبذل النصح فهو أن تمضي فيما بدأت من حسنة حتى يحبس كلبه في مستشفى المجاذيب(119).. فلما سمع أن روسو ندد في خطابات أرسلها إلى باريس (كخطابه إلى الكونتيسة دبوليه في 9 إبريل 1766)، بعث إلى دبوليه صورة من خطاب جان-جاك الطويل. فردت على هيوم بما يلي:
"إن خطاب روسو فظيع، أنه مبالغ جداً ولا عذر له فيه إطلاقاً.. ولكن لا تحسبه قادراً على الكذب أو الخداع، ولا تتصور أنه دجال أو وغد، إن غضبه بلا مبرر حق، ولكنه غضب مخلص، وليس لدي في هذا أي شك..."
"واليك ما أتصوره السبب فيه. لقد سمعته يقولون، ولعله أخير، إنك صاحب عبارة من خير ما ورد في خطاب مستر ولبول- أنك قلت مازحاً وأنت تتحدث باسم ملك بروسيا "إن شئت الاضطهاد، فأنا ملك، وأستطيع اضطهادهم نيابة عنك بأي نوع تريد" وأن مستر ولبول.. قال إنك صاحب هذه العبارة. فإن صح هذا، وعلم به روسو، فهل تعجب أن يثور سخطه.. وهو المرفه الحس، الغضوب، السوادي المزاج، المتكبر(120)".
وفي 26 يوليو كتب ولبول إلى هيوم يحمل نفسه كل اللوم-دون الإعراب عن أي ندم-في أمر الخطاب المزيف، ويدين "قلب روسو

صفحة رقم : 13173

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> روسو في إنجلترا

الجحود الشرير"(121)، ولكنه لم ينكر أن هيوم كان له يد في الخطاب. وكتب هيوم إلى دولباخ يقول "إنك محق تماماً؛ فروسو وحش". فلما سمع من ديفنبروت أن جان-جاك يكتب "اعترافاته" أفترض أن روسو سيذبح رأيه في الأمر على الملأ. ونصح آدم سمث، وطورجو والمرشال كيث، بأن يتحمل الهجوم صامتاً، ولكن جماعة الفلاسفة في باريس يقودهم دالامبير، حرضوه على أن ينشر رأيه عن نزاع ذاع خبره في عاصمتين. وعليه فقد أصدر (أكتوبر 1766) عرضاً موجزاً للنزاع الذي ثار بين السيدين هيوم وروسو، صاغه بالفرنسية دالامبير وسوار، وبعد شهر ظهر بالإنجليزية. وأذاع جريم مضمونه على نطاق واسع "في خطاب الاشتراك" الذي كتبه في 15 أكتوبر، فتردد صدق المشاجرة في جنيف، وأمستردام، وبرلين، وسانت بطرسبورج. وضاعفت الضجة أكثر من عشر نشرات، ونشر ولبول روايته للنزاع، وهاجم بوزويل ولبول، ورمت مدام دالاتور في "مجل عن مسيو روسو"، هيوم بأنه خائن، ووفاه فولتير بمزيد من البيانات عن نقائص روسو وجرائمه، وعن اختلافه إلى أماكن سيئة السمعة وعن أعمال التحريض التي أتاها في سويسرا(123). أما جورج الثالث فقد تابع المعركة بفضول شديد(124). وأرسل هيوم الوثائق المتعلقة بها إلى المتحف البريطاني(125).

ووسط هذه الضجة الكبرى لزم روسو الصمت الرهيب. ولكنه صمم الآن على العودة إلى فرنسا أيضاً كان الخطر والتمن. فقد اكتأب لرطوبة مناخ إنجلترا وتحفظ الخلق الإنجليزي، وكانت العزلة التي نشدها فوق ما يطيق، ولم يكن

قد بذل أي جهد في تعلن الإنجليزية فوجد مشتقة في التقاهم مع الخدم. ولم يستطع الحديث إلا مع تريز-التي ما فتئت كل يوم تلح عليه في أن يأخذها إلى فرنسا. ودعماً لخطتها أكدت له أن الخدم يبيتون دس السم له. وعليه ففي 30 إبريل كتب إلى مالك بيته الغائب يقول:

صفحة رقم : 13174

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> فرنسا قبل الطوفان -> روسو المنبوذ -> روسو في إنجلترا

"غداً اترك بيتك يا سيدي..ولست أجهل الكمائن التي تدبر لي، ولا عجزني عن حماية نفسي، ولكنني عشت يا سيدي، ولم يبق لي إلا أن أنهي بشجاعة حياة قضيت بشرف..وداعاً سيدي. سأسف دماً على المسكن الذي أبرحه الآن، ولكن أسفي سيكون أكثر لأنني وجدت فيك مضيئاً غاية في اللطف، ومع ذلك لم أستطع أن أجعل منه صديقاً"(126). وفي أول ما يوفر مع تريز على عجل وفي رعب. وتركا حقائبهما ومالاً للوفاء بإيجار ثلاثة عشر شهراً..ولجھلھما بجغرافية إنجلترا استقلا مختلف وسائل الانتقال غير المباشرة،و قطعاً شطراً من الطريق على الأقدام، وظلا عشرة أيام تائهين لا يعرف أحد مستقرهما. وأعلنت الصحف عن اختفائهما، ثم ظهرا في 11 مايو في سبولدنغ لينكولنشير، ومنهما وجدا طريقهما إلى دوفر، وهناك استقلا سفينة إلى كاليه في 22 مايو. وبعد أن قضيا في إنجلترا ستة عشر شهراً. وكتب هيوم إلى طورجو وغيره من الأصدقاء طالباً إليهم أن يمدوا يد المعونة للمنبوذ الذي عاد الآن وحيداً مهجوراً إلى فرنسا وهو من الناحية القانونية لا يزال تحت طائلة الأمر باعتقاله.

صفحة رقم : 13175

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> المشهد العام

الكتاب الثالث

الجنوب الكاثوليكي

1589 - 1715

الفصل التاسع

إيطاليا السعيدة

1759 - 1715

1- المشهد العام

لم يكن في استطاعة إيطاليا أن تتحد في سبيل الدفاع عن نفسها وهي منقسمة إلى نحو اثنتي عشرة دولة متحاسدة متنازعة. وانصرف الإيطاليون إلى الاستمتاع بالحياة والتلذذ بها انصرافاً جعلهم يتركون الأجانب الذين أعوزهم النضج يقتتلون طمعاً في ثمرة السياسة المرة، وغنائم الحرب وأسلابها الملوثة. وهكذا غدت شبه الجزيرة الزاهرة ساحة قتال بين أسبانيا وفرنسا البوربونيتين والنمسا الهابسبورجية. ووضعت سلسلة متعاقبة من حروب الوراثة أوزارها في 1748 وقد استردت أسبانيا مملكة نابولي ودوقية بارما، واحتفظت الباباوات بسلطانهم على الدويلات البابوية، وطلت سافوي والبنديقية وسان مارينو حرة، وكانت جنوا ومودينا محميتين فرنسيين، واحتفظت النمسا بميلان وتسكانيا. وكانت الشمس أثناء ذلك تشرق على ربوع إيطاليا والحقول والكروم والبساتين تجود بالطعام والشراب، وكانت النساء رائعات الحسن مشبوبات العاطفة، والأغاني والألحان تملأ أجواء الفضاء، ووفد عليها الأجانب سائحين وطلاب علم ليستمتعوا بالمناخ ومشاهد الطبيعة، وبالمسارح والموسيقى والفن، وبمخالطة رجال ونساء أوتوا ثقافة قرون طوال. لقد كانت إيطاليا، على الأقل في شمالها، أسعد بلد في أوربا، رغم أنها كانت نصف مغلوبة، ونصف مسلووبة منهوبة. وكان سكانها عام 1700 يناهزون الأربعة عشر مليوناً، وعام 1800 الثمانية عشر مليوناً. وكان الصالح للزراعة من أرضها يقل عن النصف ولكن

صفحة رقم : 13176

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> المشهد العام

كل شير من هذا النصف كان يفلح بالجهد الصابر والرعاية الفائقة. وكانت الأرض المنحدرة تقسم إلى مصاطب لتحفظ بالتربة، والكروم تتدلى من شجرة إلى شجرة فتزدان بها بساتين الفاكة. أما الجنوب فكانت أرضه ضعيفة، وجففت الشمس المبتسمة في سخرية الأنهار والتربة والإنسان، ولم يرخ الإقطاع قبضته التي فرضها على الناس في العصر الوسيط. وكان من الأمثال الساخرة قولهم "أن المسيح لم يتجاوز قط جنوبي إيبولي"- التي كانت إلى الجنوب تماماً من سورينتو. أما وسط إيطاليا فكان خصب التربة، يلفحه الزراع نظير حصة من المحصول بإشراف كبار رجال الكنيسة. وأما في الشمال- لاسيما في وادي نهر بو فقد أشبعت القنوات الأرض رياً، وكانت هذه القنوات تتطلب رؤوس الأموال تنفق عليها، والفلاحين المدربين على تطهير الصفاية وتقوية الشواطئ. وهنا أيضاً زرع الفلاحون أرض غيرهم لقاء نصيب من المحصول. ولكن في هذه الحقول المثمرة استطاع الناس أن يحتلموا كل شيء حتى الفقر وهم محتفظون بكرامتهم.

وقامت مئات القرى على السهول، وفي التلال، وعلى شاطئ البحر: قرى قذرة متربة في الصيف، صاخبة في الصباح بأحاديث الفلاحين وهم يمشون الهويناء إلى وقدة الحر، ساكنة في الظهر، شاغبة في المساء بثرثرة المثرثرين وبالموسيقى ولقاءات المحبين. وكان الإيطاليون يحبون القيلولة أكثر من حبهم للمال، وهي فترة قال فيها الأب لآيا "لا يرى المرء في الشوارع أثناءها غير الكلاب والحمقى والفرنسيين". (1) وكان هناك عشرات المدن المملأ بالكنائس والقصور والمتسولين والفن، وست مدن تضارع باريس جمالاً، وألوف من مهرة الصناع ما زالوا في قمة فنهم. وكانت الصناعة الرأسمالية تتطور من جديد في مجال النسيج لاسيما في ميلان وتورين وبرجامو وفنتشنا، ولكن معظم العمل حتى في النسيج كان يؤدي على أنوال بيتية جزءاً من حياة الأسرة. وكانت هناك طبقة وسطى صغيرة (قوامها التجار والمصرفيون والفنانون والكهنة) أخذة في النمو وسطاً بين الطبقة الأرستقراطية (طبقة ملاك

صفحة رقم : 13177

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> المشهد العام

الأرض وكبار رجال الدين) وطبقة "العامية" (وهم أصحاب الحوانيت ومهرة الحرفيين والفلاحين)، ولكن لم تحرز هذه الطبقة الوسطى أية قوة سياسية بعد.

ولم تكن الفوارق الطبقيّة واضحة ملحوظة إلى حد مؤلم، اللهم إلا في البندقية وجنوه. ففي معظم المدن الإيطالية دخل النبلاء ميدان التجارة أو الصناعة أو المال. وكان في إمكان وصول أي فلاح إيطالي إلى منصب الأسقفية أو البابوية ما شاع عنصراً ديمقراطياً في الحياة الاجتماعية؛ وفي البلاط كان حامل لقب النبالة المهيب يلتقي بالأسقف المتواضع الأصل ويجالسه، وفي الأكاديميات والجامعات كان النبوغ الفكري يرفع الدعاوى الطبقيّة، وفي صخب الكرنفال كان الرجال والنساء المطمئنون وراء أقنعتهم ينسون مراتبهم الاجتماعية كما ينسون نوايسهم الخلقية. وكان الحديث بين الناس يتسم بالمرح شأنهم في فرنسا، هذا إذا استثنينا إجماعاً متفاهماً عليه بعدم المساس بدين يأتي بالجزية الدولية الإيطالية-حتى من فاتحها بنوع خاص.

على أن ذلك الدين كان بريئاً من أي شائبة تزمت، فقد تصالح مع طبيعة البشر ومناخ إيطاليا. وسمح في الكرنفالات بفترة تعطيل للاحتشام، ولكنه جاهد للمحافظة على مؤسستي الزواج والأسرة وحمائتهما من سذاجة النساء وأهواء الرجال. فكانت الفتيات في الطبقات المثقفة يرسلن إلى أحد الأديرة في سن مبكرة في الخامسة-لا للتعليم أولاً بل لضمان الإشراف الخلفي عليهن. ولم تكن الفتاة التواقّة إلى الحرية يطلق سراحها إلا إذا وفر لها صداق وهبئ لها خطيب يوافق عليه أبواها أو أولياؤها ويتقدم لزواجها. وإذا جاز لنا أن نصدق كازانوفاً، فإنه كان في استطاعة راهبة شديدة الشوق إلى الرجال أن تغافل أحياناً الرئيسة الأم-أو تغافل الرئيس الأم راهباتها-وتجد سبيلاً للقاء رجل شديد

الشوق إلى النساء بين الغسق والفجر ، ولكن هذه كانت مغامرات نادرة محفوفة بالخطر. على أننا لا نستطيع أن نطبق هذا الحكم على أخلاقيات الرهبان. وكان الذكر غير المتزوج إذا لم يستطع إغواء زوجة رجل آخر ، يتعامل

صفحة رقم : 13178

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> المشهد العام

عموماً مع البغايا. وقد قدر الكونت دكابلوس أن عددهن في نابلي عام 1714 بلغ ثمانية آلاف من بين السكان البالغين 150.000. ووجد الرئيس دبروس في ميلان "إنك لا تخطو خطوة في الميادين العامة دون أن تلتقي بقوادين Courtiers de Galanterie يعرضون عليك نساء من كل لون أو جنس تشاء، ولكن لك أن تتق بأن النتيجة لا تكون دائماً باهرة كالوعد(2)". وكان محظوراً على البغايا في روما أن يظهرن في الكنائس أو المحافل العامة، وحرّم عليهن بيع مفاتهن خلال صوم الميلاد، والصوم الكبير، وأيام الأحاد والعطلات الدينية. وكان أشد ما يعاكس هؤلاء البغايا ويفسد عليهن حرفتهن أن طريق العشق الحرام كانت ميسرة إلى قلوب النساء المتزوجات. فهؤلاء النساء انتقمن لأنفسهن من فترة المراهقة التي ضيق عليهن فيها، ومن الأزواج الذين لم يكن لهن رأي في اختيارهن، بالانغماس في العلاقات الغرامية غير المشروعة، وبتأخذ "سيد تابع" cavaliere Servente. وقد سمحت عادة مرافقة المرأة المتزوجة هذه Cicisbeatura، بموافقة زوجها في غيبته، (وهي عادة مستوردة من أسبانيا) بأن يقوم على خدمتها سيد يخدمها، فيرافقها إلى العشاء وإلى المسرح وإلى المنتديات، ولكن نادراً ما يصاحبها إلى الفراش. واختيار بعض الأزواج مرافقين لزوجتهم لحمايتهن من علاقات العشق الحرام(3). وقد أفضى الانتشار الواسع لمذكرات كازانوف، والأخبار المتعجلة التي أذاعها الرحالة الفرنسيون الذين ألفوا التحلل الفرنسي، إلى مبالغة الأجانب في فكرتهم عن فساد الأخلاق في إيطاليا. صحيح أن جرائم العنف أو الجنس كثرت، ولكن الإيطاليين كانوا بوجه عام أبناء أوفياء لواديهم، وأزواجاً غيورين على نساءهم، وزوجات مجدات في بيوتهن، وآباء متعقلين بأبنائهم، يحيون حياة أسرية مترابطة، ويواجهون متاعب الزواج والأبوة والأمومة بإباء في الخلق وطلاقة في الحديث وبشاشة حاضرة في الطبع. ولم يلق تعليم النساء تشجيعاً، لأن كثيراً من الرجال كانوا يرون التعليم خطراً على العفة. وتلقت قلة من البنات في الأديرة تعليماً في القراءة والكتابة

صفحة رقم : 13179

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> المشهد العام

والتطريز وفنون الحياكة والترفيه. ومع ذلك نسمع عن نساء راقيات التعليم يدرن صالونات يتجاذبن فيها الأحاديث في يسر مع الكتاب والفنانين ورجال الأعمال. وفي بلرمو ترجمت "أنا جننتلي" فولتير شعراً إيطالياً جيداً، ونشرت "الرسائل الفلسفية" التي دافعت فيها بجرأة عن أخلاقيات هلفتيوس غير القائمة على الدين. وفي ميلان سمع الرئيس دبروس ماريا جايتانا اجنيزي، البالغة من العمر عشرين عاماً، تحاضر باللاتينية في علم الوسائل(4)، وقد درست اليونانية والعبرية والفرنسية والإنجليزية وكتبت في رسائل القطاعات المخروطية والهندسة التحليلية(5)، وفي جامعة بولونيا كانت السنيورة ماتسوكيني تدرس التشريح، والسنيورة تامبروني تدرس اليونانية(6). ومن تلك الجامعة ذاتها نالت لاورا باسي درجة الدكتوراه في الفلسفة ولما تتجاوز الحادية والعشرين (1732)، وما لبثت أن ضربت بالعلم سهم وافر حتى عينت أستاذاً في الجامعة وحاضرت في "بصريات" نيوتن وألفت البحوث في الفيزياء، وأنجبت خلال ذلك لزوجها اثني عشر طفلاً قامت بنفسها على تربيتهم(7).

وطلت الكثرة العظمى من الجنسين أمية دون أن ينالها من ذلك أي غضاضة أو ازدرأء من المجتمع. فإذا ظهرت مخايل الذكاء والنضج على غلام في القرية وجد له القسيس عادة سبيلاً إلى التعليم. ذلك أن شتى الجماعات الدينية أسست المدارس في المدن. فكان لليسوعيين عدد كبير من الكليات في إيطالياست في البندقية، وسبع في ميلان وست في جنوه، وعشر في بيدمونت، وتسع وعشرون في صقلية وكليات كثيرة في مملكة نابلي وفي الولايات البابوية. وقامت الجامعات في تورين وجنوه وميلان وباقيا زبيزا وفلورنسة وبولونيا وبادوا وروما ونابلي وبلرمو، وكلها تحت إشراف رجال الكنيسة الكاثوليك، ولكن الكليات ضمت الكثير من العلمانيين. وكان المعلمون والطلاب على حد سواء يحلفون اليمين بالأ يعلموا أو يقرؤوا أو يقولوا أو يفعلوا شيئاً يخالف تعليم كنيسة روما. يقول كازانوفا "في بادوا كانت حكومة البندقية تدفع المرتبات الكبيرة لمشاهير الأساتذة، وتترك للطلاب كامل الحرية في الانتظام في حضور دروسهم ومحاضراتهم أو عدمه كما يشاءون"(8).

صفحة رقم : 13180

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> المشهد العام

يضاف إلى هذا أن الفكر الإيطالي شحذه عدد كبير من الأكاديميات المخصصة للأدب أو العلوم أو الفنون، والمتحررة عادة من إشراف رجال الدين، وأشهرها الأكاديمية الأركادية التي كانت في الفترة التي نحن بصددتها تموت موتاً كريماً. وكانت هناك مكتبات عامة مثل "دار الكتب الأمبروزية" الجميلة في ميلان، أدار كتب ماجليابيكينا (دار الكتب القومية الآن) في فلورنسة، وكان الكثير من المكتبات الخاصة كمكتبة بيزاني في البندقية، يفتح أبوابه للجمهور في أيام معلومة من الأسبوع. وقد روى دبروس أن مكتبات إيطاليا كان يستخدمها القراء استخداماً يفوق في كثرته وحماسته استخدام القراء لمكتبات فرنسا. وأخيراً كانت هناك دوريات من جميع الأنواع ثقافية، أو أدبية، أو فكاهية. وكانت مجلة الأدب الإيطالية التي أسسها أبوستولو تسينو وفرانشسكو سكيوتي دي ما في عام 1710 من أرقى المجالات في أوروبا ثقافة وأحظاها بالاحترام.

وصفوة القول أن إيطاليا كانت تنعم بحياة فكرية نشيطة، فكثرت عدد الشعراء الذين عاشوا على إهداء شعرهم لكبار القوم، وتعطر الجو بأريج القصائد الغنائية التي ما برحت تقلد بترارك، وتنافس المرتجلون في إفراغ التقريظ فور دعوتهم إلى قرصه. ولكن العصر خلا من العشر العظيم حتى أقبل ألفييري في ختام القرن. وقامت المسارح في البندقية وفتشنتا وجنوه وتورين وميلان وفلورنسة وبادوا ونابلي وروما، وأم هذه الأبنية الأنيقة الرشيقة صفوة القوم وعامة الشعب ليتجاذبوا الحديث يسددوا نظرات الغرام. كما أتوا ليستمعوا إلى الأوبرا أو التمثيلية. وكان هناك دارسون كبار مثل مافبي، ومؤرخون شديدي الاجتهاد مثل موراتور، وعماء قليل سيأتي علماء عظام. غير أنها كانت ثقافة متكلفة بعض الشيء، حذرة خشية الرقابة، مهذبة مجاملة إلى حد أفقدها الجرأة.

ومع ذلك هبت عليها رياح متقطعة من الهرطقة عبر الألب أو البحر. فأسس الأجانب-لاسيما الإنجليز من أنصار جيمس الثاني في جنوه وفلورنسة وروما ونابلي، من 1730 فصاعداً محافل ماسونية نزاعة إلى الربوبية. وقد أدانها البابوان كلمنت الثاني عشر وبندكت الرابع عشر، ولكنها اجتذبت

صفحة رقم : 13181

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> المشهد العام

الأتباع العديدين خصوصاً من طبقة النبلاء وأحياناً من الأكليروس. وجلبت إلى إيطاليا بعض مؤلفات مونشكو وفولتير ورينال ومايلي وكوندياك وهلفتيوس ودولباخ ولامترى. ونشرت طبعات من "الموسوعة" بالفرنسية في لوكا ولجهورن وبادوا. ووصلت حركة التنوير إلى إيطاليا بدرجة متواضعة وفي صورة ميسرة لمن يقرؤون الفرنسية. ولكن الإيطالي أعرض عن الفلسفة، وأعرض عنها عمداً؛ وعن قناعة في الأكثر الأعم. فلقد كان هواه ومهارته في إبداع أو تذوق الفن والشعر أو الموسيقى، وبداء له الجمال المحسوس أو المرئي أو المسموع أفضل من حقيقة رواغة لا يضمن إطلاقاً إشاعتها البهجة في نفسه. ومن ثم فقد ترك الدنيا تناقش وتجادل بينما انصرف هو إلى شذوه وغنائه.

صفحة رقم : 13182

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> الموسيقى

2- الموسيقى

اعترفت أوروبا للموسيقى الإيطالية بمكان الصدارة وقبلة آلاتها وأشكالها، ورحبت بمزاياها، وتوجت كبار مغنيها الخصان واستسلمت لأوبراها الشجية قبل جلوك وعلى الرغم منه وبعده. وأم جلوك وهاسمي ومونسارت ومئات غيرهم إيطاليا ليدرسوا موسيقاها، وليقفوا على أسرار "الغناء الجميل Bel cant" (المللع) من بوربورا أو يتسلموا مدالية بادري مارتيني.

يقول بيرني في معرض حديثه عن البندقية، "إذا سار اثنان معاً يتأبط أحدهما ذراع الآخر، بدا كأنهما لا يتحدثان إلا غناء. فكل الأغاني هناك ثنائيات". (9) وكتب إنجليزي آخر "في ميدان القديس مرقص يرفع رجل من عامة الشعب - حذاء أو حدادا مثلاً- عقيرته بأغنية، وللتو ينضم إليه أشخاص على شاكلته ويشدون بهذه الأغنية في عدة أصوات، بضبط وذوق ندر أن يصادفهما المرء في أرقى المجتمعات في بلادنا الشمالية(10).

وكان العشق الواقف تحت نافذة حبيبته يداعب أوتار فيثارة أو مندولين كما يداعب قلب عذرائه. وحمل مغنو الشارع أنغامهم إلى المقاهي والحانات، وفي الجندول كانت الموسيقى تعانق هواء المساء، والصالونات والأكاديميات

صفحة رقم : 13183

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> الموسيقى

والمسارح تحيي الحفلات الموسيقية، والكنايس ترجها أصوات الأراغن وفرق المرثلين، وفي الأوبرا كان الرجال ينتشون طرباً والنساء يغين عن الوعي عند سمع لحن من المغنية الأولى أو الخصي المغني. وفي حفلة سمفونية أحييت في روما في مكان لا تغطيه غير نجوم السماء (1758) سمع موريليه عبارات عاطفية مثل (إيه أيها المبارك! يا للذة الكبرى! أكاد أموت طرباً!) (11). ولم يكن من غير المألوف في دار الأوبرا أن نسمع التشيخ يتردد بين الجمهور النظارة.

وأحب القوم الاتهم الموسيقية حباً فوق وفاءهم للجنس الآخر، وسخوا بالمال ليجعلوا منها تحفاً صنعت بدقة من الخشب الثمين وطعمت بالعاج أو المينا أو رصعت بالأحجار الكريمة، وربما زين الهارب أو الفيثارة بالماس (12). وكان سترافاري قد ترك في كريمونا تلاميذ له مثل جوزيني انطونيو جوارنيري ودومنيكو مونتانيانا واصلوا العلم بسر صنع الفيولينات والفيولات والفيولنشلات النابضة بالحياة. وظل الهاربسكورد (الذي كان الإيطاليون يسمونه كلافيشمالبو) إلى نهاية القرن الثامن عشر آلة المفاتيح المفضلة في إيطاليا رغم أن بارتولوميو كريستوفوري كان قد اخترع البيانوفورتي بفلورنسة حوالي 1709. وحظي كبار عازفي الهاربسكورد مثل دومنيكو سكارلاتي، أو الفيولينه مثل تارتيني وجمباني، في هذا الجيل بشهرة دولية. فكان فرانشسكو جمباني بمثابة "الست" أو كما لقبه منافسه تارتيني "مجنون" القوس (الفوربيوندو). وحين وفد على إنجلترا في 1714 حظي بشعبيته في الجزر البريطانية أغرته بالإقامة هناك معظم سنيه الثماني عشرة الأخيرة.

وقد شجع ظهور أمثال هؤلاء العازفين المهرة على إنتاج الموسيقى الآلية، وكان هذا هو العصر الذهبي للمؤلفات الموسيقية الإيطالية للفيولينة. فاتخذت شكلها الآن خصوصاً في إيطاليا-الافتتاحية، والمنتالية، والصوناتا، والكونسرتو، والسمفونية، وكلها ركز على اللحن والإيقاع، لا على الكونترابنت البوليفوني الذي كان آنذ بالغا أوجه ثم مختتماً حياته مع يوهان سبستيان باخ. وكما أن المنتالية انبثقت من موسيقى الرقص، فكذلك انبثقت الصوناتا من

صفحة رقم : 13184

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> الموسيقى

المنتالية. لقد كانت شيئاً يعزف، كما كانت الكنتاتا شيئاً ينشد. وأصبحت الصوناتا في القرن الثامن عشر سلسلة من ثلاث حركات سريعة (الليجرو أو بريستو)، وبطيئة (أندانتو أو أداجو) وسريعة (بريستو أو الليجرو) ويدس فيها

أحياناً سكيرتسو (دعابة) تذكر السامع برقصة الجيعة المرححة، أو مونيته رشيفة تذكره بموسيقى الرقص. وما وافى عام 1750 حتى كانت الصوناتا، على الأقل في حركتها الأولى، قد طورت "شكل الصوناتا" - وهو عرض موضوعات متعارضة وأطالنها بالتنوع، ثم تلخيصاً عند الختام. وبعد تجارب ج. ب. ساماريني وريبالدودي كابوا في إيطاليا، ويوهان شتامتس في ألمانيا، تطورت السمفونية بتطبيق شكل الصوناتا على ما كان في الماضي افتتاحية أوبرالية أو مصاحبة سردية. وبهذه الوسائل هيا الملحن اللذة للعقل والحواس معاً، وأعطى الموسيقى الألية ميزة فنية جديدة هي البنيان المحدد الذي يقيد ويربط اللحن بنظام ووحدة منطقيين. ذلك أنه إذا انعدم البناء في فن ما-أي العلاقة العضوية بين الأجزاء والكل، أو العلاقة بين البداية والوسط والنهاية-كان ذلك معناه انحطاط هذا الفن. أما الكونسرتو (من اللفظ اللاتيني Concertare ومعناه يتبارى) فقد طبق على الموسيقى مبدأ الصراع الذي هو روح الدراما. فعارض الأوركسترا بعازف منفرد، وأدخل الاثنيين في مناظرة هارمونية. وكان شكله المفضل في إيطاليا الكونسرتو جروسو (الكبير)، حيث التعارض بين أوركسترا صغير من الوتريات، و"كونسرتينو" (كونسرتو صغير) من عازفين أو ثلاثة. وكان ليفالدي في إيطاليا وهيندل في إنجلترا، وباخ في ألمانيا، المفضل في صقل شكل الكونسرتو جروسو صقلاً مطرداً، وتحدثت موسيقى الآلات تفوق الأغنية. ومع ذلك، ظل الصوت-خصوصاً في إيطاليا-هو الآلة المحببة التي لا ضريب لها. ففي إيطاليا أتاحت له ميزة لغة عذبة رخيمة، تغلب فيها الصوت اللين على الساكن، وتقليد طويل من الموسيقى الكنسية، وفن بالغ الرقي في فنون التدريب الصوتي. هنا ظهر كبار مغنيات الأوبرا (البريمادونات)

صفحة رقم : 13185

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> الموسيقى

الفاتنات اللاتي يرتقين كل عام سلم الثراء والبدانة، والمغنون الطواشية ذوو الأجسام الريانة الذين كانوا يخرجون من إيطاليا ليأسروا الملوك الملكات. هؤلاء المغنون السويرانو أك الكونترالتو الذكور جمعوا بين رنات الرجال وحناجرهم، وبين أصوات النساء أو الغلمان. وكانوا بعد أن يطيشوا في سن السابعة أو الثامنة، ويخضعوا لنظام طويل دقيق من التدريب على التنفس والنطق، يتعلمون ترعشات الصوت وتحلياته وتهديجاته، وتعاقب النغمات السريع ووقفات التقاط النفس-إلى آخر هذه الفنون التي جعلت جماهير السامعين الإيطاليين تهذي طرباً تعبر عنه أحياناً بهتاف هو "ليجيى المسكين الصغير" (13). ذلك أن معارضة الكنيسة (لاسيما في روما) في استخدام النساء على خشبة المسرح وسوء تدريب المغنيات في القرن السابع عشر، كانا قد خلّقا طلباً لباه هذا السكين الصغير الذي كان يقطع القنوتات المنوية للذكر. وبلغ من عظم مكانة المغنين المطوشين إذا حال فهم الحظ أن بعض الآباء كانوا بعد أن يغروا الصبي الضحية بالرضى بمصيره هذا-يسلمونه لهذه العملية بمجرد أن تبدو منه أول بادرة صوت رخم. ولكن كثيراً ما كانت الآمال تخيب، فكانت تجد كل مدينة بإيطاليا كما ذكر بيرني نقرأ من هؤلاء الفاشلين "لا صوت لهم على الإطلاق" (14) وبعد عام 1750 اضمحلت بدعة الخصيان هذه، لأن مغنيات الأوبرا تعلمن أن يتفوقن عليهم في نقاء النغمة وينافسنهم في قوة الصوت.

أما أشهر الأسماء في موسيقى القرن الثامن عشر فلم يكن باخ ولا هيندل ولا موتسارت، بل فارينللي-وهذا ليس اسمه الأصلي. والظاهر أن كارلو بروسكي اتخذ اسم خاله الذي كان أنثذ معروفاً في دوائر الموسيقى. وإذ كان كارلو قد ولد في نابلي (1750) لأبوين عريقي الأصل، فما كان لمثله عادة يدخل صفوف المطوشين؛ وروى أن حادثاً أصابه وهو راكب جواده اقتضى إجراء العملية التي أثمرت أبداع صوت في التاريخ. ثم درس الغناء على بوربيورا، وصحبه إلى روما، وظهر هناك في أوبرا بوربيورا المسماة "إيوميني". وفي أحد الألحان نافس عارفاً على الناي في إطالة نغمة وتضخيمها وغطى عليه

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> الموسيقى

في طول النفس، فأنته الدعوات من أكثر من عشرة عواصم. وفي 1727 في بولونيا لقي أول هزيمة له؛ ذلك أنه قاسم انطونيو برناكي لحناً، فاعترف له بأنه (ملك المغنين)، وتوسل إليه أن يكون معلمه. ووافق برناكي، وسرعان ما بز التلميذ معلمه. وراح فارينللي يحرز الآن نصراً بعد نصر في البلد تلو البلد-البندقية وفينا وروما ونابلي وفيرارا ولوكا وتورين ولندن وباريس. وكان تفننه الصوتي عجيبة العصر. وكان فن التنفس من أسرار براعته، فقد عرف أكثر من أي مغن آخر كيف يتنفس بعمق وسرعة وهدوء، وكان في استطاعته أن يستمر في غناء بنغمة ما بعد أن تتوقف جميع الآلات الموسيقية. وفي لحن Son Qual nave (على أي مركب) بدأ النغمة الأولى مخافتاً لا يكاد يسمع، وطها تدريجياً إلى ملء حجمها، ثم هبط بها شيئاً فشيئاً إلى خفوتها الأولى. وكان جمهور السامعين أحياناً، حتى في إنجلترا- ذلك البلد الرصين يصفق لهذه العجيبة السعيدة تصفيقاً يمتد خمس دقائق (15). وقد اكتسب قلوب سامعيه كذلك بحنانه وكياسته ورقته، وكانت هذه خلال في فطرته كما كانت في صوته. وفي 1737 قام بزيارة لأسبانيا خالها قصيرة، ولكن المكث طال به في مدريد أو قريبا ربع قرن وسوف نفتش عليه هناك في فصل لاحق.

وبفضل المغنين الطواشية أمثال فارينللي وسينيزينو، وكواكب الغناء من النساء أمثال فاوستينا بوردوني وفرنشسكا كوتسوني، أصبحت الأوبرا صوت إيطاليا، وبهذه المثابة استمع إليها الناس بابتهاج في كل بلد أوروبي إلا فرنسا حيث اشتعلت نار الحرب. وكلمة "أوبرا" كانت في الأصل جمع "opus" ومعناها "أعمال" ولكن الجمع أصبح في إيطاليا مفرداً، واحتفظ بمعناه "العمل"، وما نسميه الآن أوبرا كان يسمى Opera Per Musica- عملاً موسيقياً. ولم تتخذ الكلمة معناها الحالي إلا في القرن الثامن عشر. وإذ كانت متأثرة بتقاليد الدراما اليونانية، فقد صممت أصلاً على أنها تمثيلية تصاحبها الموسيقى، ثم ما لبثت الموسيقى أن طغت على التمثيلية في إيطاليا، وطغت الأغاني (الآريا) على الموسيقى. وصممت أوبرات تتيح عروضاً منفردة لكل

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> الموسيقى

مغنية أولى وكل مغن أول في الفرقة. وكان السامعون يتجادبون الحديث فيما بين هذه القمم المثيرة، وبين الفصول يلعبون الورق أو الشطرنج، ويقامرون، ويأكلون الحلوى أو الفاكهة أو العشاء الساخن. وبيتر أوروون وبيغازلون من مقصورة إلى مقصورة. في مثل هذه المهرجانات كان النص عادة يغرق في طوفان معترض في الأغاني والتثائبات والكوارس والباليهات. وقد ندد المؤرخ لودفيكو مور توري بطمس العشر على هذا النحو (1701)(16) ووافق كاتب النصوص أبوستولوتسينو، وانتقد المؤلف الموسيقي بنديتو مارنشيللي هذا الاتجاه في "تياترو على الموضة" (1721). وأوقف متاستازيو حيناً هذا السيل الجارف، ولكن في النمسا لا في إيطاليا. وناضل جوميللي وترايبنا ضده،

ولكن مواطنيها أنكروا عليها هذا النضال، ذلك أن الإيطاليين أثروا في غير موارد الموسيقى على الشعر، واتخذوا الدراما مجرد تكتة للأغنية.

وأغلب الظن أنه ما من شكل فني آخر وعاه التاريخ حظي بالشعبية التي حظيت بها الأوبرا في إيطاليا، وما من حماسة ضارعت حماسة جمهور إيطالي يرحب بلحن أو قفلة يشدو بها مغن مشهور. ولو سئل أحد المستمعين في حفلة كهذه لعد ذلك منه جريمة اجتماعية كبرى. وكان التصفيق يبدأ قبل أن تختتم الأغنية المألوفة، وتدعمه العصي تدق على الأرض أو على ظهور المقاعد، وكان بعض المتحمسين يقذفون بأحذيتهم في الهواء (17). وكان لكل مدينة إيطالية تزهو بنفسها قليلاً أو كثيراً (وأيهما كانت مبرأة من الزهو؟) دار للأوبرا، وبلغ عدد هذه الدور في الولايات البابوية وحدها أربعين. وبينما كانت الأوبرا في ألمانيا حفلة رسمية تؤدي في البلاط ويحرم منها جمهور الشعب، وبينما حد من مستمعيها في إنجلترا ارتفاع أسعار الدخول، نجدها في إيطاليا مفتوحة لكل شخص لائق الهندام نظير رسم متواضع، وأحياناً دون رسم على الإطلاق. ولما كان الإيطاليون قوماً يحبون الاستمتاع بالحياة فقد أصروا على أن يكون لأوبراتهم خاتمة سعيدة مهما كان في هذه الأوبرات من فواجع. ثم أنهم أحبوا الفاكهة كما أحبوا رقة العاطفة. فنما بينهم تقليد يقضي بدس فاصل هزلي بين فصول الأوبرا. ثم تطورت هذه الفواصل

صفحة رقم : 13188

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> الموسيقى

إلى نوع قائم بذاته حتى لقد نافست (الأوبرا الجادة) في شعبيتها، وأحياناً في طولها. والذي فتن باريس في 1752 كان "أوبرا هازلة-Opera Buffa" وهي الخادمة تنقلب ربة البيت La Serva Padranن لبرجوليزي، التي أشاد بها روسو دليلاً على تفوق الموسيقى الإيطالية على الفرنسية.

أياً كانت الأوبرا الإيطالية، هازلة أو جادة، فإنها كانت قوة في التاريخ. وكما غزت روما مرة غربي أوربا بجيوشها، وكما غزتها كنيسة روما مرة ثانية بعقيدها، كذلك غزتها إيطاليا مرة ثالثة بالأوبرا. فأزاحت أوبراتها الإنتاج الوطني في ألمانيا والدنمرك وإنجلترا والبرتغال وأسبانيا بل وروسيا، وكان مغنوها معبودي كل عاصمة أوربية تقريباً. واتخذ المغنون الوطنيون أسماء إيطالية لكي يحظوا بالقبول في وطنهم. وسيمضي هذا الغزو الساحر ما بقي للحروف اللينة التفوق في الغناء على الحروف الساكنة.

صفحة رقم : 13189

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> الدين

كانت الطبقة المسيطرة في إيطاليا هي طبقة الأكليروس بعد البريمادونات والمغنين الخصيان. وراح رجال الدين يمشون أو يركبون في غفاراتهم المتميزة وقبعاتهم العريضة الخواف في حرية تخالطها الكبرياء عبر المجتمع الإيطالي عالمين أنهم يوزعون أعلى نعمة عرفتها البشرية-هي نعمة الرجاء. وبينما كانت نسبة رجال الكنيسة إلى الشعب في فرنسا في هذا القرن على التقريب واحداً إلى مائتي نفس، كانت النسبة في روما واحداً لكل خمس عشرة، وفي بولونيا واحداً لكل سبع عشرة، وفي نابلي وتورين واحداً لكل ثمان وعشرين (18). وقد شكا رجل معاصر من أهل نابلي من هذا الوضع، وهو باعترافه رجل متمسك بالتقاليد:

"لقد استفحل عدد الأكليروس بحيث أصبح لزاماً على الأمراء أن يتخذوا الإجراءات للحد من عددهم وإلا ابتلعوا الدولة بأسرها. فأبي

صفحة رقم : 13190

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> الدين

ضرورة لأن يهيمن على أصغر القرى الإيطالية خمسون قسيساً أو ستون؟... أن العدد الضخم من أبراج الأجراس والأديرة يحجب نور الشمس. وهناك مدن يبلغ فيها العدد خمسة وعشرين ديراً لرهبان أو راهبات الدومينكان وسبعة مجامع لليسوعيين، ومثلها للثباتين، ونحو عشرين أو ثلاثين ديراً للأخوة الفرنسيسكان، وما لا يقل عن خمسين آخر من طوائف دينية مختلفة من الجنسين، هذا فضلاً عن أربعمئة أو خمسمئة كنيسة ومصلى (19)".

ولعل هذه الأرقام بالغ فيها الكاتب دعماً لحجته. ونحن نسمع عن أربعمئة كنيسة في نابلي، و260 في ميلان، و110 في تورين، على أن هذه دخلت ضمنها المصليات الصغيرة. وكان الرهبان فقراء نسبياً، أما الأكليروس من غير الرهبان فكانوا في جملتهم يملكون ثروة تفوق ثروة النبلاء. وكان الأكليروس في مملكة نابلي يحصلون على ثلث الموارد. وفي دوقية بآرما كان نصف الأرض يملكه الأكليروس، وفي تسكانيا ثلاثة أرباع الأرض تقريباً. وفي البندقية أضافت الوصايا الجديدة في السنوات الإحدى عشرة من 1755 إلى 1765 إلى الكنيسة من الأملاك ما قيمته 3.300.000 دوقانية (20). وكان بعض الكرادلة والأساقفة من أغنى الرجال في إيطاليا، ولكن هؤلاء الكرادلة والأساقفة كانوا أولاً مديريين وحكاماً، ولم يكونوا قديسين إلا أحياناً. من ذلك أن عدة رجال منهم في النصف الثاني من القرن نزلوا عن ثروتهم وترفهم وعاشوا حياة الفقر الاختياري.

أما الشعب الإيطالي فلم يبد منه أي احتجاج ذي بال على ثراء الأكليروس، اللهم إلا قلة من المعلقين والهجائين. لقد كان الشعب فخوراً ببهاء كنائسه وأديرته وأبواره وبدت لهم مساهماتهم ثمناً زهيداً يدفعونه لقاء النظام الذي وفره الدين للأسرة والدولة. وكان في كل بيت صورة أو تمثال للمسيح المصلوب، وآخر للعذراء، وأمامهما تركع الأسرة كلها في صلاة كل مساء-الأبوان والأبناء والخدم. فأبي شيء يستطيع الحلول محل التأثير الأخلاقي لتلك الصلوات الموحدة بين القلوب؟ وكان الامتناع

صفحة رقم : 13191

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> الدين

عن أكل اللحم أيام الجمع، وأيام الأربعاء والجمع في الصوم الكبير، ضبطاً نافعاً للشهوة كما كان نعمة على الصحة وعلى صيادي السمك. أما القساوسة، الواعون لمفاتيح النساء، فلم يغالوا في إدانة خطايا الجسد، وأغضوا عن مظاهر التحلل في الكرنفالات. لا بل أن البغايا كن في السبوت يوقدن شمعة أمام العذراء، ويودعن نقوداً لترتيل القداس. وقد أدهش دبروس وهو يشاهد تمثيلية في فيرونا أن يرى التمثيل يتوقف حين دقت أجراس الكنائس معلنة موعد الصلاة (الأنجيلوس)، وركع كل الممثلين وصلوا، وقامت ممثلة كانت تتصنع الإغماء في المسرحية لتشارك في الصلاة ثم عادت إلى إغمائها(21). حقاً ندر أن أحب الناس ديناً من الأديان حياً كما أحب الإيطاليون الكتلحة في إيطاليا. على أنه كان للصورة وجه آخر -هو الرقابة على المطبوعات وديوان التفتيش. وقد طالبت الكنيسة كل إيطالي أو إيطالية أن يؤدي مرة في السنة على الأقل "واجب عيد القيامة" -أي يذهب للاعتراف على الكاهن في سبت النور، ويتناول القربان في صباح القيامة. فإذا قصر في هذا الواجب في كل أرجاء إيطاليا باستثناء أكبر المدن -استوجب التوبيخ من الكاهن، فإذا لم يجد مع العاصي التوبيخ والنصح سراً عوقب بنشر اسمه على أبواب كنيسة الأبرشية، فإذا تمادى في الرفض كان جزاؤه الحرم، بل السجن في بعض المدن(22). على أن ديوان التفتيش كان قد فقد الكثير من قوته وشرته. وكان في الإمكان تقادي الرقابة الكنسية في المراكز الكبرى، فخفت الرقابة على المطبوعات، وكان هناك انتشار صامت للشك الهرطقة في أوساط المتقنين لا بل بين رجال الأكليروس أنفسهم -لأن بعضهم كانوا جانسينيين في دخيلة أنفسهم برغم أوامر البابا.

وإذا كان الكثير من القساوسة والرهبان قد عاشوا حياة الراحة والدعة، ولم يكونوا غرباء على الإثم، فقد كان هناك أيضاً الكثير ممن وفوا ببندهم، واحتفظوا بالإيمان حياً بالإخلاص لواجباتهم. وقامت المؤسسات الدينية الجديدة شاهداً على بقاء نبض الحياة في الرهبة. من ذلك أن القديس

صفحة رقم : 13192

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> الدين

الفونسودي لجيرومي المحامي العريق الأصل أسس في 1732 جماعة "أتباع الفادي" (أي المسيح)، كذلك أسس القديس بولس الصليبي (باولودانتي)، الذي مارس أقصى ضروب النسك، في 1737 "طائفة المتألمين". أي إتباع صليب المسيح المقدس والامه.

وكانت جماعة اليسوعيين في 1730 تضم نحو 23.000 عضو. منهم 3.622 في إيطاليا، ونصفهم قساوسة(23). ولم يكن هناك تناسب قط بين سلطانهم وعددهم. فكثيراً ما أثروا في السياسة الداخلية والدولة بحكم كونهم آباء الاعتراف للملوك والملكات والأسر المرموقة، وكانوا أحياناً أكثر القوى إلحاحاً بعد جماهير الشعب في اضطهاد الهرطقة. ومع ذلك كانوا أكثر اللاهوتيين الكاثوليك تحراً، وقد رأينا في غير من هذا الموضع كم حاولوا في صبر أن يتوافقوا مع حركة التنوير الفرنسية. وقد تميزت بعثاتهم الخارجية بمثل هذه المرونة. ففي الصين حولوا مئات الألوف إلى الكاثوليكية(24)، ولكن تنازلاتهم الذكية لعبادة الأسلاف، وللكنفوشية، وللطاوية، صدمت مبعوثي الطوائف الدينية الأخرى فاقنعوا البابا بندكت الرابع عشر بأن يكبح جماح اليسوعيين ويوبخهم في مرسوم Ex quo Singulari (1743). على أنهم ظلوا برغم ذلك أقدر وأعلم على العقيدة الكاثوليكية ضد البروتستانتية والإلحاد، وأخلص المؤيدين للباباوات ضد الملوك. وقد وجد الملوك في جماعة اليسوعيين أثناء صراعات السيادة والسلطة بين الدول القومية

والكنيسة التي تعلقو على القوميات عدواً هو أشد أعدائهم دهاء وإحاحاً. ومن ثم فقد صحت نيتهم على القضاء عليها. ولكن الفصل الأول في هذه الدراما مكانه البرتغال.

صفحة رقم : 13193

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> من تورين إلى فلورنسة

4- من تورين إلى فلورنسة

إذا دخلنا إيطاليا من فرنسا بطريق مون-سني، هبطنا جبال الألب إلى بيدمونت التي تسمى "سفح الجبل" ثم مررنا بكروم وحقول للحبوب وبساتين لأشجار الزيتون أو الكستناء حتى نبلغ تورين، القصبية القديمة لبيت سافوي والتي يرجع عمرها ألفي سنة. وهذا البيت من أقدم الأسر

صفحة رقم : 13194

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> من تورين إلى فلورنسة

الملكية الموجود، وقد أسسه في 1003 أمبرتو بيانكامانو-هومبرت ذو اليد البيضاء. وكان رأس الأسرة في الحقبة التي نحن بصددتها من أكفأ حكام العصر. فقد ورت فكتور أماديوس الثاني عرش دوقية سافوي في التاسعة من عمره (1675) واضطلع بشؤون الحكم في الثامنة عشرة وقائل من أجل الفرنسيين أنا وضدهم أنا في حروب لويس الرابع عشر، وشارك أوجين السافواوي في طرد الفرنسيين من تورين وإيطاليا، وخرج من معاهدة أوترخت (1713) وقد أضاف صقلية إلى تاجه. وفي 1718 استبدل سردينا بصقلية، واتخذ لقب ملك ساردينا (1720) ولكنه احتفظ بتورين عاصمة له. وحكم مملكته بكفاية تشوبها الخشونة، وأصلح التعليم العام وزاد في رفاهية الشعب، وبعد أن حكم خمسة وخمسين عاماً تخلى عن العرش لابنه شارل إيمانويل الأول (حكم 1730-73). كانت تورين خلال هذين الحكيم اللذين امتدا قرابة قرن كامل مركزاً قيادياً للحضارة الإيطالية. وقد وصفها مونتسكيو الذي شاهدها في عام 1728 بأنها "أجمل مدينة في العالم (25)" مع أنه أحب باريس. وامتدح تشستر فيلد عام 1749 بلاط سافوي لأنه خير بلاط في أوربا يربي "أناساً مهذبين لطفاء (26)". وبعض الفضل في بهاء تورين راجع إلى فليبو يوفار، المعماري الذي كان لا يزال يتنفس وحي النهضة الأوروبية. فعلى تل سوبرجا الشامخ الذي يعلو 2.300 قدم فوق المدينة بنى (1717-31) لفكتور أماديوس الثاني في ذكرى تحرير تورين من احتلال الفرنسيين باسيليفاً جميلة بطراز الأروقة والقباب الكلاسيكي استخدمت مقبرة لأسرة سافوي الملكية قرناً من الزمان. ثم أضاف

إلى قصر ماداما العتيق (1718) سلماً فخماً وواجهة ضخمة، وفي 1729 صمم قلعة ستوبينجي الهائلة (التي أكملها بنديتو ألفييري) والتي أبرز بهوها الرئيسي كل فخامة الباروك الحالية. وظلت تورين عاصمة لأدواق سافوي حتى انتقلوا بعد نصرهم النهائي (1860 وما بعدها) إلى روما ليتربعوا على عرش إيطاليا الموحدة. أما ميلان التي طالما خنقتها السيطرة الأسبانية فقد بعثت من جديد تحت

صفحة رقم : 13195

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> من تورين إلى فلورنسة

الحكم النمساوي الأكثر رفقاً. ففي 1703 أنشأ فرانترتين، وفي 1746 و1755 استكمل فيليني وروكليريني بمعونة الحكومة، مصانع للنسيج وسعت من إحلال الإنتاج الواسع النطاق الذي يموله ويديره رأس المال محل الحرف والنقابات الحرفية. أما التاريخ الثقافي لميلان فقد لمع فيه الآن اسم جوفاني باتيستا ساماريني، الذي نستطيع إلى الآن الاستماع إليه أحياناً على أمواج الأثير المتدفقة. ويلاحظ أنه في سمفونياته وصوناناته استبدل بوقار موسيقى كبار الموسيقيين الألمان الكونترابنتي تفاعلاً ديناميكياً بين الموضوعات والحالات النفسية والمتعارضة. وحين وفد الفتى جلوك على ميلان (1737) ليشغل وظيفة موسيقي الحجرة للأمير فرانثيسكوملنسي، أصبح تلميذ ساماريني وصديقه واتخذ طريقه في بناء هيكل الأوبرا. وفي 1770 صاح المؤلف الموسيقي البوهيمي يوزف مزلفنتشك، وهو يصغي مع موتسارت الشاب إلى بعض سمفونيات سماريني في ميلان "لقد وجدت الأب الذي أنجب أسلوب هايدن! (27)" - وهو إذن أحد آباء السمفونية الحديثة. وأما جنوه فقد كابدت خطوباً في القرن الثامن عشر. كانت تجارتها قد انحطت إثر منافسة المحيطات للبحر المتوسط، ولكن موقعها الاستراتيجي على ربوة دفاعية تطل على ثغر حسن الإعداد لفت الانتباه الخطر من الدول المجاورة. ووقعت الحكومة المحصورة بين أعداء من الخارج وشعب غضوب جاهل من الداخل في أيدي أسر تجارية قديمة تحكم عن طريق مجلس مغلق ودوج مطيع. هذه الأولجركية العاملة على تخليد نفسها في كراسي الحكم أثقلت كاهل الشعب بالضرائب حتى هوى إلى درك الفقر الكئيب الفاقد الصبر، وسيطر عليها وابتزها هي الأخرى بنك سان جورج. فلما حاصرت قوات سافوي والنمسا المتحالفة جنوه في 1746 لم تجرؤ الحكومة على تسليح الشعب ليقاوم خشية أن يقتل الحكام، وأثرت أن تفتح أبوابها للمحاصرين الذين فرضوا تعويضات وفديات جرت عليها الخراب المالي. أما العامة الذين فضلوا المستغلين من بني جلدتهم، فقد ثاروا على الحامية

صفحة رقم : 13196

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> من تورين إلى فلورنسة

النمساوية، وقذفوها بوابل من البلاط والطوب انتزعه من الأسطح والشوارع، وطردها طرداً مخزياً ثم عاود الطغيان القديم سيرته الأولى.

وشيد نبلاء جنوه القصور الجديدة مثل قصر فيراري، وشاركت ميلان في رعاية مصور بلغ شهرة من المرتبة الثانية في عصرنا هذا. فتكاد كل صورة باقية من الصور التي رسمها الساندور ماناسكو ترعنا بأصالة أسلوبها القاتمة. فصورة "بنكينلو يعزف على القيثارة" -جسد مستطيل في بقع مهملة سوداء وبنية، واللوحة الرشيقة المسماة "فتاة وموسيقى أمام المدفأة(29)" ولوحة "الحلاق(30)" تبدو عليه اللفافة على قطع حلقوم زبونه، ولوحة "حجرة طعام الرهبان" الضخمة الشاهدة على ازدهار مطبخ الكنيسة، هذه كلها روائع فنية تذكرنا بالجريكو في أجسادها النحيلة وحيلها الضوئية، وترهص بجويا في فضحها الرهيب لقساوات الحياة، وتنزع إلى الحدائث في احتقارها الخشن للتفاصيل المتكلفة المترمة.

وشهدت فلورنسة في هذا العصر نهاية أسرة من أشهر أسر التاريخ. فقد كان حكم كوزيمو الثالث (1670-1723) الذي طلا أمه أرشيدوقاً لتسكانيا نكبة على شعب مازال فخوراً بذكرات عظمة فلورنسة تحت حكم آل مديتشي الأسبقين. وقد سمح كوزيمو هذا الذي تسلط اللاهوت على تفكيره للأكليروس بأن يحكموه ويبتزوا من موارده الهزيلة منحاً سخية للكنيسة. وكان من أثر الحكم المستبد، والإدارة العاجزة، والضرائب الباهظة أن فقدت الحكومة التأييد الشعبي الذي حظيت به الأسرة المالكة طوال مائتين وخمسين عاماً. وأثر فرديناند بن كوزيمو الأكبر الغواني على رجال حاشيته، ودمر صحته بالإفراط في اللذات، ومات أبتراً لا عقب له في 1713. وكان لكوزيمو ابن يدعى جان (يوحنا) جاستوني أُلِع بالكتب، ودرس التاريخ والنبات، وعاش حياة هادئة. وفي 1697 أكرهه أبوه على الزواج من أن أميرة ساكس لاونبرج، وكانت أرملته فقيرة الثقافة. وذهب جان ليعيش معها في قرية بوهيمية نائية، واحتمل الملل عاماً،

صفحة رقم : 13197

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> من تورين إلى فلورنسة

ثم تعزى بالخianات الزوجية في براغ. فلما ساءت صحة فرديناند، استدعى كوزيمو جان إلى فلورنسة، ولما مات فرديناند أعلن جان وريثاً لتاج الأرشيدوقية. ورفضت زوجة جان أن تعيش في إيطاليا. وخشي كوزيمو أن ينقرض بيت مديتشي، فامتنع مجلس الشيوخ الفلورنسي بأن يصدر قراراً يقضي عند موت جان جاستوني دون عقب بأن تؤول العرش إلى شقيقة جان المدعوة أنا ماريا لودفيكا.

وحامت الدول الأوروبية في لهفة حول الأسرة المحتضرة. ففي 1718 رفضت النمسا وفرنسا وإنجلترا وهولندا الاعتراف بترتيب كوزيمو، وأعلنت أنه يجب عند وفاة جان أن تعطى تسكانيا وبارما لدون كارلوس الابن الأكبر لاليزابث فارنيزي ملكة أسبانيا. واحتج كوزيمو، وأعاد تنظيم دفاعات لجهورن وفلورنسة الحربية ولكن متأخراً. وخلف موته لابنه دولة أنهكها الفقر وعرشاً مزعزع الأركان.

وكان جان جاستوني الآن (1732) في عامه الثاني والخمسين. فجاهد ليصلح مساوئ الإدارة والاقتصاد، وطرده الجواسيس والمتملقين الأذلاء الذين أثروا في عهد أبيه وخفض الضرائب وأعاد المنفيين، وأفرج عن السجناء السياسيين، وعاون على إحياء الصناعة والتجارة ورد لحياة فلورنسة الاجتماعية الأمان والمرح. وبفضل إثراء كوزيمو الثاني وجان جاستوني لقاعة الأوفيتسي للفنون، وازدهار الموسيقى تحت قيادة كما فرانسشكو فيراتشيني، والمرقص التكرية، ومواكب العربات المزخرفة، ومعارك الحلوى والأزهار الشعبية-بفضل هذا كله أصبحت فلورنسة تنافس البندقية وروما في جذب الزوار الأجانب، مثال ذلك أنه اجتمع فيها حوالي عام 1740 الليدي ماري ورتلي مونتاجو، وهوراس ولبول، وتوماس جراي حول الليدي هنرييتا بومفريت في قصر ريدولفو. إن في المجتمع المحتضر شيئاً يجذب إليه الناس جذباً حزيباً.

ولما أضنت جان جاستوني جهوده، أحال في 1731 تبعات الحكم إلى وزرائه وانزلق إلى هوة اللذات الحسية. وجردت أسبانيا جيشاً عدته

صفحة رقم : 13198

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> من تورين إلى فلورنسة

ثلاثون ألف مقاتل لتضمن الخلافة لدون كارلوس، وأرسل شارل السادس النمساوي خمسين ألف جندي ليرافقوا ابنته ماريا تريزا في طريقها إلى عرش الأرشيدوقية. وأمكن تقادي الحرب باتفاق (1736) أبرم بين النمسا وفرنسا وإنجلترا وهولندا يقضي بأن يأخذ كارلوس نابلي، وأن تأخذ ماريا وزوجها فرانسوا اللوزيني-تسكانيا. وفي 9 يوليو 1737 قضى آخر المديتشييين نحبه وأصبحت تسكانيا تابعة للنمسا وازدهرت فلورنسة من جديد.

صفحة رقم : 13199

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> ملكة الأدرياتيك

5- ملكة الأدرياتيك

بين ميلان والبندقية استرخت بعض المدن الصغرى. فبرجامو اضطرت إلى أن تقنع في نصف القرن الذي نحن بصدده بمصورين مثل جيسلاندي، وبمؤلفين موسيقيين مثل لوكاتيللي. وقدمت فيرونا الأوبرات في مسرحها الروماني، وكانت محظوظة برجل مرموق هو المركزي فرانشيسكو سكيبوني دي مافي. وقد قلد فولتير مسرحيته الشعرية (ميروبي) (1713) وأهداه في كرم مسرحيته (ميروب) باعتباره "أول كاتب أوتي من الشجاعة والعبقرية ما أعانه على المغامرة بكتابة مأساة تخلوا من الغزل، مأساة جديدة بأثينا في عزها، حيث تكون محبة الأم هي قوام المؤامرة كلها، وينبعث أرق ضروب التشويق من أظهر الفضائل(32)". وهناك عمل آخر لمافي أبروز حتى من مسرحيته تلك وهو "فيرونا المصورة" (1731-32) وهو كتاب بدأ تحديد خطى علم الآثار. واعتزت مدينته به فأقامت له تمثالاً في حياته. وكانت فنشنتسا بمبانيها التي شيدها بلاديو كعبية يحج إليها المعماريون الذين يحبون الطراز الكلاسيكي. أما بادوا فكان بها جامعة اشتهرت بكليتي الحقوق والطب ولمه فيها جوزيبي تاريني، الذي اعترف به الجميع (عدا جمنياتي) إماماً لعازفي الفيوينية الأوربيين، ومن الذي لم يستمع إلى موسيقى تاريني "رعشة الشيطان"؟ هذه المدن كلها كانت جزءاً من جمهورية البندقية. وكذلك كانت تريفيزو وفريولي، وفلنري، وباسانو، وأوديني، وبلونو، وترنتو، وبولتسانو

صفحة رقم : 13200

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> ملكة الأدرياتيكي

في الشمال، واستريا في الشرق، وفي الجنوب امتدت دولة فينيتسيا مخترقة كيودجا وروفيجو إلى نهر بو، وملكته عبر الأدرياتيكي كتارو وبريفيتسا وأجزاء أخرى مما يقع في يوغوسلافيا وألبانيا، وكانت تملك في الأدرياتيكي جزائر كورفو وكفالونيا وزنطة. وسكن هذا الملك المعقد نحو ثلاثة ملايين من الأنفس كل منها يعد نفسه مركز العالم.

صفحة رقم : 13201

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> الحياة الفينيتسية

6- الحياة الفينيتسية

أما مدينة البندقية (فينيتسيا) ذاتها عاصمة الجمهورية، فكانت تضم 137.000 نسمة. وكانت الآن في فترة اضمحلال سياسي واقتصادي، بعد أن استولى الترك على إمبراطوريتها الأجيبة، وانتزعت دول الأطلنطي الكثير من تجارتها الخارجية. وكان فشل الحروب الصليبية، وإعراض الحكومات الأوربية بعد انتصارها في ليبانتو (1571) عن تقديم المعونة للبندقية في الدفاع عن مخافر العالم المسيحي الأمامية في الشرق، ولهفة تلك الحكومات على أن تقبل من تركيا امتيازات تجارية ضمنت بها على أشجع أعدائها (33)- هذه التطورات كلها قد خلفت البندقية في حال من الضعف أعجزها عن الاحتفاظ ببهائها أيام النهضة، ومن ثم أن ترعى بيتها هي فتتمتع مملكتها الإيطالية والأدرياتيكية حكومة صارمة في القانون، والرقابة السياسية، والإشراف الشخصي، ولكنها كفاء في الإدارة، متسامحة في الدين والأخلاق، متحررة في التجارة الداخلية.

وكانت تحكمها أولجركية شأن غيرها من جمهوريات أوروبا في القرن الثامن عشر. وفي هذا الخليط من حطام السلالات المختلفة-انطونيين وشيلوكيين وعطيليين، وبين جماهير لم تصب من التعليم حظاً يذكر، بطيئة التفكير سريعة الحركة، تؤثر اللذة على السلطة، كان معنى الديمقراطية لحو استقرت فيها-هو الفوضى المتوجة. ومن ثم قصر الحق في عضوية المجلس الأعلى على نحو ستمائة أسرة تضمنها "الكتاب الذهبي" ولكن هذه الأرستقراطية الوطنية أضيفت لها إضافات حكيمة من صفوف التجار ورجال المال وإن كانوا من دم غريب. وكان المجلس الأعلى يختار السناتو، الذي

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> الحياة الفينيتسية

كان يختار مجلس العشرة القوي النفوذ. وكان جيش من الجواسيس ينتقل في صمت بين المواطنين ويبلغ القضاة بأي تصرف أو كلام مريب يصدر من أي بندقي حتى من الدوج نفسه. وكان الأدواج الآن عادة حكاماً صوريين وظيفتهم استقطاب الوطنية وتزيين الدبلوماسية.

وكان الاقتصاد يخوض معركة خاسرة ضد المنافسة الأجنبية ورسوم الاستيراد وقيود النقابات الحرفية. ولم تتوسع صناعة البندقية لتبلغ مرحلة المشروعات الحرة والتجارة الحرة والإدارة الرأسمالية، بل قنعت بشهرة حرفها. ولم يبق في صناعة الصوف التي كانت تشغل ألفاً وخمسمائة عامل في عام 1700 غير ستمائة في نهاية القرن، واضمحلت صناعة الحرير في الفترة ذاتها فلم يبق فيها غير ألف واحد بعد أن حفلت بأثني عشر ألفاً (34). وقاوم صناع زجاج مورانو كل تغيير في الطرق التي أذاعت في الماضي شهرتهم في طول أوروباً وعرضها، وتسربت أسرارهم إلى فلورنسة وفرنسا وبوهيميا وإنجلترا، واستجاب منافسهم لما طرأ من تقدم على الكيمياء، وللتجارب التي أجريت في الصناعة، وهكذا ولى زمان المورانو. وبالمثل استسلمت صناعة الدنتلا لمنافسيها وراء الألب، فلم يحل عام 1750 حتى كان البنادقة أنفسهم يلبسون المخرمات الفرنسية. وازدهرت صناعتان: مصايد الأسماك التي استخدمت ثلاثين ألف رجل، واستيراد العبيد وبيعهم.

ولم يسمح للدين بالتدخل في أرباح التجارة أو لذات الحياة. ونظمت الدولة جميع المسائل المتعلقة بممتلكات الكنيسة وبجرائم رجال الدين. وكان اليسوعيون قد أعيدوا في 1657 بعد طردهم في 1606، ولكن بشروط حددت من نفوذهم في التعليم والسياسة. ووجدت تعاليم فولتير وروسو وهلفتيوس وديدرو طريقها إلى صالونات البندقية ولو بطريق الزوار رغم أن الحكومة حظرت استيراد مؤلفات الفلاسفة الفرنسيين، وداعت الأرسقراطية في البندقية كنظيرتها في فرنسا الأفكار التي استنزفت قوتها (35). وقبل الناس الدين على أنه عادة لا شعورية تقريباً من عادات الشعائر والإيمان، ولكنهم كانوا يلهون أكثر مما يصلون. وقد وصف مثل بندقي أخلاقيات البنادقة

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> الحياة الفينيتسية

بكل ما في الأجرام من قصور، "في السباح قداس صغير، وبعد الغداء لعبة قمار صغيرة، وفي المساء امرأة صغيرة" (36). وذهب الشبان إلى الكنيسة لا ليصلوا للعدراء ولكن ليدققوا النظر في النساء. وكان النساء برغم الغضبات الكنسية والحكومية يرتدين "الديكولتية" الذي يكشف عن نحورهن وظهورهن (37) وكانت الحرب المتصلة بين الدين والجنس تهيئ للجنس أسباب النصر.

وأجازت الحكومة البغاء المنظم إجراءً واقعياً لسلامة الشعب. واشتهرت غواني البندقية بجمالهن، ودمائة طباعهن، وفخامة لباسهن، وبذخ مساكنهن المشرفة على القناة الكبرى. وكان عدد المعروض من هؤلاء الغواني (Cortigiane) كبير، ولكنه رغم ذلك قصر على الوفاء بالطلب. وكان المقتصدون من البنادقة، والأغراب مثل روسو، يتجمعون معاً اثنين أو ثلاثة لينفقوا على محظية (38). ولكن النساء المتزوجات انغمسن في العلاقات الغرامية الخطرة رغم هذه التسهيلات، ولم يكتفين بمرافقيهن من "السادة الخدام"، واختلف بعضهن إلى الكازينوات التي وفرت فيها كل أسباب اللقاة الغرامية. ووبخت الحكومة علناً عدة نساء نبيلات لسلوكهن المنحل، وأمرت بعضهن أن يلزمن بيوتهن، ونفت بعضهن خارج البلاد. ولكن الطبقات الوسطى كانت أكثر تعقلاً، وكان تعاقب النسل يشغل الزوجة ويشبع حاجتها لتلقى الحب وبذله. ولم تغدق الأمهات على أطفالهن في أي بلد آخر ما أغدقته في البندقية من عبارات الإعزاز الحارة. ومن عباراتهن المأثورة: (يا سبع القديس مرقص! يا بهجتي! يا زهرة ربيعي!). أما الجريمة فكانت في البندقية أقل منها في أي بلد آخر في إيطاليا، فقد كبح جماح العدوان كثرة ضباط الشرطة والأمن وبقظتهم. ولكن القوم تقلبوا القمار على أنه عمل من أعمال الإنسان الطبيعية. ونظمت الحكومة يانصيباً في 1715. وافتتح أول نادٍ للقمار في 1638، وسرعان ما كثر عدد هذه الأندية العامة والخاصة التي تهرع إليها جميع الطبقات.

صفحة رقم : 13204

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> الحياة الفينيتسية

وكان في استطاعة مهرة المقامرين المخادعين من أمثال كازانوفا أن يعيشوا على مكاسبهم من القمار، في حين يخسر غيرهم مدخرات عام بأكمله في ليلة واحدة. وكان المقامرون ينحنون على مائدة القمار في حب صامت أحر من عشق الناس. أما الحكومة فكانت تتفرج بعين الرضى (حتى 1774)، لأنها فرضت الضرائب على أندية القمار وبلغ إيرادها السنوي منها نحو 300.000 جنيه (39). وأقبل العاطلون والأغنياء من شتى الدول لينفقوا مدخراتهم أو سني شيخوختهم وسط الاسترخاء الخلقي والمرح المطلق في الميادين والقنوات. وخفت حمى السياسة بعد أن تخلت الجمهورية عن إمبراطوريتها. ولم يجر حديث الثورة هنا على أي لسان، فقد كان لكل طبقة عاداتها وتقاليدها العاملة على الاستقرار، واستغراقها في الواجبات التي تقبلتها، هذا فضلاً عن المسرات المتاحة لها. وكان الخدم طيعين أوفياء، ولكنهم لا يطبقون الإهانة أو الأزدراء. وكان ملاحو الجندول فقراء، ولكنهم ملوك البحيرات، يقفون على زوارقهم المذهبة في فخر وثقة بمهارتهم الموروثة عن الأسلاف، أو يدورون حول المنحنيات وهم يصيحون صيحات قوية غريبة أو يندنون بأغنية تصاحب تمايل أجسادهم، وإيقاع مجاديفهم. واختلطت الجنسيات المختلفة الكثيرة في الميادين. واحتفظ كل منها بميزة من زي ولغة وتبذل، وظلت الطبقات العليا ترتدي ما ارتدته في عز أيام النهضة، من قمصان من أرق الكتان، وسراويل من المخمل، وجوارب حريرية، وأحذية ذات مشابك، ولكن البنادقة هم الذين أدخلوا إلى غربي أوروبا في هذا القرن لباساً تركياً هو السراويل الطويلة (البنطولونات). وكانت الباروكة قد وفدت من فرنسا حوالي 1665. وعني المتأثقون من الشباب عناية بالغة بلباسهم وشعرهم ورائحتهم حتى لقد صعب تمييز جنسهم. أما النساء العصريات فقد رفعن فوق رؤوسهن أبراجاً عجيبية من الشعر المستعار أو الطبيعي. وكان الرجال والنساء جميعاً يشعرون كأنهم عراة إذا لم يتحلوا بالجواهر والحلي. وكانت المراوح تحفاً فنية، ترسم في تأنق،

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> الحياة الفينيتسية

وكثيراً ما كانت تغشى بالأحجار الكريمة أو تحوي منظاراً لعين واحدة (مونوكل). وكان لكل طبقة أنديتها، ولكل شارع مقهاه، يقول جولدوني "في إيطاليا نتناول عشرة أقذاح من القهوة كل يوم" (40) وازدهرت كل ضروب الملاهي، من معارك الجوائز (Pugni) إلى المراقص التنكرية. وكلمة "بالوان" (Balloon) مشتقة من لعبة كانت تسمى باللونى Pallone-فيها تنطط كرة منفوخة براحة اليد. وكانت رياضة الماء تكرر بانتظام. ف منذ 1315 كان يقام سباق Regatta في 25 يناير على القناة الكبرى، بين زوارق تسير بخمسين مجدافاً وتزين كما تزين عرباتنا في المعارض، ويبلغ الاحتفال ذروته بلعبة بولو مائية ينقسم فيها مئات البنادقة إلى جماعات متصاحبة متنافسة. وكان الدوج في عيد الصعود يمخر عياب الماء في أبهة من "سان ماركو" إلى الليد وعلى متن سفينة الدولة الفاخرة الزينة المسماة "بوتشنتورو" بين مئات من السفن الأخرى ليزف البندقية إلى البحر من جديد. واتخذت العطلات الكثيرة أسماء وذكريات القديسين والمناسبات السنوية التاريخية، لأن مجلس شيوخ البندقية وجد أن الخبر والسرك بديل مقبول عن الانتخابات. في مثل هذه المناسبات كانت المواكب البهية تنتقل من كنيسة إلى كنيسة ومن ميدان إلى ميدان، وكانت الأبسطة الزاهية الألوان، وأكاليل الزهر والحرائر تتدلى من النوافذ أو الشرفات على الطريق، وكان هناك موسيقى سهلة، وأغنية دينية أو غرامية، ورقص رشيق في الشوارع. وألف النبلاء الذين يختارون للمناصب المرموقة أن يحتفلوا بانتصاراتهم بالعروض، والأفواس، وتذكرات النصر، والمهرجانات، وأعمال البر التي تكلفهم أحياناً ثلاثين ألف دوقاتية. وكان كل عرس مهرجاناً، ومآتم الوجيه من القوم أفخم حدث في حياته. ثم كان هناك الكرنفال-ذلك التراث المسيحي من "ساتورناليا" روما والوثنية. وكانت الكنيسة والدولة تأملان أنهما إذا سمحتا بإجازة

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> الحياة الفينيتسية

من الأخلاق استطاعتا التخفيف بقية العام من التوتر القائم بين الجسد والوصية السادسة. وكان الكرنفال في إيطاليا عادة لا يستغرق إلا أسبوعاً واحداً هو الأسبوع السابق للصوم الكبير، وفي بندقية القرن الثامن عشر امتد من 26 ديسمبر أو 7 يناير إلى "الثلاثاء السمين" Mardi Gras-Martedi Grasso وربما اتخذ المهرجان اسمه من ذلك اليوم الأخير من الأيام التي سمح فيها بأكل اللحم Carne Vale أي وداعاً للحم. وكان البنادقة في كل ليلة تقريباً من أسابيع الشتاء تلك، والزوار المتجمعون من طول أوروبا وعرضها-يندققون على الميادين، يرتدون ملابس فاقعة الألوان، ويخفون سنهم ورتبهم وشخصياتهم وراء الأقنعة. وفي ذلك التخفي هزأ الرجال والنساء بالقوانين، وراجت سوق البغايا، وتطايرت قطع الحلوى، وقذف البيض الصناعي هنا وهناك لينشر ماء المعطر حين ينكسر. وكانت شخصيات بانتالوني، وارلكنيو، وكوامينو، وغيرها من الشخصيات المحببة من المسرح الكوميدي تتبختر وتثرثر

لتسلي الجمع المحتشد، ورقصت الدمى، وبهر السائرون على الحبال مئات الأنفاس. وكانت تجلب الحيوانات الغريبة لهذه المناسبة، كوحيد القرن الذي شوهد أول مرة بالبندقية في مهرجانات 1751 وفي منتصف الليلة السابقة لأربعاء الرماد (Mercoledì Della Conoi) تدق أجراس كنيسة القديس مرقس الضخمة مؤذنة بانتهاء الكرنفال، هنا يعود المعربد المنهك إلى فراشه الحلال، وبعد نفسه للاستماع إلى القسيس يقول له في الغد: " Memento, Homo, Quia " "Puia Pulvis es et in Pulvcrem Redieris" "تذكر يا ابن آدم أنك تراب وإلى التراب تعود".

صفحة رقم : 13207

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> فيفالدي

7- فيفالدي

كانت البندقية ونابلي مركزي الموسيقى المتنافسين في إيطاليا. فاستمعت البندقية في مسارحها إلى ألف ومائتي أوبرا مختلفة في القرن الثامن عشر. هناك خاضت أشهر كواكب الغناء في ذلك العصر، فرانيسكا كوترونو

صفحة رقم : 13208

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> فيفالدي

وقاوستينا بوردوني، معاركهما المشجبة في سبيل التفوق، وكانت كل منهما تهز العالم من خشبة المسرح. فأما كوترونو فكانت تغني أمام فارينللي في مسرح، وأما بوردوني فأمام برناكي في مسرح آخر، وانقسمت البندقية بأسرها بين المعجبين بهؤلاء المغنين. ول قد غنى أربعتهم معاً لذابت ملكة الأديرياتيكي طرباً في بحيراتها. ومقابل قلاع الأوبرا والبهجة هذه قامت الملاجئ الأربعة Ospedali التي رعت فيها البندقية بعض فتياتها اليتيمات أو غير الشرعيات. ورغبة في شغل هؤلاء الأطفال المشردات وإضفاء المغزى على حياتهن كن يدربن على الموسيقى الصوتية والآلية، وعلى الغناء في فرق الإرشاد، وإحياء الحفلات الموسيقية العامة من خلف حواجز ذات قضبان كحواجز الأديرة. وقد قال روسو أنه لم يسمع في حياته شيئاً أثر فيه كأصواتهن الرقيقة وهن يغنين في إيقاع مدرب(41)، وذكر جوته أنه لم يسمع قط سوبرانو بهذا الإتقان، أو موسيقى "لها هذا الجمال الذي لا يوصف(42)". وكان يعلم في هذه المعاهد نفر من أعظم الملحنين الإيطاليين ويؤلفون لها الموسيقى، ويفودون حفلاتها، أمثال مونتيفردى، وكافاللي، ولوتي، وجالوبي، ويوريورا، وفيفالدي...

واتجهت البندقية إلى مدن إيطاليا، وأحياناً النمسا وألمانيا، لتزود مسارحها بالأوبرات وتمد ملاحظتها وأوركستراتها وعازفيها المهرة بالموسيقى الصوتية والآلية. وكانت هي ذاتها الأم أو الحاضنة لانتونيو لوتي، عازف الأرغن ثم رئيس فرقة المرتلين في كنيسة القديس مرقس، ومؤلف أوبرات غير ذات بال، ولكنه أيضاً ملحن قداس ذرفت له عينا بيرني البرتستانتي، وليلدا ساري جالوبي الذي اشتهر بأوبراته الهائلة وبيهاء الحانه الأوبرالية ورقتها، ولألساندور مارتشيللو الذي تنبأ كونشرتاته مقاماً عالياً في مؤلفات عصره الموسيقية، وأخيه الأصغر بنديتو الذي قيل عن تلحينه لخمسين مزموراً أنه "من أبدع المؤلفات الموسيقية قاطبة(43) ولانتونيو فيفالي".

صفحة رقم : 13209

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> فيفالي

ولقد كان استماع بعضنا لكونشرتو من تأليف فيفالي أول مرة مفاجأة أشعرتنا بالخزي. فلم جهلناه طوال هذا الزمن؟ هنا انسياب جليل للنغم، وتموجات ضاحكة من اللحن، ووحدة في البناء وتماسك للأجزاء كان خليقاً بأن يكسب هذا الرجل مدخلاً أسبق من هذا إلى علمنا، ومكاناً أرفع في تواريخنا الموسيقية . ولد حوالي 1678 لعازف فيولينة في أوركسترا مصلى الدوجات بكاتدرائية القديس مرقس. وعلمه أبوه الفيولينة؛ وحصل له على وظيفة في الأوركسترا. وفي الخامسة عشرة كرس تكريماً مبدئياً للدين، وفي الخامسة والعشرين أصبح قسيساً ولقب "البريتي روسو" لحمرة شعره. ولعل ولعه بالموسيقى تعارض مع واجباته الكهنوتية. وقال الأعداء إنه "ذات يوم بينما كان فيفالي يتلو القداس، خطر له موضوع يصلح لفوجه، وللتو غادر المذبح... وذهب إلى غرفة المقدمات والملابس ليدون الموضوع، ثم عاد ليكمل القداس(44)". واتهمه قاصد بابوي بأنه يحتفظ بعادة نساء، وأخيراً نهاه ديوان التفتيش (كما زعموا) عن تلاوة القداس. وقد روى انتونيو في سنوات لاحقة قصة تختلف عن هذه تمام الاختلاف. وقال:

"كانت آخر مرة تلتوت فيها القداس منذ خمسة وعشرون عاماً، لا بسبب منعي من تلاوته... ولكن بناء على قرار مني اتخذته بسبب علة أرهقتني منذ ولادتي. فبعد أن رسمت قسيساً كنت أتلو القداس عاماً أو أكثر بقليل، ثم توقفت عن تلاوته لأن هذا المرض اضطرني ثلاث مرات إلى مغادرة المذبح دون أن أتمه.

صفحة رقم : 13210

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> فيفالي

"ولهذا السبب ذاته أفضي وقتي كله تقريباً في بيتي ولا أبرحه إلا ركباً زورقاً أو عربة لأنني لم أعد قادراً على المشي بسبب حالة الصدر التي أعانيها، أو على الأصح شعور الضيق والتوتر في صدري (Strettzza di Petto) وربما كانت هي (الربو) ولا يدعوني أي نبيل لبيته، لا ولا حتى أميرنا، لأن الجميع عليمون بمرضي، وقد كانت أسفاري

دائماً غالية النفقة جداً لأنني كنت مضطراً دائماً أن أصحب معي أثناءها أربع نساء أو خمساً ليساعدنني. "ثم أضاف أن هؤلاء النسوة كن نقيات السيرة" يسلم الناس في كل مكان بعفتهم..وكن يؤدين الصلاة كل يوم من أيام الأسبوع(45)".

على أنه حتى لو شاء لما استطاع أن تغلب الخلاعة على خلقه لأن معهد الموسيقى الملحق بالملجأ الديني احتفظ به طوال سبعة وثلاثين عاماً عازفاً للفيولينة ومعلماً وملحناً أو رئيساً للكورس. وقد لحن لتلميذه البنات معظم أعماله غير الأوبرالية. وتكاثر الطلاب عليه، ومن ثم كان يكتب في عجلة ثم يصحح فيما يتاح له من فراغ، وقد أخبر دبروس أن في استطاعته أن "يلحن الكونشرتو بأسرع مما يستطيع ناسخ أن ينسخه(46)". وبالمثل كانت أوبراته تلحن على عجل، وقد سجلت إحداها على صفحة الغلاف عبارة تشي بالفخر (أو الاعتذار) هي (Fatto in Cinque Giorni) كتبت في خمسة أيام. وقد وفر الوقت كما وفره هندل بالاستعارة من نفسه، فأقتبس من موسيقاه القديمة ما يلبي حاجاته الحاضرة.

وفي فترات فراغه من عمله في الملجأ ألف أربعين أوبرا. واتفق كثير من معاصريه مع تاريني على أنها متوسطة الجودة، وقد سخر منها بنديتو مارتشيللو في (تياترو على الموضة) ولكن جماهير النظارة في البندقية، وفتشنتسا، ومانتوا، وفلورنسة، وميلان، وفيينا، رجبوا به، وكثيراً ما كان فيفالدو يترك بناته ليسافر مع نساءه مخترباً شمالي إيطاليا، بل حتى إلى فيينا وأمستردام ليعزف الفيولينة أو ليقود إحدى أوبراته أو ليشرف على إخراجها وديكورها. وأوبراته الآن مبيته، ولكن هذا مصير معظم

صفحة رقم : 13211

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> فيفالدو

الأوبرات التي ألقت قبل جلوك. فقد تغيرت الأساليب والعادات والأبطال، والأصوات، والجنسان. ويعرف التاريخ 554 من مؤلفات فيفالدو، منها 454 كونشرتو. وقد قال ناقد ماهر أن فيفالدو لك يكتب ستمائة كونشرتو، بل هو كونشرتو واحد أعاده ستمائة مرة(47). ويبدو الأمر كذلك أحياناً. ففي هذه القطع قدر كبير من نشر الأوتار ونغمات الأرغن اليدوي المتصلة، وقياس للوقت أشبه بحركات البندول، لا أننا نجد حتى في السلسلة الشهيرة المسماة (الفصول) (1725) صحارى من الرتابة، ولكن فيها أيضاً قمماً من الحيوية المشبوبة والعواصف القارصة؛ وواحات من الصراع الدرامي بين العازفين المنفردين والأوركسترا؛ وجداول سائغة من الألحان. في قطع كهذه(48)، أبلغ فيفالدو الكونشرتو الكبير مكانة ممتازة لا سبق لها ولا يبرها إلا باخ وهيندل. وكان فيفالدو يعاني كمعظم الفنانين من الحساسية التي غدت عبقريته. وقد عكست قوة موسيقاه طبعه الناري، وعكست رقة نغماته تقواه. فلما تقدم به العمر استغرق في واجباته الدينية حتى لقد وصفته رواية مبالغتها بها لا يترك مسبحته إلا ليلحن(49). وفي 1740 فقد وظيفته في الملجأ الديني أو استقال منها، ولأسباب نجهلها الآن نرح من البندقية إلى فيينا. ولا نعرف المزيد عنه؛ اللهم إلا أنه مات هناك بعد سنة ودفن كما يدفن فقراء الناس. ومم موته دون أن تلحظه الصحف الإيطالية، لأن البندقية كانت قد كفت عن الاهتمام بموسيقاه، ولم يقدره أحد قدراً يقرب من قمة فنه لا في وطنه ولا في جيله. على أن مؤلفاته لقيت الترحيب في ألمانيا. فاستورد كوانتسي الذي كان عازفاً للفلوت وملحناً لفرديريك الأكبر؛ كونشرتات فيفالدو؛ وقبلها بصراحة نماذج تحتذى. واشتد إعجاب باخ بها حتى نقل تسعة منها على الأقل للهاربسكورد، وأربعة للأرغن، وواحداً

صفحة رقم : 13212

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> فيفالدي

لأربعة هاريسكوردات ومجموعة وتريات(50). وواضح أن باخ أخذ عن فيفالدي وكوريللي البناء الثلاثي لكونشرتاته. وكاد فيفالدي أن يكون نسياً منسياً طوال التاسع عشر إلا من الدارسين الذين تتبعوا تطور باخ. ثم رده إلى مكان مرموق في 1905 أنولد شيرنج في كتابه "تاريخ الكونسيرت الألية"؛ وفي عشرينات القرن العشرين دافع أرتورو توسكانيني عن قضية فيفالدي بكل عواطفه ومكانته. واليوم يحتل "القسيس الأحمر" مؤقناً أرفع مكان بين الملحنين الإيطاليين في القرن الثامن عشر.

صفحة رقم : 13213

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> ذكريات

8- ذكريات

من صيف الفن البندق المؤذن بالأفول يبرز نحو اثني عشر مصوراً ويلتمسون أن نذكرهم. ونكتفي هنا بتحيةة نقرئها حياً مبتسماً بيوتي، الذي لم ترفع البندقية فوقه غير تيبولو وبيتا تسيتا، ويأكوبو أميجوني الذي أورت بوشيه أسلوبه الشهواني؛ وجوفاني أنطونيو بالجريني، الذي حمل ألوانه إلى إنجلترا وفرنسا وألمانيا، وهو الذي زين قلعة كمبرلتز، وقلعة هوارد، وبنك فرنسا. وألفت للنظر من هؤلاء ماركو ريتشي لأنه قتل أحد النقاد ثم انتحر. ففي عام 1699، حين كان في الثالثة والعشرين، طعن ملاح جندول استخف بصوره طعنات قضت عليه، ثم فرالي دلماشيا، وأغرم بمشاهدها الطبيعية، وبلغ من حذقه في التقاطها بألوانه أن غفرت له البندقية جريمته وهلت له كأنه تنتوريتو مبعوثاً من جديد. وصحبه عمه سبستيانو ريتشي إلى لندن، حيث تعاون على تصوير مقبرة دوق ويفونشير. وكان ككثيرين من فناني القرنين السابع عشر والثامن عشر يجب أن يرسم الأطلال الحقيقية أو الخيالية ولا ينسى في ذلك نفسه. وفي 1729، وبعد عدة محاولات، أفلح في الانتحار. وفي 1733 بيعت إحدى لوحاته بخمسمائة دولار؛ وفي 1963 بيعت من جديد بتسعين ألف دولار(51)، وهو ما بين مبلغ تقدير قيمة الفن وهبوط قيمة النقود.

صفحة رقم : 13214

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> ذكريات

وتأمل شخصية روزاليا كارييرا أدعى إلى السرور. فقد بدأت حياتها العملية برسم نماذج للمخمرات الفينيسية Point de Venise؛ ثم رسمت علب السعوط (كما فعل رينوار الصغير) ثم المنمنمات، وأخيراً وجدت في ألوان الباستيل قمة تفوقها. ولم يحل عام 1709 حتى كانت قد اكتسبت من الشهرة ما جعل فرديريك الرابع ملك الدنمرك يدعوها حين اعتلى العرش ليختارها لترسم له لوحات الباستيل تمثل أجمل سيدات البندقية أو أبعدهن صيتاً. وفي 1720 دعاها إلى باريس ببيير كروزا جامع التحف المليونير. وهناك لقيت من الترحيب والحفاوة ما لم يلقه فنان أجنبي آخر منذ برييتي. وكتب الشعراء فيها الصونيات؛ وزارها الوصي فليب أورليان، وصورها فاتو، وصورته هي، وجلس إليها لويس الخامس عشر لتصوره؛ وانتخبت عضواً في أكاديمية التصوير؛ وقدمت لوحة الدبلوم "ربة الفن" المعروضة في اللوفر. وبدا للناس كأن روح الروكوك قد تجسدت فيها.

وفي 1730 ذهبت إلى فيينا، حيث رسمت صوراً بالباستيل لشارل السادس؛ وإمبراطورته، والأرشيدوقة ماريا تريزا. فلما عادت إلى البندقية واستغرقت في فنها استغرافاً أنساها أن تتزوج. وفي أكاديمية البندقية ملء حجرة من اللوحات التي رسمتها، وفي قاعة الفنون يدرسن 157، معظمها يتميز بالوجه الوردية، والخلفيات الزرقاء، والبراءة المشرقة، ورقة الوجوه ذات الغمزات؛ بل أنها حين رسمت هوراس وليول (52)، جعلته يبدو كأنه فتاة. وكانت ترضي غرور كل من يجلس إليها لتصوره إلا نفسها، وصورتها الذاتية المعقدة في قلعة وندرز تظهرها في سنيها الأخيرة وقد أبيض شعرها وشابها شيء من الاكتئاب كأنها تتوقع أن يكف بصرها بعد قليل. وقد اضطر طوال الأعوام الأثني عشر الأخيرة من عمرها البالغ اثنين وثمانين عاماً محرومة من النور واللون اللذين كانا لها بمثابة رحيق الحياة. وقد تركت بصمتها على فن جيلها: ولعل لاتور قد أستلهم الحرارة منها، وتذكر جرو تمثيلها لشباب النساء في صورة مثالية؛ وانحدرت ألوانها الوردية-الحياة بلون الورد-إلى بوشيه ورنوار.

صفحة رقم : 13215

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> ذكريات

أما جوفاني باتستا بياتسيتا فكان فناناً أعظم يسمو فوق العواطف الهشة ويحتقر الزخرف ولا يسعى وراء إرضاء الجمهور بقدر سعيه إلى تذليل صعاب صناعته والتمسك بأرفع تقاليدها. وتبين زملاءه الفنانون هذه النزعة فيه، ومع أن تيبولو كان له فضل السبق في تأسيس أكاديمية البندقية للتصوير والنحت (1750)، فإن بياتسيتا هو الذي اختاروه أول رئيس لها. ولوحته المسماة "رفقة عند البئر" (53) جديرة بتتسيانو، وهي أقل حتى من تتسيانو أكثرنا بمفاهيم الجمال المتعارف عليها. واللوحة تكشف من جسد رفقة قدرأ يكفي لإثارة غريزة المتوحش، ولكن وجهها الهولندي وأنفها الأفطس لم يصورا لينتشي بهما الإيطاليون. فالذي يثير عواطفنا هنا هو الرجل، إنه شخصية بفن النهضة: وجه قوي، ولحية ملمعة وقبعة ذات ريش ومضة إغراء مكر في عينيه. واللوحة كلها آية من آيات اللون والنسيج والتصميم، وقد تميز بياتسيتا بأنه كان أكثر المصورين البنادقة احتراماً في جيله، وأنه مات أفقرهم جميعاً.

وأشهر منه أنطونيو كانالي، الملقب كاناليتو، لأن نصف العالم يعرف البندقية بفضل مناظره Vedute. أما إنجلترا فعرفته دماً ولحماً. وقد نهج حيناً نهج أبيه الذي امتهن رسم المناظر للمسارح، ثم درس العمارة في روما، فلما عاد إلى البندقية طبق الفرجار والزواية على رسمه، وجعل العمارة ملمحاً من ملامح صورته. وفي هذه الصور عرفنا ملكة الأدرياتك كما كانت تبدو في النصف الأول من القرن الثامن عشر. ونلاحظ من لوحة باتشينو دي سان ماركو

Baccino بحرية القديس مرقص (54) مبلغ ازدحام البحيرة الكبرى بالمرابك، ونبصر سباق الزوارق Regatta على القناة الكبرى (55) ونرى أن الحياة كانت زاخرة مشوبة شأنها من قبل دائماً، ويهجننا أن نجد "جسر الريالتو" (56) وميدان القديس مرقص (57) والميدان الصغير (58) وقصر الأديج (59) وكنيسة سانتا ماريا ديلا سالوتا (60) كما نجدها اليوم تقريباً، إذا استثنينا البرج الذي أعيد بناؤه. وصور كهذه هي التي احتاج إليها السياح في الشمال الملبد بالغيوم ليذكروا في عرفان شمس البندقية الشديدة

صفحة رقم : 13216

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> ذكريات

الصفاء وسحرها الفتان. وقد اشتروا هذه الصور ودفعوا أثمانها ثم حملوا هذه التذكارات إلى بلادهم، وسرعان ما طالبت إنجلترا بكاناليتو نفسه. فذهب إليها في 1746 ورسم مناظر مستقيضة لهوا يتهول (61)، "ونهر التيمز من قصر رتشموند"، واللوحة الأخيرة بجمعها المدهش بين الاتساع والتناسب والتفصيل هي تحفة كاناليتو الرائعة الصفاء وسحرها الفتان. وقد اشتروا هذه الصور ودفعوا أثمانها ثم حملوا هذه التذكارات إلى بلادهم، وسرعان ما طالبت إنجلترا بكاناليتو نفسه. فذهب إليها في 1746 ورسم مناظر مستقيضة لهوا يتهول (61)، "ونهر التيمز من قصر رتشموند"، واللوحة الأخيرة بجمعها المدهش بين الاتساع والتناسب والتفصيل هي تحفة كاناليتو الرائعة. ولم يعد إلى البندقية إلا في 1755. وظل هناك عاكفاً بهمة على عمله حتى عام 1766 حين كان قد بلغ التاسعة والستين. وقد كتب بفخر على لوحته داخل كاتدرائية القديس مرقص هذه العبارة "رسمت بدون منظار". (62) وقد أسلم أسلوبه في القياس الدقيق إلى ابن أخيه برناردو بلوتو كاناليتو، ولعه بالمناظر إلى "تلميذه الطبيب" فرانيسكو جواردي الذي ستلقتي به ثانية.

وكما أبرز كاناليتو المنظر الخارجي للمدينة الفخمة، كشف بييترو لنجي عن الحياة داخل جدرانها باستخدامه أسلوب تصوير مناظر الحياة اليومية في رسم الطبقة الوسطى. فالسيد التي تتناول فطورها في ثوبها الفضفاض الطويل، والأب الراهب يعلم ابنها، وابنتها الصغيرة تدلل كلباً لعبة، والخياط يعرض فستاناً، ومعلم الرقص يدرب السيدة على خطوات المنويت، والأطفال وعينهم تحملق معرض للوحوش، الصبايا يمرحن في لعبة "الأستغماية" (الغميضة)، والتجارة في حوانتيهم، والمتكرون بالأقنعة في الكرنفال، والمسارح، والمقاهي، "والجمعيات" الأدبية، والشعراء يتلون أشعارهم، ودجاجة الطب، وقارئات البخت، وباعة السجق والبرقوق، والتمشي في البدان، وفريق القنص، وجماعة صيد السمك، والأسرة في عطلتها: كل نشاط برجوازي يستحق الذكر هناك، وفي إفاضة، تفوق حتى ما في كوميديات جولدوني، صديقي لونجي. إنه ليس فناً عظيماً، ولكنه فن يشرح الصدر، ويرينا مجتمعاً أكثر نظاماً وتهذيباً مما كنا نتصوره من أرسقراطي أندية القمار أو أعمال شحن السفن وتقريغها الشتامين السبابين.

صفحة رقم : 13217

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> تيبولو

أما البندقي الذي أوهم أوربا لحظة أن النهضة قد عادت فهو جامباتستا تيبولو. ومن المشاهد المألوفة في أي يوم من أيام الصيف أن ترى موكباً من الطلاب والسياح يدخلون مسكن أسقف فورتسبورخ ليرى بيت السلم والسقف اللذين رسم تيبولو صورهما الجصية في 1750-53، هذه الصور هي قمة التصوير الإيطالي في القرن الثامن عشر. أو تأمل لوحة "الثالوث يظهر للقديس كلمنت" في متحف الفن القومي بلندن، ولاحظ تكوينها البارز، ورسمها الدقيق، وتناولها الحاذق للضوء، وعمق لونها وتوجهه، أليس هذا قريباً لفن نتسيانو؟ ربما، ولولا أن تيبولو قد طوف كثيراً لكان واحداً من عمالقة التصوير.

أو لعل ثراءه هو الذي عوقبه ذلك أنه كان آخر طفل لتاجر بندقي غني خلف ثروة كبيرة عند وفاته. وما لبث جان، الذي كان وسيماً ذكياً مرحاً "أن اكتسب الازدراء الأرستقراطي لكل ما هو شعبي" (63). وفي 1719 حين بلغ الثالثة والعشرين تزوج تشيشيليا أخت فرانشيسكو جورادي، فولدت له أربع بنات وخمسة أولاد، أصبح اثنان منهم مصورين وعاشوا جميعاً في بين أنيق في أبرشية ساننا ترينيتا. وكانت موهبته قد تفتحت. ففي 1716 عرض لوحة "تضحية أسحق" (64)، وهي لوحة فجأة، ولكنها قوية، ووضح أنه كان في تلك الحقبة متأثراً بفن بياتيسا. وقد درس فيرونيزي أيضاً، واتخذ أسلوب باولي في الملابس الفخمة والألوان الدافئة والخطوط الشهوانية تيبولو مواضيعه من قصة إبراهيم، ولكن تناول لم يكن كتابياً تماماً. فوجه سارة المنبعث من طوق مكشكش من أطواق عصر النهضة، هو غضون وتجاويد تكشف عن سنين أثريتين، ولكن الملاك رياضي إيطالي له ساق فاتنة. ويبدو أن تيبولو أحس أن في استطاعته، في قرن بدأ يسخر من الملائكة والمعجزات، أن يسمح لمزاجه باللهو بالتقاليد المبجلة، وقد أتاح له رئيس الأساقفة اللطيف هذا اللهو. ولكن كان على الفنان

صفحة رقم : 13218

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> تيبولو

أن يكون حذراً، لأن الكنيسة لم تزل يومها من أهم مصادر تميل المصورين في العالم الكاثوليكي. أما المصدر الآخر فكان العلمانيين أصحاب القصور التي يراد تزيينها بالصور. وقد روى جان في قصر كازالي-دونباني بميلان (1731) قصة سكيو بالصور الجصية. ولم تكن هذه الصور معبرة عن فن تيبولو النموذجي، لأنه لم يكن بعد قد شكل أسلوبه المتميز، أسلوب الأشخاص الذين يتحركون في بسر وانطلاق في حيز غير محدد، ولكنها دلت على براعة أثارت ضجة في شمالي إيطاليا. ولم يحل عام 1740 حتى اهتدى إلى موطن النبوغ في فته، وأنجز ما اعتبره البعض (65) رائعته الكبرى وهي سقف قصر كليرنتي بميلان وبهو ولائمه. واختار لهذه الرائعة مطايا لخياله "أركان الأرض الأربعة" و "مسيرة الشمس" و "أبوللو والآلهة الوثنية" وأسعده أن يترك عالم الأساطير المسيحية الكابي ويمرح على قمم أولمب حيث يستطيع استخدام الآلهة اليونانية الرومانية شخصاً في عالم متحرر من قوانين الحركة وأغلال الجاذبية بل من قواعد الرسم الأكاديمية. لقد كان في صميمه وثقياً كأكثر الفنانين الذين يذوب قاموسهم الأدبي في حرارة مشاعره، ثم أن الجسم الجميل قد يكون نتاج روح قوية العزيمة قادرة على التشكيل. ومن ثم يكون هو ذاته واقعياً روحياً. وراح تيبولو الآن يطلق من جعبته على مدى ثلاثين عاماً أرباباً وربات رافلين في غلائل من

الشاش، عراة في غير اكتراث، يسرحون ويمرحون في الفضاء، أو يطارد بعضهم بعضاً بين الكواكب أو يتطارحون الغرام على وسادة من السحب. فلما قفل إلى البندقية عاد إلى المسيحية، وكفرت صورته الدينية عن أساطيره الوثنية. فرسم لمدرسة سان روكو لوحة قماشية سماها "هاجر وإسماعيل" يلفت النظر فيها جمال الطفل النائم. وفي كنيسة الجزواتي التي سماها الدومينكان من جديد كنيسة "سانتا ماريا ديل روزاريو" رسم لوحة "تأسيس التسبحة" ورسم لمدرسة الرهبان الكرمليين "عذراء جبل الكرمل" وكادت هذه الصورة تضارع تتسيانو "البشارة". ورسم لكنيسة القديس الفيزي ثلاث

صفحة رقم : 13219

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> تيبولو

صور، إحداهما المسماة "المسيح حاملاً الصليب" تزدهم بشخوص قوية صورت تصويراً نابضاً بالحياة. وهكذا سد تيبولو دينه لعقيدة وطنه. على أن خياله كان أكثر تحرراً على جدران القصور. ففي قصر بربارو رسم "تمجيد فرانشيسكو بربارو" واللوحة الآن في متحف لمتربوليتا للفنون بنيويورك. ورسم لقصر الأوج لوحة "نبتون يقدم لفينوس خيرات البحر". وقد لقصر بابا دوبولي لقطتين مبهجتين للبندقية في الكرنفال - "المنويته" و "المشعود". ثم توج كل صور القصور التي رسمها في البندقية بزخرفة قصر لابيا بصور جصية تحكي قصة أنطونيوس وكليوباترة في مشاهد بهية نفذت تنفيذاً رائعاً. ورسم زميل له يدعى جيرولامو منجوتسي كولونا الخلفيات المعمارية في فورة من بهاء الطراز البلاديوي. فعلى جدار ترى لقاء الحاكمين، وعلى الجدار المقابل وليمتهما، وعلى السقف حشد جامع من شخوص طائفة تمثل بيجاسوس، والزمن، والجمال، والرياح التي تثيرها عفاريت نفاخة مرحة. وفي لوحة "اللقاء" تهبط كليوباترة من زورقها في ثياب تبهر الأبصار، تكشف عن صدر ناهد لتفتن حاكماً مرهقاً في الحكومة الثلاثية، حتى من هذه تسقط كليوباترة لؤلؤة غالية الثمن في خمرها، ويؤخذ أنطونيوس بهذا الثراء الذي لا يعبا بشيء. وعلى شرفة يعزف الموسيقيون قيثايرهم ليضاعفوا الخطر مرتين والثمل ثلاثاً، وهذه الرائعة التي تذكر بفيرونيزي وتنافسها كانت إحدى الصور التي نسخها رينولدز في 1752.

هذا الإنتاج الذي تميز بالأسلوب الفخم رفع تيبولو إلى قمة ترى من وراء الألب. فأذاع الكونت فرانشيسكو الجاروتي صديق فرديريك وفولتير اسمه في أوربا. وفي تاريخ ميكر (1736) أبلغ الوزير السويدي في البندقية حكومته أن تيبولو هو أصلح رجل يرسم القصر الملكي في استوكهولم، "كله ذكاءً وغيره". سهل المعاملة، يتدقق أفكاراً، موهوب في اختبار الألوان الساطعة، سريع في عمله سرعة خارفة يرسم صورة في زمن يقل

صفحة رقم : 13220

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> تيبولو

عما يستغرقه مصور آخر في مزج ألوانه(66)". وكانت استوكهولم آنذاك مدينة جميلة ولكنها بدت بعيدة جداً. وفي 1750 جاءت دعوة أقرب، فقد طلب إليه كارل فيليب فون جرافنكلو أمير فورتنسبرج الأسقف أن يرسم صوراً للقاعة الإمبراطورية لقصر الإداري الذي بناه مؤخراً. وأغرى الأجر المعروف بإلحاح الفنان المسن. فلما وصل في ديسمبر بصحبة ابنه دمونيكو البالغ أربعة وعشرين عاماً ولورنتسو ذي الأربعة عشرة وجد تحدياً لم يتوقعه في بهاء قاعة القصر التي صممها بلتازار نويمان. فأنى لأي صورة العين وسط ذلك الضياء الباهر؟ وكان نجاح تيبولو هنا القمة التي توجت عمله. فقد رسم على الجدران قصة الإمبراطور فردريك بروسيا (الذي كان قد ذهب في لقاء مع بياتريس أميرة برجنديا في فورتنسبرج (1156) وعلى السقف رسم "أبوللو مصطحباً العروس"؛ هناك راح يصول ويجول في مهرجان من الخيول البيضاء والأرباب المرحين والضياء يتألق فوق ملائكة تطفوا وغيوم شفاقة. وعلى منحدر من السقف رسم "الزفاف": وجوه مليحة؛ وأجسام مهيبية، وأغطية وأستار مزدانة بالزهر؛ وأتواب تذكر بالبندية أيام فيرونيزي لا بالطرز الوسيطة. وأنشراح صدر الأسقف فوسع العقد ليحتوي سقف بيت السلم الكبير ونقوش مذبحين لكاتدرائية. وعلى طريق السلم الفخم رسم تيبولو القارات وجبل أولمب مرتع خياله السعيد-وصورة رائعة لآبوللو إله الشمس يجوب السماوات.

وقفل جامباتستا إلى البندقية (1753) غنياً مرهقاً، وترك دمنيكو ليكمل المهمة في فورتنسبرج. وما لبث أن انتخب رئيساً للأكاديمية. وكان فيه لطف في الطبع جعل حتى منافسيه مولعين به، فلقبوه (تيبولو الطيب). ولم يستطع مقاومة جميع المطالب التي تكاثرت على وقته المتضائل، فنحن نجده يرسم في البندقية، وترفيزو؛ وفيرونا، وبارما، فضلاً عن لوحة قماشية كبيرة طلبها "بلاط موسكوفيا". وما كنا لنتنظر منه في هذه الحالة أن ينتج عملاً كبيراً آخر له ولكنه في 1757. حين كان في الحادية

صفحة رقم : 13221

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> تيبولو

والستين، اضطلع برسم صور فيلا فالمارانا قرب فيتشنتسا. ورسم منجوتسي كولونا الإطار المعماري ووقع دمنيكو على بع الصور من المضيقة، أما جامباتستا فقد نشر ألوان فرشائه في الفيلا ذاتها. وأختار موضوعات من ملاحم الألياذة، والأنياذة، وأورلندو الغاضب، والقدس المحررة، وأطلق العنان لخدايعته المرححة فتاه اللون في الضوء، والمكان في اللانهاية، وترك أربابه ورباته يطفون على هواهم في جنة سمت فوق كل الشواغل والأزمان. وقد أخذ العجب جوته وهو يتأمل هذه الصور الخصبية فقال في دهشة:

"غاية في البهجة والجرأة"، وكانت هذه آخر انتصار مثير لتيبولو في إيطاليا.

وفي 1761 طلب إليه شارل الثالث ملك أسبانيا أن يحضر ويرسم صوراً في القصر الملكي الجديد بمدريد. وأعتذر هذا التنسيانو المتعب بشيخوخته؛ ولكن الملك رجا مجلس شيوخ البندقية أن يستعمل نفوذه. فانطلق على مضض مرة أخرى مع ولدية الوفيين ونموذجه كرسينا؛ تاركاً زوجته مرة أخرى لأنها كانت تحب كازينوات البندقية. وسوف نلقاه ركباً سفالة الرسم في أسبانيا.

صفحة رقم : 13222

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> جولدوني وجوتسي

10- جولدوني وجوتسي

يبرز في أدب البندقية في هذا العصر أربعة أشخاص كل اثنين منهم معاً: أبوستولو تسينو وبييترو متاستازيو وكلاهما كاتب نصوص لأوبرات كانت شعراً؛ ثم كارلو جولدوني وكارلو جوتسي اللذان اقتتلا ليحلا محل الكوميديا البندقية كوميديا أصبحت مأساة جولدوني. وقد كتب جولدوني عن الاثنتين الأولين يقول:
"لقد أثر هذان المشهوران في إصلاح الأوبرا الإيطالية. فقبل مجيئهما لم يكن غير الأرباب والشياطين والآلات والعجائب في هذه الملاهي المنغمة. وكانت تسينو أول من فكر في إمكان تمثيل المأساة بشعر

صفحة رقم : 13223

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> جولدوني وجوتسي

غنائي دون ابتذال، وإنشادها دون أن يرهق الإنشاد السامعين. وقد أنفذ فكرته بطريقة رضي عنها الجمهور رضاء عظيماً، مما حقق له ولأمته مخررة كبرى(67)".
وحمل تسينو إصلاحاته إلى فيينا في 1718، ثم اعتزل راضياً ليحلى الجو لمتاستازيو في 1730 وعاد إلى البندقية وعشرين عاماً من السلام. أما متاستازيو فقد لعب دور راسين لكورنيي تسينو كما قال جولدوني، فأضاف الصقل إلى القوة، وارتفع بالشعر الأوبرالي إلى قمة لم يرتفع إليها من قبل. وقد وضعه فولتير في مصاف كبار الشعراء الفرنسيين؛ وعده روسو الشاعر المعاصر الوحيد الذي يصل شعره إلى القلب. واسمه الأصلي بييترو تراباسي (بيتر كروس). وقد سمعه ناقد مسرحي يدعى جان فنتشنو جرافيا يغني في الشوارع؛ فتبناه؛ وسماه من جديد متاستازيو (وهو المقابل اليوناني لتراباسي). وأنفق على تعليمه؛ وخلف له ثروة عند مماته. وراح بييترو يبدد هذه الثروة في غير تخرج، ثم تعاقد مع محام فرض علي شرطاً هو ألا يقرأ أو يكتب بيتاً واحداً من الشعر. ومن ثم أخذ يكتب تحت اسم مستعار.
وفي نابلي طلب إليه المبعوث النمساوي أن يكتب غنائيات لكنتاتا؛ وألف بوريرا الموسيقى، وغنت الدور الرئيسي ماريانا بولجاريللي المشهورة يومها باسم لارومانيا، وسار كل شيء على ما يرام. ودعت المغنية الكبرى الشاعر إلى صالونها، وهناك التقى بليو وفنتشي وبرجوليزي وفارينلي وهاشي والساندرو ودمنيكون سكارلاتي؛ وتطور متاستازيو سريعاً في تلك الصحبة المثيرة. ووقعت لارومانيا في غرامه وكانت في الخامسة والثلاثين أما هو ففي الثالثة والعشرين. وخلصته من شباك المحاماة وأخذته رقيقاً مع زوجها الكيس المتسامح؛ وأوحت إليه بكتابة أشهر نصوصه "Didone Abandonata" ديديوني المهجورة" التي لحنها إتنا عشر ملحناً متعاقباً بين 1724 و 1823. وفي 1726 كتب "سيروي" لحبيبتة وبنى عليها فنتشي وهاشي وهندل أوبرات مستقلة. وأصبح متاستازيو الآن أكثر النصوص رواجاً في أوربا.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> جولدوني وجوتسي

وفي 1730 قبل دعوة إلى فيينا وترك لارومانيا. وحاولت أن تلحق به. وخاف أن يعرضه وجودها للفضيحة، فحصل على أمر بمنعها من دخول الأراضي الإمبراطورية فطعن صدرها محاولة الانتحار، وأخفق هذا الجهد الذي بذلته لتلعب دور ديدو؛ ولكنها لم تعش أكثر من أربع سنين أخرى.

وعند موتها خلفت لأبنياسها الخائن كل ثروتها. ولكن متاستازيو رفض قبول التركة متأثراً بتأنيب ضميره ونزل عنها لزوجها. وكتب يقول "لم يعد لي أي أمل أن أوفق إلى السلوى. واعتقد أن ما بقي لي من عمري سيكون حزيناً لا لذة فيه" (67). وكان يستمتع بالنصر تلو النصر في حزن حتى تقطعت حرب الوراثة النمساوية عروض الأوبرا في فيينا. وبعد 1750 كان يكرر نفسه دون هدف. لقد استهلك الحياة قبل موته (1782) بثلاثين عام.

طردت أوبرا الدراما التراجيدية من المسرح الإيطالي كما تنبأ فولتير من قبل وتركه للكوميديا. ولكن الكوميديا الإيطالية كانت تسيطر عليه الكوميديا ديلارتي وهي مسرحية الحديث المرتجل والأقنعة المميزة. وكانت معظم الشخصيات قد تقويت منذ زمن طويل: بنتالوني البرجوازي الطبيب ذو السراويل، وتارتاجليا الخادم النابوليتاني المتهته، وبريجيلا الدساس الساذج الذي يقع في شرك دسانسة، وتروفالدينو الأكل الشهواني اللطيف، وأركينو ويقابله هارلكوين (المهرج) عندنا، وبولتشنيللو ويقابله عندنا بنش، وأضافت مختلف المدن والأجيال مزيداً من الشخصيات. وترك معظم الحوار والكثير من الأحداث في الحبكة والاختراع المرتجل. ويقول كازانوفا "كان الممثل في تلك الكوميديا المرتجلة إذا توقف لأن كلمة غابت عنه، لم يعفه ردوداً مؤخرة الصالة والشرفات العليا الرخيصة من صباح السخرية والاستهجان (68)".

وكانت المسارح العاملة في البندقية عادة سبعة، كلها مسماة بأسماء قديسين، ويؤمها جمهور من النظارة شائن السلوك. فكان النبلاء في

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> جولدوني وجوتسي

مقاصيرهم لا يهمهم ما يلقونه على العامة تحتهم. وكانت الأحزاب المتخاصمة ترد على التصفيق بالصفير أو التثاؤب أو العطس أو السعال أو الصيحات الديكة أو مواء القطط (69). وفي باريس كان أكثر رواد المسرح من علية القوم، وأرباب المهن أو المتقنين والأدباء، أما في البندقية فكانوا أساساً من الطبقة الوسطى، يتخللهم هنا وهناك الغواني المتبرجات، وملاحو الجندولات البذيئون، والقساوسة والرهبان منتكرين، وأعضاء الشيوخ المتعترسين في عبااتهم وباروكاتهم. وكان عسيراً أن ترضى مسرحية هذه العناصر كلها في مثل هذا الخليط من البشر، ومن ثم نزع

الكوميديا الإيطالية إلى أن تكون مزيجاً من الهزل ما دربوا عليه من تصوير شخصيات ثابتة. هذا هو الجمهور وهذا هو المسرح الذي جاهد جولدوني في رفعه إلى مكانة الكوميديا المشروعة المتحضرة. ويسر القارئ ما كتبه في "مذكراته" من استهلال بسيط، قال: "ولدت في البندقية في 1707... جاءت بي أني إلى العالم دون كبير ألم مما زاد حبه لي. ولم تعلن مولدي صحياً كالعادة، وبدأ هذا اللطف آنئذ دليلاً على الخلق الهادئ الذي احتفظت به دائماً منذ ذلك اليوم" (70).

وكان هذا القول تفاخراً منه ولكنه حق، فجولدوني من أحب الرجال في تاريخ الأدب، وكان من بين فضائله التواضع رغم هذا الاستهلال -وهي خلة ليست في طبيعة الكتاب. ولنا أن نصدق إذ يقول "كنت معبود الأسرة" وذهب الأب إلى روما ليدرس الطب، ثم إلى بروجيا ليمارسه، وتركت الأم في البندقية لتربي ثلاثة أطفال.

وكان كارلو طفلاً نابغة. استطاع أن يقرأ ويكتب في الرابعة، وألف كوميديا في الثامنة. واقنع الأب والأم أن تسمح لكارلو بالذهاب إليه والعيش معه في بروجيا. وهناك درس الغلام على اليسوعيين، وتفوق ودعا الانضمام إلى الجماعة، ولكنه رفض. ولحقت الأم وابن آخر بالأب،

صفحة رقم : 13226

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> جولدوني وجوتسي

ولكن هواء الجبل البارد في بروجيا لم يلائمها، فانتقلت الأسرة إلى ريميني، ثم إلى كيودجا. ودخل كارلو دومنيكية في ريميني، ثم إلى كودجا. ودخل كاليو كلية دومنيكية في ريميني، حيث كان يتلقى كل يوم جرعات من كتاب القديس توما الأكويني "قمة اللاهوت". وإذ لم يجد شيئاً يثير مشاعره في تلك الرائعة من روائع العقلائية فقد قرأ أرسطوفان، وبلوتس، وترنس، فلما قدمت فرقة من الممثلين إلى ريميني انضم إليها فترة طالت إلى حد أدهش أبويه في كيودجا. فوبخاه وعانقاه، ثم أرسله ليدرس القانون في بافيا. وفي 1731 نال درجته الجامعية وبدأ ممارسة المحاماة، ثم تزوج، "وكان الآن أسعد رجل في العالم" (71)، اللهم إلا أنه أصيب بالجدري في ليلة زفافه.

وجذبته البندقية فعاد إليها، ونجح في المحاماة، وأصبح قنصلاً هناك لجنوه. ولكن المسرح ظل يستهويه، وهفت نفسه للكتابة، واشتغل أن تخرج مسرحياته. مثلت مسرحيته "بلزاربوس" في 24 نوفمبر 1734 بنجاح ملهم، وظلت تعرض يوماً حتى 14 ديسمبر، وضاعف سروره افتخار أمه العجوز به. على أن البندقية لم تكن تستسيغ التراجيديا، ففشلت مسرحياته التالية التي من هذا النوع، فانصرف حزيناً إلى الكوميديا. ولكنه رفض كتابة الفارصات "الكوميديا ديلارتي"، وأراد أن يؤلف كوميديات السلوك والأفكار على طريقة موليير، وألا يعرض على خشبة المسرح شخصاً ثابتة تجمدت في أقنعة، بل شخصيات ومواقف مشتقة من الحياة المعاصرة. واختار بعض الممثلين من فرقة كوميديا البندقية، ودرّبهم، وأخرج في 1740 "مومولو" رجل البلاط. "ونجحت التمثيلية نجاحاً مدهشاً، وكان في هذا ما أَرْضَانِي" (72). ولكنه لم يرضَ تماماً، لأنه كان قد نزل عن بعض أفكاره بتركه الحوار كله دون أن يكتبه إلا للدور الرئيسي، ويخلفه أدواراً لأربعة من الشخص المقتنعة التقليدية.

وراح يدفع إصلاحاته خطوة خطوة. ففي مسرحية "المرأة الشريفة" كتب لأول مرة الحركة والحوار كاملين. وهبت فرقة معادية لتنافس

صفحة رقم : 13227

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> جولدوني وجوتسي

تمثيلياته أو تسخر منها. وتآمرت عليه الطبقات التي هاجها، مثل التشيسبي (مرافقي الزوجات) فحاربها كلها وعقد لها النصر. ولكن لم يكن العثور على مؤلف آخر يزود فرقة بالكوميديات المناسبة. ومن ثم فقدت تمثيلياته هو رضاء الجمهور لكثرة تكرارها. وأكرهته المنافسة على أن يكن ست عشرة تمثيلية في سنة واحدة. وبلغ أوجهه في 1752، وأشاد ب فولتير "بوصفه موليير إيطاليا". ولقيت مسرحيته "لالوكاندير" (صاحبة الفندق) في ذلك العام "نجاحاً رائعاً حتى.... فضلت على أي عمل أنجز في هذا النوع من الكوميديا". وقد اعتر بأنه راعي "الوحدات الأرسطاطالية في الحركة والمكان والزمان، وفيما عدا ذلك كلن يحكم كل تمثيلياته بواقعية، فيقول "إنها جيدة، ولكنها لم ترقَ بقَد إلى مستوى موليير" (73). وكان قد تعجل في كتابتها تعجلاً لا يتيح له أن يجعلها أعمالاً فنية، فكانت ذكية البناء، مرحة على نحوٍ سار، مطابقة للحياة بوجه عام، ولكن أعوزها ما ميز موليير من اتساع الأفكار، وقوة الحديث، وبراعة العرض، ومن ثم ظلت على سطح الشخص والأحداث. ومنعته طبيعة جمهوره على أن يحاول التحليق في أجواء العاطفة أو الفلسفة أو الأسلوب وكان في فطرته من البشر ما منعه من سير الأغوار التي عذبت موليير من قبل.

وقد صدم مرة أخرى على الأقل صدمة أخرجه عن لطفه وجرحته في الصميم، وذلك حين تحده كارلو جوتسي على مكان الصدارة المسرحية في البندقية وفاز في المعركة. وكان هناك رجالان باسم جوتسي شاركا في الضجة الأدبية التي أثرت في ذلك العهد، أحدهما جيسارو جوتسي الذي ألف تمثيليات أكثرها مقتبس من الفرنسية، وكان محرراً لدرتين بارزتين وقد بدأ حركة إحياء دانتي. أما الثاني وهو أخوه كارلو فلم يكن فيه هذا اللطف والأنس، كان رجلاً طويل القامة وسيماً مغروراً متحفظاً للعراك على الدوام. وكان أذكى عضو في أكاديمية جرانليسكي "التي شنت حملة لاستعمال الإيطالية التوسكانية النقية في الأدب بدلاً من اللهجة التي استعملها

صفحة رقم : 13228

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> جولدوني وجوتسي

جولدوني في معظم تمثيلياته. ولعله هو هو العشيق (أو المرافق الخادم) لتيودورا ريتشي-أحس بوخز موجه حين هجا جولدوني مرافقي الزوجات هؤلاء. وقد كتب هو أيضاً "مذكرات" هي البيان المفصل للحروب التي خاضها. وقد حكم على جولدوني كما يرى مؤلفاً آخر فقال:

"تبينت في جولدوني وفرة من الدوافع الكوميديية، والصدق والطبيعية. ولكنني اكتشفت فيه فقراً وحقارة في الحكبة، وهذه محاسن ومساوئ متنافرة، والمساوئ كثيراً ما تكون الغالبة، ثم هناك عبارات سوقية ذات توريات منحطة.. وننف وأقوال فيها تنطع، مسروقة لا أدري من أين أو مجلوبة لتخدع جمهوراً من الجهال، وأخيراً فهو بوصفه كاتباً للإيطالية (إلا أنه يكتب باللهجة البندقية التي دل على تمكنه منها) لم يبذُ غير جدير بأن يوضع في مصاف أغبي المؤلفين الذين استخدموا لغتنا وأحقرهم وأقلهم دقة وصواباً... وعلي أن أضيف في الوقت ذاته أنه لم يخرج قط تمثيلية دون أن يكون لها سمة كوميدية ممتازة. وقد بدا لعيني أن له دائماً مظهر رجل ولد باحساس فطري بالطريقة التي يجب أن تؤلف بها الكوميديات الأصلية، ولكنه لعب في تعليمه، ولافتقار إلى التمييز، ولضرورة إرضاء الجمهور وتقديم بضاعة جديدة للكوميديين المساكين الذين يكسب قوتهم على حسابهم، وللعجلة التي كان ينتج بها هذا

العدد الوفير من التمثيليات كل سنة ليقى نفسه من الغرق-أقول أنه لهذا كله لم يستطع قط أن يبتكر تمثيلية واحدة لا تزخر بالأغلاط(74)".

وفي 1757 أصدر جوتسي ديوان شعر يعرب عن انتقادات مماثلة في "أسلوب كبار كتاب التسكانية القدامى". ورد جولدوني بشعر مثلث القافية (على طريقة دانتي) بما معناه أن جوتسي أشبه بالكلب الذي ينبج القمر (Come il Cane Che Abbaja la luno)

ورد عليه جوتسي بالدفاع عن "الكوميديا ديللارتي" ضد انتقادات جولدوني القاسية، واتهم جولدوني بأن تمثيلياته تفوق كوميديا الأفعنة مائة مرة في فجورها ونيوها وعدوانها على مكارم الأخلاق، وصنف معجم من "العبارات الغامضة، والتوريات البذيئة وغيرها من الفذارات"

صفحة رقم : 13229

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> جولدوني وجوتسي

أخذها من أعمال جولدوني. يقول مولمنتي أن الجدل "أثار في المدينة ضرباً من الهوس، فكان الخلاف يناقش في المسارح والبيوت والحوانيت والمقاهي والشوارع(75)".

وتحدى كاتب مسرحي آخر يدعى (أباتي كيارى) جوتسي أن يكتب تمثيلية خيراً من التمثيليات التي ندد بها، وكان هذا الكاتب قد لدغه من قبل صل جوتسي التسكاني. ورد جوتسي أن هذا يسير عليه، حتى عن أتفه المواضيع وباستخدام كوميديا الأفعنة التقليدية دون غيرها. وفي يناير 1761 أخرجت فرقة في تياترو سان صمويلي تمثيلته المسماة "خرافة حب البرتقالات الثلاثة" وهي مجرد سيناريو أظهر بتالوني، وترتاجليا، وغيرهما من أصحاب (الأفعنة) يبحثون عن ثلاث برتقالات يعتقد أن لها قدرات سحرية، وأما الحوار فترك للارتجال. وكان نجاح هذه (الخرافة) حاسماً: ذلك أن الجمهور البندقي العائش على الضحك استطاب خيال القصة والهجاء الضمني لحبكات كيارى وجولدوني. وأردفها جوتسي بتسع (خرافات) أخرى في خمس سنوات، ولكن قدم فيها حواراً شعرياً، وبهذا سلم جزئياً بنقد جولدوني للكوميديا ديللارتي. على أية حال بدا انتصار جوتسي كاملاً. وظل جمهور مسرح القديس صموئيل شيدي الإقبال عليه، في حين هبط الإقبال على مسرح جولدوني (سانت أنجيلو) إلى ما يقرب من الإفلاس. وانتقل كيارى إلى بريشا، أما جولدوني فقبل دعوة إلى باريس .

وتوديعاً للبندقية أخرج جولدوني (1762) "أمسية من أمسيات الكرنفال الأخيرة" وتروي قصة مصمم منسوجات هو السنيور انتسوليتو الذي كان على وشك أن يفارق وهو حزين في البندقية النساجين الذين طالما زود أنوالهم بالرسوم. وسرعان ما تبين الجمهور في هذا رمزاً للكاتب المسرحي الذي يترك أسفاً الممثلين الذين طالما زود مسرحهم بالتمثيليات. فلما ظهر انتسوليتو في المشهد الأخير ضج المسرح (كما يقول جولدوني) "بتصفيق

صفحة رقم : 13230

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> جولدوني وجوتسي

كهزيع الرعد تسمع خلاله هتافات... (رحلة سعيدة) (عد إلينا ثانية) (لا يفتك أن تعود إلينا) (76). وغادر البندقية في 15 إبريل 1762 ولم يرها بعد ذلك قط.

وفي باريس شغل عامين بتأليف كوميديات لمسرح الإيطاليين، وفي 1763 رفعت إليه دعوى إغواء (77)، ولكن بعد سنة كلف بتعليم الإيطالية لبنات لويس الخامس عشر. وقد كتب بالفرنسية، بمناسبة زفاف ماري أنطوانيت والأمير الذي أصبح فيما بعد لويس السادس عشر، مسرحية من أفضل مسرحياته، واسمها (الجلف الأخير) وكوفئ عليها بمعاش قدره 1200 فرنك، ألغته الثورة حين بلغ الحادية والثمانين. وقد وصى فقره بإملاء مذكراته لزوجته (1792)- وهي مذكرات غير دقيقة، خصبة الخيال، مثيرة، مسلية، وفي رأي جولدوني أنها (درامية على نحو أصدق من كوميدياته الإيطالية (78))، ومات في 6 فبراير 1793. وفي 7 فبراير، بناء على اقتراح قدمه الشاعر ماري-جوزف دشنبيه، رد إليه المؤتمر الوطني معاشه. وإذ لم يجده المؤتمر في حال تسمح له بتسلمه، فقد أعطاه لأرملته بعد أن خفضه.

كان انتصار جوتسي في البندقية قصير الأجل. فقبل أن يموت (1806) بسنين طويل اختفت (خرافاته) من خشبة المسرح، وبعثت كوميديات جولداني في مسارح إيطاليا. وما زالت تمثل عليها في كثرة تكاد كوميديات موليير في فرنسا. ويقوم تمثاله في الكامبوسان بارتولوميو بالبندقية، وفي اللارجو جولدوني (بفلورنسة). ذلك لأن الإنسانية كما كتب في مذكراته واحدة في كل مكان، والحسد يعن عن نفسه في كل مكان، وفي كل مكان يكسب الرجل الهادئ الطبع في النهاية محبة الشعب ويبيي خصومه (79)."

صفحة رقم : 13231

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> روما

11- روما

في جنوبي نهر بو، وعلى طول الدرياتيك وعبر الأبنين، كانت تقوم ولايات الكنيسة-فيرارا وبولونيا وفورلي ورافنا وبروجه وبتقنتو وروما-فنتكون بهذا القسم الأوسط والأكبر من الحذاء السحري.
أما فيرار فحين أدمجت في الولايات البابوية (1598) جعل الدوق آل استتسي مودينا مقر لهم، وجمعوا فيها محفوظاتهم وكتبهم وفنونهم. وفي 1700 أصبح لودفيكو موراتوري القسيس والباحث وفقه القوانين أميناً على هذه الكنوز. واستطاع خلال خمسة عشر عاماً من العمل الدعوى، ومن ثماني وعشرين مجلداً، أن يصنف "كتاب الشؤون الإيطالية" (1723-38)، وأضاف بعد ذلك عشرة مجلدات للآثار والنقوش الإيطالية. وكان أثرياً أكثر منه مؤرخاً، وما لبث كتابه "الحواليات الإيطالية" الذي أصدره في اثني عشر مجلداً أن تقادم، ولكن أبحاثه في الوثائق والنقوش جعلته الأب والمصدر للتأليف التاريخي الحديث في إيطاليا.
وكانت بولونيا أكثر هذه الولايات ازدهاراً باستثناء روما. وظلت مدرسة تصورها الشهيرة حية في عهد جوزيبي كرسبي (الأسباني)، وكانت جامعتها لا تزال من خير الجامعات الأوروبية. وكان قصر بيفلاكو (1749) من أعظم أبنية القرن أنيقة. وسمت أسرة ممتازة تركزت في بولونيا بالعمارة والمسرحية ورسم المناظر المسرحية إلى ذرى الإقتان في العصور الحديثة. فبنى فرديناندو جاللي دابيينا (التياترو ريبالي) في مانتوا (1731) وكتب نصوصاً شهيرة عن فنه، وأنجب ثلاثة أبناء واصلوا مهارته في الزخرفة الخداعة الفاخرة. وصمم أخوه فرانشسكو المسارح في فيينا

ونانسي وروما، والتياترو فيلارمونيكيا بفيرونا-الذي كثيراً ما يعتبر أجمل مسرح في إيطاليا. وأصبح الساندرو بن فرديناندو كبير معماريي ناخب البلاطينات. وصمم ابن ثان يدعى جوزيبي مدخل دار الأوبرا في بايروت (1748)- أجمل بناء موجود من نوعه (80). ورسم أنطونيو الابن الثالث تصميمات "التياترو كومونالي" في بولونيا.

صفحة رقم : 13232

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> روما

وقد ترددت في ذلك المسرح وفي كنيسة سان بترونيو القديمة الضخمة أفضل الموسيقى الآلية التي عزفت في إيطاليا، لأن بولونيا كانت المركز الإيطالي الرئيسي للتعليم والنظرية الموسيقيين. فهناك كان بادري جوفاني باتستا مارتيني يعقد مجلسه المتواضع الصارم كأجل معلم للموسيقى في أوربا. وكان يفتني مكتبة موسيقية تضم سبعة عشر ألف مجلد، وقد ألف نصوصاً ممتازة من الكونترابنت وتاريخ الموسيقى، وأرسل عشرات من مشاهير الرجال في أكثر من عشر دول. وكان وسام الأكاديمية فيلارومونيكيا التي ترأسها سنين كثيرة مشتهى جميع الموسيقيين. فإلى هنا سيأتي الصبي موتسارت 1770 ليواجه الاختبارات المقررة، وهنا سيعلم روسيني ودونيتسكي. وكان المهرجان السنوي للمؤلفات الموسيقية الجديدة، التي يؤديها أوركسترا الأكاديمية ذو المنة عازف، في نظر إيطاليا الحدث الأعظم للسنة الموسيقية.

قدر جيبون سكان روما في 1740 بنحو 156.000 نسمة. وحين تذكر زهوة ماضيها الإمبراطوري وتناسى فقراء هذا الماضي وأرقاهه، وجد أن سخر العاصمة الكاثوليكية بجافي ذوقهم:

"في داخل الأسواق الأوريلية الفسيحة تعشي القسم الأكبر من التلال السبعة الكروم والأطلال. ولعل جمال المدينة الحديثة وبهاءها راجع إلى مفاصد الحكومة وتأثر الخرافة. فقد تميز كل حكم (إلا فيما ندر) بصعود أسرة جديدة صعوداً سريعاً، أثرت بفضل الخير الذي لا عقب له على حساب الكنيسة والدولة. وقصور أبناء الأخوة والأخوات المحظوظين هؤلاء هي أعلى صروح الأناقة العبودية، فقد سخرت لها أسمى فنون المعمار والتصوير والنحت، وأبهاؤها وحدائقها تزينها أنفس الآثار القديمة التي جمعوها تنوقاً أو غروراً (81)".

وقد تميز باباوات هذا العهد بسمو الخلق، وكانت فضائلهم تسمو كلما هبط سلطانها. وكانوا كلها إيطاليين، لأن أحداً من الملوك الكاثوليك أبي أن يسمح لأي من الآخرين أن يقتضي البابوية. وقد برر كلمن الحادي عشر (حكم 1700-1711) اسمه (ومعناه الرحيم) بإصلاحه سجون روما

صفحة رقم : 13233

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> روما

أما إنوسنت الثالث عشر (1721-1724) فهو في رأي رانكي البروتستنتي:

"كان يملك مؤهلات رائعة للحكم الروحي والزمني معاً، ولكن صحته كانت هشّة جدّة. وقد وجدت الأسر الرومانية المتصلة به بصلّة القرابة، والتي راودها الأمل في أن يرفع من شأنها، أنها واهمة كل الوهم: لا بل إن ابن أخيه لم يستطع الظفر بالأثنتي عشر ألف دوقاتيّة كل عام (التي أصبحت الآن الدخل العادي لابن الأخ) دون مشقة(82)". أما بندكت الثالث عشر (1724-30) فكان "رجلاً ذا تقوى شخصية عظيمة(83)". ولكنه (كما قال مؤرخ كاثوليكي) سمح بقدر كبير جداً من السلطة لمحاسب غير جديرين بعطفه(84)". وأغرق كلمنت الثالث عشر (1730-40) روما بأصدقائه الفلورنسيين، وسمح لنفسه حين شاخ وكف بصره أن ينقاد لأبناء أخيه الذين زاد تعصبهم الصراع بين اليسوعيين والجانسينيين في فرنسا مرارة فوق مرارة. وفي رأي ماكولي أن بندكت الرابع عشر (1740-58) "كان أفضل وأحكم خلفاء القديس بطرس المائتين والخمسين(85)" وهو حكم فضفاضة، ولكن البروتستانت والكاثوليك وغير المؤمنين على السواء مجمعون على الثناء على بندكت لأنه كان رجلاً واسع العلم، ذا شخصية محببة ونزاهة خلقية. ولم يرَ وهو رئيس لأساقفة بولونيا أي تناقض بين الاختلاف إلى دار الأوبرا ثلاث مرات في الأسبوع والاهتمام الصارم بواجبات الأسقفية(86)، وقد وفق أثناء ولايته منصب البابوية بين حياته الشخصية ومرح الطبع وتحرر الحديث وتذوق الأدب والفن تذوقاً يكاد يكون وثيقاً. وقد أضاف تمثالاً لفينوس عارية إلى مجموعته، وقال للكردينال دنتسان أن أمير وأميرة فورتمبرج خطأ أسيهما على جزء من التشريح جميل الاستدارة لا يذكر كثيراً في المراسلات البابوية(87). وكاد يشبه فولتير في حدة الذكاء والظرف، ولكن هذا لم يمنعه من أن يكون إدارياً حازماً ودبلوماسياً بعيد النظر.

صفحة رقم : 13234

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> روما

وقد وجد مالبة البابوية تشكو الفوضى: فنصف الإيرادات يضيع في الانتقال من بلد إلى بلد وثالث سكان روما كنسيون يفوق عددهم كثيراً ما تحتاج إليه شؤون الكنيسة، ويكلفونها من النفقة ما لا تطيقه. فأنتقص بندكت موظفيه الشخصيين، وطرد أكثر جنود الجيوش البابوية، وأنهى محسوبية الأقارب، وخفض الضرائب، وأدخل الإصلاحات الزراعية، وشجع المشروعات الصناعية، ولم يمر طويلاً وقت حتى أثمرت أمانته واقتصاده وكفاءته فائضاً للخزانة البابوية. أما سياسته الخارجية فقد قدمت تنازلات ودية للملوك المشاغبيين، فوقع مع سردينيا والبرتغال ونابلي وأسبانيا اتفاقات سمحت لحكامها الكاثوليك بالترشيح لكراسي الأسقفية. وجاهد ليهدي الضجة العقائدية في فرنسا، بالترخي في تنفيذ الأمر البابوي Unigenitus (الوحيد الجنس) الصادر ضد الجانسينيين، "ماد الإلحاد يزداد كل يوم فعلياً أن نسأل إن كان الناس يؤمنون بالله لا إن كانوا يقبلون الأمر البابوي(88)".

وبذل جهوداً شجاعة ليعثر على حل وسط مؤقت Modus Vivendi مع حركة التبرير. وقد لاحظنا تقبله الودي لإهداء فولتير مسرحية (محمد) إليه رغم أن المسرحية كانت تسلط عليها نيران الكنيسة في باريس (1746). وعين لجنة لمراجعة كتاب الصلوات اليومية ولتخليصه من بعض الأساطير الأبعد تصديقاً، على أن توصيات اللجنة لم تنفذ. واستطاع بنشاطه الشخصي أن يحقق انتخاب دالمبير بمجمع بولونيا(89). وكان يثبط التحريم المتعجل للكتب. فلما أشار بعض مساعديه عليه بشجب كتاب لامتري "الإنسان الآلة" أجاب ليس من واجبك أن تكفوا عن إبلاغي بوقاحات الحمقى؟ "اعلموا أن للبابا يداً مطلقة ليمنح البركات فقط(90)" وقد تخلت قائمة الكتب المحرمة التي أصدرها في 1758 عن جميع محاولات تعقب المؤلفات غير الكاثوليكية. واقتصرت فيما عدا استثناءات قليلة -على خطأ بعض الكتب التي ألفها كتاب كاثوليك. وأمر بالأيديان كتاب قبل أن يعطى مؤلفه إن وجد فرصة للدفاع عن نفسه، ولا يبدان كتاب في موضوع علمي إلا بعد استشارة الخبراء. وينبغي أن يؤذن لرجال العلم أو المدرس دون

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> روما

إبطاء بقراءة الكتب المحرمة (91). واتبعت هذه القواعد في طبعات القائمة الثالثة، وأكدها ليو الثالث عشر في 1900. وقد ألقى الباباوات حكم روما عسيراً عسر يقرب من عسر حكم العامل الكاثوليكي. ولعل جمهور المدينة كان أشد الجماهير فظاظاً و عنفاً في إيطاليا وربما في أوروبا. فأى سبب يمكن أن يفضي إلى مبارزة بين النبلاء أو إلى صراع دام بين الزمر المتحزبة التي قسمت المدينة المقدسة. وأما في المسرح فإن حكم النظارة كان يمكن أن يكون فاسياً لا رحمة فيه خصوصاً إذا أخطأ، وسنرى مثلاً عليه في حالة برجوليتزي. وجاهدت الكنيسة لتهدئ الشعب بالأعياد والمواكب والغفرانات والكرنفال، وسمحت للناس في الأيام الثمانية السابقة للصوم الكبير بأن يرتدوا ملابس تنكرية مرحة غريبة الأشكال، وأن يسرحوا ويمرحوا على (الكورسو) والتمس النبلاء رضى الجماهير باستعراضاتهم على الخيل أو العربات تحمل راكبين مهرة أو نساء حسناً في أبها زينة، وعرضت البغايا بضاعتهم لقاء أجور رفعتها مؤقتاً، وخففت المغازلات المقنعة من ثقل الزواج الأحادي بضع ساعات. فإذا انقضى الكرنفال عاودت روما مسيرتها المتناقضة من التقوى والإجرام.

أما الفن فلم يزدهر وسط العائدات المتناقضة التي يغلها إيمان مضمحل. لقد أسهمت العمارة ببعض الإسهامات الصغيرة: مثال ذلك أن الساندرى جاليلي أضاف لكنيسة جان جوفاني القديمة في اللاتيرانو واجهة فخمة، وخلق فرديناند وفوجا على كنيسة سانتا ماريا مادجوري وجهاً جديداً، وشيد فرانشيسكو دي سانكتيس "السكالا دي سبانيا الفسيحة المهيبة من ميدان أسبانيا إلى مزار "الثالوث الأقدس" في مونتني. وأضاف النحت أثراً مشهوراً هو "الفونتانا دي تريفي" حيث يلقي السائح المسرور قطعة نقود من وراء كتفه في الماء ليضمن عودته لزيارة روما ثانية. وكان لنافورة المخارج الثلاثة تاريخ طويل. ولعل برتيني ترك رسماً تخطيطياً لها، وافتتح كلمنت الثاني عشر مسابقة لإنشائها، وقدم التصميمات لها أدمي بوشاردان الباريسي ولامبير سجبير آدم النانسي، واختير جوفافي مايني ليصممها،

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> روما

ونحت بييترو برانتشي مجموعة نبتون وفريقه الوسطي (1732)، ونحت فليبو ديلالالي تمثلاً الخصوبة والشفاء، وقد نيكولو سالتي الخلفية المعمارية، وأكمل جوزيبي يانيني العمل في 1762، وربما أوحى مشاركة العقول والأيدي الكثيرة على هذا النحو خلال ثلاثين سنة بأنه هناك شيء من التخاذل في الإرادة أو الفقر في الموارد، ولكنها تدحض أي فكرة بأن الفن في روما كان ميتاً. وأضاف برانتشي إلى مآثره مقبرة (هي الآن في كاتدرائية القديس بطرس) لماريا كلمنتينا سوبيسكا، الزوجة التاسعة لجيمس الثالث المطالب الاستبوري بالعرش، وخلف دلافالي في كنيسة القديس أغناطيس نقشاً بارزاً رقيقاً يمثل البشارة، جديراً بالنهضة الأوربية في أوجها.

أما التصوير فلم يتمخض عن عجائب في روما في هذا العصر، ولكن جوفافي باتستا بيرانيزي جعل الحفر فناً من الفنون الكبرى. ولد لبناء بالحجر قرب البندقية، وقرأ باللايدو وحلم بالقصور وأضرحة القديسين. على أن البندقية كانت تحوي من الفنانين أكثر مما تحوي من المال، أما روما فكان فيها مال أكثر من الفنانين، ومن ثم نزع جوفاني إلى روما وبدأ عمله معمارياً. غير أن الكلب على المباني كان ضعيفاً. ولكنه صمم المباني على أي حال، أو على أصح رسم مباني غريبة الأشكال تبدو كأن "السلام الأسبانية" سقطت فوق "حمامات دقلديانوس". ونشر هذه الرسوم في 1750 باسم "رسوم مختلفة" و"كارتشيري" (المسجون)، واشتراها الناس كأنهم يشترون الألباز أو الأسرار الغامضة. ولكن بيرانيزي وجه مهارته في حالاته النفسية الأنبل إلى حفر رسومه التخطيطية للآثار القديمة. فقد عشقها كما عشقها بوسان وروبير، وأحزنه أن يرى هذه الأطلال الرائعة تزداد تحللاً يوماً بعد يوم بفعل النهب أو الإهمال، وظل طوال خمسة وعشرون عاماً، في كل يوم تقريباً، يخرج ليرسمها، وفوته أحياناً تناول وجباته من الطعام، بل أنه حتى وهو يموت من السلطان واصل الرسم والنقش والحفر. وقد ذاع مؤلفاه "الآثار الرومانية" و"مناظر

صفحة رقم : 13237

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> روما

روما" في شكل نسخ مطبوعة في أوروبا كلها وشاركت في الإحياء المعماري للأساليب الكلاسيكية. وقد وجد ذلك الأحياء حافظاً قوياً من الحفائر التي أجريت في هر كولانيوم وبومبيي وهما أعرقهما ثوران فيزوف في 79م ففي 1719 أبلغ بعض الفلاحين أنهم وجدوا تماثيل مدفونة في التراب في هر كولانيوم. وأقضت تسعة عشر عاماً قبل أن يمكن الحصول على المال اللازم لارتياح الموقع على نحو نسقي. وفي 1748 بدأت حفائر مماثلة تكشف عن عجائب بومبيي الوثنية، وفي 1752 كشف عن معابد بايستوم الضخمة الجليلة بعد اجتثاث الأجمة التي غطتها. وأقبل الأثريون من شتى البلاد ليدرسوا الكشوف ويصفوها، وأثارت رسوم هذه الآثار اهتمام الفنانين والمؤرخين جميعاً، وسرعان ما غزا المتحمسون للفن الكلاسيكي روما ونابلي، وقدموا على الأخص من ألمانيا. فأتى منجز في 1740، وفنكلمان في 1755. وهفت نفس لسنج للذهاب إلى روما، "لأمكنث هناك على الأقل سنة، وإلى الأبد أن أمكن" (92). ثم جوتيه-ولكن لئلا تنزعج هذه القصة الآن.

إما أنطون رفاثيل منجر فمن العسير أن نضعه في مكان واحد، لأنه ولد في بوهيميا (1728)، وخص بجهوده إيطاليا وأسبانيا، واختار روما موطناً له. وسماه باسم كوريدجو ورفائيل، وكان رساماً للنمنمات في درسدن، ونذره للفن، وظهرت على الصبي مخايل النجابة فأخذه أبوه وهو في الثانية عشرة إلى روما. ويروى أنه حبسه هناك في الفاتيكان يوماً بعد يوم ولا غداء له إلا النبيذ والخبز، وأخبره أن أراد مزيداً أن يطعم على آثار رفاثيل وميكل أنجيلو والعالم الكلاسيكي. وبعد أن أقام أنطون برهة قصيرة في درسدن عاد إلى روما واسترعى الأنظار بلوحة رسمها للعائلة المقدسة، وكانت نموذجها فيها مارجاريتا جواتسي "عذراء فقيرة فاضلة جميلة" (93) وتزوجها في 1749، وفي المناسبة ذاتها دخل في المذهب الكاثوليكي الروماني. وعاد ثانية إلى درسدن، وعين مصوراً لبلاد أوغسطس الثالث براتب قدره ألف طالر في العام. ووافق

صفحة رقم : 13238

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> روما

على أن يرسم لوحتين لكنيسة بدرسدن، ولكنه أقنع الملك الغاضب بأنه يسمح له برسمها في روما، وفي 1752 استقر هناك وهو بعد في الرابعة والعشرين. ولما بلغ السادسة والعشرين عين مديراً لمدرسة الفاتيكان للتصوير. وفي 1755 التقى بفنكلمان، واتفق معه على أن الباروك غلطة؛ وأن الفن يجب أن يظهر نفسه ويهذبها بأشكال الكلاسيكية الجديدة. ولعله في هذه الفترة أو نحوها رسم بالباستل صورته الذاتية الموجودة الآن في متحف فن درسدن-وجه فتاة وشعرها، ولكن العينين تلمعان بكبرياء رجل واثق من أن في استطاعته أن يهز العالم.

وحين طارد فردريك الأكبر أو غسطس من سكسونيا (1756) توقف راتب منجز الملكي، وكان عليه أن يعيش على الأجور المتواضعة المعروضة عليه في إيطاليا. وجرب العمل في نابلي، ولكن الفنانين المحليين هددوا حياته باعتباره دخيلاً، وذلك عملاً بتقليد نايولتاني قديم، ففعل منجز إلى روما سريعاً. وزين فيللا ألباني بصورة جصية حظيت بالشهرة ذات يوم، وما زالت ترى هناك لوحته "برناس" (1761) الممتازة فنياً، الكلاسيكية هدوءاً، المينة عاطفياً. ومع ذلك أحس الوزير الأسباني في روما أن هذا هو الرجل الذي يصلح لرسم صور يزدان بها القصر الملكي في مدريد. وأرسل شارل الثالث في طلب منجز ووعده بألفي دبلون في العام مضافاً إليها مسكن ومركبة ورحلة مجانية على بارجة أسبانية موشكة على الإقلاع من نابلي. وفي سبتمبر 1761 وصل منجز إلى مدريد.

صفحة رقم : 13239

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> نابلي

12- نابلي

أ- الملك والشعب

أصابته مملكة نابلي التي ضمت كل إيطاليا جنوب الولايات البابوية اللطامات الشديدة في الصراع على السلطة بين النمسا وأسبانيا وإنجلترا وفرنسا. ولكن هذا دأب التاريخ في تمزيقه الكئيب للمنطق، والتأرجح الدامي بين النصر والهزيمة، وحسبنا هنا أن نلاحظ أن النمسا استولت على نابلي في 1707،

صفحة رقم : 13240

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> نابلي

وأن دوس كارلوس، دوق بارما البوربونى وابن فليب الخامس ملك أسبانيا، طرد النمساويين في 1734، وحكم حتى 1759 باسم شارل الرابع ملك نابلي وصقلية. وكانت عاصمته التي ضمت 300.000 من الأنفس أكبر مدينة في إيطاليا.

وبلغ شارل النضج في فن الملك ببطء. ففي أول عهده اتخذ الملكية جوازاً للبدخ: فأهمل شؤون الحكومة، وأنفق نصف أيامه في القنص، وأسرف في الأكل حتى أصبح بديناً. ثم حوالي 1755، ويوحى من وزير العدل والشؤون الخارجية المركزي برناردو دي تانوتشي اضطلع بالتخفيف من مظالم تلك الإقطاع القاسي الذي توارى خلف كد الحياة النابولية ونشوتها.

وكانت تحكم المملكة طويلاً ثلاث جماعات متشابكة. فالنبلاء يملكون ثلثي الأرض تقريباً ويستعبدون أربعة أخماس الملايين الخمسة الذين يسكنونها ويسيطرون على البرلمان، ويتحكمون في نظام الضرائب، ويعرقلون كل إصلاح. والأكليروس يملكون ثلث الأرض، ويسترقون الشعب روحياً بلاهوت قوامه الرعب، وكتاب حافلة بالأساطير، وشعائر تستغل المصلين، ومعجزات على شاكلة تسبيحهم المصطنع كل نصف سنة لدم القديس ياتوريوس (حامي نابلي) المتخثر. وكانت الإرادة في يد قانونيين يدينون بالطاعة للنبلاء أو الأحرار، ومن ثم التزموا بالوضع الموروث من العصر الوسيط. وكانت الطبقة الوسطى الفقيرة المؤلفة أكثرها من التجار عاجزة سياسياً. وعاش الفلاحون والبرولتاريا في فقر أكره بعضهم على قطع الطريق وكثيراً منهم على التسول، وكان هناك ثلاثون ألف شحاذ في نابلي وحدها (94). وقد وصف دبروس جماهير العاصمة بأنهم "أبغض الرعا، وأقذر الحشرات" (95) -وهو حكم أدان النتيجة دون أن يدمغ السبب. على أننا يجب أن نعترف بأن هؤلاء النابوليين المهلهلي الثياب، المتشبثين بالخرافات، الخاضعين لسلطان الكهنة، يبدو أنهم كانوا يملكون من نكهة الحياة وبهجتها أكثر من أي جمهور آخر في أوروبا.

صفحة رقم : 13241

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> نابلي

وكبح شارل قوة النبلاء باجتذابهم إلى بلاطه حتى يكونوا تحت ناظري الملك، وبإقامة نبلاء جدد يلتزمون بتأييده. وثبط تدفق الشباب على الأديرة، وأنقص جموع الكنسيين من 100.000 إلى 81.000، وفرض ضريبة قدرها اثنان في المائة على ممتلكات الكنيسة، وحد من حصانات الأكليروس القانونية. وضيق تانوتشي من سلطة النبلاء القضائية، وحارب الفساد في القضاء، وأصلح الإجراءات القضائية، وخفف من صرامة قانون العقوبات. وأبيحت حرية العبادة لليهود، ولكن الرهبان أكدوا لشارل أن افتقاده الوريث الذكر لعرشه هو العقاب الذي أنزله به الله جزاء تسامحه الأثم فسحب الغفران من اليهود (96).

وكان ولع الملك بالبناء الفضل في إقامة صرحين شهيرين في نابلي. وأحدهما هو "التياترو سان كارلو" التاسع، وقد أقيم 1737 وما زال واحداً من أوسع وأجمل دور الأوبرا الموجودة. وفي 1752 بدأ لويجي فانفيلتي بيني الصرح الآخر في كازوتا على واحد وعشرين ميلاً شمالي العاصمة، وهو قصر ملكي هائل صمم لينافس فرساي وليقوم

بوظيفة في إيواء الأسرة المالكة ونبلاء الحاشية وأهم الموظفين الإداريين. وقد اقتضى بناؤه كد العبيد سوداً وبيضاً طوال اثنين وعشرين عاماً. وكانت الأبنية ذات المنحنيات تقوم على جانبي مدخل فسيح إلى الصرح الأوسط الذي مد واجهته 30 قدماً. وقام في الداخل مصلى ومسرح وغرف لا حصر لها وسلم مزدوج عريض كانت كل درجة فيه لوحة رخام واحدة. وامتدت وراء القصر على طول نصف ميل الحدائق المنسقة، وعدد غير من التماثيل، ونافورات فخمة تغذيها قناة طولها سبعة وعشرون ميلاً.

ولم يكن في نابلي فن متميز في هذا العصر غير قصر كازيرتا هذا (لأن القصر أطلق عليه اسم مدينته شأن الأسكوريال وفرساي)، ولا كان هناك شيء يستحق الذكر في الدراما أو الشعر. لقد ألف رجل كتاباً جريئاً "التاريخ المدني لملوك نابلي" (1723) وهو هجوم متواصل على جشع الأكليروس، ومفاسد المحاكم الكنسية، وسلطة الكنيسة الزمنية، ودعوى

صفحة رقم : 13242

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> نابلي

البابوية يحقها في نابلي كإقطاعية بابوية، أما المؤلف واسمه بيبيترو وجانوني فقد حرمه رئيس أساقفة نابلي، وفر إلى فيينا، وزج به ملك سردانيا في السجن، ثم مات في تورين (1748) بعد أن قضى اثنتي عشرة سنة حبساً (97). وفقد أنطونيو جينوفيزي إيمانه وهو يقرأ لوك، وحاول في كتابه "مبادئ المينافيزيقا" (1743) أن يدخل سيكولوجية لوك إلى إيطاليا. وفي 1754 أنشأ رجل أعمال فلورنسي في جامعة نابلي أول كرسي أوروبي للاقتصاد السياسي بشرطين، إلا يشغله كنسي أبداً، وأن يكون أول شاغل له أنطونيو جينوفيزي. ورد جينوفيزي صنيعة (1756) بأول بحث اقتصادي نظامي في اللغة الإيطالية "دروس في التجارة"، ردد صرخة التجار ورجال الصناعة المطالبين بالتححر من القيود الإقطاعية والكنسية وغيرها على المشروعات التجارية الحرة. وفي العام نفسه أعرب كزنيه عن هذا المطالب ذاته للطبقة الوسطى الفرنسية في مقالاته، التي كتبها لموسوعة ديدرو.

ولعل بعض الاتصال كان قد تم بين جينوفيزي وكزنيه على فرديناندو جالياني النابولي الباريسي. وقد نشر جالياني في 1750 "بحثاً في النقود" قرر فيه ببراءة اقتصادي في الثانية والعشرين من عمره ثمن السلعة حسب تكلفة إنتاجها. وألمع منه كتابه "حوار حول تجارة الغلال" الذي ذكرناه من قبل نقداً لكزنيه. فلما اضطر إلى العودة إلى وطنه بعد السنين المثمرة التي قضاها في باريس، أحزنه ألا يجد في نابلي صالونات، ولا امرأة كمدام جوفران تطعمه وتثير ذكائه وظرفه. على أنه كان فيها على أية حال فيلسوف بصمته على التاريخ.

ب- جامبا تيسنافيكو

تروي ترجمته الذاتية انه حين كان في السابعة سقط من على سلم نقالي، فصدم الأرض برأسه أولاً، وظل غائبا عن الوعي خمس ساعات. وأصيب برأس في الجمجمة تكون من حوله ورم ضخم. وكان الورم

صفحة رقم : 13243

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> نابلي

بخفف بشقه بمبضع المرة تلو المرة. ولكن الصبي فقد من الدم في هذه العملية ما جعل الجراحين يتوقعون موته القريب. ولكنه بقي على قيد الحياة "بفضل الله، ولكن نتيجة لهذه البلية شُيبت بمزاج مكتئب حاد(98)". كذلك أصيب بالدرن. ولو كانت العبقرية رهناً بمعوق بدني لكان فيكو موفور الحظ. وحين بلغ السابعة عشرة (1685) كسب قوته بإعطاء الدروس الخصوصية في فاتوللا (قرب سالرنو) لأبناء أخي أسقف اسكيا. ومكث هناك تسع سنين، ولكنه كان أثناءها عاكفاً في حماسة محمومة على دراسة القانون وفقه اللغة والتاريخ والفلسفة. وافتتن على الأخص بقراءة أفلاطون وأبيقور ولوكريتيوس ومكيافلي وفرانسيس بيكن وديكارت وجروتيوس، وخرج من هذا كله بشيء من الأذى لإيمانه الديني. وفي 1697 حصل على كرسي أستاذ البيان في جامعة نابلي، ولم يؤجر عليه بأكثر من مائة دوقاتية في العام، زادهها بإعطاء الدروس الخصوصية، ومن هذا الدخل كان يعول أسرة كبيرة. وماتت ابنة له في ريعان الصبي، وظهرت على ابن له ميول شريرة اقتضت إرساله إلى إصلاحية للأحداث، أما زوجته فكانت أمية عديمة الكفاية، فكان على فيكو أن يكون الأب والأم والمعلم جميعاً(99). وفي وسط هذه الشواغل المشتتة للفكر كتب فلسفته للتاريخ. وقد قدم كتابه "مبادئ علم جديد في الطبيعة المشتركة للأمم" (1725)، وحاول إن وجد في فوضى التاريخ انتظامات من التعاقب قد تنير الماضي والحاضر والمستقبل. ورأى فيكو أن في استطاعة أن يتبين ثلاث فترات رئيسية في تاريخ كل شعب:

- (1) عصر الأرباب الذي اعتقدت فيه الأمم (غير اليهود) أنها تعيش في ظل حكومات إلهية، وأن كل شيء كان بأمر الأرباب عن طريق الكهنة والوحي.
- (2) عصر الأبطال حين كانوا يسيطرون على الجمهوريات أرسقراطية، بحكم تفوق في طبيعتهم اعتقدوا أنهم يمتازون به على العامة.

صفحة رقم : 13244

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> نابلي

(3) عصر البشر، وفيه أفر الجميع بأنهم متساوون في الطبيعة البشرية فأقاموا أولى الجمهوريات الشعبية ثم الملكيات(100). وقد طبق فيكو الفترة الأولى على التاريخ (الأممي واللاتيني) (غير الكتابي)، فما كان في استطاعته أن يقول إن يهود العهد القديم إنما "اعتقدوا أنهم) يعيشون في ظل حكومات إلهية" دون المساس بالتقاليد المقدسة. ولما كان ديوان التفتيش (وهو في نابلي أشد صرامة منه في شمال إيطاليا) قد حاكم باحثين نابوليين لأنهم تكلموا على بشر وجدوا قبل آدم، فإن فيكو وفق بجهد بين صيغته وبين سفر التكوين بالافتراض بأن جميع ذراري آدم، إلا اليهود، قد ارتدوا بعد الطوفان إلى حالة أقرب إلى الوحشية فسكنوا الكهوف ونسافدوا دون تمييز في شيوعية نساء. ومن (حالة الطبيعة) الثانية هذه تطورات الحضارة بطريق الأسرة والزراعة والملكية والأخلاق والدين. وكان يذكر الدين أحياناً على أنه طريقة أرواحية (لتفسير الأشياء والأحداث) وأحياناً يشيد به باعتباره قمة التطور.

ويقابل مراحل التطور الاجتماعي الثلاث، ثلاث (طبائع) أو طرق لتفسير الكون: اللاهوتية، والأسطورية والعقلية. وكانت الطبيعة الأولى، بحكم خداع الخيال (وهو أقوى ما يكون في أضعف الناس قدرة على التذليل العقلي)، طبيعة شعرية أو إبداعية، قد نسماها على سبيل التجوز إلهية، لأنها تصورت الأشياء المادية على أنها تحيا بقوة الآلهة.. وكان الناس نتيجة لخطأ خيالهم هذا يخافون خوفاً رهيباً من الأرباب التي خلقوها هم أنفسهم... أما الطبيعة الثانية فهي الطبيعة البطولية، فقد اعتقد الأبطال أنهم من أصل إلهي... وأما الثالثة فالطبيعة (الطريقة) البشرية، طبيعة ذكية. ومن ثم متواضعة، معتدلة، منطقية، تسلّم بأن الضمير والعقل والواجب كلها نوااميس(101)".

وقد حاول فيكو لتاريخ اللغة والأدب والقانون والحكومة

صفحة رقم : 13245

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> نابلي

مكاناً ملائماً في هذا النظام الثلاثي. ففي المرحلة الأولى كان الناس يتواصلون بالإشارات والإيماءات، وفي الثانية بالرموز والتشبيهات والصور، وفي الثالثة بالكلمات التي اتفق عليها القوم... ليحددوا بهذا معنى القوانين. ومر القانون نفسه بتطوير مقابل لهذا: فكان أول الأمر إلهياً؛ منزلاً كما كان أول الأمر إلهياً؛ منزلاً كما كان الحال في ناموس موسى، ثم بطولياً كقانون ليكوجوس، ثم بشرياً-أملاه العقل البشري المكتمل النمو(102) كذلك مرت الحكومة بثلاث مراحل: التيقراطية؛ وفيها زعم الحكام أنهم صوت الله، والأرستقراطية، وفيها اقتصر جميع الحقوق المدنية على طبقة الأبطال الحاكمة، والبشرية، وفيها يعتبر الجميع سواء أما القوانين...، وهذه هي الحال في المدن الشعبية الحرة،..، وكذلك في الملكيات التي تجعل جميع رعاياها سواء أمام قوانينهم(103). وواضح أن فيكو استعاد تلخيص أفلاطون للتطور السياسي من الملكية إلى الأرستقراطية إلى الديمقراطية إلى الدكتاتورية (حكم الطغاة)، ولكنه غير الصيغة لتقرأ: تيوقراطية وأرستقراطية، وديمقراطية، وملكية. وقد اتفق مع أفلاطون في أن الديمقراطية تنزع إلى الفوضى، واعتبر حكم الرجل الواحد علاجاً ضرورياً للخلل الديمقراطي، "أن الملكيات هي الحكومات النهائية... التي تصل إليها الأمم لتستريح(104). أفلال

وقد ينبعث الخلل الاجتماعي من التدهور الخلقي، أو الترف، أو تركيز الثروة تركيزاً يمزق الأمة، أو الحسد العدواني بين الفقراء. ومثل هذا الخلل يفضي عادة إلى الدكتاتورية، كما نرى في حكم أوغسطس الذي كان فيه الشفاء من الفوضى الديمقراطية في الجمهورية الرومانية. فإذا عجزت حتى الدكتاتورية عن وقف الانحلال، فإن أمة أشد قوة وعنفواناً تدخل فاتحة للبلاد.

"وإذا كان الناس الذين بلغ منهم الفساد هذا المبلغ قد انقلبوا عبيداً لشهواتهم الجامحة.. فإن العناية الإلهية تقضي بأن يصيروا عبيداً بحكم القانون الطبيعي للأمم،... فيستعيدوا لأمم أفضل منهم يحكمونهم بعد أن يغلبوهم كما يحكم الغالب الأقاليم الخاضعة له... وهنا يستطيع ضوءان عظيمان من أضواء النظام الطبيعي. أولهما أن من يعجز عن حكم نفسه يجب

صفحة رقم : 13246

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> نابلي

أن يدع القادر على حكمه أن يحكمه، والآخر أن العالم يحكمه دائماً من هم بالطبيعة أصلح الحاكمين(106). وفي مثل هذه الحالات يرتد الشعب المغلوب إلى مرحلة التطور التي وصل إليها غالبوه. وهكذا أرتد سكان الإمبراطورية الرومانية إلى الهمجية والتخلف بعد غزوات الشعوب الهمجية واضطروا إلى أن يبدعوا بالتبوقراطية (حكم الكهنة واللاهوت)؛ وتلك كانت العصور المظلمة. ثم جاء عصر بطولة آخر بمجيء الحروب الصليبية؛ وأمراء الإقطاع يقابلون أبطال هومر ودانتي هو هومر مكرراً.

ونسمع في فيكو أصداء للنظرية التي تزعم أن التاريخ تكرر دائر، ولقانون مكيافللي "Corsi e Ricori" التطور والتقهقر" وفكرة التقدم تضار في هذا التحليل، فليس التقدم إلا نصف حركة دورية نصفها الآخر الانحلال؛ والتاريخ، شأنه شأن الحياة، هو تطور وانحلال في تعاقب وحتمية لا محيص عنهما.

وقدم فيكو في الطريق إلماعات مدهشة. فقد رد الكثيرين من أبطال الأساطير الكلاسيكية إلى الأسماء البعيدة Eponyms والتشخيصات التالية لعمليات ظلت طويلاً لا شخصية أو متعددة الشخصيات، فأورفيوس مثلاً كان المدمج الوهمي لموسيقين بدائيين كثيرين، وليكوجوس كان التجسيد لسلسلة القوانين والعادات التي جمدت إسبارطة، ورومولوس كان ألف رجل جعلوا من روما دولة. (107) وبالمثل رد فيكو هومر إلى الخرافة، مدلاً على ذلك قبل كتاب فريديك فولت "مقدمات نقدية لهومر (1795) بنصف قرن بأن الملاحم الهومرية إنما هي حصيلة تجمعت وأدمجت شيئاً فشيئاً لجماعات وأجيال من رواة الملاحم الذين كانوا ينشدون بطولات طروادة وأوديسيوس في مدن اليونان (108). وقبل قرن تقريباً من صور كتاب بارتهولد نيبور "تاريخ روما" (1811-32) رفض فيكو الفصول الأولى من تاريخ ليفي لأنه أسطورية. "كل تواريخ

صفحة رقم : 13247

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> نابلي

الأمم غير اليهودية كان لها بدايات خرافية(109)" (وهنا أيضاً يتجنب فيكو في حذر أن يمس تاريخية سفر التكوين). وهذا الكتاب الخطير يكشف عن عقل قوي تزعج المضايقات المتصلة، يكافح لصياغة أفكار أساسية دون أن يقضي به المسير إلى سجن من سجون ديوان التفتيش. وقد بذل فيكو قصاره المرة بعد المرة ليعلن ولاءه للكنيسة وأحس أنه جدير ببناء الكنيسة لتفسيره مبادئ القانون بطريقة تتفق واللاهوت الكاثوليكي(110). ونحن نسمع نغمة أكثر إخلاصاً في رأيه في الدين دعامة لا عنى عنها للنظام الاجتماعي والفضيلة الشخصية: "أن للأديان دون غيرها القوة على جعل الناس يعملون الأعمال الفاضلة(111)..." ومع ذلك، ورغم تكرار استعماله للفظ "العناية الإلهية"، يبدو أنه يبعد الله عن التاريخ ويرد الأحداث إلى التفاعل الحربيين الأسباب والنتائج الطبيعية. وقد هاجم دارس دومنيكي فلسفة فيكو لأنها ليست مسيحية بل لوكريتيه.

ولعل العلمانية المنبعثة من تحليل فيكو كان لها بعض الصلة بإخفاقها في أن تظفر بالاستماع إليها في إيطاليا، وما من شك في أن ما شاب عمله من استطراد فوضوي وعاب فكره من اختلاط قد قضى على "علمه الجديد"، بأن يولد ميئاً وأن تكون ولادته مؤلمة. فلم يوافق أحد على اعتقاده بأنه كتب كتاباً عميقاً أو مثيراً. وعبئاً ناشد لكلير ولو ليذكره في دورية "أخبار عالم الدب"، وبعد عشر سنوات من ظهور كتاب العلم الجديد خف شارل الرابع لنجده فيكو، فعينه مؤرخاً رسمياً للملك برانت سنوي قدره مائة دوقانية. وفي 1741 قررت عين جامباتستا بروية ولده جنارو يخلفه أسناداً في جامعة نابلي. وفي سنواته الأخيرة (1743-44) ضعف عقله فترى في غيبية أشرفت على الجنون.

وكان في مكتبة مونتسيكو نسخة من كتابه(112)، وقد أقر الفيلسوف الفرنسي في هوامش مذكرات خاصة بدينة
لنظرية فيكو في التطور والانحلال الدوري، ويظهر هذا الدين الذي لم يفصح عنه في كتاب مونتسيكو "عظمة
الرومان وانحطاطهم" (1734). وفيما عدا هذا ظل فيكو مجهولاً

صفحة رقم : 13248

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> نابلي

في فرنسا حتى جول ميشليه (1827) ترجمة مختصرة لكتاب العلم الجديد. وقد وصف ميشليه إيطاليا بأنها "الأم
الثانية والحاضنة التي غذتني في صباي بفرجل، وفي شبابي بفيكو(113)". وفي 1826 بدأ أوجست كونت
المحاضرات التي أصبحت فيما بعد "مجموعة محاضرات في الفلسفة الوضعية" (1830-42)، وفيها يشعر بتأثير
فيكو في كل خطوة.
أما الإنصاف الكامل لفيكو فلم يأت إلا على يد رجل نابولي هو بنديتو كروتشي(114)، الذي ألمع هو الآخر إلى أن
التاريخ يجب أن يتخذ مكانه إلى جوار العلم أساساً ومدخلاً للفلسفة.

ج - موسيقى نابلي

تليت نابلي قول فيثاغورس، قرأت أن الموسيقى أرفع ضروب الفلسفة. وقد كتب لالاند، الفلكي الفرنسي، بعد جولة في
إيطاليا في 1765-66يقول:
"إن الموسيقى هي الانتصار الأعظم للنابوليين، وكان أغشية طبلية الأذن في ذلك البلد أشد توتراً وتناغماً ورنيناً منها
في أي بلد آخر في أوربا. فالأمة كلها تغني. وإيماءات الجسد، والنبرة، والصوت، وإيقاع المقاطع بل والحديث نفسه-
كلها تتنفس الموسيقى. ومن ثم كانت نابلي المصدر الرئيسي للموسيقى الإيطالية، ولكبار الملحنين، والأوبرات
الممتازة، ففيها أخرج كوريللي وفنتشي وريناد وجوميللي ودورانتى وليو وبرجوليزي... وكثير غيرهم من أعلام
الملحنين روائعهم(115)".
على أن نابلي تفوقت في الأوبرا الألمان الصوتية فقط، أما في الموسيقى الآلية فقد عقدت الزعامة للبندقية، وشكا هواة
الموسيقى من أن أهل نابلي أحبوا جيل الصوت أكثر من لطائف الهارموني (التوافق) والكونترابنت. هنا ملك نيكولوبو
ريورا، "الذي ربما كان أعظم من عاش من معلمي الغناء(116)". وكان كل شادٍ إيطالي يصبو إلى أن يكون تلميذه،
فإذا قبله

صفحة رقم : 13249

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> نابلي

احتمل في ذلة شذوذاته العاتية؛ وروى أنه أبقى جايتانو كفاريللي خمس سنوات في صفحة تمارين واحدة، ثم صرفه مؤكداً له أنه الآن أعظم المغنين في أوربا (117). وكان هناك معلم غناء آخر يدعى فرانثيسكو دورانتي، لم يفوقه مرتبة غير يوربيورو، وقد علم الغناء لفتشي، وجوملي، وبرجوليزي، وبايزيللو، وبشيني. أما ليوناردوفنتشي فقد بدأ معوقاً بسبب اسمه، ولكنه ظفر بالغناء الميكر بتلحينه أوبرا متاستازيو Didone Abband Onate. وقال الجاروتي "أن فرجل نفسه كان يبهجه أن يسمع تلحيناً فيه هذه الحيوية وهذا التعذيب؛ تهجم فيه على القلب والروح كل قوى الموسيقى (118)". وأشهر منه ليوناردو ليو، في الأوبرا الجادة والهائلة، والاوراتوربو. والقديسات والموتيات، وقد ترددت نابولي فترة بين الضحك على أوبراه الكوميديّة La Finta Fraeastana (الضجة المفتعلة) والبيكاء على لحن Miaerenr (ارحمني) الذي لحنه لخدمات الصوم الكبير في 1744. وحين استمع ليو حوالي عام 1735 إلى كنتاتا من تلحين نيكولو جوميللي قال في عجب "لم يمض طويل زمن حتى يغدو هذا الفن محط عجب أوربا وإعجابها.. (119)" وقد حقق جوميللي النبوءة تقريباً. ففي الثالثة والعشرين من عمره ظفر بإطراء نابلي الحماسي على أوبراه الأولى، وفي السادسة والعشرين حقق نصراً مماثلاً في روما. وحين مضى إلى بولونيا قدم نفسه على أنه تلميذ لبادري مارتيني، ولكن حين سمعه ذلك المعلم المبجل يرتجل فوجبه بكل تطورها الكلاسيكي صاح "إذن فمن أنت؟ أترك تسخر مني؟ إني أنا الذي يجب أن يتعلم منك" (120). وفي البندقية أثارت أوبراته من الحماسة ما حمل مجلس العشرة على تعيينه مديراً للموسيقى في مدرسة ذوي الأمراض المستعصية، وهناك كتب قطعاً من أفضل موسيقى ذلك الجيل الدينية. وحين انتقل إلى فيينا (1748) أخذ يلحن مع متاستازيو الذي ارتبط معه برابط صداقة وثيقة. وبعد أن حقق مزيداً من الانتصارات في البندقية وروما استقر في شتوتجارد ولودفجسبرج

صفحة رقم : 13250

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> نابلي

(1753-68) رئيساً لفرقة مرتلي دوق فورتمبرج. وهنا عدل أسلوبه الأوبرالي في اتجاه ألماني، فزاد من توافقه تركيباً، وأضفى مزيداً من المادة والنقل لموسيقاه الآلية، وتخلّى عن تكرار الألحان من البداية Da Capo وأضاف مصاحبة أوركسترا لية للسرديات وأحل الباليه محلاً بارزاً في أوبراته، ربما متأثراً بجان جورج نوفير، أستاذ الباليه الفرنسي في شتوتجارد، وقد مهدت هذه التطورات في موسيقى جوميللي، إلى حد ما، لإصلاحات جلوك. فلما عاد الملحن المسن إلى نابلي (1768) أنكر الجمهور ميوله النيوتونية، ورفضوا أوبراته رفضاً باتاً. وقد قال موتسارت بعد أن سمع إحداها هناك في 1770 - "إنها جميلة، ولكن أسلوبها أرفع وأقدم مما يحتمله المسرح"، (121) ولقي جوميللي حظاً أفضل بموسيقاه الكنسية. فترتلت موسيقى لحن "ارحمني" و "قداسة للموتى" في العالم الكاثوليكي طولاً وعرضاً. وقد كتب وليم بكفورد بعد استماعه إلى القداس يرتل في لشبونة في 1787 "لم أسمع قط ولعلي لن أسمع ثانية مثل هذه الموسيقى المهيبة المؤثرة" (122). واعتزل جوميللي في بلدته أفرسا بعد أن ادخر لمستقبله بحرص تيوتوني، وأنفق سنواته الأخيرة شيخاً بديناً ثرياً. وفي 1774 شيع جثمانه جميع موسيقيي نابلي البارزين. وقد ضحك نابلي أكثر حتى مما غنت. فباوبرا كوميديّة غزا برجوليزي باريس بعد أن أبت تلك المدينة المستكبرة دون سائر العواصم الأوربية أن تخضع لأوبرا إيطاليا الجادة. ولم يخض جوفاني باتستا برجوليزي تلك المعركة بشخصه، ووفد على نابلي وهو في السادسة عشرة. وما أن بلغ الثانية والعشرين حتى كان قد كتب عدة أوبرات، وثلاثين

صوناتا، وقداسين، حظيت كلها بالإعجاب الشديد، وفي 1733 قدم أوبرا تسمى Il Prigioniero "السجين" وقد لها بمقدمة "الخدمة التي تتقلب سيدة البيت": والنص قصة مرحلة تحكي كيف تحتال الخدمة سربينا على سيدها

صفحة رقم : 13251

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> نابلي

حتى يتزوجها، أما الموسيقى فساعة حافلة بالمرح والألحان الرشيقة. وقد أسلفنا كيف أسر هذا المرح البارح مزاج باريس وقلبيها في "حرب المهرجين" في 1752، التي عرضت في الأوبرا مائة مرة، ثم ستاً وتسعين مرة أخرى في 1753 في التياتر فرانسيس. وقاد برجوليزي أثناء ذلك أوبراه "الأولمبياد" في روما (1735)، فقولبت بعاصفة من صفير الاستهجان، وببرتقالة صوبت بدقة على رأس الملحن. (123) وبعد سنة ذهب إلى بوتسرولي ليعالج من إصابته بالسل، الذي ازداد فداحة من جراء أسلوب حياته الخليع. وقد كفر موته الباكر عن أاثامه، ودفنه في الكاتدرائية المحلية الرهبان الكبوشيون الذين أنفق معهم أيامه الأخيرة. أما روما التي ندمت على فعلتها بعثت "الأولمبياد" من جديد، وصدقت لها في طرب شديد، واليوم تحفظ له إيطاليا ذكرى مجيدة لا لفواصله المرححة بقدر ما تحفظها له لركة العاطفة في "آلام العذراء" التي لم يعيش ليكملها. وقد جعل برجوليزي نفسه موضوعاً لأوبراوين.

وقد أصاب دومنيكو سكاربوتي ما أصاب برجوليزي من مبالغة طفيفة نفختها فيه رياح الذوق، ولكن من ذا الذي يستطيع مقاومة تآلق براعته وخفة يده؛ ولد في عام العجائب، عام هندل وباخ (1685)، وكان الطفل السادس لألكساندور سكارلاتي، الذي كان آنذ فردي الأوبرا الإيطالية. وقد تنفس الموسيقى منذ ولد. فقد كان أخوه بيبيترو، وابن عمه جوزيبي، وعماه فرانثيسكو وتومازو موسيقيين. وكانت أوبرات جوزيبي تخرج في نابلي وروما وتورين والبندقية وفيينا. وخشي الأب أن تختنق عبقرية الفتى دومنيكو بهذه الوفرة في المواهب فبعث به إلى البندقية وهو في العشرين وقال، إن ابني هذا نسر كبر جناحاه، فيجب ألا يبقى في العش، وعلي ألا أعطل طيرانه (124).

وفي البندقية واصل الشاب دراساته والنقى بهندل. ولعلهما قصدا روما حيث دخلا بتحريض من الكردينال أوتوبوني في مباراة ودية على الهاربسكورد ثم على الأرغن. وكان دومنيكو يومها أفضل عازف على

صفحة رقم : 13252

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> نابلي

الهاربسكورد في إيطاليا، ولكن يروى أن هندل لم يكن دونه مهارة عليهم، أما على الأرغن فإن سكارلاتي اعترف بصراحة بنفوق "السكسوني العزيز" عليه. وتوثقت الصداقة بين الرجلين، وهذا أمر عسير جداً على كبار الممارسين لفن واحد، ولكن يقول معاصر لهما أن "دومنيكو كان صاحب طبع غاية في اللطف وسلوك غاية في النبل" (125). أما هندل فكان قلبه كبير كهيكله. ومنع الإيطالي تواضعه وحيأؤه من عرض براعته في العزف على الهاربسكورد أمام

الجماهير. ونحن نعرفها من أخبار السهرات الموسيقية الخاصة فقط. وقد خيل لأحد سامعيه في روما (1714) "أن عشرة آلاف شيطان كانوا يعزفون على الآلة" إذ لم يسمع قط من قبل "مثل هذه الفقرات تنفيذاً وتأثيراً" (126) وكان سكارلاتي أو من طور إمكانات لوحة مفاتيح اليد اليسرى بما في ذلك إمرارها فوق اليد اليمنى. قال "إن الطبيعة منحتني عشرة أصابع، وبما أن التي تتيح تشغيلها جميعاً، فلست أرى سبباً ألا أستعملها" (127). وفي 1709 قبل وظيفة "مايسترو دي كابلا" لمملكة بولندا السابقة ماريا كازيميرا. ذلك أنها بعد موت زوجها جان سويكي نفيت لاعتبارها دساسة مثيرة للقلق. فلما قدمت إلى روما في 1699 صممت على إنشاء ندوة تحفل بالعقريات كصالون كرستينا ملكة السويد التي ماتت قبل ذلك بعشر سنين. فجمعت الكثير من رواد صالون كرستينا السابقين في قصر على ميدان "ترينيتا دي مونتي" وفيهم عدة أعضاء في الأكاديمية الأركادية. وهناك (14-1709) أخرج سكارلاتي عدة أوبرات. ولما شجعه نجاحها، قدم "أمليتو" (هاملت) على مسرح الكايرانيكو. ولم تلق قبولاً حسناً من الجمهور. ولم يعد دومنيكو بعدها قط لتقديم أوبرا لجمهور إيطالي. فلقد وضع أبوه مستوى للأوبرا كان أعلى من أن يدركه.

وظل أربع سنين (1715-19) يقود الكابيل جوليا بالفاتيكان، ويعزف الأرغن في كاتدرائية القديس بطرس؛ ثم لحن الآن "الأم العذراء" التي حكم الجمهور عليها بأنها "رائعة أصلية" (128) وفي 1719، قاد أوبرا

صفحة رقم : 13253

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> نابلي

"نار تشيزو" في لندن. ثم نجده بعد عامين في لشبونة قائداً لفرقة المنشدين للملك يوحنا الخامس ومعلماً لأبنة الملك ماريا بربارا، التي أصبحت بفضل تعليمه عازفة ماهرة على الهاربسكورد، ومعظم صوناتاته الباقية ألفها باستعماله. فلما عاد إلى نابلي (1725) تزوج وهو في الثامنة والأربعين بماريا جنتيلي التي لم تتجاوز السادسة عشرة، وفي 1729 اصطحبها إلى مدريد. في تلك السنة تزوجت ماريا بربارا من فرديناند، ولي عهد أسبانيا. فلما انتقلت معه إلى إشبيلية رافقها سكارلاتي وظل في خدمتها إلى أن ماتت.

وماتت زوجة سكارلاتي في 1739 مخلفة له خمسة أطفال. وتزوج ثانية، وسرعان ما أصبح الخمسة تسعة. فلما أصبحت ماريا بربارا ملكة على أسبانيا (1746) جلبت أسرة سكارلاتي معها إلى مدريد. وكان فارنيللي الموسيقي الأثير لدى الملك والملكة، ولكن المغني والعازف أصبحا صديقين حميمين. وكانت وظيفة سكارلاتي وظيفته خادم مميز، ويمد البلاط الأسباني بالموسيقى. وحصل على إذن بالذهاب إلى دبلن في 1740 وإلى لندن في 1741؛ ولكنه كان أكثر الوقت يعيش في قناعة هادنة بمدريد أو قريبها، متوارياً عن العالم تقريباً، لا يخامر الظن على الأرجح بأنه سيكون أثيراً لدى عازفي البيانو في القرن العشرين.

ولم ينشر سكارلاتي في حياته سوى ثلاثين صوتاً من بين 555 صوتاً تستند الآن إليها شهرته استناداً لقلماً بفضل حلياتها النغمية. وقد دل عنوانها المتواضع (تمارين على الهاربسكورد) على هدفها المحدود، وهو ارتياد إمكانات التعبير بتقنية الهاربسكورد. وهي ليست صوتيات إلى بالمعنى الأقدم للفظ، أي قطع آلية "تعزف" ولا تغنى. ولبعضها موضوعات متعارضة، وبعضها تزوج في مقامات كثيرة وصغيرة، ولكنها كلها في حركة مفردة لم تبدل فيها أي محاولة لتفصيل الموضوع وتلخيصه. وهي تمثل تحرر موسيقى الهاربسكورد من تأثير الأرغن، وتلقى التأثيرات من الأوبرا بمؤلفات للوحة المفاتيح. وقد تفوقت على حيوية أصوات السويرانو والمغنين ورقتها ورعاشاتها وحيلها بالأصابع الخفيفة الرشيقة الطبيعة لخيال لعوب مسرف.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إيطاليا السعيدة -> نابلي

لقد "لعب" سكارلاتي الهاربسكود بمعنى الكلمة الحرفي. يقول في هذا: "لا تتوقعوا أي عمق في العلم، بل معاينة بارعة للفن" (129). وهناك أثر في الرقص الأسباني وما فيه من أرجل طافرة وتنورات مدومة وصاجات رنانة تحسه في هذه التموجات والتدفقات؛ وفي كل موضع من الصوتيات تجد استسلام العازف للذة التحكم في آتته (130). ولا بد أن هذا الفرح بالآلة كان من بواعث السلوى لسكارلاتي في سنوات خدمته تلك في أسبانيا. وقد نافسته لذة لعب الميسر الذي أتى على الكثير من معاشه، واضطرت الملكة إلى سداد ديونه غير مرة. ثم ساءت صحته بعد عام 1751، وزادت تقواه وورعه. وفي 1754 عاد إلى نابلي ومات فيها بعد ثلاث سنين. وتولى فارنيللي الطبيب إعالة أسرته المعوزة.

وقد أرجأنا الكلام على سيرة فارنيللي الغربية في أسبانيا حتى فصل لاحق. وقد يكون هو ودومنيكو سكارلاتي، وجامباتستا ودومنيكو نيبولو، من الإيطاليين الموهوبين الذين كان لهم الفضل، هم ومنجز المتطلين تقريباً، في استخدام الموسيقى والفن الإيطاليين في البعث الأسباني. وفي 1759 لحق بهم ملك نابلي أو يبقهم. ففي ذلك العام مات فرديناند السادس دون عقب، وورث أخوه شارل الرابع ملك نابلي العرش الأسباني باسم شارل الثالث. وأسفت نابلي على رحيله عنها. وكان هذا الرحيل في أسطول من ست عشرة سفينة يوم عطلة حزينة لأهل نابلي، فاجتمعوا في حشود كبيرة بطول الشاطئ ليشاهدوه وهو يقلع، ويروى أن كثيرين منهم بكوا وهو يودعون "ملكاً أثبت أنه أب لشعبه" (131). وقد كتب له أن يتوج أعماله ببث الشباب في حياة أسبانيا.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> البرتغال ويومبال -> يوحنا الخامس

الفصل العاشر

البرتغال ويومبال

1- يوحنا الخامس

لم اضمحلت البرتغال بعد أيامها المجيدة التي أنجبت ماجلان وفاسكو داجاما وكامونيس؟ لقد كان في جسدها وروحها يوماً ما من الهمة ما يكفي لإرتياد نصف الكرة وإنشاء المستعمرات الجريئة في ماديرا، والأزور، وأمريكا الجنوبية، وأفريقيا، ومدغشقر، والهند وملقا، وسومطرة. أما الآن، في القرن الثامن عشر، فقد باتت نتوءاً ضئيلاً لأوروبا، مقيدة إلى إنجلترا في التجارة والحرب، ويغذيها ذهب البرازيل وماسها اللذان يصلان إليها بإذن الأسطول البريطاني. فهل أنهكت قواها لفرط ما قدمت من الرجال البواسل لتملك هذا العدد العدي من المخاقر الأمامية القلقة التوازن على أطراف المعمورة؟ أم لعل تدفق الذهب عليها نزح الحديد من عروقها وأوهن طبقاتها الحاكمة فانكست من حياة الإقدام والمغامرة إلى حياة اللين والدعة؟

أجل، لا بل أنه من قوة الصناعة أيضاً. فأى جدوى في محاولة تبذلها لتنافس مهرة الصناع أو ملتزمي الصناعة الإنجليز أو الهولنديين أو الفرنسيين في الحرف أو الصناعات، ما دام في طاقتها شراء ما تستورده من الكساء والغذاء وأسباب الترف والنعيم بالذهب المستورد؟ فأما الأغنياء الذين يتاجرون بالذهب فقد أصبحوا أكثر غنى، ازدادوا فخامة ملابس وبهاء زينة، وأما الفقراء الذين حيل بينهم وبين ذلك الذهب فقد ظلوا يتردون في فقرهم لا يحثم على الكد والعرق غير حافظ الجوع. وأدخل

صفحة رقم : 13256

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> البرتغال وبومبال -> يوحنا الخامس

تشغيل الرقيق في مزارع كثيرة، وملاً المتسولون المدن ضجيجاً بصيحاتهم. وقد كتب عنهم ولیم بكفورد حين سمعهم في 1787 يقول "ليس بين الشحاذين قاطبة من يضارع شحاذي البرتغال قوة رنات، ووفرة قروح، وكثرة حشرات، وتنوع أسماك، وترتيب خرق؛ ومثابرة لا تهاب.. أن عددهم لا يحصى، عمي، صم، جرب(1)". ولم تكن لشبونة يومها هذه المدينة الجميلة التي نعهدها اليوم. لقد كانت الكنائس والأديرة غاية في البهاء، وقصور النبلاء فسيحة ضخمة، ولكن نسبة لا تقل عن عشر السكان يغير مأوى، وكانت الأزقة الملتوية تفوح منها رائحة القمامة والقدارة(2). ومع ذلك فهنا، كما في سائر بلاد الجنوب، عوض الفقر بأسباب العزاء من الأيام المشمسة، والأمسيات المزدانة بالنجوم، والموسيقى، والدين، والنساء المتمدنات ذوات العيون التي تعذب الناظرين. وكان القوم يتدفقون في الشوارع بعد أن تخف وقدة القبط لا يعوقهم لدغ البراغيث في أجسامهم ولا طنين البعوض في الهواء، فيرقصون ويغنون ويعزفون على القيثائر ويقتتلون للفوز بابتسامة من عذراء.

وكانت المعاهدات (1654، 1662، 1703) قد قيدت البرتغال بإنجلترا في تكافل عجيب حالف بينهما في الاقتصاد والسياسة الخارجية وأبقاهما في الوقت نفسه أشد ما تكونان تبايناً في العادات وخصوصة في العقيدة. وتعهدت إنجلترا بحماية استقلال البرتغال والسماح باستيراد النبيذ البرتغالي (البورت من أوبورتو) برسوم جمركي مخفض جداً. أما البرتغال فتعهدت بالسماح باستيراد المنسوجات الإنجليزية معفاة من الرسوم، وبالوقوف في صف إنجلترا في أي حرب تنشب. ونظر البرتغاليون إلى الإنجليز على أنهم زنادقة هالكون يملكون أسطولاً قوياً، ونظر الإنجليز إلى البرتغال على أنهم قوم جهلة متعصبون يملكون المواني الاستراتيجية. وسيطر رأس المال البريطاني على الصناعة والتجارة البرتغاليتين. كتب بومبال يشكو من هذه الأوضاع في شيء من المبالغة: "في سنة 1754 لم تكد البرتغال تنتج أي شيء يعينها على الاستكفاء."

صفحة رقم : 13257

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> البرتغال وبومبال -> يوحنا الخامس

فتلثا الضروريات المادية تزودهما إنجلترا. وغدت إنجلترا السيد المتصرف في تجارتنا كلها، وكان الوكلاء الإنجليز يديرون تجارتنا الخارجية بجملتها. فهم يملكون كل شحنات السفن المقلعة من لشبونة إلى البرازيل، ومن ثم يملكون الثروة العائدة بديلاً عن هذه الشحنات. فلم يكن شيء برتغالياً إلا بالاسم فقط(3)". ومع ذلك وصل إلى يد الحكومة البرتغالية من ذهب المستعمرات وفضتها وأحجارها الكريمة ما يكفي لتميل مصروفاتها ولجعل الملك مستقلاً عن مجلس الشعب وسلطانه الضريبي. وهكذا عاش يوحنا الخامس، طوال ملكه الذي امتد أربعة وأربعين عاماً، يرفل في رغد من العيش كأنه أحد سلاطين الشرق؛ ويلطف من تعدد نساته بالثقافة ويجمله بالولاء للكنيسة. فوهب الأموال الطائلة أو أقرضها للبابوية، وتلقى نظير ذلك لقب "صاحب الجلالة العظيم الإيمان" بل نال حتى حق تلاوة القداوس دون حق تحويل الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه. قال فرديريك الأكبر "كانت لذاته في الوظائف الكهنوتية، ومبانيه أديرة، وجيوشه رهباناً وخليلاته راهبات(4)". وأثرت الكنيسة بفضل هذا الملك الذي يدين لها بالكثير جداً من الغفرانات. فملك نصف الأراضي(5)، وشغل أتباعها تسعمائة دار دينية. وبلغ عدد الكنسيين من مختلف الرتب أو الملحقين بالمؤسسات الدينية زهاء 200.000 في أمة تعد مليونين من الأنفس. وأختص اليسوعيون بمكان الصدارة المرموق سواء في أرض الوطن وفي المستعمرات، فلقد ساهموا في الفوز بالبرازيل للبرتغال، ولقي نفر منهم الترحيب في البلاط، وتمكن بعضهم التسلط على الملك. وكان الملك في موكب (عيد القربان) العظيم يحمل أعمدة المظلة التي حمل تحتها بطريرك لشبونة السر المقدس. فلما تعجب الإنجليز لمنظر طريق الموكب يصطف على جانبيه الجند والمصلون وكلهم عاري الرأس جاثٍ على ركبتيه، قيل لهم في تفسير هذا المشهد أن مثل هذه

صفحة رقم : 13258

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> البرتغال وبومبال -> يوحنا الخامس

المراسم و عرض الأنية النفيسة والرفاة المعجز في الكنائس، عامل رئيسي في حفظ النظام الاجتماعي بين الفقراء. وكانت محاكم التفتيش خلال ذلك ساهرة على نقاء عقيدة الأمة ودمائها. وقد كبح يوحنا الخامس من سلطان هذه المؤسسة بحصوله على مرسوم من البابا بندكت الثالث عشر يسمح لسجنائها بأن يدافع عنه المحامون ويشترط مراجعة الملك لجميع أحكامها(6). ومع ذلك كان لهذه المحكمة من النفوذ والسلطان ما مكنها من إحراق ستة وستين شخصاً في لشبونة على مدى أحد عشر عاماً (1732-42) من بينهم أنطونيو خوزيه دا سيلفا كبير كتاب العصر المسرحيين البرتغاليين، الذي اتهم بأنه يضمر اليهودية. وفي يوم إعدامه (19 أكتوبر 1739) مثلت إحدى مسرحياته في ملهى لشبونة(7).

وأحب يوحنا الخامس الموسيقى والأدب والفن. فاستقدموا الممثلين الفرنسيين والموسيقيين الإيطاليين إلى عاصمة ملكه. ثم أنشأ أكاديمية التاريخ الملكية. ومول القناة الكبرى التي تمد لشبونة بالماء. وأنفق خمسين مليوناً من الفرنكات ليشيد دير مافرا (1717-32)، الذي يفوق الأسكوريال سعة، والذي ما زال من أروع ما تحويه شبه الجزيرة الأيبيرية من صروح. ورغبة في تزيين داخل الدير استعار من أسبانيا أعظم مصوري القرن البرتغاليين. وكان هذا المصور فرانسكو فييرا -البالغ آنذاك الرابعة والثمانين من عمره يمزج العشق والفن في شاعرية افتتنت بها البرتغال بأسرها. ولد بلشبونة في 1699، ووقع في غرام أجنيز إيلينا دي ليما وهما بعد طفلان. وإذ كان مولعاً بالتصوير أيضاً، فقد ذهب إلى روما في التاسعة ودرس فيها سبع سنين، ولما بلغ الخامسة عشرة فاز بالجائزة الأولى في مسابقة قدمتها أكاديمية القديس لوقا. وحين عاد في 1715 اختاره يوحنا الخامس ليرسم صورة "سر التناول" وروي أنه أتمها في ستة أيام. ثم أنطلق باحثاً عن أجنيز، فرده عنها أبوها النبيل وحبس الفتاة في دير للراهبات. فلجأ فرانسكو إلى الملك، ولكنه أبى أن يتدخل في الأمر. فقصد روما وحصل على مرسوم

صفحة رقم : 13259

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> البرتغال ويومبال -> يوحنا الخامس

بابوي يلغي نذور أجنيز الديرية ويصرح بزواجه منها. ولكن السلطات البرتغالية تجاهلت المرسوم. فتكر فرانسكو في زي بناء بعد أن عاد إلى لشبونة، ودخل الدير وخطف حبيبته وتزوجها. فأطلق عليه أخوها الرصاص، ولكنه شفي من إصابته وغفر لمهاجمه. وعينه يوحنا الخامس مصوراً للبلاد. ولم يكتف بتكليفه تزيين دير مافرا بل وكل إليه تجميل القصور الملكية. وبعد موت أجنيز (1775) أنفق فرانسكو ما بقي من أجله في الاعتكاف الديني وأعمال البر. كم من قصص كهذه تروي مغامرات الروح والدم ضاعت وراء واجهات التاريخ؟

صفحة رقم : 13260

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> البرتغال ويومبال -> يومبال واليسوعيون

2- بومبال واليسوعيون

مات يوحنا الخامس عام 1750 بعد أن قضى ثمانية أعوام يعاني الشلل والعتة، وبدأ ابنه يوسف الأول (خوزيه مانويل) حكماً حافلاً بالأحداث. فعين في وزارته وزيراً للحرب والشؤون الخارجية يدعى سباستيا وخوزيه دي كافالو اي ميللو، الذي يعرفه التاريخ باسم المركزي بومبال، أعظم وأرهب من حكم البرتغال في أي عهد من عهودها. كان قد بلغ الحادية والخمسين من عمره حين ارتقى يوسف العرش. تلقى العلم على أيدي اليسوعيين في جامعة كويمبرا، واكتسب أول شهرته رياضياً وزعيماً مشاعياً لعصابة "الموهوك" التي عاثت فساداً في شوارع لشبونة. وفي 1733 أغرى النبيلة دونا تريزا نورونها بالفرار معه. فتبرأت منها أسرتها، ثم تبينت موهبته فأعانتته على الترقى في حرفة السياسة. وأنته زوجته بثروة صغيرة، وورث مالاً آخر من عم له. وشق طريقه بالوساطة والإلحاح والكفاية الواضحة. وفي 1739 عين وزيراً مفوضاً لدى لندن، واعتكفت زوجته في أحد الأديرة حيث ماتت في 1745 وخلال السنوات الست التي قضاها بومبال في لندن درس الاقتصاد ونظام الحكم الإنجليزيين ولحظ طاعة الكنيسة الأنجلكانية للدولة، ولعله نفى عنه بعض إيمانه الكاثوليكي. ثم عاد إلى لشبونة (1744)، وأوفد مبعوثاً إلى فيينا (1745)، وهناك تزوج

صفحة رقم : 13261

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> البرتغال وبومبال -> بومبال واليسوعيون

ابنة أخ للمرشال داون الذي كتب له الظفر بالخلود لأنه هزم فردريك مرة، وقد ظلت عروسه الجديدة وفية له طوال ما أحرزه من انتصارات وما مني به من هزائم. وكان يوحنا الخامس عديم الثقة به لأن له "قلباً فضاء" (8). ولأنه "سليل أسرة قاسية محبة للثأر" (9) ولأن فيه القدرة على أن يتحدى ملكاً. ومع ذل استدعي بومبال إلى أرض الوطن عام 1749، ورفق إلى منصب الوزارة بفضل تأييد اليسوعيين. وثبته يوسف الأول في وظيفته. وسرعان ما أتاح له ذكاؤه المقرون بالجد والاجتهاد أن يسيطر على الوزارة الجديدة. كتب قائم بالأعمال فرنسي يقول "يمكن اعتبار كافالو الوزير الأول، فهو سريع البت وافر النشاط لا يعتريه كلل. ولقد كسب ثقة مولاة الملك، ولم يظفر بها أحد أكثر منه في جميع شؤون السياسة" (10). وظهر تقوقه واضحاً جلياً في الزلزال الكبير الذي زلزل لشبونة في أول نوفمبر 1755. ذلك أنه في الساعة 9.40 صباح عيد جميع القديسين بينما كان معظم السكان يصلون في الكنائس، زلزلت المدينة بهزات أربعة أحالت نصفها أنقاضاً، وقتلت أكثر من خمسة عشر ألف شخص، ودمرت أكثر الكنائس، وأبقت على معظم المواخير (11) وعلى بيت بومبال. وهرع كثير من السكان فزعاً إلى شواطئ تاجه، ولكن موجة مد بلغ ارتفاعها خمس عشرة قدماً أغرقت مزيداً من الأنفس. وفي غمار الفوضى التي ضربت أطناها بدأ السفلة من الغوغاء يسرقون ويقتلون وهم آمنون. أما الملك الذي لم يفلت هو نفسه من الموت إلا بشق الأنفس، فقد طلب إلى وزرائه أن يشيروا عليه بما ينبغي صنعه. ويقال أن بومبال أجاب "علينا أن ندفن الموتى ونقدم الغوث للأحياء". وأطلق يوسف يده، واستعمل بومبال سلطته بما تميز به من همة وسرعة. فعين الجند لحفظ النظام وأقام الخيام والمعسكرات لإيواء من باتوا بغير مأوى. وأمر بأن يشنق فوراً كل من وجد يسرق الموتى. ثم حدد أسعار المون بما لا يزيد على أسعارها

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> البرتغال وبومبال -> بومبال واليسوعيون

السائدة قبل الزلزال، وألزم جميع السفن الوافدة أن تفرغ شحناتها من الطعام وتبعتها بتلك السعار. وأعانه تدفق الذهب البرازيلي الذي لم ينضب، فأشرف على إعادة بناء لشبونة سريعاً بطرق مشجرة عريضة وشوارع جيدة الرصف والإضاءة. وقلب المدينة كما نراه اليوم من صنع المعماريين والمهندسين الذين اشتغلوا تحت إشراف بومبال (12). وكان لنجاحه في هذه الكارثة التي أضعفت معنوية الأمة الفضل في ترسيخ قدمه في الوزارة واضطلع الآن بعملين بعدي الأثر: أولهما تخليص الحكم من سيطرة الكنيسة، والآخر تحرير الاقتصاد من سيطرة بريطانيا. وتطلبت المهمتان رجلاً أوتي صلابة الفولاذ إلى صفات الوطنية والإباء ومضاء العزيمة التي لا تعرف شفقة أو رحمة. وإذا كان عداؤه للأكليركية قد تركز على اليسوعيين فإنما السبب الأول هو أنه توجس منهم إثارة المقاومة لتملك البرتغال للأقاليم البارجوانية التي كان اليسوعيين منذ عام 1605 ينظمون فيها أكثر من 100.000 هندي في إحدى وثلاثين مستوطنة، على أساس شبيه بالأنظمة الشيوعية في خضوع شكلي لأسبانيا (13). وكان الرواد من الأسبان والبرتغال قد سمعوا بوجود الذهب (الأسطوري تماماً) في تربة باراجوي. وشكا التجار من أن الآباء اليسوعيين يحتكرون تجارة الصادر الباراجوي ويضيفون الأرباح إلى أموال طانفتهم. ففي 1750 فاوض بومبال لعقد معاهدة نزلت البرتغال بمقتضاها لأسبانيا عن مستعمرة سان سكرومنتو الغنية (على مصب الريودي لابلاتا) بديلاً عن سبع من المستوطنات اليسوعية المجاورة للحدود البرازيلية. واشترطت المعاهدة أن يهاجر الثلاثون ألف هندي المقيمون في هذه المستوطنات إلى أقاليم أخرى ويتخلوا عن الأرض للبرتغال الوافدين. وأمر فرديناند السادس ملك أسبانيا بيسوعي باراجوي بالرحيل عن المستوطنات وبإصدار الأمر لرعاياهم بالرحيل هدوء. وزعم اليسوعيون أنهم امتثلوا لهذه الأوامر، أما الهنود فقاموا في إصرار غاضب عنيف اقتضى التغلب عليه جيشاً برتغالياً ثلاث سنين. واتهم بومبال جماعة اليسوعيين بتشجيع هذه المقاومة سراً.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> البرتغال وبومبال -> بومبال واليسوعيون

فعقد العزم على أن ينهي كل مشاركة لليسوعيين في الصناعة والتجارة والحكومة البرتغالية. فلما أدرك يسوعيون البرتغال نيته تضافت جهودهم للإطاحة به. وكان قائدهم في هذه الحركة جابرييل مالا جريداً، الذي ولد بمنادجو (على بحيرة كومو) عام 1689، وتميز على أقرانه في المدرسة بما مارس من غض يديه حتى يدميها، وكان يقول أنه بهذه الطريقة يعد نفسه لتحمل آلام الاستشهاد. ثم التحق بجمعية اليسوعيين، وأبحر إلى البرازيل مبعوثاً. وراح يبشر الهنود في الأدغال بالإنجيل من 1724 إلى 1735. وأفلت من الموت عدة مرات من أكلة لحوم البشر، ومن التماسيح، ومن الغرق في السفينة، ومن

المرض. وابتضت لحيته في بواكير كهولته. ونسبت إليه قوى خارقة، وكانت الجموع المترقبة تنتبعه أينما ظهر في مدن البرازيل. وبنى الكنائس والأديرة، وأسس المدارس اللاهوتية. وفي 1747 قدم على لشبونة في طلب المال من الملك يوحنا. وحصل عليه، ثم أبحر قافلاً إلى البرازيل وأسس المزيد من البيوت الدينية، وكثيراً ما شارك بيديه في أعمال البناء. وفي 1753 عاد إلى لشبونة ثانية، لأنه كان قد وعد بأن يعد الملكة الأم للقاء ربها. وقد عزا زلزال 1755 لخطايا الشعب، وطالب بإصلاح الأخلاق، وتنبأ مع غيره من أفراد طائفته بمزيد من الزلازل إن لم تتصلح الأخلاق. وأصبح بيت خلوته الدينية بؤرة للمؤامرات ضد بومبال. وكان بعض أسر النبلاء ضالعين في هذه المؤامرات. واحتجوا بأن ابن مالك أرض ريفي حقير قد سود نفس على البرتغال، وقبض على مقاليد حياتهم ومقدراتهم. وكان أحد هذه الأحزاب الأرستقراطية تحت زعامة دوم خوزيه دي ماسكارينهاس، دوق أفيرو، وآخر يرأسه ابن أخي الدوق وهو المركيزة دونا ليونور، إحدى زعيمات المجتمع البرتغالي، تلميذة شديدة التحمس للأب مالا جريداً كثيرة التردد عليه. وكان أكبر أبنائها، الدوم لويز برناردو، "مركز طاوره الأصغر" متزوجاً من عمته فلما

صفحة رقم : 13264

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> البرتغال وبومبال -> بومبال واليسوعيون

رحل لويز إلى الهند جندياً، أصبحت هذه "المركيزة الصغيرة" الفاتنة الرائعة الجمال خليعة ليوسف الأول، وهذا أيضاً لم ينسه قط آل أفيرو وطابوره. وافقوا اليسوعيين صادقين على أنه لو أزيح بومبال لتحسن الموقف. ورد بومبال بإقناع يوسف بأن جمعية اليسوعيين تشجع سراً المزيد من الثورة في بارجواي، وأنها لا تتآمر على الوزارة فحسب بل على الملك أيضاً. ففي 19 سبتمبر 1757 أقصى مرسوم ملكي عن البلاط أباء اعتراف الأسرة المالكة اليسوعيين. وأمر بومبال ابن عمه، فرانسكو دي المادا إي مندونسا، المبعوث البرتغالي لدى الفاتيكان، بالآيظن بالمال في سبيل تشجيع وتمويل الحزب المناوئ لليسوعيين في روما. وفي أكتوبر قدم المادا لبندكت الرابع عشر قائمة بالتهمة الموجهة إلى اليسوعيين: اتهموا بأنهم "ضحوا بكل العهود والواجبات المسيحية، والدينية، والطبيعية، والسياسية في رغبة عمياء.. في جعل أنفسهم سادة على الحكومة". وبأن الجمعية مدفوعة "بشره لا يشيع لاقتناء الأموال الأجنبية وتكديسها، بل حتى لاغتصاب أملاك الملوك (14)"، وفي أول إبريل 1758 أمر البابا الكردينال دي سالدانها، بطريك لشبونة، بالتحقيق في هذه التهم. وفي 15 مايو نشر سالدانها مرسوماً يعلن أن اليسوعيين البرتغال يمارسون التجارة. "مخالفين بذلك جميع القوانين السماوية والبشرية"، وأمرهم بالكف عنها. وفي 7 يونيو، بتحريض من بومبال في أغلب الطن، وأمرهم بالامتناع عن سماع الاعترافات أو عن الوعظ. وفي يوليو نفي يسوعي لشبونة إلى مسافة سنتين فرسخاً عن القصر الملكي: وخلال ذلك (3 مايو 1758) مات بندكت الرابع عشر، فعين خليفته كلمنت الثالث عشر لجنة تحقيق أخرى، قررت أن اليسوعيين براء من التهم التي رماها بها بومبال (15). وخامر الناس بعض الشك في أن يوسف الأول سيؤيد وزيره في هجومه على اليسوعيين، ولكن تحولاً فجائياً في الأحداث دفعه الملك دفعاً تاماً إلى صف بومبال. ذلك أن يوسف كان في ليلة الثالث من سبتمبر 1758 قافلاً إلى قصره القريب من بيليم من لقاء غرام سري مع مركيزة طاوره

صفحة رقم : 13265

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> البرتغال وبومبال -> بومبال واليسوعيون

في أغلب الظن (16). وقبيل منتصف الليل انبعث ثلاثة رجال مقنعين من عقد قناة وأطلقوا المار على المركبة دون أن يصبوا هدفهم. وأطلق السائق لجواده العنان، وما هي إلا لحظة حتى انطلقت رصاصتان من كمين آخر، وأصابت الأولى السائق والأخرى الملك في كتفه وذراعه اليمينين. وقررت محكمة تحقيق لاحقة أن كميناً ثالثاً أعده أفراد من آل طابوره كان ينتظر المركبة على مسافة أبعد على الطريق العام إلى بيليم. ولكن يوسف أمر السائق أن يحدد عن الطريق الرئيسي ويقصد بيت جراح الملك، الذي ضمد جراح الرجلين. ولعل الأحداث التالية التي أحدثت ضجة في جميع أرجاء أوربا، كانت تختلف كل الاختلاف لو نجح الكمين الثالث في الاغتيال المبيت.

وتصرف بومبال بتدبير ودهاء. فنفتت إشاعات الهجوم رسمياً، وعزى اعتكاف الملك المؤقت إلى كبوة كباها، وظل جواسيس الوزير ثلاثة أشهر يجمعون الأدلة. فوجدوا رجلاً يشهد بأن انطونيو فريرا استعار بندقية منه في 3 أغسطس وردها إليه في 8 سبتمبر. وقبل أن رجلاً قال أن فريرا استعار مسدساً منه في 3 سبتمبر ورد به بعد أيام. وقال الشاهدان أ، فريرا في خدمة دوق أفيرو وشهد سلفادور دوراو؛ وهو خادم في بيليم، بأنه في ليلة الهجوم، بينما كان في لقاء خارج بيت أفيرو، سمع عفواً أفراداً من أسرة أفيرو وعائدين من مغامرة ليلية.

وأعد بومبال لقضيته في حيلة وجرأة. فضرب صفحاً عن الإجراء الذي يتطلبه القانون، والذي كان سيحاكم الأشراف المشبوهين أمام محكمة من كبار النبلاء؛ ومحكمة كهذه لن تدينهم أبداً. وبدلاً من هذا، أصدر الملك في 9 ديسمبر مرسومين، وكان هذا الإصدار أول كشف علني عن الجريمة: فعين المرسوم الأول الدكتور بدور جونسا لفييس بيريرا قاضياً يرأس محكمة خاصة بقضايا الخيانة العظمى، وأمره الآخر بأن يميظ اللثام عن المسؤولين عن محاولة قتل الملك ويقبض عليهم ويعدهم. وخول جونسا لفييس بيريرا سلطة إغفال جميع الأشكال المألوفة للمحاكمات، وأمرت المحكمة

صفحة رقم : 13266

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> البرتغال وبومبال -> بومبال واليسوعيون

بنتفيذ أحكامها يوم إعلانها. وأضاف بومبال إلى المراسيم بياناً رسمياً علق في جميع أرجاء المدينة، يروي أحداث 3 سبتمبر، ويعد بمكافأة أي شخص يقدر الأدلة التي تعين على القبض على القتلة (17).

وفي 13 ديسمبر قبض 13 موظفاً حكومياً على دوق أفيرو، وعلى ابنه المركزي جوفيا البالغ من العمر ستة عشر عاماً، وعلى خادم أنطونيو فريرا، وعلى مركيزي طابوره الأب والابن، وعلى المركيزة طابوره الأم، وعلى كل خدم الأسرتين، وعلى خمسة نبلاء آخرين. وطوق الجند في ذلك اليوم جميع الكليات اليسوعية، وأودع السجن ما لا يجردا واثنا عشر آخرون من زعماء اليسوعيين. وتعجلاً للفصل في الأمر، أباح مرسوم ملكي صدر في 20 ديسمبر (بخلاف ما جرى عليه العرف في البرتغال) استعمال التعذيب لاستخلاص الاعترافات من المتهمين. وفحص خمسون سجيناً بالتعذيب أو التهديد بالتعذيب. وورطت عدة اعترافات دوق أفيرو، واعترف هو نفسه بذنبه تحت وطأة التعذيب، واعترف أنطونيو فريرو أنه أطلق المار على المركبة، ولكنه أقسم أنه لم يكن يعلم أن ضحيته المحتمل هو الملك. وتحت وطأة التعذيب عرض عدة خدم تلك الأسرة بجملتها للخطر، واعترف المركزي الابن باشتراكه، أما المركزي

الأب الذي عذب حتى كاد يلفظ أنفاسه فقد أنكر أنه مذنب. وكان بومبال ذاته يحضر فحص الشهود والمسجونين. وكان قد أمر بتفتيش البريد، فزعم الآن أنه وجد ضمنه أربعاً وعشرين رسالة كتبها دوق أفيرو، وعدة أفراد من آل طاپوره، ومالاجريدا وغيره من اليسوعيين، لإحاطة أصدقائهم أو أقربائهم في البرازيل بالمحاولة الفاشلة، واعدتهم بمزيد من الجهود لقلب الحكومة. وفي 4 يناير 1759 عين الملك الدكتور أورزبيبو تافاريس دي سكويرا للدفاع عن المتهمين. ودفع سكويرا بأن الاعترافات التي انتزعت تحت التعذيب عديمة القيمة في الدلالة على الجريمة، وأن جميع النبلاء المتهمين يستطيعون إثبات غيابهم ليلة الجريمة. على أن المحكمة قضت بأن الدفاع غير مقنع، ورأت أن الرسائل المعترضة صحيحة وأنها تؤيد الاعترافات، وفي 12 يناير حكمت المحكمة بأن جميع المتهمين مذنبون.

صفحة رقم : 13267

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> البرتغال وبومبال -> بومبال واليسوعيون

وأعدم تسعة منهم في 13 يناير في ميدان بيليم العام، وأول من تقرر إعدامه كان مركيزة طاپوره الأم. فأنحنى الجلاد ليوثق قدميها وهي على المقصلة فدفعته قائلة "لا تمسني إلا لتقتلني" (18) وبعد أن أكرهت على رؤية العدة التي سيموت بها زوجها وابناها وهي دولاب التعذيب، والمطرقة والحطب-ضرب عنقها. وحطم ولدائها على الدولاب ثم شنقا، وظلت جثتها على المشنقة حين صعد إليها دوق أفيرو ومركز طاپوره الأب. وذاقا مرارة الضربات المحطمة ذاتها، وترك الدوق ليطول عذابه حتى تم إعدامه آخر المتهمين-وهو أنطونيو فرييرا الذي أحرق حيا. ثم أحرقت جميع الجثث وذر رمادها في نهر تاجه. وما زال الجدل قائماً في البرتغال حول هؤلاء النبلاء، هل تعمدوا حقاً قتل الملك الأم لا؟ هذا مع التسليم بعدائهم لبومبال.

أكان اليسوعيون ضالعين في تلك المحاولة؟ لم يكن هناك في أن مالاجريدا في غضبته المضربة كان قد تنبأ بسقوط وبموت الملك وشيكاً، (19) ولم يكن هناك شك في أنه هو وآخرون من اليسوعيين كانوا قد اجتمعوا مرات بأعداء الوزير من الأشراف. وكان قد دل ضمناً على علمه بمؤامرة ما بكتابته إلى إحدى نبيلات البلاط يرجوها أن تنبه يوسف إلى الحذر من خطر وشيك. فلما سئل وهو في السجن كيف علم بهذا الخطر أجاب في "كرسي الاعتراف" (20). وفي غير هذا (كما يقول مؤرخ من خصوم اليسوعيين) "ليس هناك دليل إيجابي يربط اليسوعيين بهذا الاعتداء" (12). ولكن بومبال اتهمهم بإثارة حلفائهم بوعظهم وتعاليمهم إثارة دفتهم إلى محاولة الاغتيال. وأقنع الملك أن الموقف يتيح للملكية الفرصة لتعزيز قوتها إزاء الكنيسة. وعليه ففي 19 يناير أصدر يوسف مراسيم بضم جميع ممتلكات اليسوعيين في المملكة، وبالزام جميع اليسوعيين ببيوتهم أو مدارسهم حتى يفصل البابا في التهم الموجهة إليهم. واستعمل بومبال أثناء ذلك مطبعة الحكومة لطبع-ويوزع عماله على نطاق واسع في الداخل والخارج-كراسات نبسط الحجج التي تدين الأشراف واليسوعيين، وكانت هذه فيما يبدو أول مرة استخدمت فيها حكومة من الحكومات المطبعة

صفحة رقم : 13268

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> البرتغال وبومبال -> بومبال واليسوعيون

لتفسر تصرفاتها للأمم الأخرى. وربما كان لهذه المنشورات بعض الأثر في المعاونة على طرد اليسوعيين من فرنسا وأسبانيا.

وفي صيف 1759 أستأذن بومبال كلمنت الثالث عشر في تقديم اليسوعيين المعتقلين للمحاكمة أمام محكمة الخيانة العظمى، وزاد بالافتراح بأن يحاكم جميع الكنسيين المتهمين بجرائم ضد الدولة، منذ الآن، أمام البابا بعزم الملك على طرد اليسوعيين من البرتغال، وأعربت عن الأمل في أن يوافق الباب على هذا الإجراء باعتباره إجراء تبرره تصرفاتهم، وضرورياً لحماية الملكية. وصدمت هذه الرسائل كلمنت، ولكنه خشي أن قاومها صراحة أن يفتح بومبال الملك بقطع الصلات جميعها بين الكنيسة البرتغالية والبابوية. وتذكر ما فعله هنري الثامن عشر في إنجلترا، وكان يعرف أن فرنسا أيضاً تزداد عداة لجماعة اليسوعيين، ففي 11 أغسطس بعث بالإذن بمحاكمة اليسوعيين أمام المحكمة المدنية، ولكنه قصر بوضوح موافقته على تلك الحالة بعينها. ثم وجه إلى الملك نداء شخصياً يدعو للرفقة بالقساوسة المتهمين، وذكر يوسف بإنجازات هذه الطائفة الماضية، وأعرب عن رجائه بألا يؤخذ جميع اليسوعيين البرتغاليين بجريرة فئة قليلة منهم.

ولكن نداء البابا فشل. ففي 3 سبتمبر 1759- وكان اليوم ذكرى الاغتيال المبييت- أصدر الملك مرسوماً ضمنه قائمة طويلة بجرائم منسوبة لليسوعيين، وأمر بما يأتي:

"إن هؤلاء الرهبان، نظراً إلى فسادهم وسقوطهم المؤسف بعيداً عن رهبنتهم المقدسة، ولما أصابهم عن عجز واضح عن العودة إلى شعائرها بسبب هذه الرذائل البشعة المتأصلة، يجب أن ينفوا نفيًا حقيقياً فعلاً. وأن يحاكموا ويطردوا من جميع أهلاك جلالته، باعتبارهم عصاة سيئي السمعة وخونة، وأعداء، اعتدوا على شخصه الملكي وعلى مملكته. ويقتضي الأمر ألا يقبلهم أي شخص كائناً ما كانت مكانته أو وضعه في أي

صفحة رقم : 13269

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> البرتغال وبومبال -> بومبال واليسوعيون

من ممتلكاته وألا يتصل بهم بتاتاً سواء بالحديث أو المراسلة، وإلا كان جزاؤه الموت الذي لا رجوع فيه(22). واستثنى من المرسوم اليسوعيين الذين لم يندروا أنفسهم النذر الوثيق للرهبنة، والذين يجب عليهم أن يلتمسوا إعفائهم من نذورهم الأولية. وصادرت الدولة ثروة اليسوعيين كلها، ومنع المنفيون من أن يأخذوا معهم غير ملابسهم الشخصية(23). واقتدوا من جميع أرجاء البرتغال في مركبات أو سيراً على الأقدام إلى سفن أقلتهم إلى إيطاليا. وتم رحيلهم على هذا النحو من البرازيل وغيرها من الممتلكات البرتغالية. ووصلت أول شحنة من المنفيين إلى تشيفيناكيا في 24 أكتوبر، ورثى لحالهم حتى ممثل بومبال هناك. كان بعضهم ضعيفاً لكبره، وبعضهم يكاد يتضور جوعاً، وبعضهم مات في الطريق. ورتب قائد الجماعة، لورنتسو ريكي، استقبال الأحياء منهم في بيوت يسوعية في إيطاليا، وشارك الأخوة الدومنيكان في استضافتهم. وفي 17 يونيو 1760 أوقفت الحكومة البرتغالية العلاقات الدبلوماسية مع الفاتيكان.

وبدا نصر بومبال نصراً مؤزراً، ولكنه كان عليماً بأنه نصر لا تحبه الأمة، وأفضى بع الشعور بعدم الأمان إلى توسيع سلطته إلى الدكتاتورية الكاملة، فبدأ حكماً من الاستبدادية والإرهاب حتى عام 1777. وكان جواسيسه يبلغونه بكل ما يكشفونه من ألوان المقاومة لسياساته أو أساليبه، وسرعان ما اكتظت سجون لشبونة بالمسجونين السياسيين. وقبض على الكثيرين من الأشراف والكهنة لاتهامهم بمؤامرات جديدة على الملك، أو باشتراكهم في المؤامرة القديمة. وأصبحت قلعة جنكيرا، المتوسطة الموقع بين لشبونة وبيليم، سجنًا خاصاً للأشراف زج فيه كثير منهم حتى قضاوا

نحبهم. وفي سجون أخرى أودع اليسوعيون المجلوبون من المستعمرات والمتهمون بمقاومة الحكومة وظل بعضهم نزيلها تسعة عشر عاماً.
أما مالاجريدا فقد ظل يذوي في سجنه اثنين وثلاثين شهراً قبل أن

صفحة رقم : 13270

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> البرتغال وبومبال -> بومبال واليسوعيون

يمثلاً أمام المحكمة. ولسى الشيخ سجنه بتأليفه كتاب "حياة القديسة حنة البطولية، أم مريم، أملتها القديسة حنة ذاتها للأب المبجل مالاجريدا"، وصور المخطوط بأمر بومبال، وقد وجد فيه عدة سخافات يمكن أن توصف بالهرطقة: فقد قال مالاجريدا أن القديسة حنة حبل بها كما حبل بمريم، دون أن تلوثها الخطيئة الأصلية، وأنها كانت تتكلم وتبكي في بطن أمها(24). وبعد أن عين بومبال أخاه بول دي كارفالو رئيساً لديوان التفتيش في البرتغال، أمر بأن يستدعى مالاجريدا للمثول أمامه، وكتب بيده ورقة اتهام تتهم اليسوعيين بالجشع، والرياء، والدجل، وانتهاك المقدسات، وبتهددهم الملك بالتنبؤ مراراً بموته. وإذا كان مالاجريدا-الذي بلغ الآن الثانية والسبعين- قد أصبح نصف مخبول لشدة ما كابد من عذاب، فقد أخبر قضاة التفتيش بأنه تكلم مع القديس أغناطيوس لويولا والقديسة تريزا(25). وأراد قاضٍ منهم لأن يقف المحاكمة إشفافاً على الشيخ فحي بأمر بومبال. وفي 12 يناير 1761 حكمت المحكمة المقدسة بأن مالاجريدا مذنب بالهرطقة، والتجديف، والضلال، وبخداع الشعب بما زعم من إعلانات إلهية له. ومد في أجله ثمانية شهور آخر. وفي 20 سبتمبر سيق إلى المشنقة في البراسا روسيو، فشنق، وأحرق مشدوداً إلى خاروق. وقال لويس الخامس عشر معقّباً بعد سماعه بالإعدام "الكأني أحرقت الشيخ المخبول نزيل مستشفى البنتيت (ميزون) الذي يزعم أنه الله الأب(26). وكان رأي فولتير في الحادث وهو يسجله "أنه حماقة وسخف مقرونان بشر غاية في البشاعة(27)". ولم يرق جماعة الفلاسفة الفرنسيين ما طرأ على بومبال من تطور، بعد أن كان رأيهم فيه في 1758 أنه "مستبد مستنير". لقد رحبوا بالإحاطة باليسوعيين، ولكنهم استنكروا الأساليب التعسفية التي أنتجها الدكتاتور، والنغمة العنيفة التي سرت في نشراته، والوحشية التي لوثت عقوباته. وصدمتهم معاملة اليسوعيين خلال ترحيلهم، وإعدام الأسر العريقة بالجملة، والمعاملة غير الإنسانية التي لقيها مالاجريدا. على أنه لم

صفحة رقم : 13271

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> البرتغال وبومبال -> بومبال واليسوعيون

وصلنا إي سجل يثبت احتجاجهم على حبس أسقف كويمبرا ثماني سنوات لأنه أدان لجنة بومبال للرقابة على المطبوعات التي سمحت بتداول مؤلفات متطرفة، كقاموس فولتير الفلسفي وعقد روسو الاجتماعي.

بيد أن بومبال نفسه لم يبشر بهرطقات، وكان يختلف إلى القديس بانتظام. ولم يكن هدفه القضاء على الكنيسة بل إخضاعها للملك، فلما وافق كلمنت الرابع عشر عام 1770 على السماح للحكومة بالترشيح لمناصب الأسقفية، اصطلح مع الفاتيكان. وأسعدت يوسف الأول وقد دنا أجله-فكرة الظفر بعد هذا كله بكامل البركات الكهنوتية حين يموت. وبعث البابا بقبعة الكردينالية إلى بول أخي بومبال، وأتحف بومبال نفسه بخاتم يحمل صورة البابا، ونمنمة إظهارها من الماس، ورفات كامل لأربعة قديسين.

صفحة رقم : 13272

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> البرتغال وبومبال -> بومبال المصلح

3- بومبال المصلح

وترك الدكتاتور أثناء ذلك بصمته على اقتصاد البرتغال وإدارتها وحياتها الثقافية. وأعاد تنظيم الجيش بمساعدة الضباط الإنجليز والألمان، وقد صد هذا الجيش غزوا أسبانيا في حرب السنين السبع. وانتهج ما أنتجه ريشليو في فرنسا في القرن السابع عشر، فحد من سلطان الأرستقراطية الممزق الأمة، ومركز الحكومة في ملكية تستطيع أن تمنح هذه الأمة الوحدة السياسية، والتطور التعليمي، وبعض الحماية من تسلط الكنيسة وكف النبلاء بعد إعدام آل طابوره عن التأمير على الملك، وخضع الأكليروس للدولة بعد طرد اليسوعيين. وفي فترة الجفوة مع الفاتيكان كان بومبال يعين الأساقفة، وكان أساقفته يرسمون القساوسة دون الرجوع إلى روما. وحد مرسوم ملكي من اقتناء الكنيسة للأرض، وقيود حرية الرعايا البرتغاليين في تحميل تركاتهم بوصايا لإقامة القديس(18) وأغلق الكثير من الأديرة وحظر على الباقي منها قبول رهبان جدد تقل أعمارهم عن الخامسة والعشرين. وأخضع ديوان

صفحة رقم : 13273

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> البرتغال وبومبال -> بومبال المصلح

التفتيش لإشراف الحكومة. وحولت محكمته إلى محكمة عامة خاضعة للقواعد التي تخضع لها محاكم الدولة، وجردت من سلطات الرقابة على المطبوعات، وألغى ما جرت عليه من تمييز بين قدامى المسيحيين وجدهم (أي اليهود أو المغاربة الذين دخلوا في المسيحية وذريتهم)، لأن بومبال افترض أن في دماء معظم الأسبان والبرتغال الآن عرقاً سامياً(29). وبمقتضى مرسوم صدر في 25 مايو 1773 أصبح جميع الرعايا البرتغال صالحين للاختيار للمناصب المدنية والعسكرية والكنسية(30)، ولم تحرق محكمة التفتيش إنساناً بعد إحراق مالاجريدا عام 1761(31).

وفي تلك السنة ألغى بومبال ثلاثة أرباع الوظائف الصغيرة التي كانت تعوق سير القضاء، وبسرت الطريق إلى المحاكم وجعل التقاضي أقل كلفة. وفي 1761 أعاد تنظيم الخزانة، وألزمها بموازنة حساباتها كل أسبوع، وأمر بأن تراجع إيرادات ومصروفات البلديات كل سنة، وحقق بعض التقدم في أشد الإصلاحات كلها عسراً وهو خفض عدد الموظفين في البلاط الملكي والحد من الإسراف في نفقاته. فتخلص من الثمانين طاهياً الذين كانوا يطعمون يوحنا الخامس وبطانته، واضطر يوسف الأول أن يقنع بعشرين فقط. وبمقتضى مرسوم صدر في 25 مايو 1773 ألغى الرق في الواقع في البرتغال ولكن سمح باستمراره في المستعمرات. وامتدت يد المصلح إلى كل ركن. فبذل الدعم الحكومي للزراعة ومصايد الأسماك، وأدخل دودة القز في المقاطعات الشمالية. وأنشأ الفواخير، ومصانع الزجاج، ومصانع القطن والورق، لينهي اعتماد البرتغال على استيراد هذه الحاصلات من الخارج. وألغى المكوس الداخلية في انتقال السلع، وأقام التجارة الحرة بين البرتغال ومستعمراتها الأمريكية. وأسس كلية للتجارة يدرّب البرتغال من الأجانب الذين يتجرون فيها وينقلونها، وفي هذا فشل - أو فشلت البرتغال - لأن

صفحة رقم : 13274

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> البرتغال وبومبال -> بومبال المصلح

تجارة البرتغال في 1780 كان أكثرها لا يزال في أيدي الأجانب لا سيما البريطانيين. واقتضى طرد اليسوعيين بناء التعليم من جديد بناء شاملاً. فنشرت في البلاد المدارس الأولية والثانوية الجديدة التي بلغ عددها 837 - وحولت الكلية اليسوعية في لشبونة إلى كلية للإشراف يديرها العلمانيون. ووسع منهج الدراسة في كويمبرا وأضيفت إليه مقررات في العلوم، وأقنع بومبال الملك بتشبيد دار للأوبرا ودعوة المغنين الإيطاليين لقيادة الفرق. وفي 1757 أسس "أركاديا لشبونة" لتشجيع الأدب. وحظي الأدب البرتغالي طوال نصف قرن مثير (1755-1805) بحرية نسبية في الأفكار والأشكال. وبعد أن حرر نفسه من النماذج الإيطالية، أفر بسحر فرنسا، وأحس بنسائم تهب عليه من حركة التنوير. وظفر انطونيو دينيز داكروز أي سيلفا بالشهرة في وطنه كله بكتابة هجاء سماه "أو هسوبي" (1772)، ووصف فيه في ثمانية أقسام شجاراً بين أسقف وكبير كهنة، وترجم خواو أنستاسيودا كونها بوب فولتير، وعلى هذه الترجمة أدانته محكمة التفتيش (1778) عقب سقوط بومبال. وأولع فرانسكو مانويل دوناكيمينتو بالكتب، وكان ابن عامل في تفرغ السفن وشحنها، وأصبح قطباً لجماعة تمردت على الأكاديمية الأركادية لأنها عائق لتطور الشعر القومي. وفي 1778 أمرت محكمة التفتيش بالقبض عليه (مغتتمة ثانية فرصة سقوط بومبال) متهمه إياه بالولع بالفلاسفة المحدثين من إتباع العقل الطبيعي "ففر إلى فرنسا، حيث أنفق تقريباً كل سنه الواحدة والأربعين الباقية من عمره، وهناك كتب معظم قصائده التي تنقد بحب الحرية والديمقراطية، وفيها قصيدة غنائية "الحرية الولايات المتحدة واستقلالها" وقد عدّه أنصاره إماماً للشعر البرتغالي لا يميزه فيه غير كامونيس. وحوى مجلد في قصائد الحب يسمى "أماريليا" أرشق وأرخم شعر العصر، الذي خلفه توماز أنطونيو جونزاجا الذي عانى السجن (1785-88) بتهمة التآمر السياسي ومات في المنفى، أما خوزيه

صفحة رقم : 13275

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> البرتغال وبومبال -> بومبال المصلح

أجوستينو دي ماسيدو، الراهب الأوغسطيني الذي جرد لفسقه، فقد اتخذ في جراً، لقصيدته "أو أورينتي" الموضوع الذي اتخذ من قبل كاموئيس وهو رحلة فاسكو داجاما إلى هند. وكان يرى قصيدته أعظم من اللويزياده "والإلياذة" ولكنهم يؤكدون أنها عمل كنيبي. وأطرف منه هجاء كتبه في ستة أقسام "أوس بوروس" شهر فيه ماسيدو صراحة برجال ونساء من جميع المراتب، الأحياء منهم والأموات. وكان ألد خصومه مانويل ماريا باربوزا دي بوساجي، الذي سجنته محكمة التفتيش (1797) بتهمة إذاعة الأفكار الفولتيرية في شعره وتمثلياته. وقد رده إعدام ماري أنطوانيت إلى المحافظة في الدين والسياسة، فاستعاد تدينه أيام الشباب، ورأى في البعوضة دليلاً على وجود الله (32). أما الحديث العظيم في تاريخ الفن في حكم بومبال فهو التمثال الذي صنع ليوسف الأول، والذي مازال قائماً في ميدان الحصان الأسود بلشبونة. وقد صممه يواكيم مكادو دي كاسترو، وصبه بالبرونز تر تولوميو داكوستا وهو يمثل الملك ركباً جواداً مطهماً، ظافراً فوق أفاعي ترمز إلى القوى الشريرة التي غلبها في حكمه. وجعل بومبال من إزاحة الستار عن هذا الأثر (6 يونيو 1775) احتفالاً بوزارته المنتصرة. فاصطف جنود الجيش في الميدان، واجتمع رجال السلك السياسي، والقضاء، ومجلس الشيوخ وغيرهم من كبار القوم مرتدين الملابس الرسمية، ثم أقيمت الحاشية، ثم الملك والملكة، وأخيراً تقدم بومبال وأزاح الستار عن التمثال والقاعدة الضخمة التي صورت ميدالية عليها الوزير لابساً صليب المسيح. وفهم الكل إلا الملك أن الموضوع الحقيقي الاحتفال هو بومبال. وبعد أيام من إزاحة الستار أرسل إلى يوسف الأول وصفاً وردي اللون للتقدم الذي حققه بومبال منذ 1759: نشر التعليم والإمام بالقراءة والكتابة، ونمو الصناعة والتجارة، وتطور الأدب والفن، وارتفاع مستوى المعيشة بصفة عامة، على أن توخي الصدق لا بد أن تختزل الكثير من وصفه هذا، فالصناعة والتجارة كانتا تنموان، ولكن في بطء شديد،

صفحة رقم : 13276

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> البرتغال وبومبال -> بومبال المصلح

وكانتا تعانيان المصاعب المالية، أما الفنون فركدت، وكان نصف لشبونة لا يزال (1774) في الخرائب التي سببها زلزال 1755. وكان تعلق الشعب الفطري بأهدب الدين يعيد سلطان الكنيسة إلى سابق عهده. وكان صلف بومبال وأساليبه الدكتاتورية تخلق له أعداء جدداً كل يوم. وكان قد اقتنى لنفسه ولأقربائه ثروة طائلة وبنى لنفسه قصرأً غالي التكلفة. ولم تكد توجد أسرة نبيلة في المملكة بغير عضو محبوب من أعضائها يذوي غي غياهب السجن. وكان الناس في طول البرتغال وعرضها يصلون ويتضرعون إلى الله سراً بأن يسقط بومبال عن عرشه.

صفحة رقم : 13277

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> البرتغال وبومبال -> انتصار الماضي

4- انتصار الماضي

في سنة 1775 بلغ الملك الستين. وكانت العلل الخليلات قد أشبته قبل أو أنه، وراح ينفق الساعات متأملاً في الخطيئة والموت. وسأل نفسه أكان على حق في انتهاج سياسات وزيره، وهل كان منصفاً لليسوعيين؟ ثم ما خطب أولئك الأشراف والقساوسة نزلاء السجون؟ بوده أن يغفر لهم وهو يطلب الآن المغفرة لنفسه. ولكن أنى له أن يذكر فكرة لهذه لبومبال؟ وفي 12 نوفمبر 1776 أصيب بنوبة فالج، وكان البلاط يفتبط توقعاً لحكم ملك جديد ووزارة جديدة. وكانت وريثة العرش ابنته ماريا فرنسكا التي كانت زوجاً لأخيه بدرو. وكانت امرأة صالحة، وزوجاً وأماً صالحة، وإنساناً عطوفاً باراً، ولكنها كانت إلى ذلك كاثوليكية غيوراً، كرهت عداء بومبال للأكليروس كرهاً حملها على ترك البلاط لتعيش في هدوء مع بدرو في طليوذ على أميال من العاصمة. وأحاط الدبلوماسيون الأجانب حكوماتهم بأن تمنع انقلاباً وشيكاً في السياسات البرتغالية. وفي 18 نوفمبر تناول الملك الأسرار المقدسة، وفي 29 نوفمبر أصبحت ماريا وصية على العرش. وكان من أول أفعالها إنهاء سجن أسقف كويمبرا، ورد الحبر البالغ أربعة وسبعين عاماً إلى كرسيه وسط مظاهر الفرح

صفحة رقم : 13278

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> البرتغال وبومبال -> انتصار الماضي

الشاملة تقريباً. ورأى بومبال سلطانه يتضاءل، ولحظ في نذر قاتمة أن أفراد الحاشية الذين كانوا بالأمس أتباعاً أذلاء له، يروونه الآن وقد قضى على نفوذه السياسي. وفي عمل أخير من أعمال الاستبداد انتقم انتقاماً وحشياً من قرية تريفاريا التي عارض أهلها وكانوا صيادي سمك تجنيد أبنانهم بالقوة، فأمر فصيلة من الجند بأن يحرقوا القرية: فأحرقوها بإلقاء المشاعل الملتهبة من نوافذ الأكواخ الخشبية في ظلام الليل (23 يناير 1777). وفي 24 فبراير مات يوسف الأول، وأصبحت الوصية الآن الملكة ماريا الأولى (حكمت 1777-1816)، وأصبح زوجها الملك بدرو الثالث (1777-86). وكان بدرو رجلاً ضعيف العقل، واستغرقت ماريا في التقوى وأعمال البر. وسرعان ما استعاد الدين سلطانه، وقد كان نصف حياة الشعب البرتغالي. واستأنفت محكمة التفتيش نشاطها في الرقابة وقمع الهرطقة. وأرسلت الملكة كاريا إلى البابوية أربعين ألف جنيه لرد بعض ما أنفقت في رعاية اليسوعيين المنفيين. وفي غداة دفن يوسف أمرت الملكة بالإفراج عن ثمانمائة سجين، وكان أكثرهم قد سجنه بومبال لمعارضته سياسته. وكان كثير منهم قد قضى عرشين عاماً في غياهب السجون، فلما خرجوا لم تحتمل عيونهم ضوء الشمس وكانوا كلهم تقريباً في أسمال بالية، وبدا الكثيرون منهم في ضعفي سنهم، وكان المئات من السجناء قد قضوا نجبهم في سجونهم. ولم يبق على قيد الحياة من بين 124 يسوعياً زج بهم في السجون قبل ثمانية عشر عاماً سوى خمسة وأربعين (33). ورفض خمسة من الأشراف الذين أدينوا بتهمة الاشتراك المزعوم في مؤامرة قتل يوسف أن يبرحوا السجن حتى تعلن براءتهم رسمياً.

وكان لمشهد ضحايا عداء بومبال المفرج عنهم، ولبأ تحريق تريفاريا، أرثهما في تقاقم كره الشعب لبومبال إلى حد لم بعد يجرؤ فيه على الظهور علانية. وفي أول مارس أرسل إلى الملكة ماريا كتاباً يستقيل فيه من جميع وظائفه ويستأذن في الاعتكاف في ضيعته بمدينة بومبال. وطالب

صفحة رقم : 13279

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> البرتغال وبومبال -> انتصار الماضي

الأشراف المحيطون بالملكة بسجنه وعقابه، ولكن حين تبين لها أن جميع القوانين التي استكرتها كان قد وقعها الملك السابق، قررت أنها لا تستطيع عقاب بومبال دون أن تلطخ أمام الناس ذكرى أبيها. وقبلت استقالة الوزير وسمحت له بالاعتزال في بومبال، ولكنها أمرته أم يلزمها وفي 5 مارس غادر لشبونة في عربة خفيفة مستأجرة أملاً أن يفلت من أنظار الناس، ولكن بعضهم تبينه فحصبوا عربته ولكنه هرب منهم. ولحقت به امرأته عند مدينة أوبرس، وكان يومها في السابعة والسبعين.

والآن وقد غدا مواطناً عادياً تكاثر عليه الهجوم من كل صوب بدعاوى تطالبه بديون أغفل سدادها، وأضرار أوقعها بالشاكين، وممتلكات استولى عليها دون تعويض أصحابها تعويضاً كافياً. وحاصر المحضرون أبوابه في بومبال بسلسلة من الأوامر القضائية. كتب يقول "ما من دبور أو بعوضة في البرتغال إلا طار إلى هذه البقعة النائية وطناً في إذني". وساعدته الملكة بأن واصلت إجراء الراتب الذي كان يتقاضاه وزيراً عليه مدى الحياة وزادت عليه معاشاً متواضعاً. بيد أن أعداء لا حصر لهم ألحوا على الملكة في تقديمه للمحاكمة بتهمته الانحراف والخيانة. وقد اتخذت إجراء وسطاً بسماعها للقضاة بأن يزوروه ويسألوه بأمر هذه التهمة. فظلوا يحققون معه ساعات كل مرة على مدى ثلاثة أشهر ونصف حتى التمس الذكاتور العجوز الرحمة. وأجلت الملكة التصرف في تقرير الفحص، آملة أن يعفيها موت بومبال من هذا الحرج، وسعت في القوت نفسه إلى تهدئة خصومه بأن أمرت بإعادة محاكمة المتهمين الذين أدينوا بالاشتراك في محاولة اغتيال أبيها. وأيدت المحكمة الجديدة الحكم بذنوب دوق أفيرو وثلاثة من خدمه، ولكنها برأت ساحة باقي المتهمين أجمعين وأعلنت براءة الطابوريين. وردت كل ألقابهم وممتلكاتهم للأحياء منهم (3 إبريل 1781). وفي 16 أغسطس أصدرت الملكة مرسوماً يدين بومبال "مذنباً بجرائم شائنة" ويضيف قراراً بتركه آمناً في منفاه محتفظاً بثروته مادام قد ألتمس الصفح.

صفحة رقم : 13280

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> البرتغال وبومبال -> انتصار الماضي

وكان بومبال يمضي حثيثاً إلى مرض الموت. فقد غشي جسده كله تقريباً قروح صديدية يبدو أن سببها الجذام (35). ومنعه الألم من النوم أكثر من ساعتين في اليوم، وأضعفته الدوزنتاريا، وأقنعه أطباءه بشرب حساء مصنوع من جلد

الثعابين، كأنما أرادوا أن يزيدوه عذاباً على عذاب. وتمنى الموت، وتناول الأسرار المقدسة، وانتهت أيامه في 8 مايو 1782 وبعد خمسة وأربعين عاماً، وقفت بقبره جماعة من اليسوعيين كانت تجتاز المدينة، وثلت الجماعة، بشعو الانتصار والرافة، صلاة جنازية تطلب الراحة لنفسه.

صفحة رقم : 13281

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> البيئة

الفصل الحادي عشر

أسبانيا وحركة التنوير

1700 - 1788

1- البيئة

أوصى شارل الثاني، آخر الهابسبورجيين الأسبان، عند وفاته عام 1700، بأسبانيا وكل إمبراطوريتها العالمية لفرنسا البوربوننية-العدو القديم لآل هابسبورج، وقد قاتل حفيد لويس الرابع عشر، الذي لقب بفليب الخامس ملك أسبانيا، ببسالة خلال حرب الوراثة الأسبانية (1703-12) للاحتفاظ بوحدة تلك الإمبراطورية كاملة، وامتشقت أوروبا كلها تقريباً الحسام للحيلولة دون هذا التوسع الخطر في قوة البوربون. وأخيراً أكرهت أسبانيا على النزول عن جبل طارق ومينورقة لإنجلترا، وصقلية لسافوي، ونابلي وسردانيا وبلجيكا للنمسا.

ثم إن فقد أسبانيا لقوتها البحرية لم يترك لها سوى قبضة ضعيفة على المستعمرات التي كانت تغذي تجارتها وثروتها. فقمع أمريكا الأسبانية مثلاً كان يعطيها غلة بلغت من خمسة إلى عشرين ضعفاً في الفدان لقلة الأرض الأسبانية. وجادت تلك الأراضي المشمسة بالزئبق النحاس والزنك والزرنيخ والأصباغ واللحوم والجلود والمطاط والقرمز والسكر والكاكاو والبن والتبغ والشاي والكينين والكثير من العقاقير الأخرى. وفي 1788 صدرت أسبانيا لمستعمراتها الأمريكية بضائع قيمتها 158.000.000 ريال، واستوردت منها بضائع قيمتها 804.000.000 ريال ولكن هذا "الخلل في الميزان التجاري الذي لم يكن في مصلحة أسبانيا محاه سيل متدفق من الفضة والذهب الأمريكيين.

وأرسلت الفلبين شحنات سفن من الفلفل والقطن والنيلة وقصب السكر. وقد بلغ سكان الفلبين في تقرير ألكسندر فون همبولت

صفحة رقم : 13282

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> البيئة

في ختام القرن الثاني عشر 1.900.000، وسكان أمريكا الأسبانية 16.902.000، أما أسبانيا نفسها عام 1797 فقد بلغ سكانها 10.541.000(1). وأنه لفضل يعزى لحكم البوربون أن هذا الرقم الأخير يعني تضاعف السكان الذين لم يزيدوا على 5.700.000 عام 1700.

لم تسخ الجغرافيا على أسبانيا إلا بميزة التجارة البحرية. كانت الأرض في الشمال خصبة تغذرها الأمطار والثلوج الذائبة من جبال البرانس، وكانت قنوات الري (وأكثرها خلفه المغاربة للغالبيين) وقد استصلحت الأراضي الجدياء في بلنسية ومرسية والأندلس، ولكن باقي أراضي أسبانيا كان جبلياً أو قاحلاً إلى درجة مثبطة للهمم. ولم يتح لهبات الطبيعة أن تنمو وتتطور بفضل الإقدام الاقتصادي، فذهب أكثر الأسبان حباً للمغامرة إلى المستعمرات، وفضلت أسبانيا أن تشتري المنتجات الصناعية من الخارج بذهب مستعمراتها وما تغله مناجم الفضة أو النحاس أو الحديد أو الرصاص في أسبانيا ذاتها. وتخلفت صناعاتها التي كانت لا تزال في المرحلة النقابية أو البيتية تخلفاً شديداً عن صناعات أقطار الشمال النشيطة، وكان الكثير من مناجمها الغنية تشغله الإدارة الأجنبية لفائدة المستثمرين الألمان أو الإنجليز. واحتكرت "المستا" إنتاج الصوف، وهي اتحاد من ملاك قطاع الغنم ميزته الحكومة، ورسخت التقاليد قدمه، وسيطرت عليه فئة قليلة من النبلاء والأديرة، وخنقت المنافسة، وتخلفت أسباب التحسين. وتعفت برولتاريا ضئيلة في المدن، وتشتغل خدماً لكبار القوم أو عمال مياومة في النقبات الحرفية، وكانت منازل الأثرياء تزدان ببعض العبيد الزوج أو المغاربة. وعاش طبقة وسطى صغيرة معتمدة على الحكومة أو الأشراف أو الكنيسة. وكان 51.5% من الأرض الزراعية تملكه الأسر الشريفة في مساحات شاسعة و16.5% تملكه الكنيسة، و32% تملكه الكومونات (المدن) أو الفلاحون. وتأخر نمو ملكية الفلاحين للأرض بفعل قانون وقف قديم يشترط وقف الأرض كاملة على الابن الأكبر ويمنع رهن أي جزء منها أو بيعه. وكان ثلاثة أرباع الأرض خلال معظم هذا القرن فيما عدا إقليم

صفحة رقم : 13283

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> البيئة

الباسك يفلحه مستأجرون يؤدون ضريبة على صورة إيجار، أو رسوم، أو خدمات، أو عيناً لملاك من الأشراف أو رجال الدين الذين ندر أن رأوهم ولما كانت الإيجارات تجنى حسب إنتاجية المزرعة، فإن المستأجرون افتقدوا الحاجز

على الابتكار أو الاجتهاد(2). ودافع الملاك عن هذا النظام بالزعم بأن الهبوط المطرد في قيمة العملة يكرههم على رفع الإيجارات لتتمشى مع الأسعار والتكاليف المتصاعدة. ثم أن ضريبة مبيعات فرضت على ضروريات الحياة كاللحم والنبيد وزيت الزيتون والشموع والصابون كانت أثقل وطأة على الفقراء (الذين أنفقوا معظم دخلهم على الضروريات) وأخف وقعاً على الأغنياء. وترتب على هذه الإجراءات، وعلى الامتيازات الوراثية، وعلى الفوارق الطبيعية في القدرة البشرية، أن تركزت الثروة في القمة، وراى على القاع فقر كئيب اتصل جيلاً بعد جيل، تخففه وتسري به التعزيات فوق الطبيعة.

وكانت طبقة النبلاء منقسمة إلى درجات من الشرف انقساماً يملؤه التحاسد والتناؤذ. ففي القمة (في 1787) 119 من كبار النبلاء (Grandes de Espana). وقد نحزر مبلغ ثرائهم من تقرير مبالغ فيه على الأرجح كتبه الرحالة البريطاني المعاصر جوزف تاونسند وذكر فيه "أن ثلاثة من كبار النبلاء- وهم دوق أوزونا، ودوق ألبا، ودوق مديناسلي- يملكون إقليم الأندلس بجملته(3). وكان دخل دوق مدينا من مصايد أسماكه وحدها مليون ريال في العام، ودخل دوق أوزنا السنوي 8.400.000 ريال، ودخل كونت أرنادا قرابة 1.600.000 ريال في السنة"(4). ويلى كبار النبلاء 535 من أصحاب الألقاب Titulos- وهم رجال منحهم الملك ألقاباً وراثية بشرط أداء نصف دخلهم للتاج. ويلى هؤلاء الفرسان Caballeros الذين يعينهم الملك في عضوية مجزية في إحدى طبقات أسبانيا الأربع: وهي سنتياجو، والقنطرة، وكالاترافا ومونتيزا. أما أدنى النبلاء مرتبة فكانوا الـ 400.000 هيدلج Hidalgo الذين يملكون مساحات متواضعة من الأرض، والذين أعفوا من الخدمة العسكرية ومن

صفحة رقم : 13284

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> البيئة

السجن للدين، وكان لهم الحق في أن يلبسوا شعار النبالة وأن يخاطبوا بلقب "الدون". وكان بعضهم فقراء، وبعضهم انضم إلى المتسولين في الشوارع. وكان معظم النبلاء يعيشون في المدن، ويعينون موظفي الأقاليم.

أما الكنيسة الأسبانية فقد ادعت الحق في نصيب مريح من جملة الناتج القومي بوصفها الحارس الإلهي للوضع الراهن. وقد قدر مصدر أسباني موثوق أن دخلها السنوي بعد الضرائب يبلغ 1.101.753.000 ريال، ودخل الدولة يبلغ 1.371.000.000 ريال(5). وكان ثلث إيراداتها يأتيها من الأرض، ومبالغ طائلة تجمعها من العشور وبيواكير الثمار، ومبالغ صغيرة من مراسيم العماد، والزيجات، والجنائز، والقناديس على أرواح الموتى، والحلل الديرية تباع للأتقياء الذين ظنوا إنهم إن ماتوا وعليهم هذه الأرواب فقد يتسللون إلى الجنة دون مساءلة. وأتى الرهبان المستجدون بمزيد من المال بلغ 53.000.000 ريال. على أن أوساط القساوسة كانوا بالطبع فقراء لكثرة عددهم من جهة، فقد كان في أسبانيا 91.258 من رجال الكهنوت، منهم 16.481 كانوا قسسا و 2.943 رهباناً يسوعيين(6). وفي 1797 كان سنون ألف راهب وثلاثون ألف راهبة يعيشون في ثلاثة آلاف دير. وكان رئيس أساقفة إشبيلية وموظفه البالغون 235 مساعداً يتمتعون بدخل سنوي مقداره ستة ملايين ريال، أما رئيس أساقفة طليطلة- وكان له ستمائة مساعداً- فبلغ دخله تسعة ملايين ريال. وهنا، كما في إيطاليا والنمسا، لم تثر ثروة رجال الدين أي احتجاج من الشعب، فالكاتدرائية من خلقهم، وقد أحبوا أن يروها في زينة بهية.

وقد ضرب تدينهم المثل والقدوة للعالم المسيحي. فلم يلقَ اللاهوت الكاثوليكي في بقعة أخرى في القرن الثاني عشر مثل هذا الإيمان الشامل به، ولا شهدت الطقوس الكاثوليكية من هذا الاحترام الشديد. وناقست الممارسات الدينية السعي وراء العيش، ولعلها فاقت السعي وراء الجنس، باعتبارها جزءاً من صميم الحياة. وكان أفراد الشعب بما فيهم البغايا، يرسمون علامة الصليب مراراً وتكراراً كل يوم. وفاقت عبادة العذراء عبادة المسيح

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> البيئة

بكثير، وانتشرت صورها وتمثيلها في كل مكان، وكان النساء يخطن الأرواب لتمثيلها في شغف، ويتوجن رأسها بالأزهار النضرة، وفي أسبانيا أكثر من غيرها ارتفع صوت الشعب مطالباً بجعل، "حملها غير الدنس"-أي خلوها من لوثة الخطيئة الأصلية-جزءاً من العقيدة المحددة المشترطة. وكان الرجال يساؤون النساء تمسكاً بأهداب الدين. فكثير من الرجال، كالنساء، كانوا يختلفون إلى القديس يومياً. وكان الرجال من الطبقات الدنيا يجلدون أنفسهم في بعض المواكب الدينية (حتى حرم هذا الجلد في 1777) في حبال فيها عقد تنتهي بكرات من الشمع تحوي زجاجاً محطماً، وزعموا أنهم يفعلون هذا برهاناً على حبهم لله أو مريم أو امرأة ما، ورأى بعضهم أن هذا القصد مفيد للصحة(7) وأنه يهدئ من شبق إيروس.

وكانت المواكب الدينية كثيرة، مثيرة، غنية بالألوان، وقد شكا ظريف من أنه لم يستطع أن يخطو في مدريد خطوة دون أن يصادف المشهد المرعب، وكان في الامتناع عن الركوع إذا مر الموكب مجازفة بالاعتقال أو الاعتداء. فحين قام أهل سرقسطة بثورة عام 1766 وراحوا ينهبوا ويسلبون ظهر موكب ديني على رأسه الأسقف يحمل بين يديه القربان المقدس، فكشف العصاة رؤوسهم وجثوا في الشوارع، فلما عبر الموكب استأنفوا سلب المدينة(8). وكانت كل مصالح الحكومة تشارك في موكب "عيد القربان" العظيم، يتقدمهم الملك أحياناً. وكانت مدن أسبانيا تجلج بالسواد طوال أسبوع الألام، والملاهي والمقاهي تغلق، والكنائس تغص بالعابدين، والمذابح الإضافية تقام في الميادين العامة استجابة لتدفق التقوى والورع. ففي أسبانيا كان المسيح ملكاً، ومريم ملكة، والإحساس بالحظرة الإلهية في كل لحظة من لحظات اليقظة، جزءاً من صميم الحياة.

وزكت طائفتان دينيتان أكثر من غيرهما في أسبانيا. فسيطر اليسوعيون على التعليم بفضل علمهم ولباقتهم في الحديث وأصبحوا آباء الاعتراف للأسرة المالكة. أما الدومنيكان فسيطروا على ديوان التفتيش، ومع أن هذه المؤسسة كانت قد ودعت عصرها الذهبي منذ أمد بعيد، فقد بقي لها

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> البيئة

من القوة ما يكفي لإرهاب الشعب وتحدي الدولة. فلما ظهرت فلول لليهودية بسبب تراخي البوربون قطع ديوان التفتيش دابرهم بإحراقهم علناً. وعلى مدى سبع سنوات (1720-27) أدان الديوان 868 شخصاً، اتهم 820 منهم بأنهم يبطنون اليهودية، وأحرق 75، وزج غيرهم في سفن تشغيل العبيد أو أكتف بجلدهم(9). وفي 1722 أظهر فليب الخامس تبنيه لأساليب الحياة الأسبانية إذ ترأس مهرجاناً فخماً لإحراق المهرطقين، أحرق فيه تسعة منهم احتقالاتاً بمقدم

أميرة فرنسية إلى مدريد(10). أما خلفه فرديناند السادس فقد أبدى روحاً أكثر اعتدالاً، ففي عهده (1746-59) أحرق عشرة "فقط" أحياء، وكلهم من اليهود "المرتدين(11)".

ومارس ديوان التفتيش رقابة خانقة على كل ضروب النشر. وقد قدر راهب دومنيكي أن المطبوع في أسبانيا خلال القرن الثاني عشر كان أقل من المطبوع في القرن السادس عشر (12). وكان أكثر الكتب دينياً، وأحبها الشعب بوصفها هذا. وكانت الطبقات الدنيا أمية، ولم تشعر بحاجة للقراءة أو الكتابة. وكانت المدارس في قبضة رجال الدين، ولكن آلافاً من الأبرشيات كانت خلواً من المدارس. أما الجامعات الأسبانية التي كانت يوماً ما جامعات عظيمة فقد تخلفت تخلفاً شديداً عن نظيراتها في إيطاليا أو فرنسا أو إنجلترا أو ألمانيا في كل ناحية إلا اللاهوت التقليدي. وكانت مدارس الطب فقيرة، رديئة الإعداد بالأساتذة، ناقصة الأجهزة، واعتمد العلاج على الحجامة، وإعطاء المسهلات، والاستعانة ببركات القديسين، والصلاة. وكان الأطباء الأسبان خطراً على حياة الناس. كان العلم علم العصر الوسيط، والتاريخ أساطير، وزكت الخرافة وكثرت النذر والمعجزات. وظل الإيمان بالسحر إلى نهاية القرن، وظهر بين الأهوال التي صورها الرسام جويا.

تلك كانت أسبانيا التي قدم البوربون من فرنسا ليحكموها.

صفحة رقم : 13287

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> فليب الخامس

2- فليب الخامس

1746-1700

كان فليب الخامس (Felipe Quinto) رجلاً طيباً في حدود فلسفة حياته التي ضيقها تعليمه. كان ابناً أصغر للدوفان، فدرّب إلى التواضع، والتقوى، والطاعة، فلم يتغلب قط على هذه الفضائل إلى حد يكفي للتصدي لنصف قرن من التحديات في الحكم والحرب. وأفضت به تقواه إلى أن يتقبل في أسبانيا ظلامية دينية كانت تحتضر في فرنسا، وجعلته سهولة انقياده مطوعاً لوزرائه وزوجاته.

وكانت ماريا لويزا جابرييلا، ابنة فكتور أماديوس الثاني ملك سافوي، لا تعدو الثالثة عشرة يوم تزوجت فليب (1701)، ولكنها كانت رغم حداثةها حاذقة لمكر النساء وكيدهن، واستطاعت بجمالها وحيويتها وبغضباتها ودموعها، أن تخضع الملك فيستسلم بعد إرهاق، بينما تدير هي وكبيرة وصيفاتها سياسة وطنهما الجديد. وكانت هذه الوصيقة- ماري آن دلا تريموال، أميرة أورسان، والأرملة الفرنسية لنبييل أسباني كبير، قد أعانت الملكة الصبية على الزواج والقبض على السلطة. ومكنتها طموحها الممزوج باللباقة من أ، تصبح قوة وراء العرش خلال عشرة أعوام. وما كان في استطاعتها أن تعتمد على الحمال لأنها كانت في التاسعة والخمسين في 1701، ولكنها أمدت المملكة بما تقتقر إليه من معرفة ودهاء، وبعد عام 1705 كانت تقرر السياسة. وفي 1714 ماتت ماريا لويزا في السادسة والعشرين، وتردى فليب الذي تعلم أن يحبها حباً صادقاً في اكتئاب مرضي. ورأت مدام ديزورسان أن تنفذ سلطانها بترتيب زواجه من إيزابيلا (اليزابيث) فارتيزي، ابنة أوداردو الثاني دوق بارما وبياسنزا. وذهبت للقاء الملكة الجديدة عند

الحدود الأسبانية، ولكن إيزابيلا أمرتها في اقتضاب أن ترحل عن أسبانيا، فاعتزلت في روما وماتت بعد ثماني سنوات مغمورة منسوبة رغم ثرائها. لم تعترف إيزابيلا بأن النهضة الأوروبية قد ولت، فقد وهبت كل قوة

صفحة رقم : 13288

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> فليب الخامس

الإرادة، وشدة الذكاء، وحدة الطبع، واحتقار الوسواس الذي تميزت به النساء كما تميز الرجال الذين هيمنوا على إيطاليا القرن السادس عشر. وقد وجدت في فليب رجلاً عاجزاً عن الحسم؛ عاجزاً عن النوم منفرداً، ومن ثم أصبح فراشها عرشها الذي تحكم منه أمة، وتدير جيوشاً، وتظفر بإمارات إيطالية. ولم تكن قد عرفت أي شيء تقريباً عن أسبانيا. ولم تألف قط الخلق الأسباني ولكنها درست ذلك الخلق، ونجحت في التعرف على حاجات البلد؛ وأدهش الملك أن يجدها لا تقل عن وزرائه إطلاعاً وسعة حيلة.

وكان فليب في سنوات حكمه الأولى قد استخدم جان أوربي وغيره من المساعدين الفرنسيين لإعادة تنظيم الحكومة على الأسس التي وضعها لويس الرابع عشر: إدارة ومالية ممر كرتان مراقبتان، مع بيروقراطية مدرّبه ونظار إقليمين؛ وكلهم خاضعون لسلطة المجلس الملكي التشريعية والقضائية والتنفيذية؛ وأسمه هنا "مجلس تشتالة" Consejo de Castilla؛ فقل الفساد؛ وحد من الإسراف-إلا في عمليات البناء الخاصة بالملك. ثم خلف هؤلاء الوزراء الفرنسيين في 1714 إيطالي كفاء طموح هو الاباتي جوليو البيروني، الذي جعل نشاطه الأسبانيين يرتعدون. وكان أبناء لبستاني في بياتشيزا، وصل إلى أسبانيا بوصفه سكرتيراً لدوق فنوم. وكان أول من اقترح إيزابيلا فارنيزي زوجة ثانية لفليب، فيسرف وصوله إلى السلطة عرفاناً بصنيعه. وقد وقفا معا في إقصاء الملك عن شؤون الدولة. وعن أي مشورة غير مشورتها. وخططا معاً لبناء قوات أسبانيا المسلحة واستخدامها لطرده النمساويين من إيطاليا واستعادة النفوذ الأسباني في نابلي وميلان، وإقامة عروش للأذواق يزينها يوماً ما أبناء إيزابيلا البعيدة النظر.

وطلب البيروني خمس سنين للاستعداد، فأحل في المناصب الرئيسية رجالاً أكفاء من الطبقة الوسطى محل الكسالى من حملة الألقاب، وفرض الضرائب على الأكليروس القساوسة المتمردين(13)، وخرّد السفن البالية وبنى خيراً منها، وأقام القلاع والترسانات على طول السواحل

صفحة رقم : 13289

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> فليب الخامس

والحدود، وأعان الصناعة بالمال، وشق الطرق، وزاد من سرعة المواصلات وألغى ضرائب المبيعات ومكس المرور. وقد أذر السفير البريطاني في مدريد حكومته بأن أسبانيا لن تنقضي عليها بضع سنين آخر من أمثال هذه الخطى حتى تغدو خطراً على غيرها من دول أوروبا (14). ورغبة في تهدئة هذه المخاوف تظاهر البيروني بأنه يجند القوات ليعين بها البندقية والبابوية على الترك. والواقع أنه أرسل ست سفن كبيرة إلى كلمنت الحادي عشر، الذي كافأه بقبعة الكردينالة الحمراء (1717). كتب فولتير "أن الملكية الأسبانية قد استأنفت حياة جديدة تحت حكم الكردينال البيروني (15)".

ومنح كل شيء إلا الوقت. كان يرجو أن يكسب رضاء الفرنسيين والإنجليز عن الأهداف الأسبانية في إيطاليا، وعرض تنازلات قيمة مقابل هذا الرضاء، ولكن الملك المهمل أفسد هذه المناورات بكشفه عن رغبته في الحلول محل فليب أورليان حاكماً لفرنسا. وانقلب هذا على فليب، وانضم إلى إنجلترا والأقاليم في ميثاق للحفاظ على الترتيبات الإقليمية التي حددتها معاهدة أوترخت. وانتهكت النمسا تلك المعاهدة بإكراهها سافوي على إعطائها صقلية مقابل سردانيا. واحتج البيروني بأن هذا يضع عبر البحر المتوسط دولة ما زال رئيسها يطالب بتاج أسبانيا. ولعن تطور الأحداث بهذه العجلة على غير ما ينبغي ثم أذعن لدخول حرب قبل الأوان. واستولى أسطوله الوليد على بلرمو (1718)، وسرعان ما أخضع جيشه صقلية كلها لسلطة أسبانيا وهنا انضمت النمسا إلى إنجلترا وفرنسا وهولندا في حلف رباعي ضد أسبانيا. وفي 11 أغسطس 1718 دمر أسطول بريطاني بقيادة الأميرال بنج الأسطول الأسباني تجاه ساحل صقلية، وحبس خيرة أسبانيا في تلك الجزيرة بينما غزت الجيوش الفرنسية أسبانيا. وطلب فليب وإزابيلا الصلح، فأجيب الطلب شريطة أن ينفي البيروني. ففر إلى جنوه (1719)، وشق طريقه متخفياً إلى روما عبر لومبارديا التي يملكها النمساويون، وشارك في مجمع

صفحة رقم : 13290

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> فليب الخامس

الكرولة الذي انتخب البابا إنوسنت الثالث عشر، ومات عام 1752 وقد بلغ الثامنة والثمانين. وفي 17 فبراير 1720 وقع مبعوث أسباني بلندن معاهدة نزل فيها فليب عن كل حق يدعيه في عرش فرنسا، ونزلت أسبانيا عن صقلية للنمسا، وودعت إنجلترا برد جبل طارق إلى أسبانيا، وتعهدت الحلفاء بأن يكون لنسل إيزابيلا الحق في وراثة بارما وتسكانيا.

وفي مجال السياسة الدولية سرعان ما ينقلب الحلفاء أعداء، ويصبح الخصوم أصدقاء رسمياً. ودعماً للسلام مع فرنسا، كان فليب قد خطب ابنته ماريا أنا فكتوريا التي لم تسلخ من عمرها سوى عامين، للويس الخامس عشر في 1721، وأرسل إلى فرنسا (1722) وسط دهشة الجمع. ولكن في 1725 ردتها فرنسا لعل لويس أن يتزوج امرأة تستطيع الاضطلاع فوراً بمهمة انجاب وريث له. ورأت أسبانيا في هذا الرد إهانة، فتحالف مع النمسا، ووعد الإمبراطور شارل السادس بمساعدة أسبانيا على استعادة جبل طارق، فلما حاول جيش أسباني الاستيلاء على ذلك المعقل لم يأت العون من النمسا؛ وفشلت المحاولة، ولم تصطلح أسبانيا مع إنجلترا وحسب، بل ردت لها احتكار الازينتو Asiento الذي يبيع لها بيع العبيد للمستعمرات الأسبانية، ومقابل هذا تعهدت بريطانيا بأن تجلس الدون كارلوس، ابن إيزابيلا، على عرش دوقية بارما. وفي 1731 اتجه كارلوس وستة آلاف أسباني إلى إيطاليا في حراسة أسطول إنجليزي. ونزلت النمسا عم بارما وبياتشنزا لكارلوس رغبة في الحصول على تأييد بريطانيا وأسبانيا لها في ارتقاء ماريا تريزا للعرش الإمبراطوري. وفي 1734 رفع كارلوس نفسه إلى عرش نابلي. وهكذا اكتمل نصر إيزابيلا. على أن فليب أصابته نوبة من الاكتئاب أخذت بعد عام 1736 تتحدر أحياناً إلى درك الجنون. فقع في ركن من حجرته، طائماً أن كل الداخلين عليه ينوون قتله، وعافت نفسه الأكل مخافة أن يفس له السم فيه. وظل

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> فليب الخامس

ردحاً طويلاً يأبى أن يبرح فراشه أو يحلق لحبته. وجربت إيزابيللا عشرات الوسائل لشفائه أو تهدئته، ولكنها أخفقت كلها إلا واحدة. ففي 1737 أفتعت فارنيللي بأساليب الملاطفة والتملق أن يجيء إلى أسبانيا. وذات ليلة، في جناح ملاصق لجناح الملك، رتبت حفلاً موسيقياً عنى فيه "الخصي" العظيم لحنين من تأليف هاسي. ونهض فليب من فراشه لينظر خلال الباب ويرى أي قوة استطاعت أن تشدو بهذه الأصوات الساحرة. وجاءته إيزابيللا بفارنيللي، فأنتى عليه الملك وعانقه وأمره بأن يطلب ما شاء من مكافأة فتوهب له مهما غلت. وكانت الملكة قد أوصت المغني بما يجيب، فلم يطلب إلا أن يسمح الملك بأن تحلق لحبته وأن يرتدي ثيابه ويحضر المجلس الملكي. ووافق الملك وخفت مخاوفه، وبدا أنه شفي كأنما بمعجزة. ولكن حين أقبل المساء التالي أرسل في طلب فارنيللي ورجاه أن يغني هاتين الأغنيتين ذاتهما ثانية، إذ لم يكن في الإمكان تهدئته لينام إلا بهذه الطريقة. وهكذا استمرت الحال ليلة إثر ليلة طوال عشر سنين. وكان أجر فارنيللي 200.000 ريال في العام، ولكن لم يسمح له بالغناء إلا في البلاط. وتقبل هو الشرط شاكراً، ومع أن نفوذه على الملك كان أقوى من نفوذ أي من وزرائه، فإنه لم يستغله وأستعمله دائماً للخير؛ وظل بريئاً من روح الرشوة وأكتسب إعجاب الجميع(16).

وفي 1746 أمر فليب أن يقام 100.000 قداس لخلاص نفسه. فإذا لم يكن ثمة حاجة لهذا العدد الكبير ليدخل به الجنة فليوهب الفائض للنفوس المسكينة التي لم يتح لها مثل هذا الاستعداد(17). في ذلك العام قضى فليب نحبه.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> فرديناند السادس

وخلفه على العرش ثاني أبنائه من زوجته الأولى، فأعطى أسبانيا ثلاثة عشر عاماً من الحكم الشافى من علها.
وعمرت إيزابيللا حتى سنة 1766،

صفحة رقم : 13293

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> فرديناند السادس

ولقيت من ابن زوجها معاملة رقيقة مجاملة، ولكنها فقدت سلطانها على التأثير في الأحداث. وأصبحت زوجة فرديناند، ماريا بربارا، تلميذة سكارلاتي، هي المرأة التي تقف وراء العرش. ومع أنها كانت مفرطة الولع بالطعام والمال، فإنها كانت روحاً أرق من إيزابيللا، وبذلت أكثر همته لتشجيع الموسيقى والفن. وواصل فارنيللي غناءه لحكام الجدد، ولم يستطع هاريسكورد سكارلاتي أن يناقسه. وعمل الملك والملكة على إنهاء حرب الوراثة النمساوية، فقبلا معاهدة إكس-لاشابل (1748)، مع إنها أعطت تسكانيا للنمسا، وبعد عام أنها اتفاق الازينتو الذي عمر 136 سنة بدفع 100.000 جنيه لشركة بحر الجنوب تعويضاً عن خسارة امتيازاتها في تجارة الرقيق. كان فرديناند رجلاً حسن النية، لطيفاً أميناً، ولكنه ورث جسداً رقيقاً وكان معرضاً لنوبات من الغضب كان يخجل منها خجلاً مؤلماً (18) وحمله الوعي بعيوبه على ترك الحكم لوزيرين قديرين-دون دون خوزيه دي كارفاخال وزينون دي سومر ديفللا، مركز انسنادا. وحسن انسنادا أساليب الزراعة، وأعان بالمال التعدين والصناعة، وشق الطرق والقنوات، وألغى المكوس الداخلية، وأعاد بناء البحرية واستبدل بضريبة البيوع البغيضة ضريبة على الدخل والممتلكات، ونظم المالية من جديد، وحطم عزلة أسبانيا الفكرية بإيفاده البعوث من الطلبة إلى الخارج. ويرجع بعض الفصل إلى دبلوماسية انسنادا في إبرام اتفاق مع البابوية (1753) احتفظ للملك بحق فرض الضرائب على الأملاك الكنسية وتعيين الأساقفة للكراسي الأسبانية. وقد حد من سلطان الكنيسة، وأخضع ديوان التفتيش، وألغيت الاحتقالات العلنية بإحراق المهرطقين. واختلفت الوزيران في سياستهما الخارجية. فأما كارفاخال فقد أثر فيه لطف السفير البريطاني المخلص، السير بنجامين كين، فاستن سياسة مؤيدة للبريطانيين مسالمة لهم، وأما انسنادا فقد حابى فرنسا، وتحرك نحو محاربة إنجلترا. وطال صبر فرديناند عليه لأنه قدر نشاطه وكفايته، ولكنه أقاله

صفحة رقم : 13294

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> فرديناند السادس

في النهاية. وبينما كانت كل أوروبا تقريباً تتردى في سنوات سبع من الحرب، منح فرديناند شعبه فترة من السلام والرخاء أطول مما حظيت به أسبانيا منذ أيام فليب الثاني.

وفي 1758 ماتت ماريا بربارا. وكان الملك يحبها حباً يوحى بأن السياسة لم يكن لها دخل في زواجهما، ومن ثم اعتزته حالة من الاكتئاب وتشعث الشعر وإطلاق اللحية ذكرت الناس باكتئاب أبيه من قبل، وأصابته هو الآخر لوثة في آخر سنة من عمره. وفي أخريات أيامه كان يأبى الذهاب إلى فراشه مخافة ألا ينهض منه أبداً. ومات في كرسيه في 10 أغسطس 1759 وبكى الجميع الملكين الحبيين لأن حكمهما كان بركة ندر أن حظيت بها أسبانيا.

صفحة رقم : 13295

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> التنوير يدخل أسبانيا

4- التنوير يدخل أسبانيا

قصة التنوير في أسبانيا مثال لقوة عرضة للمقاومة تصطدم بجسم ثابت لا يقبل الحركة. فالخلق الأسباني، ووفائه لإيمانه الوسيط وفاء كنبه بالدم، كان يصد كل رياح الهرطقة أو الشك عاجلاً أو آجلاً، ويرفض كل دخيل من الزي أو العادات أو الاقتصاد. ولم يحبذ الفكر الدخيل غير قوة اقتصادية واحدة-هي التجار الأسبان الذين كانوا يتعاملون مع الأجانب كل يوم، ويعرفون أي قوة وثراء حققهما ونظراؤهم في إنجلترا وفرنسا. وكانوا راغبين في استيراد الأفكار إذا استطاعت أن تضعف من السلطة التي ورثها النبلاء والأكليروس على أرض أسبانيا وحياتها وعقلها. وقد علموا أن الدين فقد سلطانه في إنجلترا، وسمع بعضهم بنيوتن ولوك، لا بل أن جبون قدر له أن يجد بعض من يقرؤونه في أسبانيا(19).

وبالطبع هبت أقوى رياح التنوير من فرنسا. وكان النبلاء الفرنسيون الذين تبعوا فليب الخامس إلى مدريد قد مستهم الزندقة التي أخفت رأسها أيام لويس الرابع عشر، ولكنها استشرت أيام الوصاية. وفي 1714 أسس

صفحة رقم : 13296

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> التنوير يدخل أسبانيا

بعض الدارسين الأكاديمية الملكية الأسبانية محاكاة للأكاديمية الفرنسية؛ وسرعان ما بدأت وضع معجم لغوي؛ وفي 1737 اضطلعت صحيفة "دياريو دي لوس لتراتوس دي أسبانيا" بمنافسة "الجورنال دي سافان" الفرنسية. وكان الدوق ألبا الذي أشرف على الأكاديمية الملكية عشرين عاماً (1756-76) شديد الإعجاب بجان-جاك روسو(20). وفي 1773-أكتتب بثمانية جنيهات ذهبية (لوي دور) لتمثال فولتير الذي كان يصنعه بيجال. كتب إلى دالامبير يقول

"أنني وقد مضى عليّ بتثيف عقلي سرّاً أغتتم هذه الفرصة للشهادة علانية بعرفاني وإعجابي بالرجل العظيم الذي كان أول من دلني على الطريق(21)".

وحظي كتاب روسو "إميل" بإعلان مجاني حين أحرق في احتفال رسمي بكنيسة من كنائس مدريد (1765)(22). وعاد شباب من الأسبان الذين عرفوا باريس كالمركز دي مورا الذي عشق جولي دلسبيناس إلى أسبانيا يحملون شيئاً من آثار الشوكية التي التقوا بها في الصالونات. وهربت إلى أسبانيا نسخ من أعمال فولتير أو ديرو أو رينال؛ فأيقظت بعض العقول المحددة وكتب أسباني في 1763 يقول "كان من أثر الكتب المؤذية الكثيرة التي راجت بين الناس؛ ككتب فولتير وروسو وهلفتيوس؛ أن كثر فتور الإيمان في هذا البلد(23)". وكان بابلو أو لافيدي يجهر بالأفكار الفولتيرية في صالونه بمدريد (حوالي 1766)(24). وحث رفوف "الجمعية الاقتصادية لأصدقاء السلام" أعمالاً لفولتير وروسو وبيل ودالامبير ومونسكيو وهوبز ولوك وهيوم(25). وذكر الأبيه كليمان الذي جاب أرجاء أسبانيا عام 1768 انتشار اللامبالاة بالدين انتشاراً واسعاً، لا بل الكفر بالعقيدة، المستتر وراء مراعاة الطقوس الكاثوليكية في الظاهر(26). وقد أبلغ ديوان التفتيش في 1778 أن كبار موظفي البلاط يقرؤون لجماعة الفلاسفة الفرنسيين(27).

وكان من الأهمية بمكان للتاريخ الأسباني أن يصبح بدرو أباركا، كونت أراندا، خلال رحلة قام بها في فرنسا، صديقاً لفولتير. وقد نحكم

صفحة رقم : 13297

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> التنوير يدخل أسبانيا

على علاقته من نشاطه اللاحق سفيراً لأسبانيا لدى فرنسا، وقد اختلط في غير تجرح بالموسوعيين في باريس وقامت بينه وبين دالامبير صداقة ملؤها الإعجاب به، وعبر فرنسا ليزور فولتير في فرنیه. وكان يصرح بولائه للكنيسة في أسبانيا، ولكنه هو الذي أقتع شارل الثالث بطرد اليسوعيين، وبارشاده انظم إِب صفوف "المستبدين المستنيرين" الذين كان ينطلع إليهم جماعة الفلاسفة باعتبارهم خير معوان لهم في نشر التعليم والحرية والعقلانية.

صفحة رقم : 13298

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> شارل الثالث

5- شارل الثالث

أ- الحكومة الجديدة

حين وصل من نابلي كان يناهز الثالثة والأربعين. ورحب به الجميع إلا اليسوعيين (28) الذين ساءهم بيع أسبانيا لمستوطناته في باراجواي إلى البرتغال (1750)، وفيما عدا هذا كسب جميع القلوب بإعفاء الناس من الضرائب المتأخرة، ورد بعض الامتيازات التي فقدتها الأقاليم في ظل سياسة المركزية التي انتهجها فليب الخامس. وقد جلت موت زوجته ماريا أماليا بالحزن سنة حكمه الأولى لأسبانيا. ولم يتزوج بعدها قط وإنه لمما يشرف آل بوربون الأسبان في القرن الثامن عشر أنهم ضربوا لملوك أوربا المثل في الوفاء لأزواجهم والثبات على حبهم. وقد رسم دبلوماسي بريطاني صورة بريطانية لشارل الذي كانت له مواجهات مع الإنجليز في نابلي. "الملك مظهر غريب سواء شخصه أو زيه. فهو ضئيل القامة ولون بشرته شبيه بلون المحنة ولم يفصل له سترة طوال هذه السنين الثلاثين، لذلك يبدو في سترته وكأنها الزكبية، وصدريته وسراويله وكوبه من الجلد عادة، وعل ساقه طماق يقبهما من الليل. وهو يخرج للرياضة كل يوم من أيام السنة غير عابئ بمطر أو ريح (29).

صفحة رقم : 13299

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> شارل الثالث

ولكن إيرل برستول- أردف في 1761، "إن للملك الكاثوليكي مواهب جيدة، وذاكرة مواتية، وسيطرة غير عادية على نفسه في جميع المناسبات. وقد بات يتشكك في الناس لكثرة ما خدعوه. وهو يفضل دائماً أن ينال موافقة الآخرين على رأيه باللين، وله من طول الأناة ما يجعله ينصح محدثه المرة بعد المرة دون أن يستعمل سلطته. ومع ذلك فرغم سيماء اللطف العظيم البادي عليه استطاع أن يبث الرهبة في قلوب وزرائه وحاشيته." (30)

ولم يكن في تقواه الشخصية ما ينذر بأنه سيهاجم اليسوعيين أو يضطلع بالإصلاحات الدينية. كان يختلف إلى القديس كل يوم. وقد أدهش عدواً إنجليزياً "وفاؤه الأمين العنيد بكل معاهداته ومبادئه" (31) وكان يخصص جزءاً كبيراً من كل يوم من أيام الأسبوع (عدا الأحد) لشؤون الحكم. يستيقظ في السادسة، ويزور أبناؤه، ويفطر، ويعكف على العمل من الثامنة إلى الحادية عشرة، ويجتمع بوزرائه، ويستقبل كبار القوم ويتناول غداءه مع غيره، ويخصص عدة ساعات للصيد، ويتعشى في التاسعة والنصف، ويطعم كلابه، ويتلو صلواته، ثم يمضي إلى فراشه. ولعل الصيد كان وقاءً صحياً قصد بن أن يصرف عنه الاكتئاب الموروث في الأسرة.

وبدأ ببعض الأخطاء الخطيرة. ذلك أنه لجهله بأسبانيا التي لم يرها من كان في السادسة عشرة اتخذ اثنين من الإيطاليين كانا قد أخلصا في خدمته بنابلس مساعدين أثيرين لديه: المركز دي جريمالدي في السياسة الخارجية، والمركز دي سكلانتشي في الشؤون الداخلية.

وقد وصف إيرل برستول سكلانتشي هذا بأنه "غير ذكي. أنه مولى بالعمل ولا يشكو أبداً من كثرتة تنوع إدارات الحكومة التي تتركز فيه... وأعتقد أنه غير قابل للارتشاء، ولكنني لا أريد أن أكون مسئولاً بهذا القدر عن زوجته (32)

ولم يجب جرائم مدريد ولا روائعها الخبيثة ولا ظلمتها، ومن ثم فقد نظم لها شرطة نشيطة وفرقة لتنظيف شوارعها، وأنار

صفحة رقم : 13300

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> شارل الثالث

العاصمة بخمسة آلاف مصباح. وأباح الاحتكارات لتزويد المدينة بالزيت والخبز وغيرهما من الضروريات. وحدث أن الجفاف رفع الأسعار، فطالبت الجماهير برأس سكلاتشي. وقد أغضب رجال الدين بلوائح حدثت من امتيازاتهم وسلطتهم. وفقد المئات من المؤيدين حين صادر الأسلحة المخبأة. وأخيراً أثار الشعب بمحاولة تغيير زي الشعب. فقد أقنع الملك بأن العباءة أو الكاب الطويل الذي يخفي البدن والقبعة العريضة ذات الحافة المقلوقة التي تخفي كثيراً من الوجه، يسهلان إخفاء السلاح ويعوقان الشرطة عن التعرف على المجرمين. ومن ثم حظرت سلسلة متعاقبة من المراسيم الملكية الكاب والقبعة، وزود رجال الضبط بالمقصات الكبيرة يقصون بها العباءات المخالفة حتى يصلوا بها إلى الطول القانوني(33). وكان في هذا التحكم فوق ما يطيقه المدربيون الأباة. فثاروا في أحد الشعانين، 23 مارس 1766، واستولوا على مخازن الذخيرة، وأطلقوا السجناء، وتغلبوا على الجنود والشرطة، وهاجموا بيت سكلاتشي، وحصبوا جريمالدي، وقتلوا الحرس الولوني الذين يحرسون القصر الملكي، وجابوا الشوارع يرفعون رعوس هؤلاء الدخلاء الممقوتين على الرماح متوجة بقبعات عريضة الحواف. وظل الرعاع يومين يواصلون التقتيل والنهب. وهنا أذعن شارل، وألغى المراسيم، وأعاد سكلاتشي إلى إيطاليا محروساً. وكان في غضون ذلك قد أكتشف مواهب الكونت أراندا، وعينه رئيساً لمجلس قشتالة. فجعل أراندا العباءة والصمبريرة Sombbrero أي القبعة العريضة الحافة الزي الرسمي للبلاد. وكان في هذا المعنى الجديد المتضمن ما زهد الناس في الزي القديم، ومن ثم اتخذ معظم أهل مدريد الزي الفرنسي.

كان أراندا سليل أسرة عريقة غنية في أرجوان. رأيناه يتشرب التنوير في فرنسا، كذلك ذهب إلى بروسيا حيث درس التنظيم العسكري ثم عاد إلى أسبانيا منشوقاً إلى العمل على أن يصل وطنه إلى مستوى تلك الدول الشمالية. وأفرط أصحابه الموسوعيون في الجهر باغتباطهم لتقليده السلطة، وأحزنه أنهم بذلك زادوا مهمته صعوبة،(34) وود لون أنهم درسوا

صفحة رقم : 13301

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> شارل الثالث

الدبلوماسية من قبل. وقد عرف الدبلوماسية السياسية بأنها فن "إعادة تنظيم قوة مختلفة السلطات، ومواردها، ومصالحها، وحقوقها، ومخاوفها وآمالها، حتى إذا سمحت المناسبة استطعنا أن نهدئ من هذه القوى، أو نفرق بينها، أو نهزمها أو نتحالف معها، ذلك رهن بكيفية خدمتها لمصالحنا وزيادتها لأمتنا" (35). وكنا الملك في حالة نفسية مواتية لإصلاحات الكنيسة لتوجيهه من أن الأكليروس شجعوا الثورة على سكللاتشي سرأ(36). وكان قد أذن للمطبعة الحكومية في أن تطبع عام 1765 مقالاً غفلاً من أسم الكاتب عنوانه Tratado de la Regalia de L'amortization. تشكك في حق الكنيسة في جمع الثورة العقارية، وزعم أن الكنيسة ينبغي أن تكون خاضعة للدولة في جميع الأمور الزمنية. وكان المؤلف هو كونديه بدرو رودريجز دي كومبومانييس، وكان عضواً في مجلس قشتالة. وكان شارل قد أصدر عام 1761 أمراً يشترط موافقة الملك على نشر الأوامر أو الرسائل البابوية في أسبانيا، وفي تاريخ لاحق ألغى هذا الأمر. ولكنه عاد فجدده في 1768. وأيد الآن أرناندا وكومبومانييس في سلسلة من الإصلاحات الدينية شكلت من جديد وجه أسبانيا الفكري طوال جيل مثير.

ب - الإصلاح الديني الأسباني

لم يكن في نية المصلحين الأسبان أن يقضوا على الكاثوليكية في أسبانيا- ربما باستثناء أرناندا. وكانت الحروب الطويلة التي خاضتها البلاد لطرد العرب (كالقحاح الطويل لتحرير أيرلندا) قد جعلت الكاثوليكية جزءاً من الوطنية وكتفتها إلى درجة إحالتها إلى إيمان قدسته تضحيات الأمة تقديساً لا ينيح التحدي الناجح أو التغيير الجزري. وكان أمل المصلحين أن يخضعوا الكنيسة لإشراف الدولة، وأن يحرروا عقل أسبانيا من رهبة محكمة التفتيش. وقد بدعوا بمهاجمة اليسوعيين. كانت جماعة اليسوعيين قد ولدت بأسبانيا في عقل أغناطيوس لويولا

صفحة رقم : 13302

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> شارل الثالث

وتجاربه، وكان نفر من أعظم قادتها من أسبانيا. وكما حدث في البرتغال، وفرنسا، وإيطاليا، والنمسا اضطلعت الجماعة بالتعليم الثانوي، وزودت الملوك والملكات بأبأء الاعتراف، وشاركت في تشكيل السياسات الملكية. وقد أثار سلطانها المتسع غيرة الأكليروس الكاثوليكي غير الرهباني، وأحياناً عداوة. وكان بعض هؤلاء يؤمنون بأن سلطة المجمع المسكونة تعلق على سلطة الباباوات، أما اليسوعيين فقد دافعوا عن سمو سلطة الباباوات على سلطة المجمع والملوك. وشكا رجال الأعمال الأسبان من أن اليسوعيين المشتغلين بتجارة المستعمرات يبيعون بأسعار أقل من التجار المحترفين بفضل ما يتمتعون به من إعفاءات كنسية من الضرائب، وقرروا أن هذا يقلل من الإيرادات الملكية. وأمن شارل بأن اليسوعيين ما زالوا يشجعون مقاومة هنود باراجواي لأوامر الحكومة الأسبانية(37)؛ وروعه أن يطالعه أرناندا وكامبومانييس وغيرهما على خطابات ادعوا أنهم وجدوها بين رسائل اليسوعيين، وقد صرح أحد هذه الخطابات الذين زعموا أن كاتبه هو الأب ريكي قائد الطائفة اليسوعية؛ بأن شارل ابن غير شرعي ويجب أن يحل محله أخوه لويز. وقد رفض الكاثوليك وغير المؤمنين على السواء صحة هذه الخطابات(39)، ولكن شارل ظنها صحيحة وانتهى إلى أن اليسوعيين يأترون لخلعه، وربما لقتله(40). ولحظ أن محاولة- زعموا أن اليسوعيين كانوا ضالعين فيها- بذلت لاغتيال يوسف الأول ملك البرتغال (1758)، فصحت نيته على أن يحذو حذو يوسف ويطرد الطائفة من مملكته.

وحذره كامبومانيس من أن خطوة كهذه لن يتاح لها النجاح إلا بالاستعدادات المستورة تتبعها ضربة فجائية مدبرة، وإلا استطاع اليسوعيين الذين كانوا يحظون بتبجيل الشعب أن يثيروا ضجة مؤذية في الأمة وممتلكاتها جميعاً. وعملاً باقتراح أرنادا أرسلت رسائل مختومة ممهورة بتوقيع الملك في مطلع عام 1767 إلى الموظفين في جميع أرجاء الإمبراطورية مشفوعة بالأمر بعدم فضها إلا في 31 مارس في أسبانيا، وفي 2 إبريل في المستعمرات،

صفحة رقم : 13303

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> شارل الثالث

وَألا كان الموت عقاب المخالفين . وفي 31 مارس أستيقظ اليسوعيون الأسبان ليجدوا بيوتهم ومدارسهم يطوقها الجنود، ويجدوا أنفسهم معتقلين. وأمروا بالرحيل في هدوء، غير مصطحبين سوى ما يطبقون حمله، أما سائر ممتلكات اليسوعيين فقد صادرتها الدولة. ومنح كل مبعد معاشاً صغيراً يوقف أن عارض أي يسوعي في طرده. ثم أخذوا في عربات تحت الحراسة العسكرية إلى أقرب ميناء وأركبوا السفن إلى إيطاليا. وبعث شارل بكلمة إلى البابا كلمنت الثالث عشر يخبره أنه "ينقلهم إلى الأراضي الكنسية ليظلوا تحت إشراف قداسته الحكيم العاجل.... وأني أرجو من قداستكم ألا تعتبروا هذا القرار إلا احتياطاً مدنياً لا غنى عنه، لم أتخذه إلا بعد البحث الناضج والتفكير العميق(41)".

فلما حاولت أولى السفن التي كانت تحمل ستمائة من اليسوعيين، أن تنزلهم في تشيفيناكيا، رفض الكردينال تورجيانى، السكرتير البابوي، السماح لهم بالرسو محتجاً بأن إيطاليا لا تستطيع بهذه السرعة المفاجئة أن تعنى بهذا العدد الكبير من اللاجئين(42). وظلت السفينة الأسابيع تجوب البحر المتوسط باحثة عن ميناء مضياف بينما يعاني ركابها البائسون من رداءة الجو ومن الجوع والمرض. وأخيراً سمح لهم بالنزول في قورسقه، وبعد حين استوعبتهم الولايات البابوية في جماعات سهلة القيادة. ولقي اليسوعيون في غضون هذا النفي المماثل من نابلي وبارما وأمريكا الأسبانية والفلبين. وناشد كلمنت الثالث عشر شارل الثالث أن يلغي هذه المراسيم التي سيصعق العالم المسيحي كله لا محالة لما فيها من مباغته وقسوة. فأجاب شارل "أنني لرغبتي في أن أعفي العالم من فضيحة كبرى سأظل ما حييت مختبئاً في قلبي سر المؤامرة النكراء التي اقتضت هذه الصرامة. وينبغي لقداستكم أن تصدقوا كلمتي، فسلامة حياتي تفرض عليّ الصمت العميق(43)".

ولم يصفح الملك قط عن الأدلة التي قام عليها مراسيمه. وفي التفاصيل من التناقض والغموض ما يجعل المرء عاجزاً عن الحكم عليها. وقد اعترض

صفحة رقم : 13304

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> شارل الثالث

دالامبير على الطريقة التي نفي بها اليسوعيون، ولم يكن بصديق لهم. ففي 4 مايو 1767 كتب إلى فولتير يقول: "ما رأيك في مرسوم شارل الثالث الذي طرد اليسوعيين على هذا النحو المفاجئ؟ ألا ترى، رغم اقتناعي بأن لديه مبررات كافية ووجيهة، بأنه كان ينبغي أن يصفح عنها لا أن يحبسها في "قلبه الملكي"؟ ألا ترى أنه كان ينبغي له أن يسمح لليسوعيين بتبرير أنفسهم، لا سيما لأن الجميع واثقون أنهم ما كانوا يستطيعون هذا؟ وألا ترى أيضاً أن من الظلم الدين لهم أن يتركوا جميعاً ليموتوا جوعاً بينما الواجب على أخ علماني واحد، ربما يقطع الكرنب الآن في المطبخ، أن يقول كلمة بطريقة أو بأخرى في الدفاع عنهم؟... ألا يبدو لك أنه كان مستطیعاً أن يتصرف بتعقل أكثر في تنفيذ أمر هو رغم كل شيء أمر معقول(44)؟"

أكان طردهم إجراء محبباً لدى الشعب؟ بعد عام من استكمال هذا الطرد وفي عيد القديس شارل، طلع الملك على شعبه من شرفة قصره، فلما سألهم جرياً على عادة مألوفة عندهم أي منحة يرغبون في أن يهبهم صاحبوا "بصوت واحد" أن يسمح لليسوعيين بالعودة، وأن يلبسوا رداء الأكليروس غير الرهباني- فأبى شارل، ونفى رئيس أساقفة طليطلة متهماً إياه بأنه المحرض على الالتماس الذي أشتبه في أنه يهدف إلى التوفيق(45). ولما طلب البابا في 1769 إلى أساقفة أسبانيا رأيهم في طرد اليسوعيين، وافق عليه اثنان وأربعون، وعارضه ستة، ولم يبد ثمانية رأياً في الأمر(46). وأغلب الظن أن الكهنة من غير الرهبان كانوا مغتبطين بإعفائه من منافسة اليسوعيين لهم. ووافق الأخوة الأوغسطينيون في أسبانيا على الطرد، ثم أيدوا بعد ذلك مطالبة شارل الثالث بفض جماعة اليسوعيين بجملتها(47). أما ديوان التفتيش فلم يكن في الإمكان اتخاذ إجراء معجل كهذا معه، فقد كان أعمق من جمعية اليسوعيين تغلغلاً في رهبة وتقاليدهم الذي عزى إلى الديوان في صيانة الأخلاق والاحتفاظ بنقاء إيمانهم- بل حتى

صفحة رقم : 13305

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> شارل الثالث

نقاء دمائهم. وحين ولي شارل العرش كان الديوان يسيطر على عقل أسبانيا برقابة صارمة ساهرة. فأى كتاب تظن به الهرطقة الدينية أو الانحراف الخلقي يقدم إلى الفاحصين، فإذا رآه خطراً بعثوا بتوصياتهم إلى مجلس ديوان التفتيش، وللمجلس سلطة الأمر بمصادرة الكتاب وعقاب مؤلفه. وكان الديوان يصدر دورياً فهرساً بالكتب المحرمة، وكان إحراز كتاب منها أو قراءته دون إذن كنسي جريمة لا يغتفرها إلا ديوان التفتيش، وقد يعاقب مرتكبها بالجرم. وكان على القساوسة خصوصاً في الصوم الكبير أن يسألوا جميع المعترفين بذنوبهم أن كانوا يملكون أو يعلمون أن إنساناً يملك كتاباً محظوراً. وكل مقصر في الإبلاغ عن انتهاك للفهرس يعتبر مذنباً كمنتهكه، وما كان لأية روابط أسرية أو علاقات ودية أن تعفيه من العقاب(48).

ولم ينجز وزراء شارل في هذا المضمار سوى إصلاحات صغيرة. ففي 1768 حد من سلطة الديوان في رقابة المطبوعات باشتراط الحصول على التصديق الملكي على جميع المراسيم المحرمة للكتب قبل تنفيذها. وفي 1770 أمر الملك محكمة الديوان بأن تقتصر على الهرطقة والارتداد دون غيرهما، وإلا تسجن إنساناً ما لم يثبت ذنبه على نحو قاطع. وفي 1784 أمر بأن تعرض عليه إجراءات الديوان الخاصة بكبار النبلاء، وأعضاء مجلس الوزراء والموظفين الملكيين، لمراجعتها. ثم عين رئيساً عاماً للديوان أبدى موقفاً أكثر تحرراً بازاء خلافات الفكر(49). وكان لهذه الإجراءات المتواضعة بعض الأثر، لأن الرئيس العام لديوان التفتيش قرر في حزن أن الخوف من اللوم الكنسي على قراءة الكتب المحرمة يكاد يصبح في خير كان(50)، وكان وكلاء الديوان بعد 1770 بوجه عام أقل غلواً، وعقوباته أرحم من ذي قبل. ومنح التسامح الديني للبروتستنت في عهد شارل الثالث، وللمسلمين في 1779، وأن لم يمنح لليهود(51). وفي عهد شارل الثالث أحتقل بإحراق المنحرفين أربع مرات، آخرها عام 1780 في إشبيلية حين أحرقت عجوز اتهمت بالسحر، وأثار إعدامها

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> شارل الثالث

هذا من النقد في كل أرجاء أوروبا (52) ما مهد الطريق لإلغاء ديوان التفتيش الأسباني في 1713. ومع ذلك ظلت حرية الفكر إذا أعرب صاحبها عنها حتى في عهد شارل الثالث تعاقب قانوناً بالموت. ففي 1768 أتهم بابلو أولافيدي أمام ديوان التفتيش بحيازته صوراً بذيئة في بيته بمدريد، وربما كانت نسخاً من عرايا بوشيه، لأن أولافيدي كان قد جاب فرنسا حتى فرنیه. ثم رمي بتهمة أخطر في 1774، هي أنه لم يسمح بإقامة أديرة في القرى النموذجية التي أنشأها في سييرا مورينا، وأنه حضر على الكهنة تلاوة القداس في غير يوم الأحد أو طلب الصدقات. وأحاط ديوان التفتيش الملك بأن هذه الجرائم وغيرها قد أثبتت بشهادة ثمانين شاهداً. وفي 1778 أستدعي أولافيدي لمحاكمته وأتهم بتأييده نظرية كوبرنيك الفلكية وتراسله مع فولتير وروسو. فرجع الرجل عن أخطائه وتصالح مع الكنيسة، وصودرت كل أملاكه، وحكم عليه بالحبس في دير ثمانية أعوام. وفي 1780 تداعت صحته، وسمح له بالاستشفاء بمياه منتجع معدني في قنلونييه، ومنها فر إلى فرنسا، حيث أستقبله أصحابه الفلاسفة في باريس استقبال الأبطال. ولكنه لم يقض في منفاه بضع سنوات حتى استبد به الحنين إلى مغانيه الأسبانية. فألف كتاباً مشرباً بروح التقوى عنوانه "الإنجيل المنتصر أو الفيلسوف المهدي" وعليه أذن ديوان التفتيش بعودته (53). ونلاحظ أن محاكمة أولافيدي جرت بعد سقوط أراندا من راسة مجلس قنشتالة وفي أخريات حكم أراندا أنشأ مدارس جديدة يقوم بالتدريس فيها أكليروس غير رهباني لملء الفراغ الذي خلفه اليسوعيون، وأصلح العملة بإحلال نقود من نوع جيد وتصميم أرقى محل العملات الممزوقة (1770). على أن إحساسه باستنارته الفائقة جعله بمضي الزمن نزقاً متعطرساً وقحاً. فبعد أن جعل سلطة الملك مطلقة سعى إلى تقييدها بزيادة نفوذ الوزراء. وفقد القدرة على الرؤية المتناسية وتقدير الأمور في أوضاعها الصحيحة، وحلم بإخراج أسبانيا بعد جيل واحد من كتلتها المطمئنة إلى تيار الفلسفة

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> شارل الثالث

الفرنسية. وأعرب في جراءة مغالية عن أفكاره المهرطقة، حتى لكاهن اعترافه. ومع أن الكثير من رجال الأكليروس غير الرهبان أيدوا بعض إصلاحاته الكنسية لما فيها من نفع للكنيسة (54)، فإنه أخاف عدد أكبر بالكشف عن أمله في حل ديوان التفتيش جملة (55). وأشتد كره الناس له حتى أنه لم يجرؤ على الخروج من قصره دون حرس. وراح يكثر من الشكوى من نقل أعباء وظيفته حتى أخذه شارل آخر الأمر عن كلمته فأوفده سفيراً إلى فرنسا (1713-87) وهناك تنبأ بأن المستعمرات الإنجليزية في أمريكا، التي بدأت ثورتها آنذاك، ستصبح في الوقت المناسب من أعظم دول العالم (56).

سيطر على الوزارة بعد رحيل أراندا ثلاثة من الرجال الأكفاء. فخلف خوزيه مونيرو، كونت فلوريدا بلانكا، جريمالدي وزيراً للشؤون الخارجية (1776)، وسيطر على مجلس الوزراء حتى عام 1792. وقد تأثر بالفلاسفة الفرنسيين كما تأثر أراندا ولكن بدرجة أقل. وأرشد الملك في إجراءات لتحسين الزراعة والتجارة والتعليم والعلوم والفنون، ولكن الثورة الفرنسية أخافته فانتكس محافظاً، وقاد أسبانيا إلى أول تحالف ضد فرنسا الثورة (1792). أما بدور دي كامبومانيس فقد ترأس مجلس قشتالة خمس سنين، وكان المحرك الأول في الإصلاح الاقتصادي. وأما جسيبار ملكور دي خوفلانوس، أرفع الأسبان في جيله (57) فقد عرفته الجماهير أول ما عرفته قاضياً رحيماً نزيهاً في إشبيلية (1767) ومدريد (1778). وجاء أكثر نشاطه في الحكومة المركزية تالياً لعام 1789، ولكنه أسهم إسهاماً قوياً في السياسة الاقتصادية أيام شارل الثالث بكتاب ألفه في الإصلاح الزراعي (1787). وقد أذاع اقتراحه مراجعة القانون الزراعي، وهو الاقتراح الذي كتبه برشاقة أسلوب كاد يداني بها رشاقة أسلوب شيشيرون، وشهرته في أوروبا طوياً وعرضاً. هؤلاء الثلاثة، بالإضافة إلى أراندا، كانوا آباء التنوير الأسباني والاقتصاد الجديد. ويرى دارس إنجليزي، بوجه عام، أن النتيجة الطيبة التي حققها تصارع ما تحقق في مثل هذا

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> شارل الثالث

الزمن القليل في أي بلد آخر، ولا ريب في أن تاريخ أسبانيا لا يحوي فترة يمكن مقارنتها بحكم شارل الثالث (58). كانت العقبات التي اعترضت الإصلاح في أسبانيا لا تقل خطراً في الاقتصاد عنها في الدين. فقد بدأ تركيز الملكية الثانية في الأسر الشريفة أو الجماعات الكنسية، واحتكار "المستا" لإنتاج الصوف، حاجزين في وجه التغيير الاقتصادي لا سبيل إلى التغلب عليهما. وكان ملايين الأسبان يفخرون بحياة الكسل التي يحيونها، ولا يخلون من التسول، وكانوا لا يتقون في التغيير لأنه خطر يهدد بالتبطل. وكان المال يختزن في خزائن القصور والكنائس بدلاً من استثماره في التجارة أو الصناعة. وكان طرد المغاربة واليهود والموريسكو قد أزال كثيراً من مصادر تحسين الزراعة وتطویر التجارة. وقد نجم عن صعوبات الاتصال والنقل الداخلي أن تخلف داخل البلاد قرناً عن برشلونة وإشبيلية ومدريد.

على أن فريقاً صادقي النية - نبلاء وقساوسة وأفراد من طبقة العامة رجالاً ونساء - كونوا رغم هذه المعوقات "جمعية اقتصادية لأصدقاء السلام" لدراسة وتشجيع التعليم والعلوم والصناعة والتجارة والفنون. فأنشئوا المدارس والمكتبات، وترجموا الأبحاث الأجنبية وقدموا الجوائز على المقالات والأفكار، وجمعوا المال لمشروعات وتجارب اقتصادية تقدمية. وقد أدانوا تكديس الأمة للذهب باعتباره أثراً مذكراً بالركود، وذلك اعترافاً منهم بتأثير الطبيعيين الفرنسيين وأدم سمث. وأكد واحد منهم: "أن الأمة التي تملك معظم الذهب هي أفقر الأمم... كما أثبتت أسبانيا (60). ورحب خوفلانوس بـ "علم الاقتصاد المدني" باعتباره "علم الدولة الحقيقي". وكثرت المقالات الاقتصادية. وكان مقال كامبومانيس عن الصناعة الشعبية إلهاماً للآلاف ومنهم الملك.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> شارل الثالث

وبدأ شارل باستيراد الغلال والحبوب للأقاليم التي اندثرت فيها الزراعة. وحث المدن على أن تؤجر أراضيها المشاع غير المزروعة للفلاحين بأقل إيجار عملي. وأنشأ فلوريدا بلايكا ببعض إيرادات التاج من دخول الرتب الكنسية الشاغرة أرسدة دينية في بلنسية وملقا لإقراض المال للمزارعين بفائدة منخفضة. ولكي يحد شارل من إزالة الغابات وتعرية التربة أمر جميع الكومونات بأن تزرع كل سنة عدداً محدداً من الأشجار. ومن هنا ذلك الاحتفال السنوي بـ"يوم الشجرة" الذي ظل في نصف الكرة تقليداً صحيحاً أيام شباننا. وقد شجع إغفال الأوقاف القديمة، وثبط وقف الجديد منها، وبهذا يسر تجزئة الضياع الكبيرة إلى ملكيات للفلاحين. ثم اختزلت امتيازات احتكار أغنام المستأخر الأجاد وأبيح زرع مساحات كبيرة من الأرض كانت من قبل حكراً للرعي. واستقدم المستعمرون الأجانب لتعمير المناطق الخفيفة السكان. مثال ذلك أن أولافيدي أنشأ (1767 وما بعدها) في إقليم سبيرا مورينا بجنوب غربي أسبانيا، الذي كان إلى ذلك الحين متروكاً للصوص والوحوش، أربعاً وأربعين قرية وإحدى عشرة مدينة مأهولة بالوافدين الفرنسيين أو الألمان، وأصبحت هذه المستوطنات مشهورة برخائها. وشقت القنوات الطويلة لربط الأنهار وري مساحات واسعة من الأرض كانت من قبل جرداء قاحلة. ثم شقت شبكة من الطرق الجديدة كانت في فترة خير الطرق في أوربا(62)، فربطت القرى والمدن في تيسير يعين على سرعة المواصلات والنقل والتجارة. ومدت الحكومة يد العون للصناعة. ورغبة في إزالة الوصمة التي ألصقتها التقاليد بالعمل اليدوي، أعلن مرسوم ملكي أن لا تعارض بين الأعمال الحرفية وشرف المكانة الاجتماعية، وأن الحرفيين يصح منذ الآن اختيارهم للوظائف الحكومية. وأنشئت المصانع النموذجية: للمنسوجات في وادي الحجارة وسقوية، وللقبعات في سان فرناندو، وللحرائر في طلبيه، وللصيني في بوين رتيرو، وللزجاج في سان إدفونسو، وللزجاج والأثاث الخشبي الفاخر وقطع النسيج المرسوم في مدريد. وشجعت المراسيم الملكية تطور

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> شارل الثالث

الإنتاج الرأسمالي على نطاق واسع، لا سيما في صناعة النسيج. فكان في وادي الحجارة عام 1780 ثمانمائة نول تستخدم أربعة آلاف نساج، وأدارت شركة واحدة في برشلونة ستين مصنعاً تضم 2.162 نولاً نساج القطن، وكان في بلنسية أربعة آلاف نول تنسج الحرير، وأخذت تنافس تجارة ليون في الحرير لما حظيت به من إمكانات التصدير. وفي 1792 كان في برشلونة ثمانون ألف نساج، ولم يفقها في إنتاج الأقمشة القطنية غير أقاليم إنجلترا الوسطى. وكانت إشبيلية وقادس تتمتعان منذ عهد بعيد باحتكار تحميه الدولة للتجارة مع الممتلكات الأسبانية في الدنيا الجديدة، فأنتهى شارل الثالث هذا الامتياز وسمح لمختلف الثغور بالاتجار مع المستعمرات، ثم أبرم بعد التفاوض مع تركيا معاهدة (1782) فتحت الموانئ الإسلامية للسلع الأسبانية. وكانت النتائج مجزية لجميع الأطراف. وازداد أمريكا

الأسبانية سريعاً، وارتفع دخل أسبانيا من أمريكا ثمانمائة في المائة في عهد شارل الثالث، وتضاعفت تجارة صادرها ثلاث مرات(63).
وتطلبت أنشطة الحكومة المتسعة دخولا أكبر. وقد أمكن الحصول عليها إلى حد ما باحتكار الدولة لبيع البراندي، والتبغ، وورق اللعب، والبارود، والرصاص، والزئبق، والكبريت، والملح. وفي بداية العهد كانت هناك ضرائب مبيعات نسبتها خمسة عشر في المائة في قتلونيا، وأربعة عشر قشتالة. وقد وصف خوفلانوس ضرائب المبيعات بحق إذ قال "إنها تفاجئ ضحيتها... عند ميلادها، وتطاردها وتعترضها حين تدور، ولا تغفل عينها عنها أبداً أو تدعها تغفل منها حتى تقضي عليها". (64) وفي عهد شارل الثالث ألغيت ضريبة المبيعات في قتلونيا، وفي قشتالة خفضت إلى اثنين أو ثلاثة أو أربعة في المائة(65). وفرضت ضريبة متدرجة معتدلة على الدخل. وضماناً للمزيد من المال بتشغيل مدخرات الشعب، أُنْعِمَ فرانسيسكو دي كاباروس الخزانة بأن تصدر سندات حكومية تقل فائدة. فلما هبطت هذه السندات إلى ثمانية في المائة من قيمتها الاسمية،

صفحة رقم : 13311

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> شارل الثالث

أسس (1782) أول مصرف قومي أسباني- بنكودي سان كارلوس- استهلك السندات بقيمتها الاسمية وأعاد الثقة المالية بالدولة.
وأثمر حسن الإدارة وروح الأقدام زيادة محسوسة في ثروة الأمة في جملتها. وكان أكثر الطبقات انتفاعاً هي الوسطى، لأن منظماتها هي التي أعادت تشكيل الاقتصاد الأسباني. ففي مدريد كون 375 من رجال الأعمال خمس نقابات تجارية كبرى سيطرت على معظم تجارة العاصمة. ونستطيع الحكم على مبلغ ثرائها من استطاعتها أن تقرض الحكومة عام 1776 ثلاثين مليون ريال(66).
وقد حبذت الحكومة بوجه عام ظهور طبقة رجال الأعمال هذا باعتباره أمراً لا غنى عنه لتحرير أسبانيا من الاعتماد الاقتصادي والسياسي على دول ذات اقتصاد أرقى. ولم تحظ البرولتاريا الناشئة، هنا شأنها في تلك الدول، بنصيب مذكور في الثراء الجديد. وارتفعت الأجور لا سيما في قتلونية حيث شكوا الأغنياء من صعوبة العثور على الخدم والاحتفاظ بهم(67)، ولكن يمكن القول بوجه عام أن الأسعار ارتفعت بأسرع من ارتفاع الأجور، وإن الطبقات العاملة كانت فقيرة في ختام العهد فقراً في مطلعها. وقد لاحظ إنجليزي حساب لنسيه في 1797 ذلك التناقض بين (ثراء..التجار، وأصحاب المصانع، ورجال الدين، والعسكريين، والسادة من ملاك الأرض و "الفقر، والبؤس، والأسمال" التي ترى في كل شارع(68). وعليه فقد رحبت الطبقات الوسطى بالتنوير Luees الآتي من فرنسا وإنجلترا في حين كان موظفيهم الذين ملئوا الكنائس ولثموا المزارات يعوزون أنفسهم بالنعمة الإلهية وبأمال الفردوس.
واتسعت المدن في ظل الاقتصاد الجديد. وكان يعيش في المراكز البحرية الكبرى- برشلونة وبلنسية وإشبيلية وقادس- سكان يتفاوتون من 80.000 إلى 100.000 (1800). وكان يسكن مدريد (في 1797) 167.607، بالإضافة إلى 30.000 من الأجانب. وحين ولي شارل الثالث العرش كانت المدينة تشتهر بأنها أفقر عواصم أوروبا. وكان الناس من سكان

صفحة رقم : 13312

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> شارل الثالث

الأحياء الفقيرة لا يزالون يفرغون قماتهم في الشوارع معتمدين على الريح أو المطر لتبديدها، فلما حضر شارل هذه العادة رموه بالطغيان. قال "إن الأسبان أطفال يكون حين يحممون (69)". وقد أقام موظفوه رغم هذا نظاماً لجمع القمامة وللصرف، ونظم الزبالون لجمع النفايات لاستخدامها سماً (70)، وبذل جهد لمنع التسول ولكنه باء بالفشل، ورفض الشعب السماح للشرطة بالقبض على المتسولين - لا سيما المكفوفين منهم الذين شكلوا نقابة قوية فيما بينهم. وأصلح شارل من أمر عاصمته عاماً بعد عام. فجاء لها بالماء من الجبال إلى سبعمئة نافورة، حمله منها 720 سقاء في مشقة وعناء لتوزيعه على بيوت المدينة. وأضيأت الشوارع بمصابيح الزيت من الغسق إلى نصف الليل طوال شهور ستة في الخريف والشتاء، وكان أكثر الشوارع ضيقاً ملتويماً يتبع دروباً عتيقة متعرجة ويتوارى من شمس الصيف، ولكن بعض الشوارع المشجرة العريضة الجميلة شقت، وتمتع الشعب بالبساتين الفسيحة والمماشي الظليلة. وكان أحبها إلى الناس (باسيوديل برادو) أو متنزه المرج، الذي لطفته هواءه النوافير والأشجار، وفضله العشاق للاستطلاع ولقاءات الغرام. وهناك في 1785 بدأ خوان دي فيلانوفا تشييد متحف البرادو. وهناك في أي يوم تقريباً كانت تجري أربعمئة مركبة، وفي أي عشية كان يتجمع ثلاثون ألف مدريدى. وحظر عليهم التغمي بالأغاني البذيئة، أو الاستحمام عراة في النوافير، أو عزف الموسيقى بعد منتصف الليل، ولكنهم كانوا يستمتعون بأصوات النساء الرخيمة وهن ينادين على البرتقال والليمون والبنديق. ذكر الرحالة أن المشهد الذي كان يرى كل يوم على البادو في أخريات القرن الثامن عشر كان يعدل ما يرى في مدن أخرى في الفترة نفسها في الأحاد والعطلات فقط (71)، وأصبحت مدريد آنذاك، كما عادت في عصرنا هذا، من أجمل مدن أوروبا.

لم ينجح شارل الثالث في السياسة الخارجية نجاحه في الشؤون الداخلية. وبدا أن ثورة المستعمرات الإنجليزية في أمريكا نتيج فرصه الانتقام للخسائر التي منيت بها أسبانيا في حرب السنين السبع، فحث أراندا شارل على تقديم

صفحة رقم : 13313

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> شارل الثالث

العون للثوار، فبعث له الملك سراً بمليون جنيه (يونيو 1776). وأفضت هجمات القراصنة الإنجليزية على السفن الأسبانية آخر الأمر إلى إعلان أسبانيا الحرب على إنجلترا (23 يونيو 1779). واستعادت قوة أسبانية مينورقة، ولكن محاولة الأسبان الاستيلاء على جبل طارق باءت بالفشل. واتخذت العدة لغزو إنجلترا، ولكن الغزو عطلته العواصف (البروتستنتية) وفي صلح فرساي (1783) سحبت أسبانيا مطالبها بجبل طارق ولكنها استعادت فلوريدا. وأحزن الملك في سنه الأخيرة إخفاقه في استرداد وحدة الأراضي الأسبانية وكانت الحروب قد أتت على شطر كبير من الثروة التي أنتجها الاقتصاد الجديد. ولم يستطع زراؤه الأكفاء أن يتغلبوا قط على شديتين من قوى المحافظة - كبار النبلاء بضياعهم الشاسعة، والأكليروس بما لهم من مصلحة راسخة في سداجة الشعب. أما شارل نفسه فنذر أن تذبذب في ولائه الأصيل للكنيسة. ولم يعجب به شعبه قط إعجابه حين يراه - وقد لقي موكباً دينياً - يعطي مركبته للأسقف حامل القربان ثم ينضم إلى الموكب سائراً على قدميه. وأكسبه ورعه المحبة التي افتقدها من الشعب وهو الغريب الوافد من إيطاليا - في العقد الأول من حكمه. فلما وافته منيته (14 ديسمبر 1788)، بعد أربعة وخمسين عاماً

حكم فيها نابلي وأسبانيا، كان كثيرون يرون فيه أبر ملوك أسبانيا إن لم يكن أعظمهم. وقد تجلت فطرته الطيبة الرقيقة حين سأله الأسقف القائم على خدمته وهو على فراش الموت هل غفر لأعدائه جميعاً، فقال متسائلاً "كيف أنتظر جواز المرور هذا قبل أن أغفر لهم؟ لقد غفرت لهم أجمعين في اللحظة التالية للإساءة(72)".

صفحة رقم : 13314

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> الخلق الأسباني

6- الخلق الأسباني

أي طراز من الناس كان أسبان القرن الثامن عشر هؤلاء؟ الإجماع على أنهم كانوا قوماً أفاضل إذا قيسوا بنظرائهم في إنجلترا وفرنسا. وكان لهم في تدينهم الشديد، ومن شجاعتهم وإحساسهم بالشرف، ومن تماسكهم ونظامهم الأسريين، عوامل تصحيح قوية لحساسيتهم الجنسية وكبرياتهم

صفحة رقم : 13315

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> الخلق الأسباني

العدوانية، حتى مع تكريسهم شوفينييه مشبوبة في مسائل العرق والدين. وقد أعاق الانتخاب الجنسي الشجاعة لأن النساء الأسبانيات وهن يطلبن الحماية كن يمنحن أرق ابتساماتهن للرجال الذين يواجهون الثيران في الحلبة أو الشوارع، أو الذين يباعدون برفض الإهانة والتأثر لأنفسهم، أو الذين يعودون من الحرب مكملين بغار الانتصار. ولانت الفضائل الجنسية ينتق الأفكار والعادات الفرنسية، وكانت الصبايا يحرسن حراسة مشددة، وكان رضا الوالدين (بعد 1766) شرطاً قانونياً للزواج، ولكن النساء في المدن الكبيرة كن بعد الزواج ينغمسن في الغزل والمعابثة وأصبح "الفرس التابع" ملحاً ضرورياً للسيدة العصرية، وازداد الفجور (73). وابتدعت جماعة صغيرة تدعى "الماخو" و"الماخا" مظهراً فذاً من مظاهر الحياة الأسبانية. وكان الماخو رجالاً من الطبقة الدنيا يلبسون كالغنادير، ويرتدون العباءات الطويلة، ويطيلون شعورهم، ويغطون رؤوسهم بقبعات عريضة الحافة، ويدخنون السيجار الكبير، وكانوا على استعداد دائم للعراك، يعيشون عيشة بوهيمية على نفقة خلياتهم-الماخا-كلما أمكن ذلك. ولم يعينوا بالقانون في اتصالاتهم الجنسية؛ وكان للماخا في كثير من الحالات زوج يعولها بينما تعول هي خليلها الماخو، ويعرف نصف العالم الماخا، كاسية أو عارية من فرشاة جوياء.

أما الفضيلة الاجتماعية فكانت عالية المستوى نسبياً. لقد وجد الفساد السياسي والتجاري، ولكن ليس على النطاق الواسع المعروف آنئذ في فرنسا أو إنجلترا، ذكر رحالة فرنسي أن "الأمانة الأسبانية مضرب الأمثال وتتجلى واضحة في العلاقات التجارية" (74). فكانت كلمة السيد الأسباني مستنداً أدبياً ساري المفعول من لشبونة إلى سانت بطرسبرج. وكثيراً ما كانت الصداقة في أسبانيا أبقى من الحب. أما البر بالفقراء فموفور. ففي مدريد وحدها كانت المؤسسات الدينية توزع كل يوم ثلاثين ألفاً من قصاع الحساء المغذي على الفقراء (75). وأسس الكثير من المستشفيات والملاجئ الجديدة،

صفحة رقم : 13316

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> الخلق الأسباني

ووسع الكثير من القديم منها أو حسن. وكان جل الأسبان كرماء رحماء إلا مع المهرطقين والثيران. وكان قتال الثيران ينافس الدين والجنس والشرف والأسرة محلاً لحب الأسبان. وكان الدفاع عن هذه المعارك، شأنه شأن ألعاب المجالدة في روما القديمة، يقوم على أساسين أن الشجاعة يجب أن تربي في الرجال، وأن الثيران لا بد أن تموت قبل أن تؤكل. وقد حرم شارل هذه المعارك، ولكنها استأنفت بعد موته بقليل. وكان مهرة المصارعين الفرسان ومغامروهم معبودي الطبقات كلها. وكان لكل منهم أنصاره، فدوقة ألبا تؤثر كوستلاريس ودوقة أوزونا تؤثر روميرو، وقسم الحزبان مدريد كمل قسم جلوك ويتشيني باريس. وراهن الرجال والنساء بأرزاقهم على مصير الثيران، وعلى كل شيء آخر تقريباً. وكان القمار محرماً بالقانون ولكنه شائع، لا بل كانت البيوت الخاصة تدير أمسيات للقمار وكانت المضيفات يقبضن رسوم اللعب. وتخلت ملابس السادة شيئاً فشيئاً عن العباءة السوداء المقبضة والياقة الصلبة التي تزيها بها الجيل السابق، واستبدلت بها الزي الفرنسي وهو السترة الملونة والصدرة الطويلة من الساقان أو الحرير، وسراويل الركوب، والجوارب الحريرية الطويلة، والحذاء ذو المشبك، يتوج هذا كله باروكة وقبعة مثلثة الأركان. أما المرأة الأسبانية فألفت أن تجعل من مفاتها سراً غامضاً مقدساً تلفها في صدرات من الدنتلا وتتورات طويلة، ذات أطواق موسعة أحياناً. وتستعمل برقع من قماش الطرح إخفاء لعيونهن التي يود المعجب الأسباني لو أغرق روحه في أعماقها المظلمة. وكانت السيدة في القرن السابع عشر نادراً ما تكشف عن قدميها لأنظار الرجال، أما الآن فقد قصرت الجونلة إلى بضع بوصات فوق الأرض، واستعوض عن الخفين المستويين بحذاء مدبب عالي الكعب، وقد أُنذر الوعاظ بأن تعرية النساء لأقدامهن على هذا النحو غير مهذب إنما يزيد نار الرجال المتقدة اشتعالاً. ولكن النساء ابتسمن، وزين أذيتهن، ونشرن تنوراتهن، وروحن بمراوحن

صفحة رقم : 13317

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> الخلق الأسباني

حتى في أيام الشتاء. وكانت إيزابيللا فارنيزي تملك ذخيرة من 1626 مروحة زين بعضها برسوم لرسامين ذوي شهرة قومية.

وكانت الحياة الاجتماعية مقيدة في كل شيء إلا المراقص. فاجتنبت المجتمعات في الأمسيات النقاش الجاد مؤثرة عليه الألعاب والرقص والغزل. وكان الرقص غراماً كبيراً في أسبانيا، وقد أفرخ ألواناً اشتهرت في أوربا. فكانت "الفاندانجو" ترقص على ميزان ثلاثي بالصاجات، أما السجيديللا فيؤديها زوجان أو أربعة أزواج من الراقصين، بمصاحبة الصاجات وبالغناء عادة، وقد اتخذت رقصة مشتقة منها تسمى البوليرو وشكلها حوالي 1780، وسرعان ما اكتسبت شعبية مجنونة. وفي رقصة الكونترادانزا كان صف من الرجال يواجه صفاً من النساء في تقدم وتأخر متناوبين، وكأنما يرمز هذا إلى تكتيك الحرب الأبدية بين المرأة والرجل، أو كان أربعة أزواج يؤلفون ويحيطون مربعاً في رقصة فخمة تدعى الكونترا دانزا كوادرادا-أي الكدريل. وكانت حفلات الرقص المقنع تجتذب أحياناً 3.500 من الراقصين المتحمسين، وكان القوم في المرافع يرقصون حتى مطلع الفجر.

وجعلت هذه الرقصات الحركة شعراً حياً وحافظاً جنسياً. قيل إن المرأة الأسبانية التي ترقص السجيديللا كان في رقصها من الإغراء ما يخرج البابا ومجمع الكرادلة بأسره عن وقارهم (76). وقد وجد كازانوفا نفسه شيئاً يتعلمه في أسبانيا فقال:

"حين أوشك الليل أن ينتصف بدأت أعنف الرقصات وأكثرها جنوناً... وهي الفندانجو، التي ظننت في سذاجتي أنني طالما شهدتها، والتي فاقت (هنا) أشد تصوراتي جموحاً... ففي إيطاليا وفرنسا يحرس الراقصون على تجنب الإيماءات التي تجعل هذه الرقصة أكثر الرقصات شهوانية. ويخطو الزوجان راقص وراقصة ثلاث خطوات فقط، ثم يرتميان في مختلف الأوضاع الفاجرة وهما يصحبان الموسيقى بالمصاحبات ويعرضان قصة العشق كلها من مولده إلى ختامه من أول تهيدة إلى آخر نشوه. فلم أملك لشدة انفعالي إلا أن أصرخ عالياً (77)".

صفحة رقم : 13318

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> الخلق الأسباني

وقد عجب من سماح ديوان التفتيش برقصة مثيرة كهذه إلى هذا الحد، فقبل له أنها "محرمة تحريماً باتاً، لولا أن الكونت أراندا أذن بها لما جرؤ أحد على رقصها".

وارتبطت بالرقص ألوان من الموسيقى الأسبانية كانت من أحبها إلى الشعب، مثال ذلك أن الكانتي فلانكو أو الغناء العجري (الفلمنكي) استخدم نغمة شاكية عاطفية كان كل المغنين العجري يصاحبون بها "السجيديللا جيتانا". ولعل هذه الأغاني الشجية كانت أصداً لألحان مغربية، أو لعلها عكست النوعية المكتنبة للدين والفن الأسبانيين، أو العجز المسخط عن الوصول إلى جسد المرأة، أو انقشاع الوهم عقب الوصال. وقد وفدت نغمة أبهج بوفود الأوبرا الإيطالية (1703) وأغاني فازينللي. ولكن "الخصي" العجوز فقد الخطوة في عهد شارل الثالث بعد أن ظل يشدو بأغانيه طوال عهدين، وقد أنزله شارل عن عرشه بهذا السطر "أن الديوك المخصية لا تصلح إلا للأكل (78)". واتصل النفوذ الإيطالي بمجيء سكارلاتي، وانتصر مرة أخرى بمجيء بوكيريني الذي قدم في 1768، وسيطر على موسيقى البلاط على عهد شارل الثالث وشارل الرابع، ومكث بأسبانيا حتى وافاه الأجل (1805).

وبحركة عكس هذه الحركة وفق فنشنتي مارتن أي سولار، بعد أن حقق لنفسه الشهرة في أسبانيا، في أن يخرج الأوبرا الإيطالية في فلورنسة، وفيينا، وسانت بطرسبرج وناست صوتات أنطونيو سولر على الهاربسكورد صوتات سكارلاتي، وحول دون لويز ميسون "التونادا" أو السولو الصوتية، إلى "التوناديللو" فاصلاً من الغناء بين فصول المسرحية. وفي 1799 أنهى أمر ملكي حكم الموسيقى الإيطالية في أسبانيا بحظر أداء أي تمثيلية ما لم تكتب باللغة القشتالية ويمثلها ممثلون أسبان (79).

والخلق الأسباني لا يمكن صبه في قالب متمائل واحد. فالروح الأسبانية تتفاوت بتفاوت المشهد الطبيعي من ولاية إلى ولاية، وكان الأسبان المتفرنسون الذين تجمعوا في مدريد طرازاً يختلف كل الاختلاف عن المواطنين الذين

صفحة رقم : 13319

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> الخلق الأسباني

تجمدوا في العادات الأسبانية. ولكننا قد نستطيع بعد أن نغض النظر عن الأقليات الدخيلة ظان نتبين في الشعب الأسباني طبعاً أصيلاً متفرداً. فقد كان في الأسباني كبرياء ولكن في قوة صامته لا تستمد الكثير من الشوفينية أو القومية، كانت كبرياء الفردية، وإحساساً مصمماً بالكفاح المنفرد ضد الأذى الدنيوي أو الإهانة الشخصية أو الهلاك الأبدي. ولمثل هذه الروح كان يمكن أن يبتدي العالم الخارجي أمراً ذا أهمية ثانوية لا يستحق القلق أو الكد في سبيله، فلا أهمية إلا مصير النفس في الصراع مع الإنسان والبحث عن الله. إذن فما أتفه مشكلات السياسة، والسباق على المال، والإعلاء من قدرة الشهرة أو المنصب، وحتى انتصارات الحرب لا مجد يكللها ما لم تكن انتصارات على أعداء الدين. أما وقد ضربت جذور الأسباني في صميم هذا الدين، فقد كان في استطاعته أن يقابل الحياة بهدوء رواقى، وبايمان بالقضاء والقدر ينتظر في اطمئنان ثواب الجنة بعد الممات.

صفحة رقم : 13320

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> العقل الأسباني

7- العقل الأسباني

حين قبل لويس الرابع عشر ما عرضه آخر ملوك الهابسبورج في أسبانيا من الإيحاء بتاجه لحفيد الملك العظيم، صاح سفير أسباني بفرساي في ابتهاج "لم يعد الآن وجود لجبل البرانس!" ولكن تلك الكتل الرهيبة لم تتزحزح عن موقفها عقبة كؤوداً في سبيل التنوير الفرنسي، ورموزاً للمقاومة التي ستلقاها محاولة قلة مخلصنة أن تصبغ العقل الأسباني بالصبغة الأوروبية. وقد فاجأ كاميو مانيس الشيوخ بمقال في التعليم الشعبي (1774-76)، جعل من التوسع في التعليم الشعبي أساساً لا غنى عنه لحبوية الأمة ونموها. ولم ير بعض كبار رجال الدين وملاك الأراضي معنى لإزعاج الشعب بمعرفة لا لزوم لها قد تقضي في النهاية إلى الهرطقة الدينية أو الثورة الاجتماعية. ولكن خوفيلانوس الذي لم يشه هذا

الاعتراض كإفح لنشر الإيمان بالتعليم، وكتب يقول "كثيرة هي الجداول المؤدية إلى الرخاء الاجتماعي، ولكنها كلها تتبع من منبع واحد هو التعليم العام.(80) وكان يعلل نفسه بأن التعليم

صفحة رقم : 13321

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> العقل الأسباني

سيعلم الناس أن يفكروا، وإن التفكير سيحررهم من سلطان الخرافة والتعصب، وإن العلم الذي يطرده أمثال هؤلاء سيستخدم موارد الطبيعة لقهر المرض والفقر. وتقبل بعض كرائم النبيلات هذا التحدي، والفن Junta dw Damas لتميل المدارس الابتدائية. وأنفق شارل الثالث مبالغ كبيرة في إنشاء المدارس الأولية المجانية. وشارك أفراد غير رسميين في تأسيس الأكاديميات لدراسة اللغات أو الأدب أو التاريخ أو الفن أو القانون أو الطب. وكان طرد اليسوعيين ملزماً بإعادة تشكيل المدارس الثانوية وميسراً لها. وأمر شارل بتوسيع مقررات العلوم في هذه الكليات، وبتحديث كتبها المدرسية، وبالسماح للعلمانيين بالتدريس في أقسامها. وأعان الكليات بالمنح والهيئات، وقرر المعاشات للبارزين من المعلمين(81)". ونصحت الجامعات بتدريس فيزياء نيوتن وفلسفة ديكارت وليبننتز في مناهجها. ورفضت جامعة سلمنقه النصيحة بحجة أن "مبادئ نيوتن... وديكارت لا تشابه الحقيقة الموحى بها بالقدر الذي تشابهها به مبادئ أرسطو(82)", ولكن معظم الجامعات الأسبانية قبلت التوجيه الملكي، وكانت جامعة بلنسية الآن (1784)، بطلابها البالغ عددهم 2.400، أكبر المراكز التعليمية وأكثرها تقدماً في أسبانيا. وأدخلت عدة طوائف دينية "الفلسفة الحديثة" في كلياتها. وحث قائد الرهبان الكرملين الحفاة، المعلمين الكرمليين على قراءة أفلاطون وشيشرون وفرانسيس بيكن وديكارت ونيوتن وليبننتز ولوك وفولف وكوندياك، هنا لم يكن للتقديسين حكم. ودرست جماعة من الرهبان الأوغسطينيين هوبز، وأخرى هلفيتوس. وكانت مثل هذه الدراسات تلتحق دائماً برود تقفدها، ولكن كثيراً من المؤمنين الغيورين فقدوا إيمانهم وهم يفتنون دعاوى أعدائه. من ذلك "حادثة" راهب فذ اشتهر يوم كان شارل لا زال شاباً، ذلك هو بنيتو خيرونيمو فيخواي موننتجرو الذي انفق الأعوام السبعة والأربعين الأخيرة من عمره (1717-64) في دير بندكتي يافويدو،

صفحة رقم : 13322

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> العقل الأسباني

ومع ذلك استطاع أن يدرس بيكن وديكارت وجاليلو وبسكال وجاسندي ونيوتن وليبننتز، ورأى في عجب وخجل كيف عزلت أسبانيا بعد سرفانتس عن التيارات الكبرى للفكر الأوربي. فأرسل من قلايته، بين عامي 1726 و1739، سلسلة من ثمانية مجلدات سماها Teatro Critico وهو لا يعني نقد المسرح، بل الامتحان الدقيق للأفكار. وقد هاجم فيها المنطق والفلسفة اللذين يدرسان في أسبانيا في أيامه، وامتدح دفاع بيكن عن العلم الاستقرائي، ولخص كشوف

العلماء في كثير من المجالات، وهزأ بالسحر والكهنة والمعجزات الزائفة، والجهل بالطب، والخرافات الشعبية، ووضع قواعد للوثوق بالتاريخ نسفت الأساطير القوية الساذجة في غير رحمة، وطالب بنشر التعليم بين جميع الطبقات، ودافع عن حياة أكثر حرية وعلنية للنساء في التعليم والمجتمع. واجتمع حول كتبه شريحة من الأعداء يتهمون وطنيته وينددون بإقتحاماته. واستدعا ديوان التفتيش أمام محكمته، ولكنها لم تهتد إلى هرطقة صريحة لا في شخصه ولا في كتابه. وفي 1742 استأنف حملته بأول مجلدات خمس عنوانه "رسائل متفحمة مستطلعة". وكان يكتب بأسلوب جيد، مقرأ بالتزام كل مؤلف التزاماً أدبياً بأن يكون واضحاً، واستناب الجمهور تعليمه وشجاعته فتكاثر الطلب على "التياترو" و "الرسائل" حتى بلغ ما طبع منها خمس عشرة طبعة حتى علم 1786. ولكنه لم يستطع قطع دابر الخرافة في أسبانيا، فظلت الساحرات والعفاريت والشياطين تملأ الجو وتخيف العقول، ولكن كان جهده بداية السير على درب، ومن مفاخر طائفته أن يقوم بهذا الجهد راهب لزم قلايته المتواضعة دون أن يزعجه أحد حتى أوفته منيته وهو في الثامنة والثمانين (1764). وأكليديكي آخر هو الذي كتب أشهر كتاب نثري في أسبانيا في القرن الثامن عشر. وكما حرص البندكتيون على ألا يلحق بفيخواي أذى، فكذلك حمى اليسوعيون قسيساً منهم كان أهم إنتاج له نقداً لاذعاً للمواعظ. وكان خوزيه فرانسيسكو ذي ايزلا هو نفسه واعظاً بليغاً، ولكن أضحكته

صفحة رقم : 13323

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> العقل الأسباني

أول الأوامر، ثم أزعجته، الحيل الخطابية والأوهام الدينية، والتمثيل والتهرج الذي يجذب به بعض الوعاظ انتباه الشعب ودرامهم في الكنائس والميادين العامة. وفي 1758 سخر سخرياً لاذعة بهؤلاء المبشرين في "قصة عن الراهب جيرونندو الواعظ المشهور". يقول الأب ايزلا إن الراهب جيرونندو: "ألف أن يبدأ عظاته بمثل أو نكتة سوقية أو شذرة غريبة انتزعت من سياقها فبدت لأول وهلة غير منطقية أو تجديفاً أو كفراً حتى إذا ترك جمهوره لحظة مترقباً في عجب أنهى عباراته وطلع بتفسير أحال كل ما قاله إلى ضرب من التفاهة الحفيرة. من ذلك أنه كان يعظ ذات يوم عن سر الثالوث فاستهل عظته بقوله "أنى أنكر إن الله موجود كوحدة في الجوهر وثالوث في الذات" ثم توقف لحظة. وتلفت السامعون بالطبع حولهم. متسانلين ما عسى أن تكون خاتمة هذا التجديف المهزول. وأخيراً، وبعد أن ظن الواعظ أنه قبض على ناصيتهم، وأصل الحديث قائلاً: "كذلك يزعم الأبيونيون، والمارسيونيون، والاريوسيون، والماتويون، والسوسينيون، ولكني أثبت ضلالهم كلهم من الأسفار المقدسة، والمجامع، وآباء الكنيسة(83)".

وبيعت ثمانمائة نسخة من كتاب "الراهب جيرونندو" خلال يوم من صدوره. وهاجمه الرهبان الوعاظ زاعمين أنه يشجع على احتقار رجال الدين. وأستدعى ايزلا أما محكمة التفتيش، وأدين كتابه (1760)، أما هو فلم يعاقب. ثم أنضم إلى إخوانه اليسوعيين في المنفى، وأصيب في الطريق بالشلل. وقضى ختام عمره في بولونيا عائشاً على المعاش الضئيل الذي منحه إياه الحكومة الأسبانية.

أما الشعر فكان يقرضه كل أسباني ملم بالكتابة. وقد اجتمع في 1727 في مباراة شعرية (عام 1727) 150 متنافساً. وأضاف خوفيلانوس الشعر والدراما لضروب نشاطه الأخرى فقيهاً ومربياً ورجل دولة. وأصبح بيته

صفحة رقم : 13324

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> العقل الأسباني

في مدريد ملتقى لرجال الأدب وقد ألف الهجائيات على طريقة جوفينال، موبخاً الفساد الذي وجده في الحكومة والقانون، وتعنى بمناهج الحياة الريفية الآمنة المطمئنة شأن كل ساكن للمدن. ونظم نقولا فرنانديز دي مورائن شعراً ملحمياً تناول مغامرات كورنيز، ويقول العارفون أن-هذه القصيدة "أرفع قصيدة من نوعها أنجبتها أسبانيا في القرن الثامن عشر(84)".

وكانت الأشعار المرحية المهذبة التي نظمها دييجو جونزالز، الراهب الأوغسطيني، أحب إلى الشعب من قصيدته التعليمية "مراحل الإنسان الأربع" التي أهداها إلى خوفيلاانوس. كذلك اتخذ دون توماس دي إيريارتي أي أوروبيزا اتجاهاً تعليمياً في قصيدته "في الموسيقى"، وكان خيراً منها "قصصه الخرافية" (1782) التي طغت مغامز العلماء وأكسبته شهرة لم تزل حية إلى اليوم. وترجم بعض مآسي فولتير وملاهي موليير، وسخر من الرهبان "الذين يتسلطون على السموات وعلى تلي أسبانيا"، وقد حاكمه ديوان التفتيش فأنكر آراءه، ومات بالزهري وهو في الحادية والأربعين (1791)(85).

وفي 1780 أعلنت الأكاديمية الأسبانية عن جائزة تمنح لقصيدة تمجد الحياة الرعوية. فقال إيريارتي الجائزة الثانية ولم يغفر قط لصاحب الجائزة الأولى، لأن ميلانديز فالديس مضى ليصبح كبير الشعراء الأسبان في ذلك العهد. وتودد خوان إلى خوفيلاانوس، وحصل بنفوذه على كرسي الإنسانية في جامعة سلمنقة (1781) وهناك أقنع الطلاب أولاً، ثم الكلية، بدراسة منهج أكثر اقتحاماً، بلغ إلى حد قراءة لوك ومونتسكيو. وألف في أوقات فراغه فيما بين المحاضرات مجلداً من الأغاني والشعر الرعوي-هو استحضارات حية لمشاهدة الطبيعة في أبيات بلغت من الرقة وكمال الصقل ما لم تقرأه أسبانيا منذ أكثر من قرن. وكان للرضى الذي أسبغته عليه خوفيلاانوس الفضل في ترقيته إلى منصب القضاء بسرقسطة وإلى محكمة القضاء العالي في بلد الوليد، وأضرت السياسة بشعره. فلما نفي خوفيلاانوس (1798) أقصى ميلانديز أيضاً. فجرد قلمه للتنديد بغزاة

صفحة رقم : 13325

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> العقل الأسباني

أسبانيا الفرنسيين، وخص منهم جوزيف بونايرت، ولكنه عاد إلى مدريد في 1808، وقبل وظيفة تحت راسية جوزيف بونايرت، وصدم أسبانيا بقصائد يتملق بها سادته الأجانب. وفي حرب التحرير التي خلعت جوزيف نهب الجنود الفرنسيون منزل الشاعر، وهاجمه هو نفسه الغوغاء الغاضبون، فهرب لحياته من أسبانيا. وقبل أن يعبر البيداسوا إلى فرنسا قبل آخر بقعة من التراب الأسباني (1813). وبعد أربع سنوات مات فقيراً مغموراً في مونبلييه. وكان ينبغي أن يكون لأسبانيا كتاب مسرح أكفاء في هذا العهد، لأن الملوك البوربون كانوا ميالين للمسرح. وقد عملت على اضمحلاله ثلاثة عوامل: إيثار إيزابللا فارنيزي القوي الأوبرا، وفليب الخامس لفارنيللي، ومن ثم اعتماد المسرح على الجمهور الذي كان أكثر ما يستحسنه هو "الفرص"، والمعجزات، والأساطير والشقشقات اللفظية، وجهد كتاب الدراما الجادون لحبس تمثيلاتهم داخل "الوحدات الأرسطاطالية" في الحركة والمكان والزمان. وكان أحب كتاب المسرحية إلى الشعب في ذلك القرن هو رامون فرانسكودي لاکروز، الذي كتب نحو أربعمئة فارص صغير يهجو

فيها عادات الطبقتين الوسطى والدنيا وأفكارهما وحديثهما، ويصور مع ذلك ذنوب الجماهير وحمقاتهم بعطف غافر. أما خوفيلانوس، "رجل أسبانيا الجامع" فقد جرب الكوميديا، وظفر باستحسان الجمهور والنقاد جميعاً بملهاته "المجرم المكرم" (1773): وفحواها أن سيداً أسبانياً يرفض مراراً وتكراراً أن يبارز غريماً ثم يقبل التحدي أخيراً بعد إلحاح، ويقتله في معركة عادلة، ثم يحكم عليه بالإعدام قاض يتبين أنه أبوه. وقد أستههدف خوفيلانوس، وهو المصلح على الدوام، من تمثليته هذه الوصول إلى التخفيف من القانون الذي اعتبر المباراة جريمة كبرى. أما الحملة الداعية إلى الوحدات الأرسطاطالية فقد تزعمها الشاعر نيقولا فرنانديز دي موراتن: وواصلها حتى تكلفت بالنجاح ابنه لياندرو. وقد أبهجت خوفيلانوس أشعار هذا الفتى الباكرة، فحصل له على وظيفة في

صفحة رقم : 13326

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> العقل الأسباني

السفارة الأسبانية بباريس. وهناك صادق جولدوني، فوجهه إلى كتابة التمثيليات. وأغدق الحظ هباته على صورتين الابن: فأوفد على نفقة الدولة ليدرس المسارح في ألمانيا وإيطاليا وإنجلترا. وحين عاد إلى أسبانيا منح وظيفة شرفية أتاحت له الفراغ اللازم للعمل الأدبي. وقدمت ملهاته الأولى لمسرح في مدريد عام 1786، ولكن عرضها عطل أربع سنوات ريثما يفرغ المديرين والممثلون من الجدل في استطاعته تمثيلية تتنوع قواعد أرسطو والتمثيلية الفرنسية أن تجتذب جمهوراً أسبانياً. وقد نجحت نجاحاً معتدلاً. وانقلب موراتن مهاجماً، ففي تمثليته الكوميديا الجديدة (1792) سخر من المرهي الشهبية سخرية تقبل الجمهور بعدها الدرامات التي تدرس الخلق وتنير الحياة. وأشاد القوم بموراتن مولييراً أسبانياً، وسيطر على مسرح مدريد حتى غزا الفرنسيون أسبانيا عام 1808. وقادته ميوله الفرنسية وسياسته التحريرية كما قادت ميلانديز وجويا إلى التعاون مع حكومة جوزف بونابرت، فلما سقط جوزيف لم ينجح موراتن من السجن إلا بشق النفس. ولجأ إلى فرنسا، ومات أخيراً بباريس في 1828 وهي السنة التي مات فيها بيوردو الرسام جويا الذي نفى نفسه عن وطنه مختاراً.

صفحة رقم : 13327

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> الفن الأسباني

ما الذي يمكن توقعه منه بعد اجتياح أسبانيا في حرب الوراثة لأسبانيا الطويلة؟ لقد سلبت الجيوش الغازية الكنائس، ونهبت المقابر، وأحرقت الصورة، وربطت خيولها في المزارات المقدسة. ثم جاء غزو جديد بعد الحرب، وخضع الفن الأسباني طوال نصف قرن للنفوذ الفرنسي أو الإيطالي فلما أنشئت أكاديمية سان فرناندو عام 1752 لإرشاد شباب الفنانين ومساعدتهم، جاهدت لتقر في أذهانهم مبادئ كلاسيكية جديدة غريبة كل الغرابة عن الروح الأسبانية. وكافح الباروك كفاحاً عنيفاً في سبيل البقاء، وكان له ما أراد في المعمار

صفحة رقم : 13328

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> الفن الأسباني

والنحت. فانتصر في الأبراج التي أضافها فرناندو دي كازيس أي نوبا (1738) إلى كاتدرائية سننياجودي كوموستيلا، وفي الواجهة الشمالية التي شيدها فنتورا روديجيز (1764) لهذا الصرح ذلته تذكراً للقديس يعقوب حامي أسبانيا وقد زعمت إحدى الأساطير المحببة للشعب أن تمثالاً للعدراء مقاماً على عمود في سرقسطة دبت فيه الحياة وتكلم مع القديس يعقوب. في ذلك الموقع شيدت التقوى الأسبانية "كنيسة عدراء العمود"، ولتلك الكنيسة صمم رودريجيز هيكلأ هو مقصورة من الرخام والفضية يضم تمثال العدراء. وأقيم قصران مشهوران فيعهد فليب الخامس. فقد اشترى على مقربة من سقوبية أرض دير ومزرعته الملحقة، ووكل إلى فليبو يوفارا التوريني أن يشيد على هذه البقعة قصر سان الدوفونسو (1719 وما يليها)، وأحاط المباني بحدائق وست وعشرين نافورة تنافس نافورات فرساي. وعرفت هذه المجموعة بلاجرانغا، وقد كلفت الشعب 45.000.000 كراون. ولم تكتمل حتى دمرت النار ليلة ميلاد عام 1734 "القصر" الذي كان المقر الملكي بمدريد منذ عهد الإمبراطور شارل الخامس وانتقل فيليب إلى بوين رتيرو التي شيدها فيها فليب الثاني قصرأ 1631. فظل هذا المقر الرئيسي للملك طوال ثلاثين عاماً. وصمم يوفارا قصرأ ملكياً آخر عوضاً عن "القصر" المحترق-يضم المساكن والمكاتب وحجرات الاجتماع ومصلى ومكتبة ومسرحاً وحدائق-لوشيد لفاق في فخامته أي قصر ملكي عرف يومها، وكان النموذج وحده يحوي من الخشب كمية تكفي لبناء بيت. ولكن يوفارا عاجلته المنية قبل أن يبدأ البناء (1736). ورفضت إيزابلا فارنيزي تصميمه لفداحة تكاليفه، فشيد خلفه جوفاني باتستا ساكيني التوريني القصر الملكي (1737-64) القائم بمدريد اليوم-وطوله 470 قدماً، وعرضه 470 قدماً، وارتفاعه 100 قدم. هنا حل طراز النهضة المتأخرة محل الباروك: فكانت الواجهة ذات أعمدة دورية وإيونية، يتوجها درابزين انتشرت عليه تماثيل ضخمة

صفحة رقم : 13329

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> الفن الأسباني

لملوك أسبانيا القدامى. وحين صحب نابليون أخاه جوزيف ليملك في هذا القصر قال وهما يصعدان السلم الفخم "ستكون أفضل من مني منزلاً (86)". وقد انتقل شارل الثالث إلى هذا الصرح الهائل عام 1764. أما النحت الأسباني فقد بعض صرامته وجموده متأثراً بالفن الفرنسي والإيطالي، وخلع الضحك على ملاكه (السيرافيم) والرشاقة على قديس أو قديسين. وكانت موضوعاته دينية على الدوام تقريباً، لأن الكنيسة كانت تدفع للنحاتين أعلى الأجر. من ذلك أن رئيس أساقفة طليطلة أنفق 200.000 دوقاتية على حجاب المذبح الشفاف الذي أقامه نارسيستومي (1721) خلف خورس الكاتدرائية: وهو مجموعة ملائكة من رخام يطوفون على سحب من رخام، وكان في ممشى الكنيسة المسقوف فتحه جعلت الرخام وضاء ومنه اتخذ حجاب المذبح اسمه. وعاشت الواقعية القديمة في تمثال "جلد المسيح (87)" الذي نحته لوزيز كارمونا-هو تمثال من الخشب، رهيب بما فيه من آثار ضرب وجروح دامية. وأجمل منه تمثال الإيمان، والرجاء، والمحبة، التي نحتها فرانسكو فرجارا الابن لكاتدرائيات كوينسا (1759). وقد عدّها سبان-برموديز، فازارى أسبانيا، أروع ما أنتجه الفن الأسباني.

وأعظم الأسماء في فن النحت الأسباني في القرن الثامن عشر كان اسم فرانسكو زاركيلو إي الكراز. مات أبوه ومعلمه، وكان نحاً في كابوا، وفرانسكو في العشرين وخلفه العائل الأول لأمه وأخته وستة أخوة. وكان الفتة أفقر من أن يستأجر الموديلات، لذلك كان يدعو المارة، بل المتسولين ليشاركوه غداءه وليرسمهم، وربما كانت تلك هي الطريقة التي عثر فيها على الأشخاص لرائعته "العشاء الأخير" المحفوظة الآن في "دير يسوع" بمرسيه. وبمساعدة أخته اينيس التي كانت ترسم وتعمل نموذجاً له؛ وأخيه خوزيه، الذي كان ينحت التفاصيل، وأخيه القسيس باتريسيو، الذي كان يلون الأجسام والثياب، انتج فرانسكو في سني عمره الأربع والسبعين 1.792 تمثالاً فيها الكبير وفيها الصغير، بعضها ذو حيل لا طعم لها كعباءة

صفحة رقم : 13330

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> الفن الأسباني

من المخمل المطرز فوق تمثال للمسيح، بعضها مؤثر بتقواه البسيطة تأثيراً حمل مدريد على أن تعرض عليه مهام مجزية لتزيين القصر الملكي. ولكنه فضل البقاء في وطنه مرسيه الذي شيعه عند وفاته عام 1781 في مشهد جليل. أما التصوير الأسباني في القرن الثامن عشر فكان يرزخ تحت كابوس أجنبي مزدوج لم يفق منه حتى حطم جوبيا كل القيود بفنه الجارف الذي لم يسبق له نظير. جاءت أول موجة فرنسية بمجيء ران ورينيه وميشيل-أنج هواس، ولوي-ميشيل فانلو. وقد أصبح هذا مصور البلاط لفليب الخامس، ورسم لوحة هائلة للأسرة المالكة كلها، بالبورايك والجونلات المطوقة، وغيرها (88). ثم أقبل قطيع من الإيطاليين الذين يفيضون حيوية فانفينلي، واميجوني، وكورادو.

ووصل جامباتستا تيبولو وأبناؤه إلى مدريد في يونيو 1762. وعلى سقف غرفة العرش في القصر الملكي الجديد رسموا صورة جصية شاسعة "تمجيد أسبانيا"، احتفالاً بتمجيد الملكية الأسبانية وقتها وفضائلها وتقواها وأقاليمها: فيها الأجسام الأسطورية الرمزية متوازنة في الهواء، والنيريدات والترينونات والزفيرات، والجن المجنح، والأطفال السمان، والفضائل والرزائل ملحقة في الفضاء المنور، وأسبانيا ذاتها متربعة على العرش وسط ممتلكاتها، ممجدة بكل صفات الحكومة الصالحة. وعلى سقف غرفة الحرس رسم تيبولو "إينياس تقوده فينوس إلى معبد الخلود"، وعلى يقف الحجرة الملحقة بمخدع الملكة رسم ثانية "انتصار الملكية الأسبانية". وفي 1766 كلف شارل تيبولو بأن يرسم سبع لوحات لمذبح كنيسة القديس بسكال بأرانحيز، واستخدم المصور في إحداها وجه حسناء أسبانية ليمثل حمل العذراء غير المدنس، ولا تزال الصورة تتألق في البرادو. وأدان كاهن الملك، الأب خوالين دي إلكنا ما في فن تيبولو من وثنية وفجاجات لأنها دخيلة على روح أسبانيا. وتاب تيبولو، ورسم صورة قوية سماها إنزال المسيح عن الصليب" (89)، وهي تأمل في الموت تنيره الملائكة

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> الفن الأسباني

الواعدة بالقيامة وأرهقت هذه الجهود الجبار الهرم، فمات في مدريد عام 1770 وقد بلغ الرابعة والسبعين. وبعد قليل أزيلت لوحات مذبح ارانجيز وكلف أنطوان روفائيل منجز برسم لوحات بدلها. وكان منجز قد وفد على مدريد في 1761 وهو في الثالثة والثلاثين، فتى قوي واثق من نفسه أمر ناه. ولم يكن شارل يشعر قط بارتياح لمراى غيوم تيبولو المنورة فأنس الآن في هذا الألماني المقام الرجل المطلوب لتنظيم العمل الفني اللازم للقصر. وفي 1764 عين منجز مديراً لأكاديمية سان فرناندو، وسيطر على التصوير الأسباني في فترات إقامته بأسبانيا. وقد أساء ترجمة الطراز الكلاسيكي إلى سكون لا دم فيه ولا حياة، وأغضب بذلك تيبولو الشيخ وجويا الشاب. ولكنه كافح كفاحاً نافعاً لينهي إسرار الزخرفة الباروكية وشطحات خيال الروكوك. ومن أقواله أن الفن يجب أن يسعى أولاً إلى "أسلوب طبيعي" بمحاكاته الأمانة للطبيعة، وعندها فقط يستهدف الأسلوب السامي "الذي انتهجه الإغريق. فكيف السبيل إلى هذا التسامي؟ بإقصاء الناقص وغير المتصل بالموضوع، بالربط بين الكمالات الجزئية التي توجد هنا وهناك في أشكال مثالية يتصورها خيال مدرب مع تجنب كل ضروب الإسرار. وافتتح منجز إنتاجه برسم أرباب أولمب على سقف مخدع الملك، وزين مخدع الملكة بصورة مماثلة. وربما أدرك منجز أن صاحبي الجلالة، لم يتبعاه تماماً حتى جبل أولمب، لذلك رسم رافده مذبح للمصلى الملكي، "ميلاد المسيح" و "إنزال المسيح من الصليب". وكان يضني نفسه في العمل، ولا يأكل إلا قليلاً، بات عصبي المزاج، وانهارت صحته، وخيل إليه أنه واجد البرء في روما. ومنحه شارل إجازة مدها منجز إلى أربعة أعوام. وفي فترة إقامته الثانية بأسبانيا مزيداً من الرسوم الجصية إلى القصور الملكية في مدريد وأرانجيز. ولكن صحته تداعت مرة أخرى، فالتمس من الملك الأذن له بالتقاعد في روما. ومنحه الملك الطيب طلبته، وأجرى عليه معاشاً متصللاً من ثلاث آلاف كراون في العام.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> الفن الأسباني

ولكن ألم يكن في أسبانيا آنئذ فنانون وطنيون يرسمون؟ أجل كانوا كثيرين ولكن اهتمامنا الذي تضائل مع بعد الشقة والزمان خلفهم على هامش الشهرة الخابية. كان هناك لويز ميلنديز الذي كاد يعدل شاروان في صور الطبيعة الصامتة (الطيور والفواكه) ويحتفظ متحف البرادو بأربعين منها، ومتحف بوسطن بمثال منها فاتح للشهية، ولكن اللوفر يبرزها جميعاً بصورة ذاتية رائعة. وهناك لويز باريت أي الكازار، الذي بارى كاناليتو في تصوير مناظر المدينة كما ترى في لوحته Puerta de Sol-أكبر ميادين مدريد، وأنطونيو فيلادامات، الذي شهد له منجز بأنه أكفأ

مصوري العصر الأسيان، وفرانسكو بايو لإي سوبياس، الرقيق المتهم المخلص لفنه، الذي نال الجائزة الأولى في الأكاديمية عام 1758، وصمم قطع النسيج لمنجز، وأصبح صديقاً، وعدواً، وصهرأ لجويا.

صفحة رقم : 13333

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> فرانسكو دي جويا

9- فرانسكو دي جويا أي لوسيننتس

أ - نشأته

اتخذ فرانسكو اسم قديس حام شأن جميع الصبيان اليبيريين، ثم اسم أبيه خوزيه جويا، واسم أمه أورجاسيا لوسيننتس- أي ربة اللطف والنور. وكانت تنتمي إلى طبقة الهيدلج (أدنى طبقات النبلاء) ومن هنا إضافة "دي" التي أدخلها فرانسكو على اسمه. ولد في 30 مارس 1746 بفونتينودوس، وهي قرية أرجونية يسكنها 150 من الأنفس ولا يزينها شجر- إنما هي تربة حجرية، وصيف قانظ، وشتاء فارس، يأتي على الكثيرين، ويصيب الأحياء بالاكتئاب والخسونة.

وراح فرانسكو يتلهى بفرشاة الرسم، فرسم في صباه لكنيسة القرية صورة للعذراء "سيدة العمود"، حامية أرجون. وفي 1760 انتقلت الأسرة إلى سرقسطة، حيث اشتغل الأب بالطلاء بالذهب، وأتاح له دخله أن يوفد ابنه لدراسة الفن على يد خوزيه لوزان. ومع هذا الفنان وخوان راميريز نسخ جويا صور كبار الرسامين القدامى، وقلد تلوين تيبولو الناعم،

صفحة رقم : 13334

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> فرانسكو دي جويا

وتعلم من التشريح قدرأ يكفي لرسم صور العرايا المحرمة. وفي رواية أنه شارك- ثم تزعم بعد قليل- فريقاً من الشباب الجموح الذين دافعوا عن قريتهم ضد قرية أخرى، وكيف أن بعض الفتيان قتلوا في إحدى المعارك، وكيف فر فرانسكو إلى مدريد مخافة أن يقبض عليه.

وفي ديسمبر 1763 دخل امتحاناً للالتحاق بالأكاديمية فرسب. وتصف الأسطورة حياته الصاخبة في العاصمة، ولكن لا نعلم على التحقيق إلا أن جويًا كان بينه وبين القوانين حب مفقود. وعاد إلى دخول امتحان المسابقة في 1766 ورسب. وربما كان هذا الرسوب المتكرر من حسن حظه: فقد أفلت من وصاية منجز الأكاديمية، ودرس الصور التي كان تيبولو يرسمها في مدريد، ثم أرسى أسلوب فذ تغلب عليه شخصيته. وتروي الأسطورة بعد ذلك أنه أنظم إلى فريق من مصارع النيران وسافر معهم إلى روما في تاريخ مجهول. ولقد كان دائماً شديد التحمس لمصارع النيران الراكبين (التوريادور) ومرة وقع باسم دي لويس تورس. كتب إلى مورنين في شيخوخته يقول "كنت في شبابي مصارع نيران، لا أهرب شيئاً وسيفي في يدي" (91). وربما قصد بهذا أنه كان من أولئك الصبية المغامرين الذين يصارعون النيران في الشوارع. على أية حال وصل إلى إيطاليا، لأنه في 1770 فاز بالجائزة الثانية في مسابقة بأكاديمية الفنون الجميلة في بارما. وتحكي الأسطورة أنه تسلق قبة كاتدرائية القديس بطرس وسطا على دير ليخطف راهبة. وأكثر من هذا احتمالاً أنه كان يدرس صور ماناسكو الذي ربما كان لتلوينه القاتم، وأجساده المعذبة، ومناظر محكمة تقنيته، من الأثر العميق في نفسه ما فاق الأوضاع الهادئة الكلاسيكية التي أوصى بها منجز في أسبانيا.

وفي خريف 1771 نلتقي به في سرقسطة التي عاد إليها ليزين مصلى في الكاتدرائية "الكنيسة الكبرى لسيدة العمود". وقد أجاد التصوير، وكوفئ بخمسة عشر ألف ريال نظير جهد استغرقه ستة أشهر، واستطاع الآن أن يعول زوجة إذا تزوج. وعامل القرب

صفحة رقم : 13335

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> فرانسكو دي جويًا

في تقرير اختارنا شريك الحياة، وهكذا تزوج (1773) خوزيفًا بابو، وكان فيها ريعان الشباب، ولها شعر ذهبي، ومكانها في متناوله. وقد استخدمها نموذجاً، ورسم صورتها مراراً، وصورتها المعلقة في البرادو تظهرها متعبة بتكرار الحمل، أو محزونة لخianات فرانسكو لها (92).

ثم نقل إلى مدريد (1775). وكلفه منجز (1776)- بتوصية من من بابو على الأرجح- بأن يرسم لوحات قماشية كبيرة تصلح رسوماً تخطيطية (كرتونات) للمصنع الملكي للنسجيات الذي أنشأه فليب الخامس على غرار مصنع الجوبلان. وغامر جويًا الآن برفض خطير، فاتخذ قراراً شكلياً مستقبلياً. ذلك أنه أغفل ميل منجز إلى الميثولوجيا الكلاسيكية وتاريخ الأبطال، فرسم على اتساع كبير وبألوان ناصعة الناس الذين ينتمون إلى طبقته وعصره- رسم كدهم وحبهم، ومهرجاناتهم وأعيادهم، ومصارعاتهم مع النيران ولعبهم بطائرات الورق، أسواقهم ورحلاتهم الخلوية وألعابهم، وإلى هذه الواقعية أضاف في جراءة أشياء تخيلها ولكنه لم يرها قط. أما منجز فقد ارتفع إلى مستوى الموقف: فلم يذم هذا الخروج على التقاليد الأكاديمية، وشعر بنبض الحياة يسري في الأسلوب الجديد، وأعطى هذا التمرد مزيداً من التكاليفات. وأنتج جزيئاً خلال خمسة عشر عاماً خمسة وأربعين كلاتوناً أساسياً لعمله، بينما راح ينتقل إلى مجالات أخرى بثقة متزايدة. واستطاع الآن أن يأكل ويشرب مطمئناً. كتب إلى صديقه زاباترا "أن دخلي يتراوح بين اثني عشر ألفاً وثلاثة عشر ألف ريال في السنة".

على أن نوعاً من البكتريا تطفل على هذا النجاح الذي أصابه ولسنا نعرف مصدر الزهري الذي ابتلي به جويًا، ولكننا نعرف أنه مرض مرضاً خطيراً في إبريل 1777 (93). وأبلى منه شيئاً فشيئاً، ولكن لعل المرض كان له بعض الأثر في التشاوم الذي شاب فنه، وربما في فقدته السمع في 1793. على أنه تملك صحته في 1778 بالفدر الذي أتاح له

المشاركة في مشروع وضعه شارل الثالث ليذيع في خارج أسبانيا بالنسخ المطبوعة عن الكليشيهات ذخائر الفن الأسباني. ولهذا الغرض نسخ جويبا ثمانى عشرة

صفحة رقم : 13336

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> فرانسكو دي جويبا

لوحة لفيلاسكيد، ومن هذه النسخ صنع محفورات، وكانت هذه مهارة جديدة عليه، وظل مناقشه حيناً مترددأ فجأ، ولكن من هذه البداية تطور ليصبح من أعظم الحفارين بعد رويرانت. وسمح له بأن يقدم نسخة بشخصه إلى الملك، وفي 1780 سجل واحد من مصوري البلاط. وقبل الآن في الأكاديمية آخر الأمر. وحوالي 1785 رسم لوحة شارل الثالث الشهيرة، التي بدأ فيهل الملك لابساً حلة الصيد، مهياً للقتل، ولكنه هرم، مكدود، متقوس الساقين محدودب الظهر، هنا ضحى جويبا كعادته بالرضى في سبيل الصدق.

واستقدم جويبا أمه وأخاه كاميلو بعد موت أبيه ليعيشا معه ومع خوزيفا والأطفال. وقبل شتى التكاليفات ليعول هذه الأسرة المتكاثرة: فرسم لوحة جصية في كنيسة سان فرانسكو الجراندي، وصوراً دينية لكلية كالاترافا بسلمنقة، ومشاهد من الحياة اليومية لمنزل دوق أوزونا الريفي، ثم رسم لوحات للأشخاص لكونها أربح فرع في مهنته. فرسم عدة لوحات لوزونا(94)، واحدة للدوق وأسرته- يبدو فيها الأطفال شديدي التصلب وأخرى لدوقة أوزونا بثلاثة أرباع طولها(95)- وهي معجزة من اللون والزيت تستحيل حريراً ومخرمات.

وربما كان جويبا سعيداً عام 1784. ففي ذلك العام ولد له خافيد، وهو الابن الوحيد الذي قدر له أن يبقى حياً بعد موت أبيه. وأزيح الستار عن الصور الجصية التي رسمها لكنيسة القديس فرنسيس الكبير في احتفال رسمي، وأنتى مشاهدوها عليها كأروع لوحة في ذلك العهد، وكان الملك وكل حاشيته حضوراً، وقد شاركوا في التناء. وحوالي 1787 رسم جويبا لوحة المركز دي بونتيخوس، وهي الآن من أنفس ما تملكه قاعة الصور القومية في واشنطن. وبعد عام إلى رسم الطبيعة في لوحته (La Pradera de San Isidro 96)- وتمثل حقلاً غص بالمتزهين يحتفلون بعيد القديس حامي مدريد العظيم بالركوب والتمشي والجلوس والأكل والشرب والغناء

صفحة رقم : 13337

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> فرانسكو دي جويبا

والرقص على شواطئ مانزاناريس المعشية. وهي لا تعدوا أن تكون تخطيطاً، ولكنها آية من آيات التصوير. ولم يزد عمر جويبا على الثالثة والأربعين حين مات شارل (1788) ولكنه حسب نفسه قد شاخ. وكان قد كتب في ديسمبر من العام إلى زاباير يقول "لقد شخت، وملأت التجاعيد وجهي حتى أنك لن تستطيع التعرف عليّ" "لولا أنفي الأفتس وعيناى الغائرتان(97)". وما كان في استطاعته التنبؤ بأنه ما زال أمامه فسحة في الأجل تمتد أربعين سنة،

وبأن أكثر مغامراته شططا وأروع إنتاجه مستكناً في مستقبل أيامه. لقد تطور في بطنه والآن سيكرهه الغرام والثورة أن يتابع السير وإلا كان من المغرقين. فارتفع مع الأحداث، وأصبح أعظم فنان في جيله.

ب - غرامه

وقد شغله 1789 رسم صور للملك والملكة الجديدين احتفالاً بدخولهما مدريد رسمياً في 21 سبتمبر. وكان "فيلبي" بن شارل الثالث البكر، قد أقصي عن وراثة العرش لعنته، فال عرش لابن الثاني الذي وصفه مؤرخ غير متعاطف بأنه "نصف معتوه(98)" لا أكثر. وكان شارل الرابع ساذجاً حسن الظن بالناس، فيه من الطيبة ما يكاد يغري الأشرار بالشر. وكان قد انصرف إلى حياة القنص والأكل والإنجاب لافتراضه أنه مقصي عن وراثة العرش، بحكم كونه الابن الثاني. أما وقد بات الآن بديناً لين العريكة، فإنه أستسلم راضياً لزوجته ماريا لويز البارمية، وتجاهل - أو جهل - فسقها مع عشيقها، ورقى عشيقها مانويل دي جودوي رئيساً للوزارة (1792 - 97). وكانت الملكة الجديدة قد دأبت الأفكار التحررية قبل ولايتها للعرش، وقد شجع شارل الرابع في أول سني حكمه فلوريدا بلانكا، وخوفيلانوس، وكامبومانيس (وكلهم رسمهم جويا) على المضي في برنامج إصلاحاتهم. غير أن سقوط الباستيل روع شارل الرابع وفلوريدا بلانكا فارتدت الحكومة

صفحة رقم : 13338

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> فرانسكو دي جويا

إلى رجعة سياسية أعدتها إلى التعاون الكامل مع الكنيسة باعتبارها أقوى معقل للملكية. وأهمل الكثير من القوانين التقدمية التي سنت في عهد شارل الثالث، وأستعاد التفتيش بعض سلطاته، وأوقف استيراد الأدب الفرنسي، وحظرت جميع الصحف إلا صحيفة مدريد اليومية الرسمية، وأقصي عن البلاط خوفيلانوس وكامبومانيس وأراندا. وابتهج الشعب بانتصار إيمانهم الذي يعتزون به. وفي 1793 انضمت أسبانيا إلى الحرب التي خاضتها الملكيات ضد فرنسا الثائرة.

في وسط هذا المعمعان حالف الحظ جوياف في إبريل 1789 عين "رساماً للحجرة" فلما مرضت خوزيفا وأشار الطبيب بهواء البحر علاجاً لها صحبها جويا إلى بلنسية (1790) حيث كرمه القوم كأنه فيلاسكويز أسبانيا الجديد. وواضح أن الطلب أشد عليه من أقصى أسبانيا إلى أقصاها، لأننا نجده في 1792 في قانس ضيفاً على سبستيان مارتنيز. وفي طريق عودته أصيب في إشبيلية بالدوار والشلل الجزئي، فعاد إلى صديقه في قانس، وظل نهياً للقلق طوال فترة نقاهة غير قصيرة.

فأي مرض هذا الذي شكاه منه؟ لقد وصفه بايو وصفاً غامضاً بقوله أنه "نو طبيعة رهيبه جداً". وخامره الشك في أن جويا سبيراً منه يوماً ما(99). وكتب رياتر صديق جويا في مارس 1793: "لقد جلب على جويا هذا المأزق افتقاره إلى التدبير، ولكن لا بد من مواساته بكل الشفقة التي يتطلبها مصابه(100)". وقد فسر دارسون كثيرون هذا المرض بأنه من أعقاب الزهري(101) ولكن آخر تحليل طبي رفض هذا الرأي وشخصه بأنه التهاب أعصاب تلافيف الأذن(102). أياً كان الأمر فإن جويا كان فاقد السمع حين عاد إلى مدريد في يوليو 1793، وكذلك ظل إلى يوم مماته. وفي فبراير 1794 كتب خوفيلانوس في يوميته "كنبت إلى جويا، فرد بأنه كان عاجزاً حتى عن الكتابة نتيجة السكتة الدماغية التي أصيب بها(103)". ولكن الشلل زال شيئاً فشيئاً، وما وافى عام 1795 حتى كان في جويا من العافية ما أغراه بالوقوف في الحب.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> فرانسكو دي جويبا

وكانت تريزا كاتيانا مارياديل بيلار الدوقة الثالثة عشرة من سلالة ألبا الشهيرة. وكان أبوها قد تشرب الفلسفة الفرنسية، فرباها على مبادئ متحررة، وتلقت تعليماً هياً لها عقلاً يقظاً وإرادة عنيدة. فلما بلغت الثالثة عشرة تزوجت الدوق خوزيه دي توليدو أوزوريو، دوق ألبا البالغ من العمر تسعة عشر ربيعاً. وكان الدوق رفيق الجسد معلولاً، فلزم بيته أكثر الوقت وأغرق نفسه في الموسيقى. ورسمه جويبا جالساً إلى البيانو أمام نوتة لهايدن. وكانت الدوقة متغترسة جميلة شهوانية. وقد لاحظ رحالة فرنسي أنه "ليس في رأسها شعرة لا تثير الشهوة (104)"، وكانت تشبع رغباتها دون قيد من فضيلة أو نفقة أو طبقة. واقتنت في بيتها شخصاً معنوفاً، وراهباً أعور، وزنجية صغيرة أصبحت ربيبتها المفضلة. ولكن كان وراء هذه المغامرات الجريئة نفس سمحة كريمة، ولعلها انعطفت نحو جويبا لأنه كان أصم تعساً بقدر ما مالت إليه لأنه يستطيع أن يخلدها بفرشاته.

ولا بد أنه رآها مراراً قبل أن تقف ليرسمها، لأنها كانت تحوم داخل البلاط وخارجه وتثير الأقاويل بمغازلاتها وبعدها الجريء للملكية. وأول صورة تحمل تاريخاً رسمها لها تبدو فيها بطولها كله، وقد لفت قسماها النحيلة الحارة في لمة من الشعر الأسود، ويمناها تشير إلى شيء على الأرض. فإذا تأملنا الصورة قرأنا عليها بوضوح هذه العبارة "إلى دوقة ألبا دي جويبا 1795 (105)". وهنا إيماءة إلى صداقة قائمة فعلاً. وليست الصورة من روائع جويبا. ويفضلها كثيراً تلك التي رسمها في العام نفسه لفرانسكو بايو الذي كان قد مات لتوه. وفي نوفمبر خلفه جويبا مديراً لمدرسة التصوير بالأكاديمية.

ومات دوق ألبا في يونيو 1796. واعتكفت الدوقة فترة حداد وجيزة في ضيعتها الريفية بسانلوكار، بين إشبيلية وقاديس. وليس من المؤكد أن جويبا رافقها، ولا علم لنا إلا بغيبابه عن مدريد من أكتوبر 1796 إلى إبريل 1797، وبتدوينه في كراستين رسوماً لبعض ما رأى في سانلوكار. ومعظم الرسوم تبدو فيها الدوقة تستقبل الضيوف، أو تربت الزنجية، أو تشد شعرها في نوبة غضب، أو تتقبل (بينما تنقل الخادمة المبولة) (106)، أو يغشى

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> فرانسكو دي جويبا

عليها في نزهة، أو تعبت مع منافس أو آخر ممن ينافسون جويبا على يديها الملائمتين. وتدل الرسوم التخطيطية على غيرته المتصاعدة، وتبدو فيها أيضاً امرأة أخرى - تخرج عارية من الحمام، أو ترقد على الفراش نصف كاسية أو تضع الرباط على ساق بديعة التكوين، ولعل جويبا انغمس كالدوقة في انحرافات الحب. ومع ذلك فالراجح أنه في سانلوكار رسم أعظم ما يفخر به من صورها (107) - في زي "ماخا" وقحة ترتدي ثوباً أسود في صفرة، بحزام من

القرمز والذهب حول خصرها النحيل، وطرحه سوداء فوق رأسها، وفي يديها (وهي في حد ذاتها من آيات التصوير) خاتمان يحمل أحدهما اسم "ألبا" والآخر "جويا"، ونشير سبابتها إلى اسمه، وتاريخ 1797، مكتوبين على التربة الرملية تحت قدميها. وكان يرفض دائماً بيع هذه اللوحة. وكانت مغامرة غرامه المزدهر قد صورت حين رجع جويا إلى مدريد. وتتهمها بعض رسومه "الكابريكو" (1797) بالاستسلام الفاجر لأشنان من ذكور يفنقرون إلى اللياقة. وقد اتهمها جودوي بإغواء وزير الحربية وكتب إلى الملكة يقول أن ألبا وكل أنصارها ينبغي أن يدفنوا في حفرة كبيرة (108). "و حين ماتت الدوقة (23 يوليو 1803) وهي بعد في الأربعين، أُرجفت مدريد أنها سممت، وعطف الناس عليها لأنها خلفت قدراً كبيراً من ثروتها الضخمة لخدمتها. كذلك أوصت براتب سنوي يبلغ 3.600 ريال لخافيير بن جويا. وأمر الملك بالتحقيق في موتها- وعين جودوي رئيساً للمحققين- وزج بالطبيب وبعض أتباع الدوقة في السجن، وألغيت وصيتها، وحرّم خدمها من أنصبتهم التي أوصت لهم بها، وسرعان ما تزينت الملكة بأجمل جواهر ألبا (109).

ج - قمة المجد

كان جويا قد استقال عام 1797 من منصبه مديراً للتصوير في الأكاديمية، فقد أعجزته كثرة شواغله الآن عن التدريس. وفي 1978

صفحة رقم : 13341

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> فرانسكو دي جويا

اختير لزخرفة قبة كنيسة سان أنطوني دي لافلوريدا وقلب قوصرتها، ومع أنه أثار غضب الأكليروس بتصويره الملائكة بأطراف شهوانية، إلا أن الكل تقريباً أجمعوا على أنه نقل إلى تلك الفراغات المقدسة، في صورة الهام، حياة شوارع مدريد ودمها. وفي 31 أكتوبر 1799 عين "مصور البلاط الأول" براتب قدره خمسون ألف ريال في العام. ورسم في (1800) أشهر لوحاته قاطبة وهي "شارل الرابع وأسرته (110)" - وهي كشف قاس عن بلاهة الأسرة المالكة، ونحن نقشع حين نتخيل منظر هذه المجموعة من الأبدان المنتقخة والأرواح القميئة إذا جردوا من ثيابهم البراقة- وتلك براعة في الإشعاع والتألق ندر أن يزها رسام في تاريخ الفن. ويروي التاريخ أن الضحايا أعربوا عن كامل الرضى عن اللوحة (111).

وفي ركن من اللوحة رسم جويا نفسه. وعلينا أن نغفر أنانية صورته الذاتية الكثيرة، ولا ريب في أن بعضها كان دراسات تجريبية استخدم فيها مرآة، شأنه فيها شأن ممثل يتدرب على التعبير بسحنته أمام المرآة، واثنان منهما رائعتان. وخيرهما (اللوحة الأولى من الكابريكو) يبدو فيها في الخمسين، أصم ولكن في كبرياء، له ذقن عدواني، وشفتان شهوانيتان وعيون فظة، وشعر ينمو فوق أذنيه ويكاد يصل إلى ذقنه، وتتوج هذا كله قبعة حريرية فاخرة تعلوا رأسه الضخم كأنها تحد لجميع نبلاء الدنيا المحظوظين. وبعد تسعة عشر عاماً من رسمه هذه اللوحة، وبعد أن نجا من ثورة، رمى القبعة، وفتح قميصه عن عنقه، وكشف عن نفسه في مزاج ألطف. لم تزل له كبرياؤه، ولكن فيه من الثقة الكبيرة بنفسه ما يربأ به عن التحديات (112).

وكان رسم الأشخاص أقوى نواحي فنه. ومع أن معاصريه كانوا يعلمون بأنه لن يتملقهم، فأنهم خضعوا في لهفة لحكم فن راودهم الأمل في أنه سيحمل ذكراهم قروناً طوالاً سواء كانت الذكرى مبعث صيت ذائع أو عار يخزيهم. ولدنا

علم بثلاثمائة نبيل وثمانية وثمانين عضواً في الأسرة المالكة جلسوا أمامه ليرسمهم، وقد بقيت من هذه الصور مائتان. ومن أفضلها صورة لفرديناند جييمارويه، السفير الفرنسي، وقد أتى بها صاحبها إلى

صفحة رقم : 13342

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> فرانسكو دي جويا

باريس، واقتناها اللوفر 1865، وإليها يرجع بعض الفضل في بعث شهرة جويا في فرنسا. وأروع ما رسم من صور الأطفال صورة دون مانويل أوزوريو دي زونيجا، المحفوظة بمتحف المتروبوليتان للفن بنيويورك، هنا أدرك جويا فيلاسكيز. وقد ضارح فيلاسكيز ثانية في كوكبة النساء اللاتي صورهن، وانتظمت صورهن لهن أشناتاً، فيها النحيلات مثل "الطفلة الملكية يوزيفا"، وفيهن المرأة الساحرة الخلافة مثل السنيورا جارتيا(113)، والممثلة المتكلمة "لاتيرانا(114)" _جمال مصور ولكنه يخلي مكانه للشخصية.

أما أكثر نساء جويا سفوراً فهي "الماخا" الوقحة التي رقدت حوالي (1798) خالية من كل زينة ليرسم لها "الماخا العارية" ثم كاسية في إغراء ليرسم لها "الماخا في ثيابها" وهاتان اللوحتان الصنوان تجتذبان من رواد البرادو عدداً غفيراً كالذي تجتذبه الموناليزا من رواد اللوفر. والماخا العارية ولوحة فيلاسكيز "فينوس في المرأة" هما الصورتان العاريتان الوحيدتان في التصوير الأسباني، لأن رسم العرايا في الفن الأسباني كان عقابه السجن سنة ومصادرة المنقولات والنفي. وقد غامر به فيلاسكيز في حماية فليب الرابع، وجويا في حماية جودوي الذي وافق جويا على تفضيل الثديين الكبيرين والخصر النحيل والشفاه الممتلئة. "وماخا" جويا لم تكن صورة لدوقة ألبا رغم ما تواتر عنها، كذلك لم تكن الكاسية التي رسمها جويا لتحل محل العارية حين جاء الدوق الغاضب (كما تروي الأسطورة) وفي عينيه نذير المبارزة. ولكن اللوحتين اشترتهما الدوقة أو أعطيتا لها، وانتقلتا بعد واقتها إلى مجموعة جودوي. وبينما كان جويا يمد أسرته بالمال الذي يكسبه من تصوير الأشخاص، راح يتسلى (1796-97) بمحفورات وصور مائبة نشرها في 1799 على أنها "نزوات"- ثلاث وثمانون صورة لعقل أرزن فيه خشونة وغضب، وتصف في هجاء قاتم وعناوين ساخرة عادات جيله وأخلاقه ونظمه. وأمع هذه السلسلة هي رقم 43: وهي تصور

صفحة رقم : 13343

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> فرانسكو دي جويا

رجلاً أستسلم للنوم على مكتبة بينما العفاريات تحوم حول رأسه: وعلى المكتب عبارة تقول "حلم العقل يبعث العفاريات". وقد فسر جويا هذا بأن "الخيال إذا هجره العقل أفرخ العفاريات، وإذا اتحد بالعقل كان خالق الفنون ومبدع أعاجيبها(114)". وهذه طعنة للخرافات التي أظلمت عقل أسبانيا، ولكنها كذلك وصف انصف إن جويا. فلقد كانت الأحلام المرعبة لا تبرحه، "ونزواته" على الأخص تمتلئ بمنظرها المروعة. هناك ترى جسد الإنسان وقد انحط إلى

عشرات الأشكال الوارمة، العجفاء، الكسيحة، الوحشية، والبوم والقطط تنظر إلينا شزراً، والذئاب والنسور تجوس خلسة، والساحرات يطرن في الهواء، والأرض تبعثرت فيها الجمجم وعظام السيقان وجثث الأطفال حديثي الولادة حديثي الموت. وكأنما قفز خيال هيرونيموس بوش المريض عبر فرنسا متخطياً القرون ليدخل عقل جويبا ويشيع فيه الفوضى.

أكان جويبا عقلانياً؟ كل ما نستطيع أن نقوله هو أنه فضل العقل على الخرافة. ففي أحد رسومه صور شاباً مكللة بالغار ممسكة بميزان تطارد طيور سوداء بالسوط، وتحت الصورة كتب جويبا "أيها العقل المقدس لا تبق على أحد(116)". وفي رسم آخر رهبان يجردون أنفسهم من أردبتهم(117)؛ وقد ركب على جسد راهب يصلي وجه مجنون(118). وصور "محكمة ديوان التفتيش(119)" مشهداً كئيباً من ضحايا مساكين تحاكمهم سلطة باردة الشعور. وصور يهودياً مقيداً بالأغلال في زنزانة التفتيش، وكتب هذا التعليق "أي زاباتا، أن مجدك سيدوم إلى الأبد(120)". أكان هذا صدى لكتاب فولتير "أسئلة زاباتا"؟ وقد رسم تسعاً وعشرين لوحة لضحايا التفتيش يعانون شتى العقوبات(121)، وفي آخرهم رسم إنساناً مبتهجاً فوق هذا العنوان "الحرية المقدسة!"(122) ومع ذلك ظل إلى يوم مماته يرسم علامة الصليب على وجهه في روع، ويدعو المسيح والقديسين ويتوج رسائله برسم الصليب، وربما كانت هذه كلها آثار متخلفة من عادات كونها في صباه.

صفحة رقم : 13344

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> فرانسكو دي جويبا

د - ثورة

أكان جويبا ثائراً؟ لا بل إنه لم يكن حتى جمهورياً. وليس في فنه أو كلامه علامة تدل على أنه يرغب في الإحاطة بالملكية الأسبانية. وقد ربط شخصه وحظه بشارل الثالث، وشارل الرابع، وجودوي، وجوزف بونابرت، وعاشر نبلاء البلاط في سرور وابتهاج. ولكنه خير الفقر من قيل، وما زال يراه من حوله، ونفره إملاق الجماهير وما ترتب عليه من جهل وخرافة، وتقبل الكنيسة للفقر الجماعي نتيجة طبيعية لطبيعة البشر وفوارقهم. وقد خلد نصف فنه الأغنياء، أما النصف الآخر فكان صرخة تطالب بإنصاف الفقراء، واحتجاجاً على همجية القانون وديوان التفتيش والحرب. كان موالياً للملكية في لوحاته الشخصية، كاثوليكياً في صورته، متمرداً في رسومه، ففيها أعرب بقوة تكاد تكون وحشية عن مقتته للظلم والظلمة والقسوة. ويمثل رسم منها رجلاً ممداً فوق مخدعه وعنوان الرسم "لأنه أكتشف حركة الأرض". ورسم آخر يصور امرأة وضعت في المقطرة لأنها "أبدت عطفها على قضية التحرير".

ومن هؤلاء الأسبان الذين سمو أنفسهم تحرريين؛ يبدوا أنهم كانوا أول حزب سياسي استعمل ذلك الاسم. وقد عنوا به التذليل على شوقهم إلى الحرية- حرية العقل من الرقابة، وحرية الجسد من الانحطاط، وحرية الروح من الطغيان. وكانوا قد تلقوا في عرفان "التنوير" الوافد من حركة التنوير الفرنسية. ورحبوا بدخول قوة فرنسية في أسبانيا (1807)، والواقع أنه نصف السكان رحبوا بها جيشاً للتحرير؛ ولم يسمع احتجاج حين استقال شارل الرابع وتوج ولده فرديناند السابع تحت حماية جنود مورا. وقد رسم جويبا صورة للحاكم الجديد. ولكن مزاج الشعب ومزاج جويبا تغيرا حين استدعى نابليون شارل الرابع وفرديناند السابع إلى بايون وخلصهما؛ ونفى أحدهما إلى إيطاليا

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> فرانسكو دي جويا

والآخر إلى فرنسا، ونصب أخاه جوزف ملكاً على أسبانيا. وتجمع حشد غاضب أمام القصر الملكي. وأمر جنده بأن يخلوا الميدان، ففر الجمع، ولكنه عاد إلى الاحتشاد حتى بلغوا عشرين ألفاً في ميدان مايور. فلما زحف الجنود الفرنسيون والمماليك نحو الميدان أطلقت عليهم النيران من النوافذ والبواقي. فاشتد غضبهم، واقتحموا البيوت وراحوا يقتلون أهلها دون تمييز. ودارت بين الجند والجماهير معركة امتدت طوال النهار، هو يوم مايو الأشهر (2 مايو 1808)، وسقط مئات الرجال والنساء صرعى، وشهد جويا من موضع قريب شطراً من المذبحة (123). وفي 3 مايو أعدم ثلاثون من السجناء الذين قبض عليهم الجند بواسطة فرقة لإطلاق النار. وأعدم كل أسباني أمسك مثلثاً ببندقية في يده. وهبت أسبانيا الآن كلها تقريباً ثائرة على الفرنسيين، وسرت "حرب التحرير" من إقليم لإقليم. ولطخت الطرفين بما اقترفا من فظائع وحشية وشهد جويا بعضها ولم تبرحه ذكراها حتى يوم مماته. وفي 1811 كتب وصيته مخافة أن يتفقم سوء الحال. وفي 1812 ماتت خوزيفا. وفي 1813 استولى ولنجتن على مدريد، وعاد فرديناند السابع إلى عرشه.

واحتفل جويا بانتصار أسبانيا برسم لوحتين من أشهر لوحاته (1814)(124). إحداهما "يوم مايو" أعاد فيها بناء ما رأى أو سمع أو تخيل من المعركة الناشبة بين جماهير مدريد وجنود الفرنسيين والمماليك. فوضع المماليك في القلب، لأن اشتراكهم في القتال هو الذي أثار أبلغ استنكار في الذاكرة الأسبانية. ولا داعي للسؤال هل كانت الصورة تاريخياً صحيحاً، فهي فن رائع قوي، ابتداء من تدريجات الألوان التي تومض على جواد المملوك المجند وانتهاء بوجوه الرجال الذين روعهم ووحشهم الاختيار بين أن يقتلوا أو يُقتلوا. وأنصع من هذه اللوحة، اللوحة الأخت "الرمي بالنار في الثالث من مايو" - وفيها فرقة لحملة البنادق الفرنسيين يعدمون السجناء الأسبان. وليس في فن جويا ما هم أبلغ وقعاً في النفس من التباين بين الرعب والتحدي في الشخصية الوسطى في تلك المذبحة.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> فرانسكو دي جويا

والآن وقد بات جويا أرملاً، أصم، مكرهاً على الصمت، فقد انكفأ إلى فنه وهو ما يزال "مصور الحجر الملكية" ذا المعاش المقرر، ولكنه لم يعد أثيراً لدى البلاط. ولعل أقوى محفوراته قد حفرها في 1812. وهي "العملاق" (125)- وتتمثل هر قول بوجه كاليبان، جالساً على حافة الكرة الأرضية، كأنه مارس يستريح بعد حرب ظافرة. وكان طوال الفترة من 1810 يرسم رسوماً تخطيطية صغيرة ثم يحفرها ويطبعاها، وقد سماها "العقابيل القتالة لحرب أسبانيا

الدموية مع بونايرت، وغيرها من النزوات". ولم يجرؤ على نشر هذه الرسوم الخمسة الثمانية ولكن أوصى بها لولده، الذي باعها أبه لأكاديمية سان فرناندو، والتي نشرتها عام 1863 بعنوان "توارث الحرب". وهذه الرسوم التخطيطية ليست مشاهد عادية للمعارك يستخفي القتال فيها في ثوب البطولة والمجد. إنما هي لحظات من الرعب والقسوة تنسى خلالها ضوابط الحضارة الهزلية في حميا الصراع ونشوة الدماء. هنا بيوت تحترق وتتهار على ساكنيها، ونسوة يهرعن إلى المعركة بحجارة أو رماح أو بنادق، هنا نساء تهتك أعراضهن، ورجال يشدون إلى أعمدة أما فرق ضرب النار، ورجال طاحت سيقانهم أو أذرعهم أو رؤوسهم، وجندي يحب الأعضاء التناسلية لرجل (126) وجثث تخوزق فوق جذوع أو أطراف الشجر الحادة، ونساء ميتات مازلن قابضات على أطفالهن الرضع، وأطفال يرقبون في هلع قتال آبائهم، وأكداس من الموتى يقذف بهم في الحفر، والنسور تستمتع بالتهام الموتى من الأدميين. وتحت هذه الصور أضاف جويًا تعليقات ساخرة. "هذا ما ولدت له" (127)، "هذا رأيتُه" (128)، "لقد حدث هكذا" (129)، "ليدفنوا الموتى ويلزموا الصمت" (130). وفي النهاية أعرب جويًا عن يأسه وأمله. فالصورة رقم 79 تمثل امرأة تموت بين الحفارين والكهنة، وعنوانها "الحق يموت"، ولكن الصورة رقم 80 تظهرها وهي تشع ضياء، وتساءل "أتبعث حبة مرة أخرى؟".

صفحة رقم : 13347

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> فرانسكو دي جويًا

هـ - انحدار

في فبراير 1819 اشترى بيتاً ريفياً على الضفة الأخرى لنهر مانزاتاريس. كانت الأشجار تظلمه، ومع أنه كان عاجزاً عن سماع شدة الغدير الذي حف به، فإنه استطاع أن يحس الدرس المستفاد من جريانه الهادئ المطمئن. وكان جيرانه يسمون بيته "بيت الأصم". ولما كان خافير قد تزوج واستقل ببيته، فقد صحب جويًا معه دونًا لونايداوايس، خليفة ومديرة لبيته. وكانت امرأة سليطة اللسان قوية البدن، ولكن جويًا كان في حصن حصين من لسانها السليط. وأنت معها بطفلين - صبي هو جيبيرمو، وفتاة صغيرة مرحة تدعى ماريا ديل روزاريو، وقد أصبحت عزاء لحياة الفنان في شيخوخته.

ولقد كان في أمس الحاجة لهذا الحافز الصحي لأن عقله كان على شفا الجنون. على هذا النحو فقط نستطيع أن نفهم "الرسوم الزنجية" التي غطى بها كثيراً من جدران البيت الذي كان مستشفاه. وراح يرسم بالأسود والأبيض في الأغلب، وكأنه يعكس ظلام عقله، ولم يعطِ حدوداً معينة للأجساد التي رسمها وكأنه وفي لغموض رؤاه، ولكنه استعمل ألواناً جصية حسنة ليثبت بسرعة على الحائط صور حلم سريعة الزوال. وقد رسم على جدار جانبي طويل "رحلة سان ايزيدرو" وهو العيد الذي رسمه مبهتجاً عام 1788 قبل إحدى وثلاثين سنة ولكنه الآن أصبح مشهداً كئيباً لمتعصبين متوحشين مخمورين. وجمع على الجدار المقابل أشخاصاً أفضح حتى من هؤلاء في "سبت الساحرات" وهن يتعبدن لنيس أسود ضخم على نحو رهيب لأنه شيطانهن واليهن الأمر. وفي أقصى الحجرة ارتفعت أشبع صورة في تاريخ الفن، صورة ساترن يفترس ابنه - مار يفترس طفلاً عارياً، أكل رأسه وذراعه وأخذ يلتهم الذراع الباقية وهو يرش الدم من حوله (131). وربما كانت الصورة رمزاً مجنوناً لأمم مجنونة تأكل بنيتها في الحرب. هذه رؤى رجل تعذبه أطياف الموت المروعة فهو يرسمها في جنون ليطردها من ذاته ويثبتها على الجدار. وفي 1823 هربت ليوناديا إلى بورديو بولديها لخوفها من الاعتقال

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> أسبانيا وحركة التنوير -> فرانسكو دي جويبا

بسبب نشاطها الماسوني. وقرر جويبا أن يلحق بهم بعد أن ترك وحيداً مع الجنون الذي رسمه على جدرانها. ولكنه لو رحل بغير إذن من الملك لفقد حقه في الراتب الرسمي الذي كان يتقاضاه بوصفه مصور الحجر، فألتمس إجازة شهوراً للاستشفاء بمياه بلومبيير، فمنح الإجازة. ونقل ملكية بيته لحفيده ماريانو، وفي يونيو 1824 يمّم شطر بوردو، وليوثاريا، ماريبا ديل روزاريو.

وبات حبه لحفيده ماريانو العاطفة المشبوبة المتسلطة عليه كلما دنت منيته. فأوصى بمعاش سنوي للصبي وعرض دفع النفقات إذا أتى خافيير بماريانو إلى بوردو. ولم يستطع خافيير الحضور ولكنه أرسل زوجته وأبته، فلما وصلا عانقهما جويبا في انفعال انهار بسببه واضطر إلى ملازمة الفراش. وكتب إلى ابنه يقول: "يا عزيزي خافيير، إنما أردت أن أخبرك بأن هذه الفرحة كلها كانت فوق ما أحتمل... أدعو الله أن يتيح لك أن تأتي وتأخذهما عندها تفيض كأس سعادتي(132)". وفي صباح الغد أحتبس صوته وشل نصف بدنه. وطال احتضاره ثلاثة عشر يوماً وهو ينتظر بصبر نافذ مجيء خافيير دون جدوى. ومات في 16 إبريل 1828. وفي 1899 نقل رفاته من بوردو إلى مدريد ودفن أمام مذبح كنيسة سان أنطونيو دي لافلوريدا، حيث رسم قبل مائة عام تحت القبة الآم الحياة الأسبانية وأحزانها وأفراحها وقصص حبها.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> جولة وداع

الفصل الثاني عشر

وداعاً إيطاليا

1- جولة وداع

لو سمحنا لأنفسنا بنظرة واحدة أخرى إلى إيطاليا لوجدناها حتى في هذه القيلولة الظاهرية دافئة بالحياة. فنرى تورين تحتضن الفييري، ولوكانت تنشر موسوعة دييرو، وفلورنسة تزدهر ثانية تحت حكم الدوق الكبير ليوبولد، وميلان تصلح القانون بفضل بيكاريا وبافيا وبولونيا تهتز ان طرباً لتجارب فولتا وكلفاني، والبندقية تعاني من سلوك كانوفا، ونابلي تتحدى البابوية، وروما متورطة في مأساة اليسوعيين، وعشرات من مرابي الموسيقى تصدر الأوبرا ومهرة العازفين ليهدنوا صدر الأقطار المتوحشة عبر الألب. وسنلتقي في إيطاليا بمائة ألف أجنبي قدموا إليها ليدرسوا كنوزها وليصطلوا بشمسها. ففي هذا العهد وفد إليها جوته بعد أن أرقه نبلاء قيما ليجدد شبابه ويروض ربة شعره. كان انطباع جوته الأول وهو منحدر من الأب إلى فينتسيا ترد نتينا (سبتمبر 1786) تأثره بالهواء المعتدل والجو المشرق الذي "يضيء غاية البهجة على مجر الوجود بل حتى على الفقر" (1) ثم هذه الحياة الطليقة: "فالأهالي دائماً خارج بيوتهم وهم لخلو بالهم لا يفكرون في شيء، إلا في أن يحيوا". وظن أن التربة المثمرة لا بد أن توجد على هؤلاء القوم البسطاء بحاجاتهم المتواضعة دون إبطاء، ولكن الفقر وعدم وجود الوسائل الصحية في المدن الصغيرة أفزعاه:

"حين سألت النادل عن مكان (لقضاء الحاجة) أشار لي على الفناء قائلاً "ممكن، تحت، في الحوش". فسألته "أين؟" فقال في لهجة ودية "في أي

صفحة رقم : 13350

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> جولة وداع

مكان، كما نشاء... كل الأفنية الأمامية والأعمدة تلوثها الأقدار، لأن القوم يقضون حاجاتهم بطريقة طبيعية جداً" (2). على أن التكيف الحسي جعله يسلم بالأمر الواقع شيئاً فشيئاً. وكانت البندقية تستمتع بانحلالها اللطيف، فحوالي 1778 وصف كارلو جوتسي في مبالغة تغار على الفضيلة ما بدا له أنه انحلال عام في الأخلاق:

"إن منظر النساء وقد انقلبن رجالاً، والرجال نساء، وكلهم نسانيس، وكلهم غارقون... في دوامة الموضة، يفسدون ويغورون بعضهم بعضاً بلهفة كلاب الصيد تجري وراء رائحة الفريسة، ويتنافسون في شهواتهم وسرفهم المدمر... ويحرقون البخور... ليريابوس (3)... (إله الشهوة)".

وفي 1797 ألقى اللوم على الفلسفة في هذا الانهيار:

"إن الدين، ذلك الكابح الصحي لشهوات البشر... قد أصبح هزواً بين الناس. ولست أملك إلا الإيمان بأن المشنقة مفيدة للمجتمع، لأنها أداة لعقاب الجريمة وردع من تحدثه نفسه بالإجرام. ولكن فلاسفتنا العصريين ندوا بالمشنقة زاعمين أنها تحبب ظالم وهكذا زادوا جرائم القتل على الطريق العام والسراقات وأعمال العنف مائة ضعف".

"وقد أكدوا لنا أن إبقاء النساء في بيوتهن لرعاية بنينهن وبناتهن... والإشراف على خدمة الأسرة واقتصادها، إنما هو تحيز بال وهمي. وللتو انطلقت النساء من بيوتهن معربرات كالبخوسيات، صائحات "الحرية... الحرية..." وغصت الشوارع بهن... وأسلمن أثناء ذلك عقولهن الطائشة إلى الموضات والبدع التافهة، والملاهي ومغامرات الحب ومظاهر الدلال وسائر السفاسف... أما الأزواج فلم يؤتوا من الشجاعة ما يمكنهم من مقاومة هذا التدمير لشرفهم ومآلهم وأسرهم، وخافوا من أن يشهر بهم ويرموا بهذه الكلمة الرهيبة، كلمة "التحيز"... فقد وصفت مكارم الأخلاق،

صفحة رقم : 13351

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> جولة وداع

والحشمة، والعفة، بأنها تحيز... وحين أكرهت جميع هذه التحيزات المزعومة على الهروب... ظهر الكثير من النعم الكبرى والبركات العظمى. كالكفر، والإحاطة بالاحترام والتوقير، وقلب العدالة رأساً على عقب... وتشجيع المجرمين والرتاء لهم، والخيالات الملتهية، والأحاسيس المرهفة، والغرائز البهيمية، والانهماك في جميع اللذات والشهوات، والترف العاتي... والتقاليس... والخانات الزوجية(4)".

ولكن أسباب الانحلال الرئيسية كانت بالطبع اقتصادية وحربية؛ ذلك أن البندقية فقدت ثراءها الذي لها الدفاع عن قوتها وعلى النقيض منها ازدادت قوة غريمتها النمسا البشرية ازدياداً مكنها من السيطرة على كل المداخل البرية إلى بحيرات البندقية، ومن خوض بعض حملاتها الحربية على أرض الجمهورية المحايدة العاجزة. وفي 9 مارس 1789 انتخب لودوفيكومانن لرئاسة الجمهورية وكان بذلك آخر الأدواج المائة والعشرين الذين تعاقبوا على كرسي رئاسة البندقية في استمرار رائع منذ عام 697. وكان رجلاً ذا ثراء طائل وشخصية هزيلة، ولكن ما كان في طوق الفقر أو الشجاعة أن يردا عنه مأساته. ذلك أن الباستيل سقط في أربعة أشهر، وتسلطت عبادة الحرية على خيال فرنسا، وحين أقبل هذا الدين مع فيالق نابليون اكتسح كل إيطاليا تقريباً تحت رايته وبقوة نشوته. وفرض الكورسيكي الظافر بظاهره ثمانون ألف جندي على ملكة الأديراتيكي حكومة مؤقتة أملاها بنفسه (12 مايو 1797) محجاً بأن القوات النمساوية قد استعانت عليه بأرض البندقية، ومتهماً البندقية بأنها ساعدت أعداءه سراً. وفي ذلك اليوم أعطى الدوج مانن قلنسوة الرئاسة لأحد أتباعه بعد أن استقال، وأمره قائلاً "خذها بعيداً عني فلن تحتاج إليها ثاني(5)" وبعد أيام مات. وفي 16 مايو احتلت الجنود الفرنسية المدينة. وفي 17 أكتوبر وقع بونابرت في كامبوفورميو معاهدة نقلت البندقية وكل الأقاليم التي تمتلكها تقريباً إلى النمسا في مقابل تنازلات من النمسا لفرنسا في البلجيك وضة الرين اليسرى. وحدث هذا بالضبط

صفحة رقم : 13352

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> جولة وداع

بعد ألف ومائة عام من انتخاب أول دوج لحكم بحيرات البندقية والدفاع عنها. أما بارما فكانت محمية أسبانية، ولكن دوقها، والدون فيليبي، ابن فيليب الخامس وإيزابيللا فارنيزي، تزوج لويزا اليزابيث ابنة لويس الخامس عشر وقد عود نفسه عاداتها المسرفة وجعل بلاطه فرسايا مصغرة. وأصبحت بارما مركزاً للثقافة تختلط فيه أساليب الحياة العالمية في بهجة ومرح. يقول كازانوفا "لقد خيل إلي أنني لم أعد عائشاً في إيطاليا، فكل شيء بدا منتمياً للجانب الآخر من الألب. ولم يكن المارة يتكلمون إلا الفرنسية والأسبانية(6)". وقام وزير مستنير يدعى جيوم دوتيو بإصلاحات حافزة للدوقية. هنا كانت تنتج مصنوعات من أبداع أنواع النسيج والبلور والقاشاني.

أما ميلان فقد شهدت توسعاً صناعياً ينبئ في تواضع بما بلغته من تفوق اقتصادي في إيطاليا اليوم. ذلك أن الحكم النمساوي أرحى قبضته على قدرات الأهالي وإقدامهم. وتعاون الكونت كارل يوزف فون فرميان، حاكم لومبارديا، مع الزعماء الوطنيين على تحسين الإدارة، وحد من السلطة الظالمة التي كان يمارسها البارونات الإقطاعيون الأوليجركيون في المدن. وظهرت طائفة من أحرار الاقتصاد يتزعمهم بيترو فري، وتشيزاري بونيزانا دي بيكاريا، وجوفاني كارلي، اعتنقت مبادئ الفيزوقراطيين، وألغوا المكوس على التجارة الداخلية، وأنهوا نظام الالتزام الضرائبي، ووزعوا العبء بفرض الضرائب على الأملاك الكنسية. ونمت صناعة النسيج حتى انتظمت في 1785 تسعاً وعشرين شركة تشغل 1.384 نولاً. ومسحت الأراضي، ومولت الدولة مشروعات الري، واشتغل الفلاحون بهمة صادقة. وفي السنوات الإحدى والعشرين فيما بين 1749 و1770 ارتفع سكان الدوقية من 90.000 إلى 130.000(7). وفي فترة انتعاش ميلانو هذه بنى مجتمعها التياترو الاسكالا (1776-78)، الذي اتسع لـ3.600 مقترح تحيط بهم زخارف فاخرة كزخارف القصور، واحتوى تسهيلات

صفحة رقم : 13353

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> جولة وداع

للموسيقى، والسمر، والأكل، ولعب الورق، والنوم. وفوق هذا كلها صهريجاً للمياه صمم لإطفاء أي حريق. هنا ظفر تشيما روزا وكيروبيني بانتصارات مدوية. وكان العصر عصر البطولة لكورسكا. لقد كانت تلك الجزيرة الجبلية الصغيرة مثقلة بأحداث التاريخ. فالفينيقيون القادمون من آسيا الصغرى أقاموا مستعمرات فيها حوالي 560 ق.م. ثم قهرهم الأثروريون، الذين قهرهم القرطاجنيون، الذين قهرهم الرومان، الذي قهرهم الروم البيزنطيون، الذين قهرهم الفرنجة، الذي قهرهم المسلمون، الذين قهرهم إيطاليو تسكانيا، الذي قهرهم البيزاويون، الذي قهرهم الجنويون (1347). ومات في ذلك القرن ثلثا السكان من الطاعون الأسود. وفي ظل الحكم الجنوي انحدر الكورسيكيون الذين أرهقهم الوباء وغارات القراصنة، والذين حرمت عليهم المناصب الكبرى وأثقلت كواهلهم بضرائب لا يطيقونها، وانقلبوا إلى حال أشبه بالتوحش لم يحترم فيها قانون غير قانون الثورات العنيفة. وأخفقت الثورات التي اندلعت بين الحين والحين لما ابتلي به القوم من عداوات طاحنة وما افتقدوا من العون الأجنبي. أما جنوه ففي سبيل الدفاع عن حياتها ضد الجيوش النمساوية استجدت بفرنسا لتعينها على حفظ النظام في كورسكا. واستجابت فرنسا مخافة أن يستولي البريطانيون على الجزيرة ويستخدموها قلعة يتسلطون منها على البحر المتوسط، فاحتلت الجنود الفرنسية أباتشو وغيرها من الحصون الكورسيكية (1719-48). ولما بدا أن الأمن قد استتب انسحب الفرنسيون، وعاد سلطان جنوه إلى سابق عهده، وبدأت ثورة باولي التاريخية.

وقد سبق باسكالي دي باولي هذه البطولات غاريبالدي بقرن كامل. وقد وصفه اللورد شاتام بأنه "واحد من هؤلاء الرجال الذين لم يعد الناس يعثرون عليهم إلا في صفحات بلوتارخ(8)". ولد (1725) ابناً لثائر كورسيكي وتبع أباه

إلى المنفى، ودرس في نابلي على يد الاقتصادي المتحرر جينوفيزي، وخدم في جيش نابلي، ثم عاد إلى كورسيكا (1755)

صفحة رقم : 13354

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> جولة وداع

واختير ليقود تمرداً على جنوه. وبعد عامين من القتال أفلح في طرد الجنوبيين من الجزيرة إلا بعض مدنها الساحلية فلما ولي رئاسة الجمهورية الجديدة بالانتخاب (1757-68) أظهر في ميدان التشريع والإدارة نبوغاً لا يقل عن نبوغه في استراتيجية الحرب وتكتيكها. فقد وضع دستوراً ديمقراطياً، وقمع الثورات، وألغى حقوق أمراء الإقطاع الظالمة، ونشر التعليم، وأسس جامعة في عاصمته كورتي. واضطرت جنوه لعجزها عن قهره إلى بيع الجزيرة لفرنسا (15 مايو 1768) بمليون فرنك. ووجد باولي الآن نفسه يقاوم جنوداً فرنسيين يعززون بالإمداد المرة بعد المرة. وكان سكرتيره ومساعدته في ذلك الوقت كارلو بونابتي، الذي ولد له ابن سماه نابليون باياتشو في 15 أغسطس 1769. فلم قهر الفرنسيون باولي في بونتينوفو (مايو 1769) طلق هذا النضال الذي لا أمل فيه ولجأ إلى إنجلترا، وهناك منحته الحكومة معاشاً، وأذاع بوزويل اسمه. وكان جونسون واحداً من أصدقائه. على أن الجمعية الوطنية لفرنسا الثورة استدعته من منفاه، وأشادت به "بطلاً وشهيداً للحرية" وعينته حاكماً على كورسيكا، (1791). ولكن المؤتمر الفرنسي حكم بأن في ميوله اليعقوبية قصوراً، فأرسل لجنة لخلعه، وخف الجنود البريطانيون لنجدته، ولكن القائد البريطاني استولى على الجزيرة وأعاد باولي إلى إنجلترا (1795). ثم جرد نابليون قوة فرنسية لتطرد البريطانيين (1796)، ورحب أهل الجزيرة بالفرنسيين باعتبارهم موفدين من قبل "الكورسيكي"، وانسحب البريطانيون، وخضعت كورسيكا لفرنسا. أما توسكاني فقد ازدهرت تحت حكم كبار الأدواق الهابسبورج الذين خلفوا آل مديتشي (1738). وبعد أن اتخذ حاكمها الأسمى فرانسوا اللوريني النمسا مقراً له لزواجه من ماريا تريزا، فوض الحكم إلى مجلس وصاية يرأسه زعماء وطنيون نافسوا الميلانيين الأحرار في إصلاحاتهم الاقتصادية، فقد حققوا حرية التجارة الداخلية في الغلال (1767) قبل أن يبذل طورجو محاولة كمالتهم في فرنسا بسبع سنين. وحين مات فرانسوا

صفحة رقم : 13355

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> جولة وداع

(1765) خلفه دوقاً أكبر ابنه الأصغر ليوبولد، الذي تطور حتى أصبح واحداً من أجراً وأشجع "المستبددين المستنيرين". كبح الفساد في المناصب، وأصبح القضاء والإدارة المالية، وسوى بين الناس في الضرائب، وألغى التعذيب والمصادرة وحكم الإعدام، وأعان الفلاحين، وجفف المستنقعات، وأنهى الاحتكارات، ونشر حرية التجارة

وحرية المؤسسات التجارية، وسمح للكومونات بالحكم الذاتي، وتطلع إلى وضع دستور شبيه بالدساتير الديمقراطية للدوقية. وقد راع جوته ما شهده من نظافة المدن التوسكانية والنسبية وصلاحيه الطرق والكباري، وجمال الأشغال العامة وفخامتها(9). وحين أصبح يوزف أخو ليوبولد إمبراطوراً أوحده، أعان ليوبولد على إلغاء معظم الامتيازات الإقطاعية في تسكانيا، وإغلاق كثير من الأديرة، والحد من سلطة الأكليروس.

وفي ميدان الإصلاحات الكنسية تلقى ليوبولد تعاوناً صادقاً من سكيبوني دي ريكي أسقف بستويا وبراتو. وكان في تسكانيا عرف قاسي يقضي على جميع الفتيات اللاتي لا مهور لهن بالرهبنة، وانضم ريكي إلى الدوق الكبير في رفع السن الدنيا لنذر الرهبنة وتحويل الكثير من الأديرة إلى مدارس للبنات. واتخذت التدابير لنشر التعليم غير الديني بإحلال المدارس العلمانية محل مدارس اليسوعيين. وكان ريكي يتلو القداس بالإيطالية. ويقاوم الخرافات، المر الذي أساء كثيراً إلى جماهير الشعب. فلما شاع أنه ينوي إزالة "حزام العزراء مريم" الشهير في براتو لأنه زائف، أحدث الشعب شغباً ونهبوا قصر الأسقف. على أن ريكي دعا رغم ذلك مجمعاً أسقفياً انعقد في بستويا عام 1786 وأعلن مبادئ تذكر بـ"المواد الغالية" الصادرة في 1682. ومفادها أن السلطة الزمنية مستقلة عن السلطة الروحية (أي أن الدولة مستقلة عن الكنيسة)، وأن البابا عرضة للخطأ حتى في الأمور المتصلة بالعقيدة.

وكان ليوبولد يحيا حياة البساطة، وأحبه الناس لطباعه الفطرية غير المتكلفة. ولكن حين امتد حكمه وأرهفته خصومة السنين بات ظنوناً معتزلاً الناس، واستخدم عدداً كثيراً من الجواسيس ليكونوا له عيوناً على مساعديه

صفحة رقم : 13356

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> جولة وداع

وأعدائه على السواء. وقد أسدى له يوزف النصيحة من فيينا قائلاً: "دعهم يغشونك أحياناً، فهذا خير من أن تعذب نفسك عذاباً متصلاً لا غناء فيه"(10). فلما غادر ليوبولد فلورنسة ليخلف يوزف إمبراطوراً (1790) انتصرت قوى الرجعية في تسكانيا وأدان البابا بيوس الداس ريكي في 1794 وأودعه السجن (1799-1805) حتى سحب هرطقاته. ورد قدوم حكومة نابليون (1800) الأحرار إلى سابق سلطانهم.

وهرول جوته إلى روما عبر تسكانيا. استمع إليه وهو يكتب في أول نوفمبر 1786:

"وأخيراً وصلت إلى عاصمة العالم العظيمة هذه. وكأنما طرت طيراناً فوق جبال النبرول. إن شوقي لبلوغ روما كان شديداً. حتى كان التفكير في التخلف في أي مكان ضرباً من المحال، وحتى فلورنسة لم أمكث فيها سوى ثلاث ساعات. والآن، كما أخالني سأظفر بالهدوء مدى الحياة، فلنا أن نقول إن حياة جديدة تبدأ حين يرى الإنسان بعينه ما لم يسمع أو يقرأ عنه من قبل إلا قليلاً. وأنا الآن أرى جميع أحلام شبابي تتحقق أمام عيني".

وأي خليط يدبر الرؤوس كانت روما القرن الثامن عشر وهي تشغى بالشحاذين والنبلاء، بالكرادلة والخصيان المغنين، بالأساقفة والبغايا، بالرهبان والتجار، باليسوعيين واليهود، بالفنانين والمجرمين، بالفتاك والقدسين، وبالسياح يبحثون عن الآثار نهاراً وعن الغواني ليلاً. وهنا، وعلى اثني عشر ميلاً من أسوار المدينة، مدرجات وثنية وأقواس نصر، وقصور ونافورات من عهد النهضة، وثلاثمائة كنيسة وعشرة آلاف قسيس و170.000 نسمة. ومن حول الفاتيكان قلعة المسيحية الكاثوليكية، عاش صنف من الرعايا كانوا أشد ما عرف العالم المسيحي صخباً وتمرداً وعداءً للأكليروس. وكاننت الكراسيات البديئة المهاجمة للكنيسة يطاف بها في الشوارع، والمهرجون يقلدون في سخريه في الميادين العامة أقدم مراسم القداس. ولعل فنكلمان وهو الرجل الحي الرقيق كان يببالغ قليلاً حين قال:

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> جولة وداع

"في النهار يسود روما هدوء معتدل، أما في الليل فإن الشيطان ينطلق من عقاله. ونتيجة للحرية الكبيرة التي تسود هنا، ولعدم وجود أي نوع من أنواع الشرطة، يتصل الشجار وضرب النار وإطلاق الصواريخ والألعاب الناري في جميع الشوارع الليل كله..والجماهير عاصية لا تخضع لسلطان، قد أعيا الحاكم كثرة النفي والشنق"(11). كانت روما مدينة تتسم بطابع العالمية أكثر حتى من باريس-يختلط فيها الفنانون والطلاب والشعراء والسياح بالأخبار والأميرات في الصالونات وقاعات الفن والمسارح.

هنا كان فنكلمان ومنجز يبشران بإحياء الطراز الكلاسيكي، وهنا كان الباباوات المرهقون المحاصرون يكافحون لتهدئة ثائرة الجماهير التي طحنها الفقر بالخيز والبركات الروحية، ولتعطيل السفراء الذين يلحون في إلغاء الطائفة اليسوعية والحفاظ على صرح المسيحية المعقد بأسره من الانهيار تحت وطأة التقدم العلم وهجمات الفلسفة.

ولكن لنمضي قدماً مع جيته إلى نابلي. لقد خيل إليه أنه لم يشهد قط مثل هذه الفرحة بالحياة:

"إذا كان في استطاعة المرء وهو في روما أن يعكف من فوره على الدراسة، فليس في استطاعته هنا أن يفعل شيئاً إلا أن يعيش. فأنت تنسى نفسك والعالم، وأنا عن نفسي أجده شعوراً غريباً أن أنتقل من قوم لا يفكرون إلا في الاستمتاع بالحياة...عنا لا يعرف الناش شيئاً بعضهم عن بعض. وقلما يلحظون أن غيرهم يسرون أيضاً في طريق سيرهم جنباً إلى جنب معهم. وهم يجرون سحابة نهارهم خلفاً وأماماً في فردوس دون أن يلتفتوا حولهم، ولو بدأ فكا الجحيم المجاوران ينفثان ويثوران، فإنهم يستنجدون بالفديس يتواربوس(12).

وكان الدوق كارلوس بعد رحيله عن نابلي قاصداً أسبانيا في 1759

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> جولة وداع

قد أوصى بمملكة بانلي وصقلية إلى ابنه فرديناند الرابع البالغ من العمر ثمانية أعوام، بوصاية الماركيز دي تانوكي وواصل تانوكي حرب الكنيسة التي بدأها على عهد كارلوس. فألغى الكثير من أديرة الرهبان والراهبات ولم يتردد في إتباع تعليمات شارل الثالث ملك أسبانيا بطرد اليسوعيين. فما أن انتصف ليل 3-4نوفمبر 1767 حتى قبض الجند على جميع أعضاء الطائفة في المملكة، وقادوهم-وهو لا يحملون من مقتنياتهم سوى الثياب التي عليهم-إلى أقرب ثغر أو نقطة حدود، ومن هناك رحلوا إلى الولايات البابوية.

ولما بلغ فرديناند الرابع عامه السادس عشر (1767) أنهى وصاية تانوكي. وبعد عام تزوج ماريا كارولينا، الأبنة التقية لماريا تريزا. وسرعان ما سيطرت على زوجها وتزعمت حركة رجعية ضد سياسات تانوكي المناهضة لرجال الدين. وكانت إصلاحات الماركيز قد قوت ملكية تانوكي ضد نبلاء الإقطاع والكنيسة، ولكنها لم تحقق شيئاً يذكر في تخفيف الفقر الذي لم يترك للجماهير أملاً إلا في الآخرة.

وانتهجت صقلية نهجاً مماثلاً. فكان بناء كاتدرائية بلرمو (1782-1802) أهم وأخطر في نظر الشعب من محاولة دمونيكو دي كاراكولي ترويض أمراء الإقطاع الذين سيطروا على البلاد. وكان قد عمل سنوات كثيرة سفيراً لنابلي

في لندن وباريس، وأستمع إلى البروتستنت والفلاسفة. فلما عُين والياً على صقلية (1781) فرض الضرائب الباهظة على كبار ملاك الأراضي، واختزل حقوقهم الإقطاعية على أقدانهم، وأنه ما كان لهم من امتيازات اختيار القضاة المحليين. ولكن حين تجاسر على حبس أمير يحمي قطاع الطرق، وأمر بإنقاص يومين من العطلات التي تمنح تكريماً للقديس روزاليا حامي بلرمو، ثارت عليه جميع الطبقات، وقفل إلى نابلي مهزوماً (1785)(13). فالفلاسفة لم يكونوا قد برهنوا بعد على أنهم يفهمون حاجات الإنسان وطبيعته خيراً مما تفهمها الكنيسة.

صفحة رقم : 13359

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> البابوات والملوك واليسوعيون

2- البابوات والملوك واليسوعيون

استندت قوة الكنيسة الكاثوليكية على إيمان بالخوارق ركب في فطرة البشر، والتسليم بالدوافع الحسية والمخلفات الوثنية والتسامي بها، وتشجيع الخصوبة الكاثوليكية، وغرس لاهوت غني بالشعر والأمل، نافع للتهذيب الخلقي والنظام الاجتماعي. كذلك كانت الكنيسة في إيطاليا لمصدر الرئيسي للدخل القومي، ورادعاً معترفاً بقيمته لشعب يؤمن إيماناً شديداً بالخرافات، وثنى النزعة مشبوب العطفة. وقد كثرت الخرافات بين الإيطاليين، فحتى (1787) أحرقت الساحرات في بلرمو-وقدمت المرطبات للنبيلات العصريات اللاتي حضرن هذا المشهد (14). وعاشت المعتقدات والعادات والمراسم الوثنية في ظل موافقة الكنيسة عليها عن طيب خاطر. كتب جوته يقول "لقد انتهيت إلى اعتقاد القاطع بأن كل آثار المسيحية الأصلية قد انقرضت هنا في روما (15)". على أنه بقي في العالم المسيحي الكثير من المسيحيين الحقيقيين، حتى في إيطاليا. ومن هؤلاء الكونت كابسوتي دي كيبوزانو، أسقف أسني، الذي نزل عن ميراثه الكبير، وعاش في فقر اختياري، وكان لا يسافر إلا راجلاً. كذلك كان تستا أسقف مونريالي ينام على القش، ولا يأكل إلا ما يمسك رmqه ولا يحتفظ من دخله إلا بثلاثة آلاف ليرة لحاجاته الشخصية، ويخصص ما بقي منه للأشغال العامة والفقراء (16).

واستجابت الكنيسة لحركة التنوير إلى حد ما. وبالطبع أدرجت أعمال فولتير وروسو وديدرو وهلفتيوس ودولباخ ولا متري وغيرهم من أحرار الفكر في قائمة الكتب المحرمة، ولكن أبيع الحصول على إذن بقراءتها من البابا. وكان المونسنيور فنتمليو أسقف قطنيا (1757-73) يقتني في مكتبته طبعات كاملة من فولتير وهلفتيوس وروسو (17). وألغيت محكمة التفتيش في تسكانيا وبارما عام 1769، وفي صقلية عام 1782، وفي روما عام 1809. وفي 1783 نشر قسيس كاثوليكي يدعى تابورني، تحت اسم صديقه تراوتما نسدورف، مقالاً "في التسامح الكنسي والمدني"

صفحة رقم : 13360

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> البابوات والملوك واليسوعيون

أدان فيه محكمة التفتيش وحكم على كل ضروب الإكراه للضمير بأنها منافية للمسيحية، ودافع عن جميع أنواع اللاهوت إلا الإلحاد(18). وكان من سوء طالع البابوات في نصف القرن الثامن عشر هذا أن يضطروا إلى مواجهة مطالبة الملوك الكاثوليك بحل جمعية اليسوعيين كلية. وكانت الحركة المناهضة لليسوعيين جزءاً من صراع على القوة بين قومية الدولة الحديثة الظاهرة، ودولية بابوية أضعفتها حركة الإصلاح البروتستانتي وحركة التنوير وصعود طبقة رجال الأعمال. ولم يلح أعداء الجمعية الكاثوليك إلحاحاً سافراً باعتراضهم الرئيسي عليها، وهو أنها دأبت على تأييد سلطة البابوات باعتبارها فوق سلطة الملوك، ولكنه كرهوا أشد الكره أن يشكل قيام منظمة لا تعترف برئيس غير رئيسها، والبابا في الواقع داخل كل دولة عميلاً لسلطة أجنبية. وقد سلموا بغزارة علم اليسوعيين وتقواهم، وبإسهاماتهم في العلوم والأدب والفلسفة والفن، وبتربيتهم المثابرة الفعالة للشباب الكاثوليكي؛ وببطولتهم في البعثات الأجنبية وباستعادتهم كثيراً من الأرض التي فقدتها الكاثوليكية واستولت عليها البروتستانتية. ولكن التهمة التي وجهوها إلى الجمعية هي أنها كانت تتدخل المرة بعد المرة في الشؤون العلمانية؛ وأنها اشتغلت بالتجارة طمعاً في الربح المادي؛ وأنها عرست مبادئ الفتاوى التي تغتفر الفساد الخلقي والجريمة، وأغضت حتى عن قتل الملوك، وأنها سمحت للعادات والمعتقدات الوثنية بأن تعيش بين أتباعها المزعومين في آسيا؛ وأنها أساءت إلى الطوائف الدينية الأخرى وإلى كثير من الكهنة غير الرهبان، بحدتها في الجدل ونغمتها المشربة بالاحتقار. وأصر سفراء ملوك البرتغال وأسبانيا وناپلي وفرنسا على إلغاء الترخيص البابوي الخاص بالجمعية وعلى حل المنظمة رسمياً وفي كل مكان. على أن طرد اليسوعيين من البرتغال في 1759 ومن فرنسا في 1764-67، ومن أسبانيا وناپلي في 1767، ترك الجمعية تواصل نشاطها وسط وشمال إيطاليا، وفي سيليزيا وبولندا. وفي 7 فبراير 1768 طردوا من دوقية بارما البوربوننية، وأضيفوا إلى حشد اللاجئيين اليسوعيين في ولايات

صفحة رقم : 13361

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> البابوات والملوك واليسوعيون

الكنيسة. واحتج البابا كلمنت الثالث عشر بأن بارما إقطاعة بابوية، وهدد الدوق فرديناند السادس ووزراءه بالجزم إذا نفذ مرسوم الطرد. فلما أصروا أصدر مرسوماً أعلن فيه مصادرة رتبة الدوق ولقبه وإلغاءهما. وبدأت الحكومات الكاثوليكية في أسبانيا وناپلي وفرنسا حرباً على البابوية. واستولى تانوتشي على مدينتي بنيفنتو وبونتيكوفو البابويتين واحتلت فرنسا أفنيون. وفي 10 ديسمبر 1768 قدم السفير الفرنسي في روما باسم فرنسا وناپلي وأسبانيا إلى البابا مطالباً بسحب المرسوم الموجه ضد بارما وإلغاء جمعية اليسوعيين. وانهار الحبر الأعظم تحت وطأة هذا الإنذار النهائي. وكان يبلغ من العمر آنذاك سنة وسبعين عاماً، فدعا لعقد مجمع من المطارنة والمبعوثين في 3 فبراير 1769 لدراسة الأمر. وفي 2 فبراير خر صريعاً بانفجار عرق في دماغه. وانقسم الكرادلة الذين دعوا لاختيار خلف له فريقين: الغيورين الذين اقترحوا تحدي الملوك، والمهدين الذين آثروا التسويات الهادئة. ولما كانت الكثرة العظمى من الكرادلة الإيطاليين من فريق الغيورين الذين اجتمعوا سرعياً في روما، فقد حاولوا افتتاح المجمع قبل أن يصل فريق الكرادلة المهدين من فرنسا وأسبانيا والبرتغال. واحتج السفير الفرنسي فأجل المجمع. وفي غضون هذا عرض لورنتسو ريكي قائد اليسوعيين قضيتهم للخطر إذ أصدر كراسة اعترضت على سلطة أي بابا في إلغاء الجمعية(19). وفي مارس وصل الكاردينال دبيري من فرنسا وبدأ طوافه على الكرادلة بهدف ضمان انتخاب بابا راغب في إرضاء أصحاب الجلالة الكاثوليك. وقد رفض المؤرخون، سواء منهم

الكاثوليك(21)، وخصوم الكاثوليك(22)، الشائعات التي زعمت بعد ذلك(20) أنه هو أو غيره رشوا أغروا بوسيلة ما الكاردينال جوفاني جانجاتللي بأن يعد بهذا إذا اختير لكرسي البابوية. وكان جانجاتللي بإجماع الكل رجلاً عظيم الثقافة والتقوى والنزاهة، بيد أنه كان ينتمي إلى طائفة الفرنسيسكان التي طالما خاصمت اليسوعيين سواء في ميدان البعثات التبشيرية أو اللاهوت(23).

صفحة رقم : 13362

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> البابوات والملوك واليسوعيون

وفي 19 مايو 1769 انتخب بإجماع آراء الكرادلة الأربعين، واتخذ اسم كلمنت الرابع عشر، وكان يومها في الثالثة والستين.
ثم ألقى نفسه واقفاً تحت رحمة الدول الكاثوليكية. ففرنسا ونابلي تنتهين بالاقليم البابوية التي استولتا عليها، وأسبانيا وبارما تتخذان موقف التحدي، وهددت البرتغال بإقامة بطريركية مستقلة عن روما، بل أن ماريا تريزا التي كانت حتى ذلك الحين حارة الولاء للبابوية واليسوعيين ولكنها الآن فقدت سلطانها الذي انتزع منها ابنها حر التفكير جوزف الثاني، وردت على نداء البابا بطلب معونتها بأنها لا تستطيع مقاومة الإرادة الموحدة لمثل هذا العدد الكبير من الملوك والحكام. وأصدر شوازيل الذي كان مسيطراً على حكومة فرنسا آنذاك تعليماته لبيبرني بأن يخبر البابا أنه "إذا لم يستطع التوصل إلى تفاهم مع فرنسا ففي استطاعته أن يعتبر كل علاقاته به منتهية(24)".
وكان شارل الثالث ملك أسبانيا قد أرسل مثل هذا الإنذار النهائي في 22 إبريل. أما كلمنت، الذي حاول كسب الوقت، فقد وعد شارل بأنه عن قريب "سأرفع إلى حكمة جلالكم وذكائكم خطة للقضاء المبرم على الجمعية(25)". وأمر مساعديه بالرجوع إلى السجلات وتلخيص تاريخ جمعية اليسوعيين وإنجازاتها وجرائمها المزعومة. ورفض التسليم بما طالب به شوازيل من الفصل في النزاع خلال شهرين. وقد اقتضاه الفص ثلاث سنين، ولكنه أذعن في النهاية.
ففي 21 يوليو 1773 وقع الرسالة البابوية التاريخية، وقد بدأت بقائمة طويلة من الجماعات الدينية التي حظرها الكرسي البابوي المقدس على مدى الأيام، وذكرت الشكاوى الكثير التي رفعت ضد اليسوعيين، والجهود الكثيرة التي بذلها البابوات لعلاج المساوي المزعومة. "وقد لاحظنا ببالغ الحزن أن هذه العلاجات وغيرها مما استعمل بعد ذلك لم يكن لها من الفاعلية أو القوة ما يرضع حداً لهذه المتاعب والتهم

صفحة رقم : 13363

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> البابوات والملوك واليسوعيون

والشكاوى(26)". واختتمت الرسالة بهذه العبارة "وإذ تبين لنا أن جمعية اليسوعيين لم تعد قادرة على أن تؤتي الثمرات الوفيرة والخير العظيم للذين من أجلهما أسست ووافق عليها العدد الكبير من البابوات أسلافنا الذين شرفوها

بالكثير من المزايا الجديرة بالإعجاب، وإذ رأينا أنه من المستحيل تقريباً بل أنه مستحيل إطلاقاً-على الكنيسة أن تتمتع
بسلاام صادق متين ما بقيت هذه الطائفة... فإننا بعد الفحص المتأن، ونتيجة لمعرفتنا الخاصة وبحكم كمال سلطتنا
الرسولية، نحل ونلغي بمقتضى هذه الرسالة البابوية جمعية اليسوعيين. ونبطل ونلغي كل مناصبها ووظائفها
وإداراتها، ودورها، ومدارسها، وكللياتها وطلقاتها، وملاجئها وسائر المؤسسات التي تخصصها على أي وجه كان ما
كان وفي أي إقليم أو مملكة أو دولة لها وجود فيه(27)".
ثم وعدت الرسالة البابوية بصرف معاشات لليسوعيين الذين لم يرسموا بعد ويريدون العودة لحياة العلمانيين، وأذن
للكهنة اليسوعيين بالانضمام إلى الأكليروس غير الرهبان أو بأي طائفة دينية يوافق عليها الكرسي البابوي، وسمح
لليسوعيين المقبولين في الرهبنة والذين نذروا أنفسهم نذراً نهائياً مطلقاً بأن يبقوا في بيوتهم السابقة شريطة أن يلبسوا
رداء الكهنة غير الرهبان ويخضعوا لسلطة الأسقف المحلي.
وفي معظم الحالات؛ وباستثناء بعض المبعوثين في الصين، تقبل اليسوعيون حكم إعدام هذا الذي أصدره البابا على
جمعيتهم بامتنال ونظام ظاهرين. بيد أن كراسات غفل من اسم المؤلف طبعت ووزعت دفاعاً عن قضيتهم، وقبض
على ريتشي وعدد من معاونيه بتهم لم تثبت عليهم قط بأنهم يتراسلون مع خصوم المرسوم. ومات ريتشي في السجن
في 24 نوفمبر 1775 بالغاً الثمانية والسبعين.
ولم يعيش كلمنت الرابع عشر إلا عاماً واحداً أو يزيد بعد المرسوم. وكثرت الشائعات بأن عقله أختل في شهره
الأخيرة. وقد اجتمعت عليه

صفحة رقم : 13364

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> البابوات والملوك واليسوعيون

الأسقام، ومنها الأسقربوط والبواسير، لتجعل كل نهار وليل في حياته شقاء وتعاسة له. وأصابته في إبريل 1774 نزلة
برد لم تبرحه قط، ولم تحل نهاية أغسطس حتى كان الكرادلة يناقشون مسألة خلافتهم، وفي 22 سبتمبر قضى كلمنت
نحبه.
وبعد الكثير من التأجيلات والديسائس أجلس مجمع الكرادلة على كرسي البابوية (15 فبراير 1775) جوفاني براسكي
الذي اتخذ اسم بيوس السادس. وكان رجلاً مثقفاً أكثر منه سياسياً، يجمع التف الفنية، ويسحر الجميع برفته، وقد حسن
إدارة الكوريا (الإدارة البابوية) وأستصلح بعض المستنقعات الوبتية. ورتب حلاً وسطاً مؤقتاً مسالماً لليسوعيين مع
فردريك الأكبر. وفي 1793 أنظم للحلف المعدي لفرنسا الثائرة. وفي 1796 غزا نابليون الولايات البابوية، وفي
1798 دخل الجيش الفرنسي روما، وأعلنها جمهورية، وطالب البابا بالتخلي عن كل سلطاته الزمنية. ولكنه أبى،
فاعتقل، وظل في أماكن وحالات مختلفة من السجن حتى وفاته (29 أغسطس 1799). أما خليفته بيوس السابع فقد
جعل رد جمعية اليسوعيين إلى سابق عهدها (1714) جزءاً من انتصار التحالف على نابليون.

صفحة رقم : 13365

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> القانون وبيكاريا

3- القانون وبيكاريا

ظلت أخلاق إيطاليا وسلوكها مزيجاً من العنف والتراخي، من الثأر والحب. كتب مونتسارت من بولونيا عام 1770، وكان في الرابعة عشرة من عمره "إن إيطاليا بلد ناعس" (28)، ولم يكن قد تعلم فلسفة القيلولة. أما أبوه فكان رأيه في 1775 أن "الإيطاليين أوغاد في كل أنحاء العالم" (29). وقد علق مونتسارت وجوته كلاهما على الجريمة الإيطالية. كتب مونتسارت يقول إن نابلي "زعيماً للشحاذين يتقاضى من الملك خمساً وعشرين دوقانية كل شهر مقابل تهدنتهم لا أكثر" (30). وكتب جوته يقول: إن أكثر ما يلفت نظر الغريب هو كثرة الاغتياالات. واليوم كان الضحية فناً ممتازاً

صفحة رقم : 13366

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> القانون وبيكاريا

هو شفنمان... وقد طعنه القاتل الذي اشتبك معه عشرين طعنة، فلما أقبل الحارس طعن نفسه. وليس هذا ما يجري به العرف هنا عموماً، فالقاتل عادة يقصد أقرب كنيسة، فمتى بلغها أصبح في مأمن تام" (31). وكانت كل كنيسة تعطي المجرم الأمان في حرمها- أي الحصانة من الاعتقال ما بقي تحت سقفها. وحاول القانون كبح الجريمة بتشديد العقوبة أكثر مما حاولها بكفاية الشرطة. فقد نصت قوانين بندكت الرابع عشر الرحيم على عقوبات التجديف بالجلد، فإذا تكررت الجريمة ثلاث مرات كان عقابها التشغيل خمس سنوات في سفن الأسرى والعبيد. وكان السطو على دير الراهبات ليلاً جناية كبرى، أما مغازلة امرأة شريفة أو معانقتها علانية فعقابه التشغيل المؤبد على هذه السفن. وكان تشويه السمعة الخلقية، حتى إذا لم يحتو غير الصدق يعاقب بالإعدام ومصادرة الممتلكات. (ومع ذلك لم يقلل هذا من المقطوعات الهجائية). ومثل هذه العقوبة فرضت على حمل الطبنجات المخبأة. على أن الجناة كانوا في كثير من المناطق يتفادون هذه الأوامر بالفرار إلى دولة مجاورة أو بفضل رحمة القاضي، أو الاحتماء بالكنيسة. ولكن العقوبات كانت تنفذ بصرامة في حالات عديدة. من ذلك أن رجلاً شنق لادعائه أنه كاهن، وآخر لسرقه ثوباً كهنوتياً باعه بفرنك وربع، وثالث ضرب عنقه لكتابته خطاباً اتهم البابا كلمنت الحادي عشر بعلاقة غرامية مع ماريا كلمنتينا سوبيسكا (32). وإلى تاريخ متأخر (1762) كان السجناء تحطم أجسادهم على دولاب التعذيب، عظمة بعد عظمة، أو يسحلون على الأرض في ذبل حصان مهموز. على أن من واجبنا أن نضيف جانباً أكثر إشراقاً على الصورة، هو أن بعض الجماعات كانت تجمع المال لدفع غرامات السجناء وتحريرهم. وغداً إصلاح القانون، سواء من حيث الإجراءات أو من حيث العقوبات، جزءاً طبيعياً من الروح الرحيمة التي أنجبها أبوان-حركة تنوير إنسانية، وأخلاقيات مسيحية تحررت من لاهوت قاس. ومن مفاخر إيطاليا أن يصدر أقوى نداء يدعو لإصلاح القانون في هذا

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> القانون وبيكاريا

القرن عن شريف ميلاني. وقد كان هذا الشريف-تشراري بونيزانا، مركز بكاريا، نتاج اليسوعيين والفلاسفة الفرنسيين. ومع أنه وهب من الثراء ما يسمح له بحياة التبتل فإنه كرس نفسه بغيرة لا تقدر لحياة التأليف الفلسفي والإصلاح العملي. وقد أمسك عن مهاجمة دين الشعب؛ ولكنه تصدى رأساً للظروف الفعلية للجريمة والعقاب. وقد صدمه أن يرى قذارة السجون الميلانية التي كانت مرتعاً للأمراض، وأن يسمع من السجناء كيف ولم اعتادوا الإجرام وكيف حوكموا على جرائمهم. وأفرعه أن يكتشف مخالقات صارخة في الإجراءات القضائية، وألواناً من التعذيب الوحشي للمشبهين والشهود، وضروباً من التعسف في الأحكام سواء بالتشديد أو التخفيف، وألواناً من القسوة الضاربة في العقاب. وحوالي 1761 انضم إلى بيبتروفيري في جمعية سميها "البونيات" (قبضات الأيدي) -نذرت نفسها للعمل والفكر معاً. وفي 1764 بدء مجلة "المقهى" محاكاة لمجلة أديسون "سيكتير"، وفي ذلك العام نشر نيكاريا بحثه التاريخي "بحث في الجرائم والعقوبات".

وفي مستهل كتابه أعلن غي تواضع أنه يتأثر بخطى "روح القوانين" الذي ألفه "الرئيس الخالد" لبرلمان بوردو، فالقوانين يجب أن ترسي على العقل، ورائدها الأساسي ليس الانتقام من الجريمة بل حفظ النظام الاجتماعي، وينبغي أن تستهدف دائماً "أوفر سعادة موزعة على أكبر عدد(33)". هنا قبل بنتام بخمسة عشر عاماً، نجد المبدأ الشهير لأخلاقيات مذهب المنفعة. واعترف بكاريا بصراحتة المعهودة بتأثره بهلفتيوس، الذي أورد الصيغة ذاتها في كتابه "في الروح" (1758). (وكان قد صدر في سلسلة فرانسس هنتسن "أفكار في الجمال والفضيلة" (1725). وقال بكايا أن توسع التعليم وتعميقه أملاً في الحد من الجرائم أصوب لمصلحة المجتمع من الالتجاء إلى عقوبات فد تحول شخصاً أجرم عرضاً من مخالطته المجرمين إلى مجرم عريق. فالواجب أن يكون لكل متهم الحق في محاكمة عادلة وعلنية أما قضاة أكفاء يتعهدون بالحياد والنزاهة. ويجب أن تقفو المحاكمة الاتهام سريعاً؛ وأن يكون العقاب متناسباً مع

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> القانون وبيكاريا

الضرر الواقع على المجتمع لا مع نية الفاعل. فضرارة العقوبة تولد ضرارة الخلق، حتى في الجمهور غير المجرم. أما التعذيب فيجب عد الالتجاء إليه إطلاقاً، فالمذنب الذي تعود على الألم قد يحتمله في تجلد وتفترض برأته، في حين قد يكره الألم بريئاً مرهب الأعصاب على الاعتراف بأي شيء فيحكم بأنه مذنب. ويجب ألا يسمح بعد بحماية الكنيسة للمجرمين، ويجب إلغاء عقوبة الإعدام.

وطبع الكتيب ست طبعات في ثمانية عشر شهراً، وترجم إلى اثنتين وعشرين لغة أوروبية. وأشاد بكاريا بالترجمة الفرنسية التي قام بها مورلليه وقال أنها أفضل من الأصل. وقد شارك فولتير بمقدمة غفل من السم لتلك الترجمة؛ وأقر المرة بعد المرة بأن بكاريا في جمهوره لإصلاح القانون. وبادرت معظم الدويلات الإيطالية إلى إصلاح قوانين عقوباتها. ولم يحل عام 1789 حتى كانت أوربا كلها تقريباً قد ألغت التعذيب. وتأثرت كاترين بكاريا كما تأثرت بفولتير في إلغاء التعذيب في أملاكها. أما فردريك الأكبر فكان قد أنهاه فعلاً في روسيا(1740) إلا في حالات الخيانة.

وفي 1768 عين بكاريا في كرسي للقانون والاقتصاد أنشئ خصيصاً له في كلية البالاتين بميلان. وفي 1790 عين في لجنة لإصلاح القضاء في لمبارديا. وقد سبقت محاضراته عدة أفكار أساسية لأدم سميث ومالتمان في تقسيم العمل والعلاقة بين العمال ورأس المال، وبين السكان وكمية الطعام. وفيه بعثت "إنسانية" النهضة الأوربية من جديد في صورة التنوير في إيطاليا.

صفحة رقم : 13369

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> مغامرات

4- مغامرات

أ - كاليوسترو

ولد جوزيبي بلسامو لصاحب متجر ببلرمو في 1743. ونضج مبكراً وسرعان ما أصبح لصاً بارعاً. وفي الثالثة عشرة قيد تلميذاً في دير

صفحة رقم : 13370

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> مغامرات

البنفرا تيللي. وعين هناك مساعداً لصيدلي الدير، فتعلم كم قواريره ومحابيره وكتبه من الكيمياء والخيمياء ما يكفي لإعداد نفسه لاحتراف الشعوذة الطبية...ولما كلف بأن يقرأ حياة القديسين على الرهبان وهم يتناولون طعامهم، استبدل بأسماء القديسين أسماء أشهر مومسات بلرمو. وجلد عقاباً له، فهرب من الدير وانظم إلى عالم المجرمين السفلي، ودرس فن الأكل دون بذل العرق. واشتغل قواداً ومزوراً ومزيفاً للنقود، وقارئاً للبخت، وساحراً، ولصاً وأفلح في إخفاء آثاره بمهارة عجزت معها الشرطة عن إدانته إلا بالوقاحة.

فلما رأى نفسه مشبوهاً على نحو يضايقه، انتقل إلى مسينا، وعبر إلى ريديو كالأبرياء، وجرب الفرص التي تنتجها نابلي وروما. وتكسب فترة بإدخال لمسات على نسخ الصور وبيعها على أنها من صنعه. ثم تزوج لورنتسا فيلكيانا،

وأثرى ببيع جسدها. وأنتحل اسم المركيز دي بلجربيني، وأخذ نبيلته المكسبة إلى البندقية ومرسليا وباريس ولندن. ثم دبر أن تمسك زوجته بين ذراعي كويكري ثري؛ وعاشا على المال الذي ابتزاه نتيجة للخطة شهوراً. ثم غير اسمه إلى الكونت دي كاليوسترو، وتكرر بشوارب وليس حلة كولونيل بروسي، وسمى زوجته من جديد بالكونتيسة سيرافينا. ثم عاد إلى بلرمو، وقبض عليه بتهمة التزوير، ولكن أفرج عنه تحت إلحاح منذر بالشر من أصحابه الذين روعوا القضاء.

وإذ بليت مفاتن سيرافينا لكثرة تداولها، فقد أخذ يطبق ما تعلم من كيمياء فجهز وباع العقاقير التي تضمن إزالتها التجاعيد وتأجيجها لنار العشق. ولما عاد إلى إنجلترا اتهم بسرقة قلادة من الماس وقضى فترة في السجن ثم انضم إلى جماعة الماسون وانتقل إلى باريس، وادعى أنه الرئيس الأكبر للماسون المصريين. وأكد لعشرات السذج أنه عثر على الأسرار القديمة لإعادة الشباب، الذي يمكن تحقيقه بعلاج يمتد أربعين يوماً تستعمل فيه المسهلات والمعرقات وغذاء من الجذور، والحجامة، والتبوصفية(34). وكان كلما أفتضح أمره في مدينة مضى إلى غيرها؛ وأتصل بأسرها الفنية

صفحة رقم : 13371

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> مغامرات

بفضل طريقة المصافحة وخاتمه الماسونيين. وفي سانت بطرسبرج اشتغل طبيباً، وعالج الفقراء مجاناً؛ وأستقبله بولتمكين، ولكن طبيب كاترين الكبرى، وكان اسكتلندياً حادقاً، حلل بعض أكاسير هذا الطبيب ووجدها فارغة لا قيمة لها. فسمح لكاليوسترو بيوم واحد يحمل فيه بضاعته ويرحل. وفي وارسو أفتضح أمره ثانية على يد طبيب آخر في كتيب سماه "نزع القناع عن كاليوسترو" (1780)، ولكن قيل أن يدركه كان قد انطلق إلى فيينا وفر انكفورت وستراسبورج. وهناك سحر الكردينال الأمير لوي-رينيه-إدوارد روهان، الذي وضع في قصره تمثالاً نصفياً لزعيم الماسون الأكبر كتب عليه "كاليوسترو المقدس" وأتى به الكردينال إلى باريس، وتورط النصاب الكبير على غير قصد منه قصة القلادة الماسية. فلما انكشفت هذه الخدعة زج بكاليوسترو في الباستيل؛ ولكن سرعان ما أفرج عنه لبراءته، ولكنه أمر بمغادرة فرنسا(1786). فوجد زبائن جدد في لندن. وزار جوته أثناء ذلك أم كاليوسترو في صقلية وأكد لها أن ولدها الذائع الصيت قد أطلق سراحه وأنه في مأمن(35). وفي لندن حيث تكاثر المشككون في أمره انتقل الكونت والكونتيسة إلى بازل وتورين وزوفرييتو وترنت، يشتهيه فيهما في كل بلد ثم بطردان. وتوسلت إليه سيرافينا أن يأخذها إلى روما لتصلي عند قبر أمها، فوافق الكونت. وفي روما حاول أن يقيما محفلاً لماسونيته المصرية، فقبضت عليهما محكمة التفتيش (29 ديسمبر 1789)، واعترفا بأنهما دجالان نصابان، فحكم على كاليوسترو بالسجن مدى الحياة، وأنهى أيامه في قلعة سان ليو قرب بيزارو في 1795 وقد بلغ الثانية والخمسين. وهكذا كان هو أيضاً جزءاً من صورة القرن المستتير.

ب- كازانوفا

أضاف جوفاني ياكوبو كازانوفا لقب "دي سينجالت" الفخم لاسمه

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> مغامرات

بتقنيط عشوائي للأبجدية، باعتبار هذا اللقب تشریفاً يفيد في أبهر الراهبات وتحدي حكومات أوروبا. ولد لممثل وممثلة في البندقية عام 1725، وظهرت عليه منذ طفولته أمارات النشاط الذهني. تتلمذ لاحتراف القانون، وزعم أنه نال الدكتوراه في جامعة بادوا وهو في السادسة عشرة. وعلينا في كل خطوة من "مذكراته" الشائقة أن نكون على حذر من شطط خياله، ولكنه يقص قصته بصرحة يدين بها نفسه إدانة تحملنا على تصديقه حتى ونحن نعلم أنه يكذب. وبينما كان في بادو حقق أول غزواته وهي بتينا، "فتاة حلوة في الثالثة عشرة" وأخت لمعلمه الكاهن الطبيب جوتسي. فلما مرضت بالجذري عني بها كازانوفا وأصيب بالمرض. ويزعم في روايته أن أعمال الرحمة التي كان يقوم بها كانت تعدل غزواته الغرامية. وحين ذهب في شيخوخته إلى بادو لأخر مرة، "ألفيتها عجوزاً، مريضة، فقيرة، وقد ماتت بين ذراعي". (37) وكل عشيقاته تقريباً يصورهن مغرمات به إلى النهاية. على أنه عانى من فقر مذل رغم درجته القانونية. مات أبوه، وكانت أمه تمثل في مدن بعضها وصل في بعده حتى سانت بطرسبورج، وتنساه عادة. وكسب بعض المال من عزف الكمان في الحانات والشوارع. ولكنه وهب القوة كما وهب الوسامة والشجاعة. فلما أصيب السناتور البندقي زوان براجادينو (1746) بالנקطة وهو يهبط السلم، احتمله ياكوبو بين ذراعيه وأنفذه من سقطة فجائية. وبعدها بسط عليه السناتور حمايته في مأزق كثيرة وزوده بالمال لزيارة فرنسا والنمسا. وفي ليون انضم إلى الماسون الأحرار، وفي باريس "أصبحت رفيقاً، ثم رئيساً للطائفة". (ونحن نلاحظ في شيء من الدهشة قوله "في زمني لم يكن في فرنسا من يعرف كيف يبالغ في الأسعار") (38). وفي 1753 عاد إلى البندقية، وسرعان ما لفت نظر الحكومة باحترافه السحر والتنجيم. وبعد عام أبلغ محقق رسمي مجلس الشيوخ عنه فقال:

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> مغامرات

لقد أفلح في التسلل إلى قلب الشريف زوان براجادينو.... وابتز ماله ابتزازاً باهظاً..... وقد أخبرني بنديتو بيزانو أن كازانوفا بسبيله إلى أن يصبح فيلسوفاً قبانياً وأنه يحاول التكسب بالحجج الزائفة يمويه بها في مهارة على عقول ضحاياه.... وقد أمكنه.... إقناع براجادينو بأن في استطاعته استحضر ملاك النور لينفعه. (39) ويضيف التقرير أن كازانوفا قد بعث إلى أصحابه بكتابات تشي بحقيقته مفكراً ملحداً. ويقول كازانوفا "لقد وقر في نفسي سيدة تدعى مدام ممنو أنني أعلم ولدها مبادئ الإلحاد(40)". "أن التهم التي وجهت إليّ تتعلق بالكرسي (البابوي) المقدس، والكرسي المقدس وحش ضار من الخطر أن تمسه. وكانت هناك ظروف معينة... جعلت من الصعب عليهم حبسي في السجن الكنسية التابعة لمحكمة التفتيش، ولهذا السبب تقرر في النهاية أن تناط محكمة التفتيش الدولة "بمحاكمتي(41)". ونصح براجادينو بالرحيل عن البندقية، ولكن كازانوفا أبى. وفي الغداة قبض عليه، وصودرت أوراقه، وحبس دون محاكمة في البيومي "ألواح الرصاص" هو اسم سجن الدولة البندقي نسبة إلى ألواح الرصاص المسقوف بها.

"حين جن الليل استحلال على أن أغمض عيني لأسباب ثلاثة: أولها الفئران، وثانيها الطنين الرهيب الذي تحدثه ساعة كاتدرائية القديس مرقس التي كانت تدق وكأنها في حجرتي، وثالثها ألوف الدراغيث التي أغارت على بدني تعضني وتلدغني وتسمم دمي بحيث أصابتي انقباضات عنيفة بلغت حد التشنجات" (42).
وحكم عليه بالسجن خمس سنين، ولكنه هرب بعد أن ظل رهين محبسه خمسة عشر شهراً (1757) بفضل سلسلة معقدة من الحيل

صفحة رقم : 13374

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> مغامرات

والمخاطرات والأهوال أصبحت روايته لها جزءاً من "عدة نصبه" في كثير من الأقطار.
فلما عاد ثانية إلى باريس اشتبك في مبارزة مع فتى يدعى الكونت نيكولا دلاتور دوقرن وأصابه بجرح، ثم شفاه
بمهم "سحري"، وكسب صداقته، فقدمه إلى عمه له غنية تسمى مدام دورفيه، كانت شديدة الإيمان بقوى السحر،
ومؤملة أن تستعين بها على تغيير جنسها. واستغل كازونوفا سذاجتها، ووجد فيها وسيلة خفية للإثراء.
"إنني لا أستطيع وقد شخت الآن أن أرجع ببصري إلى هذا الفصل من حياتي دون أن أخطر خجلاً" (43). وهذا اتصل
على مدى فصول كثيرة أخرى من كتابه. وأضاف إلى دخله بالغش في لعب الورق، وتنظيم يانصيب للحكومة
الفرنسية، وبالوصول على قرض لفرنسا من الأقاليم المتحدة. وفي الرحلة من باريس إلى بوكسل قرأت كتاب
هلفتيوس "في الروح" طول الطريق. (44) ويقدم للمحافظين مثلاً مقتعاً من إنسان حر التكبير انقلب رجلاً فاسقاً وإن
كانت المرحلة التالية هي العكس في أغلب الظن). وكان في كل محطة يلتقط خليعة، وفي كثير من المحطات يجد خليعة
سابقة، وبين الحين والحين يقع مصادفة على ذرية له لم يقصد إجابها.
وزار روسو في مونمورنسي، وفولتير في فرنيه (1760) وقد سبق أن استمتعنا بشطر من ذلك الحديث الخاص بينهم.
وإذا جاز لنا أن نصدق كازونوفا، فإنه اغتتم الفرصة ليوبخ فولتير على فضحه سخافات الميثولوجيا الشعبية:
كازونوفا: هيك نجحت في القضاء على الخرافة، فماذا تحل محلها؟
فولتير: يعجبني هذا! حين أخلص البشرية من وحش ضار يفتنر سها، أتسألني ماذا أحل محله؟

صفحة رقم : 13375

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> مغامرات

كازونوفا: إن الخرافة لا تفتنر البشرية، بل أنها على العكس ضرورية لوجودها.
فولتير: ضرورية لوجودها! ذلك تجديف مخيف. إنني أحب البشر، وأود أن أراهم أحراراً سعداء مثلي. والخرافة
والحرية لا يمكن أن يسيرا بدأ بيد. أتظن أن العبودية تؤدي إلى السعادة؟

كازانوفاً: إن ما تريده إذن هو سيادة الشعب؟
فولتير: معاذ الله! يجب أن يكون للجماهير ملك يحكمها.
كازانوفاً: في هذه الحالة تكون الخرافة ضرورية، لأن الشعب لن يعطي رجلاً هو مجرد إنسان حق حكمه...
فولتير: أريد ملكاً يحكم شعباً حراً، ويلتزم قبله بشروط متبادلة تمنع أي ميل من جانبه للاستبداد.
كازانوفاً: يقول أديسون أن هذا الملك... يستحيل وجوده. وأنا متفق مع هوبز. فعلى المرء أن يختار من الشرين أقلهما ضرراً. والأمة التي تحررت من الخرافة هي أمة من الفلاسفة والفلاسفة لا يعرفون كيف يطيعون. وما من سعادة ترجى للشعب لا يسحق ويذل ويظل مصفداً بالقيود.
فولتير: هذا شنيع! وأنت فرد في الشعب!...
كازانوفاً: إن العاطفة المسيطرة عليك هي حبك للبشرية. وهذا الحب يعميك. أحب البشرية، ولكني أحبها كما هي.
فالبشرية ليست قابلة للمزايا التي تود أن تغدقها عليها، فهذه المزايا لن تزيدها إلا تعاسة وانحرافاً.....
فولتير: يؤسفني أن يكون لك هذا الرأي السيئ في إخوانك في الإنسانية(45).
وكان كازانوفاً يشق طريقه أينما ذهب إلى بيت من البيوت الأرستقراطية،

صفحة رقم : 13376

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> مغامرات

لأن الكثير من النبلاء الأوربيين كانوا ماسوناً، أو روزيكر وشيبيين أو مدمنين على علوم السحر. وهو لم يقتصر على ادعاء العلم الغيبي في هذه الميادين، بل أضاف إلى دعواه القوام الممشوق، والوجه المتميز (وإن لم يكن وسيماً) والتمكن من اللغات، وتأكيد الذات الخداع، ومعيناً من القصص والفكاهات، وقدرة خفية غامضة على الكسب في لعب الورق أو ألعاب الكازينوات. وكان حينما ذهب يساق عاجلاً أو أجلاً إلى السجن أو حدود البلاد. واضطر بين الحين والحين إلى الاشتباك في مبارزة، ولكنهم كالأمة في مراحل تاريخها لم يخسر قط.
وأخيراً غلبه الحنين إلى وطنه. وكان حراً في السفر أينما شاء في إيطاليا إلا في البندقية. والتمس الإذن مراراً بالعودة، وأخيراً منحه، وفي 1775 عاد إلى البندقية. واستخدمته الحكومة جاسوساً، وكان نصيب تقاريره الإهمال لاحتوائها على الكثير جداً من الفلسفة والقليل جداً من المعلومات، فوفت. وانتكس إلى عادات صباه وكتب هجاء للشريف جريمالدي، فأمر بأن يبرح البندقية وإلا واجه السجن مرة أخرى في "ألواح الرصاص". وفر إلى فيينا (1782)، ثم إلى سببا، ومنها إلى باريس.
وهناك التقى بالكونت فون فالديشنيين، الذي أحبه فدعاه إلى العمل أميناً لمكتبته في قلعة دوكس بيوهيميا. وكانت فنون كازانوفاً في العشق والسحر وخفة اليد قد وصلت إلى نقطة تقلصت فيها عائداتها، فقبل الوظيفة براتب ألف فلورين في العام. فلما وصل وتسلم منصبه، أحزنه أن يتكشف أنه أعتبر خادماً، وأن يتناول غداءه في قاعة الخدم. وفي دوكس أنفق أعوامه الأربعة عشر الأخيرة من عمره. وهناك كتب "تاريخ حياته" "أولاً لتخفيف هذا الركون الميت الذي يقتلني في بوهيميا الخاملة هذه... وقد استطعت بالكتابة عشر ساعات أو اثنتي عشرة كل يوم أن امنع الحزن الأسود من نهش قلبي المسكين وإتلاف عقلي"(46). وقد زعم الصدق المطلق في روايته،

صفحة رقم : 13377

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> مغامرات

وهي في كثير من الحالات تتفق والتاريخ في الهزء والسخرية، بيد أننا كثيراً ما نفتقر إلى إثبات صحة روايته، ولعل ذاكرته تداعت بينما قوي خياله. ولا نملك إلى القول بأن كتابه من أكثر مخلفات القرن الثامن عشر فتنة واستهواء للقارئين.

وقد عمر كازانوفا حتى ناح على موت النظام القديم فقال: "إيه يا فرنسا العزيزة الجميلة! البلد الذي كانت الأمور في تلك الأيام تجري فيه رخاء رغم أوامر الاعتقال الملكية، ورغم السحرة ورغم فقر الشعب! أي فرنسا العزيزة، إلام انتهى أمرك اليوم؟ لقد أصبح الشعب ملكاً عليك، الشعب الذي هو أشرس الحكام قاطبة وأشدهم طغياناً" (47). وهكذا في آخر أيامه، وهو 4 يونيو 1798، أختتم حياته في تقوى أنه في أوانه. "لقد عشت فيلسوفاً وهأنذا أموت مسيحياً" (48). لقد حسب الفسق فلسفة، ورهان بسكال مسيحية.

صفحة رقم : 13378

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> فنكلمان

5- فنكلمان

ولننظر الآن إلى رجل مثالي على سبيل المقابلة بينت الأضداد. وهذا الرجل الذي كان أعظم الشخصيات أثراً في تاريخ الفن في هذا العهد لم يكن فناً بل دارساً كرس حياته الناضجة لدراسة تاريخ الفن، وحرك موته الغريب روح أوربا المثقفة. ولد في 9 ديسمبر 1717 بمدينة ستندال في براندنبورج. وكان أبوه الإسكافي يأمل أن يحترف ابنه حرفته، ولكن يوهان رغب في درس اللاتينية. وقد أدى نفقات تعليمه الباكر بالغناء. ثم تقدم سريعاً مدفوعاً بشوقه واجتهاده. فكان يعلم التلاميذ الذين تنقصهم الكفاية، ويشتري الكتب والطعام. فلما كف بصر معلمه كان يوهان يقرأ له، وراح يلفتهم مكتبة أستاذه. وأجاد تعلم اللاتينية واليونانية، ولم يكن ميالاً إلى اللغات الأجنبية الحديثة. وحين سمع بأن مكتبة يوهان ألبرت فابريكوس الدارس الكلاسيكي الشهير ستباع بالمزاد لوفاته، سار 178 ميلاً من برلين إلى همبرج، واشترى روائع الكتب اليونانية واللاتينية، وحملها على كتفه عائداً إلى برلين (49). وفي 1738 دخل جامعة هاله طالب لاهوت، ولم يكن به شغف باللاهوت، ولكنه اغتنم الفرصة

صفحة رقم : 13379

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> فنكلمان

لدراسة العبرية. وبعد أن تخرج اكتسب قوته بتعليم التلاميذ الخصوصيين وقرأ مرتين كل قاموس بيل "القاموس التاريخي والنقدي". ولعل هذه القراءة خلفت بعض الأثر على إيمانه الديني. وفي عام واحد قرأ الألياذة والأوديسة ثلاث مرات من أولهما لآخرهما باليونانية.

وفي 1743 قبل دعوة ليكون مديراً معاوناً لمدرسة بزيهاوزن في ألتمارك، بمرتب قدره 250 طالرراً في العام. وكان في النهار يعلم "أطفالاً جرب الرؤوس أبجديتهم. بينما كنت... أتحرق شوقاً لمعرفة "الجنين"، وأردت تشبيهات من هومر" (50). وكان في المساء يدرس لتلاميذه الخصوصيين ليحصل على نفقات مسكنه وطعامه، ثم يعكف على الروائع الكلاسيكية حتى منتصف الليل وينام حتى الرابعة، ثم يعود إلى روائع الكلاسيكية ثانية، ثم يخرج متعباً ليدرس. وقبل بابتهاج دعوة وجهها إليه الكونت فون بون بوناو ليكون مساعداً لأمين مكتبة في قصره الريفي بنوتهنتز، قرب درسدن، لقاء السكن وخمسين إلى ثمانين طالرراً في العام (1748). هناك ألقى المتعة البالغة في مجموعة من أضخم مجموعات الكتب في ذلك العصر.

وممن كانوا يخلّفون إلى هذه المكتبة الكردينال أركنتو، القاصد البابوي في بلاط ناخب سكسونيا. وقد راعه علم فنكلمان وحماسته، ونحوه وشحوبه. فقال له "ينبغي أن تذهب إلى إيطاليا". وأجاب يوهان أن هذه الرحلة غاية مشها قلبه، ولكن موارده تعجز عن نفقتها. ودعاه القاصد لزيارته بدرسدن، فذهب إليه مرات. وقد أبهجه تفقه اليسوعيين الذين التقى بهم في بيت القاصد وأدبهم. وعرض عليه الكردينال باسوني-وكان يفتني 300.000 مجلد في روما- وظيفة أمين مكتبته هناك، لقاء السكن والمعيشة وسبعين دوقاتية، ولكن الوظيفة لا يمكن أن يشغلها غير كاثوليكي. ووافق فنكلمان على الدخول في الكاثوليكية. وإذا كان قد أعرب من قبل عن إيمانه بأنك "بعد الموت ليس هناك ما يخيفك، ولا ما تؤمل فيه" (51) فإنه لم يجد صعوبات لاهوتية في هذا التحول، وكل صعوباته كانت اجتماعية. وقد كتب إلى صديق لأمه يقول "إن حب

صفحة رقم : 13380

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> فنكلمان

المعرفة، وهذا الحب وحده، هو الذي يستطيع إغرائني بالاستماع إلى الاقتراح الذي رض علي" (52). وفي 11 يوليو 1754، في مصلى القاصد في درسدن، أعلن إيمانه الجديد، واتخذت الترتيبات لرحلته إلى روما. ولأسباب شتى مكث في درسدن عاماً آخر، ساكناً دارساً مع الرسام-النحات-الحفار آدم وايزن. وفي مايو 1755 نشر في طبعة محدودة لم تتجاوز خمسين نسخة أول كتبه "خواطر في تقليد الآثار اليونانية في الرسم والنحت". وقد وصف فيه الآثار التي جمعت في درسدن، ورأى بالإضافة إلى هذا الوصف أن فهم اليونان للطبيعة كان أسماً من الفهم العصري لها، وهذا هو السر في التفوق الهليني في الفن. ثم اختتم بقوله "إن سبيلنا الوحيد إلى العظمة، بل إلى العظمة التي لا تحاكي... هو بمحاكاة القدماء" (56). ومن رأيه أن روفائيل دون جميع الفنانين المحدثين هو الذي حقق هذا الهدف الأسمى. وكان هذا الكتيب علامة بداية للحركة الكلاسيكية الجديدة في الفن الحديث. وقد لقي قبولاً طيباً، وأجمع كلويشتوك وجوتشيد على الإشادة بعلمه وأسلوبه. وحصل الأب رواخ، كاهن الاعتراف الخاص بفردريك أوغسطس، لفنكلمان من الملك الناخب على معاش من مائتي طالرر لكل من العاميين التاليين، وأعانه بثمانين دوقاتية لرحلته إلى

روما. وأخيراً، في 20 سبتمبر 1755، انطلق فنكلمان إلى إيطاليا في صحبة يسوعي شاب. وكان قد بلغ السابعة والثلاثين.

صفحة رقم : 13381

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> فنكلمان

فلما بلغ روما لقي عنقاً في جمرك المدينة الذي صادر عدة مجلدات لفولتير من حقائبه، على أنها أعيدت له بعد ذلك. ووجد سكناً من خمسة مصورين في بيت على التل اليسرى-الذي قدسته ظلال بوسان وكلود لوران. والتقى بمنجز، الذي أعانه بشتى الطرق الكثيرة. وأطلق له الكاردينال باسيوني في العمل بمكتبته، ولكن فنكلمان كان إلى الآن يرفض أي وظيفة ثابتة لرغبته في ارتياد فن روما. فحصل على إذن بزيارات متكررة لبلفيدير الفاتيكان وأنفق الساعات أمام تماثيل أبولو، وهرقول النصفي، واللاوكون، واتخذت أفكاره شكلاً أوضح بعد تأمله في هذه المنحوتات. وزار تيفولي وفراسكاتي وغيرهما من الضواحي ذات الأطلال القديمة. وأكسبه حبه للفن القديم صداقة الكاردينال الساندور الباني، وأعطاه الكاردينال أركنتو مسكناً في البلاطوسديلا كانسليريا-وهو المقر البابوي، وفي مقابل هذه المنحة أعاد فنكلمان تنظيم مكتبة القصر. وأصبح الآن في سعادة غامرة. قال "لقد كان الله مديناً لي بهذا، فأنتي قاسيت كثيراً جداً في شبابي" (57). وكتب إلى صديق في ألمانيا كما كان يكتب عشرات الزوار الكبار: "كل شيء صفر إذا قورن بروما! لقد ظننت فيما مضى أنني درست كل شيء دراسة كاملة، وهأنذا أدرك بعد مجيئي أنني لم أعرف شيئاً. لقد أصبحت هنا أصغر مما كنت يوم خرجت من المدرسة إلى مكتبة بوناو. فإذا شئت أن تتعلم كيف تعرف الرجال، فهذا مكانك، هنا رؤوس ذات مواهب لا حد لها، رجال أوتوا قدرات فائقة، وآيات في الطابع الرفيع الذي خلعه اليونان على تماثيلهم...وكما أن الحرية التي يتمتع بها الناس في الدول الأخرى ليست إلا ظلاً إذا قيست بحرية روما-وهو ما قد تخاله مفرقة-كذلك تجد في هذه المدينة أسلوباً مختلفاً في التفكير. فروما في اعتقادي هي المدرسة العليا للعالم، وأنا أيضاً امتحنت فيها وهدبت" (58). وفي أكتوبر 1757 غادر روما قاصداً نابلي مزوداً بخطابات تعريف.

صفحة رقم : 13382

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> فنكلمان

وسكن هناك ديراً ولكنه كان يتناول طعامه مع رجال كتانوكي وجالياني. وزار مدناً عابقة بأريخ التاريخ القديم-بونسولي، وبايا، وميزينوم، وكاوماي-ووقف مدهوشاً أمام هياكل بايستوم المهيبة. وفي مايو 1758 قفل إلى روما محملاً بذخائر العلم بالآثار. في ذلك الشهر استدعى إلى فلورنسة ليصنف ويوصف المجموعة الضخمة من الجواهر، والمحفورات، والخزائن، والمخطوطات التي خلفها البارون فليب فون ستوش. وشغلته المهمة قرابة عام وكادت تهدم

صحته. ومات أركنتو أثناء ذلك، واجتاح فردريك الأكبر أرض سكسونيا، وفقد فنكلمان مسكنه في الكانسليريا ومعاشه من الملك الناخب التعس. وخف ألباني لنجدته إذ قدم له أربع حجرات وعشرة أسكوزات في الشهر لقاء العناية بمكتبته. وكان الكاردينال نفسه اثرياً متحمساً، وفي كل أحد كان يركب مع فنكلمان لتصيد التحف القديمة. وأضاف فنكلمان جديداً إلى سمعته بإصداره كتيبات عميقة في هذه الموضوعات المفردة "في جمال الأعمال الفنية، ملاحظات على عمارة القدماء، وصف لتمثال هرقل النصفي في البلفير، دراسة الآثار الفنية". وفي 1760 حاول ترتيب رحلة إلى اليونان مع الليدي أوفورد، زوجة أخي هوراس ولبول؛ ولكن الخطة أخفقت. كتب يقول "ما من شيء في الدنيا تقى إليه حرارة كهذه الرحلة. وما كنت لأضن بإصبع من أصابعي تقطع، لا بل وددت أن أجعل من نفسي كاهناً لسبيل (إلهة الطبيعة) لو استطعت أن أشهد هذا البلد في فرصة كهذه" (50) أما كهنة سبيل فكان الشرط فيهم أن يكونوا خصياناً، ولكن هذا لم يمنع فنكلمان من التنديد بأمر قديم للحكومة الرومانية يشترط تغطية الأعضاء الداخلية لابوللو واللاردكون وغيرهما من التماثيل في البلفير بمازر المعدن، وقد أعلن "إنه لم يشرع في روما طوال عهد ما مثل هذه السنة الغيبة". وكان للإحساس بالجمال من السلطان عليه ما ألغى تقريباً كل وعي فيه بالجنس. فإذا شعر بتفصيل جمالي فإن تفصيله يؤثر جمال جسم الذكر المكتمل

صفحة رقم : 13383

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> فنكلمان

الرجولة عن حلاوة المرأة الهشة العابرة. ويبدو أن تمثال هرقل النصفي (التورسو) قد أثر فيه أكثر مما أثرت خطوط جسد فينوس الناعمة الملفوفة. وقال كلمة طيبة في الخنائي-على الأقل في التمثال الذي شهده في فيلابورجيزي (60). وقال مؤكداً "لم أكن في حياتي عدواً للجنس الآخر، ولكن أسلوب حياتي أبعدني عن كل اتصال به. ولعلي كنت أتزوج، وأكبر ظني أنه كان واجباً على أن أفعل، لو أنني عدت إلى زيارة وطني الأول، أما الآن فإن هذا لا يكاد يخطر لي ببال" (61). وفي زيهاوزن كانت صداقته لتلميذه لامبريشت تقوم مقام التعلق بالمرأة، وفي روما عاش مع رجال الكنيسة، وندر أن التقى بالشباب مع النساء. وذكروا "إنه كان يتناول العشاء في السبوت فترة طويلة مع فتى من روما، نحيل وسيم الطلعة، فارغ القامة، يتحدث معه عن الحب" (62). وقد "رسمت بناء على طلبه صورة لمغن جميل من الخصيان" (63) ثم إنه أهدى للشريف الفتى البارون فريدرش راينهولد فون برج "رسالة في القدرة على الإحساس بالجمال"، "وقد وجد القراء فيها وفي خطاباته لبرج لغة الحب لا لغة الصداقة، وهي في الواقع كذلك" (64). وفي 1762 و1764 عاد إلى زيارة نابلي. وقد قدم للدارسين الأوربيين في "خطاب عن آثار هوكولانيوم" (1762) و"تقرير عن أحدث كشوف هوكولانيوم" (1764) أول معلومات منظمة وعلمية عن الكنوز التي تم الحفر عنها في تلك المدينة وفي بومبي. وكان الآن معترفاً به أعظم حجة في الفن الكلاسيكي القديم. وفي 1763 عين بالفاتيكان في وظيفة "أثرى الحجرة الرسولية" وأخيراً، في 1764، نشر المجلدات الضخمة التي كان يؤلفها ويحلبها بالصور طوال سنوات سبع Geschichte der Kunst des Alterthums "تاريخ الفن القديم". وقد أحتوى الكتاب على أخطاء كثيرة رغم ما أنفق في إعداده من وقت وجهد، واثان من هذه الأخطاء كانا خدعتين قاسيتين. ذلك أن صديقه منجز كان قد درس رسمين هما وليدا خيال منجز وزعم

صفحة رقم : 13384

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> فنكلمان

إنهما نسختان دقيقتان لصورة أثرية. وأدرج فنكلمان الصورتين في كتابه، واستعمل الرواسم وأهدى الكتاب كله لمنجز. وتضمنت المترجمات التي ظهرت سريعاً في الفرنسية والإيطالية كل الأخطاء تقريباً، مما أشعر فنكلمان بالخزي، فكتب إلى بعض أصحابه "إننا اليوم أحكم مما كنا بالأمس. لبتني أستطيع أن أريك كتابي "تاريخ الفن" وقد نقح تنقيحاً كاملاً ووسع توسيعاً كبيراً! لم أكن قد تعلمت الكتابة بعد حين شرعت في تأليفه فلم تكن الأفكار مترابطة بدرجة كافية، وفي مواضع كثيرة افتقار إلى الانتقال من السابق إلى اللاحق -وهو ملاك الفن الأسمى" (65). ومع ذلك أنجز الكتاب عملاً غاية في العسر -هو إجادة الكتابة في الفن. وقد رفعه حبه الشديد لموضوعه إلى مستوى الأسلوب الجميل.

وقد اتجه حرفياً إلى تاريخ الفن لا إلى الفنانين، وهو موضوع أيسر مأخذاً بكثير. وبعد أن مسح مسحاً متعجلاً الفن المصري والفينيقي واليهودي والفارسي والأتروزي، أطلق العنان لحماسته الفياضة في 450 صفحة تناولت فن اليونان القديم. وفي فصول ختامية ناقش الفن اليوناني في عهد الرومان. وكان توكيده دائماً على اليونان لأنه كان مقتنعاً بأنهم عثروا على أسمى صور الجمال: في رهافة الخط لا في لمعة اللون، في تمثيل الأنماط لا الأفراد، في طبيعة الأجسام ونبلها، في انضباط التعبير العاطفي، في هدوء المظهر وصلقه، في اطمئنان القسماحتى في الحركة، وفوق هذا كلها في النسبة والعلاقات المتسقن بين الأجزاء المتميزة في كل موحد توحيداً منطقياً. لقد كان الفن الإغريقي في رأي فنكلمان هو عصر العقل مجسماً.

وقد ربط تفوق الفن الإغريقي بالاحترام العظيم الذي كان الإغريق يكتونه بامتياز الجسد في الجنسين. "كان الجمال امتياز يقضي إلى الشهرة، لأننا نجد تواريخ الإغريق تذكر أولئك الذين تميزوا به" (66)، على نحو ما تفعل التواريخ الآن في ذكر كبار السياسة والشعراء والفلاسفة. وكانت هناك مباريات في الجمال عند الإغريق كما كانت مبارياتاً للألعاب الرياضية. وعند فنكلمان أن الحرية السياسية، وترعم اليونان لعالم البحر المتوسط

صفحة رقم : 13385

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> فنكلمان

قبل حرب البلوونيز، هذان أفضيا إلى مركب من العظمة والجمال، وأنتجا "الطراز الفخم" في فيدياس مكانه لبراكستليس، وبدأ الاضمحلال. وكانت حرية الفن جزءاً من الحرية اليونانية، وتحرر الفنانون من القواعد الصارمة وجزعوا على خلق أجساد مثالية لا توجد في الطبيعة. فلم يقلدوا الطبيعة إلا في التفاصيل، وكان العمل الفني كله مجموعة كمالات لا توجد في أي شيء طبيعي إلا جزئياً. لقد كان فنكلمان رومانتيكياً يبشر بالشكل الكلاسيكي. ولقي كتابه القبول في أوربا بأسرها باعتباره حدثاً في تاريخ الأدب والفن. وأرسل إليه فردريك الأكبر دعوة (1765) للحضور إلى برلين مشرفاً على المكتبة الملكية وإدارة الآثار. ووافق فنكلمان نظير ألفي طالر في العام، وعرض فردريك ألفاً فقط، وأصر فنكلمان على موقفه، وذكر فردريك بقصة المغني الخصي الذي طالبه بمبلغ ضخم نظير أغانيه، فشكا فردريك من أنه يطلب أكثر مما يكلفه خبر قواده، فكان رد المغني "إذن فليكلف قائده بالغناء".

وفي 1765 عاد فنكلمان لزيارة نابلي، هذه المرة في صحبة جون ولكز الذي كان قد جعل أوروبا تدوي بتحديثه للبرلمان ولجور الثالث. وبعد أن جمع المزيد من المعلومات عاد إلى روما وأكمل كتابه الهام الثاني "أثار قديمة غير منشورة" (1767). وكان أصدقائه من الأحيار قد شكوا من كتابته "تاريخه" بالألمانية التي لم تكن إلى ذلك الحين أداة كبرى من أدوات الدرس فأبهجهم الآن استعماله الإيطالية، وانتشى المؤلف السعيد، الجالس بين كردينالين، بقراءة جزء من كتابه في كاستل جاندولفو على كلمنت الثالث عشر وجمع غفير من الأعيان. على أنه أتهم بحيازته كتباً مهرطقة وإبدائه ملاحظات (68)، ولم يحصل من البابوية قط على المنصب الذي شعر بأنه جدير به.

صفحة رقم : 13386

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> فنكلمان

وقرر أن يزور ألمانيا (1768) ربما مؤملاً أن يحصل فيها على مورد يمكنه من رؤية بلاد اليونان. ولكن استغراقه الشديد في الفن الكلاسيكي وأساليب الحياة الإيطالية أفقده اللذة في وجوده بأرض الوطن، فتجاهل مناظرها الطبيعية وساء معمارها وزخارفها الباروكية. وكان يردد مائة مرة لرفيق رحلته (69)، "نعد إلى روما" وقد احتفى به القوم في ميونخ، وأهدوه جوهرة أثرية رائعة. وفي فيينا أعطته ماريا تريزا مداليات غالية، ودعته الإمبراطورة والأميرة فون كاونتز للإقامة هناك، ولكنه ما لبث أن قفل إلى إيطاليا في 18 مايو وهو لم يكذب يغيب عنها شهراً واحداً. وفي تريستا تعطل انتظاراً لسفينة يستقلها إلى أنكونا. وأثناء أيام الانتظار هذه تعرف إلى مسافر آخر يدعى فرانثيسكون أركانجيلي. وكانا يتمشيان معاً ويشغلان حجرتين متجاورتين في الفندق. وسرعان ما أراه فنكلمان الميداليات التي تلقاها في فيينا. على أنه -على قدر علمنا- لم يريه كيسه المملوء بالذهب. وفي صبيحة 8 يونيو 1768 دخل أركانجيلي حجرة فنكلمان، ووجده جالساً إلى منضدة، فألقى أنشودة حول عنقه، ونهض فنكلمان واشتبك معه، قطعنه أركانجيلي خمس مرات وفر هارباً. وضمد طبيب جروحه ولكنه قال أنها مميتة. وتناول فنكلمان الأسرار المقدسة، وأملى وصيته، وأعرب عن الرغبة في أن يرى مهاجمه ويصفح عنه، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة في الرابعة بعد الظهر. وقد خلدت تريستا ذكره بتماثيل جميل.

وقبض على أركانجيلي في 14 يونيو. فاعترف بجريمته، وفي 18 يونيو صدر عليه هذا الحكم: "عقاباً على جريمة القتل التي اقترفتها على جسد يوهان فنكلمان.. قضت محكمة الجنايات الإمبراطورية بأن... تحطم حياً على دواب التعليم، من رأسك إلى قدميك حتى تفارق روحك بدنك" وكذلك صنع به في 20 يوليو.

كانت عيوب فنكلمان وثيقة الصلة بالجغرافيا. فلأنه لم يحقق قط أمله في زيارة اليونان في ظروف كانت ستنجح له الدرس المستفيض للآثار القديمة،

صفحة رقم : 13387

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> فنكلمان

كان يفكر في الفن اليوناني وكأنه الفن اليوناني الروماني كما وجدته في المتاحف والمجموعات والقصور في ألمانيا وإيطاليا، وفي إطلال هركو لانيوم وبومبي. وتفضيله النحت على التصوير، وتمثيل الأنماط لا الأفراد، والهدوء لا التعبير عن العاطفة، وإيثاره النسبة والتناسق، ومحاكاة القدامى دون الابتكار والتجريب. كل هذا فرض على الدوافع الخلافة في الفن عدة قيود أسفرت عن الانتقاص الرومانتيكي على ما في الأشكال الكلاسيكية من الصرامة الباردة. وقد أعماه التركيز على اليونان والرومان عن حقوق الطرز الأخرى وإمكاناتها، وكان يرى-كما رأى لويس الرابع عشر- إن رسوم الحياة اليومية التي أنتجتها الأراضي الواطئة ليست إلا من قبيل "الجروتسك". ومع ذلك كان إنجازهم رائعاً. فقد أحدث انتفاضة في كل دنيا الفن والأدب والتاريخ الأوربي بتمجيده لليونان. ولقد جاوز حدود النزعة الشبيهة بالكلاسيكية التي نزعته إليها إيطاليا النهضة وفرنسا لويس الرابع عشر إلى الفن الكلاسيكي ذاته. ونبه العقل الحديث إلى ما في النحت اليوناني من كمال ناصع مطمأن. وجعل من فوضى مئات التحف الرخامية والبرونزية والصور والمجوهرات والعملات آثار علمية. وكان تأثيره على أفضل العقول في الجيل التالي هائلاً. فقد ألهم لسيخ، ولو بالاعتراض على آراءه، وشارك في إنضاج هيردر وجوته، ولعله لولا الإلهام الذي انبعث من فنكلمان لما توج بيرون شعره بالموت في بلاد اليونان. وقد أعان هذا الهلنستي الغيور على تشكيل مبادئ منجز ونورفالدسن الكلاسيكية الحديثة، وتصوير جاك-لوي دافيد الكلاسيكي الحديث. يقول هيجل "يجب أن يعد فنكلمان واحداً من أولئك الذين عرفوا في ميدان الفن كيف يخلقون أداة جديدة للروح الإنسانية"(70).

صفحة رقم : 13388

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> الفنانون

6- الفنانون

لم تكن إيطاليا في حاجة إلى حث يأتيها من فنكلمان، لأنها كانت تكرم أربابها، وكان فنهم المترام يقوم في كل جيل بمهمة المدرسة التي تدرب مئات الفنانين من أقطار كثيرة. من ذلك أن كارلو ماركيني صمم فيلا

صفحة رقم : 13389

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> الفنانون

الباني الفخمة (1758) التي جمع فيها الكردينال الباني بارشاد فنكلمان مجموعة عالمية الشهرة من المنحوتات القديمة- لا تزال غنية رغم طول لعدوان عليها. (فقد سرق نابليون 294 من تحفها لفرنسا، وربما كان هذا هو العلة في قول إيطالي مأثورة في تلك الأيام: ليس كل الفرنسيين لصوصاً، بل عدد عديد منهم). وأنجبت البندقية أكثر كبار المصورين الإيطاليين في تلك السنة، وقد ورث ثلاثة منهم أسماء مشهورة. أولها أليساندرو لونجي بن ببييترو، الذي أبرز عبقرية قومه بصور شخصية رقيقة منها صورتان لجولدوني(71). ولقد رأينا من قبل دومنيكو تيبولو يصحب أباه إلى أوجزبورج ومدريد، ويعرض في تواضع تخصصه على عامة الشعب. ففي مضيئة فيلا فالمارنا أستهل إنتاجه المستقل بصور المشاهد اليومية في حياة الريف، فصورة "الفلاحين يستجمون" أشبه بالقصيدة الرعوية، تصور أدواتهم وقد سقطت عنهم، وتصور استرخاءهم في دعة واطمئنان. وبعد أن مات أبوه في أسبانيا عاد دومنيكو إلى البندقية وأطلق العنان لأسلوب الواقعية الساخرة الذي اتخذته لنفسه(72). وثالث هؤلاء هو فرانيسكو جواردي، صهر جامباتستا تيبولا، الذي تعلم التصوير من أبيه، وأخيه، وكانا ليتو. وقد فاته التقدير في جيله، ولكن لوحته "فيدوتي" لفتت أنظار النقاد ببراعتها في التقاط ونقل لطائف الضوء وتقلبات الجو، وربما أوحى ببعض الإلماعات للتأثرين الفرنسيين. ولم ينتظر تحذير كونستابل الذي قال "تذكر أن الضوء والظل لا يفتان ساكنين أبداً"(74) وكأنما صممت أجواء البندقية ومياهها لتتهيئ هذه المناظر المضطربة المنصهرة. وقد ذكروا أن جواردي كان أحياناً يحمل مرسمه في زورق ويسير به على القنوات الصغرى ليلتقط مناظر لم تبتذل بطول إلف الناس لها. وكان يرسم الناس بغير عناية، وكأنه شعر بأنهم ليسوا سوى

صفحة رقم : 13390

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> الفنانون

تفاصيل سريعة الزوال إلى جوال المعمار المكين والبحر والسماء الدائمين رغم مل يطراً عليهما من تغير. ولكنه كان قادراً على تصوير الناس أيضاً، فتراهم يزحمون البياتسيتا في لوحة "المهرجان(75)"، أو يسيرون في ثياب فاخرة في "صاله فيلارمونييتشي(76)" الكبرى. وكان أخوه جوفاني يعد أثناء حياتهما مصوراً أفضل منه. وكانا ليتو أعظم من كليهما، أما اليوم فإن جواردي يعد بالبقاء بعد أن تخبو شهرة الاثنين. وعاد أنطونيو روفائيل منجز من أسبانيا عام 1768، وسرعان ما أصبح قطب التصوير في روما. ولم يشك أحد في تفوقه على معاصريه من الفنانين. كانت الرؤوس المتوجة تسعى إلى ريشته. وتسعى إليها دون جدوى أحياناً. وكان فنكلمان يلقيه بروفائيل عصره، وأشاد بلوحته الرهيبة "جبل بارناس" "رائعة" خليفة بأن ينحني أمامها حتى روفائيل(77)، وضمن كتابه "تاريخ الفن القديم" تقديراً عظيماً لصديقه(78). وأروع الصور التي رسمها منجز في هذه الفترة صورته الذاتية (1773؟)(79) ويبدو فيها وهو ما يزال قوياً وسيماً أسود الشعر معتزاً بنفسه في الخامسة والأربعين. وبعد أن أقام فترة ثانية في أسبانيا عاد (1777) ليقضي ما بقي له من أجل في إيطاليا. وواصل نجاحه، ولكن موت زوجته (1778) حطم روحاً كانت من قبل شديدة المرح. واجتمعت عليه شتى الأسقام فأضعفته، وأجهز عليه التجاؤه إلى المشعوذين والعلاجات السحرية. ومات عام 1779 وهو في الحادية والخمسين. وأقام تلاميذه لذكراه نصباً في البانتيون، إلى جوار تمثال روفائيل. واليوم لا تجد من يجل ذكراه من النقاد مهما صغر شأنه.

صفحة رقم : 13391

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> الموسيقى

7- الموسيقى

كانت موسيقى الكنيسة قد اضمحلت مع تحول الحياة شيئاً فشيئاً بعيداً عن الدين، ووصلتها العدوى من الأشكال الأوبرالية. وكانت موسيقى الآلات تزكو، من جهة بفضل التحسين الطارئ على البيانو، ولكن أهم

صفحة رقم : 13392

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> الموسيقى

من ذلك لشعبية الكمان (الفيولينه) المتزايدة. وغزا كبار العازفين من أمثال يوفيانى وفوتي ونارديني أوربا بقوس الكمان. وطاف موتزىو كلمنتي، الذي غادر إيطاليا ليعيش في إنجلترا عشرين سنة، بالقارة عازفاً على الأرغن والبيانو، ونافس موتسارت تعليقاً على عزفه أن هذا العزف ألي أكثر مما يجب. وكان أنجح معلم للبيانو في القرن الثامن عشر، وقد أرسى أسلوب القرن التاسع عشر في تكنيك البيانو بسلسلة تمارينه ودراساته الشهيرة "خطوات إلى بارناس" موطن ربات الفنون Muses اللاتي اشتقت منهن الموسيقى اسمها. وورث جاتيانو بونيانى تقنن أستاذه تارتيني في عزف الكمان وأسلمه إلى تلميذه جوفاني باتستا فيوتي، الذي عبر أوربا من ألبا لآخرها ظافراً. وما زال في استطاعة أذاننا المؤثرة للقديم أن تستمتع بكونشرتو كمان فيوتي في مقام الصغير.

أم لويجي بوكيريني فقد رحل كما رحل الكثير من الإيطاليين عن البلد اكتظ بالموسيقيين ليلتمس جمهوراً من المستمعين الخارج. وقد سحر أسبانيا من 1768 حتى مماته في 1805 بألة التشيللو كما سحرها من قبل فارنيللي بصوته وسكارلاتي بببانه القيثاري (الهاريسكورد). وعلى مدى جيل كامل كانت مؤلفاته الآلية تنافس مؤلفات موتسارت في ظفرها بالإشادة والإطراء من شتى الدول، وكان فردريك وليم الثاني ملك بروسيا، وهو نفسه عازف تشيللو، يفضل رباعيات بوكيريني على رباعيات موتسارت (80). وقد ألف خلال سنه الاثنتين والستين خمساً وتسعين رباعية وترية، وأربعاً وخمسين ثلاثية، واثنى عشرة خماسية للبيانو، وعشرين سمفونية، وخمسة كونشرتوات للتشيللو، وأورتوريوين، وبعض الموسيقى الدينية. ويعرف نصف العالم حكته "الكنويت" وهي حركة من إحدى خماسياته. ولكن يجب أن يعرف العالم كله الكونشوتو بمقام B الشديد الانخفاض الذي ألفه للفيلولو منشيللو والأوركسترا.

واستسلمت أوربا دون مقاومة (فيما عدا باريس مرة أخرى) للغناء الإيطالي الجميل "الملع" (البيل كانتو). فمن أكثر من عشر من مدن

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> الموسيقى

الحذاء السحري تدفقت مغنيات الأوبرا من أمثال كاترينا جابر بيللي والمغنين الخصيان أمثال جيسبارو باكييروتي عبر الألب إلى فيينا وميونخ ولبيرج ودرسن وبرلين وسانت بطرسبورج وهمبورج وبروكسل ولندن وباريس ومدريد. وكان باكييروتي آخر الخصيان المشهورين في عالم الغناء، وقد نافس فن فارنيللي جيلاً بأكمله. واسترق أسماع لندن أربعة أعوام، وما زال إطراء الإنجليز له يتردد في "يومية" (81) فاني بيرني، وفي كتاب أبيها "تاريخ الموسيقى العام" (82).

وتبع المؤلفون الموسيقيون وقادة الأوركسترا الإيطاليون المغنين. فألف بيتر جوليمبي مانتلي أوبر، وتقل بين نابلي ودرسدن وبرنزويك ولندن ليقودها. وقد انحدر إلينا ذكر موسيقى آخر من نابلي هو نيكولا بيتشيني، ولكنه ذكر شوهته منافسة لم يرغب فيها مع جلوك في باريس، ولكن جالياني وصفه بأنه "رجل شريف جداً" (83). وقد ظلت أوبراته الهائلة عقداً كاملاً للبدعة السائدة في نابلي وروما، لا بل إت أوبرا برجوليري "الخادمة التي انقلبت ربة البيت" لم تحظ بمثل الشعبية التي حظيت بها أوبرا بيتشيني (1760). وكان جوميللي، وبرجوليزي، وليو، وجولبي قد لحنوا "أولميادي" التي ألفها متاستازيو، فنهج بيتشيني نهجهم وبزهم كلهم بإجماع الرأي. وفي 1776 قبل دعوة إلى باريس، أما الحرب الضارية التي تلت ذهابه إلى هناك فلا بد أن تنتظر دورها الجغرافي، ولكن بيتشيني سلك من أولها لآخرها مسلكاً غاية في المجاملة، مبقياً على صداقته مع منافسيه جلوك وساكنيني رغم أن المنتشيعين لهما هددوا حياته. (83) فلما أغرقت أحداث الثورة الفرنسية هذه الأوبرا الهائلة عاد بيتشيني إلى نابلي. وهناك حددت إقامته في منزله أربع سنوات لتعاطفه مع فرنسا، وكانت أوبراته تقاطع بصيحات السخرية حتى توقف تمثيلها، وعاش في فقر يشين وطنه. وبعد أن فتح نابليون إيطاليا دعي إلى باريس مرة أخرى 1798، ومنحه القنصل الأول وظيفة شرفية متواضعة، ولكن أصابته بالشلل حطمته جسداً وروحاً، ومات في باريس عام 1800.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> الموسيقى

أما أنطونيو ساكنيني فقد ولد لأب كان صياد سمك في بونسولي، وكان يدرّب ليخلف أباه حين سمعه فرانتشسكو دورانتي يغني، فانطلق به إلى نابلي تلميذاً ومحسوباً له. وقد أحتق الجمهور بأوبراه "سمير أميدي" في التياترو أرجنتينو بروما احتفاء أبقاه مع ذلك المسرح سبع سنين مؤلفاً للأوبرات. وبعد أن أقام رداً في البندقية خرج ليغزو ميونخ وشتوتجارت... ولندن 1772. وصفق الجمهور لأوبراته هناك، ولكن الدسائس المعادية أضرت بشعبيته، وأتلقت عاداته الفاجرة صحته. ولما انتقل إلى باريس أخرج رائحته (Oedipe a Colone 1786) التي احتلت خشبة الأوبرا طوال 583 عرضاً في السنوات السبعة والخمسين التالية، وفي وسعنا أن نسمعها إلى اليوم على الهواء من حين لحين. وقد اقتبس عدة إصلاحات مما أدخله جلوك، وأقلع عن أسلوب الإيطاليين في جعل الأوبرا تلفيقاً من

الألحان، وفي أوديبّي تسيطر القصة على الألحان، وتضفي الكوراس التي استلهمت من أوبرا توريووات هندل الجلال والعظمة على الموسيقى والموضوع كليهما.

واتصل الغزو الغنائي بأنطونيو ساليري، عدو موتسارت وصديق بيتهوفن الشاب. ولد قرب فيرونا، وأرسل وهو في السادسة عشرة إلى فيينا (1766)، وبعد ثماني سنوات عينه يوزف الثاني مؤلفاً موسيقياً للبلاط، وفي 1788 رئيساً لفرقة المنشدين. في هذه الوظيفة فضل مؤلفين آخرين على موتسارت، ولكن القصة التي زعمت أن هذه المعارضة سببت انهيار موتسارت ليست إلا خرافة (85). فبعد موت موتسارت صادق ساليري الابن وأعان على تطوره الموسيقي. وقد قدم بيتهوفن عدة مؤلفات لساليري، وقبل اقتراحاته بتواضع لم يعهد فيه.

أما "ألمع نجم في سماء الأوبرا الإيطالية خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر (86)" فهو جوفاني بانيزيللو. كان أبناً لجراح بيطري في تارانتو، وقد أعجب معلموه اليسوعيين بصوته إعجاباً حملهم على إقناع أبيه بأن يوفده إلى معهد جماهير نابلي شديدي الحب لبنتيني، لذلك قبل دعوة وجهتها إليه كاترين الكبرى. وفي سانت بطرسبورج ألف

Il Barbiere di Siviglia (1782)

صفحة رقم : 13395

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> الموسيقى

(حلاق إشبيلية)، وقد كتب لها من النجاح الخالد في أوروبا كلها ما جعل الجمهور يلعن أوبرا عرضها نفس الموضوع بروما (5 فبراير 1816) الموسيقي روسيني لأنها تطفل غير كريم على أرض حرام لبازيللو الذي كان لا يزال على قيد الحياة. وتوقف بايزيللو بفيينا في طريق عودته من روسيا عام 1784 فترة أتاحت له تأليف اثنتي عشرة "سمفونية" ليوزف الثاني، وأخرج أوبرا Il ne Teodoro "تيودور الملك" سرعان ما ظفرت بقبول عم كل أوروبا. ثم عاد إلى نابلي رئيساً لفرقة المرتلين لفرديناند الرابع. وأقنع نابليون فرديناند بأن "يعيره" بازيللو، فلما وصل المؤلف إلى باريس (1802) أستقبل استقبالاً بلغ من الفخامة والبهاء ما أثار عدا الكثرين. وفي 1804 قفل إلى نابلي تحت حماية جوزيف بونابرت ومورا.

ويجب أن نلاحظ في مرورنا مبلغ الصبر والأناة التي كان هؤلاء الإيطاليون يعدون بهما مستقبلهم المهني. فبازيللو درس تسع سنين في معهد دورانتي الموسيقي "دي سان أونوفريو"، وتشيماروزا درس إحدى عشرة سنة في معهد سانتا ماريا دي لورينو، ثم في نابلي. وبعد أن تتلمذ دومنيكو تشيماروزا طويلاً على يد ساكيني وبنتيني وغيرهما، أخرج أول أوبرا له Rtravaganze Del Cont "إسراف الكونت" وسرعان ما استمع الناس لأوبراته في فيينا ودرسدن ولندن. وفي 1787 ذهب بدوره إلى سان بطرسبورج حيث أبهج قلب القيصرة المزواج بأوبرا كليوباترة. وحين دعاه ليوبولد الثاني ليخلف ساليري رئيساً للمرتلين بفيينا، أخرج هناك أشهر أوبراته وهي "الزواج السري" (1792). وقد بلغ سرور الإمبراطور بها حدّاً جعله يأمر بعد انتهائها بتقديم العشاء لجميع الحاضرين، ثم أمر بإعادة الأوبرا كلها (87). وفي 1793 دعي ثانية إلى نابلي "رئيساً للمرتلين" لفرديناند الرابع. فلما خلع جيش من جيوش الثورة الفرنسية الملك (1799) رحب تشيماروزا بالحدث ترحيباً حاسماً، فلما رد فرديناند إلى عرشه حكم على تشيماروزا بالإعدام. ثم خفف الحكم إلى النفي. ويمم المؤلف شطر سانت بطرسبورج، ولكنه مات في الطريق بالبندقية (1801). واحتوت مخلفاته التي تركها بالإضافة إلى العديد من الكنتاتات، والقداسات،

صفحة رقم : 13396

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> الموسيقى

والأوراتوريوات، نحو ست وستين أوبرا كانت تلقى استحساناً أكثر بكثير ما ظفرت به أوبرات موتسارت، وهي حتى في وقتنا هذا يجب أن تعد في مرتبة تالية لأوبرات موتسارت فقط في أوبرا القرن الثامن عشر الهازلة. وإذا كانت الملوديا هي لب الموسيقى، فالموسيقى الإيطالية إذن أسمى الموسيقى. كان الألمان يفضلون التناغم متعدد الأصوات (الهارمونيا البوليفونية) على الخط الميلودي البسيط. وفي هذه الناحية ظفرت إيطاليا بنصر آخر على ألمانيا حين أخضع الألماني موتسارت البوليفونية للميلودية. ولكن الإيطاليين غلبوا الميلوديا تغليباً جعل أوبراتهم أقرب إلى أن تكون سلسلة من الأغاني الرخيمة أكثر منها درامات موسيقية كالتي قصد إليها أوائل مؤلفي الأوبرا الإيطاليين (حوالي 1600) في محاولتهم منافسة فن الإغريق الدرامي. وهكذا نرى دلالة الحركة الإيطالية، بل دلالة الكلمات في حالات كثيرة، تضيع وسط بهاء الأغنية وروعيتها وكان هذا جميلاً، ولكن إذا كان الفن كما اعتدنا أن نراه هو استبدال النظام بالفوضى للكشف عن المغزى أو الدلالة، فإن الأوبرا في الأيدي الإيطالية قصرت دون بلوغ أسمى إمكاناتها، وقد اعترف بهذا بعض الإيطاليين مثل جوميللي وترايبينا، وجهدوا لصب الموسيقى والتمثيلية في كل موحد، ولكن ذلك الإنجاز كان عليه ينتظر أوبرات جلوك ليحقق أنصع صورته. وهكذا توقف في بندول الحياة الغزو الإيطالي لأوروبا بالميلوديا، حين أخرج جلوك عام 1774 في باريس "أفحيني في أولدي" التي أخضعت الموسيقى للتمثيلية. ولكن الصراع بين الميلوديا والدراما أتصل، وكسب فاجنز معركة للدراما، واستولى فردي على غنائم جديدة للميلوديا. وليت النصر الكامل لا يتحقق لأي من الفريقين.

صفحة رقم : 13397

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> الفييري

8- الفييري

لم ينجب هذا العصر رجلاً على شاكلة دانتي، ولكن كان هناك باريني في الشعر وفيلانجييري في النثر، والفييري في الدراما والنثر والشعر. ولقد شق جوزيبي باريني طريقه صعوداً من الفقر، وكسب قوته بنسخ

صفحة رقم : 13398

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> الفيري

المخطوطات، ودخل دنيا النشر (1752) بديوان صغير من "الشعر المنثور" واحترف القسوسة وسيلة للعيش، وحتى بعد هذا اضطر لكسب قوته بإعطاء الدروس الخصوصية لأن إيطاليا اكتظت بالقساوسة. وأر هف الفقر قلمه فاتجه إلى الهجاء. وتأمل في حياة الكثير من نبلاء الإيطاليين العاطلة المترفة فخطر له أن يصف يوماً نموذجاً في حياة شريف ذي "دم أزرق". وفي 1763 أصدر أول جزء سماه (الصباح)، وبعد عامين أضاف (الظهيرة)، ثم أكمل الجزء الثالث الذي لم يعش لينشره (المساء) و(الليل)، وهي في مجموعها تؤلف هجائية ضخمة سماها "اليوم" Il Giorno وأبدى الكونت فوني فيرمان نبلاً حقيقياً بتعيينه القس الشاعر محرراً لجازيته ميلان، وأستاذاً للأدب البحتة في "السكولا بالاتينا" ورحب باريني بالثورة الفرنسية، وكافأه نابليون بعضوية مجلس مدينة ميلان. والقصائد الغنائية التي نظمها بين 1757 و1795 تدع من عيون الأدب الإيطالي الصغيرة. و لا يصلنا بالترجمة إلا صوت خافت منه، كما نسمعه في هذه السوتينته التي توحى بأن كاتبها عاشق لا قسيس:

إيه أيها الكرى الرحيم، يا من تشق بجناحك الرقيق

طريقك الهادئ متعجلاً في الليل البهيم

وتترأى بالأحلام الكثيرة السريعة

للنفس المضناة على فراشها الساكن:

أذهب إلى حيث تضع "فيليس" رأسها اللطيف

وخدها النضر على الوسادة الهادئة،

وبينما يرقد جسدها روع روحها

برؤيا جسم كئيب خلقتة بسحرك،

وليكن شديد الشبه بي،

شوه الشحوب وجهه،

حتى تستيقظ وقد هزها الحنان علي.

صفحة رقم : 13399

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> الفييري

إنك لو تفضلت عليّ بهذا الصنيع،

لجدلت لك إكليلاً مزدوجاً من الزهر

ووضعت في سكون على مذبحك(88)

ولنصف إلى هذه الباقية من الزهر زهرة من التنوير الإيطالي هي فقرة كتاب جايتانو فيلانجيري "على التشريع" La Seienza Della Legislazione (1780-85)، استوحاها من بكاريا وفولتير. "ما ينبغي أن يكون الفيلسوف مخترعاً للمذاهب بل رسولاً للحقيقة، وما دامت الشرور التي ابتليت بها البشرية قائمة بغير شفاء، وما دام مسموحاً للخطأ والتحيز بأن يخلدا هذه الشرور، وما دامت الحقيقة مقصورة على القلة وعلى المميزين، محجوبة عن معظم النوع الإنساني وعن الملوك، فسيظل واجب الفيلسوف أن يبشر بالحقيقة، وأن يحافظ عليها ويشجعها، وينيرها. وحتى إذا كانت الأضواء التي ينشرها لا تقيد في جيله وقومه، فإنها لا شك ستفيد في بلد وجيل آخرين. فالفيلسوف- ذلك المواطن في كل مكان وزمان- أمامه الدنيا كلها وطناً، والأرض مدرسة، والأجيال القادمة تلاميذ"(89).
وقد لخص العهد كله في الفييري: فالانتفاض على الخرافة، وتمجيد الأبطال الوثنيين، والتنديد بالاستبداد، والإشادة بالثورة الفرنسية، والنفور من شططها والصيحة المطالبة بتحرير إيطاليا- كل هذا مضافاً إلى قصة غرام حرام ووفاء نبيل. وقد سجل هذه الحياة المشبوهة في "حياة فيتوريو الفييري... وكتوبة بقلمه، موصولة إلى ما قبل موته بخمسة أشهر. وهي من أعظم التراجم الذاتية، لا تقل كشافاً عن نفس صاحبها عن "اعترافات" روسو. ويستهلها بعبارة يلقي القارئ أمامها السلاح: "إن حديث المرء عن نفسه، وأكثر منه الكتابة عن نفسه- إنما هو دون أدنى شك وليد المحبة الفائقة التي يحبها المرء لذاته، وبعدها لا يتوارى الكاتب خلف قناع من التواضع ولا تند عنه أمانة على عدم الأمانة:

صفحة رقم : 13400

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> الفييري

"ولدت في مدينة أسني ببيدمونت في 17 يناير 1749 لأبوين شريفيين ثريين محترمين. وأنا أذكر هذه الظروف على أنها ظروف سعيدة للأسباب التالية. فقد خدمت شرف المولد خدمة كبرى،.. لأنه مكنتني من أن أدم النبالة لذاتها دون أن أتهم بالدوافع الدينية أو بدافع الحسد، وأن أميط اللثام عن حماقاتها، وردائها، وجرائرها... أما الثراء فعصمني من قبول الرشوة، وأطلق حريتي في خدمة الحق دون سواه"(90).
ومات أبوه وهو طفل، وتزوجت أمه ثانية. وانطوى الغلام على نفسه، وأطال التفكير، وفكر في الانتحار في الثامنة ولكنه لم يهتد إلى أي طريقة مريحة. وتكفل به خال له وأرسله وهو في التاسعة ليتلقى العلم في أكاديمية تورين. وهناك تولى خادم خاص خدمته والسيطرة عليه بالعنف. وحاول معلموه أن يحطموا إرادته كأول مرحلة في تنشئته رجلاً، ولكن طغيانه ألهم كبرياءه وشوقه إلى الحرية "إن درس الفلسفة... كان من النوع الذي ينوم الطالب وهو واقف منتصباً"(91). على أن موت خاله تركه المتصرف في ثروة عريضة وهو بعد في الرابعة عشرة.
وبعد أن حصل على موافقة ملك سردينيا التي كانت شرطاً للسفر خارج البلاد بدأ في 1766 جولة في أوروبا استغرقت ثلاثة أعوام. ووقع في غرام نساء شتى، وعشق الأدب الفرنسي والدستور الإنجليزي. ودمرت قرأته لمونتسكيو وفولتير وروسو لاهوته الموروث، وبدأت كراهيته للكنيسة الرومانية- مع أنه بالأمس فقط لثم قدم كلمنت الثالث عشر "شيخ لطيف في جلال وقور"(92). وفي لاهاي شغف حباً بامرأة متزوجة، فابتسمت ثم انصرفت عنه، وعاد يفكر في الانتحار، وكان العهد عهد فرتر، والانتحار فكرة شائعة في الجو. ثم عاد ليكتشف أن الفكرة أشد جاذبية منها تنفيذاً، فرجع إلى بيدمونت ولكنه شقي في جو ملؤه الخضوع السياسي والديني شقاء حمله على استئناف أسفاره (1769).

وجاب الآن أرجاء ألمانيا والدمرك والسويد- حيث أحب الطبيعة كما يقول وأحب الناس وحتى الشتاء. ومنها إلى روسيا، فاحترقها لأنه لم يرَ في

صفحة رقم : 13401

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> الفييري

كاترين الكبرى إلا مجرمة متوجة، ورفض أن يقدم لها. ولم يسغ بروسية فردريك خيراً من إساعته روسيا، فهول إلى هولندا التي أنتجت نهج الجمهورية في بسالة، وإلى إنجلترا التي كانت تحاول أن تعلم جوج الثالث أن يخلي بينه وبين شؤون الحكم. وقد أعوى زوجة رجل إنجليزي، وبارز، وجرح. ثم أصيب بعدوى الزهري في أسبانيا(93)، وعاد إلى تورين للعلاج (1772).

وفي 1774 تماثل للشفاء بالقدر الذي أتاح له الدخول في ثاني مغامراته الغرامية الكبرى، مع امرأة تكبره بتسع سنين. وتشاجرا ثم افترقا. وأزاحها من أحلامه بكتابة تمثيلية سماها "كليوبطرة"، وأي شيء أكثر إثارة من عضوية في حكومة ثلاثية، وملكة، ومعركة، وصل؟ وأخرجت التمثيلية بتورين في 16 يونيو 1775 "وسط تصفيق الاستحسان ليلتين متعاقبتين"، ثم سحبه لإجراء تعديلات فيها. وأخذ الآن يتحرق شوقاً إلى الشهرة غاية في النبل والسمو. وأعاد الآن قراءة بلوتارخ وعيون الأدب اللاتيني، ودرس اللاتينية من جديد ليغوص في مآسي سنيكا، وفي هذه القراءات وجد موضوعات وأشكالاً لدراماته. وعزم على استعادة الأبطال والفضائل القديمة كما استعاد فنكلمان الفن القديم. وفي غضون هذا (1777) كان يكتب رسالته "في الطغاة". ولكنها احتوت من التهم الحادة للدولة والكنيسة ما جعله ينكص عن نشرها، فلم ترَ النور إلا في 1787. فقد كانت ملتعبة بغيرة أشبه بالغيرة الدينية:

"ليس الفقر الطاحن... ولا عطل الأرقاء الذي تتردى فيه إيطاليا، كلا، فما هذه هي الدوافع التي وجهت عقلي إلى الشرف الرفيع الحق، شرف تجريد قلبي للهجوم على الإمبراطوريات الزائفة. ذلك أن إلهاً ضارباً إلهاً مجهولاً، ظل يسوط ظهري منذ نعومة أظفاري... إن روعي الحرة لن تجد سلاماً أو راحة حتى أكتب صفحات قاسية لهدم الطغاة"(94).

صفحة رقم : 13402

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> الفييري

وهذا تعريفه للطغاة:

"كل الذين توسلوا بالقوة أو الحيلة- أو حتى بإرادة الشعب أو النبلاء- إلى القبض التام على أطراف الحكم ويعتقدون أنهم فوق القانون، أو هم كذلك...والطغيان هو الصفة التي يجب أن تتعت بها... أي حكومة يستطيع فيها الشخص أن

المنوط بتنفيذ القوانين أن يضعها أو يقضي عليها أو ينتهكها أو يفسرها أو يعرقل سيرها أو يوقفها وهو في مأمن من العقاب" (95).

وعند الفييري أن الحكومة الأوربية كانت مستبدة باستثناء الجمهورية الهولندية والملكتين الدستوريتين في إنجلترا والسويد. وقد أشاد بالجمهورية الرومانية متأثراً في ذلك بمكيافيللي، وراوده الأمل في أن الثورات ستقيم جمهوريات في أوربا عما قليل. ورأيه أن خير ما يستطيع أي وزير لطاغية مستبد أن يفعله هو أن يشجعه على ألوان من الطغيان تبلغ من الشطط ما يسوف الشعب إلى الثورة (96). والثورة في سنيها الأولى معذورة إذا لجأت إلى العنف لتمنع عودة الاستبداد إلى الحياة:

"وبما أن الآراء السياسية كالآراء الدينية لا يمكن تغييرها تغييراً كاملاً أبداً دون استعمال الكثير من العنف، لذلك كانت كل حكومة جديدة مضطرة لسوء الحظ إلى أن تعنف إلى حد القسوة، بل تظلم أحياناً حتى تقع أو ربما تكره أولئك الذين لا يرغبون في التجديد ولا يفهمونه ولا يحبونه ولا يرتضونه" (97).

ومع أن الفييري كان نبيلاً، ولقبه الكونت دي كوتيميليا، فإنه أدان الأرستقراطية الوراثية لأنها شكل من أشكال الطغيان أو أداة من أدواته. وأدان بالمثل جميع الأديان المنظمة ذات السلطان. وقد سلم بأن "المسيحية أسهمت بقدر غير قليل في تلطيف العادات الشائعة بين جميع الناس"، ولكنه أشار إلى "الكثير من أعمال الوحشية الغبية الجاهلة" التي

صفحة رقم : 13403

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> الفييري

ارتكبا الحكام المسيحيون "من قسطنطين" (98). ويمكن القول عموماً:
"إن الدين المسيحي يكاد لا يتفق والحرية.. فالشعب، وحكمة التفطيش والمطهر، والاعتراف، والزواج الذي لا انفصام له، ورهبانية الكهنة- هذه هي الحلقات الست في السلسلة المقدسة التي تقيد السلطة الزمنية (الدولة) بقبود أوثق حتى لتزداد على الأيام ثقلاً وامتتاعاً على التحطيم" (99).

وبلغ من مقت الفييري للاستبداد أنه نصح باجتناب الخلف أو الزواج إطلاقاً في دولة مستبدة. وبدلاً من أن ينجب أطفالاً، أخرج في خصوبة إيطالية مماثلة أربع عشرة مأساة بين 1775، و1783، كلها بالشعر المنثور، وكلها كلاسيكية بناء وشكلاً، وكلها يشب الطغيان بسخط خطابي، ويمجد الحرية باعتبارها أشرف من الحياة. فترى ميوله في "البازي" مع محاولة المتأمرين الإحاطة بلورنتسو وجوليانودي مديتشي، وفي "بروتس الأول" و "بروتس الثاني" لم يعف من اللوم تاركوين وقيصر، وفي "فليبو" كان بكل قلبه مع كارلوس ضد ملك أسبانيا، ولكنه في "ماريا ستواردا" (ماري ستوارت) وجد في رؤساء العشائر الاسكتلندية من الطغيان أكثر مما في الملكة الكاثوليكية. فلما أنتقد على إخضاعه التاريخ لفكرته دافع عن نفسه بقوله:

"سيسمع الناس أكثر من لسان خبيث يقول... أنني لا أصور شيئاً إلا الطغاة في صفحات مفرطة الطول لا لطف فيها، وإن قلبي الدموي المنقوع في السلم يضرب دائماً على نغمة واحدة رتيبة، وأن ربة شعري الفضة لا تنهض إنساناً من العبودية الشريفة، بل تنثير ضحك الكثيرين. ولكن هذه الشكاوى لن تحول روعي عن هدف بمثل هذا السمو، ولا تعوق فني مهما كان ضعيفاً غير كفاء لتلبية حاجة بهذه الشدة. لا ولن يكون نصيب كلامي أن تبده الرياح إذا ولد رجال صادقون بعدما يؤمنون بأن الحرية لا غنى عنها للحياة" (100).

صفحة رقم : 13404

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> الفييري

وقد أولع بكونتيسة ألباني ولعاً لم يفقه إلا ولعه بالحرية وكانت ابنة جوستاف أدولف - أمير شتولبرج - جديراً فتزوجت (1773) الأمير تشارلز إدوارد ستيوارت، المطالب الشاب بعرش بريطانيا، الذي سُمي الآن نفسه كونت ألباني. وقد انغمس هذا الذي كان فتى أنيقاً جداً يوم كان "الأمير الحلو تشارلي" في الشراب ومصاحبة الخليلات لينسى هزائمه. ولم يعقب هذا الزواج الذي رتبته البلاط الفرنسي، وكان زواجاً شيقاً، ويبدو أن الكونتيسة ذاتها لم تكن ميرة من العيوب. وقد التقى بها الفييري في 1777، ورثى لها، ثم احبها. ولكي يكون قريباً منها، حراً في مساعدتها وتتبع تقلبات حظها دون أن يتكبد مشقة الحصول على إذن ملكي لكل خطوة عبر الحدود، تخلى عن مواطنته بيدمونت، ونزل عن معظم ثروته وضيعته لأخته، ثم انتقل إلى فلورنسا 1778. وكان الآن في التاسعة والعشرين من عمره. واستجابت الكونتيسة لغرامه برقة وحذر مراعية كل أصول اللياقة. وفي 1780 حين أمست حياتها في خطر من جراء عنف زوجها السكير، اعتكفت في دير، ثم في بيت زوج أختها في روما. كتب الفييري يقول "بقيت في فلورنسا كأني يتيم مهجور، وعندها اقتنعت كل الاقتناع أنني بدونها لم أكن أوجد ولو نصف وجود، لأنني ألفتني عاجزاً كل العجز تقريباً عن القيام بأي عمل جيد(101)". وما لبث أن ذهب إلى روما، حيث سمح له برؤية محبوبته بين الحين والحين، ولكن زوج أختها قاوم جهوده في الحصول على قرار بإبطال زواجها، مسترشداً بذلك في رأي القساوسة. (ومن هنا دفاعه الملطوني عن الطلاق "ديلا تيرانيدي(102)"). وأخيراً منعها زوج أختها من زيارة الكونتيسة، فغادر روما، وحاول أن يرفه عن نفسه بالأسفار والخيل - التي كانت "غرامه الثالث"، بعد الفنون و "سيدتي النبيلة". وفي 1784 حصلت على انفصال شرعي، فانتقلت إلى كولمار في الألزاس. وهناك لحق بها الفييري، وبعدها عاشا

صفحة رقم : 13405

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> الفييري

في رباط غير زوجي حتى أتاح لهما موت زوجها أن يتزوجا. وقد كتب الفييري عن حبه في نشوة تذكرنا بما كتبه دانتى في "الحياة الجديدة". "هذا الحب المحموم - الحب الرابع والأخير،.. كان يختلف عن علاقاتي الغرامية الثلاث السابقة. ففيها لم أجد نفسي منفعلاً بأي عاطفة ذهنية توازي وتمتدح بعاطف القلب. نعم كان هذا الحب أقل عنفاً وحرارة ولكنه أكثر استمراراً وأعمق تغلغلاً في الشعور والوجدان. وبلغ من قوة عاطفتي أنها... سيطرت على كل انفعال وخاطر فيّ، ولن تنطفئ في داخلي أبداً إلا بانطفاء الحياة نفسها. وقد وضحت لي... أنني وجدت فيها امرأة حقة، لأنها بدلاً من أن تصبح كسائر النساء العاديات عقبية في طريقي إلى الشهرة الأدبية - امرأة تقدم الاهتمامات النفسية وترخص... أفكار المرء - وجدت فيها التشجيع والعزاء والقوة الحسنة في كل عمل صالح. وإذا تبينت هذا الكنز الفريد وقدرته حق قدره، فأنتي بذلت لها ذاتي باستسلام مطلق. ولا ريب في أنني لم أكن مخطئاً في هذا، لأنني الآن وقد مضى على حبي لها أكثر من اثني عشر عاماً... يزداد حبي لها كلما بذلت تلك المفاتن العابرة (وهي ليست نفسها الباقية) بحكم الزمن. ولكن عقلي وقد تركز فيها يسمو ويرق، ويزداد حسناً كل يوم، وأما عقلها هي فأنتي أجزؤ على القول بأن هذا يصدق عليها، وأن من حقها أن تستمد مني العون والقوة(103)".

وبهذا الحافز مضى يكتب المزيد من المآسي، وبعض الملاحى، وشيئاً من الشعر بين الحين والحين. وكان قد كتب خمس قصائد غنائية بعنوان Ameraca Libra. وفي 1788 انتقل الحبيبان إلى باريس، حيث أشرف الفييري على نشر مطبعة بومارشين في كيل على الراين لأعماله. وحين سقط الباستيل هلك الفييري للثورة وكله حماسة متقدة للحرية وقال أنها فجر عصر أسعد للبشر. ولكن سرعان ما قرز شطر الثورة وسرقها روحاً كان تصور لها للحرية أرسقراطياً، روحاً تطالب بالتححرر من الغوغاء والأغلبيات ومن البابوات والملوك على حد سواء. ففي 18 أغسطس 1792 غادر هو والكونتيسة

صفحة رقم : 13406

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> وداعاً إيطاليا -> الفييري

باريس بما استطاعا حمله من مقتنياتهما في مركبتين فأوقفهما عند أبواب المدينة حشد يسألهما عن حقهما في مغادرته. يقول الفييري "قفزت من المركبة بين الغوغاء، ملوحاً بجوازات سفري السبعة وأخذت أصيح وأحدث ضجة.. وهو دائماً السبيل إلى التغلب على الفرنسيين(104)". وواصل الرحلة راكبين إلى كاليه وبركسل، وهناك نما إليهما أن السلطات الثورية في باريس أمرت بالقبض على الكونتيسة. فهدا إلى إيطاليا، واستقرا في فلورنسا. وكتب الفييري الآن Misogallo مضطرباً بنار الحقد على فرنسا و"حشد عبيدها أبناء السفاح"(105). وفي 1799 استولى جيش الثورة الفرنسية على فلورنسا فلجأ الفييري والكونتيسة إلى فيلا في ضاحية حتى رحل الغزاة. وقد أضعفه وأشابه انفعال هذه السنين، فاعتقد في ختام ترجمته الذاتية التي كتبها عام 1802 وهو بعد في الثالثة الخمسين أنه شاخ. وأوصى بكل ممتلكاته للكونتيسة ثم مات بفلورنسا في 7 أكتوبر 1803 ودفن في كنيسة ساننا كروتشي. وهناك أقامت له الكونتيسة أثراً ضخماً من صنع كانوفا، وقد مثلت فيه إيطاليا تتوح فوق المقبرة. وقد ضمت إلى حبيبها هناك في 1824.

وتكرم إيطاليا الفييري باعتباره Il Vate d'Italia نبي الأحياء الذي حررها من الأغلال الأجنبية الكنيسية. وكانت دراماته على ما فيها من حدة ورتابة تقدماً منشطاً خلف ورائه المآسي العاطفية التي كانت تقدم للمسرح الإيطالي قبله. ومن تمثلياته "فليبو" و "شاوول" و "ميرا" أعدت روح إيطاليا نفسها لمتزني جاريبالدي. ولم يقتصر نشر الطغاة Della Tirannide في الخارج على كيل (1787) وباريس، بل طبع في ميلانو (1800) وغيرها من المدن الإيطالية في 1802 و 1803 و 1805 و 1809 و 1840 و 1849 و 1860، وأصبح لإيطاليا ما كان لفرنسا وإنجلترا وأمريكا كتاب يبين "حقوق الإنسان" (1750). وكان الفييري بداية الحركة الرومانسية في إيطاليا، ببيرونا قبل بيرون، يبشر بتحرير العقول والدول من أغلالها. وبعده كان لزاماً على إيطاليا أن تتحرر.

صفحة رقم : 13407

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> الإمبراطورية الجديدة

الفصل الثالث عشر

حركة التنوير في النمسا

1756 - 1790

1- الإمبراطورية الجديدة

إذا توخينا الدقة في التعبير قلنا أن كلمة "النمسا" إنما تدل على أمة، وقد تدل تجاوزاً على الإمبراطورية التي تزعمتها النمسا. فمن الناحية الشكلية كانت هذه الإمبراطورية حتى عام 1806 هي الإمبراطورية الرومانية المقدسة، التي انتظمت ألمانيا وبوهيميا وبولندا والمجر وأجزاء من إيطاليا وفرنسا. بيد أن الأهداف القومية أضعفت من الولاء للإمبراطورية إلى حد لم يبق معه الآن (1756) من هذه الأقطار سوى إمبراطورية نمساوية مجرية تنظم النمسا وستيريا وكارنتيا وكارنيتولا وتيرول والمجر وبوهيميا ومطرانيات كولونيا وتريير وماينز الكاثوليكية، وأشتاتاً متباينة من إيطاليا، ثم منذ 1713 الأراضي الواطنة النمساوية-التي كانت أسبانية فيما مضى-وهي على التقريب بلجيكا الحالية.

أما المجر التي كان يسكنها قرابة خمسة ملايين من الأنفس فكان يسودها نظام إقطاع فخور. فأربعة أخماس الأرض يملكه النبلاء المجرين ويفلحه الأقتان، ولم يقع عبء الضرائب إلا على الفلاحين وأهل المدن الألمان أو الصقالبة. وكان الإمبراطورية الجديدة قد ولدت شرعياً في 1687، حين تخلى النبلاء المجرين عن حقهم القديم في اختيار ملكهم واعترفوا بأباطرة الهابسبورج ملوكاً عليهم. ودعت ماريا تريزا كبار النبلاء المجرين إلى بلاطها متبعة استراتيجية البوربون، وأعطتهم المناصب والألقاب والأنواط، وهدأتهم حتى قبلوا القانون الإمبراطوري قانوناً لأملهم وفيينا عاصمة لهم. وكلفت الإمبراطورة في استجابة سمحة لوكاس فون هلد براند بعمل

صفحة رقم : 13408

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> الإمبراطورية الجديدة

تصميمات للمباني الحكومية في بودا؛ وبدأ العمل في 1769، ثم جدد في 1894 فأعطى العاصمة القديمة بناء من أروع المباني الملكية في العالم. وشيد أغنياء النبلاء المجريين القصور الريفية الفخمة على الدانوب أو في خلواتهم الجبلية منافسين في ذلك الملكة، فيني الأمير بال أستراهاتي مقراً لأسرته في أيزنشتات (1663-72) وبنى الأمير ميكولوس يوزف أستراهاتي بطراز النهضة على نحو ثلاثين ميلاً قلعة أستراهاتي الجديدة (1764-66) التي ضمت 126 حجرة للضيوف، ودرهنتين كبيرتين للاستقبالات وحفلات الرقص، ومجموعة غنية من التحف، وعلى مقربة منها مكتبة بها 7.500 مجلد ومسرح به أربعمئة مقعد. ومن حول القصر حول مستنقع شاسع إلى حدائق زينت بالمغارات والمعابد والتماثيل، وجهزت بالصوبات وأشجار البرتقال والأرض المخصصة للوحوش والطيور البرية. يقول رحالة فرنسي "هذه القلعة لا يضارها أي مكان في فخامتها-ربما باستثناء فرساي". وإليها أقبل المصورون والمثالون والممثلون والمغنون والعازفون، وهنا ظل هايدن جيلاً كاملاً يقود فرقته ويؤلف موسيقاه ويتوق للانطلاق إلى عالم أرحب.

أما بوهيميا-هو اليوم القسم التشيكي من تشيكوسلوفاكيا-فلم تحظ بمثل هذا التفوق في عهد ماريا تريزا. وكانت قد انسحبت من التاريخ بعد حرب الثلاثين وقد حطم روحها القومي حكم أجنبي وعقيدة كاثوليكية فرضت على شعب عرف يوماً يان هوس وجيروم البراغي. وعانت الملايين الثمانية التي تسكنها من جراح الحرب في الصراع المتكرر الذي دارت رحاه بين روسيا والنمسا، وانتقلت عاصمتها التاريخية من يد إلى يد مراراً وتكراراً، إذا كانت ملكتها الغربية تنتقل من هزيمة إلى نصر إلى هزيمة. واضطرت بوهيميا إلى أن تقنع باستقلال في الثقافة والذوق، فنشأت مؤلفيها الموسيقيين أمثال جيورج بندا، وتقردت براغ باستقبالها الحار لأول عرض لأوبرا موتسارت "دون جوفاني" (1787)، التي لم تصب بعد ذلك في فينا غير إطراء فاتر كان أشبه بالذم منه بالمديح. وأما في الأراضي الواطئة النمساوية فقد كان كفاح النبلاء المحليين

صفحة رقم : 13409

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> الإمبراطورية الجديدة

للاحتفاظ بسلطتهم التقليدية أنجح منه في بوهيميا، وسكيدر أيام "الإمبراطور الثائر" الأخيرة. وقد كان لتلك الأقاليم السبعة بالبانن (التي ضمت بروكسل، وأنتورب، ولوفان)، ولكسمبورج، وفلاندر، وهانوت، ونامور، وجلدز-تاريخ عريق جليل، وكان النبلاء الذين حكموا رعاياهم الملايين الأربعة شديدي الحرص على الامتيازات التي ثبتت لامتحان قرون كثيرة. وعرض المجتمع العصري أزياءه، وقامر بمكاسيه، وشرب أحياناً المياه المعدنية كما شرب الأنبذة في سبا في أسقفية لياج المجاورة. وكان زهرة ذلك المجتمع في هذا العصر المير شارل-جوزف دلين، الذي وهبته بروكسل للعالم في 1735. وقد قام على تعليمه عدة آباء من الرؤساء الكاثوليك "لم يؤمن بالله منهم غير واحد"؛ أما هو نفسه فكان "متديناً أسبوعين" (1) في هذا البلد المغرق في الكتلثة. وقد أبلى بلاء حسناً في حرب السنين السبع وخدم يوزف الثاني مستشاراً وصديقاً حميماً، والتحق بالجيش الروسي في 1787؛ ثم رافق كاترين الكبرى في "مسيرتها" إلى القرم، وبنى لنفسه قطراً ريفياً فاخراً وقاعة للفنون قرب بروكسل، وكتب أربعة وثلاثين مجلداً من "المنوعات"؛ وأثار الإعجاب في النفوس-حتى نفوس الفرنسيين-بطباعه المهذبة، وأضحك أندية أوربا العالمية الطابع بظرفه وخفة دمه المشربة بالفلسفة.

هذه الإمبراطورية المعقدة؛ الممتدة من الكربات إلى الرين؛ هي التي دانت أربعين سنة لامرأة من عظيمات نساء التاريخ.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> ماريا تريزا

2- ماريا تريزا

رأيناها من قبل في الحرب، وفيها لم تسلّم إلا لفرديريك وأبّلت في السياسة الحربية، وفي اتساع النظرة وإحاح الهدف، وفي الشجاعة تواجه الهزيمة.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> ماريا تريزا

قال فرديريك عنها في 1752 "إذا استثنينا ملكة المجر وملك سرينيا (شارل إيمانويل الأول) الذي انتصرت عبقريته على تعليمه الرديء، لم نجد في ملوك أوربا وأمراءها كلهم غير معتهين مشهورين (3). لقد فاقتها في فن الحكم إليزابيث الأولى ملكة إنجلترا من قبلها، وكاترين الثانية قيصرة روسيا من بعدها، ولم يفقها ملكات غير هاتين. وكانت في رأي فرديريك "طموحاً محبة للثأر" (4). ولكن أكان يتوقع منها ألا تحاول استرجاع سيليزيا التي اغتصبها؟ أما الأخوان جونكور فرأيا فيها "ذهناً متوسطاً جيداً يرافقه قلب محب، وإحساساً سليماً بالواجب، وقدرات مذهلة على العمل، وحضوراً قوياً وجاذبية غير عادية... أما حقيقية لشعبها" (5). وكانت غاية في اللطف مع كل من لم يهاجم إمبراطوريتها أو إيمانها؛ وعلى سبيل المثال نذكر استقبالها الحار لأسرة موتسارت في 1768 (6). وكانت أما فاضلة، ورسائلها لأبنائها نماذج في الرقة والمشورة الحكيمة، ولو أستمع إليها يوزف لما مات إنساناً فاشلاً، ولو أتبعته ماري أنطوانيت نصيحتها لكان من الجائز أن يُعفى رأسها من الجبلوتين.

لم تكن ماريا تريزا ملكة "مستبدة مستنيرة". فهي لم تكن مستبدة. وفي رأي فولتير "أنها وطدت ملكها في جميع القلوب بدمائة طبع وشعبية لم يؤتتها غير قلة من أسلافها، وقد ألغت المراسم والقيود من بلاطها... ولم ترفض مقابلة إنسان، ولم يبرح شخص حضرته غير راض" (7). ولم تكن قط مستبدة بالمعنى الذي يقصده فولتير، فقد أصدرت المراسيم المتعصبة ضد اليهود والبروتستانت، وظلت كاثوليكية صادقة إلى النهاية، وشهدت في هلع تسرب الشكوك الدينية إلى فيينا من لندن وباريس، وحاولت أن تصد هذا التيار بتشديد الرقابة على الكتب والدوريات، ومنعت تدريس الإنجليزية "لطابع هذه اللغة الخطر من حيث مبادئها الدينية والخلفية المفسدة" (8). ومع ذلك لم تتجُ تماماً من تأثير ذلك العداء للأكليروس الذي كان يكنه مستشاروها وابنها. فقد ذكروا لها أن ممتلكات الأكليروس الإقليمية

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> ماريا تريزا

وغيرها من أسباب الثراء تتزايد بسرعة نتيجة لتلميح الكهنة للمرضى المشرفين على الموت بأن في استطاعته التكفير عن آثامهم واسترضاء الله بالإيحاء ببعض الثروة للكنيسة، فإذا سارت الأمور على هذا المنوال فلا بد أن يأتي قريباً ذلك اليوم الذي تصبح فيه الكنيسة-التي هي فعلاً دولة داخل الدولة-سيده على الحكومة. وكانت أديرة الراهبات والرهبان تتكاثر فتقضي الرجال والنساء على الحياة النشطة وتعفي المزيد من الثروة من الضرائب. وكان الصبايا يغرین بنذر أنفسهن للرهينة قبل أن يبلغن السن التي يدركن فيها مغزى التكريس مدى الحياة وقد بلغ تسلط الأكليروس على التعليم حداً تشكل معه كل عقل نام على أن يدين بولائه الأعلى للكنيسة لا للدولة. واستسلمت الملكة لهذه الحجج استسلاماً حملها على الأمر ببعض الإصلاحات الهامة. فحظرت وجود الكنسيين عند كتابة الوصايا. وأنقصت عدد المؤسسات الدينية، وأمرت بفض الضرائب على جميع الثروة الدينية. وحرمت النذر للرهينة قبل سن الحادية والعشرين. وحظرت الكنائس والأديرة إيواء المجرمين بمقتضى "حق اللجوء". وأمرت بالألا يعترف بأي منشور بابوي في المملكة النمساوية قبل أن يحصل على تصديق الإمبراطورة. واخضع ديوان التفتيش لإشراف الحكومة، لا بل أنه في الواقع ألغى. وأعيد تنظيم التعليم تحت إدارة جوهارت فان سفيتين (طبيب الملكة) والأب فرانتس راوتنشاوخ، وأحل العلمانيون محل اليسوعيين في كثير من كراسي الأساتذة(9)، وأخضعت جامعة فيينا للإدارة العلمانية وإشراف الدولة، وروجت المناهج فيها وفي غيرها بهدف التوسع في تعليم العلوم والتاريخ(10). وهكذا سبقت الإمبراطورة التقيية إلى حد ما الإصلاحات الكنسية التي سيقوم بها ابنه الشكاك. وكانت مثلاً في الفضيلة في زمن نافست فيه قصور الدول المسيحية الأسنانة في تعدد الزوجات. ولعل الكنيسة كانت مستخدمة إياها حجة وبرهاناً على فضل التمسك بالعقيدة لولا أن أغسطس الثالث ملك بولندا ولويس الخامس عشر ملك فرنسا وكلاهما كاثوليكي كان أشره العشاق

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> ماريا تريزا

استكثراً من النساء. ولم تقف أرسنقراطية فيينا بها. فقد فر الكونت أركو إلى سويسرا مع خليلته، وهربت الكونتسية أستراهانسي إلى فرنسا مع الكون فون در شولنبورج، وكان الأمير فون كاونتي يصحب خليلته في تلك الفترة في مركبته، فلما عاتبته الإمبراطورة قال لها "سيدتي، لقد أتيت لأتحدث عن شؤونك لا عن شؤوني(11)" ونظرت ماريا تريزا باشمنزاز إلى هذا التحلل، وأصدرت مراسم قاسية لفرض الوصية السادسة على الشعب. وأمرت بتطويل تتانير النساء في أسفلها وقمصانهن في أعلاها(12). ونظمت جيشاً من ضباط العفة حولت لهم القبض على أي امرأة يشتبه في احترافها البغاء. وشكا كازانوفاً من أن "تعصب الإمبراطورة وضيق عقلها جعل الحياة شاقة على الأجانب بوجه خاص(13)".

ويرجع الفضل في كثير من نجاحها إلى وزرائها الأكفاء. فقد قبلت إرشادهم وكسبت إخلاصهم. وظل المير فون كاونتز منوطاً بالشؤون الخارجية رغم فشل سياسته "قلب الأحلاف"، وقد أخلص في خدمة الإمبراطورية أربعين عاماً. وغير لودفيج هاوجنتز من الإدارة الداخلية، وأعاد رودلف شونك تنظيم الاقتصاد. هؤلاء الرجال الثلاثة أدوا للنمسا ما أداه ريشليو وكولبير من قبل لفرنسا، والواقع أنهم خلقوا دولة جديدة، أقوى بما لا يقاس من المملكة المختلة النظام التي ورثتها ماريا تريزا.

بدأ هاوجنتز بإعادة بناء الجيش الإمبراطوري. وكان يعتقد أن هذا الجيش انهار أما الانضباط البروسي لأنه كان مؤلفاً من وحدات مستقلة يجمعها ويقودها نبلاء شبه مستقلين، واقتراح وأنشأ جيشاً ثابتاً قوامه 108.000 محارب يخضعون لتدريب موحد وإشراف مركزي. ولكي يمول هذا الجيش أوصى بفرض الضرائب على النبلاء والكهنة كما تفرض على العامة، واحتج النبلاء والكهنة، وتصدت لهم الإمبراطورة بشجاعة وفرضت عليهم ضريبة ملكية وضريبة دخل. وامتدح فرديريك عدوته إدارية كفنأ، "لقد نظمت ماليتها تنظيماً لم يبلغه أسلافها قط، ولم تقتصر على تعويض

صفحة رقم : 13414

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> ماريا تريزا

ما فقدته بالزول عن أقاليم لمملكي بروسيا وسردينيا بالإدارة الحسنة بل أنها زادت من دخلها زيادة كبيرة(14)". وواصل هاوجنتز جهوده لتنسيق القانون، وتحرير القضاء من تسلط النبلاء، وإخضاع أمراء النبلاء لإشراف الحكومة المركزية. وأديع في 1768 قوانين موحدة. وكان شونك يجاهد أثناء ذلك لبيث النشاط في الاقتصاد الخامل. فالصناعة كانت تعرقل مسيرتها الاحتكارات التي حابت النبلاء، ولوائح النقابات الحرفية التي ظلت سارية حتى 1774، على أن لنتز كلن بها رغم هذا مصانع للصوف تضم 26.000 عامل، وتفوقت فيينا في صناعة الزجاج والخزف الصيني، وتصدرت بوهيميا سائر أقطار الإمبراطورية في عمليات التعدين. وكان في النمسا والمجر مناجم منتجة، ففي غاليسيا رواسب ملحية كبيرة، وكانت المجر تستخرج من الذهب كل عام ما قيمته سبعة ملايين جولدن. وحمى شونك هذه الصناعات بالرسوم الجمركية، لأنه كان لزاماً أن يتحقق للنمسا، المشتبكة في حروب متكررة، اكتفاء ذاتي في السلع الضرورية، فالتجارة الحرة كالديمقراطية ترف لا يتأتى إلا في الأمن والسلام.

ومع ذلك ظلت الإمبراطورية زراعية إقطاعية. ذل أن الإمبراطورية شأنها في ذلك شأن فرديريك، لم تجرؤ وهي تواجه الحرب على المجازفة بالتفسخ الاجتماعي الذي قد يحدث نتيجة لمهاجمة الإشراف الراسخين في امتيازاتهم. وقد ضربت المثل الطيب بالغاء القنية في أراضيها، وفرضت على أعيان المجر المتغترسين مرسومياً يخول للفلاح أن ينتقل ويتزوج ويربي أبناءه كما يشاء، وأن يستأنف أحكام سيده الإقطاعي أمام محكمة المقاطعة(15). على أن طبقة الفلاحين في المجر وبوهيميا كانت رغم هذه المسكنات في فقر قريب من فقر فلاحي روسيا. وكانت الطبقة الدنيا في فيينا تعيش في فقر تقليدي، بين القصور البانخة والأوبرات المتقنة والكنائس الضخمة توزع الأمل على البشر.

صفحة رقم : 13415

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> ماريا تريزا

وكانت فيينا بادئة في منافسة باريس وضواحيها في الأبهة الملكية. فكان قصر شونبرن (الربيع الجميل) الواقع خارج المدينة مباشرة يحوي 495 فدانا من الحدائق، مخططة (1753-75) على غرار فرساي، بسياجات شامخة مستقيمة، ومغارات غربية وبرك متناسقة، وتماثيل بديعة من نحت دونر وبيير ومعرض وحوش وحديقة نباتات، وعلى رابية في خلفية "جلوربيت" بناها في 1775 يوهان فون هونبرج-مبنى مقنطر معمد في طراز رومانيسكي خالص. أما قصر شونبرون ذاته، وهو مجمع ضخم من 1441 حجرة، فقد صممه يوهان برنهارت فشر فون أرلخ في 1965، ولكنه ترك ناقصاً في 1705. فكلفت ماريا تريزا نيكولوبا كاسي بتصميمه من جديد، واستؤنف العمل فيه عام 1744 وأكمل عام وفاة الإمبراطورة (1780). وكان في داخله قاعة كبرى طولها 141 قدماً لها سقف روكوكي الطراز رسمه جريجوريو جوليليمي (1761). وكان قصر شونبرون مقراً للبلاط من الربيع إلى الخريف. وبلغ عدد أفراد الحاشية الآن 2400. واقتضت رعاية الخيل والمركبات استخدام مائتين وخمسين سائساً وخادماً. وبلغت جملة نفقة صيانة القصر وملحقاته 4.300.000 وجولدن غب العام (16). أما الملكة ذاتها فقد مارست القصد في النفقة واعتذرت عن بهاء قصرها بضرورته لمراسم الحكم الملكي. وعوضت عن ذبح حاشيتها بسخائها في أعمال البر. ذكرت مدام دستال في معرض حديثها عن النمسا بعد جيل "إن عناصر البر هناك تنظم بكثير من الترتيب والسخاء، فالإحسان الخاص والعام يصرف بروح سامية من وكل شيء في هذا العدل... وكل شيء في هذا البلد يحمل طابع حكومة أبوية حكيمة متدينة (17)". ولم يكد يوجد أثر للتسول رغم فقر الشعب، وكانت الجرائم قليلة نسبياً. (18) ووجد أفراد الشعب مسراتهم البسيطة في التزاور، واللقاء والاختلاط في الميادين، والابتعاد في البساتين الوارفة الظلال والتمشي في

صفحة رقم : 13416

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> ماريا تريزا

طريق البراير الذي يحفه الشجر، والتنزه في الريف، أو في أدنى طبقاتهم-طرب لمرأى المعارك الضارية لتنظيم بين حيوانات تنتزور جوعاً. وأجمل منه هذه الرقصات لا سيما المنويت التقليدية، ففي هذه الرقصة نادراً ما كان الرجل والمرأة يتلامسان، فكل حركة تحملها التقاليد والقاعدة، وتؤدي بانضباط ورشاقة. أما الموسيقى فكان نصيبها في حياة فيينا من البر بحيث تطالبا بتناولها في فصل خاص بها. وبالقياس إلى هذا كله كان الأدب ضعيفاً فجاً فلم يكن للنمسا التي سيطرت عليها المقدسات نصيب في حركة "شتورم فوند درانج" التي أثارت ألمانيا. ولم تكن ماريا تريزا راعية للعلم ولا للأدب البحت. ولم يكن في فيينا صالونات أدبية، ولم يختلط المؤلفون والفنانون والفلاسفة بالنساء والنبلاء والساسة كما في فرنسا. لقد كان مجتمعاً ساكناً، فيه ما في أساليب العيش القديمة المحسوبة من سحر وراحة، أنفذ من ضجيج الثورة وعجيجها ولكن أعوزته فتنة الأفكار المتحدية. وكانت صحف فيينا الخاضعة لرقابة دقيقة عوائق غبية للفكر، وربما باستثناء "الفيرر تسابتونج" التي أسست في 1780. أما مسارح فيينا فكان ديدها الأوبرا للأرستقراطية والبلاط، أو الملاهي الغليظة لعامة الشعب. كتب ليوبولد موتسارت يقول إن "شعب فيينا في جملته لا يشعر بالحب لأي شيء جاد أو معقول، بل إن أفراده لا يفهمونه. وفي مسارحهم البراهين الوفيرة على أن الهراء المطلق دون غيره هو الذي يرضيهم كالرقصات والمنوعات

المسرحية الخفيفة (البرلسك) والتهرجات وحيل الأثباح والأعيب الشيطان" (19). ولكن بابا مونسارت كان قد خيب أمله استقبال فيينا لولده.
هذا الخليط من الممثلين والموسيقيين والعامّة والأقنان والبارونات ورجال البلاط والكنيسة حكمته الإمبراطورة العظيمة بسهر الأم واهتمامها الشديد. وكان زوجها فرانسوا اللوريني قد توج إمبراطوراً في 1745، ولكن مواهبه وجهته إلى التجارة لا الحكم. فنظم الصناعات، وزود الجيوش النمساوية بالحل والخيول والسلاح، وباع الدقيق والعلف لفردريك

صفحة رقم : 13417

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> ماريا تريزا

بينما كان هذا مشتتاً في حرب مع النمسا (1756)(20)، وترك إدارة الإمبراطورية لزوجته. على أنه في الأمور الزوجية كان يتشبه بحقوّه، وقد أنجبت له الإمبراطورة التي أحبته رغم خياناته ستة عشر طفلاً (21). وربتهم في محنة وصرامة، وأكثر من تعنيفهم، وأعطتهم من جرعات الفصيلة والحكمة ما جعل ماري أنطوانيت تبتهج بالفرار إلى فرساي، أما يوزف فكان يتسلى بالفلسفة. ودبرت الخطط بمهارة لتحصيل على مراكز مريحة لأبنائها الآخرين، فجعلت ابنتها ماريا كارولينا ملكة على نابلي، وابنتها ليوبولد دوقاً أكبر لتسكانيا، وأبنتها فرديناند حاكماً على لمبارديا. وكرست نفسها لإعداد ولدها البكر يوزف للاضطلاع بالتبعات الجسام التي ستخلفها له، وراقبت في قلق تطوره أثناء التعليم والزواج، وزعزع الفلسفة وخطوب الحب، حتى أتى الوقت الذي رفعتة في نشوة من المحبة والتواضع وهو في الرابعة والعشرين ليتربع بجوارها على عرش الإمبراطورية.

صفحة رقم : 13418

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> يوزف في مرحلة النمو

3- يوزف في مرحلة النمو

1741 - 1765

كانت قد وكلت اليسوعيين بتعليمه، ولكنها في سبق لأفكار روسو طلبت أن يعلم كما لو كان يلهو. (22) فلما ناهز الرابعة شكت من أن "ولدي يوزف لا طاقة له على الطاعة" (23) ولا غرور فالطاعة ليست لهواً. ذكر السفير البروسي حين كان يوزف في السادسة "القد كون فكرة مغرورة عن منصبه" ولجأت ماريا تريزا إلى التهذيب وفرض التقوى، ولكن الصبي وجد الطفوس الدينية مملّة، وأنكر الأهمية التي يعلقها الناس على العالم فوق الطبيعي. فحسبه العالم الذي يعيش فيه ويرث جزءاً منه. وما لبث أن سئم إتباع العقائد السنوية وأكتشف ما في فولتير من فتنة. وفيما عدا ذلك لم يكن يهتم اهتماماً يذكر بالأدب، ولكنه شغف بالعلوم والاقتصاد والتاريخ والقانون الدولي. ولم يتخلص قط مع الزمن من غطرسة صباه

صفحة رقم : 13419

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> يوزف في مرحلة النمو

وكبريائه، ولكنه ترعرع وأصبح فتى وسيماً يقظاً لم تباعد أخطاؤه بعد بينه وبين أمه. فكان في أسفاره يكتب لها رسائل تفيض رقة بنوية حارة. فلما بلغ العشرين عين عضواً في مجلس الدولة (شنتاسرات). ولم يلبث (1761) أن وضع ورقة تحمل أفكاره في الإصلاح السياسي والديني وقدمها إلى أمه، وظلت هذه الأفكار جوهر سياساته إلى نهاية حياته. وقد أشار على الإمبراطورة بأن تنشر التسامح الديني في ربوع مملكتها، وتقلص سلطة الكنيسة، وتخفف عن الفلاحين أعباء الإقطاع، وتسمح بحرية أكبر في انتقال السلع والأفكار. (24) وطلب إليها أن تقلل من نفقة البلاط ومراسمه، وتريد من نفقة الجيش. وقال إن على كل عضو في الحكومة أن يعمل ليستحق راتبه، وإن من الواجب فرض الضرائب على الإشراف شأنهم شأن سائر الشعب. (25) وكان أثناء ذلك يتعلم جانباً آخر من الحياة. ذلك أن لويس الخامس عشر كان قد عرض حفيدته إيزابللا البارسية عروساً تصلح للدوق الأكبر، كجزء من اتفاق عكس الأحلاف. وبدأ أن الحظ حالف يوزف: فايزابللا فتاة في الثامنة عشر جميلة ذات خلق طيب باستثناء ميلها للاكتئاب. وفي 1760 جاءت عبر الألب في قافلة يجرها ثلاثمائة جواد. واحتفل بالزفاف في مهرجان باذخ، وسعد يوزف بأن يجد بين ذراعين مخلوقاً بهذا الحسن. ولكن إيزابللا كانت عميقة الإيمان باللاهوت الذي تلقته، ولم تجد لذة في كل الهبات التي حبتها بها الحياة، بل تاقته إلى الموت. كتبت إلى أختها في 1763 تقول "أن الموت رحيم، ولم أفكر فيه يوماً أكثر مما أفكر فيه الآن. وكل شيء يوقظ في الرغبة في أن أموت سريعاً. علم الله كيف أتمنى أن أترك حياة تهينه تعالى كل يوم... ولو كان مسموحاً للمرء أن يقتل نفسه لما ترددت في ذلك" (26). وفي نوفمبر 1763 أصيبت بالجذري، ولم يبد منها أي تشجيع للأطباء الذين حاولوا شفاءها، فما انقضت خمسة أيام حتى ودعت الحياة. أما يوزف الذي أحبها عميقاً فلم يفق من هذه اللطمة.

صفحة رقم : 13420

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> يوزف في مرحلة النمو

وبعد شهر أخذه أبوه إلى فرنكفورت-على-المين ليتوج ملكاً على الرومان-وهي الخطوة التقليدية إلى العرش للإمبراطوري. وهناك انتخب في 26 مارس 1764 (وكان الشاب جوته بين الجمع الحاضر)، وفي 3 إبريل توج. ولم يستمتع بالمراسم المطولة، والخدمات الدينية، والخطب، وشكا في خطاب لأمه من "الهراء والحماقات البالية التي كان لزاماً علينا أن نستمع إليها طوال اليوم. أنه يقتضي جهوداً جبارة أن أمنع نفسي من مصارحة هؤلاء السادة بملغ ما في عملهم وكلامهم من بلاهة." ولم يكف خلال هذا كله عن التفكير في الزوجة التي فقدها. "علي أن أبدو في غاية الابتهاج رغم ما يعتصر قلبي من ألم...أنني أحب الوحدة. ومع ذلك يجب أن أعيش بين الناس..وعلني أن أثير طوال النهار وأفوه بأحاديث كلها لغو وتفاهة(27)". ولا بد أنه أحسن إخفاء مشاعره، لأن أخاه ليوبولد قرر أن "ملكنا-ملك الرومان-ساحر دائماً، رائق المزاج دائماً، مرح، كيس، مؤدب، وهو يكسب جميع القلوب(28)". فلما عاد إلى فيينا أبلغ بضرورة زواجه ثانية، ذلك أن استمرار الحكومة المنتظم اقتضى فيما يبدو استمرار أسرة هابسبورج. واختار كاونتز زوجه له هي يوزيفا البافارية، لأن كاونتز كان يأمل أن يضيف بافاريا إلى ملك النمسا. ووقع يوزف مشروع الزواج الذي وضعه له كاونتز، وبعث به، وكتب إلى دوق بارما (والد ايزابيللا) وصفاً ليوزيفا قال فيه "إنها مخلوق صغير قصيرة بدنية تجردت من سحر الشباب، على وجهها دمامل وبقع حمراء وأسنان منفرة. فاحكم بنفسك ما كلفني هذا القرار..ألا رفقاً بي، ولا يفتر حبك لابن لك قد دفن في قلبه إلى الأبد صورة معبودته رغم أن له زوجة ثانية"(29). وقد زف يوزف إلى يوزيفا في بواكير عام 1765. وحاولت أن تكون له زوجة صالحة، ولكنه زهد فيها سرّاً وعلانية. وقاست في صمت، ثم ماتت بالجذري في 1767. ورفض يوزف أن يتزوج مرة أخرى. وكرس الآن مل بقي من حياته للحكم وفيه مزيج محزن من الفتور والإخلاص، من المثالية والغرور.

صفحة رقم : 13421

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> الأم وولدها

4- الأم وولدها

1765 - 1780

طلت ماريا تريزا فترة محطمة الجسد والعقل بعد موت الإمبراطور فرانسوا الأول (18 أغسطس 1765). وشاركت خليلته الحزن عليه، وقالت لها: "يا عزيزتي الأميرة؛ لقد فقدت كلتانا الكثير". (30) وقصت شعرها، وتصدقت بصيوان ثيابها، ونبذت كل أنواع الخلي ولبست السواد إلى يوم مماتها. وسلمت شؤون الحكم ليوزف ورددت حديث الاعتكاف في أحد الأديرة. على أنها عادت إلى الحياة العامة لخشيبتها من أن يكون وريثها الطائش غير كفاء للحكم؛ ثم وقعت في 17 نوفمبر إعلاناً رسمياً بالمشاركة في الحكم. واحتفظت بالسلطة العليا في الشؤون الداخلية للنمسا والمجر وبوهيميا؛ أما يوزف فتقرر باعتباره إمبراطوراً أن يناط به الشؤون الخارجية الجيش؛ ثم الإدارة والمالية

بسلطة أقل؛ ولكنه في الشؤون الخارجية قبل إرشاد، كاوتنز، وفي جميع الميادين خضعت قراراته لمراجعة الإمبراطورة. وقد خفف احترامه وحبه لأنه من حدة شغفه بالسلطة. فلما أشرفت على الموت تقريباً بالجدري في 1767 لزم سريرها إلا نادراً؛ وأذهل الحاشية بعمق قلقه وحزنه. وأخيراً أقنعت هذه الهجمات الثلاث التي أصاب بها المرض الأسرة المالكة الأطباء النمساويين بإدخال التطعيم ضد الجدري. وأقلق الابن النخب أمه بالحاح أفكاره المطالبة بالإصلاح. ففي نوفمبر 1765 أرسل إلى مجلس الدولة مذكرة لا بد أنها أفرغت قراءها:

"رغبة في الاحتفاظ بالمزيد من كفاءة الرجال القادرين على خدمة الدولة سأصدر أمراً مهماً قال البابا وجمع الرهبان في العالم يحرم انقطاع أي من رعاياي للعمل الكنسي قبل... سن الخامسة والعشرين. فالعواقب والوخيمة للجنسين-التي كثيراً ما تتجم عن النذور المبكرة خليك بها أن تفتعنا بنفع هذه الترتيب، فضلاً عن المبررات المتصلة بالدولة. وينبغي أن يكون التسامح الديني والرقابة المعتدلة على المطبوعات،

صفحة رقم : 13422

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> الأم وولدها

والكف عن المحاكمة على الأخلاق وعلى التجسس في خصائص الناس ينبغي أن يكون هذا كله من مبادئ الحكم الأساسية. إن الدين والأخلاق هما ولا شك من بين أهداف الملك الرئيسية". ولكن غيرته يجب ألا تتجاوز الحد إلى عقاب الأجانب وتحويلهم عن دينهم. فالعنف لا جدوى منه في مسائل الدين والأخلاق؛ إنما الحاجة إلى الإقناع. أما عن الرقابة فينبغي أن نكون شديدي التنبه لما يكتب ويبيع ولكن تفتيش جيوب الناس وحقائبهم ولا سيما الأجانب إجراء متطرف في الغيرة. ومن اليسير أن نثبت أن كل كتاب محرم يوجد الآن في فيينا رغم الرقابة الصارمة على المطبوعات الآن، وفي وسع أي إنسان أن يغريه هذا التحريم أن يشتريه بمثلي ثمنه..

"ويجب دفع الصناعة والتجارة قدماً بحظر جميع البضائع الأجنبية فيما عدا التوابل، وبالغواؤ الاحتكارات، وإنشاء مدارس تجارية، وبالقضاء على الوهم الذي يزعم أن الاشتغال بالتجارة لا يتفق مع النبالة.

وينبغي تقرير حرية الزواج، حتى ما ندعوه الآن بالزواج غير المتكافئ. فلا القانون إلهي ولا الطبيعي يحرمه، فالتحيز وحده هو الذي يوهنا بأنتي أعظم قدراً لأن حدي كان كونتاً، أو لأنني أملك رفاً وقع عليه شارل الخامس. أننا لا نرث من آباءنا غير الوجود البدني، إذن فالملك أو الكونت أو البرجوازي أو الفلاح كلهم سواء(31)".

ولا بد أن ماريا تريزا ومستشاريها قد شموا ريح فولتير أو "الموسوعة" في هذه المقترحات. وكان على الإمبراطور الشاب أن يسير الهويماً، ولكنه تقدم. فنقل إلى الخزانة عشرين مليون جولدن نقداً وسندات وأملاكاً خلفها له أبوه يف وصيته، ثم غير الدين القومي بفائدة أربعة في المائة بدلاً من ستة. وباع أراضي الصيد والقمص التي كانت للإمبراطور المتوفى، وأمر بذبخ الخنازير البرية التي كانت هدفاً وأداة تدمير لمحاصيل الفلاحين. وفتح البراير وغيره من البساتين للشعب رغم احتجاجات النبلاء ولكن بموافقة أمه(32).

صفحة رقم : 13423

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> الأم وولدها

وفي 1769 صدم الإمبراطور والبلاط بذهابه إلى نايسي في سيليزيا وقضائه ثلاثة أعوام أيام (25-27 أغسطس) في مناقشات ودية مع فردريك الأكبر أعدى أعداء النمسا. وكان قد أخذ عن ملك بروسيا فكرة الملك "الخدم الأول للدولة". وأعجب بإخضاع فردريك الكنيسة للدولة، والتسامح مع شتى المذاهب والديانات، وحسد بروسيا على تنظيمها العسكري وإصلاح شرائعها. وقد شعر كلا الرجلين أن الوقت حان لإغراق خلافتهم في اتفاق وقائي ضد روسيا الصاعدة. وكتب يوزف لأمه يقول "بعد العشاء...دخنا ودار حديثنا حول فولنير(33)" ولم يكن الملك البالغ من العمر آنذ سبعة وخمسين عاماً فكرة طيبة عن الإمبراطور ذي الثمانية والعشرين. كتب يقول "لقد اتخذ الملك الشاب مظهر الصراحة الذي ناسبه تماماً... أنه رغب في أن يتعلم، ولكنه لم يؤت من الصبر ما يتيح له أن يعلم نفسه، ومنصبه الرفيع يجعله سطحياً والطمع الذي لا حد له ينهش قلبه..وله من الذوق ما يكفي لقراءة فولنير وتقدير مزاياه(34). وقد حمل المنذر بالخطر، الذي حققته كاترين الثانية في روسيا، كاوننتز على ترتيب اجتماع ثانٍ مع فردريك. والتقى الملك والإمبراطور والأمير في تويشتات بمورايفيا في 3-7 سبتمبر 1770. ولابد أن يوزف تطور تطوراً كبيراً خلال ذلك العام، لأن فردريك كتب الآن إلى فولنير يقول "أن الإمبراطور الذي نشئ في بلاط متعصب قد نبذ الخرافة، واتخذ العادات البسيطة رغم أنه ربي في جوف مترف، وهو متواضع رغم ما يحرق له من بخور، وهو مع شوقه للعظمة والمجد يضحى بأطماعه في سبيل واجبه البنوي(35). وكان هذان اللقاءان جزءاً من تربية يوزف السياسية. وقد أضاف إليها زيارة ممتلكاته وفحصه مشكلاتها وإمكاناتها بنفسه. ولم يزرها بوصفه إمبراطور بل سافر مثل عامة الناس يركب جواداً. وتجنب

صفحة رقم : 13424

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> الأم وولدها

المراسم ونزل في الفنادق بدلاً من قصور الريف. وحين زار المجر في 1764 و1768 لاحظ فقر الأبنان المدقع وصعق حين رأى في أحد الحقول جثث أطفال ماتوا جوعاً. وفي 1771-72 رأى مثل هـ 11 في بوهيميا ومورايفيا وكان حينما ذهب يسمع أنباء أو يشهد الأدلة على خشية الإقطاعيين وجوع الأبنان. وكتب يقول "إن الموقف الداخلي لا يصدق ولا يوصف، أنه يفطر القلوب(36)". فلما عاد إلى فيينا سخط على التحسينات التافهة التي ينويها مستشارو الإمبراطورة فقال "إن الإصلاحات الصغيرة لن تجدي قتيلاً، إذ لابد من تغيير في الكل". واقترح البدء بالاستيلاء على بعض الأراضي الكنسية في بوهيميا ليبنى فوقها مدارس وملاجئ ومستشفيات. وبعد نقاش طويل اقنع المجلس بأن يصدر (1774) قانوناً ميسراً يقلل وينظم حجم تشغيل أنان (الذي كان البوهيميون يسمونه روبوتا) الواجب عليهم للسيد الإقطاعي وقاوم إقطاعيو بوهيميا والمجر، وهب الأبنان البوهيميون في ثورة غير منظمة، فأخضعتهم قوات الجيش. ولامت ماريا تريزا ابنها على هذه الضجة الكبرى فكتبت لعاملها في باريس مرسي دارجنتو: "إن الإمبراطور الذي يسرف في شعبيته قد أفرط في الحديث خلال لرحلاته المختلفة...حول الحرية الدينية وتحرير الفلاحين. وقد أحدث هذا كله الاضطراب في جميع ولايتنا الألمانية...فليس الفلاح البوهيمي وحده هو الذي يخشى منه، بل المورافي والستيري والنمساوي أيضاً، لا بل أنهم في قسمنا يجرعون على التماذي في أشد الوقايات(37)". وزاد توتر العلاقات بين الابن والأم (1772) حين انظم يوزف إلى فردريك وكاترين الثانية في التقسيم الأول لبولندا. فاحتجت على اغتصاب أمة صديقة وكاثوليكية. وبكت حين أقتعها يوزف وكاوننتز بعد إلحاح بإضافة توقيعها إلى

الاتفاق الذي أعطى شطراً من بولندا للنمسا. وقد علق فردريك بخبث "أنها تبكي، ولكنها تأخذ(38)". على أنها كانت مخلصاً في أسفها كما نرى من خطابها لولدها فرديناند "كم من مرة جاهدت لأتجنب اشتراكي في عمل يلوث ملكي

صفحة رقم : 13425

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> الأم وولدها

كله؟ ليت الله يمنحني الإغفاء من تبعته في عالم آخر. إنه يثقل قلبي ويعذب ذهني، ويشيع المرارة في أيامي(39). وقد تأملت خلق ولدها في خوف ومحبة. "إنه يحب الاحترام والطاعة، ويرى المعارضة شيئاً كريهاً لا يكاد يحتتمل... وكثيراً ما يكون غير مراعى لشعور الآخرين... وحيويته الكبيرة المترابطة تقضي إلى رغبة عاتية في أن ينال ما يريد بكل دقائقه... أن لولدي قلباً طيباً. ومرة أنبته بمرارة:

"حين أموت أأدع نفسي بأنني سأظل حية في قلبك، بحيث لا تخسر الأسرة والدولة بموتي... أن تقليدك (لفردريك) ليس بالأمر السار. فهذا البطل... هذا الفاتح-أله صديق واحد؟... أية حياة هذه التي تتعدم فيها الإنسانية. أياً كانت مواهبك فليس أن تكون جربت كل شيء. حذار من الوقوع في خطيئة الحق؟ إن قلبك ليس شريراً إلى الآن، ولكنه سيكون كذلك. لقد حان الوقت للكف عن التلذذ بكل هذه الملاحظات الطريفة، هذه الأحاديث الذكية البارعة التي لا هدف لها إلا السخرية من الغير... إنك عابث تتظاهر وأنت في الواقع لست إلا مقلداً عديم التفكير حين تحسب نفسك مفكراً مستقلاً(40)".

وكشف يوزف عن جانبه من الموقف في خطاب إلى ليوبولد:
"لقد بلغت شكوكنا وعدم ثقتنا هنا قمة لا نستطيع تخيلها. فالواجبات تتراكم كل يوم ولا شيء يعمل. وأنا أكدح كل يوم حتى الخامسة أو السادسة لا يتخلل ذلك غير ربع ساعة أتناول فيها الطعام وحيداً، ومع ذلك لا شيء يحدث. فإن أسباباً تافهة، ودسائس طالما كنت ضحيتها تسد الطريق، وكل شيء أثناء ذلك يذهب إلى الشيطان. أنني أهديك منصباً بوصفي الابن البكر(41)".

وقد احتقر الرجال الذين شاخوا في خدمة أمة. ولم يؤيده غير كاونتز، ولكن في حذر يعيظه.

صفحة رقم : 13426

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> الأم وولدها

وأما الإمبراطورة المسنة فقد استمعت إلى أفكار ابنها الثورية في دعر. وصارحته برأيها:
"إن أهم مبادئك السياسية هي: 1- إطلاق الحرية في ممارسة الدين، وهو ما لا يستطيع ملك أو أمير كاثوليكي السماح به دون أن يتحمل تبعات ثقيلة. 2- القضاء على طبقة النبلاء القنينة... 3- الدفاع عن الحرية في كل شيء وهو مبدأ يتردد كثيراً جداً... أنني بلغت من الشيخوخة حداً لا يستطيع معه تقبل أفكار كهذه، وأسأل الله ألا يجربها خلفي أبداً. أن

التسامح الديني، وعدم الاكتراث واللامبالاة هما بالضبط يكبح الجماع؟ لا ضابط ولا المشنقة ولا دولاب التعذيب.. إنني أتكلم سياسياً لا كمسيحية. فما من شيء أُلزم وأنفع من الدين. أتريد السماح لكل إنسان بأن يسلك على هواه؟ وإذا لم يكن هناك عادة ثابتة، وخضوع للكنيسة، فأين ترانا نكون؟ ستكون النتيجة قانون القوة.. ليس لي من أمنية إلا أن أستطيع حين أموت الانضمام إلى أسلافي متعربة بأن ابني سيكون عظيماً تقياً كأجداده، وأنه سيقلع عن حججه الباطلة، وعن الكتب الشريفة، وعن الاتصال بأولئك الذين أغووا روحه على حساب كل شيء ثمين مقدس، لا لشيء إلا لإقامة حرية موهوبة لا يمكن.. أن تقضي لغير الخراب الشامل(42)".

ولكن إذا كان ثمة شيء يتوق إليه يوزف فهو حرية الدين. ربما لم يكن ملحداً كما خاله بعضهم(43)، ولكنه كان قد تأثر تأثيراً عميقاً بأدب فرنسا. وكانت جماعة من رجال الفكر النمساويين وقد ألفت فعلاً في 1772 حزب التنوير (44). وفي 1772 نشر جورجي بيسينيبي المجري في فيينا مسرحية تردد أفكار فولتير، وقد قبل الدخول في الكاثوليكية إرضاءً لماريا تريزا، ولكنه ارتد إلى العقلانية بعد موتها(45). ولا ريب أن يوزف كان على علم بهذا الكتاب المشهور المسمى "الوضع الكنسي والقانوني لبابا روما" (1763)، الذي أكد فيه أسقف كاثوليكي بارز تخفي تحت اسم فيرونويوس، من جديد سمو المجامع

صفحة رقم : 13427

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> الأم وولدها

العامية على الباباوات، وحق كل كنيسة قومية في أن تحكم نفسها. ورأى الإمبراطور الشاب في ثروة الكنيسة النمساوية الموطدة الأركان عقبة كؤوداً في طريق التطور الاقتصادي، وفي سيطرة الكنيسة على التعليم، المعوق الأكبر لنضج العقل النمساوي. وفي يناير 1770 كتب إلى شوازيل:

"أما عن خطتك للتخلص من اليسوعيين فأنا موافق عليها موافقة تامة.. ولا تسرف في الاعتماد على أمي، فإن التعلق الوثيق باليسوعيين صفة موروثية في أسرة الهابسبورج... على أن لك صديقاً في كاونتز، وهو ينفذ ما يشاء من الإمبراطورة(46)".

ويبدو أن يوزف استعمل نفوذه في روما ليوصل كلمنت الرابع عشر إلى الخطوة النهائية، وقد أبهجه إلغاء البابا للطائفة 1773(47).

ولو عرفت ماريا تريزا من خطابات ولدها مبلغ انحرافه إلى معسكر "الفلاسفة" لصعقت. لقد بذلت قصارها لتمنع حل جمعية اليسوعيين، ولكن كاونتز أقنعها بالامتنال لرأي سائر الدول الكاثوليكية. كتبت إلى صديقة لها تقول "إنني مغمورة يائسة لما أصاب اليسوعيين. لقد أحببتهم وأكرمتهم طوال حياتي، ولم أر قط فيهم غير كل شيء بناء للروح(48)". وقد عطلت تنفيذ الأمر البابوي بتعيين لجنة لدراسة. وأتيح لليسوعيين النمساويين الوقت لنقل أموالهم ومقتنياتهم الغالية وأوراقهم من البلد. وصودرت أملاك اليسوعيين، ولكن الإمبراطورة حرصت على أن يلتقي أعضاء الطائفة المعاشات والثياب وشتى العطايا.

ووسع اغتباط يوزف الواضح بحل جماعة اليسوعيين الهوة بين الأم وولدها. ففي ديسمبر 1773 انهارت تحت وطأة التوتر وتوسل إليها أن تعفيه من كل مشاركة في شؤون الحكم. وأفزعها اقتراح مذهل كهذا، وكتبت إليه نداء مؤثراً للمصالحة:

"يجب أن أعترف بأن قدراتي، ووجهي، وسمعي، وحذقي كلها

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> الأم ولدها

تندهور سريعاً وبأن الضعف الذي ارتعت منه طوال حياتي -وهو التردد في اتخاذ القرارات- سيرافقه الآن، تنبيط المهمة والافتقار إلى الخدام الأوفياء فالجفوة منك ومن كاونتز وموت مستشاري المخلصين، والمروق عن الدين، وتدهور الأخلاق، والرطانة التي تجري على كل لسان، والتي لا أفهمها كل هذا يكفي لسحقي. أنني أقدم لك كامل ثقتي، وأسألك أن تنبهني لأي خطأ ارتكبه. أعن أما... تعيش في وحدة، وسيقضي عليها أن ترى كل جهودها وأحزانها ذهبت أدراج الرياح. قل لي ما تريد أفعله لك(49)".

وتصالح معها، ووافقت المرأة التي حاربت يوماً فردريك وأوقفت تقدمه، مؤقتاً على أن تتعاون مع تلميذ فردريك المعجب به. واستخدما معا ثروة اليسوعيين المصادرة في الإصلاح التعليمي. وفي 1774 أصدر "نظاماً عاماً للتعليم" أحدث تنظيمياً جديداً أساسياً للمدارس الابتدائية والثانوية. فوفرت مدارس متدرجة للتعليم الإلزامي لجميع الأطفال، وسمحت بدخول البروتستنت واليهود طلاباً ومعلمين، وقدمت لتلاميذها التعليم الديني في كل دين، ولكنها وضعت الإشراف في أيدي موظفين حكوميين. وسرعان ما أصبحت مدارس الشعب Voikschulen هذه تعد خير المدارس في أوروبا. وأنشئت مدارس لتدريب المعلمين، وتخصصت المدارس العليا Hauptschulen في العلوم والتكنولوجيا، وعلمت المدارس الثانوية Gymnasien اللاتينية والعلوم الإنسانية، وخصصت جامعة فيينا إلى حد كبير للقانون والعلوم السياسية والإدارة، وأدت وظيفة دار الحضارة لموظفي الدولة. واستبدل بإشراف الكنيسة على التعليم إشراف من الدولة لا يقل عنه صرامة ودقة.

واستمر التعاون بين الأم ولدها فألغى التعذيب (1776). ولكن الاتفاق بينهما حطمته أحداث السنة التالية. ذلك أن يوزف كان بنوي منذ زمن زيارة باريس- لا ليري "الفلاسفة" وسيدفي في الصالونات، بل ليدرس موارد فرنسا جيشها وحكومتها، وليرى ماري أنطوانيت،

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> الأم ولدها

وليقي الروابط التي ربطت ربطاً واهياً جداً بين الأعداء القدامى في حلفهما الهش. فلما مات لويس الخامس عشر، وبدا أن فرنسا على شفا التمزق، كتب يوزف إلى ليوبولد يقول: "أنني قلق على أختي فسيكون عليها أن تلعب دوراً شاقاً(50)". ووصل باريس في 18 إبريل 1777، وحاول أن ينكتم زيارته فتخفى تحت اسم الكونت فون فلكشتين وأشار على الملكة الشابة المرححة بأن تطلع عن الإسراف والطيش، وصيغ وجنتيها وشفتيها، وأصغت إليه في ضجر. وحاول ولكنه فشل في كسب لويس السادس عشر إلى حلف سري لكبح توسع روسيا(51). وتحرك بسرعة في أرجاء العاصمة و"لم تمض أيام حتى عرف عنها أكثر مما سيرعف لويس السادس عشر طوال حياته(52)". وزار الأوتيل ديو ولم يخف دهشته لسوء الإدارة غير الإنسانية لذلك المستشفى. وفتن أهل باريس، وذعرت حاشية فرساي، حين وجدت أرفع ملوك أوروبا يمشي في زي مواطن بسيط، ينكلم الفرنسية كأحد أبنائها. ويلتقي بجميع الطبقات دون تكلف. أما عن نجوم الأدب فقد التمس أولاً لقاء روسو ويوفون. وحضر أمسية عند مدام نكير، والتقى بجبون، ومارمونتيل،

والمركيزة دودفان، ومما يشرفه أن رباطة جأشها وشهرتها أربكتها أكثر مما أربكها مقامه الرفيع، فالعمى يسوي بين الناس لأن الشالات يتكون نصفها من الثياب. وحضر جلسة لبرلمان باريس وأخرى للأكاديمية الفرنسية. وأحس الفلاسفة أنهم وجدوا في النهاية الحاكم المستنير الذي تطلّعوا إليه أداة لثورة سليمة. وبعد أن قضى يوزف شهراً في باريس تركها في جولة بالأقاليم فسافر شمالاً إلى نورمنديّة، ثم على الساحل الغربي إلى بايون، ثم تولوز، فمونييه فرساليا، ثم صعد مع الرين إلى ليون وشرق إلى جنيف. ومر بفرنيه دون أن يزور فولتير، إذ لم يشأ أن يغضب أمه أو يرتبط جهازاً برجل يخاله الشعب النمساوي والملك الفرنسي شيطاناً مجسماً. وكان حريصاً على استرضاء أمه، لأن عشرة آلاف مورافي هجروا

صفحة رقم : 13430

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> الأم وولدها

الكتلثة في غيبته إلى المذهب البروتستنتي، وكان رد الفعل من جانب ماريا تريزا-أو مجلس الدولة-على هذه الكارثة اتخاذ إجراءات تذكرنا بغارات الفرسان على بيوت الهجونات أيام لويس الرابع عشر. فقبض على زعماء الحركة وشنتت اجتماعات البروتستنتت وجند المتحولون العنيدون في الجيش وفرضت عليهم الأشغال الشاقة وأرسلت نساؤهم إلى الملاجئ. فلما عاد يوزف إلى فيينا قال لأمه محتجاً "أن السبيل لإعادة هؤلاء الناس إلى الكتلثة أن تجعلي منهم جنوداً أو ترسلهم إلى المناجم أو تستخدمهم في الأشغال العامة... يجب أن أعلن صراحة... أن المسئول عن هذا الأمر، أيا كان، هو أحقر خدامك، وهو لا يستحق مني غير الازدراء، لأنه أحق وقصير النظر(53)". وأجابت الإمبراطورة بأنها ليست مصدره هذه المراسيم بل مجلس الدولة، ولكنها لم تسحبها. وجاء وفد من المورافيين البروتستنتت لمقابلة يوزف، فأمرت ماريا تريزا بالقبض على أفرادها. وكانت الأزمة بين الأم وولدها تسير إلى طريق مسدود حتى أقنعها كاونتز بسحب المراسيم. فأوقفت الاضطهادات، وسمح لمعتقي البروتستنتية بممارسة عبادته الجديدة شريطة أن يكون ذلك في هدوء ببيوتهم. وتوقف صراع الجيلين برهة.

ثم استؤنفت لما مات مكسمليان يوزف ناخب بافاريا في 30 ديسمبر 1777 دون أن يعقب بعد حكم طويل رخي. وفي الصراع على وراثته أيد يوزف الثاني ناخب بالاتين شارل (كارل) تيودور شريطة أن ينزل للنمسا عن جزء من بافاريا، وأيد فردريك الأكبر شارل دوق ترافا بيروكن، وأعلن أنه سيقاوم أي محاولة من النمسا لتملك أرض بافاريا. وحذرت الإمبراطورة ولدها من تحدي ملك بروسيا الذي لم يزل منيعاً لم يقهر بعد. ولكن يوزف تجاهل نصيحته، وأيده كاونتز، وجردت قوة نمساوية على بافاريا. وأمر فردريك جيشه بدخول بوهيميا والاستيلاء على براغ ما لم يجلب النمساويون عن بافاريا. وقاد يوزف جيشه الرئيسي ليدافع عن براغ، واقترب الجيشان العدوان، ولاح أن حرباً نمساوية بروسية أخرى وشيكة على سفك

صفحة رقم : 13431

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> الأم وولدها

دماء الأخوة. أما فردريك فقد تجنب خوض المعركة منتهكاً بذلك السوابق والتوقعات، واكتفى بإطلاق جنوده على المحاصيل البوهيمية ليأتوا عليها، وأما يوزف فقد تردد في الهجوم لعلمه بشهرة فردريك قائداً للجيش. وكان يأمل أن تخف فرنسا لنجدته، وأرسل على وجه السرعة نداءات لماري أنطوانيت. فأرسل له لويس السادس عشر خمسة عشر مليون جنيه، ولكنه لم يستطع أن يفعل أكثر من هذا، لأن فرنسا كانت قد وقعت (6 فبراير 1778) حلفاً من المستعمرات الأمريكية الثائرة، وكان عليها أن تعد نفسها لخوض حرب مع إنجلترا. وأقام يوزف في معسكره نهياً للغيظ والقلق بينما نهبته اليواسير في الطرف الآخر.

وهنا قبضت ماري تيريزا على أزمة الأمور انتفاضة أخيرة من انتفاضات الإدارة، وأرسلت إلى فردريك عرضاً للصلح (12 يوليو) ووافق فردريك على للتفاوض، وأدعن يوزف لأمه، وتوسط لويس ملك فرنسا وكاترين فيصرة روسيا في النزاع. وانتهى الأمر بمعاهدة تشن (13 مايو 1779) التي عزت يوزف بأربعة وثلاثين ميلاً مربعاً من بافاريا، ولكن شارل تيودور استأثر بكل ما بقي من تلك الإمارة الناجية، وهكذا توحدت بافاريا وبالاتينات، واتفق على أن تحصل بروسيا على بايرويت وانسباخ بعد موت حاكمها الأبتنر. وادعى كل فريق أنه المنتصر.

هذه الأزمة الثالثة بين فردريك المسن والإمبراطورة المسنة قضت عليها. وكانت لا تتجاوز الثالثة والستين عام 1780، ولكنها كانت بدينة مصابة بالربو، أضعف قلبها حربان وستة عشر حملاً فضلاً عن الهم المقيم. وفي نوفمبر حاصرها مطر غزير وهي راكبة عربية مكشوفة، فأصابها سعال خبيث، ولكنها أصرت على أن تقضي الغد تعمل في مكتبها. وقد قالت مرة "إنني ألوم نفسي على الوقت الذي أنفقه في النوم" (54) وقضت أيام مرضها الأخيرة جالسة على كرسي إذ استحال عليها تقريباً أن تتنفس وهي راقدة. واستدعى يوزف أخوته وأخواته إلى جوارها، وقام على رعايتها في محبة. وطلق الأطباء كل أمل في شفائها فارتضت أن تتناول الأسرار الأخيرة. وفي ساعاتها

صفحة رقم : 13432

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> الأم وولدها

الأخيرة قامت وتعثرت من كرسيتها إلى سريرها. وحاول يوزف أن يريحها فقال "إن جلالتك في سيئ". فأجابت "نعم، ولكنه وضع مناسب للموت فيه". وماتت في 29 نوفمبر 1780.

صفحة رقم : 13433

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> المستبد المستتير

1780 - 1790

بعد أن حزن يوزف حزناً صادقاً على أم أدرك الآن مبلغ عظمتها، شعر بأنه حر في أن يكون نفسه، وأن يبدأ بتنفيذ أفكاره المتفتحة في الإصلاح. كان الحاكم المطلق للنمسا والمجر وبوهيميا والأراضي الولاثة الجنوبية، وكان أخوه ليوبولد مطيعاً له في تسكانيا، وأخته ماري أنطوانيت معينة له في فرنسا. وأحس إحساساً عميقاً بالفرص التي واتته في قمة حياته وذروة سلطته.

فأي رجل كان يومئذ؟ لقد بلغ الأربعين، ما زال في ربيع الحياة وكان وسيماً جداً حين يغطي رأسه الأضلع بباروكة. وقد وهب عقلاً يفظاً نشطاً نشاطاً شبيه محموم، متمشياً مع جيله، ولكن هداه شيئاً إمامه بالتاريخ وخلق البشر. وكان دائم الإحساس بشح الوقت، لذلك لم يخطئ إلا بسبب التسرع والعجلة، ولما أخطأ عن سوء قصد. وتروي القصص الكثيرة عن رفاهة حسه بخطوب غيره واستعداده لرفع المظالم التي يمكن رفعها (55). وقد أباح للشعب الالتقاء به على قدر ما سمحت به واجباته. وكان يعيش عيشة البساطة ويرتدي من الثياب ما يرتديه أي جندي، ويتجنب الظهور في ثياب الملوك الفاخرة. وكان مبراً كفيردريك من مخاللة الخليلات، ولم يكن له "أصدقاء إغريق"، وكان عمله غرامه الذي استغرقه. وكان كفيردريك يبذل من الجهد في عمله أكثر مما يبذل أي مساعد له. وكان قد أعد نفسه إعداداً صادقاً أميناً للقيام بتبعاته، فلم يسافر للمتعة والظهور، بل للملاحظة والدراسة وفحص صناعات الكثير من الأقطار وفنونها وبيوتها الخيرية ومستشفياتها ومحاكمها ومؤسساتها البحرية والحربية؛ ونظر بعينيه هو إلى شعوب مملكته وطبقاتها ومشكلاتها. فصحت نيته الآن، على قدر ما وسع رجلاً واحداً،

صفحة رقم : 13434

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> المستبد المستنير

على تحقيق أحلام الفلسفة. "ما دامت قد ارتقت العرش، ولبست أعظم تاج في العالم، فقد جعلت الفلسفة المشرع لإمبراطوريتي" (56) ونظر الفلاسفة في كل أرجاء أوروبا إلى المغامرة الكبرى وكلهم تطلعات صادقة. وكانت أولى الصعوبات في طريقه أن يجد الأعوان الذين يشاركونه حلمه. فأكثر الذين ألوا إليه بالوراثة كانوا من الطبقات العليا التي اختزلت إصلاحاته امتيازاتهم. لقد أيده كاونتر وفان شفيتين، وشجعه اثنان من المستشارين الخصوصيين - هما كوالنتبورج وجيلر - واثنتان من أساتذة جامعة فيينا هما مارتيني وزونفيلس -، ولكن الأعوان الأدنى مرتبة من هؤلاء لم يكونوا سوى بيروقراطيين تجمدوا في المألوف من العادات، واستراحوا إلى الموروث من التقاليد، وقاوموا التغيير تلقائياً. وراح يوزف في عجلة لا تسمح بالمجاملة يعامل هؤلاء الأعوان معاملة الخدم، ويربكههم بحشد من الأوامر، ويطلب إليهم إبلاغه عن أي خطأ جسيم يرتكبه مساعدوهم (57)، ويغرقهم بالاستبيانات ويطلبهم بجهد لا يفتر كجهدهم. ووعدهم هم وأراملهم بمعاشات يستحقونها بعد خدمة عشر سنين، فشكروه، وأنكروا أساليبه، وسدروا في كبرياتهم. وأفضت ثقة يوزف بعدالة أهدافه إلى ضيقه بكل نقد أو نقاش. وكتب إلى شوازيل (الذي كان الآن ينعم بالنقاعد) "عش أسعد مما أستطيع إنني لم أكد أعرف السعادة، وسوف أشيخ قبل أن أكمل الطريق الذي رسمته لنفسني" (58). ولكن أجله قصر عن أن يدرك سن الشيخوخة.

وقد نبذ كل تفكير في الديمقراطية، فقد أحس أن أفراد شعبه غير مستعدين لإصدار الحكم الصائب في السياسة، وأنهم باستثناءات قليلة سيعتقون أي آراء يتسلمونها من سادتهم أو كهنتهم. وحتى الملكية الدستورية بدت له غير مباشرة بخير؛ فبرلمان كالبرلمان الإنجليزي سيكون مجتمعاً مغلقاً من كبار ملاك الأرض والأساقفة الذين يتحدون أي تغيير جنري. وكان من المسلمات في رأي يوزف أن الملكية المطلقة دون غيرها هي القادرة على تحطيم جدار العادات وكسر أغلال التعصب وحماية الضعفاء السذج من الأقوياء الماكريين.

صفحة رقم : 13435

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> المستبد المستنير

ومن ثم تناول كل مشكلة بشخصه، وأصدر توجيهات نظمت كل مناحي الحياة. ورغبة في تشجيع الأمثال لأوامره أنشأ نظام جاسوسية أفسدت عليه حسناته. وكان من مقومات حكمه المطلق أن يجند بالإلزام جيشاً دائماً كبيراً لا يعتمد على أمراء الإقليم، يغذيه بالتجنيد الإلزامي العام، ويخشنه بالتدريب البروسي. وراوده الأمل في أن يقوى هذا الجيش من صوته في المسائل الدولية، وأن يلزم فردريك حدوده، وربما أعانه على التهام بافاريا وطرد الترك من البلقان المجاورة (ولا عجب فقد كان في نفس فيلسوفنا شيء من شهوة التملك). ثم عين لجنة من الفقهاء لإصلاح القوانين وتنسيقها، وبعد أن قضت اللجنة ست سنوات من العمل الشاق نشرت قانوناً مدنياً جديداً للإجراءات القضائية. فخففت العقوبات، وألغيت عقوبة الإعدام. (في إنجلترا المعاصرة كانت مائة جريمة لا تزال تعتبر من الجرائم الجسمية) ولم تعد الشعوذة ولا السحر ولا الارتداد جرائم يعاقب عليها القانون. وحرمت المبارزة؛ واعتبر قضاء المبارز على غريمه في مبارزة جريمة قتل. وجعل الزواج عقداً مدنياً، وأحل الزواج بين المسيحيين وغير المسيحيين، وقضى بإمكان الحصول على الطلاق من السلطة المدنية. أما القضاة فلا يعينون إلا بعد تريب خاص وبعد اجتيازهم امتحانات عسيرة، وألغى الكثير من المحاكم الكنسية. وتقررت مساواة جميع الأشخاص أمام القانون، وصعق النبلاء حين عرض أحد أفرادهم في المشهورة وحكم على آخر بكنس الشوارع. وألغيت القنية بسلسلة من المراسيم، 1781-85. وكفل للجميع حق تغيير المسكن أو المهنة، وحق التملك، وحق الزواج بالرضى المتبادر، وأعد محامون خصوصيون لحماية الفلاحين في حرياتهم الجديدة. وفقد البارونات حق محاكمة مستأجريهم جنائياً، ولكن نحاشياً لضعف الإنتاج في ضياع البارونات، أجاز للسادة أن يقتضوا أقتانهم السابقين بعض الخدمات المألوفة. وشجع يوزف الصناعة الرأسمالية لاقتناعه بأن لوائح الطوائف الحرفية معطلة للتطور الاقتصادي، ولكنه عارض في الاستكثار من الآلات مخافة (أن تحرم الألوفا من أرزاقهم) (59). وأعفى العمال الصناعيين من التجنيد،

صفحة رقم : 13436

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> المستبد المستنير

ولكنهم تدمروا من إنقاصه أيام العطلات المقدسة. ثم رفع من مقام التجار ورجال الصناعة والمصارف وخلق عليهم ألقاب الشرف وأسباب التكريم القومي. وألغى المكوس الداخلية أو خففها، ولكنه أبقى على الرسوم الحامية الجمركية المرتفعة على الواردات. ورفع رجال الصناعة الوطنيون الأسعار بعد أن حصلوا على التحصن من المنافسة الأجنبية وانتخبوا السلع الرديئة(60). وساء بروسيا وسكسونيا وتركيا فرض هذه التعريفات فأوصدت أبوابها في وجه حاصلات الإمبراطورية. وفقد الألب والأودر والدانوب بعض تجارتها. وحاول يوزف أن يزيد حركة التجارة البرية مع ثغور الأدرياتيكى بشق طريق جديد هو طريق يوزفينا الذي اخترق جبال الألب الكرنولييه، وأسس شركة هند شرقية وراوده الأمل في تطوير التجارة مع الشرق وأفريقيا وأمريكا بطريق ثغري فيومي وتريبته الحرين. وفي 1784 أبرم معاهدة تجارية مع تركيا، ولكن بعد ثلاث سنوات أغلقت حربته مع تركيا منافذ الدانوب إلى البحر الأسود وأفلس تجار الدانوب الواحد تلو الآخر.

وتشجيعاً لتداول رأس المال ألغى من القوانين التحريم القديم للفائدة، وأحل القروض بفائدة 5% ورقى مصرفياً يهودياً إلى رتبة البارونية. وقدم القروض الحكومية والاحتكارات الموقوتة إلى المشروعات الجديدة. واقتبس فكرة الفيزوقراطيين في فرض ضريبة واحدة تقع على الأرض فقط، وتتفاوت حسب الموقع والخصوبة، ويؤديها ملاك الأرض كبارهم وصغارهم واقتضى المشروع مسح جميع أراضي الإمبراطورية، فتم هذا بنفقة بلغت 120.000.000 جولدن دفعها الملاك. وقضى القانون الجديد بأن يحتفظ الفلاح بسبعين في المائة من محصوله أو دخله، ويعطي للدولة اثني عشر في المائة، ويقسم الباقي بين الفروض الإقطاعية والعشور الكنسية، وكان قبل ذلك يدفع للدولة أربعاً وثلاثين في المائة وللملك تسعاً وعشرين في المائة، وللكنيسة عشرة في المائة، ولا يحتفظ لنفسه إلا بسبعة وعشرين في المائة(61). واحتج النبلاء بأن هذا التقسيم الجديد سيجلب عليهم الخراب، وفي المجر قاموا بثورة.

صفحة رقم : 13437

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> المستبد المستنير

وزاد عدد سكان النمسا والمجر وبوهيميا من 187.700.000 في 1780 إلى 21.000.000 في 1790(62). وقرر كاتب معاصر أن الأكوخ المبنية بالأجر أخذت تحل محل الزرائب الريفية العتيقة، وأن الأجر يأخذ مكان الخشب في منازل المدن(63). وظل الفقر جاثماً على الصدور، ولكن مرسوماً إمبراطورياً صدر في 1781 أنشأ "مؤسسات للفقراء، يستطيع أي شخص عاجز عن التكسب أن يطالب بالمعونة منها دون أن يريق ماء الوجه. ومع أن يوزف كان من الناحية الرسمية "نائب المسيح" والمدافع عن الكنيسة المسيحية و"حامى فلسطين... والإيمان الكاثوليكي"، فقد شرع بمجرد تقليده زمام السلطة المطلقة في تقليص دور الكنيسة في أراضيه "المورثة"-أي النمسا والمجر وبوهيميا. ففي 12 أكتوبر 1781 أصدر مرسوم التسامح، وبمقتضاه تقرررت حرية البروتستنت والروم الأرثوذكس في أن يكون لهم معابدهم ومدارسهم واجتماعاتهم، وفي تملك الأملاك وامتتهان المهن الراقية، وشغل المناصب السياسية والحربية. وحث الإمبراطور الشعب على تجنب كل دواعي النزاع بسبب الخلافات المذهبية...ومعاملة من ينتمون لطائفة دينية أخرى بالود والالطف(64). وفي توجيه أصدره يوزف إلى فان زفيتن كشف في صراحة عن مصادر إلهامه: "إن التعصب قضي عليه في إمبراطوريتي التي قد يسعدها أنها لم تضح بأشخاص مثل كالاس وسرفن...أن التسامح هو ثمرة انتشار التنوير (Les Iumieres) الذي شاع الآن في جميع أرجاء أوروبا. وهو قائم على الفلسفة، وعلى عظماء الرجال الذي أسسوها...إن الفلسفة دون غيرها هي التي يجب أن تكون رائد الحكومات"(65).

على أنه كان لهذا التسامح حدود كما كان في مقال فولتير "عن التسامح" (1763)، فقد نبه بعض المستشارين يوزف إلى أن إزالة جميع الضوابط والقيود ستسفر عن نمو العقائد الجامحة نمواً مفرطاً، لا بل الإلحاد السافر، وأن هذا

سيفضي إلى المذاهب المتناحرة والفوضى الاجتماعية وامتهان كل سلطة فلما نما إليه أن يضع منات من البوهيميين جاهروا بالربوبية (1783) أمر بأن أي رجل يجهر بعقيدته هذه "يجب دون مزيد من التحقيق أن

صفحة رقم : 13438

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> المستبد المستنير

يجلد أربعاً وعشرين جلدة على ردفه بسوط من جلد ثم يصرف". وتكرر هذه العملية كلما تجدد الجهر بهذه العقيدة(66). ورحل بعض الغلاة من الربوبيين إلى المستعمرات العسكرية. وسترى في مكان لاحق إلى أي حد بلغت جهود يوزف في تحرير اليهود. وكان من نتائج مرسوم التسامح الزيادة السريعة في عدد من جهروا بالبروتستنتية في المملكة، من 74.000 في 1781 إلى 157.000 في 1786. ونمت حرية الفكر، ولكنها ظلت محصورة في الدوائر الخاصة. أما الماسون الأحرار الذين رسخت أقدامهم في النمسا فقد نظموا في فيينا (1781) محفلاً أنظم إليه الكثير من المواطنين البارزين، وقد حماه الإمبراطور نفسه (رغم ربوبيته المفهومة ضمناً). قال أحد أعضائه "كان هدف الجماعة إعمال حرية الضمير والفكر التي احتضنتها الحكومة هذا الاحتضان الموفق، ومكافحة الخرافة والتعصب في... طوائف الرهبان التي هي أهم سند لهذه الشرور(67)، وتكاثر المحافل الماسونية حتى بلغت ثمانية في فيينا وحدها، وأصبح من مجارة العصر أن ينتمي شخص إليها، وارتدى الجنسان الشعارات الماسونية، وألف موتسارت الموسيقى للحفلات الماسونية. وبمضي الوقت اشتبه يوزف في اشتعال هذه المحافل بالتأمر السياسي. ففي 1785 أمر بأن تندمج محافل فيينا في محفلين فقط، ولم يسمح بأكثر من محفل واحد في عاصمة إقليمية. وعين يوزف لجنة لتراجع قوانين الرقابة على المطبوعات. وفي 1782 نشر النتائج التي انتهت إليها في مدونة جديدة. فخطرت الكتب التي دأبت على مهاجمة المسيحية أو المحتومة على "عبارات لا أخلاقية وبيداءات قذرة"، ولكن حظرت أيضاً الكتب "المحتومة على أخبار المعجزات والأشباح والرؤى الخرافية وما إلى ذلك مما قد يقضي بعامة الناس إلى الإيمان بالخزعبلات ويثير الاشمئزاز في نفوس الدارسين"(68). وسمح بالمطبوعات المحتومة على انتقادات أو هجائيات ساخرة حتى لو هاجمت الإمبراطور، شريطة أن تحمل اسم المؤلف الحقيقي، وأن تخضع لقانون القذف. وأبيح للدارسين أن يقرءوا في المكتبات الكتب المدرجة في فهرس الكتب التي حرمتها الكنيسة

صفحة رقم : 13439

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> المستبد المستنير

الرومانية. وتعفى الكتب العلمية من الرقابة كلية، وكذلك الكتب الثقافية، شريطة أن تؤكد طابعها الثقافي سلطة معترف بها. وأبيح استيراد الكتب المؤلفة بلغات أجنبية وبيعت دون معوق. ووسعت الحرية الأكاديمية. فلما اتهم أربعة عشر

طالباً بجامعة انزبروك معلمهم أمام السلطان لأنه زعم أن العالم أقدم من ستة آلاف سنة، حسم يوزف الأمر بهذه العبارة السريعة الموجزة "يجب أن يطرد الطلاب الأربعة عشر، لأن أدمغة في فقر أدمغتهم لن تفيد من التعليم(69)". وأثارت النظم الجديدة الاحتجاجات الغاضبة من الكهنوت، فرد يوزف بإعطاء فيينا حرية النشر الكاملة (1787). وحتى قبل هذا التحرير أفاد ناشرو فيينا من التراخي في تنفيذ قانون 1782: فأغرقت النشرات والكتب والمجلات النمسا بالفحش أو ما يقرب من الفحش، وبكشف أسرار الراهبات، وبالهجومات على الكنيسة الكاثوليكية أو على المسيحية ذاتها.

وأحس يوزف أن واجبه أيضاً أن ينظم الشؤون الكنسية. ففي 29 نوفمبر 1781 أصدر مرسوماً أغلق عدداً كبيراً من أديرة الرهبان والراهبات التي "لا تدبر مدارس ولا تعنى بمرضى ولا تشتغل بدراسات". فأغلق 413 بيتاً دينياً من 2163 بيتاً دينياً في الأقاليم الألمانية (النمسا وستيريا وكارنثيا وكارنيتولا). وأفرج عن 27.000 من شاغليها البالغ عددهم 65.000 وقررت لهم معاشات، وأجرى مثل هذا الخفض في بوهيميا والمجر. قال يوزف "أن المملكة أشد فقراً وتخلفاً من أن تسمح لنفسها بتريف الإنفاق على العاطلين(70)". أما ثورة هذه المؤسسات المنحلة-التي بلغت نحو ستين مليون جولدن فقد أعلن أنها ملك للشعب، وصادرتها الدولة. وأعلن أن الأديرة الباقية لا يجوز لها أن تترث أملاكاً. أما طوائف الرهبان المتسولين فأمرت بأن تكف عن التسول ومنعت من قبول رهبان جدد. وألغيت جماعات الأخوان الدينية. وتقرر أن تسجل جميع الممتلكات الكنسية لدى الحكومة، التي حرمت بيعها أو تبادلها.

صفحة رقم : 13440

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> المستبد المستنير

ثم واصل يوزف جهوده ليخضع الأساقفة الكاثوليك لإشراف الدولة. فاشتراط على الأساقفة الجدد أن يقسموا يمين الطاعة للسلطات العلمانية. وتقرر ألا تجار أي لائحة أو مرسوم بابوي في النمسا إلا بإذن الحكومة. أما الأوامر البابوية الصادرة في 1362 و1713، التي دانت المهترطين والجانسينيين فتهمل. على أن يوزف نظم أبرشيات جديدة، وبنى الكنائس الجديدة، وقد الرواتب لإعانة طلاب القسوسة، وفتح مدارس لاهوتية جديدة ووضع لها برنامجاً يؤكد على العموم المعارف العلمانية كاللاهوت والطقوس سواء بسواء.

وأثارت هذه القوانين الأكليروس في كل أرجاء أوروبا. ورجا أحبار كثيرون يوزف أن يلغي مراسيمه المعادية للأكليروس. فلما لم يلق إليهم بالاهتمام بالجميل، فابتسم ومضى في طريقه. وأخيراً اتخذ البابا بيوس السادس بشخصه، وكان رجلاً وسيماً منقفاً رقيقاً مغروراً، خطوة غير مألوفة، إذ غادر إيطاليا (27 فبراير 1782) وعبر الابنين والألب في الشتاء ووصل إلى فيينا (22 مارس) وقد عقد النية على الاتجاه برجاء شخصي للإمبراطور، وكانت هذه أول مرة منذ 1414 تطأ فيها أقدام أحد البابوات أرض ألمانيا. أما يوزف خرج من المدينة مع رفيقه في الشوكية كاونتر ليرافقا الحبر الأعظم إلى الأجنحة التي كانت تشغلها ماريا تريزا. وخلال إفاقة البابا كانت الجموع تحتشد كل يوم تقريباً أمام القصر الملكي التماساً لبركته. وقد وصفهم بعد ذلك يوزف بهذه العبارات:

غصت جميع ممرات القصر وسلامه بالناس، واستحال على الإنسان رغم مضاعفة عدد الحراس أن يحمي نفسه من كل الأشياء التي أتوا بها إليه ليباركها: أوشحة كتفيه، ومسبحات، وصور، وكان يتجمع لنيل البركة التي يمنحها من الشرفة سبع مرات في اليوم حشد من الناس لا يمكن أن يكون المرء فكرة عن ضخامته إلا إذا راه. وليس من المبالغة القول أنه تجمع مرة ستون ألفاً على الأقل. وكان المنظر غاية

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> المستبد المستنير

في الجمال، فقد أقبل الفلاحون وزوجاتهم وأبنائهم من مناطق تبعد عشرين فرسخاً. وبالأمس ديست امرأة تحت نافذتي مباشرة (71).

وكان تأثر يوزف بمناشدة البابا البليغة أقل من تأثره بهذا الدليل على سلطان الدين على العقل البشري، ومع ذلك واصل إغلاق الأديرة "حينما كان بيوس في ضيافته (73)". وحذره البابا تحذير المتنبئ. أنك إن مضيت في مشروعاتك المدمرة للإيمان وقوانين الكنيسة فإن يد الرب ستكون ثقيلة الوطأة عليك، وستعطلك في مسيرتك، وستحفر من تحتك هوة تبتلعك وأنت بعد في عنفوانك، وستضع حداً للملك الذي كان في وسعك أن تجعله ملكاً عظيماً مجيداً (73). وبعد شهر من أسباب التكريم والإخفاق عاد بيوس حزيناً إلى روما. وعقب ذلك عين الإمبراطور رئيساً لأساقفة ميلان رجلاً يدعى فسكونتي غير مقبول من الإدارة البابوية، ورفض البابا أن يصدق على التعيين، وأشرفت الكنيسة والإمبراطورية على القطيعة. ولم يكن يوزف مستعداً لمثل هذه الخطوة العنيفة، فهرول إلى روما (ديسمبر 1782) وزاد بيوس وأعلن ولاءه للكنيسة وكسب موافقة البابا على تعيين الدولة للأساقفة حتى في لمبارديه. وافترق الملك والحبر الأعظم على ود. ونثر يوزف ثلاثين ألف سكودي على جماهير روما، وهنق له القوم بصيحات الشكر "يحيا إمبراطورنا".

فلما عاد إلى فيينا واصل حركته الإصلاحية الدينية القائمة على فرد واحد. وبعد أن تحدى البابا كما تحداه لوثر (الذي يشبهه به الكثير من البروتستنت وهم معترفون بفضلهم)، وبعد أن هاجم الأديرة كما هاجمها هنري الثاني، شرع مثل كلفن في تطهير الكنائس، فأمر بإزالة لوحات النذور ومعظم التماثيل، وبكف المصلين عن لمس الصور وتقبيل الرفافة وتوزيع التمام... ونظم طول الخدمات الدينية وعددها، والملابس التي تغطي تماثيل العذراء، وطابع الموسيقى الكنسية، وتقرر أن تتلى الابتهالات مستقبلاً بالألمانية لا باللاتينية، وأن تحصل رحلات الحج

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> المستبد المستنير

والمواكب الدينية على موافقة السلطات المدنية، وانتهى الأمر بعدم التصريح إلا بموكب واحد لعيد القربان المقدس، وأحيط الشعب رسمياً بأنه لا داعي للركوع في الشوارع أمام أي موكب ديني حتى ولو حمل القربان المقدس، وكفي في هذه المناسبات خلع القبعات. وأخبر أساتذة الجامعات بأنه لا حاجة تدعوهم بعد اليوم إلى أن يقسموا بأنهم يؤمنون بعقيدة حمل العذراء غير المدنس.

ولم يستطع أحد أن يتشكك في إنسانية أهداف يوزف. فالثروة التي أخذها من الأديرة المستغنى عنها خصصها لإعانة المدارس والمستشفيات والمبرات، ولصرف معاشات الرهبان والراهبات الذين أخرجوا من أديرتهم، ولصرف إعانات إضافية لكهنة الأبرشيات الفقراء. وأصدر الإمبراطور سلسلة طويلة من الأوامر للنهوض بالتعليم، فكان على كل الجماعات المحتوية على مائة طفل بلغوا سن الالتحاق بالمدارس أن تمول مدارس أولية لهم. وتقرر أن يكون التعليم

الأولي إلزامياً وعماماً. ووفرة الأديرة أو الدولة مدارس للبنات وأعينت الجامعات في فيينا وبراغ ولمبرج وبست ولوفان، أما جامعات انزبروك وبرون وجراتز وفراببورج فحولت إلى معاهد Lyc(es) لتعليم الطب أو القانون أو لفنون العملية. وأنشئت مدارس للطب من بينها "اليوزفينوم" للطب والجراحة العسكريين. وأخذت فيينا تشق طريقها لتصبح من أرقى المراكز الطبية في العالم.

صفحة رقم : 13443

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> الإمبراطور والإمبراطورة

6- الإمبراطور والإمبراطورة

تضاعفت المصاعب في وجه مشروعات يوزف الثورية بسبب تنوع ملكه. لقد كان يعرف النمسا جيد المعرفة، ولكنه لم يدرك رغم أسفاره الشاقة مبلغ تغلغل السادة المجرين في حياة أمتهم الاقتصادية والسياسية، ولا أدرك كيف تستطيع وطنية الجماهير المجرية أن تتغلب على المصالح الطبقية. ولقد رفض عند تقلده الملك أن يتبع تقليداً جرى عليه السلف فيذهب إلى برسيورج ليتوج ملكاً على المجر، لأنه سيطلب في ذلك الحفل

صفحة رقم : 13444

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> الإمبراطور والإمبراطورة

بأن يقسم يمين الولاء للدستور المجري الذي يكرس أنظمة المجتمع الاقتصادية. ثم أغضب كل مجري حين أمر بنقل تاج القديس اسطفانوس حامي المجر من بودا إلى فيينا (1784). وكان قد أحل الألمانية لا المجرية محل اللاتينية لغة للقانون والتعليم في المجر. وأغضب رجال المال والأعمال المجرين حين عطلت رسومه الجمركية تصدير محاصيلهم إلى النمسا. ثم أنه صدم الكنيسة الكاثوليكية بتدخله في طقوسها التقليدية وبسماحه للجماعات البروتستنتية المجرية بالتكاثر من 272 إلى 758 في عام واحد (1783-84). ووقعت المجر في فوضى أصطرعت فيها الطبقات والقوميات واللغات والمذاهب.

وفي 1784 قام فلاحو قلاشيا (بين الدانوب والألب الترنسلفانية) بثورة عنيفة ضد سادتهم الإقطاعيين، وأشعلوا النار في 182 قصراً ريفياً للأشراف وستين قرية، وقتلوا 4.000 مجري، وأعلنوا أنهم يفعلون هذا كله برضى الإمبراطور. وعطف يوزف على كرههم للظلم الطويل (75)، ولكنه كان يحاول إنهاء الإقطاع سلمياً بالتشريع، وما كان في وسعه أن يسمح للفلاحين بتعجيل الأمور بالتحريق والتقتيل. وعليه فقد أرسل جنوده لقمع الثورة، وأعدم مائة

وخمسون من زعماء الثورة، وهدأت الثورة. ولامه النبلاء على الثورة، ولامه الفلاحون على فشلها. وتهيأ المسرح لثورة قومية على الإمبراطور في 1787.

وفي نوفمبر 1780 ذهب يوزف بشخصه ليدرس مشكلات الأراضي الواطئة النمساوية. فزار تامور ومونز وكورتراي وبيير وديكرك وأوستند وبروج وغنت وأودنارد وأنتوب ومالين ولوفان بروكسل. وقام برحلة جانبية إلى الأراضي الواطئة المتحدة. إلى روتردام، ولاهاي ولايدن وهارلم وأمستردام وأوترخت وسبا (حيث تغذى مع الفيلسوف رينال). وقد راعه التناقض بين رخاء هولندا والركود النسبي في الاقتصاد البلجيكي. وعزا هذا إلى نشاط رجال الأعمال الهولنديين وفرصهم، وإلى إقفال نهر الشلت في وجه تجارة المحيط نتيجة لمعاهدة مونستر (1648) فعاد إلى

صفحة رقم : 13445

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> الإمبراطور والإمبراطورة

بروكسل وعقد عدة اجتماعات لمحاولة تحسين التجارة والإدارة والمالية والقضاء. وفي يناير 1781 عين أخته ماريا كرستين وزوجها ألبرت دوق ساكستش حاكمين على الأراضي الواطئة النمساوية. وأدرك الآن لأول مرة مبلغ التضارب بين إصلاحاته والالتزامات الموروثة التي تمتعت بها الطبقات العليا في هذا البلد التاريخي. فكان إقليم من أقاليمها مثلاً، وهو برابانت، يملك مرسوماً للحريات يرجع تاريخه إلى القرن الثالث عشر ويعرف بـ "المدخل البهيج". وكان يتوقع من كل حاكم يدخل بروكسل أن يقسم يمين الولاء لهذا المرسوم، وجاء في إحدى موادده إنه لو انتهك الحاكم أي مادة منه كان لرعاياه الفلمنكيين الحق في أن يمتنعوا عن أداء أي خدمة له وأن يرفضوا طاعته. وطالبت مادة أخرى الملك بأن يحافظ على الكنيسة الكاثوليكية، في جميع امتيازاتها وممتلكاتها وسلطاتها الرأهنة، وأن يطبق جميع قرارات ترنت. وأشبه هذا الدستور كان يتعلق بها الأشراف والأكليروس في الأقاليم الأخرى. وعقد يوزف النية على ألا يسمح لهذه التقاليد بأن تتحدى إصلاحاته. وبعد أن قام بزيارة قصيرة لباريس (يوليو 1781) قفل إلى فيينا.

وفي نوفمبر بدأ يطبق مرسوم التسامح الديني على هذه الأقاليم. فجعل الأديرة البلجيكية مستقلة عن البابا، وأغلق عدداً منها وصادر إيراداتها. واحتج أساقفة بروكسل وأنتورب ومالين، ولكن يوزف واصل مسيرته ففرض على "بلجيكا" لوائح الخاصة بلوحات النذور والمواكب والطقوس الدينية. ثم سحب من الأساقفة حقهم في الإشراف على المدارس قائلاً "إن أبناء لاوي (أي الكهنة) ينبغي أن يكفوا عن احتكار عقول البشر" (76). ثم ألغى الامتيازات الخاصة التي طالما تمتعت بها جامعة لوفان. وأنشأ هناك مدرسة لاهوتية جديدة محررة من السيطرة الأسقفية، وأمر بأن يدرس فيها كل طالب بلجيكي القسوسية خمس سنين (77). وإذا كان توافقاً إلى تحسين حكومة الأقاليم، فقد أستبدل بالمجالس الإقليمية والمجالس الخاصة

صفحة رقم : 13446

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> الإمبراطور والإمبراطورة

الأرستقراطية القديمة (يناير 1787) مجلساً واحداً للإدارة العامة يرأسه مفوض يعينه الإمبراطور، ثم أهل هيئة قضائية موحدة علمانية محل المحاكم القائمة إذ ذاك، من إقطاعية وإقليمية وكنسية. وأعلن أن جميع الأشخاص أياً كانت طبقتهم سواسية أما القانون.

وأنظم الأشراف وكثير من البرجوازيين إلى الأكليروس في مقاومة هذه القوانين. ولم يلف من أعدائهم تلك الجهود العقيمة التي بذلها يوزف بإعادة فتح الشلت أما تجارة المحيط، فقد رفضت هولندا الإذن بها، وشاركتها الرفض فرنسا رغم توسلات ماري أنطوانيت. وفي يناير 1787 أخطر مجلس برابانت يوزف بأن لا سبيل إلى إحداث تغييرات في دستور الإقليم القائم إلا بموافقة المجلس، ومعنى ذلك في الواقع أنهم أخبروه أن حكمه للأراضي الواطنة النمساوية يجب أن يكون ملكية دستورية لا مطلقة. وتجاهل هو الإعلان، وأمر بتنفيذ مراسيمه. ورفض المجلس الموافقة على الضرائب ما لم تلقَ اعتراضاتهم الاهتمام. ثم تقجر الهياج في عنف اتسع نطاقه بحيث اضطرت ماريا كرسينا إلى الوعد بإلغاء الإصلاحات البغيضة (31 مايو 1787).

أين كان الإمبراطور خلال هذا الجو الهائج الماتج؟

كان يغزل كاترين الثانية دبلوماسياً، مؤمناً بأن التحالف مع روسيا سيعزل بروسيا ويشد أزر النمسا في حربها مع الترك. وكان يوزف حتى قبل موت أمه قد زار القيصرية في موجيليف (7 يونيو 1780) ومن هناك مضى إلى موسكو وسانت بطرسبورج. وفي مايو 1781 وقعت النمسا وروسيا تحالفاً تعهد فيه الطرفان بأن يخف الواحد لنجدة الآخر إذا هوجم.

فلما خيل إليه أن هذا الاتفاق سيثقل حركة الملك السبعيني فرديريك، عاد من جديد (1784) يعرض الأراضي الواطنة النمساوية على الأمير الناخب شارل تيودور بديلاً عن بافاريا. وكان العرض مغرياً للأمير، ولكن فرديريك استقر كل طاقاته ليفسد هذه الخطة. فحرك ثورة على

صفحة رقم : 13447

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> الإمبراطور والإمبراطورة

الإمبراطور في المجر وبلجيكا، وحرص دوق ترفاير وكن-الوريث لعرش بافاريا-على مقاومة هذا البديل، وبعث عملاءه ليقنعوا الأمراء الألمان بأن استقلالهم يتهدده التوسع النمساوي. وأفلح في أن ينظم (23 يوليو 1785) بروسيا وسكسونيا وهانوفر وبرونزيك وماينز وهسي كاسل وبادن وساكسي فيمار وجوتا ومكلنبورج وأنزباخ وانهالت في حلف أمراء Furstenbund تعهدوا فيه بمقاومة أي توسع للنمسا على حساب أي دولة ألمانية. واستجد يوزف ثانية بشقيفته في فرساي، واعترف يوزف بهزيمته أمام الثعلب العجوز الذي كان يوماً ما معبود شبابه. ولما تلقى في أغسطس 1786 نبأ موت فرديريك أعرب عن أسف مضاعف: "بوصفي جندياً يؤسفني رحيل رجل عظيم كان صانع جيل في فنون الحرب، وبصفتي مواطناً يؤسفني أن موته تأخر ثلاثين عاماً" (78).

أصبح الآن أمل الإمبراطور الوحيد في توسيع ملكه معقوداً على الانضمام إلى كاترين في حملة لتقسيم أملاك تركيا الأوروبية في ما بينهما. فلما خرجت قيصرية الروسية في يناير 1787 لتزور وترهب فتوحها الجديدة في الجنوب دعت يوزف ليلتقي بها في الطريق ويرافقها إلى القرم. ولكنه لم يوافق لتوه على اقتراحها بشأن حرب صليبية موحدة، وقال "عنما أريد سيليرنيا، والحرب مع تركيا لن تتلنيها" (79). ومع ذلك فحين أعلنت تركيا الحرب على روسيا (15 أغسطس 1787) وجد يوزف نفسه مكرهاً على خوضها، فقد ألزمه تحالفه مع كاترين أن يعينها في حرب "دفاعية". يضاف إلى هذا أن الفرصة أتحت الآن للنمسا بسبب اشتباك تركيا في الحرب اشتباكاً حرجاً لاسترداد الصرب

والبوسنة، وربما أيضاً للحصول على ثغر على البحر الأسود. وعليه ففي فبراير 1788 أرسل جنوده إلى الحرب وأمرهم بأن يستولوا على بلغراد. ولكن السويديين اغتتموا هذه الفرصة ليرسلوا قوة تهاجم سانت

صفحة رقم : 13448

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> الإمبراطور والإمبراطورة

بطرسبورج. واستدعت كاترين الجيش من الجنوب ليدافع عن عاصمتها. فلما خف على الترك ضغط الروس ركزوا قوتهم على النمساويين. وحين ذهب يوزف ليقود جيشه راه وقد أضعفته اللامبالاة وفرار الجند ومرضهم، فأمر بالتقهقر وعاد إلى فيينا يملؤه اليأس ويجلله العار. وسلم القيادة إلى لاودن، وهو من أبطال حرب السنين السبع وأنقذ المارشال العجوز شرف الجيش النمساوي باستيلائه على بلغراد (1789). ولما فشل هجوم السويد على روسيا عاد جنود كاترين يتدفقون على الجنوب وتباروا مع الأتراك في مذابح رهيبية تركت الحياء منهم أكثر قليلاً من أعدائهم. وكان يوزف مغتبطاً بأمل النصر العسكري الذي طال ارتقابه، وإذا ببروسيا وإنجلترا والسويد وهولندا تتدخل لمساعدة الترك خوفاً من توسع الروس. ووجد يوزف فجأة أن جميع أوربا البروتستنتية تقريباً قد اتحدت وأخذت تمتشق الحسام ضده. وعاد ثانية يستجد بفرنسا، ولكن فرنسا كانت في 1789 مشغولة بالثورة. ووقعت بروسيا التي يملك عليها فردريك وليم الثاني حلفاً مع تركيا (يناير 1790) وأرسلت العملاء لإذكاء الثورة على الإمبراطور في المجر والأراضي الواطنة النمساوية.

ورحبت المجر بهذه الدساتين لأنها كانت في ثورة سافرة على مراسيم يوزف في التجنيد الإجباري والضرائب وتغيير اللغة والإصلاح الديني. وفي 1786 دعا إمريش مالونجي المجريين إلى انتخاب ملك خاص بهم. وفي 1788 دبر رميجيوس فرانيو مؤامرة لجعل فردريك وليم ملكاً على المجر، وأفضى الكونتان أسترهاتي وكاروليي سر المؤامرة للإمبراطور فحكم على فرانيو بالسجن سنتين عاماً. وفي 1789 وجه مجلس الطبقات المجري إلى بروسيا نداء لتحرير المجر من سلطان النمسا. ولما بلغ نيا الثورة الفرنسية للمجر دوت صيحات المطالبة بالاستقلال في أرجاء البلاد. أما يوزف الذي شعر بالموت يسري في عروقه فلم يعد له من القوة ما يمكنه من الثبات على موقفه. وحثه أخوه ليوبولد على الاستسلام. وفي يناير 1790 أعلن ما يأتي:
"لقد قررنا أن نرد إدارة المملكة-أي المجر-إلى وضعها في 1780"

صفحة رقم : 13449

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> الإمبراطور والإمبراطورة

لقد أرسينا (الإصلاحات) بدافع الغيرة على الصالح العام مؤمنين أنكم بعد التجربة ستجدونها مبعث سرور لكم، بيد أننا الآن أقتنعنا أنفسنا بأنكم تؤثرون النظام القديم... ولكننا نريد أن يظل قانون التسامح نافذاً... وكذلك قانون الأفتان ومعاملتهم وعلاقتهم بسادتهم" (80).

وفي فبراير رد تاج القديس أسطفانوس إلى بودا وكان يلقي الترحيب والابتهاج من الجماهير في كل خطوة على الطريق. وهدأت الثورة.

أما الثورة في الأراضي النمساوية فقد انطلقت بكل قوتها لأنها شعرت هناك بحرارة الحرية الثورية في فرنسا المجاورة. وأبى يوزف المصادقة على الوعد الذي قطعه شقيقته لمجلس برابانت بإلغاء الإصلاحات التي كرهها. فأصدر الأمر بتنفيذها وأمر جنوده بإطلاق النار على أي حشود تقاومها، ففعلوا وقتل ستة من القائمين بالشغب في بروكسل (22 يناير 1788) وعدد غير معروف في أنتورب ولوفان. ودعا محام من بروكسل يسمى هنري فان دن نوت أفراد الشعب إلى التسلح والتطوع في جيش استقلال. وأيد الأكليروس النداء تأييداً إيجابياً، وأضيف إليه حافز لم يكن في الحسبان هو نبأ سقوط الباستيل، وسرعان ما احتشد في الميدان عشرة آلاف من الوطنيين وعلى رأسهم قائدة أكفاء. وفي 24 أكتوبر أذاع إعلان "للشعب البرابانتي" خلع يوزف الثاني من منصب الحاكم عليهم. وفي 26 أكتوبر هزمت قوة من الوطنيين الجنود النمساويين. واحتل الثوار المدينة تلو المدينة. وفي 11 يناير 1790 أذاعت الأقاليم السبعة قرار استقلالها، وأعلنت قيام جمهورية الولايات المتحدة البلجيكية، واتخذت اسمها هذا من القبائل البلجيكية التي دوخت قيصر قبل ثمانية عشر قرناً. وأسعد إنجلترا وهولندا وبروسا أن تعترف بالحكومة الجديدة. واستند يوزف بفرنسا، ولكن فرنسا ذاتها كانت مشغولة بخلع ملكها. وبدا أن كل العالم القديم الذي عرفه يوزف يتمزق وينهار. ثم إن الموت كان يدعو إليه.

صفحة رقم : 13450

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> الموت الأسود

7- الموت الأسود

كانت مرارة تلك الأشهر الأخيرة كاملة. فقد كانت المجر وبلجيكا تضطربان بالثورة، والأتراك يتقدمون، وجيشه متمرداً، وشعبه من النمساويين الذين أحبوه يوماً ما انقلبوا عليه منتهكاً لحرمة تقاليدهم ومعتقداتهم المقدسة. وندد به القساوسة ملحداً، وكرهه النبلاء لأنه حرر أفتانهم، وتصايح الفلاحون مطالبين بمزيد من الأرض، وكان فقراء المدن يتضورون جوعاً، ولعننت جميع الطبقات الضرائب والأسعار المرتفعة التي سببتها الحرب. وفي 30 يناير 1790 أغلى يوزف جميع الإصلاحات التي أمر بها منذ وفاة ماري تيريزا بعد أن ألقى السلاح مستسلماً، ولم يبقَ منها إلا على إلغاء القنينة.

ترى لم فشل؟ لقد قبل بملء الإيمان وصادق الثقة نظرية جماعة الفلاسفة القائلة بأن الملك الذي يتوافر له التعليم الجيد والنية الحسنة هو خير أداة للتنوير والإصلاح. وقد أوتي التعليم الجيد، أما النية الحسنة فقد شوهاها حبه للسلطة، وأخيراً غلبت لهفته على أن يكون فاتحاً حماسته لإجلاس الفلسفة على العرش. كان يفتقر إلى قدرة الفيلسوف على الشك، وكان من المسلمات لديه صواب وسائله كصواب غاياته. وقد حاول إصلاح الكثير جداً من الشرور في وقت واحد، وفي عجلة كبيرة، ولم يستطع الشعب أن يستوعب تعدد قراراته المربك. ولقد كان يأمر بأسرع مما يستطيع أن يقنع، وحاول أن يحقق في عشر سنين ما يحتاج تحقيقه إلى قرن من التعليم والتغيير الاقتصادي. والشعب أساساً هو الذي خذله. فقد تعمقت جذوره وترسخت في امتيازاته وأهوائه، وفي تقاليده وكنائسه، إلى حد منعه من أن يعطيه التفهم

والتأييد اللذين أصبح حكمه المطلق بدونهما عاجزاً لا حول له في مثل هذه الإصلاحات العسيرة. وأثر أفرادهم كنائسهم وقساوستهم وعشورهم على ضرائبه وجواسيسه وحروبهم. ولم يستطيعوا وضع ثقتهم في رجل يهزأ بأساطيرهم الحبيبة، ويضايق أساقفتهم، ويذل باباهم. وطوال هذه السنوات المرهقة بعد 1765 كان بدنه منمرداً على إرادته.

صفحة رقم : 13451

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> الموت الأسود

فلم تقوَ معدته على هضم سرعة عدوه، وقد حذرته مراراً ودون جدوى بحاجته إلى الراحة. وأنذره الأمير ديلين بأنه يقتل نفسه، وكان عليماً بهذا، ولكنه قال "وما الذي أستطيعه؟ أنني أقتل نفسي لأنني لا أستطيع أن استنفر الآخرين ليعملوا" (81). وكانت رنتاه مريضتين، وصوته ضعيفاً مكتوماً، وكان يشكو الدوالي وتدميع عينيه، والحمرة، والبواسير. وقد عرض نفسه لكل الأجواء في حربه مع الترك، وأصابته حمى الربيع كما أصابت الألوف في جيشه. وكان لا يقوى على التنفس أحياناً؛ "أن قلبي يخفق لأقل حركة" (82) وفي ربيع 1789 بدأ يتقيأ دماً تقريباً ثلاث أوقيات في الدفعة كما كتب لأخيه ليوبولد. وفي يونيو أصيب بالأم عنيقة في كليتيه. "إنني أتبع أشد نظم التغذية صرامة فلا أكل لحمًا ولا خضراً ولا مستحضرات ألبان، وغذائي الحساء والأرز" (83) ثم طلع له خراج شرجي وكان لا بد من شقه هو وبواسيره بمبضع الجراح. وأصيب بالاستسقاء. فدعا ليوبولد ليحضر ويتسلم شؤون الحكم. وقال: "الست أسف على التخلي عن العرش. كل ما يحزنني أن يكون عدد الناس السعداء قلة قليلة كهذه" (84). وكتب إلى الأمير ديلين "لقد قتلني وطنك. كان الاستيلاء على عنت عذابي وخسارة بروكسل هي موتي. اذهب إلى الأراضي الواطنة وأعدّها إلى ملكها، فإن لم تستطع فابق هناك. لا تصح بمصالحك من أجلي فأنت أب للأطفال" (85). ثم كتب وصيته وترك الهبات السخية لخدمته وللـ "سيدات الخمس اللاتي أطقن عشرته" (86). وتناول في استسلام أسرار الكنيسة الكاثوليكية الأخيرة وطلب الموت وفي 20 فبراير 1790 استجاب السماء وكان يومها في الثامنة والأربعين. واعتببت فيينا برحيله وقدمت المجر الشكر لله. أكان إنساناً فاشلاً؟ في الحرب نعم، بلا جدال. وقد وجد ليوبولد الثاني (1790-92) أن من الحكمة رغم انتصارات لاودن أن يبرم الصلح مع تركيا (4 أغسطس 1791) على أساس الوضع السابق للحرب. وإذ عجز عن تهدئة الأشراف المجرين فقد ألغى منح الحرية للأقنان. أما في بوهيميا والنمسا فقد احتفظ بمعظم الإصلاحات ولم تلغ مراسيم الصلح، ولم تفتح

صفحة رقم : 13452

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> حركة التنوير في النمسا -> الموت الأسود

الأديرة التي أغلقت، وظلت الكنيسة خاضعة لقوانين الدولة. وكان التشريع الاقتصادي قد حرر التجارة والصناعة وحفظهما. وانتقلت النمسا دون ثورة عنيفة من دولة وسيطة إلى أخرى عصرية، وشاركت في حيوية القرن التاسع عشر الثقافية المنوعة.

وكان يوزف قد كتب إلى كاونتز يقول "إنني لاقتناعي العميق بنزاهة نيأتي أرجو أن يبحث الخلف بعد موتي أعمالتي وأهدافي قبل أن يحكم علي وسيكون أميل وأزهر ومن ثم أكثر إنصافاً لي من معاصري" (88).

وقد اقتضى هذا البحث الخلف رداً طويلاً، ولكنه تعلم في النهاية أن يرى فيه رغم أسفه على أوتقراطيته وتعجبه. أكثر "المستبددين المستنيرين" جرأة ونظراً وإن كان أقلهم حكمة. وبعد أن ولى رد الفعل الذي جاء في عهد مترنيخ، أعيدت إصلاحات يوزف الثاني واحداً بعد الآخر. ووضع ثوار 1848 إكليلاً من الزهور على قبره اعترافاً بفضله.

صفحة رقم : 13453

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إصلاح الموسيقى -> مقدمة

الفصل الرابع عشر

إصلاح الموسيقى

إننا لا نتصور بسهولة يوزف الثاني موسيقياً وهو الرجل المتأهب للمعارك ومع ذلك يقال لنا أنه تلقى "تعليماً موسيقياً دقيقاً شاملاً" إنه كان صاحب صوت جهير رخم، وكان يستمع إلى حفلة موسيقية كل يوم تقريباً، وكان عازفاً ماهراً على الفيولنشيللو والفيولة والكلافير (1). وكان كثير من النبلاء موسيقيين، وأكثر منهم رعاة للموسيقى، وحذت الطبقة الوسطى حذوهم، فكان في كل بيت بيان فيثاري "هاريسيكورد" وتعلم كل إنسان أن يعزف على آلة موسيقية، وعزفت الثلاثيات والرباعيات في الشوارع، والحفلات الموسيقية في المتنزهات ومن زوارق مضياء على قناة الدانوب في عيد القسيس يوحنا. وازدهرت الأوبرا في البلاط وفي مسرح الأوبرا الذي أنشأه يوزف الثاني في 1778.

وارتقت فيينا إلى مقام الصدارة في مطلع القرن التاسع عشر بوصفها العاصمة الموسيقية لأوروبا لأنه جمعت في أخريات القرن الثامن عشر بين تقاليد ألمانيا وإيطاليا الموسيقية المتنافسة. فمن ألمانيا جاءت البوليفونية، ومن إيطاليا الميلوديا، ومن ألمانيا جاءت الزنجشيل-وهو مزيج من الدراما الهزلية والحوار المنطوق والموسيقى العارضة والأغاني الشعبية، ومن إيطاليا جاءت الأوبرا الهازلة، وتحالف الشكلان في فيينا كما نرى في أوبرا موتسارت "الاختطاف من السراي". ويمكن القول عموماً أن التأثير الإيطالي غلب الألماني في فيينا، فلقد غزت إيطاليا النمسا بالألحان كما غزت النمسا شمالي إيطاليا بالسلاح. وفي فيينا كانت الأوبرا الجادة إيطالية في أكثرها، إلى أن جاء جلوك، وجلوك نُسئ على الموسيقى الإيطالية.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إصلاح الموسيقى -> كرسنوفر فليبالنت جلوك

1- كرسنوفر فليبالنت جلوك

1714 - 1787

ولد في إيراز باخ من أعمال البالاتينات العليا، لحراج كاثوليكي انتقل بأسرته في 1717 إلى نوبشيلوس ببوهيميا. وتلقى كرسنوفر في المدرسة اليسوعية بكموتاو تعليماً في الدين واللاتينية والآداب القديمة والترنيل والكمان والأرغن والبيان القيثاري. فلما رحل إلى براغ 1732 تلقى دروساً في الفيلونشيلو، وتعيش بالترنيل في الكنائس، والعزف على الكمان في المراقص، وإحياء الحفلات الموسيقية في المدن المجاورة.

وكان كل صبي ذكي في بوهيميا يجذب إلى براغ، واستطاع نفر من ألمعهم شق طريقهم إلى فيينا. واستهدف جلوك الحصول على وظيفة في أوركسترا الأمير فرديناند فون لوبكوفتزر. وفي فيينا استمع إلى الأوبرات الإيطالية وأحس جاذبية إيطاليا القوية. وأعجب الأمير فرانشيسكو ملتزي بعزمه، فدعاه إلى ميلان (1737). ودرس جلوك التأليف الموسيقي على يد سامارتنبي، وتعلق بالأساليب الإيطالية في الموسيقى، وانتهج أوبراته الأولى (1741-45) نهج الطرائق الإيطالية، وقاد حفلاتها الافتتاحية في إيطاليا. وأنته هذه الخطوات الموفقة بدعوة لتأليف وإخراج أوبرا لمسرح هيماركت في لندن.

وهنا قدم أوبرا La Caduta Degiganti (سقطعة العملاق) (1746). ورفضت مصحوبة بمديح هزيل، وقال هندل العجوز الفض أن جلوك لا يعرف "عن الكونترابنت أكثر مما يعرف طباعي" (2) ولكن الطباخ كان صاحب صوت باص-جهير-حسن، ولم يكتب لجلوك أن تعتمد شهرته على الكونترابنت. والتقى برني بجلوك وقال في وصفه "إن له مزاجاً في شراسة مزاج هندل. ويشوّه الجدرى تشويهاً رهيباً. وله جبهة كريهة" (3). وأذاع جلوك على الجماهير -ربما لموازنة ميزانيته- أنه سيقدم "كونشرتو على ست وعشرين كأس شراب ضبطت (بملئها إلى مستويات مختلفة) بماء نبع تصاحبها فرقة موسيقية كاملة (أوركسترا)، لأن هذه آلة موسيقية جديدة من اختراعه يعزف عليها كل ما يمكن عزفه على الكمان أو بيان قيثاري". ومثل هذه

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إصلاح الموسيقى -> كرسنوفر فليبالنت جلوك

"الهارمونيكا الزجاجية أو الكؤوس الموسيقية" كانت قد أدخلت في دبلن قبل سنتين. واستحضر جلوك الأنغام بلمس حواف الكؤوس بإصبعه المبللة. واستهوى الحفل (23 إبريل 1746) أصحاب الفضول، فكرر بعد أسبوع. وغادر جلوك لندن قاصداً باريس في 26 ديسمبر وهو مبتئس بهذا النجاح. وهناك درس أوبرات رامو الذي كان قد اتجه إلى الإصلاح بإدماج الموسيقى والباليه بالحركة. وفي سبتمبر قاد الأوبرات في همبورج واتصل في علاقة غرام مع مغنية إيطالية وأصيب بالزهرى. وكان شفاؤه بطيئاً جداً، حتى أنه حين ذهب إلى كوبنهاجن كان عاجزاً عن قيادة الأوركسترا. ثم عاد إلى فيينا، وتزوج ماريان برجيا (15 سبتمبر 1750) ابنة تاجر غني. وقد منحه صداقها الأمن المالي فاتخذ بيتاً في فيينا، واختفى عن الأنظار في استجمام طويل.

وفي سبتمبر 1754 عينه الكونت مارتشالو دوراتزو قائداً للأوركسترا نظير ألفي فلورن في العام ليلحن للبلابل. وكان دوراتزو قد مل الأوبرا الإيطالية التقليدية، فتعاون مع جلوك في دراما موسيقية سميت *L'innocenza Giustificata* (البراءة المبررة) لم تكن القصة مجرد تكتة للموسيقى، ولا موسيقى مجرد تجميع الألحان، إنما الموسيقى تعكس الحركة، والألحان حتى الكوراس تدخل في الحكمة دخولاً فيه شيء من المنطق. وهكذا كانت حفلة الافتتاح (8 ديسمبر 1755) البشير والنتاج الأول للإصلاح الذي يقرن التاريخ بينه وبين اسم جلوك. وقد رأينا في موضع سابق مساهمات بنديتو مارتشالو وجوملي وترايتا في هذا التطور، والنداء الذي وجهه روسو وفولتير والموسوعيون لربط أوثق بين الدراما والموسيقى. وكان مناسازيو قد أعان عليه بإصراره في إباء على أن الموسيقى يجب أن تكون خادمة للشعر (4). وربما تأثر جلوك بشغف فنكلمان بإحياء المثل الإغريقية في الفن، وكان الملحنون يعرفون أن الأوبرا الإيطالية كمحاولة لإحياء الدراما الكلاسيكية التي أخضعت موسيقاها للتمثيلية وكان جان-جورج نوفيير أثناء ذلك ينادي (1760) بالتسامي بالباليه من مجرد الرقص الإيقاعي إلى الإيماء

صفحة رقم : 13456

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إصلاح الموسيقى -> كرسنوفر فليبالنت جلوك

الدرامي المعبر عن "عواطف كل شعوب الأرض وعاداتهم وتقاليدهم ومراسمهم وأزيائهم(5)". ونسج جلوك هذه العناصر كلها في شكل أوبراوي جديد بفضل ما أوتي من كيمياء العبقريّة العجيبة.

إن من أسرار المرء أن يغتم الفرصة إذا سنحت. فما الذي حدا بجلوك إلى هجر نصوص أوبرات مناسازيو ويتخذ رانييرو دالكالتابيجي شاعراً لأوبرا "أورفير وأورديتشي"؟ لقد ولد كالتابيجي في ليفورنو. وبعد مغامرات في الحب والمال وقد على باريس ونشر هناك ترجمة لـ "الشعر الدرامي" لمناسازيو (1755) وقدم لها بـ "رسالة" أعرب فيها عن أمله في ظهور نوع جديد من الأوبرا- "كل مبهج يكون خلاصة التفاعل بين كورس كبير وبين الرقص والحركة التمثيلية التي يتحد فيها الشعر والموسيقى بطريقة رائعة(6)". فلما انتقل إلى فيينا أثار اهتمام دوراتزو بأفكاره عن الأوبرا، ودعا الكونت ليكتب نصاً لأوبرا، فكتب.. "أورفيو وأورديتشي". وعرض دوراتزو القصيدة على جلوك، فرأى في الحكمة البسيطة الموحدة موضوعاً يمكن أن يبتعث كل طاقاته.

وقدمت النتيجة لفيينا في 5 أكتوبر 1762. واستطاع جلوك أن يجند لدور أورفيوس أكبر المغنين الخصيان ذوي الصوت الكونترالتو وهو جاتيانو جوايني. أما القصة فقديمة قدم الأوبرا، وقد استعملها أكثر من عشرة كتاب لنصوص الأوبرا بين 1600، 1761، واستطاع جمهور السامعين تتبع الحركة دون أن يفقهوا الإيطالية. واستغنت الموسيقى عن السرد الذي لا يصاحبه العزف، والألحان الأساسية المعادة، (da capo)، والزخارف والمحسنات، وفيما عدا ذلك نهجت نهج الأسلوب الإيطالي ولكنها سمت إلى أفاق غنائية فيها من النقاء ما ندر أن بلغه أحد من قبل ولا من بعد. وصرخة اليأس المنبعتة من أورفيوس بعد أن ألقده الموت حبيبته مرة ثانية؟ *Che Faro Sanz Euridice* "ماذا أفعل بدون أورديتشي"؟ ما تزال أجمل ألحان الأوبرا قاطبة، ونحن

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إصلاح الموسيقى -> كرسنوفر فليبالنت جلوك

حين نسمع هذا اللحن، ولحن القلوب الحزين في "رقصة الأرواح المباركة" تعجب كيف وجد هذا البوهيمي العاصف هذه الرهافة في روحه.
ولم تلقَ أورفيو استقبالا حارا في فيينا؛ ولكن ماريا تريزا تأثرت بها تأثيراً عميقاً وأرسلت إلى جلوك صندوق سعوط محشواً بالدوقاتيات. وما لبث أن اختير لتعليم الغناء للأرشيدوقة ماريا أنطونيا. وكان أثناء ذلك مكباً هو وكالزابيجي على تأليف أوبرا عدها البعض أكمل ما ألفاه من أوبرات، وهي "السيست". وقد أعلن المؤلف في مقدمة النسخة المنشورة كتبها كلزابيجي لجلوك مبادئ إصلاحه للأوبرا. قال:
"حين اضطلعت بكتابة الموسيقى لألسيست صممت على أن أجردها تماماً من كل تلك المساوئ.. التي طالما شوهدت الأوبرا الإيطالية.. وقد جهدت لأقصر الموسيقى على وظيفتها الحقيقية وهي خدمة الشعر بالتعبير وبمتابعة مواقف القصة دون قطع الحركة المسرحية أو خنقها بحشو لا غناء فيه من التعليقات. ولم أرَ أن من واجبي أن أمر مرور الكرام بالقسم الثاني من لحن ما، ربما كانت كلماته آخر وأهم الكلمات لكي أعيد بانتظام... كلمات القسم الأول.. وقد أحسست أن الافتتاحية يجب أن تحيط المتفرجين بطبيعة الحركة التي ستقدم لهم وتكون- إن شئت- خلاصتها.. أن الآلات الأوركسترالية يجب أن تدخل متناسبة مه أهمية الكلمات وقوتها ولا تترك ذلك التناقض الحاد بين اللحن والسردي في الحوار... الذي يشوه بشكل غشوم قوة الحركة وحرارتها... وقد أمنت بأن جهدي الأعظم يجب أن ينصرف إلى البحث عن البساطة الجميلة(7)".
وباختصار، يجب أن تخدم الموسيقى الدراما وتزيد من حدتها، لا أن تجعل منها مجرد تكنة للعروض الصوتية أو الأوركسترالية. وقد عبر جلوك عن الأمر تعبيراً فيه غلو بقوله "أنني أحاول أن أنسى أنني موسيقي(8)"، وأن عليه أن يندمج مع كاتب النص في تأليف "دراما

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إصلاح الموسيقى -> كرسنوفر فليبالنت جلوك

بالموسيقى". "وقصة السست تمتع قليلاً على التصديق، ولكن جلوك أنقذها بافتتاحية قاتمة سبقت بتصوير الحركة المأساوية وأفضت إليها، وبمشاهد عاطفية مؤثرة بين السست وأطفالها، وبدعائها لآلهة العالم السفلي في لحن "أرباب ستاكس"، وبالكرولات الجلييلة والمجموعات الفخمة. واستمع جمهور فيينا لهذه الأوبرا في ستين حفلة بين الافتتاح في 16 ديسمبر 1767 و1779. ولكن النقاد وجدوا فيها أخطاء كثيرة، أما المغنون فشكوا من أنها لم تفسح لهم المجال الكافي لعرض فنهم.

وبذل الشاعر والمؤلف محاولة ثانية في أوبرا "باريز وهيلانة" (30 نوفمبر 1770). وقد اقتبس كلزابيجي الحكبة من أوفيد الذي جعل من قصة باريز وهيلانة مغامرة غرامية شخصية بدل أن تكون فاجعة دولية. وعرضت الأوبرا عشرين مرة في فيينا، ومرة في نابلي، ولم تعرض في غيرهما. وتحمل كلزابيجي تبعة هذا الفشل النسبي، وطلق كتابة النصوص الأوبرات. وراح جلوك يبحث عن تربة يلقي فيها بذرتة. وأشار عليه صديق في السفارة الفرنسية في فيينا يدعى فرانسوا دي رولليه أن يقدم لجماهير باريس تحية يرحبون بها، في صورة أوبرا فرنسية يضع موسيقاها مؤلف ألماني. وعملاً باقتراحات لديدرو وأجاروتي أشار فيها بأن تمثيلية راسين "إفجيني" تتيح موضوعاً مثالياً للأوبرا صاغ دورولليه التمثيلية نصاً لأوبرا وقدمها لجلوك. ورأى جلوك مادتها متفقة تمام الاتفاق مع ذوقه فعكف على العمل من فوره.

ورغبة في تمهيد الطريق إلى باريس وجه دورولليه خطاباً إلى مدير دار الأوبرا نشر في المركز دفرانس أول أغسطس 1772 ذكر فيه أن "مسيو جلوش" كان ساخطاً أشد السخط على الزعم بأن اللغة الفرنسية لا تتلاءم مع الموسيقى، وأنه اقترح إثبات العكس بـ "إفجيني في أوليد". ولطف جلوك من غضب روسو المتوقع (وكان يومها يعيش منزوياً في باريس) بأن أرسل إلى المركز خطاباً (أول فبراير 1773) أعرب فيه عن أمله في التشاور مع روسو حول "الوسيلة التي أنوي اتخاذها لإخراج موسيقى

صفحة رقم : 13459

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إصلاح الموسيقى -> كرسنوفر فليبالت جلوك

صالحة لجميع الأمم، وإزالة فوارق الموسيقى الوطنية السخيفة(9)". واستكماً لهذا الإعلان الذي يبلغ الغاية في البراعة، استعملت ماري أنطوانيت-التي لن تنس أساتذها القديم-نفوذها في دار الأوبرا. ووافق مديرها على إخراج "إفجيني"، وحضر جلوك إلى باريس، وألزم المغنين وأوركسترا ببروفات بلغت من الشدة والانضباط حدّاً ندر أن عرفوه من قبل. وتبين أن صوفي أرنوا كبيرة المغنيات متمردة على أوامره فهدد بالإقلاع عن المشروع. وبدا أن جوزيف لجرود قد أضعفه المرض إلى حد منعه من تمثيل دور الجبار أخيل: "أما جانتان فستري" إله الرقص وقتها، فأراد أن يكون نصف الأوبرا باليه(10). وشد جلوك شعره، أو قل باروكتته، وأصر على موقفه، وانتصر. وكانت حفلة الافتتاح (19 إبريل 1774) حدث العالم الموسيقي المثير. وقد نحس بما كانت عليه العاصمة الجياشة من هياج إذا قرأنا خطاب ماري أنطوانيت لأختها ماري كرسنتينا في بروكسل. قالت:

"إنه نصر عظيم يا عزيزتي كرسنتين، إن الحماسة تجرّفتي، ولم يعد الناس يتكلمون على شيء غير هذا. وكل الرؤوس تجيش نتيجة لهذا الحدث... فهناك إنشاقات ونزعات أشبه بالنزاع الديني. ومع أنني أعلنت في البلاط أنني في صف هذا العمل الملهم، فإن هناك تحريات ومناقشات شديدة الحيوية. أما في المدينة فيبدو أن الحال أسوأ من هذا(11)".

ورد روسو تحية جلوك بإعلانه أن "أوبرا مسيو جلوك قلبت كل أفكاره رأساً على عقب، وقد اقتنع الآن أن اللغة الفرنسية تستطيع أن تنسجم كأي لغة أخرى مع الموسيقى القوية المؤثرة الحساسة(12). وكانت الافتتاحية رائعة حتى أن الجمهور في الليلة الأولى طالب بإعادتها ووجه النقد للألحان لأنها مسرفة في الطول، ولأنها تقطع سير الدراما، ولكنها تميزت بعمق مركب الشعور تفردت به موسيقى جلوك. وقد قال الأبويه أرنو عن أحدها وهو "أجامنون" "بمثل هذا اللحن قد يؤسس المرء ديناً(13)".

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إصلاح الموسيقى -> كرسنوفر فليبالت جلوك

ونافس جلوك الآن لويس الخامس عشر المحتضر محوراً لحديث باريس. وكان بدنه الضخم القوي ووجهه الأحمر وانه الكبير يشار إليها كلها حينما ذهب. وأصبح طبعة الغضوب موضوعاً للغضوب موضوعاً لعشرات النوادر. ورمم له جروز صورة ظهرت فيها طبيعته الطيبة المرحلة من خلف خطوط النضال والتوتر. وراح يأكل كما يأكل الدكتور جونسون، ويسرف في الشراب إسرافاً لا يبرزه فيه غير بوزويل، ولم يتظاهر باحتقار المال، وكان يبادر للاشتراك في التناء على عمله. وقد عامل الحاشية وعامة الناس معاملة واحدة باعتبارهم أدبي منه قدرأ، وكان ينتظر من كبار النبلاء أن يناولوه باروكته ومعطفه وعصاه، ولما قدم إليه أحد الأمراء فلم يبرح جلوك مقعده علل سلوكه هذا بقوله "لقد ألف الناس في ألمانيا ألا يقوم الواحد منهم إلا لمن يحترمه(14)".

وكان مدير الأوبرا قد أندروه بأنه في حالة نجاح "إفجيني وأوليد"، فسيضطر جلوك إلى كتابة خمس أوبرات أخرى في تعاقب سريع، لأن إفجيني ستطرد جميع الأوبرات الأخرى من المسرح. ولم يرهب الإنذار جلوك أنه اعتاد أن يقطع أجزاء من مؤلفاته القديمة ويحشرها في الجديدة وترجمت له "أورفيو وأوريديتشي" إلى الفريسة، ولما لم يجد مغنياً كفوءاً ذا صوت رنان "كونترالتو" في متناوله، أعاد كتابة دور أورفيو لليجرو ذي الصوت الصارخ (التينور). أما صوفي أرنو التي لانت عريكتها الآن فقد لعبت دور أوريديتشي. ونجحت حفلة الافتتاح الباريسية نجاحاً ادفأ صدره. وجادت ماري أنطوانيت، ملكة فرنسا الآن، بمعاش قدره ستة آلاف فرنك لـ "عزيزي جلوك" (15). وقفل إلى فيينا ورأسه يطاول النجوم.

وفي مارس 1776 عاد إلى باريس بترجمة فرنسية لألسست، أخرجت فلم تلق غير استحسان متوسط في 23 إبريل. أما جلوك الذي تعود النجاح فقد استجاب لهذه النكسة بكبرياء غاضبة وقال "ليست ألسست من نوع الأعمال التي تسر الجمهور سروراً مؤقتاً، أو التي تسرهم لجدتها.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إصلاح الموسيقى -> كرسنوفر فليبالت جلوك

فليس للزمن عليها سلطان. وأنا أزعم أنها ستسر السامعين نفس السرور بعد مائتي عام إذا لم يطرأ على اللغة الفرنسية تغيير" (16). وفي يونيو عاد إلى فيينا، وسرعان ما بدأ يلحن النص الذي كتبه مارمونتيل من جديد لمسرحية "رولان" التي سبق أن كتب نصها كينو.

وبدأت الآن أشهر المعارك في تاريخ الأوبرا. ذلك أن إدارة الأوبرا كانت أثناء هذا قد كلفت نيكولوبيتشيني النابولي بتلحين النص ذاته، وأن يحضر إلى باريس ويخرجه. وحضر (31 ديسمبر 1776)، فلما أتى جلوك بهذا التكليف أرسل إلى دروليه الذي كان بباريس آنذاك خطاباً يضطرم بغضبه أولمبية:

"لقد تلقيت للتو خطابك الذي.. ناشدتي فيه مواصلة تلحين أوبرا "رولان". ولكن هذا لم يعد ممكناً، لأنني حين سمعت أن إدارة الأوبرا التي لم تجهل أنني ألحن رولان كلفت بهذا العمل ذاته مسيو بيتشيني، أحرقت كل ما كتبت منه، ولعله لم يكن يساوي الكثير... وأنا لم أعد رجلاً يدخل في منافسة، وسكون للمسيو بيتشيني ميزة كبيرة جداً عليّ لأنه بغض

النظر عن كفايته الشخصية وهي بلا شك عظيمة جداً سيكون له ميزة الجدة... وأنا واثق أن سياسياً معيناً من معارفي سيقدم الغداء والعشاء لثلاثة أرباع باريس ليكسب له أنصاراً (17). ولأسباب ليست الآن واضحة نشر هذا الخطاب-الذي كان من الواضح إنه خطاب خاص في "الأنبية ليترير" عدد فبراير 1777 فأصبح عن غير قصد إعلاناً للحرب. ووصل جلوك إلى باريس في 29 مايو ومعهم أوبرا جديدة هي "أرميد" والتقى المؤلفان الغريمان على الغداء، فتعانقا وتحدثا حديثاً ودياً. وكان بيتشيني قد حضر إلى فرنسا دون أن يخطر له أنه سيكون ببدقاً في مؤامرة حزبية قذرة وتجارة أوبرالية، كان هو شخصياً شديد الإعجاب بفن جلوك. ولكن الحزب مضت في الصالونات والمقاهي، وفي الشوارع

صفحة رقم : 13462

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إصلاح الموسيقى -> كرسنوفر فليبالنت جلوك

والبيوت، رغم ما بين الغريمين من مودة؛ وروى تشارلز ببرني أنه "ما من باب فتح لزائر دون أن يوجه إليه هذا السؤال قبل يسمح له بالدخول: سيدي أنت من أنصار بيتشيني أم من أنصار جلوك (18)؟" أما مارمونتيل ودالامبير ولاهارب فقد تزعموا الحزب المناصر لبيتشيني والأسلوب الإيطالي، وأما الأبييه أرنو فقد دافع عن جلوك في "إعلان للإيمان بالموسيقى"، وأما روسو، الذي كان قد افتتح الحرب بمقاله المناصر للموسيقى الإيطالية "في الموسيقى الفرنسية" (1753)، فقد ناصر جلوك. وأخرجت أرميد في 23 سبتمبر 1777. وكان موضوعها وموسيقاها رجوعاً إلى أشكال رسخت قبل إصلاح جلوك، وقد اقتبست القصة من تاسو، ومجدت رينالد والمسيحي وأرميدا الوثنية، وكانت الموسيقى موسيقى لوللي معادة بركة رومانسية، وأما الباليه فياليه نوفير في أروعه، وأعجب هذا المزيج الجمهور فاستقبل الأوبرا استقبالاً حسناً، ولكن انصار بيتشيني نددوا بأرميد قائلين إنها ليست سوى صقل للوللي ورامو. وانتظروا في شوق أوبرا رولان الذي كان يلحنها حامل لوائهم. وأهداها بيتشيني إلى ماري أنطوانيت مشفوعة باعتذاراته: لقد كنت في حاجة لكل شجاعتي وأنا مزدرع ومعزول في بلد كل شيء فيه جديد عليّ تقف في عضدي مئات العقبات المعترضة علي، ولقد فارقتني شجاعتي (19). وكان أحياناً يوشك أن يكف عن النضال ويعود إلى إيطاليا. ولكنه ثابر، ووجد عزاء في نجاح حفلة العرض الأولى (27 يناير 1778). وبدا أن الانتصارين يلغي أحدهما الآخر. وواصلت الحرب السفارة احتدامها. وقد رأتها مدام فيجيه لبرون رأى العين فقالت "كانت ساحة القتال العادية هي حديقة الباليه رويال. فهناك كان أنصار جلوك وبيتشيني يتشاجرون مشاجرات بلغ من عنفها أنها أفضت إلى مبارزات كثيرة. وعاد جلوك إلى فيينا في مارس، وتخلف في فرتية ليري فولتير. ثم صحب معه إلى بيته نصين أولهما كتبه نيكولا-فرانسوا جيار وبناه على مسرحية أوربيدس "إفجيني في تاورس". أما الثاني فكتبه البارون

صفحة رقم : 13463

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إصلاح الموسيقى -> كرسنوفر فليبالنت جلوك

جان-باتيس وتشودي عن موضوع الصدى ونارسييس. وعكف على الكتابين فما حل خريف 1778 حتى شعر أنه على استعداد لخوض معركة أخرى. وهكذا نجده في نوفمبر في باريس مرة أخرى، وفي 18 مايو 1779 قدم في دار الأوبرا أوبرا "إفجيني في تاوريد" التي يعدها معظم الطلاب أعظم مؤلفاته الموسيقية. وهي قصة قاتمة، وكثير من موسيقاها شكاة رتيبة، ونحن نمل أحياناً لنواح إفجيني العالي. ولكن حين ينتهي العرض ويسكت سحر الموسيقى والأبيات عقلنا الشكاك ندرك أننا استمعنا إلى دراما عميقة قوية. وقد لاحظ معاصران أن فيها فقرات كثيرة رائعة، أما الأبيات أرنو فقال "إن فيها فقرة رائعة واحدة فقط، هي العمل كله(21)". واستقبل الجمهور العرض الأول للأوبرا بحماسة بالغة.

على أن جلوك تحدى الآلهة، فتعجل بتقديم أوبراه الثانية "الصدى ونارسييس" (21 سبتمبر 1779). ولكنها فشلت، فغادر المابسترو باريس في غضبة مضرية معلناً أنه شبع من باريس وأنه لن يكتب مزيداً من الأوبرات. ولو أطال مكثه فيها لسمع "إفجيني في تاورند". أخرى أخرجها بتشييني بعد عامين من الجهد الشاق. واستقبل الجمهور العرض الأول (23 يناير 1780) استقبالا حسناً، ولكن في الليلة الثانية كانت الأنسة لا جبر التي غنت دور إفجيني مخمورة بصورة واضحة حتى لقد حطمت صوفي أرنو العرض بتلقيها الأوبرا "إفجيني في شمبانيا(22)". وأنهى هذا الحادث المؤسف الحرب الأوبرالية، واعترف بيتشييني بهزيمته اعترافاً جميلاً.

أما جلوك فقد حلم في فيينا بانتصارات أخرى. ففي 10 فبراير 1880 كتب إلى كارل أوجست دوق ساكسي-فيمار راعي جوته: لقد شخت كثيراً، وقد بعثرت خير طاقات ذهني على الأمة الفرنسية. ولكني أشعر بدافع باطني يدفعني لكتابة شيء لبلدي(23). ثم لحن بعض أناشيد كلويشتوك التي مهدت الطريق لأجمل الليدات. وفي 1781 أصيب بالنقطة، ولكن كان عزاء له استقبال فيينا لإفجيني في تاروس وأحياء

صفحة رقم : 13464

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إصلاح الموسيقى -> كرسنوفر فليبالنت جلوك

"أورفيو والسست". وفي 15 نوفمبر 1787 بينما كان يستضيف جماعة من أصدقائه تعاطى في جرعة واحدة قدحاً من مسكر قوي كان محظوراً عليه. وأصابته تشنجات لم تمهله غير ساعات. وحاول بتشييني وهو في نابلي دون جدوى جمع المال لإحياء حفلات موسيقية سنوية تنكراً لمنافسه(24). ذلك أن إيطاليا التي كانت تحبذ الميلوديا لم تأبه بإصلاحات جلوك: ونهج موتسارت نهج الإيطاليين، ولا بد أنه صعق لفكرة تسخير الموسيقى للشعر. أما هرذر الذي جاء في ختام هذه الفترة الخلاقة والذي رجع البصر إليها بمعرفة محدودة بباخ وهابدين وموتسارت فقد وصف جلوك بأنه أعظم ملحن القرن قاطبة(25).

صفحة رقم : 13465

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إصلاح الموسيقى -> يوزف هايدن

2- يوزف هايدن

1809 - 1732

من الأيسر علينا أن نحب هايدن، فها هنا رجل لم يتشاجر مع إنسان غير زوجته، رجل يشيد بمنافسيه كأنهم أصدقائه، رجل أشرب موسيقاه بالمرح، وكان بمزاجه الفطري عاجزاً عن المأساة. ولم يحبه الحظ شرف المولد. فقد كان أبوه صانع عربات ونقاشاً في روراو، وهي مدينة صغيرة على الحدود بين النمسا والمجر. أما أمه فكانت طاهية لأشراف هاراش وكان أبواه كلاهما من أصل سلافي كرواتي لا ألماني. وكثير من ألحان هايدن تردد صدق الأغانى الكرواتية. وكان الثاني بين اثني عشر طفلاً مات ستة منهم في مستهل طفولتهم. وقد عمد باسم فرانتس يوزف هايدن، ولكن كان من المألوف يومها أن ينادى الأطفال باسمهم الثاني. فلما ناهز السادسة أرسل ليعيش مع قرب يدعى يوهان ماتياس فرانك، صاحب مدرسة في هاينبورج. هناك كان يومه يبدأ بدروس في الفصل من الساعة السابعة إلى العاشرة، ويلى القداس، ثم الرجوع للبيت لتناول الغداء، ثم دروس من الثانية عشرة إلى الثالثة، ثم دروس في الموسيقى. وقد درب على التدين ولم يفقده قط. وكانت أمه تتوق إلى

صفحة رقم : 13466

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إصلاح الموسيقى -> يوزف هايدن

تخرجه قسيساً، وأحزنها حزناً عميقاً اختياره حياة الموسيقى التي لا ضمان لاستقرارها. على أن فرانك شجع ميل الطفل للموسيقى وعلمه كل ما في طاقته أن يتعلمه، وألزمه نظاماً صارماً للدرس. وقد ذكر هايدن في شيخوخته هذا الرجل وغفر له قائلاً "سأكون ما حبيت شاكرًا لذلك الرجل أنه الزمني العكوف على العمل وإن اعتدت أن أنال من الجلد أكثر مما أنال من الطعام(26)". وبعد أن قضى يوزف عامين مع فرانك أخذته إلى فيينا جبورج روتير، مدير فرقة المرثلين في كاتدرائية القديس اسطفانوس، ورأى روتير إن صوته "الضعيف الحلو" قد يجد مكاناً متواضعاً في فرقة المرثلين. وهكذا ذهب الغلام الحبي المشتاق ليعيش في مدرسة المرثلين "الكانتوربي" الملحقة بالكاتدرائية. وهناك كان يتلقى دروساً في الحساب والكتابة واللاتينية والترتيل والكمان. ورتل في الكاتدرائية وفي المصلى الإمبراطوري، ولكنه كان لا ينال إلا أتفه الغداء، فكان يرحب بدعوات للغناء في البيوت الخاصة يستطيع أن يملأ معدته فضلاً عن إنشاد أغانيه.

وفي 1745 أنظم إليه في مدرسة المرثلين أخوه ميخائيل الذي كان يصغره بخمس سنين. وحوالي هذا التاريخ بدأ صوت يوزف يصبح أجش، فعرض عليه أن يخصى ليحتفظ بصوته السوبرانو، ولكن أبويه لم يوافقا. واحتفظ به روتير أطول ما يستطيع، وأخيراً في 1748 وجد يوزف نفسه وهو في السادسة عشرة حراً ومفلساً، لم يؤت من حسن

السمت وجاذبيته ما يكسبه رضى الحظ عنه. فقد نقر الجدرى وجهه، وكان أنفه بارزاً، وساقاه أقصر مما يناسب جسمه، ولباسه رثاً، ومشيته لا رشاقة فيها، ومسلكه خجولاً متردداً. ولم يكن بعد قد حذق العزف على أي آلة، ولكنه كان في تلك الآونة يقرب الألبان في رأسه. وعرض عليه زميل في صف المرتلين حجرة على السطح، وأقرضه أنطوان بوخهولتز 150 فلوريناً ردها إليه هايدن الأمين فيما بعد. وكان عليه أن يجلب الماء صعداً إلى حجرته العليا كل يوم، ولكنه حصل على

صفحة رقم : 13467

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إصلاح الموسيقى -> يوزف هايدن

كلافير (لوحة مفاتيح) قديم، وبدأ يعلم بعض التلاميذ، فأعانه هذا على الحياة. وكان أكثر الأيام يعمل ست عشرة ساعة بل أكثر، ويعزف على الكمان في الكنيسة، ثم على الأرغن في مصلى خاص للكونت هاوجفتز وزير ماريا تريزا، ويغني بصوت التينور بين أن وآخر في كاتدرائية القديس اسطفانوس. وكان لمناستازيو الشهير شقة في الميناء ذاته فحصل لهايدن على وظيفة معلم موسيقى لابنة صديق له، وعن طريق مناستازيو التقى هايدن ببوربور، ووافق هايدن على أن يخدم أمير معلمي الغناء هذا على أي وجه شاء مقابل تعليمه التأليف الموسيقي. ثم تلقى دروس التأليف الثمينة، وكان ينظف حذاء المايسترو ومعطفه وباروكتته ويقوم بمصاحبة بوربور وتلاميذه على الكلافير. وقد قال هايدن وهو يذكر تلك الأيام فيما بعد "يستطيع الشباب أن يتعلموا من أن شيئاً يمكن أن يخرج من لا شيء. فكل ما أنا عليه الآن إنما هو ثمرة أوقات الشدة التي عانيتها(27)".

وعن طريق أصدقائه الجدد تعرف إلى جلوك، وديترز دورف و عدة أفراد من النبلاء. وأخذ كارل يوزف فون فورنبرج (1755) ليملك معه طويلاً في بيته الريفي فيتيريرل بقرب ملك، هناك وجد هايدن أوركسترا من ثمانية عازفين واتسع بعض الفراغ للتأليف. فكتب الآن أولى ربايعاته. ثم أضاف إلى هيكل الصوناتا المكون من ثلاث حركات والذي نقله عن كارل فيليب إيمانويل باخ منويثا، ودون الحركات الأربع لقطع أربع، ثم أعطى الآلية شكلها الحديث. وعاد إلى فيينا في 1756 ولفت أنظار نفر من التلاميذ النبلاء مثل الكونتيسة فون تون. ثم قبل (1759) وظيفة مدير الموسيقى للكونت مكسميليان فون مورتن الذي كان أوركستراه الخاص المؤلف من اثني عشر إلى ستة عشر عازفاً يعزف في فيينا شتاءً، وفي فيلا الكونت بلوكافيك بوهيميا صيفاً. ولهذه المجموعة كتب هايدن أولى سمفونياته (1759).

وإذ كان يكسب الآن مائتي فلورين في العام يضاف إليها المسكن والمأكل، فقد رأى أن في وسعه المغامرة بالزواج. وكان من بين تلاميذه

صفحة رقم : 13468

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إصلاح الموسيقى -> يوزف هايدن

ابنتان لصانع باروكات. فأغرم بالصغرى ولكنها ترهبت، وأقنع الأب هايدن بأن يتزوج شقيقته ماريانا (1760). وكانت في الحادية والثلاثين وهو في الثامنة والعشرين. وتبين أنها مشاغبة متعصبة مسرفة عقيم. يقول هايدن "لا يههما متقال ذرة أن كان زوجها فناناً أو إسكافياً(28)". وبدأ ينظر إلى غيرها من النساء.

وكان يختلف إلى بيت مورتن أحياناً للاستماع إلى الموسيقي الأمير يال أنطوان استرهاتسي. فلما حل مورتن أوركستراه أستخدم الأمير هايدن (1761) مساعداً لمدير الموسيقي في مقره الريفي بأيزنشات في المجر. ونص العقد على أن يتقاضى هايدن أربع مائة فلورن في العام بالإضافة إلى مكان على مائدة الموظفين، و "يلاحظ بصفة خاصة أنه حين يدعي الأوركسترا للأداء أما جمهور أن يبدو الموسيقيون في بزة رسمية مرتدين الجوارب الطويلة البيضاء والقمصان البيضاء... وضيقة أو باروكة(29)". وفي أيزنشات كان رئيس فرقة المرثلين جريجور فرنر عاكفاً على الموسيقي الكنسية، فجهز هايدن الحفلات وألف لها الموسيقي. وكان يتراأس على أربعة عشر موسيقياً وسبعة مغنين وكورس أختير من بين خدم المير. وقد شارك حجم الأوركسترا الصغير، وطابع المستمعين، في تقرير نوع الموسيقي الخفيف اللطيف الذي كتبه هايدن لأسرة استرهاتسي. وأكسبته طبيعته محبة الموسيقيين ولم يمض على مجيئه إلى أيزنشات كثير حتى راحوا يلقبونه "بابا هايدن" رغم إنه لم يتجاوز وقتها التاسعة والعشرين(30). وألف لهم الصوناتات والثلاثيات والرباعيات والكونشرتوات والأغاني والكنتاتات ونحو ثلاثين سمفونية. وكثير من هذه المؤلفات وإن كانت ملكاً للأمير حسب نص العقد نشر أو تداوله الناس مخطوطاً في فيينا وليبزج وأمستردام وباريس ولندن، ولم يحل عام 1766 حتى كان اسم هايدن ذائعاً دولياً.

فلما مات بال أنطون (18 مارس 1762) خلفه في راسة أسرة استرهاتسي أخوه ميكولوس يوزف الذي كاد يحب الموسيقي حبه لحنه

صفحة رقم : 13469

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إصلاح الموسيقي -> يوزف هايدن

المرصعة بالماس. وكان يحسن العزف على "الفيولادي بوردوني". (وهي شكل مختلف من أشكال الفيولادا جامبا)، وكان سيداً لطيفاً لهايدن طوال عشرتهما التي امتدت قرابة ثلاثين عاماً. يقول هايدن "كان أميرى على الدوام راضياً عن أعمالى فلم احظ منه بمجرد تشجيع الاستحسان الدائم، ولكن بوصفى قائداً للأوركسترا استطعت أن أجري التجارب والأحظ ما يحدث منها أثراً وما يضعف هذا الأثر، وهكذا كنت في وضع أتاح لي إن أحسن، وأغير. وأغامر كما أشاء. لقد كنت مقطوع الصلة بالعالم وما من أحد يشوش علي أو يعذبني، فأكرهت على الابتكار(31).

ومات فرنر في 5 مارس 1766، وأصبح هايدن رئيساً لفرقة المرثلين. وسرعان ما انتقلت الأسرة إلى القصر الجديد "قلعة هاتسي" التي كان ميكولوس قد بناها في الطرف الجنوبي لنويديلر زي في شمال غربي المجر. وكان الأمير شديد التعلق بهذا القصر حتى يسكنه من مطلع الربيع حتى آخر الخريف، ثم ينتقل شتاء إلى فيينا مصطحباً موسيقييه أحياناً. وكان العازفون المغنون يكرهون هذه العزلة الريفية لاسيما لأنها كانت تفصلهم عن زوجاتهم وأبنائهم ثلاثة فصول في العام، ولكنهم كانوا يتعاطون أجوراً حسنة ولم يجروا على الشكوى. وذات مرة أراد هايدن أن يلمح لميكولوس بأن موسيقييه مشتاقون إلى أخذ إجازة، فألف "سمفونية الوداع" (رقم 5) وفي ختامها كانت الآلة تلو الأخرى تختفي من المدونة والعازف يطفئ شمعه ويتناول موسيقاه وألته ثم يغادر المسرح. وطفن الأمير إلى القصد فرتب الفرقة إلى فيينا في وقت قريب.

وسمح لهايدن على سبيل الاستثناء بأن يصحب معه زوجته إلى استرهاتسي، ولكنه لم يقدر هذا الامتياز. ففي 1779 وقع في غرام لويجا بولتسلي، وكانت مغنية وسطاً استخدمتها استرهاتسي مع زوجها عازف الكمان أنطونيو. ويبدو

أن هايدن أحس أنه ما دامت الكنيسة الكاثوليكية لم تسمح له بتطويق زوجته المتعبة فإن عليها من قبيل الرأفة أن تسمح له بإنحرافة أو اثنتين، ولم يبذل كثيراً من الجهد في إخفاء علاقته الغرامية هذه. أما أنطونيو فقد بلغ

صفحة رقم : 13470

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إصلاح الموسيقى -> يوزف هايدن

من الكبر والمرض ما منعه من الاحتجاج الفعال، وكان يعلم أن الفضل في بقائه في وظيفته راجع إلى أن رئيس فرقته يستطع لويجا. وكانت قد قدمت إلى استر هاتسي بغلام في الثانية، وفي 1783 ولدت صبياً آخر نسبته الشائعات إلى بابا هايدن، وتعلق قلب هايدن بالغلامين جميعاً وكان عوناً لهما طوال حياته. وخلال تلك السنوات الحافلة بالشواغل في استر هاتسي لم يتطور هايدن في فن التلحين إلا تطوراً بطيئاً لأنه افتقد الحافز والمنافسة الخارجيين، فلم ينتج شيئاً يستحق أن يذكر به إلى أن أبلغ الثانية والثلاثين -وهي سن كان موتسارت قد أكمل فيها "أعماله الكاملة" باستثناء "الناي السحري" و"القداس الجنائزي". وقد أنتج هايدن أبداع أعماله بعد بلوغه الخمسين، وأولى سمفونياته الكبرى حين قارب الستين، و"الخليقة" حين كان في السادسة والستين. وكتب عدة أوبرات تؤدي في استر هاتسي، ولكن حين دعت براغ لتقديم أوبرا فيها، ضمن سلسلة تقرر أن تحتوي على الزواج فيجارو ودون جوفاني، أحجم في رسالة كلها تواضع نبيل (ديسمبر 1787)، قال:

"تريد مني أوبرا هازلة... فإذا كان قصدك إخراجها في براغ فأني لا أستطيع أن أسدي إليك هذا الصنيع. ذلك أن أوبراتي لا تتفصل عن المجتمع الذي كتبت له، ولن تحدث التأثير المقصود منها إذا عزلت عن بيئتها الأصلية. ولكن يكون أمراً آخر أن أشرف بتكليفي بكتابة أوبرا جديدة لمسرحكم. على أنه حتى في هذه الحالة، سيكون من المغامرة أن أضع نفسي منفصلاً لموتسارت العظيم. ولو أنني استطعت فقط أن ألهم كل عاشق للموسيقى، خصوصاً بين العظماء، بمشاعر تبلغ في عمقها مشاعري، وفهم واضح كفهمني، وهم يستمعون إلى أعمال موتسارت الممتعة على التقليد، إذن لتبارت الأمم على حيازة هذه الجوهرة الكريمة داخل حدودها. وعلى براغ أن تجاهد الاحتفاظ بهذا الكنز في قبضتها، ولكن بمكافأته المكافأة اللائقة. وإغفال هذا الجزء كثيراً ما يكون مصدر حزن في حياة عبقرى

صفحة رقم : 13471

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إصلاح الموسيقى -> يوزف هايدن

عظيم، وتثبيط للمزيد من الجهود ولمستقبل الأيام. وأني لأشعر بالسخط لأن موتسارت لم يستخدم إلى الآن في أي بلاط إمبراطوري أو ملكي. عفواً إن كنت قد خرجت عن الموضوع، فموتسارت رجل عزيز علي جداً" (32). وكان هايدن نفسه يتوق إلى بلاط تنشر فيه موهبته جناحها على نطاق أوسع، ولكن كان عليه أن يقتنع بالمجاملات الملكية. ووصلته الهدايا من فرديناند الرابع ملك نابلي وفرديريك وليم الثاني ملك بروسيا وماريا فيودروفنا الأرشيدوقة

الروسية. وفي 1781 بعث إليه شارل الثالث ملك أسبانيا علبة سعوط ذهبية مرصعة بالماس، وسافر السفير الأسباني لدى فيينا إلى استرهابتسي ليقدم إليه هذا الكنز الصغير بشخصه. ولعل ليوكيريني يداً في هذه الفتنة، وكان يومها يقيم في مدريد، لأنه اقتبس أسلوب هايدن بحماسة شديدة حتى لقد لقب بـ"زوجة هايدن" (33). ولما قرر مجلس الكاتدرائية في قانس تكليف موسيقى بوضع الإطار الموسيقي لـ"كلمات مخلصنا السبع الأخيرة" رسا التكليف على هايدن، فاستجاب بأوراتوريو (1785) لم يلبث أن أدى في أقطار كثيرة في الولايات المتحدة الأمريكية في تاريخ مبكر (1791). وفي 1784 طلب مخرج باريس ست سمفونيات، فأتحفه هايدن بست "سمفونيات باريسية". ووصلته عدة دعوات ليقود الحفلات الموسيقية في لندن. وشعر هايدن بأنه مربوط باتسرهاتسي برباط الولاء كما هو مربوط برباط التعاقد، ولكن خطاباته الخاصة تشي بشوقه المتزايد إلى مسرح أرحب لفنه. وفي 28 سبتمبر 1790 مات الأمير نيكولوس يوزف. ولم يكن الأمير الجديد انطون استرهابتسي ولو عاً بالموسيقى، ففصل كل الموسيقيين تقريباً، ولكنه احتفظ بهيدن اسماً في خدمته، ومنحه معاشاً سنوياً قدره ألف وأربعمائة فلورين، وسمح له بأن يسكن حيث يشاء. وانتقل هايدن إلى فيينا لتوّه تقريباً، وتلقى الآن عدة عروض، أعجلها من يوهان بيتر سالومون،

صفحة رقم : 13472

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إصلاح الموسيقى -> يوزف هايدن

الذي صرح له بهذه العبارة "لقد جنئت من لندن لأخذك معي، وسنبرم اتفاقنا غداً". وعرض عليه 300 جنيه لقاء أوبرا جديدة، و300 أخرى نظير ست سمفونيات، و200 أخرى نظير حق تأليفها، و200 أخرى نظير عشرين حفلة موسيقية في إنجلترا، و200 أخرى نظير حفلة موسيقية تحيا فيها لصالح هايدن -مجموعها كلها 1200 جنيه. وكان هايدن يجهل الإنجليزية ويخشى عبور المانش. وتوسل إليه موتسارت ألا يضطلع بهذه الأعباء والمغامرات قائلاً "يا أبت لم تتلق أي تعليم يؤهلهم للعالم الواسع، وأنت لا تتكلم إلا القليل جداً من اللغات!" وأجاب هايدن "ولكن لغتي مفهومة في العالم كله". (34) وباع البيت الذي منحه إياه الأمير ميكولوس يوزف في أيزنشتات، ودبر معاش زوجته وخليته، ثم انطلق إلى مغامرته الكبرى. وأنفق مع موتسارت الأيام الأخيرة قبل الرحيل، وبكى موتسارت حين رآه يرحل (إنني أخشى يا أبتاه أن يكون هذا آخر وداع لنا). وغادر هايدن وسالومون فيينا في 15 ديسمبر 1790، ووصلا إلى لندن في أول يناير 1791. وكانت أولى حفلات هايدن الموسيقية (11 مارس) انتصاراً له. وختمت "المورنتج كرونكل" تقريرها عنها بهذه العبارة "لا نستطيع أن نخفي أملنا الوطيد في أن يكون في هذا الترحيب البالغ الذي لقيه منا أعظم عباقرة الموسيقى في جيلنا هذا ما يغريه بأن يتخذ مقامه في إنجلترا" (35). ونجحت كل الحفلات الموسيقية، وفي 16 مايو أبهجت قلب هايدن حفلة أحييت لصالحه بـ350 جنيه. وفي ذلك الشهر حضر حفلة تذكارية لهندل في كنيسة وستمنستر. واستمع إلى (المسيا) وبلغ به التأثير حد البكاء، وقال في تواضع (هندل، أستاذنا جميعاً) (36). واقترح بيرني على جامعة أكسفورد أن تمنح هندل الجديد درجة فخرية، وقبل الاقتراح، وذهب هندل إلى الجامعة في يوليو، وأصبح دكتوراً في الموسيقى، وقاد هناك سمفونية في مقام G الكبير (رقم 92) وكان قد ألفها قبل ثلاث سنوات، ولكن التاريخ يعرفها منذ ذلك الوقت بسمفونية

صفحة رقم : 13473

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إصلاح الموسيقى -> يوزف هايدن

أكسفورد.. وتذكرنا حركتها البطيئة الجميلة بالأغنية الشعبية الإنجليزية القديمة "لورد راندول".
ولقد أتيت لهايدن أن يستمتع بمشهد الريف الإنجليزي الذي رأى فيه تمجيداً سماوياً للنبات والمطر، لذلك قبل مغتبطاً
عقب عودته إلى لندن دعوات لبيوت ريفية. وهناك وفي لندن كسب الكثير من الأصدقاء بترحيبه بالعزف والغناء في
حفلات خاصة. واتخذ له تلاميذ متقدمين في الموسيقى ليعلمهم التأليف، ومن بينهم أرملة وسيدة غنية تدعى يوهانا
شروت. ومع أنه كان في الستين، فإن هالة شهرته أدارت رأسها فعرضت عليه حبها. وقد ذكر هذا الحديث فيما بعد
فقال "أغلب الظن أنني كنت متزوجها لو كنت عزباً" (37). وفي غضون هذا كانت زوجته تلح عليه في العودة. وفي
خطاب أرسله إلى لويجا بولتسيللي قال متذمراً (إن زوجتي -الوحش الجهمي- كتبت لي أشياء بلغت من الكثرة ما
أكرهني على الجواب بأنني لن أعود أبداً) (38).
وراح يشتغل بهمة رغم ما أثقل ضميره وجيبه من النسوة الثلاث، فألف الآن ستاً (رقم 93-98) من سمفونياته اللندنية
الأثنتي عشرة. ونرى فيها تطوراً ملحوظاً من إنتاجه في إيزتشتات واستر هاتسي. ولعل سمفونيات موتسارت قد
شجذت فنه، أو لعل احتقاء إنجلترا به قد أخرج خير ما فيه، أو لعل استماعه إلى هندل حرك فيه أعماقاً لم تمسها بيئته
الساكنة الهادئة في ربي المجر، أو لعل علاقاته الغرامية قد رفعت به إلى العواطف الرقيقة كما بعثت فيه الفرحة البسيطة.
وشق عليه إن يبرح إنجلترا؛ ولكنه كان مرتبطاً يعقد مع الأمير أنطون استر هاتسي الذي أصر الآن على عودة هايدن
ليشارك في المهرجانات الممهدة لتتوج الإمبراطور فرانسيس الثاني. ومن ثم نراه يفتحم المانش ثانية في أواخر يونيو
1792، وينتقل من كاليه إلى بروكسل إلى بون، ويلتقي ببيتهوفن (الذي كان آنذاك في الثانية والعشرين)، ويحضر
التتويج في فرانكفورت، ثم يصل إلى فيينا في 26 يونيو.

صفحة رقم : 13474

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إصلاح الموسيقى -> يوزف هايدن

ولم تشر صحيفة واحدة إلى عودته، ولا نظمت له حفلات موسيقية، ولا حفل به البلاط. ولو كان موتسارت موجوداً
لاحتقى بمقدمه، ولكن موتسارت كان قد قضى. وكتب هايدن إلى أرملة، وتطوع بإعطاء دروس مجانية لابنه؛ وحث
الناشرين على طبع المزيد من موسيقى موتسارت. ثم ذهب ليعيش مع زوجته في المنزل المحفوظ به الآن متحفاً
لهايدن (هايدن-جاسي 19). وأرادته الزوجة أن يكتب لها البيت فرفض. وازدادت مشاجراته معها حدة. وقدم بيتهوفن
في ديسمبر 1792، ليدير عليه. ولكن العبقرين لم ينسجما معاً، فقد كان بيتهوفن متكبراً مسيطراً، وكان هايدن يلقبه
"المغولي الأكبر" (39). وقد شغله استغراقه في عمله هو عن تصحيح تمرينات تلميذه بأمانة، ووجد بيتهوفن سراً
معلماً آخر، ولكنه واصل تلقي الدروس عن هايدن. فقال الجبار الصغير "لم أتعلم منه شيئاً" (40)، ومع ذلك فكثير من
قطعه الأولى تنهج نهج هايدن، وقد أدهى بعضها لمعلمه الشيخ.
وازداد تقدير القوم لهايدن في النمسا وفي روراو، فأقام الكونت فون هاراخ في روراو، عام 1792، تمثالاً لابن البلدة
الذي غداً الآن ذائع الصيت، ولكن ذكرى انتصاراته وصدقاته في إنجلترا كانت لا تزال حارة، ومن ثم لم يتردد
الموسيقى في الموافقة على العرض الثاني الذي قدمه لم سالومون بالذهاب إلى لندن وتكلفه كتابة ست سمفونيات
جديدة. فغادر فيينا في 19 يناير 1794 ووصل إلى لندن في 4 فبراير. وكانت إقامته هذه التي امتدت ثمانية عشر

شهرأ في إنجلترا نصرأ مؤزرأ شدد عزمه كنصره الأول. وظفرت المجموعة الثانية من "السمفونيات اللندنية" (أرقام 99-104) باستقبال طبيب، وخرج هايدن من حفلة أحييت لصالحه بدخل صافي قدره 400 جنيه. وكان تلاميذه يدفعون له جنيهاً إنجليزياً في الدرس، وكانت السيدة شروتر تسكن بقربة، وعاد الأثير المقرب للطبقة الأرستقراطية، فاستقبله الملك وأعداء الملك على السواء، وأمير ويلز، وعرضت عليه الملكة مسكناً في ونزر طوال الصيف إذا أطال مقامه في إنجلترا موسماً آخر. ولكنه اعتذر بأن

صفحة رقم : 13475

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إصلاح الموسيقى -> يوزف هايدن

أمير استر هاتسي الجديد يدعو للعودة، وأنه لا يستطيع الغياب عن زوجته فترة طويلة كهذه (!). وكان الأمير أنطون قد مات، وأراد خلفه الأمير ميكولوس الثاني أن يعيد الحفلات الأوركسترالية في ايزنشات. وهكذا غادر هايدن لندن في 15 أغسطس 1795 بعد أن حزم حقائبه وجيوبه عامرة ويمم شطر وطنه. وبعد أن زار تمثاله في روراو قدم نفسه لميكولوس الثاني في ايزنشات ونظم الحفلات الموسيقية لثتى المناسبات هناك. على أنه كان يقيم في بيته في أطراف فيينا باستثناء الصيف والخريف. وفي عامي 1796-97 كان نابليون يسوق النمساويين أمامه في إيطاليا، وهدد تصاعد المشاعر الثورية في النمسا نظام هابسبورج الملكي، وتذكر هايدن كيف شددت الحماسة التي أثارها إنشاد النشيد الإنجليزي "حفظ الله الملك" إزر أسرة هانوفر في إنجلترا، وساءل نفسه إلا يمكن أن يفعل نشيد قومي مثل هذا في شد أزر الإمبراطور فرنسيس الثاني؟ وتقدم صديقه البارون جوتريد فان زفيتن (ابن طبيب ماريا تريزا) بهذا الاقتراح إلى الكونت فون زوراو وزير الداخلية. وعين زوراو ليوبولد هاشكا ليؤلف نصاً للنشيد، واستجاب الشاعر بنشيد "حفظ الله الإمبراطور فرنسيس، إمبراطورنا الصالح فرانسيس". ووفق هايدن لهذه الكلمات لحناً لأغنية كوراثية قديمة، وكانت النتيجة نشيداً قومياً مؤثراً رغم بساطته. وأُنشد علانية في عيد ميلاد الإمبراطور في 12 فبراير 1797 في جميع المسارح الكبرى في مملكة النمسا والمجر. وقد ظل مع بعض التغيير في ألفاظه-النشيد القومي النمساوي حتى 1938. وطور هايدن اللحن، مع تنويعات، ليصبح الحركة الثانية في رباعيته الوترية (76 رقم 3). ثم حاول أن ينافس "المسيا" وهو ما يزال أسيراً لسحر هندل. وكان

صفحة رقم : 13476

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إصلاح الموسيقى -> يوزف هايدن

سالومون قد قدم له نصاً مصنفاً من قصيدة لمتن "الفردوس المفقود"، وترجم فان زفيتن النص إلى الألمانية، ولحن هايدن الأوراثوريو الضخم "دي شويفونج" (الخليقة). وأدى إوراتوريو "الخليقة" أمام جمهور دعى إلى قصر الأمير

فون سفارتسنبرج في 29-30 إبريل 1798. وبلغ احتشاد الجمهور خارج القصر مبلغاً اقتضى معه حفظ النظام استخدام خمسين شرطياً من الخيالة (كما يؤكدون) (41). ومول الأمير حفلة عامة في المسرح القومي في 19 مارس 1799، ونفح مؤلف الموسيقى بكل دخلها (الذي بلغ أربعة آلاف فلورن). وحيا السامعون الموسيقى بحماسة أشبه بالحماسة الدينية، وما لبث الأوراتوريو أن استمع إليه الناس في كل مدينة كبرى تقريباً في العالم المسيحي. وأدانت الكنيسة الكاثوليكية اللحن لأنه أخف وأجذل من يصلح لموضوع جليل كهذا، ووافق شيلر بيتهوفن في السخرية من تقليد هايدن لحيوانات جنة عدن، أما جوته فقد أشاد بالعمل، وظفر اللحن في بروسيا بعروض في القرن التاسع عشر فاقت في كثرتها أي لحن كورالي آخر.

وقدم فان زفيتن نصاً آخر اقتبسه من قصيدة جيمس طومسن "الفصول". وعكف هايدن عليه بهمة قرابة عامين (1799-1801)، مما أضر كثيراً بصحته. وقد قال "أن" "الفصول" قصمت ظهري". وحظيت حفلة العرض الأولى باستقبال طيب، ولكن اللحن لم يثر حماسة واسعة أو دائمة. وبعد أن قاد هايدن "كلمات المسيح السابع الأخيرة" لصالح أحد المستشفيات اعتزل حياته النشطة.

وكانت زوجته قد ماتت في 20 مارس 1800، ولكنه كان الآن قد بلغ من الكبر حداً لا يتيح له الاستمتاع بحريته وإن لم يمنعه من الاستمتاع بشهرته. فقد اعترف به الناس أمام المؤلفين الموسيقيين، وتكاثر عليه أسباب التشريف من شتى المدن، ووفد عليه مشاهير الموسيقيين-أمثال كيروبييني، وآل فيبر، واجناز بلبيل، وهوميل-لتقديم واجب الاحترام والإجلال له. ولكن الروماتزم والدوار وغيرهما من الأصواب أورثته

صفحة رقم : 13477

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إصلاح الموسيقى -> يوزف هايدن

الاكتئاب وسرعة الغضب والتشبث الرهيب بأهدب الدين. وحين زاره كاميل بلبيل في 1805 وجده "ممسكاً بمسبحة في يديه، وأعتقد أنه يقضي أكثر يومه في الصلاة، وهو لا يفتأ يقول أن نهايته قد دنت... ولم نطل المكث معه لأننا رأينا أنه يريد أن نصلي(42). في ذلك العام انتشرت شائعة كاذبة زعمت أن هايدن مات. وكتب كيروبييني كنتاتا عن موته، وخطت باريس لحفلة موسيقية تذكارية يعزف فيها قداس موتسارت الجنائزية، ثم وصل نبأ بأن الشيخ ما زال على قيد الحياة. فلما سمع هايدن بالأمر قال معقياً "إذن لسافرت إلى باريس لأقود القداس الجنائزي بنفسي"(43). وظهر آخر مرة أمام الجمهور في 27 مارس 1809 حين رتل "الخليقة" في جامعة فيينا احتفالاً بعيد ميلاده السادس والسبعين الوشيك. وأرسل الأمير استرهاتسي مركبته لنقل الرجل العاجز إلى الحفلة الموسيقية. وحمل هايدن على كرسي ذي مسندين إلى القاعة بين الجمهور من النبلاء ومشاهير القوم، ولقت الأميرات شيلانهن حول جسده المرتعش. وجنأ بيتهوفن وقيل يده. وغلب التأثر المؤلف العجوز، ولم يكن بد من إعادته إلى بيته في فترة الاستراحة. وفي 12 مايو 1809 بدأت مدفعية نابليون تقصف فيينا. وسقطت قنبلة على مقربة من بيت هايدن فهزته هو وسكانه، ولكن هايدن قال ليطمئنهم "يا أبنائي لا تخافوا، فحيث يوجد هايدن لن يصيبكم سوء". وصدق قوله إلا عن نفسه، فقد حطم القصف جهازه العصبي. فلما استولى الفرنسيون على المدينة أمر نابليون بأن يربط حرس شرف أمام بيت المؤلف. ورتل ضابط فرنسي عند دخوله لحناً من "الخليقة" بطريقة فيها كثير من الرجولة والسمو حتى أن هايدن عانقه وفي 31 مايو قضى نحبه وهو في السابعة والسبعين، وأقامت كبرى مدن أوروبا كلها الصلوات تذكراً له. يقتصر إنجاز هايدن التاريخي على تطوير الأشكال الموسيقية. وقد أضفى على الأوركسترا حيوية جديدة بما أوجده من توازن بين الأوتار والآلات النفخ والنقر. وإذ بنى فوق جهود سامارتييني وشتامنز وكارل

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إصلاح الموسيقى -> يوزف هايدن

فليب إيمانويل باخ: فإنه أرسى شكل الصوناتا باعتبارها عرضاً وتفصيلاً وتلخيصاً لموضوعات متعارضة وأعد لموتسارت الموسيقي الخفيفة المسماة "ديفرتمنتو" باعتبارها أقل شكلية من المتتالية وأنسب اللقاءات الاجتماعية. وأعطى الرباعية الوترية صورتها الكلاسيكية بإطالتها إلى أربع حركات، وبإعطاء الحركة الأولى "شكل الصوناتا". وهنا كان على خلفائه أن يستخدموا عدد ونوع الآلات التي استخدمها هايدن، وقد حقق في كثير من الحالات جمالاً مشرقاً رقيقاً يعود إليه بعضنا متخففاً من التعقيدات العسيرة التي نجدها في رباعيات بيتهوفن الأخيرة. ولا تزال على قيد الحياة تسمع سمفونيات أو عشر من السمفونيات هايدن المائة والأربعة. ولم تكن الأسماء التي تحملها من اختياره ولكنها من وضع المعلقين أو الناشرين. وقد لاحظنا في مكان سابق تطور "السمفونية" (رأى الأصوات المجمع) من المقدمة بفضل تجارب سامرتيني وشتامتر. وقد سبق كثيرون هايدن في صياغة بناء السمفونية "الكلاسيكية" فلما خرج من استر هانتسا إلى عالم أرحب لم يكن قد بلغ من الكبر حداً يعجزه عن أن يتعلم من موتسارت كيف يملأ البناء مغزى وعاطفة. وتحدد "سمفونية أكسفورد" مرحلة صعوده إلى مدى أبعد وقوة أعظم، وترينا "السمفونية اللندنية" هايدن في قمة آفاقه السمفونية. والسمفونية رقم 101 (سمفونية الساعة) مبهجة، ورقم 104 لا يقل مستواها عن سمفونيات موتسارت.

ويمكن القول بوجه عام إننا نحس في موسيقاه طبيعة لطيفة سمحة ربما لم تشعر بأعمق الحزن أو الحب، طبيعة اضطرت إلى الإنتاج في عجلة لم تسمح بإنضاج الفكرة أو الموضوع أو الجملة. لقد كان هايدن أسعد من أن يبلغ العظمة العميقة، ولقد تكلم أكثر مما يتيح له التعبير عن الكثير. ومع ذلك فإن في هذه الأنغام اللعوب ذخيرة من البهجة الصافية الهادئة، فهنا كما قال "قد يستمتع المتعبون المكودون، أو الرجل الذي أثقلته هموم الحياة، ببعض السلى والانتعاش(44)".

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> إصلاح الموسيقى -> يوزف هايدن

وعقب موت هايدن انصرف العصر عن موسيقاه. فلقد عكست أعماله عالماً إقطاعياً ثابتاً وطيد الأركان، وبيئة من الأمن والدعة الأرسنقراطيين، وكان في هذه الأعمال من المرح والرضى عن النفس ما لا يشبع قرناً ملؤه الثورات والأزمات والنشوات الرومانسية واليأس. ولكن الناس عادوا يقبلون عليه حين امتدحه برامز وكتب دبوسي "تحية إجلال لهايدن" (1909). عندها أدرك الناس أنه إذا كان روفائيل وميكل أنجيلو الموسيقي اللذان جاء بعده قد سكبوا فكراً أعمق مع تمكن أرهف في مؤلفاتهما الموسيقية، فأنهما لم يستطيعا ذلك إلا لأن هايدن ومن سبقوه صاغوا الأشكال التي تلقاها فهما الرائع. قال هايدن "إني أعلم أن الله منحني موهبة، وأنا شاكر له هذه المنحة وأحسبني قمت بواجبي وكننت ذا نفع.. فليصنع الآخرون كما صنعت" (45).

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> الصبي العجيب

الفصل الخامس عشر

موتسارت

1- الصبي العجيب

1766-1756

كانت سالزبورج مخفراً موسيقياً لفيينا، شأنها في ذلك شأن براغ وبرسبورج واستر هاتسا، لها طابعها الخاص أولاً بسبب مناجم ملحها التي تعلل اسمها، وثانياً بسبب جبالها المجاورة ونهر زالتساخ الذي يشطرها شطرين، وثالثاً بسبب نموها حول الدير والكرسي الأسقي للذين أنشأهما هناك القديس روبرت الفورمزي حوالي عام 700م. وقد رقي رئيس أساقفتها لرتبة (الأمير الإمبراطور) في 1278، ومنذ ذلك التاريخ حتى عام 1802 ظل حاكم المدينة المدني والديني جميعاً. وفي 1731-32 أكره نحو ثلاثين ألف بروتستنتي على الهجرة، مخلفين سالزبورج كاثوليكية خالصة محكومة كلها بحكومة من رجال الدين الكاثوليك. وفيما عدا ذلك كان نير رئيس الأساقفة خفيفاً على سكان سنيي العقيدة، أقبلوا على المتع الجسدية وغيرها من مباحج الدنيا بعد أن اطمأنوا إلى حقائق الأبدية المؤكدة. وكان زيجسموند فون شرانتباخ رئيس الأساقفة أيام صبي موتسارت، رجلاً يتحلى بقدر كبير من الطيبة والشفقة إلا مع المهرطقين.

إلى هذه البلدة الجميلة إذن قدم ليوبولد موتسارت في 1737 وهو في الثامنة عشرة من وطنه أوجزبورج، ربما ليدرس اللاهوت ويمتهن القسوسية. ولكنه أسلم قلبه للموسيقى، وخدم ثلاث سنين موسيقياً وتابعاً في بيت أحد النبلاء، وفي 1743 أصبح رابع عازفي الكمان في أوركسترا رئيس الأساقفة. فلما تزوج أنا ماريا بيرتل (1747) عدهما القوم أجمل عروسين في سالزبورج. وقد ألف الكونشرتوات والقداسات والسمفونيات، كما ألف كتاباً مدرسياً لتقنية الكمان حظي طويلاً بالتقدير. وفي 1757 عين مؤلفاً موسيقياً لبلاط رئيس الأساقفة. ولم يبق الموت إلا على اثنين من

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> الصبي العجيب

أطفاله السبعة جاوزا سن الطفولة: ماريا أنا (ماريا "نانيزل") المولودة في 1751، وفولفجانج أماديوس المولود في 27 يناير 1756 (واسم الغلام الكامل-الذي تشفعت به الأسرة لدى قديسين عديدين- كان يوانس خريستومس فولفجانجس تيوفيلوس موتسارت، وقد ترجم تيوفيلوس من اليونانية إلى اللاتينية بأماديوس أي محب الله). وكان ليوبولد زوجاً وأباً طيباً، مخلصاً ومجتهداً. وخطاباته لولده تفيض محبة ولا تعوزها الحكمة. وكان بيت موتسارت-إذا أغضينا عن قليل من نابي الحديث يدور فيه-مرفأً للحب المتبادل، والتقوى الأبوية، والدعابات الطفلية، والموسيقى التي لا تنقضي.

كان القوم يتوقعون من كل طفل ألماني أن يصبح موسيقياً إلى حد ما، يعزف على إحدى الآلات. وعلم ليوبولد أطفاله الموسيقى مع مبادئ القراءة. فكانت ماريانا قد أتقنت في الحادية عشرة العزف على الكلافيكورد. أما فولفجانج فقد عكف على الكلافير في شغف بعد أن حفزته قدوته، فاستطاع في الثالثة أن يميز بين الأوتار، وفي الرابعة أن يعزف عدة قطع من الذاكرة، وفي الخامسة ابتكراً أحياناً سجلها أبوه أثناء عزفها. وامتنع ليوبولد عن اتخاذ تلاميذ آخرين يلتقهم الموسيقى ليفرغ بجملته لطفليه وإن كلفة ذلك بعض التضحية. ولم يرسل "فولف" إلى المدرسة، لأنه نوى أن يكون معلمه في كل شيء. ولعل هذا التعليم اقتضى شيئاً من الضبط الألمانيين ولكن لم تكن الحاجة لكثير منه في هذه الحالة، ذلك أن الغلام كان يلزم لوحة المفاتيح من تلقاء نفسه ساعات طوالاً إلى أن يجبر على مبارحتها(1). وقد كتب إليه ليوبولد بعد هذه الفترة بسنوات يقول:

"لقد كنت في مرحلة الطفولة والصبي تسلك مسلكاً جاداً يختلف عن مسلك سائر الأطفال، وحين كنت تعزف الكلافير، أو تعكف على الموسيقى، لم تكن تسمح بأقل مزاح معك. لا بل إن سحنك ذاتها كانت تتسم بطابع الجد الشديد، حتى لقد تنبأ الكثيرون ممن راقبوك بأنك ستموت قبل أو أنك بسبب نبوغك المبكر ومظهرك الجاد(2)".

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> الصبي العجيب

وفي يناير 1762، حين كانت ألمانيا مازالت تمزقها الحرب، اصطحب ليوبولد ابنته وابنه إلى ميونخ ليعرض على الأمير الناخب مكسمليان يوزف براعتهم في العزف، وفي سبتمبر استصحبهما إلى فيينا. ودعيا إلى شونبرون، وابتهجت ماريا تريزا وفرانس الأول بالطفلين، وقفز فولفجانج إلى حجر الإمبراطورة، وضمها إليه وقبلها، ولما تحداه الإمبراطور عزف على الكمان بأصبع واحد، وعزف على الكلافيكورد دون أن يخطئ رغم حجب المفاتيح بقطعة من قماش. وفيما كان فولفجانج يمرح وهو يجري مع الأميرات، زلت قدمه وسقط، فالتقطته الأرشيدوقة ماريا أنطونيا. وكانت في السابعة-سواحت تسري عنه. فقال لها "أنت طيبة"، ثم أضاف شاكرأ "سوف أتزوجك(3)". وفتح الكثير من النبلاء بيوتهم لآل موتسارت وبهتوا للموسيقى التي سمعوها وأثابوا ثلاثتهم بالمال والهدايا. ثم ألزم الغلام الفراش

أسبوعين لإصابته بالحمى القرمزية وكان هذا أول الأمراض الكثيرة التي ستتغص عليه رحلاته. وفي 1763 عادت الفرقة إلى سالزبورج.
وأغضى رئيس الأساقفة المتسامح عن تجاوز ليوبولد فترة إجازته، لا بل رقاها نائباً لرئيس فرقة المرتلين ولكن في 9 يونيو شد ليوبولد رحاله مرة أخرى مضحياً بالمزيد من الترقيات، مصطحباً هذه المرة زوجته، ليعرض ولديه على أوربا، إذ لم يكن ممكناً أن يظلا أبد الدهر طفلين معجزين. وقدم الطفلان حفلتين موسيقيتين في ماينز وأربعاً في فرانكفورت وقد استعاد جوته بعد سنتين عاماً ذكرى استماعه إلى إحداها، وكيف تعجب من "الرجل القصير ذي الباروكة والسيف" - لأنه هكذا ألبس ليوبولد ابنه فولفجانج كأنه عجيبة من عجائب السرك. ففي إعلان نشر في جريدة فرانكفورتية بتاريخ 30 أغسطس 1763 وعد المتخرجون في حفلة ذلك المساء بالآتي:
"ستعزف الفتاة الصغيرة ذات الإحدى عشرة سنة أعسر مؤلفات كبار الموسيقيين، أما الصبي الذي لم يبلغ السابعة بعد فسيعزف على الكلافيكورد

صفحة رقم : 13483

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> الصبي العجيب

أو الهاربسيكورد. كذلك سيعزف كونشرتو للفيولينة، ويصاحب سمفونيات على الكلافير ولوحة المفاتيح مغطاة بالقماش في يسر بالغ كأنه يبصر المفاتيح. وسيسمى جميع النغمات التي تعزف عن بعد، سواء مفردة أو متوافقة، على الكلافير أو على أية آلة أخرى -جرساً كانت أو كأساً أو ساعة. وأخيراً سيرتجل على الهاربسيكورد والأرغن طوال ما يراد له أن يعزف، وفي أي مقام(4)".
وربما أضرت هذه المطالب المرهقة التي فرضت على مواهب الصبي بعض الضرر بصحته أو أعصابه، ولكن يبدو أنه استمتع بتصفيق الجمهور استمتاع أبيه بدنانيره.
وقد عزفوا في كوبلنتز، وخاب أملهم في بون وكولونيا، ولكنهم أحبوا حفلة في آخن. وفي بروكسل توقعوا أن يشرف الحاكم العام الأمير شارل اللوريني الحفل بحضوره، ولكنه كان مشغولاً. كتب ليوبولد غاضباً:
"لقد انقضت علينا الآن قرابة ثلاثة أسابيع في بروكسل. دون أن يحدث شيء... وما من شغل لسموه غير الصيد والتهام الطعام والشراب، وقد تبين لنا في النهاية أنه مفلس... صحيح أننا لتقينا العديد من الهدايا هنا، ولكننا لا نريد أن نحولها إلى نقود... وسيكون في استطاعتنا بعد قليل أن نفتح متجرأ بكل هذه الهدايا من علب النشوق والحقائب الجلدية وما إليها منة توافه رخيصة(5)".

وأخيراً وافق الأمير على الحضور فأحييت الحفلة، وجمعت الدنانير، وركبت الفرقة ميممة باريس.
وفي 15 نوفمبر 1763 بلغوا باريس بعد معاناة ثلاثة أيام من السفر على طريق وعرة تملوها الحفر. وكانوا يحملون خطابات تقديم إلى كثير من الأعيان، ولكن تبين أن أثنها خطاب إلى ملشور جريم، الذي رتب أن يستقبل آل موتسارت مدام ديمبادور، والأسرة المالكة، وأخيراً لويس الخامس عشر والملكة ماري لسزنسكا. وفتحت الآن أفخم البيوت للزائرين،

صفحة رقم : 13484

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> الصبي العجيب

وحالف التوفيق حفلاتهم الخاصة والعامة، وكتب جريم إلى قرانه في حماسة يقول:
"إن المعجزات الحقيقية نادرة، ولكن ما أعجب أن نتاح لنا الفرصة لرؤية واحدة منها! لقد قدم لتوه رئيس فرقة مرتلين من سالزبورج اسمه موتسارت بصحبة اثنتين من أجمل الأطفال في العالم في فاما ابنته البالغة من العمر أحد عشر ربيعاً فتعزف على البيان أروع عزف، وتؤدي أطول المقطوعات وأصعبها بدقة مذهلة. وأما أخوها الذي سيبلغ السابعة في فبراير القادم فظاهرة خراقة بحيث لا تكاد تصدق ما تراه بعينيك... فيداه صغيرتان جداً... وهو يرتجل ساعة، مستسلماً لوحى عبقريته، بذخيرة من الأفكار المبهجة... وليس لدى أكفأ رئيس لفرقة موسيقى ما لهذا الطفل من المعرفة العميقة يتألف الألحان والتنقل بين النغمات... وليس أبسر عنده من حل أي رموز تضعها أمامه. وهو يكتب ويؤلف ببسر مدهش، ولا يجد ضرورة للذهاب إلى البيانو واختبار الأوتار التي يريدتها. وكتب له "منويتا" وطلبت إليه أن يضع باصاً لها. فأمسك بقلم وكتب الباص دون أن يذهب إلى البيان... أن الطفل سيدير رأسي إن استمعت إلى المزيد من عزفه... ومن أسف أن الناس في هذا البلد لا يفقهون عن الموسيقى إلا أقل القليل(6)".
وبعد أن حققت الأسرة الكثير من الانتصارات في باريس غادرتها إلى كاليه (10 إبريل 1764). وفي لندن استقبلهم جورج الثالث. وفي 19 مايو، أمام الملك والحاشية، طوال أربع ساعات عزف فولفجانج موسيقى هندل وباخ. غيرهما من كبار الموسيقيين بمجرد النظر إلى المدونة وصاحب غناء الملكة شارلوت، وارتجل لحناً جديداً لباص أغنية لهندل. أما بوهان كرستيان باخ، الذي كان قد اتخذ لندن مقاماً له في 1762، فأجلس الصبي على ركبته وعزف معه صوناتا، وكان كل منهما يعزف فاصلة بدوره "في دقة بالغة ما كان في استطاعة أحد معهما أن يحسب العزف من عازفين لا من عازف واحد(7)". وبدأ بلخ "فوجة"، وتابعها

صفحة رقم : 13485

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> الصبي العجيب

فولفجانج، كما لو كان العازفان العبقران عازفاً واحداً هنا أيضاً. وبعدها طلعت مؤلفات موتسارت سنوات عديدة متأثرة ببوهان كرستيان باخ. وفي 5 يونيو أحيا الطفلان حفلة أبهجت قلب ليوبولد بمائة جنية إنجليزي خالصة. ولكن الأب أصيب بالتهاب شديد في الحلق، واعتكفت الأسرة للاستجمام أسابيع عدة، ألف فيها فولفجانج سمفونيتين (ك16 و19)، وكان الآن يناهز الثامنة.
وفي 24 يوليو 1765 غادروا لندن إلى هولندا، ولكن في مدينة ليل مرض الوالد وولده، وأرجئت الجولة شهراً، وإن كان رئيس الأساقفة فون شرانتباخ قد طلب إلى ليوبولد أن يعود منذ زمن. ووصلوا إلى لاهاي في 11 سبتمبر، ولكن في الغد مرضت ماريانا بدورها، ولم تلبث أن تدهورت حالها حتى أنها في 21 أكتوبر تناولت الأسرار المقدسة الأخيرة. وفي 30 سبتمبر أحيا فولفجانج حفلة بدون مساعدة أخته. وما أن تماثلت للشفاء حتى دهمته الحمى، واضطرت الأسرة إلى تعطل كلفها غالباً حتى يناير 1766. وفي 29 يناير و26 فبراير أحيا حفلات في أمستردام، وعزفت الآن لأول مرة سمفونية لموتسارت (ك22) أمام الجمهور. وكان الصبي خلال هذه الشهور يؤلف في نشاط محموم. وفي مايو قفلوا إلى باريس حيث كانوا كثيراً من حقائبهم. وهياً جريم لهم مسكناً مريحاً، وعادوا يعزفون في فرساي وفي حفلات عامة، ولم يقتلوا أنفسهم من العاصمة الفاتنة إلا في 9 يوليو.

وأطالوا المكث في ديجون ضيوفاً على أمير كونديه، وأنفقوا أربعة أسابيع في ليون، وثلاثة في جنيف، وأسبوعاً في لوزان؛ وآخر في برن، وأثنى في زيورخ، واثنى عشر يوماً في دوناوشنجن ثم وقفات قصيرة في بيبراخ، وأولم، وأجزبورج، وفترة أطول في ميونخ، حيث مرض فولفجانج مرة أخرى. وأخيراً، في أخريات نوفمبر 1766، وبعد غيبة ثلاث سنين ونصف، وصلت الأسرة إلى سالزبورج. وصفح عنهم رئيس الأساقفة الشيخ، واستطاعوا الآن أن ينعموا بأسباب الراحة المتاحة في

صفحة رقم : 13486

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> الصبي العجيب

بيتهم. وبدا أن كل شيء على ما يرام، ولكن موتسارت لم يستعد بعدها صحته موفورة قط.

صفحة رقم : 13487

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> مرحلة المراهقة

2- مرحلة المراهقة

1766 - 1777

كان ليوبولد رب عمل صارماً لا يعرف هوادة ولا لين له قناة. درب ولده تدريباً شاقاً على دراسة الكونترابنت. والباص الدقيق الكامل، وغير ذلك من عناصر التأليف الموسيقي التي تلقاها من الموسيقى الألمانية والإيطالية. وحين سمع الأسقف أن فولفجانج يؤلف الموسيقى تساءل ألم يتعاون معه أبوه في هذا التأليف. ولكي يقطع الشك باليقين دعا الغلام معه أسبوعاً ثم عزله عن كل معونة خارجية، ودفع إليه ورقاً وقلماً وأعطاه هاريسيكورداً وطلب إليه أن يؤلف قسماً من أوراتوريو عن الوصية الأولى. وفي ختام الأسبوع قدم إليه موتسارت نتيجة عمله، وقيل لرئيس الأساقفة. إنها جديرة بالثناء. وكلف رئيس أوركستره ميخائيل (أخا يوزف) هايدن بأن يؤلف قسماً ثانياً، وعازف أرغنه أن

يؤلف قسماً ثالثاً، ثم عزف الكل في قصر رئاسة الأسقفية في 12 مارس 1767، وروي أنه يستحق الإعادة في 2 إبريل. وقسم موتسارت واردة الآن تحت رقم 35 في كنالوج كوشل .
وبلغ ليوبولد أن الأرشيديوقه ماريا يوزفا ستزف قريباً إلى فرديناند ملك نابلي، فخطر الاحتفالات التي ستقام في القصر الإمبراطوري ستتيح فرصة جديدة لولديه. وعليه قصدت الأسرة فيينا في 11 سبتمبر 1767. فاستقبلوا في القصر، وكانت النتيجة إصابة فولفجانج وماريانا كليهما بالجذري الذي التقط عدواه من العروس. وأخذ الأبوان التعسبان طفليهما المعجزين إلى أولموتز بمورافيا، حيث قدم لهما الكونت بوتستاتسكي

صفحة رقم : 13488

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> مرحلة المراهقة

المأوى والرعاية وظل موتسارت أعمى تسعة أيام. وفي 10 يناير عادت الأسرة إلى فيينا. واحتفلت بهم الإمبراطورة ويوزف الثاني، ولكن البلاط كان في حداد على وفاة العروس، ولم يكن هناك محل لأحياء حفلات موسيقية.
وبعد غياب طويل لا نفع فيه عادت الأسرة إلى سالزبورج (5 يناير 1769) وواصل موتسارت دراسته مع أبيه، ولكن في أواخر ذلك العام قدر ليوبولد أنه علم الصبي كل ما يستطيع أن يعلمه، وأن ما يحتاج إليه فولفجانج الآن هو الإلمام بحياة إيطاليا الموسيقية. ومن ثم حصل الأب وابنه على خطابات تقديم لكبار الموسيقيين الإيطاليين من يوهان هاسي وغيره، ثم انطلقا في رحلتها في 13 ديسمبر 1769 تاركين ماريانا وأمها ليحتفظا بموطئ قدم في سالزبورج. وفي الليلة التالية أحيا موتسارت حفلة في إنزبروك، وعزف بمجرد الإطلاع على النوتة كونشرتو غير مألوف وضع أمامه امتحاناً لمهارته، وهلت الصحافة المحلية لـ "معلوماته الموسيقية الخارقة (8)". وفي ميلان التقيا بساماريني وهاسي وبتشيني، وحصل الكونت فون فرميان لفولفجانج على تكليف بتأليف أوبرا، وهذا معناه مائة دوقاتية تدخل الأسرة. وفي بولونيا استمعنا إلى صوت فارينللي الذي لم يزل معجزاً، وكان قد عاد من انتصاراته في أسبانيا، ورتبا مع بادري مارتيني أن يعود فولفجانج ليدخل الاختبارات المؤهلة لدبلوم "الأكاديميات فيلارمونيكاً" المرموق. وفي فلورنسة، في قصر الأرشيديوق ليوبولد، عزف موتسارت على الهاربسيكورد مصاحباً فيولينة نارديني. ثم هرع الأب وولده إلى روما ليلحقا موسيقى أسبوع الألام.
ووصلا في 11 إبريل 1770، أثناء عاصفة رعدية برقية، فحق لليوبولد أن يكتب أنهما "استقبلا استقبال عظماء الرجال بإطلاق المدافع (9)". وكان وصولهما بالضبط في وقت سمح لهما بالذهاب إلى كنيسة السستين والاستماع إلى "ميزريري" (لحن المزمور الخمسين "أرحمني") الذي ألفه جريجوريو الليجيري، والذي كان يرتل هناك كل عام. وكان من العسير

صفحة رقم : 13489

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> مرحلة المراهقة

الحصول على نسخ من هذا الكورال الأشهر المكتوب لأربعة أصوات أو خمسة أو تسعة، فأصغى إليه موتسارت مرتين ثم كتبه من الذاكرة. ومكثا في روما أربعة أسابيع، وأحيا حفلات موسيقية في بيوت النبلاء مدنيين وكنسيين. وفي 8 مايو انطلقا في رحلتها إلى نابلي. وكان الطريق خطراً لانتشار اللصوص فيه، فسافر موتسارت وأبوه مع أربعة رهبان أو غسطينيين لينا لا الحماية الدينية أو يظفرا بتناول القربان قبل الموت في هذه الضرورة الملحة. واستبقتهما نابلي شهراً بأكمله لأن النبلاء ابتداء من تانوتشي فتاز لا دعوهما لأمسيات ووضعوا كل أسباب الترف تحت تصرفهما. فلما عزف فولفجانج في "الكونسرتوريو ديللا بيتا" غزا الجمهور المؤمن بالخرافات براعته لضرب من السحر كامن في خاتم يلبسه. وأدهشهم أنه واصل العزف بالبراعة ذاتها بعد أن خلع خاتمه. وبعد أن استمتعا بالمقام في روما مرة أخرى عبرا الأبنين ليصليا للعدراء في كنيسة "سانتا كازا" بلورينا، ثم اتجها شمالاً لينفقا ثلاثة أشهر في بولونيا. وكان موتسارت يتلقى كل يوم تقريباً دروساً من بادري مارتيني في أسرار التأليف الموسيقي. ثم تقدم لاختبار القبول في "الأكاديمية فيلارمونيك"، فأعطى قطعة من ترنيمة بسيطة جريجورية، طلب إليه أن يضيف إليها وهو محبوس وحده في حجرة نوتات علياً ثلاثاً بالأسلوب التقليدي الدقيق "Stile Osserrato" وأخفق في المحاولة، ولكن البادري الطيب صحح إجابته، وقبل المحفون الصورة المنقحة "نظراً إلى الظروف الخاصة" ربما لصغر سن موتسارت.

وفي 18 أكتوبر كان الوالد والولد في ميلان. هناك حقق فولفجانج أول انتصاراته مؤلفاً موسيقياً، ولكن بعد الجهد والجهاد والمعاناة الكثيرة وكان موضوع الأوبرا التي كلف بها "مترداتي، ملك بنطس"، وقد أخذ النص من راسين. وراح الفتى الذي لم يتجاوز الرابعة عشرة يكذب ويكذب تأليفاً وعزفاً وتنقيحاً حتى كلت أصابعه واستحالت حماسته ضرباً من الحمى، فاضطره أبوه إلى أن يحدد ساعات عمله ويهدئ من اضطرابه بنزهة على

صفحة رقم : 13490

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> مرحلة المراهقة

الأقدام بين الحين والحين. وأحس موتسارت أن هذا الاختبار، وهو أول أوبرا جادة يؤلف موسيقاها، أشد خطراً له من ذلك الامتحان العتيق الذي أداه في بولونيا. فقد يكون مستقبله مؤلفاً لموسيقى الأوبرا رهنا بنتيجته. وتوسل الآن إلى أمه وأخته أن يصليا من أجل نجاح هذه المغامرة رغم أنه لم يكن شديد الميل إلى التقوى والورع، "حتى ننعم كلنا بالعيش معاً مرة أخرى" (10). وأخيراً حين كادت تضنيه كثرة البروفات، قدمت الأوبرا للجمهور (26 ديسمبر 1770)، وقادها مؤلفها، وكان انتصاره كاملاً. وقوبلت كل أغنية هامة بالتصفيق الحاد، وبعضها بهتافات يحيى المايسترو يحيى المايسترو الصغير. أعيد عرض الأوبرا عشرين مرة. كتب الأب الفخور التقى "بهذا نرى كيف تعمل قوة الله فينا حين لا ندفن المواهب التي منحنا إياها فضلاً منه" (11).

واستطاعا الآن أن يعودا إلى موطنهما برؤوس مرفوعة. ففي 28 مارس 1771 وصلا إلى سالزبورج. وما أن بلغاها حتى تلقيا طلباً من الكونت فون فرمان، باسم الإمبراطورة، يرجو أن يكتب فولفجانج سريناتا أو كنتاتا، ويحضر إلى ميلان في أكتوبر ليقودها جزءاً من الاحتفالات التي ستقام بمناسبة زفاف الأرشيدوق فرديناند إلى أميرة مودينا. ووافق رئيس الأساقفة زجسmond على أن يتغيب ليوبولد مرة أخرى عن أعماله، وفي 13 أغسطس يمم الوالد والولد من جديد شطراً إيطالياً، فلما وصلا إلى ميلان وجدا فيها هاسي يعد أوبرا للاحتفالات ذاتها. وقد رتب المديرين ربما عن غير عمد منهم لقاء للعبقرية يتنافس فيه أشهر مؤلفي الأوبرا الإيطالية الأحياء، البالغ آنذاك ثلاثة وسبعين عاماً، مع غلام الخامسة عشرة الذي لم يكذب يفرغ من اختبار جناحه في التحليق الأوبرالي. وأديت أوبرا هاسي المسماة "رورجيو" في 16 أكتوبر فقوبلت بتصفيق حار وفي الغد رتلت كنتاتا موتسارت المسماة (Aseanio in Alba) تحت عصا

قيادته، وكان التصفيق خارقاً. وكتب ليوبولد لزوجته "يوسفني أن سريناتا فولفجانج طمست أوبرا هاسي طمساً تاماً(12). وكان هاسي

صفحة رقم : 13491

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> مرحلة المراهقة

كريماً سمح النفس، فشارك في الثناء على موتسارت، وفاه بنبوذة مشهورة "إن هذا الفتى سيلقينا كلنا في زوايا النسيان"(13). وعاد الوالد والولد إلى سالزبورج (11 ديسمبر 1771). وبعد خمسة أيام مات زجسموند الطيب. وكان خلفه في رئاسة الأسقفية، وهو هيرونيموس فون باولا، كونت كوللوريدو رجلاً عقلاني الثقافة، معجباً بروسو وفولتير، مستبداً مستنيراً يتوق إلى تنفيذ الإصلاحات التي كان يعدها يوزف الثاني. ولكنه فاق حتى يوزف في استبداده مع استنارته، فكان يشترط الانضباط والطاعة ولا يطبق المعرضة. ولم يقنع من موتسارت إسهاماً في حفل تنصيبه في 29 إبريل 1772 بأقل من أوبرا يؤلفها لهذه المناسبة. واستجاب الفتى الذي ذاع صيته سريعاً بأوبرا "حلم سكيبيو"، وقد وقت بالغرض منها ثم نسيت. واعتقرها كوللوريدو، وعين فولفجانج لفرقة الموسيقى براتب سنوي قدره 150 فلوريناً. وعكف الفتى شهوراً على تأليف السمفونيات الرباعية والموسيقى الدينية، ولكنه أكب أيضاً على أوبرا "لوتشيو سيللا" التي طلبتها ميلان لتعرض في 1773. ولم يحل 4 نوفمبر 1772 حتى كان ليوبولد وصانع ثروته في عاصمة لومبارديا مرة أخرى، وراح فولف بعد قليل يكدح ويكدح ليوفق بين أفكاره الموسيقية ونزوات المغنين وقدراتهم. وبدأت مغنية الأوبرا الأولى "البريمادونا" بالخطوة والبرم بكل شيء، وكان "المايسترينو" صبوراً طويل الأناة معها، وانتهت بحبه وصرحت بأنها "قد منتهتها المعاملة الفذة التي عاملها بها موتسارت"(14). ولم تلاق حفلة الافتتاح (26 فبراير 1772) النجاح الأكيد الذي لقيته "متريداتي" قبل عامين، فقد مرض المغني التينور أثناء البروفات، واقتضى الأمر إجلال مغن آخر محله لم يكن له سابق خبرة على خشبة المسرح، ومع ذلك احتملت الأوبرا تسعة عشر عرضاً. وكانت موسيقاها صعبة، والأغاني منشودة بالانفعالات فوق ما ينبغي. ولعل أثراً من الحركة الأدبية الألمانية المسماة

صفحة رقم : 13492

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> مرحلة المراهقة

Sturm und Drang (أي الدفع والجهاد، وهي ثورة على التنوير الفرنسي) وقد دخل هنا دخولاً معارضاً إلى الأوبرا الإيطالية(15). على موتسارت جلب معه نظير هذا وضوح الغناء الإيطالي الجميل (البيل كانتو)، وزادت أجواء إيطاليا المشرقة وحيات هوائها الطليق من إشراق روحه السعيدة بفطرتها. وتعلم غب إيطاليا أن الأوبرا الهازلة،

كما سمعها في أعمال بنتشيني وبايز بيللو، يمكن أن تكون فناً رفيعاً، فدرس شكلها، وأبلغه الكمال في "دون جوفاني" لقد كانت كل تجربة يمر بها تعليماً لذهنه اليقظ وأذنيه المرهقتين.

وشهد 13 مارس 1773 الوالد والولد مرة أخرى في سالزبورج. ولم يكن رئيس الأساقفة الجديد متسامحاً في فترات غيابهما الطويل كما كان زجسموند، ولم ير مبرراً لمكافأة ليوبولد بترقيته، وعامل فولفجانج كأنه مجرد فرد في حاشيته الخاصة. وتوقع من موتسارت وأبيه أن يزودا كورسه وأوركستراه بالموسيقى فوراً، جديدة، جيدة. فظلاً يشقيان عامين ليرضياه. ولكن ليولولد لم يدر كيف يستطع أن يعول أسرته دون هذه الجولات الإضافية، أما فولفجانج الذي تعود على سماع تصفيق الاستحسان له فلم يستطع تقبل وضعه خادماً موسيقياً. ثم أنه أراد أن يكتب الأوبرات، وكان مسرح سالزبورج، وكورسها، وأوركستراها وجمهورها-كل أولئك أصغر من أن يسمح لهذا الفرخ الألمعي بأن يرفرف جناحيه النامين.

ثم انتشعت السحب فترة حين كلف مكسمليان يوزف أمير بافاريا الناخب موتسارت بأن يكتب لأوبرا هازلة لكرنفال ميونخ لعام 1775، وحصل على موافقة رئيس الأساقفة، بمنح المؤلف وأبيه إجازة من العمل. فغادرا سالزبورج في 6 ديسمبر 1774. وعانى فولفجانج من البرد القارس الذي ابتلاه بوجع في الأضراس أسى من أن تخفف من الموسيقى أو الفلسفة ولكن حفلة الافتتاح لأوبرا "البستانية المزعومة" التي قدمت في 13 يناير 1775 حملت كرستيان شوبارت- وكان مؤلفاً مرموقاً-على التنبؤ بأنه

صفحة رقم : 13493

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> مرحلة المراهقة

"ما لم يثبت موتسارت في النهاية أنه نبات ربه ربي في مستنبت زجاجي (أي عجلت بنموه العناية البيئية المكثفة)، فست أشك في أنه سيصبح من أعظم المؤلفين الموسيقيين حتى يومنا هذا" (16). وعاد موتسارت إلى سالزبورج ورأسه يدوم بنشوة النجاح ليقوم بخدمة أحس أنها ضرب حقير من العبودية.

وأمر رئيس الأساقفة بدراما موسيقية احتفالاً بزيارة الأرشيدوق مكسمليان ابن ماريا تريزا الأصغر، وأخذ موتسارت نصاً قديماً لمتاستازيو وألف "الملك الراعي". وقد أديت في 23 إبريل 1775. والقصة سخيفة، أما الموسيقى فرائعة، وما زالت مقتطفات منها تظهر في ربرتولا الحفلات الموسيقية. وكان موتسارت في غضون هذا يتدقق بالصوناتات والسمفونيات والكونشرتوات والسريناتات، والقداسات، ومن مؤلفات هذه الأعوام التسعة قطع تعد من روائحه الخالدة- مثل كونشرتو البيانو في مقام E (ك250). على أن رئيس الأساقفة قال له إنه لا يفقه شيئاً في فن التأليف الموسيقي، وإن عليه أن يذهب ليدرس في كونسرفتوار نابلي (17).

وطلب ليوبولد بأن يأخذ ابنه في جولة بعد أن عجز عن احتمال الموقف فوق ما احتمال، فرض كوللوريدو وقال إنه لا يسمح بأن يظل أفراد من موظفيه "يستجدون الرحلات" فلما عاود ليوبولد الطلب فصله رئيس الأساقفة هو وابنه من وظيفتيهما. وأغتنب فولفجانج، ولكن ليوبولد روعته فكرة القذف به وهو في السادسة والخمسين في خضم عالم لا يميز الطبيب من الخبيث. ولانت قناة رئيس الأساقفة ورده إلى منصبه، ولكنه لم يسمح له بأي غياب عم عمله. فمن تراه يصحب فولفجانج الآن في الغزوة البعيدة التي اختطت له؟ لقد بلغ موتسارت الحادية والعشرين، وهي سن المغامرة الجنسية والقيود الزيجية، ولقد كان الآن أحوج إلى الإرشاد منه في وقت مضى. ومن ثم قرر أن تصحبه أمه. أما ماري التي حاولت أن تنسى أنها هي أيضاً كانت فيما مضى فتاة عبقرية فقد مكثت لتبذل لأبيها

صفحة رقم : 13494

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> مرحلة المراهقة

أكرم الرعاية والمحبة. وفي 23 سبتمبر 1777 غادرت الأم وأبناها يالزبورج ليغزوا ألمانيا وفرنسا.

صفحة رقم : 13495

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> الموسيقى والزواج

3- الموسيقى والزواج

1778 - 1777

كتب موتسارت لأبيه-من ميونخ في 26 سبتمبر يتغنى بما ظفر به من تحرر: "إنني أفضل حالاتي النفسية، فرأسي تخفف من الأثقال كأنه الريشة منذ انطلقت بعيداً عن ذلك الهراء، وفوق ذلك أصبحت أسمن من ذي قبل" (18). ولا بد أن هذا الخطاب تقاطع مع خطاب من ليوبولد، الذي قد يذكرنا انفعاله مرة أخرى بأن أحداث التاريخ كتبت على أجساد البشر:

"بعد أن رحلتما كلاهما صعدت سلمنا في غاية التعب، وألقيت بنفسي على مقعد. وحين تبادلنا عبارات الوداع بذلت جهوداً كبيرة لأتماسك حتى لا أجعل فرأنا شديد الإيلام؛ وفي غمرة الزحام والاضطراب نسيت أن أمنح ولدي بركة الأب. فعدوت إلى النافذة وأرسلت بركتي خلفك ولكني لم أرك...وقد بكت نانيرل بكاء مرأ...وكلانا نرسل التحيات ونقلك أنت وهي ملايين المرات" (19).

وعلمت ميونيخ فولفجانج إنه لم يعد معجزاً في عالم الموسيقى، إنما هو موسيقى فرد بلد يفوق فيه المعروف من مؤلفي الموسيقى وعاز فيها عدد المطلوب منهم. وكان الأمل قد راوده في الحصول على وظيفة طيبة في حاشية الناخب الموسيقية، ولكن كل الوظائف كانت مشغولة. فمضت الأم وولدها إلى أوجزبورج، حيث أفنيا نفسيهما في زيارة أصدقاء ليوبولد أيام شبابه استجابة لإلحاح ليوبولد، ولكن أحياء منهم كان أكثرهم الآن يشكو السمنة والركود، ولم يجد فولفجانج فيهم ما يثير اهتمامه اللهم إلا ابنه عم مرحلة تدعى ماريا أنا تكلا موتسارت سوف يخلد اسمها بعبارات بذينة. وكان أدنى إلى عرضه صانع بيانات يدعى بوهان أندرياس شتاين، هنا

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> الموسيقى والزواج

ولأول مرة بدأ موتسارت الذي كان إلى الآن يعزف على الهاريسيكورد يقدر إمكانيات الآلة الجديدة، وما أن بلغ باريس حتى كان قد تم انتقاله إلى البيانو. وفي حفلة موسيقية في أوجزبورج عزف على البيانو والفيولينة فظفر بتصفيق شديد وريح ضئيل.

وفي 26 أكتوبر مضت الأم وابنها إلى مانهايم. هناك استمتع موتسارت بالصحبة والتشجيع من موسيقيين بارعين، ولكن الأمير الناخب كارل تيودور لم يستطيع أن يجد له وظيفة، واكتفى بأن أثابه على أدائه في البلاط بساعة ذهبية لا أكثر. وكتب موتسارت إلى أبيه يقول "كان أصلح لي أن يفحني بعشرة كارواينات... إن النقود هي ما يحتاج إليه المرء وهو في رحلة، وأعلم أنني الآن املك خمس ساعات... وأنا أفكر جدياً في عمل جيب للساعات في كل سرول من سراويلي، وحين أزور شريفاً كبيراً سألبس ساعتين... حتى لا يخطر له أن يفحني بساعة(20)". ونصحه ليوبولد أن يبادر بالرحيل إلى باريس حيث يتلقى المساعدة من جريم ومدام دبينييه، وكلن فولفجانج اقنع أمه بأن الرحلة أشق من أن تطيقها في شهور الشتاء. وإذا افترض ليوبولد أنهما راحلان عما قليل إلى باريس، فقد حذر فولفجانج من نساها وموسيقيها، وذكره بأنه الآن الأمل المرجو في إعالة الأسرة. وقال ليوبولد إنه استدان سبعمائة جولدن، وأنه يعطي دروساً خصوصية في شيخوخته.

"وهذا أيضاً في بلدة يبخس فيها أجر هذا العمل المرهق... إن مستقبلنا رهن بفطنتك الكبيرة... وأنا عليم بأنك تحبني، لا بوصفي أباك فحسب، بل أصدق أصدقائك وأوفاهم، وأنت تفهم وتقد أن سعادتنا وشقاينا، وأكثر من ذلك طول أجلي أو التعجيل بموتي، كلها... في يدك أنت بعد الله. وإذا كنت قد أصبت في قراءة أفكارك، فإني لا أتوقع منك غير الفرح والاعتباط، وهذا وحده خليق أن يعزيني وأنا محروم لغيابك من بهجة الأب وأما أسمعك وأبصرك وأضمك بين ذراعي.. من صميم قلبي أمنحك بركتي الأبوية(21)".

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> الموسيقى والزواج

وفي إحدى خطابات ليوبولد (9 فبراير 1778) أضافت "نانيريل" التي بلغت الآن السادسة والعشرين والتي كانت لعدم توفر المهر تواجه مستقبل العوانس، سطوراً تكمل صورة هذه الأسرة المتاحة:
"إن بابا لا يترك لي أبداً كتب لماماً ولكن...إني أتوسل إليها إلا تنساني...وأتمنى رحلة سعيدة سارة إلى باريس مقرونة بالصحة السابعة. على أنني أرجو صداقة أن أستطيع عناقكما سريعاً. والله وحده عليم متى يحدث هذا. كلانا نوافق لأن تحقق لنفسك الثراء، فهذا معناه سعادتنا جميعاً. إني أقبل يدي ماما وأعانقك، وأمل أن تذكرنا وتفكر فينا دائماً. ولكن عليك ألا تفعل إلا إذا كان في وقتك متسع، ولو ربع ساعة تتخفف أثناءه من التأليف والتدريس"(22).

في هذا المزاج من التفاؤل العظيم والثقة المشربة بالحب تلقى ليوبولد خطاباً كتبه فولفجانج في 4 فبراير يعلن إليه فيه وصول كيويبيد. ذلك أن رجلاً من صغار الموسيقيين في مانهايم يدعى فريدولين فيبر، حباه الحظ وأثقل كاهله بزوجة وخمس بنات وولد. وكانت السيدة فيبر تلقي شباكها لتقتنص الأزواج، لا سيما لكبرى بناتها يوزيفان ذات التسعة عشر ربيعاً، التي بلغت سن الزواج وخيف أن تقوتها سوقه. ولن موتسارت تعلق بألويسيا ذات الستة عشر ربيعاً، التي جعلها صوتها الملانكي ومفاتها الرائعة حلاً يرأود خيال الموسيقي الشاب. ولم يكد يلحظ مونستاننتسي ذات الأربعة عشر ربيعاً التي قدر لها أن تكون زوجة. وقد ألف لألويسيا بعضاً من أرق أغانيه. فلما غنتها نسي مطامحه وفكر في مرافقتها مع يوزيفان وأبيهما - إلى إيطاليا حيث تستطيع الحصول على تدريب صوتي وتتاح لها فرص أوبرالية، بينما يعينهم هو على العيش بإحياء الحفلات الموسيقية وتأليف الأوبرات. كل هذا شرحه العاشق الصغير الشجاع لأبيه قال: "لقد أحببت هذه الأسرة للتسعة حياً جعل أعز أمانى أن أسعدهم... ونصيحتي إليهم أن يقصدوا إيطاليا. والآن أود أن تكتب لصديقنا الطبيب

صفحة رقم : 13498

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> الموسيقى والزواج

لوجاتي، وخير البر عاجله، وتستفسر منه عن أفضل الشروط التي تُعطى لمغنية أوبرا أولى في فيرونا... أما عن غناء ألويسيا فاني أراهن بحياتي أنها ستجلب لي الشهرة. فإذا نجحت خطتنا فإننا -الهر فيبر، وأبنتنا وأنا- سنسرف بزيارة أختنا العزيزة أسبوعين في طريقنا مروراً بسالزبورج... وسيسرنى أن أكتب أوبرا لفيرونا لقاء خمسين تسكيني (650 دولاراً) ولو نتاح لها فرصة الشهرة... وسوف تكون الأبنة الكبرى نافعة جداً لنا، لأنها تستطيع أن تدير شؤون بيتنا، فهي خبيرة بالطهو، وبالمناسبة، لا تدهش كثيراً إذا عرفت أنه لم يبقَ معي سوى اثني وأربعين جولدناً من السبعة والسبعين، وليس هذا إلا نتيجة ابتهاجي لوجودي مرة أخرى في صحبة قوم شرفاء على شاكلتي في لتكثير... "وافني برد سريع. ولا تنس مبلغ شوقي لكتابة الأوبرات. وأنا أحسد أي إنسان يؤلف أوبرا. وأكاد أبكي غيضاً حين أسمع... لحناً (أرباً). ولكن أوبرا إيطالية لا ألمانية، وجادة لا هازلة.. والآن قد كتبت كل ما يثقل صدري. وأمى راضية تمام الرضى عن أفكارى... وفكرة مساعدة أسرة فقيرة دون الإضرار بي تبهج نفسي في الصميم. إنني أقبل يديك ألف مرة، وما زلت حتى الموت ولدك المطيع جداً(23)".

ورد ليوبولد في 11 فبراير:

"يا ولدي العزيز: لقد قرأت خطابك المؤرخ 4 الجاري بدهشة وروع. لقد جفاني النوم الليل كله... يا إلهي الرحيم!... لقد ولت تلك اللحظات السعيدة حين كنت وأنت طفل أو غلام لا تمضي إلى فراشك دون أن تقف على كرسي وترتل لي... وتقبلني المرة بعد المرة على طرف أنفي وتقول لي إنني حين أشبخ ستضعني في صندوق زجاجي وتحميني من كل نسمة هواء، حتى تحتفظ بي دائماً وتكرمني. أصغ إليّ إذن وتذرع بالصبر!..."

ومضى يقول إنه كان يأمل أن يؤجل فولفجانج زواجه حتى يؤمن

صفحة رقم : 13499

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> الموسيقى والزواج

لنفسه مكاناً مكيناً في عالم الموسيقى، وعندها يبني بزوجة صالحة، وينجب أسرة طيبة، ويعين أبويه وشقيقته. ولكن هذا الابن ينسى الآن أبويه بعد أن فتته "سيرانة" شابة، ولا يفكر إلا في أن يتبع فتاة إلى إيطاليا كأنه فرد من بطانتها. فياله من هراء لا يصدق!

"انطلق إلى باريس، ومن فورك، وأبحث عن مكانك بين عظماء القوم، فأما أن تكون شيئاً عظيماً أو لا شيء إطلاقاً، فمن باريس يدوي اسم الرجل ذي الموهبة العظمى وشهرته ويجلجلان في أرجاء الدنيا بأسرها. هناك يعامل النبلاء العبقريين بأعظم احترام وتقدير ومجاملة، وهناك سترى أسلوباً مهذباً في الحياة هو النقيض المذهل لخشونة رجال حاشيتنا الألمان ونسائهم، وهناك تستطيع التمكن من اللغة الفرنسية" (24).

وأجاب موتسارت في تواضع بأنه لم يأخذ مأخذ الجد الشديدي خطة مرافقة آل فيبر إلى إيطاليا، ثم ودع الأسرة وداعاً باكياً، ووعد بأن يراهم في طريقه إلى أرض الوطن. وفي 14 مارس 1778 اتخذ هو وأمه طريقهما إلى باريس مستقلين المركبة العامة.

صفحة رقم : 13500

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> في باريس

4- في باريس

1778

وبلغها في 23 مارس، وصادف وصولهما بالضبط حركة تمجيد فولتير التي طغت على نبا قدمهما. واتخذا لهما مسكناً بسيطاً، وأنطلق موتسارت باحثاً عن عمل يكلف به. واستجمع جريم ومدام ديبنيه جهدهما ليلفتا بعض النظر إلى الشاب الذي هللت له باريس عجيبة موسيقية قبل أربعة عشر عاماً. فعرضت عليه فرساي وظيفة عازف أرغن البلاط لقاء ألفي جنيه لخدمة ستة أشهر كل سنة ونصحته ليوبولد بقبول العرض، وعرض جريم، ورفض موتسارت الوظيفة لأن الأجر بخس، وربما لأنها لا تناسب موهبته. وفتحت له بيوت كثيرة إن قبل العزف على البيانو لقاء وجبة غداء أو عشاء. ولكن حتى الوصول إلى هذه البيوت اقتضى رحلة غالبية في عربة تشق طريقاً موحلة. ولاح بصيص من الأمل

صفحة رقم : 13501

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> في باريس

في أحد النبلاء المدعو الدوق دجين، وألف موتسارت له ولابنته الكونشرتو الرائع في مقام "C" للفلاوته والهارب (ك) 299)، وأعطى الشاب النبيلة دروساً في التأليف الموسيقي لقاء أجر طيب، ولكنها لم تلبث أن تزوجت ولم يدفع الدوق سوى ثلاثة جنيهات ذهبية "لوي دور" (75 دولاراً) لكونشرتو كان خليفاً بأن يطرح باريس تحت قدمي موتسارت. ولأول مرة في حياته فارقت شجاعته. فكتب إلى أبيه في 29 مايو يقول "إنني في صحة لا بأس بها ولكنني كثيراً ما أتساءل هل الحياة تستحق أن يعيشها المرء". وانتعشت روحه المعنوية حين كلفه لجر، مدير الكونسير سيرتبول بكتابة سمفونية (ك 297) أديت بنجاح في 18 يونيو.

ثم ماتت أمه في 3 يوليو. وكانت قد بدأت حياتها الجديدة بالاستمتاع بتخفيفها من متاعب سالزبورج وعناء الزوجية، ولكن سرعان ما حنت إلى بيتها وواجباتها واتصالاتها اليومية التي تضيء على حياتها غنى ومغزى. وحطمت صحتها رحلة الأيام التسعة إلى باريس في مركبة مهتزة ورفقة منفرة ومطر غزير، وألقى فشل ابنها في أن يجد له وظيفة في باريس ظلاً من الكآبة على روحها المرحة عادة. وراحت تقضي الأيام وحيدة وسط بيئة غريبة وألفاظ لا تفهمها، بينما يذهب ابنها إلى تلاميذه وإلى الحفلات الموسيقية والأوبرات... ورأها موتسارت الآن تذبل في هدوء، وأنفق الأسابيع الأخيرة بجوارها يرعاها ويحنو عليها ولا يكاد يصدق أنها قد تموت بهذه السرعة.

وقدمت له مدام ديبنيه حجرة في منزلها مع جريم، ومكاناً على مائدتها، وحرية استعمال بيانها. ولم ينسجم تماماً مع جريم في هذه الجيرة، القريبة فلقد كان جريم بمجد فولنير وموتسارت يحتقره، وصدمه زعم مضيئه وأصدقائهم بأن المسيحية ليست سوى أسطورة نافعة في ضبط المجتمع. وأراد جريم أن يقبل التكاليف الصغيرة سبيلاً إلى الكبيرة، وأن يعزف دون أجر الأسر ذات النفوذ، بيد أن موتسارت أحس أن عملاً كهذا سينضب قوته التي يؤثر أن يدخرها للتأليف. وحكم

صفحة رقم : 13502

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> في باريس

جريم بأنه كسلان، وأخبر ليوبولد بحكمه هذا فأمن عليه (25). وزاد الموقف سوءاً اقتراض موتسارت المرة بعد المرة من جريم مبالغ بلغت جملتها خمسة عشر جنيهاً ذهبياً (375 دولاراً). وأخبره جريم أن في إمكانه تأجيل السداد إلى أجل غير مسمى. وكذلك كان (26).

وحسم الموقف خطاب (31 أغسطس 1778) من موتسارت الأب يقول إن رئيس الأساقفة كوللوريدو عرض أن يرقى الأب رئيساً للمرتلين إذا عمل فولفجانج عزفاً على الأرغن ورئيساً للموسيقين، على أن يعطي كل منهما خمسمائة فلورين في العام، يضاف إلى هذا "أن رئيس الأساقفة صرح أنه على استعداد لأن يسمح لك بالسفر حيث تشاء إن أردت كتابة أوبرا". ثم أضاف ليوبولد طعماً قدر أن موتسارت لا بد مبتلعه، فقال أن ألويسيا فيبر ستدعي على الأرجح للانضمام إلى كورس سالزبورج، وفي هذه الحالة "لا بد أن تعيش معنا" (27). ورد موتسارت (11 سبتمبر) "حين قرأت خطابك هزني الطرب لأنني شعرت بأنني أصبحت فعلاً في حضنك. صحيح أن العرض لا يحمل أملاً كبيراً لي في المستقبل كما أخالك معترفاً، ولكن حين أتطلع إلى لقائك وعناق أختي العزيزة جداً لا أفكر في أي أمل آخر".

وعليه ففي 26 سبتمبر استقل المركبة إلى نانسي. وفي ستراسبورج كسب بضعة جنيهات لقاء حفلات شاقة في مسارح كادت تخلوا من روادها. وتلبث مايهاميم أملاً في تعيينه قائداً للأوبرا الألمانية، ولكن هذا الأمل أيضاً خاب كغيره ومضى إلى ميونخ وهو يحلم بألويسيا فيير. ولكنها كانت قد وجدت مكاناً في كورس الأمير الناخب، ربما في قلبه، فاستقبلت موتسارت بهدوء لم يبدُ فيه أي رغبة في أن تكون عروساً له. فألف وغنى أغنية مرة، ثم راض نفسه على قبول سالزبورج.

صفحة رقم : 13503

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> سالزبورج وفيينا

5- سالزبورج وفيينا

1779 - 1782

وصل إلى البيت في منتصف يناير، واستقبل باحتفالات ألقى عليها ظلاً من الحزن إدراكه الأليم الآن لحقيقة موت الأم. وسرعان ما شد إلى

صفحة رقم : 13504

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> سالزبورج وفيينا

نيره عازفاً للأرغن ورئيساً لفرقة الموسيقى، وسرعان ما أصابه القلق والتبرم وقد تذكر هذه الأيام فيما بعد: "في سالزبورج كان العمل عبئاً عليّ، ولم أكن أستطيع أن أسكن إليه قط. فلم ذلك؟ لأنني لم أكن قط سعيداً... فليس في سالزبورج من وجهة نظري على الأقل-تسلياً لها أي قيمة. وأنا أرفض الاختلاط بأشخاص كثيرين هناك-أما غيرهم فأكثرهم لا يروني صالحاً لصحبتهم أضف إلى ذلك إنه ليس هناك من حافز لموهبتي. وكان الجمهور خشب مسندة لا تستجيب حين أعزف أو حين تؤدي قطعة من تأليفي. أتمنى لو كان في سالزبورج ولو مسرح واحد متوسط الجودة(28)".

وتأقت نفسه إلى كتابة الأوبرات؛ ورحب بطلب الأمير الناخب كارل تيودور أن يكتب أوبرا لمهرجان ميونخ التالي. فشرع يكتب "إيدومنيو ملك كريت" في أكتوبر 1780، وفي نوفمبر ذهب إلى ميونخ لعمل البروفات. وفي 29 يناير 1781 أخرجت الأوبرا بنجاح رغم طولها غير العادي. ومكث موتسارت في ميونخ ستة أسابيع أخرى، يستمتع بحياتها الاجتماعية، حتى استدعاه رئيس الأساقفة كوللوريدو ليلحق به في فيينا. هناك سره أن يسكن القصر الذي يسكنه رئيسه، ولكنه كان يأكل مع الخدم. "يجلس التابعان على رأس المائدة؛ وأنا أحضى بشرف الجلوس مقدماً على الطباخين(29)". وكان هذا عرفاً شائعاً في ذلك العصر في بيوت النبلاء؛ وقد احتمله هايدن باستياء مكظوم، أما موتسارت فقد تمرد عليه في علانية متزايدة. وقد سره أن تعرض موسيقاه وموهبته في بيوت أصدقاء رئيس الأساقفة؛ ولكنه استشاط غيظاً حين رفض كوللوريدو معظم توسلاته أن يأذن له بقبول ارتباطات خارجية قد تأتيه بدخل إضافي وشهرة أوسع. "حين أفكر في أنني سأغادر فيينا دون أن يكون في جيبي ألف فلورين على الأقل يغوص قلبي في باطني(30)".

وصحت نيته على أن يترك خدمة كوللوريدو. ففي 2 مايو 1781 ذهب ليسكن نزيلاً مع آل فيبر الذين كانوا قد انتقلوا إلى فيينا. فلما أرسل

صفحة رقم : 13505

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> سالزبورج وفيينا

إليه رئيس الأساقفة تعليماته بالعودة إلى سالزبورج، أجاب بأنه لن يستطيع الرحيل قبل 12 مايو. وتلا ذلك لقاء مع رئيس الأساقفة، وروى موتسارت ما دار فيه لأبيه فقال:

"إنه رمانى بأفزع الشتائم-أوه! إنني في الحق لا أستطيع حمل نفسي على أن أكتبها كلها لك! وأخيراً، حين أحسست بالدم يغلي في عروقي، لم أطق أن أحتمل أكثر مما احتملت؛ فقلت له "إذن فسموك لست راضياً عني" ماذا! أتريد أن تهددني؛ أيها الوغد أيها النذل؟ دونك الباب إذن، لن يكون لي صلة بعد اليوم برجل تعس مثلك! "وأخيراً قلت " ولا أنا بك. "إذن فأخرج!" وفيما أنا خارج قلت "فليكن، وغداً سيصلك مني خطاب". قل لي يا أبي العزيز أما كان لزاماً عليّ أن أقول هذا عاجلاً أو آجلاً؟..."

"أكتب لي سراً بأنك مسرور-لأن لك الحق في أن تسر حقيقة-وانتقدني انتقاداً قاسياً علانية، حتى لا يقع عليك أي لوم أو تريب. ولكن إذا نالك من رئيس الأساقفة أي إهانة فتعال إلي فوراً في فيينا. ففي وسعنا نحن الثلاثة أن نعيش على دخلي(31)".

ودفع بليوبولد في أزمة أخرى. وبدا أن منصبه تعرض للخطر، وكان لابد أن ينقضي بعض الوقت حتى تصلني تأكيدات من كوللوريدو. وأفرعه نبأ مساكنة ابنه لال فيبر. فقد مات رب الأسرة، وتزوجت إليوسيا الممثل يوزف لانجي، ولكن كان للأرملة بنت أخرى تدعى كونستانسي تنتظر زوجاً. أفهذا طريق مسدود آخر أمام فولفجانج؟ وتوسل إليه ليوبولد أن يعتذر لرئيس الأساقفة ويعود. ورفض موتسارت لأول مرة أن يطيع أباه. "إنني في سبيل رضاك يا أبي مستعد لأن أتخلى عن سعادتي وصحتي بل وحياتي ذاتها، ولكن شرفي فوق كل شيء عندي، وكذلك يجب أن يكون عندك. يا أعز الآباء وأكرمهم، طالبني بما شئت إلا هذا(32)". وفي 2 يوليو بعث إلى ليوبولد بثلاثين دوقاتي عربوناً لمساعدته المقبلة.

صفحة رقم : 13506

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> سالزبورج وفيينا

وتوجه ثلاث مرات إلى مسكن رئيس الأساقفة لفيينا ليقيم استقالته الرسمية. ورفض حاجب كولبوريدو أن ينقلها لسيدته، وفي المرة الثالثة "ألقى بموتسارت خارج حجرة الانتظار وأردف ذلك بركلة في ظهره" وهي العبارة التي وصف بها موتسارت المشهد في خطابه المؤرخ 9 يونيو (33). ولكي يرضى أباه أنقل من بيت فيير إلى مسكن آخر. وأكد لليوبولد أنه إنما كان "يمزح" فقط مع كونستانسي. "ولو كان علي أن أتزوج كل من ضحكت معهن لكان لدي على الأقل مائة زوجة(34)". على أنه كتب لأبيه في 15 ديسمبر يقول إن كونستانسي غاية في اللطف والسذاجة وحب البيت، وهو لذلك يريد أن يتزوجها".

"أترعبك الفكرة؟ ولكني أتوسل إليك يا أعز أب وأحبه أن تصغي إلي... إن صوت الطبيعة يتكلم في باطني عالياً كما في غيري-بل ربما أعلى مما يتكلم في رجل ضخم قوي غليظ. إنني ببساطة لا أستطيع أن أعيش كما يعيش معظم الشباب في هذه الأيام. أولاً لأنني متدين جداً، وثانياً لأنني أشد حياً للجار، وأرفع إحساساً بالشرف من أن أغوي فتاة بريئة، وثالثاً لأن بي من الرعب والتقرز، ومن رهبة الأمراض والخوف منها، ومن الرعاية لصحتي، ما يعصمني من العيب مع النسوة الفاجرات. وفي وسعي أن أقسم أنه لم يكن لي قط علاقات من هذا النوع مع أي امرأة... وأراهن بحياتي على صدق ما قلته لك..."

"ولكن من هي موضوع حبي؟.. أليست إحدى بنات فيير؟ بلى.. إنها كونسانتي... أرقهن كلهن وأدكاهن وأفضلهن جميعاً... قل لي هل في استطاعتي أن أتمنى لنفسني زوجة خيراً منها.. قصارى ما أطمع فيه أن يكون لي دخل مضمون صغير (وهذا رجائي الوطيد بحمد الله)، وعندها لن أكف عن رجائك بأن تسمح لي أن أنفذ هذه الفتاة المسكينة وأن أحقق لي-ولنا جميعاً إن جاز لي القول-السعادة الكاملة. فلا أشك في أن سعادتني تسعدك؟ وستحظى بنصف دخلي الثابت... أرجوك أن تشفق على ولدك!(35)"

صفحة رقم : 13507

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> سالزبورج وفيينا

ولم يعرف ليوبولد ماذا يصدق. فقد بذل كل جهد ليثني ولده المفلس تقريباً عن الزواج، ولكن موتسارت أحس بأنه بعد أن قضى ستة وعشرين عاماً من الطاعة لأبيه أن الأوان لينفذ مشيئته ويحيا حياته. وظل سبعة أشهر يلتصق عبتاً موافقة أبيه، وأخيراً، في أغسطس 1782، تزوج دون هذه الموافقة. وفي 5 أغسطس وصلت الموافقة، وأصبح موتسارت الآن حراً في أن يكتشف إلى أي حد يستطيع المرء أن يعول أسرة بتأليف حشد من أكثر أنواع الموسيقى الرائعة تنوعاً في تاريخ الإنسان.

صفحة رقم : 13508

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> المؤلف الموسيقي

6- المؤلف الموسيقي

كان له عذره في الثقة بنفسه، لأنه كان قد أشتهر عازفاً على البيان، وحصل على دروس خاصة لتلاميذ يدفعون أجور مجزية، وأخرج أوبرات ناجحة، فلم يمض شهر على تركه خدمة رئيس الأساقفة حتى تلقى من الكونت أورسيني- روزنبرج مدير مسارح بلاط يوزف الثاني، تكليفاً بتأليف (دراما منطوقة) تتخللها الأغاني، وعرضت النتيجة في 16 يوليو 1782، في حضرة الإمبراطور، تحت اسم (الاختطاف من السراي). وأدانها فريق من خصومه، ولكن كل السامعين تقريباً فتننهم الأغاني المرححة التي ازدان موضوع عتيق: حسناء مسيحية بأسرها القراصنة، ويبيعونها لحريم تركي، ثم ينقذها حبيبها المسيحي بعد دسائس لا تصدق. وكان تعليق يوزف الثاني على الموسيقى "أنها يا عزيزي موتسارت أجمل مما تحتمله آذنا، وأنغامها كثيرة جداً". وهو تعليق أجاب عنه المؤلف المتهور "إنها بالضبط يا صاحب الجلال بالكثرة التي يقتضيها المقام". (36) وأعيد عرض الأوبريت ثلاثاً وثلاثين مرة في فيينا في سنيها الست الأولى. وقد أطرها جلوك، وإن أدرك أنها أغفلت تماماً "إصلاحه" للأوبرا، وأعجب بالتأليفات الآلية لهذا الشاب العنيف، ودعاها لتناول الغداء معه.

وقد استمد موتسارت إلهامه من إيطاليا لا من ألمانيا، وآثر اللحن والتوافق البسيط على البوليفونية "تعدد الأصوات" المعقدة المتعمقة. ولم

صفحة رقم : 13509

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> المؤلف الموسيقي

يشعر بتأثيرات قوية من هندل ويوهان سبستيان باخ إلا في عقده الأخير. وفي 1782 انضم إلى الموسيقيين الذين كانوا يحيون الحفلات تحت رعاية البارون جوتفريد فان زفيتن، وأكثرها من تأليف هندل وباخ، في المكتبة القومية أو في بيت فان زفيتن. وفي 1774 كان البارون قد جلب من برلين إلى فيينا كتاب (فن الفوج) و (الكلافورد الحسن الضبط) وغيرهما من أعمال ي.س. باخ. واستنكر الموسيقى الإيطالية لأنها تقتصر إلى الإتقان الشديد، ورأى أن الموسيقى الحققة تتطلب الالتفاف الدقيق للفوجة، والبولوفونية، والكونترابنط. أما موتسارت فهو وإن لم يسمح قط للبناء أو القاعدة أو التشكل بأن تكون غالبية في ذاتها، فقد أغد من نصيحة فان زفيتن وموسيقاه، ودرس هندل وآل باخ الكبار بعناية. بعد 1787 قاد موسيقى هندل في فيينا، وسمح لنفسه بشيء من الحرية في توفيق مدونات هندل لأوركسترا فيينا. وفي موسيقاه الآلية اللاحقة زواج بين الميلوديا الإيطالية والبولفونية الألمانية في وحدة متسقة.

والنظرة العجلى إلى كتالوج كوشل لمؤلفات موتسارت هي إحدى التجارب الشديدة الوقع في النفس. فهناك قائمة ضمت 626 عملاً وهي أكبر حجم من الموسيقى خلفه أي مؤلف عدا هليدن، وكلها أنتج في حياة صاحبها التي لن تتجاوز ستاً وثلاثين سنة، وتحوي روائع من شتى الأشكال: 77 صوتاً، و8 ثلاثيات، و29 رباعية و5 خماسيات، 51

كونشرتو، و96 قطعة خفيفة (ديفرتمنتي) أر رقصات أو سرينادات، و52 سمفونية، و90 لحناً أو أغنية، 60 مؤلفاً دينياً، و22 أوبرا. وإذا كان بعض ن كانوا قريبين من موتسارت حسبوه كسولاً، فربما كان السبب أنهم لم يدركوا تماماً أن عناء الروح قد يضني الجسد، وأن العيقرية إذا حرمت فترات الكسل انزلقت إلى الجنون. وقد قال له أبوه (إن التأجيل خطيبتك التي لا تقناً محدقة بك)(37). وكان موتسارت في كثير من الحالات يؤجل ساعة تدوين الموسيقى التي كانت تتخلق في رأسه. قال "إنني-إن شئت-منقوع في الموسيقى. فهي في عقلي طوال اليوم، وأنا أحب أن أحلم بها، وأرسلها، وأتملها"(38). وقد روت زوجته "كان دائم النقر على شيء ما-على قبعته، أو كاتينة

صفحة رقم : 13510

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> المؤلف الموسيقي

ساعته-أو المائدة أو المقعد وكأنها لوحة المفاتيح".(39) وكان أحياناً يواصل هذا التأليف الصامت حتى وهو يبدو مصغياً لإحدى الأوبرات. وكان يحتفظ بقصاصات من ورق تدوين الموسيقى في جيوبه أو في جيب العربة الجانبي وهو مسافر، ثم يدون عليها نوتات متناثرة، وقد ألف أن يحمل علبة من الجلد تتلقى هذه الأشتات. فإذا تأهب لم يجلس إلى لوحة المفاتيح بل إلى المنضدة. وتقول كونستانسي "كان يكتب الموسيقى كما يكتب الخطابات، ولم يحاول قط عزف حركة حتى تكتمل". أو قد يجلس إلى البيان ساعات بأكملها يرتجل ويترك خياله الموسيقي حراً طليفاً في الظاهر ولكنه في نصف وعي يخضعه لبناء متميز-كشكل الصوتان، أو الأريا، أو الفوجة... وكان الموسيقيون يستمتعون بارتجال موتسارت لأنهم كانوا يستطيعون أن يتبينوا في ابتهاج خفي النسق المتوارى خلف أنغام تبدو عفوية في ظاهر الأمر. قال نيمتشك في شيخوخته "لو جرؤت على أن أصلي لفرحة أرضية أخرى لكنت أن أسمع موتسارت يرتجل"(40).

وكان في استطاعة موتسارت أن يعزف أي موسيقى تقريباً بمجرد الإطلاع نوتتها لأن طول خبرته بارتباطات النوتات وتعاقبها المعينة أتاح له قراءتها كأنها نوتة واحدة، وكانت أنامله المدربة تعزفها كأنها جملة أو فكرة موسيقية واحدة، تماماً كما يستوعب القارئ المدرب سطرأ كأنه كلمة، أو فقرة كأنها سطرأ. واقتترنت ذاكرة موتسارت بهذه القدرة على إدراك الكليات، والإحساس بالمنطق الذي يلزم الجزء بالدلالة على الكل. وفي السنوات اللاحقة كان يستطيع أن يعزف أيأ من كنشرواته تقريباً عن ظهر قلب. وفي براغ كتب أجزاء الطلبة والبوق للخاتمة الثانية في "دون جوفاني" دون أن تتاح له نوته الآلات الأخرى، وكان قد حفظ تلك الموسيقى المعقدة في ذاكرته. وذات مرة دون جزء الفيويلينه فقط من صوتان للبيانو والفيولينه، وفي الغد، ودون بروفا، عزفت رجينا سترينا زكي جزء الفيوالينه في حفلة، وعزف موتسارت جزء البيانو من مجرد ذكرى تصوره دون أن يتسع له الوقت لتدوينها على الورق(41). ولعل صحائف التاريخ لا تحوي ذكرى رجل آخر استغرقته الموسيقى إلى هذا الحد.

صفحة رقم : 13511

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> المؤلف الموسيقي

ونحن ننظر إلى صوناتات موتسارت على إنها أقرب إلى الخفة والمعابثة، وأنها لا تقف في صف مع ألحان بيتهوفن المشبوبة القوية من نفس النوع، وقد يكون السبب أنها كتبت لتلاميذ محدودي المهارة في العزف، أولها ربيكوردات نوات تصويت محدود، أو البيانو لم يؤت وسيلة لمواصله نغمة(42). والصونات في مقام A (ك331). وما حوت من "منويته" ممتعة، و"الرونو اللاتوركا" ومازالت (1778) بأسلوب الهاربسيكورد.

ولم يكن موتسارت أول الأمر يهتم بموسيقى الحجره، ولكن في 1773 وقع على رباعيات هايدن المبكرة، وحسد ما فيها من براعة كونترابنطية، وقلدها قارب النجاح في الرباعيات الست التي ألفها في تلك السنة. وفي 1781 نشر هايدن سلسلة أخرى، وحرك هذا موتسارت ثانية للمنافسة فأصدر (1782-85) ست رباعيات (ك387، 421، 428، 458، 464-65) تعترف الجمع الآن بأنها من أرفع الأمثلة في بابها. وشكا العازفون من صعوبتها الهائلة، وانتقد النقاد الرباعية السادسة على الأخص لتنافراتها المتعارضة ومزجها الصاخب بين المفاتيح الكبيرة والصغيرة ورد موسيقي إيطالي النوتة للناسر محتجاً بأن من الواضح أنها تزخر بالأخطاء الفظيعة. ومزق أحد المشترين أوراقها وقد استشاط غضباً حين وجد إن التنافرات متعمدة. ومع ذلك فإن هايدن قال لليوبولد موتسارت بعد عزفه الرباعيات الرابعة والخامسة والسادسة مع موتسارت وديتيرسدورف وغيرهما "أمام الله وبصفتي رجلاً صادقاً، أقول لك إن ابنك أعظم من عرفت من المؤلفين قاطبة سواء شخصياً أو بالاسم. فهو ذواق، وأكثر من ذلك يملك أعظم معرفة بالتأليف الموسيقي(42)". فلما نشرت الرباعيات الست (1785) أهدها موتسارت إلى هايدن بخطاب يتألق بتفرده حتى وسط ما تبادلوا من رسائل كلها رائع:

"إن أبا قرر أن يدفع بأبنائه إلى الدنيا الواسعة فرأى من واجبه أن يكلمهم إلى رعاية وإرشاد رجل كان ذائع الصيت في ذلك الحين، واتفق فوق ذلك إنه كان أصدق أصدقائه. وبالمثل أدفع بأبنائي الستة إليك، أيها الصديق

صفحة رقم : 13512

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> المؤلف الموسيقي

الأعز الأشهر. حقاً أنهم ثمرة درس طويل شاق، ولكن الأمل الذي عللني به أصدقاء كثيرون بأن تعبي فيهم سيعوضه بعض الجزاء... يملوني زهواً بهذه الفكرة، وهي أن أبنائي هؤلاء سوف يكونون يوماً ما مبعث عزاء لي.

"لقد أعربت لي أثناء مقامك بهذه العاصمة... عن استحسانك لهذه المؤلفات، ويشجعني تقديرك لها أن أهديها إليك ويعزبني بالأمل بأنك لن تراها غير جديرة برضائك. فأرجو أن تتفضل بقبولها، وكن لها بمثابة الأب والمرشد والصديق. ومنذ هذه اللحظة أنزل لك عن جميع حقوقي عليها. على أنني التمس منك أن تعفو عن الأخطاء التي ربما غابت عن عين مؤلفها المتحيزة، وأن تواصل برغما صداقتك الكريمة لرجل يقدر هذه الصداقة أسمى تقدير(44)".

وكان لموتسارت ولع خاص بخماسياته. وكان يرى أن خماسيته بمقام E المنخفض للبيانو والأوبرا والكلارنيت والهورن والباصون (ك452) "خير ما ألفت قاطبة(45)". ولكن هذا كان قبل أن يكتب أوبراته الكبرى. وكانت قطعة Einekleine Nachtmusik "موسيقى ليلية صغيرة" في الأصل (1787) مؤلفة كخماسية، ولكن سرعان ما تلقتها الأوكسترات الصغيرة، وهي الآن تصنف بين سرنادات موتسارت. وكان يقدر السرينادة بمقام E المنخفض (ن375) لأنها مكتوبة "بشيء من العناية"، وهي القطعة التي عزفت له هو نفسه ذات أمسية في 1781، ولكن الموسيقيين يؤثرون عليها في المرتبة السرنادة بمقام C الصغير (ن388)-التي تعدل في قتامتها ألحان بيتهوفن وتشايكوفسكي الحزينة (الباتنيك).

ووجه موتسارت الأوركسترا بعد أن اكتشفه إلى عشرات التجارب: افتتاحية، وموسيقى حاملة، ومنتاليات، وكاساسيونات Cassations (وهي تنوعات للمنتالية) وموسيقى راقصة، وأخرى خفيفة (ترفيهية Divertimenti)، وقصد بالأخيرة عادة إن تخدم هدفاً عابراً لا أن يتردد

صفحة رقم : 13513

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> المؤلف الموسيقي

صداها في بهاء التاريخ، وعلينا أن نستمتع بها لا أن نزنها. وحتى مع هذا، فإن القطعة الخفيفة رقم 15 (ك 334) عملاقان قيمان، وأبعث للبهجة من معظم السمفونيات. واستعمل موتسارت كما استعمل هايدن لسمفونياته "فرقة" من خمسة وثلاثين عازفاً، ومن ثم تقصر دون توصيل قيمتها الكاملة لأذان ألفت الجمهور المضاعفة في أوركسترات القرن العشرين ويطري النقاد السمفونية رقم 25 (ك 183) لأنها "مشبوبة العاطفة(46)" و"آية في التعبير العنيف(47)". ولكن أقدم سمفونيات موتسارت المشهورة هي "باريس" (رقم 31 ك 297) التي طوعها موتسارت لحب الفرنسيين للرقة والفتنة. أما سمفونية هافنر (رقم 35 ك 385) فقد ألفت أصلاً على عجل لتزدان بها المهرجانات التي أعدها زجسموند هافنر، عودة سالزبورج السابق، لزفاف ابنته (1782)، وفي تاريخ لاحق أضاف موتسارت إليها أدواراً للفولادته والكلازيت ثم قدمها في فيينا (3 مارس 1783) في حفلة حضرها يوزف الثاني "وصفق لي الإمبراطور تصفيقاً حاراً"، ونفحه بخمسة وعشرين دوقاته(48). وفي هذه السمفونية ورقم 36، التي كتبها في لنتز في نوفمبر 1783، ظل موتسارت محافظاً على الشكل والطابع-المبهجين دائماً، العميقين فيما ندر-الذين طبع بهما هايدن السمفونية، وفي السمفونيتين تقع الحركة البطيئة من الأذان المسنة موقع الاغتباط والعرفان. وعلينا أن نتكلم باحترام أكثر على السمفونية رقم 38 التي ألفها موتسارت لبراغ في 1786، هنا تبهج الحركة الأولى الموسيقى بمنطقها الغنائي ومهارتها الكونترابنطية، أما حركتها المعتدلة البطء (الأندانتي) التي أضافت التأمل إلى اللحن، فقد حملت الخبراء على الإشادة بـ "كمالها الخالد(49)" وبـ "عالمها السحري(50)". وهناك إجماع على أن أعظم سمفونيات موتسارت فاطمة هي الثلاث التي سكبها في سيل متدفق من الإلهام في صيف 1788، في حقبة من حياته ألم به فيها فقر كئيب وأثقلته ديون متفاقمة. والأولى مؤرخة 26 يونيو،

صفحة رقم : 13514

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> المؤلف الموسيقي

والثانية 25 يوليو، والثالثة 10 أغسطس-ثلاثة أطفال أنجبت في ثلاثة أشهر. وعلى قدر علمنا لم تعزف واحدة منها في حياته قط، ولم يسمعها قط، بل ظلت في ذلك العالم الخفي الغامض الذي كانت فيه البقع السوداء المسطورة على فرخ

من الورق في نظر مؤلفها- "قصائد معدة للغناء لا صوت لها"- علامات وإيقاعات لا يسمعها غير الذهن. والثالثة التي تسمى خطأ "جوبيتر" (رقم 41 بمقام C ك551) تعد عادة خيراً، ويرى شومان أنها تعدل أعمال شكسبير وبيتهوفن (51)، ولكنها لا تصلح لتذوق الهواة. والسمفونية رقم 40 في مقام G الصغير (ك550) تبدأ بقوة ترهص بموسيقى Eroich ثم تتطور تطوراً دعا المعلقين في نضالهم للتعبير عن الموسيقى بالألفاظ دون جدوى- إلى أن يقرؤوا فيها "ليرا" أو "مكبثا" من المأساة الشخصية (52)، ولكنها للأذان الأيسر تبدو مبهجة بهجة ساذجة تقريباً. وهذه الأذان نفسها تجد أن أعظم السمفونيات إشباعاً لها هي رقم 39 في مقام E المنخفض (ك543)، فهي لا يتقلها كرب، ولا تعذبها التقنية، إنما هي الإيقاع واللحن ينسابان في غدير هادئ مطمئن، وهي من نوع الموسيقى التي قد تنهج قلوب الآلهة في إجازة ريفية من الأعباء السماوية.

و "السمفونية كونشرتانتني" هي هجين بين السمفونية والكونشرتو، وقد نبتت من الكونشرتو جروسو بمقابلة آتين أو أكثر للأوركسترا في حوار بين الميلوديا والموسيقى المصاحبة. وقد ارتفع موتسارت بهذا الشكل إلى ذروته في "السمفونية كونشرتانتني" في مقام E المنخفض (ك364) للفلاوته والفيولينه والفيوله (1779)، وهي لا تقل روعة عن أي من سمفونياته الأخرى.

وكان الكونشرتوات مبهجة، ففيها تعين فقرات العزف المنفرد الأذن غير المدربة على تتبع مواضيع وأنغام قد يحجبها في السمفونيات التعقيد التقني أو التفنن الكونترابنطي. والحوار فيها طريف، ويزداد طرافة إذا كانت المناظرة بين واحد والكل "Solo Contra Tutti" كما نرى في شكل الكونشرتو كما اقترحه كارل فليب إيمانويل باخ وطوره موتسارت. ولما كان موتسارت

صفحة رقم : 13515

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> المؤلف الموسيقي

يستطيع هذه المواجهات الهارمونية، فإنه كتب نعظم كونشرتواته للبيانو، ففيها كان يعزف دور العازف المنفرد بنفسه مضيفة عادة في أواخر الحركة الأولى قفلة تتيح له أن يسرح ويمرح. وأن يتألق عازفاً بارعاً لآلته.

وأول ما بدأ يتفوق في هذا الضرب كان في كونشرتو البيانو رقم (9) في مقام E المنخفض (ك271). وأول كونشرتواته التي مازالت محببة للسامعين هي رقم 20 في مقام D الصغير (ك466) الشهرة بـ "الرومانتسي" الطفلية الطابع تقريباً. ويجوز لنا أن نقول أنه في هذه الحركة البطيئة بدأت الحركة الرومانسية في الموسيقى. وسواء كان السبب هو الكسل أو الشواغل، فإن موتسارت لم يكمل تدوين موسيقى هذا الكونشرتو إلا قبل ساعة من الزمن المحدد لأدائه (11 فبراير 1785)، ووصلت نسخة العازفون وأدى موتسارت دوره أداء خبير صناع، حتى لقد طلبت إعادة الكونشرتو مرات كثيرة في السنوات التالية.

وقدم موتسارت موسيقى رقيقة لآلات منفردة أخرى. ولعل الكونشرتو الرخيم في مقام A للكلارينيت (ك622) يصلنا مذاعاً مراراً أكثر من أي مؤلفاته الأخرى. وفي شبابه المرح (1774) كان يستمتع أيما استمتاع بكونشرتو في مقام B المنخفض للباسون. وكانت كونشرتوات الهورن فقاعات تنفخ في مرح على النوتة- التي كانت أحياناً تحوي تعليمات مضحكة للعازف. "Da Bravo! Corraggio! Bestia!" لأن موتسارت كان خبيراً بأكثر من آلة نفخ واحدة. ثم يرفعنا كونشرتو الفلاوته والهارب (ك299) إلى السماء الأعلى.

وفي 1775 حين كان موتسارت في التاسعة عشرة ألف خمسة كونشرتوات للفيولينة وكلها رائع، وثلاثة منها ما زالت تحتويها برتورات حية إلى اليوم. والكونشرتو رقم 3 في مقام G (ك226) فيه حركة بطيئة (أداجو) انتشى لها رجل كآينشتاين (53)، ورقم 4 في مقام D من روائع الموسيقى، ورقم 5 في مقام A فيه حركة غنائية معتدلة البطء تنافس معجزة صوت المرأة.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> المؤلف الموسيقي

لا عجب إذا كان موتسارت قد أنتج بعضاً من ألد الألمان في التأليف الموسيقي قاطبة، لا سيما في سنوات حبه لأويسيية فيبر. وهي ليست أغاني (ليدات) مكتملة التفتح كالتي حققت تطويرها الناجح على يد شوبرت وبرامز، إنما هي أبسط وأقصر، تزين في الغالب كلمات سخيفة، ولكن موتسارت إذا وجد شعراً بمعنى الكلمة كقصيدة جوته (البنفسجية) "ارتفع إلى ذرى الشكل (ك476). فيها هنا بنفسجة مرتعشة فرحاً باقتراب راعية حسناء تقول في نفسها ما أحلى الرقاد على صدرها؟ ولكن بينما كانت الراقية تمثي وهي تغني في جذل إذا هي تسحقها تحت قدمها دون أن تلحظها" (54). أكانت هذه ذكرى أويسيية القاسية؟ لقد كتب لها موتسارت من قبل لحناً من أرق ألحانه Non So D'onde Diene. ولكنه لم يلق بالاً إلى مثل هذه الأغاني المنعزلة، فقد احتفظ بموارد فنه الصوتي الخفية لألحان أوبراته وللمؤلفات التي وضعها للكنيسة.

على أنه قل أن سمعت موسيقاه الدينية خارج سالزبورج، لأن الكنيسة الكاثوليكية لم ترضَ عن المحسنات الأوبرالية التي كان رؤساء الأساقفة الذين خدمهم موتسارت يتوقعونها منه فيما يبدو. فالقداس المطول في سالزبورج كان يرتل في مصاحبة الأرغن، والوتريات، والأبواق، والترنونات، والطبول، وكانت فقرات من المرح تنطلق فجأة في أكثر المواضع وقاراً ورهبة في قداسات موتسارت. ومع ذلك فإن الروح الدينية لأبد تحركها موتينات نسجد لك (ك327) و"القديسة مريم أم الرب" (ك341 ب)، وأبدع نغم يفوق جماله الموصول كل أنغام موتسارت يظهر في "سبحوا الرب" في القسم الرابع من تسيحة الاعتراف المسائية (ك339)(55).

يمكن القول عموماً أن موسيقى موتسارت هي صوت عصر أرستقراطي لم يسمع بسقوط الباستيل، وحضارة كاثوليكية لم يكده إيمانها مكد، حرة في الاستمتاع بمباهج الحياة دون أن تسعى هذا السعي الحثيث لتجد مضموناً جديداً لحلم أفرغ من مضمونه القديم. وهذه الموسيقى في جوانبها الأخف تتسق مع رشاقة الزخرف الركوكي، ومع رومانسيات فاتو التصويرية،

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> المؤلف الموسيقي

وأولمب تيبولو الطافي في هدوء، وابتسامات مدام ديومبادور وأروابها وخزفها. وهي في عمومها موسيقى هادئة صافية، تشوبها بين الحين والحين لمسات من الألم والغضب، ولكنها لا ترفع صلاة متذلة ولا تحدياً بروميثياً للآلهة. لقد بدأ موتسارت موسيقاه في طفولته، وكانت تكمن في مؤلفاته خصيصة طفلية حتى اتضح له أن القداس الجنائزي الذي كان يكتبه لرجل غربياً كان قداساً لجنارته هو.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> الروح والجسد

7- الروح والجسد

لم يوهب موتسارت فتنة الجسد. فقد كان قصير القامة، رأسه أكبر مما يناسب جسمه، وأنفه اضخم من أن يلائم وجهه، وشفته العليا راكبة على السفلى، وحاجباه الكثيفان يحجبان عيناه القلقتين، لا يروع الناظر إليه غير شعره الأشقر الغزير. وفي سني عمره اللاحقة حاول التعويض عن عيوب قامته وقسماته باللباس البهي: فميص من الدنتلا، وسترة زرقاء، ذات ذبول، وأزرار ذهبية وسراويل تصل إلى الركبة ومشابك فضية فوق حذائه (56). ولم يكن الناظر إليه ينسى مظهره إلا وهو يعزف على البيانو، عندها تضطرم عيناه بالتركيز الشديد، وتخضع كل عضلة في بدنه نفسها لحركة ذهنه ويديه.

وكان في صباه متواضعاً طيب القلب، واثقاً بالناس محباً لهم، ولكن ما ظفر به من شهرة مبكرة، وما اغتدى عليه كل يوم تقريباً من التصفيق والاستحسان، أحدث عيوباً في خلقه. وقد حذره ليوبولد (1778) قائلاً "إنك يا بني سريع الغضب مندفع... شديد التحفز للرد في لهجة ساخرة على أول تحد" (57). واعترف موتسارت بهذا وبأكثر منه. فكتب يقول "لا بد أن انتقم لنفسي إن أساء إنسان، فإذا لم أرد لعدوي الصاع صاعين أراني إنما جازيته صاعاً بصاع ولم أعاقبه" (58). ثم كان أشد الناس غلواً في تقدير عبقريته. "إن الأمير كاونتز أخبر الأرشيدوق بأن أمثالي لا يوجد بهم الزمان إلا مرة كل مائة عام (59).

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> الروح والجسد

وكان يسود خطاباته ويظهر في موسيقاه روح الفكاهة حتى آخر سني عمره. وكان هذا الروح عادة ضاحكاً معابثاً في براءة، يشتد أحياناً فيصبح هجاء جاداً، وفي شبابه كان بين الحين والحين ينحرف إلى فحش القول وهجره. وقد مر بمرحلة من الافتتان بالغانط. وحين كان في الحادية والعشرين كتب لابنة عمه ماريانا أنا تكلام موتسارت تسعة عشر خطاباً تلوثها سوقية لا تصدق (60). وأشاد خطاب كتبه لأمه بالتطبل (أي امتلاء البطن بالغازات) نثراً وشعراً (61) ولم تكن أمه شديدة الاحتشام، فقد نصحت زوجها في خطاب كتبه له فقالت "اعتن بصحتك يا حبيبي، وادفع عجزك إلى فمك" ويبدو أن هذه العبارات "القعرية" كانت عرفاً سائداً في أسرة موتسارت وبيتها، ولعلها كانت ميراثاً من

جيل أشد شبقاً. على أنها لم تمنع موتسارت من أن يكتب لأبويه وشقيقته خطابات تقيض بأرق الحب. وكان في زعمه عريساً بكرأ. فهل كان زوجاً وفيها؟ لقد اتهمته زوجته بـ"مغازلات الخدم(63)" ويقول كاتب سيرته المخلص: "وانتشرت الشائعات بين الجمهور وفي الصحف، وبلغ في وصف لحظات نادرة من الضعف عنده، فجعلت سمات مميزة لخلقها. فنسبت إليه مغازلة كل تلميذة من تلاميذه وكل مغنية كتب لها أغنية، وكان يعد من الفكاهات أن يلقب بالسلف الأول لدون جوان(64)".

وقد نجم عن كثرة لزوم زوجته الفراش للوضع، وتكرار أسفارها إلى المنتجعات الصحية وغيابه عنها في جولاته الموسيقية، وحساسيته لكل مفاتن النساء، واختلاطه بالمغنيات الفاتنات والممثلات المتحررات-نجم عن هذا كله موقف كانت فيه المغامرة لا مفر منها تقريباً. وقد روت كونستاننتسي كيف أنه أعترف لها بـ"حماقة" من هذا النوع ولم غفرتها له- "لقد كان طيباً جداً بحيث يستحيل على الإنسان أن يغضب منه" ولكن أختها تقص أنباء تفجرات عنيفة بينهما بين الحين والحين(65). ويلوح أن موتسارت كان شديد التعلق بزوجه، وقد أحتمل عيوبها ربة للبيت، وكان يكتب لها أثناء فراقهما خطابات تقيض إعزازاً كإعزاز الأطفال(66).

صفحة رقم : 13520

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> الروح والجسد

ولم يكن موفقاً من الناحية الاجتماعية. من ذلك أنه قسا في الحكم على بعض منافسيه "إن صوناتات كلمنتي عديمة القيمة.. فهو مشعوذ ككل الإيطاليين(67)". "بالأمس أسعدني الحظ بالاستماع إلى الهر فريهولت يعزف كونشرتواً من تأليفه النفس. ولم أجد فيه إلا القليل جداً مما يستحق الإعجاب(68)". ولكنه امتدح الرباعيات التي نشرها مؤخراً أجناز بليليل وإن نافست رباعياته. ووبخه أبوه لأنه يبغض الناس فيه بصلفه(69)، وأنكر موتسارت الصلف، ولكن لا نكران في أنه لم يكن له إلا قلة ضئيلة من الأصدقاء بين موسيقيي فيينا، وأن روحه المنكبرة ألقّت العقبات في طريق تقدمه. ذلك إن حظ الموسيقى في النمسا وألمانيا كان يعتمد على الطبقة الأرستقراطية، وقد رفض موتسارت أن يقدم النبالة على العبقرية.

ثم إنه عانى من معوق آخر هو أنه لم يختلف قط إلى المدرسة أو الجامعة. ولم يكن أبوه قد أتاح له متسعاً من الوقت للتعليم العام. وقد أفتى موتسارت فيما اقتنى من كتب قليلة دوواين شعر لجسنر وفيلاند وجللبرت، ولكن يبدو أنه استعملها في الكثير الغالب مصدرأ لنصوص ممكنة للأوبرات. وكان قليل الاكترات للفن أو الأدب، وكان في باريس حين مات فولتير، فلم يستطع أن يفقه لم ضجت المدينة هذا الضجيج الكثير بسبب زيارة الناثر الهرم وموته. كتب لأبيه يقول "إن هذا الوغد الكافر فولتير قد نفق كأنه كلب، كأنه حيوان! وهذا جزاؤه الحق(70)". وقد تشرب بعض العداء لرجال الدين من أخواته الماسون، ولكنه شارك في موكب لعيد القربان المقدس وهو يمسك شمعة في يده(71).

ولعل سذاجة عقله هي التي جعلته محبوباً رغم أخطائه. فالذين لم ينافسوه في الموسيقى وجدوه أنيس المعشر بشوشاً رقيقاً هادئ الطبع عادة. كتبت أخت زوجته صوفي فيبر "لم أر موتسارت طوال حياتي هائج الطبع، ولا حتى غاضباً(72)". ولكن هناك روايات تناقض هذه. وكان بمثابة الحياة لكثير من الحفلات الخاصة، دائم الرغبة في العزف، دائم الاستعدادات لنكتة أو لعبة. وكان يحب البولنج، والبليارد، والرقص، ويبدو أحياناً فخوراً

صفحة رقم : 13521

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> الروح والجسد

برقصه أكثر من موسيقاه (73). وإذا لم يكن كريماً سمح النفس مع منافسيه، فإنه كان أريحياً دون تفكير تقريباً مع كل من عداه. وندر أن رد سائلاً فأقترض منه ضابط أوتار البيانو المرة بعد المرة دون أن يرد قروضه. وكان موتسارت لا يخفي احترامه الشديد للمال، ولكن مرد ذلك أنه كان يفتقر أشد الافتقار إلى الوقت أو الميل للتفكير في المال، حتى أنه كثيراً ما أعوزه هذا المال. وإذا اضطر إلى الاعتماد على وسائله في كسب المال، واضطر إلى أن يعول أسرة بمنافسة عشرات الموسيقيين الغيورين منه فقد أهمل شؤون ماله، وسمح لمكاسبه أن تتسرب من بين أصابعه دون اكتراث منه، وأنحدر إلى درك الإملاق اليائس وهو يكتب أروع موسيقى جيله في سمفونياته الثلاث الأخيرة وأوبراته الثلاث الأخيرة.

صفحة رقم : 13522

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> الأوج

8- الأوج

1782 - 1787

لقد بدأ حيات الاحتراف موسيقياً مستقلاً في فيينا بنجاح قرت به عينه. فكان يتقاضى أجراً طيباً على الدروس التي يعطيها، وأتاه كل كونشرتو عزف في 1782-84 بنحو خمسمائة جولدن (74). ولم ينشر من مؤلفاته في حياته سوى سبعين، ولكنه تقاضى عنها ثمناً معقولاً. وأعطاه الناشر أرتارين مائة دوقاتية نظير الرباعيات الست المهداة إلى هايدن وكان ثمناً طيباً في تلك الأيام (75). وخسر ناشر آخر يدعى هوفمايستر بطبعه رباعيات موتسارت للبيانو في مقام G الصغير (ك478) و E الخفيض (ك493)، فقد وجدها الموسيقيون عسيرة جداً (وهي الآن تعد سهلة)، وأنذر هوفمايستر قائلاً: "أكتب بشعبية أكثر وإلا فلن أستطيع أن أطبع المزيد من مؤلفاتك أو أنقذك عنه" (76). وكان موتسارت يتقاضى الأجر العادي عن أوبراته، وهو مائة دوقاتية، ولكنه تقاضى عن "دون جوفاني" 225 دوقاتية مضافاً إليها حصيلة حفلة موسيقية أحييت لصالحه. واجتمع له في هذه السنين "دخل طيب جداً" (77) كتب أبوه وقد زاره في 1785 يقول "إذا لم يكن على ولدي ديون مستحقة ففي ظني أنه يستطيع الآن أن يودع في المصرف ألفي جولدن" (78).

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> الأوج

ولكن موتسارت لم يودع ذلك المال في المصرف، بل أنفقها على مصروفاته الجارية، وعلى الترفيه، والملابس الفاخرة، وعلى تلبية حاجات الأصدقاء المتسولين. لهذا السبب وغيرها من أسباب أكثر غموضاً وقع في هوة الدين في ذروة الطلب على خدماته ومؤلفاته. وفي تاريخ مبكر (15 فبراير 1783) كتب إلى البارونة فون فالدنشتين يقول إن أحد دائنيه هددته بأن "يقاضيني... وأنا في هذه اللحظة لا أستطيع الوفاء بالمبلغ -ولا حتى بنصفه... أتوسل إليك يا سيدتي بحق السماء أن تعيني على الاحتفاظ بشرفي وسمعتي (79). وجاءه الفرج المؤقت من نجاح حفلة موسيقية أحييت لصالحه في مارس، إذ أتته بألف وستمئة جولدن، وقد أهدى بعض هذا المال لأبيه.

وفي مايو 1783 انتقل إلى منزل حسن في رقم 244 بميدان يودن. هناك ولد له طفله الأول (17 يونيو) "صبي جميل قوي، ملفوف كالكرة". ولأن جانب الأب بفضل هذا الحدث والهدية بعد أن ساءه زواج ابنه. واستغل فولفجانج وكونستانتي هذا اللين ليزورا ليوبولد ونانيرل في سالزبورج، بعد أن تركا الطفل في فيينا مع مربية. وفي 19 أغسطس مات الطفل. وبقي أبواه في سالزبورج لأن موتسارت كان قد رتب أن يعزف فيها قداسه في مقام C الصغير الذي سترنل فيه كونستانتي. وأطال فولفجانج وكونستانتي مكنهما فوق أصول الضيافة، لأن ليوبولد كان عليه أن يحسب حساب كل درهم، ورأى أن زيارة ثلاثة أشهر أطول مما يحتمل. وفي طريق عودتهما إلى فيينا تخلفا في لنتز، حيث كلف الكونت فون تون موتسارت بكتابة سمفونية.

فلما عاد إلى بيته عكف بهمة على التدريس والتأليف والعزف والقيادة. وفي ثلاثة أشهر (26 فبراير إلى 3 إبريل 1784) أحيى ثلاثة حفلات موسيقية وعزف في تسع عشرة حفلة أخرى (80). وفي ديسمبر انضم إلى أحد المحافل الماسونية السبعة بفيينا، وأستمتع باجتماعاتهم، ولم يتردد في الموافقة على تأليف الموسيقى لأعيادهم. وفي فبراير قدم أبوه في زيارة طويلة بعد أن

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> الأوج

ألانه مولد ولد أخر لكونستانتي. وفي 1785 دخل لونتسودا بونتي حياة موتسارت. وقد عاش لورنتسو هذا حياة فيها من المغامرة ما يقرب من مغامرة صديقه كازانوفا. كان قد ولد في 1749 ابناً لدباغ جلود في حي يهود تشينيدا. فلما بلغ الرابعة عشرة أخذ أبو إيمانويلي كونليانو وإخوان له الأطفال إلى لورنتسودا بونتي، أسقف تشينيدا، ليعمدهم اتباعاً للكنيسة الكاثوليكية. واتخذ إيمانويلي أسم الأسقف، وأصبح كاهناً، واتصل في البندقية بامرأة متزوجة، فنفي، وانتقل إلى درسدن، ثم إلى فيينا، وفي 1783 استخدمه المسرح القومي شاعراً وكاتباً لنصوص الأوبرات.

واقترح عليه موتسارت إمكان تأليف نص لأوبرا يؤخذ من كوميديا "زواج فيجارو" الحديثة التي ألفها بومارشيه. وكانت الكوميديا قد ترجمت إلى الألمانية لتمثيلها في فينا، ولكن يوزف الثاني حظر عرضها بحجة احتوائها على نزاعات ثورية تسيء إلى بلاطه. فهل في الإمكان إقناع الإمبراطور، الذي لم يكن هو نفسه مفتقراً إلى النزعة الثورية، بأن يسمح بأوبرا تستخلص من التمثيلية بحكمة وحصافة؟ وكان بونتي معجباً بموسيقى موتسارت، وسبيدي فيه الرأي التالي في تاريخ لاحق، وهو أنه رجل "لم يستطع حتى الآن، برغم ما أوتي من مواهب تقوق مواهب أي مؤلف موسيقي في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، أن يستغل عبقريته السماوية في فيينا بسبب دسائس خصومه" (81). ثم حذف من التمثيلية الحواشي المنظرية التي كتبها بومارشيه، وحول ما بقي إلى نص إيطالي يضارع خبير نصوص متاستازيو.

كانت قصة "زوتج فيجارو" هي المناهضة القديمة التي تتشابك فيها الاستخفاءات والمفاجآت والاكتشافات واستغلال الخدم الذكي لساداتهم: وكل هذا مألوف في الكوميديا منذ عهد ميناندر وبلوتس. وسرعان ما أحب موتسارت الموضوع، وألف الموسيقى بسرعة تكاد تبلغ سرعة تشكل النص، فتم الاثنان

صفحة رقم : 13525

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> الأوج

في سنة أسابع. وفي 29 إبريل 1786 كتب موتسارت الافتتاحية، وفي أول مايو حالف النجاح العرض الأول للأوبرا. وربما كان بعض الفضل في نجاحها لبينوتشي، الباصو المرح الجمهوري الصوت، الذي غنى دور فيجارو ولكن لابد أن الفضل الأكبر لحيوية الموسيقى وملاءمتها للمناسبة، والألحان رائعة مثل شكاة كيروبيينو "ما الذي تعرفونه (Voi Che Sapete)، وتوسل الكونتيسة توسلاً حاراً فيه ضبط للنفس إلى إله الحب في لحن الحب "Porgi Amor" وقد استعبدت الألحان غير مرة حتى استغرق العرض مثلي الوقت العادي، وفي نهايته طلب الجمهور موتسارت مرات ليظهر على خشبة المسرح.

وكانت حصيلة إخراج "فيجارو" في فيينا وبراغ خليفة بأن تعين موتسارت على الوفاء بديونه عاماً لولا إسرافه ولولا تكرار مرض زوجته وحملها. وفي إبريل 1787 انتقلا إلى بيت أقل تكلفة، في رقم 224 شارع لاند شتراسي. وبعد شهر مات ليوبولد مخلصاً لولده ألف جولدن.

وكلفته براغ بأوبرا أخرى. واقترح بونتي مغامرات دون جوان الجنسية موضوعاً لها. وكان ترسو دي مولينا قد عرض "الدون" الأسطوري على المسرح بمدريد في 1630 تحت اسم "مخادع إشبيلية"، وروى مولبيرر القصة في باريس وسماها "وليمة الحجر" (1665) وقدمها جولدون في البندقية باسم "دون جوفاني تنوريو" (1736) وكان فننشنتي ريجيني قد عرض "وليمة الحجر" في فيينا عام 1777، وفي عام 1787 هذا نفسه كان جوزيبي جاتسانيجا قد أخرج بالعنوان ذاته أوبرا سطا بونتي على أسطر كثيرة منها، ومن بينها قائمة مرحة بخطايا جوفاني.

وعرفت "أعظم الأوبرات قاطبة" (كما سماها روسين) أول مرة في براغ في 29 أكتوبر (1787). وذهب موتسارت الكونستاننسي إلى العاصمة البوهيمية ليشهدا هذا الحادث، وكثرت الحفاوة بهما إلى حد دعاه إلى تأجيل تأليف الافتتاحية حتى عشية العرض الأول، وفي منتصف الليل

صفحة رقم : 13526

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> الأوج

"بعد قضاء أبهج أمسية يمكن تصورها(82)" ألف قطعة أقرب ما تكون إلى موسيقى فاجنر في إيدانها بالعناصر التراجيدية والكوميديا للتمثيلية. ووصلت نوتة الافتتاحية إلى الأوركسترا بالضبط في الوقت المحدد للأداء(83). كتبت جريدة فيينا تسايتونج تقول "مثلت اليوم الاثني أوبرا الموسيقار موتسارت "دون جوفاني" التي طال انتظارها.... ويجمع الموسيقيون وأهـب الخبرة على أن مثل هذا العرض لم يراف في براغ قط من قبل. وقاد الهر موتسارت بشخصه الموسيقيين، وكان ظهوره في الأوركسترا إيداناً بترديد الهتاف الذي تكرر عند خروجه(84)". وفي 12 نوفمبر عاد الزوجان السعيديان إلى فيينا. وبعد ثلاثة أيام مات جلوك، وعين يوزف الثاني موتسارت ليخلفه رئيس موسيقيي الحجرة للبلاط. وبعد معاناة شديدة مع المغنين أخرجت "دون جوفاني" بفيينا في 17 مايو 1788 دون أن تلقى استحساناً يذكر. وأدخل موتسارت وبونتي عليها المزيد من التغيير والتبديل، ولكن الأوبرا لم تحظ قط في فيينا بالنجاح الذي حظيت به في براغ ومانهايم وهامبورج. وشكا ناقد برليني فقال أن "التمثيلية الهائلة" عدوان على الفضيلة. ولكنه أرفد "إن كان لأمة من الأمم أن تفخر بأحد أبنائها، فإن لألمانيا أن تفخر بموتسارت مؤلف هذه الأوبرا(85)". وبعد تسع سنوات كتب جوته إلى شيلر "إن آمالك التي ترجوها للأوبرا تحققت بوفرة في دون جوفاني(86)" وتحسر أن موتسارت لم يعيش ليكتب موسيقى فاوست.

صفحة رقم : 13527

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> الحضيض

9- الحضيض

1788 - 1790

لم تلبث حصيلة دون جوفاني أن نفذت، ولم يكف راتب موتسارت المتواضع لشراء الطعام إلى بالجهد. وقبل إعطاء التلاميذ دروساً خصوصية ولكن التدريس كان عملاً مرهقاً مضيعاً للوقت. وعليه فقد انتقل إلى مسكن أرخص في ضاحية فيرنجر شتراسي. ومع ذلك تكاثرت عليه الديون. فاقترض أينما استطاع خصوصاً من تاجر كريم وأخ في الماسونية يدعى

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> الحضيض

ميخائيل بوشبرج. وقد كتب إليه موتسارت في يونية 1788 يقول:
 "ما زلت مديناً لك بثمانى دوقاتيات. ورغم أنى فى هذه اللحظة لست فى وضع يمكننى من سداد هذا المبلغ لك، فإن
 ثقتى فىك لا حد لها، بحيث أجرؤ على التوسل إليك بأن تسعبنى بمائة جولدن حتى الأسبوع القادم وهو الموعد المحدد
 لبدء حفلاتى الموسيقية فى الكازينو. عندئذ سأكون بالتأكيد قد تسلمت نصيبى الذى وعدتُ به فأستطيع بغاية السهولة
 أن أرد لك 136 جولدناً مقروناً بأحر عبارات شكرى (87)".
 وأرسل إليه بوشبرج المائة جولدن. وشجع هذا موتسارت، فرجاه (17 يونيو) فى إقراضه ألف جولدن أو ألفين لمدة
 عام أو عامين بفائدة مناسبة "وكان قد ترك متأخرات من إيجار بيته القديم دون أن يدفعها، فهدهه المالك بحبسه،
 فاستدان موتسارت ليؤدى له دينه. والظاهر أن بوشبرج لم يوفاه بكل ما طلب، لأن المؤلف اليانس أرسل إليه توسلات
 جديدة فى يونيو ويوليو. وفى تلك الشهور النكدة المزعجة ألف موتسارت "السمفونيات الكبرى" الثلاث.
 ثم رحب بدعوة أنته من الأمير كارل فون لشنوفسكى ليركب معه إلى برلين. واقترض لتلك الرحلة مائة جولدن من
 فرانتز هوفدميل. وغادر الأمير والصلوك فيينا فى 8 إبريل 1789. وفى درسدن عزف موتسارت أما الأمير الناخب
 فردريك أغسطس فظفر بمائة دوقاتية. وفى ليبزج عزف فى حفلة عامة على أرغن باخ، وتأثر بترتيل فرقة
 "تاستولي" ليمونيته باخ "أنشدوا للرب". Singet Dem Herron. وفى بوتسدام وبرلين (28 إبريل إلى 28 مايو)
 عزف لفردريك وليم الثانى، فنفحه بسبعمائة فلورين، مع تكليف بست ربايعات وست صوتيات. ولكن مكاسبه أنفقت
 بسرعة عجيبة، وقد عزت شائعة غير مؤكدة بعض هذا الإنفاق إلى صلة غرام بمغنية برلينية تدعى هنرييته
 بارونيويس. (88) وفى 23 مايو كتب إلى كونستانسى يقول "أما عن عودتى فعليك أن تتطلى إليّ أنا أكثر من التطلع
 إلى النقود (89)" ووصل أرض الوطن فى 4 يونيو 1789.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> الحضيض

واحتاجت كونستانسى، التى كانت حاملاً مرة أخرى، إلى الأطباء والعقاقير وإلى رحلة غالية للاستشفاء بمياه بادن-
 باي-فيين. وفرغ موتسارت إلى بوشبرج مرة أخرى:
 "يا إلهى العظيم! لست أتمنى لأعدى أعدائى أن يكون فى موقفى الراهن. إنك لو تخليت عني يا أعز صديق وأخ
 (ماسونى) لقضى علينا قضاء مبرماً نفسى التعسة البريئة وزوجتى المريضة المسكينة وأطفالي... فكل شيء
 رهن... بموافقتك على إقراضى خمسمائة جولدن أخرى، وإلى أن تسوى أموري أتعهد بأن أرد لك عشرة جولدنات كل
 شهر، ثم أسدد لك المبلغ كله. يا إلهى! لا أكاد أقوى على حمل نفسى على إرسال هذا الخطاب، ومع ذلك فلا بد مما
 ليس منه بد! اغفر لي يا الله، فقط اغفر لي! (90)".

وأرسل له بوشبرج 150 جولداً أنفق أكثرها في سداد فواتير كونستاننسي في بادن. وفي 16 نوفمبر، ولدت في بيتهم بنتاً ماتت في اليوم نفسه. وأعانه يوزف الثاني بأن كلفه هو وبونتي بكتابة، "مسرحية هازلة" عن موضوع قديم (استخدمه ماريغو في لعبة الحي والحظ 1730): خلاصتها إن رجلين يتكران لاختبار وفاء خطيبتيهما فيجدان فيهما ليناً ورخاوة، ولكنهما يغفران لهما على أساس أن كل النساء هكذا "Cosi Fan Tutte" ومن هنا اسم الأوبرا "هكذا يعلن جميعاً". ولم يكن الموضوع بالذي يتفق ومزاج موتسارت المأساوي آنذ (إذا استثنينا قليلاً من العبث بدر من كونستاننسي في بادن)، ولكنه قدم للنص البارع الطريف موسيقى هي التجسيد الكامل للبراعة والظرف، وندر أن مجد هراء بمثل ما مجد به هذا الهراء. وقد لقي عرض الأوبرا الأول في 26 يناير 1790 نجاحاً لا بأس به، وأعيد العرض أربعة مرات في شهر واحد، وكانت الحصيلة مائة دو قاتية لموتسارت. ثم مات يوزف الثاني (20 فبراير)، وأغلقت مسارح فيينا أبوابها حتى 12 إبريل. وراود موتسارت الأمل في أن يجد له الإمبراطور الجديد عملاً، ولكن

صفحة رقم : 13530

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> الحضيض

ليوبولد الثاني تجاهله. وكذلك تجاهل بونتي فرحل إلى إنجلترا وأمريكا، وانتهى به المطاف (1838) مدرساً للإيطالية فيما هو الآن جامعة كولومبيا بنيويورك (91). واستجد موتسارت ببوشبرج من جديد (29 ديسمبر 1789، 20 يناير، 20 فبراير، 18، 23 إبريل 1790)، ولم يرده خائباً قط، ولكن ندر أن تلقى منه كل ما طلب. وفي أوائل مايو طلب ستمائة جولدن ليؤدي ما استحق عليه من إيجار، فأرسل إليه بوشبرج مائة. واعترف لبوشبرج في 17 مايو "أنني مضطر للالتجاء إلى المرابين" وفي ذلك الخطاب ذكر أنه لم يبق له من تلاميذه سوى اثنين، ورجا صديقه "أن يذيع بين الناس أنني مستعد لإعطاء الدروس (92)" على أن ما به من توتر الأعصاب وضيق الخلق كان يحول بينه وبين إجادة التعليم. وكان أحياناً يخلف مواعيده مع تلاميذه وأحياناً يلعب معهم البليارد بدلاً من أن يعطيهم درساً (93). ولكنه كان إذا وجد طالباً ذا موهبة مباشرة يذل له نفسه دون تحفظ، وهكذا نراه يعلم يوهان هومل في اغتباط وبنجاح، وقد تتلمذ له (1787) وهو لا يزال في الثامنة، وأصبح عازفاً شهيراً للبيانو في الجيل التالي. وأضاف الأمراض الخطيرة ألاماً إلى أحزان موتسارت. وقد شخص طبيب أوجاعه بأنها "التهاب مفرز لحويصلة الكلية مصحوب بتقيح، وتضررات بؤرية كامنة، تقضي بالضرورة إلى عجز كلوي تام (94)". وهذا معناه التهاب في الكلى صديدي مضعف. كتب إلى بوشبرج في 14 أغسطس 1790 يقول "إنني اليوم في منتهى التعاسة لم يغمض لي جفن في الليلة البارحة لشدة الألم... تصور حالي-عليل تتوشني الهموم والمنغصات... ألا تستطيع إعانتني بمبلغ تافه؟ إنني أرحب جداً بأقل مبلغ". وأرسل له بوشبرج عشرة جولدنات. واتخذ موتسارت رغم سوء حالته الصحية خطوة يائسة ليعول أسرته. ذلك أنه تقرر تتويج ليوبولد بفرانكفورت في 9 أكتوبر 1790. وكان في حاشية الإمبراطور سبعة عشر موسيقياً للبلاط، ولكن موتسارت لم يدع. ومع ذلك ذهب بصحبة فرانتز هوفر زوج أخته وعازف الفيولينه. ورهن موتسارت أنية الأسرة الفضية ليغطي نفقة الرحلة. وفي فرانكفورت عازف

صفحة رقم : 13531

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> الحضيض

وقاد في 15 أكتوبر كونشرتو البيانو في مقام D (ك537)، الذي ألفه قبل ثلاث سنوات، ولكن شاعت نزوة من نزوات التاريخ أن تسميه "كونشرتو التتويج" - وهو ليس من أفضل موسيقاه. كتب لزوجته يقول "لقد نجح نجاحاً باهراً من حيث الشرف والمجد، ولكنه أخفق من حيث المال (95)". وقفل إلى فيينا دون أن يزيد ما كسبه عما أنفق إلا قليلاً. وفي نوفمبر انتقل إلى منزل أرخص في راوهنشتاينجاسي حيث قدر له أن يلقي منيته.

صفحة رقم : 13532

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> القديس الجنائزي

10- القديس الجنائزي

1791

وأعانتها على الحياة عاماً آخر ثلاثة تكليفات وافته في تتابع سريع. ففي مايو 1791 عرض عليه إيمانويل شيكانيدر، الذي كان يخرج الأوبرات والتمثيلات الألمانية في مسرح بإحدى ضواحي، مخططاً لنص يدور حول ناي سحري، ورجا أخاه في الماسونية أن يؤلف موسيقى للنص، فقبل موتسارت. ولما ذهبت كونستانسي وهي حبلى مرة أخرى إلى بادن-جاى فيين في يونيو، قبل دعوة شيكانيدر أن ينفق نهاره في بيت وسط حديقة قرب المسرح حيث يستطيع تأليف "الناي السحري" تحت حث المدير وإحاحه. أما الأمسيات فقد صحب فيها شيكانيدر في حياة الليل بالمدينة. يقول يان "كانت الحماسة والترف الرفيقتين الحتميين لمثل هذه الحياة، وسرعان ما وصلت أنباؤهما إلى أذان الجماهير... فلوثت اسمه شهوراً بقدر من القدر فوق ما يستحق (96)". ووسط هذه الاسترخاءات وجد موتسارت وقتاً للركوب إلى بادن (على أحد عشر ميلاً من فيينا) ليزور زوجته التي ولدت له فولفجانج موتسارت الثاني في 26 يوليو.

في ذلك الشهر وافاه طلب من غريب مجهول الاسم، يعرض عليه مائة دوقة بكتابة يؤلف لقاءها سرّاً قداساً جنائزياً، ثم يرسله إليه دون أي إعلان لاسم المؤلف. وتحول موتسارت من مرح "الناي السحري" إلى موضوع الموت، وإذا هو يتلقى في أغسطس تكليفاً من براغ بتأليف أوبرا "La Clemenza Di Tito" "شفقة تيتو" تمثل هناك في مناسبة وشيكة هي تتويج ليوبولد الثاني ملكاً على بوهيميا. ولم يتح له غير شهر واحد لوضع موسيقى جديدة لنص متاستازيو القديم. وعكف عليه في مركبات مهتزة

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> القداس الجنائزي

وفنادق صاحبة أثناء رحلته مع زوجته إلى براغ. وغنيت الأوبرا في 6 سبتمبر دون أن تحظى إلا باستحسان وسط. وكانت الدموع تترقرق في عيني موتسارت وهو يغادر المدينة الوحيدة التي ناصرته من قبل، ويدرك أن الإمبراطور شهد فشله. ولم يكن له من عزاء إلا أجر المائتي دوقانية، والنبأ اللاحق بأن إعادة عرض الأوبرا في براغ 30 سبتمبر لقي كل النجاح.

في ذلك اليوم قاد من البيانو أول عرض للناي السحري. والقصة كانت في بعضها من قصص الجان، وفي بعضها تمجيداً لشعائر الدخول في الماسونية. وأفرغ موتسارت خيره في تأليف موسيقاها وإن اتبع معظم الألحان لخط ميلودي بسيط يناسب جمهوره المؤلف من الطبقة الوسطى. وقد أهدق فيضاً من الزوقات (الكولوراتورا) على "ملكة الليل"، ولكنه كان بينه وبين نفسه يسخر من غناء الكواوراتورا ويشبهه بـ"الشرائط المقطعة" (97). ومارس الكهنة الذي يفتح الفصل الثاني موسيقى ماسونية، ولحن كبير الكهنة "In Diesen Leiligen Hallen" "في هذه القاعات المقدسة لا نعرف شيئاً عن الانتقام، ومحبة الداخلين في الإيمان لإخوانهم من البشر هو المبدأ الهادي"- هذا اللحن هو زعم الماسونية بأنها ردت أخوة البشر التي تبشر بها المسيحية من قبل. (قارن جوته بين الناي السحري والجزء الثاني من فاوست، الذي بشر هو أيضاً بالأخوة، وإذ كان هو نفسه ماسونياً فقد قال عن الأوبرا إن لها "معنى أسمى لن يغيب عن أعضاء الجماعة" (98). ولقي العرض الأول نجاحاً قلفاً، وصدمة النقاد ذلك المزج بين الفوجة والمرح (99)، على أن الناي السحري ما لبث أن أصبح أحب أوبرات موتسارت إلى الناس، وأحب الأوبرات قبل فاجنر وفردى. وقد أعيد أدائه مائة مرة خلال أربعة عشر شهراً من العرض الأول.

وجاء هذا النصر الأخير وموتسارت يشعر بيد الموت تمسه. وكان القدر أراد أن يؤكد سخريته، إذ تلقى الآن من جماعة من نبلاء المجريين تعهداً باشتراك سنوي قدره ألف فلورين، ثم عرض عليه ناشر أمستردامي مبلغاً أكبر حتى من نظير اختصاصه بحق طبع بعض أعماله. ثم تلقى في سبتمبر دعوة إلى لندن من بونتي، فرد عليه قائلاً "كان بودي أن اتبع نصيحتك، ولكن كيف أستطيع؟... إن حالتي تتبئني بأن ساعتني قد

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الجنوب الكاثوليكي -> موتسارت -> القداس الجنائزي

حانت، وأنا موشك على فراق الحياة. وقد أتت النهاية قبل أن أستطيع إثبات موهبتي. ومع ذلك كانت الحياة جميلة" (100).

وفي شهوره الأخيرة أفرغ عافيته المتداعية في تأليف "القداس الجنائزي" وراح يعكف عليه أسابيع عديدة عكوفاً محموماً. فلما حاولت زوجته أن تصرفه عنه إلى شواغل أقل جهامة قال لها "إنني أكتب القداس الجنائزي لنفسي،

وسيصلح صلاة لمأتمتي" (101) وألف لحن "يا رب أرحم" Kyrie وأجزاء من "يوم الغضب" والبوق السماوي Yuba Mirum "والمملك الموهوب" Rex Tremendae واذكرني Recordare و"الباكية" Lacrimosa و"أيها الرب" و"المدانون Confutatis" و"القرابين" Hostias. وقد ترك هذه الأجزاء المتناثرة دون مراجعة، وهي تشي باضطراب عقل يواجه الانهيار. وقد اكمل فرانتز زافير زوسماير "القداس الجنائزي" على نحو رائع. وفي نوفمبر بدأت يدا موتسارت ورجلاه تتورم ورمماً مؤلماً، وأصابه شلل جزئي. فاضطر إلى لزوم فراشه، في تلك الأمسيات حين كانت أوبرا "الناي السحري" تمثل كان يضع ساعته إلى جواره ويتابع كل فصل في خياله، مدندناً بالألحان أحياناً. وفي آخر يوم من حياته طلب نوتة القداس الجنائزي، ورتل دور الألتو، ورتلت السيدة شاك السوبرانو، وفرانتز هوقر التنور، والهز جيرل الباص. فلما بلغوا "الباكية" بكى موتسارت. وتنبأ بأنه سيموت الليلة. وناولته كاهن الأسرار المقدسة الأخيرة. وقرب المساء فقد الوعي، ولكنه فتح عينيه منتصف الليل بقليل ثم أدار وجهه إلى الحائط وسرعان ما انتهت أيامه (5 ديسمبر 1791).

ولم تستطع زوجته ولا أصدقائه أن يشيعوه كما ينبغي أن يشيع. صلي على الجنان في كنيسة القديس إسطفانوس في 6 ديسمبر، ودفن في فناء كنيسة القديس مرقص. ولم يشتر له قبر، بل أدلي الجنان في قبو عام صنع ليطلق أجساد خمسة عشر أو عشرين من الفقراء المعدمين. ولم تحدد الموضع علامة من صليب أو نص، فلما ذهبت إليه أرملته بعد أيام لتصلي، لم يستطع أحد أن يدلها على البقعة التي ضمت رفات موتسارت.

صفحة رقم : 13535

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> الإسلام -> الأتراك

الكتاب الرابع

الإسلام والشرق السلافي

1715 - 1796

الفصل السادس عشر

1- الأتراك

حوصرت المسيحية في القرن الثامن عشر بين فولتير ومحمد (صلى الله عليه وسلم) بين حركة التنوير والإسلام. فمع أن العالم الإسلامي كان قد فقد سطوته الحربية منذ رد سويبيكي الترك على فيينا عام 1683، إلا أنه ظل مسيطراً على المغرب والجزائر وتونس وليبيا ومصر وشبه جزيرة العرب وفلسطين وسوريا وفارس وآسيا الصغرى والقرم وجنوبي روسيا وبسارابيا وملدافيا وولاشيا (رومانيا) وبلغاريا والصرب (يوغسلافيا) والجبل الأسود والبوسنة ودلماشيا واليونان وكريت وجزر الأرخبيل وتركيا. وهذه الأقطار كلها- باستثناء فارس- كانت جزءاً من إمبراطورية الأتراك العثمانيين المترامية الأطراف. فعلى الساحل الدلماشى بلغوا الأدرياتيك وواجهوا الولايات البابوية، وعلى البوسفور تسلطوا على المنفذ البحري الوحيد من البحر الأسود، وكان في مقدورهم أن يقفوا سداً منيعاً بين الروس والبحر المتوسط متى شاءوا.

فإذا عبرنا الأقاليم المجرية إلى بلاد المسلمين لم نلاحظ للوهلة الأولى فرقاً يذكر بين المدينتين المسيحية والإسلامية. فهنا أيضاً كان فقراء المسلمين السذج الأتقياء يفلحون الأرض تحت إمرة سادتهم الأغنياء والأذكيا المتشككين. ولكن المشهد الاقتصادي يتغير فيما وراء البوسفور: فلا يكاد المزروع من الأقاليم يبلغ 15%، أما الباقي فصحراء أو جبال لا تنتج

صفحة رقم : 13536

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> الإسلام -> الأتراك

غير التعدين أو الرعي، هناك كان الإنسان يتميز به الإقليم هو البدوي الذي أسود لونه وتحمص جلده من الشمس، وتدثر على نحو معقد انقاء للرمال والقيظ. أما المدن الساحلية والمتفرقة هنا وهناك كانت حافلة بالتجارة والحرف اليدوية، ولكن الحياة بدت أكثر دعة واسترخاء مما كانت في المراكز المسيحية، فالنساء يلزمن بيوتهن أو يسرن في وقار شديد تحت أحمالهن ووراء خمرهن، والرجال يمشون الهوناً في الشوارع. وكان جل الصناعة يدوياً، وورشة الصانع ملحقاً ينتصر بيته، وكان يدخل غليونته ويتجاذب الحديث مع غيره أثناء العمل، وأحياناً يشارك زبوناً قهوته. ويمكن القول بوجه عام أن التركي العادي كان قانعاً غاية القناعة بمدينته، حتى لقد ظل قروناً لا يطيق أي تغيير ذي بال. وكانت التقاليد هنا كما كانت في التعاليم الكاثوليكية مقدسة قداسة التنزيل. أما الدين فكان أعظم قوة وانتشاراً في الأقطار الإسلامية مما كان في العالم المسيحي، والقرآن هو الشريعة والديانة معاً، وفقهاء الإسلام شراح الشريعة

الرسميون. وكان الحج إلى مكة المكرمة يقود كل عام درامته المثيرة فوق رمال الصحراء وعلى الطرق المترتبة. أما في الطبقات العليا فإن البدع العقلانية التي طلع بها معتزلة القرن الثامن الميلادي، والتي اصلها الشعراء والفلاسفة المسلمون طوال عصر الإيمان، لقيت قبولا واسعا مستورا. كتبت الليدي ماري ورتلي مانتاجيو من الاستانة في 1719 تقول:

"إن الأفندية (أي الطبقة المتعلمة).. ليسوا أكثر إيماناً بالوحي الذي أنزل على محمد (صلى الله عليه وسلم) منهم بعصمة البابا. ويصرحون بالربوبية بينهم وبين من يتقون بهم ولا يتكلمون على شريعتهم (أي ما يمليه القرآن الكريم) إلا بوصفها مؤسسة سياسية، تصلح الآن لأن يتقيد بها العقلاء من الناس وإن كانت أصلاً من عمل رجال السياسة والمتحمسين من رجال الدين"(1). وانقسم الإسلام بين مذهبي السنة والشيعة كما انقسمت مسيحية الغرب

صفحة رقم : 13537

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> الإسلام -> الأتراك

بين الكاثوليكية والبروتستنتية، ثم قام مذهب جديد في القرن الثامن عشر على يد محمد بن عبد الوهاب، أحد شيوخ نجد- وهو الهضبة الوسطى التي نعرفها اليوم بالعربية السعودية. وكان الوهابيون من الإسلام أشبه بالبيورتان من المسيحية: استنكروا التعبد للأولياء، وهدموا أضرحة المشايخ والشهداء، واستهجنوا لبس الحرير والتدخين، ودافعوا عن حق كل فرد في أن يفسر القرآن لنفسه(2). وقد شاعت الخرافات في جميع المذاهب على السواء، ولقي دجاجلة الدين كما لقيت المعجزات الكاذبة التصديق السريع، وكان جل المسلمين يعدون مملكة السحر عالماً حقيقياً كعالم الرمال والشمس الذي يكتنفهم(3). أما التعليم فهيمن عليه رجال الدين الذين آمنوا بأن أضمن سبيل لتكوين المواطنين الصالحين أو الأتباع الأوفياء القبيلة هي ترويض الخلق لا تحرير الفكر. وكان رجال الدين قد انتصروا في معركتهم مع العلماء والفلاسفة والمؤرخين الذين ازدهروا أيام الإسلام الوسيط، فاننكس الفلك إلى التجيم، والكيمياء إلى الخيمياء، والطب إلى السحر، والتاريخ إلى الأساطير. ولكن في كثير من المسلمين حلت المحكمة الصامتة محل التعليم والتفقه في المعرفة. وكما قال داوتي الحكيم البليغ: "إن العرب والترك، الذين كتبهم هي وجوه الرجال... والذين شروهم وتفاسيرهم هي الأقوال المأثورة السائرة ومئات الأمثال الحكيمة القديمة السائدة في عالم الشرق، هؤلاء قرييون من إدراك الحقائق الإنسانية. إنهم شيوخ راسخون في الحكمة وهم لا يزالون شباباً، ولا ينسون بعد ذلك إلا القليل مما تعلموا(4)". وقد أكد ورتلي موننجيو في خطاب كتبه عام 1717 لأديسون أن "الرجال ذوي الشأن من الأتراك يبذلون في أحاديثهم مهذبين لا يقلون تحضراً عن أي رجال التقية بهم في إيطاليا"(5)، أجل فالحكمة ليس لها وطن. ولقد كان عالم الإسلام على الدوام غنياً بالشعراء. ذلك أن الصحاري الرهيبة، والسماء المحيطة، والنجوم المنتشرة إلى ما لا نهاية في الليالي الصافية، كل أولئك حرك الخيال كما حرك الإيمان الديني بالإحساس بما في الكون من

صفحة رقم : 13538

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> الإسلام -> الأتراك

أسرار ملغزة، وأضفى دم الشباب المضطرم بالرغبة المكبوتة على مفاتن النساء تصوراً مثالياً، تلك المفاتن التي زدنها إغراء في ذكاء وحكمة باحتجابهن وحيائهن. وفي 1774 نشر السير ولیم جونز كتابه "شروح على الشعر العربي" الذي كشف للعقول اليقظة في غربي أوروبا عن حب المسلمين للشعر وما ينطوي عليه من رقة وعاطفة مشبوبة. أما أعظم فحول الشعراء العثمانيين في القرن الثامن عشر فهو نديم، الذي تغنى بشعره أيام السلطان محمد الثالث (1703-30):

إيه أيها الحب الحائر، إن قلبي وروحي ضاعا هباءً

وفرغ مني الصبر وذهب الجلد

ذات مرة كشفت عن صدرها البديع،

فإذا الراحة والسلام يهربان من صدري...

لها خال في خدها وثني، وضافئر وثنية، وعيون وثنية...

أقسم أن دنيا جمالها القاسي بأسرها وثنية خالصة.

ولقد وعدتني بقبلات على نحرها، وبقبلات على صدرها،

ولكن ويلي فقد حننت الوثنية بوعدا السابق.

يا للرشاقة المحببة التي أبرزت بها غدائرها من تحت طربوشها،

كل مخلوق أبصرها تأمل حسنها مشدوها لتوه.

يا قاسية القلب، لأجلك يبكي الرجال وينوحون يأساً،

إن قدك الرقيق لزكي من كل شذى وأبهج من كل لون،

فليت شعري هل أرضعتك وردة عطرة من ثديها.

وأنتك لتقبلين أيتها الحلوة وفي إحدى يديك وردة وفي الأخرى كأس.

فلا أدري أي الثلاثة أأخذ- الوردة أم الكأس أم أنت.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> الإسلام -> الأتراك

لكأن نبعاً متدفقاً تفجر من نهر الحياة.

حين طلعت عليّ بذلك القدر اللدن البديع(6).

وكان على النساء الإفادة ما استطعن من قودهن اللدنة الرشيقة، فمتى ذبلت محاسنهن جر عليهن الزمن ذبول النسيان في زوايا الحريم. وكان لفظ "الحريم" هذا لا يقصر على أزواج الرجل وسراريه، بل ينسحب على كل إناث بيته. وقد ظل الحجاب مضروباً عليهن في القرن الثامن عشر، وكان يسمح لهن بالخروج من الدار، ولكن (بعد 1754) كان عليهن إذا خرجن أن يخفين كل عضو فيهن إلا عيونهن الساحرة، ولا يدخل جناحهن غير الأب، أو الأخ، أو الزوج، أو الابن. وحتى بعد الموت كان المفروض أن يتصل هذا الفصل بين الجنسين في الدار الآخرة. فالمؤمنات لهن جنتهن غير جنة الرجال، والمؤمنون يمضون إلى فردوس آخر ترفه فيه عنهم حور من الجنة أبقار متجددات الشباب. وكانت خيانة المرأة لزوجها تعاقب عقاباً صارماً ويندر حدوثها، وكان العربي يحلف بـ "شرف حريمه" كأغلظ الإيمان(7). وروت الليدي ماري أن النساء التركيات اللاتي سمح لها بلقائهن لم تضفن بالحجاب الذي عزلهن عن الرجال. وقد رأت بعضهن يعدلن في جمال الوجه وحسن القدر ورفاهة الطبع "أشهر حساننا الإنجليزيات(8). فلما أذن لها بدخول أحد الحمامات العامة الكثيرة، تبين لها أن النساء يمكن أن يكن جميلات حتى لو تجردن من الثياب. وقد افتتنت على الأخص بنساء الطبقة الراقية في حمام بأدرنة. دعوتها لخلع ملابسها والاستحمام معهن، فاعتذرت. "ولما اشتد إلحاحهن عليّ اضطررت في النهاية إلى أن أفتح قميصي وأريهن مشدي (الكورسيه)، فأفنعهن هذا تماماً إذ رأيت أنهن اعتقدن أنني حبيسة بقيود تلك الآلة بحيث لا أقوى على فتحها، وقد عزون هذه الحيلة لتدبير زوجي. وعلقت إحداهن قائلة "انظرن كم يقسو الأزواج الإنجليز على نساءهن المساكين(9)". وكان الأتراك فخورين بحماماتهم العامة، يرون أنفسهم على العموم شعباً

صفحة رقم : 13540

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> الإسلام -> الأتراك

أنظف من النصارى الكفار. وكان الكثيرون من أفراد الطبقتين العليا والوسطى يختلفون إلى الحمام التركي مرتين في الأسبوع، وأكثر منهم يختلفون مرة في الأسبوع. هناك يجلسون في غرفة ملئت بخاراً حتى يتصببون عرقاً، ثم يأتي عامل فيدعك كل مفصل في أجسامهم ويدلك لحمهم ويكيسه بقطعة من القماش الخشن ثم يغسله. لا عجب إذن إن لم نسمع الكثير عن روماتيزم المفاصل في تركيا. على أن أمراضاً أخرى تفتشت بينهم لا سيما الرمد، فالرمال والذباب كانت تنتقل العدوى إلى العيون. ولكن الأتراك كما أسلفنا علموا أوربا التطعيم ضد الجدري.

ولم يخامرهم شك في أن مدينتهم تفوق مدينة الأقطار المسيحية. صحيح أنهم سلموا بأن الرق كان أوسع انتشاراً في بلاد المسلمين، ولكنهم لم يروا فرقاً حقيقياً بين الأرقاء في تركيا والأقنان (Serfs) أو الخدم (Servants) في العالم المسيحي، وقد اتفقت معهم في الرأي الليدي ماري وأصل اللفظ. وكانوا لا يقلون عنا غلواً في حب الأزهار والعناية بها، فكانت لهم مثلنا مباريات مجموعة في تربية زهرة الطوليب؛ كما شهدت الأستانة في عهد السلطان أحمد الثالث (1703-30)؛ ويبدو أن الأتراك هم الذين أدخلوا إلى أوروبا المسيحية بطريق البندقية وفينا والأراضي الواطئة أزهار الطوليب والياقوتية (Hyacinth) الشرقية وحوزان الحدائق (ranuneulus) كما أدخلوا أشجار القسطل (أبي فروة)- والميموزا (10).

أما الفن في تركيا فكان الآن في اضمحلال شأنه في معظم الأقطار المسيحية. واعتبر الأتراك أنفسهم أرقى في صناعات الفخار والنسيج والأبسطة والزخرفة وحتى في المعمار. فقد ورثوا عن آبائهم كيف يصفون على التصوير التجريدي منطقاً وتواصل ودلالة. وفاخروا ببهاء القاشاني الذي صنعه (كما يرى على نافورة أحمد الثالث في الأستانة)، وبيريق قرميدهم الذي لا ينطفئ، وبصلاية منسوجاتهم ورقتها "وتألق أبسطتهم ومناقتها. واشتهرت الأناضول والقوقاز في هذه الحقبة بوبرهما اللامع وتصميم السجاد الهندسي الدقيق، لا سيما سجاجيد الصلاة التي توجه أعمدها وأفوسها المدببة

صفحة رقم : 13541

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> الإسلام -> الأتراك

المصلى الراكع صوب المحراب الذي يشير في كل مسجد إلى قبلة مكة المكرمة. كذلك فضل الأتراك جوامعهم ذات القباب والقرميد والمآذن على أبراج الكاتدرائيات القوطية وعقودها وفخامتها الكابية. وشيدوا حتى في هذه الحقبة المضمحلة المساجد العظيمة في نوري- عثمانية (1748) ولا ليلي- يامسي (1765)، وحاكى أحمد الثالث طراز الحمراء في القصر الذي شيده في عام 1729. أما الأستانة فلعلها كانت أروع العواصم الأوروبية، كما كانت أوسعها رقعة برغم شوارعها المتشابكة وأحيائها الفقيرة الكثيرة الضخيم، وكان سكانها البالغون مليونين من الأنفس (11) مثلى سكان لندن، وثلاثة أمثال سكان باريس، وثمانية أمثال سكان روما (12). وحين أطلت الليدي ماري على المدينة والميناء من قصر السفير البريطاني، خيل إليها أنهما "ربما يولفان معاً أبهى مشهد في العالم" (13). على عرش هذه الإمبراطورية العثمانية، من الفرات إلى الأطلنطي، ترعب سلاطين عصر الاضمحلال. ولقد نظرنا في موقع آخر من هذا الكتاب (14) في أسباب ذلك الاضمحلال: وهي انتقال تجارة غربي أوروبا التي تقصد آسيا، إذ أصبحت تدور حول أفريقيا بحراً بدلاً من طريقها البري الذي كان يختر مصر أو غربي آسيا؛ وتخريب قنوات الري أو إهمالها؛ وتوسع الإمبراطورية وامتدادها إلى مسافات مترامية لا تتيح لها الحكم المركزي الفعال وما ترتب على ذلك من استقلال الباشوات ونزوح الولايات إلى الانفصال؛ وتدهورت الحكومة المركزية لتفشي الرشوة والعجز والكسل، وتمرد الانكشارية المرة تلو المرة على النظام الصارم الذي كان له الفضل فيما بلغوا من قسوة وتسلط القدرية والجمود على الحياة والفكر، وتراخي السلاطين الذين استطابوا خدور النساء وآثروها على ساحات الوغى. وقد استهل أحمد الثالث حكمه بسماحة للإنكشارية بأن يملوا عليه اختياره لكبير وزرائه (الصدر الأعظم). وهذا الوزير هو الذي قبل رشوة بلغت 230.000 روبل بعد أن قاد 200.000 تركي ضد 38.000 جندي من جيش بطرس الأكبر عند نهر بروت، لقاء سماحه للقصر المحاصر

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> الإسلام -> الأتراك

بالفرار (21 يوليو 1711). وحدث أن حضرت البندقية أهل الجبل الأسود على الثورة على تركيا، فأعلنت هذه الحرب عليها (1715) وأتمت فتح كريت واليونان.. فلما أن تدخلت النمسا، أعلنت تركيا الحرب عليها (1716)، ولكن أوجين أمير سافوا هزم الترك في بترفارداين وأكره السلطان بمقتضى معاهدة يساروفتزر (1718) على الجلاء من المجر، والنزول عن بلغراد وأجزاء من ولاشيا للنمسا، وتسليم البندقية حصوناً في ألمانيا ودلماشيا. ولم تسفر المحاولات التي بذلتها تركيا لتعويض هذه الخسائر بالغارات تشنها على فارس إلا على المزيد من النكسات والهزائم، وقد قتل الغوغاء- بقيادة عامل حمام- الوزير إبراهيم باشا وأكرهوا أحم على التنازل عن العرش (1730). ووجد ابن أخيه محمود الأول (1730-54) الصراع مع الغرب ليفرض بالحرب تدفق الضرائب وتعاليم الدين، وانتزع جيش تركي أوكاكوف وكليورون من روسيا، واسترد جيش آخر بلغراد من النمسا. غير أن اضمحلال تركيا عاود سيرته الأولى في عهد مصطفى الثالث (1757-74). ففي 1762 أعلنت بلغاريا استقلالها. وفي 1769 خاضت تركيا الحرب مع روسيا منعاً لانتشار سلطان روسيا في بولندا. وهكذا بدأ ذلك الصراع الطويل الذي أنزلت فيه جيوش كاترين الكبرى هزائم ساحقة بالأتراك. فلما مات مصطفى أبرم أخوه عبد الحميد الأول (1774-89) معاهدة مذلة تسمى فجوق قينارجي (1774)، قضت على النفوذ التركي في بولندا وجنوبي روسيا ومالداقيا وولاشيا، وعلى هيمنة الأتراك على البحر الأسود. ووجد عبد الحميد الحرب في 1787، فهزم هزائم منكرة، ومات كمداً. وكان على تركيا أن تنتظر حتى يجيء كمال باشا (أتاتورك) لينهي قرنين من الفوضى ويجعل منها دولة حديثة.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> الإسلام -> الإسلام في أفريقيا

2- الإسلام في أفريقيا

بعد أن فتح العثمانيون مصر (1517) أنابوا عنهم في حكمها الباشوات والولاة. وسمحوا للمماليك الذين كانوا يحكمون مصر منذ 1250 بالاحتفاظ

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> الإسلام -> الإسلام في أفريقيا

بسلطنتهم بكوات على السنجقيات الاثنتي عشرة التي قسمت إليها البلاد. وبينما كان الباشوات يبددون عافيتهم في البذخ والترف، درب البكوات جنودهم على الولاء لأشخاصهم. وسرعان ما تحدوا سلطة الولاة المكروهين. وكان أكثر هؤلاء الحكام المحليين إقداماً هو علي بك [الكبير]، الذي كان في طفولته قد بيع عبداً. ففي 1766 خلع الباشا وفي 1769 أعلن استقلال مصر. وانتشى بخمرة النصر فقاد جنده المماليك ليفتح جزيرة العرب، واستولى على مكة، واتخذ لقب سلطان مصر وحاقان البحرين (الأحمر والمتوسط). وفي 1771 أوفد "أبا الذهب" على رأس ثلاثين ألف مقاتل لفتح الشام، وفتحها، ولكنه تحالف مع الباب العالي، وقاد جيشه عائداً إلى مصر. وفر علي بك إلى عكا، وجند جيشاً آخر، والتقى بقوات أبي الذهب والأتراك، وقاتل حتى أئخذ بالجراح فعجز عن المضي في القتال، ووقع في الأسر، ثم قضى نحبه بعد أسبوع (1773). وعادت مصر ولاية عثمانية من جديد.

ودون نذبذبات السلطة ونشوات القتل هذه استطاعت مراكب التجارة وقوافلها، واجتهاد الحرفيين، وفيضان النيل السنوي، وعرق الفلاحين في التربة الطمية الخصبة-استطاعت كلها أن تبقى في مصر على اقتصاد لم يحن ثماره غير قلة حبتها الطبيعية أو الظروف بالكفاية أو المنصب. وأنتج جهد الحقول والبحار ومحصولها طعاماً للمدن وخصوصاً الإسكندرية التي كانت من أعظم الثغور، والقاهرة التي كانت من أكثر العواصم سكاناً في عالم القرن الثامن عشر. وكانت الشوارع ضيقة لتجنب الشمس، وقد زينت بالمشربيات والشرفات التي يستطيع الحريم اختلاس النظر منها إلى الحياة من تحتهن. وكانت الشوارع الكبيرة تعج بالحرف التي تحدث تطفل رأس المال أو إنتاج الآلات. وكانت كل صناعة في أقطار الإسلام فناً، وحلت الجودة محل الكم. فصنع الفقراء التحف والطرف للأغنياء ولكنهم لم يبيعوهم قط أباهم وعزة نفوسهم.

وقام في القاهرة ثلاثمائة مسجد تدعم فقراءها بالرجاء، وتزين

صفحة رقم : 13545

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> الإسلام -> الإسلام في أفريقيا

المدينة بالقباب الضخمة والأروقة المعمدة الظليلة والمآذن الشامخة. وكان أحدها وهو الجامع الأزهر جامعة الإسلام الأولى، يؤمه على الطلاب ألفان أو ثلاثة من أقصى بقاع الأرض، من ماليزيا شرقاً إلى المغرب غرباً، ليتعلموا لغة القرآن وعلوم البلاغة والتوحيد والأخلاق والشريعة، وكان خريجو الجامعة يؤلفون جماعة العلماء، ومنهم يختار المعلمون والقضاة. لقد كان نظاماً وضع لسنية صارمة في الدين والأخلاق والسياسة.

وهكذا لم يكديطراً على الأخلاق أي تغيير من قرن إلى قرن. وكانت سن بلوغ الأحداث متقدمة عنها في الأقطار الشمالية، فتزوج كثير من البنات في الثانية أو الثالثة عشرة، وبعضهن في العاشرة، وبقاء الفتاة بغير زواج إلى السادسة عشرة كان عاراً. ولم يقدر على تعدد الزوجات الذي أباحتها الشريعة الإسلامية إلا أغنياء القوم. أما الزوج الذي تخونه زوجته فلم يكن من حقه الشرعي أن يقتل هذه الزوجة المجرمة فحسب، بل كان يلقي التشجيع من الرأي العام(15). وكان الفكر الإسلامي، كالمسيحي، يعتبر المرأة مصدراً رئيسياً للشر، لا يمكن السيطرة عليه إلا بإخضاعها إخضاعاً صارماً. وكان الأطفال ينشأون على نظام الحريم، فيتعلمون أن يحبوا أمهم وأن يخشوا أباهم ويجلووه، وكانوا كلهم تقريباً يتعلمون ضبط النفس وحين الأدب(16). وساد حسن السلوك جميع الطبقات، مع شيء من

يسر الحركة ورشاقتها، لعله أخذ عن النساء اللاتي ربما اكتسبته من حمل الأثقال على رؤوسهن. وكان المناخ مانعاً من العجلة مشجعاً على الكسل. ولم يمنع تعدد الزوجات البغاء، ففي استطاعة البغايا توفير الإثارة التي أحمدها طول الألفة. وتخصصت غواني مصر في الرقصات الفاجرة، وبعض الآثار القديمة تكشف عن قدم هذا الإغراء. وكانت كل مدينة كبرى تخصص للبغايا حياً يمارسن فيه حرفتهن دون خوف من عقاب القانون. وكانت النساء اللاتي يحذقن الرقصات الفاجرة، شأنهن في جميع الحضارات،

صفحة رقم : 13546

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> الإسلام -> الإسلام في أفريقيا

يستأجرون لهز أجسادهن أمام محافل الذكور، وفي بعض الحالات كانت النسوة أيضاً يستمتعن بمشاهدة هذا الرقص (17).

أما الموسيقى فكانت تخدم الحب والحرب، فهي تستفز المهاجمين وتهدي المهزومين. وكان الموسيقيون المحترفون من الجنسين يؤتى بهم للترفيه. كتب إدوارد لين في 1833 يقول "سمعت في القاهرة أعظم الموسيقيين شهرة وأطربتي أغانيهم أكثر من أي موسيقى أخرى استمعت بها في حياتي (18). وكانت الآلة المفضلة هي "الكمنجة"، وهي ضرب من الفيولا النحيلة، ولها وتران من شعر الخيل على صندوق مصمت مصنوع من جوزة هند شقت بين وسطها ورأسها وغطيت بقشر سمك مشدود. وكان العازف يتربع ويسند طرف الآلة المدبب على الأرض، ويضرب أوتارها بقوس من شعر الحصان وخشب الدرادر. أو قد يقعد العازف وفي حجره قانون كبير وينقر الأوتار بريشة من القرن ملصقة بسبابنتيه. وتحول العود القديم الآن إلى شكل الجيتار. فإذا أضفت تايًا، وماندولينا، وطمبورينا، اكتمل لك أوركسترا يروق الذوق المتحضر، خيراً من تلك الموسيقى البدائية التي تهيج اليوم المحافل الغربية.

أما "دول البربر" أي البلاد التي زعموا أنها "بربرية" أو همجية وهي طرابلس وتونس والجزائر ومراكش فقد دخلت التاريخ في القرن الثامن عشر أولاً بفضل بطولات قراصنتها أو اغتيال "باياتها" أو "داياتها" وقد احتفظت هذه الحكومات باستقلالها الفعلي بإرسالها "الهدايا" بين الحين والحين إلى السلاطين بالآستانة. وكان قوت الشعب يأتي أكثره من الزراعة أو القرصنة، وكانت الفدية التي تؤدي على الأسرى النصارى جزءاً هاماً من الدخل القومي: غير أن قباطنة القرصنة كان أكثرهم نصارى (19). أما الفنون فظلت محتفظة بوجود قلق، ولكن البنائين المغاربة احتفظوا بقدر من المهارة أتاح لهم أن يزرکشوا بالقرميد الأزرق والأخضر المتألق "باب منصور" الفخم الذي أضيف في 1732 بوابة بقصر مولاي إسماعيل وجامعه الضخم

صفحة رقم : 13547

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> الإسلام -> الإسلام في أفريقيا

الذي ابتناه في القرن السابع عشر في مكناس، وكانت آنذ مقر سلاطين مراکش. أما مولاي إسماعيل هذا فقد أقر النظام في حكمه الذي امتد خمسة وخمسين عاماً (1672-1727) وأنجب مئات الأبناء، ورأى في منجزاته ما يبهر طلب يد ابنة اللويس الرابع عشر يضمها إلى حريمه(20). ويصعب علينا أن نسيغ أساليب حياة شديدة التباين ن أساليب حياتنا، ولكن قد يعيننا على ذلك أن نتذكر ملاحظة قالها رحالة مغربي عند عودته من زيارة إلى أوربا "يا لها من متعة أن يعود المرء إلى الحضارة"(21).

صفحة رقم : 13548

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> الإسلام -> الإسلام في فارس

3- الإسلام في فارس

1789-1722

ولو سئل رجل فارسي في هذه الحقبة لأعرب عن شعوره بالراحة شبيه بهذا عند عودته إلى وطنه بعد مقامه حقبة في الأقطار المسيحية أو حتى في أقطار العثمانيين المسلمين. فالفارسي المتعلم حتى سقوط الدولة الصفوية (1736) في أغلب الظن كان يضع المدنية الإيرانية في مرتبة أعلى من أي حضارة معاصرة، ربما باستثناء الصينية. وكان يستنكر النصرانية باعتبارها انتكاساً على الشرك الشائع بين العوام. ولعله كان يسلم بتفوق بلاد النصارى في العلوم والتجارة والحرب، ولكنه كان يؤثر الفنون على العلوم، والحرف اليدوية على الصناعة المميكنة. كان القرن الثامن عشر قرناً أليماً على فارس. فأنى لإيران وقد غزاها الأفغانيون من الجنوب الشرقي، ولاحقتها غارات قناصة العبيد من الأربك في الشمال الشرقي، وهاجمتها غارات السلب والنهب الروسية في الشمال، واجتاحتها المرة بعد المرة الجيوش التركية في الغرب، وأقرها طغيان نادر شاه ملكها المحب للأبهة وتعسفه في جميع الضرائب، ومزق أوصالها الصراع الوحشي بين الأسر المتناحرة طمعاً في العرش الفارسي-نقول أني وكيف تستطيع إيران وقد ابتليت بهذا الاضطراب كله أو تواصل التقاليد العظمى للأدب والفن الفارسيين. وكان البلد الذي نسميه الآن أفغانستان في القرن السادس عشر تنقسمه

صفحة رقم : 13549

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> الإسلام -> الإسلام في فارس

ثلاث حكومات: كابول الخاضعة للحكم الهندي، وبلخ الخاضعة للأزبك، وهرارة وقندهار الخاضعتان للفرس. وفي 1706-8 ثار أفغانيو قندهار بقيادة مير (أمير) فايز وطرودوا الفرس. وغزا ابنه مير محمود فارس، وخلع الحاكم الصفوي حسيناً، ونصب نفسه شاهاً. وقد دعم الدين سلاحه، لأن الأفغانيين كانوا يتبعون المذهب السني، ويكفرون الفرس المنتشيعين. وقتل محمود في سورة غضب ثلاثة آلاف من حرس حسين وثلاثمائة من أشرف الفرس، ونحو مائتي طفل اشتمه في أنهم استكروا قتل آبائهم. وبعد راحة طويلة قتل محمود في يوم واحد (7 فبراير 1725) جميع الأحياء من أفراد الأسرة المالكة خلا حسيناً واثنين من أبنائه الصغار. ثم التاث عقل محمود، فقتله وهو لا يزال في السابعة والعشرين ابن عمه أشرف (22 أبريل 1725) الذي نادى بنفسه شاهاً. وهكذا بدأ سفك الدماء الذي هد كيان فارس في ذلك القرن.

واستجد طهماسب بن حسين بروسيا وتركيا، فاستجابت بالاتفاق على اقتسام فارس فيما بينهما (1725). ودخل جيش تركي فارس واستول على همدان وقزوین والمراغة، ولكن هزمه أشرف قرب كرمانشاه. وكان الجنود الأتراك يفتقرون إلى الحماسة، فقد تساءلوا أي سبب يدعوهم لمقاتلة الأفغانيين، وهم أخوة لهم سنيون على شاكلتهم، ليردوا الصفويين الشيعة إلى نادقة إلى الحكم. وتصلح الأتراك مع أشرف ولكنهم احتفظوا بالأقاليم التي فتحوها (1727). وبدا أن أشرف قد عدا الآن في أمان، ولكن ما مضى عليه عام حتى تحدى سلطانه المغضوب الدخيل ظهور رجل فارسي مغمور انقض على العدو في بضع سنين، فحقق انتصارات من أروع وأفظع ما سجله تاريخ الحروب قاطبة. وقد ولد هذا المقاتل واسمه نادر قبلي (أي عبد الله) في خيمة بشمال شرقي إيران (1686) وكان يعين أباه على رعي ما يملكان من قطعان الغنم والماعز، ولم يتح له من التعليم غير ما لقتته الحياة الشاقة المحفوفة

صفحة رقم : 13550

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> الإسلام -> الإسلام في فارس

بالمخاطر. فلما بلغ الثامنة عشرة وخلف أباه كبيراً لأسرته اختطفه هو وأمه المغيرون الأزبك وحملوهما إلى خبوة حيث باعوهما عبيداً. وماتت الأم في ذل السر، ولكن نادراً هرب وأصبح زعيماً لعصابة لصوص، واستولى على كالات ونيشابور ومشهد، وأعلن ولاءه وولاء هذه المدن للشاه طهماسب، وتعهد بطرد الأفغانيين من فارس ورد عرش فارس إلى طهماسب. وقد أنجز هذا كله في حملات متلاحقة (1729-30) ورد طهماسب إلى عرشه، فعين نادراً سلطاناً على خراسان وسيستان وكرمان ومازندران. وما لبث القائد المظفر أن شرع في استرداد الأقاليم التي استولت عليها تركيا. فاستطاع بهزيمة الترك هزيمة فاصلة في همدان (1731) أن يخضع العراق وأذربيجان لحكم الفرس. ثم نمى إليه نبأ تمرد في خراسان، فرفع الحصار عن أروان وزحف ألفاً وأربعمائة ميل عبر العراق وإيران ليحاصر هرة، وهو زحف يتضاءل بالقياس إليه الزحف الشهير الذي عبر فيه فردريك الأكبر ألمانيا مراراً في حرب السنين السبع. ونزل طهماسب بشخصه أثناء ذلك إلى ساحة القتال ضد الترك فخسر كل ما كسبه نادر، ونزل عن جورجيا وأرمينيا لتركيًا نظير تعهد الترك بمساعدته ضد روسيا (1732). فأسرع نادر قافلاً من الشرق وأنهى المعاهدة، وخلع طهماسب وسجنه، وأجلس على العرش غلاماً لطهماسب لم يجاوز عمره ستة أشهر باسم الشاه عباس الثالث، ونادى بنفسه وصياً على الصبي، وأرسل إلى تركيا إعلاناً بالحرب.

ثم زحف على الترك بجيش عدته ثمانون ألف مقاتل جندهم بالإقناع أو بالإرهاب. وعلى مقربة من سامراء التقى بجيش عرمرم من الترك يقودهم توبال عثمان من محفته لبتنر ساقبيه. وأطلقت النار مرتين على جوادي نادر أسفله، وفر حامل علمه ظناً منه أنه قتل، وانقلبت عليه فرقة عربية كان يعتمد على معونتها، وهكذا كانت هزيمة الفرس هزيمة نكراء ماحقة (18 يوليو 1733). ولكنه لملم فلول جيشه في همدان، وجند آلافاً

صفحة رقم : 13551

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> الإسلام -> الإسلام في فارس

جنداً، وسلحهم وأطعمهم، ثم كر على الترك وبطش بهم في ليلان في مذبحه رهيبه لقي فيها توبال عثمان حتفه. ثم اندلعت ثورة أخرى في جنوب غربي فارس، فشق نادر طريقه من الغرب إلى الشرق، وهزم الزعيم المتمرد فانتحر. وفي عودته عبر فارس والعراق، التقى بثمانين ألف تركي في بغاوند (1735)، وهزمهم هزيمة نكراء أكرهت تركيا على إبرام صلح نزلت بمقتضاه لفارس عن تقليص وجودة وأروان. لم ينس نادر أن بطرس الأكبر هاجم فارس في 1722-23، واستولى على أقاليم جيلان وأستراباد ومازندران على بحر قزوين، وعلى مدينتي دربند وباكو. وكانت روسيا قد ردت الأقاليم الثلاثة لفارس (1732) لانشغالها في جهات أخرى. فهدد نادر الآن (1735) بالتحالف مع تركيا ضد روسيا إن لم تتسحب من دربند وباكو. وعليه سلمت إليه المدينتان، ودخل نادر أصفهان دخول الفاتح الظافر الذي أعاد بناء قوة فارس. فلما مات الصبي عباس الثالث (1736) مختتماً بموت ملك الصفويين، جمع نادر بين الواقع والمظهر، وارتنق العرش باسم نادر شاه. وكان يؤمن بأن الخلافت الدينية بين تركيا وفارس تعمل على نشوب الحروب المتكررة، لذلك أعلن أن فارس ستتحلى منذ الآن عن بدعة التشيع وترتضي السنية مذهباً لها. فلما أدان زعيم الشيعة هذه الخطوة شنقه نادر بكل هدوء مستطاع. ثم صادر أوقاف قزوين الدينية ليفي بنفقات جيشه لأن فارس على حد قوله مدينة لجيشها أكثر مما هي مدينة لدينها (22). ثم إذ شعر بالحنين إلى الحرب، فأشرك معه في الملك ابنه رضا قلي، ثم قاد جيشاً من 100.000 مقاتل ليفتح به أفغانستان والهند. وضرب الحصار عاملاً كاملاً حول قندهار. فلما استسلمت له (1738) كان كريماً رحيماً مع المدافعين عنها، حتى أن جيشاً من الأفغانيين انضوى تحت لوائه وظل وفيأ له إلى يوم مماته. ثم زحف على كابول مفتاح ممر

صفحة رقم : 13552

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> الإسلام -> الإسلام في فارس

خيبر، وهناك أعانته الغنائم التي ظفر بها على رفع الروح المعنوية في جيشه. وكان محمد شاه، إمبراطور الهند المغولي، يأبى أن يصدق إمكان الغزو الفرس للهند، وكان أحد ولاته قد قتل مبعوث نادر إليه، فعبر نادر جبال

الهملايا، واستولى على بشاور، وعبر السند، وزحف على دلهي حتى لم يعد بينه وبينها سوى ستين ميلاً قبل أن يهب جيشه محمد لمقاومته والتقى الجيشان الهائلان على بطاح كرنال (1739)، واعتمد الهنود على فيلتهم، أما الفرس فقد هاجموا هذه الحيوانات الصبورة بكرات النار، فانقلبت الفيلة هاربة وأشاعت الفوضى في جيش الهنود، وقتل منهم عشرة آلاف، وأسر عدد زاد على القتلى، ويروي نادر أن محمد شاه جاءه يلتبس الرأفة "أمام حضرتنا السماوية". (23) وفرض عليه القائد المنتصر تسليم دلهي وكل ثروتها القابلة للنقل تقريباً، والتي تقدر بـ 87.500.000 جنيه، بما فيها عرش الطاووس الأشهر، الذي كان قد صنع (1628-35) لشاه جيهان في أوج سطوة المغول. وقتل بعض جنود نادر في شغب أحدثه الأهالي، فانتمت بالسماح بجيشه بذبح 100.000 من الوطنيين في سبع ساعات. واعتذر عن هذه الفعلة بتزويج ابنه نصر الله من ابنة محمد. ثم زحف قافلاً إلى فارس لا يعوقه عائق بعد أن أثبت أنه أعظم الفاتحين قاطبة منذ تيمور لنك.

وكان قدره المقدور أنه لو سرح جيشه فرما يعيث فساداً في الأرض ويشق عليه عصا الطاعة، ولو أبقى عليه جيشاً عاملاً فلزام عليه أن يكسوه ويطعمه، وكانت النتيجة التي خلص إليها أن الحرب أرخص له من السلم إذ استطاع خوضها على ساحة غربية. فمن ترى يكون هدفه الآن؟ وتذكر غارات الأريك على شمال شرقي فارس، وكيف باعوه عبداً، وكيف ماتت أمه في رقتها. وإذن ففي 1740 قاد جيشه زاحفاً على أذربكستان، ولم يكن لأمير بخاري لا القوة ولا الميل للوقوف في وجه نادر، ومن ثم فقد أذعن، وأدى تعويضاً ضخماً، ووافق أن يكون نهر سيحون كما كان في القدم الحد بين أذربكستان وفارس. وكان أخاه خبوه قد أعدم مبعوث نادر، فقتل نادر هذا الخان، وأطلق سراح آلاف من العبيد الفرس والروس (1740).

كان نادر بكل شخصيته مقاتلاً استغرقت الحرب عقله كله، فلم يعد فيه ذرة من الرغبة في الحكم والإدارة. وبات السلام عنده عبئاً ثقيلاً لا يطيقه. وجعلته الغنائم والأسلاب إنساناً جشعاً بخيلاً بدلاً من أن يكون جواداً كريماً. فحين ملأت خزائنه كنوز الهند أعلن تأجيل دفع الضرائب في فارس ثلاث سنين، ثم عدل عن رأيه وأمر بجمع الأموال كما كانت تجمع من قبل، وأفقر جيابه فارس كما لو كانت بلداً مغلوباً. ثم خامرته الظنون بأن ابنه يتأمر على خلعه، فأمر بأن تقف عيناه. وقال له ابنه رضا قلي "إنك تقف عيني بل عيني فارس" (24). وبدأ الفرس يمتنون منقذهم كما تعلم الروس من قبلهم أن يمتنوا بطرس الأكبر. وأثار الزعماء الدينيين عليه بغض أمة طعنت في إيمانها الديني. فحاول أن يخدم التمرد المتعاضم بإعدام المتمردين بالجملة، حتى لقد بنى أهراماً من جماجم ضحاياهم. وفي 20 يونيو 1747 اقتحم خيمته أربعة رجال من حرسه وهاجموا عليه، فقتل اثنين منهم، ولكن الآخرين صرعاة. وتنفست فارس كلها الصعداء. وهوت من بعد البلاد إلى درك من الفوضى أسوأ مما تردت فيه أيام سيطرة الأفغانيين. فطالب نفر من خانات الأقاليم بالعرش، وتلا ذلك مباراة في التقتيل والاعتقال. وقنع أحمد خان بتأسيس مملكة أفغانستان الحديثة. أما شاه رخ-الرجل الوسيم اللطيف الرحيم فقد سملت عيناه بعد اعتلائه العرش بقليل، فتقهقر ليحكم خراسان حتى 1796. وخرج كريم خان منتصراً من الصراع، وأسس الأسرة الزندية (1750) التي احتفظت بسلطانها حتى 1794. واختار كريم شيراز عاصمة لملكه، وزينها بالمباني الجميلة، وساد جنوبي فارس تسعة وعشرين عاماً من نظام وسلام لا بأس بهما. فلما مات جعل المتطاحن على السلطة يتخذ من جديد صورة الحرب الأهلية، وعادت الفوضى تضرب أطنابها من جديد. اختتمت فارس آخر مراحلها الفنية العظيمة بسقوط الدولة الصفوية على

صفحة رقم : 13553

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> الإسلام -> الإسلام في فارس

يد الأفغانيين، فلم تجملها بعد ذلك غير بعض الآثار الفنية الصغيرة. وقد وصف اللورد كرزون مدرسة الشاه حسين (1714) بأصفهان وكانت كلية لتدريب الدارسين والمحامين بانها "من أفخم الأطلال في فارس" (25). وتعجب السيريرسي سايكس من "قرميدها البديع... ورسومها المخرقة الجميلة" (26). وكان صناع القرמיד لا يزالون أمهر

صناعه في العالم بأسره، بيد أن افتقار الطبقات العليا نتيجة للحروب الطويلة قضى على سوق المهارة والتفوق وأكره الخزافين على الهبوط بفنهم إلى مستوى الصناعة. وصنعت أغلفة الكتب الفاخرة من الورق المعجن المصقول. وأنتج النساجون أقمشة مقصبة ومطرزة غاية في الرهافة. وظلت السجاجيد الفارسية تنتسج للمحوظين من شعوب كثيرة رغم أنها شهدت آخر أمجادها في عهد الشاه عباس الأول. وفي يوشاجان، وهرارة، وكرمان، وشيراز على الأخص، كان النساجون ينتجون سجاجيد "لا يقلل من روعتها في عين الناظر إلا مقارنتها بأسلافها الكلاسيكية" (27). أما الشعر الفارسي فقد حطم الفتح الأفغاني قلبه، وتركه أخرس أو كالأخرس طوال حقبة العبودية التالية لهذا الفتح. وحوالي 1750 صنف لطف على بك أدار قاموساً بسير الشعراء الفرس، اختتم بستين من معاصريه. ومع هذه الوفرة الظاهرة فإنه أسف على ما رآه مجاعة في الكتاب المجيدين في عصره، وعزا ذلك إلى الفوضى والفقر السائدين، "واللذين استشرىا بحيث لم يعد لإنسان رغبة في قراءة الشعر فضلاً عن قرضه" (28). ونسوق هنا تجربة نموذجية للشيخ على خازن، الذي نظم أربعة دواوين من الشعر، ولكنه أمسك في حصار الأفغانيين لأصفهان، ومات كل أهل بيته في الحصار، وظل هو على قيد الحياة، ثم أفاق من محنته، وهرب من أنقاض المدينة التي كانت رائعة الجمال يوماً ما، وأنفق الأعوام الثلاثة والثلاثين الباقية من أجله في الهند. وقد خلد في "مذكراته" (1742) ذكرى مائة شاعر فارسي في جيله، وأعظمهم في رأيه سيد أحمد هاتف الأصفهاني، ولعل أكثر قصائده ظفراً بالثناء تلك التي أكد فيها بوجود المتصوفة إيمانه بالله رغم الشك والدمار:

صفحة رقم : 13554

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> الإسلام -> الإسلام في فارس

"في الكنيسة قلت لفاتنة نصرانية،

يا من يقع القلب في فخك أسيراً،

أنت التي يتعلق كل طرف شعرة من شعري بسدي منطقتك!

إلى متى تضلين الطريق إلى وحدانية الله؟

إلى متى تقرضين على الإله الواحد عار التثليث؟

كيف يتأتى أن تدعي الإله الحق الواحد أباً وابناً وروح القدس؟

فافتتر ثغرها الجميل وقالت لي والضحك الحلو يتدفق منها:

إن كنت تعرف سر الإله الواحد فلا ترمني بسببة الكفر!

في ثلاث مرايا يشرق الجمال الأبدي بشعاع من وجهه الساطع.

وبينما نحن في حديثنا هذا انبعثت هذه الأنشودة بجوارنا من جرس الكنيسة:

"إنه إله واحد ولا إله سواه؟"

"لا إله إلا الله وحده..."

في قلب كل ذرة تشقيناها ترين شمساً في الوسط.

إن أنت بذلت لله كل ما تملكين، فلا حسب كافرأ

إن أصابك مثقال ذرة من الخسران...

سوف تعبرين الصراط الضيق وتبصرين الملكوت الرحب،

ملكوت الإله الذي لا يحده مكان... ..

وسوف تسمعين ما لم تسمعه أذن، وترين ما لم تره عين،

حتى يأتوا بك إلى مكان لا تبصرين فيه من الدنيا وأهلها غير واحد أحد

إلى هذا الواحد ستبذلين الحب من قلبك وروحك،

حتى ترى بعين اليقين في جلاء لا خفاء فيه.

إنه إله واحد ولا إله سواه،

لا إله إلا الله وحده" (29).

صفحة رقم : 13555

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> فاصل روسي -> العمل والحكم

الفصل السابع عشر

فاصل روسي

1762-1725

1- العمل والحكم

كتب فريدريك الأكبر حوالي عام 1776 يقول: "من بين حيران بروسيا أجمعين تستحق روسيا أعظم الاهتمام لأنها أخطرهم، فهي قوية وقريبة. وسيضطر حكام بروسيا القادمون كما اضطررت أنا للسعي إلى صداقة هؤلاء الهمج" (1).

وعلىنا دائماً ونحن نفكر في روسيا أن نتذكر حجمها. كانت في عهد كاترين الثانية تضم أستونيا وليفونيا وفنلنده (بعضها)، وروسيا الأوربية، وشمال القوقاز، وسيبيريا. وقد اتسعت رقعتها من 687.000 إلى 913.000 كيلو متر مربع في القرن الثامن عشر، وزاد سكانها من ثلاثة عشر مليوناً في 1722 إلى ستة وثلاثين مليوناً في 1790 (2).

وفي 1747 قدر فولتير سكان فرنسا أو ألمانيا بأنهم يزيدون قليلاً من سكان روسيا، ولكنه لاحظ أن روسيا تبلغ مساحتها ثلاثة أضعاف مساحة أي من الدولتين. وسيقوم الزمن والأصلا بروسية بملء تلك المساحات الشاسعة. وفي عام 1722 كان 97.7% من سكان روسيا ريفيين، وظلت نسبتهم 96.4% في 1790، فقد كان التصنيع يسير ببطء شديد. وفي 1762 كان كل الشعب إلا عشرة في المائة منه فلاحين، وكان 52.4% من هؤلاء أفناناً (3)، ونصف الأرض يمتلكه نحو 100.000 من النبلاء، ومعظم ما بقي منها تملكه الدولة أو الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، وبعضها

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> فاصل روسي -> العمل والحكم

يملكه فلاحون شبه أحرار ما زالوا يلتزمون بأداء الخدمات وبالطاعة للسادة المحليين. وكانت ثورة الممالك تحسب بعدد أقتانه، من ذلك أن الكونت بيتر بلغت ثروته 140.000 فن(4). وكان الأقتان الذين تمتلكهم الكنيسة وعددهم 992.000 أهم جزء في ثروتها، وكان 2.800.000 فن يفلحون أراضي التاج في 1762(5). وكان الشريف يتكفل بالقيادة العسكرية والتنظيم الاقتصادي، وهو عادة معفى من الخدمة العسكرية ولكنه كثيراً ما تطوع بها أملاً في الحظوة عند الحكومة. وكان له حقوق محاكمة أقتانه، وله أن يعاقبهم، أو يبيعهم أو ينفهم إلى سيبيريا. على أنه كان عادة يسمح لفلاحيه بإدارة شئونهم بواسطة مجلس قريتهم أو "المير" وكان القانون يلزمه بإمداد أقتانه بالبزار وبإعالتهم في فترات القحط. وقد ينال القن حريته بشرائها من مالكة أو بالانخراط في سلك الجيش، ولكن هذا مشروط في برضى الملك. وكان للفلاحين الأحرار حق شراء الأقتان وامتلاكهم، وكان بعض هؤلاء الأحرار ويلقبون "كولاكي" (أي القبضات)، يهيمنون على الشئون القروية، ويقرضون المال بالربا، وبيزون السادة الإقطاعيين استغلالاً وصرامة(6). وكان السيد والقن كلاهما متين السلالة، صلب العود، قوي الذراع واليد، عكفاً مع على تذليل التربة، واضطلعا معاً بعبء ترويض فصول السنة. وكانت المشاق أحياناً فوق ما يطيق البشر، بحيث نسمع مراراً بأقتان يهجرون مزارعهم في أعداد كبيرة ويختفون في بولنذة أو الأورال أو القوقاز، وكان الألوف منهم يلقون حتفهم في الطريق، والألوف يتصيدهم الجند ويقبضون عليهم. وبين الحين والحين يهب الفلاحون في ثورة مسلحة على سادتهم وعلى الحكومة، وتنشب بينهم وبين الجيش معارك يستميتون فيها في الدفاع عن أنفسهم، ولكن الهزيمة تلاحقهم دائماً، فيزحف الأحياء منهم قافلين إلى واجباتهم-إلى إخصاب النساء بذريتهم، والتربة بدمائهم. وقد درب بعض الأقتان على الفنون والحرف، فكانوا يمدون سادتهم بكل احتياجاتهم تقريباً. ويروي الكونت سيجور في معرضه حديثه عن

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> فاصل روسي -> العمل والحكم

حفل أقيم لكاترين الثانية أن الشاعر الذي نظم الأوبرا والمؤلف الذي ألف موسيقاها، والمعماري الذي بنى قاعة الاستماع، والنقاش الذي زخرفها، وممثلي المسرحية وممثلاتها، والراقصين والراقصات في الباليه، والموسيقيين في الأوركسترا-كل أولئك كانوا أقتاناً للكونت خريميتيف(7). وكان الفلاحون يصنعون في الشتاء الطويل الملابس والأدوات التي سيجتاجون إليها في السنة المقبلة. وكانت الصناعة في المدن بطيئة التطور، من جهة لأن كل بيت كان ورشة، ومن جهة أخرى لأن صعوبات النقل كانت عادة تضيق السوق فلا تجاوز الجهات المجاورة للمنتج. وشجعت

الحكومة المشروعات الصناعية بتقديمها للاحتكارات للمحوظين، وأحياناً بتزويدهم برأس المال، وقد وافقت على أن يشارك الأشراف في الصناعة والتجارة. وظهرت رأسمالية مبتدئة في صناعات التعدين والميتالورجيا والعتاد الحربي، وفي إنتاج المصانع للمنسوجات والخشب المنشور والسكر والزجاج. وسمح للـ "مقاولين" بشراء الأفتنان لتزويد مصانعهم بالعمال، على أن هؤلاء "الفلاحين المملوكين" لم يكونوا مربوطين بالمالك بل بالمشروع، وألزمهم مرسوم حكومي صدر في 1736، هم ذريتهم، بالبقاء في مصانعهم حتى يؤذن لهم رسمياً بتركها. وكانوا في حالات كثيرة يعيشون في معسكرات منفصلين عن أسرهم في الغالب الأعم (8).

أما ساعات العمل فتنفاوت بين إحدى عشرة وخمس عشرة في اليوم للرجال، تتخللها ساعة الغداء، وأما الأجور فتتراوح بين أربعة روبلات وثمانية في اليوم للرجال، وبين روبلين وثلاثة للنساء. ولكن بعض أرباب العمل تكلفوا بإطعام عمالهم وإسكانهم ودفع الضرائب عنهم. وبعد عام 1734 ازداد تشغيل العمال "الأحرار" - أي غير الأفتنان في المصانع لأنه أتاح مزيداً من الحوافز للعمال وحقق مزيداً من الربح لحق العمل. وكان العمل من الرخص بحيث لا يشجع اختراع الآلات أو استخدامها، ولكن في عام 1748 استخدم بولزونوف آلة بخارية في مصانع الحديد التي يمتلكها بالأورال. (9)

صفحة رقم : 13558

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> فاصل روسي -> العمل والحكم

وبدأت طبقة وسطى صغيرة عديمة الحول سياسياً تتشكل ببطء بين طبقتي النبلاء والفلاحين. ففي عام 1725 كان نحو ثلاثة في المائة من السكان تجاراً: أصحاب متاجر في القرى والمدن والأسواق، ومستوردين للنشاي والحرير من الصين والسكر والبن والتوابل والعقاقير من وراء البحار، وللمنسوجات الفاخرة والخزف والورق من غربي أوروبا، ومصدرين للخشب والتربنتينة والقار وشحم الحيوان والكتان والقنب. وكانت القوافل تسافر إلى الصين بطريق سيبيريا أو بحر قزوين، والسفن تقلع من ريجا وريفل ونارفا وسانت بطرسبرج. ولعل الأنهار والقنوات كانت تنقل من التجارة أكثر مما تنقله الطرق البرية أو البحرية.

وكانت موسكو تقع في قلب تلك التجارة الداخلية، وكانت من الناحية المادية أكبر مدن أوروبا، إذ أنها بها شوارع طويلة عريضة، و484 كنيسة ومائة قصر، وآلاف الأكواخ والزرائب، ويكن بلغوا 277.535 في 1780 (10)، والفرنسيون والألمان واليونان والإيطاليون والإنجليز والهولنديون والأسويبيون يتحدثون لغاتهم ويعبدون آلهتهم كما يشعرون. وكانت سانت بطرسبرج قلعة الحكومة. ومعقلاً لأرستقراطية متفرنسة، ومركزاً للأدب والفن، أما موسكو فكانت قطب الديانة والتجارة، وتتسم بحياة نصف شرقية لم تخلع عنها طابعها الوسيط، وبوطنية وسلافية مشربة بالغيرة والإخلاص. هاتان كانتا البورتين المتنافستين اللتين تدور حولهما المدينة الروسية. حيناً تمزق الشعب شطرين كالخليفة المنقسمة، وحيناً تحيله مركباً متوتراً سيصبح قبل ختام القرن مبعث الرعب لأوروبا والحكم الفيصل في مصيرها. وكان محالاً على شعب أضناه ووحشه صراعه مع الطبيعة، وأعوزته أسباب الاتصال أو الأمن على الحياة، وأفتقر أشد الافتقار إلى فرص التعليم وإلى الوقت الذي يفكر فيه نقول إن شعباً كهذا كان محالاً عليه أن يحظى بامتيازات الديمقراطية في صورة من صورها، ومن ضرب عن النظام

صفحة رقم : 13559

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> فاصل روسي -> العمل والحكم

الملكي في الحكم المركزي. وكان من الأمور التي لا بد من توقعها أن تتعرض الملكية للانقلابات المتكررة، تقوم بها أزمات النبلاء المهيمنين على إمدادهم العسكرية للحكومة، وأن تسعى الملكية إلى الحكم المطلق، وأن تعتمد على الدين معواناً لجنودها وشرطتها وقضاتها على صيانة الاستقرار الاجتماعي والسلام الداخلي.

وكان الفساد عقبة كؤوداً سدت كل مسالك الإدارة. وحتى النبلاء الأثرياء الملتقون حول العرش كان من السهل اجتذابهم بـ "الهدايا". يقول كاستيرا الذي كان معاصراً تقريباً لهذه الحقبة "إن كان هناك عاصم الروس من التملق، فإنه ما من أحد منهم يستطيع مقاومة إغراء الذهب (11)". وكان النبلاء يهيمنون على حرس القصر، ذلك الحرس المعز المذل، الذي يقيم الملوك ويخلعهم، ويؤلفون طبقة مميزة من الضباط في الجيش، ويملأون مجلس الشيوخ الذي كان يشرع القوانين في عهد اليزابيث، ويرأسون الوزارات (الكوليجيا) التي تهيمن على العلاقات الخارجية، والمحاكم، والصناعة، والتجارة، والمالية، ويعينون الكتبة الذين يواصلون السير على النظام البيروقراطي، ويوجهون اختيار الحاكم للمحافظين، الذين يديرون الـ "جوبرنيات" أي المحافظات التي انقسمت إليها الإمبراطورية ويختارون (بعد 1761) "الفوفوديين" الذين يحكمون الأقاليم. وكان مكتب الرقيب المالي المؤلف أكثره من رجال الطبقة الوسطى يبسط ظلله على جميع فروع الحكومة، وهو مكتب مخابرات اتحادي، مخول له أن يكشف ويعاقب الاختلاس، ولكنه ألقى نفسه محبطاً رغم استخدامه المخبرين على نطاق واسع. فلو أن الملك رقت كل موظف مذنب بالرشوة والفساد لتوقف دولاب الدولة. وكان في جباة الضرائب من الفهم للمال مالا يبقى لخزانة الدولة مما يجمعون أكثر من ثلثه. (12)

صفحة رقم : 13560

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> فاصل روسي -> الدين والثقافة

2- الدين والثقافة

كان للدين سلطان كبير في روسيا. لأن الفقر كان مدفعاً، ولأن تجار الأمل وجدوا مشترين كثيرين. واقتصرت الشكوكية على طبقة عليا

صفحة رقم : 13561

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> فاصل روسي -> الدين والثقافة

تقرأ الفرنسية، وكان للماسونية أتباع كثيرون في هذه الطبقة (13). أما سكان الريف وأكثر سكان المدن فكانوا يحيون في عالم فوق طبيعي قوامه التدين الذي يشيع فيه الخوف، يتخيلون الشياطين محيطة بهم، ويرسمون الصليب مراراً وتكراراً في اليوم، ويتضرعون للقديسين بالتشفع لهم، ويتعبدون لرفاتهم، يرهبون المعجزات، ويرتعدون فرقاً من النذر، ويخرون سجداً أمام الصور المقدسة، ويولولون بترانيم كنيية تنطلق من صدور جهيرة. وكان للكنايس أجراس ضخمة قوية، وقد أقم بوريس جودونوف جرساً منها بلغ وزنه 882.000 رطل، ولكن الإمبراطورة أنا إيفانو فينا بزته في هذا الميدان، إذ صب لها جرس يزن 432.000 رطل (14). وعمرت الكنايس بالمصلين، وكانت الطقوس هنا أكثر مهابة ووقاراً والصلوات أكثر حماسة ووجداً منها في روما البابوية نصف الوثنية. أما القساوسة الروس وكل منهم يلقب بالبابا فكانت لهم لحي وشعر مرسل وأردية قاتمة تصل إلى أقدامهم (لأن مظهر السيقان يتعارض مع الكرامل والوقار). ولما كانوا يختلطون بالنبلاء أو البلاط بل يعيشون في بساطة متواضعة، متبتلين في أدبهم أو متزوجين في دورهم. وكان رؤساء الأديرة يحكمون الرهبان، والرئيسات يحكمن الراهبات؛ وكان الكهنة غير الرهبان يخضعون للأساقفة، وهؤلاء لرؤساء الأساقفة، وهؤلاء للمطارنة الإقليميين، وهؤلاء للبطريرك في موسكو؛ والكنيسة بجملتها تعترف برئيس الدولة رأساً لها. وخارج الكنيسة عشرات من الملل والنحل تتنافس في التصوف والتقوى والكرامية.

وأفاد الدين في بث ناموس أخلاقي حقق بالجهد خلق النظام وسط الدوافع القوية التي طبع عليها شعب بدائي. واتخذ نبلاء البلاط أخلاق الأرستقراطية الفرنسية وعاداتها ولغتها، وكانت زيجاتهم صفقات عقارية خفف من عبئها العشاق والخليلات. وكان نساء القصر أرقى تعليماً من رجاله، ولكنهن قد يتفجرن في لحظات الغضب بألفاظ حامية وعنف قاتل. أما عامة الشعب فكانت لغتهم سوقية غليظة، وكثر بينهم العنف، وكانت القسوة تتفق وقوة البدن وصالفة الجلد. وكان كل إنسان يقامر ويسكر حسب طاقته،

صفحة رقم : 13562

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> فاصل روسي -> الدين والثقافة

ويسرق حسب منصبه (15)، ولكن الكل كانوا محسنين، ويزت الأكوخ القصور في كرم الضيافة. وكانت الوحشية والكرم صفتين شائعتين في المجتمع كله. أما اللباس فيختلف من أزياء باريس العصرية في البلاط إلى القلائس من الفراء وجلد الغنم والقزازات الصفيقة التي يرتديها الفلاحون، ومن جوارب النبلاء الطويلة الحريرية إلى الأربطة الصوفية التي تحوي سيقان الأبقان وأقدامهم. وفي الصيف قد يستحم عامة الناس عراة في الأنهار متجاهلين الجنس. وكانت الحمامات الروسية كالتركية عنيفة ولكنها محبوبة. وفيما خلا هذا كان الاهتمام بالنظافة الصحية عارضاً، وحفظ الصحة العامة بدائياً. وكان انبلاء يحلقون لحاهم، أما عامة الشعب فيطلقونها رغم مراسيم بطرس الأكبر.

وكان في كل بيت تقريباً بالالايكا (جيتار)، وكان في سانت بطرسبرج على عهد اليزابيث وكاترين الثانية أوبرا مجلوبة من إيطاليا وفرنسا. وإليها وفد مشاهير المؤلفين والقادة الموسيقيين، وأبرع مغني العصر وعازفيه. وكان المال ينفق بسخاء على تعليم الموسيقى، وقد أثبت صوابه وفائدته بتفجير العبقرية الموسيقية في النصف الثاني من القرن

التاسع عشر. وكان أصحاب الأصوات المبشرة من الذكور يرسلون من جميع أصقاع روسيا إلى الكنائس الكبرى لتدريبهم. ولما كانت الطقوس الكنسية اليونانية لا تبيح استعمال الآلات في الكورس، فإن الأصوات كانت حرة طليقة، فحقت من أعمال الانسجام والتناغم ما لم يكن له نظير في أي بلد آخر في العالم، وغنى الصبيان أدوار السوبرانو، ولكن المرتلين بأصوات الباص (العميقة الخفيفة) هم الذين أذهلوا كثيرين من الأجانب بمدى الخفض في أصواتهم وبتناسع شعورهم من همسات الرقة والحنان إلى موجات القوة الحنجرية. فمن تراهم مؤلفو هذه الموسيقى المؤثرة لفرق الترتيل الروسية، أكثرهم رهبان مغمورين لم تفرع الأجراس لموتهم ولم تستنهر أسمائهم. ويبرز

صفحة رقم : 13563

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> فاصل روسي -> الدين والثقافة

من بينهم راهبان في القرن الثامن عشر. أولهما سوزونوفتش بيريزوفسكي الصبي الأوكراني الذي وهب صوتاً كأنما خلق ليعبد الله. وأودته كاترين الثانية إلى إيطاليا على نفقة الدولة ليحصل أفضل التعليم الموسيقي، وعاش سنوات في بولونيا، وتعلم التأليف الموسيقي على البادري مارتيني. فلما عاد إلى روسيا كتب موسيقى دينية جمعت بين القوة الروسية والرشاقة الإيطالية. وقوبلت جهوده لإصلاح ترتيل الكورس بالمقاومة من أنصار القديم، فبات فريسة لاكتئاب مرضى، وقتل نفسه غير مجاوز الثانية والثلاثين (1777) (16). أما الثاني، وهو أشهر منه، فاسمه ديمتري بورتنيانسكي، الذي أدخل وهو لا يزال طفلاً في السابعة كورس كنيسة البلاط، وناطت الإمبراطورة اليزابيث جالوبي بتعليمه، فلما عاد جالوبي إلى إيطاليا أوفدت كاترين الثانية ديمتري معه إلى البندقية ومنها انتقل إلى يد البادري مارتيني ثم إلى روما ونابلي، حيث ألف موسيقى على الطريق الإيطالية. وفي 1779 عاد إلى روسيا، وسرعان ما عين مديراً لكورس كنيسة البلاط، وقد احتفظ بمنصبه هذا حتى مماته (1825). وقد ألف لفرقة الترتيل قداساً يونانياً، وموسيقىات في أربعة وثمانية أقسام لخمسة وخمسين مزموراً. وتدريبه للفرقة يرجع له أكثر الفضل في بلوغها مكانة من التفوق جعلتها إحدى عجائب العالم الموسيقي. وفي 1901 احتفلت سانت بطرسبرج بذكرى ميلاده المائة والخمسين بمظاهر الأبهة والفخامة.

أما الفن الروسي فقد سيطر عليه التأثير الفرنسي، ولكن الشخصية القائدة فيه كان إيطاليا يدعى فرانثيسكو، (أوبارتولوميو) راستريللي. وكان بطرس الأكبر قد استقدم أبلي كارلو إلى روسيا (1715)، فصب بالبرونز تمثالاً لبطرس ممتطياً صهوة جواد، وآخر بالحجم الطبيعي للإمبراطورة أنا أيفانوفنا. وورث الابن طراز لويس الخامس عشر الذي جلبه كارلو من فرنسا، وأضاف إليه بعض ما استوحاه من روائع الباروك التي صنعها بلبتازار نويمان وفيشر فون أراخ في ألمانيا والنمسا، وقد طوع هذه التأثيرات لحاجات روسيا وطرزها الفنية بانسجام فائق حتى أصبح المعماري المقرب للقيصرة اليزابيث. ويكاد يكون كل بناء روسي ذي خطر

صفحة رقم : 13564

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> فاصل روسي -> الدين والثقافة

مشيد من 1741 إلى 1763 مصمماً بيده أو بيد معاونيه. فعلى ضفة نيفا اليسرى أقام (1732-54) "القصر الشتوي" الذي أحرق في 1837 ولكن أعيد بناؤه طبقاً لتصميمه الأصلي فيما يظن: كتلة هائلة من النوافذ والعمد في ثلاث طبقات، تعلوها التماثيل والشرفات المفرجة؛ وكان أقرب منه إلى ذوق اليزابث قصر زاركوي سيلو (أي قرية القيصر)، المشيد على ربوة تبعد خمسة عشر ميلاً جنوبي سانت بطرسبرج. وعلى يساره بني كنيسة، وفي داخل القصر كان سلم فخم يؤدي إلى قاعة كبرى تضيئها نوافذ ضخمة بالنهار وست وخمسون ثرياً بالليل؛ وفي الطرف الأبعد قاعة العرش وأجنحة الإمبراطورة، ثم حجرة صينية تقدم فروض الإجلال التي درج القرن الثامن عشر على تقديمها للفن الصيني. وهناك "حجرة الكهرمان" المكسوة بألواح من الكهرمان والتي أهداها فردريك وليم الأول بديلاً لخمسة وخمسين من رماة القنابل اليدوية الفارعي الأجسام، وقاعة للصور تضم بعض المجموعات الإمبراطورية. أما داخل القصر فأكثره بزخرفة ركوكية، وصفها رحالة إنجليزي بأنها "مزيج من الهمجية والفخامة" (17). وقد أزيلت بأمر كاترين الثانية زخارف الواجهة الذهبية، فقد كانت كاترين بسيطة نقية في ذوقها.

وكان الأدب أبطاً تطوراً من الفن. فقد افتقد التشجيع لندرة القراء، وقيدت رقابة الكنيسة والدولة حرية التعبير، ولم تكن اللغة الروسية قد صقلت ذاتها نحواً ولفظاً بحيث ترقى إلى مستوى الأداة الأدبية. ومع ذلك فحتى قبل تولي اليزابيث العرش (1742) ترك ثلاثة من الكتاب بصماتهم على صفحة التاريخ. وأولهم فازيلي تايتشيف كان صاحب نشاط وفكر، رحالة مؤرخاً، دبلوماسياً وفيلسوفاً، يحب روسيا ولكنه يفتح عقله في تشوق للتطورات الاقتصادية والفكرية في الغرب. وكان واحداً من ذلك النفر من الشباب الذين أودعهم بطرس إلى الخارج بغية إخصاب روسيا فكراً. وقد أعاد بأفكار خطيرة: فقد قرأ الأصول أو الخلاصات لكتب

صفحة رقم : 13565

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> فاصل روسي -> الدين والثقافة

بيكون وديكارت ولوك وجروتشوس وبيبل، وذبل إيمانه السني، فلم يؤيد الدين إلا بوصفه معواناً على الحكم (18). وقد خدم بطرس في حملات حربية خطيرة. وأصبح حاكماً لأسترخان، واتهم بالاختلاس (19) واجتمع له من جولاته ذخيرة من المعلومات الجغرافية والعرقية والتاريخية انتفع بها في كتابه "تاريخه روسيا". وقد أغضب هذا الكتاب رجال الدين، ولم يجرؤ أحد على طبعه حتى السنوات السبعة الأولى من حكم كاترين الثانية (1768-1774).

وواصل ثاني هؤلاء الكتاب الثلاثة وهو الأمير أنطيوخ كانتيمير-التمرد على الهوت. كان ابناً لحاكم (هوسبودار) ملدافي، وجيء به إلى روسيا في عامه الثالث، وتعلم الحديث بست لغات، وخدم في السفارات الروسية في لندن وباريس، والتقى بمونتسكيو ومويرتوي، فلما عاد كتب نقداً لاذعاً لأولئك الغلاة من الوطنيين الداعين للجامعة السلافية، المعارضين لتلويث الحياة الروسية بالأفكار الغربية. وإلى القارئ طرفاً من قصيدته "إلى عقلي":

"أيها العقل الفج، يا ثمرة الدراسات الحديثة، أمسك، ولا تدفع القلم في يدي... ما أكثر الطرق السهلة المؤدية في زماننا هذا إلى أسباب التشريف، ولكن أقل الطرق تقبلاً هو الطريق الذي خطته الأخوات الحافيات التسع (ربات الفنون)... عليك أن تكذب وتكذب هناك، وبينما تشقى أنت يتجنبك الناس كأنك الوباء ويتهكمون عليك، ويبغضونك... "أن الذي يكب على الكتب ينقلب كافرأ"، هكذا يدمدم كريتو متذمراً في يده مسبحته... ويريدني أن أرى مبلغ الخطر في بذرة المعرفة التي تلقى بيننا: إن أطفالنا... مما يفرغ الكنيسة، بدأوا يقرأون الكتاب المقدس، وهم يناقشون كل شيء ويريدون معرفة العلة لكل شيء، ولا يضعون في رجال الدين إلا أقل الثقة... إنهم لا يوقدون الشمع أمام الصور، ولا يحفظون المواسم والأعياد...

"أيها العقل، نصيحتي لك أن تصبح أشد صمماً من قطعة زلابية،

صفحة رقم : 13566

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> فاصل روسي -> الدين والثقافة

ولا تشك لأنك مغمور... وإذا كانت الحكمة المنعمة قد علمتك شيئاً،... فلا تشرحه لغيرك" (20).
وزاد كانتيمير من إساءاته بترجمته كتاب فونتيل "أحاديث حول تعدد العوالم"، وقد أدين الكتاب لأنه كوبرنيقي،
مهرطق، مجدف، ولكن كانتيمير أحبط ما بيته له مضهده، فقد مات وهو في السادسة والثلاثين (1744). ولم تجد
هجانياته ناشراً يقدم على نشرها حتى عام 1762.
وفي عهد القيصرية اليزابيث بدأ الأدب الروسي يؤكد ذاته شيئاً أكثر من مجرد كونه صدى للأدب الفرنسي. وقد شعر
ثالث هؤلاء الكتاب، وهو ميخائيل لومونوزف، بالتأثير الألماني لا الفرنسي، وكان قد درس في ماربورج وفرابورج،
ثم تزوج فتاة ألمانية، وجلب معها إلى سانت بطرسبرج حملاً ثقيلاً من العلم. وأصبح سبغ الأكاديمية المبرز في كل
شيء حتى في الشراب (21). ورفض أن يتخصص، فكان عالماً في المعادن، وجيولوجياً، وكيميائياً، وكهربائياً،
وفلكياً، واقتصادياً، وجغرافياً، ومؤرخاً، وفيلولوجياً، وخطيباً. وقد لقبه بوشكن "أول جامعة روسية" (22) وفي غمار
هذا كله كان يقرض الشعر:
وكان منافسه الأكبر على ثناء الطبقة المفكرة هو ألكسيس سوماروكوف الذي نشر ديواناً من القصائد الغنائية من نظمه
ونظم لومونوسوف ليظهر أنه أشعر منه (وكان الفرق بينهما طفيفاً). أما مفخرة سوماروكوف الحقيقية فهي إنشاؤه
مسرحاً قومياً روسياً (1756) ألف له تمثيلات رددت صدى تمثيلات راسين وفولتير. وقد ألزمت اليزابيث حاشيتها
بالحضور، وكانوا لا يدفعون أجراً عن دخول المسرح، فشكا سوماروكوف من أن راتب الخمسة آلاف روبل الذي
يتقاضاه في العام لا يقيم أوده، ولا يعين مسرحه على الحياة. "إن ما كان الناس يشهدونه في أثينا يوماً وما يشهدونه
اليوم في باريس، يشهدونه كذلك في روسيا بفضل اهتمامي... وفي ألمانيا لم يوفق حشد من الشعراء لما وفقت إلى
صنعه بجهودي أنا وحدي" (23).

صفحة رقم : 13567

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> فاصل روسي -> الدين والثقافة

وفي 1760 أعيان من هذه الجهود المضنية فسد رحاله إلى موسكو، ولكن ميله للشجار ما لبث أن أورثه الفقر هناك.
فناشد كاترين الثانية أن تبعث به إلى الخارج على نفقة الدولة، وأمد لها أنه "لو وصف أوربا فلم كلمي، لما كفاه
300.000 روبل" (24) واحتملته كاترين في صبر حتى مات صريع الشراب (1777).

ولتبعث الآن شيئاً من الإشراف في هذه الصفحات بقصة غرام بطلتها أميرة اسمها ناتاليا بوريسوفنا دولجوروكايا، وكانت ابنة الكونت والمشير بوريس خريميتيف، رفيق سلاح بطرس الأكبر. ففي ربيعها الخامس عشر (1729) يوم كانت "باهرة الجمال ومن كار الوارثات في روسيا" (25) خطبت لفاسيلي لوكيش دولجوروكي، أقرب المقربين للقيصر بطرس الثاني. وقبل أن يتاح عقد القران مات بطرس، فنفى خلفه فاسيل إلى سيبيريا، وأصرت ناتاليا على أن تتزوج وتتبعه إلى المنفى. وعاشت معه ثمانية أعوام في تبولسك، وولدت له طفلين. وفي عام 1739 أعدم، وبعد أن قضت في المنفى ثلاثة أعوام أخرى سمح لها بالعودة إلى روسيا الأوربية فأكملت تعليم أبنائها، ثم دخلت ديراً في كييف. هناك، واستجابة لرجاء ولدها ميخائيل، كتبت "مذكراتها" (1768) التي نشرها حفيدها الشاعر الأمير إيفان ميخايلوفيتش دولجوروكي في 1810. وقد أحيا ذكراها ثلاثة عراء روس، وهي محل إجلال روسيا باعتبارها نموذجاً للكثيرات من النساء الروسيات اللاتي شرفن الثورة ببطولتهن ووفائهن.

والخلاصة أن الحضارة الروسية في جملتها كانت مزيجاً من الانضباط الحتمي والاستغلال القاسي، ومن التدين والعنف، ومن الصلاة والتجديف، ومن الموسيقى والتبذل، ومن الوفاء والقسوة، ومن الخضوع الذليل والبسالة التي لا تقهر. ولم يستطع القوم أن يكتسبوا فضائل السلم لأنه كان لزاماً عليهم أن يخوضوا، خلال فصول شتاء مديدة، وليالي قارسة البرد طويلة، حرباً مريرة مع الرياح القطبية التي تكتسح سهولهم المتجمدة دون ما حاجز يعوقها. إنهم لم يعرفوا قط النهضة الأوربية ولا الإصلاح

صفحة رقم : 13568

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> فاصل روسي -> الدين والثقافة

البروتستنتي، ومن ثم كانوا-إلا في عاصمتهم المتكفلة-لا يزالون أسرى قيود عصر الوسيط. وكانوا يعززون أنفسهم بكبرياء العرق ويقين الإيمان، دون أن يبلغ ذلك بعد مبلغ النزعة القومية الإقليمية، إنما كان اقتناعاً ضارياً بأنه بينما كان الغرب يورد نفسه موارد الهلاك بالعلم والثروة والوطنية والكفر، أقامت "روسيا المقدسة" وفيه لمسيحية آباء الكنيسة الأولين، أقرب الأمم إلى قلب المسيح وأحبها إليه، وإليها سيؤول حكم العالم واقتداؤه، يوماً ما.

صفحة رقم : 13569

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> فاصل روسي -> السياسة الروسية

ليس تاريخ روسيا ما بين بطرس الأكبر واليزابيث بتروفنا إلا سجلاً كئيباً محيراً من الدسائس وثورات القصر. فهذه الحقبة تتيح لنا- إن كان لحقبة ما أن تتيح- ونحن مطمئنون- أن نوفر في الحيز والوقت. ومع ذلك فلا مناص من ذكر بعض عناصر هذا الخليط إن أردنا أن نفهم مركز كاترين الكبرى وخلقها وسلوكها.

كان الوريث الطبيعي للعرش عام 1725 بيوتر ألكسيفيتش، صبي العاشرة وابن ألكسيس (وألكسيس هو الابن القليل لبطرس الأكبر)، ولكن أرملة بطرس التي لم تعرف القراءة والكتابة أقنعت حرس القصر (بدفعها رواتبهم التي طال تخلفها) بأنه عينها خلفاً له، وبفضل تأييدهم أعلنت (7 فبراير 1725) توليها العرش باسم كاترين الأولى، إمبراطورة إقليم روسيا كلها. ولكن كاترين الصغرى هذه انغمست بعد ذلك في الشراب والفسق. وكانت تحب الخمر حتى تغيب عن وعيها كل مساء، وتمضي إلى فراشها عادة في الخامسة صباحاً، وقد تركت زمام الحكم لعشيقيها السابق الأمير الكسندر دانييلوفيتش منشيوكوف ومعه مجلس أعلى، واضطلع الكونت أندراي أوسترمان، الألماني المولد، بالثئون الخارجية ووجه روسيا إلى مصادقة ألمانيا والنمسا ومعاداة فرنسا. وعملاً بمخططات

صفحة رقم : 13570

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> فاصل روسي -> السياسة الروسية

بطرس الأكبر، زوجت كاترين ابنتها أنا بتروفنا لكارل فريدرش، دوق هولشتين-جوتورب، وذهب العروسان ليعيشا في كيل، حيث ولدت أنا الغلام الذي صار فيما بعد بطرس الثالث. أما كاترين نفسها، فقد ماتت في 6 مايو 1727 شهيدة لذاتها، بعد أن عينت خلفاً لها الصبي بيوتر الكسيفيتش الذي اغتصب عرشه من قبل.

ولم يكن بطرس الثاني هذا يتجاوز الثانية عشرة، فظل منشيوكوف يواصل الحكم، واستغل سلطاته في الإثراء تحسباً للمستقبل. فهب لفيف من النبلاء بزعامة الأخوين إيفان وفاسيلي لوكيتش دولجوروكي فأطاحوا بمنشيوكوف ونفوه إلى سيبيريا حيث مات في 1729. ولم يمض عام حتى لقي بطرس الثاني حتفه بالجدي، وانتهى بموته صلب الذكور في أسرة رومانوف. هذا الحادث المؤسف هو الذي أتاح لروسيا أن تحكمها على مدى ستة وستين عاماً ثلاث نساء ضارعتن، أو فقن، أكثر معاصريهن من الملوك كفاءة تنفيذية وأثراً سياسية، وسبقنهم جميعاً باستثناء لويس الخامس عشر في مضمار العريضة الجنسية.

أما أولى هؤلاء القيصرات فهي أنا إيفانوفنا، ابنة إيفان الكسيفيتش البالغة خمسة وثلاثين عاماً، وأبوها كان الأخ الأبله لبطرس الأكبر. وقد اختارها المجلس الأعلى لأنها اكتسبت سمعة واقية بالدعاة والطاعة. ووضع المجلس الذي كان يهيمن عليه آل دولجوروكي وجولتسين "شروطاً" بعثوا بها إلى أنا وهي في كورلاند، لا بد من قبولها لتثبيتها على العرش. فوعدت على الشروط (28 يناير 1730). ولكن لا الجيش ولا الاكليروس أرادوا إحلال الاولجركية محل الاوتقراطية. لذلك انطلق وفد من حرس القصر للقاء أنا، والتمس منها أن تتقلد زمام السلطة المطلقة. فاستوحت الشجاعة من أسلحتهم، ومزقت "الشروط" على مرأى من الحاشية.

وكانت أنا عديمة الثقة بالنبلاء الروس، فاستقدمت من كورلاند الألمان الذين كانوا يتمتعونها هناك. فأصبح إرنست فون بورن، أو بيرون

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> فاصل روسي -> السياسة الروسية

عشيقها السابق رئيساً للحكومة، ورد أوسترمان لرياسة الشؤون الخارجية، وأعاد الكونت خريستوف فون مونيش تنظيم الجيش، وساعد لوفنولدي وكورف، وكيزرلنج، على تطعيم نظام الحكم الجديد ببعض الكفاية الألمانية. فجمعت الضرائب بصرامة يقظة، ووسع التعليم وأدخلت عليه التحسينات، وهيئاً للدولة جهاز مدرب من الموظفين المدنيين. وبمثل هذه الفاعلية سجنحت الحكومة أو نفتت أو أعدمت الدولجوروكيين والجولتسينيين. وعاشت أنا عيشة منتظمة نسبياً، بعد أن قنعت بعشيقين (بيرون ولوفنولدي)، فكانت تستيقظ في الثامنة، وتخص ثلاث ساعات لشئون الحكم، وتبتسم ابتسامة الرضى، إذ يبسط رجالها الألمان سلطان روسيا. فغزا جيش يقوده مونيش بولنده، وخلع ملكها ستانسلاس لسكزنسكي-الخاضع لتوجيه الفرنسيين-وأجلس على عرشه أو غسطس الثالث السكسوني، واتخذ أول خطوة على طريق ربط بولنده بالروسيا. وردت فرنسا بأن حرضت تركيا على أن تهاجم روسيا، ولكن السلطان تردد لانشغاله على جبهته الفارسية، فرأت روسيا الفرصة مواتية لإعلان الحرب على تركيا، وهكذا بدأت (1735) ستون سنة من صراع السيادة على البحر الأسود. وشرح دبلوماسيو أنا الموقف فقالوا إن الأترك، أو من يلوذ بهم في جنوبي روسيا، في يدهم مخارج الأنهار الخمسة الكبرى-دنيستر، وبوج، ودنيبر، ودون، وكوبان-التي كانت أهم مسالك التجارة الروسية المتجهة جنوباً، وأن القبائل الإسلامية نصف الهمجية التي سكنت الأحواض الدنيا لهذه الأنهار هي خطر دائم يتهدد مسيحيي روسيا، وأن الشواطئ الشمالية للبحر الأسود جزء طبيعي وضروري من روسيا، وأن شعباً عظيماً نامياً كالشعب الروسي يجب ألا يحال بعد اليوم بينه وبين الوصول إلى البحر الأسود والبحر المتوسط دون معوق، وقد ظلت هذه الحجج الأنشودة المتكررة التي ظلت تتغنى بها روسيا طوال ما بقي من القرن وما بعده.

أما أول الأهداف فكان القرم، شبه الجزيرة الذي يقوم معقلاً تركيا

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> فاصل روسي -> السياسة الروسية

على الجبهة الشمالية للبحر الأسود. وكان الاستيلاء على شبه الجزيرة تلك هو الغاية التي استهدفتها حملة مونيش عام 1736. وكان أعدى أعدائه في هذه الحملة المسافات المترامية والمرضى... ذلك أنه كان عليه أن يعبر 330 ميلاً من القفار والبراري التي لا تستطيع لبلدة واحدة من بلادها أن تقدم الطعام أو الدواء لجيش عدته 57.000 مقاتل، وكان لزاماً أن ترافقهم ثمانون ألف عربة في طابور طويل معرض في أي نقطة أو لحظة لهجوم قبائل التتار عليه. واستطاع مونيش بفضل قيادته الماهرة أن يستولي في تسعة وعشرين يوماً على بريكوب، وكوسلوف، وبخشيسراي (عاصمة القرم)، ولكن في ذلك الشهر نقشت الدوسنطاريا وغيرها من الأمراض في جيشه فأحدثت من الشقاء والتمرد بين

رجاله ما أكرهه على التخلي عن فتوحه والتقهقر إلى أوكرانيا، واستولى أثناء ذلك قائد آخر من قواد أنا على أزوف المشرفة على مصب نهر دون.
وكر مونيش على الجنوب في أبريل 1737 بسبعين ألف مقاتل، واستولى على أوخاكوف، قرب مصب نهر بوج. وفي يونيو انضمت إليه النمسا في مهاجمة الترك، ولكن حملتها باءت بفشل ذريع ألجأها إلى إبرام صلح منفرد، أما روسيا التي تركت فجأة لتواجه الجيش التركي برمته، والتي كانت تتوقع حرباً مع السويد، فقد وقعت (18 سبتمبر 1739) صلحاً رد إلى الأترک تقريباً كل ما كسبه الروس في حملات ثلاث. واحتفل بالمعاهدة في سانت بطرسبرج على أنها انتصار باهر لم يكلف أكثر من مائة ألف قتيل.
وعاش أنا بعد سنة الحرب، وقبيل موتها عينت وريثاً للعرش، إيفان السادس، الغلام الذي لم يتجاوز عمره ثمانية أسابيع: وهو ابن بنت أختها أنا ليوبيو لدوفنا الألمانية المولد وأنطون أولريش أمير برنزويك. وأوصت أن يكون بيرون وصياً على إيفان حتى يبلغ السابعة عشرة. ولكن مونيش وأوسترمان كانا الآن قد نالهما من بيرون ما يكفي، فانضما إلى أولريش وليوبولدوفنا ونفوه إلى سيبيريا (9 نوفمبر 1740). وأصبحت

صفحة رقم : 13573

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> فاصل روسي -> السياسة الروسية

أنا ليوبولدوفنا وصية، ومونيش "الوزير الأول". وخشي السفيران الفرنسي والسويدي أن يسيطر الثيوتون على روسيا سيطرة كاملة، فمولا ثورة يقومبها الأشراف الروس. واختار الثوار سراً مرشحاً للعرش في إليزابيتا بتروفنا ابنة بطرس الأكبر وكاترين الأولى.
وكانت إليزابيت، كما سندعوها هنا. في الثانية والثلاثين من عمرها، ولكنها في أوج حسننها وشجاعتها ونشاطها، تحب الألعاب الرياضية والتدريب العنيف، ولكنها أيضاً ولوعة بمتع الغرام، وقد رفعت عن سلسلة من العشاق، ولم تظفر بقدر يذكر من التعليم، وكانت تكتب الروسية بصعوبة وتتكلم الفرنسية بطلاقة. ويبدو أن فكرة تشریفها العرش لم تخطر لها ببال إلى أن نحتها أنا ليوبولدوفنا وأوسترمان جانباً مؤثرين عليها الأجانب. فلما أمرت الوصية فرق سانت بطرسبرج بالرحيل إلى فنلندة، وتذمر الجند لأنهم سيواجهون حرب شقاء، اغتتمت إليزابيت الفرصة، فلبست الزي العسكري، وقصدت تكناات الجند في الساعة الثانية من صباح 6 ديسمبر 1741، وناشدتهم أن يناصروها، ثم ركبت مركبة الجليد إلى القصر الشتوي على رأس فوج من الجيش وأيقظت الوصية، وزجت بها هي والقيصر والطفل في السجن. فلما استيقظت المدينة وجدت أن لها حاكماً جديداً، إمبراطورة روسية خالصة، وابنة لبطرس العظيم. واعتبطت روسيا وفرنسا بهذا الحدث.

صفحة رقم : 13574

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> فاصل روسي -> إليزابيت بتروفنا

1762-1741

من العسير فهم هذه المرأة خلال ضباب الزمن والأهواء. وحين لقبها كاترين الثانية في 1744 "راعها منها جمالها وجلال سلوكها... ومع أنها كانت بدينة جداً، فإن بدانتها لم تتل قط من حسنها أو تجعل حركتها ثقيلة مضطربة... رغم ارتدائها طوقاً هائلاً لتتورتها حين تكتمل زينتها(26)". وكانت تبطن الشوكية إلى شفا الإلحاد(27)، وتظهر الغيرة

صفحة رقم : 13575

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> فاصل روسي -> إليزابيث بتروفنا

على الديانة التقليدية. وقد لاحظ مراقب فرنسي "ميلها السافر للشراب"(28)، ولكن علينا أن نتذكر أن روسيا بلداً بارداً وأن الفودكا تدفئ شاربها. وقد رفضت أن تتزوج مخافة أن يبدد الزوج قوتها ويضعف من أسباب الخلاف والخصومة. ويزعم البعض أنها تزوجت سراً الكسيس رازموفسكي، فإذا كان الأمر كذلك فإنه لم يكن سوى الأول بين أقران عديدين. وكان فيها غرور وخيلاء، وولع بالحلي والملابس المبهرجة، ولها خمسة عشر ألف ثوب، وأكوام من الجوارب، و2500 حذاء(29)، وقد استعملت بعضها قذائف أثناء النقاش، وكان في استطاعتها أن توبخ خدمها وحاشيتها بلغة السوق، وقد صدقت على بعض العقوبات القاسية، ولكنها كانت في سريرتها رحيمة الفؤاد(30). ألغت عقوبة الإعدام إلا على جريمة الخيانة (1744)، ولم تسمح بالتعذيب إلا في أخطر المحاكمات؛ أما عقوبة الجلد فقد بقيت نافذة، ولكن إليزابيث كانت تشعر أنه لا بد من إيجاد وسيلة لتثبيط المجرمين الذين جعلوا الطرق العامة وشوارع المدن غير مأمونة في الليل، وقد جمعت في طبيعتها بين القلق والكسل، ووهبت ذكاءً فطرياً حاداً، وأعطت وطنها خير حكومة سمحت بها حالة التعليم والأخلاق والعادات والاقتصاد الروسي.

وبعد أن نفت أوسترمان ومونش إلى سيبيريا، أعادت مجلس الشيوخ إلى قيادة السلطة الإدارية، ووكلت الشئون الخارجية إلى ألكسي بتروفيش بستوزيف-ريومين. وقد وصفته كاترين الثانية بأنه "دساس كبير، سيئ الظن بالناس، حازم جريء في مبادئه، عدواً لا يعرف الصفح، ولكنه صديق صدوق لأصدقائه"(31). وكان مشغولاً بالمال كما يشغف به عادة من يعرفون أن سمو المنصب قد يفضي إلى السقوط، وحين حاولت إنجلترا أن ترشوه قدرت أن نزاهته تكلف 100.000 كراون(32). ولا علم لنا إن كانت الصفقة قد تمت، ولكن بستوزيف وقف بوجه عام في صف إنجلترا ولكن هذا كان رداً طبيعياً على تأييد فرنسا للسويد وتركيا ضد روسيا. وقد عرض فردريك الأكبر هو الآخر على بستوزيف 100.000 كراون إلى ألف بين روسيا وبروسيا، ولكن العرض رفض(33). وبدلاً منه

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> فاصل روسي -> إليزابيث بتروفنا

ألف بستوزيف بين روسيا والنمسا (1745) وإنجلترا (1755). فلما اتبعت إنجلترا هذا التحالف مع بروسيا (16 يناير 1756) تهدم بناء الأحلاف الذي أقامه بستوزيف، وأهملت إليزابيث بعدها الأخذ بنصائحه، وربطت وزارة جديدة روسيا بحلف فرنسي-نمساوي كان "نقضاً للأحلاف السابقة: وكان رحي حرب السنين السبع دائرة. وقد رأينا في موضع سابق من هذا الكتاب-وما أبعاد الثقة بيننا وبينه-كيف هزم القائد الروسي أبراكسين البروسيين في جروس بيجرزدورف (1757)، ثم سحب جيشه إلى بولندا. وأقنع سفيراً فرنسياً والنمسا إليزابيث بأن بستوزيف كان قد أمر بقهقر أبراكسين وأنه يتأمر لخلعهما. فأمر بالقبض على المستشار والقائد جميعاً (1758). ومات أبراكسين في السجن، وأنكر بستوزيف التهمتين، وقد برأت ساحته المعلومات التي أنيط عنها اللثام فيما بعد. وأراد خصومه أن يعذبوه ليعترف، ولكن إليزابيث كفتهم، وحل ميخائيل فورونستوف محل بستوزيف مستشاراً. وفي غمار حفلات البلاط الراقصة، وموائد قماره وديسانسه وغيراته وأحفاده، كانت إليزابيث تشجع معاونيها على دفع المدينة الروسية قدماً. ففتح محسوبها الشاب إيفان شوفالوف جامعة في موسكو، وأسس المدارس الابتدائية والثانوية، وأوفد الطلاب في بعثات للخارج للدراسات العليا في الطب، واستقدم المعماريين والمثاليين والمصورين الفرنسيين لأكاديمية الفنون (Akademia Iskustv) التي أقامها في العاصمة (1758). وقد تبادل الرسائل مع فولتير، وأغراه بتأليف "تاريخ الإمبراطورية الروسية في عهد بطرس الأكبر" (1757). أما أخوه بيوتر شوفالوف فقد أعان الاقتصاد بإلغاء المكوس على التجارة الداخلية. على أن إليزابيث سمحت أثناء ذلك للتعصب الديني بأن يزداد إرضاء لدعاة الجامعة السلافية، فأغلقت بعض المساجد في أقاليم التتار، ونفت 35.000 يهودياً. وكانت أكبر مآثرها انتصار جيوشها وقوادها المرة بعد المرة على فردريك

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> فاصل روسي -> إليزابيث بتروفنا

الثاني، ووقفهم الزحف البروسي، وإشرافهم على سحقه لولا أن هد تدهور صحتها من قدرتها على حمل التحالف الفرنسي النمساوي الروسي على التماسك كتب السفير البريطاني في تاريخ مبكر (1755) يقول: "لقد ساءت صحة الإمبراطورية وأصيب بصبق الدم والنهج، وبالسعال المستمر، وبالأرجل المتورمة، وبالماء في رنتيها، ومع ذلك فقد رقصت "منويتاً معي". (34) وراحت الآن تدفع ثمناً باهظاً لإيثارحا حياة الفسق على الزواج. وإذا كانت بغير خلف، فق طالما بحثت عن شخص من دم ملكي يستطيع التصدي لمشاكل روسيا الخارجية والداخلية، فوقع اختيارها-وهو اختيار لا يمكن تفسيره-على كارل فريدرش أولرش، ابن أختها أنا بتروفنا وكار فريدرش، دوقهولشتين-جوتورب. وكانت هذه أكبر غلطة افتقتها في حكمها، ولكنها كفرت عنها باختيارها لشريكة حياتها.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> فاصل روسي -> بطرس وكاترين

5- بطرس وكاترين

1761-1743

ولد بيوتر فيودوروفتش، كما أعادت اليزابث تسمية وريثها، بمدينة كيل في 1728. ووكان بوصفه حفيداً لبطرس الأكبر ولشارل الثاني عشر كليهما صالحاً لارتقاء العرشين الروسي والسويدي. وقد ألزم البيت لضعف صحته حتى بلغ السابعة، ثم اختير بتغيير فجائي للانضمام إلى حرس هولشتين ونشئ على حياة الجندي. وأصبح رقيباً في التاسعة، وكان يسير شامخ الرأس في العروض الميدانية، وتعلم لغة ضباط الجيش وأخلاقهم. وحين ناهز الحادية عشرة عين له مرب ألماني نشأنه على الإيمان اللوثري بصورة لا تنسى، وأسرف في تأديبه إسرافاً أصابه بالعصاب. وإذ أربهه هذا المربي بعنفه، فقد انطوى على الجبن والتكتم، ولاذ بالمكر والخداع، (35) وبات "دائم النزق والعناد وحب الشجار" (36). ولعل روسو كان مستشهداً به مثلاً يوضح الزعم بأن الإنسان خير الفطرة ولكن البيئة السيئة هي التي تفسده. ذلك أن بطرس كان رقيق الفؤاد، يتمنى أن يسلك المسلك الحق، كما سنرى من

صفحة رقم : 13579

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> فاصل روسي -> بطرس وكاترين

مراسيمه الملكية، ولكن دمره ما فرض عليه من القيام بأدوار لا تناسبه. وحين التقت به كاترين الثانية وهو في الحادية عشرة وصفته بأنه "وسيم الطلعة حسن السلوك مجامل" وقالت "أنها لم تشعر بأي نفور من فكرة الزواج به". (37) وفي 1743 أمرت اليزابث بأن يؤتى به إلى روسيا، وخلعت عليه لقب الغراندوق، ويبدو أنها أدخلته في المذهب الأرثوذكسي، وحاولت تدريبه على شئون الحكم. ولكنها "وقفت مشدوهة" لفقر تعليمه واهتزاز شخصيته وفي سانت بطرسبرج أضاف السكر عيباً إلى عيوبه الأخرى، وراود الأمل اليزابث بأن هذا الفتى الغريب قد يتاح له، إذا زوج بامرأة صحيحة البدن ذكية الفؤاد، أن ينجب قبل وفاة اليزابث قيصرأ كفوفاً لروسيا في مستقبل أيامه. وبهذه الروح المجردة من التعصب العرقي، والتي اتسمت بها الاستقراطيات الأوروبية حتى أثناء قيام الدول القومية، اتجهت اليزابث ببصرها خارج روسيا، فوقع اختيارها على أميرة مغمورة من إحدى الإمارات الألمانية الصغرى. وكان

فريدريك الثاني الماكر قد أوصى بهذا الاختيار أملاً في أن يظفر بقيصرة ألمانية صديقة في روسيا التي أصبحت الآن مبعث خوف لألمانيا.
وعند هذه النقطة تواجهنا مذكرات كاترين الكبرى، وهي مذكرات لا يتطرق الشك إلى صحة نسبتها إليها، لم تطبع حتى عام 1859، ولكن المخطوطة الفرنسية التي كتبتها كاترين بخط يدها محفوظة بدار المحفوظات القومية في موسكو فهل هي جديرة بالثقة؟ إن القصة التي ترويها هذه المذكرات تؤيدها على العموم مصادر أخرى. (38) وعيها ليس الكذب بل التحيز فهي قصة أجادت روايتها بذكاء وحيوية، ولكنها في بعضها دفاع عن خلعه زوجها، وعن احتمالها نبأ قتله بمثل ما احتملته به من رباطة جأش.
وقد ولدت في سنتن بيومرانيا في 21 أبريل 1729 وسميت عند تعميدها صوفيا أوجستا فريدريكا بأسماء ثلاث عمات لها. أما أمها فكانت يوهانا اليزابث أميرة هولشتين-جوتورب، ومن طريقها كانت كاترين ابنة

صفحة رقم : 13580

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> فاصل روسي -> بطرس وكاترين

خالة بطرس. أما أبوها فكان كرسنيان أوجست، أمير انهالت-تسربست في وسط ألمانيا، واللواء في جيش فريدريك. وقد خاب أمل أبيها لولادة بنت لا ولد، وحرزنت الأم كأنها أسقطت جنيناً. أما كاترين فقد كفرت عن أوثنتها باتخاذها فحولة القادة العسكريين وحكمة الأباطرة المحاكمين، بينما ظلت طوال ذلك أكثر العشيقات في أوربا طلاباً وأقربهن منالاً.
كانت تشكو ألواناً من أمراض الطفولة، ومنها مرض اشتد عليها حتى خلفها تبدو للناظرين كأنها ستظل مشوهة ما بقي لها من العمر "في عمودها الفقري تعرج" و "كتفها اليمنى أعلى كثيراً من اليسرى"، وأصبحت الآن "تتخذ شكل حرف Z" فحبسها جلاد المدينة السابق "الذي تخصص في علاج انخلاع المفاصل، في مشد (كورسيه) "لم أكن أخلعه قط نهاراً ولا ليلاً إلا حين أغير ملابسي الداخلية، وبعد ثمانية عشر شهراً بدأت أبدي علامات على استقامة عودي". (39) ولكثرة ما تردد في سمعها أنها دميمة، صممت على أن تنمي ذكاءها بديلاً عن الجمال، فكانت مثلاً آخر من أمثلة النقص الذي يشعر به صاحبه فيحفزه إلى قدرات تعويضية. واختقت دمامتها حين لف البلوغ أعضائها فاستدارت. وكانت رغم هذا الخطوب ذات "طبع رضي" وفيها من الفرح الفطري "ما استلزم ضبطه". (40)
تلقت تعليمها على مهبين نخص منهم بالذكر قسيساً لوثرياً كان يلقي عنثاً من أسئلتها. مرة سألته "أليس من الظلم أن يحكم على تيطس، وماركوس أوريليوس، وجميع عظماء العالم القديم بالهلاك الأيدي رغم فضلهم، لأنهم لم يعرفوا شيئاً عن رؤيا يوحنا اللاهوتي؟" وكانت تحسن الجدل إلى حد حمل معلمها على أن يعتزم جلدها لولا تدخل إحدى المربيات. وقد أرادت بصفة خاصة أن تعرف شكل تلك الهبولي التي سبقت الخليفة كما ورد في سفر التكوين. "ولكن إجاباته لم تبد قط مقتعة" و "فقد كلانا أعصابه"، وزاد انزعاجه بإصرارها على أن يفسر لها "بالضبط معنى الختان" (41) وكان معلوماً الآخرين ومربيها فرنسيين، لذلك أتقنت

صفحة رقم : 13581

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> فاصل روسي -> بطرس وكاترين

الفرنسية، فقرأت كورني، وراسين، وموليير، وكان واضحاً أنها مهياة لقراءة فولتير. وهكذا أصبحت من أفضل نساء عصرها تعليماً.

وانتهى نبأ هذه الأميرة الذكية إلى الإمبراطورة اليزابث، وكانت تواقفة إلى فتاة قد تمنح بطرس الذكاء بالتناضح. ففي أول يناير 1744 وصلت إلى أم صوفيا دعوة للحضور معها في زيارة البلاط الروسي. وتردد الوالدان، فقد بدت لهما روسيا بلداً قلقاً بدانياً إلى حد خطر، أما صوفيا التي حدثت أن زواجها من الفرندوق قيد البحث فقد التمسست الجواب بقبول الدعوة. وعليه ففي 12 يناير بدأوا الرحلة الطويلة الشاقة عبر برلين وشتتن وبروسيا لشرقية وريجا وسانت بطرسبرج إلى موسكو، وفي برلين استضافهم فريديريك، وأعجبته صوفيا، "وراح يسألني ألف سؤال ويتكلم على الأوبرا والكوميديا والشعر والرقص، وباختصار كل شيء يمكن أن يخطر ببال إنسان يتحدث إلى فتاة في الرابعة عشرة (42)" وفي شنتن "ودعني أبي، وكانت آخر مرة رأيته فيها، وقد بكيت بكاءً مرّاً". وبلغت الأم وابنتها موسكو في 9 فبراير في حاشية مترفة، بعد رحلة في مركبة جليد امتدت اثنتين وخمسين ساعة من سانت بطرسبرج.

وفي ذات المساء التقت ببطرس ثاني مرة، وقد وقع من نفسها هذه المرة أيضاً موقعاً طيباً، إلى أن أسر لها أنه لوثري صميم، وأنه يحب إحدى الوصيفات في البلاط (43). ولاحظت أن الروس بكرهون لهجته وعاداته الألمانية، أما هي فقد عولت على تعلم الروسية والتمكن منها. وعلى قبول المذهب الأرثوذكسي بحذافيره وشعرت بشيء "أكثر قليلاً من عدم المبالاة نحو بطرس، ولكن "لم أكن غير مبالية بالتاج الروسي". وعينوا لها ثلاثة مدرسين للغة، والدين، وللرقصات الروسية. وقد شقت على نفسها في الدرس-فنهضت مرة في منتصف الليل للاستذكار حتى ألزمت الفراش لإصابتها بذات الجنب، "زطلت أتذبذب بين الحياة والموت سبعة وعشرين يوماً، فصدمت خلالها ست عشرة مرة، أحياناً أربع مرات في اليوم" (44). وفقدت أمها حظوتها في البلاط لأنها طلبت استدعاء قسيس

صفحة رقم : 13582

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> فاصل روسي -> بطرس وكاترين

لوثري. أما صوفيا فقد كسبت قلوباً كثيرة بطلبها قسيساً يونانياً. وأخيراً، في 21 أبريل، استطاعت أن تظهر أمام الناس. "كنت هزيلة كأنني هيكل عظمي... في وجهي وقسماتي غضون، وشعري ساقط، ولوني غاية في الشحوب" (45) وأرسلت لها الإمبراطورة ملء قدر من "الروح".

وفي 28 يونيو جازت صوفيا، في خشوع مؤثر، مراسم دخولها في المذهب الأرثوذكسي. وأضيف الآن إلى أسمائها اسمان هما إكاترينا ألكسيفنا؛ ومن ثم أصبحت منذ الآن تدعى كاترين. وفي صباح الغد، وفي الكتدرائية الكبرى، "أوسبنسكي سوبور"، خطبت رسمياً للفرندوق بطرس. وابتهج كل من رآها بتواضعها اللبيق، وحتى بطرس بدأ يحبها. وبعد أربعة عشر شهراً من التدريب تزوجا في 21 أغسطس 1745 في سانت بطرسبرج. وفي 10 أكتوبر رحلت أم كاترين قاصدة أرض الوطن.

وكان بطرس الآن في السابعة عشرة، وزوجته في السادسة عشرة. كانت جميلة، وكان قبيحاً لأنه أصيب بالجدرى في سنة خطبتهما. وكانت من الناحية الفكرية شرهة يقظة، أما هو فيقول سولوفيف أنه "بدت عليه كل إمارات التخلف العقلي، وكان أشبه بطفل كبير" (46)، يلهو بالدمى والعرائس والعساكر اللعب، ويولع بالكلاب حتى أنه يحتفظ بعدد منها في شقته، ولم تعرف كاترين أيهما شر من الآخر، نباحها أم رانحتها المنتنة (47). ولم يحسن الموقف بالعزف على كمانه. وازداد ميله للشراب، "ومنذ 1753 كان يثمل بالشراب كل يوم تقريباً" (48) وكثيراً ما كانت الإمبراطورة

بمساعدة من تشاء. وكانت ثمرة طاعتها ولداً وبناتاً. " (54) وقد بينت مدام ماريّا تشوجلوكوفا، التي عينتها إليزابث وصيفة لكاترين، للغراندوق (فيما روثه هذه) أن هناك استثناءات هامة لقاعدة الوفاء الزوجي، ووعدها بأنها تكتم السر إذا اتخذت كاترين عشيقاً، (55) و (" لا ريب في أن هذا الاقتراح المخجل لم يأت من الوصيفة بل من الإمبراطورة ذاتها(56)". وعلينا أن ننظر إلى هذه الأمور في منظور بلاط روسي طال إلفه لملكات عديدات العشاق، وبلاط فرنسي تعود على ملوك متعددي العشيقات، وبلاط سكسوني-بولندي ضم مائة وخمسين طفلاً أنجبهم أو غسّطس الثالث.

فهل اقتدت كاترين بهذه المثل إلى درجة الإفراط؟ بعد ولايتها العرش، نعم. أما قبلها فيبدو أنها اقتصرت في قصد رواقى على ثلاثة عشاق- أولهم بعد زواجها بنحو ست سنوات-سرجي سالتيكوف، الضابط الشاب المفعم حيوية. وتشرح كاترين استجابتها لحبه فتقول:

"إن جاز لي توخي الصراحة.... قلت إنني كنت أجمع بين عقل الرجل ومزاجه، وبين مفاتن المرأة الجديدة بأن تحب، وأرجو الصفح عن هذا الوصف، الذي يبرره صدقه... فلقد كنت جذابة، ومن ثم كان نصف الطريق إلى الإغراء قد قطع فعلاً، ومن الإنسانية الخالصة في مثل هذه المواقف ألا يقف الإنسان في منتصف الطريق.... فالمرء لا يستطيع أن يمسك بقلبه في يده، يحبسه أو يطلقه، يشد عليه قبضته أو يرخيها كما يشاء." (57)

وفي 1751 حملت ولكنها أسقطت حملها، وتكررت هذه التجربة المؤلمة في 1753. وفي 1754 ولدت الطفل الذي صار فيما بعد الإمبراطور بولس الأول. واعتبّطت إليزابث، وأهدت كاترين 100.000 روبل، وأرسلت سالتيكوف لينزوي انزواءً مأموناً في استكهولم ودرسدن، حيث كان "عابئاً مستهتراً مع جميع النساء اللاتي قابلهن" (58) كما تروي كاترين

صفحة رقم : 13585

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> فاصل روسي -> بطرس وكاترين

أما بطرس فازداد سكرًا، واتخذ مزيداً من الخيليات، واستقر أخيراً على إليزابينا فوروتسوفا، ابنة أخي المستشار الجديد. وكانت كاترين تتشاجر معه، وتسخر منه ومن أصدقائه علانية. (59) وفي 1756 قبلت ملاطفة فتى بولندي وسيم في الرابعة والعشرين يدعى الكونت ستانسلاس بونياتوفسكي، قدم إلى سانت بطرسبرج ملحقاً للسير هانبري-وليمز، السفير البريطاني. وتصفها سيرة ستانسلاس الذاتية في سنة 1755:

"كانت تناهز الخامسة والعشرين... في تلك اللحظة بالذات التي هي أجمل اللحظات للنساء الجميلات. كان لها شعر فاحم، وبشرة بيضاء ناصعة وأهداب سوداء طويلة، وأنف إغريقي، وفم كأنه خلق للقلبات، ويدان وذراعة غاية في الحسن، وقد نحيل يغلب فيه الطول على القصر. ومشية غاية في النشاط ملؤها المهابة رغم هذا. وكان رنين صوتها مبهجاً، وضحكها مرحة كطبعها" (60).

فلما حدق النظر فيها "نسي أن هناك قطراً اسمه سيبيريا." وكان هذا الغرام أعمق ما شعرت به من غراماتها الكثيرة، وغراماته هو، فقد ظل قلبها مع بونياتوفسكي بعد أن اتخذت عشاقاً آخرين بزمن طويل، أما هو فلم يفق قط تماماً مع افتتانه بها، مهما أنزلت به سياساتها من آلام موجعة. وحين ذهبت لتقيم مع بطرس في أورانيباوم، خاطر ستانسلاس بحياته بزيارتها سراً هناك. وكشف أمره، وأصدر بطرس أوامره بشفته. غير أن كاترين تشفعت لبطرس بخليلته التي هدأت ثائرة الغراندوق بعد أن ألانتها هدية من كاترين. وأخيراً، وفي نوبة من الود، ولم يكتف بطرس بالصفح عن بونياتوفسكي، بل دعا كاترين للانضمام إلى عشيقها، ودخل معها ومع إليزابينا فورونتسوفا في "معيشة رباعية" لطيفة تخللتها عشاءات مرحة اشتركوا فيها جميعاً (61).

وفي 9 ديسمبر 1758 ولدت كاترين بنتاً. واعتقد أفراد الحاشية عموماً أن أباه هو بونياتوفسكي (62) ولكن بطرس نسب الفضل لنفسه،

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> فاصل روسي -> بطرس وكاترين

وتقبل التهاني، ونظم المهرجانات احتفالاً بهذا الإنجاز (63)، ولكن الطفلة ماتت بعد أربعة أشهر. واستدعى بونياتوفسكي إلى بولندا بأمر الإمبراطورة، وحرمت كاترين العشق هنيهة، ولكنها افتتنت بمغامرات الحب والحرب التي خاضها جريجوري جريجوريفتش أورلوف، ياور بيوتر شوفالوف. وكان أورلوف قد كسب لنفسه حسن السمعة بثباته في موقعه في معركة زورندورف رغم جروحه الثلاثة. وكان له بنية الرجل الرياضي و "وجه ملاك" (64)، ولكنه لم يعرف من المناقب إلا الظفر بالسلطة والنساء بأي وسيلة متاحة. وكان لشوفالوف خليعة هي الأميرة إلينا كوراكين، وكانت من أجمل حسان القصر وأكثرهن تحلاً، فاجتذبت أورلوف وظفر بها من رئيسه، وأقسم شفالوف أنه قاتله، ولكنه مات قبل أن ينفذ فيه وعيده. وأعجبت كاترين بشجاعة أورلوف، ولاحظت أن له أربعة أخوة في الحرس كلهم قوي فارح الطول، وقالت في نفسها إن هؤلاء الخمسة سيفيدون إذا طرأ طارئ. وعليه رتبت لقاء مع جريجوري، ثم ثانياً، فثالثاً، وسرعان ما أزاحت كوراكين واحتلت مكانها. ولم يحل يوليو 1761 حتى كانت حاملاً، وفي أبريل 1762 ولدت ابناً لأورولوف، وأحيط الحدث بما أمكن من تكتم، وربى الغلام باسم الكسيس بوبرينسكي. وفي ديسمبر 1761 وضح أن الإمبراطورة بادنئة مرضها الأخير، وبذلت محاولات لإشراك كاترين في مؤامرة تستهدف منع بطرس من ارتقاء العرش، وقد أُنذرت بأن بطرس إن أصبح قيصراً سينحيتها جانباً ويجعل اليزافيتا فورونتسيفا زوجته ومليكته، ولكن كاترين رفضت الاشتراك في المؤامرة. وفي 5 يناير 1762 (حسب التقويم الجديد) ماتت الإمبراطورة اليزابث، وارتقى العرش بطرس دون معارضة سافرة.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> فاصل روسي -> بطرس الثالث

وقد أدهش الجميع بسماحة قراراته، فالود الفطري الذي حجبه ضباب العادات الفظة الغبية تكشف الآن في نوبة من العرفان لتقلده السلطة بسلام،

صفحة رقم : 13588

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> فاصل روسي -> بطرس الثالث

فصفح عن أعدائه، واستبقى معظم وزراء اليزابث، وحاول أن يتلطف مع كاترين. فخصص لها في القصر جناحاً مريحاً في طرف منه، وسكن هو جناحاً في الطرف الآخر. وخصص لخليلته الغرف الوسطى، وكان هذا بالطبع إهانة بالغة، ولكن كاترين ابتهجت في دخيلة نفسها بسكناها على مبعدة منه. وزودها بمخصصات سخية، ودفع ديونها الباهظة دون تحقيق في أصلها. (65) وفي الحفلات الرسمية كان يسوي بينها وبينه في المكان وأحياناً يقدمها على نفسه. (66)

ثم أعاد من المنفى الرجال والنساء الذين نفاهم الحكام السابقون إلى سيبيريا فعاد الآن مونيش وقد بلغ الثانية والثمانين ليرحب به اثنان وثلاثون حفيداً، وردّه بطرس إلى رتبة المشير، وأقسم مونيش لخدمته إلى النهاية، وقد بر بقسمه. وأحل الإمبراطور السعيد النبلاء من الالتزام الذي فرضه عليهم بطرس الأكبر، وهو أن يعطوا الدولة سنين كثيرة في حياتهم، فاقتروا أن يصنعوا له تمثالاً من الذهب، ولكنه أمرهم أن يستعملوا هذا الذهب استعمالاً أرشد. (67) وألغى مرسوم أصدره بطرس في 21 فبراير بالشرطة السرية التي أبغضها الناس جميعاً، وحرم الاعتقال للتهمة السياسية حتى يراجعها مجلس الشيوخ ويقرها. وفي 25 يونيو أصدر بطرس مرسوماً بأن يعفى مقترف الزنا من التعنيف الرسمي منذ الآن، "فحتى المسيح لم يدين (الزانية) في ذلك الأمر". (68) وابتهجت الحاشية، وسر التجار لتخفيض رسوم التصدير، وخفض ثمن الملح، وأبطل شراء الأبقان لتشيغيلهم في المصانع أما "قدامى المؤمنين" الذين هربوا من روسيا اتقاء اضطهادهم في عهد اليزابث فقد دعوا للعودة والتمتع بالحرية الدينية. ولكن رجال الدين أثارت سخطهم الشديد مراسيم 16 فبراير و 21 مارس التي أمنت جميع أراضي الكنيسة وجعلت جميع القساوسة الأثوذكس موظفين حكوميين ذوي رواتب. وحرر الأبقان العاملون على ضياع النبلاء أن يحرروا هم أيضاً سريعاً. ووسط هذه الإصلاحات كلها- التي أشار بها عليه مختلف الوزراء- أراح بطرس يشرب حتى يثمل.

صفحة رقم : 13589

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> فاصل روسي -> بطرس الثالث

أما أغرب قراراته الذي أسعده أيما سعادة، فهو إنهاؤه الحرب مع بروسيا. وكان حتى قبل ولايته العرش قد فعل الكثير ليسانس فريدريك، فأوصل سراً الخطط الحربية التي وضعها مجلس اليزابث، وراح الآن يفاخر بعمله هذا (69) وفي 5

مايو ربط الروسي ببروسيا في تحالف دفاعي هجومي. وأصدر تعليماته إلى قائد القوات الروسية المحاربة مع الجيش النمساوي أن يضعها في خدمة "سيدي الملك" (70) ثم ارتدى بزة عسكرية بروسية، وأمر الجنود المحليين بأن يحذوا حذوه، تم أدخل الضبط والربط البروسيين في الجيش، ونظم التدريبات العسكرية كل يوم لحاشيته، وأجبر كل ذكر في الحاشية على المشاركة فيها دون مراعاة للسن أو النقرس (71). وقدم "حرس هولشتين" الخاص به على أفواج العاصمة المعتدة بمكانتها.

ولم يكن الجيش الروسي كارهاً للسلم، ولكن أذهله هجر روسيا لحلفائها الفرنسيين والنمساويين في عجلة، وتخليها عن جميع الأقاليم التي ظفرت بها من بروسيا خلال الحرب. وأقره أن يذيع بطرس عزمه على تجريد جيش روسي على الدنمرك لاسترداد دوقية شلزفج التي أخذتها الدنمرك من أدواق هولشتين، ومنهم أبو بطرس. وأبان الجلود في غير لبس إنهم سيرفضون حوض حرب كهذه، فلما طالب بطرس إلى كيريل رازوموفسكي أن يزحف بجيش على الدنمرك أجابه القائد "يا صاحب الجلالة يجب أولاً أن تعطيني جيشاً آخر يكره جيشي على الزحف." (72) وفجأة وجد بطرس نفسه مكروهاً رغم إصلاحاته الجريئة الممتازة، كرهه الجيش خائناً لوطنه، وكرهه الإكليروس لوثرياً أو شرمان اللثوري، وطالب الأقبان الذين لم يعتقوا بالحربة في تدمير وصخب، وسخر منه البلاط ووصفه رجلاً أحمق مأفوناً. وفوق هذا كله حامت حوله شبهة عامة في أنه ينوي تطليق كاترين والزواج من خليلته. (73) "أن هذه الشابة" (كما يروي كاستيرا) "العاطل من أي موهبة خطاب أو كلام، المتعترسة في غباوة.. استطاعت بداهتها أن تحصل من القيصر تارة بتملقه، وتارة بتأنبه، وتارة حتى بضره-على تجديد للعهد الذي قطعه لها... وهو

صفحة رقم : 13590

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> فاصل روسي -> بطرس الثالث

أن يتزوجها ويبوئها عرش روسيا بدلاً من كاترين (74) ولما لعبت برأسه السلطة والخمر عنف في معاملة كاترين، حتى لقد رماها علانية بالحقاق. (75) كتب البارون دبروتري إلى شوازيل يقول: "إن الإمبراطورة (كاترين) في وضع شديد القسوة، وهي تعامل بمنتهى الاحتقار... ولن يدهشني أنا العليم بشجاعتها وعنفاها إن دفعها هذا إلى نوع من الشطط... ولا يألو بعض أصدقائها جهداً في تهدئتها، ولكنهم لا يترددون في المخاطرة بكل شيء في سبيلها أن اقتضى الأمر" (76).

وكانت سانت بطرسبرج وأرباضها حافلة بأنصار كاترين. أحبها الجيش والحاشية وجماهير الشعب. وكان أخلص أصدقائها في هذه الأيام العصيبة، بعد وصيفاتها وجريجوري أورلوف، أميرة داشكوف "إيكاترينا رومانوفنا". ولم تكن هذه السيدة الجريئة المغامرة تتجاوز التاسعة عشرة، ولكنها كانت ذات مكانة مرموقة في القصر لأنها ابنة أخي المستشار فورونتسوف وأخت خلية بطرس. وكان بطرس في سذاجته أو بين كؤوس الخمر قد كشف لها عن نيته في خلع كاترين وإحلال اليزافيتا فورونتسوف محلها على العرش. (77) ونقلت داشكوف النبا إلى كاترين، ورجتها أن تشارك في مؤامرة لتتحمية بطرس. ولكن كاترين كانت قد دبرت فعلاً مؤامرة مع نيكيتا بانين، مربى ولدها بولس، وكيريل رازوموفسكي، هتمان (زعيم) أوكرانيا، ونيقولا كورف رئيس الشرطة، والأخوين أورلوف، وب. ب. باسيك، وهو ضابط في فوج محلي.

وفي 14 يونيو أصدر بطرس أمره بالقبض على كاترين، ثم ألغى الأمر، ولكنه أمرها بالاعتكاف في بيتزهوف، على اثني عشر ميلاً غربي العاصمة. أما بطرس نفسه فحلاً بعشيقته في أورانيباوم. وترك تعليمات بأن يعد الجيش نفسه فلابحار إلى الدنمرك، ووعد بأن يلحق به في يوليو. وفي 27 يونيو قبض على الملازم باسيك لإلقائه خطباً تحط من قدر الإمبراطور. وخشي جريجوري وألكسي أورلوف أن يكره بالتعذيب على الاعتراف بالمؤامرة، فقرر التصرف فوراً. وعليه ففي الثامن والعشرين ركب ألكسي

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> فاصل روسي -> بطرس الثالث

في عجلة قاصداً بيتر هوف، وأيقظ كاترين، وأقنعها بأن تعود معه راكبة إلى سانت بطرسبرج. وفي طريقهما توقفاً عند تكنات فوج اسماعيلوفسكي، واستدعى الجند على قرع الطبول، وناشدتهم كاترين أن ينفذوها من تهديدات الإمبراطور، فأقسموا على حمايتها، "اندفعوا ليقبلوا بدمي وقدمي، وهدب ثوبي، وهم يدعونني مخلصتهم" (في رواية كاترين ليونيا فوفسكي(78)) -لأنهم علموا أنها لن ترسلهم إلى الدنمرك. ومضت إلى كندرائية كازن في حراسة فوجين والأخوين أورلوف، وهناك نودي بها حكماً مطلقاً لروسيا. ولحقت بها فرقه بريويرازنسكي هناك، وتوسل رجالها إليها "أن تغفر لنا أننا آخر من جاء" (79) ثم انضم إلى صفوفهم حرس الخيالة، وصحبها أربعة عشر ألف جندي إلى القصر الشتوي؛ وهناك أعلن مجمع الكنيسة، ومجلس الشيوخ رسمياً خلع بطرس وتولية كاترين. واحتج بعض ذوي المقامات الرفيعة، ولكن الجيش أُرهبهم، فأقسموا يمين الولاء للإمبراطورة.

وارتدت زي نقيب في حرس الخيالة، وركبت على رأس جندها إلى بيتر هوف. وكان بطرس قد ذهب إلى هناك صبيحة ذلك اليوم ليراها، فلما علم بالثورة فر إلى كرونستات. وعرض عليه مونيش أن يصحبه إلى بومرانيا ويجند جيشاً ليرده إلى العرش، ولكن بطرس عاد إلى أورانيباوم وهو عاجز عن اتخاذ القرار. فلما اقتربت قوات كاترين أنفق يوماً في التماس حل وسط، ثم وقع على اعتزاله العرش في 29 يونيو (حسب التقويم القديم)؛ قال فردريك: "لقد سمح بأن يطاح به كما يسمح طفل بأن يرسل إلى فراشه" (80). وسجن في روبشا، على خمسة عشر ميلاً من سانت بطرسبرج. والتمس من كاترين أن تسمح له بالاحتفاظ بخادمه الزنجي، وكلبه الصغير، وكمانه، وخليته. فأجيبته طلباته كلها إلا آخرها. ونفيت اليزافيتا فونتنسوا إلى موسكو: ثم اختفت من صحائف التاريخ إلى الأبد.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> الحاكمة المطلقة

الفصل الثامن عشر

كاترين الكبرى

1- الحاكمة المطلقة

انتصرت كاترين، ولكنها كانت عرضة لكل المخاطر التي ينطوي عليها التغيير الفوضوي. فلكي تكافئ الجنود الذين حرسوها في سعيها إلى السلطة أمرت حانات العاصمة بأن تقدم لهم الجعة والفودكا مجاناً، وكانت النتيجة السكر انتشار بينهم انتشاراً كاد يقوض الأساس الحربي لقوتها. ففي منتصف ليلة 29-30 يونيو، بينما كانت كاترين مستغرقة في أول نوم لها خلال ثمان وأربعين ساعة، أيقظها ضابط وقال لها، "إن رجالنا مخمورون جداً. وقد صرح فيهم فارس من الهوصار "إلى السلاح! أن ثلاثين ألف بروسي قادمون لاختطاف أمنا (كاترين)! فنقلدوا سلاحهم وهم قادمون ليظمننوا عليك". وارتدت كاترين ثيابها، وخرجت، ونفت إشاعة قدوم البروسيين، وأقنعت محاربيها بالمضي إلى فراشهم(1).

ثم عرضها ابنها بولس للخطر. وقد بلغ السنة الثامنة من عمره وذلك أن بنين، وأشرفاً كثيرين، ومعظم الاكليروس، أحسوا أن الشرعية تقتضي تنويج بولس إمبراطوراً وتعيين كاترين وصية عليه، ولكنها خشيت أن إجراء كهذا يلقي بالحكم في أيدي أولجركيه أرسنقراطية ستسعى إلى خلعها أو التسلط عليها. وأعلنت رسمياً أن بولس وارث للعرش، ولكن مؤيديه واصلوا إثارة المشاعر، وشب الابن على كراهية أمه لأنها سلبته حقه في التاج.

صفحة رقم : 13593

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> الحاكمة المطلقة

وحين ذاع نبأ الانقلاب في أرجاء روسيا تبين أن الرأي العام خارج العاصمة مناوئ لكاترين. ذلك أن العاصمة عرفت عيوب بطرس مباشرة، وأجمعت عموماً على عدم أهليته للحكم، أما الشعب الروسي خارج سانت بطرسبرج فقد عرفه من التدايبر السمحة التي أضفت على حكومته شيئاً من السمو. فجماهير موسكو، البعيدة بعداً لا يسمح لها بالإحساس بفتنة كاترين، ظلت معارضة في عناد لتوليها العرش. وحين اصطحبت كاترين بولس إلى موسكو (معقل التقاليد السنية) صفق له أهلها بحرارة، أما كاترين فكان لقاؤهم لها فاتراً. وندد كثير من أفواج الجيش في الأقاليم بجنود بطرسبرج غاصبين للسلطة القومية.

ولا علم لنا إن كان العطف الواسع على بطرس هو أحد العوامل في موته. ذلك أن القيصر المخلوع الذي تحطمت روحه راح يرسل الالتماسات الدليلة لزوجته ويقول لها "ارحميني واعطيني سلواي الوحيدة" -يعني خليلته ويرجوها أن تسمح له بالعودة إلى أقرابه في هولشتين. ولكنه بدلاً من أن يلتقي هذا العزاء حبس في حجرة واحدة وفرضت عليه رقابة دائمة. وكان الكسبي أورلوف، رئيس حراسة، يلعب الورق معه ويقرضه النقود. (2) وفي 6 يوليو 1962 (حسب التقويم الجديد)، ركب الكسبي في عجلة إلى سانت بطرسبرج وأنبأ كثيرين بأن بطرس تشاجر معه ومع غيره من الأتباع ومات في العراك الذي أفضت إليه المشاجرة. أما عن كيفية موته، فالتاريخ لا يعرف غير الشائعات التي لم

تثبت صحة واحدة منها: قيل إنه سم أو خنق(3)، وإنه ضرب حتى مات(4)، وإنه مات إثر "التهاب الأمعاء والسكتة الدماغية"(5) وينتهي آخر من أرخ هذه الحقبة إلى أن "تفاصيل القتل لم يمتط عنها قط اللثام تماماً، والدور الذي لعبته فيه كاترين يظل غير مؤكد".(6) ومن غير المحتمل أن تكون كاترين قد أمرت بهذه الفعلة،(7) ولكنها لم تعاقب أحداً على ارتكابها، وأخفتها عن الجماهير يوماً، وقضت يومين في بكاء ظاهر، ثم سلمت بالأمر الواقع. وقد أدانتها أوربا كلها تقريباً بالقتل، أما فردريك الأكبر الذي خسر الكثير بخلع بطرس فقد برأ ساحتها، "كانت الإمبراطورة جاهلة تماماً بهذه الجريمة، وقد سمعت بها في يأس

صفحة رقم : 13594

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> الحاكمة المطلقة

لم تصطنعه، لأنها توقعنت بحق ذلك الحكم الذي يصدره عليها اليوم في كل إنسان".(8) ووافق فولتير فردريك. أما بولس ابن كاترين، فبعد أن قرأ الأوراق الخاصة التي خلفتها أمه عند وفاتها، خلص إلى أن الكسي قتل بطرس دون أي أمر أو طلب من كاترين.(9) وخلفت الحادثة مشاكل لكاترين كما حلت مشاكل أخرى: فقد أوجت بسلسلة متعاقبة من المؤامرات لخلعها، وتركها في انزعاج متصل وخطر داهم وسط فوضى الحكم التي اكتفتها. كتبت عن هذه الحقبة فيما بعد فقالت: "ظل مجلس الشيوخ متبلداً يصم أذنيه عن شئون الدولة. وبلغت كراسي التشريع درجة من الفساد والتفشي كادت تطمس معالمها".(10) وكانت روسيا قد خرجت لتوها من حرب انتصرت فيها ولكنها كلفتها ثمناً فادحاً، فكانت الخزنة مدينة بثلاثة عشر مليون روبل، وتشكوا عجزاً بلغ سبعة ملايين روبل في العام، وافتضح حال المالية من رفض كبار المصرفيين الهولنديين إقراض المال لروسيا. وتأخرت رواتب الجند شهوراً كثيرة. وبلغ من سوء نظام الجيش أن كاترين خشيت أن يغزو تثار جنوبي روسيا إقليم أوكرانيا في أية لحظة. أما البلاط فقد اضطرب بالمؤامرات وأضدادها، وبالخوف من فقدان مناصب الكسب أو السلطة، أو الأمل في الظفر بها. وبعد سقوط بطرس بقليل ذهب السفير البروسي إلى أنه "من المؤكد أن حكم الإمبراطورة كاترين لن يكون أكثر من فاصل قصير في تاريخ العالم"(11). وكان هذا من قبيل التمني، لأن فردريك حزن على موت حليفه العابد لشخصه. وأخذت كاترين تلغي الأوامر التي أصدرها بطرس لمساعدة فردريك. وحاولت الإمبراطورة أن تهدئ معارضة رجال الدين بتأجيل تنفيذ المرسوم الذي أصدره بطرس بتأميم أراضي الكنيسة، ثم أدفأت صدور أنصارها بما خلعتة عليهم من مكافآت سخية: فنفتحت جريجوري أورلوف بخمسين ألف روبل، وفتح الطريق أمامه إلى الفراش الملكي. وأعيد بستوزيف من منفاه، ورد إلى حياة مريحة ولكن دون أن يرد إلى منصبه.

صفحة رقم : 13595

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> الحاكمة المطلقة

ثم ترفقت بمن عارضوها من قبل. وقدم مونيش فروض الطاعة والولاء فصفت عنه فوراً وعينته حاكماً على استونيا ولفونيا، وربما أعانتها هذه التدابير على الثبات فوق عرشها المهتز، ولكن أهم العوامل التي كانت عوناً لها هي شجاعتها وذكاؤها. ذلك أن سبعة عشر عاماً قضتها زوجة مهملة لوريث العرش علمتها رغم حيويتها الشابة قدراً من الصبر والحكمة وضبط النفس وخداع الحكم. وقررت الآن، في تحد لنصيحة بانين، وارتياح في ولاء مجلس الشيوخ ونزاهته وكفايته، أن تركز الحكم كله في شخصها، وأن تواجه ملوك أوربا المستبدين-باستبدادية تنافس جمع فردريك بين العسكرية والفلسفة. ولم تتخذ لها زوجاً. وإذ كان النبلاء يسيطرون على مجلس الشيوخ، فقد كان الخيار بين أوتقراطية الملكة والاستبدادية المجزأة للسادة الإقطاعيين، وهو بالضبط الخيار الذي واجهه ريشلو في فرنسا للقرن السابع عشر.

وأحاطت كاترين نفسها بالكفاءة من الرجال، واكتسبت ولاءهم، بل حبهم في كثير من الحالات، ألزمتهم للعمل الشاق، ولكنها أجزلت لهم العطاء، ولعلها غالت في مكافأتهم، فقد أصبح بهاء بلاطها وبذخه عبئاً كبيراً على مواردها. وكان بلاطاً غير متجانس، مؤصلاً في البربرية ومصقولاً بالثقافة الفرنسية، ومحكوماً بامرأة ألمانية تفوق مساعدتها تعليماً وذكاءً. وقد أثمرت مكافأته السخية للخدمات الاستثنائية المنافسة دون أن تكبح جماح الفساد. فكان الكثيرون من بطانتها يأخذون الرشا من الحكومات الأجنبية، واتخذ بعضهم موقف الحياد بقبول الرشا من طرفين متعارضين. وفي 1762 أذاعت كاترين على الأمة اعترافاً غير عادي، فقالت:

"أنا نعدو واجباً أساسياً وضرورياً أن نعلن للشعب، بحسرة صادقة، أننا سمعنا منذ زمن مديد، وأنا الآن نرى في أفعال ظاهرة للعيان، إلى أي درجة استشرى الفساد في إمبراطوريتنا، بحيث لا يكاد يوجد منصب في الحكومة... لا تعدو فيه على العدالة عدوى هذا الوباء. فإذا طلب

صفحة رقم : 13596

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> الحاكمة المطلقة

إنسان وظيفة كان عليه أن يدفع ثمنها، وإذا شاء إنسان أن يدفع عن نفسه شر الافتراء، فبالمال، وإذا أراد أن يتهم جاره زوراً وبهتاناً ففي استطاعته بالهدايا أن يضمن نجاح خطفه الشريرة" (12).

وكان بعض المؤامرات التي تكاثرت من حولها يستهدف إحلال إيفان السادس محلها. وكان قد قضى الآن رهين السجن إحدى وعشرين سنة بعد أن خلعه انقلاب ديسمبر 1741. ففي سبتمبر 1762 أفصح فولتير عن خوفه من أن "إيفان قد يطيح بمن أحسنت إلينا" (13)، وكتب يقول: "أخشى أن تقتل إمبراطورتنا العزيزة." (14) فزارت كاترين إيفان، ووجدته "إنساناً مهملاً مهجوراً تردى في العتة نتيجة السجن سنين طويلة" (15) ثم تركت لحراسه أوامر بأنه لو بذلت أي محاولة لم تصرح بها هي نفسها للإفراج عنه، فعليهم أن يقتلوا إيفان خيراً من أن يسلموه. وفي منتصف ليلة 5-6 يوليو 1764 ظهر ضابط في الجيش يدعى فاسيلي ميروفنتش على باب السجن يحمل ورقة فحواها أنها أمر من مجلس الشيوخ بتسليم إيفان له. ثم مضى يعينه بعض من الجند وطرق باب الزنزانة التي كان حارسان ينامان فيها مع إيفان، وطالب بالدخول. فلما رفض طلبه أمر بإحضار مدفع لتحتطيم الباب. فلما سمع الحارسان الأمر قتلا إيفان. وقبض على ميروفنتش وأعلنت وثيقة عثر عليها في جيبه أن كاترين خلعت، وإن إيفان السادس أصبح منذ الآن قيصرراً لروسيا. ورفض عند محاكمته أن يفضي بأسماء شركائه. وكان جزاؤه الإعدام. واتهم الرأي العام عموماً كاترين بقتل إيفان. (16)

واتصلت المؤامرات. ففي 1768 أكد ضابط يدعى تشوجلو كوف أنه موكل من الله بالانتقام لمقتل بطرس الثالث، فتسلح بخنجر طويل، ووجد طريقة إلى القصر الملكي، واختبأ عند منعطف دهليز ألفت كاترين أن تمر فيه. وسمع

جريجوري أورلوف بخبر المؤامرة، فقبض على تشوجلوكوف، الذي اعترف مفاخراً بأنه ينوي قتل الإمبراطورة، وكان جزاؤه، النفي إلى سيبيريا.

صفحة رقم : 13597

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> العاشقة

2- العاشقة

أحاط بكاترين نبلاء لا تستطيع أن تثق بهم، ولاحقتها الدسائس التي أحدثت الاضطراب في الإدارة، لذلك اخترعت ضرباً جديداً من الحكم جعلت فيه عشاقها المتعاقبين كبار إداري الحكومة. فكان كل عشيق خلال صعود نجمه كبير وزرائها، وأضافت شخصها إلى مكافأة المنصب، ولكنها اقتضت كفاءة الخدمة نظير ذلك. كتب ماسون (وهو واحد من أعداء كاترين الفرنسيين الكثيرين) يقول "لم تكن وظيفة واحدة من وظائف الحكومة كلها لا تؤدي فيها الواجبات بمنتهى التدقيق.. وربما لم يكن هناك أي منصب لم تبد فيه الإمبراطورة اختياراً وتمييزاً أكثر من غيره. وفي اعتقادي أنه لم تقع حالة تبين فيها أن المنصب شغله شخص غير كفاء له." (17) ومن الخطأ أن تكون فكرتنا عن كاترين أنها امرأة فاجرة منغمسة في اللذات، فقد راعت جميع مظاهر اللياقة، ولم تسمح لنفسها قط بالدخول في أحاديث نابية، ولا سمحت بها في حضرته. (18) وقد بذلت لمعظم عشاقها الود الوفي ولبعضهم الود الرقيق، ورسائلها إلى بوتكين تم على إخلاص يكاد يكون صديانياً، وقد أصابها موت لانسكوي بحزن مدمر.

وكانت تستعين بالفن والعلم معاً في مهمة اختيار صاحب الخطوة الجديد. فهي تنشئ رجالاً يجمعون بين القدوة السياسية والجسدية، كانت تدعو المرشح لتناول العشاء، وتختبر عاداته وعقله، فإذا جاز هذا الامتحان الدقيق فحصه بأمرها طبيب القصر، فإذا خرج من هذا الاختبار سليماً عينته ياوراً لها، وأعطته راتباً مغزياً، وسمحت له بمعاشرتها. وإذا كانت مجردة تماماً من الإيمان الديني، فإنها لم تسمح لأي من الأخلاقيات المسيحية بأن تتدخل في طريقها الفذة في اختيار الوزراء. وقد وضحت الأمر لنقولا سالتيكوف فقالت: "إنني أخدم الإمبراطورة بتربتي الشبان الأكفاء" (19) وكانت الخزنة تتكلف غالباً في مكافأة هؤلاء المحظوظين وإن كانت التكلفة على الأرجح أقل كثيراً ما كانت تنفقه فرنسا على خليات لويس

صفحة رقم : 13598

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> العاشقة

الخامس عشر ومحظياته. وفي تقدير كاستيرا أن الاخوة الخمسة أورلوف تسلموا سبعة عشر مليون روبل، وبتمكين خمسين مليوناً، ولانسكوي 7.260.000. وقد ارتدت بعض هذه النفقة إلى روسيا بصورة الخدمة الفعالة، فقد أضاف بتمكين مثلاً، وهو أكثر عشاقها حظوة وتديلاً، أقاليم درت على الإمبراطورية الربح الوفير. ولكن لم كانت تغير وتبدل في عشاقها بهذه الكثرة، حتى أنها اتخذت منهم واحداً وعشرين في أربعين سنة؟ لأن بعضهم أخفق في واجب أو أكثر من واجباتهم المزدوجة، وبعضهم تبين عدم وفائه: وبعضهم مست الحاجة إليه في مواقع بعيدة. من ذلك أن أحدهم، ويدعى ريمسكي كورساكوف، فاجأته في مسكنها بين ذراعي وصيفة شرفها، فاكتفت كاترين بطرده، وتركها آخر يدعى مامونوف لأنه أثر عليها رقيقة أكثر شباباً، وأقالت الإمبراطورة دون أن تنتقم منه. (20) يقول ماسون، "من الخصائص الشديدة الغرابة في خلق كاترين أن أحداً من المقربين إليها لم يجلب على رأسه كرهاً أو انتقامها، وإن أساء إليها العديدون منهم، ولم يكن تركهم مناصبهم بسببها. ولم ير الناس قط أحدهم ينزل به العقاب... وفي هذا تبدو كاترين أسمى من جميع النساء." (21)

بعد تولي كاترين العرش احتفظ جريجوري أورلوف بمكانته المرموقة عشر سنوات، وقد أطرته كاترين في حب فقالت:

"إن للكونت جريجوري عقل النسر، فأنا لم ألق في حياتي رجلاً أوتي فهماً أدق وألطف لأي أمر يضطلع به أو حتى يقترح عليه... ونزاهته تعصمه من أي تهجم عليه... ومن أسف أن التعليم لم ينح له أي فرصة لصقل سجايه ومواهبه، وهي في الحق فائقة، ولكن حياته العشوائية تركتها للأرض المرحبة." (22)

ثم كتبت في موضع آخر "أن هذا الرجل كان خليفاً بأن يظل (عشيقها وأثيرها) إلى النهاية لولا أنه كان أول من مل صاحبه." (23)

صفحة رقم : 13599

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> العاشقة

وقد جاهد جريجوري لتحرير الأفنان، واقترح تحرير المسيحيين من ربة العثمانيين، وأسن البلاء في الحروب، وأغضبت الحاشية بكبريائه وغطرسته وراغ من ذراعي كاترين. وقد أقصى في 1772 إلى حيث الثراء والدعة في ضياعه. أما أخوه ألكسي فقد أصبح أمير البحر الأول، وقاد الأسطول الروسي إلى النصر على الأتراك، وظل محتفظاً بالحظوة طوال العهد، وعمر حتى قاد أفواجه ضد نابليون.

وحل محل جريجوري في حظوته فتى فائق الحسن مغمور يدعى ألكسيس فاسيلنشيكي، دسه حزب من أحزاب البلاط على كاترين ليصرف فكرها عن أورلوف المنفي، ولكنها وجدته غير كفاء لا في السياسة ولا في غير السياسة، فأحلت مكانه (1774) جريجوري ألكسندروفيتش بتمكين، وكان ضابطاً في حرس الخيالة، الذين ارتدت زيهم (1762) لتقودهم ضد بطرس، فلما لاحظ بتمكين أن سيفها تنقصه الشراية التي يعتز بلبسها الحرس، انتزع شرايته من مقبض سيفه وركب في جرة خارج صفوف الجيش، وقدم لها هذا الوسام، فقبلته، واغترقت له جرأته، وأعجبت بوجهه الوسيم وجسمه المفتول. وكان أبوه هو كولونيل متقاعد من صغار النبلاء قد قرر أن يكون ابنه قسيساً، وتلقى بتمكين قدراً لا يستهان به من التعليم في التاريخ والدراسات الكلاسيكية واللاهوت، وأثبت تفوقه في جامعة موسكو. ولكنه وجد حياة الجيش أنسب لمزاجه الجموح الخصب الخيال من المدرسة اللاهوتية. وقد سحره بالطبع ما اجتمع لكاترين من جمال وسلطان، فقال عنها أنها إذا دخلت حجرة مظلمة أنارتها" (24).

وفي حرب 1768 قاد فوج خياله ببسالة مستهتره حملت كاترين على أن تبعث إليه بإطراء شخصي. فلما عاد إلى سانت بطرسبرج أكلته الغيرة من الاخوة أورلوف وفاسيلنشيكي. وتشاجر مع الاخوة أورلوف، وفي معركة معهم فقد إحدى عينيه (25). ولكي يخرج الإمبراطورة من عقله -أو يدخل نفسها في عقلها- ترك البلاط، واعتزل في ضاحية، ودرس اللاهوت، وأطلق شعره ولحيته، وأعلن أنه سيترهب، فرق له قلب كاترين، وبعثت إليه تقول أنها تقدره تقديراً

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> العاشقة

كبيراً، ودعته ليعود، فحلق لحيته، وهذب شعره، وارتدى بزته العسكرية، وظهر في البلاط، واهتز طرباً لبسمات الإمبراطورة. وحين افتقدت كاترين الكفاية في فاسيلتشيك فتحت ذراعيها ليوتميكن، وكان يومها في الرابعة والعشرين، في أوج عنفوانه وفتنته. وسعان ما هامت به هيامه بها، وراحت تحبوه بوصلها، وتغدق عليه الروبلات، والأراضي، والأقنان، وحين كان يغيب كانت ترسل إليه رسائل غرامية بريئة من مظهر الجلالة.

"ما أعجب حالي! كل شيء اعتدت أن أسخر منه وقع لي الآن، لأن حبي لك أعماني. فالعواطف التي ظننتها بلهاء مفرطة غير طبيعية أمارسها أنا نفسي الآن. إنني لا أقوى على إبعاد عيني الغيبين عنك... لا نستطيع الالتقاء إلا خلال الأيام الثلاثة القادمة، فبعدها يحل أول أسبوع في الصوم الكبير، المخصص للصلاة والصيام. وسيكون اللقاء إثماً كبيراً. إن مجرد التفكير في هذا البعد يبكييني" (26).

وعرض عليها الزواج، ويعتقد بعض المؤرخين أنهما تزوجا سراً، وفي خطابات عدوه تعدوه "زوجي الحبيب" وتتكلم عن نفسها فتقول "زوجتك" (27)، رغم أننا يجب ألا نستخلص الحقيقة أبداً من مجرد الألفاظ ويبدو أنه ملها، ربما لهيامها الجموح به؛ وتبين أن صوت المغامرة أقوى لديه من الدعوة للهجوم على قلعة فرغ من فتحها. وقد ظل نفوذه عليها عظيماً حتى أن معظم المقربين الذين خلفوه لم يخلفوه إلا بعد الحصول على موافقته.

وهذا ما حدث لبيوتر زافودوفسكي، الذي استنداً في خدرها من 1776 إلى 1777، ولسيمون زوريتش (1777-1778)، وإيفان رمسكي كورساكوف (1778-1780). ولم تشعر بغرام يملك عليها لها مرة أخرى إلا حين اتخذت الأكسيس لانسكوي (1780) عشيقاً. فهذا الفتى لم يكن وسيماً كيساً متقفاً فحسب، بل كان صاحب حس شعري

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> العاشقة

مرهف وحب إنساني للخير، وصديقاً ذكياً للآداب والفنون. "لقد بدا أن الجميع يشاركون الملكة في ولعها به" (28). وفجأة أصيب بالأم لا تطاق في الأمعاء، واشتبهت الحاشية في أن يكون بوتميكن قد دس له السم، ثم مات رغم كل جهود الأطباء ورعاية كاترين المخلصة، ولفظ أنفاسه الأخيرة بين ذراعيها. وقضت ثلاثة أيام في عزلة وحزن. ونحن نسمع المرأة من خلف الحاكمة والقلب من خلف التاريخ في رسالة كتبتها في 2 يوليو 1784.

"خيل إلي أنني هالكة بعد هذه الخسارة التي لا تعوض... لقد عللت نفسي بأن سيكون العون لي في شيخوختي. كان مجاملاً، وتعلم الكثير، واكتسب كل ميولي... كان فتى أقوم على تربيته، وكان شاكراً، رقيقاً، طيباً"... إن لانسكوي لم يعد له وجود.. وباتت حجرتي وكرراً فارغاً بعد أن كانت تقيض إشراقاً وبهجة، ولا قدرة لي إلا على جر نفسي إليها

كأنني طيف من الأطياف.. لا أستطيع النظر إلى وجه إنسان دون أن يختنق صوتي... لا أستطيع أن أذوق النوم ولا الطعام.. ولست أدري ماذا يكون مصيري" (29). وظلت عاماً تحرم نفسها من العشاق، وأخيراً استسلمت لألكسيس أرمولوف، (1785-1786)، الذي ساء بوتمكنين كثيراً فاستعويض عنه سريعاً بألكسيس مامونوف. ولكن سرعان ما زهد ألكسيس في خليلته ذات السبعة والخمسين، واستأذن في الزواج من الأميرة شرباتوف، واحتقلت كاترين بالعروسين في زفاف رسمي بالبلاط، ثم صرفتهما محملين بالهدايا (1789) (30). وآخر القائمة هو بلاتون زوبوف (1796-89) وكان ملازماً في حرس الخيالة، مفتول العضل دمت الطباع. وكانت كاترين شاكراً له خدماته، فاضطلعت بالإشراف على تعليمه، وانتهت بمعاملته معاملة الأم لابنها. وقد لازمها حتى مماتها.

صفحة رقم : 13602

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> الفيلسوفة

3- الفيلسوفة

بين الحب والحرب، وسياسة الدولة والدبلوماسية، وجدت هذه المرأة المدهشة وقتاً للفلسفة. وقد تكون فكرة عن سمو المكانة التي بلغتها جماعة

صفحة رقم : 13603

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> الفيلسوفة

"الفلاسفة" الفرنسيين حين نرى أكفأ حاكمين من حكام القرن الثامن عشر يعتزان بتبادل الرسائل معهم ويتنافسان على الظفر بثنائهم. وكانت كاترين قبل ولايتها العرش بزمان طويل تستطيب أسلوب فولتير وفكاهته الذكية وعباراته المجردة من التوقير، وتحلم بأن تكون ذلك الحاكم "المستبد المستنير" الذي راود أحلامه. ولا بد أنها أعجبت بديدرو أيضاً، لأنها في سبتمبر 1762 عرضت أن تطبع الموسوعة في سانت بطرسبرج إذا أمعنت الحكومة الفرنسية في حظرها. ولم يبق من الرسائل التي كتبتها لفولتير قبل 1765 إلا واحدة، وقد ردت على أبيات أرسلها لها في أكتوبر 1763: "لأول مرة أسف على أنني لست شاعرة، وأن يكون ردي على أبياتك بالضرورة نثراً لا شعراً. ولكني أود أن أقول لك أنني منذ 1764 مدينة بأعظم الفضل لك. فقبل تلك الحقبة لم أكن أقرأ شيئاً غير الروايات، ولكن حدق أن وقعت كتبك

في يدي مصادفة، وبعدها لم أكف عن قراءتها، ولا رغبت في قراءة كتب أقل جودة في الكتابة أو أقل تثقيفاً... وهكذا لا أفتأ أعود إلى خالق ذوقي عودتي إلى أعماق أسباب تسلبتي، وأؤكد لك يا سيدي إن كنت قد حصلت أي معرفة فالفضل فيها لك. وأنا الآن أقرأ مقالك "في التاريخ العام"، وبودي لو حفظت كل صفحة منه عن ظهر قلب" (31). وظلت كاترين طيلة حياتها، أو حتى مماتهم، ترسل فولتير وديدرو ودالمبير ومدام جوفران وجريم وكثيرين غيرهم من وجوه الفرنسيين. وأسهمت في المال الذي جمعه فولتير لقضية كالاس وسيرفانس وقد أسلفنا القول أنها أمرت باستيراد شحنات كبيرة من الساعات من فرنیه، ومن الجوارب التي صنعها عمال فولتير، وأحياناً فولتير نفسه (إن جاز لنا أن نصدق الثعلب العجوز). وكان من بواعث فخره ن الرؤوس المتوجة أغدقت عليه أسباب التكريم، وقد كافأ كاترين بأن أصبح مندوبها الصحفي في فرنسا. وقد برأ ساحتها من الاشتراك في جريمة قتل بطرس الثالث، وكتب يقول "أعلم أن

صفحة رقم : 13604

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> الفيلسوفة

كاترين تلومها بعض الشائعات التافهة حول زوجها، ولكن هذه أمور عائلية لا شأن لي بها" (32). وناشد أصحابه أن يؤيدوه في الدفاع عن كاترين، فكتب إلى دارجنثال يقول:
"هناك صنيع آخر أرجو أن تسديه إلي، وهو يخص كاترين. يجب أن ندعم سمعتها في باريس بين أفاضل القوم ووجهائهم... وعندي أسباب قوية للاعتقاد بأن الدوقين براسلان وشوازيل لا يعتبر أنها أكثر نساء العالم نقاء ضمير، ومع ذلك فأنا أعلم... بأنه لم يكن لها يد في موت زوجها السكير.. ثم أنه كان أكبر أحرق تربع على عرش... ونحن مدينون بالفضل لكاترين لأنها أوتيت الشجاعة لخلع زوجها، وهي تسوس ملكة بحكمة واعتزاز، وينبغي أن نبارك رأساً متوجاً ينشر التسامح الديني في أرجاء 135 درجة طولية... إذن أرجوك أن تذكر كاترين بخير كثير" (33).
أما مدام دو دوفان فقد رأت أن تبرئة الإمبراطورة هذه مخزية جداً، كذلك أدانتها مدام دشوازيل وهوراس وليبول (34). وما كان يتوقع في براسلان وشوازيل اللذين يوجهان علاقات فرنسا الخارجية أن يعجبا بإمبراطورة تعارض النفوذ الفرنسي في بولنדה وتتحدها في تركيا. وكانت الشكوك تساور فولتير ذاته بين حين وحين. فلما سمع بمصرع إيفان السادس، سلم في حزن ب "أن علينا أن نخفف قليلاً من غلوائنا في التحمس" لكاترين (35). ولكنه ما لبث أن أطرى برنامجه التشريعي، ورعايتها للفنون، وحملتها لنسر الحرية الدينية في بولنדה، وخلص عليها الآن (18 مايو 1767) لقب "سميراميس الشمال". وحين خاضت الحرب ضد تركيا قطع هجومه على الكنيسة الكاثوليكية I'imfame ليمتدح حملتها الصليبية لإنقاذ المسيحيين من المسلمين.
أما ديدرو فقد استهواه بالمثل ذلك الجمال المتربع على العرش، وكان له في ذلك مبررات قوية. ذلك أن كاترين سمعت أنه بنوي بيع مكتبته ليجمع مهراً لابنته، فأصدرت تعليماتها لوكيلها الباريسي بأن يشتريها بأي ثمن يطلبه ديدرو، فطلب ستة عشر ألف جنيه وقبضها. ثم رجعت ديدرو أن يحتفظ

صفحة رقم : 13605

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> الفيلسوفة

بالكتب حتى مماته، وأن يكون حارسها على المكتبة نظير راتب قدره ألف جنيه في العام، وزادت بأن دفعت راتبه مقدماً عن خمسة وعشرين عاماً. وأصبح ديدرو بين عشية وضحاها رجلاً غنياً ومحامياً يدافع عن كاترين. فلما دعت لزيارتها لم يستطع أن يرفض. قال "يجب أن يرى الإنسان امرأة كهذه ولو مرة في العمر" (36). وبعد أن دبر شؤون المال لزوجته وابنته خرج وهو في الستين (3 يونيو 1773) في الرحلة الطويلة الشاقة إلى سانت بطرسبرج. ولبث شهرين في لاهاي يرشف حلوة الشهرة على مهل، ثم واصل الرحلة بطريق درسدن وليبيج، وحرص على أن يتجنب برلين وفرديريك الذي كان قد أبدى عنه بعض الملاحظات الشائكة. وأصيب مرتين خلال الرحلة بالمغص إصابة عنيفة، ثم وصل إلى سانت بطرسبرج في التاسع من أكتوبر، واستقبلته كاترين في العاشر منه. كتب يقول "ليس هناك من يعرف خيراً منها فن رفع الكفلة عن محدثها" (37). ودعته للتكلم في صراحة، "كما يتكلم رجل لرجل". ففعل، وأوماً إيماءاته على عادته، وأكد نقاط بصغف فخذي الإمبراطورة. كتبت كاترين لمدام جوفران تقول "إن ديدرو هذا رجل غريب الأطوار. فأنا أخرج من لقاءاتي معه بفخذين مرضوضتين سوداوين تماماً. وقد اضطرت إلى وضع منضدة بيننا وقاية لنفسي ولأعضائي" (38). وقد حاول فترة أن يلعب دور الدبلوماسي كما حاول فولتير مع فرديريك، وأن يصرف روسياً عن تحالفها مع النمسا وبروسيا إلى تحالف مع فرنسا (39)؛ ولكنها سرعان ما صرفته إلى موضوعات أقرب إلى صناعته. وأخبرها في شيء من التفصيل كيف يمكن أن تحول روسيا إلى بلد مثالي، واستمعت إليه جذلة، ولكنها ظلت على تشككها. وقد استعادت فيما بعد هذه الأحاديث في رسالة كتبتها للكونت لوي-غليب دسيجور. قالت: "تحدثت معه كثيراً ومراراً، ولكن بفضل أكثر من الفائدة. ولو صدقته لانقلب كل شيء في مملكتي، فالتشريع والإدارة المالية- كلها

صفحة رقم : 13606

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> الفيلسوفة

كانت تنقلب رأساً على عقب لتفسح مجالاً لنظريات غير عملية... ثم قالت له في صراحة: "يا مسيو ديدرو، لقد أصغيت بمنتهى اللذة لكل ما أوحى به فكرك اللماح.. أن المرء، بكل مبادئه السامية، قد يولف كتباً رائعة، ولكنه يخسر في تجارته... أنك تشتغل على الورق، الذي يتحمل كل شيء.. أما أنا، الإمبراطورة المسكينة، فأشتغل على جلد البشر، وهو جلد سريع التهيج حساس على نحو مختلف"... وبعدها قصر كلامه على الأدب (40). وحين وقعت على مذكرات كان قد كتبها "بتعليمات صاحبة الجلالة الإمبراطورة... لوضع القوانين" وصفتها (بعد وفاته) بأنها "محض هذيان، لا أثر فيه لمعرفة بالحقائق ولا لتدبير ولا لنظر ثاقب" (41). ومع ذلك استمعت بحديثه المفعم حيوية، وكانت تبادلها الأحاديث كل يوم تقريباً خلال مقامه الطويل. وبعد أن ديدرو خمسة أشهر من البهجة الغامرة في صحبتها، والتعب في بلاطها، نوى الرحيل إلى أرض الوطن. فأمرت كاترين بصنع عربة خاصة له يستطيع أن يتكى فيها مستريحاً. وسألته أن الهدايا ترسلها إليه فقال لا شيء، ولكنه ذكرها بأنها لم تف بوعدها أن ترد له نفقات رحلته، وقد قدرها بألف وخمسمائة روبل، فنحنه بثلاثة آلاف وبخاتم ثمين، وعينت ضابطاً ليرافقه حتى لاهاي. فلما عاد إلى باريس أتى عليها ثناء الشكر والعرفان. ولم تحاول كاترين الاتصال بروسو، الذي كان نقبضها إلى حد مؤلم في الطبع والأفكار، ولكنها صادقت جريم، لأنها عرفت أن صحيفته "الرسائل الأدبية" تصل إلى أيدي الأوربيين ذوي النفوذ. واتخذ أول خطوة بعرضه (1764) أن

يوافقها برسائله الدورية، فوافقت ونقدته ألفاً وخمسمائة روبل في السنة. وقد رآها أول مرة حين ذهب إلى سانت بطرسبرج (1773) في بطانة مير هسي-دار مشتات لحضور زفاف أخت الأمير إلى الغراندوق بولس. وقد وجدته كاترين أكثر واقعية من ديرو، مطلعاً إطلاعاً مفيداً

صفحة رقم : 13607

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> الفيلسوفة

جداً على جميع مناحي ذلك العام الباريسي الذي سحرها بأدبه وفلسفته وفنه ونسائه وصالواته. ودعته "للردشة" معها كل يوم تقريباً خلال شتاء 1773-1774 وقد كتبت إلى فولتير عن هذه اللقاءات: "إن حديث السيد جريم يمتعني، ولكن الأشياء التي نود أن نتبادل الكلام فيها من الكثرة بحيث اتسمت لقاءاتنا إلى الآن بالحماسة أكثر من اتسامها بالنظام أو التتابع" وفي حرارة هذه الأحاديث كان عليها المرة بعد المرة أن تذكر نفسها بأن عليها (على حد قولها) أن تعود إلى "أكل العيش" أكل عيشها بالالتفافات إلى مهمة الحكم (43). وعاد جريم إلى باريس يطفح تحملاً لكاترين "غذاء روعي، وعزاء قلبي، وفخر عقلي، وبهجة روسيا، وأمل أوربا" (44). وعاد إلى زيارة بطرسبرج في 1776، وكان يلقاها كل يوم تقريباً على مدى عام. ورجته أن يمكث ويشرف على التنظيم الجديد للتعليم في روسيا، ولكن حن إلى باريس ومدام ريبييه. ولم تكن كاترين بالمرأة الغيور، فلما سمعت أن مدام ريبييه تعاني أزمة مالية بعثت إليها بطريق رقيق غير مباشر ما يكفي لتلبية حاجاتها (45). ومنذ 1777 قام جريم بمهمة الوكيل لكاترين في فرنسا في المشتريات الفنية والمهام السرية. ودامت صداقته لها إلى النهاية دون أن يكدر صفوها مكر. ماذا كان نتائج هذا الغزل بين الأوتقراطية والفلسفة؟ أما من حيث مصادقتها للفلاسفة بوصفهم وكلاهما الصحفيين في فرنسا، فالأثر السياسي كان صفراً؛ فالسياسة الفرنسية، ومن ثم المؤرخون الفرنسيون، ظلوا خصوماً ألداء لبلد كروسيا يحبط الأهداف الفرنسية في أوربا الشرقية. ولكن إعجابها بأبطال التنوير الفرنسي كان مخلصاً، لأنه بدأ قبل تقلدها السلطة بزمان طويل، ولو كان تظاهراً وادعاءً لما ثبت للمواجهات الطويلة مع ديرو وجريم. وقد أعان اتصالها بالفكر الفرنسي على صيغ روسيا المتعلمة بالصبغة الأوربية، وعلى تعديل الرأي الغربي الذي رأى في روسيا وحشاً هائلاً جباراً. وقد اقتدى روس كثيرون بكاترين، وراسلوا كتاب الفرنسيين، وشعروا بتأثير الثقافة والعادات والفنون الفرنسية. وزار باريس عدد متزايد من الروس، ومع أن كثيرين منهم أنفقوا وقتهم في المغامرات

صفحة رقم : 13608

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> الفيلسوفة

الجنسية إلا أن الكثيرين اختلفوا إلى الصالونات والمتاحف والبلاط، وقرأوا الأدب والفلسفة الفرنسيين، وجلبوا معهم أفكاراً شاركت في الإعداد لتفجر الأدب الروسي في القرن التاسع عشر.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> الحاكمة القديرة

4- الحاكمة القديرة

لا يتطرق إلينا الشك في صدق نيات كاترين في مطلع حكمها. فقد وجدت هذه القرارات في نسخة "تليماك" التي كانت تقرؤها: "عليك بدراسة الإنسان، وتعلم استخدام الرجال بغير الاستسلام لهم دون تحفظ. وابحثي عن الكفاية الأصلية وإن وجدت في أقصى الأرض، لأنها تكون عادة متواضعة متوارية. ولا تسمحي لنفسك بأن تصبحي فريسة للمتملقين، أفهمهم أنكى تعباين بالمديح ولا بالتذلل والخنوع. وضعي ثقتك في أولئك الذين لديهم الشجاعة للاعتراض على أرائك... والذين تهمهم سمعتك أكثر مما يهتمهم رضائك. "كوني مؤدبة، رحيمة، منفتحة، عطوفاً، متحررة العقل. ولا تدعي سمو مكانتك بمنعك من النزول في تالط في صغار الناس، ووضع نفسك في موضعهم. واحرصي على ألا يضعف هذا اللطف من سلطانك أو ينتقص من احترامهم لك... وانبذي كل تصنع وافتعال. ولا تسمحي للعالم أن يلوثك إلى الحد الذي يفقدك مبادئ الشرف والفضيلة القديمة. أقسم بالسماء أن أطبع هذه الكلمات على صفحة قلبي" (46). وكانت تدأب على الإحاطة بدقائق كل موضوع تتناوله، وقد كتبت تعليمات مفصلة عن مئات المواضيع من تدريب الجيش والعمليات الصناعية إلى زينة حاشيتها وإخراج الأوبرات والتمثيلات. قال أحد كتاب سيرتها الأولين وكان من أقلهم تعاطفاً:

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> الحاكمة القديرة

"إن الطموح لم يطفئ في روح كاترين تنوعاً حاراً للذة، ولكنها كانت تعرف كيف تنبذ اللذة، وتنقل إلى الاضطلاع بأكثر الواجبات خطراً، وإلى الممارسة التي لا تكل لثنون الحكم. فتحضر جميع مداولات المجلس، وتقرأ رسائل سفرائها، وتملي، أو تشير... بالرود التي لا يرد بها. ولا تكل لوزرائها سوى تفاصيل العمل، ولا تفتأ تراقب تنفيذه" (47).

واستحالت أو كادت مهمة حكم رقعة ملكها الشاسعة لكثرة القوانين الموجودة (عشرة آلاف). وتتوَعها، وتتقاضاها، وفوضاها. وإذ راودها الأمل في أن تؤدي لروسيا ما أداه من قبل جستنيان للدولة الرومانية، وفي أن تدعم سلطتها، فإنها دعت إلى موسكو في 14 ديسمبر 1766 موظفين إداريين وخبراء قانونيين من كل ركن من أركان الإمبراطورية، ليقوموا بمراجعة دقيقة شاملة وجمع وتنسيق للقانون الروسي. واستعداداً لمجيئهم أعدت بشخصها تعليمات "Nakaz" تصف المبادئ التي ينبغي أن يشكل على أساسها القانون الجديد. وقد عكست هذه المبادئ قرانها لمونتسكيو وبكاريا وبلاكستون وفولتير. واستهلّت تعليماتها بالتصريح بأنه يتعين التفكير في روسيا على أنها دولة أوروبية، ينبغي أن يكون لها دستور قائم على "مبادئ أوروبية". وليس معنى هذا في مفهومها "حكومة دستورية" تخضع الملك لهيئة تشريعية يختارها الشعب، فمستوى التعليم في روسيا لن يسمح حتى بحق انتخاب محدود كالموجود آنذ في بريطانيا. إنما يعني حكومة يحكم فيها الحاكم طبقاً للقانون، وإن كان هو ف نهاية الأمر المصدر الوحيد للقانون. وقد أيدت كاترين النظام الإقطاعي-أعني نظام الولاء والخدمات المتبادلة بين الفلاح والمقطع (التابع) وبين المقطع والسيد الإقطاعي، وبين السيد والملك باعتباره نظاماً لا غنى عنه للاستقرار الاقتصادي والسياسي والحربي في روسيا عام 1766 (وهي بلد الجماعات التي لا تكاد تتعزل بعضها عن بعض، وعن مركز الحكومة، نتيجة لصعوبات الانتقال والنقل)، ولكنها ألحت على ضرورة تعريف وتحديد حقوق السادة على أقتانهم قانوناً، وعلى السماح للأقتان بتمالك الأملاك، وعلى نقل محاكمة الأقتان وعقابهم من السيد الإقطاعي إلى قاضي عمومي يسأل محكمة إقليمية مسؤولة أمام الملك(48). وينبغي أن تكون جميع المحاكمات

صفحة رقم : 13611

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> الحاكمة القديرة

علبية، وأن يبطل استخدام التعذيب، وأن تلغى عقوبة الإعدام قانوناً وواقعاً. أما العبادة الدينية فينبغي أن تكون حرة، "فالتعصب هو أضر الكبائر بين هذه الكثرة من مختلف العقائد"(49). ثم قدمت هذه التعليمات قبل طبعها إلى مستشاريها، فنبهوها إلى أن أي تغيير فجائي من الأحوال المألوفة سيدفع بالروسيا إلى مهاوي الفوضى؛ وقد سمحت لهم بتعديل مقترحاتها، لا سيما ما استهدفت عتق الأرقاء تدريجياً(50). وقد دفعت هذه التعليمات التي نشرت في هولندا في 1767 صفوة المفكرين الأوربيين إلى الثناء الحماسي عليها، حتى بعد أن عدلت على هذا النحو. وأرسلت الإمبراطورة نسخة منها رأساً إلى فولتير، الذي قدم فروض احترامه المعهودة: "سيدتي، تلقيت البارحة ضماناً من ضمانات خلودك-هو مجموعة قوانينك في ترجمة ألمانية. وقد شرعت اليوم في ترجمتها إلى الفرنسية. وسوف تظهر في الصينية، وفي كل لسان، وسوف تكون إنجيلاً للبشر أجمعين(51). وأضاف في رسائل تالية: "إن المشرعين يحتلون مكان الصدارة في هيكل المجد، أما الفاتحون فيأتوهم من بعدهم... إنني أعد (التعليمات) أجل آثار هذا القرن"(52). ومنعت الحكومة الفرنسية بيع (التعليمات) في فرنسا. وقدمت "التعليمات" المعدلة إلى "لجنة صياغة القانون الجديد" التي اجتمعت في 10 أغسطس 1767. وكانت تتألف من 564 عضواً تنتخبهم جماعات شتى: 161 من النبلاء و208 من المدن، 79 من الفلاحين الأحرار، و54 من القوزاق، و34 من القبائل غير الروسية (مسيحيين أو غير مسيحيين) و28 من الحكومة. ولم يمثل الاكليروس بصفقتهم طبقة، ولم يمثل الأقتان إطلاقاً. وكانت اللجنة من بعض وجوها نظير لمجلس طبقات الأمة الفرنسي الذي تقرر أن يجتمع في باريس في 1789، وقد أتى المندوبون للحكومة بقوائم احتوت المظالم ومقترحات الإصلاح من دوائرهم على نحو ما سيفعل مندوبو ذلك المجلس الأشهر. ورفعت هذه الوثائق إلى الإمبراطورة فأتاحت لها ولمساعديها مسجاً قيماً لحالة المملكة.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> الحاكمة القديرة

ولم تخول اللجنة سلطة إصدار القوانين، بل تقديم المشورة للإمبراطورة عن حالة كل طبقة أو إقليم وحاجاته وتقديم الاقتراحات للتشريع. وكفلت للمندوبين حرية الكلام وعدم المساس بأشخاصهم. واقترح بعض عتق جميع الأفتان وطلب بعضهم مزيداً من التوسع في حق امتلاك الأفتان. وفي ديسمبر 1767-استرأحت اللجنة، وفي فبراير 1768 انتقلت إلى سانت بطرسبرج، وبلغ مجموع الجلسات التي عقدها 203؛ وفي 18 ديسمبر أجلت إلى أجل غير مسمى لأن نشوب الحرب ضد تركيا استدعى وجود مندوبين كثيرين في الجبهة. ووكلت مهمة صياغة التشريع المقترح إلى لجان فرعية، ظل بعضها يجتمع حتى 175، ولكن لم توضع مجموعة قوانين. ولم تسوء كاترين تماماً هذه النتيجة غير الحاسمة، فقالت "إن اللجنة... أعطتني النور والمعرفة عن جميع الإمبراطورية، وأنا الآن على بينة مما يلزم، وأعرف بما ينبغي أن أهتم. وقد فصلت اللجنة جميع أقسام القانون، ووزعت الشؤون تحت رؤوس مواضيع، وكنت خليفة بأن أفعل أكثر من هذا لولا الحرب مع تركيا، ولكننا أدخلنا وحدة لم نعدها إلى الآن في مبادئ النقاش وطرائقه" (53). وقد أظهرت كاترين للنبيلاء في الوقت نفسه مبلغ عرض القاعدة التي تركز عليها سلطاتها. واقترحت اللجنة قبل انفضاضها أن تلغ عليها لقب "الكبرى"، فرفضت، ولكنها وافقت على أن تلقب "أم الوطن".

وأصبحت اثنتان من توصيات كاترين قانوناً: إلغاء التعذيب وإقرار التسامح الديني. وقد توسع في هذا التسامح: فسمح القانون للكنيسة الكاثوليكية الرومانية بأن تنافس اليونانية الأرثوذكسية، وحمي اليسوعيين حتى بعد أن حل البابا كلمنت الرابع عشر طائفتهم (1773)، وأذن للنتار الفولجا بأن يعيدوا بناء مساجدهم. وسمحت كاترين لليهود بدخول روسيا، ولكنها أخضعتهم لضرائب خاصة، وقصرت إقامتهم على مناطق معينة (ربما تحقيقاً لسلامتهم). ثم تركت الراسكولنيكيين-المنشقين الدينيين-أحراراً في ممارسة شعائرهم دون عائق؛ وكتبت إلى فولتير تقول "صحيح أن عندنا متعصبين يحرقون أنفسهم لأنهم لم يعودوا مضطهدين من الغير، ولكن لو حذا حذوهم المتعصبون في الدول الأخرى لما نجم عن ذلك ضرر يذكر" (54).

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> الحاكمة القديرة

وأبهج جماعة الفلاسفة بصفة خاصة إخضاع كاترين الكنيسة الروسية للدولة. وشكا بعضهم من أنها لا تزال تحضر الخدمات الدينية (وكذلك كان يفعل فولتير)، وأدرك أكبرهم سناً أن حضورها لا غنى عنه للاحتفاظ بولاء الشعب. وقد حولت بمرسوم أصدرته في 26 فبراير 1764 جميع أراضي الكنيسة ملكاً للدولة. وبدأت الدولة منذ الآن تدفع رواتب رجال الدين الأرثوذكس-وبهذا ضمنت تأييدهم للحكومة. وأغلق الكثير من أديرة الرهبان والراهبات، ومنع الباقي منها من قبول أكثر من عدد معلوم من المترهبين الجدد، ورفعت السن القانونية لنذر الرهينة. واستخدمت الموارد الفائضة من المؤسسات الكنسية في إنشاء المدارس والملاجئ والمستشفيات (55).

وعارض رجال الدين والنبلاء التوسع في التعليم الشعبي مخافة أن يفضي انتشار المعرفة بين الجماهير إلى الهرطقة والكفر والتحزب، وأن يعرض النظام الاجتماعي للخطر. هنا بدأت كاترين كما بدأت في غير مبتطلعات تحريرية، فلجأت إلى جريم:

"أصغوا إلي لحظة يا أصدقائي الفلاسفة: ستكونون لطافاً ظرافاً إذا تفضلتم برسم خطة للشباب، من ألف باء إلى الجامعة... ليس عندي-أنا التي لم أدرس في باريس ولم أعش فيها معرفة بهذا الأمر ولا بصر به.. إنني مهتمة جداً بفكرة إنشاء جامعة وإدارتها، ومدرسة ثانوية (جمنازيوم) وأخرى أولية... وإلى أن تستجيبوا لطلبي سأنتقب في "الموسوعة" عما أنشده وبالتأكيد سأستخرج منها ما أنشده"(56).
وقد أثرت فيها أثناء ذلك الحماسة البيداغوجية التي أبداه إيفان بتسكي، الذي جاب السويد وألمانيا وهولندا وإيطاليا وفرنسا، واختلف إلى صالون مدام جوفران ودرس الموسوعة والتقى بروسو. ففي 1763 أنشأت في موسكو مدرسة القطاء، خرجت في 1796 أربعين ألف طالب، وفي 1764 فتحت مدرسة للبنين في سانت بطرسبرج، وفي 1765 أخرى للبنات، وفي 1764

صفحة رقم : 13614

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> الحاكمة القديرة

حول دير سمولني إلى معهد سمولني لبنات النبلاء- وهذا صدى لمعهد مدام دماننتون "سان سير"، وكانت كاترين أول حاكم روسي يفعل شيئاً لتعليم النساء. ولما فت في عضدها افتقارها إلى المعلمين المؤهلين، بعثت الطلاب الروس لدراسة التربية في إنجلترا وألمانيا والنمسا وإيطاليا، وأنشئت مدرسة للمعلمين في 1786.
وقد أعجبتها إصلاحات يوزف الثاني التعليمية في النمسا، فطلبت إليه أن يعيرها شخصاً خبيراً بنظامه، فأرسل إليها تيودور يانكوفش الذي وضع لها خطة نشرتها باسم "قانون المدارس الشعبية" (5 أغسطس 1786). وأنشئت مدرسة أولية في أهم بلدة في كل إقليم، ومدرسة ثانوية في كل مدينة كبرى من مدن ست وعشرين مقاطعة، وفتحت هذه المدارس لجميع الأطفال أياً كان طبقتهم، ولم يسمح فيها بالعقاب البدني؛ وكانت الدولة تمددها بالمدرسين والكتب المدرسية. بيد أن المشروع أحبطه إلى حد كبير عزوف الآباء عن إرسال أبنائهم إلى المدارس بدلاً من استخدامهم للشغل في البيت. وخلال سنوات العشر التي انقضت منذ تأسيس "المدارس الشعبية" حتى وفاة كاترين، زاد عدد ببطء من أربعين إلى 316 مدرسة، وعدد المعلمين من 136 إلى 744، وعدد التلاميذ من 4.398 إلى 17.341. وفي عام 1796 كانت روسيا لا تزال شديدة التخلف عن الغرب في ميدان التعليم الشعبي.
أما التعليم العالي فكان متاحاً على نطاق ضيق في جامعة موسكو وفي المعاهد أو الأكاديميات الخاصة، وأنشئت مدرسة تجارية في 1772، وأكاديمية للمناجم في 1773. ووسعت أكاديمية العلوم القديمة وزودت بالمال الوافر. وفي 1783، بناء على إلحاح الأميرة داشكوفاف، وتحت رآستها، أنشئت أكاديمية روسية لتحسين اللغة، وتشجيع الأدب، ودراسة التاريخ، فأصدرت المترجمات، ونشرت الدوريات، وصنفت قاموساً صدر في سنة أجزاء بين 1789، 1799.

وقد روعت كاترين نسبة الوفيات العالية في روسيا، وبدائية وسائل

صفحة رقم : 13615

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> الحاكمة القديرة

حفظ الصحة العامة والنظافة الشخصية، فاستقدمت الأطباء الأجانب، وأسست كلية للصيدلة في موسكو، ودبرت المال لإنتاج الأدوات الجراحية. وفتحت في موسكو ثلاثة مستشفيات جديدة ومستشفى للأمراض العقلية وفي سانت بطرسبرج ثلاثة مستشفيات جديدة بما فيها "مستشفى سري" للأمراض التناسلية (57). وفي 1768 أدخلت لروسيا التطعيم ضد الجدري، وهذأت مخاوف الشعب بوضعها شخصها وهي في الأربعين ليجري عليها العلاج كثنائي شخص في روسيا، وما لبثت كاترين أن كتبت لفولتير تقول "إن الذين طعموا هناك في شهر واحد أكثر ممن طعموا بفيينا في سنة" (58). (وفي 1772 دخل التطعيم نابلي لأول مرة، وفي 1774 مات لويس الخامس عشر بالجدري غير مطعم).

صفحة رقم : 13616

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> الاقتصادية

5- الاقتصادية

من القوانين الأساسية التي أصدرتها كاترين قانون (1765) قضى بأجواء مسح لجميع أراضي روسيا. وقد قوبلت هذه العملية بمقاومة شديدة من الملاك. وحين اختتم العهد كانت قد شملت عشرين إقليماً من خمسين، ولكنها لم تستكمل حتى منتصف القرن التاسع عشر. وبينما كان المسح جارياً أدركت الإمبراطورة في وضوح ميثبط للهمم كيف يعتمد اقتصاد روسيا على تنظيم الزراعة بواسطة نظام قوامه السادة والأقنان. وفي 1766 أعلنت عن جائزة من ألف دوقاتية تمنح لأفضل مقال عن تحرير الأقنان. وفاز بالجائزة بياردي دلابيه إكس لاشابل، الذي رأى أن "العالم كله يطالب الملوك بتحرير الفلاحين" وتنبأ بأن الإنتاج الزراعي سيزداد زيادة هائلة "إذا ملك الفلاحون الأرض التي يزرعونها" (59). غير أن الملاك الأشراف حذروا كاترين من أن الفلاح سيهجر القرى إلى المدن إن لم يربط بالأرض وبسيده الإقطاعي، أو سيهاجر من قرية إلى قرية في لا مبالاة أكثر، فيخلق بذلك الفوضى، ويمزق الاقتصاد، ويعوق تجنيد أبناء الفلاحين الأشداء للجيش أو الأسطول. ومضت القيصرية الحائرة في مشروعها على حذر، فالنبلاء يملكون المال

صفحة رقم : 13617

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> الاقتصادية

والسلاح اللذين يستطيعان الإطاحة بها، وهم في هذه المحاولة يستطيعون الاعتماد على تأييد الاكليروس الذين ساءهم فقدان أراضيهم وأقنانهم. وخافت من الخلل الذي قد تحدثه هجرة جماعية من الفلاحين المحررين إلى مدن غير مستعدة لإسكانهم أو إطعامهم أو تشغيلهم. على أنها قامت بخطوات نحو عتق الأفتنان. فجددت مرسوم بطرس الثالث الذي حرم شراء الأفتنان لتشغيلهم في المصانع، وفرضت على أرباب العمل أن يدفعوا أجور عمالهم نقداً وأن يراعوا ظروف العمل التي يقررها موظفو المدينة أو "المير" (60)؛ ولكن حتى مع هذا ظل وضع الأفتنان الصناعيين وضع العبودية القاسية المذهلة. وحرمت كاترين القنية في المدن التي أنشأتها (61)، ثم عتقت الأفتنان المشتغلين على الأراضي التي أخذت من الكنيسة نظير دفعهم رسماً صغيراً (62)، على أن هذه التحسينات طغت عليها منحة المتكررة من أراضي الدولة لمن أخلصوا لها الخدمة كالفواد أو رجال الدولة أو العشاق، وعلى هذا النحو أصبح أكثر من 800.000 من الفلاحين الأحرار أفتناناً. وارتفعت نسبة الأفتنان في سكان الريف من 52.4% في بداية العهد إلى 55.5% في ختامه، وزاد عدد الأفتنان من 7.6700.000 إلى 20.000.000 (63). ثم أكملت كاترين استسلامها للنبلاء بـ "خطابات الامتياز للنبلاء" (1785): فقد أكدت فيها من جديد إعفاءهم من ضريبة الرؤوس، والعقوبة البدنية، والخدمة العسكرية، وحقهم في ألا يحاكموا إلا أمام أمرائهم، وفي استخراج المعادن من أراضيهم، وفي امتلاك المشروعات الصناعية، وفي السفر إلى خارج البلاد كما يشاءون. وقد حظرت على الملاك أن يكونوا طغاة أو قساة، ولكنها أبطلت مفعول هذا الحظر بمنع الأفتنان من أن يرسلوا إليها شكواهم. ولجأ الفلاحون بعد أن أخدم صوتهم على هذا النحو إلى الفرار أو التمرد أو الاغتيال. وقد قتل ثلاثون من السادة الإقطاعيين بأيدي فلاحهم بين عامي 1760 و1769؛ واندلعت خمسون فتنة بينهم فيما بين عامي 1762 و1773 (64). وكانت هذه الفتن تخمد سريعاً حتى قائم زعيم ثائر عرف كيف يحول السخط نظاماً، وأسلحة اللاهين انتصارات. ذلك أن إميليان بوجاشيف كان قوزاقياً من إقليم الدون، حارب في صفوف الروس ضد

صفحة رقم : 13618

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> الاقتصادية

البروسيين والأترك، ثم طلب تسريحه، ولكن طلبه رفض، ففر من الجيش، وقبض عليه، فعادوا الفرار، وارتضى حياة طريد القانون. وفي نوفمبر 1772، بعد أن شجعه الرهبان الساخطون، أعلن أنه بطرس الثالث الناجي بأعجوبة من كل المحاولات التي بذلت لقتله. وجذب الفلاحين وقطاع الطرق للانضواء تحت لوائه، حتى أحس بأن ساعده اشتد، فهجر بعضيان الغاصبة كاترين (سبتمبر 1773). وتوافد عليه قوزاق الأورال والفولجا والدون؛ وآلاف الرجال الذين حكم عليهم بالسخررة في مناجم الأورال ومصاهر المعادن؛ وفئات "المؤمنين القدامى" التواقين إلى الإطاحة بالكنيسة الأرثوذكسية؛ وقيائل التتار والقرغيز والبشكير المحلية الذين لم ينسوا إكراه اليزابث لهم على الدخول في المسيحية؛ ثم أفتنان آبقون من سادتهم، ومساجين هربوا من السجون: هؤلاء تقاطروا على لواء بوجاشيف حتى اجتمع له عشرون ألف رجل تحت إمرته. فزحفوا ظافرين من مدينة إلى مدينة، وهزموا القوات التي سيرها ضدهم الحكام المحليون، واستولوا على مدن هامة مثل قازان وساراتوف؛ ثم صادر المؤن، وقتلوا الملاك، وأكروه الفلاحين المعارضين على الانضمام إليهم، وزحفوا مصعدين في حوض الفولجا صوب موسكو. وأعلن بوجاشيف أن لن يرتقي

هو العرش هناك، بل سيبوثة الغراندوق بولس. ولكنه بمزاح رهيب على الأرجح لقب زوجته الفلاحة بالملكة، وكبار ضابطه بأسماء ضباط كاترين: الكونت أورلوف، والكونت بانين، والكونت فورونشوف. وسخرت كاترين أول الأمر من هذا "المركز بوجاشيف"، ولكنها حين علمت أن العصاة استولوا على قازان، جردت قوة كبيرة تحت إمرة الجنرال بيوتر إيفانوفتش بانين لإخماد الفتنة. وخف النبلاء لنجدتها بعد أن أدركوا أن الخطر يتهدد هيكل الإقطاع بأسره، وسرعان ما انضم الجنرال الكسندر فاسيليفتش سوفوروف إلى بانين بفرسانه الذين أصبحوا أحراراً في التحرك بعد عقد الصلح مع الأتراك؛ وأوقع الخلل في صفوف العصاة التقاؤهم بجنود مدربين تحت قيادة ضباطهم الإمبراطوريين. فتقهقروا من موقع إلى آخر، واستنفدوا مؤنهم، وبدأوا يتضورون جوعاً. واعتقل بعض

صفحة رقم : 13619

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> الاقتصادية

زعمانهم-الطامعين في الخبر واعفوجوجاشيف وسلموه للمنتصرين. فجيء به إلى موسكو في قفص من حديد، وحوكم في الكرملين، وقطع رأسه ومزق جسده أرباعاً، وعرض رأسه على عمود في أربعة أقسام من المدينة ليكون "عبرة لغيره" ثم أعدم خمسة من ضباطه، وجلد غيرهم على هذا الجانب من الموت، ونفوا إلى سيبيريا. وكان من نتائج الفتنة دعم التحالف بين الإمبراطورة والنبلاء.

على أنها تحدث النبلاء شيئاً ما بتأييدها لنمو طبقة قوامها رجال المال والأعمال. ذلك أن اقتناعها ببراهين الفيزيوقراطيين دعاها لإقرار حرية التجارة في المحاصيل الزراعية (1762)، ثم في كل شيء، وأنهت (1735) الاحتكارات المعتمدة من الحكومة بإصدارها قراراً يبيح لكل إنسان حرية الاضطلاع بأي مشروع صناعي وتنفيذه. وقد أحرز نمو الطبقة الوسطى غلبة الصناعة التي تقوم في الأكوخ والعزب، ومشاركة النبلاء في المغامرات الصناعية والتجارية. وزادت المصانع من 984 إلى 3.161 في عهد كاترين، ولكن هذه كان أكثرها ورشاً صغيرة لا تستخدم من الصناع إلا القليلين. وزاد سكان المدن من 328.000 في عام 1724 إلى 1.300.000 في عام 1796-ومع ذلك لم يزل أقل من أربعة في المائة من مجموع السكان(65).

ولم تأل الإمبراطورة الكثيرة الشواغل جهداً في النهوض بالتجارة دون أن تلتقي إلا التأييد الضنين من حاشيتها النبيلة. لقد كانت الطرق غاية في السوء، ولكن الأنهار كثيرة، وقد ربطتها القنوات في شبكة مفيدة. وفي عهد كاترين بدئ شق قناة بين الفولجا والنيفا لربط البلطيق ببحر قزوين، وقد خططت لقناة أخرى تصل بحر قزوين بالبحر الأسود(66). وظفرت بالتقاوض أو بالحرب بحرية مرور التجارة الروسية دون معوق في البحر الأسود ومنه إلى البحر المتوسط. ثم حثت دبلوماسيتها على عقد المعاهدات التجارية مع إنجلترا (1766) وبولندا (1775) والدنمرك (1782) وتركيا (1783) والنمسا (1785) وفرنسا (1787). ونمت التجارة الخارجية من 21.000.000 روبل عام 1762 إلى 96.000.000 عام 1796(67).

صفحة رقم : 13620

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> الاقتصادية

في هذه الأرقام يجب أن نحسب حساب تضخم العملة الذي تدفع به الحكومات نفقات حروبها. وقد اقترضت كاترين من داخل البلاد وخارجها 130.000.000 روبل لتمويل حملاتها على تركيا، وأصدرت نقوداً ورقية تجاوزت كثيراً أي غطاء من الذهب. وفقد الروبل أثناء حكمها 32% من قيمته. وفي هذه الفترة ذاتها، ورغم زيادة الإيرادات من 215.000.000 (68). وأكثر هذا الدين نجم عن الحروب التي كسرت شوكة تركيا، ومدت حدود روسيا إلى البحر الأسود.

صفحة رقم : 13621

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> المحاربة

6- المحاربة

بدأت كاترين بأهداف سلمية كما يبدأ كل فيلسوف: فأعلنت أن مشاكل الإمبراطورية الداخلية ستستغرق اهتمامها، وأنها ستجنب كل صراع مع الدول الأجنبية إذا لم يتحرق بها أحد. فثبنت صلح بطرس الثالث مع بروسيا، وأنهت حربه مع الدنمرك. وفي 1762 رفضت الإغراء بفتح كورلاند أو التدخل في بولندا، وقالت "عندي ما يكفي من البشر الذين على إسعادهم، ولن يزيدني رفاهية ذلك الركن الصغير من أركان الأرض" (69). ثم خفضت الجيش، وأهملت ترسانات السلاح، وسعت إلى التفاوض مع تركيا لإبرام معاهدة للصلح الدائم. ولكنها كانت كلما درست الخريطة وجدت عيباً في حدود روسيا. ففي الشرق كانت الإمبراطورية محمية جيداً بجبال الأورال وبحر قزوين وضعف الصين. وفي الشمال تحميها الثلوج. أما في الغرب فالسويد مستولية على جزء من فنلندة، قد يتوقع منه الهجوم في أي لحظة يشنه شعب ما فتى يسوؤه ما غصبه منه بطرس الأكبر؛ وكانت بولندا وبروسيا تسدان الطريق إلى "أوروبا" والاصطباغ بحضارتها. أما في الجنوب فقد سد التتار، الخاضعون لخان مسلم يسيطر عليه الترك، الطريق إلى البحر الأسود. فأى إجهاضات للتاريخ أعطت روسيا جغرافية كهذه، وحدوداً شاذة كهذه؟ وهمس في أذنها القائد القديم مونيخ، والقائد الجديد جريجوري أورلوف، بأن الوضع يكون معقولاً أكثر لو كان البحر الأسود هو الحد الجنوبي، وبأنه يكون

صفحة رقم : 13622

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> المحاربة

جميلاً رائعاً لو استطاعت روسيا الاستيلاء على الأستانة والتسلط على البوسفور. ما نيكيتا بانين، وزير خارجيتها من 1763 إلى 1780. فقد فكر في طرق لإعلاء نفوذ روسيا في بولندة ومنع هذا البلد الأعزل من الوقوع في براثن بروسيا.

وتأثرت كاترين بحججهم، وأخذت تتحرق شوقاً لأن تبوء وطنها الثاني مكاناً في السياسة يتفق ومكانها على الخريطة. فلم ينقض عام على تقلدها السلطة حتى انطلقت إلى سياسة خارجية لا ترضى في طموحها بأقل من جعل روسيا الدولة المحورية على القارة. كتبت إلى الكونت كيزرلنج، سفيرها في وارسو تقول "أقول لك أن هدفي أن أرتبط بروابط الصداقة مع جميع الدول، في تحالف مسلح، حتى أستطيع على الدوام أن أقف في صف مظلوم، وبهذا أصبح الحكم لأوروبا(70).

وأنت عليها فترات كانت فيها قاب قوسين من هدفها هذا. وآية ذلك أنها سحبت روسيا من حرب السنين السبع فإنها في الواقع حسمت ذلك الصراع الذي شمل القارة كلها لصالح فردريك. وفي عام 1764 أبرمت مع فردريك معاهدة كانت نذيراً بتقطيع أوصال بولندة. ثم استغلنت حاجة الدنمرك إلى تأييد روسيا لها ضد السويد لتهمين على سياسة الدنمركيين الخارجية. وفي عام 1779 كانت حكماً بين فردريك وبوزف في معاهدة تشن، وأصبحت حامية الدستور الإمبراطوري الألماني. وفي 1780 ربطت الدنمرك والسويد وبروسيا والنمسا والبرتغال بالروسيا في "عصبة حياد مسلح" لحماية السفن المحايدة في الحرب الدائرة بين إنجلترا ومستعمراتها الأميركية، فنقرر ألا تتعرض السفن المحايدة للهجوم من أي من الطرفين المحاربيين ما لم تحمل ذخائر حربية؛ وأن الحصار لكي يكون شرعياً ولكي يحترم يجب أن يكون حقيقياً لا مجرد إعلان على الورق. وقبل أن قلبت الأحلاف ذلك القلب الثاني بزم طويل بدأ الصراع الطاحن على التسلط على البحر الأسود. وقد نشأت أول حروب كاترين

صفحة رقم : 13623

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> المحاربة

التركية نتيجة ثانوية غريبة لغزوها بولندة. ذلك أنها كانت قد أرسلت هناك جيشاً لإعانة غير الكاثوليك في كفاحهم لنيل حقوق متساوية من الأغلبية الكاثوليكية؛ وحمل الكاثوليك سفيراً بابوياً على أن يفهم تركيا أو فرصتها حانت لتهاجم روسيا؛ وأيدت فرنسا الاقتراح، وحرضت السويد وخان القرم على الانضمام للهجوم(71). وحزن فولتير على إمبراطورته التي أهدق بها الخطر. وكتب إليها يقول "إن تجنيد سفير بابوي للأتراك في حربه الصليبية عليك لموضوع جدير برواية هزلية إيطالية عنوانها "مصطفى الحليف الفاضل للبابا!"، فالموقف كاد يغيره بأن يكون مسيحياً. لا بل أنه في خطاب أرسله إلى كاترين في نوفمبر 1768 اقترح عليها حرباً مقدسة على الكفار. "إنك تكرهين البولنديين على أن يكونوا متسامحين سعداء على الرغم من سفير البابا، ويبدو أنك تلقين من السماء عناً. فإذا شنوا عليك الحرب فربما تبلورت فكرة بطرس الأكبر في جعل الأستانة عاصمة للإمبراطورية الروسية... وفي ظني أنه لو قدر على الأتراك أن يطردوا من أوروبا يوماً فسيكون هذا على أيدي الروس... فليس يكفي لإذلالهم؛ بل يجب ردهم إلى موطنهم إلى الأبد(72).

ورفضت السويد أن تشارك في الهجوم على روسيا، ولكن تثار القرم اجتاحتها مستعمرة "الصرب الجديدة" الروسية، الحديثة، (يناير 1769). وزحف جيش تركي عدته 100.000 مقاتل صوب بود ولينا لينضم إلى جيش الاتحاد البولندي. ورفضت كاترين أن تسحب قواتها من بولندة. وجردت ثلاثين ألف مقاتل يقودهم ألكسندر جولتسين وبيوتر

روميا تنتسيف لهزيمة التتار ورد الترك؛ فلما قيل لها إن عدد هؤلاء الترك هائل أجابت "إن الرومان لم يكونوا يعبأون بكثرة إعدامهم، إنما كانوا يسألون، أين هم؟" (73). ورد التتار على أعقابهم، واستولى الروس على أزوف وتاجانروج شمالي الدون؛ وهزم سبعة عشر ألف روسي 150.000 تركي في كاجول (1770) وتقدم روميانتسيف حتى بلغ بوخارست، حيث استقبله السكان الأرثوذكس

صفحة رقم : 13624

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> المحاربة

بمظاهر الفرح والتلهيل. وفي 1771 اجتاح فاسيلي ميخايلوفتش دولجوروكي القوم وقضى على الحكم التركي هناك وأكثر حتى من هذا إثارة للعجب والإعجاب جرأة الكرسي أورلف، الذي قاد أسطولاً روسياً مخر به عباب المانش، والأطلنطي، والبحر المتوسط، وهزم الأسطول التركي تجاه خيوس، وأباده في خزمي (يوليو 1770)؛ غير أن الضرر الذي لحق بمراكبه كان فادحاً فلم يتح له مواصلة انتصاراته. على أن أحداثاً أخرى لم تبعث مثل هذه البهجة في فؤاد كاترين. من ذلك أن طاعوناً تفشي في الجيش الروسي على طول الدانوب ثم ارتد إلى موسكو حيث كان يحصد ألف روح كل يوم في صيف 1770. وكانت عليمه بأن فردريك ينظر باستنكار إلى امتداد ملكها وسلطانها؛ وأن يوزف الثاني يزعجه تقدم روسيا إلى حدود النمسا في البلقان؛ وأن فرنسا لا تترك حجراً لا تقلبه دعماً لحليفها تركيا؛ وأن إنجلترا ستقاوم بشدة تسلط روسيا على البوسفور؛ وأن السويد إنما تنرب بها الدوائر. فدعت كاترين الترك إلى مؤتمر، فحضروا، ولكنهم حزنوا لإصرارها على استقلال القرم؛ وفي 1773 استؤنفت الحرب. وفي يناير 1774 مات مصطفى الثالث؛ وقرر خلفه أن تركيا قد بلغت من الفوضى والإرهاق حداً يهدد وجودها كدولة أوربية. فاعترفت تركيا بمقتضى صلح كجوق قينارجي (في رومانيا) 21 يوليو 1744 باستقلال القرم (التي ظلت تحت حكم التتار)، ونزلت لروسيا عن أزوف، وكرش وبنيكالي، وكلبورون (على مصب دنيبر). وفتحت البحر الأسود والبوسفور والدردينيل للمراكب الروسية، ودفعت لروسيا تعويض حرب قدره 4.500.000 روبل، ومنحت العفو للمسيحيين الذين شاركوا في ثورات على حكاهم الأتراك، واعترفت بحق روسيا في حماية المسيحيين في تركيا. وكان هذا في جملته من أميز المعاهدات التي أبرمتها روسيا في تاريخها (74). فقد غدت روسيا الآن من دول البحر الأسود؛ وتركت

صفحة رقم : 13625

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> المحاربة

القرم وغيرها من أقاليم التتار في جنوب روسيا مفتوحة أمام الغزو الروسي المبكر، واستطاعت الإمبراطورة الشاكة أن تظهر بمظهر المدافعة عن الإيمان. وراحت كاترين بعد أن أسكرها النصر تحلم بتحرير اليونان- أعني بفتحها، وبتتويج حفيدها قسطنطين في الأستانة رأساً لإمبراطورية جديدة. وأبهجت فؤاد فولتير الشانخ برؤى الألعاب الأولمبية وقد ردت إلى مجدها التليد؛ فكتبت إليه تقول "سوف تجعل ممثلين يونانيين يمثلون التراجيديات اليونانية القديمة في مسرح (ديوبنيسوس) بآثينا". فلما تذكرت الجيوش والخزانة التي استنفدت أضافت: "على أن أمرس الاعتدال، وأقول إن السلم خير من أروع حروب الدنيا" (75).

وأخذت الآن تحل محل فردريك كأشهر ملوك أوروبا، وتعجب الناس جميعاً من سعيها الحثيث لتحقيق أهدافها، ومن الامتداد المرعب لسلطانها، وسافر يوزف الثاني إمبراطور النمسا، الذي طالما انحى لعبقرية فردريك، إلى موجيليف، ومنها أكمل الرحلة الطويلة إلى سانت بطرسبرج ليلتقي بالقيصرة ويسعى إلى التحالف معها. وفي مايو 1781 أبرمت مع يوزف ميثاقاً للعمل الموحد في بولنדה ضد تركيا.

وكان بوتكين في غضون هذا يبني لنفسه الشهرة في الجنوب. ذلك أنه نظم وسمح وأطعم جيشاً جديداً عدته 300.000 مقاتل، وبنى أسطولاً للبحر الأسود، له موانئ في سباسبول وأودسا وترسانة في خرسون، واستعمر أقطار روسيا الجنوبية ذات المستوطنات الضئيلة، وأسس المدن والقرى، وأقام المصانع، وزود المستعمرين بالماشية والآلات والبزار وكل هذا ليوفر قواعد للتنميين في حملة حربية تضيف القرم إلى تاج كاترين، وربما ليظفر بتاج لنفسه. وتشاجر تتار القرم وانقسموا، فالآن بوتكين زعماءهم بالرشا؛ فلما غزا شبه الجزيرة في النهاية (ديسمبر 1782) لم يلق من المقاومة إلا أقلها؛ وفي 8 أبريل 1783، ورغم احتياجات تركيا عديمة الجدوى، ابتعلت مملكة الروس القرم. ورقى بوتكين مشيراً، ورئيساً للكلية الحربية، وأميراً لطورس، وحاكماً عاماً للقرم. ونفخته الإمبراطورة فوق هذا كله

صفحة رقم : 13626

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> المحاربة

بمكافأة من 100.000 روبل، أنفقها بوتكين على الخيليات والشراب والطعام. ورأت كاترين هي أيضاً أن الوقت قد حان لشيء من الاسترخاء. فجمعت بين اللهو والعمل بترتيبها "رحلة ملكية" فخمة على اليابس والماء تقش خلالها على فتوحها وتترك انطباعاتاً قويا في نفوس هذه الأقاليم وأوروبا كلها إثرها بلاطها وأبهته. وفي 2 يناير 1787، غادرت القصر الشتوي مدثرة بفرائها وشرعت في رحلتها الطويلة في "برلينيه" أي مركبة مقلدة في الكبر بحيث تحتوي فضلاً عن شخصها الذي اتسعت أبعاده الآن- عشيقها مامونوف صاحب الخطوة آنذ، وكبيرة وصيفاتها، وكلباً صغيراً، ومكتبية صغيرة. وتبعته أربع عشرة عربة و170 مركبة جليد، تحمل سفراء النمسا، وبريطانيا، وفرنسا-كوبنتزل، وفتز هربرت، والكونت سيجور-مضافاً إليهم الأمير دالين وجيش من الموظفين والبطانة والموسيقيين والخدم. وكان بوتكين قد سبقها بأيام ليعدها الطريق، وليضيئه بمئات المشاعل، وليرتب كل ليلة وجباتها وأماكن لنوم الجميع. وكان الموكب إذا مر بمدينة كبرى استراح يوماً أو يومين ريثما تلتقي القيصرة بوجود المدينة، وتستعرض أحوالها، وتوجه أسئلتها، وتوزع اللوم أو المكافأة. وبدت كل مدينة على الطريق في أحسن مظهر عملاً بتحذيرات بوتكين وتعليماته، فاغتسلت وتزينت كما لم تفعل قط من قبل، سعيدة ولو ليوم واحد في حياتها.

وفي كييف أشرف بوتكين على نقل البلاط المتنقل إلى سبع وثمانين سفينة كان قد أعدها وزينها. وعليها أبحر الراكب الإمبراطوري هايبطاً النديبر. وعلى طول النهر شاهدت كاترين "القرى البوتكينية" التي هيأها أمير طورس الأريب وجلاها ليدخل السرور إلى قلبها، وربما ليترك في نفوس الدبلوماسيين انطباعاتاً قويا عن ثراء روسيا. وبعض هذا الثراء ارتجله بوتكين، وبعضه كان حقيقياً. "أما أنه شيد القرى الكاذبة على الضفتين، ودرب الفلاحين ليخلقوا وهماً بما هم عليه من تقدم، فذلك من شطحات خيال دبلوماسي سكسوني" (76). فقد قام الأمير دالين بعدة رحلات

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> المحاربة

على الشاطئ ليستكشف ما وراء الواجهة، فقال أنه رغم بوتمكن لجأ إلى بعض الحيلة، فإنه (أي دلين) راعته "المنشآت الفخمة وهي بعد في مهدها، والمصانع النامية، والقرى ذات الشوارع المنتظمة التي تحفها الأشجار" (77). ولعل كاترين نفسها لم تتخدع، ولكنها ربما استنتجت كما استنتج سيجور، أنه حتى لو كان نصف ثراء تلك المدن ونظافتها مظهرًا زائلاً، فإن حقيقة وجود سباسبول فعلاً-المدينة والقلاع والميناء، وكلها بنى على شواطئ القرم في عامين-هذه الحقيقة كفت لجعل بوتمكن جديراً بالثناء. وقد وصفه الأمير دلين الذي كان يعرف تقريباً كل إنسان ذي شأن في أوربا بأنه "أعجب رجل التقيت به في حياتي" (78).

وفي كانيوف جاء ستانسلاس بونياوفسكي ملك بولندا، ليقدّم فروض الولاء للمرأة التي منحته حبها وعرشه. وفي موقع أبعد على الدنيير الأدنى، عند كايديكي، انضم يوزف الثاني إلى الموكب الذي اتخذ طريقه ثم برا إلى خرسون فالقرم. هنالك داعبت الإمبراطورة، والإمبراطور، والحاكم العام، أحلامهم بطرد الترك من أوربا، فحلمت كاترين بالاستيلاء على الأستانة، ويوزف بابتلاع البلقان، وبوتمكن بتولي عرش داشيا (رومانيا). ونصحت إنجلترا وبروسيا السلطان عبد الحميد بأن يوجه ضربته إلى الروس في غفلة منهم قبل أن يستكملوا استعداداتهم الحربية (79). وكان في وقاحة السفير الروسي في الأستانة ما هباً لتركيا حافزاً إضافياً، فحبسه السلطان، وأعلن الجهاد، وطالب برد القرم ثمناً للصلح. وفي أغسطس 1787 عبر الجيش التركي الرئيسي الدانوب وزحف على أوكرانيا.

لقد تعجل بوتمكن في الإعلان عن فرحه؛ ذلك أن روسيا لم تكن مستعدة بعد للامتحان النهائي؛ لذلك نصح الإمبراطورة بالتخلي عن القرم. ولكنها وبخته على جنبه الذي لم تعهده فيه، ثم أمرته هو وسوفوروف وروميا نتسيف أن يعدوا كل القوات المتاحة لهم وينطلقوا للقاء الغزاة؛ أما هي فقد انسحبت إلى سانت بطرسبرج. ودحر سوفوروف الترك في كليورون، وحاصر بوتمكن أوشاكوف المشرفة على منافذ دنيير وبوج. وبينما كان الجهاد والحرب

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> المحاربة

الصليبية يواجه أحدهما الآخر في جنوبي روسيا، قررت السويد أن الفرصة وانتهت أخيراً لاسترداد ما فقدت من أقاليم. فجدد جوستاف الثالث حلفاً قديماً مع الترك بعد أن شجعت إنجلترا وبروسيا (80)، وطالب كاترين برد فنلندة وكاريليا للسويد، والقرم لتركيا. وقد فصل الحديث عن هذه الحرب في موضع لاحق، أما الآن فحسبنا أن نقول أن أسطولا سويدياً أنزل بالروس في البلطيق هزيمة فاصلة في 9 يوليو 1799، وكان قصف المدفعية السويدية يسمع من القصر

الشتوي؛ وفكرت كاترين في إخلاء عاصمتها. على أن مفوضيها ما لبثوا أن أقنعوا السويد بأن تبرم الصلح (15 أغسطس 1790).

وعدت كاترين الآن حرة في تركيز قوات ضد الترك، وانضمت النمسا إلى روسيا في الحرب. وأنهى بوتمكين حصار أوشاكوف بأن أمر رجاله بالهجوم مهما كان الثمن. وكلف النصر الروس ثمانية آلاف قتيل، وختمت المعركة الضارية بمذبحة أتت على الضحايا دون تمييز (17 ديسمبر 1788) وتقدم بوتمكين ليستولي على بندر، واستولى النمساويون على بلغراد، ودحر سوفروف الأتراك في رمنيك (22 سبتمبر 1789). وبدأ أن تركيا مقضي عليها بالفناء.

على أن الدول الغربية أحست أن الموقف يدعو إلى العمل الموحد ضد كاترين إن أريد ألا يقع اليوسفور ذلك المعقل الاستراتيجي في يدها فتصبح روسيا السيد المتسلط على أوروبا. وبعد موت فردريك الأكبر (1789) رأى خليفته فردريك وليم الثاني في فزع تحرك روسيا صوب الأستانة، وتحرك النمسا في البلقان؛ وبين روسيا والنمسا وهما بهذه القوة الجديدة ستنبت بروسيا تحت رحمتها. وعليه ففي 31 يناير 1790 ربط حكومته مع الباب العالي في ميثاق ألزمه بأن يعلن الحرب على روسيا والنمسا جميعاً في الربيع، وبألا يضع السلاح إلا إذا ردت لتركيا كل إقليمها التي خسرتها.

وبدا أن المد السياسي يتحول ضد كاترين. فقد أضعف قوة يوزف الثاني نشوب الثورة في الأراضي الواطئة النمساوية وانتشار الفوضى في المجر؛ ثم مات في 20 فبراير 1790، وأبرم خلفه هدنة مع الأتراك. وحثت

صفحة رقم : 13629

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> المحاربة

إنجلترا وبروسيا كاترين مرة أخرى على عقد الصلح على أساس الاحتفاظ بكل الأراضي التي تم الاستيلاء عليها في الحرب؛ ولكنها أبت؛ ذلك أن استيلاءها على أوشاكوف كان قد فتح الطريق أمام روسيا إلى البحر الأسود، فهي لا تريد أن تتخلى عن هذا الكسب الحيوي. ثم إن قوادها كانوا يسرون من نصر إلى نصر، وتوجوا انتصاراتهم باستيلاء سوفوروف وبوتمكين على مدينة اسماعيل (22 ديسمبر 1790)؛ وقد خسر الروس في سبيل الاستيلاء على هذا المعقل التركي الواقع على الدانوب عشرة آلاف مقاتل، وخسر الترك ثلاثين ألفاً. وبعد هذه الولاية الدموية انتكس بوتمكين الذي أنهكته الحرب إلى ضرب من الكسل المترف والسفاح المخزمي مع بنات أخيه؛ وفي 15 أكتوبر 1791 مات على طريق قريب من ياسي. وأغمى على كاترين ثلاث مرات في اليوم الذي سمعت فيه نبأ موته.

وفي مارس 1791 اقترح وليم بت الابن على البرلمان إرسال إنذار نهائي إلى روسيا يطالبها بأن ترد لتركيا كل الأقاليم التي استولت عليها في الحرب الراهنة، واقترح إرسال أسطول بريطاني إلى البلطيق نذيراً بالحرب. ولم تجب كاترين، أما البرلمان فقد ثنى بت عن إنفاذ مشروعه حين سمع التجار البريطانيون يتحسرون على ضياع تجارتهم مع روسيا. وأما تركيا فقد كفت عن الصراع بعد أن أنهكتها الحرب، ف وقعت في جاسي (9 يناير 1792) معاهدة ثبتت سيطرة روسيا على القرم وحوضي دنيبر وبوج. وهكذا لم تصل كاترين إلى الأستانة، ولكنها بلغت ذروة حياتها كأقوى حاكم في أوروبا، وألمع امرأة في قرنها.

صفحة رقم : 13630

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> المرأة

7- المرأة

أكانت امرأة، أم هولة؟ رأينا أنها في مستهل حكمها كانت فاتنة الجسد، وفي عام 1780 كانت قد سمت، ولكن هذه السمنة لم تفعل بها شيئاً إلا إضافة النّقل إلى العظمة. وقد وصفها الأمير دليين (الذي كان من أوائل من لقبوها "الكبرى" (84) وصفاً مهذباً فقال:

صفحة رقم : 13631

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> المرأة

"كانت في 1780 لا تزال حسنة الصورة، وفي استطاعة الناظر إليها أن يستنتج أنها كانت فيما مضى رائعة الجمال أكثر منها وسيمة. ولم يكن بالمرء حاجة إلى فراسة ليقرأ على جبينها، كما يقرأ في كتاب، العبقرية والعدالة والشجاعة العمق ورباطة الجأش ولطف الطبع والهدوء والتصميم. وقد اكتسب صدرها الجميل على حساب خصرها الذي كان يوماً ما شديد النحول؛ ولكن الناس عادة يسمنون في روسيا... ولم يلحظ المرء قط أنها قصيرة القامة" (82). وقد صورها كاستيرا في كتابته عنها عقب موتها بأنها كانت ترتدي ثوباً أخضر في احتشام. "كان شعرها المبدر ببودرة خفيفة، يطفو على كتفيها، وتعلوه فلتسوة صغيرة مرصعة بالماس. وفي سنيها الأخيرة ألفت أن تستعمل قدراً كبيراً من الروج، لأنها كانت لا تزال تطمع في ألا تسمح لآثار الزمن أن تبدو على وجهها، ومن المحتمل أن هذا الطموح وحده هو الذي دعاها للعيش بمنتهى الاعتدال" (83). كانت مغرورة، واعية في غير موارد بثافتها وسلطتها. قال يوزوف الثاني لكاونتز "إن الغرور معبودها، وقد أفسدها الحظ وثافتها المسرفة" (84). وفي رأي فرديريك الأكبر أن كاترين لو كانت ترسل الله لا دعت لنفسها مرتبة مساوية له على الأقل (85). ومع ذلك كانت تتحدث إلى دييرو كما يتحدث "رجل إلى رجل"، ورجت فالكونيه أن يسقط من حديثه لها عبارات المجاملة. وكانت "باستثناء بعض جرائم القتل المحتملة ومذابح الحرب المبررة) لا تقل لطفاً وأنساً عن تشارلز الثاني ملك إنجلترا أو هنري الرابع ملك فرنسا. وفي كل يوم كانت تلقى من نوافذها الخير لآلاف الطيور التي تجيئها بانتظام لتطعم (86). وفي سنوات ملكها الأخيرة كانت تطلق العنان بين الحين والحين لنوبات غضب لا تليق بصاحبة السلطان المطلق، ولكنها حرصت على ألا تصدر أمراً أو توقع ورقة وهي في هذه النوبات البركانية، وسرعان ما أخذت تشعر بالخجل من هذه التفجرات، وأخذت

صفحة رقم : 13632

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> المرأة

نفسها بالتحكم في أعصابها. أما عن شجاعتها فقد نبذت أوروبا كل شك فيها. كانت شهوانية بلا مرء ولا مبالاة، ولكن غرامياتها لا تؤذينا بشيء بقدر ما تؤذينا "حديقة طباء" لويس الخامس عشر. وقد درجت على ما درج عليه كل حكام زمانها فأخضعت الأخلاق للسياسة، وأخدمت المشاعر الشخصية إذا عرقلت توسيع رقعة دولتها. وحيث انعدم مثل هذا الصراع كان لها كل حنان المرأة ورقتها، تحب الأطفال، وتلاعبهم وتمرح معهم، وتعلمهم، وتصنع لهم اللعب. وكانت في رحلاتها تحرص دائماً على أن يطعم السائقون والخدم كما ينبغي أن يطعموا (87). وبين الأوراق التي وجدت على منضدتها بعد موتها قيرية كتبها لنفسها، "كانت تغفر في يسر، ولا تبغض أحداً، وإذا كانت متسامحة، متفهمة، ذات طبع مرح، فقد أوتيت روحاً جمهورية وقلباً عطوفاً" (88). ولم تكن عطوفاً على ولدها البكر، من جهة لأن بولس أخذ منها بعد ولادته بقليل، وقام على تربيته بانن وغيره تحت إشراف اليزابت؛ ومن جهة لأن المؤامرات التي دبرت لخلعها كانت أحياناً تنوي جعله إمبراطوراً تحت الوصاية؛ ومن جهة لأن بولس طالما خامره الظن بأن أمه قاتلة بطرس؛ كذلك لأن بولس "كان يطيل التفكير دائماً في سرقة حقوقه في خلافة أبيه الافتراضية على العرش". ولكن كاترين تعلقت بابني بولس الساحرين ألكسندر وقسطنطين، وأشرفت بشخصها على تعليمها، وحاولت إبعادهما عن تأثير أبيهما، وبيتت أن يرث تاجها ألكسندر لا بولس (89). أما بولس الذي سعد بزواجه الثاني فكان ينظر في اشمزاز واضح إلى سلسلة العشاق الذين أمتعوا أمه واستنزفوا موارد الدولة.

أما من الناحية العقلية فقد بزت كاترين على عشاقها. كانت ترضى جشعهم، ولكن ندر أن سمحت لهم بتقرير سياستها. وقد أحسنت استيعاب الأدب الفرنسي إلى حد أتاح لها مراسلة أقطابه كما يرسل الواحد من جماعة

صفحة رقم : 13633

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> المرأة

الفلاسفة صاحبه؛ لا بل إن خطاباتها لفولتير كانت تنافس خطاباته لها فطنة وتميزاً، وتضارعها رشاقة وخفة دم. وكانت رسائلها كثيرة العدد كثرة رسائل فولتير مع أنها كتبتها خلال فواصل دسائس القصر، والثورات الداخلية، والدبلوماسية الحرجة، والحروب التي غيرت خرائط الدول. وكان حديثها يجعل ديرو دائم التنبه والاستعداد، ويحرك مشاعر جريم إلى حد الانتشاء. "كان على المرء في تلك اللحظات أن يرى هذا الرأس الفذ الذي هو مزاج من العبقرية والحسن حتى يكون فكرة عن النار التي تحركها، والسهام التي تطلقها، والهجمات التي تلاحق... الهجمة منها الهجمة... ولو كان في طاقتي أن أدون هذه الأحاديث كلمة كلمة لأتيح للعالم كلها قطعة نفيسة وربما فريدة في تاريخ العقل البشري (90). على أنه كان يشوب هذا السيل الدافق من أفكارها اضطراب وعدم استقرارا سريعا؛ فكانت تندفع بأسرع مما ينبغي في مشاريع لم تمنع التفكير فيها، وكانت أحياناً يهزمها إلحاح الأحداث وكثرة الواجبات. ولكن النتيجة حتى مع هذا كانت هائلة".

ويبدو أمراً لا يصدق أن تجد كاترين في حياة اضطربت بمثل هذه الأحداث المثيرة سياسية كانت أم حربية وقتاً تكتب فيه قصائد الشعر، والأخبار التاريخية، والمذكرات، والتمثيلات، ونصوص الأوبرات، ومقالات المجلات، وحكايات الجن، ورسالة علمية عن سيبيريا، وتاريخاً للأباطرة الرومان، ومذكرات مستفيضة عن "تاريخ روسيا" وفي 1769-

1770 رَأَسَتْ تَحْرِيرَ مَجَلَّةِ هِجَانِيَّةٍ دُونَ أَنْ تَعْلَنَ عَنِ اسْمِهَا، وَكَانَتْ هِيَ أَهْمَ مَحَرَّرِيهَا. وَمِنْ صُورِهَا الْأَدْبِيَّةِ صُورَةٌ وَصَفَتْ مُنَافِقًا فِي الدِّينِ يَحْضُرُ الْقُدَّاسَ يَوْمِيًّا، وَيَشْعَلُ الشَّمْعَ أَمَامَ الصُّورِ الْمُقَدَّسَةِ، وَيَتِمُّ بِالصَّلَاةِ فِي فَنَاتِ مُتَقَطَّةٍ، وَلَكِنَّهُ يَغْشَى التَّجَارَ، وَيَفْتَرِي عَلَى الْجِيرَانِ، وَيَضْرِبُ الخَدْمَ، وَيَنْدُدُ بِالرَّذِيلَةِ الْفَاشِيَّةِ وَيَتَحَسَّرُ عَلَى الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ الطَّيِّبَةِ (91). أَمَّا حِكَايَةُ الْجِنِّ الَّتِي كَتَبَتْهَا كَاتَرِينَ، وَاسْمُهَا "الْأَمِيرُ خَلُورُ" فَتَحْكِي عَنِ شَابٍ خَاضَ مَغَامِرَاتٍ خَطِرَةً بَحْثًا عَنِ وَرْدَةِ خِرَافِيَّةٍ بِلَا شُوكٍ، لِيُكْشَفَ فِي النِّهَايَةِ أَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ وَرْدَةٌ كَهَذِهِ إِلَّا الْفُضَيْلَةُ؛ وَقَدْ أَصْبَحَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ مِنْ عَيُونِ الْقِصَصِ فِي الْأَدَبِ الرَّوسِيِّ، وَتُرْجِمَتْ إِلَى لُغَاتٍ كَثِيرَةٍ؛ وَكَانَتْ

صفحة رقم : 13634

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> المرأة

اثنتان من مسرحياتها مآسي تاريخية تقلد شكسبير؛ ومعظمها فكاهيات بسيطة تسخر من المشعوذين والمغفلين والبخلاء والمتصوفين والمسرفين، وتهزأ بكالبيسترو، والماسون، والمتعصبين الدينيين. هذه التمثيليات كان يعوزها الدقة والصفاء، ولكنها أبهجت الجماهير مع أن كاترين أخفت أنها مؤلفتها، وقد وضعت هذه العبارة على ستار المسرح الذي شيده في الهرمتاج "إنه يهذب العادات بالضحك"؛ وكان هذا خير تعبير عن هدف كوميدياتها. أما أفضل مسرحياتها، واسمها "أوليج" فكانت تتابعاً رائعاً لمشاهد من تاريخ روسيا، أشاع فيها الحيوية سبعمئة مؤد في الرقصات والباليهات والألعاب الأولمبية. وكانت جل إنتاج كاترين الأدبي يراجع السكرتيرين، لأنها لم تتمكن قط من الهجاء أو النحو الروسي، ثم أنها لم تأخذ هوايتها للتأليف مأخذ الجد الشديد؛ ولكن الأدب استمد الشجاعة من قوتها الإمبراطورية وأضفى على ملكها عظمة نهائية ومجداً تشوبه الشوائب.

صفحة رقم : 13635

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> الأدب

8- الأدب

أخذت روسيا تشعر بعدم نضجها الفكري، فراح جيش من المؤلفين يقلدون في تواضع النماذج الأجنبية، أو يترجمون آثاراً حظبت بالشهرة في فرنسا أو إنجلترا أو ألمانيا. ووجدت كاترين بخمسة آلاف روبل من جيبها الخاص لتشجيع هذا السيل الدخيل، وترجمت هي نفسها قصة "بليزير" لمارمونتيل. فلما تحمس الروس للمشروعات العريضة ترجم

رحمانينوف، أحد ملاك الأراضي في تامبوف، أعمال فولتير؛ وترجم فيرفكين، رئيس كلية قازان، إلى الروسية "موسوعة" ديرو. وترجم غير هؤلاء شكسبير والكلاسيكات اليونانية واللاتينية، "وأورشليم المحررة" لتاسو... أما أنجح شعراء العهد فهو جافريل رومانوفتش درازفين. ولد الأسرة رقيقة الحال في أورنبيرج الشرقية، وكان الدم التتاري يجري في عروقه، فخدم في فوج بريوبرازنسكي عشرة أعوام، ورأى كاترين ترقى إلى ذري السلطة، وشارك في إخماد فتنة بوجاشيف ضابطاً في الجيش، وشق طريقه صعوداً إلى عضوية مجلس الشيوخ، وحين لاحظ درازفين أن الإمبراطورة

صفحة رقم : 13636

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> الأدب

أطلقت اسم "فليتسا" على أميرة خيرة في قصة "الأمير خلور"، أطلق هذا الاسم في قصيدة عاطفية شهيرة (1782) على "الملكة الشبيهة بالآلهة لقبيلة قرغيز-قازاق" وتوسل إلى هذه السلطانة قائلاً "علميني كيف أجد الورد التي لا شوك لها... وكيف أعيش حياة تجمع بين اللذة والاستقامة" (92). وحين ناجى الشاعر فليتسا بأن "من قلمها تفيض السعادة على كل البشر الفانين" كان يمتدح كاترين على نحو واضح. وحين لام نفسه "على النوم حتى الظهر، وتدخين التبغ، وشرب القهوة... وجعل الدنيا ترتعد لنظراتي... والانغماس في ولائم فاخرة على مائدة تتألق بالفضة والذهب"، عرف البلاط كله أن هذه غمزة أراد بها بوتكين. وقد ارتفع درازفين إلى قمة النشوة في مديح "الإمبراطورة" فليتسا، التي "تخلق النور من الظلمات، ولا تؤذي أحداً، وتقضي عن الهنات، وتدع الناس يتكلمون كما يشاءون، وتكتب القصص الخرافية لتعلم شعبها، وتعلم خور الأبجدية" (أي حفيدها ألكسندر). ويختتم الشاعر بقوله: "أتوسل إلى النبي العظيم أن يسمح لي بلمس تراب قدميك، وأن أستمتع بذلك الجدول العذب جدول ألفاظك ولحظك. أني أتضرع إلى قوى السماء أن تنشر أجنحتها الزرقاء وتحرسك في الخفاء... وأن يسطع صيت أعمالك في الأجيال القادمة سطوع النجم في السماء" (93). وأكد درازفين أنه لا يطمع في جزاء على كل هذا المديح العطر، ولكن كاترين رفته، وما لبث أن قرب منها قرباً بصره بعيوبها؛ فكف عن كتابة المدائح. واتجه إلى عرش أسمى ونظم "قصيدة غنائية للإله"، مهنئاً إياه تعالى على كونه "ثلاثة-في-واحد" وعلى حفظه السماوات في مثل هذا النظام الجميل. وكان أحياناً يهبط إلى الميتافزيقا، ويردد برهان ديكارت على وجود الله فيقول: "أنا بالطبع موجود، وإذن فأنت موجود" (94). وقد ظلت هذه القصيدة الغنائية نصف قرن لا ينافسها شعر في شعبيتها حتى جاء بوشكن.

وقد فاجأ دنيس إيفانوفتش فون فيزين العاصمة بكوميديتين رشيقتين هما "اللواء" و "القاصر". ونجحت الثانية نجاحاً كاملاً حتى أن بوتكين نصح المؤلف قائلاً "مت الآن، أو لا تكتب شيئاً بعد اليوم" بمعنى أن أي شيء يكتبه بعد هذا سيضعف من شهرته (59). وقد فض فيزين النصيحة ورأى

صفحة رقم : 13637

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> الأدب

تحقيق النبوءة التي احتوتها. وفي سنته الأخيرة جاب غربي أوروبا وأرسل إلى وطنه بعض رسائل ممتازة احتوت إحداهما نبوءة فيها رنين الافتخار "نحن (الروس) بادئون، أما هم (يقصد الفرنسيين) فمنتهون" (96). وأطرف شخصية في أدب عصر كاترين هو نيكولاي إيفانوفتش نوفيكوف. فقد تطور هذا الفتى بعد أن طرد من جامعة موسكو لكسلفه وتخلفه ليصبح رجلاً ذا نشاط ذهني لايني. ففي الخامسة والعشرين (1769)، في سانت بطرسبرج، رأس تحرير مجلة "الدبور" التي أطلق عليها هذا الاسم بحيث شيطاني ليعارض دورية سوماروكوف "النحلة النشيطة". وقد هاجم نوفيكوف بأسلوبه المرح الفساد الذي استشرى في الحكومة، وهاجم الإلحاد الفولتيري السائد في الطبقات العليا لأنه مدمر للأخلاق الشخصية؛ وامتدح بالمقارنة ما افترض وجوده من إيمان الروس المسلم وأخلاقهم المثالية قبل بطرس الأكبر. "وكان قدامى الحكام الروس قد توقعوا أن إدخال الفنون والعلوم سيقضي قضاءً مبرماً على أئمن كنز يملكه الروس وهو أخلاقهم" (97). هنا أيضاً كان روسو يخوض حرباً مع فولتير. وحدثت كاترين "الدبور" بنظرات متجهمة، فحتجت في 1770. وفي 1775 انضم نوفيكوف إلى الماسون الأحرار، الذين كانوا ينزعون في روسيا إلى الغيبية، والتقوية، والأوهام "الروزكروشيية" بينما اخوانهم في فرنسا يدعون الثورة. وفي 1779 انتقل إلى موسكو، واضطلع بأعمال مطبعة الجامعة، ونشر في ثلاث سنوات من الكتب عدداً يفوق ما أخرجته تلك المطبعة في أربع وعشرين سنة. وحصل بمعونة مالية من صديق له على مزيد من المطابع، وكون داراً للنشر، وفتح مكتبات لبيع الكتب في جميع أرجاء روسيا، وأذاع نشر إنجيله في الدين والإصلاح. وأسس المدارس، والمستشفيات، والمستشفيات، والمستشفيات النموجية للعمال. فلما أحالت الثورة الفرنسية كاترين من حاكمة مستبدة مستتيرة إلى حاكمة

صفحة رقم : 13638

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> الأدب

مستبدة مذعورة، خشيت أن يكون نوفيكوف بسبيل قلب النظام القائم. فأمرت بلاتون، مطران موسكو، أن يفحص أفكار نوفيكوف. وكتب الحبر يقول: "أضرع إلى الله الواسع الرحمة أن يكون هناك مسيحيون مثل نوفيكوف، لا في القطيع الذي وكله الله وأنت إلى فحسب، بل في العالم بأسره" (98). ولكن الإمبراطورة التي ظلت على ربيبتها رغم ذلك أمرت بسجن نوفيكوف في قلعة شلوسلبورج (1792). هناك ظل حببياً حتى ماتت كاترين. فلما أفرج عنه بولس الأول اعتكف في ضيعته بتخفين، وأنفق سنيه الأخيرة في التقوى وأعمال البر. أما ألكسندر نيكولايفتش رد شتشفيف فقد لقي حظاً أشد عتاراً. أوفدته كاترين إلى جامعة ليبزج، فتعرف إلى بعض أعمال جماعة الفلاسفة، وأثر فيهبونوع خاص كتاب روسو "العقد الاجتماعي" كما أثر فيه فضح رينال لوحشية الأوربيين في استغلال المستعمرات وتجارة الرقيق. وعاد إلى سانت بطرسبرج وهو يضطرم بالمثل الاجتماعية، فلما وكلت إليه إدارة الجمر ك تعلم الإنجليزية ليتعامل مع التجار البريطانيين، ودرس الأدب الإنجليزي، وأثر فيه خاصة كتاب ستيرن "رحلة عاطفية". وفي 1790 نشر كتاباً من عيون الأدب الروسي اسمه "رحلة من سانت بطرسبرج إلى موسكو". وقد أقر الكتاب بالإيمان القويم، ولكنه ندد بخدع القساوسة التي يحتالون بها على سداجة الشعب؛ وقبل النظام الملكي، ولكنه برر الثورة على الحاكم الذي ينتهك "العقد الاجتماعي" بتجاهله للقانون. ووصف تمزيق نظام التجنيد الإيجاري لأوصال السر، وبغي السادة على أقتانهم. وقال راد شتشفيف أنه أخبر في أحد الأماكن بنبأ مالك هناك عرض ستين فلاحاً عزراء. ثم شهر بالرقابة ودافع عن حرية الصحافة. ولم يكن داعية للثورة، ولكنه طلب التفهم الرحيم لمن يدعون إليها. وناشد النبلاء والحكومة إنهاء القنية. "فلترق قلوبكم أيها القساة؛ حطموا أغلال أخوتكم، وافتحوا سجون الرق. إن للفلاح الذي يهبنا العافية والحياة الحق في التصرف في الأرض التي يفلحها" (99).

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> الأدب

ومن عجب أن الرقيب أجاز الكتاب. ولكن كاترين خافت في 1790 أن يحدو شعبها حذو الثورة الفرنسية. فدونت ملاحظة بضرورة عقاب مغتصب العذارى الستين، ولكنها أمرت بمحاكمة راد شتشفيتش بتهمة الخيانة. ووجدت في كتابه فقرات عن اقتحام الحصون وثورة الجنود على قيصر قاس، ومدائح للإنجليز لمقاومتهم ملكاً ظالماً. فحكم مجلس الشيوخ على المؤلف بالإعدام؛ وخففت كاترين الحكم إلى النفي عشر سنين في سيبيريا. وسمح الإمبراطور بولس الأول لراد شتشفيتش بالعودة من المنفى (1796)، ثم دعاه ألكسندر الأول إلى سانت بطرسبرج (1801). وهناك انتحر بعد سنة، لأنه ظن دون مبرر أنه سينفي ثانية. ومصيره ومصير نوفيكوف من الوصمات الكثيرة التي تلطخ عهداً رائعاً.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> الفن

9- الفن

صنعت كاترين للفن أكثر قليلاً مما صنعه للأدب، لأن الفن لا يستهوي غير الطبقات العليا، ولا يقرع ناقوس الثورة. ولكن الموسيقى الشعبية كانت ثورية دون قصد منها، لأن كلها تقريباً تألف من أغان حزينة في مقام صغير وبمصاحبة شاكية باكية، لا تحكي قصة القلوب التي انفطرت حباً فحسب، بل الأنفس التي براها الكد والكدر. ونذر أن سمع النبلاء تلك الأغاني، ولكنهم استمتعوا بالأوبرات الإيطالية التي جلبها إلى سانت بطرسبرج جالوبي، وبايزيللو، وسالبيري وتشيماروزا، الذين كانت الدولة تدفع أجورهم كلهم، أما كاترين فلم تكون شديدة الحب للأوبرا. قال "لا أستطيع في الموسيقى أن أميز نغمات غير نغمات كلاسي التسعة، التي يشترك كل منها بدوره في شرف الوجود في حجرتي، والتي أستطيع التعرف على صوت كل كلب منها عن بعد" (100). ثم اعترفت أيضاً أنها لا تملك القدرة على فهم الفن. وقد بذلت وسعها لتربي هذا الفهم في روسيا. فوفرت المال الذي مكن بتسكي من أن يدير بالفعل (1764) عجلة أكاديمية الفنون التي أنشئت أيام اليزابث (1757). واشترت روائع الفن المعترف بقيمتها في الخارج وعرضتها في قاعات تحفها،

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> الفن

فدفعت 180.000 روبل ثمناً لمجموعة الكونت فون برول في درسدن، و40.000 جنيه ثمناً لمجموعة السير روبرت ولبول في هوتن هول، و440.000 فرنك لمجموعة شوازيل، و460.000 لمجموعة كروزا. وقد عقدت بهذا كله صفقات رابحة دون أن تدري، لأن هذه المجموعات التي التقطتها من هنا وهناك ضمت ألفاً ومائة لوحة من أعمال رفائيل، وبوسان، وفانديك، ورمبرانت، وغيرها من التحف الخالدة التي زادت قيمتها مع الزمن وهبوط العملة. واستطاعت من طريق جريم وديرو (الذين كانت تتابع نشاط صالونيهما باهتمام) أن تكلف برسم اللوحات فنانين فرنسيين-أمثال فرنيه، وشاردان، وهودون-ونسخت لها كطلبها بالحجم الطبيعي لوحات جصية من أعمال رفائيل في الفاتيكان وبنيت قاعة خاصة بها في الأرميتاج.

ولم تكلف الفنانين الوطنيين إلا بالقليل، لأن ذوقها الفرنسي لم يجد في فن جيلها الروسي غير القليل مما له قيمة باقية.. على أنها قدمت المال لتعليم وإعالة الطلاب في أكاديمية الفنون وأوفدت عدداً منهم للدراسة في غربي أوروبا. وفي تلك الأكاديمية تخرج رسام أحداث التاريخ أنطون لوزنكو، ورساما الأشخاص ديمتري ليفتسكي وفلاديمير بوروفيكوفسكي. أما لوزنكو فقد قضى خمس سنين في باريس وثلاثاً في روما ثم عاد إلى سانت بطرسبرج (1769) ليعلم في الأكاديمية. وقد أثار ضجة بلوحته المسماة "فلاديمير أمام روجنيدا"، ولكنه ربما لفداحة واجباته الأكاديمية-أخفق في أن ينتج الروائع المنتظرة منه، ثم اختطفه الموت وهو في السادسة والثلاثين (1773). وأما ليفتسكي فقد استخدمته كاترين ليرسم بعض الشباب اللاتي كن يدرسن بمعهد سمولني؛ والنتيجة شاهد بجمالهن الرائع. وقد سترت اللوحة التي صور فيها كاترين بدانتها تحت أردية فضفاضة. كذلك جلست لتصورها مدام فيجيه لبرون، وكانت من بين الفنانات الفرنسيات الكثيرات اللاتي دعتهن كاترين لإضفاء الرشاقة الفرنسية على الفن الروسي.

وأعظم فنانيتها الذين استقدمتهم كان فالكونيه. قدم في 1766، وأقام في روسيا اثنتي عشرة سنة. وقد طلبت إليه كاترين أن يصمم ويصب

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> الفن

بالبرونز تمثالاً لبطرس الأكبر ممطياً جواده. وكان قد جلب معه شابة تدعى ماري-آن-كوللو، كانت النموذج لرأي التمثال الضخم. وتحدى فالكونيه قوانين الفيزياء بتمثيله الحصان يقفز في الهواء، وقائمته الخلفيتان فقط تلمسان أرضاً صلبة، وهي صخرة ضخمة جلبت من كاريليا لترمز إلى المقاومة الهائلة التي تغلب عليها بطرس؛ وتحقيقاً للتوازن أظهر فالكونيه حية نحاسية رمزاً للحسد-تلدغ ذيل الحصان. وقد احتفظت هذه الرائعة الفنية بتوازنها بينما تغيرت

سانت بطرسبرج إلى بتر وجراد ثم إلى لنجراد. واستغرق فالكونيه في هذا العمل وقتاً أطول مما توقعته كاترين؛ ففقد اهتمامها به، وأهملت المثال، فعاد إلى باريس وقد خاب أملها فيه، وفي روسيا، وفي الحياة.

وفي 1758 وقد نيكولا-فرانسوا جيبه من فرنسا ليعلم النحت في الأكاديمية. وقد نبغ ثلاثة من تلاميذه في عهد كاترين: تشوين وكوزلوفسكي وشخيدرين. أما تشوين فقط كلفه بوتمكن بنحت تمثال "كاترين الثانية" لقاعة نصر نارويدا المقبية (الروتندا)؛ وقد وصف الخبراء التمثال بأنه "عديم الحياة بارد(101)"، وكذلك يبدو التمثال الذي نحته تشوين لبوتمكن. أما كوزلوفسكي فقد انتهى إلى مثل هذا الجمود في المقبرة التي نحتها للمرشال سوفوروف، وحتى في تمثاله لإله الحب كيويبيد. أما شخيدرين فجل أعماله أنتجها في عهد ألكسندر الأول: فإلى عام 1812 ينتمي تمثاله المسمى "الكرتيدات يسندن الكرة السماوية" -وترى فيه امرأة تحمل الدنيا- وقد تخصص إيفان بتروفتش مارتوس في التماثيل الجنائزية، وحفلت الجبانات في بطرسبرج بتمائله "الباكية"؛ وقد قيل عنه أنه "أبكى الرخام" وقد تخلف النحت الوطني إلا في تقليده للطرز الأجنبية. وكانت الكنائس الأرثوذكسية تحرم التماثيل وقنع النبلاء بالفنانين الذين يعثرون عليهم بين أقدانهم.

ولكن المعمار ازدهر في عهد كاترين، لأنها صممت على أن تترك بصمتها على عاصمتها. قالت "إن المباني العظيمة تعلن عظمة الحكم ببلاغة لا تقل عن بلاغة الأعمال العظيمة"(102). وكتبت في 1779 تقول "أنت تعلم أن هوس البناء أقوى اليوم عندنا مما كان في أي وقت مضى، ولم يهدم

صفحة رقم : 13643

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> الفن

زلزال قط عمائر قدر العمائر التي شيدناها... وهذا الهوس شيء لعين، فهو ينضب المال، وكلما بنينا ازدادنا رغبة في البناء، إنه مرض كالسكر بالخمير"(103). ومع أنها قالت لفالكونيه "إني لا أعرف حتى كيف أرسم" فقد كان لها رأيها الخاص في الفن، أو قل رأى تأثير بالحفائر الرومانية في هركو لانيوم وكتب كابلوس وفنكلمان. فولت ظهرها للباروك المزوق والروكوكو الزاهي، وهما طرازان سادا في عهد اليزابث، وفضلت عليهما الطراز الكلاسيكي الجديد الأكثر بساطة ونقاء. وقد عزا إليها بعض معاصريها فضل إصدار التعليمات الواضحة المحددة والرسوم التخطيطية التمهيدية لمعماريها(104).

فلما افتقدت الفنانين الوطنيين الذين يحققون لها أفكارها، ولت وجهها شطر غربي أوروبا التماساً لرجال ورثوا التقاليد الكلاسيكية. وهكذا قدم جان باتست فالان دلا موت، الذي شيد لها على نهر نيفا قصر أكاديمية الفنون (1765-72) وله واجهة بطراز النهضة منأجر مكسو ورواق معمد كلاسيكي، ودخله سلم نصف مستدير فخم يفضي إلى قاعة مستديرة تعلوها قبة. وبنى فلان ملحقاً للقصر الشتوي هي الأرميتاج الشهير، الذي كانت كاترين تراه ملاذاً تحتمي به من مراسيم البلاط، ولكنه أصبح قاعة تحفها، وهو اليوم من أهم متاحف العالم. وقالت كاترين في وصفه لجريم عام 1790 "أنه خلوتي الصغيرة، في موقع مناسب بحيث لا يكلفني الذهاب إليه أو الإياب منه إلى حجرتي أكثر من ثلاثة آلاف خطوة.. هناك أجول بين طائفة من الأشياء التي أحبها وأز هو بها، وتلك الجولات الشتوية التي تحفظ على عافيتي"(105).

ومن فرنسا أيضاً قدم الاسكتلندي تشارلز كاميرون، الذي درس الزخرفة الكلاسيكية في وطنه. وقد ابتهجت كاترين بالإشراق والرقعة اللذين كان يزين بهما بالفضة واللاكه والزجاج والبشيب والعقيق والرخام المتعدد الألوان-الجناح الخاص الذي احتفظت به لنفسها ولعشاقها وكلابها في "القصر العظيم" بتسارسكو سيلو. كتبت تقول "لم أر قط ضرباً لهذه

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> الفن

الحجرات حديثة الزخرف؛ ولم أمل قط طوال الأسابيع التسعة الأخيرة من تأملها" (106). وحول هذا القصر خططت لها حديقة بالطراز "الطبيعي" و "الإنجليزي"، وصفتها في خطاب إلى فولتير فقالت: "إنني الآن أهيمن حياً بالحدائق الإنجليزية الطراز، بخطوطها القصيرة، والمنحنية، ومنحدراتها المدرجة في رفق، وبركها وبحيراتها... إنني شديدة النفور من الخطوط المستقيمة؛ وباختصار أقول أن الهوس الإنجليزي (الانجلومانيا) يسيطر على هوسي بالنبات" (107). وقد بنى كاميرون لولدها بولس وزوجته الثانية الفاتنة في بافلوفسك (وهي صاحبة أخرى من ضواحي العاصمة) قصرأ بطراز الفيلا الإيطالية؛ هنا حفظ الغراندوق وماريا فيودوروفنا التحف التي جمعها في رحلاتهما في غرب أوروبا.

ومن إيطاليا أقبل أنطونيو رينالدي، الذي بنى قصرين باذخين أهدتهما كاترين لجريجوري أورلوف، قصر الرخام على نهر نيفا، وقصر جاتشينا قرب تسارسكوسيلو، الذي أصبح المسكن المفضل عند بولس الأول. ومن جاء جاكومو كورانجين الذي استهوته المعابد اليونانية في باسيتوم وروائع بالاديو في قتشنتشا. وفي 1780 عرض على كاترين عن طريق جريم تصميمات ونماذج لأبنية شتى كان يؤمل تشييدها. وافتتحت بها كاترين ومنذ ذلك التاريخ حتى 1815 شيد كورانجي في سانت بطرسبرج أو على مقربة منها العدد الوفير من المباني بالطراز الكلاسيكي، مسرح الأرميتاج، ومعهد سمولني (الذي ألحقه بدير سمولني في راستربيلي)، ومصرف الإمبراطورية، ومصلى الطريق المالطية، والقصر الإنجليزي في بيتز هوف، وقصر ألكسندر في تسارسكو سيلو. وقد صمم هذا القصر لحفيد كاترين الذي أصبح فيما بعد ألكسندر الأول، والذي انتقل إليه في 1793، بعد الفراغ من تشييده بعامين. "إنه من روائع معمار القرن الثامن عشر" (108).

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> الفن

ولكن ألم يكن هناك معماريون روس ينفقون روبلات كاترين؟ بلى. فقد حداها الأمل في ترك أثر يخلد ذكرها في موسكو إلى أن تكلف فاسيلي بازينيف بتصميم "كرملن" من الحجر ليحل محل كرملمن إيفان الأكبر المبني بالأجر. وصمم بازينيف قصرأ هائلاً لو قام لتضاعل بالقياس إليه قصر فرساي؛ والذين رأوا نموذج الخشبي-الذي تكلف سنتين ألف روبل-تعجبوا من براعته. غير أن الأساسات التي أرسيت ليقيم عليها هبطت بهبوط التربة بفعل نهر موسكو، فنكصت كاترين عن المغامرة على أنها دبرت المال الذي أتاح لإيفان ستاروف أن يبني على ضفة نيفا اليسرى قصر تارويدا، وأهدت هذا القصر المنيف إلى بوتمكين تخليداً لفتح القرم.

وأياً كانت تكلفة نفقات المباني التي شيدتها كاترين فإنها حققت هدفها. كتب ماسون المعاصر لها يقول: "إن الرجل الفرنسي بعد دورانه على شواطئ بروسيا الماحلة وشقه سهول ليفونيا المقفرة التي لم تزرع، تأخذه الدهشة والطرب

إذ يعثر مرة أخرى وسط بيداء مترامية على مدينة كبيرة فخمة، تزخر بمجتمع راق وبأسباب الترويح والفنون وألوان الترف التي خالها لا توجد إلا في باريس" (109). أما الأمير دلين فبعد أن شهد أوربا كلها تقريباً خلص إلى أنه "رغم ما في كاترين من عيوب، فإن الصروح التي شيدتها، العامة منها والخاصة، تجعل سانت بطرسبرج أبداع مدينة في العالم" (110) ولا عجب، فقد حول لحم عشرة ملايين من الفلاحين ودمهم إلى طوب وحجر.

صفحة رقم : 13646

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> خاتمة المطاف

10- خاتمة المطاف

لو أن كاترين سئلت لبينت كما هو دأب الحكام طوال العصور والأزمان-أنه ما دام الموت حقاً على البشر على أية حال، فلم لا يسخر الحكام عبقرية الرجال لتوجيه هؤلاء الأحياء المطاردين والبشر المقضي عليهم لا محال بالموت، لجعل الدولة قوية، وجعل مدنها عظيمة؟ لقد عودتها سنوات السلطان، وتحديات الثورة والحرب، وتقلبات النصر والهزيمة،

صفحة رقم : 13647

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> خاتمة المطاف

أن تطبيق آلام الغير دون أن تجفل، وأن تغضي عن استقلال الأقوياء للضعفاء باعتباره شراً لا قبل لها بعلاجه. وقد أرهبتها الثورة الفرنسية بعد ما أزعجها العديد من المؤامرات لخلعها وأخافتها فتنة بوجاشيف. وقد أطاقتها راضية حين توقعت ألا تكون أكثر من إطاحة بأرستقراطية عاطلة وحكومة عاجزة؛ ولكن حين أكره حشد من رعاك باريس لويس السادس عشر وماري انطوانيت على ترك فرساي وسكنى التويلري وسط جماهير أقل زمامها-و حين أعلنت الجمعية التأسيسية أنها صاحبة السلطة العليا، وحين ارتضى لويس أن يكون الأداة المنفذة لأوامرها لا غير-عندها ارتعدت كاترين فرحاً من التشجيع الذي أعطى بالمثل للذين سعوا إلى أن يفعلوا نظير هذا في روسيا. فسمحت للأكليروس بأن يحظروا نشر أعمال فولتير التي كانت يوماً ما موضع حيبها(111). ثم حرمت هي ذاتها بعد قليل جميع المطبوعات الفرنسية؛ ونقلت تماثيل فولتير النصفية من قاعاتها إلى حجرة لسقط المتاع (1792)(112) ثم نفت المثالي راد يشتشيف (1790)، وسجنت نوفيكوف المشرب بروح خدمة المجتمع (1792)، وفرضت رقابة تفتيشية على الأدب والمسرحيات. فلما قطع رأساً لويس السادس عشر وماري أنطوانيت بالجيلوتين (1793) قطعت صلاتها

مع الحكومة الفرنسية، وحضت الملكيات الأوروبية على تأليف تحالف ضد فرنسا. ولك تتضمن هي ذاتها لذلك التحالف، بل استعملته لتشغل به الدول الغربية ريثما تتم ابتلاعها لبولنذة. وقد قالت لأحد دبلوماسيها "إن كثيراً من مشروعاتي لم يستكمل بعد، ويجب شغل بلاطي برلين وفيينا حتى يتركنا طلقاء بغير قيود" (113). على أن آثاراً ضئيلة تخلفت من تحررها القديم وبقيت حتى 1793. ففي ذلك العام أبلغها أحد الحاشية أن فردريك-سيزار دلاهارب، الذي كان المعلم الخاص لحفيديها، جمهوري عنيد. فأرسلت في طلبه وأنبأه بالخبر، فأجاب "إن جلالتك كنت على علم قبل أن تكلي إلى تعليم الغرانديين أنني سويسري، وإذن فجمهوري" ثم رجاها أن تمنح تلميذيه، وأن

صفحة رقم : 13648

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> خاتمة المطاف

تحكم على عمله من سلوكهما. ولكنها كانت تعلم كم أحسن تعليمهما، فقالت له "سيدي، لنكن يعقوبياً أو جمهورياً أو ما شئت، إنني مؤمنة بأنك رجل أمين، وهذا يكفي. فابق مع حفيدي واحتفظ بكامل تقتي، وعلمهما بما عهدته فيك من غيرة" (114).

وفي وسط هذا الضجيج اتخذت آخر عشاقها (1789) وهو بلاتون زوبوف. وكان في الخامسة والعشرين، وهي في الحادية والستين، وكتبت لعشيقتها "الشرفي" بوتكين تقول: "عدت إلى الحياة كأنني ذبابة خدرها البرد" (115). واقترح "تلميذها" الجديد هجوماً مثلث الشعب على تركيا: جيش روسي بقيادة أخيه فاليران ذي الأربعة والعشرين ربيعاً يعبر القوقاز إلى فارس ويقطع كل تجارة الياوس بين تركيا والشرق؛ وجيش ثان بقيادة سوفوروف يتغلغل في البلقان ليحاصر الأستانة؛ ثم أسطول البحر الأسود الروسي، تحت إمرة الإمبراطورة نفسها ليتسلط على اليوسفور. وبعد سنوات من الإعداد بدئ بتنفيذ هذه المغامرة الملحمية (1796) واستولى الروس على درينت وباكو؛ وتطلعت كاترين إلى انتصارات تكمل برنامجها وتتوج حياتها.

وفي صباح 17 نوفمبر 1796 بدت مرحلة كالعادة. وبعد الفطور اعتكفت في حجرتها. ومضى وقت ولم تظهر ثانية، ففكرت خادمتها الباب، فلما لم تجب دخلت، فوجدت الإمبراطورة منبطحة على الأرض، صريعة انفجار شريان في الدماغ، وفصدت مرتين، وأفانت لحظة، ولكنها فقدت النطق. وفي العاشرة من مساء ذلك اليوم لفظت أنفاسها. وأحس أعداؤها أنها لا تستحق ميتة رحيمة كهذه. ولم يغفروا لها قط تلك التناقضات بين مزاعمها التحررية وحكمها الاستبدادي، وضيقها بالمعارضة، وإخفاقها في تنفيذ الإصلاح المقترح للقانون الروسي، واستسلامها للنبلاء في توسيعها للفتنة. ولم تحمد لها انتصاراتها تلك الأسر التي أفقرتها الضرائب الباهظة، أو التي تكلت أبناءها بسبب حروبها. ولكن الشعب في جملته صفق لها لأنها مدت روسيا إلى حدود أرحب وأكثر أمناً. لقد

صفحة رقم : 13649

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> كاترين الكبرى -> خاتمة المطاف

أضافت 200.000 ميل مربع لمساحة روسيا، وفتحت ثغوراً جديدة لتجارة روسيا، وزادت السكان من تسعة عشر إلى ستة وثلاثين مليوناً. وكانت عديمة الضمير في دبلوماسيتها- ربما أكثر قليلاً من معظم حكام ذلك العهد في ابتلاعها بولندا.

أما أعظم منجزاتها فهو مواصلتها جهود بطرس الأكبر لإدخال روسيا في نطاق الحضارة الغربية. وبينما كان بطرس يفكر في هذا الهدف بلغة التكنولوجيا، كانت كاترين تفكر فيه أولاً بلغة الثقافة، فاستطاعت بقوة شخصيتها وشجاعتها أن تنتزع الطبقات المتعلمة في روسيا من العصور الوسطى وتدفعها إلى فلك الفكر الحديث في الأدب والفلسفة والعلوم والفنون. وكانت بين أندادها من الحكام المسيحيين (باستثناء فردريك الثاني غير المسيحي) سبابة إلى توطيد التسامح الديني. وقد عقد مؤرخ فرنسي مقارنة فضلها فيها على الملك الأعظم (لويس 14) قال "إن سماحة كاترين، وبهاء حكمها، وفخامة بلاطها ومنشأتها، وأثارها، وحروبها- هذا كله كان بالنسبة لروسيا بالضبط ما كأنه عصر لويس الرابع عشر بالنسبة لأوروبا. غير أن كاترين إذا نظرنا إليها كفرد وجدناها أعظم من هذا الملك. ذلك أن الفرنسيين هم الذين بنوا مجد لويس، أما كاترين فهي التي بنت مجد الروس. ولم يتح لها كما أتيج له ميزة حكم شعب مهذب، ولا أحيطت منذ طفولتها بشخصيات عظيمة مثقفة" (116).

وفي تقدير مؤرخ إنجليزي أن كاترين "هي الحاكمة الوحيدة التي فاقت اليزابث ملكة إنجلترا كفاءة، وهي تعدلها من حيث الأهمية الباقية لأعمالها" (117). وقال مؤرخ ألماني "كان كل ما فيها "كائناً سياسياً"، لا ضريب لها من جنس النساء في التاريخ الحديث، ولكنها في الوقت ذاته امرأة خالصة، وسيدة عظيمة" (118)، ويجوز لنا أن نطبق عليها المبدأ السامح الذي وضعته جوتة: كانت عيوبها عدوى انتقلت إليها من جيلها أما فضائلها فكانت من صنعها هي."

صفحة رقم : 13650

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولندا -> نظرة عامة

الفصل التاسع عشر

اغتصاب بولندا

1795-1715

1764-1715

كانت الجغرافيا، والعرق، والدين، والسياسة، هي الأعداء الطبيعية لبولندا. ذلك أن هذا القطر كان يعدل فرنسا اتساعاً، إذ امتد عام 1715 من الأودر غرباً إلى ما يقرب من سمولنسك وكيف شرقاً، ولكن لم يكن له حد طبيعي من جبال أو نهر عريض-على أي جبهة ليقبه شر الغزو؛ وقد اشتق اسم بولندا من كلمة "Pole" وهو السهل. ولم يكن لها سوى منفذ واحد إلى البحر-عند دانترج، أما الفستولا الذي وجد له مصباً هناك، فلم يكن بالحد الذي يصلح للدفاع ضد بروسيا المجاورة. وقد افتقدت الأمة وحدة العراق، فكانت كثرة البولنديين البالغة 6.500.000 نسمة (1715) في صراع منقطع مع الأقليات الألمانية واليهودية واللتوانية والروسية؛ وهنا التقى التوتون والسلاف وجهاً لوجه في عداة طبيعي. ولم يكن هناك وحدة دينية: فالأغلبية الكاثوليكية الرومانية تحكم وتظلم "المنشقين" -وهؤلاء هم الآخرون منقسمون في نزاع وخصام بين بروتستانت وروم وأثركس ويهود. ولم يكن هناك وحدة سياسية، لأن سلطة السيادة التي حرص أصحابها على الاحتفاظ بها كانت في يد "السجم" أو "الديت"، المؤلف كله من نبلاء لكل منهم، بمقتضى حق النقض المطلق، سلطة إبطال مفعول أي اقتراح يقترحه الباكون كلهم، وإنهاء أي دورة، أو أي ديت منتخب، إن شاء. أما الملك فينتخبه الديت، وهو خاضع! "مواثيق" يوقعها شرطاً

صفحة رقم : 13651

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولندا -> نظرة عامة

لانتخابه، ولم يكن في استطاعته أن يتبع أي سياسة طويلة المدى وهو مطمئن أقل اطمئنان إلى توريث تاجه لذريته أو تلقى التأييد المتصل. وقد طالب النبلاء بهذه السلطة غير المقيدة على التشريع لأن كلا منهم أراد أن يكون مطلق الحرية في السيطرة على أراضيه وأقنانه. ولكن التقييد وروح الحرية، فما إن تصبح الحرية مطلقة حتى تقضي عليها الفوضى، وتاريخ بولندا بعد جان سوبيسكي كان سجلاً للفوضى. وكان أكثر الأرض يزرعه أقنان يرسفون في قيود ذل إقطاعي لا مغيث لهم منه. وكان السيد الإقطاعي أحياناً رقيقاً بهم، ولكنه كان دائماً مطلق السلطة. وأما أقنانه فلم يدينوا له فقط بجزء المحصول الذي يقدره ويطالبهم به، بل كان لزاماً عليهم أيضاً أن يعطوه من كدهم، دون أجر، عمل يومين أو ثلاثة في ضيعته كل أسبوع. ومن حسن الحظ أن الأرض الجيدة الري كانت خصبة، فوجد الفلاحون ما يكفي لإقامة أودهم، ولكن كوكس وصفهم بأنهم "أشد فقراً وذلاً وشقاءً من أي شعب لاحظناه في رحلاتنا" (1). وكان سادتهم المحليون هم الطبقة الدنيا من النبلاء أو صغار الأعيان (شلاختا)، وهؤلاء الملاك بدورهم كانوا خاضعين لنحو مائة من الأقطاب الذين يملكون أو يشرفون على مساحات شاسعة. وكان صغار الأعيان يشغلون معظم الوظائف التنفيذية في الدولة، وهم من الناحية النظرية يؤلفون الغالبية في مجلس السجم، ولكن السياسة البولندية كانت من الناحية الفعلية صراعاً بين الأقطاب أو أسرهم، الذين يتلاعبون بمجموعات من صغار الأعيان مستعنيين بالنفوذ الاقتصادي أو الرشوة المباشرة (2). وظلت الأسرة في بولندا تحتفظ بأفضليتها البدائية على الدولة. فكان آل رادزيفل، وآل بوتوكي، وآل تشارتوريسكي، كل منهم يترابط أفراداه بعاطفة من التماسك الأسري أوثق من أي رباط قومي؛ هنا كان حب الوطن هو حرفياً احترام

الأب وتبجيله، والأب الأكبر سناً فوق كل شيء. وكانت الأسرة قوية كنظام أو مؤسسة، لأنها كانت وحدة الإنتاج الاقتصادي والتهديب الأخلاقي، فلم يكن هناك نزعة فردانية اقتصادية تشتت الأبناء

صفحة رقم : 13652

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولندة -> نظرة عامة

في أرجاء الوطن؛ والابن يقيم عادة في الضيعة الموروثة، خاضعاً لأمر أبيه ما دام الأب حياً. وزكت الأسرة بفضل وحدة السلطة، هذه الوحدة ذاتها الذي أضعف الدولة افتقادها. وكانت كل ثروة الأسرة تحت إشراف أبوي ممرکز، وفي كثير من الحالات كانت تزداد من عام إلى عام بفضل أرباح الاستغلال والتصدير المعاد استثمارها من جديد، وفي حالات عديدة فاقت ثروة الملك نفسه. وكان عشرون أسرة بولندية في القرن الثامن عشر ينفق كل منها أكثر من 200.000 جنيه في العام على البيت (3). وكانت الأسرة القوية تسمى بيتها بلاطاً، له مستخدموه، وجيشه الخاص، وخدمه الكثيرون، ومظاهر الأبهة الشبيهة بأبهة الملوك؛ من ذلك أن الأمير كارول رادزيفيل، الذي بلغت مساحة أرضه نصف مساحة بولندة، أولم في 1789 وليمة لأربعة آلاف ضيف كلفته مليوناً من الماركات (4). أما أشهر الأسر البولندية قاطبة والتي بلغ من شهرتها أنها كانت تعرف باسم "الأسرة" فقط فهي أسرة تشارتورييسكي. فقد تبوأ مرتبة الإمارة منذ القرن الخامس عشر، واتصلت بصلبة القرابة ببيت جاجيللو، الذي حكم بولندة من 1384 إلى 1572. وقد تزوج الأمير كازيميرز تشارتورييسكي (مات 1741)، نائب مستشار لتوانيا، بايزابللا مورستن، التي أضافت دفعة جديدة من الثقافة الفرنسية إلى الأسرة. وأنجب منها ثلاثة من المشاهير هم: (1) فردريك ميشال تشارتورييسكي، الذي أصبح كبير مستشاري لتوانيا، (2) ألكسندر أوغسطس تشارتورييسكي، الذي أصبح أمير بالاتين لـ "روسيا الحمراء"، (3) فنسطنطينيا التي تزوجت ستانسلاس بونياتوفسكي الأول، وولدت له بونياتوفسكي الثاني، وهو الشخصية المأساوية الكبرى في التاريخ البولندي. ومن مفاخر آل تشارتورييسكي فوق ما تميزوا به أن نزعتهم التحررية نمت بنمو ثروتهم. فقد طالما عرفوا بترفقهم بأقنانهم؛ قال أحد معاصريهم "لو أنني ولدت قناً لوددت أن أكون قناً للأمير ألكسندر أوغسطس تشارتورييسكي" (5). فأنشأوا المدارس للأطفال، وزودوهم بالكتب

صفحة رقم : 13653

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولندة -> نظرة عامة

المدرسية، وبنوا الكنائس والمستشفيات والأكواخ النموذجية. ثم جلبوا إلى ضيعتهم وقصرهم في بولافي (قرب لوبلين) معلمين ودارسين دربوا الشباب أياً كانت طبقتهم، على خدمة الدولة. أما من الناحية السياسية فإن الأسرة عارضت حق النقض المطلق لأنه من شأنه أن يجعل الحكم الفعال ضرباً من المحال. واتحدت ضدهم أسر كثيرة شعرت بأن حق

النقض هو حاميتها الأوحده من الأوتقراطية الممركزة. وكان أفاها أسرة بوتوكي، وزعيمها الأمير فيلكس بوتوكي، الذي كان في استطاعته أن يركب ثلاثين ميلاً في اتجاه واحد دون أن يجاوز أرضه ثلاثة ملايين من الأفدنة في أوكرانيا.

أما الصناعة والتجارة، اللتان شاركتا في القرن السادس عشر في جعل بولندة قطراً عظيماً وفي إثراء مدنها، فقد عطلتهما خصومة ملاك الأرض ومجلسهم النيابي المطيع. فكانت مدن كثيرة بأسرها تقع في نطاق الملكية الخاصة لقطب من الأعيان أثر الزراعة على الصناعة مخافة أن تنشأ طبقة وسطى مستقلة. وكانت منافسة الحرف اليدوية التي ينتجها الأقتان في الضياع قد جرت الكساد على مهرة الصناع في المدن. كتب انطوني بوتوكي في 1744 يقول "إن خراب المدن ظاهر للعيان حتى أن كبرياتها في الدولة - باستثناء وارسو دون غيرها - أشبه بأوكر اللصوص" (6). ففي مدينة لفوف مثلاً كثر النجيل في الشوارع، وأصبحت بعض ميادينها حقولاً مفتوحاً، ومدينة كراكاوا التي كانت يوماً ما من أعظم المراكز الثقافية في أوروبا هبط عدد سكانها إلى تسعة آلاف، وعدد الطلاب في جامعها الشهيرة إلى ستمائة (7).

ويرجع بعض ما أصاب المدن من انحلال إلى عودة الكاثوليك إلى غزو بولندة. فقد كان كثير من البروتستنت المطرودين تجاراً أو صناعاً مهرة، وقد ترك تقلص عددهم في جميع أرجاء بولندة إلا غريبها (حيث بقي ألمان كثيرون) للمسرح البولندي لملاك الأرض، وكان هؤلاء من الكاثوليك الرومان، أو في الشرق من الروم الأرثوذكس أو الموحدين (وهم كاثوليك يمارسون الطقوس الشرقية ولكنهم يعترفون بابا روما).

صفحة رقم : 13654

قصة الحضارة - روسو والثورة - الإسلام والشرق السلافي - اغتصاب بولندة - نظرة عامة

وكان المنشقون أو المخالفون - من البروتستنت والروم الأرثوذكس واليهود، وجملتهم ثمانية في المائة من السكان - محرومين من الوظائف العامة ومن عضوية الديت، وكل الدعاوي المرفوعة ضدهم بنظرها محاكم كاثوليكية خالصة (8). وقد بلغت الخصومة الدينية مبلغاً دفع الجماهير عام 1724، في مدينة تورون (ثورن) التي كان أكثر أهلها من البروتستنت، إلى أن تنتهك قدسية القربان وتدوس على صورة العذراء بعد أن أثار غضبها الشديد مسلك طالب يسوعي. وقد أعدم تسعة من هؤلاء المغيرين. واستجد بروتستنت بولندة ببروسيا، والروم الأرثوذكس بالروسيا، وعرضت بروسيا وروسيا الحماية، ومنها تقدمتا الغزو والتقسيم. أما أخلاق البولنديين فقد شابهت الأخلاق الألمانية على المائدة، والفرنسية في الفراش. وقد أكره الفلاحين على الاكتفاء بالزوجة الواحدة عكوفهم على الأرض والنسل، ولكن هذا الاكتفاء كان عسيراً في العاصمة لجمال النساء و"سلوكهن المغربي" (9)، هؤلاء النساء اللاتي لم يسمحن لتعليمهن الأرقى بأن يقف عقبة في طريق فتنتهن. ويروي أن نساء الطبقة الراقية في وارسو كن من الناحية الجنسية منحلات كنساء باريس (10). ويؤكد لنا بوتياتوفسكي أنه كان بكراً حتى الثانية والعشرين (11)، ولكنه بضيف أن هذه العفة كانت شاذة في طبقته - وكان السكر متوطناً لا يعرف الفوارق بين الطبقات. فهو بين الفلاحين أنساهم في نشوته ما يعانون من فقر أو مشقة أو برد، أما النبلاء فقد سرى عنهم ما يعانون من العزلة والسأم، وفي جميع الطبقات كان الذكور ينظرون إليه لا على أنه رذيلة بل مظهر من مظاهر التميز. وقد كرم القوم يان كومار تشفسكي لأنه استطاع أن يفرغ في جوفة دلواً من الشبانيا في جرعة واحدة دون أن يدور رأسه أو تخونه قدماه. وقد نبه القوم بونياتوفسكي إلى أنه لن يكون محبوباً ما لم يثمل بالشراب مرتين في الأسبوع (12). وكان إكرام الضيف عادة شائعة بين الجميع، ولكن كان يقاس بمقدار الطعام والشراب الذي كان يقدم للضيف. وقد يحدث أن يرهن أحد الأقطاب مدينة يملكها ليدفع نفقات مأدبة.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولنדה -> نظرة عامة

وكان البولنديون المثقفون يصفون على المشهد رونقاً بأزيائهم. أما الفلاح فكان في الصيف يقنع بالقميص والسر اويل إلى الركبة من التيل الخشن، دون جوارب طويلة أو حذاء. وفي الشتاء يدثر نفسه كالحزمة دون مراعاة للون، ولا وقت للزينة، وأما الأعيان الذين يعدون نحو 725.000 فلباسهم الحذاء الطويل والسيوف والقبعة ذات الريشة والرداء الملون من الحرير أو المخرمات، ثم حول الخصر حزام عريض من النسيج المنقوش ذي الألوان الكثيرة. وهذا الزي الذي اعتزوا بقوميته نقلوه عن المسلمين نتيجة اتصال اللتوانيين بالأترك في أوكرانيا، وقد عكس ما كان يحدث أحياناً من تحالف بين بولنדה وتركيا ضد النمسا أو روسيا، وربما عبر عن نصر آسيوي في عادات البولنديين وأخلاقهم. أما من الناحية الثقافية فقد عطل بولنדה من 1697 إلى 1763 عدم مبالاة ملوكها السكسون بالأدب والفن السلافيين، كما عطلها حربان مدمران. ولم تكن الكنيسة الكاثوليكية هم راع للفنون فحسب، بل إنها كانت الموزع للتعليم والأمن الأكبر على نفائس الثقافة والأدب. وقد فرضت حجراً دقيقاً على بولنדה بقيها حركة العلم والفلسفة في الغرب، ولكنها في نطاق حدودها نشرت المعرفة ونمتها. من ذلك أن جوزيف زالوسكي أسقف كييف جمع 200.000 مجلد في وارسو لمكتبته التي تعد من أعظم مكتبات العصر، وفي 1748 فتحتها للجمهور وأهداها للأمة؛ وكان أثناء ذلك يحيا حياة الزهد، وقد ضحى بنفسه في الصراع الناشب ليحفظ على بولنדה استقلالها.

وهو الذي وجه القسيس الشاب المتطلع، ستانسلاس كونارسكي، إلى دراسة التاريخ والقانون وفي 1731 أصدر كونارسكي المجلد الأول من أربعة مجلدات جمعت ونسقت القانون البولندي من كازيمير الأكبر حتى وقته. هذه الأبحاث وغيرها كشف لكونارسكي عن مدى سقوط بولنדה المخزن من حالة الازدهار الذي شهدته أيام النهضة الأوروبية. وقد اقتنع بأن البعث لن يأتي إلا من القمة، لذلك أنشأ في وارسو (1740) "كلية للنبلاء" يتلقى فيها شباب الأشراف تعليماً لا يقتصر على الرياضة واللغات والآداب الكلاسيكية (التي أجاد اليسوعيون تدريسها)، بل يشمل

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولنדה -> نظرة عامة

العلوم الطبيعية واللغات الحديثة. وكان هذا عملاً بطولياً، لأنه لم يكن لديه مال ولا كتب، ولا معلمون ولا تلاميذ، ومع ذلك فقد جعل من كلية النبلاء هذه بعد خمسة عشر عاماً من الكد معهداً ذائع الصيت مرموقاً، وأحد المنابع للإحياء الثقافي في عهد بونياوفسكي ولدستور 1791 المستتير. وقد دعا لإصلاح اللغة البولندية تخليصاً لها من العبارات اللاتينية والبلاغة المزوقة؛ واحتجت الأمة، ولكنها تعلمت. ثم توج كونارسكي أعماله بإصداره في بولنדה (1760-63) أهم رسالة سياسية في القرن، تحمل هذا العنوان البريء، "في التسيير الفعال لدفة المناقشات" ولكنها احتوت ثورة شعواء على حق النقض المطلق. وهنا أيضاً ارتفعت الاحتجاجات الكثيرة ولكن بعد عام 1764 لم يحل "ديت" بحق النقض. وبمعمونة كونارسكي بدأ بونياوفسكي إصلاح الدستور البولندي.

وقبل ذلك الإحياء الرائع المتقطع عانت بولنـدة سبعة عشر عاماً من الفوضى والعار والاضمحلال تحت حكم الملوك السكسون.

صفحة رقم : 13657

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولنـدة -> الملوك السكسون

2- الملوك السكسون

1763-1697

في موضع آخر من هذا الكتاب (13) ذكرنا كيف تخطى الديت البولندي ابن سوبيسكي العظيم ليعطي تاج بولنـدة لفردريك أوغسطس، ناخب سكسونيا الذي دخل في المذهب الكاثوليكي بين عشية وضحاها ليصبح أوغسطس الثاني (أي القوي) ملك بولنـدة، وكيف ولى شارل الثاني عشر ملك السويد مكانه ستانلاس لشتنزن نسكي (1704)، وكيف أتاحت هزيمة شارل في بلطاوة (1709) لأوغسطس أن يستعيد عرشه، وقد تمتع بالقليل من السلطات التشريعية التي كان يتمتع بها ملوك القرن الثامن عشر، ولكن بكل امتيازات الملوك الجنسية. فلما فشل في حكم بولنـدة رد حبه إلى سكسونيا، فجمل درسدن، وأترع جوفه بالجعة، وأفرغ عافيته بالخليلات، ثم أضاف الإهانة إلى الأذى باتخاذة واحدة فقط من هؤلاء الخليلات من بين حسان

صفحة رقم : 13658

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولنـدة -> الملوك السكسون

بولنـدة. وفي أخريات عهده وضع خطة لتقسيم بولنـدة بين النمسا وبروسيا وسكسونيا، ولكنه مات (1 فبراير 1733) قبل أن ينفذ تدبيره الشرير. وقد قال على فراش الموت، "إن حياتي كلها كانت خطيئة متصلة" (14). وفي فترة خلو العرش التي تلت ذلك خلال تجميع ديت انتخابي، أهدق المبعوثون الفرنسيون المال ليكسبوا نواباً يعملون على إعادة لشتنزن نسكي. وكان ستانلاس منذ خلعه يعيش في الألزاس مستمتعاً بالسلام والأمل. وفي 1725

أصبحت ابنته ماري ملكة على فرنسا بزواجها من لويس الخامس عشر، وتوقع لويس الآن أن يتبع حموه، متى رد إلى عرشه، السياسة الفرنسية، سياسة توحيد بولنדה وبروسيا وتركيا في صف واحد يضرب نطاقاً حول النمسا. وشعرت الحكومة الروسية بأن حلفاً كهذا من شأنه إضعافها في صراعاتها المحتمومة مع تركيا وبروسيا، فبادرت بإرسال الروبلات إلى وارسو لتمنع انتخاب لشتنزنسكي. ولكن الجنيهات الفرنسية كانت أثقل من الروبلات الروسية، وفي 10 سبتمبر 1733 أصبح لشتنزنسكي ملكاً على بولنדה باسم ستانسلاس الأول. ورفضت أقلية الاعتراف بانتخابه، ووضعت نفسها تحت حماية جيش روسي زحف على الفستولا ونادي بالناخب السكسوني ملكاً على بولنדה باسم أوغسطس الثالث (6 أكتوبر). وهكذا بدأت حرب الوراثة البولندية، وبدأ أول تدخل حاسم لروسيا في شؤون بولنדה وبحث ستانسلاس عن جيش بولنדה يدافع عنه، فلم يجد جيشاً إلا على الورق، ففر إلى دانترج واستنجد بفرنسا. وكان يرأس الحكومة الفرنسية آنذاك الكردينال فلوري، ولم يكن به رغبة لخوض حرب مع روسيا النائية، فأرسل مفرزة من 2.400 جندي سحقها الروس بجيش من اثني عشر ألف مقاتل. وفر ستانسلاس من دانترج واعتكف في اللورين. وفي يناير 1736 وقع على تنازله العرش، وفي يوليو اعترف بأوغسطس الثالث ملكاً. ولكنه لم يكن أصلح من لشتنزنسكي لقيادة أمة ركبت الفوضى في صميم دستورها. وتعاون فترة مع آل تشارتوريسكي في محاولات لإنهاء

صفحة رقم : 13659

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولنדה -> الملوك السكسون

حتى النقض، فاستعملت أسرة بوتوكي الفيتو المرة بعد المرة للاحتفاظ بهذا الحق، وأخيراً ينس أوغسطس وأخذ إلى الدعة في درسدن، ولم يزر بولنדה إلا لماماً. واستمر الفساد واستشرى، وشارك الملك فيه إذا ألقى نفسه عاجزاً عن وقفه، وباع المناصب لمن يدفع فيها أعلى الأثمان. وهيمن الأقطاب على المحاكم والقوات المسلحة، وتفاوضوا رأساً من الدول الأجنبية وتلقوا منها الإعانات المالية (15). وناورت فرنسا والنمسا وبروسيا وروسيا لترى أيها يستطيع الظفر بنصيب الأسد من انحلال دولة بولنדה الوشيك. وقبل موت أوغسطس الثالث (5 أكتوبر 1763) وبعده تدرعت المنافسة على تعيين خلفه والتسلط عليه بكل حيلة دبلوماسية حتى وصلت إلى شفا الحرب. فطالب آل بوتوكي بجيش دائم عدته 100.000 مقاتل ليحمي بولنדה من السيطرة الأجنبية، أما آل تشارتوريسكي فقد راضوا أنفسهم على أن تكون بولنדה محمية روسية، وتفاوضوا مع كاترين الثانية. وادعت روسيا لنفسها الحق في حماية الأقلية الرومية الأرثوذكسية في بولنדה، ومدت ذاكرتها إلى الماضي البعيد لتتذكر أن أقاليم بولنדה الشرقية انتزعتها من روسيا سانت فلاديمير (956-1015) قبل ثمانمائة سنة. أما فرنسا فقد ناصرت ابن أوغسطس الثالث خلفاً له، فلو أن روسيا سيطرت على بولنדה لأنهار صرح السياسة الخارجية الفرنسية كله في الشرق. وأما فردريك الأكبر الذي كان قد اختتم لتوه سبع سنين من الحرب الطاحنة مع فرنسا والنمسا، فقد كان في حاجة إلى صداقة كاترين التي نجا من الكارثة بإذنها، ووافق على أن يؤيد مرشحها للتاج البولندي، ثم أبرم معها (11 أبريل 1764) معاهدة تلزم الطرفين سراً بمعارضة أي تغييرات في دستور بولنדה أو السويد، مخافة أن تقضي أي زيادة ف سلطة الملك إلى جعل أحد هذين القطرين أو كليهما قوباً إلى حد خطر؛ وهكذا اعتزما الدفاع عن الفوضى باسم الحرية. وهدأت كاترين مخاوف آل تشارتوريسكي بوعدتها باختزال حق النقض المطلق بعد أن تستقر الأمور في نصابها، وباختيارها محسوباً من هذه الأسرة مرشحاً للعرش. وفي 7 سبتمبر 1764، وباختيارها محسوباً من هذه الأسرة مرشحاً للعرش. وفي 7 سبتمبر 1764، وبإجماع آراء "ديت" أفتعته الروبلات،

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولندة -> الملوك السكسون

وجيش روسي لا يبعد عنه أكثر من ثلاثة أميال، اختير ستانسلاس بونيا توفسكي ليتبوأ عرش بولندة.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولندة -> بونيا توفسكي

3- بونيا توفسكي

ولد لستانسلاس بونيا توفسكي الأب، حاكم كراكاو، وقسطنطيا تشارتوريسكي، في 7 يناير 1732. قال لمدام جوفران "ربيت تربية صارمة جداً على يد أم ندر أن تجدي لها نظيراً اليوم في أي مكان، في حين اكتفى أبي في وعظي بأن أجد فيه الأسوة الحسنة" (16). وحين بلغ السادسة عشرة بدأ القيام برحلات واسعة. وفي 1753 بهر مدام جوفرات وصالونها وكل باريس تقريباً بهيأته ومسلكه وشبابه. وبعد بضع سنوات، وجرياً على سنة جيله، كتب صورة ذاتية كانت مطابقة للحقائق مطابقة منصفة، قال فيها:

"كان خليقاً بي أن أرضى عن شكلي لو كنت فقط أطول بوصة... وكان أنفي أقل انعقاداً، وفي أصغر بعض الشيء. بهذه التحفظات أعتقد أن وجهي طلق معبر، ومظهري لا يخلو من امتياز... وكثيراً ما يجعلني قصر نظري أبدو مرتبكاً، ولكن للحظة واحدة فقط. فالواقع أنني قد أؤدي شعور الغير بالتطرف في الناحية المضادة-سلوك شديد الخيال ويعينني ما حصلت من تعليم ممتاز على إخفاء عيوب العفوية والبدنية، حتى أن كثيراً من الناس ربما توقعوا مني أكثر مما أستطيع إعطائه في يسر. وعندني من الذكاء ما يكفي للمشاركة في أي حديث، دون أن يكفي للحديث طويلاً ومراراً. على أن ما فطرت عليه من تعاطف ولطف كثيراً ما يخف لنجدي. وبني ولع طبيعي بالفن... ويمعني كسلي أو أوغل في الفنون والعلوم كما أستهي. وأنا إما مفرط في العمل وإما عاطل منه. وفي استطاعتي الحكم على الأمور حكماً جيداً جداً... ولكنني في مسيس الحاجة للمشورة المخلصة لكي أنفذ أي خطة من بنات أفكارني. وأنا حساس جداً، ولكن الحزن يؤثر في أكثر كثيراً من الفرح. فأنا أول من يبئس... وإذا أحببت أحببت حباً جماً... ولست

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولنדה -> بونيا توفسكي

محباً للثأر. ومع أنني في أول لحظات غيضي قد أتوق للانتقام من أعدائي، إلا أنني لا قدرة لي أبداً على إنفاذ رغبتي، فالحنو يقف دائماً حائلاً بيني وبين الثأر" (17).

وتوحي قدرة بونيا توفسكي على أن يرى ذاته ويعبر عنها -على هذا النحو الجميل بأنه ولد ليفكر ويكتب لا ليخطط وينفذ. وكان قد التقى بمونتسكيو وقرأ فولتير؛ واكتسب رهافة ونعومة المجتمع الفرنسي الفكرية مع درجة من تلك "الحساسية" التي أخذت تجد التعبير عنها في روسو. وكان شديد الحساسية للنساء، ويشعر أن ما أعطيه، جسداً وروحاً، لا يقدر بثمن. وقد شاع أنه قبض عليه في باريس لعدم وفائه بدين، ثم أطلق سراحه بعد حبسه ساعة، عندما دفعت مدام جوفران 100.000 جنيه ليفرج عنه" (18).

وبعد أن قضى في باريس خمسة أشهر، وإذا كان قد تعلم الإنجليزية، فقد مضى إلى إنجلترا واختلف إلى بعض جلسات البرلمان، وتطلع إلى إعادة تشكيل الموقف البولندي على غرار إنجلترا كما صورها مونتسكيو. فلما عاد من رحلاته (1754) عين مشرفاً أولاً للتوانيا. وبعد عام رافق السير تشارلز هانيري وليمز إلى روسيا، وكانت النتائج كما أسلفنا. ثم عاد إلى وطنه عام 1756، ولكنه ذهب إلى سانت بطرسبرج في 1757 سفيراً لبولنדה. وشارك في المؤامرة ضد اليزابث في 1758، وأكره على الرحيل عن روسيا دون أن يمهل وحرنت كاترين على رحيله، ولكنها حين أيدته ليرتقي عرش بولنדה لم يكن دافعها أنها لم تنزل تحبه، بل لأنه (في زعمها) أقل حقاً في العرش من أي مرشح آخر، وإذن فخليق به أن يكون أكثر عرفاناً بهذا الصنيع (19). أما هو فلم يبق قط كما الإفاقة من تلك العلاقة الغرامية المثيرة، وكان يتذكر كاترين قبل أن تقسي السلطة قلبها، وبقي افتتانه بها حتى حين اتخذته مطية لإخضاع شعبه. وبعد انتخابه بيومين أرسل النبأ إلى مدام جوفران:

"ماما العزيزة: يبدو أنني أجد لذة أعظم وأنا أدعوك بذلك الاسم

صفحة رقم : 13663

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولنדה -> بونيا توفسكي

منذ أمس الأول. (وكانت أمه ميتة) لم يكن في تاريخنا كله انتخاب بهذا الهدوء وهذا الإجماع.. وكانت كل كبريات نبيلات المملكة حاضرات في ساحة الانتخاب وسط أفواج النبلاء... وسرني أن تتادي بي أصوات جميع النساء كأصوات جميع الرجال... فلم لم تكوني هناك؟ إذن لانتخبت ابنك" (20).

وقد رأينا كيف اقتحمت "ماما" طرق أوروبا لتزور "ابنها" في قصره بوارسو (1766). وإذ لم يكن لديها مفهوم واقعي عن الفجوة التي تفصل بين الحضارتين الفرنسية والبولندية، فقد تافقت نفسها إلى أن تراه يرفع بولنדה في عام واحد ما يقتضي رفعه قرناً، وأصبحت مشورتها مصدر إزعاج له، وكدرت محبة بونيا توفسكي البنوية لها؛ فتنفس الصعداء حين رحلت، وإن هدأها بالمجاملات وبصورة لشخصه في إطار مرصع بالماس. واحتفظت بالصورة ولكنها ردت الماس. فلما نأت عنه عاودها حبها له في كل حرارته، وكتبت له من فيينا تؤكد له "المحبة التي هي ضرورة من ضرورات حياتي" (21).

وبذل ستانسلاس ما وسعه من جهد. فانقطع لمهام الحكم خلال هذه السنوات الأولى بشعور الحاكم المخلص لواجبه. فكان يحضر كل يوم مداولات وزرائه، ويعكف إلى ساعة متأخرة من الليل على مشكلات اضطلع ببحثها في تفصيل

شديد التدقيق. وقد وفق إلى حد كبير في تدريب فيلق من الموظفين المدنيين ذوي الكفاية الفائقة والنزاهة المذهلة (22). ثم فتح بابه لمن يريد لقاءه، وسحر الجميع بلطفه، ولم يسحر الجميع بتحمسه للإصلاح. ولكن نشاطه خفف منه إحساسه بأنه معتمد على كاترين، لا بل على الجيش الروسي الذي خلفته في بولندا ليكفل سلامته وطاعته. وكان سفيرها الكونت أوتوفون شتاكبيرج يرقبه بعينه الساهرة مخافة أن ينسى سلطان روسيا عليه. وكان الأعداء يحدقون به من بعيد ومن قريب. فالنبلاء البولنديون حزبان: الحزب الذي يتزعمه آل بوتوكي يدعو للاستقلال قبل الإصلاح،

صفحة رقم : 13664

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولندا -> بونيا توفسكي

ويرغب في كبح سلطة الملك بالإبقاء على قوة الأرستقراطية، والحزب الآخر الذي يتزعمه آل تشارتوريسكي يطلب الإصلاح أولاً، وحثه أن بولندا بفوضاها الراهنة أضعف من أن تتنصو عنها الحماية الروسية. وكان آل تشارتوريسكي مترددين في تأييد بونيا توفسكي، فقد أجزنهم سرفه وكثرة خليلاته. وقد خصص له الديت 2.200.000 طالر في العام، وفي 1786 زادها إلى 6.143.000 جولدن - وهو ما يوازي ثلث إيراد الحكومة. ولكنه تجاوز مخصصاته، لأنه كان قد اقترض من المصارف في وطنه وفي خارجه. ودفعت الدولة ديونه مرتين، ومع ذلك ففي عام 1790 كان لا يزال مديناً بمبلغ 11.500.000 جولدن (23). وكان مثل كاترين يتطلع إلى تخليد ذكرى ملكه بتشييد صروح الباذخة، ووزع نفسه وحاشيته على قصرين غالبيين، وأقام حفلات الترفيه الكثيرة التكلفة، وأغدق العطايا على الفنانين والكتاب والنساء. وكانت جاذبيته عالية التكلفة. فلقد كان عند توليه العرش في الثانية والثلاثين من عمره، وسيماً متقفاً كريماً غير متزوج، فجمع من حوله رهطاً من الحسان يتلهفن على يده وعلى كيس نقوده. وسر العديديات ممن أخفقن في الزواج منه أن يشاركنه فراشه، وشاركت بعض الممثلات الباريسيات في الترفيه عن الملك. واحتج التشارتوريسكيون، فاعترف بخطاياهم وتمادى فيها. وأخيراً قادته خليلته تدعى باني جرابوفسكا إلى المذبح في زواج سري. وبعدها خضعت حياته الجنسية للرقابة الشديدة، واستطاع أن يبذل اهتماماً أكثر بشئون الحكم والأدب والفنون. وقد اهتم اهتماماً شخصياً بأعمال وحياة فناني جيله ومؤلفيه. وحذا حذو كاترين فجمع الصور والتماثيل والكتب، وبنى قاعة للفن ومكتبة، وأبرز في المكتبة تمثالاً لفولتير. ووجد عملاً للفنانين الوطنيين، واستقدم غيرهم من فرنسا وإيطاليا وألمانيا. ولم يستطع بيرانيزي وكانوفا الحضور، ولكنهما نفذاً أعمالاً له في إيطاليا. وقد حول نصف القصر الملكي إلى مدرسة للفن،

صفحة رقم : 13665

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولندا -> بونيا توفسكي

ودبر المال ليتمكن شباب الفنانين الواعدين من الدراسة في الخارج. وأسس قرب وارسو صناعة للبرسلان ضارعت منتجاته منتجات ميسن وسيفر. وقد ألهم بقدوته أثرياء البولنديين كآدم تشارتوريسكي، واليزابث لوبوميرسكا، وهيلين رادزييفيل، وغيرهم ليجمعوا التحف، ويكلفوا الفنانين بأعمال فنية، ويحلوا تنويعات الطراز الكلاسيكي الحديث محل ركوك الفترة السكسونية في بناء قصورهم وزخرفتها. وكان هو ذاته يحدّ مزيجاً من فن الباروك والفن الكلاسيكي، وبهذا الطراز صمم دومنيكو مرليني قصر لازينكي على مشارف وارسو. وكان المصورون الأجانب أثناء ذلك يدرّبون جيلاً جديداً من الفنانين البولنديين الذي بلغوا مرحلة النضج بعد أن اختفت الحرية البولندية. أما أول الخطوات التي أفضت إلى تلك الكارثة فكانت العقوبات التي وضعها فردريك الأكبر في طريق إصلاح بولندا لذاتها. وإلى ذلك الحين (1767) لم يكن لدى كاترين فيما يبدو نية تقطيع أوصال قطر كبولندا خاضع خضوعاً واضحاً لنفوذ الروسي، فالتقسيم سيوسع رقعة بروسيا بحيث تغدو عائقاً أشد خطراً مما يمكن أن تكونه بولندا السلافية أمام مشاركو روسيا في شؤون غربي أوروبا وثقافتها. لذلك اكتفت بالمطالبة بإعطاء المنشقين حقوقهم المدنية الكاملة. ولكن فردريك أراد أكثر من هذا. فهو لم يستطع قط أن يروض نفسه على قبول هذه الحقيقة، وهي أن غربي بروسيا، الألماني البروتستنتي في غالبيتها الكبرى، خاضع للحكم البولندي الكاثوليكي. ومن ثم كان نوع من التقسيم لبولندا هدفاً عنده لا يغيّب عنه. وأي تقوية لبولندا، سياسية أو عسكرية، ستعرق بلوغ أهدافه؛ لذلك أيد عملاؤه حق النقض المطلق، وعارضوا في تشكيل جيش قومي بولندي، ورحبوا بالخلافات المحتدمة بين الكاثوليك والمنشقين لأنها تتيح ذريعة للغزو. وتعاون تعصب الكهنوت الكاثوليكي الروماني مع خطط فردريك. فقد قاوم كل محاولة تبذل لإعطاء المنشقين حقوقهم المدنية. وفي "روسيا البيضاء" - التي كانت آنذاك جزءاً من بولندا، مشتملة على منسك - انتزعت

صفحة رقم : 13666

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولندا -> بونيا توفسكي

السلطات الكاثوليكية الرومانية مانتي كنيسة من أتباعها الروم الأرثوذكس وأعطتها لطائفة الموحدين، ومنعت الجاليا الأرثوذكسية من ترميم كنائسها القديمة وبناء أخرى جديدة. وفي حالات كثيرة فصل الأطفال عن آبائهم لينشأوا على طاعة الكنيسة الرومانية، وأسيتت معاملتها القساوسة الأرثوذكس، وأعدم بعضهم (24)، وكان بونيا توفسكي، وهو ربيب جماعة الفلاسفة الفرنسيين، ميالاً إلى التسامح الديني (25)، ولكنه كان عليماً بأن الدين سيقاوم بالقوة إن اقتضى الأمر، أي خطوة للسماح لغير الكاثوليك الرومان بعضويتهم؛ وأحس أنه ينبغي تأجيل اقتراحاً كهذا حتى يستطيع تعديل من نوع ما لحق النقض المطلق أن يشد أزره. وأجاب فردريك وكاترين بأنهما لا يطلبان من بولندا أكثر مما يمنحانه لأقلياتهم الدينية. وقدم للدين الذي اجتمع في أكتوبر ونوفمبر 1766 التماس من بروسيا وروسيا والدنمرك وبريطانيا العظمى بمنح اخوانهم في الدين في بولندا كامل حقوقهم المدنية. وهناك أثارت بلاغة "كاجيتان سوليتك" أسقف كراكو ثائرة النواب، فهبوا غاضبين وطالبوا لا برفض الالتماس فحسب، بل بتقديم مؤيديه البولنديين للمحاكمة لأنهم خونة لبولندا والله (26). ونجا بجلدهم من الموت نفر حاولوا الدفاع عن الملتمس (27). وحاول بونيا توفسكي أن يهدئ المجلس بإصدار (نوفمبر 1766) نبذة سماها "آراء مواطن صالح" ودعا فيها جميع البولنديين للوحدة القومية، وأنذرهم بأن الشعب المنقسم على ذاته يحرض على الغزو. ثم رجا في الوقت نفسه السير البولندي في بطرسبرج أن يفصل روسيا عن الدول موقعة الملتمس. وكتب يقول "لو أصروا على هذا (الملتمس) فإنس لا أتوقع غير عشية كعشية (مذبحة) القديس بارتولميو للمنشقين، وحصاداً من السفاكين أمثال رافياك يغتالونني.. وستحيل الإمبراطورة عباءتي الملكية رداء (للقنطور) نيسوس. وسيكون على أن اختار بين نبذ

صاقتها وبين مناصبة وطني العداء". وردت عليه كاترين بطريق نيكولاي ربنان سفيرها في وارسو تقول "لا أستطيع أن أتصور كيف يرى الملك نفسه خائناً لوطنه مجرد أن يؤيد مطالب العدل والإنصاف" (28).

صفحة رقم : 13667

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولنדה -> بونيا توفسكي

لقد كان يفصلها عن بولنדה من اليون الشاسع سواء في المسافة أو التعليم ما لا يتيح لها الشعور بوطيس الغضب والكبرياء البولنديين. فلما ألفت جماعة من نبلاء البروتستنت اتحاداً في ثورن، وألف حزب من المتشبعين لال تشارتوريسكي اتحاداً في رادوم، أمرت كاترين ربنن بأن يعرض عليهما حماية روسيا. وتحت ستار هذه الحجة جلب ثمانين ألف مقاتل روسي إلى تخوم بولنדה، وبعضهم إلى وارسو ذاتها. وعاد الديت إلى الاجتماع في أكتوبر 1767. وحض الاسقفان الوسكي وسولتيك النواب على الوقوف بحزم أمام أي تغيير في الدستور. وهنا قبض ربنن على الأسقفين واثنين من العلمانيين بتهمة إهانة الإمبراطورة متخطياً بونيا توفسكي، ونقلهم إلى كالوجا على تسعين ميلاً جنوب غربي موسكو. فاحتج الديت، وأعلن ربنن أنه إذا لقي المزيد من المعارضة فإنه لن يكتفي بترحيل أربعة أقطاب فقط بل أربعين. وفي 24 فبراير 1768 استسلم الديت لتهديدات الحرب وأبرم مع روسيا معاهدة قبل بها كل مطالب كاترين. فمخ المنشقون الحرية الكاملة للعبادة الدينية، وحقهم في أن يختاروا لعضوية الديت وللوظائف العامة، وتقرر أن تنظر الدعاوي القضائية بين الكاثوليك والمنشقين أمام محاكم مختلطة. وسر الديت وكاترين وفرديريك بتثبيت المعاهدة لحق النقض المطلق، مع بعض استثناءات للتشريع الاقتصادي. وقبل الديت كاترين حامية لهذا الدستور الجديد، ولقاء هذا ضمننت كاترين الوحدة الإقليمية لبولنדה ما استمر هذا الاتفاق. واعتبطلت لأنها لم تكتف بمنح بولنדה نصيباً من الحرية الدينية أكبر حتى مما تمتعت به إنجلترا، بل أنها أحبطت خطة فرديريك لتقسيم بولنדה. وتلقى بونيا توفسكي تهاني جماعة الفلاسفة وازدراء شعبه.

صفحة رقم : 13668

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولنדה -> التقسيم الأول

4- التقسيم الأول

اتفق الوطنيون والقساوسة البولنديون 1768-72 مع فرديريك على عدم قبول الموقف. وأدان الأكليروس الكاثوليكي الروماني بقوة تسليم استقلال بولنדה الذاتي لامرأة ملحدة روسية. واستنفر البولنديين رجالن،

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولنדה -> التقسيم الأول

أسقف كامر فنيبيك المسمى آدم كراسنسكي، ويوزف بولاسكي (أبو كازيمير ولاسكي الذي قاتل دفاعاً عن أمريكا)، بالعظاات والنشرات ليؤكدوا من جديد حريتهم السياسية ودكتاتوريتهم الدينية. فما انقضى اسبوع على استسلام الديت لربنن حتى ألفت جماعة من البولنديين (29 فبراير 1768) اتحاد "بار" وهي مدينة على الدنيستر في أوكرانيا البولندية. وكان الأقطاب الذين مولوا الحركة مدفوعين بكرهيتهم لكاترين والملك، وكان "الجمهور الأبله" كما لقب فردريك أتباعهم يضطرم غيرة على المذهب الحق الأوحده، وتردد صدى هذه الحماسة في شعر الشعراء يتحسرون في مراتي حزينه على إذلال بولنדה و "ارتداد" ملكها. وبعثت تركيا والنمسا للوطنيين السلاح والمال، وأقبل دمورييه من فرنسا لينظمهم في وحدات مقاتلة. وانضم البولنديون الراغبون في رد الأسرة السكسونية للعرش إلى الحركة التي ما لبثت أن انتشرت إلى مواقع متفرقة في طول البلاد وعرضها. وكتب ربنن إلى كاترين يقول "إن بولنדה بأسرها اشتعلن ناراً". وفكر بونيا توفسكي في الانضمام إلى الاتحاد، ولكن أعضاءه الغلاة المتهورين نفروه وأقصوه عنه بالمطالبة بخلعه لم يكن بإعدامه (29). وإذا جاز أن نصدق فولتير (30)، فإن ثلاثين من أعضاء الاتحاد أقسموا في تشستوكوفا هذا القسم:

"نحن الذين أثارنا غيرة مقدسة دينية، والذين صممنا على الثأر لله والدين والوطن، بعد أن أسخطنا ستانسلاس أو غسطس، محنقر الشرائع الساوية والأرضية، وراعى الكفار والمهرطقين، نتعهد ونقسم أمام صورة أم الرب المقدسة المعجزية بأن نستأصل من وجه الأرض شأفة من يدنسها بوطئة الدين. فليساعدنا الرب!".
وأمر ربنن الجيش الروسي بإخماد الفتنة، فطرد الاتحاديين وراء الحدود التركية وأحرق مدينة تركية. فأعلنت تركيا الحرب على روسيا (1768) وطالبت بجلاء الروس عن بولنדה وتحريرها. واغتنم القوزاق فرصة الاضطراب الشديد ليغزو أوكرانيا البولندية. فطبشوا بملاك الأرض، ووكلائهم اليهود، والفلاحين الكاثوليك والرومان أو البروتستنت، في مهرجان من

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولنדה -> التقسيم الأول

التقتيل العشوائي، ففي مدينة واحدة قتلوا ستة عشر ألف رجل وامرأة وطفل. ورد الاتحاديون بقتل من وصلت إليهم أيديهم من الروس والمنشقين، وهكذا عانى البروتستنت واليهود من خطر مضاعف. ففي هذه السنوات بجملتها (1768-70) هلك خمسون ألفاً من سكان بولنדה سواء في المذابح أو المعارك (31).

وبدأت كل الأطراف الآن حديث التقسيم. أما الاتحاديون فقد اتهمهم أعداؤهم بأفوقوا على تقسيم بولنדה فيما بينهم وبين حلفائهم(32). ففي فبراير 1769 أرسل فردريك إلى سناننت بطرسبرج اقتراحاً بتقسيم بولنדה بين روسيا وبروسيا والنمسا، واشترطت كاترين في ردها أن تمت بروسيا والنمسا يد العون لروسيا لطرد الترك من أوروبا، لكي توافق على أن تختص بروسيا بذلك الجزء من بولنדה الذي يفصل بروسيا الكبرى عن بروسيا الشرقية، أما باقي بولنדה فيخضع للحماية الروسية(33)، ولكن فردريك تردد. أما شوازيل المتحدث باسم فرنسا فقد اقترح على النمسا أن تستولي على الأقاليم البولندية المجاورة للمجر. ورأتها النمسا فكرة مواتية في وقت موات، وعليه ففي أبريل 1769 احتلت إقليم سبتز البولندي، الذي كانت المجر رهنته لبولنדה في 1412 ولم يفك رهنه قط(34). وفي 1770 اقترح الترك الذين كانوا آنذ يقاتلون بصفتهم مدافعين عن بولنדה-على النمسا تقسيم بولنדה بين النمسا وتركيا(35). وبينما كانت هذه المفاوضات دائرة ارتضت الدول الغربية فكرة تقسيم بولنדה نتيجة لا مناص منها لفوضاها السياسية، وأحقادها الدينية، وعجزها الحربي و "أدرك كل رجل دولة في القارة أن الكارثة واقعة لا محالة"(36). ولكن البولنديين من خصوم الاتحاديين في هذا الوقت أوفدوا عضواً في الديت ليطلب إلى الفيلسوف الاشتراكي مابلي، وإلى عدو جماعة الفلاسفة روسو، أن يضعوا دستوراً مؤقتاً لبولنדה جديدة. وقدم مابلي توصياته في 1770-71، أما روسو فقد فرغ من "دستور بولنדה" في أبريل 1772 بعد شهرين من التوقيع على أولى معاهدات التقسيم.

صفحة رقم : 13671

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولنדה -> التقسيم الأول

واستمتع اتحاد بار بلحظات من النشوة قبل انهياره. ففي مارس 1770، ومن مدينة فارنا التركية، أعلن خلع بونياتوفسكي. وفي 3 نوفمبر 1771، اعترض بعض-الاتحاديين طريقه وهو يغادر منزل عم له في الليل، وتغلبوا على حرسه، وقتلوا أحدهم رمياً بالرصاص، ثم جروا الملك من داخل عربته، وأحدثوا قطعاً في رأسه بضربة سيف، ثم اختطفوه من عاصمة ملكه. ولكن دورية من الشرطة هاجمتهم في غابة بيلني، وأثناء العراك هرب بونياتوفسكي، واتصل بالحرس الملكي، فأتى رجاله وعادوا به إلى قصره مشعث الشعر ينزف دماً في الخامسة صباحاً. وهكذا قضى على كل احتمالات المصالحة بين الحكومة والاتحاد. ولجأ بونياتوفسكي إلى المساعدة الروسية، وقمع الاتحاد، وبقيت منه بقية في تركيا-الهلال يحمي الصليب (1772)(37). على أن تقدم جيوش روسيا إلى البحر الأسود والدانوب أز عج كلاً من بروسيا والنمس. فلا فردريك الثاني ولا جوزف الثاني كانا مغتبطين بتوقع سيطرة روسيا على البحر الأسود، وأسوأ من ذلك أن الأستانة. وكانت بروسيا قد تعهدت في معاهدتي 1764 و1766 بأن تساعد روسيا إذا هوجمت، وكانت تركيا من الناحية الشكلية هي المعتدي في حرب 1768 الروسية التركية؛ وكانت بروسيا تعرض خزانتها للإفلاس بإرسالها المعونات المالية لروسيا. أما النمسا التي ساءها دخول القوات الروسية فلاحيا فكانت تهدد بالتحالف مع تركيا ضد روسيا؛ في تلك الحالة كانت روسيا ستنتظر من بروسيا أن تهاجم النمسا. ولكن فردريك كان قد ضاق ذرعاً بالحرب. لقد خاض حربين ليستولي على سيليزيا ويحتفظ بها، فلم يخاطر بها الآن؟ ومن ثم أثر الطرق الدبلوماسية. وتساءل ألا يمكن استرضاء الدول الثلاث بحصص يهتمونها من أرض بولنדה؛ لو أن الأمور تركت تجري مجراها والسفير الروسي يحكم بولنדה فعلاً لما كانت المسألة إلا مسألة وقت حتى تبتلع روسيا ذلك البلد كلية متسترة وراء أي حجة. فهل ما زال في الإمكان الحيلولة دون هذا؟ بلى، إذا ارتضت كاترين أن تأخذ بولنדה الشرقية فقط، وتدع فردريك يأخذ بولنדה الغربية وتتسحب من الدانوب. وهل يخفف

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولنדה -> التقسيم الأول

من شره يوزف للقتال أن يعطي نصيباً من الغنيمة؟
وعليه ففي يناير 1771 اقترح الأمير هنري، أخو فردريك، الخطة على الدبلوماسيين الروس في سانت بطرسبرج، واعترض بنين بأن روسيا قد ضمنت وحدة بولنדה الإقليمية، فذكروه بأن هذا الضمان كان رهناً بالترام بولنדה بدستورها الجديد وتحالفها مع روسيا، وأن هذا الالتزام انقطع بانضمام العدد الكبير من النواب لاتحاد بار المتمرد. ومع هذا لم ترض كاترين عن الخطة. فأى شيء يدعوها لإعطاء فردريك جزءاً من بولنדה بينما قد تأخذ هي الكل بعد قليل؛ ولم تدعم قوة بروسيا بمزيد من الأرض، والموارد، والثغور البلطية، ومزيد من الجند الفارعين، ولكنها لم ترد خوض حرب مع فردريك، فقد كان لديه 180.000 رجل تحت السلاح؛ وأثرت على ذلك أن تجعله يمنع يوزف من الاتحاد مع تركيا ضد روسيا، فهدفها الحاضر ليس بولنדה بل البحر الأسود. وعليه ففي 8 يناير 1771، أشارت لهنري عرضاً في حلة إلى موافقتها مبدئياً على خطة فردريك.

وانقضى عام قبل أن تتمكن المفاوضات من الفصل في تقسيم الغنيمة. فقد أراد فردريك أن يأخذ دانترج، فاعترضت كاترين؛ وكذلك بريطانيا التي كانت تجارتها مع البلطيق ترسو على ذلك الثغر. وفي غضون هذا عبأت النمسا قواتها، وتحالفت سراً مع تركيا. وفي 17 فبراير 1772 وقع فردريك وكاترين "اتفاقاً" على تقسيم بولنדה. وألنت كاترين جانب يوزف بتخليها عن جميع مطالب روسيا في فلاتشيا وملدافيا؛ ثم إن رداءة محصول 1771 جعل من المستحيل عليه إطعام جيشه. وكانت ماريا تريزا من جهة أخرى تتوسل إلى ولدها بكل دموعها لتمنعه من الاشتراك في اغتصاب بولنדה، غير أن فردريك وكاترين أكرهاه على الموافقة بشروعهما في الاستيلاء الفعلي على الأقاليم التي خصا نفسيهما بها. وفي 5 أغسطس 1772 أضاف يوزف توقيعها على ميثاق التقسيم. أما المعاهدة فبعد الديباجة التي ابتهلت إلى الثالوث المبارك، وافقت على أن تحتفظ بولنדה بثلاثي أرضها وثلاث سكانها. واستولت النمسا على بولنדה الجنوبية بين فولينيا والكربات، مع غاليسيا وبودوليا الغربية-27.000

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولنדה -> التقسيم الأول

ميل مربع، و2.700.000- نسمة. وأخذت روسيا "روسيا البيضاء" (بولنדה الشرقية إلى دويينا ونيير) 36.000 ميل مربع، و1.800.000 نسمة. وأخذت بروسيا "بروسيا الغربية" فيما عدا دانترج وتورن 13.000 ميل مربع و600.000 نسمة. وأخذ فردريك أصغر نصيب، ولكنه كان قد ألزم المتأمرين بالسلام، و "خاط"- على حد قوله بروسيا الغربية وبروسيا الشرقية مع براندنبرج. وقال قال الوطني ترائنشيكي إن فردريك على أية حال لم يفعل أكثر من أنه رد إلى ألمانيا "معقل الفرسان الثيوتون،-وادي فايشيزال الجميل- الذي انتزعه الفرسان الجرمان من البرابرة في الأيام الخالية"(38) وذكر فردريك وربما بأن سكان بروسيا الغربية كثرتهم العظمى ألمانية وبروتستنتية، أما كاترين فقد ذكرت أن الإقليم الذي أخذته يسكنه كله تقريباً أتباع الكنيسة الرومية الكاثوليكية المتحدثون بالروسية(39).

وسرعان ما احتلت الدول الثلاث أنصبتها من الغنيمة بجيوشها. واستتجد بونيا توفسكي بالدول الغربية لمنع التقسيم، ولكنها كانت في شغل شاغل عنه؛ ففرنسا تتوقع الحرب مع إنجلترا، وقد ترددت في معارضة حليفها النمسا، وإنجلترا تواجه الثورة الوليدة في أمريكا، والخطر الذي قد يأتيها من فرنسا وأسبانيا؛ ونص جورج الثالث بونيا توفسكي بأن يصلي لله (40). وطالبت الدول صاحبة التقسيم بدعوة الديت ليصدق على التقسيم الجغرافي الجديد؛ فماتل بونيا توفسكي عاماً، وأخيراً دعا الديت للاجتماع في جرودونو. ورفض الكثير من النبلاء والأساقفة حضوره، وبعض الذين جاءوا وأحنجوا نفوا إلى سيبيريا؛ وقبل غيرهم الرشا؛ وحولت البقية المتخلفة من الديت نفسها إلى اتحاد كوندراي (يبيع فيه القانون البولندي حكم الأغلبية)، ووقع الديت المعاهدة التي نزلت عن الأقاليم المنتزعة من بولندا (18 سبتمبر 1773) وبكى بونيا توفسكي ووقع كما بكت ماريا تريزا ووقعت. وقبلت أوروبا الغربية هذا التقسيم الأول على أنه البديل الوحيد لابتلاع روسيا لبولندا ابتلاعاً تاماً. ويقال إن بعض الدبلوماسيين "أذهلهم اعتدال

صفحة رقم : 13674

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولندا -> التقسيم الأول

الشركاء، الذين اكتفوا بالثلث في حين كان الكل رهن إشارتهم إن طلبوه" (41). واغتبط جماعة الفلاسفة لأن بولندا المتعصبة عاقبها مستبدوهم المستبثرون، ورحب فولتير بالتقسيم باعتباره هزيمة تاريخية للكنيسة الكاثوليكية، (42) ولكنه بطبيعة الحال لم يكن سوى انتصار للقوة المنظمة على العجز الرجعي.

صفحة رقم : 13675

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولندا -> التنوير البولندي

5- التنوير البولندي

1791-1773

كان على بونيا توفسكي أن يختار الآن بين روسيا وبروسيا حامياً له وسيداً عليه. فاختار روسيا، لأنها أكثر بعداً، ولأن روسيا دون غيرها تستطيع منه فردريك من الاستيلاء على دانترج وتورن. وكانت كاترين تواقفة إلى الحيلولة دون مزيد من توسع بروسيا، التي كان جيشها العقبة الكؤود في طريق التوسع الروسي غرباً. لذلك أمرت سفيرها في وارسو بأن يقدم العون لبونيا توفسكي بكل طريقة تتفق ومصالح روسيا، وأرسلت إلى الملك المقترحات التي وضعها بنين من قبل لدستور بولندي أيسر نفيذاً. وقد احتفظ هذا الدستور بنظام الملكية الانتخابية وحق النقض المطلق، ولكنه دعم قوة الملك بأن أقام برأسته، وكأداته التنفيذية، مجلساً دائماً من ستة وثلاثين عضواً، ينقسم إلى وزارات للشرطة والعدل والمالية والشئون الخارجية والحرب؛ ثم نص على إنشاء جيش نظامي من ثلاثين ألف مقاتل. وخاف النبلاء أن يهدد الجيش كهذا سيطرتهم على الملك، فخفضوا العدد إلى ثمانية عشر ألفاً، على أن الديت الذي انعقد في 1775 صدق على الدستور الجديد مع هذا الاستثناء واستثناءات صغيرة أخرى، وأصبح في وسع بونيا توفسكي الآن أن يشرع في رد شيء من العاقبة على الأمة.

واستمر الفساد ولكن الفوضى قلت، فأمكن التغلب على عصابات قطاع الطرق، ونما الاقتصاد القومي. وعمقت الأنهار لتسمح بمرور السفن الكبيرة، وشقت الترع لتصل بين الأنهار، وأكملت في 1783 "قناة ملكية" تربط البحرين البلطي والأسود. وازداد سكان بولندا بين عامي 1715 و 1773 من 6.500.000 إلى 7.500.000، وتضاعف دخل الدولة. وتقرر نظام للمدارس القومية، وأعدت الكتب المدرسية وزود بها التلاميذ،

صفحة رقم : 13676

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولندا -> التنوير البولندي

ومنحت الهبات من جديد لجامعتي كراكاو وفلنو وبعث فيهما النشاط، وأسست الدولة كليات لتخريج المعلمين ومولتها. وكان بونيا توفسكي يحب أن يحيط نفسه بالشعراء والصحفيين والفلاسفة. كتب كوكس يقول "إن الملك يولم كل خميس للأدباء المشهورين بعلمهم وقدراتهم، وجلالته يترأس بنفسه المائدة" (43). ويقود النقاش في الكتب والأفكار. وقد استضاف ثلاثة مؤلفين ليعيشوا معاً، ورفع دخل مؤلفين آخرين في صمت (44). وكان آلاف البولنديين، مع تقديمهم فروض الإجلال للكنيسة-يقرون لوك ومونتسكيو وفولتير وديدرو ودالامبير وروسو. وهكذا أرسيت أسس التنوير البولندي أو الستانسلافي.

وقد اجتذب يسوعي يدعى آدم ناروشفتش أذن الملك بشعره؛ فرقي أسقفاً، ولكنه واصل نظم الشعر العاطفي للطبيعة، وما زال "ترنيمته للشمس" و "فصوله الأربعة" تحبب فيه من يستطيعون قراءته في الأصل. وقد استعملت "قصائده الهجاء" ألفاظاً شعبية رابيلية الطابع أحياناً أو نابية. وطلب إليه ستانسلاس أن يكتب تاريخاً لبولندا يجمع بين السهولة والعمق. فأنفق الشاعر في هذا العمل تسع سنين، وأخرج في ستة مجلدات (1780-86) أثراً يمتاز بتوثيقه الدقيق. ولكن حماسه فترت بعد التقسيم الثاني، وأصيب بالاكئاب، ولم يعمر أكثر من سنة بعد التقسيم الأخير (45). أما أبرز كتاب العهد البولنديين فهو اجناتسي كراسيكي. وقد اكتسب في رحلاته صداقة فولتير وديدرو (46) وأصبح قسيساً، ثم رئيساً للأساقفة آخر الأمر، ولكن ستانسلاس حثه على إطلاق العنان لمواهبه الشعرية. فكتب ملحمة هازلة سماها "ملحمة الفيران، انتقد فيها نقداً لاذعاً حروب جيله وصورها معارك بين الجرذان والفيران. وفي قصيدته "هوس الرهينة" (1778) هزأ بالخصومات الدبرية وأسلفتها الفتاكة هي الكتب اللاهوتية. ثم اتجه إلى النثر، فروى في "مغامرات السيد نيغولا المكتشف" (1776) كيف اكتشفت نبيل بولندي شاب، مزود بكل حصيلة العصر وعواطفه، تحطمت به السفينة على جزيرة غريبة، إن الرجال والنساء يمكن أن يكونوا

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولنדה -> التنوير البولندي

مجدين فضلاء رغم جهودهم في "حالة الفطرة". وقد اقتفى خطر هومر وسويفت وديفو في أعماله هذه، ثم اقتبس أسلوب أديسون وأخرج سلسلة من صور الحياة اليومية، منها "بان بود ستولي" (1778 وما بعدها) التي تصف حياة جنرالمان ومواطن مثالي. وفي "قصص خرافية وأمثال" (1779) تحدى فيدروس ولافونتين، وهاجم في تهكم لاذع خراب الذمة والوحشية المستشرية من حوله. وكانت آخر نصيحة له هوراسية النزعة، "التمس لك ركناً هادئاً، ودع السعادة تأتيك خلسة" (47).

ومع أن تأثير التنوير الفرنسي على ناروشفتش وكراسيكي قد حاد منه سلطان الدين، إلا أنه ظهر بشكل قاطع في ستانسلاس ترمبيكي، الذي لم يذكر الدين قط إلا بروح العداة. وقد مجد شعره الطبيعية، ولكن ليس في تلك المظاهر السارة التي كثيراً ما تحرك العواطف الرقيقة؛ فقد أثر جوانبها الأكثر جموحاً ووحشية، إسرافها المجنون في إنتاج النبات والحيوان، عواصفها وسيولها، صراع الحياة مع الحياة والمأكل مع الأكل؛ واقتبست خرافاته شكلها من لافونتين ولكن روحها منقول عن لوكرينتيوس. وقد أكسبته قوة شعره ورهافته وصقله مكانة مرموقة في هذا الازدهار الأدبي. وسانده بونياتوفسكي في جميع محنه، وعند خلع الملك رافقه الشاعر في المنفى، ومكث معه حتى مات. وكان هناك شعر ديني كثير، لأن الدين كان العزاء الأخير للبولنديين في خطوبهم الشخصية والقومية. وقصائد فرانتشيسيك كارينسكي المسماة "أغنية الصباح" و "أغنية المساء" و "ولادة المسيح" أدب كما أنها تعبد. أما فرانتشيسيك كيثازنين فكان ينتقل في غير عناء بين هذين العدوين القديمين، الدين والجنس، فحين أشرف على دخول القوسية اكتشف أناكريون والحب؛ ونشر قصائد غزلية "إيروتিকা" (1770)، ونشد سعادة الدنيا، ثم عاد إلى الدين، ومات مجنوناً. إن محاولة التوفيق بين النقيضين قد تقضي إلى الجنون كما تقضي إلى الفلسفة. أما في مضممار الدراما فإن أبرز رجالها هو فويتشيس بوجوسلافسكي،

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولنדה -> التنوير البولندي

الذي يكرم وطنه ذكره باعباره "أبا المسرح البولندي"؛ ويجوز لنا أن نسميه "جاريك" بولنדה، ولكن البولنديين لو سئلوا لوصفوا جاريك بأنه بوجوسلافسكي إنجلترة. وكان فيما يبدو أول بولندي كرس حياته كلها للمسرح، ممثلاً، وكاتباً مسرحياً، ومخرجاً، ومديراً لمسارح دائمة في وارسو ولفوف، ومديراً لشركات نشرت تذوق الدراما في طول البلاد وعرضها ووراء الحدود. قدم شكسبير وشريدان مترجمين، وألف هو نفسه كوميديات ما زال بعضها يمثل على المسرح البولندي. وكانت أفضل تمثيلات هذه الفترة هي "عودة النائب" بقلم جوليان أورسين نيمتشتش الذي كان هو نفسه نائباً، فقد صور جانبي الأزممة السياسية تصويراً درامياً في حب نائب من دعاة الإصلاح لفتاة يدافع أبواها عن امتيازات الأقطاب وأساليب العيش في الماضي.

وأخر رجال التنوير البولنديين وأعظمهم هو هوجر كولونتاچ. نقل إليه تعليمه عدوى أفكار جماعة الفلاسفة، ولكنه ستر هرطقاته سترأ كافيأ حتى حصل على وظيفة كاهن مريجة في كراكاو. وعينه يونياتوفسكي (1773) عضواً في لجنة للتعليم، وضع لها كولونتاچ وهو لا يزال في الثالثة والعشرين برنامجاً لإصلاح تعليمي يتفق وخير برامج جيله. وحين ناهز السابعة والعشرين وكل بإعادة تنظيم جامعة كراكاو، وأنجز المهمة في بضع سنين، ثم بقي في الجامعة مديراً لها. وفي "خطابات من كاتب مجهول إلى رئيس الديت" (1788-89)، وفي "القانون السياسي للأمة البولندية" (1790) قدم مقترحات أصبحت أساساً لدستور 1791. وكافحت بولنדה، بفضل حث شعرائها ومعلميها، لتتبر نفسها وتصبح دولة قوية قادرة على الدفاع عن ذاتها. وحانت الفرصة حين عرض فردريك وليم الثاني-خلف فردريك الثاني-على "ديت السنين الأربع" الذي استمر انعقاده من 1788 إلى 1792 تحالفاً تتعهد فيه بروسيا بأن يحمي جيشها القوي بولنדה من أي تدخل أجنبي. وكانت روسيا في شغل بحربها مع تركيا والسويد، فالآن قد تستطيع بولنדה أن تعتق نفسها من خنوعها الطويل لكاترين، وتتخلص من أعمال السلب والنهب التي اقترفها الجنود الروس على الأرض

صفحة رقم : 13679

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولنדה -> التنوير البولندي

البولندية طوال السنوات الخمس والعشرين الأخيرة. وحل الديت مجلس يونياتوفسكي الدائم رغم احتجاجاته، ووافق على أن يجند بإذن الديت جيش من 100.000 مقاتل، وأمر الجيش الروسي بالرحيل عن بولنדה فوراً (مايو 1789)، إما كاترين التي كانت في حاجة لجميع قواتها في مواقع أخرى فلم تقاوم، ولكنها أقسمت على الانتقام. وفي 29 مارس 1790 أبرم الديت تحالفاً مع بروسيا. وكان يونياتوفسكي هو أيضاً قد ثمل الآن بجو الحرية. فنبذ ولاءه لكاترين وتزعم صياغة دستور جديد. وقد نصت شروطه على جعل الملكية وراثية، ولكنها ضمننت وراثية البيت المالك السكسوني للعرش بعد موت يونياتوفسكي الذي لم يعقب. وتقرر أن توسع سلطات التاج التنفيذية بإعطاء الملك حق النقض المعلق-أي حق منع قرار وافق عليه دايت من أن يصبح قانوناً حتى يؤكد الدايت التالي. ونص على أن يعين الملك وزرائه والأساقفة، وأن يتولى قيادة الجيش، وعلى أن ينتخب عددصغير من المواطنين وغيرهم من أهل المدن نواباً. أما الديت فيتألف من مجلسين؛ مجلس للنواب له وحده الحق في وضع القوانين، ومجلس للشيوخ-يتألف من الأساقفة وحكام الأقاليم ووزراء الملك-تشرط موافقته على أي قانون. أما حق النقض المطلق فتحل محله قاعدة الأغلبية. ويعترف بالمذهب الكاثوليكي الروماني ديناً سائداً للأمة، وبعد الارتداد عنه جريمة، وفيما عدا ذلك حرية العبادة مكفولة للجميع. وبقيت الفنية، ولكن للفلاحين الآن أن يستأنفوا دعاوهم من المحكمة الوراثة إلى محكمة إقليمية أو قومية. وكان تأثير الدستور الذي اتخذته الولايات المتحدة الأمريكية (1787-98) واضحاً في هذه التوصيات. ذلك أن البولنديين الذين حاربوا دفاعاً عن المستعمرات الأمريكية كانوا قد هياؤا ذهن يونياتوفسكي، ولم يكن قد نسي قراءته للوك ومنسكيو وجماعة الفلاسفة. ورغبة في ضمان التصديق على مقترحاته لجأ يونياتوفسكي إلى الحيلة. ذلك أن كثيراً من أعضاء الديت ذهبوا إلى مواطنهم لقضاء عطلة عيد القيامة عام 1791، فدعا الملك لانعقاد في 3 مايو، وهو تاريخ أبكر

صفحة رقم : 13680

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولنדה -> التنوير البولندي

من يتيح للأعضاء البعيدين العودة إلى وارسو لحضور الافتتاح الجديد؛ أما النواب القريبون الذين وصلوا في الميعاد فكان أكثرهم أحرار النزعة يمكن الاعتماد عليهم في تأييد الدستور الجديد. وعرض عليهم في القصر الملكي بمجرد اجتماعهم، فقبل بتصفيق جارف، وصدق عليه بأغلبية كبيرة. وقد تذكر البولنديون الوطنيون ذلك اليوم، الثالث من مايو 1791، في فخر واعتزاز، وخلدوه في الأدب والفن والأغاني البولندية.

صفحة رقم : 13681

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولنדה -> تمزيق بولنדה

6- تمزيق بولنדה

1795 - 1792

اعترفت جميع الدول بالدستور الجديد إلا روسيا. ووصفه إدموند بيرك بأنه "أنبل امتياز نالته أمة في أي زمان" وصرح بأنه ستانسلاس الثاني قد تبوأ مكاناً في التاريخ بين عظماء الملوك ورجال الدولة (48)، ولكن هذه الحماسة ربما كانت انعكاساً لابتهاج إنجلترا بهزيمة كاترين. وأخفت الإمبراطورة حيناً عداها لبولنדה الجديدة، ولكنها لم تغفر طرد جيشها منها على عجل، ولا إحلال النفوذ البروسي محل الروسي في الشئون البولندية. فلما أنهت معاهدة ياسي (9 يناير 1792) حربها مع تركيا، وتحررت من الخوف من شريكها السابقين في الجريمة-بروسيا والنمسا-لتورطهما في الحرب ضد فرنسا الثائرة (أبريل 1792)، تلتفت حولها تبحث عن مدخل جديد إلى بولنדה. وقد هياها لها البولنديون المحافظون، إذ وافقوا كاترين كل الموافقة على أن دستور بونيا توفسكي قد صدق عليه ديت جمع على عجل بحيث لم يستطع أشرف كثيرون حضوره. وكان فيلكس بوتوكي وغيره من الأقطاب ساخطين أشد السخط على التخلي عن حق النقض المطلق الذي ضمن لهم القوة أمام السلطة المركزية، ولم يكونوا راغبين في النزول عن حقهم في انتخاب الملك، وفي الهيمنة عليه تبعاً لذلك. ورفض بوتوكي حلف يمين الولاء للمرسوم الجديد، ثم قاد جماعة من النبلاء إلى سانت بطسبرج وطلب إلى الإمبراطورة أن تساعدهم على إعادة الدستور الأقدم (دستور 1775) الذي

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولندة -> تمزيق بولندة

سبق أن تعهدت بحمايته. فأجابت بأنها لا تريد التدخل في بولندة بناء على طلب أفراد قليلين، ولكنها ستنتظر في نداء من أقلية بولندية منظمة يعتد بها، وأحيط فرديريك وليم الثاني علماً بهذه المفاوضات، وكان متورطاً في الحرب ضد فرنسا، كارهاً لخوض حرب ضد روسيا، فأخير الحكومة البولندية (4 مايو 1792) بأنها إن كانت تنوي الدفاع عن دستورها الجديد بقوة السلاح فعليها ألا تتوقع الدعم مع بروسيا (49). وقف بوتوكي إلى بولندة، وألف (14 مايو 1792)، في بلدة بأوكرانيا، اتحاد تارجوفيك، ودعا للانضواء تحت لوائه كل الذين يريدون إعادة الدستور القديم. ولقب أتباعه أنفسهم بالجمهوريين، وأدانوا تحالف بولندة مع بروسيا، وأثنوا على كاترين، والتمسوا بركتها وطلبوا جيشها.

فأرسلتهما جميعاً، وزحف الاتحاديون على وارسو بعد أن توفر لهم هذا الدعم. وكانت دعوتهم إلى "الحرية" قد أحدثت بعض التأثير، لأن مدناً عديدة استقبلتهم استقبالاً للمحررين؛ وفي تريسابول (5 سبتمبر) رحب القوم ببوتوكي كأنه فعلاً ملك بولندة الجديد. ودعا بونياتوفسكي الديت أن يعطيه كل السلطات التي تلزم للدفاع. فعينه دكتاتوراً، ودعا كل الذكور البالغين من البولنديين للخدمة العسكرية، ثم أرفض. وعين بونياتوفسكي ابن أخيه، الأمير يوزف بونياتوفسكي ذا التسعة والعشرين عاماً، قائداً أعلى للجيش الذي وجده مفتقراً إلى التدريب ومجهزاً أسوأ تجهيز. وأمر يوزف جميع كتائب الجيش بأن تنضم إليه في لوبار على نهر سلوتش، ولكن القوات الروسية كانت قد طوقت الكثيرين فلم يستطيعوا الحضور، والذين حضروا كانوا أضعف من أن يقفوا الزحف الروسي. وتقهر الشاب إلى بولون، مركز إمداداته تقهقراً منتظماً أتاحه قتال المؤخرة الباسل بقيادة تاديوس كوتشويسكو، الذي كان قد حارب من قبل في صفوف المستعمرات في أمريكا، وكان وهو في السادسة والأربعين عريقاً في أمجاد الوطنية والحرب.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولندة -> تمزيق بولندة

وفي 17 يونيو 1792 التقى البولنديون بجيش روسي كبير عند زيلنتسي، وهزموه في أول معركة حامية انتصرت فيها بولندة منذ أيام سوبيسكي. هنا أيضاً أثبت كوتشويسكو مهارته، باستيلائه على ربوة سيطرت منها مدفعيته على ساحة المعركة؛ أما يوزف، الذي كان إلى الآن موضع الريبة في كفايته من مرعوسيه الذين في مثلي عمره، فقد كسب احترامهم بقيادته احتياطية من الجنود بشخصه ليكره الروس على التقهقر. وأتلج نبأ النصر صدر بونياتوفسكي، ولكن كاد يغلب هذا النبأ آخر بأن الأمير لودفيج فورتمبرج قائد الجيش البروسي الموكل بالقوات البولندية في لتوانيا، قد هرب من موقعه تاركاً جنوده في حالة من الفوضى أتاحت للروس في 12 يونيو الاستيلاء على فلنو عاصمة لتوانيا دون مشقة.

لم يبق من أسباب الدفاع عن بولندا الآن غير جيش يوزف. وكانت مؤنه وعتاده من الضالة أفواجه إلى الصيام أربعاً وعشرين ساعة، ولم تملك المدفعية غير اثني عشر صندوقاً من الذخيرة. فأمر الأمير بالتقهقر إلى دوينو؛ فلما رمى بالجين ثبت عند دوبيينكا (18 يوليو) واستطاع بجيشه البالغ 12.500 مقاتل أن يتعادل مع 28.000 مقاتل روسي. ثم تقهقر بنظام حسن إلى كوروف، حيث انتظر وصول التعزيزات والمؤن التي وعده بها الملك. ولكن ستانسلاس كان قد ينس. ذلك أن رفض فرديريك وليم الثاني أن ينفذ شروط الحلف البروسي البولندي، وخيانة الأمير لودفج، وهروب المئات من الجيش الذي جمعه في براجاكل أولئك كان فوق ما تطيقه روحه التي لم تكن يوماً ما شديدة البسالة. وعليه فقد أرسل نداءً شخصياً لكاترين يلتمس شروطاً مشرفة، وكان جوابها (23 يوليو) إنذاراً نهائياً يشترط عليه الانضمام إلى اتحاد تاجوفيك وإعادة دستور 1775. وقد صدمته لهجتها التيلم تعرف هوادة ولا لينا؛ أفهذه هي المرأة التي استجابت يوماً لغرامه الطائش؟

صفحة رقم : 13684

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولندا -> تمزيق بولندا

وكان حنانه هو المسيطر عليه الآن. فلقد فكر في المقاومة، وفي التسلح والمضي إلى الجبهة ليقود دفاعاً يائساً؛ ولكن زوجته، وأخته، وابنة أخيه، اشتد بكاؤهم لفكرة موته وما يجره عليهم من الوحدة والأسى، حتى وعد الملك بأنه سيسلم. ثم ما جدوى المقاومة بعد هذا كله؟ فبعد أن قطع الأمل في أي معونة من بروسيا في وقت توقع فيه الهجمات على الجبهة الغربية العزلاء، كيف تستطيع بولندا الوقوف في وجه روسيا؟ ألم يحاول جاهداً أن يبثني الديت عن الاستخفاف بكاترين والمغامرة بكل شيء اعتماداً على وعود بروسيا؟ ألم يلح في طلب جيش كبير حسن التجهيز، وألم يرفض الديت اعتماد المال لهذا الجيش بعد أن وافق على الرجال؟ وحتى لو حقق الجيش البولندي الراهن انتصاراً أو اثنين على الروس، أفلا تستطيع كاترين، المتخمة بالجنود بعد أن أبرمت الصلح مع تركيا، أن ترسل الموجة تلو الموجة من الجنود المدربين المدججين بالسلاح ضد فلوله المبعثرة المختلة النظام؟ فعلام التضحية بمزيد من الأرواح، وإسلام نصف بولندا إلى الخراب، إذا كان التسليم هو النهاية على كل حال؟ أرسل السفير الروسي الجديد، ياكوف سييفرس، إلى أخته وصفاً ملؤه العطف يصور فيه بونيا توفسكي في هذه الساعة، ساعة الانهيار البدني والروحي قال:

"لم يزال الملك (في عامه الستين) رجلاً وسيماً أنيقاً، وإن كان وجهه شاحباً، ولكن في وسع المرء أن يرى أن ستاراً قائماً قد أسدل على روحه. إنه يحسن الحديث، بل يتحدث بفصاحة، وهو مجامل حسن الاستماع دائماً ومع الجميع، ومسكن سيئ، وهو مهمل، مزدري مخذول، ومع ذلك فهو ألطف الناس جميعاً. وإذا غضضت النظر عن منصبه الرفيع، وتأملته من وجهة النظر الشخصية فقط، قلت إن فضائله ترجح رذائله. ولا ريب في أنه أسوأ الملوك حظاً بعد لويس السادس عشر. إنه يحب أقرباءه حباً جماً، وهؤلاء الناس هم علة نكباته كلها(50).

صفحة رقم : 13685

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولنדה -> تمزيق بولنדה

وفي 24 يوليو 1792 قرأ بونياتوفسكي الإنذار النهائي الروسي على مستشاريه الخصوصيين، ونصحهم بأن يركنوا إلى سماحة كاترين وشهامتها. واحتج كثيرون منهم على هذه السذاجة. واقترح أحدهم المدعو مالا خوفسكي أن يجمع في ساعة واحدة 100.000 جولدن لأغراض الدفاع، وألح على أن الجيش البولندي يستطيع حتى إذا اقتضى الأمر التخلي عن وارسو-أن يتقهقر إلى كاركاو ويجند جيشاً جديداً في الجنوب الأهل بالسكان. وهزم اقتراح بونياتوفسكي بالتسليم في المجلس بأغلبية عشرين صوتاً ضد سبعة. ولكنه أبطل قرارهم بحكم سلطته دكتاتوراً، وأمر ابن أخيه بالكف عن المقاومة. ورد يوزف بأن على الملك بدلاً من هذا التسليم أن يبادر إلى الجبهة بما يستطيع جمعه من قوات ويقاثل إلى النهاية. فلما أصر ستانسلاس على انضمام الجيش إلى الاتحاد أرسل إليه جميع الضباط إلا واحداً استقالاتهم وعاد يوزف إلى موطنه السابق في فيينا. وفي 5 أغسطس احتل جيش روسي براجا. وفي أكتوبر أرسل يوزف رجاء إلى عمه يدعو لاعتزال ملكه قبل أن تزول البقية الباقية من الشرف. وفي نوفمبر دخل بوتوكي مع طلائع جيش الاتحاديين وارسو دخول الظافر، وألقى على بونياتوفسكي درساً في واجبات الملك. ولكن انتصار بوتوكي تبين بعد قليل أنه كارثة، لأن الجنود البروسيين دخلوا بولنדה في يناير 1793، وواصلوا زحفهم ليحتلوا داننترج وتورن، دون أن يطلق حلفاء بوتوكي الروس رصاصة ليمنعهم. ووضح أن روسيا وبروسيا قد اتفقتا على تقسيم بولنדה ثانية. وكانت كاترين وفرديريك وليم قد وقعا هذا الاتفاق في 23 يناير، ولكنهما تكتما أمره حتى 28 فبراير. أما بوتوكي فقد استنفر البولنديين من جميع الأحزاب ليهبوا دفاعاً عن بولنדה؛ فضحكوا منه، وندد به يوزف خانناً لوطنه، وتحذاه للمبارزة، ولكن ستانسلاس منعها. وبمقتضى هذا التقسيم الثاني حصلت روسيا على 89.000 ميل مربع من بولنדה الشرقية، يعيش فيها 3.000.000 من السكان، بما في هذا

صفحة رقم : 13686

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولنדה -> تمزيق بولنדה

فلنو ومنسك؛ أما بروسيا فأخذت 23.000 ميل مربع من بولنדה الغربية، يعيش فيها 1.000.000 من السكان بما فيها داننترج وتورن؛ وبقي لبولنדה 80.000 ميل مربع و4.000.000 نسمة-وهو يقرب من نصف ما ترك لها من قبل في 1773. ولم يكن للنمسا نصيب في هذه الغنيمة الثانية، ولكن هدأتها الوعود الروسية بمساعدتها في الحصول على بافاريا. أما الدول الغربية التي كانت لا تزال منهمكة في صراعها مع فرنسا الثائرة فلم تتخذ أي إجراء ضد هذا الاغتصاب الثاني، الذي علته لها كاترين بأنه ضرورة اقتضاها تطور الدعوة الثورية في وارسو، التي تهدد بالخطر جميع الملكيات. ولكي تلبس هذه السرقة ثوب الشرعية أمرت بونيا توفسكي أن يدعو الديت للاجتماع في جرودنو، وأمرته بالحضور بشخصه ليوقع على تحالف مع روسيا فأبى الذهاب أول الأمر، ولكن حين عرضت الوفاء بديونه-التي بلغت الآن 1.566.000 دوقانية-قبل هذا الإذلال الجديد خدمة لدائنيه. وزود السفير الروسي بالمال لرشوة عدد كاف من النواب ليحضروا اجتماع الديت، ولم يجد عناء في رشوة عدة أعضاء من بطانة الملك ليفشوا كل كلمة فاه بها سيدهم وكل عمل أتاه. وأمكن إقناع هذا "الديت الأخير" (17 يونيو إلى 24 نوفمبر 1793) بأن يوقع معاهدة مع روسيا، ولكنه ظل شهوراً أبى التصديق على التقسيم الثاني. وقيل للأعضاء أنهم ممنوعون من مغادرة القاعة حتى يوقعوا، فظلوا على رفضهم وجلسوا صامتين اثنتي عشرة ساعة. ثم طرح الرئيس المسألة للتصويت، فلما لم يسمع جواباً أن السكوت علامة الرضى (25 سبتمبر). وعاد ما بقي من أرض بولنדה محمية روسية؛ وأعيد دستور 1775.

وإذا كان في استطاعة رجل واحد أن يفندي الأمة فذلك هو كوتشيو سكو أمده التشارتوريستيون بالمال فذهب إلى باريس (يناير 1793) والتمس معونة فرنسا لبلد يتعاطف في حرارة مع الثورة الفرنسية. وتعهد بأنه لو مدت فرنسا يد المعونة لبولندا لهب الفلاحون البولنديون في ثورة على القنية، وأهل المدن على النبلاء، وقال إن بونياوفسكي سينزل عن عرشه ليكون النظام جمهورياً، وإن جيشاً بولندياً سيساند فرنسا في حربها مع بروسيا (51).

صفحة رقم : 13687

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولندا -> تمزيق بولندا

ورحب الزعماء الفرنسيون بمقترحاته، ولكن نشوب الحرب مع إنجلترا (فبراير 1793) وغزو الحلفاء لفرنسا، قضيا على كل أمل في تقديم العون لبولندا. وفي غياب كوتشيو سكو جند بعض المواطنين والماسون الأحرار وضباط الجيش جيشاً بولندياً جديداً (مارس 1794). وهرع كوتشيو سكو من درسدن إلى كراكاو لينضم إليه، فعين قائداً أعلى وأعطى سلطات مطلقة، وأمر كل خم بيوت في بولندا أن توافيه بجندي من المشاة، وكل خمسين بفارس، وأمر هؤلاء المجندين بأن يأتوا بما يجمعونه من سلاح، حتى المعاول والمناجل. وفي 4 أبريل هاجم بأربعة آلاف مقاتل نظامي وألفي فلاح مجند قوة عدتها سبعة آلاف روسي في راتسلافيس قرب كراكاو، وهزمها بفضل براعة قيادته من جهة وفاعلية مناجل الفلاحين من جهة أخرى. فلما سمع فريق الرابيديكالين أو "اليقوبيين" في وارسو بهذا النصر نظم رجاله عصياً مسلحاً انضم إليه الزعماء من الطبقة الوسطى في تردد. وفي 17 أبريل هاجم هؤلاء الثوار الحامية الروسية المؤلفة من 7.500 مقاتل، وقتلوا الكثيرين منهم، وهزموا فرقة بروسية من 1650 جندي، وهربت قوات الاحتلال، وخضعت وارسو لحظة للسيطرة البولندية. وحررت انتفاضة كهذه مدينة فلنو (23 أبريل) وشنقت هتمان (زعيم) لتوانيا الأكبر، واستردت أجزاء من بولندا حتى منسك تقريباً. وفي 7 مايو وعد كوتشيو سكو الإقنان بعقدهم، وكفل لهم تملك الأرض التي يزرعونها. وانصوى تحت لوائه خلق كثير من المتطوعين والمجندين حتى اجتمع له في يونيو 1794 (150.000) رجل لم يكن منهم حسن التجهيز أكثر من 80.000. على هؤلاء تدفقت الموجات المتتالية من الجنود الروسية أو البروسية المدربة. وفي 6 يونيو فاجأ جيش متحالف من 26.000 مقاتل البولنديين قرب تشيكوسيني، ولم يتح لكوتشيو سكو من الوقت إلا ما يجلب فيه 14.000

صفحة رقم : 13688

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولندا -> تمزيق بولندا

مقاتل فقط. فهزم بخسائر فادحة، والتمس الموت في المعركة، ولكن الموت راغ منه؛ وتقهقرت فلول البولنديين إلى وارسو. وفي 15 يونيو استولى البروسيون على كراكاو؛ وفي 11 أغسطس استعاد الروس فلنو؛ وفي 19 سبتمبر

أبادت قوة روسية من 12.500 من الجنود المتمرسين بالقتال بقيادة سوفوروف جيشاً بولندياً من 5.500 مقاتل عند تريسابول؛ وفي 10 أكتوبر هزم 13.000 روسي كوتشيووسكو نفسه وهو يقود 7.000 بولندي عند ما سيسجويس، وجرح جرحاً خطيراً وأسر. ولم يفه كما زعمت الأسطورة بصرخه اليأس "لقد قضى على بولندة!" ولكن الهزيمة كانت قاضية على الثورة الباسلة.

أما سوفوروف فقد وحد مختلف الجيوش الروسية واقتحم معسكر البولنديين الحصين في براجا، وراح جنوده الذين أصابهم جنون المعركة يذبجون لا المدافعين فقط بل سكان البلدة المدنيين. وسلم بونياتوفسكي وارسو تقادياً لمذبحة أشد بشاعة. وأرسل سوفوروف كوتشيووسكو وغيره من زعماء الثوار إلى حيث السجن في سانت بطرسبرج، وأرسل الملك إلى جرودنو ليكون رهن إشارة الإمبراطورة. وهناك، في 25 نوفمبر 1795، وقع على اعتزاله الملك. وتوسل إلى كاترين أن تبقى على جزء من بولندة، ولكنها صممت على أن تحل المسألة البولندية بالقضاء على الأمة البولندية كما ظنت. وبعد خمسة عشر شهراً من النزاع، وقعت روسيا وبروسيا والنمسا معاهدة التقسيم الثالث (26 يناير 1797) واستولت روسيا على كورلاند ولتوانيا وغربي بودوليا وفولينيا-181.000 ميل مربع؛ واستولت النمسا على "بولندة الصغيرة" بما فيها من كراكاو ولودلن-45.000 ميل مربع؛ وأخذت بروسيا الباقي بما فيه وارسو-57.000 ميل مربع. وفي التقسيمات الثلاثة كلها استوعبت روسيا نحو 6.000.000 من سكان بولندة البالغين 12.200.000 نسمة (1797)، والنمسا 3.700.000، وبروسيا 2.500.000 نسمة.

صفحة رقم : 13689

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الإسلام والشرق السلافي -> اغتصاب بولندة -> تمزيق بولندة

وفر آلاف البولنديين من وطنهم، وتسلم الأجنبي الأملك المصادرة. وظل بونياتوفسكي في جرودنو، يتسلى بدراسة النبات ويكتب مذكراته. وبعد موت كاترين دعاه بولس الأول إلى سانت بطرسبرج وخصص له القصر الرخامي و100.000 دوقاتية في العام، وهناك مات في 12 فبراير 1798 بعد أن بلغ السادسة والستين. أما كوتشيووسكو فقد أفرج عنه الإمبراطور بولس في 1796، وعاد إلى أمريكا، ثم إلى فرنسا، وواصل جهوده لتحرير بولندة حتى مماته (1817). وما يوزف بونياتوفسكي فقد فر إلى فيينا، وشارك في حملة نابليون على روسيا، وجرح في سمولنسك، وأحسن البلاء في ليبزج، ورقى مارشالاً في الجيش الفرنسي، ومات في 1813 مكرماً حتى من أعدائه. وأما بولندة فلم تعد دولة، ولكنها ظلت شعباً وحضارة، بلوثة الاضطهاد الديني، ولكنها تميزت بعظمة الشعراء والقصاصين والموسيقيين والفنانين والعلماء، ولم تتخل قط عن عزمها على النهوض من جديد.

صفحة رقم : 13690

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> فردريك المظفر

من هذا الغول الذي أثار الخوف والإعجاب دولياً، والذي سرق سيليزيا، وهزم نصف أوربا المتحد ضده، وهزأ بالدين، وازدرى الزواج، وأعطى فولتير دروساً في الفلسفة، واقتطع بعض أوصال بولندة ولو ليمنع روسيا من التهاماً كلها؟

لقد بدأ أقرب إلى الأشباح منه إلى الغيلان يوم عاد حزيناً منتصراً من حرب السنين السبع ودخل برلين (30 مارس 1763) بين تصفيق الجماهير المملقة. كتب إلى دارجنس يقول "إني أن أعود إلى مدينة لن أعرف فيها غير الأسوار، ولن أجد أحداً من معارفي، حين تنتظرنني مهمة ضخمة، وحيث أخلف بعد زمن غير طويل عظامي في مثنوى لا تكدر هدوءه الحرب ولا الكوارث ولا سفالة الإنسان" (1) كانت بشرته قد جفت وتغضنت، وعيناه الزرقاوان الرماديتان داكنتين منتفختين، ووجهه يحمل آثار المعركة والمرارة، وأنه فقط هو الذي احتفظ بجلاله القديم. وقد ظن أنه لن يستطيع الحياة طويلاً بعد أن استنزفت الحرب الطويلة موارده جسداً وعقلاً وإرادة، ولكن زهده مد في أجله ثلاثة وعشرين عاماً آخر. كان مقلداً في طعامه وشرابه، لا يعرف الترف؛ يعيش ويلبس في قصره الجديد ببوتسدام كما لو كان في المعسكر، وكان يرضن بالوقت المخصص للعناية بشخصه؛ وفي سنيه الأخير أفلح عن الحلاقة، واكتفى بجز لحيته بمقص بين الحين والحين؛ ورددت الشائعات أنه لم يكن يستحم كثيراً (2).

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> فردريك المظفر

وأكملت الحرب تقسى خلقه الذي بدأ دفاعاً ضد قسوة أبيه. فكان يتطلع بهدوء رواقى بينما الجنود المحكوم عليهم يمرّون سنّاً وثلاثين مرة (3) بين صفيين من الرجال يجلدونهم. وكان يتعقب موظفيه وقواده ويزعجهم بالجواسيس السريين، والتدخل المفاجئ، واللغة البذيئة، والأجر الشحيح وبضروب من الأوامر التفصيلية تخنق روح المبادرة والاهتمام. ولم يكسب قط حب أخيه الأمير هنري الذي جد وأخلص في خدمته في الدبلوماسية والحرب. وكان له بعض الصديقات، ولكنهن كن يخفنه أكثر مما يحببهن، ولم يسمح لواحدة منهن بدخول دائرة أخصائه. كان يحترم المعاناة الصامتة التي عانتها ملكته التي أهملها، وعند عودته من الحرب فاجأها بهدية من 25.000 طالر؛ ولكن من المشكوك فيه أنه شاركها فرأشها إطلاقاً. ومع ذلك تعلمت أن تحبه إذا رأته بطلاً في المحن مخلصاً في الحكم؛ وكانت تشير إليه في حديثها عنه بعبارة "ملكنا العزيز" و "هذا الملك العزيز الذي أحبه وأعبده" (4). ولم يكن له ولد، ولكنه كان شديد التعلق بكلابه، وكان اثنان منها ينامان عادة في حجرته ليلاً، ربما لحراسته؛ وكان أحياناً يستصحب أحدهما إلى فراشه ليدفنه بحرارة الحيوان. وعندما مات آخر كلابه الكثيرة لديه "بكى اليوم كله" (5). وقد ظن به اللواط (6). ولكننا لا نملك في هذه الشبهة غير التخمين.

وعلى أنه كان يخفي تحت جلده العسكري الصلب عناصر من الحنان نبذر أن كشف عنها أمام الناس. فقد بكى كثيراً لموت أمه، وكان يرد على محبة أخته فلهلمينه الحارة بمحبة مخلصه. وقد وزع على بنات أخيه بعض الأفضال الصغيرة غير الملحوظة. كان يضحك من عواطف روسو المفرطة، ولكنه اغتفر له عداؤه وعرض عليه الملجأ حين نبذه العالم المسيحي. وكان ينتقل بين التدريب الصارم لجنوده و صفير الألحان من نايه. وقد ألف الصوتيات والكونشرتوات والسمفونيات التي شارك في أدائها أمام حاشيته. وسمعه العالم بيرني هناك، وقرر أنه عزف "بضبط شديد، واستهلال صافي منسق، ولعب بالأصابع بديع، وذوق نقي بسيط، ودقة بالغة في التنفيذ، إتقان

صفحة رقم : 13692

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> فردريك المظفر

متساو في كل معزوفاته"، على أن بيرني يضيف إلى ما ذكر أنه في بعض الفقرات الصعبة، ... اضطر جلالته-على عكس ما تقتضيه القواعد-أن يلتقط نفسه ليكمل الفقرة (7). وفي سنوات لاحقة أكرهه ازدياد النهج وفقدان عدة أسنان على الإقلاع عن العزف على الناي، ولكنه استأنف دراسة الكلافير.

وكانت الفلسفة هوايته المحببة بعد الموسيقى. كان يحب أن يشاركه مائدته فيلسوف أو اثنان ليسلخ جلد القساوسة ويستقر قواد الجيش. وكان ثابت القدم كفوّاً لفولتير في رسائله معه. وقد بقي على شكوكيته في حين اعتنق معظم جماعة الفلاسفة العقائد الجازمة والخيالات الشاطحة. وكان أول حاكم في العصور الحديثة يجهر بلا دينيته، ولكنه لم يهاجم الدين علناً. وذهب إلى أن "لدينا من درجات الأرجحية ما يكفي لبلوغ اليقين بأن "لا شيء بعد الموت" (9)، ولكنه رفض حتمية دولباخ وأكد (كرجل هو الإرادة المتجسدة) أن العقل يؤثر على الأحاسيس على نحو خلاق، وأن

في استطاعة العقل أن يسيطر على دوافعنا الفطرية بالتعليم (10) أما حب الفلاسفة إليه فهم (صديقي لوكريتيوس... وإمبراطوري الطيب ماركوس أوريليوس"؟ وعنده أن أحداً لم يضيف إليهما شيئاً ذا بال(11). وقد اتفق مع فولتير على الاعتقاد بأن "الجماهير" تسرف في إنسالها وتقرط ف كدها بحيث لا يتسع لها الوقت للتعليم الحقيقي. ولن يجدي تبصيرها بأوهام اللاهوت إلا في دفعها إلى العنف السياسي. وهو يقول في هذا "إن التتوير نور من السماء للواقفين على القمم، وجمرة مدمرة للجماهير" (12)،

صفحة رقم : 13693

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> فردريك المظفر

وقد أجمل قوله هذا تاريخ مذابح سبتمبر 1792 وإرهاب 1793 قبل أن تبدأ الثورة الفرنسية. وكتب إلى فولتير في أبريل 1759 يقول "فلنعترف بهذه الحقيقة: إن الفلسفة والفنون والآداب لا تنتشر إلا بين قلة من الناس، أما الجماهير العريضة... فتظل كما جبلتها الطبيعة، حيوانات شريرة حاكمة" (13) وكان يسمى النوع الإنساني (في شيء من المزاح). "هذا الجنس الملعون" ويضحك من أحلام الخير والسلام يقول: "إن الخرافة والنفعية والانتقام والخيانة ونكران الجميل سوف تثير المعارك الدامية المحزنة إلى آخر الدهر، لأننا محكومون بالعواطف، ونادراً، جداً بالعقل. ولن تنتقع أبداً الحروب وقضايا المحاكم ومظاهر الدمار والأوبئة والزلازل والتفالييس... وما دام الأمر كذلك، ففي ظني أن هذا الوضع ضرورة لا بد منها... ولكن يلوح لي أنه لو كان هذا الكون قد فطره كائن خير لخلقنا أسعد ما نحن... إن العقل البشري ضعيف، وأكثر من ثلاثة أرباع البشر خلقوا ليخضعوا لأسخف ضروب التعصب. فالخوف من الشيطان والجحيم يبهر عيونهم، وهم يكرهون الرجل الحكيم الذي يحاول تتويرهم... وعبئاً التمس فيهم صورة الله التي يؤكد اللاهوتيون أنهم يحملونها. إن في داخل كل إنسان وحشاً، وقليلون هم الذين يستطيعون ترويضه، وأكثر الناس يرخون له اللجام ما لم يكبحهم الخوف من القانون" (14). وقد خلص فردريك إلى أن السماح للحكومات بأن تتسلط عليها الأغلبية مجلبة للكوارث. فلكي تحيا الديمقراطية يجب أن تكون كغيرها من نظم الحكم-أقلية تقنع الأغلبية بأن تسمح لنفسها بأن تقودها الأقلية. وقد رأى فردريك رأى نابليون فيما بعد من أن "الأرسنقراطية موجودة دائماً بين الأمم وفي الثورات" (15) وأمن بأن الأرسنقراطية الوراثة تربي الإحساس بالشرف والولاء، والرغبة في خدمة الدولة بتضحية شخصية بالغة، لا يمكن توقعها من نوابع البورجوازيين الذين نشأوا بفضل التسابق على الثروة،

صفحة رقم : 13694

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> فردريك المظفر

لذلك أحل بعد الحرب شباب النبلاء محل معظم ضباط الطبقة الوسطى الذين ترقوا في الجيش(16). ولكن بما أن هؤلاء النبلاء المعتزين بعراقتهم قد يصبحون مصدراً للتفتت والفوضى، وأداة للاستغلال، إذن فلا بد من أن يحمي ملك مطلق السلطة الدولة من الانقسام، ويدفع الظلم الطبقي عن عامة الشعب.

وكان فردريك يحب أن يصور نفسه خادماً للدولة والشعب. وربما كان هذا تبريراً لإرادة القوة فيه، ولكنه تسامى بحياته إلى مستوى دعواه. فأضحت الدولة عنده "الكائن الأعلى" الذي يبذل في سبيله نفسه وغيره؛ ومطالب خدمة الدولة تغلب عنده على ناموس الفضيلة الفردية؛ فالوصايا تتوقف عند أبواب الملوك. ووافقته جميع الحكومات على هذه "السياسة الواقعية"، وقيل معظم الملوك النظرة إلى الملكية على أنها خدمة مقدسة. وقد اعتنق فردريك هذا المفهوم من اتصاله بفولتير؛ ومن طريق إصاقهم بفردريك طور الفلاسفة ونظريتهم "الملكية" ومؤداها أن الأمل الأكبر في الإصلاح والتقدم معقود على تنوير الملوك.

وهكذا أصبح برغم حروبه معبود الفلاسفة الفرنسيين، وهذا من عدائهم له، حتى عداء روسو الفاضل. وقد رفض دالامبير طويلاً دعوات فردريك له، ولكنه لم يكف عن الثناء عليه. فكتب لفردريك يقول "إن الفلاسفة والأدباء في كل بلد طالما تطلعوا إليك يا مولاي قائداً ومثالاً لهم"(17) وأخيراً أذعن الرياضي المتحفظ للدعوات المتكررة، وأنفق شهرين مع فردريك في بوتسدام عام 1763. ولم تنتقص الألفه (والمعاش الذي أجراه عليه) من إعجاب دالامبير به. فقد أبهجه إغفال الملك لقواعد التشريرات، وأطربته تعليقاته-لا على الحرب والحكومة فحسب، بل على الأدب والفلسفة أيضاً، وقال لجولي دلسبيناس إن هذا الحديث كان أروع من أي حديث يتاح للمرء سماعه آنئذ في فرنسا(18). فلما ابتأس دالامبير في 1776 حزناً على موت جولي، بعث إليه فردريك برسالة تظهر هذا الغول في ثوب الرجل الحكيم الحنون:

صفحة رقم : 13695

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> فردريك المظفر

"يؤسفني الخطب الذي ألم بك... إن جراح القلب أكثر الجراح إيلاًماً... ولا شيء يبرئها غير الزمن... إن لي لسوء طالعي خطأً وفيروساً جداً من الخبرة بالآلام التي تحدثها خسائر كهذه. وخير دواء هو سيطرة المرء على نفسه ليصرف تفكيره بعيداً... وخليق بك أن تختار بحثاً هندسياً يتطلب العكوف الدائم عليه... إن شيشرون أغرق نفسه في التأليف ليتعزى عن موت حبيبته تلياً... وفي مثل سنك وسني خليق بنا أن نكون أكثر استعداداً للسلوى لأن لحاقنا بمن فجعنا فيهم لن يطول"(19).

ثم حث دالامبير على أن يحضر ثانية إلى بوتسدام "سوف نلطف معاً تفاهة الحياة... وبطلان الرواقية... وسوف أشعر بالسعادة في تهدئة حزنك كأنني انتصرت في معركة". هنا على الأقل ملك أحب الفلاسفة، إن لم يكن ملكاً فيلسوفاً بكل معنى الكلمة.

ولكن هذه المعاملة لم يعد يطبقها على فولتير، ذلك أن خلافاتهما في برلين وبوتسدام، والقبض على فولتير في فرانكفورت-كل هذا ترك جراحاً أعمق من الحزن. وبقي الفيلسوف يعاني الألم والمرارة أطول مما بقي الملك. فأخبر الأمير دالين أن فردريك "لا قدرة له على عرفان الجميل، ولم يعترف قط بجميل إلا للجواد الذي هرب على ظهره في معركته مولفتس"(20). ثم عاد تبادل الرسائل بين ألمع رجلين في القرن حين كتب فولتير إلى فردريك محاولاً أن يثني المحارب اللبانس على الانتحار. وراحا يتبادلان العتاب والمجاملات. وذكر فولتير فردريك بالإهانات التي لقيها الفيلسوف وابنة أخته من عمال الملك، وأحباب فردريك: "لولا صلنك برجل فتن حياً بعقربيتك الرائعة لما أقلت بهذه السهولة... فاعتبر الأمر كله منتهياً، ولا تذكر لي شيئاً بعد اليوم عن ابنة أختك تلك المتعبة"(21). ولكن الملك رغم هذا لاطف الذات المفلسفة على نحو ساحر:

"أتريد كلاماً حلواً؟ حسناً جداً، سأخبرك ببعض الحقائق. إنني أقدر فيك أروع عبقرية ولدتها الأجيال، إنني أعجب بشعرك، وأحب نثرك... ولم يؤت كاتب قبلك مثل هذه اللمسة المرهفة، ولا مثل هذا

صفحة رقم : 13696

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> فردريك المظفر

الذوق الأصيل الرقيق... إنك ساحر في حديثك، تعرف كيف ترفه وتعلم في وقت واحد. إنك أكثر المخلوقات التي عرفتها إغواء... كل شيء في حياة الإنسان يتوقف على الزمان الذي يجيء فيه إلى هذا العالم. وأنا وإن جئت متأخراً جداً، إلا أنني لست بأسف على هذا، لأنني رأيت فولتير،... ولأنه يكتب لي" (22).

وأعان الملك بتبرعاته السخية حملات فولتير دفاعاً عن أسرتي كالاس وسيرفان، وشفق للحرب التي شنها على الكنيسة الكاثوليكية (L,infame)، ولكنه لم يشارك جماعة الفلاسفة ثققتهم في تنوير النوع الإنساني. فقد تنبأ بفوز الخرافة في السباق بينها وبين العقل. فتراه يكتب إلى فولتير في 13 سبتمبر 1766 يقول:

"إن مبشريك سيفتحون أعين قلة من الشباب... ولكن ما أكثر الحمقى الذين لا يعقلون في هذا العالم!... صدقتي، لو أن الفلاسفة أقاموا حكومة فلن يمضي نصف قرن حتى يخلق الشعب خرافات جديدة... قد يتغير موضوع العبادة، كما تتغير الأزياء في فرنسا؛ (ولكن) ما أهمية أن يسجد الناس أمام قطعة من الفطير، وأمام العجل أبيس، أو أمام تابوت العهد، أو أمام تمثال من التماثيل؟ لأيهم الاختيار، فالخرافة واحدة، والعقل لا يكسب شيئاً" (23).

على أن فردريك تصالح مع الدين بعد أن قبله ضرورة بشرية، فحمى كل صورته السلمية بمنتهى التسامح. ففي سيليزيا التي غزاها ترك الكاثوليكية هادئة دون إزعاج، فيما عدا فتحه أبواب جامعة برلين لجميع المذاهب، وكانت من قبل وفقاً على الكاثوليك.. ثم رحب باليسوعيين بصفتهم معلمين ذوي قيمة كبرى، وكانوا بعد أن طردهم الملوك الكاثوليك قد التمسوا ملجأ تحت حكمه اللا أدري. وبالمثل بسط حمايته على المسلمين واليهود والملحدين؛ وفي عهده وفي مملكته مارس كنانة حرية الكلام والتعليم والكتابة، وهي الحرية التي لقيت أشد تعنيف وقضي عليها بعد موت فردريك. وفي ظل هذا التسامح اضمحلت معظم صور الدين في بروسيا. ففي 1780 كان هناك

صفحة رقم : 13697

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> فردريك المظفر

كنسي واحد لكل ألف من سكان برلين، وفي ميونخ ثلاثون(24). وقد ذهب فردريك إلى أن التسامح سيقضي على الكاثوليكية عاجلاً. كتب إلى فولتير في 1767 يقول "لا بد من حدوث معجزة لكي تعود الكنيسة الكاثوليكية إلى سابق عزاها، فلقد أصيبت بسكتة دماغية خطيرة، وسوف يمد في أجلك لتعزى بدفنها وكتابة قبريتها" (25). ولكن أشد الشكاك غلواً في شكوكيته نسي لحظة أن يشك في الشكوكية.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> إعادة بناء روسيا

2- إعادة بناء روسيا

لم يكد حاكم في التاريخ في صناعة الحكم كما كد فردريك، ربما باستثناء تلميذه جوزيف الثاني إمبراطور النمسا، كان يأخذ نفسه كما يأخذ جنوده بالتدريب الشاق، فيستيقظ عادة في الخامسة، وأحياناً في الرابعة، ويشغل حتى السابعة، ثم يفطر، ويجتمع بمساعديه حتى الحادية عشرة، ويستعرض حرس قصره، ويتناول الغذاء في النصف بعد الثانية عشرة مع الوزراء والسفراء، ثم يعمل حتى الخامسة، وعندها فقد يسترخي بالموسيقى والأدب الحديث. أما عشاء "نصف الليل" بعد الحرب، فكان يبدأ في التاسعة والنصف، وينتهي في الثانية عشرة، ولم يسمح لأي روابط أسرية بأن تصرفه عما هو عاكف عليه، ولا لأي مراسم بلاطية بأن تنقله، ولا لأي عطلات دينية بأن تقطع عليه كده، وكان يراقب وزرائه، ويملي كل خطوة تقريباً من خطوات السياسة، ويرقب حالة الخزانة، وقد أنشأ فوق الحكومة كلها ديواناً للمحاسبات، خول له سلطة فحص أي مصلحة في أي وقت. وأصدر إليه تعليماته بأن يبلغ عن أي شبهة مخالفة. وكان يعنف في معاقبة الانحراف أو عدم الكفاية عنفاً اختفى معه من بروسيا أو كاد ذلك الفساد الحكومي الذي استشرى في كل بلد آخر من بلدان أوروبا.

وكان يعتز بهذا العمل، وبسرعة إفاقة وطنه مما حاق به من دمار. بدأ بألوان من الاقتصاد في بيته أثارت السخرية من بلاطي النمسا وفرنسا المسرفين رغم أنهما بلدان مهزومان. فكان البيت الملك يدار باقتصاد شديد كأنه بيت حرفي. فصوان ملابسه لا يحوي غير حلة جندي، وثلاثة معاطف قديمة، وصدريات

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> إعادة بناء روسيا

متسخة بالنشوق، ورداء رسمي لازمه طوال حياته. وقد طرد بطانة أبيه من الصيادين وكلاب الصيد. ولم بين أسطولاً، ولم يسع إلى تلك المستعمرات. وكان موظفوه يتقاضون أجوراً زهيدة، وقد أنفق بمثل هذا البخل على البلاط المتواضع الذي احتفظ به في برلين حينما هو مقيم في بونستدام. ومع ذلك فقد حكم إيرل تشستر فيلد عليه بأنه أكثر بلاط في أوروبا أدباً وتآلقاً ونفعاً لشباب أن يوجد فيه، "ثم أردف قائلاً: "سترى فنون الحكم وحكمته في ذلك البلد الآن (1752) خيراً مما تراها في أي بلد آخر في أوروبا" (26). على أنه بعد عشرين سنة من هذا التاريخ كتب اللورد

المسبري، السفير البريطاني لدى بروسيا، ربما لتعزية لندن، يقول إنه "ليس في تلك العاصمة (برلين) رجل فاضل واحد ولا امرأة عفيفة واحدة" (27).
على أن فردريك كان يكبح شحه إذا اتصل الأمر بالدفاع القومي. فسرعان ما أعاد جيشه إلى سابق قوته بفضل الإقناع والتجنيد الإجباري؛ فهذا السلاح الذي في متناوله هو وحده الذي يتيح له صيانة وحدة أراضي بروسيا أمام أطماع جوزيف الثاني وكاترين الثانية. وكان على ذلك الجيش كذلك أن يدعم القوانين التي هيأت النظام والاستقرار للحياة البروسية. وقد أحس أن القوة المركزية هي البديل الوحيد للقوة المختلة الممزقة توضع في أيدي الأفراد. وكان يؤمل أن تتطور الطاعة بدافع الخوف من القوة، إلى طاعة بدافع الاعتقاد على القانون-وهي قوة اختزلت إلى قواعد وأخفت برائتها.
وقد جدد أمره للفقهاء بأن ينسقوا في نظام قانوني واحد (قانون بروس عام) التشريع المتنوع المتناقض للكثير من الأقاليم والأجيال. وكانت هذه المهمة قد توقفت بموت صموئيل فون كوكسيجي (1755) وبنشوب الحرب، فاستأنفها الآن المستشار يوهان فون كارمر وعضو المجلس الخاص ك. ج. سفاريتس، واستكملت في 1791. وقد سلم القانون الجديد بوجود الإقطاعية والقنية، ولكنه حاول في

صفحة رقم : 13700

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> إعادة بناء روسيا

هذه الحدود أن يحمي الفرد من الطغيان أو الظلم الخاص أو العام. فألغى المحاكم التي لا ضرورة لها. وقلل من الإجراءات القانونية وعجلها، وخفف العقوبات، وصعب الشروط اللازمة للتعيين في وظائف القضاء. وتقرر ألا ينفذ حكم بالإعدام إلا بتصديق الملك، وفتح للجميع باب الاستئناف أمام الملك. وقد اكتسب سمعة العدالة المحايدة، وسرعان ما اعترف الجميع للمحاكم البروسية بأنها أنزه وأكفأ المحاكم في أوروبا (28).
وفي 1763 أصدر فردريك النظام التعليمي العام ليثبت ويوسع التعليم الإلزامي الذي أعلنه أبوه في 1716-17. فتقرر أن يذهب كل طفل في بروسيا من سن الخامسة إلى الرابعة عشرة إلى المدرسة. ومن صفات فردريك المميزة إسقاط اللاتينية من منهج التعليم الأولى، وتعيينه قدامى الجند معلمين، وجعله منظم التعليم يجري بتدريب أشبه بالتدريب العسكري (29). وقد أضاف الملك: "من الخير أن يعلم المدرسون في الريف الأحداث الدين والأخلاق... وحسب أهل الريف أن يتعلموا القليل من القراءة والكتابة... ولا بد من تخطيط التعليم... بحيث يبقى عليهم في القرى ولا يؤثر عليهم ليهجروها" (30).

وحظي تجديد البناء الاقتصادي بالأولوية في الوقت والمال. فبدأ فردريك باستخدام المال الذي جمع من قبل لحملة حربية أخرى زالت الحاجة إليها الآن في تمويل تعمير المدن والقرى وتوزيع الطعام على المجتمعات الجائعة، وتقديم البذور للزراعات الجديدة؛ ثم وزع على المزارع ستين ألف حصان أمكن توفيرها من الجيش. وبلغت جملة المبالغ التي أنفقت على أعمال الإغاثة العامة 20.389.000 طالر (31). وأعفيت سيليزيا التي اجتاحتها الحرب من الضرائب ستة أشهر؛ وبنى فيها ثمانية آلاف بيت في ثلاث سنين، وقدم مصرف عقاري المال للفلاحين السيليزيين بشروط ميسرة. وأسست جمعيات للتسليف في مراكز شتى لتشجيع التوسع الزراعي. وصرفت مياه منطقة المستنقعات الممتدة على الأودر الأدنى، فهيأت أرضاً صالحة للزراعة لخمسين ألف رجل. وبعث المندوبون إلى الخارج لدعوة مهاجرين إلى بروسيا، فجاء منهم 300.000 (32).

صفحة رقم : 13701

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> إعادة بناء روسيا

ولما كانت التقنية تربط الفلاح بسيدته، فإنه لم توجد في بروسيا حرية الانتقال إلى المدن، تلك الحرية التي يسرت في إنجلترا تطور الصناعة السريع. وقد جهد فردريك بكل الوسائل للتغلب على هذا المعوق. فأقرض الملتزمين المال بشروط ميسرة، وأجاز الاحتكارات المؤقتة، واستورد العمال، وفتح مدارس الصنائع، وأنشأ مصنعاً للبرسلان في برلين. وناضل لينشئ صناعة الحرير، ولكن أشجار التوت ذبلت في برد الشمال. وشجع التعدين النشط في سيليزيا الغنية بالمعادن. وفي 5 سبتمبر 1777 كتب إلى فولتير كما يكتب أحد رجال الأعمال لزميل له يقول: "إنني عائد من سيليزيا راضياً عنها الرضى كله... فقد بعنا للأجانب ما قيمته 5.000.000 كراون من التيل، و1.200.000 كراون من القماش... وقد أمكن اكتشاف طريقة لتحويل الحديد إلى صلب أبسط كثيراً من طريقة ريبومور" (33).
وتسهيلاً للتجارة ألغى فردريك المكوس الداخلية ووسع الموانئ، وحفر القنوات وشق ثلاثين ألف ميل من الطرق الجديدة. أما التجارة الخارجية فقد عاقبتها الرسوم المرتفعة على الواردات والحظر المفروض على تصدير السلع الاستراتيجية؛ واقتضت الفوضى الدولية حماية الصناعة الوطنية لضمان الاكتفاء الصناعي في الحرب. ورغم ذلك نمت برلين قلباً للتجارة وللحكومة: ففي 1721 كانت تضم من السكان 60.000، وفي 1777 زادوا إلى 140.000 (34). لقد كانت تتهباً لتصبح عاصمة لألمانيا.
ولكي يموم فردريك هذا المزيج من الإقطاعية، والرأسمالية، والاشتراكية، والأوتقراطية، اقتضى شعبه من الضرائب قدراً يقرب مما رد عليهم من نظام اجتماعي وإعانات مالية وأشغال عامة. واحتفظ للدولة باحتكار الملح والسكر والتبغ والبن (بعد 1781)، وامتلك ثلث الأرض الصالحة للزراعة (35). وفرض الضرائب على كل شيء، حتى على المغنين الجائلين واستقدم هلفتيوس ليخطط له نظاماً محكماً في جميع الضرائب. وكتب

صفحة رقم : 13702

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> إعادة بناء روسيا

سفير إنجليزي يقول: "إن مشروعات الضرائب الجديدة نفرت الشعب حقاً من ملكهم" (36). وقد ترك فردريك عند موته في خزانة الدولة 51.000.000 طالر هو ما يعادل إيراد الدولة السنوي مرتين ونصفاً.
وفي 1788 نشر ميرابو (الابن) بعد زيارات ثلاث لبرلين تحليلاً مدمراً عنوانه "في النظام الملكي البروسي تحت حكم فردريك الأكبر". وكان قد ورث عن أبيه مبادئ الفريوقراطيين التي تنادي بالمشروعات الحرة، لذلك أدان نظام فردريك باعتباره دولة بوليسية، وبيروقراطية تخنق كل روح للمبادرة وتعدو على كل حرية شخصية. وكان في وسع فردريك أن يرد على هذه التهم بأنه لو انتهج سياسة "عدم التدخل Laissez Faire" في حالة الفوضى التي ضربت أطناها في بروسيا عقب حرب السنين السبع لأفسدت عليه هذه السياسة انتصاره بما تجر من فوضى اقتصادية. لقد كان التوجيه أمراً حتمياً، وكان هو الرجل الوحيد الذي يستطيع القيادة الفعالة، وهو لا يعرف شكلاً من أشكال القيادة غير قيادة القائد الحربي لجنوده. لقد أنقذ بروسيا من الهزيمة والانهايار، ودفع الثمن يفقدانه حب شعبه له؛ وقد فطن إلى هذه النتيجة، وعزى نفسه بمبررات أخلاقية:

"إن البشر يتحركون إذا حثتهم على الحركة، ويقفون إذا كفتت عن دفعهم... والناس مقلون في القراءة، زاهدون في أن يتعلموا كيف يمكن التصرف في أي شيء بطرق مختلفة. أما أنا، أنا الذي لم أصنع بهم قط غير الخير، فهم يظنون

أنني أريد أن أضع سكيناً على حلوهم بمجرد أن يلوح احتمال إدخال أي تحسين مفيد، لا بل أي تغيير على الإطلاق. في مثل هذه الحالات اعتمدت على شرف هدفي وسلامة ضميري، وعلى المعلومات التي أملكها، ثم مضيت في طريقي هادئاً" (37).
وقد انتصرت إرادته. فازدادت بروسيا حتى في حياؤه غنى وقوة. وتضاعف عدد سكانها، وانتشر فيها التعليم، وأخفى التعصب الديني رأسه. صحيح أن هذا النظام الجديد اعتمد على الاستبداد المستتير، وأن هذا الاستبداد

صفحة رقم : 13703

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> إعادة بناء روسيا

بقي بغير الاستتارة بعد أن مات فردريك، وأن الهيكل القومي اعتراه الضعف وانهار في فيينا أمام إرادة تعادل إرادة فردريك قوة وجبروتاً. ولكن الصرح النابليوني أيضاً، الذي اعتمد على إرادة رجل واحد وتفكيره، انهار هو أيضاً، وفي خاتمة المطاف كان بسمارك، وريث فردريك والمستفيد البعيد في تركته، هو الذي عاقب فرنسا التي سيطر عليها وريث نابليون، وهو الذي جعل من بروسيا وعشرات الإمارات دولة موحدة قوية هي ألمانيا.

صفحة رقم : 13704

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> الإمارات

3- الإمارات

لنذكر أنفسنا من جديد بأن ألمانيا لم تكن في القرن الثاني عشر أمة بل اتحاداً مفككاً من دول مستقلة تقريباً، قيات صورياً الإمبراطور "الروماني المقدس" في فيينا رأساً لها، وأوفدت ممثلين لها بين الحين والحين إلى ديت إمبراطوري (رايشستاغ)، أهم وظائفه الاستماع إلى الخطب، واحتمال عبء المراسم، وانتخاب إمبراطور جديد. وكان للدول لغة وأداب وفنون مشتركة، ولكنها تباينت في العادات والزي والعملية والعقيدة. وكان في هذا التفتت السياسي بعض الفوائد: فتعدد بلاطات الأمراء كان موافياً لتنوع الثقافات تنوعاً مشجعاً؛ وكانت الجيوش صغيرة بدلاً من أن تكون متحدة فتصبح مصدر إرهاب لأوروبا؛ ثم إن سهولة الهجرة فرضت على الدولة والكنيسة والشعب قسطاً كبيراً من التسامح في الدين والعادات والقانون. وكانت سلطة كل أمير مطلقة من الناحية النظرية، لأن المذهب البروتستنتي كرس "حق الملوك الإلهي". أما فردريك، الذي لم يقر بأي حق إلهي غير حق جيشه، فقد سخر من "معظم الأمراء الصغار، لا سيما الألمان منهم" الذين "يدمرون أنفسهم بالإشراف السفية إذ يضللهم الوهم بعظمتهم

المتصورة، فأصغر ابن لأصغ ابن لأسرة مقطعة يخيل إليه أنه من طراز لويس الرابع عشر، فيبني فرسايه، ويقتني الخيليات، ويحتفظ بجيش... له من القوة ما يكفي لخوض... معركة على مسرح فيرونا" (38).

صفحة رقم : 13705

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> الإمارات

وكانت أهم هذه الإمارات سكسونيا. وقد دالت دولة فنها ومجدها يوم تحالف أميرها الناخب فردريك أوغسطس الثاني مع ماريا تريزا ضد فردريك الأكبر، فقصف الملك القاسي درسدن ودمرها عام 1760 وفر الناخب إلى بولندة بصفته ملكها أوغسطس الثالث، ثم مات في 1763. وورث حفيده فردريك أوغسطس الثالث الإمارة الناخبة وهو في الثالثة عشرة، واكتسب لقب (العادل)، وحول سكسونيا إلى مملكة (1806)، واحتفظ طوال تقلبات كثيرة بعرشه إلى أن مات (1827).

ويدخل كارل أويجن، دوق فورتمبرج، قصتنا في المقام الأول باعتباره صديقاً ثم عدواً لشيلر. وقد فرض الضرائب على رعاياه ببرااعة لا ينضب معينها، وباع عشرة آلاف من جنوده لفرنسا، واحتفظ ببلاط كان في رأي كازانوف "المع بلاط في أوربا" (39)، حوى مسرحاً فرنسياً، وأوبرا إيطالية، وسلسلة من المحظيات. وبعيننا أكثر منه في قصتنا كارل أوغسطس، دوق ساكسي-فايمار الحاكم من 1775 إلى 1828؛ ولكننا سنراه في مظهر أكثر بهاء وهو محاط بنجوم أنورا سماء ملكه-فيلاند، وهردر، وجوته، وشيلر. وكان واحداً من فريق "المستبدين المستنيرين" الصغار الذين ساهموا في هذا العصر في نهضة ألمانيا حين شعروا بتأثير فولتير وبالمثال الذي ضربه فردريك. ونهج نهج هؤلاء رؤساء الأساقفة الذين حكموا مونستر وكولون وتريبير وماينز وفورتزبورج-بامبرج باستكثارهم من المدارس والمستشفيات، وخدمهم من إسراف البلاط، وتخفيفهم من الفوارق الطبقيّة، وإصلاحهم السجون، وتقديمهم الإعانات للفقراء، وتحسينهم أحوال الصناعة والتجارة. كتب آدموند بيرك يقول "ليس من السهل أن نجد أو نتصور حكومات أكثر اعتدالاً وتسامحاً من هذه الإمارات الكنسية" (40).

على أن الفوارق الطبقيّة كانت تؤكد في أكثر الدول الألمانية باعتبارها جزءاً من أسلوب الضبط الاجتماعي. فكان النبلاء والاكليروس وضباط الجيش وأرباب المهن والتجار والفلاحون يؤلفون طبقات منفصلة؛ وداخل كل فئة من هؤلاء درجات ومراتب صلبت كل منها ذاتها باحتقار المرتبة

صفحة رقم : 13706

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> الإمارات

الأدنى منها. وكان زواج الفرد خارج طبقته أمراً مستحيلاً تقريباً، ولكن بعض التجار والماليين اشتروا النبالة. واحتكر النبلاء المناصب العليا في الجيش والحكومة، وقد اكتسب كثيرون منهم امتيازاتهم ببسالتهم أو كفايتهم ولكن الكثيرين

كانوا عالة على المجتمع، لا يفضلون الحلل التي يرتدونها، يتنافسون على المكان الاجتماعي المقدم في البلاط، ويتبعون الموضوعات الفرنسية في اللغة والفلسفة والخليقات. ومما يذكر بالفخر لأمرأة ألمانيا الغربية وأساقفتها ونبلائها أنه لم يحل عام 1780 حتى كانوا قد أعتقوا فلاحهم الأفتان، وبشروط يسرت الانتشار الواسع للرخاء في الريف. وقد ذهب رانيهولد لنتس إلى أن الفلاحين مخلوقات أفضل-أكثر بساطة ووداً وفطرية-من التجار الذين يحصون الدراهم أو شباب النبلاء الذين يختالون كبيراً (41). وقد صورت سيرة هينريش يونج الذاتية (1777) حياة القرية في كدها اليومي وفي مهرجاناتها الموسمية في صورة مثالية؛ ووجد هرذر أغاني الفلاحين الشعبية أصدق وأعمق من شعر الكتب؛ ووصف جوته في كتابه (الشعر والحقيقة) الاحتفال بموسم صنع الخمر بأنه "يغمر بالفرح إقليمياً بأسره" من صواريخ وغناء ونببذ (42). كان هذا جانباً من المشهد الألماني؛ أما الجانب الآخر فكان الجهد الشاق والضرائب المرتفعة والنساء يشخن في الثلاثين والأطفال الأميين يرتدون الأسمال وينسولون في الشوارع. قالت إيفا كونيغ لليننج في 1770 "في إحدى المحطات تزاحم حولي... ثمانون شحاذاً... وفي ميونيخ جرت ورائي أسر بأكملها وأفرادها يصيحون بأنني بالتأكيد لن أتركهم يموتون جوعاً" (43).

لقد كانت الأسرة في القرن الثامن عشر أهم من الدولة أو المدرسة. أو المدرسة. وكان البيت الألماني المصدر والمركز للتهديب الخلقي، والنظام الاجتماعي، والنشاط الاقتصادي. ففيه يتعلم الطفل أن يطيع أباً صارماً، ويلوذ بأُم محبة، ويشترك في سن مبكرة في مختلف الواجبات البناءة التي تملأ فراغ اليوم. وقصيد شيلر "أغنية الجرس" تعطينا صورة مثالية ترى فيها "الزوجة الشديدة التواضع... تحكم دائرة الأسرة بحكمة، وتدريب

صفحة رقم : 13707

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> الإمارات

البنات، وتكبح تهور الأولاد، وتعكف في كل لحظة من فراغها على نولها" (44). وكانت الزوجة خاضعة لزوجها، ولكنها معبودة أبنائها. أما خارج البيت، إلا في قصور الأمراء، فكان الرجال عادة يقصون النساء عن حياتهم الاجتماعية، ومن ثم كان حديثهم ينحو إلى الإملال أو البذاءة. أما في قصور الأمراء فكان هناك كثير من النساء المثقفات المهذبات السلوك. ويرى إكرمان أن بعضهن "يكتبن بأسلوب رائع ويفقن في هذا كثيراً من أشهر مؤلفينا" (45). وكان على نساء الطبقة العليا في ألمانيا، كما في فرنسا، أن يتعلمن الإغماء جزءاً من بضاعتهم، والاستعداد لذرف الدموع دليلاً على رقة شعورهن. أما أخلاق البلاط فقد اقتدت بالمثل الفرنسية في الشراب والقمار والفسق والطلاق. تقول مدام دستال أن النبيلات من النساء كن يبذلن أزواجهن "في غير مشقة وكأنهن يرتبن أحداث تمثيلية"، وكن يفعلن هذا "بقليل من مرارة النفس" (46). وضرب الأمراء المثل في السلوك اللا أخلاقي ببيع جنودهم للحكام الأجانب؛ وهكذا بنى حاكم هسي-كاسل قصرأ أنيقاً، وأنفق على بلاط مترف، من حصيلة إيجاره في جنوده. وبلغ مجموع ما باعه الأمراء الألمان-أو ما "أقرضوه" على حد تعبيرهم-خلال الثورة الأمريكية ثلاثين ألف جندي لإنجلترا مقابل 500.000 جنيه؛ ومن هؤلاء 12.500 لم يعودوا قط (47). ولم يبد ألمان القرن الثامن عشر خارج بروسيا ميلاً يذكر للحرب وهم يتذكرون أهوال القرن السابع عشر. ويبدو أن "الخلق القومي" يمكن أن يطراً عليه التغيير من قرن لآخر. وكان الدين في ألمانيا أطوع للدولة منه في الأقطار الكاثوليكية. كان منقسماً إلى ملل ونحل، فحرم بذلك من حبر أعظم مرهوب ينسق عقيدته واستراتيجيته ودفاعه؛ وكان قادة الدين يعينهم الأمير، ودخل الدين يعتمد على مشيئته. وكان إيماناً قوياً في الطبقتين الوسطى والدنيا؛ ولم يتأثر بموجات الإلحاد التي تدفقت من إنجلترا وفرنسا غير النبلاء والمفكرين وبعض الأكليروس. وكان إقليم الراين أكثره من الكاثوليك، ولكن في هذا الإقليم بعينه شهدت هذه الحقبة قيام حركة تتحدى سلطة البابوات في جرة.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> الإمارات

وبيان ذلك أنه في 1763 نشر يوهان نيكولاوس فون هونتاييم، أسقف تريير المساعد، متخفياً وراء اسم مستعار هو يوستينوس فيرونوس، رسالة باللاتينية في "حالة الكنيسة، وسلطة بابا روما الشرعية" وترجم الكتاب من اللاتينية إلى الألمانية والفرنسية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية، وأحدث ضجة في جميع أرجاء غربي أوروبا. وقد قبل "فيرونوس" سيادة البابا، ولكن على أنها سيادة شرف وإدارة تنفيذية؛ فالبابا غير معصوم، وينبغي أن يتاح استئناف قراراته أمام مجمع عام تكون له السلطة التشريعية النهائية في الكنيسة. وكان المؤلف سيء الظن بالتأثير المحافظ المستور للبلاط البابوي (الكيوريا)، و ألمع إلى أن التركيز المفرط للسلطة الكنسية تمخض عن حركة الإصلاح البروتستنتي؛ وقد تيسر اللامركزية رجوع البروتستنت إلى أحضان الكنيسة الكاثوليكية. وفي مسائل القانون البشري، لا الإلهي، يحق للأمرء العلمانيين أن يرفضوا طاعة البابوية، ولهم-إن لزم الأمر-حتى فصل كنائسهم القومية عن روما. وأدان البابا الكتاب (فبراير 1764)، ولكنه أصبح كتاب "صلاة للحكومات" (48) وقد رأينا تأثيره على يوزف الثاني.

ومال رؤساء أساقفة كولون وتريير وماينز وسالزبورج لآراء "فيرونوس"، فقد رغبوا في الاستقلال عن البابا استقلال الإمارات الأخرى عن الإمبراطور. وعليه ففي 25 سبتمبر 1786 أصدروا "بيان إيمس التمهيدي" (قرب كوبلنتز) الذي كان خليقاً بإحداث حركة إصلاح بروتستنتي جديدة لو أخرج إلى حيز التنفيذ: "إن البابا أعلى سلطة في الكنيسة وسيظل أعلى سلطة فيها... ولكن الامتيازات (البابوية) التي لا تتحدر عن القرون المسيحية الأولى بل هي مبنية على المراسيم الإيزادورية الباطلة، والتي تنتقص من قدر الأساقفة... لم يعد في الإمكان أن تعد قانونية، فهي تنتمي إلى اغتصابات الكيوريا الرومانية؛ وللأساقفة الحق (ما دامت الاحتجاجات السلمية لا تجدي) في صيانة حقوقهم الشرعية تحت حماية الإمبراطور الألماني-الروماني.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> الإمارات

ويجب ألا يكون هناك بعد اليوم أي استئنافات (من الأساقفة) أمام روما.. وألا تتلقى الطرق (الدينية) أي توجيهات من رؤساء أجنبية، ولا أن تحضر مجامع عامة خارج ألمانيا. ويجب ألا ترسل أية تبرعات لروما... وألا تملأ روما الوظائف الكنسية الشاغرة ذات الدخول، بل تملأ بانتخاب قانوني للمرشحين الوطنيين... وينبغي أن ينظم هذه الأمور وغيرها مجمع قانوني ألماني" (49).

ولم يؤيد الأساقفة الألمان هذا الإعلان خوفاً من قوة الكيوريا المالية، ثم أنهم ترددوا في الاستعاضة عن سيادة روما النائية بسلطة الأمراء الألمان المباشرة والأصعب تفادياً. وهكذا انهارت الثورة الوليدة. وعدل هونتهايم عن أقواله (1788)، وسحب رؤساء الأساقفة بيانهم التمهيدي (1789)، وعادت الأمور كلها تسير سيرتها الأولى.

صفحة رقم : 13710

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> عصر التنوير الألماني

4- عصر التنوير الألماني

ولكن ليس بكل معنى العبارة فالتعليم، باستثناء الإمارات الكنسية، كان قد انتقل من سيطرة الكنيسة إلى سيطرة الدولة. فأساتذة الجامعات تعينهم الحكومة وتدفع رواتبهم (في تقتير مخجل)، ولهم وضع الموظفين العموميين. ومع أن جميع المدرسين والطلاب كان يشترط عليهم الإقرار بأنهم يدينون بمذهب الأمير، إلا أن الكليات الجامعية، حتى سنة 1789، كانت تتمتع بقدر متزايد من الحرية الأكاديمية. وحلت الألمانية محل اللاتينية لغة للتعليم. وكثرت المقررات الدراسية في العلوم والفلسفة، وتوسع في تعريف الفلسفة (في جامعة كونزبرج على عهد كانط) بأنها "القدرة على التفكير، وعلى البحث في طبيعة الأشياء دون تعرضات أو مذهبية" (50). وقد طلب كارل فون تسيدلنس وزير التربية المخلص في عهد فردريك الأكبر، إلى كانط أن يقترح طرقاً "لصد الطلاب في الجامعات عن دراسات "أكل العيش"، وإفهامهم أن القليل الذي يتعلمونه من القانون، لابل اللاهوت والطب، سيكون أيسر استيعاباً وأمن تطبيقاً لو ملكوا ناصية المعرفة الفلسفية" (51).

صفحة رقم : 13711

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> عصر التنوير الألماني

وقد حصل الكثير من فقراء الطلاب على معونة حكومية أو أهلية لمواصلة التعليم الجامعي، وإنها لقصة مبهجة تلك التي روي فيها إكرامان كيف كان جيرانه الرحماء يمدون إليه يد المعونة في كل خطوة من خطى تطوره (52). ولم يكن بين جماعة الطلاب تفرقة طبقية (53). فكل خريج يسمح له بأن يحاضر تحت رعاية الجامعة مقابل أي رسم يستطيع جمعه من المستمعين، وقد بدأ كانط حياته المنهنية على هذا النحو؛ وكانت مناقسة المعلمين الجدد لقداماهم تحفز هؤلاء على أن يكونوا مستعدين في كل لحظة. وقد حكمت مدام دستال على الجامعات الألمانية الأربع والعشرين بأنها "أرقى الجامعات علماً في أوروبا. فليس في أي قطر، ولا حتى في إنجلترا، وسائل بهذه الكثرة للتعليم أو للارتقاء

بقدرات الإنسان إلى الكمال... ومنذ عصر الإصلاح البروتستنتي تفوقت الجامعات البروتستنتية على الكاثوليكية تفوقاً لا جدال فيه، ويرتكز مجد ألمانيا الأدبي وفخرها على هذه المعاهد" (54). وانتشر الإصلاح التعليمي وشاع في الجو. فأصدر يوهان بازدوا مستلهماً قراءته لروسو في 1774 كتاباً من أربعة مجلدات عنوانه "المبادئ" رسم مخططاً لتعليم الأطفال بطريق المعرفة المباشرة بالطبيعة؛ فيجب أن يكتسبوا الصحة والعافية بالألعاب والتمرينات الرياضية؛ وأن يتلقوا الكثير من تعليمهم في الهواء الطلق بدلاً من أن يلزموا مكاتبهم؛ وأن يتعلموا اللغات لا بالأجرومية والصم بل بتسمية الأشياء والأفعال التي يصادفونها في خبراتهم اليومية؛ وأن يتعلموا الأخلاق بتأليف جماعاتهم وتنظيمها؛ وأن يتهيأوا للحياة بتعلم حرفة ما. والدين يدخل في المنهج لا بالصورة القديمة الغالبة؛ وكان بازدو ينتشك في عقيدة التثليث جهاراً (55) وأنشأ في دساو (1774) معهداً خيرياً نموذجياً أخرج تلاميذ، صدمت الكبار "وقاحتهم، وسلطتهم، وسعة علمهم وخيالهم" (56)، ولكن هذا "التعليم التقدمي"، كان منسفاً مع حركة التنوير، فانتشر سريعاً في طول ألمانيا وعرضها. وكانت التجارب في مضممار التعليم جزءاً من الاختمار الفكري الذي

صفحة رقم : 13712

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> عصر التنوير الألماني

اضطربت به البلاد بين حرب السنين السبع والثورة الفرنسية. فكثرت الكتب والجرائد والمجلات والمكتبات المتقلة وأندية القراءة كثرة ملؤها الحماسة. وانبثقت الحركات الأدبية العديدة، ولكل منها أيديولوجيتها ومجلتها وقادتها. وكانت أول جريدة يومية ألمانية "داي لبتزج ذيتونج" قد بدأت عام 1660، فلم يحل عام 1784 حتى كان هناك 217 جريدو يومية و أسبوعية في ألمانيا. وفي 1751 بدأ ليسنج يحرر القسم الأدبي من "فوسيك ديتونج" في برلين؛ وفي 1772 أصدر ميرك وجوته هردر "أنباء فرانكفورت الأدبية؛ وفي 1773-89 جعل فيلاند من "در تيونش مركز" أكثر المجالات الأدبية في ألمانيا نفوذاً. وكان هناك ثلاثة آلاف مؤلف ألماني في 1773، وستة آلاف في 1787، وفي لبيزج وحدها 133. وكثيرون منهم كانوا كتاباً يعملون بعض الوقت. وربما كان ليسنج أول ألماني تعيش من الأدب سنين كثيرة. وكان جل المؤلفين فقراء، لأن حق التأليف لم يحممهم إلا دخل إماراتهم؛ واختزلت الطباعات المسروقة أرباح المؤلف والناشر على السواء اختزلاً شديداً. وقد خسر جوته من كتابه جوتز فون برلينجن وكان ربحه ضئيلاً من قصته "الام فرتر"، وهي أعظم انتصار أدبي لذلك الجيل. ويعد تقجر الأدب الألماني أحد الأحداث العظمى في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. فحين كتب دالامبير من بوتسدام في 1763 لم يجد في المطبوعات الألمانية شيئاً يستحق الذكر (57)؛ ولكن ما وافى عام 1790 حتى كانت ألمانيا تنافس فرنسابل ربما تبرزها في العبقرية الأدبية المعاصرة. وقد لاحظنا احتقار فردريك للغة الألمانية لأنها جشاء غليظة تؤذيها الحروف الساكنة؛ ومع ذلك فإن فردريك نفسه، بهزيمته الرائعة لهذا العدد الكبير من أعدائه، قد ألهم ألمانيا العزة القومية التي حفزت الكتاب الألمان على استعمال لغتهم والوقوف أنداداً لأمثال فولتير وروسو. فلم يحل عام 1763 حتى كانت الألمانية قد هذبت نفسها وأضحت لغة أدبية مستعدة للتعبير عن حركة التنوير الألماني. ولم يكن هذا التنوير وليداً بتولياً. فهو الثمرة المؤلمة التي تمخضت عنها الربوبية الإنجليزية مقترنة بالتفكير الحر الفرنسي

صفحة رقم : 13713

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> عصر التنوير الألماني

على أرض مهدتها عقلانية كريستان فون فولف المعتدلة. وكانت تفجرات الربوبية الكبرى التي فجرها تولاوند وتندال وكولتزر ووستن وولستن قد تمت ترجمتها إلى الألمانية قبيل عام 1743، وما وافى عام 1755 حتى كانت "رسائل" جريم تثبت أحدث الأفكار الفرنسية بين الصفوة المثقفة من الألمان. وتوفر في 1756 من أحرار الفكر في ألمانيا نفر أتاح إصدار "معجم لأحرار الفكر". وفي 1763-64 أصدر بازدوف كتابه (محبة الصدق) الذي رفض أن وحي إلهي غير وحي الطبيعة ذاتها. وفي 1759 بدأ كريستيان فريدرش نيقولاوي، وهو تاج كتب برليني، "رسائل عن إحداه ثمرات الأدب"، وقد ظلت هذه الرسائل التي أثمرتها مقالات بأقلام ليسنج وهردر وموسى مندلسون حتى عام 1765 مناراً أدبياً لحركة التنوير يحارب التطرف في الأدب والسلطة في الدين. وشاركت الماسونية في الحركة فتأسس أول محفل للماسون بهمبورج في 1753، ووثلته محافل أخرى؛ وكان من أعضائها فردريك الأكبر، وفرديناند دوق برنزويك، وكارل أوجست دوق ساكسي-فايمار، وليسنج، وفيلاند، وهردر، وكلويشتوك، وجوته، وكلاسيك. وكانت هذه الجماعات بوجه عام تميل إلى الربوبية. ولكنها تحاشت النقد العلني للإيمان التقليدي. وفي 1776 نظم آدم فايسهاويت، أستاذ القانون الكنسي في إنجولشتات، جمعية سرية شقيقة، سماها "برفكتيبيلستن"، ولكنها اتخذت بعد ذلك الاسم القديم (المستتيرين) وقد أتبع مؤسسها، وهو يسوعي سابق، المنهج الذي جرت عليه جماعة اليسوعيين، فقسم رفاقها إلى درجات من الإطلاع على أسرارها وأخذ عليهم العهد بطاعة قادتهم فيحمله "التوحيد جميع الرجال القادرين على التفكير المستقل"، ولجعل الإنسان "آية من آيات العقل، فيبلغ بذلك أسمى درجات الكمال في فن الحكم". (58) وفي 1784 حظر كارل تيودور، ناخب بافاريا، جميع الجمعيات السرية، فلقبت "طائفة المستتيرين" حثقا في سن مبكرة. وتأثر بحركة التنوير حتى الأكليروس. فطبق يوهان سملر أستاذ الفلسفة

صفحة رقم : 13714

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> عصر التنوير الألماني

في هالة "النقد الأعلى" على الكتاب المقدس. فزعم (على العكس تماماً من الأسقف فاربورتن) أن العهد القديم لا يمكن أن يكون موحى به من الله، لأنه-إلا في مرحلته الأخيرة-تجاهل الخلود. وألمع إلى أن المسيحية قد حرفها عن تعاليم المسيح لاهوت القديس بولس الذي لم ير المسيح قط؛ ثم نصح اللاهوتيين بأن ينظروا إلى المسيحية على أنها صورة عابرة من صور جهد الإنسان في بلوغ حياة فاضلة. فلما رفض كارل بارت وغيره من تلاميذه العقيدة المسيحية بأكملها إلا الإيمان بالله، عاد سملر إلى إيمانه السني، واحتفظ بكرسي اللاهوت من 1752 إلى 1791. ووصف بارت المسيح بأنه معلم عظيم فقط. "مثل موسى، وكونفوشيوس، وسقراط، وسملر، ولوثر، ومثلي أنا" (59) كذلك سوى يوهان إيبهارت بين سقراط والمسيح، وقد طرد من وظيفة القسوسية اللوثرية، ولكن فردريك عينه أستاذاً للفلسفة في هالة. وقسيس آخر يدعى ف. أ. تيلر اختزل المسيحية إلى الربوبية، ودعا لعضوية كنيسته أي إنسان مؤمن بالله، بما في ذلك اليهود (60)، أما يوهان شولتزر، الراعي اللوثرية، فقد أنكر لاهوت المسيح، ولم ير في الله أكثر من "الأساس الكافي للعالم" (61)، وقد طرد من وظيفته في 1792.

هؤلاء المهترقون المفصحون عن هرطقاتهم كانوا قلة قليلة؛ ولعل المهترقين الصامتين كانوا كثيرين. أما وقد رحب هذا العدد الكبير من رجال الدين بالعقل، وكان الدين في ألمانيا أقوى كثيراً منه في إنجلترا أو فرنسا وكانت فلسفة فولف قد أمدت الجامعات بهذا التوفيق بين العقلانية والدين، فإن التنوير الألماني لم يتخذ صورة منظرية. ولم يسع إلى تدبير الدين بل إلى تخليصه من الأساطير والسخافات وسلطان رجال الدين-وهي أمور جعلت الكاثوليكية في فرنسا مبعث سرور عظيم للشعب وسخط شديد لجماعة الفلاسفة، وقد فطن العقلانيون الألمان-وهم يتبعون روسو لا فولتير- إلى ما للدين من إغراء قوي للعناصر العاطفية في الإنسان؛ ثم أن النبلاء الألمان، الأقل جهرًا بارتيابيتهم من الفرنسيين، ساندوا الدين معواناً للأخلاق والحكم. وجاءت الحركة الرومانتيكية فكبحت زحف العقلانية، ومنعت ليسنج من أن يكون لألمانيا ما كانه فولتير من قبل لفرنسا.

صفحة رقم : 13715

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> جوتهولت ليسنج

5- جوتهولت ليسنج

1781-1729

كان جده الأعلى عمدة لبلدة في سكسونيا، وظل جده أربعة وعشرين عاماً عمدة على كامينتنس، وكتب دفاعاً عن التسامح الديني؛ وكان أبوه الراعي اللوثري الأول في كامينتنس، وكتب دروساً في تعليم العقيدة بالسؤال والجواب حفظها ليسنج عن ظهر قلب. أما أمه فكانت ابنة الواعظ الذي تقلد أبوه من قبل منصب الراعي لكنيستته. وكان تصرفاً طبيعياً منها أن تنذره للقسوسية، وطبيعياً منه بعد أن أتخم بالتقوى أن يتمرد. وكان تعليمه المبكر في البيت وفي مدرسة ثانوية بمدينة مايسين مزيجاً من التأديب الألماني والآداب الكلاسيكية، ومن اللاهوت اللوثري والكوميديا اللاتينية. يقول "كان نيوفاستوس، وبلاوتوس، وترينس، عالمي الذي درسته بابتهاج" (62)، وحين بلغ السابعة عشرة بعث إلى ليبزج على منحة دراسية. فوجد المدينة أكثر إثارة للاهتمام من الجامعة؛ وانغمس في بعض حماقات الشباب، وعشق المسرح ووقع في غرام إحدى الممثلات، وسمح له بالدخول وراء الكواليس، وتعلم وسائل تقوية التأثير المسرحي. وفي التاسعة عشرة كتب تمثيلية، ووفق في جهوده فأخرجت. فلما سمعت الأم نبأ هذه الخطيئة بكت، واستدعاه الأب إلى البيت غاضباً. ولكنه سرى عنهما بابنسامة، وأقنعهما بسداد ديونه. وحين وقعت أخته على قصائده وجدتها بذينة إلى حد مذهل وأحرقتها؛ فرمى تلجأ في صدرها ليخفف من حماستها. ثم أعيد إلى ليبزج ليدرس الفلسفة ويصبح أستاذاً، ولكنه وجد الفلسفة قاتلة، واقترض ديونا عجز عن الوفاء بها، ثم هرب إلى برلين (1748).

هناك عاش حياة الأديب الذي يلتقط رزقه يوماً بيوم-يراجع الكتب، ويترجم، ويشترك مع كريستلوب ميلبوس في تحرير مجلة مسرحية لم تعمر. وما أن بلغ التاسعة عشرة حتى أصبح مدمناً للتفكير الحر. فقرأ سبينوزا ووجده برغم هندسته لا يقاوم. وألف مسرحية (1749) عنوانها

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> جوتهولت ليسنج

"الروح الحر"، قابلت بين تيوفان القسيس الشاب اللطيف، وأدرست الحر التفكير الخشن الصخاب الذي تغلب عليه إلى حد ما صفات الأوغاد. هنا انتصرت المسيحية في الجدل. ولكن في هذه الفترة أو حولها كتب ليسنج لأبيه يقول "ليس الإيمان المسيحي بالشيء الذي ينبغي للمرء أن يتقبله من أبويه بتسليم" (63) وألف الآن تمثيلية أخرى (اليهود) ناقشت الزواج بين المسيحيين واليهود. فهنا عبراني غني شريف لا اسم له إلا "المسافر". ينقذ حياة نبيل مسيحي وابنته، فيعرض النبيل عليه الزواج من ابنته مكافأة له، ولكنه يعدل عن عرضه حين يميظ اليهودي اللثام عن حقيقة جنسه؛ ويوافق اليهودي على أن الزواج لو تم لكان غير سعيد. ولم يتعرف ليسنج إلى موسى مندلسون الذي رأى فيه تجسيداً للفضائل التي كان قد خلعها على "المسافر" إلا بعد خمس سنين (1754) وذلك أثناء مباراة للشطرنج. وفي بواكير عام 1751 كلف فولتير أو سكرتيرة ليسنج بأن يترجم إلى الألمانية مادة أراد الفيلسوف المتغرب أن يستعملها في دعوى رفعها على أبراهام هيرش، وسمحالسكرتير لليسنج أن يستعير جزءاً من مخطوط كتاب فولتير "قرن لويس الرابع عشر". وفي تاريخ لاحق من تلك السنة ذهب ليسنج إلى فنتبرج وأخذ المخطوط معه. وخشي فولتير أن تستعمل هذه النسخة غير المصححة في إصدار طبعة مسروقة، فأرسل إلى ليسنج طلباً عاجلاً بأسلوب مهذب ليرد الأوراق. واستجاب ليسنج، ولكنه أنكر النغمة المتعجلة، وربما كان هذا سبباً في تشويه خصومته التالية لأعمال فولتير وخلقه.

ونال ليسنج درجة الأستاذية من جامعة فنتبرج عام 1752. فلما عاد إلى برلين شارك في دويات شتى بمقالات اتسمت بكثير من التفكير الإيجابي والأسلوب اللادع، فما حل عام 1753 حتى كان قد اكتسب قراء بلغوا من الكثرة حداً يلتبس له معه العذر في أن ينشر وهو في الرابعة والعشرين طبعة جمعت كل أعماله في ستة مجلدات. وقد اشتملت على تمثيلية جديدة اسمها "الأنسة سارة سامميسن" كانت من معالم تاريخ المسرح الألماني. وكان

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> جوتهولت ليسنج

المسرح الألماني إلى هذا التاريخ قد أخرج كوميديات وطنية، ولكن ندر أن أخرج مأساة وطنية. لذلك ناشد ليسنج زملاءه كتاب التمثيليات أن يتحولوا عن النماذج الفرنسية إلى النماذج الإنجليزية ويكتبوا مأسيتهم هم. وامتدح ديرو لدفاعه عن الكوميديا العاطفية ومأساة الطبقة الوسطى، ولكن تمثيلية "الأنسة سامميسن" استوحاه من إنجلترا من "التاجر اللندني" لجورج ليلو (1731) و "كلاريسا" لصموئيل رتشردين (1748). ومثلت المسرحية في فرانكفورت-على-الأدور عام 1755، ولقيت قبولاً حسناً. وقد احتوت كل عناصر الدراما؛ بدأت بإغواء، واختتمت بانتحار، ووصلت لهما بنهر من الدموع. والوعد مليفونت (الحلو المظهر) هو لفليس في قصة

رتشردسن؛ تمرس بسلب الفتيات بكارتهن، ولكنه يستكر الزواج بوحدة؛ يعد سارة بالزواج ويهرب معها، ويعاشرها معاشرة الأزواج، ثم يسوف في الزواج؛ وتحاول خليفة سابقة له أن تسترده، وتخفق، فتدس السم لسارة، ويصل أبو سارة، مستعداً لأن يغفر كل شيء ويقبل ميلفونت صهراً له، وكأنه يطبق ملاحظة ليسنج الساخرة: إن الأبطال في المآسي لا يموتون من شيء إلا من الفصل الخامس (64).
وخيل إليه أن في استطاعته الآن أن يرتزق من الكتابة للمسرح، ولما لم يكن في برلين مسارح فإنه رحل إلى لبيزج (1755) ثم اندلعت حرب السنين السبع، فأقفل المسرح، وكسدت سوق الكتب، وبات ليسنج مفلساً. فعاد إلى برلين، وشارك في مجلة نيقولاوي "رسائل عن أحدث ثمرات الأدب" بمقالات سجلت قمة جديدة في النقد الأدبي الألماني. تقول رسالته التاسعة عشرة "إن القواعد هي ما يشاء أساتذة الفن مراعاته" وفي 1760 غزا الجيش النمساوي الروسي برلين، وفر ليسنج إلى برزلاو حيث عمل سكرتيراً لقائد بروسي. وخلال السنين الخمس التي أقامها هناك اختلف إلى الحانات، وقامر، ودرس سبينوزا، وآباء المسيحية القدامى، وفنكلمان، وكتب "لاوكون"، ثم عاد إلى برلين في 1765. وفي 1766 دفع بأشهر كتبه إلى المطبعة.

صفحة رقم : 13718

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> جوتهولت ليسنج

وهذا الكتاب "لاوكون، أو على التخوم بين التصوير والشعر" استلهم حافزه المباشر من كتاب فنكلمان "أفكار عن محاكاة الآثار الإغريقية في التصوير والنحت" (1755). ويعد أن كتب ليسنج نصف مخطوطه وصله كتاب فنكلمان "تاريخ الفن القديم" (1764)، فقطع بحثه وكتب يقول، "لقد ظهر كتاب الهر فنكلمان في تاريخ الفن. ولن أجرؤ على التقدم خطوة أخرى قبل أن أقرأ هذا الكتاب" (65) واتخذ نقطة انطلاقاً من مفهوم فنكلمان عن الفن الإغريقي الكلاسيكي متمثلاً في الوقار الهادئ والفخامة المطمئنة، ووافق على زعم فنكلمان أن مجموعة تماثيل اللاوكون المحفوظة بقاعة الفاتيكان للفنون احتفظت بهذه الصفات رغم الألم القتال (اشتبه لاوكون، كاهن أبولو في طروادة، في أن هناك يونانيين يختبئون في "حصان طروادة"، فقدفه برمح، ولكن الإلهة أثينا المحابية لليونان أقنعت بوسيدان أن يطلع من البحر ثعبانين ضخمين التقا حول الكاهن وولديه التقافاً قاتلاً). وقد ظن فنكلمان أن مجموعة لاوكون-التي تعد الآن عملاً من أعمال نحائين رودسيين في القرن الأخير قبل المسيح-تنتمي إلى عصر فيدياس الكلاسيكي. أما لماذا خلع فنكلمان، الذي شاهد هذا الأثر ودرسه صفة الجلال المطمئن على ملامح الكاهن المشوهة فذلك سر غامض. وقد قبل ليسنج الوصف لأنه لم ير التمثال قط (66). ووافق على أن المثال خفف من تعبير الألم؛ ثم راح يتساءل عن سبب هذا الانضباط الفني، وأراد استنباطه من قيود الفن التشكيلي الأصيلة الصحيحة.
ثم تمثل بقول الشاعر الإغريقي سيمونيدس إن "التصوير شعر صامت، والشعر تصوير بليغ" (67). وأضاف أن الاثنين مع ذلك يجب أن يلزما حدودهما الطبيعية: فالتصوير والنحت ينبغي أن يوصفا الأشياء في المكان، لا أن يحاولا قص قصة، أما الشعر فينبغي أن يروي أحداثاً في الزمان، لا أن يحاول وصف أشياء في المكان. وينبغي أن يترك الوصف المفصل للفنون التشكيلية، فإذا ورد في الشعر، كما في "فصول" طومسن أو "الب" هالر، قطع السرد وشوش الأحداث. "ومعارضة هذا الذوق الفاسد

صفحة رقم : 13719

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> جوتهولت ليسنج

ومناقضة هذه الآراء التي لا أساس لها، هو والهدف الرئيسي للملاحظات التالية" (68). ولكن سرعان ما نسي ليسنج هذا الهدف، وتاه في نقاش مستفيض لكتاب فنكلمان في تاريخ الفن. هنا كانت تعوزه الخبرة والكفاية، وكان لتمجيده الجمال المثالي باعتباره هدف الفن أثر معطل على التصوير الألماني. ثم أنه خلط بين التصوير والنحت، وطبق عليهما جميعاً المعايير الخاصة بالنحت في المقام الأول. وبهذا شجع شكلية أنطون رفاثيل منجز الجامدة. بيد أن أثره على الشعر الألماني كان بركة؛ فقد حرره من الأوصاف المسهية، والنزعة الوعظية المدرسية، والتفصيل الممل، وأرشده إلى الحركة والشعور. وقد أقر جوته شاكراً بالتأثير المحرر لكتاب ليسنج "لاوكون".

ووجد ليسنج نفسه أكثر تمكناً من عمله حين انتقل (أبريل 1767) إلى همبورج كاتباً وناقداً مسرحياً براتب قدره ثمانمائة طالر في العام. وهناك أخرج تمثيليته الجديدة. "منافون بارنهيلم". وبطل التمثيلية-الميجر تلهام-العائد من الحرب بأكاليل الغار إلى أملاكه يظفر بخطبة منا الحساء الغنية. غير أن الحظ الذي قلب له ظهر المجن، والانس المعادية التي لاحقت، يهويان به إلى درك الفقر، فينسحب من الخطبة لأنه لم يعد الزوج الصالح لوريثة ثروة ضخمة. ويختفي، ولكنها تطارده وتتوسل إليه أن يتزوجها، فيرفض. وإذ تدرك السبب تدبر خدعة تبيت بها معدمة ولكن في صورة جذابة؛ ويعرض الميجر الآن نفسه زوجاً لها ويدخل رسولان فجأة يعلنان كل من ناحية أن منا وتلهام قد استردا ثروتهما. ويبتهج الجميع، وحتى الخدم يدفعون على عجل إلى الزواج. والحوار مبرح، والشخص بعيدة التصديق، والحبكة منافية للعقل-ولكن كل الحكايات تقريباً منافية للعقل.

وفي اليوم الذي شهد افتتاح المسرح القومي بهمبورج (22 أبريل 1767) أصدر ليسنج نشرة قدم بها لمقالاته في نظرية الدراما وقد علقت هذه المقالات دورياً، طوال العامين التاليين، على التمثيليات التي أخرجت في ألمانيا، وعلى نظرية الدراما في أعمال الفلاسفة. وقد اتفق مع أرسطو على القول بأن الدراما أسمى أنواع الشعر، وقبل في تناقض مندفق القواعد التي وضعها أرسطو في كتابه "في الشعر":

صفحة رقم : 13720

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> جوتهولت ليسنج

"لست أتردد في الاعتراف... بأني أعده معصوماً مثل "مبادئ" (69) افليدس (الذي لم يعد الآن معصوماً). ومع ذلك توسل إلى مواطنيه أن يكفوا عن تبعيتهم لكورنيلي وراسين وفولتير، وأن يدرسوا فن الدراما كما هو معلن في شكسبير (الذي تجاهل قواعد أرسطو). وقال أنه يشعر أن في الدراما الفرنسية إسرافاً في الشكلية لا يسمح بإحداث ذلك "التنفيس" أو تطهير العواطف الذي وجده أرسطو في الدراما اليونانية؛ وذهب إلى أن شكسبير قد حقق هذا التطهير على نحو أفضل في الملك لير، وعطيل، وهاملت بحدة الحركة وقوة لغتها وروعها. وقد أكد ليسنج ضرورة توفر عنصر الاحتمال، ناسياً منديل ديمونة. فكتابت الدراما التقدير يتجنب الاعتماد على المصادفات والتفاهات، فيبني بالترجيح كل شخص من شخوصه بحيث تصدر الأحداث بالضرورة عن طبيعة الأشخاص المعنيين. وقد وافق كتاب الدراما في فترة حركة "شتورم أوندرانج (الاقترام والجهاد) على اتخاذ شكسبير مثلاً أعلى، وحرروا الدراما الألمانية في ابتهاج من الدراما الفرنسية. وألهمت الروح القومية التي تصاعدت بانتصارات فردريك وهزيمة فرنسا نداء ليسنج ودعمته، وسيطر شكسبير على المسرح الألماني قرابة قرن من الزمان.

غير أن تجربة همبورج انهارت لأن الممثلين تناز عوا فيما بينهم ولم يتفقوا إلا على الاستياء من مقالات ليسنج النقدية. فشكا فريدرش شرودر من أن "ليسنج لم يستطع قط أن يفرغ لمشاهدة عرض كامل للمسرحية؛ فهو يخرج ويدخل، أو يتحدث إلى معارفه، أو يستسلم للتفكير، ومن السمات التي تثير سروره العابر يكون صورة هي نسج من عقله ولا تمت إلى الواقع بسبب" (70) وهذا الحكم المميز أجاد وصف حياة ليسنج وعقله المتمردين. والآن هل يجدر بنا أن نقف به في منتصف طريقه لنلقي عليه بنظرة؟ كان ربعة، منتصب القامة في كبرياء، قوياً لدينا بفضل التمرين الرياضي المنتظم، مليح القسما، أزرق العينين في دكنة، بنى الشاعر فاتحه محتفظاً بلونه هذا حتى مماته. وكان دافئاً في صداقاته، حاراً في عداواته. لا يسعده شيء كالجدل، فإذا اشتبك فيه أثنى الجراح بقلم حاد. كتب يقول "ليبدأ

صفحة رقم : 13721

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> جوتتهولت ليسنج

الناقد بالبحث عن شخص يستطيع الاختلاف معه. وهكذا يلج موضوعاً ويوغل فيه شيئاً فشيئاً، ثم يقفو الباقي هذه الخطوة نتيجة طبيعية لها، وأنا أعترف صراحة بأنني اخترت أولاً المؤلفين الفرنسيين لهذا الغرض، لا سيما المسيو فولتير" (71)- وقد اقتضى هذا الاختيار قدراً كافياً من الشجاعة. وكان متحدثاً ذكياً ولكنه مندفع، حاضر الجواب، لديه عن كل شيء أفكار بلغت من الكثرة والقوة مبلغاً لم يتح له أن يضيف عليها النظام أو الاتساق أو الفعالية الكاملة. وكان يستمتع بالبحث عن الحقيقة أكثر من الوهم الخطر بأنه وجدها. ومن هنا جاءت أشهر ملاحظاته: "ليست الحقيقة التي يملكها الرجل-أو يعتقد أنه يملكها-هي التي تجعل له قيمة، بل الجهد المخلص الذي بذله للوصول إليها. لأنه ليس بامتلاك الحقيقة بل بالبحث يطور المرء تلك الطاقات التي فيها وحدها كماله المطرد النمو. فالتملك يجعل العقل راكداً كسولاً متكبيراً. ولو أن الله احتوى في يمينه الحقيقة كلها، ولم تحتو يسراه إلا الحافز الدائم الحركة نحو الحقيقة، علماً بأنني سأخطئ دائماً أبداً-ثم قال لي "اختر!" لأحني رأسي في أتضاع أمام يسراه وقلت "أبتاه، أعطني هذا! فالحقيقة الخالصة لك أنت وحدك" (72).

وبقيت له من تجربة همبورج الفاشلة صداقتان غاليتان، إحداهما مع إليزر رايماروس، ابنة هرمان رايماروس أستاذ اللغات الشرقية في أكاديمية همبورج، التي جعلت من بيتها ملتقى لأرقى الجماعات ثقافة في المدينة. وانضم ليسنج إلى ندوتها، واختلف إليها مندلسون وياكوبي أثناء وجودهما في المدينة، وسوف نرى الدور الحيوي الذي لعبته هذه الجماعة في تاريخ ليسنج. أما الصداقة الثانية التي كانت أوثق حتى من هذه فصداقته لإيفا كونيغ يقول ليسنج إن هذه السيدة التي كانت زوجاً لتاجر حرير وأما لأربعة أطفال "ذكية تفيض حيوية، وهبت لباقة المرأة وكياستها"، وأنها "كانت لا تزال محتظة ببعض نضارة الشباب وفتنته" (73)، وقد جمعت هي أيضاً

صفحة رقم : 13722

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> جوتتهولت ليسنج

من حولها صالوناً من الأصدقاء المثقفين، كان ليسنج يحتل مكان الصادرة منهم. فلما رحل زوجها إلى البندقية في 1799 قال لليسنج، "إني أترك أسرتي وديعة بين يديك". ولم يكن هذا بالترتيب الحكيم، لأن الكاتب المسرحي لم يكن له ما يملكه إلا العبقريّة، وكان مديناً بألف طالر. وفي أكتوبر من ذلك العام قبل دعوة من الأمير كارل فلهلم فرينادت حاكم برنزيك ليضطلع بأمانة مكتبة الدوقية في فولفنبوتل، التي تقلص سكانها إلى ستة آلاف نسمة منذ أن نقل دوقها الحاكم مقره إلى برنزيك (1753) على سبعة أميال منها، ولكن مجموعة كتبها ومخطوطاتها كانت في رأي كازانوف "ثالث أعظم مكتبة في العالم" (74) واتفق على أن ينقذ ليسنج ستمائة طالر في العالم ويخصص له مساعداً وخدام، ويعطي سكناً مجاناً في قصر الدوق القديم؛ وفي مايو 1770 استقر في بيته الجديد. غير أنه لم يكن أمين مكتبة ناجحاً، ومع ذلك فقد أبهج رئيسه باكتشافه بين المخطوطات بحثاً مشهوراً مفقوداً بقلم بيرنجر الثوري (1088-998) يتشكك فيه في عقيدة استحالة خبز القربان وخمرة إلى جسد المسيح ودمه. وقد افتقد في حياته القاعدة، التي عاشها الآن، الكفاح والحافز اللذين وجدتهما في همبورج وبرلين. ثم أن انكباه على قراءة المخطوط الرديئة في الضوء الضعيف أضر عينيه وأصابه بنوبات من الصداع، وبدأت صحته تتداعى. فعزى نفسه بكتابة مسرحية جديدة سماها "إميليا جالوتي" أفصحت عن الضيق بامتيازات الطبقة الأرستقراطية وأخلاقها. فإميليا هذه ابنة جمهوري متحمس، يشتبهها سيدهما أمير جواسنالا فيقتل خطيبها بأمره، ثم يخطفها إلى قصره؛ فيعثر عليها أبوها، ويطعنها طعنات مميتة استجابة لإلحاحها، ثم يستسلم لبلاط الأمير ويحكم عليه بالإعدام، بينما الأمير سادر في غبه لا يخلج إلا لحظة. وحرارة المسيحية وبلاغتها أنفذتا خاتمتها، فأصبحت مأساة محببة على خشبة المسرح الألماني، وقد أُرخ جوته بعرضها الأول (1772) بعث الأدب الألماني من رقدته. ورحب بعض النقاد بليسنج شكسبيراً ألمانياً.

وفي أبريل 1775 ذهب ليسنج إلى إيطاليا مرافقاً لليوبولد أمير برنزيك، وقضى ثمانية أشهر يستمتع بالحياة في ميلان والبندقية وبولونيا ومودينا

صفحة رقم : 13723

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> جوتهولت ليسنج

وبارما وبياتشنتسا وبافيا وتورين وكورسيكا وروما؛ وهناك قدم إلى البابا بيوس السادس، وربما شاهد تمثال لأوكون متأخراً. وفي فبراير 1776 كان قد عاد إلى فولفنبوتل. وفكر في الاستقالة، ولكنه أقنع بالبقاء في منصبه بعلاوة قدرها مائتا طالر فوق راتبه، وبمائة جنيه ذهبي فرنسي (لوي دور) في العام بوصفه مستشاراً لمسرح مانهايم. وعرض الآن وهو في السابعة والأربعين على الأرملة إيفا كونيغ أن تصبح زوجاً له وأن تحضر بأولادها معها. فحضرت، وتزوجا (8 أكتوبر 1776). وظلا عاماً يتمتعان بحياة سعيدة هادئة. وفي عشية الميلاد من عام 1777، ولدت طفلاً مات في الغد. وبعد ستة عشر يوماً ماتت الأم أيضاً، وفقد ليسنج طعم الحياة.

ولكن الجدل حفظ عليه حياته في أول مارس 1768 ودع هرمان رايماروس الحياة مخلفاً لزوجته مخطوطاً ضخماً لم يجرؤ قط على طبعه. وقد مررنا في غير هذا الموضوع (75) من الكتاب مرور الكرام بهذا "الدفاع عن المؤمنين العقلانيين". وكان ليسنج قد أطلع على شطر من هذا المؤلف الممتاز، فطلب إلى السيدة رايماروس أن تسمح له بنشر أجزاء منه، فوافقت. وكان له بصفته أميناً للمكتبة سلطة نشر أي مخطوط في المجموعة. فأودع مخطوط "الدفاع" في المكتبة، ثم نشر جزءاً منه في 1774 بعنوان "تسامح الربوبيين... بقلم كاتب مجهول". فلم يثر أي ضجة. ولكن الراسخين في الأمور الروحية أثارهم القسم الثاني في مخطوط رايماروس الذي أصدره ليسنج في 1777 بعنوان "مزيد من بحوث الكاتب المجهول عن الوحي". وقد زعم هذا القسم أنه لا يمكن لأي وحي موجه لشعب واحد أن

يظفر بقبول جميع الناس في عالم تتنوع أجناسه وأديانه هذا التنوع الكبير، فالذين سمعوا إلى الآن بالكتاب المقدس؛ اليهودي-المسيحي، بعد ألف وسبعمائة سنة، ليسوا إلا أقلية من البشر، وإذن فلا يمكن قبوله تنزيلاً من الله للنوع الإنساني. ثم نشر قطعة أخيرة من المخطوط بعنوان "أهداف المسيح وتلاميذه" (1778) لم تصور المسيح ابناً لله بل صوفياً متحمساً شارك رأي بعض اليهود في أن العالم المعروف يومها قد أشرف على نهايته، وسيعقبه قيام

صفحة رقم : 13724

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> جوت هولت ليسنج

ملكوت الله على الأرض؛ وقد فهمه الرسل على هذا النحو (في زعم رايماروس)، لأنهم أملوا في أن يبعثوا عروشاً في هذا الملكوت القادم. فلما انهار الحلم بصرخة المسيح اليانسة على الصليب "إلهي إلهي لماذا تركتني" - اخترع الرسل (كما ظن رايماروس) خرافة قيامته إخفاء لهزيمته، وصوروه بصورة ديان العالم المكافئ المنتقم. وهاجم اللاهوتيون الذين صدموا أجزاء "خطوط فولفتبوتل" هذه في نيف وثلاثين مقالاً في الصحف الألمانية. واتهم يوهان ملكيور جوتسي كبير رعاة همبورج ليسنج بأنه موافق سراً على مزاعم "الكاتب المجهول"، وحض الكنيسة والدولة جميعاً على عقاب هذا المنافق. أما الخصوم الأكثر اعتدالاً فقد وبخوا ليسنج على نشره بالألمانية المفهومة للقراء شكوكاً كان من الواجب الإفصاح عنها، إن جاز الإفصاح إطلاقاً، باللاتينية لفئة قليلة من القراء. ورد ليسنج في إحدى عشرة نشرة (1778) نافست "رسائل بسكال الإقليمية" في تهكمها المرح-ونكتتها الذكية الفتاكة. يقول هيني "لم يسلم منه رأس، وما أكثر الرعوس التي أطاح بها لمجرد العبث الخالص، ثم دفعته شقاوته إلى رفعها علانية ليرى الناس أنها فارغة" (76). وقد ذكر ليسنج مهاجميه بأن حرية الحكم والنقاش عنصر حيوي في برنامج حركة الإصلاح البروتستنتي؛ ثم إن للشعب الحق في كل المعرفة المتاحة له، وإلا لكان بابا واحد من بابوات روما خيراً من مائة نبي بروتستنتي. وعلى أية حال فإن قيمة المسيحية (في زعمه) ستبقى حتى لو كان الكتاب المقدس مجرد وثيقة بشرية وكانت معجزاته مجرد قصص خرافية ورعة أو أحداث طبيعية. وصادرت حكومة الدوق أجزاء مخطوط فولفتبوتل ومخطوط رايماروس، وأمرت ليسنج ألا ينشر المزيد دون موافقة الرقيب البرنزيويكي. فلما ألزم ليسنج الصمت على منبره اتجه إلى خشبة المسرح فألف أروع تمثيلياته. وكان قد أعسر مرة أخرى إثر النفقات التي تحملها بسبب مرض زوجته وموتها، فافترض ثلاثمائة طالر من يهودي همبورجي ليوفر الوقت اللازم للفرار من مسرحية "ناثان الحكيم". وقد اختار

صفحة رقم : 13725

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> جوت هولت ليسنج

مكاناً لأحداثها مدينة أورشليم أبان الحملة الصليبية الرابعة. وأما ناثان هذا فتاجر يهودي ورع له زوجة وسبعة أبناء يذبحهم المسيحيون الذين أتلقت الحرب الطويلة أخلاقهم. وبعد ثلاثة أيام يأتيه راهب بطفلة مسيحية ماتت أمها لتوها، وكان أبوها-الذي قتل في المعركة مؤخرأ-قد أنقذ ناثان من الموت في مناسبات عديدة. ويسمي ناثان الطفلة ريكا، ويرببها وكأنها ابنته. ولا يلقنها إلا التعاليم الدينية التي يجمع عليها اليهود والنصارى والمسلمون.

وبعد ثمانية عشر عاماً، وبينما كان ناثان غائباً لقضاء بعض مصالحه، احترق بيته؛ وينقذ فارس شاب من فرسان المعبد ريكا ثم يختفي دون التعريف بشخصه؟ وتحسبه ريكا ملاكاً معجزاً. ويبحث ناثان بعد عودته عن المنقذ ليكافئه، فيسبه هذا لأنه يهودي، ولكن ناثان يقنعه بالمجيء لتقبل شكر ريكا وعرفانها. فيحضر، ويقع في غرامها وتبادلته الحب، ولكنه حين يعرف أنها مسيحية المولد ولم ترب كمسيحية يساءل نفسه ألا يلتزم بيمين الفروسية بتبليغ الأمر إلى بطريك أورشليم. ثم يشرح مشكلته للبطريك دون ذكر أسماء الأفراد، ويحدث البطريك أنهما ناثان وريكا، فيقسم أنه قاتل ناثان لا محالة. ثم يرسل راهباً ليتجسس على اليهودي، ولكنه هو الراهب ذاته الذي جاء بريكا إلى اثان قبل ثمانية عشر عاماً؛ وقد لاحظ طوال هذه السنين حكمة التاجر المشربة بالعاطفة، فيخبره بالخطر الذي يهدد حياته، ويحزنه ذلك الحقد الديني الذي يجعل الناس قتل سفاكين للدماء إلى هذا الحد.

ثم يقع صلاح الدين، حاكم القدس الآن، في ضائقة مالية. فيرسل في طلب ناثان بأمل الاقتراض منه. فيحضر ناثان، ويفطن إلى حاجة صلاح الدين، فيعرض السلفة قبل أن تطلب منه. أما السلطان، العليم بما اشتهر به ناثان من حكمة، فيسأله أي الأديان الثلاثة أفضل في رأيه. ويجيب ناثان بقصة حورها بحكمة من القصة التي رواها بوكاشيو ونسبها لملكي صادق اليهودي الاسكندري. تقول القصة إن خاتماً نيفيساً كان يتوارثه جيلاً بعد جيل دليلاً

صفحة رقم : 13726

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> جوتهولت ليسنج

على الوارث الشرعي لضبيعة غنية. ولكن في أحد هذه الأجيال يحب الأب أبناءه الثلاثة حباً يستوي حرارة وصدقاً، فيأمر بصنع ثلاثة خواتم متشابهة، ويعطي كل ابن خاتماً سراً، وبعد موته يتنازع الأبناء على أن الخواتم هو الأصيل والحقيقي، ثم يحتكون إلى القضاء-حيث ظل الأمر معلقاً لم يفصل فيه إلى اليوم. فأما الأب المحب فهو الله، وأما الخواتم الثلاثة فهي اليهودية والمسيحية والإسلام، والتاريخ لم يفصل بعد في أمر هذه الأديان وأيهما هو شريعة الله الحقّة. ويدخل ناثان تغييراً جديداً على القصة: فالخاتم الأصلي كان المفروض أنه يجعل لابسه إنساناً فاضلاً، ولكن بما أن أحداً من الأبناء الثلاثة لا يفضل غيره من الناس، فمن المحتمل أن يكون الخاتم الأصلي قد فقد، فكل خاتم-أي كل دين-حقيقي بقدر ما يجعل لابسه فاضلاً. ويعجب صلاح الدين بجواب ناثان إعجاباً شديداً فيقوم ويعانقه-وعقب هذا الحديث الفلسفي يظهر مخطوط عربي يتبين منه أن فارس المعبد وريكا ولدان لأب واحد. فيحزنان لأنهما لا يستطيعان الزواج، ولكنهما يفرحان لأن في استطاعتهما الآن أن يحب أحدهما الآخر كأخ وأخت ينالان بركة ناثان اليهودي وصلاح الدين المسلم.

أكان ناثان صورة صاغها على غرار موسى مندلسون؟ هناك أوجه شبه بين الاثنين كما سنرى في فصل لاحق، ومن المحتمل، برغم أوجه الخلاف الكثيرة، أن ليسنج وجد في صديقه الكثير مما ألهمه تلك الصورة المثالية لتاجر القدس. وربما رسم ليسنج اليهودي والمسلم بتعاطف أكثر مما رسم المسيحي مدفوعاً برغبته الشديدة في التبشير بالتسامح؛ ففارس المعبد في أول لقاء مع ناثان فظ في تعصب، والبطريك (أهو ذكرى ليسنج لجوتسي؟) لا ينصف في صورته هذه الأساقفة الرحماء المستتيرين الذين كانوا آنذ يحكمون تريبر وماينز وكولون. وأنكر جمهور ألمانيا المسيحية التمثيلية حين نشرت في 1779 لأنه رأها غير منصفة؛ وانضم إلى هذا النقد العديد من أصدقاء ليسنج. فلم تصل تمثيلية "ناثان الحكيم" إلى خشبة المسرح إلا في عام 1783 م في الليلة الثالثة كان المسرح خالياً. وفي 1801 لقيت

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> جوتهولت ليسنج

نسخة معدلة أعدها شيلر وجوته قبولاً حسناً في فايمار، وبعدها ظلت من التمثيليات المحببة في المسارح الألمانية طوال قرن كامل.

وقبل أن يموت ليسنج بعام أصدر نداءه الأخير للتفاهم، وصاغه في عبارات دينية، كأنما أراد أن يلين جانب المقاومة ويقيم جسراً بين الأفكار القديمة والجديدة. وهذا المقال المسمى "تربية النوع الإنساني" من بعض نواحيه يبرر الأفكار القديمة؛ ثم ندرك أن الدفاع إنما هو دعوة لحركة التنوير. فالتاريخ بجملمته يمكن أن ينظر إليه على أنه رؤيا مقدسة، وتربية تدريجية للنوع الإنساني. وكل دين عظيم كان مرحلة في هذه الإنارة المتدرجة الخطوات، فهو ليس كما افترض بعض الفرنسيين خدعة يخدع بها رجال الدين الأنانيون السذج من الناس، إنما هو نظرية عالمية قصد بها تمدين البشرية، وGRS الفضيلة والتهديب والوحدة الاجتماعية. ففي إحدى مراحلها (مرحلة العهد القديم) حاول الدين جعل الناس فضلاء بأن وعدهم بطيبات الدنيا ف عمر مديد؛ وفي مرحلة أخرى (مرحلة العهد الجديد) حاول التغلب على التناقض المثبط للعزائم بين الفضيلة والنجاح في هذه الدنيا بوعده بثواب الآخرة؛ وفي كلتا الحالتين خوطب الناس على قدر فهمهم المحدود في ذلك الوقت. وكل دين فيه نواة غالية من الحقيقة، ربما كان الفضل في تقبل الناس لها ذلك الغلاف من الخطأ الذي جعلها سائغة. فإذا كان اللاهوتيون قد أحاطوا بالمعتقدات الأساسية شيئاً فشيئاً بعقائد عسيرة الفهم، كالخطيئة الأصلية والتثليث، فإن هذه التعاليم أيضاً هي رموز للحقيقة وأدوات للتربية. فإله يمكن تصويره على أنه قوة واحدة لها وجوه ومعان كثيرة؛ والخطيئة أصلية بمعنى أننا كلنا مولودون بنزوع لمقاومة الشرائع الأخلاقية والاجتماعية(77). ولكن المسيحية فوق الطبيعة ليست سوى خطوة في تطور العقل البشري، وستأتي مرحلة أعلى حين يتعلم النوع الإنساني أن يعقل، وحين يصبح الناس من القوة ووضوح الرؤية بحيث يفعلون الصواب لأنهم يرونه صواباً ومعقولاً، لا طمعاً في ثواب مادي أو سماوي. وقد بلغ بعض الأفراد تلك المرحلة، وهي لم تتوفر للنوع الإنساني إلى الآن ولكنها "آتية، آتية لا ريب فيها... زمان رسالة جديدة خالدة!"(78) وكما أن

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> جوتهولت ليسنج

الفرد المتوسط يلخص في نموه التطور الفكري والخلقي للنوع، فكذا يمر النوع في ببطء خلال التطور الفكري والخلقي للفرد الأعلى. وإذا شئت التعبير بطريقة فيثاغورية، قلنا أن كلاً منا يولد من جديد، ثم يولد من جديد، حتى تكتمل تربيته-أي تكيفه مع العقل.

ترى ماذا كانت آراء ليسنج النهائية في الدين؟ لقد قبله معيماً هائلاً للفضيلة، ولكنه أنكره نسقاً من العقائد القطعية التي تقرض قبولها وإلا كانت الخطيئة والعقاب والعار الاجتماعي. وكان فكره عن الله أنه الروح الباطن للحقيقة، المسبب

للتطور والمتطور هو ذاته؛ ورأى في المسيح أكمل إنسان مثالي، ولكنه ليس تجسيداً لهذا الإله إلا مجازاً؛ وقد تطلع إلى زمن يختفي فيه اللاهوت كله من المسيحية، فلا يبقى إلا مبدأ أخلاقي سام من العطف الصبور والأخوة العالمية. وفي مسودة خطاب إلى مندلسون صرح بالتزامه برأي سبينوزا في أن الجسم والعقل هما الظاهر والباطن لحقيقة واحدة، وصفتان لجوهر واحد متطابق مع الله. وقال لياكوبي "إن المفاهيم التقليدية عن الإله يعد لها وجود عندي، وأنا لا أطيقها، لا أطيقها كلها! لا أعرف غير هذا" (79)؛ وفي 1780 طلب إليه ياكوبي الذي زاره في فولفنبوتل أن يساعده في الرد على سبينوزا وتقنيده آرائه، فصدمه جواب ليسنج: "ليس هناك فلسفة غير فلسفة سبينوزا... ولو خيرت في أن أتسمى اسم آخر لما عرفت غير اسمه" (80). وقد ترك ليسنج وحيداً في أخريات عمره بسبب هرطقاته وضرارته أحياناً في الجدل. وبقي له بعض الأصدقاء في برنزيك يختلف إليهم بين الحين والحين للحديث ولعب الشطرنج. وكان أبناء زوجته يعيشون معه في فولفنبوتل، وقد خصص لهم التركة الصغيرة التي خلفتها كاملتزر ولكن خصومه شهروا به في طول ألمانيا وعرضها ملحداً رهيباً. فتحداهم، وتجاسر على معارضة الرجل الذي يدفع له راتبه، ذلك أن كارل فلهلم فرديناند، الذي أصبح الآن (1780) دوقاً على برنزيك، زج في السجن يهودياً

صفحة رقم : 13729

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> جوتهولت ليسنج

شاباً أثار سخطه. فرار ليسنج الفتى في سجنه، ثم اصطحبه إلى منزله بعد ذلك ليسترد عافيته. أما عافيته هو فكانت قد ولت. وغشي بصره الآن حتى لم يكدي يقوى على القراءة. وكان يعاني من الربو، وضعف الرئتين، وتصلب الشرايين. وفي 3 فبراير 1781 بينما كان في زيارة لبرنزيك أصابته نوبة ربو شديدة، وبصق دماً. وأوصى أصحابه قائلاً: حين ترونني مشرفاً على الموت، استدعوا موتفاً، وسأعلن أمامه أنني أموت على غير دين من الأديان السائدة (81). وفي 15 فبراير بينما كان راقداً في فراشه اجتمع نفر من أصحابه في الحجرة المجاورة. وفجأة فتح باب حجرته، وظهر ليسنج منحني الظهر مهزولاً، ورفع قلنسوته محبباً، ثم خر على الأرض سريعاً بسكتة دماغية. وأذاعت مجلة لاهوتية أن الشيطان حمله عند موته إلى الجحيم كأنه فاست آخر باع روحه (82). ولم يخلف من المال إلا أقل القليل، فاضطر الدوق إلى دفع نفقات جنازته. لقد كان البشير بأعظم عصور ألمانيا الأدبية. ففي عام موته نشر كانط كتابه الخطير "نقد العقل الخالص" ونشر شيلر أول تمثلياته. وكان جوته يرى في ليسنج المحرر العظيم، وأبا التنوير الألماني. قال جوته موجهاً الخطاب إلى طيف ليسنج "في الحياة كرمناك إلهاً من الآلهة؛ أما الآن وقد مت فإن روحك تسيطر على جميع النفوس".

صفحة رقم : 13730

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> رد الفعل الرومانتيكي

6- رد الفعل الرومانتيكي

كان جوته يتحدث باسم أقلية صغيرة؛ أما السواد الأعظم من الشعب الألماني فتشبهت بترائه الديني، ورحب بالشاعر الذي تغنى بإيمانهم رجالاً ملهماً من السماء. فيعد أن آثار هندل مشاعر إرلنדה على الأقل بأنغام "المسيا" السمائية يست سنوات، أسر فريدرش جوتليب كلوبشتوك قلب ألمانيا بالقصائد الحماسية الأولى من ملحمة (المسيا) (1748-73).

صفحة رقم : 13731

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> رد الفعل الرومانتيكي

وقد ولط كلوبشتوك في 1724 قبل مولد ليسنج بخمسة سنين، وعاش اثنين وعشرين سنة بعده. وقد أصبح ليسنج رجلاً حر الفكر وهو ابن القسيس، أما كلوبشتوك ابن المحامي فقد اتخذ من نظم ملحمة شعرية عن حياة المسيح أهم رسالة لحياته. وبلغ من حماسه الشديد لموضوعه أنه نشر الأقسام الثلاثة الأولى من الملحمة وهو لا يزال فتى في الرابعة والعشرين. وقد فتنت هذه الأبيات السداسية التفاعيل، غير المقفاة، جمهوراً من القراء بلغ من عرفانهم أنهم أرسلوا الرسائل من جميع أرجاء ألمانيا لابنة عمه حين تقدم لخطبتها بعد سنة يناشدونها أن تقبل الخطبة، ولكنها رفضتها. بيد أن فردريك الخامس ملك للدنمرك-استجابة لتوصية وزيره يوهان فون برنشتورف-دعا كلوبشتوك للحضور والإقامة في البلاط الدنمركي وإكمال ملحمة نظير أربعمائة طالر في العام. وفي طريق الشاعر إلى كوبنهاجن رافته إحدى المعجبات الدنمركيات، واسمها مارجريتا مولر؛ وفي 1754 تزوجها، وفي 1758 ماتت فحطمت قلبه وأظلمت شعره. وقد خلد ذكراها في القسم الخامس عشر من "المسيا" وفي بعض من أعمق قصائده الشعبية تأثيراً. وأقام في كوبنهاجن عشرين سنة، ثم ذهب حظوته عند الملك بعد طرد برنشتورف، فعاد إلى همبورج، وفي 1773 نشر آخر أجزاء ملحمة الضخمة.

وكان مطلعها دعاء هو صدى لملتن، ثم روت في عشرين قصماً القصة المقدسة، ابتداءً من تأملات المسيح على جبل الزيتون وانتهاء بصعوده إلى السماء. وبعد أن أنفق كلوبشتوك في كتابة ملحمة وقتاً قارب ما أنفقه المسيح لكي يعيشها، اختتمها بتسبحة تفيض حمداً وشكراً لله:

هاأنذا بلغت هدفي! إن الفكرة المثيرة

ترف خلال روحي. وذراعك القادرة على كل شيء

ربي وإلهي هي وحدها التي هدنتني

عبر أكثر من قبر مظلم قبل أن أبلغ

ذلك الهدف البعيد! أنت الرب شفيتني،

وأنزلت فيضاً جديداً من الشجاعة على قلبي المتخاذل،

صفحة رقم : 13732

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> رد الفعل الرومانتيكي

الذي كان في صحبة حميمة مع الموت؛

وكنت إذا شخصت إلى الأهوال لم تلبث

أشكالها المظلمة أن تتوارى، لأنك تحميني؛

لقد اختفت سريعاً..... يا مخلصي، لقد تغنيت

بوعد رحمتك. ووطئت قدماي

طريقي المخيف، وكل رجائي فيك أنت؛(83)

ورحبت ألمانيا السنية الإيمان بملحمة "المسيا" كأفضل شعر كتب إلى يومها بالألمانية. وبنينا جوتته عن مستشار في فرانكفورت كان يقرأ الأقسام العشرة الأولى "كل سنة في أسبوع الألام، وبهذه الطريقة، ينعش روحه طوال العام". أما جوته فلم يكن يستطيع الاستمتاع بالملحمة إلا بنبذ شروط معينة لا تتخلى عنها ثقافة تسير قدماً إلا على مضض(84). وقد سكب كلوبشتوك ورعه بغزارة في شعره حتى أصبحت قصيدته سلسلة متعاقبة من الغنائيات والكوراليات الباخية أكثر منها الرواية المتدفقة التي يجب أن تكونها الملحمة؛ وليس من اليسير علينا أن نتتبع تحليفاً عاطفياً استغرق عشرين قسماً وخمسة وعشرين سنة.

وكما أن فولتير ولد نقيضه في روسو، كذلك جعل ليسنج بارتيايبته، وعقلانيته، ونزعه الفكرية، ألمانيا تشعر بحاجتها إلى كتاب يدركون مقابل هذا مكان وحقوق الوجدان، والعاطفة، والخيال، والغموض، والرومانس، والعنصر فوق الطبيعي في حياة البشر.

وقد أصبحت عبادة "الحساسية" عند بعض ألمان هذه الفترة، لا سيما النساء منهم، دينا كما أصبحت موضة. وكان في دارمشتات "حلقة لذوي الحساسية" جعل أعضاؤها من العاطفة والتعبير الوجداني مبدأً وشعيرة. وكان روسو هو "المسيا" هذه النفوس. وفاق تأثيره في ألمانيا تأثير فولتير بمراحل؛ واعترف به هرذر وشيلر ينبوعاً للإلهام؛ وكان كتاب كانط "نقد العقل العلمي" مشرباً بروسو، أما جوته

صفحة رقم : 13733

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> رد الفعل الرومانتيكي

فقد بدأ بروسو "الشعور هو كل شيء" وانتقل إلى فولتير "فكر في أن تحيا"، ثم انتهى إلى ضرب رأسيهما بعضهما ببعض. وجاء في غضون ذلك شعراء الوجدان من إنجلترا: جيمس طومسون، ووليم كولنز، وإدورد بينج، وقصاصاً الوجدان رنشردين وستيرن. وقد أثارت مختارات توماس برسي من روائع الشعر الإنجليزي القديم، وديوان مكفرسن (من الشعر المنثور الذي زعم أنه ترجمة لشعر "أوسيان" من مخطوطات غالية قديمة) الاهتمام بشعر العصر الوسيط وغموضه ورومانسيته؛ وبعث كلوبشتوك وهاينريش فون جرسنبرج إلى الحياة فيثولوجية اسكندناوة وألمانيا السابقة للمسيحية.

وكان يوهان جيورج هامان، قبل عام 1781، قائد الثورة على العقل. ولد مثل كانط في مدينة كونجزبرج الغائمة السماء، وأشربه أبوه الوجدان الديني بشدة، وتلقى علومه في الجامعة، ثم كافح وهو فقير واشتغل معلماً خاصاً، ووجد عزاءه في إيمان بروتستنتي يثبت لكل لطامات حركة التنوير. وكان يقول أن العقل ليس إلا جزءاً من الإنسان، حيث التطور وليس أساسياً؛ أما الغريزة، والحدس، والوجدان، فهي أعمق منه، والفلسفة الحقّة تقيم نفسها على طبيعة الإنسان وجوانبها كلها. واللغة ليست في أصلها حصيلة للعقل بل منحة من الله للتعبير عن الوجدان. والشعر أعمق من النثر. والأدب العظيم لا يكتب بمعرفة القواعد والأسباب ومراعاتها، بل بتلك الخاصية التي لا يمكن تعريفها وهي العبقرية التي تتجاوز كل القواعد مهتدية بالوجدان. ووافق فريدريش ياكوبي هامان وروسو. وقال أن فلسفة سبينوزا منطقية جداً إذا كنت تقبل المنطق، ولكنها زائفة لأن المنطق لا ينفذ أبداً إلى قلب الحقيقة، التي لا تتكشف إلا للوجدان والإيمان. فوجود الله لا يمكن إثباته بالعقل، ولكن الوجدان يعرف أنه بدون الإيمان بالله تكون حياة الإنسان عبثاً مأساوياً يائساً. بهذا التمجد للوجدان والشعر شحنت الروح التيونونية لتطلق تحقيقات

صفحة رقم : 13734

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> رد الفعل الرومانتيكي

من الأدب الخصيب الخيال جعلت النصف الثاني من القرن الثامن عشر في ألمانيا مذكراً بحرارة إنجلترا وخصوصية إنتاجها على عهد اليزابث. فكثرت مجلات الشعر، التي عانت قصر العمر المألوف، وكتب يوهان هاينريش فوس قصة رقيقة بالشعر سماها "الويزة" (1783-95) فضلاً عن قيامه بترجمة هومر وفرجل وشكسبير، وقد كسبت هذه القصة محبة الألمان وحفرت جوته لينافسها. وظفر سالومون جسندر بقاء دوليين أقبوا على غنائياته الرقيقة ورعوياته النثرية. ومس ماتياس كلودديوس قلوب مائة ألم أم بأغانيه الريفية عن الحياة العائلية، مثل أغنيته المسماة "تهويذة تغني على ضوء القمر":

نامي الآن يا صغيرتي!

لم تبكين؟

ناعمة هي الراحة،

وحلوة في ضوء القمر .

وسيقبل النعاس عما قليل

وبلا ألم .

إن القمر يفرح بالأطفال

ويحبك (85).

أما جوتفريد بورجر فقد أوتي كل فضائل لعبقرية الرومانسية. كان ابناً لراعي كنيسة، وأرسل إلى خاله في جوتنجن ليدرس القانون، ولكن حياته الفاجرة أفضت إلى تركه الكلية. وفي 1773 نال غفران جميع الناس لخطاياہ بقصيدته الشعبية "الينوره". وحبیب لينوره هذه یرحل مع جيش فردريك إلى حصار براغ. وفي كل صباح تنتفض من أحلامها وتساله "يا فلهم، أ أنت عديم الإيمان، أم أنت ميت؟ وإلى متى ببطئ قدمك؟" وتضع الحرب أوزارها، ويعود الجند، ويلقاهم الزوجات والأمهات والأبناء بالفرح والشكر لله:

وراحت تستفسر من الجميع في ذلك العرض،

صفحة رقم : 13735

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> رد الفعل الرومانتيكي

وتسأل كل واحد عن اسمه،

ولكن أحداً لم يعطها جواباً،

لا أحد ممن عادوا،

فلما مضى كل الجنود،

مزقت شعرها الفاحم،

وارتمت على الأرض

في نوبات أليمة من اليأس القاتل.

وتقول لها أمها أن "ما يفعله الله يفعله حسناً"، وتجيب لينوره بأن هذا وهم، وتطلب لنفسها الموت... وتحديثها الأم عن النعيم والجحيم، وترد لينوره بأن النعيم أن تكون مع فلهم، والجحيم أن تحرم منه، وتروح تهذي طوال نهارها. فإذا جن الليل وقف فارس ببابها، وهو لا يذكر اسمه، بل يأمرها بأن تأتي معه وتكون عروسه. فتمتطي خلفه جواده الأسود، وتركب الليل كله. ثم يصلان إلى جبانة، وترقص الأشباح من حولها. وفجأة ينقلب الفارس جثة هامدة، وتجد ليسنورة أنها منتشبة بهيكل عظمي. وبينما هي تتأرجح بين الحياة والموت تتوح الأرواح بهذه الكلمات:

صبراً، صبراً! حتى حين ينفطر القلب!

لا تنازعي الله في سمائه!

لقد جردت من جسدك؟

فليسبح الله رحمته على روحك(86)،

صفحة رقم : 13736

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> الزوبعية

7- الزوبعية

اندفعت الحركة الرومانتيكية من ورع كلويشتوك ورقة جسور إلى النزعة الفردية الخارجة على تقاليد الاحترام، إلى تمرد الشباب الألماني وجهاده في نشوة الثورة الأخلاقية والاجتماعية. ذلك أن أرسنقراطية البلاطات الجامدة المتصلبة وعقائدية الوعاظ المتهافنة وجشع طبقة رجال الأعمال وتكالبهم الكئيب على المال، وأساليب البروقراطيين المطردة المملة المبلدة بالشعور،

صفحة رقم : 13737

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> الزوبعية

وحذلفة العلماء وغرورهم كل أولئك أثار سخط شباب الألمان الواعين بقدراتهم المغموظين مكانتهم. وقد أصاحوا السمع لصيحة روسو طلباً للطبيعية والحرية، ولكنهم لم يعابوا بتمجيده "للإرادة العامة" ووافقوه على رفض المادية، والعقلانية، والحمية، ووافقوا ليسنج على تفضيل انحرافات شكسبير القوية عن القواعد، على كلاسيكية كورنبي وراسين المقيدة للحركة. وأساعوا ذكاء فولتير وظرفه، ولكن المكان الذي اجتازه تراءى لهم صحراء جرداء. وقد طربوا لتمررد المستعمرات الأمريكية على إنجلترا. كتب جوته وهو يستعيد ذكرى هذه الحقبة "تمنياً للأمريكيين النجاح كله، وبدأ اسما فرانكلين وواشنطن يسطعان ويتألقان في سماء السياسة والحرب" (87). هؤلاء المتمردون المجاهدون أحسوا نشوة المراهقة الجسمية واليقظة العقلية، وشكوا من كابوس الشيوخ على الشباب، والدولة على النفوس. كانوا مع الأصالة، والتجربة المباشرة والتعبير الطليق، واعتقد بعضهم أن عبقريتهم تعفيهم من القانون. وأحسوا أن الزمن في صفهم، وأن المستقبل القريب سيشهد انتصارهم. يقول جوته "أوه، لقد كانت حقبة سعيدة حين كنت أنا وميرك شابين!" (88).

وأعرب بعض هؤلاء المتمردين عن فلسفتهم بتحدي تقاليد الزي وإحلال تقاليد من عندهم محلها، فكان كرسنوف كاويمان يسير عاري الرأس، مشعث الشعر، مفتوح القميص حتى السرة (89). ولكن هذا كان حالة شاذة، وإذا استثنينا حالة انتحار أو حالتين، فإن أكثر أبطال الحركة اجتنبوا هذا العرض المقلوب لزيهم. وكان بعضهم ميسوراً. وكان جوته نفسه واحداً من أسلاف الزوبعية بمسرحيته جوتز فون برلينجن (1773)، وفي السنة التالية أصبحت قصته "الأم فرتز" لواء الرومانتيكية الخفاق. وانضم شيلر إلى الحركة فأصدر "للصوص" (1781)، ولكن هذه النفوس المعقدة، المتطورة، سرعان ما تركت الحملة ليضطلع بها شباب أكثر التهاباً وأضعف جذوراً.

صفحة رقم : 13738

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> الزوبعية

وكان يوهان ميرك أحد الأباء المؤسسين للحركة وكل الشواهد تدل على أنه كان سليم العقل قوي البدن، وكان قد أتم دراسته بالجامعة، وأصبح شخصاً أثيراً في بلاط هسي-دار مشنات، ثم عين رئيساً عاماً لصياغة الجيش، واشتهر بالذكاء الحاد والكفاءة العملية. وحين التقى به جوته في 1771 وقع من نفسه موقفاً حسناً، فاشترك معه ومع هرذر في تمويل مجلة نقدية تسمى "أنباء فرانكفورت الأدبية"، ومن هنا لقب "الفرانكفورتيين" (90) الذي أطلق أول الأمر على المتمردين. وإذا كان ميرك خبيراً بدينياً الأعمال والسياسة، ورحالة جاب أرجاء ألمانيا وتنتقل في أنحاء روسيا، فقد شهد وانتقد انتقاداً لاذعاً غرور الغنى، وملل العيش في قصور الملوك والأمراء، واستغلال الفلاحين. فلما ألقى نفسه عاجزاً عن إصلاح هذه الأحوال، بات متألماً ساخراً. وقد سماه جوته "مفسد فيليبس ميرك"، واتخذ من نفسه ومن ميرك نماذج الأدوار الأبطال في فاوست. واضطرب عقل ميرك لهزائمه في عمله وتعاسته مع زواجه. ووقع في حبال الدين، فأنقذه منها دوق ساكسي-فايمار استجابة لرجاء جوته. ثم بات فريسة لاكتئاب لا يبرحه، وقتل نفسه وهو لا يزال في الخمسين (1791).

وأكثر مأساة حتى من هذه الحياة كانت حياة راينهولد لنتس. وكان ابناً لراعي كنيسة لوثر في ليفونيا، أثر في أعصابه الضعيفة، ومزاجه السريع الإثارة، في طفولته التأكيد على عقيدتي الخطيئة والجحيم (91). وأعانه حين استماعه إلى محاضرات كانط في كونجزبرج؛ وقاده كانط إلى كتابات روسو، فقال لنتس بعد قليل عن "هلويز الجديدة" إنها خير كتاب طبع إطلاقاً في فرنسا. وفي ستراسبورج التقى بجوته، فبهرتة شخصية الإيجابية، وقلده في الفكر والأسلوب، وكتب أشعاراً غنائية أشبهت أشعار جوته إلى حد أنها ضمنت في بعض طبعات أعمال جوته. ثم مضى إلى زيزنهايم، ووقع (بعد جوته) في غرام فردريكة بريون، ونظم القصائد الحارة في مديحتها. وأمد لها أنها إن لن تستجب لحبه فهو قائل نفسه، فلم تفعل ولم يفعل. ثم انتقل إلى فايمار، وصادقه جوته، وحيد جوته على نجاحه، وسخر من علاقة جوته بشارلوتة فون شتاين، وطلب إليه الدوق أن يرحل

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> الزوبعية

عن الدوقية... وكان شاعراً ومسرحياً موهوباً. وتمثيلته المسماة "الجند" نقدت لاذعاً الفوارق الطبقيّة والحياة البرجوازية، وشخصيتها المحورية فتاة من الطبقة الوسطى تتطلع عبثاً إلى الزواج من ضابط. ثم تنقلب مومساً وتتحرش بأبيها الذي لم تتعرف عليه في الشوارع. وإذا كان لنتس مفتقراً إلى الثبات والاستقرار افتقاراً أعجزه عن العثور على مكان مرموق في الحياة، فقد راح يهيم منتقلاً من وظيفة إلى وظيفة ومن إخفاق إلى إخفاق، ويعاني نوبات من الجنون، ويحاول الانتحار غير مرة، وأخيراً مات مجنوناً (1792).

أما مكسميليان فون كلنجر فكان أذكى دعاة الحركة. ندد بالدنيا وارتقى فيها إلى مكان مرموق، وأطلق لقلمه العنان في الحديث العنيف في تمثيلاته، ثم أصبح أميناً لجامعة دوربات، واستمتع بكل أثم الشباب وحماقاته وعمر حتى التاسعة والسبعين. وعنه كتب جوته بيته الذي نم عن حسن إدراك وفطنة: "في الصبايا نحب ما هن عليه، أما في الفتيان فنحب ما يرجى أن يكونوه". وقد أعطت أشهر تمثيلية كتبها كلنجر وهو في الرابعة والعشرين (1776) "شتورم أوندر رانج" اسمها ومزاجها للزوبعية. وترى فيها المتمردين الأوربيين يتغربون في أمريكا أملاً في أن يجدوا منافذ حرة لنزعاتهم الفردية؛ أما لغتها فلغة العاطفة المشبوبة وقد محت؛ وأما دعوتها فدعوة العبقريّة التي تحررت من كل القواعد. وقد حارب كلنجر في الجيشين النمساوي والروسي، وتزوج ابنة غير شرعية لكاترين الكبرى، وهبطت ثورته أخيراً حين تولى منصب الأستاذية، ثم تجرد عموداً من أعمدة الدولة.

وأما فلهم هاينزي فقد توج الحركة برواية "أرد نجهللو" (1787) التي جمعت بين الفوضوية، والعدمية، والشيوعية، والفاشية، واللامبالاة، بالأخلاق، وإرادة القوة، في مهرجان صاحب من الشهوانية والجريمة، بقول البطل بأن الجريمة ليست بجريمة إن كانت شجاعة؛ وما من جريمة حقيقة غير الصعف، وأصدق الفضائل شجاعة الجسم والإرادة؛ والحياة

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> الزوبعية

إظهار للغرائز الأساسية، ونحن نخطئ إذا دمغنا هذه الغرائز باللا أخلاقية. وهكذا يغوي أردنجلو ويقتل إذا لاحت له الفرصة أو دفعته النزوة، ويرى في عواطفه المشبوبة الطليقة من كل قيد أسمى قوانين الطبيعة. وهو يصف بطولات هانيبال ويمجده إنساناً أعلى ويتساءل: "ما قيمة مليون من الرجال الذين لم يحظوا طوال حياتهم بساعة واحدة كساعاته بالقياس إلى هذا الرجل الفرد؟" (92) وهو يقيم مجتمعاً شيوعياً تسوده شيوعية النساء وحق الانتخاب للنساء وعبادة قوى الطبيعة باعتبارها الدين الأوحده.

في دوامة الزوبعية (شتورم) المضطربة هذه خلعت بعض الأفكار الغالبة على هذه الحركة طابعها وتأثيرها. فمعظم قاداتها أتوا من الطبقة الوسطى، وبدأوا ثورتهم احتجاجاً على امتيازات الحسب والنسب، ووقاحة ذوي المناصب، وبذخ الأعيان الذين ينعمون بطيبات العيش على حساب عشور الفلاحين. وقد أجمعوا على الرثاء لحفظ الفلاح العاثر - حراً كان أو قنأ - تصوير خلقه في صورة مثالية. وأهابوا بالنساء أن يبنذن موضاتهن وأطواقهن وعواطفهن الهشة وإغماءتهن وتقواهن الخائفة الذليلة، ودعوهم للمجيء والمشاركة في الحياة المثيرة التي يحيها العقل المحرر من الأغلال، والذكر الجوال. وأعادوا تعريف الدين بأنه إلهام سماوي في نفس عبقريتها جزء من الحافز الخلاق والسر المبدع في الدنيا. ووجدوا بين الطبيعة والله، وانتهوا إلى أن الإنسان يكون إلهياً إذا كان طبيعياً. واتخذوا من أسطورة فاوست المنحدرة من العصر الوسيط رمزاً للجوع الفكري والطموح الملتهب الذي يحطم كل حواجز التقاليد أو الأعراف أو الأخلاق أو القوانين. وهكذا نرى "مالر مولر" يكتب قبل جوفته بزمان مسرحية سماها "فوستس لوبن" "لأنني عرفت فيه من البداية رجلاً عظيماً... يحس بقوته كلها، ويشعر باللحم الذي قيده به القدر، ويحاول أن يخلعه، وتتوفر له شجاعة الإطاحة بكل شيء يقف في طريقه" (93). وقد سمت حماسة الزوبعية وشططها هذه الحركة بأنها تعبير عن المراهقة الفكرية، وصوت أقلية قضى عليها بأن يعلو صوتها ثم يخبو. ولم تكسب

صفحة رقم : 13741

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> الزوبعية

الحركة أي تأييد شعبي، لأن التقاليد والشعب يساند الواحد منهما الآخر دائماً. فلما وجد أتباع الحركة أنفسهم بغير قاعدة في بنیان الحياة الألمانية، تصالحوا مع الأمراء، وأملوا كما أمل جماعة الفلاسفة - أن يقود الحكام المستنيرين الطريق إلى التحرر الفكري والإصلاح الاجتماعي. وأدرك هردر وجوته وشيلر الحركة في شبابهم، ثم انسحبوا من ناراها الأكلة، وقلموا أظافرهم وأطبقوا أجنحتهم، وتقبلوا حماية أدوق فايمار الكرام شاكرين.

صفحة رقم : 13742

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> الفنانون

كان ألمان العصر الذي نحن بصددده أندادا في الفن للفرنسيين والإيطاليين. فلقد نقلوا الباروك عن إيطاليا والروكوكو عن فرنسا، ولكنهم أعطوا إيطاليا فنكلمان ومنجز، وأثر ملوك فرنسا وملكاتهما الألمان المغتربين أمثال دافيد روتنجن، و "جان" ريزنر، وأدم فايسفايلر، على صناعات الأثاث الفاخر الفرنسيين؛ من ذلك أن لويس السادس عشر دفع ثمانين ألف جنيه ثمناً لمكتب من صنع روتنجن (94). وحفل المقر الملكي في ميونخ، وقصر فردريك الجديد في بوتسدام، وبيوت أثرياء الألمان، بالأثاث الضخم الدقيق النقوش، حتى وفد طراز أخف في نهاية العصر من صنع الإنجليزيين تشينديل وشير اتن. وكانت مصانع مايسن قد أضرت بها الحرب، ولكن نمفنبرج ولود فجزبرج وبوتسدام وغيرها من المراكز واصلت صناعات البرسلان والخزف. وأشرقت رفوف الألمان ومدافئهم وموائدهم ومكاتبهم بصغار التماثيل المرحة الرشيقة الرقص والغناء والتقبيل.

وعلى نطاق أوسع ظهر نحت للتماثيل جدير بالإعجاب. شديد الاهتمام من ذلك أن مارتن كلور نحت تماثلاً نصيفاً لجوته في أيام فايماير الأولى جدا فيه متشوقاً، براق العين، واثق النفس (95). ولم يبلغ لودفج، بن مارتن، هذا الاتقان في تماثله الذي نحته لشيلر (96)، وأفضل منه تماثل شيلر المعروف الآن في ميدان بشتوتجارت من صنع يوهان فون داننكر. أما سيد النحت الألماني في هذا العصر فيوهان جوتفيلد شادوف، الذي أصبح مثالا للبلاط في برلين عام 1788. وفي 1791 نحت رأساً لفردريك،

صفحة رقم : 13743

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> الفنانون

وفي 1793 صنع له تماثلاً كامل الطول؛ وفي 1816 صب بالبرونز "فردريكا" (97) أصغر - وهو رائعة لا ينساها من شهدها. وصب البرونز "مركبة النصر" لبوابة براندنبرج، وكاد يبلغ روعة الجمال الكلاسيكي في المجموعة الرخامية التي نحتها لولية العهد الأميرة لويزة وأختها فريدريكة.

وكثر المصورون في ألمانيا كثرة أتاحت لها أن تنزل لإيطاليا عن اثني عشر منهم ثم يبقى لها بعد ذلك مصورون أكفاء "من ذلك أن عدد المصورين من آل تيشباين الذي جمعهم رابطة الفرشاة كان كبيراً بحيث يسهل علينا الخلط بينهم. فأحدهم وهو يوهان هاينريش تيشباين المصور فيبلاط هسي-كاسل رسم صورة بديعة لليسنج. أما ابن أخيه يوهان فريدريش تيشباين، فرسم في كاسل وروما ونابلي وباريس وفيينا ولاهاي ولساو وليبزج وسانت بطرسبرج، وصور مجموعة ساحرة لأبناء الدوق كارل أوجست أمير ساكسي-فايماير، وأما يوهان هاينريش فلهم تيشباين فعاش في إيطاليا (1787-99)، ورسم صورة مشهورة "جوته في كمبانيا روما" ثم عاد ليصبح مصور البلاط لدوق أولدنبورج.

وكان من مصادر "الزوبعية" "الألمانية المنحازة لإيطاليا آدم فريدريش أويزر، النحات، الرسام، النقاش، المعلم، وداعية إصلاح الفن على الأصول الكلاسيكية. وقد عاش فنكلمان معه زمناً في درس، وانتقد رسمه، وأعجب بخلقه، وقال "أنه يعرف كل ما يستطيع الإنسان أن يعرفه خارج إيطاليا" (98) وفي 1764 عين أويزر مديراً للأكاديمية الفنون في ليبزج، وزاره جوته هناك وانتقلت إليه عدوى الحمى الإيطالية.

ويحتل مكان الصدارة بين الفنانين الذين بقوا في ألمانيا دانييل شودوفيكي، وكابولندياً. ولد في داننبرج، وترك يتيماً، فتعلم أن يكسب قوته بصنع الرسوم والمحفورات والصور. وفي 1743 انتقل إلى برلين وأصبح ألمانياً في كل شيء إلا اسمه. وقد روى حياة المسيح في منمنمات رائعة أذاعت صيته في طول البلاد وعرضها، في رسم بمزاج فولتيري "جان كالاس وأسرتة" وتكاثر الطلب على رسومه حتى أنه لم ينشر أي أثر أدبي كبير في بروسيا

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> الفنانون

سنين طوالاً دون أن تزينه رسوم من صنعه. وفي أروع محفوراته صور أسرته: فصور نفسه ومكب على عمله، وزوجته تشرف في اعتزاز على أبنائه الخمسة، ثم جدران البيت تكسوها الصور. ورسم بالطباشير الأحمر صورة لوته (شارلوتة) كستز، التي أحبها جوتة وفقدتها. وترى في عمله رشاقة في الخط ورقة في الشعور تميزه عن هوجارت، الذي كثيراً ما قورن به لكثرة ما صورته من مناظر الحياة المألوفة؛ ولكنه استنكر بحق هذه العلاقة ما قورن به لكثرة ما صورته من مناظر الحياة المألوفة؛ ولكنه استنكر بحق هذه العلاقة. وكثيراً ما استلهم فاتو؛ وفي صورته "لقاء في حديقة الحيوان(99)، ترى ولع فاتو بالهواء الطلق وتموج ثياب النساء الخلاب.

وقد ترك أنطون جراف صورة لشودو وفيكي(100)-ببيض ابتسامات وقصاً ولحماً مكتنزاً-صورة لنفسه(101) وهو يتطلع من فوق لوحته ولكنه مكتمل الزينة كأنه يتأهب للذهاب إلى حفلة رقص. وقد أفرغ حيوية أكثر على لوحته الجميلة لزوجته(102)، والتقط غرور الممثلة كورونا شروتر(103) وجلل بالثياب المذهبة جسد السيدة هوفرات بومي الفضفاض(104).

وأخر قائمة المصورين في نصف القرن الذي نحن بصدده هو آزموس ياكوب كارستنز، الذي استوعب دعوة فنكلمان نصاً وروحاً، وأكمل الأحياء الكلاسيكي في التصوير الألماني. ولد في شلزفج، وتعلم في مدارسكوبنهاجن وإيطاليا، ومارس عمله في لوبك وبرلين على الأخص، ولكنه عاد إلى إيطاليا في 1792، ووجد المتعة الكبرى في تأمل أطلال النحت والعمارة القديمة. ولم يعرف أن الزمن قد نزع اللون من الفن اليوناني فلم يبق إلا على الخط؛ وعليه أحال فرساته إلى قلم كما فعل منجز، ولم يستهدف إلا الشكل الأكمل. وقد أزعجته العيوب البدنية التي شابت أجساد نماذجه التي يصورها في مرسمه، فقرر أن يركن إلى خياله؛ وأبهجه أن يصور الأرباب اليونانية والمناظر المستقاة من الميثولوجيا اليونانية كما تخيلها هو وفنكلمان. ومن هذه انقل إلى تصوير دانتي وشكسبير. وكان ولعه بالخط والشكل يفنقد دائماً اللون والحياة، وحتى حين كان يبلغ في رؤياه لأشبه الإله رؤيا تقرب

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> الفنانون

من رؤيا ميكلانجلوا، كما نرى في لوحة "مولد النور"(105)، فإننا لا نستطيع الثناء عليه إلا لأنه تذكر صور كنيسة السستين بالدقة التي تذكر بها موتسارت موسيقاها. وردت روما على محبته بمحبة مثلها، وأتاحت لعمله (1795) العرض في أوسع وأشهر المعارض التي أتاحت لأي فنان حديث. وهناك مات بعد ثلاث سنين غير متجاوز الرابعة والأربعين. ولا غرو فالغن كالجنس قد يكون ناراً آكله.

وغلب مزاج الكلاسيكية الجديدة على الزخرفة المعمارية لبوتسدام وبرلين في عهد فردريك الأكبر. وكان قد بدأ قصره الجديدة في 1755، ولم يسمح للحرب بأن تعوقه عن المضي في المشروع. فشارك في تصميمه ثلاثة معماريين- بورنج، وجونتارد، ومانجر؛ فمزجوا الكلاسيك بالباروك في صرح مهيب يذكر بقصور روما القديمة، أما الزخارف

الداخلية فقد نافسوا فيها أبداع نماذج الروكوكو الفرنسي. وكان للكنيسة الفرنسية في برلين رواق معمد كلاسيكي، فأضاف إليه جونتارد وتلميذه جبورج أونجر برجاً كلاسيكياً (1780-85). وزاد أونجر برلين جلالاً بتشييد مكتبة ملكية في 1774-80. أما بوابو براندنبورج التي بناها كارل لانجهانز في 1788-91 فقد قلدت تقليداً سافراً مداخل الأكروبول الفخمة؛ وقد نجت بالجهد من التدمير في الحرب العالمية الثانية، ولكنها فقدت "الكدريجة الشهيرة، وهي العربة ذات الجياد الأربعة التي توجهها بها شادوف.

كانت مدن ألمانيا أخرى تتحت الآثار المخددة لأمرآء البيوت المالكة والنبلاء الرفات. فزينت أخت فريدريك فلهميه مدينة بايرويت بقصر زين بالروكوكو الساحر (1744-73). وفي كاسل صمم سيمون لوي دوري (1769 وما بعدها) صالة الرقص الفخمة والحجرة الزرقاء في قلعة حاكم هسي-كاسل. وفي الراين قرب دسلدورف بنى نيكلاوس فون بيجاجي قلعة بنرات الفخمة (1755-69)، وبنى فليب دلا جيبير لودفجز بورج قصر مونريبو الجميل (1762-64).

صفحة رقم : 13746

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فريدريك -> بعد باخ

9- بعد باخ

أسعدت ألمانيا بالموسيقى وتأثرت بها أكثر من أي أمة أخرى باستثناء إيطاليا. فالأسرة التي خلت من الآلات الموسيقية كانت شذوذاً وكانت المدارس تعلم الموسيقى تعليمها للدين والقراءة سواء بسواء تقريباً. وكانت الموسيقى الكنيسية أخذة في الاضمحلال لأن العلم والفلسفة، والمدن والصناعة، كانت تصرف العقول عن الدين إلى الدنيا، وظلت الترانيم اللوثرية العظيمة تجلجل، ولكن الأغنية أخذت تتحول من الكوراس الكنسية إلى الليدات والتمثيلات الغنائية والأوبرا. وقد افتتح يوهان بيتر شولتس عهداً جديداً في الأغنية بـ "أغان في فوكستن" (1782)؛ وبعدها حظيت ألمانيا بزعامة لا تتنازع في استخدام الموسيقى في الشعر الغنائي.

وقد شجع التحسين الآلي الذي أدخل على البيانوا انتشار الحفلات الموسيقية وظهر مهرة العازفين على الآلات. وغزا العازفون أمثال يوهان شوبرت، وأبت فولجر، ويهان هومل، المدن الكثيرة بأدائهم الموسيقي. ففي 10 مارس 1789 قام هومل الذي لم يتجاوز الأحد عشر ربيعاً بعزف على البيانو في درسده؛ ولم يدر أن موتسارت سيكون بين السامعين؛ وخلال الحفلة رأى أستاذه السابق وتعرف عليه؛ فما إن فرغ من عزف قطعه حتى شق طريقه بين الجمع المصفق وعانق موتسارت في عبارات حارة تفيض بالولاء والبهجة (106). واكتسبت أبت (أعني أبوت، أي الأب الديني) فوجلر لقبه هذا برسامته قسيساً (1773)؛ وفي مانهايم كان قسيس البلاط ومدير الموسيقى معاً. وكان في التأليف الموسيقي من أكثر كتاب القرن أصالة وتأثيراً؛ وفي العزف على الأرغن أثار غير موتسارت؛ وفي التعليم كان صاحب الفضل في تكوين فيبر ومبيربير؛ ثم أضحك مانهايم وهو ممثل للبابا يلبسه الجوار الطويلة الزرقاء وبحمله كتاب صلواته مع موسيقاه، وبجعله جمهوره أحياناً ينتظره ريثما يفرغ من صلواته.

وكان أوركسترا مانهايم الآن فرقة من ستة وسبعين موسيقياً منتقنين،

صفحة رقم : 13747

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> بعد باخ

يقودهم بكفاية كرستيان كانا بيث معلماً وقائداً وعازفاً منفرداً على الكمان. وقد أثر عن اللورد فوردابيس قوله أن ألمانيا تبر سائر الأمم لسببين: الجيش البروسي وأوركسترا مانهايم. ويليه شهرة أوركسترا جيفاندهاوس بليبزج. وكانت الحفلات الموسيقية عملاقة تحوي ثلاثة أو أربعة أو أحياناً ستة كونشرتوات في برنامج واحد. والقوم يحيونها في كل مكان في المسارح والكنائس والجامعات والقصور والحانات والمنتزهات. وناقت السمفونية الآن الكونشرتو في الربرتوار الأوركسترالي، وما وافت سنة 1770 حتى قبل مجيء هايدن حتى حظيت السمفونية بقبولها كأرقى ألوان الموسيقى الآلية (107).

ونصف المؤلفين الموسيقيين في هذه الحقبة منحدرين من قلب يوهان سبستيان باخ القوي وصلبه المكين. أنجبت له زوجته الأولى سبعة أطفال، أحرز اثنان منهم فلهم فريدمان وكارل فليب إيمانويل سمعة دولية. وأنجبت له زوجته الثانية ثلاثة عشر طفلاً برز في عالم الموسيقى منهم اثنان هما يوهان كرسستوف فريدرش ويوهان كرستيان. ثم أنجبت يوهان كرسستوف فريدرش مؤلفاً موسيقياً صغيراً هو فلهم فريدرش ارنست باخ؛ وهكذا أعطى يوهان سبستيان باخ العالم خمسة رجال ضمنوا لهم مكاناً في تاريخ الموسيقى. يضاف إلى هؤلاء أحد أقربائه الأبعدين واسمه يوهان ارنست باخ، درس على الأستاذ في ليبزج، وأصبح رئيساً لفرقة المرنطين في فايمار، وترك عدة مؤلفات موسيقية ليجر عليها النسيان ذبوله.

أما فلهم فريدمان باخ فقد ولد في فايمار. والقسم الأول من مؤلف أبيه "الكلافير الوسيط" كتب لتعليمه. وقد سار حثيثاً في دراسته، ولم يناهز الستة عشر عاماً حتى كان يؤلف الموسيقى. فلما بلغ الثالثة والعشرين عين عازفاً للارغن بكنيسة صوفيا بدرسدن، ولكما كانت واجباته في هذه الوظيفة هينة فقد ألف عدة صوناتات وكونشرتوات وسمفونيات. ثم ازداد راتباً وشهرة حين اختير (1746) عازف أورغن في كنيسة ليفراون بهاله. وأقام هناك ثمانية عشر عاماً، ومن هنا تلقى "باخ هاله". وكان مولعاً بالشراب لا يعلو على ولعه به إلا ولعه بالموسيقى. ثم استقال في

صفحة رقم : 13748

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> بعد باخ

1764، وظل عشرين عاماً يهيم منتقلاً من بلد إلى بلد، ويقوم بالجهد أوده بالعزف في حفلات موسيقية وتعليم التلاميذ. وفي 1774 استقر في برلين حيث مات في سنك عام 1784.

وكان كارل فليب إيمانويل باخ أعسر، فاضطر إلى قصر عزفه على الأرغن والبيانو. وفي 1734 حين بلغ العشرين التحق بجامعة فرانكفورت، وهناك حظي بصحبة جيورج فليب تليمان، الذي كان أحد عرابيه يوم عماده وأعطاه جزءاً من اسمه. وفي 1837 عزف بعض مؤلفاته أمام جمهور ضم فردريك وليام الأول ملك بروسيا. ولما علم بأن ولي العهد فردريك يحب الموسيقى، قصد راينزبرج وقدم إليه نفسه دون أن يظفر بثمرة عاجلة؛ ولكن في 1740 عينه فردريك، الذي أصبح الآن ملكاً، عازفاً على الصنج في أوركسترا الكنيسة ببونستدام. ولكنه ضاق بمصاحبة ناي فردريك الهوائي المزاج وقبول سلطته الملكية في الموسيقى. وبعد أن قضى في الأوركسترا ستة عشر عاماً، اعتزل ليفرغ التعليم. وقد حدد كتابه "بحث في العزف الحقيقي على الكلافير" (1753 وما بعدها) بداية تقنية البيانو الحديثة،

وكان لهذا الكتيب الفضل في اكتساب هايدن البراعة الفنية في العزف على البيانو، وبسبب قال موتسارت عن "باخ برلين" هذا: "إنه أبونا، ونحن صبيته؛ والذين يعرفون منا أي شيء على وجهه الصحيح، فإنما تعلمناه منه، ووجد ذلك الطالب الذي لا يعترف بهذا" (108). وقد خرج إيمانويل في مؤلفاته عامداً على أسلوب أبيه الكونترابنطي، مؤثراً تناولاً متجانس الصوت وخطاً ميلودياً أبسط. وفي 1767 قبل وظيفة المدير لموسيقى الكنيسة في همبورج، وهناك أنفق الإحدى وعشرين سنة البقية في أجله. وفي 1795 جاء هايدن إلى همبورج ليراه، ولكنه وجد أن أعظم أبناء يوهان سبستيان قد مضى على موته سبع سنين.

أما يوهان كريستوف فريدرش باخ فقد درس على أبيه وفي جامعة ليبزج، ثم عين في الثامنة عشرة (1750) موسيقار الحجرة في بوكسبورج، لفلهم كونت شامبورج-ليه. وحين بلغ السادسة والعشرين أصبح مديراً للموسيقى. أما الحدث العظيم الذي وقع له ف عامه الثامن والعشرين فهو

صفحة رقم : 13749

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فريدرش -> بعد باخ

مجيء هردر (1771) مبشراً؛ وقد زوده هرذر بنصوص ملهمة للأوراتوربات والكنائس، والأغاني؛ واتبع يوهان كرسنوف أساليب أبيه وروحه، ثم ضاع في خضم تغيرات الدهر وتقلباته.

وعلى النقيض منه كان ولقاء الابن الأصغر، يوهان كرسنتيان باخ، لإيطاليا. بعث إلى برلين وهو لا يتجاوز الخامسة عشرة عند موت أبيه، وهناك بذل له أخ غير شقيق، يدعى فلهم فريدمان، العون وقام على تعليمه. وحين بلغ التاسعة عشرة ذهب إلى بولونيا، حيث أدى الكونت كافاليري أجوستينوليتا نفقات دراسته على الأب مارتيني؛ وقد افتتن الشاب بالحياة الإيطالية والموسيقى الكاثوليكية، فدخل في المذهب الكاثوليكي، وظل ست سنوات يخص الكنيسة أولاً بمؤلفاته الموسيقية. وفي 1760 عين عازف أرغن في كاتدرائية ميلان، وأصبح "باخ ميلان" ثم أثارت الأوبرا الإيطالية أثناء ذلك طموحه للتفوق في الموسيقى غير الدينية كما تفوق في الموسيقى الكنسية، فأخرج الأوبرات في تورين ونابلي (1761)؛ وشكا رؤساؤه الميلانيون من أن رشاقته هذه المؤلفات تتنافر مع مركزه في الكاتدرائية فنقل يوهان كرسنتيان مقامه إلى لندن (1762)، حيث حظيت أوبراته عادة بعروض طويلة الأمد. وما لبث أن عين رئيساً للموسيقى عند الملكة شارلوت صوفيا، ورحب بالصبي هذا الموسيقى الذي اكتمل نضجه الآن، وأخذ عنه الكثير من الألماعات في وراح يلهو معه على البيانو. وأحب الصبي هذا الموسيقى الذي اكتمل نضجه الآن، وأخذ عنه الكثير من الألماعات في تأليف الصوتيات والأوبرات والسمفونيات. وفي 1778 ذهب باخ إلى باريس ليقدم أوبراه "أماديس الغالين"، وهناك التقى ثانياً بموتسارت، وكان ابتهاج فتى الثانية والعشرين به كابتهاجه قبل خمسة عشر عاماً. كتب فولفجانج لأبيه يقول "إنه رجل أمين ينصف الناس، وأنا أحبه في كل قلبي" (109).

ويمكن القول على الجملة أن أسرة باخ هذه ابتداء من فايت باخ الذي مات في 1619، وانتهاء بفلهم فريدرش إرنست باخ الذي مات في 1845، هي أبرز الأسر في تاريخ الثقافة. فمن بين نحو ستين من هؤلاء الباخين

صفحة رقم : 13750

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> بعد باخ

المعروفة أسماءهم من أقرباء يوهان سبستيان، كان ثلاثة وخمسون موسيقيين محترفين، وكان ثمانية من أسلافه وخمسة من أخلافه من وزن كاف لتبرير نشر مقالات عنهم في قاموس للموسيقى (110). وقد ظفر عدد من الأبناء في حياتهم بيت ذائع وشهرة فاقت ما تتمتع به يوهان سبستيان. ولا يعني هذا أنهم احتكروا الشهة الموسيقية، فالموسيقيون الأفاض كانوا كالعادة يلقون المديح الأعظم وهم أحياء، ثم يجر عليهم النسيان ذبوله حين يموتون؛ وقد نافس مؤلفون موسيقيون مثل كارك فريدرش فاش وكرستيان فريدرش شوبارت أبناء باخ في ذبوع اسمهم.

وإذا نحن رجعنا النظر إلى هذا النصف الثاني من القرن الثامن عشر لحظنا بعض الخطوط الخاصة في التطور الموسيقي. فانتساع مساحة البيانوا وازدياد قوته حررا الموسيقى من خضوعها للألفاظ وشجع المؤلفات للموسيقى الآلية؛ ثم إن إقبال الجماهير المتزايد على الحفلات الموسيقية، وتقلص هيمنة الكنيسة، بعدا بالمؤلفين عن يوليونيوية يوهان سبستيان باخ وقربهم من هارمونيات خلفائه الأسهل تنوقاً. وعمل تأثير الأوبرا الإيطالية على تقوق الميلوديا حتى في قطع الموسيقى الآلية، بينما أحدثت الليدات، بحركة مضادة، تعقيداً جديداً في الأغنية. وبلغت الثورة على الأوبرا الإيطالية ذروتها في جلوك، الذي أراد إخضاع الموسيقى للدراما، ولكنه بالعكس أضفى السمو على الدراما بالموسيقى. وعمل درب آخر طورت الثورة "المسحية الغنائية"، التي بلغت أوجهاً في "الناي السحري". وانتقل الكونشرتو جروسو إلى الكونشرتو الموضوع لألة منفردة واحدة وأوركسترا، واتخذت الصونات شكلها الكلاسيكي في كارل فليب إيمانويل باخ وهيدان، وتطورت الرباعية إلى السمفونية. وهكذا تهيأ كل شيء لبيتهوفن.

صفحة رقم : 13751

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> الشيخ فرتر

10- الشيخ فرتر

فوق كل هذه الحياة المنوعة، حياة السياسة والدين والصناعة واللاهو والموسيقى والفن والعلم والفلسفة والبروإتمكان يلوح طيف البطل الشائخ الذي لقبته ألمانيا "الشيخ فرتر" - لا حياً بل تكريماً له بوصفه أعجب وأدهش

صفحة رقم : 13752

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> الشيخ فرتر

توتوني في عصره. فهو لم يقنع بحكم مملكته وأوركستراه، بل حسد قلم فولتير وناقته نفسه إلى الظفر بالثناء عليه شاعراً ومؤرخاً. وقد خلف للأجيال التالية ثلاثين مجلداً من كتاباته: سبعة في التاريخ، وستة في الشعر، وثلاثة في الأبحاث العسكرية، واثنين في الفلسفة، واثنين عشر في الرسائل، كلها بالفرنسية. أما أشعاره فأكثرها من النوع العابر سريع الزوال، ولم يعد القراء يذكرونها. ولكنه كان من كبار المؤرخين في جيله. ففي بواكير ملكه كتب تاريخ أسلافه- "مذكرات في تاريخ أسرتير اندنبورج" (1751). وقد زعم لنفسه الحياد كما يزعم أكثر المؤرخين: "لقد ارتفعت فوق كل الأهواء والميول، ونظرت إلى الأمراء والملوك والأقرباء نظري إلى أناس عاديين"، (111) ولكنه ارتفع إلى ذروة الحماسة والنشوة وهو يصف الناخب الأكبر فرديريك وليج.

أما رائعته الأدبية فهي "تاريخ عصري" الذي سجل حكمه. وقد بدأه عقب انتهاء الحرب السيليزية الأولى (1740-1742)، وواصل كتابته على فترات حتى أخريات عمره. وقد ضمنه تاريخ العلم والفلسفة والأدب والفن، ربما متأثراً بفولتير- وإن كان قد كتب جانباً كبيراً من هذا الكتاب قبل أن يظهر كتاب فولتير "قرن لويس الرابع عشر" و "مقاله في الأعراف" وقد اعتذر عن تضييعه حيزاً في كتابه على "بلهاء يلبسون الأرجوان، ودجاجلة يحملون التيجان... أما تتبع الكشف عن الحقائق الجديدة، وتفهم أسباب التغيير في الأخلاق والعادات، ودراسة الطرق التي قشعت بفضلها ظلمة الهرجية من عقول الناس- فهذه بالتأكيد موضوعات جدية بأن تشغل جيع المفكرين". (112) وقد أتى على هوبز ولوك والمؤلمة في إنجلترا، وعلى توماسيوس وفولف في ألمانيا، وفونتينيل وفولتير في فرنسا. "هؤلاء العظماء وتلامذتهم كالوا للدين ضربة قاضية. وبدأ الناس يمحسون ما كانوا يعبدونه بعبادة، وأطاح العقل بالخرافة... وكسبت الربوبية أتباعاً كثيرين، وهي العبادة البسيطة للكائن الأعظم". (113) وإذ كان فرديريك يحترق الحكومة الفرنسية ويحب الأدب الفرنسية، فإنه فضل ملحمة فولتير "الهنريادة" على الألياذة، وفضل راسين على سوفوكليس وسوى بين بوالو وهوراس،

صفحة رقم : 13753

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فرديريك -> الشيخ فرنتز

وبين يوسويه وديموستين. وسخر من لغة ألمانيا وأدبها، وامتدح فيها المعماري. وشق على نفسه ليبرر غزوه سيليزيا، فقال أنه أحس أن لرجل الدولة أن ينتهك الوصايا العشر إن اقتضته ذلك مصالح دولته الحيوية "فخير أن يحنث الملك بعهد من أن يهلك الشعب" (114)- وهذا الهلاك كما أمل أن تصدقه- هو الخطر الذي تهدد بروسيا في 1740؛ وقد اعترف بأنه اقتراف أخطاء كثيرة في قيادته جيشه، ولكنه راه أمراً لا ضرورة له أن يسجل فراره مولفتز. وهذان المجدان في جملتهما يقفان على قدم المساواة مع أفضل الكتابات التاريخية عن أوروبا الحديثة قبل جبون.

وما أن وضعت حرب السنين السبع أوزارها حتى عكف فرديريك على كتابة "تاريخ حرب السنين السبع". وكان كقيصر يتطلع إلى أن يكون خير مؤرخ لحملاته، وكقيصر تحاشى الحرج فتكلم عن نفسه بضمير الغائب. وهنا أيضاً حاول-ربما بعذر أفضل- أن يبرر المبادرة الجريئة التي بدأ بها الحرب. وقد امتدح ألد أعدائه، ماريا تريزا، في كل ما يتصل بحكمها الداخلي، أما في علاقاتها الخارجية فقد أدان هذه المرأة المتكبرة "التي" استبد بها الطمع فأرادت أن تبلغ هدف المجد من كل طريق" (115) ووسط سجل الحملات، المحايد إلى حد لا بأس به، توقف ليندب أمه التي ماتت في 1757 وشقيقته التي لحقت بها في 1758. والصفحة التي وصف فيها فلهمنية واحة من الحب في بيداء خربة من الحرب.

وقد خلص إلى أن التاريخ أستاذ عظيم تلاميذه قليلون: "إن في طبيعة البشر ألا يتعلم إنسان من التجربة. وحماقات الأباء تضيع هدراً على الأبناء، وكل جيل لا بد مقترف حماقاته" (116) "كل من يقرأ التاريخ بإمعان يدرك أن

المشاهد ذاتها كثيراً ما تتكرر، وأنه لا حاجة بنا إلا لتغيير أسماء الممثلين" (117). ولكننا حتى لو استطعنا أن نتعلم، فإننا سنظل عرضة للمصادفة التي لا يمكن التنبؤ بها. "إن هذه المذكرات تقتعني أكثر فأكثر بأن كتابة التاريخ إن هي إلا تجميع لحماقات الناس وضربات الحظ. فكل شيء يدور حول هذين الموضوعين" (118).

صفحة رقم : 13754

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> الشيخ فرتر

وقد حاول مرتين (1752 و1768) في "وصية أخيرة" أن ينقل لورثته بعض الدروس المستفادة من تجربته الخاصة. فحثهم على دراسة أهداف الدولة المختلفة ومواردها، والوسائل المتاحة لحماية بروسيا وتنميتها. وحذا حذو أبيه في تأكيده على الحاجة لأحكام ضبط الجيش، وحذر خلفاءه من الإنفاق فوق ما يسمح به الدخل؛ وتنبأ بالمتاعب السياسية التي ستحيق بفرنسا لسفهاها المالي؛ ونصح بزيادة الإيرادات لا بفرض ضرائب جديدة بل بحفز إنتاجية الاقتصاد. وينبغي حماية كل الأديان ما التزمت الهدوء والسلام - رغم أن "جميع الأديان إذا فحصها المرء وجدها تركز على نسق من الخرافة غير معقول قليلاً أو كثيراً" (119). أما سلطة الملك فيجب أن تكون مطلقة، ولكن على الملك أن يعد نفسه أول خادم للدولة. وما دامت بروسيا في خطر من صغر حجمها وسط دول كبيرة كروسيا وفرنسا والإمبراطورية النمساوية المجرية، فإن من واجب الملك أن يعتزم أي فرصة ليوسع بروسيا ويوحدها ويحسن أن يكون ذلك بفتح سكسونيا وبروسيا البولندية وبومرانيا السويدية: "أن أول شغل شاغل للأمبر هو أن يصون سلطته، أما الثاني فهو أن يوسع رقعته. وهذا يقتضي المرونة وسعة الحيلة... وستر المطامع الخفية يكون بإعلان الميول السلمية حتى تأتي اللحظة المواتية. تلك طريقة جميع رجال الدولة العظماء" (120). وينبغي أن يعد الملك خلفه للحكم، فيهيئ له التعليم على يد رجال مستبشرين لا رجال كنسيين، لأن هؤلاء يشحنون رأسه بخزعبلات يقصد بها أن يكون أداة طيعة في يد الكنيسة (121). وتعليم كهذا من شأنه أن يخرج عقلاً ضعيفاً سرعان ما تسحقه مسؤوليات الدولة. "ذلك ما رأيته، وإذا استنثيت ملكة المجر (ماريا تريزا) وملك سردينيا (شارل إيمانويل)، فإن كان ملوك أوربا ليسوا سوى بلهاء مشهورين" (122). وقد كتب هذا واليزابث تحكم روسيا. وكانت "وصية" 1768 أكثر تأديباً، لأن كاترين كانت قد أثبتت علو همتها، وتنبأ فردريك الآن بأن روسيا ستكون أخطر دولة في أوربا (123). فلما شاخ بدأ يسائل نفسه إن كان ابن أخيه ووريثه المحتمل فردريك

صفحة رقم : 13755

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> الشيخ فرتر

فلهم الثاني صالحاً لوراثته الحكم. كتب إليه يقول "إنني أشقى من أجلك ولكن على أن أفكر في الاحتفاظ بما أصنع، فإن كنت كسولاً خاملاً ذاب في يدك كل ما جمعته بالجهد والمشقة" (124). وفي 1728 كتب وقد ازداد تشاؤماً "لو أن ابن أخي لان وتراخي بعد موتي، لما بقي شيء اسمه بروسيا في ظرف عامين" (125). وقد تحققت النبوءة في فيينا عام 1806، لا لأن فردريك وليم الثاني كان رخواً ليناً، بل لأن نابليون كان صلباً قاسياً.

وقد بات فردريك ذاته في عقدة الأخير قاسياً إلى حد لا يحتمل. فاخترل قدراً كبيراً من الحرية التي سمح بها للصحافة قبل 1756. كتب ليسنج إلى نيقولا في 1769 يقول "إن حريتكم البرلينية تنقلص.. إلى حرية جلب ما تشاءون جلبه إلى السوق من سخافات ضد الدين... ولكن ليرفع إنسان صوته نيابة عن الرعايا، وضد الاستغلال والاستبداد... وعندها سنتبين سريعاً أي دول أوربا أكثرها اليوم عبودية وذللاً" (126). وكره هرذر وطنه بروسيا، وانصرف فنكلمان في "رعب" عن ذلك "البلد المستبد" (127). وحين زار جوتته برلين في 1778 أدهشته عدم شعبية الملك. ومع ذلك كان الشعب يبجل فردريك شيخاً لم يرضن طوال خمسة وأربعين عاماً بيوم واحد في سبيل خدمة الدولة. وقد برته الحرب كما براه السلم. وكثرت واشتدت عليه نوبات النقرس والربو، والمغص والبواسير، وزادت أوجاعه حدة لولعه بالوجبات الثقيلة والأطعمة الحريفة. وفي 22-25 أغسطس 1778 استعرض جيشه السيليزي قرب برزلاوز وفي اليوم الرابع والعشرين ظل على صهوة جواده ست ساعات بردائه العسكري العادي والمطر يهطل غزيراً، وعاد إلى مسكنه مبللاً يرتعد من البرد. ولم يستعد عافيته بعدها قط. وفي يونيو 1786 أرسل في طلب الدكتور تسمرمان من هانوفر. وتوقف عن تعاطي العقاقير التي وصفت له، وأثر الأحاديث المرحلة عن الأدب والتاريخ، ولكي يلزمه تسمرمان الهدوء وصف له كتاب جيون "الضمحلال الإمبراطورية الرومانية

صفحة رقم : 13756

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> ألمانيا في عهد فردريك -> الشيخ فرتر

وسقوطها" (128). وتفاقت أوصابه بالاستسقاء، وأحدثت القطوع التي أجريت له لتخفيف الانتفاخات غرغرينة. ثم أطبق عليها الالتهاب الرئوي فاكتمل الحصار، وفي 17 أغسطس 1786 مات فردريك وهو في الرابعة والسبعين. وكان قد طب أن يدفن في حديقة "صانوسوسي" قرب قبور كلابه وحصانه الحبيب، ولكن أمر رحيله هذا الذي أصدره على البشرية أغفل، فدفن إلى جوار أبيه في كنيسة الحامية ببوتسدام. وحين جاء نابليون ووقف أما قبر فردريك بعد أن هزم البروسيين في فيينا قال لقواد جيشه "لو كان على قيد الحياة لما كنا هنا" (129).

صفحة رقم : 13757

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> كانط -> مقدمة

لعل كانت ما كان ليظهر قط لولا وجود فردريك الأكبر. ذلك أن كتابيه "نقد العقل الخالص" و "الدين في حدود العقل وحده" يسرت صدورهما شكوكية فردريك وتسامحه الديني؛ فلم ينقض على موت فردريك امان حتى أخرجت الحكومة البروسية كانت.

كان كانت كفرديريك ربيباً لحركة التنوير، وقد تشبث بولائه للعقل حتى النهاية رغم كل ذبذبتة الاستراتيجية، ولكنه أيضاً كروسو كان جزءاً من الحركة الرومانتيكية، مكافحاً للتوفيق بين العقل والوجدان، وبين الفلسفة والدين، وبين الفضيلة والثورة. وقد أشربه أبواه النزعة التقوية، ثم هجتها بعقلانية كرسنتيان فونفولف؛ واستوعب هرطقات جماعة الفلاسفة؛ وهجتها بـ "اعتراف قسيس سافوا بالإيمان" في كتاب روسو "إميل"؛ وورث سيكولوجية لوك وليبننتس وباركلي وهيوم الدقيقة البارعة، واستخدمها في محاولة لينقذ العلم من هيوم، وينقذ الدين من فولتير. وقد رتب حياته بانتظام بورجوازي، ورحب بالثورة الفرنسية. وإذ عاش منفرداً في بروسيا الشرقية، فإنه أحس ولخص كل تيارات عصره العقلية.

ولد في كونيجزبرج (22 أبريل 1724) النائية عن فرنسا، المولعة بالوضوح والمعتمة بضباب البحر. وقد أثرت بعض الشكوك حول أصل أسرته الاسكتلندي، ولكن كانت نفسه يخبرنا أن جده "في ختام القرن

الماضي هاجر من اسكتلندة إلى بروسيا، ولا أدري لم "1). وتزوج أبوه يوهان جيورج كانت من أنا رويتر، وكان إيمانويل (ومعناها الله معنا) رابع أبنائهم الأحد عشر. وقد اتخذ اسمه الأول من قديس يوم ميلاده، ثم غير اسم الأسرة من Cant إلى Kant ليمنع الألمان من أن ينطقوه "تسانت" (2) وقد نشئت الأسرة كلها على مذهب التقويين، الذي

كان كالمثودية الإنجليزية يشدد على الإيمان والتوبة والالتجاء رأساً إلى الله، بعكس العبادة اللوثرية التقليدية في الكنيسة بقسيس وسيط.

وكان أحد وعاظ التقويين قد أنشأ في كوينزبرج "كلية فرديكية". والتحق إيمانويل بها من سن الثامنة إلى السادسة عشرة. وكان اليوم المدرسي يبدأ في الخامسة والنصف صباحاً بنصف ساعة من الصلاة، وكل حصة في الصف تختم بالصلاة؛ وخصصت ساعة كل صباح لتعليم الدين، مع التشديد على نيران الجحيم؛ وكان التاريخ يدرس أساساً من العهد القديم، واليونانية من العهد الجديد. وحده. ويوم الأحد يكرس أكثر للعبادة. لقد كان تعليماً أثمر الفضيحة في بعض خريجيه، والنفاق في آخرين، وربما روحاً كئيبة في معظمهم. وقد أنكر كانت فيما بعد هذه الجرعة الثقيلة من التقوى والإرهاب، وقال أن الخوف والرعدة يغلبانه حين يتذكر تلك الأيام (3).

وفي 1740 انتقل إلى جامعة كوينزبرج. هنا كان أحب المدرسين إليه مارتن كنوسنن الذي عرف كانت بـ "عقلانية" فولف رغم كونه تقوياً. وكان كنوسنن قد قرأ للربوبيين الإنجليز، وأدانهم ولكنه ناقش آراءهم، وترك بعض الشكوك الربوبية في واحد من تلاميذه على الأقل. فلما دعي كانت بعد قضاء ست سنين في الجامعة ليرسم قسيساً لوثرياً، رفض الدعوة رغم ما وعد من ترقية قريبة إلى وظيفة مريحة (4). وعاش بدلاً من ذلك تسع سنين رقيق الحال يعلم أبناء الأسرة الخاصة ويواصل دراسته. وكان اهتمامه حتى 1770 بالعلم لا باللاهوت "وكان لوكرينتيوس من أحب المؤلفين إليه" (5).

وفي 1755 نال كانت درجة الدكتوراه، وسمح له بأن يحاضر في الجامعة

صفحة رقم : 13759

قصة الحضارة - روسو والثورة - الشمال البروتستنتي - كانط - مقدمة

بوصفه "معلماً خاصاً" لا يكافأ إلا بالرسوم التي يقرر الطلبة دفعها. وظل خمسة عشر عاماً في هذا الوضع القلق. وخلال هذه البداية الطويلة الأمد رفضت طلباته لوظيفة الأستاذية مرتين. وظل فقيراً، ينتقل من نزل إلى نزل، ولا يجرؤ على الزواج، ولا يسكن بيتاً خاصاً به حتى بلغ التاسعة والخمسين (6). وقد حاضر في مواضيع كثيرة التباين، ربما ليجتذب عدداً أكبر من الطلاب، وكان عليه أن يحاضر بلغة واضحة ليتيسر له العيش. ولا بد أن كانت المعلم كان يختلف تماماً عن كانت المؤلف الذي اشتهر بغموضه. وقد وصفه هرذر، الذي كان أحد تلاميذه (1762-64) بعد ثلاثين عاماً، محتفظاً له بذكرى ملؤها العرفان بالجميل، فقال:

"أسعدني الحظ بمعرفة فيلسوف كان معلماً. ففي مقتبل عمره تحلى بشجاعة الشباب المرحة، وأعتقد أن هذه الشجاعة لازمته حتى الشيخوخة. وكان جبينه الواضح المفكر مستقراً للبشر والسرور الذي لا يكدر صفوه مكرر، وكان حديثه حافلاً بالأفكار شديد الإيحاء؛ وفي متناوله الضحك والدعابة الذكية والخيال الفكاهة؛ ومحاضراته تجمع بين التعليم والترفيه الكثير. وبالروح ذاتها التي انتقد بها ليبنتس وفولف وباومجارتن... وهيوم، بحث في القوانين الطبيعية التي قال بها نيوتن وكبلر والفيزيائيون. وبهذا الأسلوب تناول كتابات روسو... ولم يكن لأي عصبية أو ملة، ولا تحيز أو إجلال لاسم من الأسماء، أدنى تأثير عليه مقابل نشر الحقيقة ودعمها. وكان يشجع سامعيه على التفكير لأنفسهم ويضطرهم في رفق إلى هذا التفكير؛ أما الاستبداد فكان غريباً على طبعه. وهذا الرجل الذي أذكر اسمه بأعظم عرفان وتبجيل هو إيمانويل كانت، وصورته مماثلة أمامي، وهي محببة إلى نفسي" (7).

ول أردنا أن نتذكر كانت على الأخص من واقع عمله قبل أن يبلغ السابعة والخمسين (1781) لوجب أن نرى فيه العالم أكثر من الفيلسوف-رغم أن هذين المصطلحين لم يكونا بعد منفصلين. وأول أعماله المنشورة "خواطر من التقييم الحقيقي للقوى الديناميكية، 1747" نقاش علمي عن قوة الجسم أثناء حركته وهل تقاس (كما زعم ديكرات وأويلر) بالكتلة

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> كانط -> مقدمة

مضروبة في السرعة، أو (كما زعم ليبنتس) بالكتلة مضروبة في مربع السرعة؛ وهو إنجاز ممتاز لفتى في الثالثة والعشرين. وتلا بعد هذا سبع سنوات مقال في زمن دوران الأرض اليومي وهل يتغير بالمد والجزر. وفي العام نفسه نشر كانت بحثاً عن الأرض وهل بسبيلها إلى الشبخوخة؛ هنا أعرب كانت عن القلق الذي يساور عصرنا الحديث على فقد الشمس بعض طاقتها كل يوم على تجمد أرضنا في المستقبل.

وفي بحث رائع نشر عام 1705 قدم الشاب الجريء ذو الحادية والثلاثين عاماً "التاريخ الشامل للطبيعة، ونظرية السماوات". وقد تنشر الكتاب غفلاً من اسم المؤلف وأهدي إلى فردريك الأكبر؛ وربما خاف كانت أن يلحقه أذى من رجال اللاهوت وأمل في أن يبسط الملك عليه حمايته، وقد رد جميع عمليات الأرض والسما إلى قوانين آلية، ولكنه أكد أن النتيجة، بما فيها من تناسق وجمال، تثبت وجود عقل اسمي. ولكي يفسر كانت أصل المنظومة الشمسية اقترح "الفرض السديمي". قال:

"إنني أزعم أن كل مادة المنظومة الشمسية... كانت في بداية الأشياء كلها متحللة إلى عناصرها الأولية، وأنها ملأت كل الفضاء... الذي تدور فيه الآن الأجسام المكونة منه... وفي فضاء مملوء على هذا النحو، لا يمكن أن يدوم هدوء شامل إلا لحظة... فالعناصر المشتتة الأكتفونعاً، بحكم قوتها الجاذبية، تجمع من حولها كل المادة الأقل وزناً نوعياً؛ وهذه العناصر هي الأخرى، مع المادة التي وحدتها معها، تتجمع في النقط التي توجد فيها جسيمات من نوع أكثر كثافة، وهذه بالمثل تنضم إلى جسيمات أكثر، وهلم جرأ...

"ولكن للطبيعة قوى أخرى،... بفعلها تتنافر هذه الجسيمات، وهي التي تحدث بصراعها مع الجاذبيات تلك الحركة التي هي بمثابة الحياة الدائمة للطبيعة... وقوة التنافر هذه تظهر في مرونة الأبخرة، وتدفق الأجسام القوية الراححة، وانتشار جميع المواد الكحولية. وهذه القوة هي التي بفعلها تحيد تلك العناصر التي قد تكون ساقطة إلى النقطة التي تجتذبها...

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> كانط -> مقدمة

عن حركتها في خط مستقيم؛ وسقوطها العمودي يكون في حركة دائرية حول المركز الذي تسقط نحوه" (8). واعتقد كانت أن جميع النجوم تجمعت أو هي بسبيل التجمع في مثل هذه المنظومات من الكواكب والشموس، وقد أضاف عبارة ذات مغزى "أن الخليقة لا تكتمل أبداً، إنها لا تكف عن مواصلة السير" (9). وهذا الفرض السديمي الذي افترضه كانت في 1755، وكذلك التعديل الذي أدخله عليه لابلاس (1796)، حافل بالصعوبات كمعظم ما تلاه من النظريات في أصل الكون، ومع ذلك يقول فيه فلكي حي شهير "إنني أعتقد أن بحث كانت عن أصل الكون كان أبداع

تلخيص موضوعي للعلم حتى ذلك الوقت" (10). أما بالنسبة لنا فإن دلالة البحث تكمن في بيانه أن كانت لم يكن ميتافيزيقياً غيبياً بل رجلاً فتن بالعلم، وكافح للتوفيق بين المنهج العلمي والعقيدة الدينية. وهذا لب جهوده حتى النهاية". وفي 1756، حين هزته كارثة زلزال لشبونة التي وقعت في 1755- كما هزت فولتير- إلى أعماق فلسفته، نشر كانت ثلاث مقالات عن الزلازل ومقالاً عن نظرية في الرياح. وفي 1757 نشر "مجملاً لمجموعة محاضرات في الجغرافيا الطبيعية وبياناً عنها"، وفي 1758 نشر "نظرية جديدة في الحركة والسكون. فلما اتسعت دائرة اهتماماته أرسل إلى المطبعة رسائل قصيرة عن موضوعات التفاؤل (1759)، والقياس المنطقي (1762)، وأمراض الرأس (1764). وقد ألمع في هذه الرسالة إلى أن تقسيم العمل المتزايد قد يقضي إلى الجنون نتيجة التكرار الرتيب الممل. وفي 1763 انتقل إلى اللاهوت ببحث عنوانه "الدعامة الوحيدة الممكنة للبرهنة على وجود الله"؛ ووضح أنه كان مبلبل الخاطر لاهتزاز إيمانه الديني. وفي 1764، بعد ثماني سنين من نشر بيرك رسالة مماثلة، قدم "ملاحظات على الشعور بالجميل والجليل".

ومرت به أوقات خطر له فيها أن يوسع فرضه في أصل الكون التطوري

صفحة رقم : 13762

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> كانط -> مقدمة

ليشمل علم الأحياء؛ وكان على علم بأن الأشكال الجديدة تطورت من القديمة بفعل تغيرات في ظروف الحياة (11)، وقيل الرأي القائل بأن تشريح الإنسان كان في الأصل ميسراً لحركة أرجل أربع (12). ومع ذلك أحجم عن فكرة البيولوجية القائمة كلها على المذهب الآلي". "كذلك مرت بي أوقات سرت خلالها في هذه الدوامة مفترضاً هنا ميكانيكا طبيعية عمياء أساساً للتفسير، واعتقدت أنني أستطيع استكشاف طريق أسلكه إلى المفهوم البسيط الطبيعي. ولكنني كنت دائماً أنتهي إلى تحطيم سفينة العقل، ومن ثم أثرت المغامرة في محيط الأفكار الذي لا حدود له" (13). وكان رودلف راسبي (مؤلف رحلات البارون مونتسوازون) قد اكتشف مؤخراً مخطوط لابينتس المفقود منذ زمن طويل "مقالات جديدة في الفهم البشري" ونشره في 1765، واستطاع كانت أن يقرأه بالفرنسية، وقد أسهم في تحويله إلى نظرية المعرفة. على أنه لم يهجر اهتمامه بالعلم هجراناً تاماً، فقد كتب في تاريخ متأخر (1785) مقالاً عنوانه "في براكين القمر". غير أن الصراع الباطن بين دراساته العلمية ولاهوته الموروث حفزه إلى التماس التوفيق بينهما في الفلسفة.

ويحتمل أن يكون من العوامل التي وجهته هذه الوجهة الجديدة عرض (1770) منصب أستاذ المنطق والميتافيزيقا عليه. وكان الراتب ضئيلاً لرجل بلغ السادسة والأربعين وهو 167 طالراً في العام، زيد ببطء إلى 225 في 1786؛ وقد رفعت الراتب خدمات عارضة أداها بوصفه "سناطوراً" و "أقدم أساتذة الكلية" في 1789 إلى 726 طالراً وكانت التقاليد تقضي بأن يلقي الأستاذ الجديد خطاباً افتتاحياً باللاتينية. واختار كانت موضوعاً عسيراً هو "في شكل ومبادئ العالم المحسوس والعالم المعقول". واستعمل كانت المصطلحات "المدرسية" التي كانت تزال سائدة في الجامعات الألمانية. وقصد بالعالم المحسوس العالم كما تدركه الحواس، وسوف يسميه أيضاً فيما بعد بعالم الظواهر. أما العالم المعقول. فيقصد به العالم كما يدركه الذهن أو العقل، وسوف يسميه بعد ذلك العالم "النوميني". ونحن نحاول فهو العالم المحسوس بأن نطبق عليه المفاهيم الذاتية للزمان والمكان بواسطة الرياضة والعلوم؛ والعالم المعقول بتجاوز الحواس عن طريق العقل

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> كانط -> مقدمة

والمتميزيقا إلى مصادر العالم المحسوس وأسبابه فوق الحسية. هنا أرسى كانت نظريته الأساسية: وهي أن الزمان والمكان ليسا شيئين موضوعيين أو محسوسين بل شكلين من أشكال الإدراك الحسي أصيلين في طبيعة العقل وبنياته؛ وأن العقل ليس متلقياً ونتاجاً سلبياً للأحاسيس، بل هو عامل إيجابي له طرائق وقوانين عمل أصيلة لتحويل الأحاسيس إلى أفكار.

وقد عد كانت هذا البحث الجوهرى "النص الذي سيفصل القول فيه في الكتاب التالي" وتدل هذه العبارة الواردة في خطاب حرره في 1771 إلى ماركوس هرتس على أن الفيلسوف كان الآن يخطط لكتابة "نقد العقل الخالص". وبعد اثنتي عشرة سنة من العكوف على ذلك البحث الضخم نشره على الناس في 1781، وأهداه لكارل فون تسيدلنتس وزير التعليم والشئون الدينية في عهد فردريك الأكبر. وكان تسيدلنتس، كما كان الملك، ربيب حركة التنوير، ونصيراً لحرية النشر. وقد قدر كانت أن حمايته ستكون مفيدة جداً إذا استشف اللاهوتيون وراء ألفاظه الغامضة واستنتاجاته السنوية في ظاهرها تحليلاً من أشد التحليلات التي تلقاها اللاهوت المسيحي تدميراً.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> كانط -> نقد العقل الخالص

2- نقد العقل الخالص

1781

إذا وجد العالم هذا الكتاب عسيراً فقد يكون السبب منهج العمل الذي انتهجه كانت. كتب إلى موسى مندلسون (16 أغسطس 1783) يقول: مع أن الكتاب "ثمرة تأمل شغلني على الأقل اثني عشر عاماً، فإنني أكملته بأقصى سرعة في أربعة أشهر أو خمسة، بادلاً أبلغ العناية بمحتوياته، ولكن دون اهتمام يذكر بالعرض أو بتيسير فهمه للقارئ-وهو قرار لم أندم عليه قط، وإلا فلو تباطأت وحاولت صياغته في شكل أكثر شعبية لما اكتمل العمل إطلاقاً في أغلب الظن" (14). إن الوضوح يقتضي الوقت، ولم يكن كانت واثقاً من أنه يملك الوقت. وق حذف عمداً بعض الأمثلة الموضحة

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> كانط -> نقد العقل الخالص

مخافة أن يتضخم كتابه؛ "فهذه ليست ضرورية إلا من وجهة النظر الشعبية، وهذا الكتاب لا يمكن أبداً جعله صالحاً للاستهلاك الشعبي" (15). وهكذا كتب كانت لأهل حرفته، وركن إلى غيره في تبسيطه وتخفيفه ليصلح للهضم. ومع أن كرستيان فون فولف كان قد سبقه في التأليف الفلسفي بالألمانية، إلا أن تلك اللغة لا تزال على جفافها في التعبير عن ظلال التفكير، ولم تكن قد استقرت على مصطلحات فنية في الفلسفة. وكان على كانت في كل خطوة تقريباً أن يخترع ترجمة ألمانية لمصطلح لاتيني، وفي كثير من الحالات حتى اللاتينية كانت تفتقر إلى مصطلحات تقي بالفوارق الدقيقة التي أراد التعبير عنها. وقد أربك قراءه بخلعه المعاني الجديدة على الألفاظ القديمة، وبنسيانه أحياناً تعاريفه الجديدة. والصفحات المائة الأولى واضحة وضوحاً لا بأس به، أما باقي الكتاب فحريق فلسفي لا يبصر فيه القارئ غير الخبير شيئاً من الدخان.

وقد احتاج العنوان نفسه إلى إيضاح. فأني للقارئ أن يعرف أن "نقد العقل الخالص" معناه تمحيص نقدي حصيف للعقل مستقلاً عن التجربة، و "النقد لم يعن التحليل والعرض فحسب، بل الحكم أيضاً، كما يستفاد من سلف اللفظة اليوناني (بمعنى يحكم). وقد قصد كانت أن يصف الحس، والإدراك الحسي والفكرة والعقل، وأن يقرر لكل منها حدودها واختصاصاتها الصحيحة. ثم أمل أن يبين أن استطاعة العقل أن يعطيا المعرفة مستقلاً عن أي خبرة مؤيدة، كما هي الحال في معرفتنا أن سنة مضروبة في سنة تساوي ستة وثلاثين، أو أنه لا بد أن يكون للمعلول علة. تلك أمثلة لـ "العقل الخالص" - أعني المعرفة القبلية أو الأولية، أي المعرفة التي لا تتطلب برهاناً من التجربة يقول: "إن ملكة المعرفة الحاصلة من المبادئ القبلية يمكن أن نسميها العقل الخالص، والبحث العام في قدرتها وحدودها (يولف) نقد العقل الخالص" (16). وقد اعتقد كانت بأن بحثاً كهذا سينطوي على مشكلات الميتافيزيقا؛ وكان على ثقة من أنه "ما من مشكلة ميتافيزيقية واحدة لم تحل، أو لم يقدم

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> كانط -> نقد العقل الخالص

مفتاح حلها على الأقل" في هذا النقد (17). وذهب إلى أن الخطر الوحيد الذي يخشاه "ليس خطر تفنيد آرائي بل عدم فهمي" (18).

فما الذي جرى يا ترى إلى خوض هذه المغامرة البطولية؟ قد يظن أن إعلاء حركة التنوير الفرنسية من شأن العقل - وزعم جماعة الفلاسفة أن الإيمان يجب أن يخضع للعقل - وما حاق باللاهوت المسيحي نتيجة لهذا من دمار، كان السبب الذي جعل كانت يصمم على دراسة أصل العقل وعمله وحدوده. وقد لعب ذلك الحافز دوره، كما ورد في مقدمة كانت للطبعة الثانية (19)، ولكن المقدمة ذاتها أوضحت بجلاء أن العدو الذي أسهدفه هو هذه التوكيدة الإيقانية

(الديجايطيقية) بكل ألوانها- أي كل مذاهب الفكر التقليدي والمبتدعة على السواء، التي ينشئها عقل لم يخضع للامتحان. وقد لقب كرسنيان فون فولف بـ "أعظم الفلاسفة الديجايطيقيين قاطبة" لأنه اضطلع بإثبات عقائد المسيحية، وفلسفة لينتس بالعقل وحده. وكل المحاولات التي تبذل للبرهنة على صدق الدين أو كذبه بالعقل الخالص هي في نظر كانت صور من الديجايطيقية؛ وقد حكم بـ "ديجايطيقية الميتافزيقا" على كل مذهب في العلم أو الفلسفة أو اللاهوت لم يخضع أولاً لامتحان نقدي للعقل ذاته. وقد اتهم تفكيره هو، حتى عام 1770، بأنه مدان بهذه الديجايطيقية. يقول أن ما أيقظه من هذه التأملات غير الممحصنة هو قراءته لهيوم-ربما كتابه "بحث في الفهم البشري" الذي ظهرت ترجمته ألمانيا له في 1755. وكان هيوم قد زعم أن كل تدليل يعتمد على فكرة العلة، وأنها في التجربة الفعلية لا ندرك العلة إدراكاً حسابياً بل التعاقب وحده؛ وإذن فكل العلم والفلسفة واللاهوت يرتكز على فكرة-علة ليست غير فرض ذهني لا حقيقة مدركة حسيماً. كتب كانت يقول "أعترف بصراحة أن ملاحظة ديفد هيوم هي التي قطعت على سباتي الديجايطيقي منذ سنين طويلة ووجهت أبحاثي في مجال الفلسفة النظرية في اتجاه مختلف كل الاختلاف" (20). فكيف يمكن إنقاذ مفهوم العلة من المكان الوضيع، مكان الفرض غير اليقيني، الذي

صفحة رقم : 13767

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> كانط -> نقد العقل الخالص

خلفه فيه هيوم؟ يقول كانت أنه لا سبيل إلى ذلك إلا ببيان أنه قبلي، مستقل عن الخبرة، واحد من تلك المقولات، أو أشكال الفكر، التي وإن كانت ليست بالضرورة فطرية، إلا أنها جزء من التركيب الفطري للعقل. ومن ثم صمم على التغلب على ديجايطيقية فولف وارتيازية هيوم جميعاً بنقد-أي بتمحيض نقدي-يصف في الوقت نفسه سلطة العقل ويحددها ويحييها. وهذه المراحل الثلاث-الديجايطيقية، والارتيازية، والنقد-هي في نظر كانت المراحل الثلاث الصاعدة في تطور الفلسفة الحديثة.

وفي ولع بالتعاريف، والتمييزات، والتصنيفات، وباستخدام للألفاظ الطويلة اختصاراً للكلام، قسم كانت المعرفة كلها إلى معرفة تجريبية (تعتمد على التجربة) وأخرى ترانسندنتالية (مستقلة عن التجربة ومن ثم متجاوزة لها). وقد وافق على أن المعرفة كلها "تبدأ" بالتجربة، بمعنى أن إحساساً ما لا بد أن يسبق وينبه عمليات الفكر، ولكنه يعتقد أن في اللحظة التي تبدأ فيها التجربة فإن تركيب العقل يشكلها بما تأصل فيه من أشكال "الحدس" (الإدراك الحسي) أو الإدراك العقلي. وأشكال "الحدس" الأصيلة هي الصور المشتركة بين الجميع، والتي تتخذها التجربة في إحساسنا الظاهر كمكان، وفي حساسيتنا الباطنة كزمان.

وبالمثل توجد أشكال فطرية من الإدراك العقلي أو الفكر، مستقلة عن التجربة وهي تشكلها. وقد سماها كانت المقولات، وقسمها بتناسق أولع به وحرص عليه حرصاً شديداً إلى أربع مجموعات ثلاثية: ثلاث مقولات للك-هي الوحدة والكثرة وجملة الكل؛ وثلاث مقولات للكيف-هي الوجود والسلب وحد التناهي؛ وثلاث مقولات قوائم للإضافة هي الجوهر في مقابل العرض، والسببية في مقابل التلازم، والمشاركة أو التفاعل؛

صفحة رقم : 13768

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> كانط -> نقد العقل الخالص

وثلاث مقولات قوائم للجهة-هي الإمكان في مقابل الاستحالة، والوجود في مقابل العدم، والضرورة في مقابل العرضية. وكل إدراك حسي يندرج تحت واحد أو أكثر من هذه الأشكال أو القوالب الأساسية للفكر. فالإدراك الحسي إحساس تترجمه الأشكال الفطرية للزمان والمكان، والمعرفة إدراك حسي تحوله المقولات إلى حكم أو فكرة. والتجربة ليست قبولا سلبياً لانطباعات موضوعية على حواسنا، إنما هي حصيلة العقل المؤثر إيجابياً على خامة الإحساس.

وقد حاولت أن يعارض ارتباطية هيوم في العلية، وذلك بأن عد علاقة العلة والمعلول شكلاً حقيقياً من أشكال الفكر لا حقيقة موضوعية؛ وهي بهذه الصفة مستقلة عن الخبرة وليست خاضعة لعدم يقينية الأفكار التجريبية. ولكنها مع ذلك جزء ضروري من كل تجربة، لأننا لا نستطيع فهم التجربة بدونها. ومن ثم فإن "إدراك العلة العقلي" ينطوي على صفة الوجوب، التي لا يمكن لأي تجربة أن تعطيهها" (22). وقد ظننت أن ذلك "خفة القلم" هذه أتقن العلم من ذلك القيد المذل، قيد الاحتمال، الذي قضى عليه به هيوم. بل إنه زعم أن العقل البشري لا الطبيعة-هو الذي ينشئ "قوانين الطبيعة" الشاملة، وذلك بإضافته على بعض تعميماتنا-كالتعميمات الرياضية-صفات من الشمول والوجوب لا تدرك موضوعها إدراكاً حسيماً. "إننا نحن الذين ندخل ذلك الترتيب والانتظام على المظهر الذي نسميه "الطبيعة". وما كنا لنجدها قط في المظاهر لولا أننا نحن أنفسنا بحكم طبيعة عقولنا، وضعناها في الأصل هناك" (23) و "قوانين الطبيعة ليست كيانات موضوعية بل مركبات عقلية نافعة في معالجة التجربة". وكل معرفة تتخذ شكل الصور أو المثل، والمثالي بهذا المعنى على صواب: فالعالم "بالنسبة لنا" ليس إلا أفكارنا. وما دما لا نعرف المادة إلا كأفكار وبواسطة الأفكار، فالمادة إذن مستحيلة منطقياً، لأنها تحاول أن ترد المعلوم مباشرة (الأفكار) إلى المجهول أو المعلوم بطريق غير مباشر. ولكن المثالي يخطئ إذا اعتقد أنه لا شيء "موجود" إلا صورنا، لأننا نعلم أن الصور

صفحة رقم : 13769

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> كانط -> نقد العقل الخالص

يمكن إحداثها بالأحاسيس، ونحن لا نستطيع تفسير كل الأحاسيس دون أن نفترض، لكثير منها، علة خارجية. وبما أن معرفتنا مقتصرة على الظواهر أو المظاهر-أي على الشكل الذي يتخذه السبب الخارجي "بعد" أن تشكله أساليب إدراكنا الحسي والعقلي فإننا لا نستطيع أبداً أن نعرف الطبيعة الموضوعية لتلك العلة الخارجية (24)، ولا بد أن نظل بالنسبة لنا شيئاً في ذاتها، ملغزاً، "نومينا" يدرك عقلياً ولا يدرك حسيماً على الإطلاق. فالعالم الخارجي موجود ولكنه في حقيقته المطلقة مجهول لا يمكن معرفته" (25).

والنفس أيضاً حقيقية ولكن لا يمكن معرفتها. ونحن لا ندركها حسيماً على الإطلاق بوصفها كياناً مضافاً إلى الحالات العقلية التي ندركها حسيماً، وهي الأخرى "نومين" يدرك عقلياً بالضرورة باعتبارها الحقيقة التي من وراء الذات الفردية، والحس الأخلاقي وأشكال العقل وعملياته. والإحساس بالذات يمتزج مع كل حالة عقلية، ويوفر الاستمرارية والهوية الشخصية. والوعي بالذات "وعي الذات الاستنباطي" هو أوثق تجاربنا قاطبة، ولا سبيل إلى إدراكه عقلياً كشيء مادي بأي جهد بطولي من جهود المخيلة (26). ويبدو من المستحيل أن تؤثر نفس لا مادية في جسد مادي، وأن

تتأثر به، ولكن لنا أن نعتقد أن الحقيقية المجهولة والكامنة وراء المادة "قد لا تكون مع ذلك شديدة الاختلاف في طبيعتها" من ذلك الشيء في ذاته، الباطن، الذيهو النفس (27). وليس في استطاعتنا بالعقل الخالص أو النظري أن نثبت (كما حاول فولف) أن نفس الفرد خالدة، أو أن الإرادة حرة، أو أن الله موجود؛ ولكننا أيضاً لا نستطيع بالعقل الخالص أن ندحض هذه المعتقدات (كما خطر لبعض الشكاك أن يفعلوا) فالعقل والمقولات مهيأة للتعامل مع الظواهر أو المظاهر فقط، الظاهرة أو الباطنة، ولا نستطيع تطبيقهما على الشيء في ذاته، أي على الحقيقة من وراء الأحاسيس أو النفس التي من وراء الأفكار. فإذا حاولنا إثبات عقائد الدين أو دحضها وقعنأ في أغلاط (في البرهان)

صفحة رقم : 13770

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> كانط -> نقد العقل الخالص

أو أغاليط (مغالطات) أو نقائض-تناقضات ملازمة. كذلك ينتهي الأمر إلى استحالات كهذه إذا قلنا أن العالم كان له بداية أو لم يكن، أو أن الإرادة الحرة أو غير حرة، أو إن كان واجباً أو كائناً أعلى موجود أو غير موجود. وعبر كانت في بلاغة غير معهودة فيه عن البرهان الغائي (28). ولكنه خلص إلى أن "قصارى ما يستطيع هذا البرهان إثباته هو "مهندس" ... تعوقه دائماً أشد التعويق تكيفية المادة التي يشتغل بها، لا "خالق" .. يخضع لفكرته كل شيء" (29). ومع ذلك كيف نستطيع الرضى بمثل هذه النتيجة المحيرة-وهي أن حرية الإرادة، والخلود، والله، هذه كلها لا يمكن إثباتها أو نفيها بالعقل الخالص، يقول كانت إن في باطننا شيئاً أعمق من العقل، هو شعورنا الذي لا يقبل التقيد بأن الوعي، والعقل، والنفس، ليست مادية، وأن الإرادة حرة إلى حد ما، وإن يكن على نحو غامض ولا منطقي؛ ونحن لا نستطيع أن نقنع طويلاً بالنظر إلى العالم على أنه تسلسل لا معنى له من التطور والفناء دون مغزى خلقي أو عقل أصيل. فكيف نستطيع تبرير إرادة الإيمان فينا؟ من جهة (كما يقول كانت) بالجدوى الفعلية للإيمان-لأنه يقدم لنا بعض الهداية في تفسير الظواهر، ويوفر لنا شيئاً من السلامة الفلسفية والسلام الديني، يقول:

"إن أشياء العالم يجب النظر إليها" كأنها "تلقت وجودها من عقل أسمى. ففكرة (الله) هي في الحقيقة مدرك عقلي موجه، لا مدرك عقلي مباشر (هي فرض يعين على الكشف والفهم، ولكنها ليست برهاناً) ... ففي ميدان اللاهوت يجب أن ننظر إلى كل شيء "كأن" جماع المظاهر كلها (العالم المحسوس ذاته) له أساس واحد، أسمى، كل الاكتفاء، وراء ذاته-هو عقل موجود بذاته، مبتكر، مبدع. لأنه في ضوء هذه الفكرة، فكرة العقل المبدع، نوجه الاستخدام التجريبي "لعقلنا" بحيث نحصل على أقصى امتداد مستطاع له.. والمفهوم المحدد الوحيد الذي يعطينا إياه العقل النظري الخالص عن الله هو، بأدق معنى، مفهوم "ربوبي"؛ أي أن العقل لا يحدد الصحة

صفحة رقم : 13771

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> كانط -> نقد العقل الخالص

الموضوعية لمثل هذا المفهوم، إنما هو يعطينا فقط الفكرة عن شيء هو الأساس للوحدة الأسمى والواجبة لكل الحقيقة التجريبية" (30).

ولكن المبرر الأشد إلزاماً للاعتقاد الديني، في رأي كانت، هو أن هذا الاعتقاد لا غنى عنه للأخلاقية و "لولا أن هناك كائناً أصلياً متميزاً عن العالم، ولو كان العالم... بغير خالق، ولو كانت إرادتنا غير حرة، ولو كانت الروح... فانية كالمادة، إذن لفقدت الأفكار والمبادئ الأخلاقية "كل صحتها" (31). وإذا شئنا للصفة الأخلاقية والنظام الاجتماعي إلا يعتمدا كلية على الخوف من القانون، فلا بد لنا من دعم الإيمان الديني، ولو بوصفه مبدأً منظماً، ويجب أن نسلك، كأننا نعرف "أن هناك إلهاً، وأن نفوسنا خالدة، وأن إرادتنا حرة" (32). أضف إلى ذلك، أننا إعانة للفكر والأخلاق-ميررون في تمثيل سبب العالم بلغة تشبيهية لطيفة دقيقة. (بغيرها لا نستطيع تصور أي شيء متصل بهذا السبب) أعني ككائن ذي فهم، ومشاعر سرور واستياء، ورغبات ومشينات تقابلها" (33).

وهكذا يختتم كتاب "النقد" الشهير، مخلفاً مذاهب الفكر المتعارضة وقد سرى عنها وأثار استياءها. لقد أصبح في وسع الشكاك أن يزعموا أن كانت برد اللاإدرية، وأن يزدروا إرجاعه الله إلى مكانته السابقة مكملاً للشرطة. وويخه اللاهوتيون المصدومون على تسليمه بهذا القدر الكبير للكفار، واعتبطوا لأن الدين خرج فيما بدا لهم حياً من رحلته الخطرة داخل متاهة عقل كانت. وفي 1786 وصف كرال راينهولت هذه الضجة الكبرى فقال:

"لقد حكم الدجماطيقيون على كتاب "نقد العقل الخالص": بأنه محاولة شاك يقوض يقينية المعرفة كلها؛ والشكاك بأنه قطعة من التبحر المستعلي تضطلع بإقامة صورة جديدة من الدجماطيقية على أنقاض مذاهب سابقة؛ وفوق الطبيعيين بأنه حيلة مبيتة بدهاء لإزاحة الأسس التاريخية للدين، وإلقاء المذهب الطبيعي دون جدل عنيف؛ والطبيعيون بأنه دعامة جديدة لفلسفة الإيمان المحتضرة؛ وحكم عليه الماديون بأنه إنكار مثالي النزعة لحقيقة

صفحة رقم : 13772

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> كانط -> نقد العقل الخالص

المادة؛ والروحانيون بأنه قصر لا مبرر له للمعرفة كلها على العالم المادي مستتر تحت اسم ميدان التجربة... (34). وهاجمت مدارس الفكر هذه كلها تقريباً الكتاب فأذاعت بذلك شهرته ولو بتجريحه. وأعلنت من قدرة كل العوامل حتى عسر فهمه الذي جعله تحدياً يتعين على كل عقل عصري أن يقبله. وسرعان ما جرت مصطلحات كانت وألفاظه الطويلة على كل لسان مثقف.

ولم يستطع كانت أن يفهم لم عجز نقاده عن فهمه. ألم يعرف كل مصطلح أساسي مراراً وتكراراً؟ (بلى، وما أشد التباين في تعاريفه!) وفي 1783 رد على الهجمات بإعادة صياغة "النقد" فيما خاله صورة أبسط، وسمى رده في تحد "مقدمة لكل ميتافيزيقا مستقبلية قادرة على الظهور كعلم". وزعم في هذا الرد أنه قبل كتابة "نقد العالم الخالص" لم تكن هناك ميتافيزيقا حقيقية على الإطلاق، لأنه ما من مذهب قدم لنفسه بتمحيص ناقد لأداته وهي العقل. فإذا كان بعض القراء عاجزين عن فهم كتاب "النقد" فقد يكون السبب أنهم ليسوا على مستواه تماماً؛ "وفي هذه الحالة على القارئ أن يستخدم مواهبه العقلية في شيء آخر"، وعلى أي حال "ما من حاجة تدعو كل إنسان لدراسة الميتافيزيقا" (35). لقد كان في الأستاذ العجوز دعابة وكبرياء، وفيه حدة الطبع أيضاً. على أن "المقدمة" باتت كلما أو غلت عسرة عسر كتاب النقد الأصلي.

واتصل الجدل في ظل حكومة فردريك الأكبر المتسامحة. وكان كانت قد كتب في كتابه "نقد العقل الخالص" فقرات بليغة عن شرف العقل، وعن حقه في حرية التعبير (36). وفي 1784، حين كان لا يزال مطمئناً إلى حماية فردريك وتسيديلتس، نشر مقالاً عنوانه (ما التتوير؟). وقد عرف التتوير بأنه حرية الفكر واستقلاله، واتخذ شعراً ونصيحة

القول المأثور "تجراً على أن تعرف". وأبدى أسفه على تخلف التحرر الفكري نتيجة لمحافظة الأغلبية على القديم.
"فإذا سألتنا

صفحة رقم : 13773

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> كانط -> نقد العقل الخالص

هل عايشون في عصر مستنير؟ فالجواب لا"، إنما نحن نعيش في "عصر التنوير" ثم حيا فردريك باعتباره عنوان حركة التنوير الألماني وحميها، والملك الوحيد الذي قال لرعاياه "فكروا كما تشاءون" (37). ولعله كتب هذا الكلام مؤملاً أن خليفة فردريك سيلزم سياسة التسامح. ولكن فردريك وليم الثاني (1786-97) كان أكثر اهتماماً بقوة الدولة منه بحرية العقل. فلما أعدت طبعة ثانية من "نقد العقل الخالص" (1787) عدل كانت بعض فقراته، وحاول التخفيف من حدة هرطقاته بمقدمة طابعها الاعتذار. قال "وجدت من الضروري أن أنفي المعرفة (بالأشياء في ذاتها) لأفسح مجالاً للإيمان... فالنقد وجده يستطيع أن يقطع جذور المادية والقدرية والكفر والإلحان والتعصب والخرافة" (38). وكان محقاً في هذا الحذر. ففي 9 يوليو 1788 أصدر يوهان كرستيان فون فولنر، وزير الإدارة اللوثرية "مرسوماً دينياً" رفض التسامح الديني صراحة باعتباره مسئولاً عن التحلل الخلقي، وهدد بالطرد من منابر الكنائس أو كراسي الجامعات كل الوعاظ أو المدرسين المنحرفين عن المسيحية التقليدية. في هذا الجو الرجعي نشر كانت "نقده" الثاني.

صفحة رقم : 13774

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> كانط -> نقد العقل العملي

3- نقد العقل العملي

وما دام كتاب "النقد" الأول زعم أن العقل الخالص لا يستطيع أن يثبت حرية الإرادة، وما دامت الأخلاقية في رأي كانت تحتاج إلى هذه الحرية، فإن عمليات العقل بدت وقد تركت الأخلاقية، كاللاهوت، دون أساس عقلي. بل أسوأ من هذا أن حركة التنوير قوضت الأساس الديني للأخلاق بالتشكيك في وجود إله مثير معاقب. فأني للحضارة أن تبقى حية إذا انهارت عمد الأخلاقية التقليدية هذه؟ وأحس كانت أنه هو نفسه، بوصفه تلميذاً صريحاً للتنوير، ملتزم أخلاقياً بالعثور على أساس عقلي ما لنا موس أخلاقي. وعليه ففي مقال تمهيدي عنوانه "المبادئ الأساسية لميتافيزيقا الأخلاق" (1785) رفض محاولة أحرار الفكر إقامة الأخلاقية على

صفحة رقم : 13775

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> كانط -> نقد العقل العملي

تجربة الفرد أو النوع؛ فمثل هذا الاشتقاق البعدي خليق بأن يسلب المبادئ الأخلاقية تلك الكلية وذلك الإطلاق اللذين هما في رأيه شرط للمبدأ الأخلاقي السليم. ثم أعلن بما تميز به من ثقة بالنفس: "أنه من الواضح أن المفاهيم الأخلاقية كلها مستقرة ومتأصلة قليلاً في العقل كلية" (39). وقد استهدف كتابه الثاني الكبير "نقد العقل العملي" العثور على ذلك المستقر والأصل وإيضاحه. فسيحلل العناصر القبلية في الأخلاقية كما حلل الكتاب الأسبق في النقد العناصر القبلية في المعرفة.

يزعم كانت أن لكل فرد ضميراً، إحساساً بالواجب، وعياً بقانون أخلاقي أمر. "شيئان يملآن العقل بالإعجاب والرهبة المتجددين المتعاضمين أبدأ... السموات المرصعة بالنجوم من فوقنا، والقانون الأخلاقي في داخلنا" (40). وكثيراً ما يتعارض هذا الشعور الأخلاقي برغباتنا الحسية، ولكننا ندرك أنه عنصر أسمى فينا من طلب اللذة. وهو ليس ثمرة التجربة، إنما هو جزء من بنائنا النفسي الأصيل، مثل المقولات؛ وهو محكمة باطنية حاضرة في كل شخص من كل جنس (41). وهو مطلق الحكم، يأمرنا أمراً غير مشروط، وبغير استثناء أو عذر، بأن نفعل الحق من أجل الحق، كغاية في ذاته، لا كوسيلة للسعادة أو الثواب أو لخير غيره. فأمره مطلق.

وهذا الأمر المطلق يتخذ شكلين: "أعمل بحيث تستطيع قاعدة إرادتك أن تظل على الدوام صادقة كمبدأ للتشريع العام"؛ أسلك بحيث إذا سلك الغير مثلك سار كل شيء على ما يرام، وهذه (الصيغة المعدلة من القاعدة الذهبية-أي التي تأمر بمعاملة الناس كما تحب أن يعاملون) هي "القانون الأساسي للعقل العملي الخالص" (42)، وهي "الصيغة لإرادة خيرة خيراً مطلقاً" (43). وفي صيغة ثانية، "أعمل بحيث تعامل الإنسانية، سواء ممثلة في شخصك أو في شخص أي إنسان آخر، وفي كل حالة، كغاية لا كمجرد واسطة إطلاقاً" (44)، في هذه الصيغة الثانية أعلن كانت مبدأً أشد ثورية من أي شيء احتواه الإعلان الأمريكي أو الفرنسي لحقوق الإنسان. والإحسان بالالتزام الخلقى دليل إضافي على قدر من حرية الإرادة.

صفحة رقم : 13776

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> كانط -> نقد العقل العملي

فأنى يكون لنا هذا الشعور بالواجب أو لم نكن أحراراً في أن نعمل أو لا نعمل، ولو كانت أفعالنا مجرد حلقات في سلسلة لا تتفصل من العلة والمعلول الميكانيكيين؟ والشخصية بدون الإرادة الحرة عديمة المعنى؛ وإذا كانت الشخصية عديمة المعنى كانت الحياة كذلك، وإذا كانت الحياة عديمة المعنى كان الكون كذلك(45). ويدرك كانت بمنطق الحتمية الذي لا يبدو ولا مهرب منه، فكيف يستطيع الاختيار الحر أن يتدخل في عالم موضوعي يبدو محكوماً بقوانين ميكانيكية (كما يعترف كانت)؟(46) وجوابه عن هذا السؤال بلغ الغاية في الغموض والإبهام. فهو يذكرنا بأن القانون الميكانيكي مركب عقلي، نظام يفرضه العقل، بواسطة مقولته العلية، على عالم المكان والزمان ذرية للتعامل معه باتساق. وما دمنا قد قصرنا المقولات على عالم الظواهر، وما دمنا قد سلمنا بأننا لا نعرف كنه العالم النومي-الشيء-في ذاته الكائن خلف الظواهر فأننا لا نستطيع الزعم بأن القوانين التي نركبها للظواهر تصدق أيضاً على الحقيقة المطلقة. وبما أننا سلمنا أننا لا نعرف، في ذاتنا، إلا الذات الظاهرية-عالم المدركات الحسية والصور فقط-لا نعرف كنه النفس الباطنة والنومية، فإننا لا نستطيع الزعم بأن قوانين العلة والمعلول التي يبدو أنها تحكم أفعال أبداننا (بما فيها أمخاذا) تنطبق أيضاً على إرادات الحقيقة الروحية المطلقة الكائنة وراء عملياتنا العقلية. فورا ميكانيكيات العالم الظاهري للمكان وللأفكار في الزمان قد تكون هناك حرية في العالم النومي الذي بلا مكان ولا زمان، عالم الحقيقة المطلقة-الظاهرة أو الباطنة. وأفعالنا وأفكارنا تحدد بمجرد دخولها عالم الأحداث المادية أو العقلية المدركة حسياً؛ وقد تظل حرة في أصلها في النفس غير المدركة حسياً؛ "وهكذا يمكن لحرية والطبيعة أن توجد معاً"(47)، وليس في إمكاننا إثبات هذا، ولكن يجوز لنا شرعاً أن نفترضه متضمناً بحكم طبيعة حسناً الأخلاقي الأمانة؛ وبدونه تموت حياتنا الأخلاقية.

على أي حال (في رأي كانت)، لم لا ينبغي أن نقدم العقل العملي على النظري؟ أن العلم، الذي يبدو أنه يجعلنا آلات ذاتية الحركة، هو في النهاية مضاربة-مقامرة على الصحة الدائمة لنتائج ومناهج لا تفتأ تتغير. ونحن

صفحة رقم : 13777

قصة الحضارة - روسو والثورة - الشمال البروتستنتي - كانط - نقد العقل العملي

على حق إذا شعرنا بأن الإرادة في الإنسان أهم من الذهن، فالذهن أداة صاغتها الإرادة للتعامل مع العالم الخارجي والميكانيكي، وما ينبغي أن يكون السيد المتسلط على الشخصية التي تستخدمه(48). ولكن إذا كان الحس الأخلاقي يبرر افتراضنا قدر من الإرادة الحرة، فإنه يبرر أيضاً اعتقادنا بخلود النفس، ذلك أن حسناً الأخلاقي يستحثنا إلى كمال تحببته المرة بعد المرة دوافعنا الحسية، ونحن لا نستطيع تحقيق هذا الكمال في حياتنا على الأرض؛ فإذا كان هناك عدل في العالم فلا بد أن نفترض أننا سنمنح حياة متصلة بعد الموت لاكتمالنا الأخلاقي. وإذا كان هذا يفترض أيضاً وجود إله عادل، فإن هذا أيضاً يبرره العقل العملي. فالسعادة الأرضية لا تنفق دائماً والفضيلة، ونحن نشعر أن التوازن بين الفضيلة والسعادة سيصح في مكان ما، وهذا لا سبيل إليه إلا إذا افترضنا وجود إله يحقق هذه المصالحة، وعليه فإن وجود سبب للطبيعة كلها، متميز عن الطبيعة ذاتها، محتوياً لمبدأ... الانسجام الدقيق بين السعادة والفضيلة، هذا أيضاً من مسلمات "العقل العملي"(49). وقد عكس كانت النهج التقليدي المؤلف. فبدلاً من أن يستنبط الحس الأخلاقي والناموس الأخلاقي من الله (كما فعل اللاهوتيون من قبل)، استنبط الله من الحس الأخلاقي. ويجب أن نتصور واجباتنا لا على أنها "أوامر تعسفية لإرادة غريبة عنا" بل قوانين أساسية لكل إرادة حرة في ذاتها". على أنه ما دامت تلك الإرادة والله كلاهما ينتميان إلى العالم النومي، فينبغي أن نتقبل هذه الواجبات على أنها أوامر إلهية ولن ننظر إلى الأفعال (الأخلاقية) على أنها إلزامية لأنها أوامر الله، ولكننا سنعدّها أوامر إلهية لأن فينا التزاماً باطنياً نحوها"(50).

وإذا كان هذا التفكير "الإرادي" (العنيد) يشوبه بعض الغموض، فقد يكون السبب أن كانت لم يكن شديد التمسك لمحاولته التوفيق بين فولتير وروسو. فقد مضى "نقد العقل الخالص" شوطاً أبعد حتى من فولتير في الاعتراف بأن العقل الخالص لا يستطيع إثبات حرية الإرادة،

صفحة رقم : 13778

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> كانط -> نقد العقل العملي

أو الخلود، أو الله. ولكن كانت كان قد وجد في تعاليم روسو-عن تهافت العقل، وأولية الوجدان، وانبثاق الدين من الحس الأخلاقي للإنسان-مهزباً مستطاعاً من اللاإرادية، والتحلل الخلفي، وبوليس فولنر. ورأى أن روسو أيقظه من "السبات العقائدي" في الأخلاق كما أيقظه هيوم في الميتافيزيقا(51). فكان كتابه الأول في النقد ينتمي إلى حركة التنوير، والثاني إلى الحركة الرومانتيكية، ومحاولة الجمع بين الاثنين كانت من أبرع الإنجازات في تاريخ الفلسفة. وقد عزا هايني المحاولة إلى الحرص على حاجات عامة الشعب: لقد رأى الأستاذ خادمه الأمين لأمه بيكي على موت الله؛ "فرق له قلب إيمانويل كانت، وأثبت أنه ليس فيلسوفاً عظيماً فحسب، بل إنساناً طيباً أيضاً، وقال بمزيج من العطف والتهكم: "يجب أن يكون لأمه العجوز إله، وإلا فلن يستطيع أن يكون سعيداً... أما من جهتي فأنا فإن العقل العملي يستطيع أن يضمن وجود الله"(52).

صفحة رقم : 13779

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> كانط -> نقد الحكم

4- نقد الحكم

ولا بد أن كانت نفسه كان غير راض عن براهينه، لأنه في كتابه "نقد الحكم" عاد إلى مشكلة الآلية مقابل الإرادة الحرة، وتقد إلى مشكلة الصراع بين الآلية والقصد، وأضاف إليها مقالات معقدة في الجمال، والجلال، والعبقرية، والفن. وهو مزيج لا يثير الشهية. أما ملكة الحكم هذه، "فهي عموماً ملكة التفكير في الجزء على أنه محتوى في الكل"، وهي إدراج شيء أو فكرة أو حدث تحت صنف أو مبدأ أو قانون. لقد حاول كتاب "النقد" الأول أن يدرج جميع الأفكار تحت المقولات الكلية القبلية، وحاول الثاني إدراج جميع المفاهيم الأخلاقية تحت حس أخلاقي قبل كلي، أما الثالث فاضطلع بالعثور على مبادئ قبلية لأحكامنا الجمالية (الاستطبيقية) في النظام أو الجمال أو الجلال في طبيعة أو الفن، (53) "إني أجرؤ على الأقل في أن تنهض صعوبة حل معضلة، في طبيعتها مثل هذا التعقيد، عذراً يبرر بعض الغموض الذي لا يمكن تجنبه في حلها" (54).

صفحة رقم : 13780

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> كانط -> نقد الحكم

إن الفلسفة "الدجماطيقية" قد حاولت من قبل أن تجد عنصراً موضوعياً في الجمال؛ أما كانت فيشعر أن هنا، على الأخص، يكون العنصر الذاتي هو الغالب. فليس هناك شيء جميل أو جليل إلا أن يجعله الوجدان كذلك. ونحن نصف بالجمال أي شيء يعطينا تأمله لذة منزهة-أي لذة مجردة من رغبة شخصية؛ فنحن نستمد إشباعاً جمالياً، وجمالياً فقط، من غروب الشمس، أو من لوحة لرفائيل، أو كتدرائية، أو زهرة، أو حفلة موسيقية، أو أغنية. ولكن لم تعطينا أشياء أو تجارب بعينها هذه اللذة المنزهة؟ لعل السبب أننا نرى فيها اتحاداً من الأجزاء يؤدي وظيفته بنجاح في كل متناسق. وفي حالة الجليل تُلذنا العظمة أو القوة التي لا تهددنا بخطر؛ وهكذا نشعر بالجلال في السماء أو البحر، إلا إذا هددنا اضطرابهما بالخطر.

ويزداد تقديرنا للجمال أو الجلال بقبولنا الغائية-أي بتبيننا في الكائنات الحية موائمة أصيلة بين الأجزاء وحاجات الكل، وبشعورنا بحكمة إلهية في الطبيعة وراء التناسق والانسجام، والعظمة والقوة. ولكن العلم يهدف إلى عكس هذا تماماً-هو أن يثبت أن الطبيعة الموضوعية كلها تعمل بقوانين ميكانيكية، دون خضوع لأي قصد خارج عنها، فكيف السبيل إلى التوفيق بين هذين المدخلين إلى الطبيعة؟ بقبولنا الآلية والغائية جميعاً بقدر ما تساعدنا كمبدئين موجّهين، كفرضين ييسران الفهم أو البحث. فالمبدأ الآلي يساعدنا على الأخص في البحث في المواد غير العضوية، أما المبدأ الغائي فهو خير عون لنا في دراسة الكائنات الحية. ففي هذه الكائنات قوى للنمو والتوالد تعيى التفسير الميكانيكي؛ فهناك توفيق واضح بين الأجزاء وأغراض العضو أو الكائن، كاستخدام المخالب للقبض والعيون للإبصار. ومن الحكمة الإقرار بأنه لا الآلية ولا الغائية يمكن إثبات صدقهما صدقاً كلياً. والعلم نفسه، بمعنى من المعاني، هو غائي، لأنه يفرض في الطبيعة ترتيباً، وانتظاماً، ووحدة معقولة، "كان" عقلاً إلهياً نظمها وبقى عليها (55). وقد اعترف كانت بالصعوبات الكثيرة التي تعترض النظر إلى الإنسان

صفحة رقم : 13781

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> كانط -> نقد الحكم

والعالم على أنهما حصيلة تدبير إلهي: "إن أول شيء كان يقتضي تدبيره والعالم على أنهما حصيلة تدبير إلهي: "إن أول شيء كان يقتضي تدبيره بجلاء في نظام يوضع بحيث يحقق كلاً غائياً للكائنات الطبيعية على الأرض هو موطنها-التربة أو العنصر الذي يراد لها أن تزكو عليه أو فيه. ولكن التعمق في طبيعة هذا الشرط الأساسي للإنتاج العضوي كله أثراً يظهر أثراً لأي علة إلا تلك التي تعمل دون غاية إطلاقاً، بل تنزع في الواقع إلى التدمير دون أن يكون القصد منها تشجيع تكوين الأنواع والنظام والغايات. والبر والبحر لا يحويان فقط آثار كوارث قديمة العهد هائلة حلت بهما وبكل ما زخر به من كائنات حية، ولكن تكوينهما بجملة-طبقات اليابس وخطوط سواحل البحر يحمل كل المظاهر الدالة على أنه نتيجة قوى عنيفة قهارة لطبيعة تعمل في فوضى" (56).

ومع ذلك أيضاً، فإننا لو تخيلنا عن كل فكرة في وجود هدف في الطبيعة لسلبنا الحياة كل معناها الأخلاقي، فتصبح سلسلة حمقاء من ولادات مؤلمة وميتات معذبة، ليس فيها للفرد ولا للأمة ولا للنوع شيء مؤكد إلا الهزيمة. فلا بد لنا من أن نؤمن بغاية إلهية ولو للاحتفاظ بسلامة عقولنا-وما دامت الغائية لا تثبت غير صانع مكافح بدلاً من خيرية إلهية كلية القدرة، فلا بد إذن من أن نرسي إيماننا في الحياة على حس أخلاقي لا يبرره غير الاعتقاد بأنه عادل. بهذه العقيدة نستطيع أن نعتقد-وأن كنا لا نستطيع أن نثبت بالبرهان-إن البار هو الغاية النهائية للخلقة، وأنه أنبل ثمرة للتدبير العظيم الملعز (57).

صفحة رقم : 13782

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> كانط -> الدين والعقل

5- الدين والعقل

1793

لم يكن كانت قانعاً قط بلاهوته الـ "كأني" المتردد. ففي 1791، في كتيب عنوانه "عن تهافت جميع المحاولات الفلسفة في الإلهيات" أعاد القول إن "عقلنا عاجز عن تبصيرنا بالعلاقة بين العالم... والحكمة السامية". وأضاف إلى هذا تحفظاً، ربما لنفسه، فقال: "على الفيلسوف ألا يلعب دور المحامي الخاص في هذا الأمر؛ وعليه ألا يدفع عن أي قضية

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> كانط -> الدين والعقل

يعجز عن فهم عدالتهم، ولا يستطيع إثباتها بطرق التفكير الخاصة بالفلسفة" (58). ثم عاد إلى المشكلة في سلسلة من المقالات أفضت به إلى تحدي الحكومة البروسية تحدياً سافراً. وطبعت أولى هذه المقالات وعنوانها "في الشر المتأصل" في "مجلة برلين الشهرية" عدد أبريل 1792. وأذن الرقيب بنشرها على أساس أن "العلماء المتعمقين في التكفير هم وحدهم الذين يقرعون كتابات كانت" (59). ولكنه رفض نشر المقال الثاني "في الصراع بين مبادئ الخير والشر للسيطرة على الإنسان". ولجأ كانت إلى حيلة. ذلك أن الجامعات الألمانية كان لها امتياز اعتماد الكتب والمقالات للنشر؛ فقدم كانت المقال الثاني والثالث والرابع إلى كلية الفلسفة بجامعة فيينا (وكان يشرف عليها آنذ جوته وكارل أوجست دوق فايمار، وكان شيلر أحد أساتذتها)، وأذنت الكلية بالنشر، وبهذا طبعت المقالات الأربع كلها في كونزبرج عام 1793 بعنوان "الدين في حدود العقل وحده".

والسطور الأولى تعلن الفكرة الرئيسية السائدة فيها: "بقدر ما تبني الأخلاق على مفهوم الإنسان كفاعل حر، هذا الإنسان الذي بسبب حريته هذه يتعمى بعقله عن رؤية القوانين غير المشروطة، فإن هذه الأخلاق في غير حاجة إلى فكرة كائن آخر من فوقه لجعله يدرك واجبه، ولا إلى حافز غير القانون ذاته يجعله يؤديه... ومن هنا فإن الأخلاق من أجل ذاتها هي لا تحتاج إلى دين على الإطلاق" (60). ويعد كانت بطاعة السلطات، ويسلم الحاجة به إلى الرقابة، ولكنه يشدد على "ألا تسبب الرقابة أي اضطراب في مجال العلوم" (61) فغزو اللاهوت للعلم، كما حدث في حالة جاليليو، "قد يعطل جميع جهود العقل البشري... ويجب أن يتمتع اللاهوت الفلسفي بكامل الحرية على قدر ما يمتد إليه علمه" (62).

ويستتبط كانت مشكلات الأخلاق من وراثته الإنسان لنوازع الخير والشر. "لا حاجة لإقامة الدليل صورياً على أن نزعة الفساد لا بد متأصلة في الإنسان وذلك لكثرة الأمثلة الصارخة التي تضعها الخبرة أمام

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> كانط -> الدين والعقل

أعيننا" (63). وهو لا يوافق روسو على أن الإنسان يولد خيراً أو كان خيراً في "حالة الطبيعة"، ولكنه يتفق معه في إدانة "رذائل الحضارة والمدنية" لأنها "أشد عيوب أذى" (64)، "والواقع أن هذا السؤال ما زال بغير جواب، وهو، ألا تكون أسعد في حالة غير متحضرة... مما نحن في حالة المجتمع الراهنة" (65) ما فيهم استغلال ونفاق وخل أخلاقي وتفتيل بالجملة في الحرب. وإذا شئنا أن نعرف طبيعة البشر الحقيقية فيكفي أن نلاحظ سلوك الدول. ولكن كيف بدأ "الشر المتأصل في طبيعة البشر"؟.. إنه لم يبدأ بسبب "الخطية الأصلية"، "فلا ريب في أن أشد التفسيرات كلها سخفاً لذبوع هذا الشر وانتشاره في جميع أفراد وأجيال نوعنا هو التفسير الذي يصفه ميراثاً منحدرأ إلينا من أبويننا الأولين" (66). وربما كانت النوازع "الشريرة" قد تآصلت في الإنسان تآصلاً قوياً لأنها كانت ضرورية للبقاء في الأحوال البدائية، وهي لا تصبح رذائل إلا في المدنية في المجتمع المنظم، وفيه لا تحتاج إلى القمع بل إلى الضبط (67). "فالمبول الطبيعية، إذا نظرنا إليها في ذاتها، خيرة، أي أنها لا تلام، ومحاولة القضاء عليها

ليست عديمة الجدوى فحسب، بل ضارة ومستحقة للوم. والأولى أن نروضها، وبدلاً من أن يصطدم بعضها ببعض يمكن أن ينسق بينها لتتسجم في كل يسمى السعادة(68). والخير الأخلاقي هو أيضاً غريزي، كما يدل على ذلك الحس الأخلاقي في جميع الناس، ولكنه في أول الأمر ليس إلا حاجة، لا بد من تميمتها بالتعليم الأخلاقي والتهديب الشاق. وأفضل الأديان ليس الذي يفوق غيره في التمسك الدقيق بالعبادة الطقسية، بل أعظمها تأثيراً في الناس ليحيوا حياة أخلاقية(69). والدين القائم على العقل لا يبني نفسه على وحي إلهي، بل على إحساس بالواجب يفسر على أنه أقدس عنصر في الإنسان(70). ومن حق الدين أن ينظم نفسه على هيئة كنيسة(71)، وله أن يحاول تحديد عقيدته بالأسفار المقدسة، وأن يعبد، بحق، المسيح بوصفه أعظم البشر شبيهاً بالله، وأن يعد بالجنة وينذر بالنار(72)، و "لا يمكن تصوير دين لا يحتوي على اعتقاد بحياة آخرة"(73). ولكن لا ينبغي أن يكون ضرورياً للمسيحي أن يؤكد إيمانه بالمعجزات، أو بلاهوت المسيح، أو بالتكفير عن خطايا البشر بصلب المسيح، أو بالحكم المقدر على الأرواح بالجنة

صفحة رقم : 13785

قصة الحضارة - روسو والثورة - الشمال البروتستنتي - كائط - الدين والعقل

أو النار بالنعمة الإلهية تمنح دون نظر إلى الأعمال الصالحة أو الشريرة(74). و "من الضروري أن نغرس بعناية بعض أشكال الصلاة في أذهان الأطفال" الذين لا يزالون في حاجة إلى حرفة الدين(75)، ولكن صلاة الضراعة "التي يتوسل بها لكسب النعمة الإلهية وهم خرافي"(76).

أما حين تتقلب كنيسة ما مؤسسة لإكراه الناس على الإيمان أو العبادة؛ وحين تزعم لنفسها الحق الأوحد في تفسير الكتاب المقدس وهي تعريف الأخلاقية، وحين تكون كهنوتها يدعي لنفسه سبل الاتصال وحده بالله والنعمة الإلهية؛ وحين تجعل من عبادتها مجموعة طقوس سحرية لها قوى معجزية؛ وحين تصبح ذراعاً للحكومة وأداة للطغيان الفكري؛ وحين تحاول أن تتسلط على الدولة وتستخدم الحكام العلمانيين مطايااً للطمع الكهنوتي-عندها يثور العقل الحر على كنيسة كهذه، ويبحث خارجها عن ذلك الدين العقلي الخالص، الذي هو السعي لبلوغ الحياة الأخلاقية(77). وقد تميز هذا الأثر الكبير الأخير من آثار كانت بالتذبذب والغموض الطبيعيين في رجل لا ولع له بحياة السجون. ففي الكثير من الحشو "السكولاستي"، ويشوبه العجيب من تشقيقات المنطق ومن اللاهوت المفرق في الخيال. ومع ذلك فالعجب العجيب مع رجل بلغ التاسعة والستين. أن يظل ميدياً مثل هذه القوة في الفكر والقول، ومثل هذه الشجاعة في صراعه مع قوى الكنيسة والدولة مجتمعة. وقد بلغ الصراع بين الفيلسوف والملك ذروته حين (أول أكتوبر 1794) أرسل إليه فرديريك وليام الثاني الأمر التالي الصادر من المجلس الملكي: "إن شخصنا البالغ السمو قد لاحظنا طويلاً باستياء شديد كيف نسيء استخدام فلسفتك لتقوي وتحط من قدر الكثير من أهم وألزم تعاليم الأسفار المقدسة والمسيحية، وكيف أنك على التحديد، فعلت هذا في كتابك "الدين في حدود العقل وحده"... ونحن نطالبك فوراً بجواب غاية في النزاهة، ونتوقع أنك في المستقبل، تجنباً لسخطنا الشديد، لن يبدر منك ما يسيء كهذا الذي بدر، بل على العكس فإنك طبقاً لمقتضيات

صفحة رقم : 13786

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> كانط -> الدين والعقل

واجبك ستستخدم مواهبك وسلطتك لكي يتحقق هدفنا الأبوي أكثر فأكثر. إما إذا تماديت في المقاومة فلك أن تتوقع بالتأكيد أن تجر عليك المقاومة عواقب وخيمة" (78).
ورد كانت رداً ملؤه الاسترضاء. فذكر أن كتاباته لم يوجهها إلا للدارسين واللاهوتيين، الذي ينبغي صيانة حرية تفكيرهم لصالح الحكومة ذاتها. وقال أن كتابه قد سلم بقصور العقل في الحكم على الأسرار النهائية للإيمان الديني. ثم اختتم بتعهد الطاعة: "إنني بوصفي خادم جلالتم المخلص كل الإخلاص أعلن هنا إعلاناً قاطعاً أنني منذ الآن سأمتنع كلية عن جميع التصريحات العلنية عن الدين، الطبيعي منه والموحي، سواء في المحاضرات أو المؤلفات. فلما مات الملك (1797) أحس كانت أنه في حل من وعده؛ ثم أن فردريك وليم الثالث عزل فولنر (1797) وألغى الرقابة، وأبطل المرسوم الديني الصادر في 1788. وبعد هذه المعركة أجمل كانت نتائجها في كتيب سماه "صراع الملكات" (1798)، كرر فيه دعواه بأن الحرية الأكاديمية لا غنى عنها للنمو الفكري للمجتمع. ونحن إذا نظرنا إلى الأمر في جوهره، تبين لنا أن الأستاذ القصير القامة، القابع في ركن قصي من أركان المعمورة، قد انتصر في معركة ضد دولة تملك أقوى جيش في أوروبا. وستنهال الدولة عما قريب، ولكن ما وافى عام 1800 حتى كانت كتب كانت أبلغ الكتب تأثيراً في حياة ألمانيا الفكرية.

صفحة رقم : 13787

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> كانط -> المصلح

6- المصلح

واعترل إلقاء المحاضرات في 1797 (بعد أن بلغ الثالثة والسبعين)، ولكنه واصل نشر المقالات في الموضوعات الحيوية حتى 1798. وظل على صلة بالشنون العالمية رغم عزله. فلما اجتمع مؤتمر بازل عام 1795 ليرتب صلحاً بين ألمانيا وأسبانيا وفرنسا، اغتتم كانت الفرصة (كما فعل من قبل الأبيه سان بيير مع مؤتمر أوترخت في 1713) لينشر كراسة عنوانها "في السلام الدائم".

صفحة رقم : 13788

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> كانط -> المصلح

وقد استهلها استهلالاً متواضعاً بوصفه "السلام الأبدي" شعاراً يليق بجبانة الموتى، وأكد للساسة أنه لا يتوقع منهم أن يروا فيه أكثر من مجرد "معلم نظري متحذلق عاجز عم إلحاق أي خطر بالدولة". (79) وبعد أن نحى مواد المصلح المبرم في بازل جانباً باعتبارها مواد تافهة قصد بها مسابرة الظروف، وضع بصفة لجنة مؤلفة من رجل واحد - "ست مواد أولية" تجمل الشروط الأساسية للسلام الدائم: فحرمت المادة الأولى جميع التحفظات والملاحق السرية لأي معاهدة. وحظرت المادة الثانية على أي دولة أن تستولي على أخرى أو تسيطر عليها. وطالبت المادة الثالثة بالتخلص تدريجياً من الجيوش الدائمة. وذهبت المادة الرابعة إلى أنه لا يجوز لأي دولة "أن تتدخل بالقوة في دستور دولة أخرى". وطالبت المادة السادسة كل دولة تخوض حرباً مع أخرى بالألا "تسمح بأعمال عدائية من شأنها أن تجعل الثقة المتبادلة مستحيلة، في حالة إبرام سلام في المستقبل، كالاستعانة بالقتلة يغتالون أو يدسون السم... والتحريض على الفتنة في دولة العدو".

وإذ كان من غير المستطاع إبرام صلح طويل الأمد بين دولة لا تعترف بحدود لسيادتها، فإنه لا بد من بذل الجهود الحثيثة لتطوير نظام دولي، وإيجاد بديل للحرب بهذه الطريقة. ومن ثم وضع كانت بعض "المواد المحددة" للسلام الدائم. أولاً، "يجب أن يكون دستور كل دولة جمهورياً. ذلك أن الملكيات والارستقراطيات تنزع إلى الحروب المتكررة، إذ أن الحاكم والنبلاء هم عادة في مأمن من فقد أرواحهم وثوراتهم في الحرب، لذلك يبادرون إلى خوضها بوصفها "تسليية الملوك"؛ أما في الجمهوريات "المواطنون هم المسؤولون عن قرار إعلان الحرب أو عدم إعلانها، وهم الذين سيتحملون العواقب"، ومن ثم "فليس من المحتمل أن يغامر مواطنو دولة (جمهورية) في أي وقت بلعبة غالية التكلفة إلى هذا الحد" (80). ثانياً "يجب أن يبنى كل حق دولي على أساس اتحاد فدرالي بين الدول الحرة"، (81) وألا يكون هذا الاتحاد دولة عظمى، "فالواقع أن الحرب ليست سيئة سوءاً لا براء منه كسوء الملكية العالمية" (82). فينبغي أن يقرر كل شعب حكومته الخاصة

صفحة رقم : 13789

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> كانط -> المصلح

به، ولكن على كل دولة بمفردها (على الأقل.. دول أوروبا) أن تتجمع في اتحاد كنفدرالي تخول له سلطة التحكم في علاقاتها الخارجية. والمثل الأعلى الذي لا بد من التمسك به هو أن تمارس الدول القانون الأخلاقي الذي تطالب به مواطنيها. فهل يمكن أن تسفر مغامرة كهذه عن شر أعظم مما ينجم عن الممارسة الدائمة للخداع والعنف الدوليين؟ لقد راود كانت الأمل بأن مكيفللي سيثبت في نهاية المطاف أنه مخطئ، وليس هناك ن داع للتضارب بين الأخلاقية والسياسية، ذلك أن "الأخلاق وحدها هي القادرة على قطع العقدة التي لا تقوى السياسة على فكها" (83). وواضح أن كانت كان مخدوعاً في أمر الجمهوريات (التي شاركت بعد ذلك ف أشنع الحروب قاطبة)؛ ولكن ينبغي أن نقرر أنه كان يعني بـ "الجمهورية" الحكومة الدستورية لا الديمقراطية كاملة. فلقد كان عديم الثقة بالدوافع المتهورة التي تحفز رجالاً لا تكبحهم قيود (84)، وكان يخشى إطلاق حق التصويت للجميع باعتباره تسليطاً للأغلبية الجاهلة على الأقليات التقدمية والأفراد الخارجيين على الإجماع (85). ولكن كانت تغيظه الامتيازات الموروثة، وخيلاء الطبقة، والفنية التي تطوق كونجزبرج، ورحب بالثورة الأمريكية التي أخذت، في رأيه، تكون اتحاداً فدرالياً من دويلات مستقلة، على غرار النظام الذي اقترحه لأوروبا. وناصر الثورة الفرنسية بحماسة تقرب من حماسة الشباب، حتى بعد مذابح سبتمبر وحكم الإرهاب.

ولكنه، شأن أتباع التنوير جميعاً تقريباً، آمن بالتعليم أكثر مما آمن بالثورة. في هذا المجال، كما في مجالات كثيرة، أحس بتأثير روسو والحركة الرومانتيكية. "يجب أن نسمح للطفل منذ نعومة أظفاره بكامل الحرية من جميع النواحي... شريطة ألا يتدخل في حرية غيره" (86). على أنه تحفظ بعد قليل في هذه الحرية الكاملة، وسلم بأن قدراً من الضبط ضروري في تكوين الخلق؛ "فإهمال الضبط شر أعظم من إهمال الثقافة، لأن إهمال الثقافة يمكن علاجه في الحياة فيما بعد" (87) أما أفضل ضبط فهو العمل، وينبغي مطالبة الطفل به في جميع مراحل تعليمه. والتربية

صفحة رقم : 13790

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> كانط -> المصلح

الأخلاقية لا غنى عنها، وينبغي أن تبدأ في مرحلة مبكرة. وإذ كانت الطبيعة البشرية تحتوي بذرة الخير والشر كليهما، فإن كل تقدم أخلاقي رهن باقتلاع الشر وغرس الخير، ولا يكون هذا بالثواب والعقاب، بل بالتشديد على مفهوم الواجب".

والتعليم الذي تقوم به الدولة ليس أفضل من التعليم الذي تقوم به الكنيسة، فالدولة ستسعى إلى تكوين المواطنين المطيعين اللينين المتعصبين لوطنهم. والأفضل ترك التعليم للمدارس الخاصة التي يرأسها معلمون مستنبرون ومواطنون مشربون بروح الخدمة العامة (88). لذلك أشاد كانت بمبادئ ومدارس يوهاك بازروف. وأسف على ما تتسم به مدارس الدولة وكتبها المدرسية من تحيز للقومية، وتطلع إلى زمن تعالج فيه جميع الموضوعات بحيدة ونزاهة. وفي 1784 نشر مقالاً بعنوان "أفكار لتاريخ عام من وجهة نظر عالمية"؛ وقد أجمل المقال لتقدم البشرية من الخرافة إلى التنوير، ولم يفسح للدين إلا دوراً صغيراً، وطالب بمؤرخين يرتفعون فوق التعصب القومي. وقد أدفا فواده بالإيمان بالتقدم، الأخلاقي منه والفكري، كما أدفا جماعة الفلاسفة أفندتهم. ففي 1793 وبخ موسى مندلسون على قوله أن كل تقدم يلغيه تقهقر. "في الإمكان الاستشهاد بأدلة كثيرة على أن النوع الإنساني بوجه عام، لا سيما في زماننا بالقياس إلى الأزمنة السابقة كلها، قد سار خطوات لا يستهان بها نحو حياة أفضل من الناحية الأخلاقية. ولا ينقض هذا القول حالات التوقف المؤقتة. وصراخ القائلين بأن النوع الإنساني ينحط باستمرار منشؤه بالضبط أن المرء حين يقف على درجة أعلى من الأخلاقية يمتد بصره إلى مدى أبعد أمامه فيكون حكمه على حالة الناس كما هم، بالقياس إلى ما ينبغي أن يكونوا، حكماً أشد صرامة" (89). فلما بدأ كانت آخر عقد في عمره (1794) أصاب تفأؤله المبكر شيء من الإضلام، ربما سبب الرجعية في بروسيا وتحالف الدول على فرنسا الثائرة. فانطوى على نفسه، وكتب سرّاً ذلك الأثر الذي نشر بعد وفاته، والذي قدر له أن يكون وصيته الأخيرة للنوع الإنساني.

صفحة رقم : 13791

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> كانط -> بعد الموت

كان في بدنه من أضال الرجال في حبله حجماً-لا يجاوز طوله خمسة أقدام إلا قليلاً، يزيد قصره تقوس إلى الأمام في عموده الفقري. وكان يشكو ضعفاً في رثته، ووجعاً في معدته، ولم يطل عمره إلا بفضل تغذية منتظمة معتدلة. ومما يتفق وطبيعته أنه وهو في السبعين كتب مقالاً عنوانه "في قدرة العقل على التحكم في الشعور بالمرض بقوة العزيمة". وكان يؤكد على حكمه التنفس من الأنف؛ فالمرء يستطيع التغلب على الكثير من نزلات البرد، وغيرها من العثرات بإقفال فمه(90). ومن ثم كان في مسيراته اليومية يمشي وحيداً تجنباً للحديث. ثم يمضي إلى فراشه بانتظام في العاشرة، ويستيقظ في الخامسة، ولم يستغرق في النوم إلا ما بعدها مرة على مدى ثلاثين عاماً (كما يؤكد لنا)(91). وقد فكر في الزواج مرتين، ثم أحجم مرتين. ولكنه لم يكن عزوفاً من عشرة الناس؛ فقد اعتاد أن يدعو ضيفاً أو ضيفين، غالباً من تلاميذه، دون أي امرأة قط-لمشاركته غداءه في الواحد بعد الظهر. وكان أستاذاً للجغرافيا، ولكن ندر أن تحرك خارج كونجزبرج، ولم يرقط جبلاً، ولعله لم ير البحر قط على قربة منه(92). وقد شد من أزره طوال محنة الفقر والرقابة عزة نفس لم تلت إلا ظاهرياً لأي سلطان غير سلطان عقله. وكان كريم النفس سمحاً، ولكنه صارم في أحكامه، يفنق روح الفكاهة الخليق بأن ينفذ الفلسفة من الغلو في الجد. وكان حسه الأخلاقي أحياناً يبلغ من الرفاهة حد التزمتم الذي يبسيء الظن بكل اللذات حتى تثبت أنها فاضلة.

ولقد بلغ من قلة أكرائه بالدين المنظم أنه لم يختلف إلى الكنيسة إلا إذا اقتضته ذلك واجباته الجامعية(93). ويبدو أنه لم يصل قط في حياته بعد الرشد(94). روى هررد أن تلاميذ كانت بنوا شكوكيتهم الدينية على تعليم كانت(95). وقد كتب كانت إلى مندلسون يقول "صحيح حقاً أنني أفكر بأوضح اقتناع، وبغاية الرضى، في أشياء كثيرة ليس لدي الشجاعة أبداً على قولها، ولكني لا أقول أبداً أي شيء لا أعتقده"(96).

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> كانط -> بعد الموت

وكان حتى آخر سني حياته يجاهد لتحسين عمله، وفي 1798 أخبر صديقاً: "إن العمل الذي أشغل به نفسي الآن يجب أن يتناول الانتقال من الأساس الميتافيزيقي للعلوم الطبيعية إلى الفيزياء. فلا بد من حل هذه المشكلة، وإلا كان هنا فجوة في نسق الفلسفة النقدية".(97) ولكنه في ذلك الخطاب وصف نفسه بأنه "قد عجز عن العمل الذهني". ودخل حقبة طويلة من اضمحلال البدن، والأوجاع المترامية، وشعور الوحشة الذي يصاحب شيخوخة العزب. ووافته المنية في 12 فبراير 1804. ودفن في كندرائية كونجزبرج، فيما يعرف الآن بـ "ستوا كانتيانا"، (مثنوى كانت) ونقشت على قبره كلماته "السماء المرصعة بالنجوم من فوق، والقاموس الأخلاقي في باطني".

وقد خلف عند موته خليطاً كبيراً من الكتابات نشرت على أنها "أثر منشور بعد وفاة مؤلفه" في 1882-84. وفي إحداها وصف "الشيء في ذاته"-الطبقة السفلية المجهولة من وراء الظواهر والأفكار-بأنه "ليس شيئاً حقيقياً... ولا حقيقة موجودة، بل مجرد مبدأ... للمعرفة القبلية التركيبية للعيان-الحسي المتعدد(98)". وقد سمته... "أي شيئاً لا وجود له إلا في فكرنا". وقد طبق هذه الارتيابية ذاتها على فكرة الله:

"ليس الله جوهرًا موجوداً خارجي، بل مجرد علاقة أخلاقية في باطني... والأمر المطلق لا يفترض جوهرًا يصدر أو امره من عل، ويتصور إذن على أنه خارجي، بل هو أمر أو نهي من عقلي أنا... والأمر المطلق يمثل الواجبات الإنسانية كأوامر إلهية لا بالمعنى التاريخي، كأن (كاننا إلهياً) قد أصدر أوامر للناس، بل بمعنى أن العقل... له القدرة

على الأمر بسلطة شخص إلهي وعلى هيئته... "وصورة كائن كهذا، يجثو أمامه الجميع... الخ. تتبعث من الأمر المطلق، وليس العكس... أن الكائن الأعلى... هو من خلق العمل... لا جوهر خارج عني" (99).

صفحة رقم : 13793

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> كانط -> بعد الموت

وهكذا انتهت الفلسفة الكانتية التي تشبثت بها المسيحية طويلاً، في ألمانيا ثم بعدها في إنجلترا، باعتبارها آخر وأفضل أمل للألوهية، بتصور كنيثب لله يراه خيلاً نافعاً نماه العقل البشري ليفسر المطلقة الواضحة للأوامر الأخلاقية. أما خلفاء كانت الذين يجهلون هذا الأثر الذي خلفه بعد موته، فقد أشادوا به منقذ المسيحية، والبطل الألماني الذي قتل فولتير؛ وغلوا في تمجيد إنجازه غلو غلب تأثيره على تأثير أي فيلسوف من المحدثين. وتنبأ أحد تلاميذه وهو كارل راينهولت بأنه لن يمضي قرت حتى تنافس شهرة كانت شهرة المسيح (100). وقبل الألمان البروتستنت كلهم (باستثناء جوته) زعم كانت بأنه أحدث "ثورة كوبرنيقية" في علم النفس: فبدلاً من أن يكون الفكر (الشمس) هو الذي يدور حول الشيء (الأرض)، جعل الأشياء تدور حول الفكر، ويعتمد عليه. وقد أراضى غرور الذات الإنسانية أن يقال لها أن أساليبها الفطرية في الإدراك الحسي هي المقومات المحددة لعالم الظواهر. وخلص فشته (حتى قبل وفاة كانت) إلى أن العالم الخارجي من خلق العقل، واستهل شوبنهاور -الذي قبل تحليل كانت بحثه الضخم "العالم كإرادة وفكرة" بهذا الإعلان "إن العالم فكري" - وهو إعلان أثار بعض الدهشة في مدام دستانل. واعتبط المثاليون لأن كانت كان قد جعل المادية مستحيلة منطقياً ببيانه أن العقل هو الحقيقة الوحيدة المعروفة لنا مباشرة. وسعد الصوفيون لأن كانت قد قصر العلم على الظواهر، وأقصاه عن العالم النوميبي والحقيقي حقاً، وترك هذه المملكة الغامضة (التي أنكر في دخيلة نفسه وجودها) منتزهاً خلاصاً للاهوتيين والفلاسفة. أما الميتافيزيقا، التي كان جماعة "الفلاسفة" الفرنسيين قد أقصوها عن الفلسفة، فقد رد لها اعتباراً حكماً للعلوم كلها، وأقر جان بول لاشتير لألمانيا بسيادة الهواء، بعد أقر لبريطانيا بسيادة البحر، ولفرنسا بسيادة اليابس. وبني فشته وشيلنج هيجل القلاع الميتافيزيقية على مثالية كانت الترانسندنتالية، وحتى رائعة شوبنهاور اتخذت نقطة انطلاقها

صفحة رقم : 13794

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> كانط -> بعد الموت

من تشديد كانت على أولوية الإرادة. قال شيلر "انظر كيف هياً غني واحد أسباب الرزق لمجموعة من المتسولين" (101). كذلك أحس الأدب الألماني هو أيضاً تأثير كانت سريعاً، لأن فلسفة عصر تكون على الأرجح أدب العصر الذي يليه. ففرق شيلر برهة في مؤلفات كانت، وكتب خطاباً ملؤه الإجلال للمؤلف، وبلغ في مقالاته النثرية غموضاً يقرب من

الغموض الكانتي. وأصبح الإبهام واللبس موضحة فاشية في الكتابة الألمانية، وشعار نبالة يشهد بعضوية حامله في تلك الطائفة العتيقة، طائفة نساخي خيوط العناكب. قال جوته "إن التأمل الفلسفي، على العموم، أذى للألمان، لأن من شأنه أن يجعل أسلوبهم غامضاً عسيراً مبهماً. وكلما قوي تعلقهم بمدارس فلسفية بعينها ازدادت كتابتهم سواء" (102). ويتردد المرء في اعتبار كانت كاتباً رومانتيكياً، ولكن الفقرات الأدبية الغائمة التي كتبها في الجمال والجلال غدت من الينابيع التي انبثقت منها الحركة الرومانتيكية. ولقد انبثقت محاضرات شيلر في بينا "ورسانله في تربية الإنسان الاستطيقية" (1795) -وهي معالم على طريق تلك الحركة- من دراسته كتاب كانت "نقد الحكم". وقد هيا التفسير الذاتي النزعة لنظرية كانت في المعرفة أساساً فلسفياً لمذهب الفردية الرومانتيكية الذي نشر لواءه مزهواً في حركة "شتورم" (الزوبعية). وعبر تأثير كانت الأدبي إلى إنجلترا، فتأثر به كولبرج وكارليل، ثم عبر إلى إنجلترا الجديدة، وأعطى اسماً لحركة إمرسن وثورو-الترانسندنتالية (103). لقد هز أستاذ الجغرافيا القصير القامة المحدودب الظهر العالم وهو يطأ أرض "منتزه الفيلسوف" في كونزبرج. وما من شك في أنه قدم للفلسفة وعلم النفس أشق ما عرفه التاريخ إلى الآن من تحليل لعملية المعرفة.

صفحة رقم : 13795

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايمار -> أثينة ألمانيا

الفصل الثاني والعشرون

الطرق إلى فايمار

1787-1733

1- أثينة ألمانيا

ترى لم أختار أسمى عصور الأدب الألماني فايمار دون غيرها وطناً له؟ إن ألمانيا لم يكن لها عاصمة واحدة ترتكز فيها ثقافتها كما كانت الحال في فرنسا وإنجلترا، ولم تكن تملك ثروة مركزية لتمويل هذه الثقافة. وكانت حرب السنين السبع قد أضعفت برلين وليبيزج، أما درسدن فكادت تدمرها تدميراً؛ وأما همبورج فقد بذلت مالها أولها للأوبرا؛ ثم للمسرح. وفي 1774 كانت فايمار، عاصمة دوقية ساكسي-فايمار-آيزيناخ، بلدة هادئة يسكنها نحو 6.200 نسمة،

وحتى بعد أن ذاع صيتها أشار إليها جوته بـ "هذه العاصمة الصغيرة التي تضم كما يقول الناس على سبيل المزاح عشرة آلاف شاعر وبعض السكان" (1) فهل مجدها يا ترى بناه أفراد عظام؟
لقد حكمت فايمار من 1758 إلى 1775 ابنة أخت فرديريك الأكبر، وهي المرأة المرحمة، الدوقة الأرملة أنا أماليه، التي تاملت وهي في الثامنة عشرة بموت زوجها الدوق قسطنطين، وأصبحت وصية على ولدهما كارل أوجست الذي لم يتجاوز العام الواحد. وإليها يرجع الفضل في فتح باب بين الحكومة والأدب بدعوتها فيلاند للحضور والقيام على تهذيب أبنائها (1772). وكانت واحدة من نساء عديدات مثقفات حفزن الشعراء والمسرحيين

صفحة رقم : 13796

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايمار -> أثينة ألمانيا

والمؤرخين تحت قيادتها وحتى موتها في 1807 بإجراء الجنس والمديح، وقد حولت بيتها بعد عام 1776 صالوناً، شجعت فيه استعمال الألمانية لغة الأدب-رغم أن الجميع كانوا يتكلمون الفرنسية أيضاً.
وفي 1775 كان بلاط فايمار يضم نحو اثني عشر شخصاً وأتباعهم. وقد وجد الشاعر الكونت كرسنتيان تسوستولبرج في هذا البلاط جواً ساراً خالية من الكلفة في ذلك العام الذي وصل فيه جوته. يقول "إن الدوقة العجوز (وكانت يومها في السادسة والثلاثين) هي الفطنة المجسمة، وهي مع ذلك لطيفة وطبيعية جداً. أما الدوق فغلام عجيب، كله وعد وتيسير، وكذلك أخوه. ثم هناك الكثير من الأشخاص الممتازين". (2) وفي 1787 وصف شيلر "نبيلات فايمار" بأنهن "شديدات الحساسية وقل أن تجد بينهن واحدة لم تخض تجربة غرام، وجميعهن يحاولن غزو القلوب... فهنا حكومة هادئة لا تكاد تحس بها، تسمح لكل إنسان بأن يحيا، وأن يصطلي في الهواء والشمس. وإذا كان بالمرء ميل إلى المرح فكل الفرص متاحة له" (3).

وتقلد كارل أوجست حكم الدوقية في 3 سبتمبر 1775 حين بلغ الثامنة عشرة. وما لبث أن اتخذ زوجة بعد أن أجرى معاشاً على خليلته (4)، والزوجة هي لوييزة أميرة هسي-دارمشتات، ثم اقتنص جوته في الطريق، وكان يمارس الصيد في ضراوة، ويسوق مركبته في تهور مخترقاً شوارع المدينة الهادئة، ويتنقل على عجل بين النساء؛ ولكن تهوره كبحه عقل نضج ببطء حتى بلغ القدرة على الحكم الصائب. وقد درس الزراعة والصناعة وبسط رعايته عليهما، وشجع العلوم، وأعان الأدب، وجاهد لخير إمارته وشعبها. واستمع إلى مدام دستال التي جابت ألمانيا في 1803 تقول: "ليس بين الإمارات الألمانية كلها إمارة نشعرنا أكثر من فايمار بمزايا الدولة حتى يكون أميرها رجلاً قوي الفهم قادراً على السعي لإسعاد جميع طبقات رعاياه دون أن يفقد شيئاً من طاعتهم... ومواهب الدوق الحربية يحترمها الجميع، وحديثه المثير المشرب بالتفكير يذكرنا على الدوام بأنه ربيب فرديريك

صفحة رقم : 13797

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايمار -> أثينة ألمانيا

العظيم. ولسمعته وسمعة أمه الفضل في اجتذاب ألمع رجال العلم والثقافة إلى فايمار. ولأول مرة أصبح لألمانيا حاضرة أدبية كبرى" (5).

صفحة رقم : 13798

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايمار -> فيلاند

2- فيلاند

1775-1733

كرستوف مارتن فيلاند هو أقل الرجال الأربعة، الذين أذاعوا صوت فايمار، شهرة بين الناس، ولكن لعله كان أجدرهم بالحب. وقد عزفت على قيثارته كل مؤثرات جله تقريباً ووفقت نغماتها بكل دوره. كان ابناً لراعي كنيسة في أبروهولتسهيلم (قرب بيبراخ في فورتمبرج) فنشئ على التقوى واللاهوت. فلما اكتشف الشعر جعل الرجل الفاضل كلويشتوك مثله الأعلى، ثم تحول إلى فولتير ترفيهاً عن نفسه. ثم وجد في بلدة فارتهاوزن القريبة منه مكتبة الكونت فون شتاديون الضخمة، فنهل من الأدبين الفرنسي والإنجليزي، ونفض عنه قدراً كبيراً من اللاهوت، حتى لقد هزأ بإيمان صباه في رواية سماها "دون سلفيو فون روز الفاء" (1764). ونشر مترجمات نثرية لعشرين من مسرحيات شكسبير (1762-66)، فأتاح بذلك لألمانيا لأول مرة نظر إلى شكسبير ككل، ويسر لكتاب التمثيليات الألمان مهرباً من الصيغة الكلاسيكية التي اتخذتها الدراما الفرنسية. وكان فنكلمان وآخرون أثناء ذلك يبشرون بالدعوة الهيلينية، وصاغ فيلاند لنفسه صورته الخاصة من هذه الدعوة فاتخذ نغمه أبيقورية خفيفة في كتابه "قصص هزلية" (1765)، وجعل رجلاً إغريقياً وهماً البطل لأهم عمل نثري ألفه وهو "تاريخ أجاتون" (1766-67)، الذي وصفه ليسنج بأنه "الرواية الوحيدة اللانقاة بالرجال المفكرين" (6).

وقد أراد فيلاند (البالغ ثلاثة وثلاثين عاماً) في صفحاتها المطوفة أن يبسط فلسفته في الحياة، متمثلة في المغامرات الجسدية والعقلية لرجل أثيني من عصر بركليس. قال في المقدمة "لقد اقتنضت خطتنا تصوير بطنا وهو يجتاز شتى المحن"، وهي محن من شأنها أن تربي الإنسان على الأمانة والحكمة دون الالتجاء إلى الحوافز أو الدعائم الدينية (7). وأجاتون (أي الطبيب)،

صفحة رقم : 13799

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايما -> فيلاند

الشاب الوسيم، يقاوم محاولة إحدى كاهنات دلفي لإغوائه، وبدلاً من ذلك يشعر نحو العذراء الساذجة "بسوخي" (النفس) يجب نفي وإن كان مشوباً. ويدخل عالم السياسة، فيشتمز من تعصب الأحزاب، ويندد بالناخبين لافتقارهم بالناخبين لافتقارهم إلى المبدأ، ثم بنفى من أثينا. وفيما هو يهيم فيجبال اليونان يقع على لفيف من النسوة التراقيات يحتفلن بعيد باخوس برقصات شهوانية عنيفة؛ فيحسبته باخوس، ويكدن يخنقنه بعناقهن، ثم تنفذه عصابة من القراصنة، تبيعه عبداً في أزمير لهيباس، وهو أحد سوفسطائي القرن الخامس ق. م. ويشرح فيلاند فلسفة السوفسطائيين في سخط فيقول:

"إن الحكمة التي جعل منها السوفسطائيون مهنة لهم كانت من حيث الكيف كما كانت من حيث الأثر النقيض للحكمة التي جهر بها سقراط. فالسوفسطائيون علموا فن إثارة أهواء الرجال (بالخطابة)؛ بينما غرس سقراط فن سيطرة الإنسان على أهوائه. وقد بينوا كيف يظهر الإنسان أمام الناس حكيماً فاضلاً، أما هو فقد بين كيف يكون الإنسان كذلك. وهم شجعوا شباب أثينا على محاولة السيطرة على الدولة، أما هو فبين لهم أنهم سينفقون نصف عمرهم ليتعلموا كيف يحكمون ذواتهم. وكانت فلسفة سقراط تقخر بالحياة مجردة من الغنى، أما فلسفة السوفسطائيين فكانت تعرف كيف تحقق الغنى. كانت كيسة، خلافة، متقلبة، مجدت العظمة... وعبتت بالنساء، وتملقت كل شخص ينقدها ثمن التملق. كانت فيكل مكان لا تحس الغربية، لها الحظوة في البلاط، وفي مخادع النساء، ومع الطبقة الأرستقراطية، وحتى مع طبقة الكهان، في حين أن تعاليم سقراط... يحكم عليها الفضوليون بأنها عديمة النفع، والمتطلون بأنها عديمة المذاق، والأثقياء بأنها خطيرة." (8).

وتتمثل في هيباس كما يصوره فيلاند كل أفكار السوفسطائيين وراثهم. فهو فيلسوف، ولكنه حرص على أن يكون مليونيراً أيضاً. وهو يعترم

صفحة رقم : 13800

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايما -> فيلاند

أن ينشئ أجاثون المستقيم الخلق على أسلوب أبيقوري في التفكير والعيش. ويزعم أن أحكم سياسة ينتهجها الإنسان أن يجري وراء الأحاسيس اللذيذة، و "كل الذات هي في حقيقتها حسية" (9). وهو يضحك من أولئك الذين يحرمون أنفسهم من لذات هذه الحياة الدنيا أملاً في مباحج السماء التي قد لا تتحقق أبداً. "فمن ذا الذي رأى مرة أولئك الأرباب، وتلك المخلوقات الروحية، التي يؤكد (الدين) وجودها؟" فهذا كله حيلة يخادعنا بها الكهنة (10). ويدين أجاثون هذه الفلسفة لأنها تتجاهل العنصر الروحي في الإنسان وحاجات النظام الاجتماعي. ويقدمه هيباس إلى داناى المرأة الغنية الجميلة، ويشجعها على إغوائه، ويخفي عنه ماضي داناى حين كانت محظية. وترقص المرأة وتحمل أجاثون رشاقة جسدها مع سحر حديثها وموسيقى صوتها على أن يقدم لها حبه الخالص الطاهر. وتفسد داناى على هيباس مؤامراته إذ ترد حب أجاثون بمثلته. ذلك أنها بعد أن تقبلت في أحضان رجال كثيرين تجد تجربة وسعادة جديدتين في حب أجاثون. وهي تتطلع إلى أن تبدأ مع أجاثون حياة جديدة أكثر طهراً بعد أن سئمت غرامياتها العديمة العاطفة. فتشتريه مع هيباس، وتعتقه، وتدعوه لمفاسمتها ثروتها؛ ولكن هيباس يبوح لأجاثون بماضي داناى وهي محظية انتقاماً منها. فيركب أجاثون البحر إلى سيراكيوز.

و هناك يكتسب سمعة طيبة بالحكمة والنزاهة، فيصبح الوزير الأول للدكتاتور ديونيسيوس. وقد تخلى الآن عن بعض مثاليته:

"فلم يعد يحلم كما كان بتلك المثاليات الرفيعة عن طبيعة البشر. أو قل أنه انتهى إلى معرفة البون الشاسع بين الإنسان الميتافيزيقي، الذي يفكر فيه المرء أو يحلم به في خلوته المتأمل، أو الإنسان الفطري وهو خارج لتوه في بساطته الفجة من يدي الطبيعة الأم، وبين الإنسان الزائف الذي جعله المجتمع والقوانين والآراء والحاجات والتبعية والصراع المتصل بين رغباته وظروفه، وبين مصلحته ومصلحة غيره، وما يترتب على ذلك من ضرورة إخفاء مقاصده الحقيقية وسترها باستمرار - أقول أن هذا كله

صفحة رقم : 13801

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايما -> فيلاند

جعل الإنسان كاذباً، منحطاً، مشوهاً، منتكراً وراء مئات الصور الخداعة وغير الطبيعية. ولم يعد ذلك المتحمس، الفتى الذي كان يخيل له أن تنفيذ مشروع عظيم سهل يسير كتصوره. وقد تعلم أن على المرء ألا يتوقع الكثير من الآخرين، وألا يعتمد كثيراً على تعاونهم معه، و (أهم من ذلك كله) ألا يثق كثيراً بنفسه... وتعلم أن أكثر الخطط كمالاً هي في الغالب أسوأها (وأنه) لا شيء في العالم الأخلاقي، كما في العالم المادي، يتحرك في خط مستقيم، وبالاختصار أن الحياة أشبه برحلة بحرية يتعين فيها على الربان أن يكيف مسيره وفق هوى الريح والجو، ولا يطمئن أبداً إلى أن التيارات المعاكسة لن تعطله أو تجنح بمركبة؛ وأن كل شيء رهن بهذا: وهو أن يضع نصب عينيه ميناء الوصول الذي يقصده رغم مئات الانحرافات عن الطريق" (11).

ويخلص أجاثون الخدمة لسيراكيوز وينجز بعض الإصلاحات، ولكن مؤامرة في القصر تخلعه، فيعتزل في تارنتوم. وهناك يرحب به صديق قديم لأبيه هو الفيلسوف والعالم الفيثاغوري أرخيتاس (ازدهر 400-365 ق. م) الذي يحقق حلم أفلاطون بالملك الفيلسوف. وهناك يعثر على حبيبة صباه بسوخي، ولكنها للأسف متزوجة من ابن أرخيتاس، ثم يتبين أنها أخت أجاثون. على أن داناوي يوتي بها (بعض الروائي السحرية) من أزмир إلى تارنتوم، وقد هجرت عاداتها الأبيقورية لتحيا حياة العفة والبساطة. ويطلب إليها أجاثون أن تغفر له بعد أن أدرك أنه أثم بهجرانه إياها، فتعاقبه، ولكنها ترفض الزواج منه، فقد عولت على التفكير عن انحرافات الماضي بحياة الزهد والتعفف في ما بقي لها من أجل. وتختتم القصة بأجاثون قانعاً قناعة لا تصدق بأن يعد المرأتين أختين له.

والكتاب تشوبه عشرات المآخذ. فبناؤه مفكك؛ ومصادفاته ذرائع كسولة للتهرب من الصنعة الروائية؛ وأسلوبه لطيف ولكنه شديد الأطناب؛ وفي كثير من الفقرات يبتعد الفاعل عن الفعل حتى ينسى؛ وقد هنا أحد النقاد المؤلف بعيد ميلاده بأن تمنى له حياة طويلة طول جملة. ولكن "تاريخ

صفحة رقم : 13802

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايما -> فيلاند

أجاثون" برغم هذا يعد من أعظم آثار عصر فردريك. وقد دلت استنتاجاته على أن فيلاند قد اصطاح مع الدنيا، وأن في الاستطاعة الآن أن يوكل إليه تعليم الشباب المندفع المتوتر وترويضه. فعين في 1769 أستاذاً للفلسفة في إيرفورت. ومنها أصدر بعد ثلاث سنين "المرأة الذهبية" وهو كتاب بسط فيه آراءه في التربية. واقتنتت به أنا آماليا، فدعته ليجرب نظرياته التربوية مع أبنائها. فذهب، وأنفق ما بقي من عمره في فايمار، وفي 1773 أنشأ مجلة (الرائد الألماني)، التي ظلت جيلاً (1773-89) تحت قيادته أعظم المجلات الأدبية نفوذاً في ألمانيا. وكان النجم الفكري لفايمار حتى أتى جوته، وحين اقتحم الكاتب الشاب الجريء المدينة في 1775، رحب به فيلاند دون شعور بالغيرة، وسيظل صديقه مدى ست وثلاثين سنة.

صفحة رقم : 13803

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايمار -> جوته بروميثيوس

3- جوته بروميثيوس

1749 - 1775

أ - نشأته

تقبلت على يوهان فولفجانج فون جوته شتى التجارب منذ كان بجوب شوارع فرانكفورت- على- المين وهو واع بأنه حفيد عمدتها، حتى سبعينياته التي كان لأحاديثه العارضة فيها الفضل في إذاعة اسم كاتب سيرتها إكermann (كما أذاع جونسون اسم بوزويل)، واستوعب كل ما وسع الحياة والحب والرسائل أن تمنحه، راداً إياه- في عرفان- حكمة وفناً. وكانت فرانكفورت "مدينة حرة"، يسودها التجار والأسواق، ولكنها إلى ذلك المقر الذي خصصه الأباطرة للتويج الملوك الألمان وأباطرة الدولة الرومانية المقدسة. وفي 1749 كان يسكنها 33.000 نسمة جلهم تقي مهذب بشوش الوجه. وكان مولد جوته في منزل متين ذي طوابق أربعة (دمره حريق في 1944 ثم أعيد بناؤه في 1951). وكان أبوه يوهان كاسبار جوته ابن خياط وفندق ميسور الحال، وقد دمر يوهان كاسبار مستقبله السياسي بالكبر والخيلاء، واعتزل مهنة المحاماة مؤثراً حياة الدراسة الهاوية في مكتبته

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايمار -> جوته بروميثيوس

الأنيفة. وفي 1748 تزوج كاتارينا اليزابث، ابنة يوهان فولفجانج تكستور عمدة فرانكفورت. ولم ينس ابنها قط أنه عن طريقها ينتسب إلى الإشراف من غير حملة الألقاب، الذين حكموا المدينة أجيالاً قبل ذلك. قال لأكرمان وهو في الثامنة والسبعين، "نحن أشرف فرانكفورت كما نعد أنفسنا دائماً مساوين لطبقة النبلاء؛ وحين احتوت يداي إجازة النبالة (التي منحت له عام 1782) لم أر أنني ظفرت بشيء أكثر مما كنت أملك منذ زمن طويل". (12) وكان يحس أن "الأوغاد فقط هم المتواضعون" (13).

وكان أكبر أطفال ستة، لم يتجاوز الطفولة منهم غيره هو وأخته كورنيليا؛ في تلك الأيام كان الحنان الأبوي الكبير يعد عناءً باطلاً. ولم يكن بيتهم بالبيت السعيد؛ فالأم لطيفة الطبع تميل إلى الفكاهة والشعر، ولكن الأب حاكم صارم مترمّز أقصى عنه قلوب أطفاله بخشونة طبعه وضيق خلقه. يقول جوته مستعيداً ذكرى طفولته "لم يكن في الإمكان نمو علاقته سارة مع أبي" (14). وربما اكتسب جوته منه كما اكتسب من تجربته عضواً في مجلس شورى الدوق بعض التصلب الذي بدا عليه في أخريات حياته. وربما أخذ عن أمه روحه الشاعرة وحبه للدراما. وقد بنت في بيتها مسرحاً للعرائس؛ ولم يفق ابنها قط من افتتاحه بهذا المسرح.

وتلقى الأطفال تعليمهم المبكر على يد أبيهم، ثم من معلمين خصوصيين. واكتسب فولفجانج الإلمام بقراءة اللاتينية واليونانية والإنجليزية وبعض العبرية، والقدرة على التحدث بالفرنسية والإيطالية. وتعلم أن يعزف على الهاربسيكورد والفيولنشيللو، ويرسم ويصور بالألوان، ويركب الخيل ويثاقف ويرقص، ولكنه اتخذ الحياة خير معلم له. فارتاد كل نواحي فرانكفورت بما فيها حي اليهود؛ وسدد النظرات الغرامية للفتيات اليهوديات الحسان، وزار مدرسة يهودية، وحضر حفلة ختان، وكون لنفسه فكرة عن أيام اليهود المقدسة (15). وأضافت إلى تعليمه أسواق فرانكفورت إذ جلبت إلى المدينة وجوهاً وسلعاً غريبة دخيلة، وكذلك أضاف الضباط الفرنسيون في بيت جوته إبان حرب السنين السبع. وفي 1764 شهد الصبي ذو الخمسة

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايمار -> جوته بروميثيوس

عشر ربيعاً تتويج يوزف الثاني ملكاً على الرومان؛ وقد حفظ كل صغيرة وكبيرة في الحفل، وأنفق عشرين صفحة على وصفه في سيرته الذاتية (16). وحين ناهز الرابعة عشرة وقع في أول غرام من غرامياته الكثيرة التي أنثرت نصف شعره. وكان في تلك الأونة قد اشتهر ببراعته في قرض الشعر، فطلب إليه بعض الصبية ممن اختلط بهم أحياناً أن يكتب خطاباً منظوماً بأسلوب فتاة موجهة إلى فتى؛ فأحسن كتابته، مما حملهم على أن يرتبوا تسليمه لعضو مقيم من جماعتهم على أنه مرسل إليه من حبيبته. وأراد الصبي أن يرد على الشعر بالشعر ولكن أعوزته الكفاية وخانته القوافي، فطلب إلى جوته أن ينظم له رداً. فوافق، وعرفاناً بجميله دفع العاشق نفقات نزهة خرجت فيها الجماعة إلى فندق في إحدى ضواحي المدينة.

وكانت الخادمة صبية مرافقة تدعى مرجريته- أو جرتشن اختصاراً، وقد أطلق جوته اسمها على بطلته تمثيليته "فاوست". وربما هيأته القصص الغرامية التي قرأها، والرسائل التي كتبها، لتذوق سحر الأنوثة في الصبايا. كتب وهو في الستين يقول "إن أول نوازع الحب في شاب غشيم يتجه اتجاهاً روحياً بحتاً. ويبدو أن الطبيعة ترغب في أن يدرك أحد الجنسين بحواسه الجمال والطبيعة في الجنس الآخر. وهكذا تكشف لي عالم جديد من الجميل والرائع بمراى هذه الفتاة وبميلي الشديد لها". (17) ولم يفقد ذلك العالم بعدها قط؛ فكانت المرأة بعد المرأة تحرك روحه الحساسة، وتحركها غالباً بالتبجيل كما تحركها بالرغبة؛ فحين كان في الثالثة والسبعين وقع في غرام فتاة في السابعة عشرة. وغلبه الارتباك لحظة وأعجزه عن التحدث إلى ساحرته. "ذهبت إلى الكنيسة مدفوعاً بحبي لها... ورحت خلال الخدمة البروتستنتية الطويلة أهدق فيها بملء عيني". (18) ثم رآها ثانية في فندقها جالسة في المغزل. كما جلست جرتشن أخرى في فاوست. واتخذت هي الخطوة الأولى الآن، ووقعت في ابتهاج الخطاب الغرامي الثاني الذي اصطنعه كأنه مرسل من فتاة. ثم قبض على واحد من الجماعة كان جوته قد أوصى جده به، وهو يزيغ سندرات ووصايا؛ فهي فولفجانج أبواه عن مزيد من الاتصال بهؤلاء

صفحة رقم : 13806

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايما -> جوته بروميثيوس

الصبية، ورحلت جرتشن إلى مدينة بعيدة، ولم يرها جوته بعدها قط. وقد تضايق كثيراً حين علم أنها قالت "كنت أعامله دائماً على أنه طفل" (19). وكان الآن (1765) راضياً تمام الرضى بالرحيل عن فرانكفورت ودراسة القانون في جامعة ليبزج، وراح ككل شاب طلعة يقرأ قراءات واسعة خارج الموضوعات المقررة لدراسته. وكان قد تصفح "قاموس بيل التاريخ النقدي" في مكتبة أبيه، وخرج منه بأذى كبير لإيمانه الديني؛ "ما إن وصلت إلى ليبزج حتى حاولت أن أتحرر كلية من صلتني بالكنيسة" (20). ثم أنفق فترة في التنقيب في الغيبات والخيمياء وحتى السحر، وهذا أيضاً دخل في مسرحية "فوسمت". ثم جرب الحفر وصنع الرواسم من الخشب، ودرس مجموعة الصور المعروضة في درسدن؛ وتكررت زيارته للمصور أويزر في ليبزج. وقد ألم بكتابات فنكلمان بطريقة أويزر، وعن هذه الكتابات وكتاب ليسنج "اللاوكون" تلقى أول نفحات إجلاله للطراز الكلاسيكي. وكان هو وطلاب آخرون يعدون استقبالاتاً حاراً لفنكلمان في ليبزج حين وافاهم نبأ مصرعه في تريست (1768). وكان الإحساس بالجمال هو الغالب في مدخله إلى العالم. ففي الدين لم يحب غير أسرار المقدسة، المثيرة، الغنية بالألوان. ولم يحب الفلسفة كما كتبها الفلاسفة، باستثناء سبينوز؛ وكان يرتعد من المنطق ويهرب من كانط. وقد أحب الدراما، وكتب مسرحية لا قيمة لها في ليبزج، ودأب على قرض الشعر كل يوم تقريباً، حتى وهو يستمتع إلى محاضرات القانون. والقصائد التي نشرها باسم "أغاني ليبزج" مكتوبة بأسلوب أناكريون، فيها عبث ولهو، وأحياناً إثارة وشيق:

ومع ذلك فأنا قانع تملؤني الفرحة

إن هي جادت فقط ببسمتها الحلوة،

أو إن استعملت وهي على المائدة

قدمي حبيبها وسادة لقدميها؛

صفحة رقم : 13807

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايمار -> جوته بروميثيوس

أو أعطني التفاحة التي قضمتها،

أو الكأس التي شربت منها،

وكشفت عن ثديها المكنون

حين تنشد ذلك قبلي(21).

أكانت هذه مجرد من؟ لا فيما يبدو. ذلك أنه كان قد وجد في ليبزج رأساً جميلاً- رأس أنيت شونكوف- راغباً في أن يلج على الأقل الدهليز إلى الحب. وكانت ابنة تاجر خمور يقدم وجبة الظهر للطلاب. وكان جوته يتناول طعامه هناك

مراراً فاشتتهاها. واستجابت لحرارة عاطفته بتحفظ حكيم، وسمحت لرجال آخرين بأن يتقربوا منها، فبدأ يغار، وأخذ يتجسس عليها؛ وتشاجرا ثم تصالحا، ثم تشاجرا وافترقا. ولقد ذكر نفسه حتى في هذه النشوات أنه حفيد عمدة، وأن بطنه قريباً. هو حافر ودافع لجن نهم يطالب بالحرية في سبيل الاكتمال التام إلى مصيره المحتوم. وقبلت آتيت خطيباً غيره.

ورأى جوته في هذا هزيمة له، وحاول نسيانها بالانغماس في اللذات. "لقد فقدتها حقاً وكان للجنون الذي انتقمتم به لخطئي من نفسي بالعدوان على طبيعتي الجسدية بشتى الطرق المسعورة، لألحق بعض الأذى بطبيعتي الخلقية- أقول كان له ضلع كبير جداً في إصابتي بالأمراض البدنية التي خسرت بسببها بعضاً من أفضل سني عمري". (22) واستسلم للاكتئاب، وأصابه عسر هضم عصبي، وابتلى بورم مؤلم في عنقه، واستيقظ ذات ليلة على نزيغ كاد يقضي عليه. وغادر ليبزج دون أن يظفر بدرجة الجامعية، وقفل إلى فرانكفورت (سبتمبر 1768) ليواجه تأنيب الأب ومحبة الأم.

ثم تعرف أثناء فترة نقاهته الطويلة إلى سوزانة فون كلنتيرج، وكانت تقوية مورافية، لطيفة، علية. "كان صفاؤها وهذو عقلها لا يبرحانها قط، وكانت تنتظر إلى مرضها نظرتها إلى عنصر ضروري في وجودها الأرضي

صفحة رقم : 13808

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايما -> جوته بروميثيوس

العابر" (23). وقد وصفها بعد سنين وصفاً فيه تعاطف وبراعة في "اعترافات روح جميلة". التي أدخلها في كتابه "ولكنه سجل في غير مبالاة مزاعمها من أن قلقه واكتنابه سببهما إخفاقه في المصالحة مع الله. "كنت أعتقد منذ حدثتي إنني على علاقة طيبة جداً مع الهي- لا بل إنني تخيلت... أنه قد يكون مديناً لي بدين لم يوفه بعد، لأنني كنت مع الجرة بحيث رأيت أن عليه لي مأخذاً يقتضي أن اغتفره له. وكان هذا الغرور قائماً على حسن نيتي الذي لا حد له، وهو ما كان خليقاً بالهي أن يعينني عليه معونة أفضل كما بدل لي. وللقارئ أن يتصور كم من المرات دخلت في مناعات مع أصدقائي حول هذا الموضوع، ولكنها كانت تنتهي دائماً بغاية المودة والصفاء" (24). ومع ذلك مرت به لحظات متفرقة من التقوى، إلى حد الاختلاف إلى بعض جلسات الإخوان المورافيين، ولكن نفره من هؤلاء القوم البسطاء (25)، "ضعف ذكاءهم" وسرعان ما ارتد إلى الجمع المتقطع بين الإيمان بوحدة الوجود والشك العقلاني.

وفي أبريل 1770 رحل إلى ستراسبورج أملاً في نيل درجته القانونية. ووصفه زميل من الطلاب (وهو في الحادية والعشرين) بأنه "فتى وسيم الوجه، له جبين رائع وعينان واسعتان متقدمتان" ولكنه أردف "أن التعامل مع هذا الشاب لن يكون أمراً يسيراً، إذ يبدو أن له طبعاً جموحاً غير مستقر" (26). وربما كان مرضه الطويل سبباً في إثارة أعصابه؛ وكان "قرينه" أشد إقلاقاً له من أن ينيله الهدوء والاستقرار، ولكن أي شاب تسري النار في دمه يستطيع أن ينعم بالهدوء؟ وحين وقف أمام الكندرائية الكبرى حياها بشعور الوطنية، لا بوصفها كاثوليكية بل معماراً ألمانياً، معمارنا، فالإيطاليون لا يستطيعون المفاخرة بشيء نظيرها، وأقل منهم الفرنسيون" (27) (ولم يكن قد رأى بعد إيطاليا ولا فرنسا). "وصعدت وحيداً إلى أعلى قمة في البرج... وغامت من هذا العلو بأن أخطو إلى الخارج على افريز لا يكاد يبلغ ياردة مربعة. وقد أوقعت هذا الرعب

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايما -> جوته بروميثيوس

والعذاب على نفسي مراراً وتكراراً حتى أصبحت التجربة في نظري أمراً غير ذي بال". (28) وقد لاحظ أحد أساتذته أن "الهرجوته كان يسلك بأسلوب جعل الناس ينظرون إليهم نظرتهم إلى دعي كاذب من أدعياء العلم، وخصم مسعور لكل تعليم ديني. والرأي الذي أجمع عليه الكل تقريباً أن في رأسه برجاً ناقصاً" (29). وعملت التجارب الجديدة الكثيرة على تأجيج ناره. فقد التقى بهردر مرات خلال إقامته في ستراسبورج. وكان هردير الذي يكبره بخمس سنوات، هو الطرف المسيطر في هذه اللقاءات؛ وقد وصف جوته نفسه، في نوبة تواضع عارضة، بأنه "كوكب" يدور حول شمس هردير. وأزعجته نزعة هردير الدكتاتورية، ولكنه حفزه إلى قراءة الأغاني الشعبية القديمة، وكتاب مكفرسن "أوسيان" ومسرحيات شكسبير (في ترجمة فيلاندر). ولكنه قرأ أيضاً فولتير وروسو وديديرو ثم درس مقررات في الكيمياء والتشريح والولادة، فضلاً عن مواصلة دراسة القانون... ثم أنه واصل دراسته للنساء. ذلك أنه شعر بفتنتهن بكل ما في الشاعر من حساسية مرهفة، وكل ما في الشاب من توهج كهربى. وبعد هذه الحقبة بسبعة وأربعين عاماً أخبر إكرمان بأنه يعتقد أن للأشخاص تأثيراً مغنطيسياً غامضاً على غيرهم، وأكثره عن طريق تباين الجنس (30). فكانت تحركه خطرات الفتيات الخفيفة الرشيق، وموسيقى أصواتهن وضحكهن، ولون أنوابهن وحفيفها؛ وكان يحسد الزهرة التي كن أحياناً يزين بها مشدهن أو شعرهن على التصاقها بهن. وكانت الواحدة تلو الأخرى من هذه المخلوقات السحرية تستنفر دمه، وتكبر في خياله، وتحرك قلمه. لقد أحب من قبل جرتشن وأنيت، وعماً قليل سيكون هناك وللي وشارلوتة، ثم منا وأولريكة. أما الآن، في زيزنهايم (قرب ستراسبورج). فكانت افنتهن قاطبة- فردريكة بريون.

كانت الابنة الصغرى (تسعة عشر ربيعاً في 1771) لراعي كنيسة

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايما -> جوته بروميثيوس

المدينة، الذي شبهه جوته بقسيس ويكفيلد الفاضل الذي روى جولد سمت قصته. والصفحات التي كتبها جوته عن فردريكة في سيرته الذاتية هي أروع ما كتب في حياته من نثر (31). وكان يركب مراراً من ستراسبورج ليستمتع بما اتسمت به هذه الأسرة الريفية من بساطة لم تقسدها حضارة. وكان يصطحب فردريكة في نزهات طويلة لأنها كانت ترسل نفسها على سجيبتها في الهواء الطلق. وقد أحبته، ومنحته كل ما طلب. "في خلوة في الغاية تعانقنا بعاطفة عميقة، وتبادلنا أخلص التأكيدات بأن كلاً منا يجب الآخر من أعماق قلبه". (32) ولكن سرعان ما راح يعترف لصديق بأن "المرء لا تزداد سعادته مثقال ذرة ببنيه ما تمنى".

وكان خلال ذلك يكتب باللاتينية رسالة الدكتوراه التي أكدت (كما أكد فيرونيس حق الدولة في الاستقلال عن الكنيسة. وقد نالت موافقة الكلية الجامعية؛ ونجح في الامتحانات؛ وفي 6 أغسطس 1771 نال درجة الليسانس في القانون.

وجاء أوان الرحيل عن ستراسبورج. فركب إلى زيزنهايم ليودع فردريكه، "وحين مددت إليها يدي وأنا على صهوة جوادي، اغرورقت عيناها بالدموع. وأحست بضيق شديد... وبعد أن نجوت آخر الأمر من انفعال الوداع، تمالكت نفسي تماماً ومضيت في رحلة هادئة مطمئنة". (33) أما تفرير الضمير فجاء بعد ذلك. "لقد انتزعت جريئشن مني؛ وهجرتني آتيت؛ أما الآن فكنت مذنباً لأول مرة. فقد جرحت أحب قلب جرحاً في الصميم؛ وكانت فترة الندم الكئيب مع افتقادي ذلك الغرام المنعش الذي كنت قد ألفته- فترة عذاب أليم.."(34) إنه شعور أناني إلى حد محزن، ولكن من منأ، في تجارب الحب وزلاته، لم يجرح قلباً أو قلبين قبل أن يظفر بقلب؟ وماتت فردريكه دون أن تتزوج، في 3 أبريل 1813.

صفحة رقم : 13811

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايماار -> جوته بروميتيوس

ب- جوتز وفرتر

لم يمارس حامل إجازة القانون الجديد مهنة المحاماة في فرانكفورت إلا كرهاً وكان يزور دارمشتات بين الحين والحين، وأحس تأثير تمجيدها

صفحة رقم : 13812

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايماار -> جوته بروميتيوس

للعاطفة في وجدانه. وجاز الآن فترة من رد الفعل الشديد ضد فرنسا، وضد الدراما الفرنسية وقواعدها الصارمة، وحتى ضد فولتير. وراح يسيغ أكثر فأكثر شكسبير الذي عرض على خشبة المسرح طبيعة الإنسان حلالاً كانت أو حراماً. في هذا المزاج، وفي عنفوان الشباب وحيويته، كان مهياً للحركة الزوبعية. فتعاطف مع رفضها للسلطة، وإعلائها للغريزة فوق العقل، ولل فرد البطل فوق الجماهير الحبيسة في سجن التقاليد. وهكذا كتب "جوتز فون برليشنجن" في 1772-73.

وكانت إنجازاً ممتازاً من فتي في الثالثة والعشرين: دراما جمعت بين الحب والحرب والخيانة في قصة تنبض بالحماسة للحرية، وتنضج حيوية، وتشد الانتباه من أولها لآخرها. أما جوتز هذا ففارس أطاح الرصاص بيميناه في المعركة وهو في الرابعة والعشرين (1504)؛ فركبت في ذراعه يد حديدية أعانته على استعمال سيفه قاطعاً بتاراً كما

كان من قبل، وإذ رفض الاعتراف بأي سيد إلا الإمبراطور، فقد أصبح واحداً من أولئك "البارونات اللصوص" الذين ادعوا باسم الحرية أن لهم مطلق السلطة على أرضهم إلى درجة سلب عابري السبيل وشن الحروب الخاصة. وفي 1495 أصدر الإمبراطور مكسمليان الأول مرسوماً يحرم الحروب الخاصة، وإلا كان عقاب المذنب مزدوجاً- النفي بأمر الإمبراطور والحرم بأمر الكنيسة. ورفض جوتز ذو اليد الحديدية النفي لأنه يخالف الحقوق المتوارثة، ودارت التمثيلية أول أمر حول الصراع بين فارس المتمرد وأمير بامبرج الأسقف. وإذا كان جوته يحب النساء أكثر كثيراً من حبه للحرب، فإنه ركز الاهتمام على أوليده فون فالدورف التي ألهب جمالها وثرأؤها رجالاً كثيراً بالترغيب المشدودة المستهتر. ففي سبيلها نقض أدلبرت فون فايزلنجن، وهو فارس "حر" آخر، تحالفه مع جوتز وفسخ خطبته لماريا أخت جوتز، وإنجاز إلى الأسقف. ولعل جوته تذكر- في حب فايزلنجن المتذبذب- عدم وفائه هو. وأرسل نسخة من التمثيلية إلى فردريكة بيد صديق قانلاً "سيري عن فردريكة المسكينه بعض الشيء أن ترى العاشق الخائن يموت بالسلم" (35).

صفحة رقم : 13813

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايمار -> جوته بروميثيوس

وقد حور المؤلف التاريخ ليطوعه لمسرحيته، فجوتفريد فون برلينجن لم يبلغ في نبلة وشهامته مبلغ جوتز كما صوره جوته؛ ولكن تعديلات كهذه تعد من قبيل الجواز الشعري، شأنها شأن القوافي المشوهة. كذلك يغتفر لجوته ذلك الحديث الخشن المتهور الذي أجراه على لسان بطله تعبيراً عن الفحولة. وحيي أخرجت المسرحية في برلين (1774) أدائها فردريك الأكبر "تقليداً بغيضاً" لتلك "البربرية" التي رآها هو في شكسبير، كما رآها فولتير؛ ثم دعا المسرحيين الألمان أن يلتسوا نماذجهم في فرنسا. وقد وافق هرردر فردريك أول الأمر، وقال لجوته "لقد دمرك شكسبير" (36)، ولكنه بعث بالنسخة المشهورة إلى أصدقائه مشفوعة بالتقريظ العظيم. "أمامكم ساعات من السحر. فهناك قدر غير عادي من القوة والعمق والإخلاص الألماني الأصل في التمثيلية، وإن كانت بين الحين والحين لا تعدو أن تكون تدريجياً ذهنياً" (37). أما الجبل الأصغر فقد حيا جوته بوصفه أسمى تعبير عن حركة "شتورم" وطالب للقراء الألمان أن يسمعوا أخبار فرسان العصر الوسيط، ورموز الخلق الألماني الجبار. ولذا البروتستنت أن يسمعوا أصداء لوثر في "الأخ مارتين"، الذي يشكو من أن نذوره الفقر والعفة والطاعة نذور غير طبيعية، والذي يصف المرأة بأنها "فخر الخليقة وتاجها"، ويهش للخمر لأنها "تبهج قلب الرجل"، ويقلب قولاً مأثوراً قديماً بقوله أن "البهجة أم الفضائل كلها" (38). وحتى أبو جوته، الذي اضطر أن يعاونه في مهنة المحاماة والذي رأى فيه صورة لتدهور سلالة أبيه، اعترف بأنه ربما كان في غير الغلام خير رغم كل شيء.

وفي مايو 1772 كان على المحامي الشاب أن يذهب في مهمة قضائية إلى فنتسلار، مقر محكمة الاستئناف الإمبراطورية. وراح يجول بين الحقول والغابات ومخادع النساء غير مكترث بالفتنة، وهو يرسم ويكتب ويستوعب. وفي فنتسلار التقى بكارل فلهلم بروز اليم، الشاعر والمتصوف، وجبورج كرستيان كستنر، وهو موثق وصفه جوته بأنه "يتسم بالسلوك الهادئ الرصين، وبوضوح الرؤية،... وبالنشاط الرزين الذي لا يكل" (39)،

صفحة رقم : 13814

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايمار -> جوته بروميثيوس

وبلغ من ثقته بالتزقي في وظيفته أنه كان مرتبطاً بفتاة ليززوها. وقد وصف كستنر جوته وصفاً فيه سماحة وكرم: "هو في الثالثة والعشرين، والابن الوحيد لأب غني جداً. وقد تقرر - وفقاً لمشيشة أبيه- أن يمارس المحاماة في المحكمة هنا، أما مشيشته هو فهي أن يدرس هومر وبندار وأي شيء آخر توحى به عبقريته وذوقه وقلبه... والحق أنه صاحب عبقرية أصيلة، ورجل على خلق. وهو صاحب خيال ذو حيوية خارقة، ويعبر عن نفسه بالصور والتشبيهات... ومشاعره عنيفة، ولكنه يملكها عادة. وقناعاته نبيلة، وهو بريء تماماً من الهوى ويسلك كما يحب دون أن يعبا إن كان سلوكه هذا يسر غيره، أو هو السلوك العصري، أو السلوك المباح. وكل ألوان القهر بغيضة في نظره. وهو يحب الأطفال، وفي وسعه أن يلاعهم ساعات بطولها... إنه رجل ممتاز تماماً" (40).

وفي 9 يونيو 1772 التقى جوته بخطيبة كستنر في حفلة رقص ريفية، واسمها شارلوتة بوف. ثم زارها في الغد، ووجد في الأوثنة فتنة جديدة. أما لوتة هذه التي كانت يومها في العشرين فهي أكبر الأخوات في أسرة من أحد شر طفالاً. وكانت الأم ميتة والأب مشغولاً بكسب قوته؛ وقامت لوتة بدور الأم للأطفال الكثيرين. ولم تؤت بهجة الفتاة الصحيحة البدن ونضارتها فحسب، بل زادت عليهما جاذبية المرأة الشابة التي تؤدي في بساطة وأناقة هندام مهام وظيفتها بكفاءة وحب وبشاشة. وسرعان ما وقع جوته في غرامها، فما كان في استطاعته أن يظل طويلاً بغير صورة أنثى تدفئ خياله. ورأى كستنر الموقف، ولكنه لثقته مما يملك أبدى تسامحاً كريماً. أما جوته فقد سمح تقريباً بمزايا الخطيب المنافس، ولكن لوتة كانت دائماً تصده، وتذكره بأنها مخطوبة. وأخيراً طلب إليها أن تختار بينهما، ففعلت، ورحل جوته عن فنتسلار في الغد (11 سبتمبر) دون أن تختلج كبرياؤه إلا لحظة. وظل كستنر صديقه الوفي حتى مماته.

وقبل أن يعود جوته إلى فرانكفورت توقف في ايرنبرايشتاين على الرين، وهي موطن جيورج وصوفي فون لاروش. وكانت لصوفي ابنتان "سرعان

صفحة رقم : 13815

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايمار -> جوته بروميثيوس

ما جذبتني بشدة كبراهما مكسليانة، وإنه لإحساس لذيذ جداً حين يبدأ غرام جديد في التحرك داخلنا قبل أن يخمد القديم تماماً. فعند غروب الشمس يود المرء أن يرى القمر يطلع على الجانب المقابل" (41). على أن مكسليانة تزوجت بيتر برنتانو، وولدت بنتاً رشيقة اسمها بتينا، وقعت في غرام جوته بعد خمسة وثلاثين عاماً. وراض جوته نفسه على حياة فرانكفورت والمحاماة. ولكنه لم يرتض هذه الحياة تماماً، فقد فكر حيناً في الانتحار. يقول:

"كنت أملك فيما أملك من مجموعة كبيرة من السلاح خنجرأ جميلاً جيد الصقل. وكنت أضعه كل ليلة بجوار فراشي، وقبل أن أطفئ الشمعة جربت إن كان في استطاعتي أن أفلح في إغماد السن الحاد بوصتين في قلبي. فلم أوافق في هذه المحاولة قط، أقلعت أخيراً عن الفكرة بضحكي من نفسي، وكففت عن كل أوهامي ووساوسي، وصممت على أن أعيش.

"ولكي أستطيع هذا العيش في بشر اضطررت إلى حل مشكلة أدبية، تتحول فيها كل مشاعري الماضية... إلى ألفاظ. فجمعت لهذا الغرض العناصر التي كانت تعتمل في سنوات، واستحضرت في ذهني الحالات التي أثرت في وعذبتي

أشد تأثير وعذاب؛ ولكن شيئاً لم ينته إلى شكل محدد. فقد افتقدت الحدث، أو الأسطورة، التي يمكن فيها أن ترى هذه الحالات كلاً متكاملًا" (42).

وقد محام من زملائه في فتسلار هذا الحدث الذي يدمج هذه العناصر. ففي 30 أكتوبر 1772 قتل فلهم بروز اليم نفسه ياساً من حبه لزوجة صديق له، بعد أن استعار مسدساً من كستنر. قال جوته وهو يستحضر الحدث "وبمجرد سماعي بنياً موت بروز اليم.... تشكلت خطة "فرتر" في ذهني، وتسابق الكل معاً من جميع الجوانب" (43). ربما، ولكنه لم يبدأ تأليف الكتاب إلا بعد خمسة عشر شهراً. وواصل أثناء ذلك مغازلته لمكسمليانة برنتانو- التي كانت قد انتقلت مع زوجها إلى فرانكفورت- بمثابرة وإصرار جعل الزوج يحتج، فانسحب جوته.

وشتت جهده ألوان مختلفة من المشروعات الأدبية المخففة. فقد داعب

صفحة رقم : 13816

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايمار -> جوته برومبيوس

فكرة قص قصة اليهودي التائه من جديد، وخطط زيارة يقوم بها اليهودي لسبينوزا، وأن يبين أن الشيطان كما تدل جميع الظواهر منتصر على المسيح في العالم المسيحي (44)، ولكن لم يزد على عشر صفحات في "اليهودي التائه". ثم نظم هجائيات في ياكوبي، وفيلاند، وهردر، ولنتس، ولافاتر، ولكنه وفق رغم ذلك على كسب صداقتهم. وشارك في كتاب لافاتر في الفراسة، سمح له بأن يفحص قسامات دماغه، وكانت النتائج مرضية لغوره. وكان حكم السويسري "إن هنا ذكاء، مع حساسية توججه. لاحظ الجبين النشط... والعين السريعة النفوذ والفحص والافتتان... والأنف، الذي يكفي ذاته إعلاناً عن الشاعر.. مع الذقن الفحل، والأذن القوية المتسعة- فمن ذا الذي يرتاب في العبقرية الكامنة في هذا الدماغ؟" (45) ومن ذا الذي يستطيع تطبيق هذه المقاييس الدماغية؟" على أن ياكوبي قال أن هذا ممكن، لأنه بعد أن زار جوته في يوليو 1773 وصفه في رسالة إلى فيلاند بأن "عبقري من قمة رأسه إلى أخمص قدمه، رجل به مس من الجن، كتب عليه أن يسلك وفق أوامر الروح الفردي" (46).

وأخيراً، في فبراير 1774، كتب جوته الكتاب الذي ذاع اسمه في طول أوروبا وعرضها، "الأم الفتي فرتر". وكان قد أطال التفكير فيه، وأطال ترديده في تأملاته وخياله، حتى لقد أطلقه الآن كما يقول "في أربعة أسابيع... اعتزلت الناس كلية، ومنعت زيارة أصحابي" (47). قال لأكرمان بعد خمسين سنة "كان ذلك خلقاً غذوته بدم قلبي كما يفعل طائر البطريق" (48). وقد قتل فرتر ليمنح نفسه السلام.

وكان ملهماً في إيجاز الكتاب. اشتعل شكل الرسائل، محاكاة لقصة رتشردن "كلاريسا" وقصة روسو "جولي" من جهة، ومن جهة أخرى لأن هذا الشكل كان ملائماً للإفصاح عن العاطفة وتحليلها، وربما لأنه في هذا الشكل استطاع أن يستعمل بعض الرسائل التي كتبها من فتسلار لأخته كورنيليا أو لصديقه ميرك. وصددم شارلوتة وكستنر بإطلاقه اسمها الفعلي

صفحة رقم : 13817

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايمار -> جوته برومبثيوس

"لوته على بطله حب واضح أنه يصف غرام جوته بعروس كستنر، وكستنر يقابله في القصة "البرت" الذي صوره المؤلف في إطاره. وحتى اللقاء في المرقص، وزيارة الغد، كانا في القصة كما كانا من قبل في الواقع. "منذ ذلك اليوم تستطيع الشمس والقمر والنجوم أن تسير سيرتها في هدوء، ولكني لا أعي بنهار ولا بليل، وكل العالم من حولي يتلاشى... لم يعد عندي صلوات أتلوها إلا لها" (49). على أن فرتر ليس جوته بالضبط: فهو أكثر عاطفية، وأميل إلى البكاء والكلام المتدفق والثناء لنفسه. ولكي يقود المؤلف القصة إلى نهايتها الفاجعة، اقتضاه ذلك أن يغير فرتر من جوته إلى فلهم يروز اليم. أما اللمسات الأخيرة فهي تحي تاريخ ما حدث: يستعير فرتر، كما استعار يروز اليم، مسدس البرت لينتحر به، وقصة ليسنج "إميليا جالوتي" ملقاة على مكتبة وهو يموت. "ولم يصحبه كاهن" إلى قبره. كانت قصة "الأم الفتى فرتر" (1774) حدثاً في تاريخ الأدب وتاريخ ألمانيا. فقد عبرت عن العنصر الرومانسي في الحركة الزوبعية ودعمته، كما عبرت قصة "جوتز فون برلينجن" من قبل عن العنصر البطولي. واستقبلها الشباب المتمرد بالمديح والمحاكاة، وارتدى بعضهم السترة الزرقاء والصدرة الصفراء البرتقالية كفرتر، وبكى بعضهم كفرتر، وانتحر بعضهم باعتبار الانتحار الشيء "العصري" الوحيد الذي يجلب عمله. واحتج كستنر على الولوغ في أسراره، ولكن لم يلبث أن هدئ، ولم يقل لنا أحد أن شارلوتة شكت حين قال لها جوته "إن اسمك تنطقه آلاف الشفاه المعجبة بكل إجلال" (50). ولم يشارك رجال الدين الألمان في هذا الاستحسان. وأدان واعظ همبورج القصة لأنها دفاع عن الانتحار، أما الراعي جوتسي، عدو ليسنج، فقد حمل على الكتاب، وأدانه ليسنج لعاطفيته المفرطة وافتقاره إلى القصد الكلاسيكي (51). وفي عشاء عام لأي القس ي. ك. هازنكمبف جوته في مواجهته على "تلك القطعة الشريرة من الكتابة"، ثم أردف "ليهد الله قلبك الضال!" وأفحمه جوته بجواب

صفحة رقم : 13818

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايمار -> جوته برومبثيوس

هادئ: "أذكرني في صلواتك" (52). وكان الكتيب أثناء ذلك يكتسح أوروبا في مترجمات عديدة، منها ثلاثة في فرنسا خلال سنوات ثلاث؛ واعترفت الآن فرنسا لأول مرة بأن في ألمانيا أدياً.

ج - الملحد الشاب

كان لرجال الدين بعض العذر في القلق على جوته، لأنه كان في هذه المرحلة يهجر بعداء الكنيسة المسيحية. كتب كستنر في 1772 يقول "أنه يجلب الدين المسيحي، ولكن ليس في الصورة التي يصوره بها لاهوتيونا... إنه لا يتردد على الكنيسة، ولا يتناول القربان، ونادراً ما يصلي." (53) وكان جوته يكره على الأخص تأكيد المسيحية على الخطيئة والندم (54)، ويؤثر أن يأنم دون ندم. كتب إلى هررد (حوالي 1774) يقول "ليت تعليم المسيح كله لم يكن هذا الهراء الذي يثير سخطي بصفتي بشراً، مخلوقاً مسكيناً محدوداً ذا رغبات وحاجات!" (55) ووضع مخططاً لمسرحية عن برومبثيوس رمزاً للإنسان يتحدى الآلهة، ولكنه لم يزد على مقدمته صدمت ياكوبي وأبهجت ليسنج. وما بقي منها هو أكثر تعجرات جوته المعادية للدين تطرفاً. يقول برومبثيوس:

غط سماءك يا زيوس بالضباب الملبد بالغيوم،

واله- كما يلهو طفل يقطع رؤوس الشوك

على شجر البلوط وقمم الجبال!

فأنت لا بد تارك أرض قائمة،

وكوخي، الذي لم تبنيه،

ومدفأتي التي تحسدني على توهج نارها.

لست أعرف تحت السماء من هو أفقر منكم أيها الآلهة!

إنكم تغذون جلالكم بالجهد من الضحايا وصلوات الرغبات،

ولولا حمق الأطفال والمتسولين المتعللين بالآمال

لمانت هذه الجلالة جوعاً.

صفحة رقم : 13819

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايما -> جوته بروميثيوس

حين كنت طفلاً لا أعرف في ماذا أفكر،

كانت عينايا الضالتان تتطلعان إلى الشمس،

كان لها أذنأ تصيخ السمع إلى شكاتي،

أو قلباً كقلبي يرق لنفس معناة.

فمن ترى أعانني على غطرسة الطاغية؟

ومن أنقذني من الموت، من العبودية؟

أليس هو قلبي المقدس المضطرب،

هو الذي صنع هذا كله وحده،

ولكنه لحدائته وطيبه ولأنه كان مخدوعاً،

فهو يرفع الشكر لذلك النائم هناك؛

أمجدك؟ لماذا؟

هل خففت مرة أحزان المتقلين بالهموم؟

هل كففت مرة دموع المعذبين؟

ألم يفطرنني بشراً؟

ذلك الزمان الجبار والقدر السرمدى-

سيدي وسيداك...

هاأنذا قاعد هنا، أصنع الرجال على شاكلتي،

سلالة شبيهة بي،

تحزن وتبكي، تفرح وتمرح،

وتزدريك كما أزدريك.

ثم انتقل جوته ببطء من حضيض الإلحاد المغرور هذا إلى "حلولية" سبينوزا الأكثر تهذيباً. روى لافاتر أن "جوته قال لنا أشياء كثيرة عن سبينوزا ومؤلفاته... فقد كان رجلاً غابية في الإنصاف والاستقامة والفقير... وكان الربوبيين المحدثين فقد أخذوا آراءهم عنه أولاً... وأضاف جوته أنه رسائله أطرف ما عرف العالم كله عن الاستقامة وحب البشر" (56)،

صفحة رقم : 13820

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايمار -> جوته بروميثيوس

وبعد اثنين وأربعين عاماً قال جوته لكارل تسلتر إن أكثر الكتاب تأثيراً فيه هم شكسبير وسبينوزا ولينايبوس (57) وفي 9 يونيو 1785 كتب إلى ياكوبي بتسلمه كتابه "في تعاليم سبينوزا"، وتكشف مناقشته لتفسير ياكوبي لهذه التعاليم عن دراسة مستقبضة للفيلسوف- القديس اليهودي. كتب يقول "إن سبينوزا لا يبرهن على وجود الله، إنه يبرهن على أن الوجود (حقيقة المادة- العقل) هو الله. فليرمه غيري لهذا السبب بالإلحاد، أما أنا فأميل إلى أن أصفه وأنتي عليه رجلاً تقياً جداً، لا بل مسيحياً جداً!... وأنا أخذ عنه أصح المؤثرات في تفكيري وسلوكي" (58). وقد علق جوته في سيرته الذاتية على رده على ياكوبي بقوله: "كنت لحسن الحظ قد أعددت نفسي... بعد أن انتحلت إلى حد ما أفكار وعقل رجل خارق للعادة... وهذا العقل، الذي كان قد أثر في تأثيراً حاسماً جداً، وكتب له أن يؤثر

تأثيراً عميقاً جداً في أسلوب تفكيري كله، هو سبينوزا. ذلك أنني بعد أن بحثت في العالم عبثاً عن وسيلة لتطويع طبيعتي الغريبة، وقعت في النهاية على كتاب "الأخلاق" لهذا الفيلسوف... فوجدت فيه مسكناً لعواطف المشيوبة، وتفتحت أمامي نظرة واسعة حرة تشرف على العالم الحسي والخلقي... ولم تبلغ بي الجرأة قط مبلغ الاعتقاد بأنني فهمت كل الفهم رجلاً... ارتقي، بدراساته الرياضية والربانية، إلى ذري الفكر، رجلاً يلوح أن اسمه حتى في يومنا هذا، يعين الحد الذي تقف عنده كل المحاولات التأملية" (59).

وقد أضاف مزيداً من الدفء لعقيدته الاسبينوزية في الحلول (وحدة الوجود) بولعه الشديد بالطبيعة، ولم يكن هذا الولع ابتهاجاً فحسب بمرأى الحقول النضرة أو الغابات الغامضة أو النباتات والأزهار المتكاثرة في تنوع غزير، بل أنه عشق أيضاً حالات الطبيعة الأكثر صرامة، وأحب أن يشق طريقه خلال الريح أو المطر أو الثلج، ثم صعوداً إلى قمم الجبال الخطرة. وكان يتحدث عن الطبيعة كأنها أم يرضع من صدرها رحيق الحياة ونكهتها. وقد عبر فيملحة من الشعر المنشور سماها "الطبيعة" (1780)، بوجدان

صفحة رقم : 13821

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايمار -> جوته بروميثيوس

و
ديني، عن استسلامه المتواضع للقوى الخلاقة المدمرة التي تكتنف الإنسان، واندماجه السعيد فيها:

"الطبيعة! إنها تكتنفنا وتحضرنا- ونحن نستطيع الخطو خارجها، ولا التعمق في داخلها.

إنها نتلقانا، دون توسل إليها ولا تحذير، في حلبة رقصها، ثم تراقفنا في رقص سريع حتى تنهك قوانا ونخر من بين ذراعها..

"إنها لا تفتأ تخلق الأشكال الجديدة، فما هو موجود الآن لم يكن موجوداً قط من قبل،

وما فات لن يعود؛ الكل جديد، ومع ذلك فهو دائماً القديم.

إنها تبدو وكأنها دبرت كل شيء للفردية، ولكنها لا تعبأ مثقال ذرة بالأفراد،

إنها بانية أبدأ، هادمة أبدأ، ومصنعة لا سبيل للوصول إليه...

إنها تملك الفكر؛ وهي تتأمل باستمرار، لا كإنسان، بل كالطبيعة.

إنها لها عقلا كلي الشمول خاصاً بها؛ وما من أحد يستطيع النفوذ إليه...

إنها تسمح لكل طفل بأن يعبث بها، ولكل أحمق بأن يحكم عليها،

والآلاف تعثر أقدامهم ولا يرون شيئاً، إن فرحتها بالكل.

إنها رحيمة، وأنا أتني عليها وعلى كل أعمالها. إنها حكيمة هادئة.

لا يستطيع المرء أن يستخلص منها أي تفسير، أو ينتزع منها عطية لا تعطيتها بمشيتها الحرة.

لقد وضعتني هنا، وسوف تفودني بعداً. وأنا أوكل إليها نفسي، ولها أن تفعل بي ما تشاء.

فهي لن تكره صنعة يدها" (60).

وفي ديسمبر 1774 توقفت الدوق كارل أوبست بفرانكفورت في الطريق بحثاً عن عروس في كارلسروهي. وكان قد قرأ "جوتز فون برليشنجن" وأعجبته، فدعا مؤلفها للقاءه. وذهب جوته، ووقع من نفس الدوق موقعاً طيباً، وسأله الدوق نفسه ألا يجوز أن يصبح هذا العبقرى الوسيم المهذب نجماً ساطعاً في بلاط فايمار. وكان عليه أن يعجل بالرحيل، ولكنه طلب إلى جوته أن يلتقي به ثانية في رجوعه من كارلسروهي.

صفحة رقم : 13822

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايمار -> جوته بروميثيوس

كان جوته كثير الكلام عن القدر، قليلة جداً عن المصادفة. ولعله لو سئل لأجاب أن القدر - لا المصادفة - هو الذي جاء به إلى الدوق، وأنه هو الذي صرفه عن حسن للى شوثيمان إلى مخاطر فايمار وفرصها المجهولة. أما للى هذه فكانت ابنة تاجر غني في فرانكفورت. وقد دعى جوته إلى حفل استقبال في بيتها بعد أن أصبح الآن سبعاً من سباع المجتمع الراقي. وعزفت للى على البيانو عزفاً رائعاً، واتفأ جوته على ركن منه وراح يحدق على مهل في مفاتها ذات السنة عشر ربيعاً وهي تعزف. "كنت أحس أنني أشعر بقوة جذابة غاية في الرقة... ثم ألفنا أن نلتقي... وأصبحنا الآن ولا غنى للواحد عن صاحبه... وملكني شوق لا سبيل إلى مقاومته (61). فما أسرع ما ترتفع هذه الحمى الشهيرة، التي فجرتها حساسية شاعر. قبل أن يدرك معنى ما فعل، كان قد خطبها رسمياً (أبريل 1775). أما للى التي ظنت أنها اقتنصته وأمنته، فراحت تعابث غيره. وشهد جوته ذلك فغلغت مراحل غيظه.

في هذه الفترة بالضبط مر صديقان هما الكونت كرسنتيان والكونت فريدريش تسو شتولبرج بفرانكفورت في طريقهما إلى سويسرة. واقترحا على جوته أن ينضم إليهما. وحثه أبوه على الذهاب ومواصلة الرحلة إلى إيطاليا. "وانفصلت عن للى بعد أن أفضت إليه ببعض السر ولكن دون أن استأذن قبل الرحيل" (62).

وقد بدأ الرحلة في مايو 1775، والتقى بالدوق ثانية في كارلسروهي، فدعاه بصفة نهائية إلى فايمار. ومضى إلى زيورخ، حيث التقى بلاقاتير وبودمير. وتسلق سانت جوتهارد وتطلع باشتياق إلى إيطاليا، ثم تسلطت على خياله من جديد صورة للى، فترك أصحابه ويمم شطر وطنه، وفي سبتمبر كانت للى بين زراعيه. ولكن ما أن خلا إلى نفسه في حجرة حتى عاوده خوفه القديم من الزواج سجنأ وركوداً. وأنكرت للى تردده، فاتفقا على فسخ خطبتهما، وفي 1776 تزوجت برنهارد فون توركهايم. أما الدوق الذي ألم بفرانكفورت في طريق عودته من كارلسروهي

صفحة رقم : 13823

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايمار -> جوته بروميثيوس

فقد عرض على جوته أن يرسل إليه عربة تقيه إلى فايما. ووافق جوته، ودبر أمره، وانتظر اليوم الموعد. ولكن العربة لم تأت. أفكان ذلك عبثاً وخديعة. وبعد أن قضى أياماً من التلبث المغيظ انطلق في رحلته إلى إيطاليا. ولكن العربة الموعودة لحقته في هيدلبرج، وقدم مبعوث الدوق التفسيرات والاعتذارات، فقبلها جوته. وفي 7 نوفمبر 1775 وصل إلى فايما، وكان يومها في السادسة والعشرين، ممزقاً كعادته دائماً بين إله الغرام والقدر، تهفو نفسه إلى النساء ولكنه مصمم على أن يصير إنساناً عظيماً.

صفحة رقم : 13824

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايما -> هرذر

4- هرذر

1776-1744

لم يمض شهر على وصول جوته إلى فايما حتى أنهى إلى الدوق اقتراحاً مشفوعاً بموافقته الحارة، هو اقتراح فيلاندا بأن تعرض على يوهان جوتفريد هرذر وظيفة المشرف العام على اكليروس الدوقية ومدارسها. ووافق الدوق. أما هرذر فقد ولد بمورنجن في بروسيا الشرقية (25 أغسطس 1744)، فهو من حيث الجغرافيا وضباب البلطيق قريب إيمانويل كانط. وكان أبوه معلماً فقيراً وقائد فرقة تريتيل تقوى النزعة، وهكذا كان للصبي أوفر نصيب من الشدائد. فمنذ كان في الخامسة كان يشكو ناسوراً في عينه اليمنى. واضطرته ضرورة المشاركة بعد قليل في موارد الأسرة إلى ترك المدرسة والاشتغال سكرتيراً وخادماً لسبستيان تريشو، الذي كان يكسب رزقاً طيباً بتأليف كتيبات في التقوى. وكان لديه مكتبة استوعبها يوهان. فلما بلغ الثامنة عشرة أرسل إلى كونجزبرج لإزالة الناسور ولدراسة الطب في الجامعة. على أن الجراحة أخفقت، وقلبت فصول التشريح معدة الشاب فأنصرف عن الطب إلى اللاهوت. وتصادق مع هامان الذي كان يعلمه الإنجليزية مستعملاً هاملت نصاً، وحفظ هرذر المسرحية كلها تقريباً عن ظهر قلب. واختلفت إلى محاضرات كانط في الجغرافيا والفلك وفلسفة فولف. وبلغ من حب كانط له أنه أعفاه من الرسم الذي يحصل من الطلبة نظير حضورهم المحاضرات. وكسب هرذر قوته بالترجمة وتدريس التلاميذ الخصوصيين، ثم قام بالتدريس في مدرسة

صفحة رقم : 13825

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايمار -> هرذر

الكتدرائية بمدينة ريجا من سن العشرين إلى سن الخامسة والعشرين. وحين بلغ الحادية والعشرين رسم قسيساً لوثرياً، وفي الثانية والعشرين أصبح ماسونياً (63)، وفي الثالثة والعشرين عين مساعداً للراعي في كنيسة قرب ريجا. ودخل عالم النشر في الثانية والعشرين بكتاب في الأدب الألماني الحديث، ثم أضاف إليه جزءاً ثانياً وثالثاً بعد عام. وراعت ثقافة المؤلف الشاب كانط وليسنج ونقولاي ولافاتر - امتدحوا دعوته إلى أدب قومي منحر من الوصاية الأجنبية.

واستيق هرذر الموضة "الفرترية" بوقوعه في غرام يائس بامرأة متزوجة. واشتدت معاناته من الاكتئاب والغم في بدنه وعقله، فمنحه رؤسؤه إجازة ينقطع فيها عن عمله، ووعده بأن يوظفه من جديد براتب أعلى عند عودته. وافترض مالاً، ثم غادر ريجا (23 مايو 1769) ولم يرها ثانية قط. وركب البحر إلى نانت، وأقام فيها أربعة أشهر، ثم مضى إلى باريس والتقى بديدرو ودالامبير، ولكن أحداً لم يستطع إقناعه بالانحياز إلى التنوير الفرنسي. وذلك أن ميله الفطري كان جمالياً (استطيقياً) أكثر منه عقلياً. ففي باريس بدأ يجمع الشعر البدائي، ووجد فيه متعة تفوق ما في أدب فرنسا الكلاسيكي. وقرأ كتاب مكفرس: "أوسيان" في ترجمة ألمانية، وحكم بأن هذه التقليدات البارعة أروع من معظم الشعر الإنجليزي الحديث بعد شكسبير. ثم بدأ في 1769 مقالات في النقد الفني والأدبي أطلق عليها اسم (الغياض)، ونشر ثلاثة مجلدات منها في حياته بعنوان (غابات من النقد). وفي فبراير 1770 أنفق أربعة عشر يوماً في اتصال مثمر مع ليسنج في همبورج. ثم صاحب أمير هولشتين-جوتورب معلماً ورفيقاً. وجاب معه ألمانيا الغربية. وفي كاسل التقى برودلف راسبي، أستاذ الآثار والمؤلف القادم لكتاب "قصة البارون مونتسوازرن عن أسفاره وحملاته العجيبة في روسيا" (1785). وكان راسبي قد استرعى اهتمام ألمانيا بكتاب توماس برسي "مخلفات من الشعر الإنجليزي القديم" سنة ظهوره (1765).

صفحة رقم : 13826

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايمار -> هرذر

وتقوى هرذر في إيمانه بأن واجب الشعراء أن يهجروا الدعوة الفنكلمانية، اللسنجية لتقليد الكلاسيكيات اليونانية، وأنه أخلق بهم أن يتشبثوا بالمنابع الشعبية لتقليد أمتهم في الشعر الفولكلوري والتاريخ القصصي الغنائي. وانتقل هرذر مع الأمير إلى دارمشتات، فالتقى بجماعة "الحساسيين" فيها. وراقه إعلاؤهم شأن العاطفة، وخص بالتقدير عواطف كارولينية فلاخسلاند، الأت اليتيمة لزوجة عضو المجلس الخاص أندرياس فون هسي، ودعي هرذر لوعظ في كنيسة محلية، فسمعتة، وتأثرت بوعظه، وتمشياً معاً في الغابات، وتلامست أيديهما، فانعطف قلبه، وعرض عليها الزواج ولكنها نهته إلى أنها تعيش على صدقة أختها، وأنها لن تستطيع أن تدفع له مهرأ، ورد هو بأنه مثل بالدين، وأن المستقبل أمامه غامض جداً، وأنه ملتزم بمرافقة الأمير. وتعاهداً بالأ تكون خطبة رسمية، ولكنهما اتفقا على تبادل الحب بالرسائل. ثم رحلت جماعته إلى مانهايم في 27 أبريل 1770. فلما وصلوا إلى ستراسبورج ترك هرذر الأمير رغم شوقه لرؤية إيطاليا. ذلك أن الناسور الذي في غدته الدمعية سد القناة الدمعية الموصلة إلى المنخر فأصابه بألم لا يهدأ. ووعده الدكتور لوبشتين أستاذ أمراض النساء في الجامعة بأن الجراحة ستزيل الانسداد في ثلاثة أسابيع. واستسلم هرذر، دون مخدر، للثقب المنكرر لقناة خلال العظم إلى ممر الأنف. ولكن الجرح بدأ يتلوث، وظل هرذر ستة أشهر تقريباً حببوس حجرته في الفندق وقد فت في عضده فشل

الجراحة، واران عليه اكتتاب بسبب شكوكه في مستقبله. في هذه الحالة النفسية من المعاناة والتشاؤم، التي بجوته (4 سبتمبر 1770). ويذكر جوته هذه الفترة فيقول "أتيح لي أن أحضر الجراحة وأن أكون نافعا في نواحي كثيرة" (64). وقد ألهمه رأي هرذر القائل بأن الشعر ينبغي غريزيا في الشعب، لا من "بضعة رجال مهذبين متقفين" (65). وحين رحل هرذر وقد نفذ ما معه من مال، "اقترض جوته مبلغاً من أجله" رده هرذر فيما بعد.

صفحة رقم : 13827

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايمار -> هرذر

ثم قبل على مضض دعوة من الكونت فلهلم تسوليبي، حاكم إمارة شامبورج-ليبي الصغيرة في شمال غربي ألمانيا، ليعمل واعظاً لبلاطه ورئيساً للمجلس الكنسي في عاصمته المتواضعة بوكيبورج. وفي أبريل 1771 غادر هرذر استراسبورج، وزار كارولينه في دارمشتات وجوته في فرانكفورت، ووصل إلى بوكيبورج في الثامن والعشرين. فوجد الكونت حاكماً "مستبداً مستتيراً" من طراز إداري صارم، أما المدينة فكانت قروية في كل شيء إلا الموسيقى، التي كان يحسن تزويدها بها يوهان كريستوف فريدرش باخ، وراض هرذر نفسه عن الانفصال عن التيار الرئيسي للفكر الألماني، ولكن الكتب التي أصدرها في مكانه الصغير أثرت تأثيراً قوياً في ذلك التيار، وأسهمت في تشكيل الأفكار الأدبية للحركة الزوبعية. وقد أكد للكتاب الألمان أنهم إن التمسوا الإلهام في جذور الأمة وحياتة الشعب فسوف يأتي الوقت الذي يبزون فيه الفرنسيين كل ما حققوه. وقد تحققت هذه النبوءة في الفلسفة والعلم. وقد ظفر ببحثه في أصل اللغة (1772) بالجائزة التي قدمتها أكاديمية برلين عام 1770. ومع أن هرذر كان يجهر بتدنييه مخلصاً، إلا أنه رفض الفكرة التي تزعم أن اللغة من صنع الله وحده؛ وقال أنها من صنع البشر، وأنها نتجت طبيعياً من عمليات الإحساس والتفكير. وألمع أن اللغة والشعر كانا واحداً باعتبارهما تعبيرين عن الانفعال، وأن الأفعال، المعبرة عن الفعل، كانت أول أقسام الكلام". وفي مجلد آخر سماه "فلسفة أخرى مضافة إلى فلسفات التاريخ" (1774) عرض التاريخ على أنه "الفلسفة الطبيعية للأحداث المتعاقبة" فكل حضارة هي وجود بيولوجي له مولده وشبابه ونضجه وانحلاله وموته؛ ويجب أن تدرس من وجهة نظر عصرها، دون تحيزات مبنية على بيئة وعصر آخرين. وقد أعجب هرذر إعجاب الرومانتيكيين عموماً بالعصور الوسطى لأنها زمان الخيال والوجدان، والشعر والفن الشعبيين، والبساطة والسلام الريفيين؛ وعلى نقيض ذلك كانت أوروبا بعد النهضة عبارة عن عبادة للدولة، وللمال، وللترف الحضري، وللتكلف والافتعال، وللرذيلة. وانتقد التنوير لأنه عبادة لوثن العقل، وقارن بينه وبين ثقافات

صفحة رقم : 13828

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايمار -> هرذر

اليونان والرومان مقارنة لا تخدم التتوير. ولقد أبصر هردير يد الله كما أبصرها بوسويه في العملية التاريخية كلها، ولكن الواعظ المفوه كان أحياناً ينسى لاهوته، ويرى أن "التغيير العام للعالم كان يقوده الإنسان أقل كثيراً مما يقوده قدر أعمى(66)".

وحمله شعوره بالوحدة إلى أن يطلب كارولينة وزوج أختها أن يأذنا له بالحضور والزواج منها رغم ضالة دخله. فوافقا، وزف الحبيبان في دارمشتات في 2 مايو 1773. ثم عادا إلى بوكيبورج، واقترض هردير بعض المال ليجعل دار القسيس بيتاً مبهجاً لزوجته. وقد بذلت له زوجته الخدمة والحب الخالص مدى الحياة. وبفضل وساطتها انقشع الفتور الذي ران من قبل على المودة بين هردير وجوته، وحين وجد جوته نفسه في موقف يسمح له بتزكية الراعي لوظيفة أسخى عطاء، أسعده أن يفعل ذلك. وفي أول أكتوبر 1776 وصل هردير وكارولينة إلى فايمار، وانتقلا إلى البيت الذي أعده لهما جوته. ولم يبق الآن سوى عضو واحد ليكتمل عقد الرباعي الذي سيضع شهرة فايمار.

صفحة رقم : 13829

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايمار -> شيلر في سني تطويقه

5- شيلر في سني تطويقه

1787-1759

ولد يوهان كريستوف فريدريش شيلر في 10 نوفمبر 1759 بمدينة مارباخ في فورتمبرج. وكانت أمه ابنة صاحب فندق الأسد، وأبوه جراحاً ثم ضابط برتبة الكابتن في جيش الدوق كارل أويجين؛ وكان ينتقل مع فوجه، ولكن زوجته أقامت أكثر الوقت في لورش أولود فجزبرج. وفي هاتين المدينتين تلقى فريدريش تعليمه. وقد نذره أبواه للقسوسية، ولكن الدوق أفنعهما بأن يبعثا به وهو في الرابعة عشرة إلى كارلشولي (مدرسة كارل) في لود فجزبرج (ثم في شتونجارت)، حيث يعد أبناء الضباط لمهنة المحاماة أو الطب أو الجندية. وكان نظام المدرسة نظاماً عسكرياً صارماً، والدراسات مجافية لطبيعة غلام فيه حساسية مرهفة تقرب من حساسية الفتيات. وكان رد فعل شيلر أن تشرب كل ما وجد إليه سبيلاً من

صفحة رقم : 13830

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايمار -> شيلر في سني تطويقه

الأفكار الثورية، ثم صيها (1770-1789) في مسرحية "للصوص" التي فاقت جوتز فون برلينجن تعبيراً عن الحركة الزوبعية.

وفي 1780 تخرج شيلر في الطب، وأصبح جراحاً لفوج في شتوتجارت. وكان راتبه ضئيلاً، وسكن حجرة واحدة مع الملازم كايف. وكانا يجهزان طعامهما وأكثره من السجق والبطاطس والخس، ثم أن النبيذ في المناسبات السارة. وقد شق على نفسه ليكون رجلاً له كل حس الجندي بالمعركة والجعة والمواخير، وزار المومسات اللاتي يختلفن إلى المعسكر (67)؛ ولكنه لم يكن يسيغ الابتذال والسوقية، فالنساء في نظره المثالية أسرار غامضة مقدسة يجب أن يدنو منها الرجل في إجلاله ورعدة. وكانت صاحبة الدار واسمها لويزة فيشر أرملة في الثلاثين، ولكنها إذا عزفت على الهاريسيكورد "فارقت روعي جسدي التراي الفاني" (68)، وتمنى لو "أنني التصقت إلى الأبد بشفتيك"... لا تشرب أنفاسك" (69). وهي طريقة مبتكرة في الانتحار.

وحاول عبثاً أن يجد ناشراً لمسرحية "للصوص"، فلما أن أخفق، وفر واقترض ثم طبعها على نفقته (1781). وقد أدهش نجاحها الناس حتى مؤلفها ذا الاثني والعشرين ربيعاً. وفي رأي كارليل أنها بدأت "عصراً في الأدب العالمي" (70)، ولكن ألمانيا الوقور صدمها أن المسرحية لم تترك ناحية من نواحي الحضارة الراهنة إلا إدانتها. وذكرت المقدمة التي صدر بها شيلر تمثيلته أنها تبين عظمة الضمير وأذى التمرد.

وخلاصة التمثيلية أن كارل مور، وهو الابن البكر للكونت المسن مكسمليان فون مور، يخصه أبوه بحبه لما اتسم به من مثالية وسماحة خلق؛ ومن ثم يحسده ويبغضه أخوه فرانتن. ويرحل كارل ويدخل جامعة ليبزج، وينتشر مشاعر التمرد التي تضرب بها صدور شباب أوروبا الغربية. فلما ألح الدائنون في مطالبته بالدين، راح يندد بعباد المال القساة الذين "يلعنون الصدوقي الذي يقصر في الحضور إلى الكنيسة بانتظام، ومع أن تقواهم لا تخرج عن عد مكاسبهم، المجلوبة بالربا، على مذبح الكنيسة ذاته" (71).

صفحة رقم : 13831

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايمار -> شيلر في سني تطويقه

ثم يفقد كل إيمان بالنظام الاجتماعي القائم، وينضم إلى عصابة من اللصوص، ويصبح زعيماً لها، ويقسم يمين الولاء لها حتى الموت، ثم يهدي ضميره بلعب دور روبن هود. ويصفه أحد أفراد العصابة بهذه العبارات:

"إنه لا يقتل كما تقتل طمعاً في شيء يسلبه، أما المال... فيبدو أنه لا يعبأ به مثقال ذرة، فتألت الغنيمة الذي هو حق خالص له يعطيه لليتامى، أو ليعين به شباب الكلية المبشرين بمستقبل مرموق. أما إذا وقع في برائته عين من أعيان الريف الذين يسومون فلاحهم سوء العذاب كأنهم الأنعام، أو وغد يرقل في فاخر الثياب ممن يعوجون القضاء ليخدم مآربهم... أو أي رجل من هذا النوع-عندها يا بني يتجلى على فطرته ثائراً هادراً كأنه شيطان رجيم" (72).

ويندد كارل برجال الدين لأنهم يتملقون السلطان ويعبدون صنم المال سراً، "وخيرهم لا يتردد في أن يخون الثالث الأقدس كله في سبيل عشرة شواقل" (73).

ويدبر فرانتس في غضون هذا إبلاغ الكونت في رسالة كاذبة أن كارل مات. ويصبح فرانتس الوريث لثروة أبيه، ويتقدم لخطبة إميلييا التي تحب كارل حياً أو ميتاً. ويدس فرانتس السم لأبيه، ويهدئ وخز ضميره بالإلحاد: "لم يثبت بعد أن فوق هذه الأرض عيناً ترقب كل ما يجري عليها... ليس هناك إله (74). ويسمع كارل بجرائم أخيه، فيقوم عصابته إلى قلعة الأب ويضرب حصاراً على فرانتس، فيتضرع هذا إلى الله مستمياً في التماس العون، فإذا لم يصله عون قتل نفسه. وتقدم أميلييا نفسها لكارل شريطة أن يقلع عن حياة اللصوصية؛ وهو تواق إلى هذا، غير أن أتباعه

يذكرونه بتعهده البقاء معهم حتى الموت. فيحترم تعهده، وينصرف عن أميليا؛ ولكنها تتوسل إليه أن يقتلها، فيستجيب لها، وبعد أن يرتب أن ينال عامل فقير المكافأة المرصودة للقبض عليه، يستسلم للقانون وللمشقة. وهذا كله بالطبع هراء. فالشخوص والأحداث يستحيل تصديقها،

صفحة رقم : 13832

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايمار -> شيلر في سني تطويقه

والأسلوب منمق طنان، والخطب لا تطاق، والفكرة عن المرأة مثالية على نحو رومانسي. ولكنه هراء قوي. ذلك أن فينا كلنا تقريباً تعاطفاً خفياً مع أولئك الذين يتحدون القانون؛ فنحن أيضاً نحس أنفسنا أحياناً وقد ضيقت علينا الخناق وأرهقتنا آلاف القوانين والأوامر التي تكبلنا أو تغرمننا وقد طال اعتيادنا على المنافع التي وهبنا إياها القانون حتى أننا لنأخذها قضايا مسلمة؛ ونحن لا نشعر بتعاطف طبيعي مع الشرطة حتى نقع ضحية من ضحايا التمرد على القانون. ومن ثم وجدت التمثيلية المطبوعة قراء متحمسين واستحساناً حاراً، ولم تمنع شكاوي الوعاظ والمشرعين، الذين زعموا أن شيلر مجد الجريمة، أحد النقاد من أن يحييه لأنه يعد بأن يصبح شكسبيراً "ألمانيا" (75)، ولا منعت المخرجين من أن يقترحوا إخراج المسرحية.

وعرض البارون فولفجانج هريبرت فون دالبرج أن يقدمها على المسرح القومي بمانهايم إذا وضع لها شيلر نهاية أسعد. ففعل: واقتضى التعديل أن يتزوج مور أميليا بدلاً من أن يقتلها. وتسلل شيلر من شتوتجارت دون أن يستأذن الدوق كارل أو بجين قائده الحربي ليحضر العرض الأول للمسرحية في 13 يناير 1782. وأقبل الناس من فورمز ودارمشتات وفرانكفورت وغيرها من المدن ليشهدوا التمثيل. ولعب أوجست افلاندر دور كارل، وكان من الممتع ممثلي الجيل؛ وأبدى النظارة استحسانهم بالصياح والتشجيع، ولم تلق مسرحية ألمانية أخرى من قبل مثل هذا الاحتفاء (76)، وكانت قمة في الحركة الزووعية. وبعد المسرحية كرم الممثلون شيلر وتودد إليه ناشر من مانهايم، وشق عليه أن يعود إلى شتوتجارت ويستأنف حياته جراحاً للفوج. وفي شهر مايو تسلل ثانية إلى مانهايم لشهد عرضاً آخر لمسرحية ثانية. فلما أن عاد ثانية إلى فوج، وبخه الدوق وحظر عليه تأليف المزيد من التمثيليات. ولم يقو على تقبل هذا الحظر. ففي 22 سبتمبر 1782 هرب إلى مانهايم في صحبة صديق يدعى أندرياس سترایشر. وهناك قدم لدالبرج تمثيلية جديدة سماها "مؤامرة فييسكو في جنوه". وقرأها على الممثلين،

صفحة رقم : 13833

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايمار -> شيلر في سني تطويقه

فحكّموا أنها هابطة مؤسفاً عن مستوى "اللصوص"، وقال والبرج أنه قد يخرج المسرحية إذا راجعها شيلر؛ فعكف شيلر أسابيع على هذه المهمة، ولكن دالبرج رفض حصيلة هذا الجهد. ووجد شيلر نفسه لا يملك فلساً. وأنفق سترایشر

على إعاشته النقود التي ادخرها ليدرس الموسيقى في هامبورج. فلما نفذت، رحب شيلر بدعوة للإقامة في باورباخ في كوخ تملكه السيدة هنرييتا فون فولتسوجن. وهناك كتب تمثيليته الثالثة سماها "الدسييسة والحب". ووقع في غرام الأنسة لوته فون فولتسوجن البالغة من العمر ستة عشر ربيعاً. ولكنها أثرت عليه منافساً في حبها. وظفرت "فبيسكو" التي نشرت في غضون هذا بتوزيع جيد. وندم دالبرج، وأرسل إلى شيلر دعوة ليكون كاتب التمثيليات المقيم لمسرح مانهايم برانتب قدره ثلاثمائة فلورن في العام. فوافق (يوليو 1783).

ونعم شيلر بعام من السعادة القلقة رغم كثرة ديونه التي عجز عن سداها ورغم ما أصيب به مرة من مرض خطير. وعرضت فبيسكو على المسرح أول مرة في 11 يناير 1784، وقد أفسدها ما أصر عليه دالبرج من نهاية سعيدة لا يمكن تصديقها، ولم تثر المسرحية أي حماسة من النظارة. بيد أن "الدسييسة والحب" كانت أفضل بناء، وأقل خطباً، وأظهرت حساً متزايداً بالمسرح؛ وقد رأى فيها البعض، من وجهة النظر المسرحية، أفضل المآسي الألمانية قاطبة (77). وبعد أن فرغ الممثلون من العرض الأول (15 أبريل 1784) ضج النظارة بتصفيق صاخب حمل شيلر على أن يقوم من مقعده في إحدى المقصورات وينحني للجماهير.

كانت سعادته مفرطة قصيرة الأجل. ذلك أنه لم يكن بطبيعته صالحاً للتعامل مع الممثلين، الذين كانوا على شاكلته تقريباً في عصبيتهم؛ فقد قسا في الحكم على أدائهم، ولا مهم على عدم حفظ أدوارهم حفظاً دقيقاً (78). ولم يستطع أن يكمل تمثيلية ثالثة سماها "دون كارلوس" في الزمن المشروط. فلما أن قارب عقده "كاتباً للمسرح" الانتهاء في سبتمبر 1784 رفض دالبرج تجديده. ولم يكن شيلر قد ادخر شيئاً، فعاد من جديد يواجه الإملاق والدائنين الذين فرغ صبرهم.

صفحة رقم : 13834

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايما -> شيلر في سني تطويقه

في هذه الفترة أو نحوها نشر بعض "الرسائل الفلسفية" التي تدل على أن الشكوك الدينية قد أضيفت إلى مشكلاته الاقتصادية. فهو لم يستطع تقبل اللاهوت القديم، ومع ذلك اشتمأت روحه الشاعرة من الإلحاد المادي، كذلك الذي عبر عنه دولباخ في كتابه "مذهب الطبيعة" (1770). ولم يعد قادراً الآن على أن يصلي، ولكنه كان يحسد القادرين على الصلاة؛ وقد وصف في إحساس بالخسارة الفادحة ذلك العزاء الذي يهبه الدين لآلاف النفوس في ظروف الألم والحزن والاحتضار (79). على أنه احتفظ بإيمانه بحرية الإرادة، وبالخلود، وبإله مجهول، بانياً هذا كله، كما بناه كانت، على الوجدان الأخلاقي. وقد أعرب في عبارة لا تنسى عن مبدأ المسيح الأخلاقي "حين أبغض انتزع شيئاً من نفسي، أما حين أحب فإنني أزيد ثراء بما أحب. والصفح معناه أن أتلقى ثروة فقدت. وكرهة البشر إنما هي انتحار بطيء" (80).

وسط هذه الظروف المعقدة جمل كرستيان جوتفريد كورنر حياة شيلر بصداقة من أروع الصداقات في تاريخ الأدب. ففي يونيو 1784 أرسل إلى شيلر من ليبزج رسالة تتم على الإعجاب الحار، مشفوعة بصور له، ولخطيبته مناشتوك، وأختها دوراً، وخطيب دوراً لودفج هوبر، ومحفة جيب طرزتها منا. أما كورنر هذا فقد ولد في 1756 (قبل مولد شيلر بثلاثة أعوام) لراعي كنيسة القديس توماس التي قاد فيها باخ قبل جيل الكثير من الموسيقى الخالدة. وقد نال الشاب إجازته في القانون وهو في الحادية والعشرين، وكان الآن مستشاراً لمجلس الكنيسة الأعلى في درسدن. وآخر شيلر رده حتى 7 ديسمبر، إذ كان مرهقاً بمتاعبه وهمومه. ورد عليه كورنر يقول "نحن نقدم لك صداقتنا دون تحفظ، فاحضر إلينا بأسرع ما تستطيع" (81).

وتردد شيلر. وكان قد كون صداقات في مانهايم، ووقع في غرام العدييات، لا سيما (1784) شارلوتة فون كالب، التي تزوجت قبل

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايمار -> شيلر في سني تطويقه

ذلك بعام واحد. وفي دارمشتات، في ديسمبر 1784، التقى بالدوق كارل أوجست أمير ساكسي-فايمار، وقرأ عليه الفصل الأول من "دون كارلوس"، ونال لقب Rat أو المستشار الفخري، ولكن لم يصله أي عرض بمكان في سماء فايمار. ومن ثم فقد قرر أن يقبل دعوة كرونر للبيزج. وعليه، ففي 10 فبراير 1785 أرسل إلى المعجب الذي لم يعرفه به نداء عاطفياً يظهره ريباً من نقطة الانهيار.

"في الوقت الذي في نصف سكان مانهايم إلى المسرح... أظير إليكم أيها الأصدقاء الأعزاء... فمنذ أن تلقيت خطابكم الأخير لم تبرحني قط الفكرة بأننا مخلوقون بعضنا لبعض، لا تسيئوا الظن بصدقتي إذ تبدو متعجلة بعض الشيء. فالطبيعة تطرح الكلفة في رضاها عن بعض الكائنات. والنفوس النبيلة ترتبط بخيط رقيق كثيراً ما يتبين أنه طويل البقاء.

"فإذا ما التمستم العذر لرجل تدفئ قلبه أفكار عظيمة ولكنه لم ينجز غير أفعال صغيرة؛ رجل لا يستطيع إلى الآن إلا أن يحدس من حماقاته أن الطبيعة رصدته لشيء ما، ويطالب بالحب الذي لا حدود له، وهو مع ذلك يجهل ما في وسعه أن يقدمه رداً على هذا الحب؛ ولكنه رجل يستطيع أن يحب شيئاً ما يتجاوز شخصه، ولا يعذبه شيء كرويته نفسه بعيداً كل البعد من أن يكون ما يشتهي أن يكونه؛ أقول إذا تطلع رجل هذه طبيعته إلى صداقتكم فإن صداقتنا ستكون أبدية، لأنني أنا ذلك الرجل. فلعلكم ستحبون شيلر، حتى إن كان تقديركم للشاعر قد تضاعف".

وقد توقف عن إكمال هذا الخطاب، ولكنه استأنفه في 22 فبراير:

"لا أستطيع المقام بعد اليوم في مانهايم... فلا بد لي من زيارة لبيزج والتعرف إليكم. إن نفسي متعطشة لغذاء جديد. لناس أفضل للصداقة، والمودة، والمحبة. لا بد أن أكون قريباً منكم، وبفضل حديثكم وصحبتكم سنتنحش روعي الجريحة... يجب أن تهبوني حياة جديدة، وسأصبح خيراً مما كنت في أي وقت مضى. سأكون سعيداً-إنني لم أنعم بالسعادة قط إلى الآن.. أتراكم ترحبون بمقدمي؟"(82).

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايمار -> شيلر في سني تطويقه

ورد كورنر في 3 مارس يقول "سنستقبلك بأذرع مفتوحة" ثم نقد ج. ي. جوشن الناشر الليبيجي بعض المال ليرسل إلى شيلر مقدم أتعابه عن مقالات مستقبله(83). فلما أن وصل الشاعر إلى لبيزج (17 مارس 1785 كان كورنر غائباً في درسدن، ولكن خطيبته، وأختها، وهوبر، أذفأوا شيلر بالطعام والحفاوة البالغة. وأحبه جوشن لتوه، وكتب يقول "لا أستطيع أن أصف لك مبلغ عرفان شيلر واستجابته حين تبدل له النصيحة الناقدة، ومبلغ جهاده في سبيل تطوره الخلقى"(84).

والتقى كورنر بشيلر أول مرة في لبيزج في أول يوليو، ثم قفل إلى درسدن. وكتب إليه شيلر يقول "لقد جمعت السماء بيننا بطريقة عجيبة، وصادقتنا معجزة." ولكنه أرفد أنه أشرف على الإفلاس من جديد(85). فبعث إليه كورنر بالمال، والطمأنينة، والنصيحة:

"إن كنت في حاجة إلى المزيد فاكتب لي وسأرسل لك أي مبلغ يرجوع البريد. أنني لو كنت ذا ثراء طائل، وكان في استطاعتي... أن أرفعك فوق العوز والحاجة لضروريات الحياة في يوم من الأيام، لما جرؤت على أن أفعل هذا، فأنا أعلم بأنك قادر على كسب ما يفي بكل حاجاتك بمجرد أن تشرع في العمل. ولكن اسمح لي-على الأقل سنة واحدة-بأن أعفك من ضرورة العمل. في استطاعتي أن أدبر هذا دون إعسار، وفي استطاعتك أن ترد لي المال إن شئت حين تسمح بذلك ظروفك"(86).

وزاد من قدر هذا الجود أن كورنر كان يجهز نفسه للزواج. وزف العروسان بدرسدن في 7 أغسطس 1785. وفي سبتمبر لحق بهما شيلر وعاش معهما، أو على حسابهما، حتى 20 يوليو 1787. في هذه الفترة أو نحوها-ربما وسط سعادة العروسين-كتب أشهر قصائده "أغنية للفرح" التي أصبحت تاج السمفونية التاسعة. وكلنا يعرف ميلودية بيتهوفن المؤثرة، ولكن القليلين منا، خارج ألمانيا، من يعرفون كلمات شيلر. وقد بدأت بنداء للمحبة الشاملة، وانتهت بدعوة للثورة:

صفحة رقم : 13837

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايمار -> شيلر في سني تطويقه

أيها الفرحة المنبتقة من لهب سماوي يا ابنة الفردوس، إننا نقبل إلى هيكلك ملتهبين بتلك النار المقدسة. أنت صاحبة التعاويذ التي وحدت من باعت التقاليد الرهيبة بينهم، كل الناس يصبحون أخوة حيث يمتد جناحاك الرفيقان.

الكورس: نحن نجتمع الملايين بين أحضاننا، ونرسل قبلتنا إلى الدنيا بأسرها! أيها الأخوة، إن وراء السماء المرصعة بالنجوم يسكن أب محب من جرب النعم المقيم في صداقة الأصدقاء، ومن ظفر بعذرية محبوبة ليشاركنا في ابتهاجنا. ومن سبى قلباً يملكه دون الناس أجمعين-ومن أخفق، فلينصرف عن جماعتنا باكياً.

الكورس: كل ساكن للكون الكبير يقدم الإجلال للمحبة وهي تتقدم إلى طريق النجوم حيث يملك الإله المجهول. إن القلوب الباسلة الرازحة تحت الألام تمد يد العون حيثما يبكي الأبرياء. والعهد الذي لا يخذل أبداً

صفحة رقم : 13838

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> الطريق إلى فايمار -> شيلر في سني تطويقه

و الوفاء للصديق والعدو! وتحدي الملوك، والروح الجريئة، وإن كلفتنا المال والدم أيها الأخوة، التيجان لأشرف مستحقيها والموت لكل سلالة الكذابين!

الكورس: أقفل الدائرة المقدسة وأقسم بالخمرة الذهبية! أقسم بالوفاء بهذه العهود المقدسة أقسم برب الفلك. وظل كورنر يعون شيلر عامين أملاً في أن يصوغ الشاعر في شكل لائق تلك المسرحية التي قصد بها تصوير الصراع بين فليب الثاني وابنه كارلوس. ولكن شيلر طال توانيهِ وتسويفه للتمثيلية حتى فقد المزاج التي بدأها به، ولعل ازدياد إطلاعه على التاريخ غير نظرته إلى فليب؛ ومهما يكن الأمر، فقد غير الحكمة حتى افتقدت الوحدة والتسلسل. "وفي غضون هذا (فبراير 1787) وقع في غرام هنرييتا فون أرنيْم، واستهلكت الخطابات الغرامية مداد قلمه، بينما كانت هي تتصيد خطيباً أغنى منه. وأقنع كورنر شيلر بأن يعتكف في إحدى الضواحي حتى يفرغ من مسرحيته. وأخيراً تمت (يونيو 1787)، وعرض مسرح همبورج أن يخرجها. وانتعشت معنوية شيلر وكبرياؤه، فلعله الآن يرى جديراً بالانضمام إلى كوكبة الأدياء المتألقة حول الدوق كارل أوجست، أما كورنر الذي تنفس الصعداء فقد وافقه على أنه ليس للشاعر مستقبل في درسدن. ثم إن شارلوته فون كالب كانت في فايما ر، بغير زوج، تغريه بالمجيء. وعليه، ففي 20 يوليو، وبعد الكثير من عبارات الوداع، ركب شيلر منطلقاً من درسدن إلى حياة جديدة. فوصل فايما ر في الغد، وهكذا اكتمل عقد الزمرة العظمى.

صفحة رقم : 13839

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايما ر إبان ازدهارها -> تنمة لفيلان

الفصل الثالث والعشرون

فايما ر إبان ازدهارها

1775-1805

1 - تنمة لفيلان

حين رأى موتسارات فيلاند في مانهايم عام 1777 قال في وصف وجهه أنه "قبيح إلى حد مخيف، تغشاه ندوب الجديري، وله أنف طويل،... وفيما خلال هذا فهو... رجل موهوب جداً... والناس يحدقون فيه كأنه قد هبط من السماء" (1). وقد كرهه طيور النوء الهائجون أنصار الحركة "الزويعية" لأنه سخر من انتشاءاتهم المتمردة؛ أما فايما فأحبته لأنه لطف نقده اللاذع بالكياسة ويغفران عام للنوع الإنساني، ولأنه احتمل في رضى تقجر النجوم الجديدة مراراً في سماء الأدب بينما كان في استطاعته أن يدعي لنفسه مكان الصدارة. وقد خلد جوته ذكره في سيرته الذاتية بشعور العرفان بصنيعه (2). أما شيلر فقد خال في أول لقاء بينهما مغروراً محزوناً، ولكن "الموقف الذي اتخذته مني للتو يدل على الثقة والحب والتقدير" (3).

وقال الشاعر الكبير للشاعر الفتى "سنفتح عما قليل قلبينا الواحد للآخر، وسياسد كل منا صاحبه بدوره" (4)، وقد أثبت وفاء بهذا الوعد. "إنني وفيلاند نتقارب أكثر كل يوم... ولا تقوته مناسبة لا يذكرني فيها بكلمة طيبة" (5). وقد وفق فيلاند في مناقسته للوافدين الجدد بإصداره في 1780 رواية شعرية اسمها "أوبرون" تحكي قصة فارس تتقده عصا أمير الجان السحرية من مائة جنبيه ومن شرك مفاتن ملكة اشتدت بها حرارة العشق. وحين

صفحة رقم : 13840

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايما إبان ازدهارها -> تنمة لفيلاند

اضطر جوته إلى الجلوس لمصور يرسم صورته وأراد أن يقعد ساعة دون حركة، طلب إلى فيلاند أن يقرأ عليه أجزاء من هذه الملحمة. يقول فيلاند "لم أشهد قط إنساناً سعد بعمل إنسان آخر كما سعد جوته" (6). وقد ترجم جون كوينسي آدمز القصيدة وهو سفير للولايات المتحدة في بروسيا في 1797-1801، واقتبس منها جيمس بلانشيه نصر أوبرا فيبر (1826).

واحتوى عدد مارس 1798 من مجلة فيلاند "الرائد الألماني الجديد" مقالة يحتمل أنها بقلم فيلاند-تبدأت بالأحداث المقبلة على نحو يلفت النظر. فقد لاحظت الفوضى التي تردت فيها فرنسا منذ 1789، وأوصت بتعيين دكتاتور لها، كما وقع في الأزمات التي تعرضت لها روما الجمهورية؛ ورشحت بونابرت الشاب، الذي كان يواجه المتاعب يومئذ في مصر، بوصفه صالحاً لهذه المهمة بشكل واضح. وحين فتح نابليون ألمانيا فعلاً التقى بفيلاند في فايما وايرفورت (1808)، وتحدث معه في أدب اليونان والرومان وتاريخهم، وكرمه فيمن كرم من الكتاب الألمان بوصفه أعظمهم بعد جوته (7).

وفي 25 يناير 1813 كتب جوته في يوميته "دفن فيلاند اليوم" ثم أنهى النبأ إلى صديق في كارلسباد قائلاً: "لقد تركنا صديقنا الطيب فيلاند.. ففي 3 سبتمبر احتفلنا كما ألفنا كل عام بعيد ميلاده الثمانين بمظاهر الابتهاج. لقد كان في حياته توازن بديع بين الهدوء والنشاط. فلقد أسهم بقدر هائل في ثقافة الأمة العقلية في ترو وأناة ملحوظين، دون أي نضال مشبوب أو صراخ عال" (8).

صفحة رقم : 13841

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايماز إبان ازدهارها -> هرذر والتاريخ

2- هرذر والتاريخ

1803-1777

كتب شيلر في يوليو 1787 "لقد تركت هرذر لتوي... أن حديثه رائع، ولغته دافئة قوية، ولكن مشاعره يراوحها الحب والكره"(9). وكانت واجهات هرذر في فايماز متنوعة، فلم تتح له متسعاً من الوقت للتأليف. فكان بصفته قسيساً خاصاً للدوق يقوم بواجبات العماد، والتثبيت

صفحة رقم : 13842

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايماز إبان ازدهارها -> هرذر والتاريخ

في الإيمان، وعقد الزيجات والإشراف على الجنازات لأسرة الدوق وبلاطه. وبصفته المراقب العام للدوقية كان يشرف على سلوك الأكليروس وتعييناتهم، ويحضر اجتماعات مجلس الكنيسة ويلقى عظات فيها من سلامة العقيدة القدر الذي تسمح به شكوكه الخاصة. وكانت مدارس الدوقية تحت إدارته، فأصبحت نموذجاً تحتذيه ألمانيا كلها. هذه المسؤوليات مضافاً إليها ناسوره وسوء صحته عموماً، جعلته سريع الغضب وصبغت حديثه بين الحين والحين بما سماه جوته "اللذعة الخبيثة"(10). وقد ظل ثلاث سنين (1780-83) هو وجوته يتجنب أحدهام صاحبه؛ وقد أنكر الدوق بعض عظات هدر. قال جوته "بعد عظة كهذه لم يبق أمام أي أمير إلا الاعتزال"(11). وقال فيلاند اللطيف الطبع معلقاً في 1777 "وددت لو قام بيني وبين هرذر اثنا عشر هرماً"(12)، وتعلمت فايماز أن تلتمس المعازير "الاكلينكية" لتسيبها الشبيه بدين سويقت، وردت زوجته اللطيفة كارولينة على بعض لدغه. وفي 28 أغسطس 1783 اغتنم جوته اتفاق وقوع عيد ميلاده وعيد ميلاد ابن هرذر البكر في يوم واحد ليدعو آل هرذر العشاء. واصطلح عضو المجلس الخاص والمراقب العام، وكتب جوته يقول أن "السحب الكنيبة التي فرقت بيننا طويلاً قد انجلت، وإلى الأبد في اعتقادي"(13). وبعد شهر أضاف "لست أعرف رجلاً أنبل قلباً أو أسمح وروحاً"(14)، وذكر شيلر في 1787 أن "هرذر شديد الإعجاب بجوته بل هو يكاد يعبده".(15) وأصبح فيلاند وهرذر في الوقت المناسب صديقين متقاهمين(16)، وكان هذان، لا جوته ولا شيلر، هما اللذين قادا الحديث في صالون أنا أماليا واكتسبا قلب الدوقة الأرملة(17).

وواصل هررد وسط واجباته الإدارية البحث في الشعر البدائي، وجمع عينات منه من نيف وعشرة شعوب، ومن أورفيس إلى أوسيان، ونشرها في "مختارات سماها Volksliede "أغاني شعبية" (1778) أصبحت ينبوعاً من ينباع الحركة الرومانتيكية في ألمانيا. وبينما كان جوته يتهبأ لعودة إلى المتل والأشكال والأساليب الكلاسيكية ولضبط العقل للعاطفة، كان هررد يشير بالانتفاض على عقلانية القرن الثامن عشر وشكلية القرن السابع عشر والعودة إلى إيمان العصر الوسيط وأساطيره وأناشيده وأساليب حياته.

صفحة رقم : 13843

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايما إبان ازدهارها -> هررد والتاريخ

وفي 1788 عرضت الأكاديمية البافارية جائزة لأفضل مقال "في آثار الشعر في عادات الأمم وأخلاقها". وفاز مقال هررد ونشرته الأكاديمية في 1781. وقد تتبع المقال ما رآه المؤلف تدهوراً للشعر بين العبرانيين واليونان والأوربيين الشماليين، من التعبير الملحمي المبكر عن التاريخ والمشاعر والأفكار الشعبية في إيقاعات طليقة فياضة، إلى تدريب "مصقول" ومدرسي، بعد المقاطع، ويلوي القوافي، ويقدم القواعد، ويضيع حيوية الشعب وسط مظاهر الافتعال المميته التي تشوب حياة الحضرة. وزعم هررد أن النهضة الأوربية قد انتزعت الأدب من الشعب وحبسته بعيداً في قصور الملوك والأمراء، وأن الطباعة قد أطلت الكتاب محل المنشد الحي. وفي مقال آخر "في روح الشعر العبري" (1783) اقترح هررد قراءة سفر التكوين على أنه شعر لا علم، وكان قد تمكن من العبرية بجهد الخاص؛ وألمع إلى أن شعراً كهذا يستطيع أن يحمل بالرمزية من الحقيقة قدر ما يحمله العلم بـ "الواقع".

ولقد كافح إيمانه الديني للصدور رغم سعة إطلاعه على الكتب العلمية والتاريخية. ففي عامه الأول في فايما اشتبه بعضهم في أنه ملحد، حر الفكر، سوسيني، صوفي(18). وكان قد قرأ أجزاء "مخطوطة فولفنبوتل" لريماوس، التي نشرها ليسنج، وتأثر بها تأثراً كفى لتشكيكه في لاهوت المسيح(19). ولم يكن ملحداً، ولكنه وافق على وحدة الوجود التي قال بها سبينوزا. قال لياكوبي في 1784 "لست أتبين إلهاً من وراء العالم المادي"(20) وقد حذا حذو ليسنج في دراسة سبينوزا والدفاع عنه، "يجب أن أترف أن هذه الفلسفة تسعدني جداً"(21). وقد كرس لسبينوزا الفصول الأولى من رسالة عنوانها "أحاديث عن الله" (1787)، ففي هذا البحث فقد الله صورته الذاتية وأصبح قوة الكون وروحه، الذي لا سبيل إلى معرفته إلا في نظام العالم والوعي الروحي للإنسان(22). على أن هررد في دراساته الموجهة إلى الأكليروس قبل الصفقة الخارقة لمعجزات المسيح، وخلود النفس(23).

ثم جمع العناصر المتفرقة لفلسفته وجعل منها كلاً منسقاً نسبياً في رائعة ضخمة سماها في تواضع "أفكار نحو فلسفة في تاريخ الإنسان"، وهي

صفحة رقم : 13844

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايما إبان ازدهارها -> هررد والتاريخ

كتاب من كتب القرن الثامن عشر البزيرية الخطيرة. صدر في أربعة أجزاء في 1784 و1787 و1791. وإشراف مشروع ضخّم كهذا على التمام وسط مسئوليات هررد الرسمية يقوم شاهداً على الخلق القوي والزوجة الصالحة. وآية ذلك ما كتبه هررد إلى هامان في 10 مايو 1784: لم أؤلف طوال حياتي كتاباً كهذا وأنا نهب للكثير من المتاعب وأسباب الإرهاق من الداخل ودواعي الإزعاج من الخارج، بحيث أستطيع القول أنه لولا أن زوجتي، التي هي "المؤلف الحقيقي" لكتبي، ولولا جوته الذي نظر مصادفةً في الجزء الأول-أقول لولا أنهما لم يفترأ عن تشجيعي وحثي، لظل كل شيء في مثنى الكائنات التي لم تر النور" (24).

ويستهل الجزء الأول بقصة للخليقة، دنيوية في صراحة، مبنية على الفلك والجيولوجيا المعروفين، دون لجؤ للكتاب المقدس إلا بوصفه شعراً. وقد زعم أن الحياة لم تنشأ من المادة، لأن المادة ذاتها حية. والجسم والعقل ليسا جوهرين منفصلين متضادين. إنما هما صورتان لقوة واحدة، وكل خلية في كل جسم حي تحتوي صورتين إلى حد ما. وليس هناك قصد خارجي يمكن رؤيته في الطبيعة، ولكن هناك قصداً باطنياً- هو "التصميم الكامل" والباعث لكل بذرة أن تتطور إلى كائن نوعي بكل ما لها من أجزاء معقدة مميزة. وهررد لا يقول بأن الإنسان تطور من الحيوانات الدنيا، ولكنه يراه عضواً في المملكة الحيوانية، يناضل كغيره من الكائنات للطعام والبقاء. وقد أصبح الإنسان إنساناً باتخاذ القامة المنتصبية، مما طور فيه جهازاً للحس قائماً على البصر والسمع لا على الشم والذوق؛ فغدت قوائمه الأمامية أيدي، حرة في القبض، والاستعمال، والاحتواء، والتفكير. وأسمى ثمرات الله أو الطبيعة هو الذهن الواعي، الفعال بتفكير وحرية، المكتوب له الخلود.

ويبدأ الجزء الثاني من "الأفكار" بفرض يزعم أن الإنسان بطبيعته خير، ويجدد القول بالتفوق والسعادة النسيبيين للمجتمعات البدائية، ويستتكر الفكرة الكانطية-الهيكلية فيما بعد-التي تزعم أن الدولة هي هدف التطور البشري. وقد احتقر هررد الدولة كما عرفها. كتب يقول "في الدول العظمى لا بد

صفحة رقم : 13845

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايما إبان ازدهارها -> هررد والتاريخ

أن يتصور الفئات جوعاً لكي يزهو فرد واحد ويتقلب في النعيم؛ أن عشرات الألوف يظلمون ويساقون إلى الموت لكي يستطيع أحرق أو عاقل متوج واحد أن يحقق حلمه" (25).

وفي الجزء الثالث امتدح هررد أثينا على ديمقراطيتها النسبية التي أتاحت للحضارة أن تنتشر في كثير من طبقات السكان. أما روما التي أقامت ثراءها على الفتح والرق فقد طورت حضارة ضيقة خلفت الشعب في الفقر والجهل. في هذا التاريخ كله لم ير هررد أي "عناية إلهية"، فهو أشد من أن يكون من عند الله. فإله، الواحد مع الطبيعة، يدع الأمور تجري في أعنتها وفق القانون الطبيعي وغبوة البشر. ومع ذلك فيحكم صراع البقاء ذاته ينبعث بعض التقدم من الفوضى؛ فيطور العون المتبادل، والنظام الاجتماعي، والأخلاق، والقانون، كوسائل للبقاء، ويتحرك الإنسان في بطن صوب إنسانية رحيمة. لا لأن هناك خطأ متصلاً للتقدم، فهذا غير ممكن، لأن كل حضارة قومية هي كيان فريد، له طابعه المتأصل، ولغته، ودينه، وناموسه الخلفي، وأدبه وفنه، وكل حضارة-شأنها شأن أي كائن حي-إذا استثنينا ما يطرأ عليها من حوادث عارضة-تنحو للنمو إلى نهايتها القصوى الطبيعية، التي تضمحل بعدها وتموت. وليس هناك ضمان لتفوق الحضارات اللاحقة على السابقة، ولكن إسهامات كل حضارة تتقل على نحو أفضل إلى الحضارة التي تخلفها، وهكذا ينمو التراث الإنساني.

والجزء الرابع يمدح المسيحية أما للمدنية الغربية. فالباوبوية الوسيطة حققت هدفاً نافعاً يكبحها استبدادية الحكام والنزعة الفردية للدول؛ والفلاسفة المدرسيون، وأن نسجوا نسيجاً واهياً أجوف بألفاظ ثقيلة، إلا أنهم أرفهوا أدوات العقل ولغته، وجامعات العصر الوسيط جمعت وحفظت ونقلت الكثير من ثقافة اليونان والرومان، بل بعض علوم

العرب والفرس وفلسفتهم. وهكذا أصبح المجتمع الفكري أكبر عدداً وأرهم حساً من أن يقوى عليه سدنة السلطة، وتحطمت أغلال العرف، وأعلن العقل الحديث تحرره.

صفحة رقم : 13846

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايما إبان ازدهارها -> هردير والتاريخ

وحقق هردير فيما بين الجزئين الثالث والرابع من "الأفكار" حلمه الذي طال تأجيله برؤية إيطاليا. ذلك أن يوهان فريديريش هوجو فون دالبرج، المستشار الكاثوليكي الخاص لرئيس أساقفة تريير الناخب، دعا هردير ليصاحبه في رحلة كبرى تدفع لها فيها كل نفقاته. وأذن له دوق ساكسي-فايما، وكارولينا، بالغياب؛ فغادر فايما في 7 أغسطس 1788. فلما لحق بدالبرج في أوجزبرج وجد أن خليفة دالبرج عضو هام في الجماعة. واجتمع على هردير وجودها ومطالبها، وسوء صحته، لتتغص عليه رحلته. وفي أكتوبر وصلت أنا أميليا إلى روما. فترك هردير دالبرج وانضم إلى بطانتها. وقد استلطف أنجليكا كاوفمان استلطافاً أكثر مما ترضى عنه كارولينا، وأسرفت رسائل كارولينا في الكلام عن جوته والميل إليه. وعاد هردير لدغته، وكان قد سمع أنباء عن حياة جوته في روما. وكتب يقول "إن رحلتي هنا كشفت لي لسوء الحظ عن حياة جوته الأنانية على نحو أوضح مما كنت أتمنى، وهي حياة في صميمها لا تعباً بالغير على الإطلاق. إنه لا يملك غير هذا، فلندعه، وشأنه إذن.." (26).

وعاد إلى فايما في 9 يوليو 1789. وبعد خمسة أيام سقط الباستيل، وغير هردير خطته في التأليف. فأكمل الجزء الرابع من "الأفكار"، ثم نحى الكتاب جانياً، وكتب بدلاً منه "رسائل لتقدم الإنسانية (1793-97). وقد بدأها بتقرير حذر للثورة الفرنسية، ورحب بانتهاء الإقطاع الفرنسي، ولم يذرف دموعاً على علمنة الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا (27)، وحين انطلق الدوق وجوته لمواجهة الفرنسيين عند فالمي، وعادا يجرران أذيال الهزيمة، حبس هردير هذه "الرسائل" الأولى، وخصص الباقي للثناء على الموتى من العباقرة الذين لا خوف من الثناء عليهم. ولم يفقد في بخوخته من لذة الصراع الفكري. فقابل نقد كانط لكتاب "الأفكار" بهجوم حاد على "نقد العقل الخالص". ووصف الكتاب بأنه تلاعب رهيب بالألفاظ الميتافيزيقية الأشباح، مثل "الأحكام التركيبية القبلية"، وأنكر ذاتية المكان والزمان، واتهم كانط بأنه أعاد إلى علم النفس فكرة الملكات، التي زعم الفلاسفة

صفحة رقم : 13847

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايما إبان ازدهارها -> هردير والتاريخ

المدرسيون أن العقل ينقسم إليها. ثم ألمع، في تنبؤ، إلى أن الفلسفة قد تختط طريقاً جديداً بالتحليل المنطقي للغة-لأن الاستدلال ما هو إلا حديث باطني.

وقد وافق جوته إلى حد كبير على نقد هررد لكانط، ولكن هذا لم يعصمه من لدغه نصيبه منه بين الحين والحين. فحين أقام كلاهما تحت سقف واحد في بينا عام 1803 قرأ جوته على جماعة كان هررد واحداً منها أجزاء من مسرحيته الجديدة "الابنة الطبيعية" (أي غير الشرعية). وأنتى هررد على المسرحية للآخرين، ولكن حين سأله المؤلف رأيه لم يستطع مقاومة الرد بتورية عن الصبي الذي ولدته خليلته جوته فقال: "إني أحب ابنك الطبيعي أكثر من ابنتك الطبيعية" ولم يستطع جوته الدعابة. وبعدها لم يلتق الرجلان قط. واعتكف هررد في خلوة بيته بفايما، ومات هناك في 18 ديسمبر 1803-قبل شيلر بعامين، وقبل فيلاندر بعشرة، وقبل جوته بتسعة وعشرين ودفن بأمر الدوق كارل أوجست-الذي كثيراً ما ضايقه هررد-بمراسم التكريم الكبير في كنيسة القديسين بطرس وبولس.

صفحة رقم : 13848

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايما إبان ازدهارها -> جوته عضو المجلس الخاص

3- جوته عضو المجلس الخاص

1775-1776

لقي جوته في فايما ترحيباً من الجميع إلا السياسيين. كتب فيلاندر إلى لافاتر في 13 نوفمبر 1775 "لا بد لي من إنبائك بأن جوته معنا منذ الثلاثاء الماضي، وأنه لم تنقض ثلاثة أيام حتى شعرت بمحبة عميقة لهذا الشخص الرائع- فأنا أنفذ إلى أعماقه وأحسه وأفهمه تماماً-على نحو تستطيع أن تتخيله أفضل كثيراً مما أستطيع أن أصفه" (28). وفي الشهر نفسه كتب أحد رجال الحاشية إلى والدي جوته يقول "فكرا في ابنكما كأوثق صديق لدوقنا العزيز، ... وهو محبوب إلى حد العبادة أيضاً من جميع السيدات من فضليات النساء في هذه المنطقة" (29). بيد أن سماء فايما لم تخل من غيوم. ذلك أن الدوق كان يستطيب الصيد العنيف والإفراط في الشراب، وقد صاحبه جوته فيهما جميعاً أول الأمر،

صفحة رقم : 13849

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايما إبان ازدهارها -> جوته عضو المجلس الخاص

فاتهم كلويشتوك الشاعر علانية بأنه يفسد أميراً فاضلاً. وخشيت لويضة أن يقصي جوته زوجها عنها، مع أن حقيقة الأمر أنه استخدم تأثيره ليرد الدوق إلى الدوقة رغم أن زواجهما لم يكن زواج حب. وتشكك بعض الموظفين في جوته باعتباره تابعاً متطرفاً من أتباع الحركة "الزوبعية" ذا معتقدات وثنية وأحلام رومانسية. وهجم على فايما ر عدد من أنصار تلك الحركة-لننن، وكلنجو، وغيرهما-وقدموا أنفسهم باعتبارهم أصدقاء جوته، وطالبوا بالغنيمة. وحين استلطف جوته بيتاً ذا حديقة خارج بوابة المدينة ولكنه قريب من قلعة الدوق-أفقد كارل أوجست جوته بعض عطف الرأي العام بإخلائه شاغلي البيت تمكيناً لجوته من الانتقال إليه (21 أبريل 1776). هناك تخفف الشاعر من مراسم البلاط، وتعلم كيف يزرع الخضر والأزهار. وظل ثلاثة أعوام يسكن البيت على مدار السنة، ثم في الصيف فقط حتى 1782، حين انتقل إلى قصر فسيح في المدينة لينصرف إلى واجباته المترابطة بصفته عضواً في الحكومة. كان الدوق قد فكر فيه شاعراً، ودعاه إلى فايما ليكون كوكباً من كواكب الأدب في بلاطه. ولكنه رأى أن مؤلف مسرحية ثائرة ورواية غرامية باكية، هذا الكاتب الذي ناهز السادسة والعشرين، أخذ يصبح رجلاً ذا حكم عملي سديد. وعليه فقد عين جوته في "مكتب للاشتغال"، وطلب إليه أن ينظر في حالة المناجم في المينا وفي تشغيلها. وقام جوته بالمهمة بهمة وذكاء حملاً كارل أوجست على التصميم على ضمه للمجلس الخاص الذي يدير شئون الدوقية. واحتج عضو قديم على تدفق الشعر على المجلس على هذا النحو الفجائي، وهدد بالاستقالة. ولكن الدوق والدوقة الأرملة هدءاً ثائراً، وفي 11 يونيو 1776 أصبح جوته "عضو المجلس المختص بالتقويض الدبلوماسي" براتب سنوي قدره ألف ومائتا طالر. فقلل من مغازلاته للسيدات. وقد كتب فيلاند لميرك في 24 يناير يقول "منذ أمد طويل، من اللحظة التي قرر فيها أن يكرس نفسه للدوق وشئون الدوق، راح يسلك بحكمة مبرأة من الخطأ وبحذر الرجل الخبير بأمر الدنيا" (30). وفي 1778 رقي إلى منصب وزير الحرب، وكان يومها

صفحة رقم : 13850

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايما إبان ازدهارها -> جوته عضو المجلس الخاص

منصباً هادئاً، ثم إلى العضوية الكاملة للمجلس الخاص في 1799. وقد حاول بعض الإصلاح، ولكنه وجد نفسه معوقاً بالمصالح المكتسبة في القمة، واللامبالاة العامة في القاعدة، وما لبث هو نفسه أن بات محافظاً تام المحافظة. وفي 1781 عين رئيساً لغرفة الدوقية. وفي 1782 خلع عليه يوزف الثاني براءة النبالة، وغداً "فون" جوته. قال لأكرمان بعد خمسة وأربعين عاماً "في تلك الأيام كنت أشعر بغاية الرضى عن نفسي بحيث أنني لو كنت رقيت أميراً لما وجدته تغييراً ذا بال" (31).

وامتزجت بمستقبله السياسي قصة غرام كانت أبقي وأحر وألم حب في حياته. استمع إلى وصف الدكتور يوهان تسمرمان لإحدى مرضاه وصفاً لا يمت إلى الطب بسبب في نوفمبر 1775. "إن للبارونة فون شتين، زجة البارون ورئيس الخيالة، عيوناً نجلاء سوداء رائعة الجمال. وصوتها رقيق خافت. ولا يفوت أحداً أن يلحظ على وجهها سمات... الرزانة، ودمائة الطبع، واللطيف... والفضيلة، والحساسية العميقة. إن آداب السلوك في البلاط، التي تملك ناصيتها إلى حد الكمال، تحولت فيها إلى بساطة رفيعة نادرة. وهي نقية جداً، ذات سمو روجي مؤثر يكاد يبلغ حد النشوة. ولا يستطيع المرء من مشيتها الأنيقة ومهارتها في الرقص التي تقرب من مهارة المحترفين أن يستشف نور القمر الهادي المطمئن... الذي يملأ قلبها بالسلام. أنها في الثالثة والثلاثين، ولها عدة أطفال، وأصابتها ضعيفة. ووجنتها ورديتان، وشعرها فاحم، وبشرتها... إيطالية اللون" (32). وقد ولدت شارلوتة فون شاريت في 1742، وتزوجت البارون يوسياس جوتلوب فون شتين في 1764. وفي 1772 بلغ مجموع ما أنجبت من أطفال سبعة، مات منهم أربعة. وحين التقى بها جوته كانت لا تزال تعاني من الحمل

المتكرر، وامتزج إحساسها بالضعف بما فطرت عليه من تواضع وحياء. ورفعها جوتها في خياله إلى السماء، ولا غرو فقد كان فيه دم شاب وخيال شاعر، ألف تجميل الواقع ونيط به هذا التجميل، ومع ذلك لم يجاوز

صفحة رقم : 13851

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايماز إبان ازدهارها -> جوتها عضو المجلس الخاص

ما قاله طبيبها في تمجيدها. فقد كانت شيئاً جديداً في بستان وروده النسائية: كانت ارسنقراطية، كأنما ركب السلوك المهذب في فطرتها، ورأها جوتها كأنهما من النفائس المذخورة في قدس النبالة. وكان من ثمرات علاقتهما أنها نقلت إليه آداب طبقتها، وعلمته ضبط النفس، والطبيعة، والاعتدال، والمجاملة. وكانت شاكراً حبه إياها لأنه رد إليها اهتمامها بالحياة، ولكنها قبلت هذا الحب كما تقبل امرأة كريمة المربي إعجاب فتى يصغرها بسبع سنين-باعتراره آلام النمو لروح متشوف يبحث عن التجربة وتحقيق الذات.

ولم يكن حياً من أول نظرة، فبعد أن انضم إلى زمرة فايماز بسنة أسابيع كان لا يزال يقرض الشعر عن "الجميلة للي" شونمان(33). ولكن في 29 ديسمبر 1775، لاحظ الدكتور تسمرمان تنبه جوتها إلى "فضائل ومفاتيح جديدة في شارلوتة". وما حل 15 يناير حتى كان يحاول مقاومة افتتاحه الوليد بها، فقال لها "إنني مسرور لأنني أبعد عنك وأفطم نفسي منك"، ولكن لم يواف 28 يناير حتى كان قد ألقى السلاح، وكتب إليها يقول "يا ملاكي الحبيب، لن آتي إلى البلاط. إن بي من شعور السعادة ما لا أطيق معه كثرة الخلق... فاسمحي لي أن أحبك كما أفعل". ثم كتب في 23 فبراير "يجب أن أخبرك أيتها المختارة بين النساء أنك ألقيت في قلبي حباً يملؤني بهجة"(34).

وردت برسائل كثيرة، ولكن لم يبق منها غير واحدة من هذه الحقة: "لقد عزلت نفسي بعيداً عن العالم، ولكنه الآن يعود إلى عزيزاً، وعزيزاً بسببك. إن قلبي يبكيتي وأنا أشعر أنني أعذب نفسي وأعذبك. فقبل سنة أشهر كنت على أتم استعداد للموت، وأنا لم أعد الآن مستعدة للقائه"(35). وملكته النشوة. فقال لفيلا ند "ليس من تفسير لما تقعله هذه المرأة بي... إلا إذا قبلت نظرية التقمص. أجل، لقد كنا يوماً ما رجل وزوجته!(36) واتخذ لنفسه امتياز الأزواج في الشجار والمصالحة. كتب شارلوتة إلى تسمرمان في مايو 1776 تقول: "لقد تركني ثائراً قبل أسبوع، ثم عاد بحب طاع... فماذا هو صانع بي في النهاية؟(37) ويبدو أنها أصرت على أنيظل حبهما أفلاطونياً، أما هو فكان به من حرارة العشق ما لا يجعله

صفحة رقم : 13852

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايماز إبان ازدهارها -> جوتها عضو المجلس الخاص

يترك حبهما عند هذا الحد، فقال لها "إن أمتنع على العيش معك فإن حبك لن ينعني بأكثر من حب غيرك الغائبات عني"(38). ولكنه أرفد في الغد "اصفحني عني أنني أملك. وسأحاول بعد اليوم أن أحتمل الألم وحدي"(39).

وشعر بالوحشة حين ذهبت إلى بيرومنت النائية في الشمال للعلاج، ولكنها زارته في المينا وعند عودتها (5-6 أغسطس 1776). وكتب في 8 أغسطس يقول "كان لحضورك أثر عجيب في... وحين أفكر أنك كنت هنا في كهفي معي، وإنني أمسكت بيدك وأنت تتحنين علي... أرى صلتك بي مقدسة وغريبة معاً... فليس هناك كلام يعبر عنها، وأعين الرجال لا تبصرها" (40). وكان لا يزال حاراً في حبه لها بعد أن انقضى على لقائهما الأول قرابة خمس سنين. ففي 12 سبتمبر 1780 كتب وهو وحيد في زلباخ "كلما استيقظت من أحلامي وجدنتي ما زلت أحبك وأصبو إليك. والليلة بينما كنا راكبين ورأينا النوافذ المضاءة في بيت أمامنا، قلت في نفسي أيتها هناك لتضيفنا. إن هذا المكان حجر حثير، ومع ذلك فلو أنني استطعت أن أعيش هنا في هدوء طوال الشتاء معك لأحببته كثيراً" (41). ثم كتب في 12 مارس 1781:

"لقد امتزجت روحانا امتزاجاً جعلني كما تعلمين مربوطاً بك رباطاً لا فكاك منه، ولن يفصلنا علة ولا عمق. وددت لو كان هناك قسم ما أو أسر مقدس ما يربطني بك على نحو مرئي ووفقاً لقانون ما. لكم يكون هذا رائعاً! ولا شك أن فترة الاختبار كفاني طولها لإنعام التفكير الواجب في الأمر... أن اليهود يربطون زناً حول أذرعهم أثناء الصلاة. وهكذا أربط على ذراعي زناك العزيز حين أوجه صلاتي إليك، وأرغب إليك في أن تنقلي إلى طبيعتك وحكمتك واعتدلك وصبرك".
وقد فسر بعضهم "فترة الاختبار" المنصرمة، بأنها تشير إلى أن شارلوتة أسلمت جسدها إليه" (42)، ومع ذلك كتب إليها بعد ست سنوات يقول.

صفحة رقم : 13853

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايما ريان ازدهارها -> جوته عضو المجلس الخاص

"يا عزيزتي لوتة، أنت لا تعلمين أي عنف أوقعته بنفسي وما زلت أوقعه. وكيف أن فكرة عدم امتلاكك إياك... ترهقني وتقنيني" (43). فإذا كان غرامهما قد اكتمل حقاً فإن السر قد كتم أحسن كتمان. وقد احتمل البارون فون شتين، الذي عمر حتى 1793، هذه العلاقة الغرامية بمجاملة جنتلمان من أهل القرن الثامن عشر. وكان جوته يختم خطاباتهما بين الحين والحين بعبارة "تحياتي إلى شتين" (44).
وقد تعلم أن يحب أطفالها أيضاً، وكلما امتد به العمر اشتد شعوره بحرمانه من أطفال له. وفي ربيع 1783 أقنعها بأن لا تسمح لابنها فرتر ذي السنين العشر بالإقامة معه في زورات طويلة، وحتى بمصاحبته في رحلات طويلة. وفي أحد خطاباتهما لفرتر (سبتمبر 1783) يظهر جانب الأمومة فيها، وتتكشف قلوب البشر الكامنة خلف واجهة التاريخ المجردة من عواطف البشر.

"إنني عظيمة الابتهاج لأنك لم تتسني وأنت منطلق في هذا العالم الجميل، وأنت تكتب إلي بحروف لا بأس بها وإن لم يكن رسمها حسناً جداً. وما دمت تعترم الإقامة أطول مما توقعت، فإنني أخشى أن لا تبدو ثيابك حسنة المظهر جداً. فإذا اتسخت واتسخت أنت أيضاً، فاطلب إلى عضو المجلس الخاص جوته فقط أن يلقي بفرتر الصغير الحبيب في الماء... حاول أن تستمتع بفرصتك الطيبة، واجتهد أن تسر عضو المجلس بسلوكك، ووالدك يرغب إلى أن أقرنك تحيته" (45).

فإذا وافى عام 1785 كان غرام جوته قد هدأت فورته في فترات صمت طويلة. وفي مايو 1786 شكت شارلوتة من أن "جوته يفكر كثيراً ولا يقول شيئاً" (46). وكانت الآن تناهز الرابعة والأربعين، أما هو ففي السابعة والثلاثين، وكان أخذاً في الانطواء على نفسه. كثير التردد على بيينا هروباً من بلاط فايما ريان والتماساً لتجدد الشباب بين الطلاب. وكان قد اعتاد دائماً أن ينعش نفسه بالطبيعة، فيتسلق قمة بروكن (وهي قمة ارتفاعها 3.747 قدماً في جبال هارتس، اقترنت منذ أمد بعيد بأسطورة فوست)، ويخرج في

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايماز إبان ازدهارها -> جوته عضو المجلس الخاص

رحلات مع الدوق في سويسرة (سبتمبر 1779 إلى يناير 1780). وكان أحياناً وهو يسترجع الماضي يشعر "بأنني خلال السنوات العشر الأولى من حياتي في الوظيفة والبلاط بفايماز لم أكد أنجز شيئاً" (47) في مضممار الأدب أو العلم. ولكن كان من الخير تهجين الشاعر بالإداري، وتأديب الغني الذي كان التلذذ يفسده، والعاشق الخائن، بتبعات المنصب وبطء الانتصار في الحب. وقد أفاد من كل تجربة ونما مع كل هزيمة. "أن خير ما في، هو ذلك السكون الباطني العميق الذي أعيش فيه وأنمو، رغم العالم، والذي بفضل اكتسب مالا يقوى العالم على انتزاعه مني أبدأ" (48). فلم يكن شيء يضيع هدراً عليه، وكل شيء وجد التعبير عنه في مكان ما في كتاباته، وأخيراً أصبح خير ما حوته ألمانيا المفكرة منصهراً في كل متكامل.

وينتمي إلى هذه الحقبة قصيدتان من أعظم قصائده: أولاهما مزوجة بين الفلسفة والدين، وبين الشعر والنثر، في قصيدة "الطبيعة". وثانيتهما أعظم أشعاره الغنائية كمالاً. وهي الثانية من قصائده المسماة "أنشودة الجوالين في الليل" التي نقشها على جدران كوخ الصيد في 7 سبتمبر 1780 (49) ربما في حالة من حالات الشوق القلق: على قمم التلال كلها ران السكون؛ وعلى ذري الأشجار لا تكاد تسمع نفساً يتردد؛ الطير نيام في الغابات مهلاً: فأنت أيضاً ستهجع مثلها سريعاً (50). وهناك قصيدة من قصائد جوته العاطفية المشهورة الأخرى تنتمي إلى هذه المرحلة من مراحل تطوره: وهي قصيدة "ملك العفاريات" الحزينة وضع لها شوبرت لحناً موسيقياً. فمتى عبر شاعر عن إحساس الطفل بالكائنات

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايماز إبان ازدهارها -> جوته عضو المجلس الخاص

الخفية المنتشرة في الطبيعة تعبيراً أقوى مما في هذا الخيال السريع، خيال الطفل المشرف على الموت، الذي يرى "ملك العفاريات" أتياً ليخطفه من بين ذراعي أبيه؟ في هذه الحقبة أيضاً كتب جوته ثلاث مسرحيات نثرية: "اجمونت (1775) و"إفجيني في تاوريس (1779) وتورقاتو تاسو (Torquato Tasso 1780) وهي ثمر كاف لخمس سنين قضاها في خضم السياسة. ولم تخرج "اجمونت" على المسرح إلا في 1788، أما إفجيني فقدت على مسرح فايماز في 6 أبريل 1779 (قبل العرض الأول لأوبرا جولد التي بهذا الاسم بستة أسابيع)؛ ولكن جوته غير فيها وبدل، ونظمها شعراً، أثناء مقامه في روما، بحيث يحسن النظر إليها على أنها نتاج لمرحلة جوته الكلاسيكية. كذلك أعاد صياغة "تاسو" ونظمها شعراً في إيطاليا، ولكنها تدخل هنا جزءاً من افتتاح جوته بشارلوتة فون شتين. ففي 19 أبريل 1781 كتب إليها يقول: "كل كلام تاسو موجه إليك" (51). وصدقت كلامه، فطابقت بينها وبين ليونورا، وبين جوته وتاسو، وبين كارل أوجست ودوق فرارا.

وقد تلقف جوته الأسطورة التي زعمت أن انهيار عقل تاسو في بلاط فرارا قد اشتد، إن لم يكن قد نشأ أصلاً، عن غرام تعس بأخت لأفونس الثاني (حكم 1559-97)(52). وما من شك في أن جوته كان يفكر في نفسه حين وصف ما يدور في فكر تاسو الشعري:
إن عينه قلما تطيل النظر إلى هذا المشهد الأرضي، أما أذنه فمرهفة السمع لأنغام الطبيعة. وأما صدره فيتلقى للتو في ابتهاج ما يقدمه التاريخ وتأتي به الحياة، ثم يجمع الأشتات المتفرقة ويربط بينها ويبعث حسه الذكي الحياة في الموتى. وهكذا يغرينا الرجل العجيب

صفحة رقم : 13856

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايما إبان ازدهارها -> جوته عضو المجلس الخاص

وهو يتحرك في عالمه المسحور بأن تطوف معه ونشاركه فرحه. وهو يبدو كأنه يدنو منا، إلا أنه يظل بعيداً كما كان، فإذا اتفق ووقعت عينه علينا رأى الأشباح في مكاننا(53)
وقد تكون ليونورا، الأميرة الجليلة التي ترضي حب الشاعر ولكنها تأمره بأن يكبح حماسه وبراعى اللياقة، هي شارلوتة فون شنين تضبط غرام جوته المشبوب في هذا العالم الفاسق ويعلن تاسو-وهنا يتكلم الشاعران كلاهما:
كل ما يصل القلب إلى أغنيتي فيتردد صداه فيه، إنما أدين به لواحد، وواحد فقط! فلم يحم حول روجي طيف غامض، يتقدم تارة في سناء باهر، ثم يتوارى ثانية. فأنا نفسي، بعيني رأس، أنا الذي أبصرت مثال كل فضيلة وكل جمال(54)
وأما الدوق ألفونسو فهو شبيه كارل أوجست في صبره على غضبات الشاعر وغرامياته وأحلام يقظته، وهو مثله يحزنه تباطؤ الشاعر في الفراغ من راحة موعودة:
بعد كل خطوة بطيئة يدع عمله، لا يفتأ يبدل ويغير، ولا طاقة له على الانتهاء(55).
وهو وصف صادق لكتابه جوته المنجمة وإبطائه وتسويفه في إنجاز "فلهم مايستر" و "فاوست". وأميرة أخرى تمتدح ألفونسو كارل أوجست على إتاحتها الفرصة لتاسو-جوته لينضح بممارسته لشئون الدنيا وهنا تعلق أبيات مشهورة:
"إن الموهبة تكون نفسها في سكون" والشخصية تتشكل في نهر العالم"(56).

صفحة رقم : 13857

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايما إبان ازدهارها -> جوته عضو المجلس الخاص

ولكن التلازم بين الشاعرين يتضاءل في النهاية: فتاسو لا يبدي شيئاً من قدرة جوته على السباحة في نهر العالم، فيغرق في مملكة أحلامه ويضرب بالحذر واللياقة عرض الحائط، ويحتضن الأميرة المذهولة بين ذراعيه، ويجن جنونه حين تنتزع نفسها من ضمته ومن حياته. ولعل جوته أحس بأنه كان قد وقف على شفا هذا الجرف.

وكثيراً في إيطاليا ملاذاً يعتصم به من موقف يهدد سلامة عقله. وفي نحو هذه الفترة في الصيغة الأولى لـ "فلهم مايستر" نظم لمينون أغنية شوق ولهفة تلائم أماله أكثر من آمال مينون:
أتعرف البلد الذي تزه فيه أشجار الليمون، حيث تتوهج ثمار البرتقال الذهبية في الأوراق الداكنة، حيث يهب النسيم العليل من السماء الزرقاء، حيث تقوم شجرة الآس المطمئنة وشجرة النار السامقة حيث تقوم شجرة الآس المطمئنة وشجرة الغار السامقة أتعرفه جيداً؟ هناك! هناك! أشتهي يا حبيبتي أن انطلق معك!
لقد كانت فايما جميلة، ولكنها لم تكن دافئة. ثم إن هموم المنصف كدرت روح الشاعر، "أنها لوسيلة مرة من وسائل كسب القوت أن يضطر المرء إلى محاولة خلق التناغم والانسجام بين نشاطات العالم" (57). وقد أضنته حياة البلاط، "ليس بيني وبين هؤلاء القوم ولا بينهم وبينني شيء مشترك يربطنا" (58). وكانت قد وقعت بعض الجفوة بينه وبين الدوق لعجزه عن مسابرة خطى الدوق في الصيد والغزل، وغرامه الكبير الوحيد قد براه الزمن وكثرة الشجار. فأحس أنه لا بد له من التحرر من هذه الأصفاد الكثيرة، والبحث عن اتجاه ونظرة جديدين. فطلب إلى الدوق أن يمنحه إجازة، فاستجاب الدوق، ووافق على أن يواصل دفع راتب جوته. ورغبة في توفير مبلغ إضافي من المال باع جوته لجوشن، الناشر الليبيجي، حق نشر طبعة من مجموعة مؤلفاته. ولم يبع جوشن إلا 602 نسخة، فخسر 1.720 طالر في هذه المغامرة.

صفحة رقم : 13858

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايما إبان ازدهارها -> جوته عضو المجلس الخاص

وفي أول سبتمبر 1786 كتب جوته إلى شارلوت من كارلسباد يقول:
"الآن وداعاً أخيراً، أريد أن أكرر لك أنني أحبك حباً جما... وأن تأكيدك لي أنك تجدين من جديد لذة في حبي يجدد فرحة حياتي. لقد احتملت الكثير في صمت إلى الآن، ولكنني لم أرغب في شيء بأحر مما رغبت في أن تتخذ علاقتنا صورة لا يقوى عليها أي ظرف. فإذا لم يكن هذا مكناً، فلن أرخص أن أسكن حيث تكونين، بل أؤثر أن أكون وحيداً في ذلك العالم الذي انطلق إليه الآن" (59).

صفحة رقم : 13859

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايما إبان ازدهارها -> جوته في إيطاليا

4- جوته في إيطاليا

واتخذ له في رحلة اسماً مستعاراً هو "المسيو جان-فليب مولر" لأنه أراد التحرر من مضايقات الشهرة. وكان في السابعة والثلاثين، ولكنه ذهب بتطلع يفوق حتى تطلع الشباب وترقبه المرح، وباستعداد يفضل كثيراً استعداد الشباب، لأنه كان ملماً ببعض تاريخ إيطاليا وفنها. وفي 18 سبتمبر كتب إلى هرذر يقول "أمل أن أعود شخصاً مولوداً من جديداً" وكتب إلى كارل أوجست "أرجو أن أعيد معي إنساناً تطهر تماماً وتجهز تجهيزاً أفضل كثيراً من ذي قبل". وإلى هذيثن وإلى غيرهما من الأصدقاء أرسل "رسائل مع إيطاليا" ما زالت تحوي نبض الحياة الإيطالية السريع. وقد قدم لها بالشعار القديم "Auch in Arkadien" - هو أيضاً كان الآن في أركاديا. وقد رأينا في موضع آخر من الكتاب مبلغ شكره على ضوء الشمس. فقد صاح عند دخوله إيطاليا "إني أومن بالله من جديد!" (60) ولكنه أحب الشعب الإيطالي أيضاً، وجوهم وقلوبهم الطلقة، وطبيعة حياتهم، وحرارة حديثهم ومرحه. وإذا كان عالماً كما كان شاعراً، فإنه لاحظ الخصائص الخاصة بالظواهر الجوية، والتكوينات الجيولوجية، والعينات المعدنية، وأنواع الحيوان والنبات، وأحب حتى السحالي المارقة فوق الصخور. وبلغ من شدة شوقه للوصول إلى روما أنه مر مرور الكرام بفنيسيا ولبارديا وتسكانيا ولكنه تلبث في فنشنتسا وقتاً كفى لأشعاره ببساطة معمار بلاديو وقوته الكلاسيكيتين. وعاد يؤكد من جديد نفوره من الطراز القوطي.

صفحة رقم : 13860

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايماز إبان ازدهارها -> جوته في إيطاليا

"لقد تحررت إلى الأبد والله الحمد من كل ميل إلى تلك الأعمدة الشبيهة بقصبات التدخين، وقلاعنا الصغيرة المتوجة بأبراج الكنائس، والأطراف المورقة لمبانينا!... لقد فسح بلاديو أمامي الطريق لكل... فن" (61). وعاد بهذا الطريق إلى فتروفوس الذي درسه في طبعه أشرف عليها جالياني، صاحبنا الطريف القادم من نابلي وباريس. واستحال الطراز الكلاسيكي الآن غراماً عنده، يلون كتاباته وفكره، ويعيد صياغة بعض أناجه القديم، مثل "افجيني" و "تاسو" في قالب وخط كلاسيكيين. وفي البندقية بدت قصور الباروك في عينيه مسرفة إلى البهرج. مفرطة في الأناقة النسائية؛ لا بل أنه انصرف عن واجهات النهضة إلى أطلال العمائر والتماثيل الكلاسيكية في المتاحف. ولكن دمه الحار تجاوب مع لون فيرونيزي وتنسيانو وكبريائهما. وقد بحث في فرار عبثاً عن القصر الذي حبس فيه تاسو. وبعد أن قضى ثلاثة أيام في بولونيا وثلاث ساعات فقط في فلورنسة انطلق حثيثاً عبر بروجو وتيرني وتشيتا دي كاستيللو، وفي 29 أكتوبر 1786 ركب إلى روما مخترقاً "البورتا ديل بوبولو" (بوابة الشعب) وأحس الآن بلحظة عابرة من التواضع "كل الطرق مفتوحة أمامي لأنني أسير بروح التواضع" (62).

وإذ لم يكن قد تمكن من لغة الحديث الإيطالية، فقد بحث عن الجالية الألمانية، لا سيما الفنانين الألمان، لأنه تطلع إلى أن يتعلم على الأقل أصول الرسم والتصوير والنحت. وأعجبت أنجليكا كاوفمان بحماسة ووسامته فرسمته في صورة أبرزت شعر الأسود وجبينه العالي وعينه الصافيتين. وارتبط بصداقة حميمة مع يوهان هاينريش فلهلم تيشباين، الذي أسلمه لنا في لوحته الشهيرة "جوته في الريف" (63). يستلقي في استرخاء كأنه فتح أركاديا. وكان جوته قد أرسل هذا المصور قبل حضوره إلى إيطاليا بزم طويل، ثم التقيا لأول مرة في 3 نوفمبر، حين اجتمعا في "بياتسا سان بيتر و

(ميدان القديس بطرس)، وتعرف الشاعر على الفنان، وقدم إليه نفسه ببساطة "أنا جوته" (64)، ووصفه تيشباين في خطاب إلى لافاتر بهذه العبارات:

صفحة رقم : 13861

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايما إبان ازدهارها -> جوته في إيطاليا

"وجدته تماماً كما توقعت. ولم يدهشني غير الرزانة والهدوء في رجل له هذه الحساسية الناشطة، ثم قدرته على الاسترخاء والتصرف بحرية في جميع الظروف. وما يسرني أكثر حتى من هذا هو بوساطة حياته. فكل ما طلبه مني كان في إعداد حجرة صغيرة يستطيع أن ينام فيها ويعمل دون إزعاج؛ ثم أبسط الطعام... وهو يجلس الآن في تلك الحجرة الصغيرة عاكفاً على قصة "أفجيني" من الصباح الباكر إلى الساعة التاسعة. ثم يخرج لدراسة روائع الفن" (65).

وكثيراً ما كان تيشباين مرشداً له في جولاته هذه، ورتب تزويده بما طلب من الرسوم، وحصل له على نسخ من الصور الأكثر شهرة. وقد رسم جوته بنفسه رسوماً تخطيطية للصور التي أراد تذكرها بنوع خاص. ثم جرب النحت، ونحت رأساً لهرقول. واعترف بأنه غير موهوب في الفنون التشكيلية، ولكنه شعر أن هذه التجارب تعطيه إحساساً أفضل بالشكل، وتساعد على تصور ما يريد وصفه (66). ثم أكب على كتاب فنكلمان "تاريخ الفن القديم"، "هنا على الطبيعة أجد ثميناً جداً... والآن يستطيع عقلي في النهاية أن يتسامى إلى أعظم وأبقى إبداعات الفن في مأمّن هادئ" (67). "إن تاريخ العالم كله يربط نفسه بهذه القبعة، وأحسبني ولدت... ولادة جديدة صادقة منذ اليوم الذي دخلت فيه روما... أظنني تعيرت إلى الصميم" (68). ويبدو أنه استمتع خلال ذلك بالفن الحي الذي قدمته الموديلان "اللذيات" اللاتي جلسن للمصورين في مراسمهم (69). وأنهت إقامته في روما ذلك التخلّص من النزعة الرومانتيكية الذي بدأ بمسئوليات المنصب. وبدأ الآن تمرد جوتز على القانون، ودموع فرتز، في نظر جوته الذي أخذ ينضح كأنها إمارات عقل غير متزن، "إن الرومانتيكية مرض، والكلاسيكية صحة" (70). وقد كان في تحمسه الجديد للأثار الرخامية والأعمدة والتيجان والقواصر الكلاسيكية والخطوط النقية للتماثيل اليونانية مسحة رومانتيكية. "إذا شئنا حقاً نموذجاً نحذنيه، فعلياً دائماً أن نرجع إلى قدماء اليونان، الذين يتمثل في أعمالهم دائماً جمال الإنسان" (71). وقد رأى جوته، كلما رأى فنكلمان، الجانب "الأبولوني للحضارة

صفحة رقم : 13862

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايما إبان ازدهارها -> جوته في إيطاليا

والفن اليونانيين فقط-تمجيد الشكل والقصد، وكان الآن يتجاهل تلك النشوة "الديونيسية" التي لونت الخلق والدين والحياة اليونانية تلويناً دافئاً جداً، والتي أعربت في جوته ذاته عن نفسها خلال "قرينه" وغرامياته.

في هذا الوجد الكلاسيكي أعاد كتابة "افجيني في تاوريس" شعراً (1787)، واعتزم أنه ينافس راسين، لا بل يوربيديس نفسه. وإذا كان قلبه لا يزال محتفظاً بجمرات النار التي أضرمتها فيه شارلوتة فون شتين، فقد سكب في أحاديث الأميرة اليونانية شيئاً من رقة البارونة الألمانية وتمالكها نفسها. وروى القصة القديمة جداً، بكل ما فيها من تعقيدات الميثولوجية والأنساب، وزاد من حدة الدراما بتصويره الملك السكودي تصويراً متعاطفاً، وأقدم على تغيير الخاتمة لتتوافق مع الفكرة-النادرة بين اليونان-التي تزعم أن على الإنسان التزامات حتى للبرابرة (الهجم أو غير اليونان). ولا يستطيع تقدير إنجاز جوتة حق قدره إلا الذين يقرعون الألمانية بطلاقة، ومع ذلك قال ايبوليت تين، وهو رجل فرنسي، وناقد فذ، خبير على الأرجح بدرمات راسين: "إنني لا أفضل أي عمل أدبي حديث على درامة جوتة افجيني في تاوريس" (72).

وقد أحييت ذكريات شارلوتة في هذه المسرحية، ثم في "تاسو" أكثر منها، اللتين أعاد كتابتهما في روما، شعوره من نحوها. لقد أصابها بجرح عميق هروبه المفاجئ إلى إيطاليا وتركه ولدها في عهده الخادم، فأعدت فرتز لفورها، وطالبت جوتة برد كل الرسائل التي كتبتها له. فكتب معتذراً من روما (8 و 13 و 20 ديسمبر 1786)، وبعثت إليه (18 ديسمبر) بتذكرة فيها لوم "حلومر" فكان رده (23 ديسمبر) "ليس في طاقتي أن أصف لك كيف يدمى قلبي أنك مريضة، ومريضة بسبب غلظتي. فاصفحي عني. لقد صارت أنا نفسي الموت والحياة، وما من لسان يقوى على النطق بما كان يعتدل في داخلي. وأخيراً لانت. فكتب لها أول فبراير 1787 "الآن أستطيع أن أنصرف إلى عملي وأنا أسعد مزاجاً لأنني تسلمت منك رسالة تقولين فيها أنك تحبين رسائلي وتبهجين بها".

صفحة رقم : 13863

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايما إبان ازدهارها -> جوتة في إيطاليا

في ذلك الشهر ذهب هو وتيشباين إلى نابلي وارتقى فيزوف مرتين؛ وفي محاولته الثانية غطى ثوران صغير للبركان رأسه وكتفيه بالرماد. ووجد متعة عظيمة في الأطلال الكلاسيكية في بومبي، وبهت للجلال البسيط الذي رآه في المعابد اليونانية ببايستوم. فلما عاد إلى روما ركب البحر إلى بلرمو، ومضى ليدرس المعابد الكلاسيكية في سجسته وجرجنتي (أجرجننو)، ووقف في المعبد اليوناني بتاورمينا، ثم قفل إلى روما في شهر يونيو. فلما تعاطم افتتاحه بـ "أروع مدينة في العالم كله" (73). أقنع الدوق كارل أوجست بأن يواصل دفع راتبه حتى نهاية 1787. فلما أن نفذت المهلة راض نفسه ببطء على العودة إلى الشمال. فغادر روما في 25 أبريل 1788، وسافر على مهل عبر فلورنسة وميلان وكومو حتى بلغ فايما في 18 يونيو. وكان كل يوم يتساءل كيف يستقبل الدوق، والحاشية، وشارلوتة، رجلاً يحس أنه تبدل إنساناً آخر.

صفحة رقم : 13864

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايما إبان ازدهارها -> جوتة في الانتظار

1794-1788

كان الدوق قد عين رئيساً جديداً للمجلس بموافقة الشاعر الغائب؛ والآن أعفي جوته بناء على طلبه من جميع واجباته الرسمية عدا منصب وزير التعليم، ولم يخدم المجلس بعدها إلا بصفة استشارية. وكان الدوق لطيفاً معه، ولكنه كان قد اتخذ أخصاء غيره، ثم أنه لم تعجبه العواطف الشبيهة بالنزعات الجمهورية التي استشفها من "إجمونت" بعد أن أعاد الشاعر كتابتها. أما جمهور القراء قد نسي جوته أو كاد؛ وأقبل على شاعر جديد يدعى شيلر، وصفق بحماسة لتمثيلية "للصوص" الزاخرة بروح التمرد والعنف الذي اتسمت به الحركة "الزوبعية"، والذي بدأ الآن سخيفاً فجافى عين شاعر يتأهب للتبشير بالنظام والقصد الكلاسيكيين. وأما شارلوتة فون شتين فقد استقبلته ببرود. وأنكرت طول غيابه، وتمهله في العودة، وتحمسه المتصل لإيطاليا، ولعلها سمعت بـ "موديلات" روما. كتبت تقول إن لقاءهما الأول عقب وصوله كان "زناً كل الزيف في طابعه، ولم نتبادل شيئاً غير الملل" (74). ورحلت لتقيم فترة في كوخرج، وصار جوته حراً في التكبير في كرستيانة فوليبوس.

صفحة رقم : 13865

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايما إبان ازدهارها -> جوته في الانتظار

وقد دخلت هذه الفتاة حياته في 12 يوليو 1788 إذ حملت عليه رسالة من أخيها. وكانت في الثالثة والعشرين، تعمل في مصنع للأزهار الصناعية، وراع جوته منها روحها النضرة، وعقلها البسيط، وأنوثتها المتفتحة. فدعاها إلى بيته ذي الحديقة لتعمل مديرة للبيت، وما لبث أن جعلها خليلته له. ولم تتل حظاً من التعليم، وقال "إنها لا تستطيع فهم الشعر إطلاقاً" (75)، ولكنها استسلمت له في ثقة واطمئنان، ومنحته تحقيق ذاته الجسدي الذي أنكرته عليه شارلوتة فيما يبدو. وفي نوفمبر 1789، حين أوشكت أن تصبح أمًا، أخذها إلى بيته في فايما، وجعلها زوجته علانية في كل شيء إلا الاسم. وصدمت شارلوتة والحاشية لتجاوزه الحدود الطبقيّة وعدم إخفائه العلاقة المحرمة. وقد أحزنه كثيراً هو وكرستيانة هذا الموقف، ولكن الدوق المتمرس بالخليلات قام عراباً للطفل الذي ولد في عيد الميلاد 1789، وعمده في أغسطس هرذر الصارم، الغفور رغم صرامته.

أما جوته، الذي كثيراً ما كان عاشقاً، ولكنه الآن فقط كان أباً، فقد وجد الكثير من السعادة في "الرجل الصغير" و "المرأة الصغيرة". وديرته له أمر بيته، واستمتعت إليه في حب حتى وهي لا تفهمه، ومنحته الصحة والعافية. قال لصديق منذ اجتازت هذه العتبة أول مرة لم ينلني منها غير الفرح" (76). ولم ير فيها عيباً غير حبها للخمر حباً فاق حتى حبه، وما أفضى إليه هذا أحياناً من المرح والقصف الذي لا يمكن السيطرة عليه. وكانت تختلف إلى المسرح، وترتاد حفلات الرقص الكثيرة، بينما يظل جوته في البيت ويخلد ذكرها في "المراثي الرومانية" Romische Elegien (1789-90)، التي كتبها على طريقة بربروتوس وبأخلاقيات كاتولوس. وليس في هذه "المراثي

الرومانية "شيء حزين، إنما تشنق اسمها هذا من بحر المرثي "elegiac" الذي تتناوب فيه البحور السداسية والخماسية التفاعل؛ وهي لا تتصل بروما بل بأرملة طروب-نستشف من ورائها كرستيانة نفسها: "كل ما تحويه أسوارك المقدسة أي روما الخالدة يشغى بالحياة، ولكنه في ناظري ساكن ميت.

صفحة رقم : 13866

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايما إبان ازدهارها -> جوته في الانتظار

أواه، منذاً يوشوش في أدني؟ متى أشهد في النافذة ذلك القد الجميل الذي يحيي وإن أحرق؟ لا تندمي يا حبيبي على أنك استسلمت هكذا سريعاً بقي بي، أراك غير جريئة؛ إنما أشعر بالإجلال.. إن الإسكندر وقيصر وهنري وفرديريك، هؤلاء الجبابرة، يودون أن يخلعوا على نصف المجد الذي ظفروا به لو أنني وهبتهم ليلة واحدة على الأريكة التي أرقد عليها؛ ولكنهم وما أسفاه يقعدهم ليل أوركوس في قسوة. فاعتبط إذن، أيها الحي، ناعماً في بيتك المنور بالحب قبل أن تبلل موجة "البيدي" الحزينة قدمك الهاربة" (77)

وربما كانت تلك الأرملة الجميلة ذكرى من أيام روما، وكلن دفء هذه الأبيات مبعثه كرستيانة. على أية حال ألم يكن يدرس الفن؟

على أنه مما يعينني على الدرس أيضاً أن أرسم بيد حساسة تلافيف صدرها الجميلة وأدع الأنامل الحكيمة تنزلق هابطة على الفخذ الناعم، لأنني هكذا أتمكن من صنعة النحات القديم، وأتأمل، وأقارن، وأتعلم أن آتي وأبصر بعين شاعرة، وأشهر بيد مبصرة (78).

ولم يرق نبيلات فايما هذا العرض المرخص لمفاتنهن، وحزنت شارلوتة الوقور على انحدار بطلها "جالاهاد" لا بل أن كارل أوجست ذاته انزعج قليلاً، ولكن سرعان ما هدأت نفسه. وعندما كانت الدوقة الأرملة عائدة من إيطاليا أرسل الدوق جوته إلى البندقية ليصحبها إلى أرض الوطن. وطال مقامه هناك (مارس إلى يونيو 1790) طولاً ضيقه، وتاق إلى كرستيانة، وصب جام غيظه من الباعة الإيطاليين ووسائل النظافة الإيطالية في "الاجرامات الفينيسية" وهي، أقل أعماله إغراء بالقرأة.

فلما عاد من البندقية وجد أن الثورة الفرنسية تبعث النشوة في شباب ألمانيا، والخوف في حكامها. وكان الكثيرون من أصحابه، وفيهم فيلاند

صفحة رقم : 13867

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايما إبان ازدهارها -> جوته في الانتظار

وهردر، يصفقون للإطاحة بالاستبدادية الملكية في فرنسا. أما جوته، الذي أدرك أن كل العروش مهددة بالخطر، فقد اتخذ موقفه إلى جوار الدوق، وأشار عليه بالحيلة وقال إن أناساً كثيرون جداً "يجرون وفي أيديهم منفاخ بينما يلوح

لي أن الأجدر بهم أن يبحثوا عن أباريق الماء البارد للسيطرة على النار(79). وأطاع أمر كارل أوجست له بأن يصحبه في حملة الحلف الأول ضد فرنسا. وحضر معركة فالمي (20 سبتمبر 1792)، ووقف هادئاً تحت النيران، وشارك في الهزيمة. وقد سجل ضابط ألماني في يومياته أن الشاعر-عضو المجلس الخاص، حين طلب إليه التعليق على الحدث أجاب "منذ اليوم ومن هذا الموضع يبدأ عصر جديد في تاريخ العالم"(80). وليس لدينا ما يؤيد هذه القصة. ومهما يكن من أمر، فإن جوته هاجم الثورة بقوة حين عاد إلى فايمار، وكانت تدخل فترة شططها ووحشيتها (1792-94).

ورسخت هذه التطورات في جوته ذلك التحول الطبيعي، تحول العقل الآخذ في النضج، من التلذذ بالحرية إلى حب للنظام. وشعر جوته أنه إذا كان في استطاعة أي أحقق أن يكون مبتكراً، فإن في استطاعة أي أحقق أن يحيا كما يشاء"(81) منتهكاً العادات أو القوانين في اطمئنان لأن غيره يراعونها. ولم يشعر بتحمس للديمقراطية، فلو أتيح لنظام كهذا أن يمارس فعلاً لكان معناه تسلط الغفلة والجهل والخرافة والهمجية. لقد كان لطيفاً سمحاً في نطاق دائرته، ينفق بعض دخله على أعمال البر المستوردة(82)، ولكنه كان ينكمش من الجماهير. فإذا وجد بين الجماهير أو الأغراب انطوى على نفسه في كبرياء وأحجام، وكان يجد سعادته الوحيدة في بيته. في سني القلاقل هذه (1790-94) ران عليه سبات كئيب أيقظته منه لمسة شباب شيلر المتحمس و منافسة قلمه.

صفحة رقم : 13868

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايمار إبان ازدهارها -> شيلر في الانتظار

6- شيلر في الانتظار

1787-1794

كان جوته في إيطاليا حين وصل شيلر إلى فايمار. واعترف الشاعر المعسر بغيرته من عضو المجلس الخاص الغائب. "بينما هو يرسم في إيطاليا، يبذل النكرات

صفحة رقم : 13869

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايمار إبان ازدهارها -> شيلر في الانتظار

من الناس العرق من أجله كأنهم دواب الحمل. إنه يبعثر هناك راتباً قدره 1.800 طالر، وهنا عليهم أن يضاعفوا كدهم ليحصلوا على نصف هذا المال" (83). وفي 12 أغسطس 1787 كتب بروح أكثر تعاطفاً.

"يتكلم الكثيرون هنا عن جوته في شيء من الحب، بل إنهم أكثر حبا له وإعجاباً به إنساناً أكثر منه مؤلفاً. ويقول هردير أنه أوتي حكماً شديداً الوضوح وعمقاً كبيراً في الوجدان، وعواطف نقية جداً. وجوته في رأي هردير مبراً من كل روح للدرس والوقعية، وهو لم يؤذ أحداً قط... وهو في معاملته السياسية يتصرف بصراحة وجرأة... ويقول هردير أن جوته أحق بالإعجاب كرجل دنيا منه شاعراً... وأن له عقلاً يتسع لأي شيء" (84).

وكان الدوق غائباً حين حضر شيلير، ولكن أنا أماليا وشارلوتة فون شننين استقبلتاه استقبالاً حاراً. وأخبره فيلاند أنه "ينقصه الصقل والوضوح والذوق" (85)، وتطوع بأن يصقله، وسرعان ما أخذ الشاعر المتحمس يكتب المقالات لمجلة فيلاند "الرائد الألماني". وقد وجد ترفيهاً أحر مع شارلوت فون كالب، التي كان لها كشارلوتة الأخرى زوج واسع الأفق "إن الناس أخذوا يهمسون في صوت عال بعض الشيء حول علاقتي بشارلوتة... وقد كتب لي الهر فون كالب. وسيحضر في آخر سبتمبر، وسيؤثر وصوله كثيراً في ترتيباتي. وصادقته لي لم يطرأ عليها تغيير، وهو أمر مدهش، لأنه يحب زوجته، ويعلم بصلتي الحميمة بها... ولكنه لا يمكن أن يشك لحظة واحدة في وفائها... وما زال كما كان، الرجل الأمين الطيب القلب" (86).

وفي 27 أغسطس 1787 عرضت "دون كارلوس" أول مرة في همبورج. وكان بشيلير من الولع بفايمار ما من منعة من الذهاب لحضور العرض. وقد استقبلت تمثيليته هذه وهي أولى تمثيلياته الشعرية، بالمديح والذم كليهما لأنها استسلام لأسلوب المأساة الفرنسية، ولكن يعوزها الوحدة المسرحية التي تتطلبها قواعد أرسطو. وقد استهلكت بالصراع بين فليب الثاني وابنه على حب اليزابث أميرة فالوا، ثم انتقل مركز الاهتمام في منتصف التمثيلية

صفحة رقم : 13870

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايما ر إبان ازدهارها -> شيلير في الانتظار

إلى كفاح الأراضي الواطئة للتحرر من السيادة الأسبانية ومن قسوة ألفا. وحاول شيلير أن يرسم صورة محايدة لفليب، وقد صفق القراء البروتستنت لهذا النداء الذي وجهه المركز بوزا إلى الملك:

يا صاحب الجلالة، لقد مررت مؤخراً بأرض فلاندر وبرابانت -أقاليم كثيرة غنية موفقة، تزخر بشعب باسل عظيم أمين! قلت في نفسي أنه لشيء رائع حقاً أن يكون الإنسان أباً للشعب كهذا! ثم تعثرت قدمي فوق كومة من عظام رجال محترقة! فليتك ترد لنا كل ما حرمتنا منه، وتدع السعادة تتدفق من نبع خيرك لأنك قوي كريم النفس؛ دع عقل الإنسان ينضج في ملكك الشاسع... ويصبح ملكاً حقاً بين مئات الملوك!... دع كل فرد من رعيتك يصبح ما كانه يوماً ما -الغاية والهدف لرعاية الملوك واهتمامه، لا يربطه واجب غير محبة الأخ لأخيه" (87).

وهجر شيلير الدراما طويلاً رغم نجاح دون كارلوس. وكان قد كتب إلى كورنر في 1786 يقول "إن التاريخ يدخر لي مع كل يوم تال مغريات جديدة... وددت لم أدرس شيئاً غيره طوال عشر سنوات متصلة؛ أظنني كنت أصبح مخلوقاً من نوع آخر. أتري أنه ما زال أمامي متسع من الوقت للتعويض عما فقدت؟" (88) ولم يكن في استطاعته أن يعول نفسه، فضلاً عن يعول أسرة، من حصيلة مسرحيات عارضة قد تذبذب وتموت

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايماز إبان ازدهارها -> شيلر في الانتظار

موتاً مبكراً حتى بعد أن تحظى بعرض أول يصفق له النظارة. فعمل كتاباً ناجحاً في التاريخ يكسبه من الشهرة العلمية ما يكفي للظفر بأستاذية في جامعة بينا. هناك لن يبعد عن فايماز بأكثر من أربعة عشر ميلاً، وسبق في نطاق سلطة الدوق وكرمه.

وعليه، فبعد أن فرغ من "دون كارلوس" عكف على تأليف "تاريخ سقوط الأقاليم الواطنة المتحدة". وإذا كان لا يقرأ الهولندية، فقد اعتمد على مراجع ثانوية جمع من رواياتها تصنيفاً غير ذي قيمة باقية. وانتقد كورنر المجلد الأول (1788) بأمانته المعهودة: "إن العمل الراهن، مع كل مزاياه، لا يحمل طابع تلك العبقرية التي أنت ميسر لها" (89). وتخلّى شيلر عن الكتاب، ولم يصدر مجلد ثان في موضوعه.

وفي 18 يوليو 1788 عاد جوته من إيطاليا، وفي سبتمبر التقى بشيلر في ضاحية رود ولشنتات. وكتب شيلر إلى كورنر يقول: "إن الفكرة العظيمة التي كونتها عنه لم تنقص مثقال ذرة... ولكنني أشك في أننا سنتقارب تقارباً وثيقاً يوماً ما... إنه يسبقني بمراحل... فلا يمكن أن نلتقي على الطريق. وقد سارت حياته كلها من بدايتها في اتجاه معاكس لاتجاه حياتي. وعالمه ليس عالمي. وأفكارنا في بعض النقاط متعارضة تعارضاً تاماً" (90). والحق أن الشاعرين كانا يبدوان وكأن العناية قصدت بهما أن يكره الواحد صاحبه. فجوته، ذو التسعة والثلاثين، قد وصل ونضح، أما شيلر، ذو التسعة والعشرين، فكان يتسلق ويجرب؛ ولم يتقفا إلا في الأنانية المتعالية. كان أصغرهما من غمار الشعب، رقيق الحال، يكتب الشعر القريب من الثورية؛ أما الآخر فكان غنياً، رجلاً ذا مكانة ومنصب مرموق، عضواً في المجلس الخاص يستنكر الثورة. وكان شيلر قد خرج لتوه من حركة "الزوبعية"؛ كان صوت الوجدان والعاطفة والحرية والرومانس؛ أما جوته، الذي تولع باليونان، فكان بكل ميوله مع العقل، والقصد، والنظام، والأسلوب الكلاسيكي. على أية حال ليس من الطبيعي في عالم المؤلفين أن يحب بعضهم بعضاً، فإنهم إنما يسعون للظفر بذات الجائزة.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايماز إبان ازدهارها -> شيلر في الانتظار

فلما أن عاد جوته وشيلر إلى فايماز لم يكن يفصل مسكنيهما غير مسيرة قصيرة، ولكنهما لم يتصلا الواحد بالآخر. وساعت العلاقة بينهما بظهور نقد شيلر المناوئ لتمثيلية جوته "إجمونت" وقرر جوته أن أثنين الصغيرة" لا تنتسح لكليهما. ففي ديسمبر 1788 زكى شيلر لكرسي في التاريخ بجامعة بينا. وقبل شيلر المنصب مسروراً وزار جوته ليشكره، ولكنه كتب إلى كورنر في 29 فبراير 1789:

لو طالعت عشرتي لجوته لشقيت بها. فهو لا يهش حتى لأصدق أصدقائه، ولا شيء يربطه. وأنا أومن حقاً أنه أناني من الدرجة الأولى. وقد أوتي موهبة تطويق أعناق الناس بمجاملات صغيرة وكبيرة، ولكنه يفلح دائماً في أن يظل هو نفسه حراً... وأنا أنظر إليه على أنه تجسيد لنظام مدرّس جيداً من الأنانية التي لا حد لها. وينبغي ألا يطبق الناس مخلوقاً كهذا بقربهم. وأنا أبغضه لهذا السبب، وإن لم أملك إلا الإعجاب بعقله، والتفكير فيه بسمو. لقد بعث في مزيجاً عجيباً من البغض والحب" (91).

وفي 11 مايو 1789 تسلم شيلر عمله في بينا، وفي 26 مايو ألقى "خطاب الافتتاح" وموضوعه "ما التاريخ العالمي وما الهدف من دراسته؟"؛ إذ كان الدخول مجاناً، فقد تبين أن الحضور يفوق كثيراً ما تتسع له الحجرة المخصصة، وانتقل الأستاذ مع جمهوره في هرج ومرج إلى قاعة في الطرف الآخر من المدينة. وقد لقيت هذه المحاضرة ثناءً مستطاباً، "فقد غنى لي الطلبة سريناداً في تلك الليلة وهتفوا لي ثلاثاً (92). غير أن عدد من سجلوا أسماءهم لحضور المحاضرات كان صغيراً وكان الحضور نظير رسم يدفعه الطالب، ومن ثم كان دخل شيلر من التدريس ضئيلاً. فأضاف إليه بالكتابة. وفي 1789-91 أصدر على ثلاث دفعات "تاريخ حرب الثلاثين". هنا وجد اليسر على الأقل من حيث اللغة، وإن منعت مضايقات شديدة مرة أخرى من الرجوع إلى المصادر الأصلية، وشوه حبه لإصدار الأحكام والتفلسف القصة وقطعها. ومع ذلك فقد رحب فيلاند بالكتاب دليلاً على "قدرة شيلر على أن يرتفع إلى مستوى هيوم وروبرتسن

صفحة رقم : 13873

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايما إبان ازدهارها -> شيلر في الانتظار

وجيون" (93). وبيعت سبعة آلاف نسخة من المجلد الأول في السنة الأولى لصدوره. وشعر شيلر الآن أن في استطاعته إشباع شوقه إلى بيت خاص به، وإلى امرأة تمنحه حبها ورعايتها. وكان قد أتيح له لمحة خاطفة لشارلوت وكارولينا فون لنجفيلد في مانهايم عام 1784. ثم رآهما ثانية في رودولشتات في 1787، وكانت "لوتة" تعيش هناك مع أمها، أما كارولينا، الشقية في زوجها، فكانت تسكن في البيت المجاور. وكتب شيلر إلى كورنر يقول: (94) "إنهما لذيتان رغم أنهما غير جميلتين، وهما ترانني غاية السرور. وهما مطلعتان على أدب العصر، وتتوفر الأدلة على تمتعهما بتعليم راق جداً. وهما عازفتان ماهرتان على البيانو". وأنكرت السيدة لنجفيلد فكرة زواج ابنتها عن شاعر مملق، ولكن كارل أوجست منحه بمعاش صغير قدره مائتا طالر، وأنعم عليه دوق ساكسي-مينجن بشعار النبالة. وقد نيه لوتة إلى أن فيه عيوباً كثيرة. فقالت أنها لحظتها، ولكنها أضافت "إن الحب حب الناس كما نجدهم، وقبول مواطن ضعفهم إن وجدت بقلب محب". (95) وزفا في 22 فبراير 1790، واتخذاً منزلاً متواضعاً في بينا. وأتته لوتة بدخلها البالغ مائتي طالر في العام، وأنجبت له أربعة أطفال، وأثبتت خلال شدائده كلها أنها الزوجة الصابرة الحنون. كتب يقول "إن قلبي يسبح في السعادة، وعقلي يستمد قوة وعافية جديدتين" (96). وعكف على عمله بهمة، بعد محاضرتين كل أسبوع، ويكتب المقالات، والقصائد، والتاريخ. وظل شهوراً يكدي ويكدح أربع عشرة ساعة في اليوم (97). وفي يناير 1791 أصيب بنوبتين من "الحمى النزلية" جلبتا معهما آلاماً في المعدة وبصقاً للدم. وظل طريح الفراش ثمانية أيام ومعدته ترفض كل طعام. وأعان الطلبة لوتة على الهناية به و "تنافسوا أيهم يسهر معي.... وبعث إلى الدوق بست زجاجات من نبيذ ماديرا المعتق الذي أفادني مع بعض النبيذ المجري" (98). وفي شهر مايو أصابه "تشنج رهيب، مصحوب بأعراض الاختناق، فترأى لي أن ساعتى قد دنت... وودعت

صفحة رقم : 13874

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايماز إبان ازدهارها -> شيلر في الانتظار

أحبائي، وظننتي راحلاً عن الدنيا في أي لحظة... وخففت عني كثيراً جرعات قوية من الأفيون والكافور والمسك واستعمال عوامل التبريد" (99).
وأزعج أصحابه شائعة كاذبة بموته، وصلت حتى كوبنهاجن. وهناك بناء على اقتراحين من كارل راينهولت وبينز باجيزن-وهما نيبيلان دانمركيان-عرض الدوق فردريش كوستيان أمير هولشنين-أوجستنبورج واللونت إرنست فون شيملمان على شيلر منحة سنوية قدرها ألف طالر على مدى ثلاث سنين. فقبلها شاكراً. وأعفته الجامعة من التدريس ولكنه ظل يحاضر فرقة خاصة صغيرة. ثم خصص بعض فراغه الجديد، بناء على اقتراح من راينهولت، لدراسة فلسفة كانط التي قبلها كاملة تقريباً، وهو ما أضحك جوته وأثار اشمزاز هرذر، وربما ألحق بعض الأذى بشعر شيلر. ونشر الآن (1793) مقاله الطويل "في الكياسة والكرامة" الذي استهل التربية الرومانسية "للروح الجميلة". وقد عرف هذه الروح الجميلة بأنها تلك التي "ينسجم فيها العقل والحواس، والواجب والميل، وتجد هذه كلها التعبير الخارجي في الكياسة" (100). ولا بد أن المتبرعين الكوبنهاجيين قد هالهم أن يتلقوا، كبعض الرد على منحهم، كتيباً عنوانه "رسائل في التربية الجمالية (الاستطيقية) للإنسان" (1793-94). وقد بدأ شيلر بفكرة كانط على الإحساس بالجمال كتأمل نزيه للصور المتناسقة، ثم زعم (مع شافنيسري) أن "الشعور الذي ينميه الجميل يهذب السلوك" ويصبح الحس الجمالي هو والفضيلة واحداً. وأنه لعزاء أن نقرأ، في هذا الرأي المنبعث من أيام فايماز المزدهرة أن شيلر (كجوته) رأى أن جيله منحل، غارق في انحطاط خلق سحيق" (101).
فلما عاد من الفلسفة إلى الشعر وجد عناء في استحضار "تلك الجرأة والنار المضطربة التي كنت أملكها من قبل،.. لقد أفسدني الجدل النقدي" (102). ولكنه أصر على أن "الشاعر هو الإنسان الأصيل الوحيد، وليس أفضل الفلاسفة إلا كاريكاتوراً إذا قيس به" (103)، ورفع

صفحة رقم : 13875

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايماز إبان ازدهارها -> شيلر في الانتظار

وظيفة الشاعر في تعليم البشر والتسامي بهم إلى مستوى الإلهام السماوي. وقد وصف في قصيدة غنائية طويلة "الفنانون 1789" الشعراء والفنانين بأنهم يرشدون النوع الإنساني إلى وحدة الجمال مع الفضيلة والحق. وفي قصيدة أخرى "الهة اليونان" (1788) امتدح اليونان على حساسيتهم الجمالية وإبداعاتهم الفنية، وزعم، في إبهام حذر، إن العالم بات كئيباً قبيحاً منذ حلت المسيحية محل الهيلينية. وكان واقعاً الآن تحت سحر جوته كما وقع جوته من قبل تحت سحر فنكلمان.
ولعل تصوير شيلر وجوته الرومانسي لليونان القديمة كان هروباً من المسيحية. فشيلر ينتمي إلى التنوير رغم بعض الفقرات الورعة، شأنه في ذلك شأن جوته؛ وقد قبل إيمان القرن الثامن عشر بالخلاص عن طريق العقل البشري لا النعمة الإلهية. واحتفظ باعتقاد ربوبي في الله-شخصي في الشعر فقط-وخلود غامض. ورفض الكنائس كلها البروتستنتية منها والكاثوليكية. ولم يكن المواعظ حتى مواعظ هرذر. وقد كتب بيتين شهيرين في إيجرام عنوانه (عقيدتي) يقول فيهما:

أي دين أعترف به؟ ولا واحد من كل الأديان التي تذكرها لي. ولم؟ بسبب الدين (104).
وكتب إلى جوته في 9 يوليو 1796 يقول "إن الطبيعة السليمة الجميلة-كما تقول أنت نفسك-ليست في حاجة إلى ناموس أخلاقي، إلا إلى القانون لطبيعتها، ولا إلى ميثاقين بقا سياسية. وكان في وسعك أن تضيف أيضاً أنها ليست في

حاجة إلى إله، ولا فكرة خلود تدعم وتصون بها ذاتها". ومع ذلك كان فيه عوامل من الخيال والرقعة ردتته صوب المسيحية:
"إنني أجد أن المسيحية تحتوي فعلاً على الأصول الأولى لكل ما هو أسمى وأنبيل؛ وصورها الخارجية المختلفة لا تبدو لنا بغیضة منفرة إلا لأنها تعبيرات سيئة عن الأسمى.. ولم يشدد أحد تشديداً كافياً على ما يمكن أن يكون هذا الدين لعقل جميل أو على الأصح ما يمكن أن يفهمه منه

صفحة رقم : 13876

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايماز إبان ازدهارها -> شيلر في الانتظار

عقل جميل. وهذا يفسر نجاح هذا الدين نجاحاً كبيراً مع الطبائع الأنثوية، وأنه في النساء فقط مكن احتماله إطلاقاً" (105).
ولم يكن شيلر كجوته مركباً من حيث بدنه للوثنية الخالصة. كان وجهه مليحاً ولكنه شاحب، وقوامه فارغاً ولكنه نحيل هش. وكان يخشى تقلبات الجو اليومية ويؤثر القعود في حجرته يدخن ويتنشق. وكان يقابل بينه وبين جوته مقابلة الفكرة ضد الطبيعة، والخيال ضد العقل، والعاطفة ضد الفكر الموضوعي (106). وكان يجمع بين الحياء والكبرياء، يخشى الخصومة ولكنه يرد دائماً على الهجوم؛ سريع الغضب فأقصد الصبر أحياناً (108). وكان يميل إلى استخراج العبرة عن كل شيء، وإلى الضرب على وتر مثالي عال. ومما يريح نفوسنا أن نراه يستمتع بغراميات قصة دييرو "الحلي الوائشية" (109). وقد أجاد تحليل موهبته في خطاب مبكر إلى جوته:
"لقد غلبني عقل الشاعر عموماً حين كان ينبغي أن أفلسف، وغلبني عقل الفيلسوف حين كنت أريد الشعر. وحتى الآن كثيراً ما يحدث أن يقتحم الخيال تجريداتي، والفكر الهادئ نتاجي الشعري. ولو استطعت السيطرة على هاتين القوتين بحيث أعين لكل منهما حدودها (كما كان جوته يفعل) لبق لي أمل في التطلع إلى مصير سعيد. ولكن حين بدأت أعرف طاقاتي المعنوية وأستخدمها على الوجه الصحيح، هاجمني المرض للأسف وهددني بتقويض قوالي البدنية" (110).
وعاوده المرض بعنف في ديسمبر 1793؛ ثم تماثل للشفاء، ولكن إحساسه بأن لا شفاء له منه وأنه يجب أن يتوقع نوبات راجعة أورثه الكأبة. ففي 10 ديسمبر كتب إلى كورنر يقول "إنني أكافح هذا الشعور بكل قوى عقلي... ولكنني أصد دائماً... فإن غموض مستقبلي؛... والشكوك في عبقريتي التي لا يدعمها ولا يشجعها الاتصال بغيري، والافتقار التام لذلك الحديث العقلي الذي أصبح ضرورة لا غنى لي عنها"؛ تلك كانت الأفكار الملازمة لمحنته الجسدية. وراح يتطلع في تشوق، من بيننا لفيماز،

صفحة رقم : 13877

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايماز إبان ازدهارها -> شيلر في الانتظار

إلى جوته الذي ينعم بعافية يحسد عليها، ذلك "العقل السليم في الجسم السليم" وأحس شيلر أنه هناك يوجد الرجل الذي يستطيع أن يعطيه الحافز والدعم، لو أن الجليد القائم بينهما ذاب، وسقط حاجز الأيمال الأربعة عشرة الذي يفصل بينهما!

صفحة رقم : 13878

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايماز إبان ازدهارها -> شيلر وجوته

7- شيلر وجوته

1805-1794

وسقط الحاجز لحظة حين حضر الرجلان في يونيو 1794 جلسة عقدتها جمعية التاريخ الطبيعي في بينا. فلما التقى شيلر بجوته وهما يغادران القاعة، قال معلقاً أن العينات البيولوجية المعروضة في المؤتمر تعوزها الحياة، ولا يمكنها أن تعين مشاهدتها حقاً على فهم الطبيعة. ووافق جوته مشدداً، وتجادبا الحديث حتى بلغا بيت شيلر. وقال جوته فيما بعد مستعيداً ذكرى اللقاء "وأغراني الحديث بالدخول معه وشرحت له... "تحور النباتات" وهي مقالة زعم فيها جوته أن جميع النباتات تنويغات من نمط أولي واحد. وأن كل أجزاء النبات تقريباً تنويغات أو تطويران للورقة. "واستمع... إلى هذا كله بكثير من الاهتمام وبفهم واضح، ولكن ما إن فرغت حتى هز رأسه وقال لي "ليست هذه تجربة، إنما هي فكرة"، أي أنها نظرية لم تثبتها الملاحظة أو الاختبار. وغازت التعليق جوته، ولكنه رأى أن لشيلر عقلاً مستقلاً، فآزاد احترامه لها. أما زوجة شيلر "التي أحببتها وقدرتها منذ طفولتها، فقد بذلت قصارها لتوثق تفاهمنا المتبادل" (111). وفي مايو 1794 كان شيلر قد وقع عقداً بالإشراف على تحرير مجلة أدبية شهيرة "تسمى داي هورين والهوراي" في المينولوجيا الإغريقية ربات الفصول. وكان يأمل أن يجند للمجلة كانط، وفشته، وكلوبشتوك، وهردر، وياكوبي، وياجيزين، وكورنر، وراينهاولت، وفلهلم فون همبولت، وأوجست فلهلم فون شليجل، ثم جوته-أفضل صيد يطمع في اقتناصه. وفي 3 يونيو أرسل إلى فايماز رسالة موجهة إلى "السيد الكريم المحتد، الرفيع المقام، المكرم، عضو المجلس الخاص"، تحتوي على نشرة تمهيدية للمجلة المقترحة، وأضاف: "أن الورقة المرافقة تعرب عن

صفحة رقم : 13879

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايماز إبان ازدهارها -> شيلر وجوته

رغبة عدد من الرجال الذين يقدرونك تقديراً بغير حدود في أن تشرف الدورية بمقالات من قلمك، يجمع الكل بصوت واحد على عظم قيمتها. ونحن نشعر يا صاحب السعادة بأن موافقتك على دعم هذا المشروع ستكون ضماناً لنجاحه" (112). ورد جوته بأنه يسره المشاركة بمقالاته، وأنه "على ثقة من أن الاتصال الأوثق بالرجال الأصلاء الذين يؤلفون لجننتكم سيبيح حياة جديدة في كثير مما هو راكد الآن في باطني (113). وهكذا بدأ تراسل يعد من ذخائر تاريخ الأدب، وصداقة اتصلت إحدى عشرة سنة حتى موت شيلر فيها من تبادل الاحترام والعون ما ينبغي أن يدخل في تقديرنا للنوع الإنساني. روريم كان أكثر هذه الرسائل الباقية كشافاً وعددها 999-هي الرسالة الرابعة (23 أغسطس 1794)، التي حلل فيها شيلر بعد عدة لقاءات مع جوته جمعت بين المجاملة والصراحة وبين التواضع والاعتزاز بالنفس، الفوارق بين عقليهما. قال: "إن أحاديثي الأخيرة معك حركت كل ذخيرة أملكها من الأفكار... فكثير من الأشياء التي لم أستطع أن أصل فيها إلى تفاهم خاص مع نفسي تلقى ضوءاً جديداً غير متوقع من تأملي لعقلك (فهكذا أسمى التأثير العام لأفكارك على). لقد أعوزني التجسيد لعدد من أفكار التأملي، وأنت وضعتني على الطريق المفضي إليه. وأسلوبك الهادئ الواضح في النظر إلى الأشياء بعصمك من التيه في الطرق الجانبية التي كثيراً ما يشرذم بي فيها تأملي وخيالي المستبد. إن حدسك الصائب يدرك كل الأشياء، ويدركها على نحو أكمل كثيراً مما ينشده المرء في عناء التحليل... وعقول كعقلك قل أن تعرف إلى أي حد بعيد نفدت وتغلغلت، وأنه ما من داع يذكر يدعوها للاستعارة من الفلسفة، التي لا تستطيع في الواقع إلا أن تتعلم منها... ومع أنني فعلت هذا على بعد، إلا أنني طالما راقبت المسار الذي سلك فيه عقلك.. أنت تبحث عن الضروري في الطبيعة، ولكنك... تنظر إلى الطبيعة بوصفها كلا حين تحاول جعل الضوء يلقي على أجزائها الفردية، أنت تبحث عن تفسير الفرد في جماع مظاهرها المتنوعة (114).

صفحة رقم : 13880

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايماز إبان ازدهارها -> شيلر وجوته

أما رد جوته (27 أغسطس) فقد تجنب في ذكاء تحليل عقل شيلر: "ما كنت لأتلقى بمناسبة عيد ميلادي الذي وقع هذا الأسبوع هدية أجمل من رسالتك التي تلخص فيها حياتي بيد ودود، وتشجعني فيها بتعاطفك على استخدام قدراتي استخداماً أكثر مثابرة ونشاطاً. وسيكون من دواعي سروري أن أكشف لك حين نتاح لي الفرصة ما كانه حديثك لي، وكيف أنني أيضاً أعد تلك الأيام مرحلة متميزة في حياتي، لأنه يبدو لي أننا لا نملك بعد هذا اللقاء غير المتوقع إلا أن نطوف في دروب الحياة معاً". وتابع جوته هذه الرسالة (4 سبتمبر) بدعوة لشيلر لحضر إلى فايماز وينفق معه أياماً فيها. "سيكون فلي استطاعتك أن تشرع في أي عمل تشاء دون أن يزعجك أحد. وسنتجاذب الحديث معاً في أوقات ملائمة. وفي ظني أننا لن نفترق دون أن تحقق بعض الكسب. وعليك أن تعيش هنا تماماً كما تحب، وكما لو كنت في بيتك ما أمكن ذلك". ولم يتردد شيلر في القبول، ولكنه حذر جوته قائلاً "إن تشنجات الربو التي أعاني منها تلزمني الفراش طوال الصباح لأنها لا تسمح لي بأي راحة في الليل". وهكذا كان شيلر ضيف جوته وعليه تقريباً من 14 إلى 28 سبتمبر. وأعتني أكبر الرجلين بالشاعر العليل عناية رفيقه، وحماه من المضايقة، وبذل له النصيح في أمر غذائه، وعلمه حب الهواء الطلق. كتب شيلر (29 سبتمبر) بعد عودته إلى بيينا يقول "أجدني في بيتي مرة أخرى، ولكن أفكارني لا تزال في فايماز. ولا

بد لي من وقت طويل أحل فيه خيوط كل الأفكار التي أيقظتها في". ثم (8 أكتوبر)، ناشده بما عهد فيه من تحمس "يبدو لي أنه من الضروري أن نصل فوراً إلى قدر من التقاهم الواضح حول أفكارنا عن الجميل". ثم تلا ذلك شهر ثلاث من التحضير للعدد الأول من مجلة "هورين" الذي صدر في 24 يناير 1792، والثاني في أول مارس، والأعداد الباقية شهرياً على مدى ثلاث سنين، وكتب جوته من فايمار (18 مارس) يقول "إن الناس يتهافتون عليها، ويتخاطفون أعدادها، وما كنا لنطمع في أكثر

صفحة رقم : 13881

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايمار إبان ازدهارها -> شيلر وجوته

من ذلك لهذه البداية". وفي 10 أبريل كتب شيلر لجوته يقول "لقد كتب لي كانط خطاباً ودياً جداً، ولكنه طلب مهلة لإرسال مقالاته... ويسرنى أننا أغرينا الطائر العجوز بالانضمام إلينا". وطلب جوته أن تنشر مقالاته غفلاً من التوقيع، لأنها اشتملت على عدد من "مراثيه الرومانية"، وكان عليهما بأن نزعتها الشيقة القوية ستبدو غير لائقة بعضو في المجلس الخاص.

وفي حماسة النجاح المتهورة أقنع شيلر جوته بأن يشترك معه في إصدار دورية أخرى "التقويم السنوي للشعر" صدرت كل سنة من 1796 إلى 1800. وأطرف ما احتوته هو الأجرامات المسماة Xenien والتي صاغها الشاعران على غرار أجرامات مارتياال Xenia (اكسينا) التي كانت تكتب هدايا للضيوف. وقد وصف شيلر المشروع لكرونر فقال: "إن العملية كلها تجميع لأجرامات، كل منها مقطع شعري من بيتين. وهي في أكثرها هجائيات عنيفة شيطانية، موجهة بصفة خاصة ضد المؤلفين وأعمالهم، يتخللها هنا وهناك ومضات خاطفة من الأفكار الشعرية أو الفلسفية. فسيكون هناك عدد لا يقل عن ستمائة من هذه المقطوعات" (115). وكان جوته قد اقترح هذه الفكرة ذريعة لرد اللطمات إلى نقادهما، وللسخرية من المؤلفين المغرورين وأصحاب الميول البورجوازية، ولتنبيه جمهرة القراء الألمان إلى الاهتمام بالأدب اهتماماً أشد. وعزماً على أن يطلقنا هذه "الهدايا" على معسكر الرجعيين "كالشعالب المشتعلة الذبول" (116) وكانت الأجرامات بلا توقيع، وكان بعضها نتاجاً مشتركاً للمتأمرين كليهما. وإذ كان الكثير من هذه الذبول المشتعلة موجهاً ضد مؤلفين طواهم النسيان أو جدليات لا يذكرها الناس الآن، فإن الزمن أطفأ نارها، ولكن واحداً منها بقلم جوته يستحق منا التنويه الخاص: "جاهد دائماً في سبيل الكل، وإذا لم تستطع أنت نفسك أن تصبح كلاً، فاربط نفسك إلى كل ما يوصفك جزءاً تابعاً". وهناك إيجرام آخر يعزى عادة إلى شيلر يفصل الفكرة: "أتخاف الموت؟ أتريد الحياة دون أن تموت؟ إن عش في الكل!

صفحة رقم : 13882

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايمار إبان ازدهارها -> شيلر وجوته

فسوف يبقى بعد أن تموت بزمن طويل". وقد جر عليهما الجزء الهجائي من الابجرامات هجمات مضادة ألمت شيلر وأضحكت جوته. ونصح جوته شيلر بأن يجعل من عمله الرد الوحيد على هذا الهجوم. "بعد مغامرتنا المجنونة في الابجرامات، علينا أن نحرص على العكوف على أعمال الفن العظيمة الجليلة دون غيرها، وأن نخزى جميع خصومنا بتحويل طبايعنا المتقبلة إلى صور نبيلة" (117).

وهكذا كان، ففي سني صداقتهما النامية تلك كتب جوته وشيلر بعضاً من أروع قصائدهما: فكتب جوته "عروس كورنت" و "الإله والبايدير"؛ وكتب شيلر "المسيرة" (1795) و "كراكي أبيكوس" (1797) و "أنشودة الناكوس" (1800). وأضاف شيلر مقالاً كبيراً في "الشعر الساذج العاطفي" (1795) -وطلع جوته على الناس بقصته "تلمذة فلهم مايستر" (1796).

وقد عني شيلر بالشعر الساذج العاطفي، ذلك الشعر المنبعث عن الإدراك الحسي الموضوعي مقابل الشعر الذي ينشئه الوجدان التألمي؛ وكان في طويته يقارن بين جوته وشيلر. أما الشاعر "الساذج" فليس بسيطاً ولا سطحياً ولا مخدوعاً، إنما هو شاعر توافق في يسر مع العالم الخارجي بحيث لا يشعر بأي تعارض بينه وبين الطبيعة، بل يجد طريقه إلى الواقع بالحدس المباشر غير المتردد: ويستشهد شيلر بهومر وشكسبير مثالين على فكرته. وكلما أصبحت المدنية أكثر تعقيداً وافتعلاً فقد الشعر هذه المباشرة الموضوعية والانسجام الذاتي؛ ودخل الصراع النفس، وكان على الشاعر أن يقتنص من جديد بالخيال والوجدان هذا التوافق والاتحاد بين النفس والعالم كمثل أعلى يتذكره أو يتطلع إلى تحقيقه؛ ويغدو الشعر عندئذ تأملياً، يلبد الفكر سماءه (118). وكان شيلر يعتقد أن معظم الشعر اليوناني من النوع الساذج أو المباشر، ومعظم الشعر الحديث حصيلة التنافر والتفكك والشك. والشاعر المثالي هو الذي يصهر المدخلين جميعاً -البسيط والتألمي- في رؤية واحدة وصورة شعرية واحدة. وقد ذكر جوته فيما بعد أن هذا المقال أصبح مصدراً للجدل بين الأدب والفن الكلاسيكيين والرومانتيكيين.

صفحة رقم : 13883

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايما إبان ازدهارها -> شيلر وجوته

ونمو فكرة "تلمذة فلهم مايستر" من بدايتها إلى تمام تنفيذها يوضح منهج جوته في الخلق. فقد تصور القصة في 1777، وأتم الكتاب الأول في 1778، ثم نحاها جانباً، ولم يكمل الكتاب الثاني حتى يوليو 1782. ثم عكف على الكتاب الثالث حتى نوفمبر من ذلك العام، وعلى الرابع حتى نوفمبر 1783؛ أما الكتابان الخامس والسادس فقد امتد بهما الزمن ثلاث سنين أخرى. وقد أطلق على الكتب الستة "انطلاق فلهم مايستر المثير" وقرأ أجزاء منها على بعض أصحابه، ثم طرحها جانباً. وعاد إلى القصة في 1791 بإلحاح من هرذر وأنا أماليا، وأضاف إليها كتابين في 1794، ثم عرض المخطوط المتعاضم على شيلر، الذي رد بانتقادات واقتراحات ونشجيع كلما وافاه المؤلف بصفحات جديدة، وكأنها صورة لقابلية تعين الأم على ولادة فات أوانها. وأخيراً، في 1796، دفع جوته بالمؤلف كله إلى المطبعة. لا عجب إذن أن كانت الحصيلة النهائية مشوهة تشويهاً طفيفاً، ضعيفة البناء، "دهنية" القوام، مهوشة، ممتازة في أجزاء فقط، وفي عكسها لتردد جوته بين الاهتمامات المتضاربة، والمثل العليا الغامضة. لقد كان الحسم والثقة بالنفس، اللذان نعت بهما شيلر، هما الستار المنكبر للتذبذب والصراع الداخليين.

وقد عبر الكتاب عن فترة التلمذة في النقابات الحرفية الألمانية، وخلال زمن الوصاية هذا أصبح فلهم "معلماً" فموضوع القصة المطوف إذن هو تلمذة فلهم البطيئة الأليمة في نقابة الحياة. وبسبب مسارح العرائس إلى أحبها جوته طفلاً، واهتمامه المتصل بالمسرح، ربط القصة بفرقة من الممثلين تجتاز مدناً كثيرة وتتقلب عليها عشرات الغير دروساً في الحياة وصوراً لأساليب العيش الألمانية. واد كان وفيها لعدم وفاته فقد أدخل بطله إلى مسرح الأحداث بهجرته خليلته ماريانه. وفلهم ليس بالشخصية الفتانة. فهو ترك نفسه تساق من موقف لآخر أو من فكرة لأخرى على

هو الظروف أو بقوة الشخصية المفروضة عليه، والمرأة هي التي تقوم بالمبادرة في غرامياته. ولد برجوازيًا، ومن ثم فهو يتعثر إعجاباً بالرجال النبلاء

صفحة رقم : 13884

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايما إبان ازدهارها -> شيلر وجوته

المولد، ويأمل في تواضع أنهم في يوم ما سيعترفون بأستقرافية العقل. أما فيلبيه فأكثر جاذبيته منه: فهي ممثلة جميلة تثب بخفة من عشق إلى عشق، ولكنها تجمل تطويقها الغرامي بمرح معد وعدم وعي بالإثم يحلها من خطيئتها. أما مينون الصغيرة ففريضة في بابها، تتبع أباه الشيخ في إحساس بالواجب وهو يعزف عزفاً غير بارع على قيثارته في جولات يجمع فيها الدراهم. ويقول جوته في وصفها أنها تتكلم "ألمانية ركيكة جداً" (119). ولكنه يجري على لسانك تلك الأغنية الرائعة "أتعرف ذلك البلد". وهي تقع في غرام المراهقة بفلهم الذي يحبها حبه لطفلة، وتموت هي حزناً حين تراه بين ذراعي تريزا. وقد التقطها امبرواز توما من بين هذه الصفحات الثمانمائة ليجعل منها أوبرا حزينة ممتعة (1866).

وامتد شيلر لصناعة أسلوب القصة وصفاءه، وما وصف في الفرقة التمثيلية الجواله من صدق ومطابقة للحياة، ولكنه أشار إلى تناقضات في الترتيب الزمني، وشبه استحالات سيكولوجية، وانتهاكات للذوق، وأخطاء في التصوير والتصميم" (120). واقترح تغييرات في الحكمة، وأولى بأفكاره على النحو الذي ينبغي أن تختم عليه القصة (121). وقال له جوته مؤكداً، "إنني بالتأكيد سامنتل لرغيانك المنصفة ما استطعت (122). ولكنه اعترف لأكرمان، بعد ثلاثة وثلاثين عاماً، بأنه بذل قصاره ليحكي قصته من تأثير شيلر (123). وكان نقاد آخرون أقل تعاطفاً؛ فوصف أحدهم الكتاب بأنه ماخور متجول، وشكت شارلوتة فون شتين قائلة "حين يتناول جوته العواطف السامية يقذفها دائماً ببعض الأقدار، وكأنما يريد أن ينكر على الطبيعة البشرية أي طموح إلى القداسة" (124). على أن القصة لم تستحق هذه الانتقادات العشوائية، ففيها الكثير من الصفحات السارة، وما زال في استطاعتها أن تثير شوق القراء الذين تحروا من ضجيج العالم وصخبه.

وفي 23 مارس 1796 ذهب شيلر إلى فايما مرة أخرى ضيفاً على جوته. هناك عملاً معه في خدمة المسرح. وكان جوته مديراً صارماً، يختار التمثيليات المراد عرضها، ويدرب الممثلين "فاسبعد كل ما كان كنيياً

صفحة رقم : 13885

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايما إبان ازدهارها -> شيلر وجوته

أو ضعيفاً أو باكياً أو هس العاطفة، كما استبعد تماماً كل ما كان مخيفاً أو مرعباً أو نابياً" (125). أما الجمهور فاقتصر على البلاط، إلا حين يدعى بعض الطلاب من بيننا. وقد علق أوجست فون شليجل على هذا الوضع تعليقاً لاذعاً "أن لألمانيا مسرحين قوميين-فيينا بجمهور من خمسين ألف مشاهد، وفيما من خمسين" (126). وعاد شيلر إلى بينا في 12 أبريل، وقد حفزه اتصاله المجدد بالمسرح لينصرف عن التاريخ والفلسفة والشعر العارض إلى الدراما. ولقد طالما فكر من قبل في تأليف مسرحية عن فالنشتين، فحثه جوته على الشروع فيها. وفي نوفمبر ذهب جوته إلى بينا، وعاش حيناً في اتصال يومي بشيلر. فلما عاد جوته إلى فيمار كتب إليه يقول "لا يفتك أن تستغل أفضل أوقاتك، حتى تمضي قدماً بمأساتك، ليتسنى لنا أن نشرع في مناقشتها" (127). وبينما كان شيلر عاكفاً على تأليف "فالنشتين، شحذ روح المنافسة في جوته نجاح "الريزة" (1795) التي ألفها يوهان هينريش فوس قصة ريفية شعرية تمثل الحياة والعواطف الألمانية فجرب هذا اللون المحبب، ونشر في 1798- "هيرمان ودوروتيا". أما هيرمان فهو الابن القوي السليم، الخجول الهادئ، لأب صفراوي المزاج وأم حنون يديران "الخان الذهبي" ومزرعة واسعة في قرية قريبة من الراين. ويصل إلى علمهم أن مئات من اللاجئين قادمون من بلدة على التخوم استولى عليها الفرنسيون، فتجهز الأسرة رزماً من الثياب والطعام، يحملها هيرمان إلى اللاجئين. ويجد بينهم صبية لها "تهدان بارزان" و "كاحلان رائعان" (128) تقدم للاجئين العون وأسباب الراحة. فيهم بها، وبعد شذات لا بد منها، يصطحبها إلى بيته ويقدمها إلى أبويه بوصفها عروسه. ويروي الشاعر القصة في أبيات متدفقة من البحر السداسي النفايع، وصور الحياة الريفية الموجزة تضيء رواء على القصة، وقد أبهجت النداءات لطرد الغزاة الفرنسيين الألمان المتحمسين لوطنهم والذين وجدوا مسرحيتي جوته "إفجيني" و "تاسو" غريبتين عويصتين. وأكسبت الملحمة الصغيرة شعبية جديدة لمؤلف لم يظفر منذ "فرتر" إلا بقلّة من القراء خارج دوقية ساكسي فيمار.

صفحة رقم : 13886

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فيمار إبان ازدهارها -> شيلر وجوته

أما شيلر فكان نجمه في صعود من 1798 إلى 1800. ففي 28 نوفمبر 1796 كتب إلى كورنر يقول "ما زلت أطيل الفكر جاداً في "فالنشتين"، ولكن العمل التعس ما زال أمامي بلا شكل ولا نهاية. "وقد بدأ المسرحية نثراً، ثم نحاها، ثم استأنفها شعراً. وكان على إمام بالمدة من الدراسات التي قام بها ليؤلف كتابه "تاريخ حرب الثلاثين"، ولكنها بلغت من الوفرة والتعقيد في الشخوص والأحداث مبلغاً أكرهه على الإقلاع عن محاولة ضغطها في خمسة فصول. وقرر أن يقدم للدراما بتمهيد (برولوج) من فصل واحد سمته "معسكر فالنشتين"، وأن يقسم الباقي إلى تمثيليتين. وشرحت الأولى مؤامرة خلع القائد المتمرّد، ووازنتها بغرام ملتهب بين ابنة فالنشتين وابن زعيم في المؤامرة. وإما الدراما النهائية والأساسية فستكون "موت فالنشتين". فلما قرأ جوجه التمهيد "راعه التصوير الواقعي لمعسكر الجيش، والإعداد البارع للتطورات اللاحقة، فأصر على عرض "معسكر فالنشتين" على مسرح فيمار (12 أكتوبر 1798) قبل أن يكتمل القسم الأول؛ وربما كانت هذه الطريقة ذكية لإلزام الشاعر بالعكوف على مهمته. وفي مطالع 1799 ذهب شيلر إلى فيمار لإخراج التمثيلية الأولى، فعرضت أول مرة في 30 يناير ولقيت قبولاً حسناً. وعاد إلى بينا وراح يعكف بشكل محموم على "موت فالنشتين". ويكشف خطاب في 19 مارس 1796 عن الحالة النفسية لكاتب خرج لتوه من أتون الخلق "لقد طالما روعتني اللحظة التي سأفرغ فيها من عملي، مع شدة رغبتي في مجيء تلك اللحظة؛ والواقع أنني أشعر بأن حربي الرهانة أسوأ من حالة العبودية التي كنت أعانيها إلى الآن. فقد ذهب الآن الجمهور الذي اجتذبتني حتى الآن وألزمني هذا الواجب، وأنا أحس كأنني معلق في الهواء إلى ما لا نهاية". وجاء ما يكفي من الإثارة مع التدرجات والعرض الأول (20 أبريل 1799) لموت فالنشتين. وكان نجاحها كاملاً. وحتى جمهور فيمار النقاد أحس أنه شهد رائعة من روائع العرض الدرامي. ووصل شيلر الآن

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايماز إبان ازدهارها -> شيلر وجوته

إلى قمة تطوره. لقد قصر الخطب وكثف الحركة، ورسم كل الشخص الهامة بحيوية وقوة، وجمع كل خيوط الحبكة معاً في الخاتمة الفاجعة وهي ذلك الموت المخزي لرجل عظيم دمره الطمع والكبرياء اللذان لا حدود لهما. وأحس شيلر أن في وسعه الآن أن يقف على قدم المساواة مع جوته (129)، وكان على حق في مضمير الدراما. وأضاف الدوق مانتلي طالر لمعاش شيلر، ربما بناء على اقتراح من جوته، ودعا للإقامة في فايماز. وهكذا نقلت الأسرة في 3 ديسمبر 1799 إلى بيت قريب جداً من بيت جوته، حتى أن الشاعرين ظلاً حيناً يلتقيان كل يوم (130). وكان شيلر خلال ذلك قد زج بنفسه في مسرحية أخرى بعد أن حفزه انتصاره. كتب إلى كورنر في 8 مايو 1799 يقول "شكراً لله! لقد وقعت وفتت فعلاً على موضوع جديد لمأساة" ودرس لهذه التمثيلية "ماريا ستيوارت" الخلفية التاريخية، ولكن لم يدع أنه يكتب التاريخ، فقد نوى أن يكتب تمثيلية يستخدم فيها التاريخ مادة وخلفية. فرتب من جديد الأحداث والتسلسل الزمني ليخدم الاتساق والتأثير الدراميين؛ وأكد على العناصر غير السارة في خلق اليزابث، وجعل من ماري بطلة مبرأة من كل دنس تقريباً، ثم أتى بالملكتين وجهاً لوجه في مواجهة درامية. والتاريخ لا يعرف هذا اللقاء، ولكن المشهد من أقوى المشاهد في أدب المسرح. فلما أن عرضت في فايماز في 14 يونيو 1800 انتشى شيلر مرة أخرى بنجاحه. وما وافى شهر يوليو حتى كان عاكفاً على تمثيلية "عذراء أورليان". هنا أيضاً عدل التاريخ ليخدم هدفه: بدلاً من حرق العذراء صور جان دارك هاربة من أسريها الإنجليز، مندفعة إلى المعركة لتتخذ ملكها، لاقية حتفها وهي منتصرة على ساحة القتال. وكان العرض الأول في لبيزج (18 سبتمبر 1801) أعظم انتصار ظفر به شيلر طوال حياته.

أكان جوته يغار من صعود نجم صديقه فجأة على المسرح الألماني؟ لقد اغتبط بهذا الصعود، وظل بعد مضي ثمانية وعشرين عاماً يحكم على "موت

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايماز إبان ازدهارها -> شيلر وجوته

فالنشتين" بأنها "عظيمة حتى أنك لا تجد لها نظيراً من نوعها" (131). على أنه لم يرفع قدر منافسه في الشعر إلى المقام الذي رفعه إليه في الدراما، فقد أحس أن شيلر كدر صفاء شعره بالفلسفة، وأنه لم يملك قط ناصية موسيقى الشعر تماماً (132). وحين أراد بعض المعجبين بشيلر أن يقدموا على مسرح فايماز تعبيراً عن تقديرهم له، منع جوته هذا العرض بحجة أن فيه غلواً في التباهي (133). وفي يوليو 1800 ذهب إلى بينا للخلوة والدرس، بينما ظل شيلر في فايماز، ولكن في 23 نوفمبر كان شيلر لا يزال يتكلم عن جوته بعبارات الصداقة التي لم تشبها شائبة. وكان رأيه

في جوته أنه "أعظم رجل موهوب منذ شكسبير... وطوال سني صداقتنا الحميمة الست لم يخامرني أدنى شك في نزاهته. لقد اتصف بأسمى صفات الصدق والإحساس بالشرف، وأعمق الجد في السعي إلى ما هو حق وخير" (134). ثم أردف "وددت لو استطعت أن أبرر جوته بمثل هذه الحرارة من جعة علاقته الأسرية!... فبسبب أفكار خاطئة عن مقومات السعادة البيئية، وخوف منكود من الزواج، انزلق إلى ورطة تضنيه وتشقيه في بيته ذاته، وهو أضعف وألين قلباً من أن يتخلص منها. ذلك مغمزه الوحيد." وقد أبت زوجة شيلر كغيرها من سيدات فايما أن تستقبل كرستيانة في بيتها، وندر أمن ذكر شيلر كرستيانة في اتصالاته القائمة بجوته.

على أن هذه الصداقة بين "الديوسقورين" -كما كانا يلقبان أحياناً- رغم ما شابها من صدوع، أثبتت على الأقل أن الانسجام ممكن بين عبقرية كلاسيكية وأخرى رومانتيكية. كانا يبعثان الرسائل الواحد لصاحبه كل يوم تقريباً؛ ويتناولان العشاء معاً مراراً، وكثيراً ما وضع جوته مركبته تحت تصرف شيلر؛ وأهدى شيلر "شظراً من الطلب الذي سلمه الساعة تاجر النبيذ الذي أتعامل معه" (135). كتب جوته في 20 أبريل 1801: لنتمش معاً قرب المساء"، وكتب في 11 يونيو "وداعاً، بلغ تحياتي الرقيقة لزوجتي العزيزة، وشرح صدري عند عودتي (من جوتجن) بإطلاعي على بعض ثمرات جهدك"؛ وفي 28 يونيو 1802: "سيصلك مفتاح حديقتي وبيتي، وأريدك أن تمض هناك ما أمكنك من الأوقات

صفحة رقم : 13889

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايما إبان ازدهارها -> شيلر وجوته

السعيدة". وبعد موت شيلر باثنتين وعشرين عاماً قال جوته لأكرمان، "كان من حسن حظي... إن وجدت شيلر، لأننا رغم اختلاف طبائعنا فإن ميولنا كانت تتجه إلى نقطة واحدة، مما وثق صلتنا إلى حد استحال معه حقيقة على الواحد أن يعيش بدون الآخر" (136).

وقد عوقهما المرض في سنوات صداقتهما الأخيرة. ففي الشهور الثلاثة الأولى من سنة 1801 كان جوته يشكو العصبية، والأرق، والأنفلونزا العنيفة، والخراريج التي أفلت عينيه حيناً. وفي إحدى مراحل مرضه طالت غيبوبته حتى توقعت فايما موته. وفي 12 يناير كتبت شارلوتة فون شتين لولدها فرتز تقول: لم أكن أدري أن صديقي السابق جوته ما زال عزيزاً جداً علي، وأن مرضاً خطيراً قهره منذ تسعة أيام سيهزني إلى الأعماق" (137). وأخذت أوجست، ابن كرستيانة، إلى أبيها فترة لتخفف الأعباء التي ألقاها مرض جوته على خليلته التي كانت تبذل له العناية دون كلل. وكان إيلاله بطيئاً أليماً. كتب إلى شارلوتة يقول "صعب على المرء أي يجد طريقه إلى العودة" (138).

وفي 1802 اشترى شيلر بيتاً في فايما لقاء 7.200 جولدن، وكان الآن ميسوراً بفضل الحصيلة المترابدة من مسرحياته الممثلة والمنشورة؛ وساعده جوته، وكان وقتها في بينا، على بيع البيت الذي كان يسكنه هناك. وفي 17 مارس 1803 أخرج شيلر "عروس مسينا"، وهي محاولة-اعترف بها لنفسه (135)-لمنافسة كمرسرية سوفوكليس "أوديب" بتصوير النضال بين أخوين يعشقان امرأة يتبين أنها أختها مستعيناً بكورس مقسم. ولم تحز المسرحية الرضى. وجاز جوته بنكسة مماثلة حين أخرج في 1803 "الابنة الطبيعية" (أي غير الشرعية).

وكان بين المشاهدين لعرض من عروض "الابنة الطبيعية" سيدة لامعة هوائية هي جرمين نكير، مدام دستال، التي كانت تجمع مادة لكتابها "فن ألمانيا" وقد رأت شيلر أول مرة في ديسمبر 1803: "في صالون دوق ودوقة فايما، في جماعة جمعت بين الاستنارة

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايماز إبان ازدهارها -> شيلر وجوته

والنبالة. وكان يجيد قراءة الفرنسية، ولكنه لم يتكلمها قط من قبل. وقد عبرت في شيء من التحمس عن تفوق نظامنا الدرامي على ما عدها من الأنظمة قاطبة، فلم يرفض منازلتي دون أن يشعر بأي ضيق لما يجد من مشقة وبطء في التعبير عن نفسه بالفرنسية... وسرعان ما اكتشفت الكثير جداً من الأفكار خلال عقبة ألفاظه، وراعتي جداً بساطة خلقه... فقد وجدته شديد التواضع،... شديد الحيوية، حتى لقد أخذت على نفسي العهد منذ تلك اللحظة بصداقة له ملؤها الإعجاب" (140).

وقد أعد شيلر جوته للتعرف إليها! "إنها تمثل الثقافة الفكرية لفرنسا في نقاتها... ولا يعيها غير تدفقها المفرط. ولا بد للمرء أن يحول نفسه إلى جهاز سمع مركز واحد لكي يتابعها" (141). وأتى بها إلى جوته في 24 ديسمبر. وكتب جوته يقول: "ساعة لذيدة جداً. لم أجد فرصة للنطق بكلمة. أنها تجيد الحديث، ولكن بإسراف شديد." وكانت روايتها عن اللقاء مطابقة لروايته مع تغيير طفيف، فقد قالت أن جوته أكثر من الكلام حتى لم تجد فرصة للنطق بمقطع واحد (142). وقد كان كتابها بمثابة كشف أمار لفرنسا اللثام عن ألمانيا "موطن الفكر". كتبت تقول "لا يعقل ألا يكون الكتاب الألمان، وهم أكثر الرجال في أوروبا إطلاعاً وتفكيراً، جديرين بلحظة انتباه تبذل لأدبهم وفلسفتهم" (143). واعترم شيلر أن يسترد جمهوره الذي رفض "عروس مسينا"، فاختار بناء على اقتراح جوته موضوعاً لدرامته التالية قصة وليم ثل الشعبية. وسرعان ما عكف على الموضوع في لهفة وانفعال. قال جوته في 1820 مستحضراً تلك الفترة، "بعد أن جمع كل المادة الضرورية قعد للعمل... ولم يبرح مفعه حتى فرغ من المسرحية. فإذا غلبه التعب أسند رأسه على ذراعه وأغفى هنيهة... وبمجرد أن يستيقظ كان يطلب... قهوة سوداء قوية ليظل يقطأ. وهكذا فرغ من المسرحية بعد ستة أسابيع (144). وقبل شيلر أسطورة شائعة-على أنها تاريخ-عن وليم ثل قائد ثورة

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايماز إبان ازدهارها -> شيلر وجوته

السويسريين على النمسا في 1308. كانت الثورة حقيقية، وكذلك كان جسر الوكيل النمساوي المكروه. وتروي الأسطورة أن جسر تعهد لوليم ثل بالعفو الكامل إذا أثبت براعته المشهورة في استعمال القوس والسهم بإصابته تقاحة على رأس ولده. ووضع ثل سهمين في منطقتيه، وأصاب التقاحة بأولهما. وسأله جسر عم كان يريده بالآخر؛ وأجاب ثل "كنت أريدك أنت إن أصاب الأول ولدي". ولقيت المسرحية الاستحسان في فايماز في 17 مارس 1804 وفي كل مكان عرضت فيه بعدها بقليل، وتبينتها سويسرة جزءاً من تقاليد القومية. فلما نشرت المسرحية بيع منها سبعة آلاف نسخة في بضعة أسابيع. وأصبح اسم شيلر الآن أوسع ذبوعاً من اسم جوته.

ولكن أجله دنا، إذ لم يبق له في الحياة غير شهور. ففي يوليو 1804 أصابته نوبة من المغص اشتدت حتى خشي طبيبه أن يموت وتمنى هو الموت. ثم تماثل للشفاء ببطء، وشرع في تأليف مسرحية أخرى اسمها "ديمترئوس" ("ديمترئ الكاذب" الذي يذكره تاريخ روسيا). وفي 28 أبريل 1805 رأى جوته آخر مرة، ومن ذلك الاجتماع عاد

جوته إلى بيته وأصيب هو الآخر بإصابة خطيرة بالمغص. وفي التاسع والعشرين بدأ مرض شيلر الأخير. كتب هينريش فوس يقول: "غارت عيناه في رأسه، وكان كل عصب فيه ينتفض متقلصاً" (145). وانتمرت عليه توترات الجهد الأدبي الضارة، والتهاب أمعائه، واعتلال رئتيه. قال جوته فيما بعد "إن شيلر لم يسرف في الشراب قط، وكان شديد الاعتدال فيه، ولكنه اضطر في ساعات ضعفه البدني إلى تنشيط قواه بالمسكر" (146). وفي 9 مايو قابل شيلر الموت بهدوء عجيب: فقد ودع زوجته وأطفاله الأربعة وأصدقائه، ثم نام، ولم يستيقظ ثانية. وأظهر تشريح جثته الرئة اليسرى وقد أنلفها السل تماماً، والقلب منحللاً، والكبد والكلية والأمعاء كلها مصابة. وقال الطبيب للدوق "في هذه الظروف لا تملك غير العجب من أن الرجل المسكين استطاع أن يعيش كل هذا العمر" (147).

صفحة رقم : 13892

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> فايما إبان ازدهارها -> شيلر وجوته

وكان جوته عندئذ في حال من المرض لم يجرؤ معها إنسان على أن ينبئه بموت شيلر. وفي 10 مايو أفضت إليه كرسيتيانة بالنبا وهي تشنج. وكتب إلى تسلتر يقول "كنت أظن أنني أفقد حياتي أنا، فإذا أنا أفقد صديقاً كان نصف وجودي ذاته" (148). ووصل بما بقي له من وجوده إلى تمام تحقيق ذاته.

صفحة رقم : 13893

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> جوته ونابليون

الفصل الرابع والعشرون

جوته "نسطورا"

1832-1805

1- جوته ونابليون

أيحس بنا ونحن مقيدون بحدودنا المقررة- أن نترك جوته معلقاً عند هذه النقطة، وعلى قلمه فاوست وفي شيخوخته الحكمة، أم أن نلاحق هذا الأولمبي-الذي لا يكف عن التطور- إلى نهايته، مقلبين الصحائف مضحين بالوقت؟ "إن الحكمة السرمدية تجذبنا إلى العلاء". (1)

في 14 أكتوبر 1806 هزم نابليون البروسيين في بينا. وكان الدوق كارل أوجست، المتحالف مع بروسيا، قد قاد جيشه الصغير ضد الفرنسيين في تلك المعركة. ودخل الأحياء المدحورون فايمار، وأعقبهم الغالبون الجباع، فنهبوا المحال واحتلوا بيوت الناس. واستولى ستة عشر جندياً الزاسياً على بيت جوته، وأعطتهم كرستيانة الطعام والشراب والفراش. في تلك الليلة اقتحم البيت جنديان آخران ثملاً بالخمير، فلقد افتقدا الأسرة في الطابق الأسفل، صعدا عدة إلى حجرة جوته، ولوحا بسيفهما في وجهه، وطالباه بمكان للنوم، ووقفت كرستيانة حائلاً بين الجنديين ورفيقها، وأقنعتهما بالخروج ثم ارتجت الباب. وفي الخامس عشر من الشهر وصل نابليون إلى فايمار وأعاد النظام إلى نصابه، وصدرت التعليمات بعدم إزعاج "الأديب الكبير" وبضرورة اتخاذ جميع الإجراءات لحماية جوته العظيم وبيته. (2) ومكث معه المارشالات لأن ونيه وأوجروا برهة ثم رحلوا معتذرين مجاملين. وشكر جوته كرستيانة على شجاعته وقال لها "إن أذن الله سنكون زوجاً وزوجة" وفي 19 أكتوبر تزوجا. أما أمه الطيبة التي احتملت في حب جميع مثاليه، وفي تواضع جميع مفاخره، فقد جددت بركاتهما لهما. ثم ماتت في 12 سبتمبر 1808، وورث جوته نصف تركتها.

صفحة رقم : 13894

قصة الحضارة - روسو والثورة - الشمال البروتستنتي - جوته نسطورا - جوته ونابليون

وفي أكتوبر 1808 رأس نابليون مؤتمراً من ستة ملوك وثلاثة وأربعين أميراً في أرفورت، وأعاد رسم خطة ألمانيا، وحضر الدوق كارل أوجست المؤتمر واصطحب جوته في بطانته. وطلب نابليون إلى جوته أن يزوره في 2 أكتوبر، وذهب الشاعر، وأنفق ساعة مع الغازي، وتاليران، وقاندين، وفريدريش فون مولر، وهو قاضي فايماري. وهناك نابليون على عافيته (وكان جوته يومها في التاسعة والخمسين)، واستنفس عن أسرته، ثم دخل في نقد جريء لفتر. وقد عاب الدرامات الشائعة التي تؤكد على القضاء والقدر "فلم الحديث عن القضاء والقدر؟ إن السياسة هي القضاء والقدر... ما قول المسيو جوته في هذا؟" ولا علم لنا بجزاب جوته ولكن موللر روى أن نابليون قال لقواده معلقاً بينما جوته يبرح الحجرة "هاكم رجلاً!" (3).

وفي 6 أكتوبر عاد نابليون إلى فايمار، واصطحب معه فرقة ممثلين من باريس من بينهم تالما العظيم. ومثلوا في مسرح جوته مسرحية فولتير "موت قيصر" وعقب الحفلة انتحى نابليون بجوته جانباً وناقش معه التراجم، فقال "إن الدراما الجادة تصلح جداً لأن تكون مدرسة للأمرء كما هي مدرسة الشعب، لأنها من بعض نواحيها فوق التاريخ... يجدر بك أنت أن تصور موت قيصر صورة أبهى مما صوره فولتير، وتبين كم كان قيصر (نابليون) سيسعد العالم لو أن الشعب أتاح له الوقت لإنفاذ خطته السامية. "ثم بعد قليل" لا بد أن تأتي إلى باريس! إنني أوجه إليك هذا الرجاء المشدد! ستتاح لك هناك نظرة أوسع للعالم، وستجد ذخيرة من الموضوعات لشعرك" (4) وحين مر نابليون بفايمار ثانية عقب تفهقره المشؤم من موسكو طلب إلى السفير الفرنسي أن يبلغ جوته تحياته.

وأحس الشاعر أنه في بونابرت قد التقى، على حد تعبيره، بـ "أعظم فكر شهده العالم" (5) إلى الآن. وقد وافق تماماً على حكم نابليون لألمانيا، فلم يكن هناك ألمانيا على أية حال (كما كتب جوته في 1807) إنما هي خليط من الدويلات، أما الإمبراطورية الرومانية المقدسة

صفحة رقم : 13895

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> جوته ونابليون

فقد نفذ قضاء الله فيها في 1806، وبدا لجوته أنه من الخير أن تتوحد أوروبا، لا سيما تحت راسه رجل ألمعي كبونابرت. ولم يغتبط بهزيمة نابليون في واترلو، مع أن دوقه قاد أفواج فايما مرة أخرى ضد الفرنسيين. لقد كانت ثقافته واهتماماته أشمل وأعم من أن يتيح له الشعور بالكثير من الزهو الوطني، ولم يستطع أن يستشعر في نفسه الميل لتأليف الأغاني ذات الحماسة القومية رغم كثرة ما طلب إليه. قال لأكرمان وهو في الثمانين: "أنى لي أن أولف أغاني الحقد وأما لم أشعر بشيء من الكره؟ وأقول فيما بيني وبينك أننى لم أكره الفرنسيين قط وإن شكرت الله على خلاصنا منهم. وأنى لي، أنا الذي أرى الحضارة والهمجية الشينيين الوحيديين اللذين لهما مغزى، أن أبغض أمة هي من أكثر أمم الأرض ثقافة، أمة أدين لها بجزء عظيم من ثقافتى؟ على أية حال أرى أن مسألة الكراهية بين الأمم هذه شيء غريب. فأنت ستجد دائماً أقوى وأشد مما تكون ضراوة في المراتب الدنيا من المدنية. ولكن يوجد مستوى تختفي فيه كلية، ويقف عليه الإنسان فوق الأمم إذا جاز التعبير، ويحس أفراس شعوب مجاور أو أتراحه كأنها أفراسه هو وأتراحه. ولقد كان هذا المستوى يلائم طبيعتي، ولقد بلغت قبل أن أبلغ الستين بزم من طويل" (6). أليت كل دولة غنيت بمليون من هؤلاء "الأوربيين الصالحين!"

صفحة رقم : 13896

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> فاوست (الجزء الأول)

2- فاوست (الجزء الأول)

لم يقبل جوته دعوة نابليون إياه للانتقال إلى باريس أو للكتابة عن قيصر، ذلك أنه طالما احتضن في ذهنه وفي مخطوطاته موضوعاً أثاره إثارة أعظم من حتى أعظم مستقبل سياسي: إلا وهو صراع النفس لبلوغ الفهم والجمال "وهزيمة النفس بسبب قصر عمر الجمال وروغان الحقيقة، والسلام المستطاع للنفس، بتضييق الهدف وتوسيع الذات. ولكن كيف

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> فاوست (الجزء الأول)

السبيل إلى تخل هذا كله في قصة رمزية عصرية وشكل درامي؟ لقد ظل جوته يحاول تحقيق هذا الهدف ثمانية وأربعين عاماً. وكان قد تعلم قصة فاوست (7) في طفولته من كتيبات القصص الشعبية ومسارح الدمى، ورأى صوراً لفاوست والشيطان على جدران حانة أورباخ في ليبزج. وتطفل هو نفسه في شبابه على السحر والخيمياء. وامتزج بحثه الدعوب عن الفهم بتصوره لفاوست، ودخلت قراءته لفولتير وإمامه بتهكمات هررد في تصويره لفستوفيليس، وأعطت جريتشن التي أحبها في فرنكفورت، وفردريكه بريون التي هجرها في زيزنهايم، لمارجريت اسمها وصورتها. ويتجلى عمق تأثير جوته بقصة فاوست، وتباين الأشكال التي اتخذتها في فكره، إذا علمنا أنه شرع في تأليف المسرحية في 1773 فلم يفرغ منها إلا في 1831. وحين التقى بهررد في 1771 كتب في ترجمته الذاتية: "أخفيت عنه في تكتم شديد اهتمامي بشخص معينة أصلت جذورها في كانت تشكل نفسها شيئاً فشيئاً في صورة شعرية. وتلك هي جوتزفون برلينجن وفاوست... فمسرح عرائس فاوست ذو المغزى كان يجلجل ويتردد في باطني بأنغام كثيرة. كذلك كنت قد طوفت في شتى ضروب العلم، وانتهيت في فترة مبكرة من حياتي إلى تبين بطلانه، ثم إنني جربت كل أساليب العيش في الحياة الواقعية، وكنت دائماً أعود منها ضيق النفس غير راض عنها. هذه الأشياء وغيرها حملتها معي وسعدت بها في ساعات العزلة ولكن دون أن أكتب شيئاً" (8). وفي 17 سبتمبر 1775 كتب إلى مراسل يقول: "أحسست بانتعاش هذا الصباح وكتبت مشهداً في مسرحيتي فاوست" (9). وفي تاريخ لاحق من ذلك الشهر سأله بوهان تسمرمان عن سير المسرحية. "فأتي بحقيبة مملوءة بمئات من قطع الورق وألقاها على المائدة. وقال: هاك فاوستي" (10). وحين ذهب إلى فايمار (نوفمبر 1775) كان أول شكل للدراما قد اكتمل (11). ولكنه نحاها لأنه لم يرض عنها، ولم تصل "فاوست الأصلية"

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> فاوست (الجزء الأول)

هذه قط إلى المطبعة إلا في 1887 حين وجدت في فايمار (12) نسخة خطية نسختها الأنسة فون جوشهاوزن. وراح ينفخ ويوسع فيها طوال خمسة عشر عاماً أخرى. وأخيراً نشرها (1790) باسم "شذرة من فاوست" تبلغ الآن ثلاثاً وستين صفحة، (13) وكان هذا أول شكل مطبوع لأشهر مسرحية منذ هاملت.

على أن جوته ظل غير راض عنها، فأسقط الموضوع حتى 1797. وفي 22 يونيو كتب إلى شيلر يقول "اعتزمت أن أستأنف كتابة "فاوستي... مفككاً ما طبع منها، مرتباً إياه في كتل كبيرة... معداً تطور المسرحية إعداداً أو في... كل ما أريده أن تتفضل بتقليب الأمر في فكرك في ليلة من لياليك النابغة-وتخبرني بما تتطلبه المسرحية بوصفها كلاً، وتفسر لي أحلامي تفسير نبي صادق. ورد عليه شيلر في الغد. "إن ازدواج الطبيعة البشرية، ومحاولة الإنسان الفاشلة للجمع بين العنصر الإلهي والعنصر الجسدي، لا تغيب عن البصر أبداً... إن طبيعة الموضوع سنكرهك على تناوله فلسفياً، وعلى الخيال أن يكيف نفسه لخدمة فكرة عقلية." أما خيال جوته فكان غاية في الخصوبة، وأما تجاربه الناصعة الذكرى فكثيرة جداً، لذلك أدخل الكثير منها في "شذرة من فاوست" فضاعف بذلك من حجمها. وفي 1808 أذاع على العالم ما نسميه الآن الجزء الأول من فاوست.

وقبل أن ينطق دميته بكلمة، صدر الدراما بإهداء رقيق إلى أصدقائه الموتى، وبفصل تمهيدي هزلي "برولوج في المسرح" بين المدير والمؤلف والمضحك، و "برولوج في السماء" يراهن الله فيه مفستوفيليس على أن فاوست لا يمكن أن يظفر به الإثم بصفة دائمة. ثم يتكلم فاوست أخيراً في أبسط شعر هزلي:

"أجهدت نفسي في دراسة الفلسفة والشريعة والطب، وتعمقت أيضاً-ويا للحسرة في دراسة علوم الدين، بجد لا يعتوره فتور وهمة لا تعرف الكلال. ثم أراني-أنا البليد المسكين-بعد هذا كله لم أتقدم شبراً ولم أخط نحو العرفان خطوة.

صفحة رقم : 13899

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> فاوست (الجزء الأول)

"سميت الأستاذ والدكتور، وقضيت زهاء عشر سنوات وسط تلاميذي أخادعهم وأغرر بهم وأذهب بهم ذات اليمين وذات الشمال. ثم أرانا بعد هذا كله لم نزل عاجزين عن أن ندرك شيئاً أو أن نلم بشيء".

وقد تبين أن البحر الرباعي التفاعيل، المنحدر من تمثيلات هانز زاكس القصيرة، هو الوزن المترقق اللائق لدراما هذبت الفلسفة بالفكاهة.

وفاوست هو بالطبع جوته، حتى في كونه رجلاً في الستين، لم يزل كجوته ينتشي في الستين بحسن المرأة ورشاققتها. وتطلعه المزدوج إلى الحكمة والجمال هو روح جوته الضميم، وقد تحدى تطلعه الألهة المنتقمة بوقاحتها، ولكنه كان نبيلاً. لقد قال فاوست وجوته نعم للحياة، الروحية والحسية، الفلسفية والمرحة، وعلى النقيض من ذلك كان مفستوفيليس (وهو ليس إبليس بل فيلسوف إبليس فقط) شيطان الإنكار والشك، كل تطلع في نظره هراء، وكل حس إنما هو هيكل عظمي يكسوه جلد. وقد كان جوته في لحظات كثيرة هذا الروح الساخر أيضاً. وإلا لما استطاع أن يسبغ عليه هذا الذكاء وهذه الحياة. ويبدو مفستوفيليس أحياناً صوت التجربة، والواقعية والعقل، يكبح رغبات فاوست وأوهامه الرومانسية، والحق، كما قال جوته لأكرمان "إن شخصية مفستوفيليس... حصيلة حية لخبرة واسعة بالدنيا" (15).

وفاوست لا يبيع روحه بغير شروط، فهو لا يوافق على أن يقذف به في الجحيم إلا أن أراه مفستوفيليس لذة فيها من الإشباع الدائم له ما يحبب له معاشتها إلى الأبد:

"لئن جاء اليوم الذي أرقد فيه على فراش الكسل والراحة... فليكن ذلك اليوم آخر عمري!... ولو مرت بي لحظة من الزمن وكانت من الحسن بحيث قلت لها أن "لا تيرحي فما أحلاك! إذن فتهيئي لي سلاسلك وأغلالك... هنالك أرحب بالموت"....

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> فاوست (الجزء الأول)

وبهذا الشرط يبرم فاوست حلقة مع دمه ويصيح في استهتار "هلم نطفأ الآن ظمأ رغباتنا المتأججة في بحر من الشهوات" (16).
ويأخذه مفيستوفيليس إلى مارجریت - "جریتشن" فيجد فيها فاوست كل فتنة البساطة التي تولى مع المعرفة وتعود مع الحكمة. ويتودد إليها بالجواهر والفلسفة:
"مارجریت: قل لي ما رأيك في الديانة؟ لست أنكر أنك من أطيب الناس وأحسنهم. لكني أخشى أن تكون قليل الإيمان.
فاوست: دعي هذا يا حبيبتي! أنت ترينني مثيراً بك؛ أود أن أبذل من أجل حبك لحمي ودمي، وما أريد لعمرى أن أسلب أحداً دينه ومعتقده.
مارجریت: هذا خطأ. يجب على الإنسان أن يؤمن بالدين!... قل لي: هل تعتقد وتؤمن بالله؟
فاوست: أيتها الحبيبة! من ذا الذي يستطيع أن تبلغ به الجرأة والقحة أن يقول "أنا أعتقد بالله"...
مارجریت: إذن فأنت لا تؤمن بالله؟
فاوست: لا تسيئي فهم أقوال أيتها الحبيبة: أي الناس يقدر أن ينطق باسمه؟ وأيهم يستطيع أن يقول "أنا لا أؤمن به؟
وأي الوري يحسن ويبصر، ويسمع، ويعي، ثم يجرو أن يقول "أنا لا أؤمن به"؟ ذلك القابض على كل شيء وممسك كل شيء؟ أليس هو الممسك لي ولك ولنفسه! أما تتظرين إلى السماء كيف رفعت وإلى الأرض كيف سطحت؟... وإلى هذه النجوم الزهر تسبح في السماء، مرسله ضياءها الأبدي المحبوب؟... فمن هذا كله فاملأي قلبك حتى يطفح... بتلك السعادة، ويستنير بذلك النور. وعندئذ فلتسميه كما تشائين، ولتدعيه بما يحلو لك من الأسماء: السعادة أو القلب أو الحب أو الرب. أما أنا فما له اسم عندي. وكل همي أن أحسه وأستشعره. فالشعور هو كل شيء! وما الاسم إلا صدى لا طائل تحته، أو غمام يستر عن أبصارنا محيا الشمس البديع.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> فاوست (الجزء الأول)

مارجریت: هذا كله حسن وجميل... لكني ما زلت قلقة لأنني أرى قدمك في المسيحية غير راسخة.
فاوست. ولم أيتها الطفلة العزيزة! (17).
وهي لا تتأثر بحيلولته الغامضة، بل بالصورة الجميلة والثياب الرائعة التي خلعتها سحر مفيستوفوليس على شبابه المحدد. وهي تتشد على مغزلهما أنشودة ملؤها الحنين الحزين .

"أنا-صبحي ومسائي"

في عذاب وبلاء،

واعنائى! وأشقائى!

هل لدائى من دواء؟

كيف لا يشتد خطبى

كيف لا يزداد كربى

كيف لا يحزن قلبى

وحبيب القلب ناء؟

بان صفو العيش عنى

قرح التسهيد جفنى،

لم يسكن نار حزني

دمع عيني وبكائي.

قد نبا عني الرقاد

وبرى جسمي السهاد

آه! قد طال البعاد

وشفائي في اللقاء.

صفحة رقم : 13902

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> فاوست (الجزء الأول)

فمتى يسمح دهري

ويريني وجه بدري

قد أضل الحب فكري

والهوى أعضل داه.

أو ما يدنو الحبيب

فأرى العيش يطيب؟

الهوى أمر عجيب

منه سقمي ودوائي؟

ما أحلاه إذا ما

ثغره أبدى ابتساما!

قد حكى البدر التماما

في سناء وبهاء.

آه لو أشفى بلثمة

منه أو أخطى بضمة!

ثم يقضي الدهر حكمه

بهلاكى وفنائى(18).

وبقية القصة يعرفها الغرب كله، ولو من جوناو فقط. فمارجريت تعطي أمها شراباً منوماً لا تفيق منه لكي تقبل حبيبها وتغيب عن الوعي دون رقيب. ويقتل فاوست فالتين أخوا مارجريت في مباراة ثم يختفي؛ أما مارجريت فتقتل طفلها العديم الأب خزيًا وحسرة، فيقبض عليها ويحكم عليها بالإعدام. ويزورها فاوست في زنازنتها ويرجوها أن تهرب معه، فتعانقه، ولكنها ترفض مغادرة زنازنتها. ويجذب مفيستوفيليس فاوست بعيداً، بينما يصبح صوت من السماء "كتبت لها النجاة!".

صفحة رقم : 13903

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> فاوست (الجزء الأول)

ولم يدرك جمهور القراء-إلا ببطء-أن فاوست 1808 هذه أروع دراما وأجمل شعر أنتجتها ألمانيا إلى ذلك التاريخ. ولكن قلة من أصحاب العقول اليقظة فطنوا للتوالي أنها جديرة بأن تتبوأ مكانها بين شواخ الأدب العالمي. وشبه فريدرششليجل جوته بدانتي، وسوى جان بول رشتير بينه وبين شكسبير، ورفع فيلاند في دنيا الشعر إلى مقام السيادة الذي ارتفع إليه نابليون في دنيا الحكم والحرب (19).

صفحة رقم : 13904

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> نسطورا عاشقاً

3- نسطورا عاشقاً

في السنوات 1818-21 دخل جوته في غرامين مثيرين، فضلاً عن صلته ببتيانا برنتانو. ففي 23 أبريل 1807 جاءت بتيانا ذات الاثنتين وعشرين ربيعاً إلى الشاعر المسن بخطاب تقديم من فيلاند. وكانت حفيذة صوفي فون لاروش التي أحببت فيلاند من قبل، وابنة مكسمليانة برنتانو التي غازلت جوته في شبابها، وقد أحست أن لها دالة الحفيذة على قلب جوته. ولم تلبث بعد أن دخلت حجرته أن ألقّت بنفسها بين ذراعيه. وقبلها هو على أنها طفلة، وبعدها كان يرسلها بهذا المعنى، ولكنه طوي رسائله على أحدث قصائده الغزلية، ومع أنها لم تكن موجهة إليها إلا أنها عدتها بوحاً بغرام مشبوب، وأضفت عليها ذلك اللون في كتابتها "رسائل جوته إلى طفلة" الذي نشرته في 1835. أما ملهمة أكثر هذه القصائد فهي فلهمينا هرتسلييب. وكافت منا، كما دعاها جوته بعد قليل، ابنة كني في بينا. وقد عرفها طفلة، ولكنها في عام 1808 كانت في التاسعة عشرة، فتاة خجولاً، رقيقة، مشرقة. وكانت تتلقف كل كلمة يفوه بها، وتتحسر على أن شيخوخته ومكانته الاجتماعية تمنعها عن عشقه وتملكه. وأدرك هو شعورها، واستجاب له ونظم لها الصونيات، موريا على اسمها كقلب محب، ولكنه تذكر أنه لم يمض على زواجه من كرستيانة إلا زمن قصير. ويلوح أنه كان يفكر في منا وهو يصور أوتيليبه الخجول الودود، المشدودة الأعصاب، في قصته "الانجذابات العاطفة 1809".

صفحة رقم : 13905

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> نسطورا عاشقاً

وهذه القصة الممتازة، في رأي مؤلفها (20)، خير قصصه المنشور، فهي أفضل تنظيماً وأكثر تماسكاً في روايتها من أي من تطويقات فلهم مايبستر. وهنا نلاحظ قول جوته لأكرمان (9 فبراير 1819): "ليس في قصة "الانجذابات

العاطفة) بأسر هاسطر لم أعشه أنا نفسي حقيقة وفعلاً، ووراء النص معان أكثر كثيراً مما يستطيع أي إنسان استيعابه من قراءة واحدة". والواقع أن عيب الكتاب أن فيه من جوته أكثر مما يجب، ومن التفلسف الجاري على السنة لا يتوقع أن يجري عليها قدر أكبر مما ينبغي.

"مثال ذلك أنه يجعل الفتاة أوتيليه تحتفظ بيومية يودع فيها بعضاً من أنضج التأملات كقوله "لا سبيل إلى الدفاع عن أنفسنا أمام التقوق العظيم في إنسان غيرنا سوى سبيل الحب(21). ولكن احتواء هذا الكتاب على هذا القدر الكثير من جوته هو الذي يجعله دافئاً بالحياة غنياً بالفكر: لأن شارلوتة القصة هي أيضاً شارلوتة فون شنتين. تغري ولكنها تأتي أن تخون زوجها، ولأن الكبتن هو جوته العاشق لزوجته صديقه، ولأن إدورد، الزوج ذا الخمسين المقيم بأوتيليه هو جوته المفتتن بمنى هرتسلييب، ولأن القصة هي محاولة جوته تحليل حساسيته الشبقة.

وقد قصد هنا أن يفكر في الجاذبية الجنسية بلغة كيميائية. وربما اتخذ عنوان كتابه من "الانجذابات العاطفية" الذي نشره الكيميائي السويدي العظيم توربرن أولوف برجمان في 1775. والكبتن يصف لإدورد وشارلوتة انجذابات جزئيات المادة وتنافراتها وتجمعاتها فيقول: "ينبغي أن تريا بنفسيكما هذه الجواهر-التي تبدو ميتة جداً وهي مع ذلك زاهرة باللشاط والقوة تعمل أمام عيونكما، يبحث بعضها عن بعض... ويمسك ويسحق ويلتهم ويدمر بعضها بعضاً. ثم يعود إلى الظهور فجأة... في صور نضرة، مجددة، غير متوقعة." (22) فحين يدعو إدورد صديقه الكبتن، وتدعو شارلوتة ابنة أخيها أوتيليه، للإقامة معهما في زيارات طويلة، يهم الكبتن بشارلوتة، وإدورد بأوتيليه. وحين يتصل إدورد بزوجته جنسياً يفكر في أوتيليه، وتفكر

صفحة رقم : 13906

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> نسطورا عاشقاً

شارلوتة في الكبتن، في ضرب من الزنا السيكولوجي. ويبدو الوليد عجيب الشبه بأوتيليه، وتخون أوتيليه على الطفل كأنها طفلها. ثم تتركه ليغرق كأنما جاء ذلك مصادفة، ويحملها تأنيب الضمير على أن تضرب عن الطعام حتى الموت. ويموت إدورد حسرة، ويحتفي الكبتن، وتبقى شارلوتة على قيد الحياة، ولكنها ميتة روحياً. ويخلص فيلسوف في المدينة إلى أن "الزواج هو البداية والنهاية لكل ألوان الحضارة. أنه يروض المتوحشين، ويمنح أكثر الناس ثقافة، خير فرصة للرقعة ودمائة الخلق. وينبغي أن يكون غير قابل للفسخ لأنه يجلب من السعادة الكثير، ما يجعل متاعبه العارضة لا وزن لها(23)". على أن أحد شخوص القصة يقترح بعد أربع صفحات من هذا القول زواج التجربة الذي لا يتجاوز العقد فيه المرة خمس سنوات.

وفي 1810 نلتقي بجوته في كارلسباد يستشفي بمياهاها ويغازل شاباتها، بينما نظل كرستيانة التي مضى على زواجها أربعة أعوام في البيت تغازل الشبان. فقد تتيتمت بالشاعر ذي الحادية والستين عاماً يهودياً حسناً سموا تدعى ماريانه فون إيبينبرج، ثم هرب منها إلى الشقراء سلفي فون تسيجزار. وفي قصيدة وجهها إلى سلفي يدعوها "الابنة الخليفة، الحبيبة، البيضاء النحيقة القوام" (24)، وقد أرسلت إليه كرستيانة نداءات تناشده الوفاء:

"وهل وصلت بتينا وتلك السيدة فون إيبينبرج إلى كارلسباد؟ يقولون هنا أنه من المتفق عليه أن تكون زلفي وآل جوترز هناك أيضاً. فماذا أنت صانع وسط كل معابثاتك؟ ما أكثرها! ولكنك لن تنسى أقدامها عهداً، أليس كذلك؟ فكر في قليلاً أيضاً، بين الحين والحين. إنني أريد الوثوق بك ثقة تامة، مهما قال الناس. لأنك كما تعلم الوحيد الذي يفكر في إطلاقاً" (25). ويبعث إليها هدايا صغيرة.

وقد وجد وقتاً كل يوم تقريباً لكتابة شيء من الشعر أو النثر. وحوالي عام 1809 بدأ يكتب سيرته الذاتية، وقد سماها "الخيال والحقيقة من حياتي" واعترف العنوان اعترافاً جميلاً بأنه بين الحين والحين، من عمد أو غير عمد،

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> نسطورا عاشقاً

ربما مزج الخيال بالواقع. أما غرامه بشارلوت بوف فقد مسه مساً خفيفاً رقيقاً، ولكنه كان أكثر إفاضة في قص غرامه بفردريك بريون، وكانت المرأتان لا تزالان على قيد الحياة. ثم حل في براعة وأريحية الكثير من أصدقاء شبابه- لنتس، وبازدوف، ومرك، وهردر، وياكوبي، ولافاتر. أما عن نفسه فقد تكلم في تواضع، وقد شكوا في ملاحظاته الخاصة من أن كاتب السيرة الذاتية يتوقع منه الناس أن يعترف بنقائصه ولا يعلن عن فضائله(26). والكتاب تاريخ فكر أكثر منه تاريخ حياة، والأحداث فيه قليلة والتأملات وفيرة. إنه أعظم كتبه النثرية".

وفي 1811 تلقى من بيتهوفن خطاب إعجاب مع "مقدمو موسيقية لأجمونت". والتقى الشاعر والمؤلف الموسيقي في تبلنر في يوليو 1812، وعزف بيتهوفن لجوته وكان يتمشى معه. وإذا صدقنا الروائي أوجست فرانكل، "كان الناس في المنتزه-أينما ذهب-يفسحون لهما الطريق باحترام ويحيونهما. وقال جوته وقد غاظته هذه المقاطعات المستمرة: "يا لها من مضايقة! لا أستطيع أبداً تجنب هذا الأمر." وأجاب بيتهوفن بابتسامة "لا يضايقك هذا يا صاحب السعادة، فعلي أنا المقصود بالاحترام." وكتب جوته إلى تسلتر (2 سبتمبر 1812): "لقد أذهلتني موهبة بيتهوفن، ولكن شخصيته للأسف لا يمكن السيطرة عليها إطلاقاً. إنه ليس مخطئاً... في اعتباره العالم بغيضاً، ولكن هذا الموقف لا يجعل هذا العالم أكثر إمتاعاً لا له ولا لغيره. وكثير من هذا الموقف يلتمس له العذر فيه بسبب مؤسف هو أنه يفقد قدرته على السمع." (27) أما تعليق بيتهوفن على جوته فكان "ما أشد صبر الرجل العظيم على! وما أعظم الخير الذي أسداه إلي! ولكن "جو البلاط يلائمه أكثر مما ينبغي." (28).

لقد كانت مظاهر البلاط وسلوكه جزءاً من حياة جوته الرسمية، لأنه كان لا يزال يمارس نشاطه في الإدارة. أما حياته البيتية فقد فقدت سحرها. فأوجست ابنه، الذي بلغ الثانية والعشرين في 1812، كان ضعيف المواهب لا أمل في إنقاذه، وكريستيانة باتت بدينة مدمنة للشراب، وكان لها بعض العذر، لأن مغازلتها للنساء لم تتوقف. فخلال زيارته لفرانكفورت، كثيراً

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> نسطورا عاشقاً

ما كان يقيم في فيلا يوهان فون فليميمير الواقعة في إحدى الضواحي، وكان يعجب بماريانه زوجة فليميمير. وفي صيف 1812 أنفق أربعة أسابيع تقريباً معهما. وكانت مريانه في الحادية والثلاثين، ولكنها كانت في ريعان جمالها الأنثوي. وكانت تعني أشعار جوته العاطفية وأحان موتسارت غناءً ساحراً، وتنظم الشعر الرفيع، وتتبادل مع جوته سلسلة من القصائد محاكاة لحافظ والفردوسي وغيرهم من شعراء الفرس (وكان حافظ قد ترجم إلى الألمانية في 1812). وفي بعض القصائد شهوانية سافرة وحديث عن الفرح المتبادل في العناق الجسدي، ولكن هذا الترخص قد يكون مجرد انحراف شعري. والتقى ثلاثة مرة أخرى في سبتمبر بهيدلبرج، وكان الشاعر يخرجان معاً في مسيرات طويلة، وكتب

جوته اسم مريانة بحروث عربية في التراب حول نافورة القلعة. ولم يلتقيا قط بعد ذلك اليوم، ولكنهما ظلا يتراسلان طوال السبعة عشر عاماً الباقية من حياته. ويبدو أن فليمير زاد اعتزازاً بزوجته لأنها فتنت رجلاً بهذه الشهرة، ولأنها عارضت شعر جوته بقصائد لا تقل روعة عن قصائده. وضمن جوته أشعارها وأشعاره في "الديوان الشرقي الغربي" الذي نشره في 1819.

وبينما هو ماض في مراسلاته نثراً وشعراً ماتت كرسنيانة (6 يونيو 1816). وسجل جوته في يومياته: "كان صراخها مع الموت رهيباً... خواء وصمت قائل في باطني ومن حولي." (29) وran على هذه السنوات اكتئاب عميق. وحين زارته شارلوتة كستتر، حبيبة صباه التي فقدها، والتي كانت الآن زوجة في الرابعة والستين لعضو المجلس الناجح كستتر الهانوفري، في صحبة ابنتها (25 سبتمبر 1816) لم يستشعر أي عاطفة تحتلج بين جوانحه، وكان حديثه كله حديثاً تافهاً مجاملاً. ولكن في 1817، تزوج ابنه أوجست من أوتيليبه فون بوجفيس، بعد أن قطع حياة كلها خلاعة وفسق، ودعاه جوتن ليسكن معه، وأنت أوتيليبه بمرح الشباب إلى البيت، وما لبثت أن أعطت الشاعر المسن أحفاداً أنبضوا قلبه بالحياة من جديد.

وأعانتة على ذلك أولريكه فون لفتزوف، وكانت إحدى بنات ثلاث

صفحة رقم : 13909

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> نسطورا عاشقاً

لألمانيا فون لفتزوف التي عرفها جوته في كارلسباد. والتقى في أغسطس 1821 بأولريكه في مارينباد، وقد قالت فيما بعد مسترجعة ذكرى هذا اللقاء: "لما كنت قد أقيمت سنوات في مدرسة داخلية فرنسية بستراسبورج، وكانت لا أتجاوز السابعة عشرة، فإني لم أسمع قط بجوته، ولا خطر لي أنه رجل مشهور وشاعر فحل. وعلى ذلك لم أشعر قط بالخجل من السيد العجوز الودود... وفي غد ذلك اليوم ذاته طلب إلي أن أتمشى معه... وكان يصحبنى معه في نزهته كل صباح تقريباً." (30) وعاد إلى مارينباد في 1822، و "طوال ذلك الصيف أبدى لي جوته غاية الود". وبعد عام التقيا في كارلسباد، وسرعان ما أثار القيل والقال في منتجع المياه المعدنية. وكان الشاعر الآن قد قرر أن حبه أكثر من الحب الأبوي. وألح الدوق كارل أوجست على أولريكه في أن تتزوج جوته، ووعداها إن فعلت بأن يمنع أسرتها في فايماز بيتاً جميلاً، وأن تحصل بعد موت الشاعر على معاش قدره عشرة آلاف طالر في العام (31). وفضت الأم وابنتها. وقفل جوته محزوناً إلى فايماز، وأغرق خيبة أمه في المداد. وعمرت أولريكه حتى أوفت على الخامسة والتسعين.

في ذلك العام، عام 1821 الذي قاد جوته لأولريكه، جاءه في فايماز كارل تسلتر مدير الموسيقى في بينا-بتلميز في الثانية عشرة يدعى فيلكس مندلسون. وكان تسلتر قد فتح روح جوته على عالم الموسيقى، بل أنه علمه التأليف الموسيقي. وأذهلت براعة عازف البيان الصغير الشاعر العجوز وأبهجته، فأصر أن يمكث معه أياماً. وقد كتب فيلكس في 6 نوفمبر يقول: في كل صباح يقبلني مؤلف "فاوست" و "فرتر". وفي العصر أعزف له قرابة ساعتين، وبعض العزف فوجات من باخ، وبعضه من ارتجالي. وفي 8 نوفمبر أقام جوته حفل استقبال ليقيم فيلكس إلى مجتمع فايماز الراقي. وفي 10 نوفمبر كتب فيلكس: "في كل عصر يفتح البيان ويقول: لم أسمعك قط اليوم. تعال واسمعني شيئاً من الضوضاء. ثم يجلس إلى جوارى ويصغي. لا تتصور كم هو عطوف ودود." فلما أراد تسلتر أن يرجع فيلكس إلى بينا، أقتعه جوته بأن يترك تلميذه أياماً أخرى. وكتب الصبي

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> نسطورا عاشقاً

السعيد "وعلت الآن أصوات الشكر لجوته من كل ناحية، ولثمت أنا والبنات شفنيه ويديه. وطوقت أوتيلبيه دون بوجفيس عنقه بذراعها، ولما كانت جميلة جداً، وهو يغازلها طوال الوقت، فقد كان الأثر رائعاً" (32). إن في التاريخ لحظات سعيدة تتوارى خلف درامة المأساة. وتحت ملاحظة المؤرخين.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> العالم

4- العالم

ولنعد الآن إلى سنوات صباه، حيث بدأ بحثه الذي امتد طوال حياته في العلم، باهتمام يقظ ولذة تلتهم كل شيء. وقليل منا من يعرفون أن جوته كرس للبحث والمؤلفات العلمية وقتاً أكثر مما كرس لكل شعره ونثره مجتمعين (33). وكان قد درس الطب والفيزياء في ليبزج، والكيمياء في ستراسبورج: ثم بدأ دراسة التشريح في 1781، وظل سنوات يضرب في؟ أرجاء تورنجيا جامعاً للعينات المعدنية والنباتية ويرقب التكوينات الجيولوجية. وكان في أسفاره لا يلحظ الرجال والنساء والفن فحسب، بل الحيوان والنبات والظواهر البصرية والميتورولوجية أيضاً. وقد قام بدور رائد في إنشاء المختبرات في فيينا. وكان يشتد فرحه بانتصاراته في العلم أو حزنه بهزائمه فيه، اشتداده بنجاحه أو إخفاقه في الأدب.

وقد استحدث شيئاً من دراسة الطقس. ذلك أنه نظم محطات للرصد الجوي في دوقية ساكسي-فايمار، وأعان على إنشاء محطات أخرى في طول ألمانيا وعرضها (34)، وأعد التعليمات اللازمة لها. وكتب المقالات في "نظرية الطقس" و "أسباب تذبذبات البارومتر" وأقنع الدوق كارل أوجست بأن يشرع في اقتناء المجموعات التي كانت النواة لمتحف علم المعادن في فيينا، وبعد أن درس الطبقات الجيولوجية في المينا وذهب إلى أنها تؤيد نظرية أيراهام فرنر التي زعمت أن جميع التكوينات الصخرية على القشرة الأرضية نتيجة لفعل المياه البطيء. (ويجب أن نقرن هذه النظرية "النبوتونية" بالنظرية "البركانية" التي تقول بالتغير نتيجة للحركات العنيفة). وكان من أوائل من ألمعوا إلى أن عمر الطبقات قد يقرر من المتحفات

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> العالم

المطمورة فيها، ومن دافعوا عن الرأي القائل بأن الجلاميد الهائلة الموزعة الآن توزيعاً شاداً في المرتفعات قد قذفتها هناك موجات من الجليد هابطة من المنطقة القطبية الشمالية (35). وفي 1791-92 نشر جوته في مجلدين "مقالات في البصرييات"، وكتب يقول "كان هدفي تجميع كل ما هو معروف في هذا الميدان، والقيام بكل التجارب بنفسي، منوعاً فيها قدر الاستطاعة، ميسراً متابعتها، مراعيّاً أن تكون في متناول الشخص العادي (36). وقد أجرى خلال السنوات من 1790 إلى 1810 ما لا يحصى من التجارب لتفسير اللون، وما زال متحف جوته بفايمار يحتفظ بالأدوات التي استعملها، وظهرت الحصيللة في 1800 في مجلدين كبيرين يحتويان النصوص، ومجلد للوحات، تحت هذا العنوان "في نظرية اللون". وكان هذا أكبر آثاره عالمياً.

وقد درس الألوان باعتبارها ناشئة لا عن التركيب الكيميائي للأشياء فحسب، بل عن تكوين العين وعملها، وحلل تركيب الشبكية للظلام والنور، وفسولوجية العمى اللوني، وظواهر أطيف اللون والصور التلوية، وآثار تناقضات الألوان وتجمعاتها في الإحساس وفي التصوير. وحسب اللون الأخضر خطأً مزيجاً من الأصفر والأزرق. (وهما يمتزجان هكذا حقاً على لوحة ألوان الرسام، ولكن حين يتحد الأزرق والأصفر في الطيف ينتج عنهما الرمادي والأبيض). وقد أعاد إجراء الكثير من التجارب التي ورد وصفها في "بصرييات" نيوتن (1704)، فوجد في عدة حالات نتائج تختلف عما ذكر في ذلك الكتاب، وخلص إلى اتهام نيوتن بعدم الكفاية وبالغش أحياناً (37). وقد عارض رأي نيوتن في أن اللون الأبيض تأليف من عدة ألوان، وذهب إلى أن اتحاد الألوان ينتج عنه بانتظام اللون الرمادي الأبيض. ولكن نتائجه لم يقبلها لا معاصروه ولا من أتوا بعده في ميدان البصرييات. فقد أثتوا على تجاربه ورفضوا الكثير من نظرياته. وفي 1815 أرسل إليه آرثر شوبنهاور مقالاً دافع فيه كفاية عن فكرة نيوتن في أن الأبيض تأليف من عدة ألوان وكان شوبنهاور يعجب بجوته شاعراً

صفحة رقم : 13913

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> العالم

وفيلسوفاً؛ ولم يغتفر له الشيخ فعلته قط. وزاد الرفض العام لنظريته في الألوان سنيه الأخيرة قتلاً. وكان طبيعياً لرجل كجوته، حساس إلى هذا الحد أن يستهويه عالم النبات. فحين زاروا بادوا في أبهجته الحدائق النباتية، فبيها وجد مجموعة أغني وأكثر تنوعاً من كل ما رأي في حياته. وشاهد مدى اختلاف نباتات الجنوب عن نباتات الشمال، فصمم على دراسة تأثير البيئة على شكل النبات ونموه. كذلك لم يشعر قط بمثل هذا الشعور العميق بقدرة الطبيعة الملعزة العارمة على تطوير كل نوع بما تقدر به من حيث التركيب والنسيج واللون والخط من بزور تبدو بسيطة متشابهة. فبالها من خصوبة، وبالها من قدرة على الابتكار! ولكن هناك بعض عناصر مشتركة في كل تنوع الأفراد، وفي كل تطور الأعضاء والأجزاء؟ وخطر له أن هذه الأجناس والأنواع والأشكال هي تحورات من نموذج أصل أساسي، وأن هذه النباتات كلها، مثلاً، شكلت على غرار نموذج أساسي أصيل حتى وإن كان متخيلاً. أو نبات أول، هو أم النبات جميعاً. وكتب إلى هردي يقول "إن هذا القانون ذاته يمكن تطبيقه على كل حي" أي على الحيوانات كما يطبق على النباتات، فالحيوانات هي أيضاً تحورات من أصل بنائي واحد (38). وكما أن الكائن الحي

الفرد، بكل تفرد، هو محاكاة لثمة أول، كذلك قد تكون أجراء الكائن تحورات لشكل أساسي واحد. ولاحظ جوته في بادوا تخيله (بلميطة) كانت أوراقها في مراحل مختلفة من التطور؛ فدرس مراحل الانتقال المرئية من أبسط ورقة إلى مروحة السعف الكاملة الرائعة؛ وتصور فكرة مؤداها أن جميع تركيبات النبات باستثناء المحور أو الساق-هي تحورات ومراحل للورقة .
وبعد عردة جوته إلى فايماي نسر نظريته في كتيب من ست وثمانين صفحة عنوانه "محاولة قام بها س. ف. جوته عضو المجلس الخاص لوقية ساكسي-فايماي، لتفسير تطور النباتات" (1790).

صفحة رقم : 13914

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> العالم

وضحك علماء النبات من الكتيب وقالوا إنه أحلام شاعر، ونصحوا الشاعر بأن يلزم حرفته. (39) فلم يكذبهم، وصاغ آراءه من جديد، في قصيدة سماها "تحور النباتات" وتجمعت الأدلة والمؤيدون للنظرية شيئاً فشيئاً.
وفي 1830 قدم إثنين جوفروا سانتليلير مقال جوته لأكاديمية العلوم الفرنسية، وأشاد به أثراً من آثار البحث الدقيق والخيال الخلاق يؤيده تقدم على النبات (40).
والمع جوته (1790) في محاولة لتطبيق نظريته على التشريح إلى أن الجمجمة ليست تحور وتتمة للفقرات، تحتوي المخ كما يحتوي العمود الفقري على الحبل الشوكي، وليس هناك اليوم اتفاق على هذه الفكرة. ولكن إنجازاً ذكياً أكيداً يرجع الفضل فيه إلى جوته في التشريح-وهو إثباته وجود العظمة البينفكية في الإنسان (وهي العظمة التي تتوسط عظمتي الفك العلوي والتي تحمل القواطع العلوية). وكان علماء التشريح قد تبينوا وجود هذه العظمة في الحيوان، ولكنهم ارتابوا في وجودها في الإنسان، وكان لاكتشاف جوته الفضل في توضيح الخلاف البنياني بين الإنسان والقرد. استمع إلى الشاعر يعلن نجاحه في خطاب من بيتا إلى شارلوتة فون شتين مؤرخ 27 مارس 1784-العاشق والعالم ممتزجين معاً: "سطور إلى حبيبتي لوتة، أقرئها تحية الصباح... لقد منحت شعوراً بالرضى بيهجني. ذلك أنني اهتديت إلى كشف تشريحي جميل وهام في وقت معاً. وسيكون لك نصيبك فيه، ولكن لا تبسني بكلمة عنه". (41) وأذاع كشفه في مقال خطي أرسله إلى مختلف العلماء في 1784 بعنوان "محاولة قائمة على علم العظام المقارن، لإثبات أن العظمة البينفكية في الفك الأعلى يشترك فيها الإنسان والحيوانات العليا" وكانت هذه "أول رسالة كتبت من قبل يمكن أن توصف بحق أنها تدخل في باب التشريح المقارن، وهي إذن معلم في

صفحة رقم : 13915

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> العالم

تاريخ هذا العلم" (42) (وقد نشر المسرح الفرنسي فيلكس فيك دازير هذا الكشف ذاته في السنة نفسها 1784).

كتب جوته في رسالته: "إن الإنسان شديد الشبه بالحيوان الأعجم... فكل مخلوق إنما هو نعمة أو تحوير في تآلف ألحان عظيم" (43) وقد ذهب كثيرون من العلماء والفلاسفة الذين سبقوه إلى أن الإنسان جزء من مملكة الحيوان ونظم قصيدة سماها "تطور الحيوانات" ولكنه لم يكن من دعاة التطور بالمعنى الدارويني. فقد افترض ثبات الأنواع إتباعاً لمذهب نيناوس، وهكذا لم يكن "النبات الأول" الذي قال به نباتاً بدائياً فعلياً تطورت منه جميع النباتات، إنما كان مجرد نمط عام كانت كل النباتات تحويرات له. ولم يكن رأيه كراي معاصريه لا مارك وإرازمس دارون في أن الأنواع متطورة من أنواع أخرى بالانتخاب البيئي لأشكال واحدة. فهل كان جوته عالماً حقيقياً. ليس بالمعنى الاحترافي. لقد كان هاوياً غيوراً مستثيراً، وعالماً بين القصائد والروايات والغراميات والتجارب الفنية والواجبات الإدارية.

وقد استخدم أجهزة كثيرة وجمع مكتبة علمية كبيرة، ولاحظ ملاحظات مفيدة وتجارب دقيقة وشهد هلمهولتز بالدقة الواقعية للعمليات والتجارب الموضوعية التي وصفا جوته(44). وقد نجح التفسيرات الغائية. ولكن العلماء المحترفين لم يقبلوه عالماً، لأنهم نظروا إليه هارياً يعتمد على الحدس والفرص بثقة مفرطة. وكان ينتقل بسرعة أكثر مما ينبغي من موضوع أو تحقيق آخر لامسا كلاً منهما نقطة خاصة، دون أن يبلغ في أي منها مساحاً للميدان في إلا في البصريات ونظرية اللون. ولكن كان هناك شيء مثالي وبطولي في إصراره المتشعب المتعدد الأشكال. وقال إكرمان في 1825: "سيبلغ جوته عامه الثمانين بعد بضع سنوات، ولكنه لم يكمل الأبحاث والتجارب، فهو لا يفتأ جاداً في أثر تأليف كبير (45). وربما كان الشاعر محقاً في رأيه أن الهدف الأكبر للعالم ينبغي ألا يكون إمداد الرغبات القديمة بأدوات جديدة، بل توسيع الحكمة بالمعرفة في سبيل إثارة الرغبة.

صفحة رقم : 13916

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> الفيلسوف

5- الفيلسوف

كان في الفلسفة، كما كان في العلم، عاشقاً لا أستاذاً محترفاً مع أنه صاحب الفضل في تعيين فشته وشيلنج وهيجل في كراسي الفلسفة ببينا. وكان قليل الاهتمام جداً بجذليات المذاهب الفلسفية، ولكنه كان معنياً أشد العناية بتفسير الطبيعة ومعنى الحياة. وكلم تقدم به العمر بات بفضل العلم والشعر حكيماً، وقد وجد الإنارة عن "الكل" من كل شيء، وكل لحظة، وكل جزء: "كل عابر ليس إلا رمزاً" (46) و "الأقوال المأثورة العارضة" التي خلفها عند موته دون أن تطبع، تتضح بالحكمة في كل صفحة.

ولم يقدم أي نسق منطقي، ولكنه ألمع، براجماتياً إلى "أنه لا حقيقي إلا ما هو مثير" (47) وإلى أنه "في البدء كان الفعل (لا الكلمة)" (48) فنحن نجد الحقيقة في الفعل أكثر مما نجد في الفكر، وينبغي أن يكون الفكر أداة للعمل، لا بديلاً عنه. ولم يولع بكانط كما أولع به شيلر، فقد اعترف بأن الطبيعة النهائية للحقيقة تتجاوز علمنا، ولم يكن يشعر أن هذا يلزمه بسننه العقيدة، بل على العكس أوصي بتجاهل ما لا يمكن معرفته، "إن ما لا سبيل إلى سير أغواره ليست له قيمة عملية"، والعالم المحسوس كاف لحياتنا (49) ولم تساوره أي ريب أو مخاوف معرفية حول الاعتراف بوجود عالم خارجي. كتب لشيلر بعد أن قرأ كانط وشيلنج يقول "إنني أسلم مختاراً بأن ما ندركه حسيماً ليس الطبيعة (في ذاتها)، بل إن الطبيعة تفهم طبقاً لصور وملكات معينة لفكرنا.... ولكن توافق طبائنا العضوية مع العالم الخارجي... (يدل على) تصميم من الخارج، وعلاقة نحو الأشياء" (50) "وكثيرون يقاومون الاعتراف بالحقيقة، لا شيء إلا أنهم لو قبلوه لانهاروا" (51).

ولكن جوته رفض المادية رفضه للمثالية الذاتية. وقال أن "مذهب الطبيعة" الذي قال به دولباخ "بدا لنا [نحن الطلاب في ستراسبورج] شديد القتام... رهيباً كالموت، حتى لقد وجدنا في إبطاة وجود عناء ونكدأ، وكنا نرتعد فرقاً منه كأنه عفريت". (52) كان هذا في شبابه،

صفحة رقم : 13917

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> الفيلسوف

ولكنه أحس به أيضاً في شيخوخته وهو يكتب إلى كنبيل في 8 أبريل 1812:
"إن الرجل الذي لا يدرك هذه الحقيقة. ولا يسمو إلى هذه الرؤية، وهي أن الروح والمادة، للنفس والجسد، الفكر والامتداد،... إنما هما مقوما الكون التوأمين الضروريان، وسيظان كذلك أبد الدهر، وإن لهذين الاثنين حقوقاً متساوية، ومن ثم يمكن اعتبارهما في وجودهما معاً ممثلين لله؛ أقول أن رجلاً لا يدرك هذا خير له أن ينفق عمره في ثرثرة أهل الدنيا ولغوهم الفارغ.

وهذا بالطبع هو سبينوزا، وجوته يتبع سبينوزا إلى الحتمية-"نحن ننتمي إلى قوانين الطبيعة، حتى أن تمردنا عليها(53)، ولكنه أحياناً يميل إلى الاتفاق مع كانط على أن "حياتنا، مثلها مثل الكون الذي ننتمي إليه، تتألف على نحو ملغز من الحرية والضرورة." (54) وكان يشعر بقوة قضاء وقدر تعمل فيه صفات تفرض نمره وتقرره، ولكنه يتعاون معها، كما يتعاون عامل حر يخدم قضية تحركه وتحتويه.
أما دينه فتجميد للطبيعة، ورغبة في التعاون مع قواها الخلاقة-قدرتها الإنتاجية المتعددة الأشكال ومثابرتها العنيدة؛ على أنه استغرق زمناً طويلاً ليكتسب صبرها. وقد شخص "الطبيعة" على نحو مبهم، فرأى فيها فكراً وإرادة، ولكنه فكر يختلف تماماً عن فكرنا، وإرادة محايدة في غير الكثرات كأنها تحايد بين ناس وبراغيث. فليس للطبيعة مشاعر أخلاقية بالمعنى الذي نقصده من التزام الجزء بالتعاون مع الكل، لأنها "هي" الكل. وفي قصيدته "الإلهي" (1782) وصف جوته الطبيعة بأنها بغير شعور ولا رحمة. فهي تدمر كما تعمر بإسراف. "كل متلكم العليا لن تمنعني (جوته) من أن أكون أصيلاً، صالحاً وطالحاً، كالطبيعة" (55)، ومبدؤها الأخلاقي الوحيد هو: عش واجعل غيرك يعيش. وقد سلم جوته بحاجة كثير من النفوس إلى سند فوق طبيعي، ولكنه لم يشعر بمثل هذه الحاجة إلا في أخريات عمره. "من عنده الفن أو العلم فهو يملك (ما يكفي من)

صفحة رقم : 13918

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> الفيلسوف

الدين؛ أما من ليس عنده فن أو علم فهو في حاجة إلى الدين" (56). إنني بصفتي شاعراً وفناناً أشعر بتعدد الآلهة (فأشخص قوى الطبيعة المنفصلة)، أما في دوري عالماً فأنامل إلى الحلولية (أي أرى إليها واحداً في كل شيء) (57).

وإذا كان "وثبياً ثابتاً عامداً" في الدين والأخلاق، فقد خلا من الإحساس بالخطيئة، ولم يشعر بحاجة إلى أنه يموت كفارة عنه، (58) وأنكر كل حديث عن الصليب. وقد كتب إلى لافانتر في 9 أغسطس 1782 يقول "يقول لست عدواً للمسيحية، ولا مضاداً لروح المسيحية، ولكني قطعاً لا مسيحي... أنك تقبل الإنجيل، كما هو، على أنه حقيقة إلهية. حسناً، ما من صوت مسموع من السماء يمكن أن يقنعني بأن امرأة يمكن أن تحبل بطفل دون رجل، وأن رجلاً ميتاً يقوم من قبره. وأنا أعد هذه كلها تجديفات على الله وعلى إعلانته ذاته في الطبيعة" (59). وضيق عليه لافانتر الخناق (كما يروي لنا جوته) و "أخيراً سألني السؤال العسير " إنا مسيحي وأما ملحداً "فصارحته بأنه إن لم يترك لي مسيحيته كما اعتزرت بها إلى ذلك الحين، ففي استطاعتي أن أنحاز دون تردد إلى صف الإلحاد، خصوصاً وأنني أرى أنه ما من إنسان يعرف على التحديد المعنى المقصود من كل من هذين اللفظين" (60). وقد ذهب جوته إلى أن "الدين المسيحي ثورة سياسية جهيضة انقلبت أخلاقية" (61) وفي الأدب "مئات الصفحات التي فيها من الجمال والفائدة، مثل ما في الأناجيل (62)، ومع ذلك أعد الأناجيل الأربعة كلها حقيقية لا غبار على صحتها، ففيها يتجلى البهاء المنعكس للقوة السامية التي انبثقت من شخص المسيح وطبيعته، الذي كان إلهياً ما ظهرت الألوهية في الأرض... وأنا أنحني أمامه بوصفه المظهر الإلهي لأسمى مبدأ للفضيلة" (63). ولكنه اعتزم أن يعبد الشمس كما يعبد المسيح، باعتبارها مظهرأ عادلاً من مظاهر القوة الإلهية (64). وقد أعجب بلوثر، وامتدح حركة الإصلاح البروتستنتي لتخطيها أغلال التقاليد، ولكنه أسف على انكاسها إلى العقائدية المترتبة (65). وخامره شعوره بأن البروتستنتية ستعاني من افتقارها إلى المراسم الملهمة المكونة للعادات، ورأى أن الكاثوليكية

صفحة رقم : 13919

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> الفيلسوف

حكيمه سمحة في رمزها للعلاقات والتطورات الروحية بالأسرار المقدسة البالغة الوقع في النفوس (66). أما آراء جوته في الخلود فقد تغيرت مع السنين. ففي 2 فبراير 1789 كتب إلى فريديش تسو شتوليرج يقول "أما أنا فأتمسك بوجه عام بتعاليم لوكريتيوس، وأقصر نفسي وكل آمالي على هذه الحياة". ولكنه في 25 فبراير 1824 قال لأكرمان "لا أريد إطلاقاً أن أستعني عن سعادة الإيمان بحياة مستقبلية؛ والحق أنني أقول مع لورنتسو دي مديتشي أن الذين لا رجاء لهم في حياة أخرى هم موتى حتى في هذه الحياة؛" وفي 4 فبراير 1825، "إنني راسخ الاقتناع بأن روحنا شيء لا يقبل الفناء إطلاقاً" (67). وقرأ زفيد نبورج، وقبل فكرة عالم الروح (68)، وداعب آمال تقيص الأرواح. ودرس القبلانية ويكوديللا ميراندولا، بل رسم البروج أحياناً لكشف الطالع (69). وكلما تقدم به العمر ازداد تسليمه بما للإيمان من حقوق.

"إذا توخيت الدقة في التعبير، قلت إنه لا يمكنني أن أصل إلى معرفة الله إلا المعرفة التي أستقيها من الرؤية المحددة المتاحة لمدركاتي الحسية على هذا الكوكب المفرد. ومعرفة كهذه إنما شظية من شظية. ولست أسلم أن هذه المحدودية، التي تصدق على ملاحظتنا للطبيعة، يجب أن تصدق في ممارسة الإيمان. فالعكس هو الصحيح. ولعل معرفتنا، وهي ناقصة بالضرورة، تتطلب الإضافة والاستكمال بفعل من أفعال الإيمان" (70). وفي 1820 أسف على تأليفه "برومثيوس" المتمرد أيام شبابه، لأن شباب المتطرفين يومئذ كانوا يستشهدون به ضده (71). وقد انصرف عن فشله حين اتهم فشله بالإلحاد (72). وكان رأيه الآن "أنه من واجبنا ألا نخبر غيرنا بأكثر مما في قدرتهم تلقية. فالإنسان لا يفهم إلا ما يناسبه" (73).

وكما تغيرت آراؤه في الدين، كذلك تغير مفهومه للأخلاق مع تقدم عمره. فحين كان يظفر بنشاط الشباب وكبريائه فسر الحياة بأنها ليست سوى

صفحة رقم : 13920

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> الفيلسوف

مسرح لتتمة الذات والظهور. "إن هذه الرغبة الملحة في أن أرفع ما استطعت هرم حياتي الذي أعطيته وأرسيت قاعدته لي، ترجح كل ما عداها، ولا تكاد تسمح بلحظة انتكاس" (74). وقد رأيناه يجرح نفوساً رقيقة في هذه العملية. ولكنه حين نضح بفضل المنصب السياسي أدرك أن الحياة البشرية عملية تعاونية؛ وأن الفرد إنما يحيا بالمساعدة المتبادلة؛ وأن الأفعال الأنانية وأن ظلت القوة الأساسية-إلا أنه لا بد من أن تحد بحاجات الجماعة. ففاوست في قسمها الأول هي النزعة الفردية متجسدة؛ وفي قسمها الثاني يجد "الخلاص" وسلامة الروح، بالعمل للصالح العام. وفلهم مايبستر في "تلمذته" يحاول تعليم ذاته وإنماءها وإن كان بحكم طبيعته وتدرية كثيراً ما يعين إخوانه؛ وفي "تطوياته" يحاول تحقيق المزيد من سعادة المجتمع. وقد غض جوته من الوصية بمحبة الأعداء، ولكن عرف النبيل بنبل في قصيدة من أروع قصائده:

"ليكن الإنسان نبيلاً

معيناً وطيباً

فذلك وحده

هو الذي يميزه

عن سائر الكائنات

التي نعرفها...

إن الطبيعة

مجردة من العواطف

تشرق شمسها

على الأشجار والأبرار،

ويضيء القمر والنجوم

على الصالحين والصالحين.

والرياح والسيول،

والرعد والبرد،

صفحة رقم : 13921

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> الفيلسوف

تهدر في طريقها،

تنتزع وتكتسح أمامها

واحداً بعد واحد...

ولا مناص لنا كلنا بحكم القوانين

العظمى، الأبدية الصارمة،

من أن نكمل دورة وجودنا.

ولكن الإنسان وحده

يستطيع المحال،

فهو يميز،

ويختار، ويحكم؛

ويستطيع أن يطيل مكث

اللحظة العابرة.

هو وحده القادر على

أن يثيب الخير،

ويعاقب الشر،

ويشفي وينفذ،

ويصدق النصح

للخطاة والضالين

فليكن الإنسان النبيل

معيناً وطيباً.

ولكي يكون الإنسان نبيلاً عليه أن يحذر المؤثرات المفسدة، و "الكل مؤثر إلا ذواتنا" (75). "دعك من دراسة المعاصرين والذين يحاربونك؛ بل أدرس عظماء الماضي الذين احتفظت آثارهم بقيمتها ومكانتها وقروناً. فالرجل الموهوب حقاً ينحو هذا النحو بحكم طبيعته، والرغبة في التتقيب في أعمال الأسلاف العظام علامة صادقة على الموهبة السامية"، (76) وعليك باحترام المكتبات وإجلالها لأنها التراث الذي خلفه هؤلاء الرجال. "إن

صفحة رقم : 13922

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> الفيلسوف

المراء حين يتأمل مكتبة ما يشعر كأنه في حضرة رأس مال هائل يأتي في صمت بفائدة لا تقدر" (77). ولكن الفكر يغير الخلق أكثر كثيراً من الخلق بغير الفكر، "فكل ما يحرر العقل دون أن يمنحنا السيطرة على أنفسنا مؤذ" (78). خطط لحياتك، ولكن حاول الموازنة بين الفكر والعمل؛ فالفكر بغير العمل مرض. "فلأن تعرف حرفة وتمارسها يزودك بثقافة أكثر مائة مرة من نصف المعرفة" (79). "وما من بركة تعدل بركات العمل" (80) وفوق كل شيء كن "كلاً" أو انضم إلى كل "أن النوع الإنساني وحده هو الإنسان الحق، ولا يستطيع الفرد أن يفرح ويسعد إلا إذا امتلك شجاعة الشعور بنفسه في الكل" (81).

وهكذا نرى الفني الذي ورث أسباب الرغد والأمن، والذي أضحك طلاب ستراسبورج على لباسه المترف الغريب، فلم تعد بفضل الفلاسفة والقديسين وتجارب الحياة أن يفكر في الفقراء بعطف، وأن يتمنى لو تقاسم المحظوظون من الناس ثروتهم مع الفقراء بسخاء أكثر. وينبغي أن تفرض الضرائب على النبلاء بنسبة دخولهم، وأن يتيحوا لاتباعهم الإفادة من "المنافع التي تهيئها المعرفة والرجاء المترابدين" (82) وقد أحس جوته بما يحس به البورجوازيين من

حسد لأصحاب النبالة بالميلاد حتى بعد أن أطبق صيته آفاق أوروبا. "في ألمانيا لا تتاح فرصة الحصول على... ثقافة شخصية مكتملة الجوانب للنبلاء" (83). وكان يراعي جميع فروض الاحترام المألوف في سلوكه مع رؤسائه. وكل الناس يعرفون ما وقع لجوته وبيتهوفن في تيلتير، في يوليو 1812؛ ولكن المصدر الوحيد لهذه القصة هو بتينا برنتانوفون أرنييم، غير الموثوق بروايتها، التي ادعت أنها تنقل عن رواية بيتهوفن: "يستطيع الملوك والأمراء حقاً أن يخلعوا الألقاب والأوسمة، ولكنهم لا يستطيعون أن يصنعوا عظماء الرجال الذين يجب إذن النظر إليهم بإجلال. وحين يجتمع اثنان مثل جوته ومثلي، فلا بد لهؤلاء السادة من ذوي الحسب

صفحة رقم : 13923

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> الفيلسوف

والنسب أن يفقهوا معنى العظمة عند أمثالنا. فبالأمس التقينا بالأسرة الإمبراطورية (النمساوية) كلها، وخلص جوته ذراعه من ذراعي ليقف جانباً. أما أنا فكسبت قبعتي على رأسي واخترقت الجمع في أكثف نقطة وذراعي تتدليان على جانبي. واصطف الأمراء وأفراد الحاشية في صفين؛ ورفع دوق فايمار قبعته لي، وحينتي الإمبراطورة أولاً. وقد أضحكني أن أرى الموكب يمر أيام جوته الذي وقف على جنب وقبعته في يده. وقد عفته بعدها بقسوة على ما أتاه (84).

وسيختلف انفعالنا بهذه القصة باختلاف عمرنا. فلقد شعر جوته بأن الأرسنطراطية العاملة بنشاط وبروح خدمة الجماعة تهيب خير الحكومات الممكنة آنئذ في أوروبا، وتستحق الاحترام الواجب للنظام والضببط الاجتماعيين. وينبغي إصلاح المفاسد، ولكن في غير عنف أو اندفاع؛ فالثورات تكلف أكثر مما تساوي، وتنتهي عادة إلى حيث بدأت. ومن يقول مفستوفيليس لفاوست:

"وأسفاه! إليك عني! كف عن الثرثرة حول ذلك الشجار بين الطغيان والرق! إنه بضايقتي. فما إن ينته حتى يبدأ من جديد مع المهزلة كلها" (85).

ومن ثم يقول جوته لأكرمان في سنة في سنة 1824: "صحيح أنني لم أكن صديقاً للثورة الفرنسية. فلقد كانت أهوالها عاجلة جداً... على حين لم تكن آثارها النافعة منظورة بعد... ولكنني بالمثل لم أكن متعاطفاً مع الحكم التعسفي الذي سبقها. وكنت حتى في ذلك الوقت مقتنعاً بأنه ما من ثورة هي غلطة الشعب. بل هي دائماً غلطة الحكومة" (86). وقد رحب بنابليون نعمة على النظام في فرنسا وأوربا بعد عقد حفل بالاضطرابات. وكان يتشكك في الديمقراطية لأنه "ما من شيء أسوأ من الجهل النشيط" (87)، و "محال أن نتصور أن الحكمة يمكن أن تكون في يوم من الأيام صفة شعبية" (88).

ثم سخر من تذبذب السلطان بين الأحزاب. "أن الناس يتقبلون في

صفحة رقم : 13924

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> الفيلسوف

السياسة كما يتقبلون على فراش المرض من جنب إلى جنب أملاً في مزيد من الراحة في رقادهم" (89). وقد عارض حرية النشر بحجة أنها تعرض المجتمع والحكومة للإزعاج المستمر على يد كتاب يعوزهم النضج والشعور بالمسئولية. وبدت له الصرخة المطالبة بالحرية، في أواخر عمره، مجرد جوع المحرومين من المناصب للسلطان والمغانم. "إن الهدف الأوحدهو نقل القوة والنفوذ والثراء من يد إلى اليد التالية. وما الحرية إلا كلمة السر التي يهمس بها المتآمرون المتسترون، وصيحة المعركة الصاخبة يصيح بها الثوار السافرون، لا بل شعار الاستبدادية ذاتها وهي تسوف جماهيرها الخاضعة على العدو واعدة إياها بالخلاص من الطغيان الخارجي إلى الأبد" (90). لقد وفي جوته كل الوفاء بواجب الكبار، بقيامه بوظيفة الكابح لطاقة الصغار.

صفحة رقم : 13925

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> فاوست (الجزء الثاني)

6- فاوست (الجزء الثاني)

ولقد سكب فلسفته التي تقدم بها العمر في الجزء الثاني من فاوست. ففي خاتمة الجزء الأول كان قد ترك "نفسه الثانية"، محطمة يائسة، في قبضة مفسئوفيليس- الشهوة تعاقب على إفراطها. ولكن، أكان ممكناً أن يكون هذا كل شيء، وأن يكون جماع الحكمة؟ إن فاوست لم يكن قد خسر رهانه كل الخسران، فالشيطان لم يعثر له بعد على أية متعة تهدئ نضاله وتملاً حياته. فهل ثمة أشباع كالذي يتوق إليه في أي مكان؟ لقد كافح جوته طوال أربعة وعشرين عاماً ليجد للقصة تنمة وقمة تحويان أو ترمزان إلى النتائج التي خلص إلى تفكيره، وتسبغان على بطله خاتمة نبيلة ملهمة. وأخيراً، وحين بلغ الثامنة والسبعين، تصدى للمهمة. ففي 24 مايو 1827 كتب إلى تسلتر الذي شاخ هو وكان مزماً أن يموت معه: "أود أن أعترف لك في هدوء... بأنني عاودت العكوف على فاوست. فلا تختر بذلك أحداً". وكانت خاتمة بايرون المشرة في حرب اليونان التحريرية

صفحة رقم : 13926

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> فاوست (الجزء الثاني)

قد حركت مشاعر جوته؛ فالآن يستطيع أن يجعل بايرون، في شخص "يوفوريون" (ومعناه السعادة)، بن فاوست وهيلانة يمثل شفاء العقل العصري، الممزق الحائر، بفضل اتحاده مع جمال اليونان القديمة الهادئ. ومن ثم راح يكذب ويكده في ساعات الصباح، فلا يبلغ من ذلك غير صفحة واحدة على أحسن تقديره، حتى أفضى لأكرمان في أغسطس 1831، قبل موته بسبعة شهور، بأن المهمة المضمّنة قد تمت. بعد أن انقضت تسع وخمسون سنة على تصويره إياها أول مرة. وكان قد كتب يقول "أسعد الناس من استطاع وصل نهاية حياته ببدايتها" (91). وقال الآن "أياً كان مقدار ما بقي لي من الحياة ففي وسعي أن أعدّه منذ الآن منحة، ولست في الحق أبالي إن كنت سانجز فوق ما أنجزت أم لا" (92).

ولا يستطيع المرء أن يسترسل اليوم في قراءة كل الجزء الثاني من فاوست إلا في ثقة واطمئنان أعوام ثمانين. فابتداء من المنظر الافتتاحي الذي يصف فيه فاوست، بعد استيقاظه بين حقول الربيع، شروق الشمس ببلاغة لم تبل جدتها، تقف حركة القصة المرة بعد المرة للتغزل في الجمال الطبيعة أو التغمي بعظمتها أو رهبتها؛ وقد أجاد المؤلف الوصف، ولكنه أسرف فيه؛ فجوته المبشر بالانضباط الكلاسيكي يآثم هنا ضد شعار "الصدق في القول". ذلك أنه صب في الدراما كل شيء تقريباً تراكم بغير نظام في ذاكرته الجياشة: الميثولوجيات اليونانية والألمانية، ووليدا والبجعة، وهيلانة وركبها، والساحرات، والفرسان، والجنيات، والأقزام الحيوانات الخرافية، والأقزام البشرية، وحوريات الغاب، والسيرانات، ومقالات الجيولوجية "النبوتية"، والخطب الطويلة يلقىها الرسل، وألفيات بائعات الزهر، وحوريات الحدائق، والحطابون،-- والمهرجون القصار السمان، والسكرارى، وأتباع الفرسان، وكلاء الإقطاعيين، والنظار، ثم سائق مركبة حربية وأبو هول، ومنجم وإمبراطور، وآلهة الحقول وفلاسفة، وكراكي أبيكوس، و"رجل قصير" (قزم) صنعه فجنر تلميذ فاوست كيميائياً. والخليط أشد تحيراً وإرباكاً من الدغل المداري،

صفحة رقم : 13927

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> فاوست (الجزء الثاني)

لأنه يضيف العنصر فوق الطبيعي إلى الطبيعي، ويسبغ على كل شيء موهبة الخطابة أو الغناء. وما أعظم الراحة التي نستشعرها حين نظهر هيلانة في الفصل الثالث، وهي ما تزال على نحو معجز إلهة بين النساء، تغزو قلوب الرجال برشاقة حركتها أو بلحظ عينيها. وتتخذ القصة قوة جديدة، ويرتفع الكورس إلى نبرة سوفوكلية، حين تسمع هيلانة أن منيلاوس رغبة في عقاب "الجمال الوقح المتعطر" أمر بأن تسلم هي ووصيفاتها إلى شهورات قبيل "بربري" يغوة بلاد اليونان من الشمال. أما زعيمهم ففاوست نفسه، الذي انقلب بحيلة مفسوفيلية فارساً من فرسان العصور الوسطى، مليح القد والصورة واللباس. ويبلغ جوته ذروة فنه الدرامي حين يصف لقاء هيلانة وفاوست. اليونان القديمة تواجه ألمانيا الوسيطة. فليتحد الإثنان! تلك هي الفكرة الرئيسية في القصة. ويفتتن فاوست ككل الرجال فيلبي عند قدمها بكل ما وهبه السحر والحرب من مال وقوة. وتستسلم هي لتوسلاته، فهذا المصير على أي حال لم يكن شراً من الموت. ولكن منيلاوس يقترب مع جيشه فيقطع عليهما نعيمهما. وفي لمح البصر ينقلب فاوست من الغرام إلى الحرب، ويستنفر رجاله ويقودهم إلى غزو اسبرطة (وهذه ذكرى "الفرنجة" يغزون المورة في القرن الثالث عشر).

ثم يتغير المشهد، فقد مرت السنون سراعاً، وإذا يوفوريون شاب سعيد يشرح صدر فاوست وهيلانة بـ "العناق والمزاح اللعوب والنداءات المرحية" (93). قافزاً في استهتار من جرف إلى جرف، وأبواه يحذرانه في رفق، راقصاً في عنف مع الحوريات اللاتي افتتن بحسنه (بايرون في إيطاليا)، ويمسك بواحدة منهن في جذل، فإذا هي تنفجر مشتعلة بين ذراعيه. وحين يسمع في ترحيب ناقوس الحرب يدق، يندفع خارجاً، فيهوى من منحدر قائم، ويدعو أمه وهو يموت لتلحق به في العالم السفلي.

"هيلانة (فاوست) ويلاه! إن حكمة قديمة يتحقق في صدقها- فزفاف المال إلى الجمال لا يدوم أبداً. إن رباط الحياة يتمزق كما يتمزق

صفحة رقم : 13928

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> فاوست (الجزء الثاني)

رباط الحب، فوداعا لهما جميعاً وأنا أبكيهما في عذابي، وعلى صدرك أرتمي مرة أخرى، فتلقيني يا برسيفوني أنا وولدي. (تعانق فاوست؛ ويتلاشى جسمها وتبقى الثياب والنقاب بين ذراعيه)." وهكذا يختتم الفصل الثالث، وهو أجمل فصول هذا الجزء الثاني من فاوست. وهو الجزء الذي بدأ جوته بكتابته، وسماه "هيلانة"، وظل حيناً يفكر فيه على أنه كل كامل قائم بذاته؛ ولو تركه كذلك لكان خيراً له. فهنا ارتفع جوته لآخر مرة إلى قمة شعره بجهد بطولي لاستنهاض ما بقي له من قوى، مازجاً الدراما بالموسيقى كما جرى اليونان على عهد بركليس، نافخاً الحياة والحرارة في شخوص قصة رمزية معقدة لشفاء العقل العصري. ومن ذلك العلو الشاهق ينزلق الجزء الثاني من فاوست إلى حرب بين إمبراطور وغريم يناقسه على العرش الروماني المقدس. ويحقق فاوست ومفستوفليس بحيلهما السحرية النصر في الحرب للإمبراطور؛ ويطلب فاوست وينال جزاء له مساحات كبيرة من ساحل الإمبراطورية الشمالي، مضافاً إليه ما يسعه انتزاعه من الأرض من برائن البحر. وفي الفصل الخامس نرى فاوست وقد بلغ المائة سيدياً على ملك شاسع، ولكنه لم يصبح بعد سيدياً على نفسه. وذلك أن كوخاً لزوجين من الفلاحين هما فليمون وباوكيس يحجب المنظر من قصره؛ فيعرض عليهما بيتاً أفضل في موقع آخر، ولكنهما يرفضان؛ فيطلب إلى مفستوفليس وعملائه أن يطردوهما؛ ولكنهم يلقون المقاومة، فيشعلون النار في الكوخ؛ ويموت الزوجان العجوزان رعباً. ولا يلبث فاوست أن تطوف به رؤى الأرواح المنتقمة. عجائز شمطاوات اسمهن الفقر، والذنب، والهيم، والحاجة، والموت. وينفخ الهيم في وجهه فيعجميه. وتنتشله من اليأس فكرة فيها شيء من الإيثار؛ فيأمر مفستوفليس وشياطينه بأن يقيموا السدود على البحر، ويجففوا المستنقعات، ويبنوا على الأرض الجديدة ألف بيت وسط الحقول الخضراء؛ ويتخيل هذه الأرض المنتزعة من البحر، ويشعر بأنه استطاع "مع شعب حر أن يقف على أرض حرة" لقال أخيراً لهذه اللحظة العابرة "لا تبرحي لأنك جميلة جداً" (94). ويسمع أصوات الفؤوس والمعاول، فيظن

صفحة رقم : 13929

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> فاوست (الجزء الثاني)

أن مشروعه الضخم يتقدم؛ أما الحقيقة فهي أن الشياطين تحفر قبره. ويأخذ منه الإرهاق كل مأخذ، فيخر صريعاً على الأرض؛ فيشمت فيه مفستوفيليس بينما يتهاى حشد من الشياطين لحمل روح فاوست إلى الجحيم؛ ولكن جيشاً من

الملائكة ينفض من السماء، وبينما يتسلى مفيستوفيليس بالإعجاب بسيفانهم، يرفع الملائكة رفات فاوست. وفي السماء نرى فاوست الذي ألبس جسداً نورانياً تستقبله بالتحية جريتشن الممجة الآن، والتي تتوسل إلى الأم العذراء قائلة: "هبيني أن أعلمه!" وتأمرها العذراء بأن تقوده صعداً، ويختتم كورس سحري المسرحية بهذا النشيد:

"كل عابر

ليس إلا رمزاً؛

وكل ناقص لم يكمل

يبلغ الكمال هنا"

وما لا يمكن وصفه

يتحقق هاهنا

السرمدى الأثوي

يجذبنا صعداً وقدماً.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> التمام

7- التمام

1832-1825

في 1823 أصبح يوهان بتر إكرمان، البالغ واحداً وثلاثين عاماً، سكرتير جوته، وبدأ يدون حديث الشيخ للأجيال القادمة وتحتوي فصيلة هذا الجهد "أحاديث مع جوته" (ثلاثة مجلدات 1836-48)، التي راجعها جوته جزئياً، من ذخائر الحكمة أكثر مما نجده عند معظم الفلاسفة. وفي سبتمبر 1825 احتفلت فايماير بالذكرى الخمسين ولي كارل أوجست العرش وحضر جوته الاحتفال. وأمسك الدوق بيده وتمتم قائلاً له معاً إلى آخر نسمة" (95). وفي 7 نوفمبر احتفل البلاط بالذكرى الخمسين

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> التمام

لقدوم جوته إلى فايماير، وأرسل إليه الدوق خطاباً أذيع أيضاً على الشعب: "ببالغ السرور أود أن أنوه بالذكرى الخمسينية لهذا اليوم يوبيلاً لا للخادم الأكبر لدولتي فحسب، بل لصديق صباي الذي رافقني طوال تقلبات الحياة بثبات المحبة والولاء والوفاء. وأني لمدين في نجاح أهم مشروعاتي لمشورته الواعية ولتعاطفه الذي لا يني وخدمته النافعة. وأني لأعد ضمي إياه لشخصي بصفة دائمة مفخرة من أعظم مفاخر ملكي(96).

ثم أقبلت سنوات الشيخوخة الحزينة حين يختفي الصديق تلو الصديق. ففي 26 أغسطس 1826، بعد عيد ميلاد جوته السابع والسبعين بيومين، أرسلت شارلوتة فون شنتين، وهي في الرابعة والثمانين، آخر ما نعرف من رسائل لحبيبها منذ نصف قرن: "كل تمنياتي الصادقة وبركاتي بمناسبة هذا اليوم. وأتوسل إلى الملائكة الحارسة في المحفل السماوي أن تأمر بمنحك أيها الصديق الأعز كل خير وجميل. وأني ما زلت المخلصة لك في رجاء وبلا خوف، وأنا أسألك أن تهني عطفك السمح خلال الفسحة القصيرة التي بقيت لي في الأجل" (97). ثم ماتت في 6 يناير 1827، فلما سمع جوته بالنبأ بكى. وفي 15 يونيو 1828 مات الدوق، وعرفت فايماير أن عصرها الذهبي أخذ يولي. واستعد جوته

لدوره بالعكوف على فاوست بنشاط محموم. ولكن الدور لم يكن دوره بعد. ذلك أن أوجست، ابنه الوحيد الباقي على قيد الحياة، بعد أربعين سنة من الفشل، وعشرين من الفسق، مات في روما في 27 أكتوبر 1830. وقد أظهر تشريح جثته أن حجم كبده خمسة أضعاف الحجم العادي. فلما أبلغ جوته بالنبأ قال (باللاتينية) "لم أكن أجهل أنني أنجبته إنساناً فانياً" (98). وكتب يقول "حاولت إغراق نفسي في العمل وقد ألزمت نفسي بالمضي في المجلد الرابع من كتاب "الشعر والحقيقة" (99).

وحين بلغ الثمانين بدأ يحد من مجال اهتماماته. ففي 1829 كف عن قراءة الصحف. وكتب إلى تسلتر يقول "لست أستطع البدء بإنائك بما اكتسبته من

صفحة رقم : 13932

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> التمام

وقت وما أنجزته من أعمال خلال الأسابيع الستة التي تركت فيها جميع الصحف الفرنسية والألمانية دون أن أفتحها" (100) "سعيد من كان عالمه في بيته" (101). وقد حظي بالمحبة والرعاية من أرملة أوجست، أوتيليه، واستشعر البهجة بأطفالها. ولكنه كان أحياناً يعتكف حتى عنهم ويطلب الخلوة التامة ويثني على الوحدة لأنها الموسمية والمحك للعقل المتقف.

وقد أفصح وجهه الآن عن أعوامه الثمانين: غضون عميقة غير الجبين وحول الفم، وشعر فضي يتراجع، وعيون هادئة متسائلة؛ ولكن عودة ظل مستقيماً وصحته جيدة. وكان يفخر بأنه اجتنب القهوة والتبغ وكلاهما مدموم في رأيه لأنه سم زعاف. وكان معجباً بطلعته وكتبه، يستطيب ثناء الناس عليه صراحة، ولا يبذله إلا ضئيلاً به. بعث إليه شاعر شاب في 1830 بديوان شعر، فرد عليه جوته ينبئه بتسلمه رداً لاذعاً قال فيه "تصفحت كتبتك، ولكنني نحيتك على المرء في وباء من أوبئة الكوليرا أن يحمي نفسه من المؤثرات المضعفة" (102). وكان يضيق بأصحاب الكفريات الهزيلة، وازداد ضيقه بالناس أكثر فأكثر كلما أكرهته الشيخوخة على الانطواء على نفسه، وقد اعترف بهذا فقال "كل من ظنني لطيفاً من واقع مؤلفاتي ألفي نفسي مخدوعاً أشد الخداع حين أحتك برجل فيه برود وتحفظ" (103). ووصفه زواره بأنه بطيء الانفراج، فيه شيء من التكلف والتصلب ربما نتيجة لارتبأكه، أو لضنه بالوقت ينتزع من واجباته. ومع ذلك فإن كثيراً من رسائله تدل على القرة ومراعاة مشاعر الآخرين.

وطبق صيته الآن آفاق أوروبا. وأشاد به كارليل قبل موت جوته بزمن طويل-فحلاً من فحول الأدب العالمي. وأهدى بايرون "ورنر" إليه، وأهدى برليوز "هالك فاوست" إلى "المونسنيور جوته"؛ وأرسل إليه الملوك الهدايا. ولكن قراءه في ألمانيا كانوا قلة، والنقاد مناوئين له، وانتقص منافسوه من قدره ورموه بأن عضو في مجلس الأمير مغرور يدعى أنه شاعر وعالم. وأدان ليسنج "جوتز" و "فرتر" لأنهما هراء رومانسي؛ واحتقر كلويشتوك "ارمان ودورتيا" لأنه كتاب عادي لا امتياز فيه،

صفحة رقم : 13933

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> التمام

و "افجيني" لأنه تقليد جامد لليونان. ورد جوته بعبارات متكررة من الاحتقار لألمانيا-لمناخها، ومناظرها الطبيعية، وتاريخها، ولغتها، وفكرها. وشكا من أنه اضطر "للكتابة بالألمانية، وهكذا... أهدر الحياة والفن على أسوأ مادة" (104). وقال لأصحابه أن "هؤلاء الألمان الحمقى" يستحقون تماماً هزيمتهم على يد نابليون في بينا (105)، وقد جاء دور ألمانيا لتضحك منه حين انتصر الحلفاء على بونابرت في وورتلو. وإذ انسلخ عن نهر الأدب الرئيسي (النهر الرومانتيكي) في شيخوخته، فقد عزى نفسه باحتقار ازداد عمقاً للعالم والإنسان. "تبدو الحياة كلها-إذا نظرنا إليها من قمع العقل-كأنها مرض خبيث، والعالم كأنه مستشفى للمجانين" (106). وكتب إلى تسلتر في 26 مارس 1816 "قبل أيام وقعت على نسخة من أول طبعة لآلام فرتر، وبدأت ترتفع من جديد تلك الأغنية التي طال إسكاتها. وشق على أن أفهم كيف استطاع رجل أن يطبق العالم أربعين سنة مع أنه تيبين سخفه حتى في صباحه" (107). ولم يتطلع إلى أي تحسين ذي بال في المستقبل. "إن الناس لا يعيشون إلا ليكدر ويقتل بعضهم بعضاً. كذلك كان، وكذلك هو اليوم، وكذلك سيظل إلى أبد الدهر" (108)، وكان يرى كما يرى معظمنا بعد الستين أن الجيل الجديد منحط. "إن هذه الخيلاء التي لا تصدق، والتي يشب عليها الشباب، ستتمخض بعد بضع سنوات عن أعظم حماقات... ومع ذلك فهناك الكثير الذي يتحرك وينشط، وقد يكون مبعث اغتباط في السنين القادمة" (109). وفي 15 مارس 1832 أصيب بنزلة برد وهو راكب عربته في نزهة. ثم بدا أنه تماثل للشفاء في الثامن عشر من الشهر، ولكن في اليوم العشرين كانت الإصابة قد نزلت إلى صدره، وألهمته حمى النزلة، وشوه الألم وجهه. وفي الثاني والعشرين لا حظ أن الربيع بدأ، وقال "لعل هذا يعينني على البرء." وكانت الحجرة قد أظلمت لإراحة عينيه؛ فاعترض قائلاً "ادخلوا مزيداً من الضوء". وإذ كان لا يزال ضيقاً بالظلام أمر خادمه قائلاً "افتح ستارة الناقد الأخرى ليدخل مزيد من الضوء." وكانت هذه

صفحة رقم : 13934

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> جوته نسطورا -> التمام

فيما يبدو آخر كلماته. وكان قد قال لأوتيليه "أيتها المرأة الصغيرة، ناوليني كفك الصغيرة" ومات بين ذراعيها قابضاً على يدها ظهر يوم 22 مارس 1832 بالغاً اثنتين وثمانين سنة وسبعة شهور (110). ورأى إكرمان جثمانه في الغد:

"كان الجسد عارياً إلا من كفن أبيض... وأزاح الخادم الملاء فأذهلني ما رأيته في أطرافه من بهاء إلهي. وكان الصدر قوياً، عريضاً، مقبباً، والذراعان والفخذان ممثلة مفتولة في رقة؛ والقدمان أنيقتين وفي أكمل هيئة؛ ولم يكن في الجسم كله أثر لا لشحم ولا نحول ولا لتحلل. فقد رقد أمامي رجل كامل في أجمل صورة؛ وأنسنتي بهجة المنظر لحظة أن الروح الخالدة قد فارقت هذا المسكن" (111).

وهكذا اختتم عصر عظيم، ابتداء من انتصار فردريك الكنيب في 1763، ومروراً بليسنج وكانط، وفيلاند وهردر، وانتهاء بشيلر وجوته. ولم يوفق العقل الألماني منذ لوثر إلى مثل هذا النشاط والتنوع والثراء في التفكير المستقل. ولم يكن بالكارثة على ألمانيا أنها لم تكن إمبراطورية مترامية كإمبراطورية بريطانيا مستغرقة في الفتح والتجارة؛ ولا ملكية ممرضة كالملكية الفرنسية يمزقها فشل الحكومة؛ ولا استبدادية كاستبدادية روسيا تتخم نفسها بالأرض أو تخدر نفسها بالماء المقدس. إن ألمانيا من الناحية السياسية لم تكن قد ولدت بعد، ولكنها في الأدب كانت تتحدى العالم الغربي، وفي الفلسفة تقود هذا العالم.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> اليهود -> كفاح حياة

الفصل الخامس والعشرون

اليهود

1789-1715

1- كفاح الحياة

قال روسو:

أن اليهود يقدمون لنا مشهداً عجبياً. فقد ماتت قوانين صولون، ونوما، وليكورجوس؛ أما شرائع موسى، الأقدم بكثير، فما زالت حية. وقد بادت أثينا، واسبرطة، وروما، ولم تترك خلفاً على الأرض، أما صهيون التي دمرت فلم تفقد بينها؛ فقد احتفظوا بكيانهم، وهم يتكاثرون، وينتشرون في أرجاء العالم... وهم يخالطون كل الشعوب دون أن يذوبوا فيها(1)؛ وليس لهم حكام، ومع ذلك فهم دائماً شعب".

وربما كان بقاء ناموس راجعاً لا لحكته الأصلية بقدر جدواه في حفظ النظام والاستقرار بين جماعات تعيش في خطر وسط عقائد معادية وشرائع أجنبية. ففي الشتات كان على الكنيس (المجمع) أن يقوم بما تقوم به الكنيسة والحكومة، وربط الحاخامات بين أفراد شعبهم في وحدة متماسكة خلال جميع الانقلابات والغير بإعطائهم بركة إيمان ديني فخور لناموس نظم كل منحي من مناحي الحياة اليهودية وأصبحت الأسفار الموسوية الخمسة الدستور وأصبح التمود المحكمة العليا لدولة غير منظورة.

وفقد العداء لليهودية بعض قواعده الدينية باضمحلال الاعتقادات السنية. وقد عرف المسيحيون ممن ألموا بطرف من التاريخ أن كل شعب تقريباً من الشعوب المسيحية، في فترة أو أخرى، اضطهد المهرطقين بالقتل

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> اليهود -> كفاح حياة

الجماعي جيلاً بعد جيل أو دواوين التفتيش أو المذابح المنظمة. وعرف فولتير هذا(2)، وندد المرة بعد المرة باضطهاد المسيحيين لليهود، وأتى على ما رآه في اليهود من "أسلوب في الحياة رزين منظم، ومن زهد، وكد" وأدرك أن اليهود الأوربيين أقبلوا على التجارة لأن حرمانهم من تملك الأرض "أعجزهم عن التوطن بصفة دائمة-أي مأمونة-في أي بلد"(3). ومع ذلك فقد انقلب فولتير عدواً لليهود عداوة لا هوادة فيها. ذلك أنه تورط في معاملات غير موفقة مع رجال المال اليهود. فعند رحيله إلى إنجلترا حمل معه صكوكاً على المصرف اللندني "مدينا"، الذي أفلس أثناء ذلك وهو مدين لفولتير بعشرين ألف فرنك(4). وفي برلين كلف ابراهام هيرش-كما أسلفنا-بشراء سندات هبطت قيمتها في سكسونيا، بقصد استيرادها (بطريقة غير قانونية كما حذره هيرش) إلى بروسيا ليسترد قيمتها هناك بربح يبلغ خمسة وستين في المائة(5). وتشاجر الفيلسوف ورجل المال، واحتكما إلى القضاء، وانتهيا بالكرهية المتبادلة. وفي مقال فولتير عن "الأعراف" أطلق لحدده العنان فوصف العبرانيين القدامى بأنهم "أمة حقيرة، وشعب من اللصوص، فظيع، رجس، ناموسه ناموس المتوحشين، وتاريخه نسيج من الجرائم ضد الإنسانية".(6) واعترض قسيس كاثوليكي بأن هذا اتهام وحشي إلى حد مضحك(7). ونشر يهودي برتغالي عالم يدعى إسحاق بنتو في 1762 "تأملات" في نقد للفقرات المعادية لليهود الواردة في مقال بعنوان "اليهود" في القاموس الفلسفي؛ واعترف فولتير بأنه "أخطأ في وصم أمة بأسرها برذائل أفراد"، ووعده بحذف الفقرات المهينة في الطباعات القادمة؛ ولكنه غفل عن الوفاء بوعده(8). وكان موقف الكتاب الفرنسيين عموماً ضد فولتير في هذا الأمر(9). وتكلم روسو على اليهود بتعاطف مشرب بالفهم(10).

ولم يكن لليهود في فرنسا حقوق مدنية قبل الثورة، ولكنهم أنشأوا جماعات ناجحة وخرجوا زعماء ذوي نفوذ، اشترى أحدهم إقطاعية اشتملت على أميان؛ واستعمل حقه الإقطاعي في تعيين قساوسة الكندرائية، فاحتج الأسقف، ولكن برلمان باريس أيد الإقطاعي اليهودي (1787) واعترفت الحكومة الفرنسية شاكراً بمساعدة المالبين اليهود لها في حروب الوراثة

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> اليهود -> كفاح حياة

الأسبانية والبولندية، ولعب اليهود دوراً كبيراً في إحياء شركة الهند الشرقية بعد انهيار مغامرة "الو" في 1720(11). وكان يهود بوردو ذوي ثراء عريض؛ واشتهر تجارهم ومصرفيوهم بنزاهتهم وجمودهم؛ ولكنهم اعتزوا بأصلهم الصفاردي، ونجحوا في إقضاء جميع اليهود الأشكنازيين عن بوردو. ولم يكن في أسبانية القرن الثامن عشر يهود سافرون. ففي مطالع حكم البوريون الأسبان استغلت جماعات صغيرة منهم استنارة فليب الخامس المزعومة لاستئناف شعائر العبادة اليهودية سراً، واكتشفت حالات كثيرة، وأعدم ديوان التفتيش بين عام 1700 و1720 ثلاثة يهود في برشلونة، وخمسة في قرطبة، وثلاثة وعشرين في طليطلة، وخمسة في مدريد. واحفظت الديوان هذه الاكتشافات فهب ينشط من جديد، وبلغ عدد الدعاوي التي نظرتها محاكمة بين عامي

1721 و 1727 أكثر من ثمانمائة بتهمة اليهودية من بين 868 دعوى، وأحرق خمسة وسبعون ممن أدينوا. أما بعد ذلك فالحالات المثيلة كانت نادرة جداً. وفي سنوات الديوان الختامية، (1780-1820) حاكم الديوان الأسباني نحو خمسة آلاف منهم، لم يرم منهم باليهودية غير ستة عشر، وكان عشرة منهم أجانب (12). وظلت قوانين أسبانيا تحرم من المناصب المدنية أو الحربية جميع الأشخاص الذين لا يستطيعون إثبات نقاء دمائهم من كل أثر علق به من أسلاف يهود. وقد شكوا المصلحون من أن هذا الشرط حرم الجيش والحكومة الأسبانيين من خدمات الكثير من الرجال الأكفاء. وفي 1783 خفف شارلي الثالث هذه القوانين (13). أما في البرتغال فقد أحرق ديوان التفتيش سبعة وعشرين بيهودياً لرفضهم الارتداد عن الديانة اليهودية (1717) (14). وقد وفد على لشبونة في 1712 قادماً من ريودجانيرو أنطونيو داسيلفا، الذي كان في رأي سودي أفضل كتاب المسرحيات البرتغالية؛ فقبض عليه هو وأمه في 1726 لأنهما يهوديان، وأحرقت الأم، واستعطف الابن فأطلق سراحه،

صفحة رقم : 13938

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> اليهود -> كفاح حياة

ويبدو أنه ارتد بعد ذلك، لأنه أحرق في 1739 ولما يعد الخامسة والثلاثين (15) ثم أنهى المركز ديمبال بإصلاح من إصلاحاته الكثيرة كل تفرقة بين المسيحيين القدامى والمحدثين (الذين اعتنقوا المسيحية) (1774) (16). أما في إيطاليا فقد سبقت البندقية غيرها إلى تحرير اليهود، ففي 1772 أعلن أن يهود الجمهورية أحرار متساوون مع سائر السكان. وتخلفت روما، وكان الغيت (حي اليهود) هناك أسوأ أحيانهم في أوروبا. وزادت خصوبة الإنجاب الشديدة التي شجعها الأخبار من لفقر والقذارة، وأنت على يهود روما فترة كان عشرة آلاف منهم يسكنون في حين لا يزيد على كيلومتر مربع واحد (17). وكان نهر تيير يفيض على ضفافه كل عام فيغمر شوارع الحي الضيقة ويملاً الحجرات السفلى بالطين المويء. واحترف يهوديو روما الخياطة لحرمانهم من أكثر الحرف؛ ففي 1700 كان ثلاثة أرباع الذكور البالغين منهم خياطين (18)، فبدأوا بذلك عادة تحدرت بينهم حتى أيامنا هذه. وفي 1775 أصدر بيوس السادس مرسوماً بابوياً جدد فيه القديم من المحظورات على اليهود وأضاف إليها جديداً: فحرم عليهم ركوب العربات، وترتيل المرثي في الجنائز، وإقامة الشواهد على قبور موتاهم (19). وكان على يهود روما أن ينتظروا مجيء نابليون ليحررهم من هذه القيود.

وأما في النمسا فقد أحست ماريا تريزا أن التقوى تلزمها بحبس اليهود في أحياء ضيقة بعينها، وبحرمانهم من الحرف والمناصب وتملك العقارات (20)، ولكن ابنها يوزف الذي مسه التنوير الفرنسي اقترح على مجلس الدولة في 1781 مشروعاً "يفيد به المجتمع من طبقة الإسرائيليين الكبيرة في أراضي الوراثة" (النمسا والمجر وبوهيميا) وذلك بتشجيعهم على أن يتعلموا وبعد ثلاثة أعوام يشترط عليهم أن يستعملوا اللغة القومية في جميع الشؤون القانونية أو السياسية أو التجارية. ويجب "ألا يضايق اليهود على أي وجه في ممارسة شعائرهم أو عقائدهم". وينبغي دعوتهم للاستغلال بالزراعة، ولدخول ميدان الصناعة والتجارة، ولممارسة الفنون-على أن يظل محظوراً عليهم أن يصبحوا معلمي حرف في النقابات الحرفية، لأن هذا يتطلب حلف يمين الولاء للعقيدة المسيحية. ثم تلغى كل أسباب التفرقة المهنية، وكل

صفحة رقم : 13939

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> اليهود -> كفاح حياة

القيود المفروضة إلى ذلك الحين على اليهود، "وكذلك كل العلامات الظاهرة أياً كانت". واعترض مجلس الدولة والمديرون الإقليميون على البرنامج لأنه فضفاض مفاجئ بحيث لا يقبله الشعب. وقدم يوزف حلاً وسطاً، فأصدر في 2 يناير 1782 "ترخيص تسامح" لليهود فيينا والنمسا السفلي: فبالوا بمقتضاه حق إدخال أبنائهم مدارس الدولة وكنياتها، والتمتع بالحرية الاقتصادية إلا أن يتركوا العقارات؛ ولكن حرم عليهم التنظيم الطائفي المستقل، وبناء المجمع في العاصمة، ومنعوا من سكنى مدينة معينة ربما لأنه العداء لليهود فيها كان مستحكماً إلى درجة خطيرة. ونصف يوزف رعاياه المسيحيين باحترام أشخاص اليهود وحقوقهم باعتبارهم إخواناً لهم، وكل إهانة أو عنف يعامل به يهودي "سيعاقب مقترفه عقاباً صارماً"، ويجب أن يمنع إدخالهم في المسيحية بالإكراه. وما لبث الإمبراطور أن أصدر ترخيصاً مماثلة لبوهيميا ومورافيا وسيلرينا النمساوية. وقد قدر لليهود مساهماتهم في خزائنه، فخلع النبالة على عدة يهود، واستخدم عدد منهم مالبيين للدولة (21).

ولكن إصلاحاته كما ذكر المبعوث الفرنسي إلى فيينا - "أثارت صيحة استنكار عامة... والتسهيلات الكبيرة الممنوحة لليهود يراها الناس مفضية بلا ريب إلى خراب الدولة" (22). وشكا التجار المسيحيون من المنافسة الجديدة، وأدان القساوسة المراسيم لأنها تتسامح مع الهرطقة السافرة. واعترض بعض الحاخامات على اختلاف الأطفال اليهود إلى مدارس الدولة مخافة أن تفتن الشباب عن اليهودية، ولكن يوزف أصر على موقفه، وقيل أن يموت بسنة وسع "ترخيص التسامح" ليضم غاليسياً أيضاً، وكانت إحدى مدنها، وهي برودي، تضم خلقاً كثيراً من اليهود (18.000) حتى لقد لقبها الإمبراطور أورشليم الحديثة. وعند موت يوزف (1790) كانت فيينا قد عودت نفسها على النظام الجديد، ومهدت الأرض لتقافة فيينا اليهودية المسيحية الرائعة التي ازدهرت في القرن التاسع عشر. ويمكن القول عموماً إن حظ اليهود في الأقطار الإسلامية كان خيراً من

صفحة رقم : 13940

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> اليهود -> كفاح حياة

حظهم في الأقطار المسيحية. وقد وصفت الليدي ماري ورتلي مونتجيو، ربما في شيء من المبالغة حالهم في تركيا عام 1717 فقالت:

"إن اليهود... يتمتعون بسطان لا يصدق في هذا البلد. فلهم امتيازات كثيرة يفوقون فيها جميع الأهالي الأتراك أنفسهم... لأنهم يحاكمون طبقاً لقوانينهم. وقد استقطبوا كل تجارة الإمبراطورية في أيديهم، وذلك بفضل ما يربطهم من وحدة وثيقة من جهة ومن جهة أخرى لبلاده الترك وافتقارهم إلى الجد والاجتهاد. ولكل باشا مساعده اليهودي الذي يدير أعماله... وهم الأطباء، والوكلاء، والمترجمون، لأكابر القوم أجمعين... وكثير منهم ذوو ثراء عريض" (23).

والبون شايح بين حظ هؤلاء وحظ اليهود القلائل الموجودين في روسيا-لاسيما في "أقاليم التحوم" المواجهة لبولندا- عند وفاة بطرس الأكبر. وفي 1742 أمرت الإمبراطورة اليزابيث بتروفنا بأن "يرحل فوراً من إمبراطوريتنا كلها... جميع اليهود... ولا يسمح لهم منذ الآن بدخول إمبراطوريتنا بأية حجة... ما لم... يعتنقوا الديانة المسيحية على المذهب الرومي". وما حلت سنة 1753 حتى كان قد طرد قرابة 35.000 يهودي (24) وتشفع بعض رجال الأعمال الروس

لدى الإمبراطورة لتخفف من صرامة المرسوم، محتجين بأن طرد اليهود قد أحدث كساداً في اقتصاد الأقاليم لأنه حول التجارة منها إلى بولندا وألمانيا، ولكن اليزابث لم تلت لها قناة. فلما أن تربعت العرش كاترين الثانية أرادت أن تسمح بدخول اليهود من جديد، ولكنها أحست بأن هذا العرش يهتز من تحتها اهتزازاً لا تجرؤ معه على التصدي لمعارضة رجال الدين. غير أن التقسيم الأول لبولندا أوصل المشكلة إلى مرحلة جديدة. فما العمل في 27.000 يهودي طال مقامهم في ذلك الجزء من بولندا الذي ظفرت به روسيا الآن؟ لذلك أعلنت كاترين (1772) "أن الجماعات اليهودية المقيمة في المدن والأقاليم التي أدمجت الآن في الإمبراطورية الروسية تترك لتتمتع بجميع الحريات التي تملكها الآن" (25). وسمح لهؤلاء اليهود البولنديين بقسط كبير من الحكم الذاتي، وأجيز لهم

صفحة رقم : 13941

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> اليهود -> كفاح حياة

شغل المناصب البلدية، ولكن حرم عليهم الهجرة من "نطاق الاستيطان" (الأقاليم البولندية السابقة) إلى داخل روسيا. وفي 1791 أبيع لليهود أن يستوطنوا أقاليم خرسون وتاوريدا وإكاترينوسلاف سبيلاً إلى التعمير السريع لهذه الأقاليم المفتوحة حديثاً وتيسير للدفاع عنها. وكان العداء الاقتصادي لليهود الذي يلقونه من معظم رجال الأعمال الروس، والعداء الديني الذي يلقونه من عامة الروس، يجعلان الحياة أثناء ذلك شاقة خطيرة على اليهود في الإمبراطورية. وفي 1766 كان يسكن بولندا 621.000 يهودي(26). وقد صدق أوغسطس الثاني وأوغسطس الثالث على "امتيازات" الحماية التي منحها لهم الحكام السابقين، ولكن هذين الحاكمين السكسونيين، المشغولين بمملكتين ومذهبين دينيين (فضلاً عن خليلاتهما)، لم يتح لهما وقت يذكر للتصدي لذلك العداء العرقي الذي استشعرته الجماهير البولندية نحو اليهود. ففرضت الحكومة عليهم ضرائب إضافية، وحاول الإقطاعيون الهبوط بهم إلى درك الإقنان، وكلفهم الحكام المحليون ثمناً باهظاً لحمايتهم من عنف الغوغاء. وندد القساوسة باليهود لأنهم "متشبهون بكفرهم" وطالب مجمع كنسي عقد في 1720 بأن تحظر الحكومة "بناء المجامع الجديدة لليهود وترميم القديمة منها". وكرر مجمع عقد في 1733 مبدأ العصر الوسيط القائل بأن المبرر الوحيد للتسامح مع اليهود هو أنهم قد يصلحون "أداة للتذكير بعذابات المسيح، ومثلاً يضرب بعبوديتهم وبؤسهم للعقاب العادل الذي ينزله الله بالكافرين" (27). وفي 1716 نشر عبراني دخل في المسيحية يدعى سيرانوفيتش كتاباً سماه "فضح الشعائر اليهودية" اتهم فيه اليهود باستعمال دم المسيحيين لشتى الأغراض السحرية: لتلطيف أبواب المسيحيين، ولمزجه بالفطير الذي يأكلونه في الفصح، ولغمس قطعة قماش فيه محتوية على تعزيمه يقصد بها حماية بيت أو نجاح تجارة... وتحدى اليهود سيرافينوفتش أن يثبت صحة دعاواه، وجمعوا مجلساً من الحاخامات والأساقفة ليستمعوا إليه، ولكنه لم يمثل أمام المجلس، بل أعاد نشر كتابه(28). وقد اتهم اليهود غير مرة بقتل

صفحة رقم : 13942

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> اليهود -> كفاح حياة

الأطفال للحصول على دم مسيحي، واستدعى يهود بولنديون لمحاكمتهم على تهم كهذه في 1710 و1724 و1763 و1747 و1748 و1753 و1756 و1759 و1760، وعذبوا في حالات كثيرة، حتى الموت أحياناً، وسلخت جلود بعضهم أحياء، ومات بعضهم بالخازوق موتاً بطيئاً... (29) وفرع اليهود المروعون إلى البابا بندكت الرابع عشر ليكشف عنهم هذه الاتهامات، وعرضت أدلة الإثبات والنفي على الكردينال كامبانيلي، وبعد أن تلقى تقريراً من الفير البابوي في وارسو، أصدر مذكرة مؤداها أنه لم يثبت في حالة من هذه الحالات أنهم مذنبون. وأيدت محكمة ديوان التفتيش بروما مذكرة الكردينال. وكتب السفير البابوي للحكومة البولندية (1763) يقول "إن الحبر الأقدس، بعد فحص كل الأسس التي قام عليها اتهامهم بهذا الشذوذ-وهو أن اليهود يحتاجون إلى الدم البشري لتجهيز فطيرهم، خلص إلى أنه ما من دليل يثبت صحة ذلك الاتهام المغرض" (30). وكان البابا انوسنت الرابع قد أصدر حكماً مماثلاً في 1247. ولكن الاتهام بالشذوذ لم يتوقف.

وكان الخوف من المذابح عنصراً يتردد في حياة اليهود البولنديين. ففي 1734 و1750 و1768 تألفت جماعات من القوزاق والفلاحين الأرثوذكس الروس الذين نظموا على شكل عصابات مثيرة للشغب، وشنت الغارات على كثير من المدن والقرى في أقاليم كييف وفولينيا وبودوليا، وينهبون الضياع ويقتلون اليهود. وفي 1768 حمل المغبيرون "مرسوماً ذهبياً" نسب زوراً وبهتاناً إلى كاترين الثانية، ويدعوهم إلى "استئصال شأفة البولنديين واليهود، الذين يندسون ديانتنا المقدسة"، وذبخوا في مدينة واحدة هي أو مان عشرين ألف بولندي ويهودي. وجردت كاترين جيشاً روسياً يتعاون مع القوات البولندية على قمع المغبيرين (31). أما في ألمانيا فإن اليهود كانوا يعيشون في أمن ورخاء نسبيين وإن أعانوا من شتى المعوقات في الحياة الاقتصادية والسياسية. فقد فرضت عليهم ضرائب خاصة في معظم الإمارات (32). ولم يسمح القانون إلا لعدد محدود من اليهود بالعيش في برلين، ولكن القانون لم ينفذ بدقة، فزادت الجالية

صفحة رقم : 13943

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> اليهود -> كفاح حياة

البرلينية عدداً ومالاً، وقامت مستوطنات مماثلة في همبورج وفرانكفورت. وبلغ عدد من اختلف من التجار اليهود إلى سوق لينبزج في 1789 نيفا وألف تاجر (33). واستخدم الحكام الألمان، وحتى الأمراء-الأساقفة الكاثوليك منهم، اليهود لإدارة شئونهم المالية أو لتموين جيوشهمز وقد أدى يوزف أوبنهايمر (1692-1738) المعروف باسم "اليهودي سوس" هذه المهام وغيرها لناخب بالاتين في مانهايم، ولكارل ألكسندر دوق فورتمبرج. وكان لذكائه واجتهاده الفضل في إثرائه وإثراء الدوق، وفي اكتسابه الكثير من الأعداء. وقد اتهم بالغش في دار ضرب النقود، ولكن مجلساً من المحققين برأ ساحته، فرقي عضواً في مجلس الدوق الخاص، حيث لم يلبث أن يصبح القوة المسيطرة. وقد ابتكر ضرائب جديدة، وأنشأ احتكارات ملكية، وقبل على ما يبدو الرشا-التي اقتسمها مع الدوق (34). فلما اقترح الدوق إيداع جميع أموال الكنيسة في مصرف مركزي للدولة، انضم رجال الدين البروتستنت مع الإشراف في معارضة الدوق ووزيره. وفي 3 مارس 1737 مات الدوق فجأة، فقبض قادة الجيش والزعماء المدنيون على أوبنهايمر وكل يهود شتوتجارت، وحوكم أوبنهايمر وداين، وفي 3 فبراير 1738 خنق وعلقت جثته في قفص في ميدان عام (35). ذكرنا من قبل جولات جوثه في حي اليهود بفرانكفورت. وقد اشتمت أسرة من أقدم الأسرات هناك اسمها الأخير، وهو روتشيلد، من الدرع الحمراء التي ميزت مسكنها. وفي 1755 أصبح ماير أمشيل صاحب الدرع الحمراء رب الأسرة بعد وفاة أبويه، وكان في الحادية عشرة من عمره. وكانت كثرة الدويلات الألمانية، وكل لها عملتها المستقلة، قد

جعلت تغيير النقود ضرورة متكررة للمسافرين؛ وتعلم ماير في صباه معادلات النقود بين الدولارات، فكان يتقاضى رسماً صغيراً على كل تحويل. ثم درس علم العملات هواية جانبية وجمع العملات النادرة، وأرشد جماعاً آخر هو الأمير فلهم الهانوي وحصل منه على لقب "وكيل التاج" الذي ساعده في عمله بفرانكفورت. ثم تزوج

صفحة رقم : 13944

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> اليهود -> كفاح حياة

في 1770، وأنجب خمسة أبناء، أنشأوا فيما بعد فروعاً لشركة روتشيلد في فيينا ونابلي وباريس ولندن. واكتسب ماير سمعة الحكم السديد والنزاهة والجدارة بالثقة. فلما أن خلف فلهم أمير هاناو إياه حاكماً على هسي كاسل، ازداد تعامل ماير أمشيل مع القصر، فما وافى عام 1790 حتى بلغ دخله السنوي ثلاثة آلاف جولدن-وهو ما يعادل دخل أبي جوته الثري ستمائة مرة(36). ونمت ثروة الأسرة نمواً سريعاً خلال حروب الثورة الفرنسية، وشغل ماير بتمويل الجيوش، وعهد إليه بإخفاء أموال الأمراء وأحياناً باستثمارها.

وواصل اليهود في الأراضي الواطئة واسكندناوة تمتعهم بحرية نسبية. وازدهرت جماعة أمستردام اليهودية. ولم تعرف الأحياء المقصورة على اليهود في الدنمرك، فقد تنقل اليهود بحرية وسمح بالزيجات المختلطة. وفي ألتونا، المدينة التجارية الواقعة وراء نهر ألب من همبورج، والتي كانت آنذاك ملكاً للدنمرك، عاشت جالية من أعلى الجاليات اليهودية في أوروبا. وفي السويد يسط جوستاف الثالث حمايته على اليهود في ممارستهم السلمية لشعائرهم. ووجد كثيرين من اليهود الهاربين من الاضطهاد في بولندا وبوهيميا الملجأ في إنجلترا. وزاد عددهم من 6.000 في 1734 إلى 26.000 في 1800، وكان نصيب لندن منهم 20.000. وكانوا يعيشون في فقر مدقع، ولكنهم رعوا فقراءهم وتكفلوا بنفقات مستشفياتهم(37). وكان تعقب اليهود ومطاردتهم رياضة محببة للناس، اضمحلت حين تعلم اليهود الملاكمة وغدا أحدهم بطل الملاكمة القومي(38). وقد أقصى شرط حلف يمين الولاء للمسيحية اليهود عن الوظائف المدنية والحربية. وأصبح سامسون جدعون أحد محافظي بنك إنجلترا بعد أن قبل الدخول في المسيحية. وفي 1745، حين كان الشاب المطالب بالعرش يزحف على لندن بجيش اسكتلندي أخذ على نفسه العهد بخلع جورج الثاني ورد آل ستيوارت إلى العرش، فأصاب الذعر جماهير الشعب بعد أن فقدوا الثقة في أمن الحكومة وسلامها وهددوا بالتزام على المصرف لاسترداد ودائعهم، في هذا الظرف قاد

صفحة رقم : 13945

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> اليهود -> كفاح حياة

جدعون التجار والأعيان اليهود لإنقاذ المصرف، فتدفقت أموالهم الخاصة فيه، وتعهدوا بقبول بنكوت المصرف بالقيمة الاسمية في معاملاتهم التجارية ووفى المصرف بالتزاماته، وأعيدت الثقة، ورد المطالب بالعرش على أعقابهم (39).

وأعربت وزارة الأحرار (الهورز) عن تقديرها لصنيع اليهود بتقديمها مشروع قانون إلى البرلمان (1753) يبيح الجنسية والمواطنة لجميع اليهود المولودين في الخارج والذين أقاموا في إنجلترا أو أرنلندة ثلاثة أعوام. (أما اليهود المولودين هناك فكانوا يكسبون الجنسية بلولد (40). ووافق اللوردات والأساقفة على المشروع، ووافق عليه أعضاء مجلس العموم بأغلبية ستة وتسعين صوتاً مقابل خمسة وخمسين. ولكن الشعب البريطاني الذي لم يكن له كبير علم أو فهم للدور الذي لعبه اليهود في إنقاذ المصرف هب معارضاً مشروع القانون معارضة ساحقة. وانهارت الاحتجاجات على البرلمان من كل مدينة في بريطانيا تقريباً، وأجمعت المنابر والحانات على إدانته، وشكا التجار من أن منافسة اليهود لهم في التجارة ستصبح أمر لا يحتمل. وكان الشتم والإهانة في الشوارع نصيب الأساقفة الذين صوتوا للمشروع؛ وبعثت الأساطير القديمة التي ادعت قتل اليهود للمسيحيين طبقاً لشعائهم، وأذيعت مئات النشرات والقصائد الشعبية والصور الكاريكاتورية والأهاجي الساخرة، وزين النساء ثيابهن وصدورهن بالصلبان ولبس أوشحة تحمل هذا الشعار "لا يهود، المسيحية إلى الأبد" (41). وخاف زعماء الأحرار الهزيمة في الانتخاب القادم فحصلوا على إلغاء القانون (1754).

صفحة رقم : 13946

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> اليهود -> العزاء الصوفي

2- العزاء الصوفي

ولاذ كثير من اليهود، لا سيما في بولندة، بأسباب العزاء فوق الطبيعي هرباً من معاناتهم الأرضية. وأتلف بعضهم بصرهم بإدمان قراءة التلمود، وفقد بعضهم عقولهم في القبلانية، وظل بعض "الصبطانيين" يؤمنون بألوهية صبطاي زيفي رغم ارتداد هذا المسيح الكاذب وموته، وانصرفوا عن اليهودية التلمودية إلى الآمال والطقوس المهرطقة. وأقنع يانكيف ليبوفنتش،

صفحة رقم : 13947

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> اليهود -> العزاء الصوفي

الذي أصبح معروفاً باسم يعقوب فرانك الذي أطلقه عليه الترك، منات من اليهود البولنديين بأن روح زيفي تقمصته، وعلمهم عقيدة شبيهة بهرطقة مسيحية لطيفة تصورت الثالوث مؤلفاً من الله الأب، ومريم الأم، والمسيح ابنهما، وأخيراً قاد أتباعه إلى الكنيسة الكاثوليكية (1759).

وأنقذت الحركة "القاصدية" اليهود البولنديين بعض الإنقاذ من حالتهم الوضعية. وكان مؤسس "عقيدة التقوى" هذه إسرائيل بن ألعازر، المعروف باسم بعل شمتوب ("السيد الصالح لاسم الله")، واختصاراً باسم "بشت" الجامع لأول حروف اسمه الكامل. وكان يجوب البلاد معلماً للأطفال، وعاش في فقر تجمله البهجة، وكان يصلي بانتشاء ويشفي المرضى شفاء "معجزياً" بالأعشاب الجبلية. وقد طلب إلى أتباعه ألا يعيروا طقوس المجمع والمعرفة التلمودية كبير اهتمام، وأن يقتربوا إلى الله رأساً في شركة متواضعة ولكنها حميمة، وأن يبصروا الله ويحبوه في شتى صور الطبيعة ومظاهرها، في الصخور والأشجار، وفي حالات اليسر والألم؛ وأمرهم بأن يستمتعوا بالحياة في الحاضر بدلاً من البكاء على خطايا الماضي والآلمه. وكانت أقواله المأثورة البسيطة أحياناً تشبه أقوال المسيح. "شكا بشت أن ابنه ترك الله، وسأله قائلاً: يا معلم، ماذا أصنع؟ وأجابه بشت: أحبه أكثر مما فعلت في أي وقت" (42).

والحركة القاصدية في بولندا تقابل من بعض الوجوه حركات الأخوان الموافقين، والتقويين الألمان، والمثوديين الإنجليز؛ فقد اتفقت مع هذه الحركات على إخراج الدين من المعبد وإدخاله إلى القلب، ولكنها رفضت النسك والاكنتاب، وأمرت أتباعها بأن يرقصوا، ويستمتعوا بعناق أزواجهم، لا بل بالشراب بين الحين والحين إلى حد النشوة. فلما مات بعل شمتوب (1760) تولى رعاية قطيعة، وأحياناً جز صوفه، (43) سلسلة من "الصدقين". وحارب التلموديين السنيون بزعامة عالم متعصب من فلنا يدعى إيليا بن سليمان "القاصدين" بالنصح والحرم، ولكن عددهم زاد بانهييار بولندا (1772-92)، ولم يختم القرن حتى كانوا يعدون 100.000 نسمة (44).

صفحة رقم : 13948

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> اليهود -> العزاء الصوفي

وما كان لحياة مطاردة على الأرض على هذا النحو، ونفوس مثبتة في السماء إلى هذا الحد، أن تسهم بقسط كبير في الأدب الديني أو العلم أو الفلسفة. وكان اليهود في كل بلد تقريباً ممنوعين من الالتحاق بالجامعات بحكم القسم بالولاء للعقيدة المسيحية المشترط على جميع الطلاب. ثم أن ناموس موسى حرم عليهم ممارسة فن التصوير وبلد تذوقهم الفني. وإذا كانوا يكتبون بالعبرية التي لا تفهمها غير قلة قليلة، أو بالبيديية التي لم تكن بعد قد أصبحت لغة أدبية، فقد افتقدوا الحافز لإنتاج أي أدب خلاف الشروح الدينية أو السفايف الشعبية. وثمة إسهام بارز واحد أسهموا به الفنون العملية في هذا العصر: فقد اخترع يعقوب رودريج، ببرير، وهو أحد يهود بورديو، لغة إشارات للصم والبكم، فأنشأ عليه ديدرو ودالامبير وروسو ويوفون. ثم شاعر يهودي واحد أثار هذه الظلمة.

وقد ولد الشاعر موسى حاييم لونساتوا في إيطاليا (1707) لوالدين أتاح لهما بعض اليسر أن يحسنا تعليمه. وقد أخذ عن الشعراء اللاتين، وعن الشعراء الإيطاليين من أمثال جواريني، براعة في الأوزان الشعرية مكنته من أن يسبغ على شعره العبري من الإيقاع المتدفق والسحر الرقيق ما لم يعرف في تلك اللغة منذ أيام يهوذا هاليقي. وحين بلغ السابعة عشرة كتب مسرحية عن شمشون والفلسطينيين. ثم أقبل على دراسة "الزهر"، وهو كتاب القبلائية المقدسة، فاقنت خياله بأوهامه الصوفية، فأدار بعضها شعراً، وأدارت هي رأسه فخيّل إليه أنه ملهم من السماء. فكتب "زهرأ" ثانياً، وأذاع أنه المسيح الذي وعد به اليهود. فحرمه حاخامات البندقية (1734). ففر إلى فرانكفورت-على المين، حيث أجبروه الحاخامات على الوعد بالإقلاع عن أوهامه بأنه المسيح المنتظر. وانتقل إلى أمستردام حيث رحبت به الجالية اليهودية، وهناك كسب قوته كما كسبه سبينوزا بصقل العدسات، ثم استأنف دراساته القبلائية. وفي 1743 ألف مسرحية عبرية "لا-ي أشاريم تهيللا (مجداً للأبرار) كان حظها التقريظ ممن كانوا أكفاء للحكم عليها، برغم التجريدات التي استخدمها شخصاً للمسرحية.

صفحة رقم : 13949

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> اليهود -> العزاء الصوفي

ومؤدى المسرحية أن الجهل المستشري بين العوام، يدعمه المكر والخداع، يولد حماقة، التي تحبط الحكمة مراراً، وتحرم الكفاية من تاجها، حتى ينتصر العقل والصبر في النهاية على الخداع بالكشف عن الحقيقة، على أن "الحقيقة" كان يقصد بها القبلانية. وفي 1744 ذهب إلى فلسطين، أملاً في أن ينادي به المسيح المنتظر، ولكنه مات في عكا بالطاعون (1747) وهو في التاسعة والثلاثين. وكان آخر صوت فصيح لعصر اليهودية الوسيط، كما كان أول صوت كبير ليهودية تنبعث من العزلة الواقعية إلى الاحتكاك بالفكر الحديث.

صفحة رقم : 13950

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> اليهود -> موسى مندلسون

3- موسى مندلسون

كان جد فيليكس مندلسون من أنبل شخصيات القرن الثامن عشر، وكان صديقاً وخصماً لكانط، وصديقاً ومهماً لليسنج. وكان أبوه مناحم مندل كاتباً ومعلماً بمدرسة يهودية في دسو. وهناك ولد "موسى الثالث" في 6 سبتمبر 1729، وشب مشغوفاً بالدرس حتى لقد أصابه شغفه هذا بتقوس مستديم في العمود الفقري. فلما بلغ الرابعة عشرة أوفد إلى برلين لمزيد من دراسة التلمود، وهناك اتبع بحذافيره تقريباً أمر التلمود الذي نصه "كل الخبز بالملح، واشرب الماء بمقدار، ونم على الأرض اليابسة، وعش عيشة الحرمان، وليكن الناموس شغلك الشاغل" (45). وظل سبع سنين قانعاً بسكناه في إحدى العليات يعم رغيغ خبزه الأسبوع بخطوط تحدد جرابته اليومية (46)، ويكسب الرزق الضئيل بنسخ الوثائق بخطه الأنيق. وفي برلين أكب على آثار موسى بن ميمون، ووجد الشجاعة في حياة "موسى الثاني" ذلك وتعلم منه ومن الحياة أن ينزل بكبريائه إلى التواضع وبحدة طبعه من اللطف والمجاملة. وعلمه رفاقؤه البرلينيون اللاتينية والرياضيات والمنطق، وقرأ لوك في ترجمة لاتينية، وانتقل إلى ليبنتس وفولف، ولم يلبث أن عشق الفلسفة. ثم تعلم كتابه الألمانية في نصاعه رقيقة ندر أن تجاهد لها نظيراً في أدب وطنه جيله.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> اليهود -> موسى مندلسون

وانتهت أيام فقره حين أصبح في الحادية والعشرين معلّمَ خاصاً في أسرة صاحب مصنع حرير في برلين يدعى إسحاق برنهارت، وبعد أربع سنوات عين محاسباً بالشركة ثم مندوباً متجولاً لها، وأخيراً شريكاً فيها. وقد احتفظ بصلة العمل هذه بنشاط حتى نهاية عمره، لأنه اعتزم ألا يعتمد في رزقه على رواج كتبه وحصيلتها من المال. والراجح أنه التقى بليسنج في 1754، على لعبة شطرنج فيما يبدو، وهكذا بدأت صداقة اتصلت حتى موت ليسانج رغم ما بينهما من خلافات فلسفية. كتب لينج إلى صديق آخر في 16 أكتوبر 1754 يقول: "إن مندلسون رجل في الخامسة والعشرين، اكتسب دون أي تعليم جامعي معلومات كبيرة في اللغات والرياضيات والفلسفة والشعر. وأني لأتطلع فيه إلى مفخرة لأمتنا إذا أتاح له إخوانه في الدين أن يصل إلى درجة النضج... وأن صراحته وروحه الفلسفية ليجعلانني أعده سلفاً، اسبينوزا ثانياً" (47). أما مندلسون فكان يقول أن كلمة ود أو نظرة محبة من ليسانج تطرد عنه كل حزن أو غم (48). وفي 1755 رتب ليسانج نشر كتاب مندلسون "أحاديث فلسفية"، الذي شرح ودافع عن كلاً من سبينوزا وليبنيتس. وفي العام ذاته تعاون الصديقان على كتابة مقال "بوب ميتافيزيقياً!" زعماً فيها أن هذا الشاعر الإنجليزي لم يكن له فلسفة من بنات أفكاره، وكل ما فعله أنه نظم فلسفة ليبنيتس شعراً. وفي 1755 أيضاً نشر مندلسون "رسائل في الوجدان"، وقد سبق هذا كانط في رأيه أن الإحساس بالجمال مستقل كل الاستقلال عن الشهوة. وقد أكسبت هذه الكتب المنشورة اليهودي الشاب الترحيب في برلين بين "الإخوان الفلاسفة الذين لم يكونوا على تمام الصفاء والرزانة". وعن طريق ليسانج التقى بفردريش نيقولا، ودرس هو ونيقولا اليونانية معاً، وما لبث أن بدأ يقرأ أفلاطون في لغته الأصلية. ثم ساعد نيقولا في إنشاء مجلة سميت "مكتبة الآداب البحتة والفنون الجميلة"، وأسهم في هذه المجلة وغيرها من المجالات بمقالات كان لها تأثير قوي في الأفكار السارية في نقد الأدب والفن. وأحس مندلسون الآن بقدر من الأمن والطمأنينة يتيح له أن يقيم بيتاً

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> اليهود -> موسى مندلسون

خاصاً به. ففي 1763، وهو في الثالثة والثلاثين، تزوجت فرومريت جوجنهايم البالغة خمسة وعشرين ربيعاً. وكان كلاهما قد بلغ سن النضج الفكري، فأثمر اتحادهما الكثير من السعادة. وفي شهر العسل بدأ العمل في مسابقة قدمت فيها أكاديمية برلين جائزة لأفضل مقال يتناول هذا الموضوع "هل العلوم الميتافيزيقية تقبل الأدلة كالعلوم الرياضية". وكان من المتسابقين إيمانويل كانط. وفاز مقال مندلسون (1763)، فأثاه بخمسين دوقانية وبشهرة دولية. وكان بين المتسابقين توماس آبت، وهو أستاذ في فرانكفورت-على الأودر. وفي رسائل كثيرة تبادلها مع مندلسون أعرب عن شكوكه في خلود الروح، وأسف على أن فقدان ذلك المعتقد قد يفوض الناموس الأخلاقي ويحرم التعساء من آخر عزاء لهم. وبعض الفضل راجع إلى هذه الرسائل في وضع مندلسون لأشهر كتبه قاطبة "فيديون". وقد صاغه على مثال نموذجه الأفلاطوني في شكل حوار وفي أسلوب ميسر. فروح الإنسان (كما يزعم) متميزة مع المادة بشكل

واضح، إذن لنا أن نعتقد أنها لا تشارك الجسد مصيره؛ وإذا كنا نؤمن بالله فإننا لا نستطيع الافتراض بأنه يخدمنا إذ يغرس في عقولنا أملاً دون أن يكون له إحساس من الحقيقة. يضاف إلى هذا (وهو ما سيذهب إليه كانط) أن للروح حافظاً طبيعياً نحو كمال الذات؛ وهذا لا يمكن تحقيقه في حياتنا؛ ولا بد أن الله يسمح للروح بأن تحيا بعد موت الجسد. وقد شعر مندلسون بأنه "بدون الله، والعناية الإلهية، والخلود" تفقد كل طبيبات الحياة قيمتها في نظري وتصبح حياتنا على الأرض... أشبه بالتيهان في الريح والمطر دون أمل يعزي التائه بالعثور على غطاء ووقاء في الليل" (49). وبراكين الكتاب هشة، ولكن أسلوبه أبهج قراء كثيرين، ولا ح أن الكاتب ظفر باستعادة سحر محاورات أفلاطون، والواقع أن لقب "أفلاطون الألماني" اسماً ثانياً لمندلسون. وطبعت من الكتيب خمس عشرة طبعة وترجم إلى جميع اللغات الأوروبية تقريباً كما ترجم إلى العبرية، وكان في جيله أوسع الكتب انتشاراً في ألمانيا باستثناء القصص. وشارك هررد وجوته في تقيظه.

صفحة رقم : 13953

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> اليهود -> موسى مندلسون

وزار لافاتر مؤلفه، وفحص رأسه ووجهه، وأعلن أن كل نتوء وخط فيه يشي بروح سقراط (50). وأشد المسيحيون على اختلاف مذاهبهم باليهودي البليغ، والتمس منه راهبان بندكتيان النصيحة الروحية. ولكن في 1769 أثار لافاتر، الذي كان لاهوتياً غيوراً كما كان عالمة في الفراسة، ضجة بتوجيه نداءً علنياً لمندلسون أن يدخل في المسيحية. ورد مندلسون في " (1770) فسلم بعبوب الديانة اليهودية والحياة اليهودية. ولكنه ذكر أن عبوباً كهذه تنشأ في كل ديانة في أثناء تاريخها، وطلب إلى لافاتر أن يفكر في الشدائد التي عاناها اليهود في الأقطار المسيحية، ثم أضاف: "إن الذي يلم بما نحن عليه الآن من حال، إن كان له قلب رحيم، سيفهم أكثر مما في وسعي التعبير عنه". واختتم بهذه العبارة "إنني لو طيد الثقة بالعناصر الأساسية في إيماني... بحيث أشهد الله على أنني سأثبت على عقيدتي الأصلية ما لم تتخذ روعي طبيعة أخرى" (51) وتأثر لافاتر، واعتذر بتواضع عن توجيهه هذا النداء (52). ولكن نفراً كبيراً من المعلقين شهروا بمندلسون متهمينه بالكفر، وأدته بعض اليهود السنين لتسليمه بأن هناك نقائص تسلك إلى الشعار اليهودية (53). وظل الجدل حيناً يثير من النقاش أكثر مما تثيره السياسة القومية أو تدهور صحة فردريك وعانت صحة مندلسون نفسه من هذه الضجة، فاضطر طوال شهر من عام 1772 أن يكف عن أي نشاط ذهني. فلما استعاد عافيته كرس من وقته قدراً أكبر للتخفيف من آلام إخوانه في الدين. وحين تهيأت بعض أقاليم سويسرة لفرض مزيد من القيود على اليهود طلب إلى لافاتر أن يتدخل في الأمر، ففعل، وكان موقفاً في شفاعته. وحين وضعت سلطات درسدن خطة لطرد مئات من اليهود استعان مندلسون بصداقة تربطه بموظف محلي للحصول على الأمان لهم (54). وبدأ في 1778 نشر ترجمته للأسفار الموسوية الخمسة؛ وأصدرها في 1783، فأثارت عاصفة جديدة. ولكي يكتب بعض الشروح على النص كلف هرتس هومبرج بالمهمة، وكان مرتبطاً بيهود من برلين ميتوتي الصلة تماماً بالمجمع اليهودي. وحرر الترجمة أحبار عديدون، ولكنها شقت طريقها إلى الجاليات اليهودية؛ وتعلم شباب

صفحة رقم : 13954

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> اليهود -> موسى مندلسون

اليهود الألمانية منها، وتحرك جبل اليهود التالي للمشاركة النشيطة في الحياة الفكرية لألمانيا. ونشر ليسنج خلال ذلك (1779) مسرحيته "ناثان الحكيم"، التي فسرها القراء على أنها تمجيد لصديقه اليهودي. أما وقد بلغ مندلسون قمة الشهرة والنفوذ، فإنه أقنع ماركوس هرتس بأن يترجم إلى الألمانية كتاب "الدفاع عن اليهود" الذي وجهه منسي بن إسرائيل إلى الشعب الإنجليزي في 1656. وأضاف إلى الترجمة مقدمة في "خلاص اليهود" (1782)، ناشد فيها الأبحار أن يتخلوا عن حقهم في الحرم. واتبع هذا في 1783 بكتاب بليغ سماه "أورشليم، أو في السلطة الدينية والديانة اليهودية"، أعاد فيه تأكيد إيمانه اليهودي، وأهاب باليهود أن يخرجوا من عزلتهم وانطوائهم ويدلوا بدلوهم في الثقافة الغربية، وحث على الفصل بين الكنيسة والدولة، وأدان أي إكراه في الدين، وذهب إلى أن الحكم على الدول بقدر اعتمادها على الإقناع لا القوة. وكتب كانط، الذي كان هو الآن أيضاً في أوج شهرته، إلى المؤلف رسالة تستحق أن يفرد لها مكان في سجلات الصداقة. قال:

"إني أعد هذا الكتاب بشير إصلاح عظيم لن يؤثر في شعبك فحسب بل في الشعوب الأخرى. فلقد وفقت في الجمع بين دينك وبين قدر من حرية الضمير لم يتصور أحد أنه ميسور... ثم أنك في الوقت نفسه أبنت في كثير من الوضوح والدقة ضرورة حرية الضمير التي لا حدود لها في كل دين، بحيث أن كنيسةنا (اللوثرية) ستضطر آخر الأمر إلى النظر في أن تزيل من وسطها كل شيء من شأنه إقلاق الضمير أو إكراهه" (55).

وهاجم الكتاب الزعماء السنيون مسيحيين كانوا أو يهوداً، ولكنه أسهم إلى حد هائل في تحرير اليهود وتغريبهم. في عام 1783 لم يكن مندلسون قد تجاوز الرابع والخمسين، ولكنه كان دائماً رقيق البنية معتل الصحة، وقد أحس أنه لم يبق له من الأجل كثير. وفي أخريات سنيه ألقى على أبنائه وعلى بعض أصحابه محاضرات حدد فيها عقيدته الدينية، وقد نشرت في عام 1785 باسم "ساعات الصباح أو محاضرات في وجود الله". وفي آخر سنة من عمره صدمه أن يقرأ في كتاب

صفحة رقم : 13955

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> اليهود -> موسى مندلسون

ألفه ياكوبي أنه صديقه العزيز ليسنج، والذي كان قد فارق الحياة، اتبع طويلاً عقيدة سبينوزا في وحدة الوجود، فلم يستطع أن يصدق الخبر، وكتب دفاعاً حاراً عن ليسنج عنوانه "إلى أصدقاء ليسنج". وفيما هو حامل المخطوط إلى الناشر أصيب بنزلة برد؛ وأثناء مرضه ذلك أصيب بسكتة دماغية أودت بحياته في 4 يناير 1786. واشترك المسيحيون مع اليهود في إقامة تمثال له في مسقط رأسه دسو.

لقد كان واحداً من أكثر الشخصيات تأثيراً في جيله. فقد خرج شباب اليهود من عزلتهم بعد أن ألهمتهم كتاباته وعبوره الناجح للفواصل الدينية، ولم يلبثوا أن تركوا بصماتهم على الأدب والعلم والفلسفة. فذهب ماركوس هرتس إلى جامعة كونزبرج في طلب الطب؛ والتحق بعدة فصول دراسية لكانط، وأصبح المساعد والصديق لفيلسوف المعرفة العظيم. وهو الذي توقف في منتصف قراءته "نقد العقل الخالص" مخطوطاً مخافة أن يصاب بالجنون إذا مضى في القراءة إلى النهاية. فلما نقل إلى برلين، اشتغل بالطب وكثر زبائنه، وألقى محاضرات في الفيزياء والفلسفة على جمهور من المسيحيين واليهود. وافتتحت زوجته الجميلة المنقفة هنرييتا صالوناً كان في نهاية القرن ملتقى هاماً لمفكري برلين؛ وإليه اختلف فلهم فون همبولت، وشلاير ماخر، وفريدريش شليجل، وميرابو الابن... ولعل اختلاط الأفكار الذي تمحضت عنه هذه اللقاءات ما كان ليسر مندلسون. فقد دخل عدد من أبنائه في المسيحية، واشترك ابنتان من بناته مع

هنرييتا هرتس وغيرها في "رابطة للفضيلة" تحترم "الانجذابات العاطفية" أكثر من الولاء الزوجي. وكان لهنرييتا علاقة غرام بشلاير آخر؛ وهجرت دوروتيا مندلسون زوجها لتصبح خليلية فزوجة وفيه لفرديريش شليجل، وأخيراً تابعة للكنيسة الكاثوليكية الرومانية؛ كذلك اعتنقت هنرييتا مندلسون العقيدة الرومانية، وجعل أبراهام مندلسون أبناءه، ومنهم فليكس، يعمدون في الكنيسة اللوثرية؛ وزعم الحاخامات السنيون أنهم كانوا على حق في مخاوفهم. ولكن هذه كانت نتائج عارضة للحرية الجديدة؛ أما النواحي الأبقى على الزمن في تأثير مندلسون فقد ظهرت في تحرير اليهود فكرياً واجتماعياً وسياسياً.

صفحة رقم : 13956

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> اليهود -> نحو الحرية

4- نحو الحرية

وفي هذه الحقبة اتخذ التحرير من الناحية الفكرية، شكل "الهسلفة" وهي كلمة كانت تعني الحكمة، ولكنها أصبحت في هذا السياق ترمز إلى التنوير اليهودي، أو تمرد عدد متزايد من اليهود على سيطرة الأبحار والتلمود، وتصميمهم على أن يندمجوا اندماجاً نشيطاً في تيار الفكر الحديث. وتعلم هؤلاء المتمردون الألمانية، وتعلم بعضهم الفرنسية-لا سيما في أسر التجار أو المالبين؛ وقرأوا مؤلفات أحرار الفكر الألمان أمثال ليسننج، وكانط، وفيلاند، وهردر، وشيلر، وجوته؛ وكثيرون نقبوا في أعمال فولتير، وروسو، وديدرو، وهلفتيوس، ودولباخ. ووقع انقسام بين اليهود المتحررين المقبلين على الحداثة، واليهود المحافظين الذين شعروا بأن الولاء للتلمود والمجمع هو الطريق الأوحده للحفاظ على الوحدة الدينية والعرقية والأخلاقية للشعب اليهودي.

وانتشرت حركة الهسلفة من ألمانيا جنوباً إلى غالييسيا والنمسا، وشرقاً إلى بوهيميا وبولندا وروسيا. وزاد عن سرعتها في النمسا ترخيص التسامح الذي أصدره يوزف الثاني، والذي دعا دخول يهود المدارس غير اليهودية. فلما عارض الأبحار المحافظون، ناشدهم شاعر يهودي هامبورجي يدعى نفتالي فيسيلي، في بيان يهودي بليغ، أن يباركوا اشتراك اليهود في التعليم العلماني؛ وحث الجيل الصاعد على أن يحلوا العبرية والألمانية محل اللبديية، وأن يدرسوا العلوم والفلسفة كما يدرسون التوراة والتلمود. وقد رفض أبحار النمسا آراءه؛ ولكن قبلها زعماء اليهود في تريسته والبندقية وفرارا وبراغ. ومنذ ذلك الحين إلى وقتنا هذا أسهم اليهود في العلم والفلسفة والأدب والموسيقى والقانون بقدر يفوق كثيراً نسبتهم إلى عدد السكان.

وأعانت التطورات الفكرية والاقتصادية على تحرير اليهود. فنشر الدارسون الكاثوليك من أمثال رتشردي سيمون المعارف الربانية بين طلاب الكتاب المقدس؛ وألف لاهوتي بروتستنتي يدعى جاك باناج كتاباً مشرباً بروح الود يسمى "تاريخ ديانة اليهود" (1707). وجمع نمو التجارة

صفحة رقم : 13957

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> اليهود -> نحو الحرية

والمالية بين المسيحيين واليهود في اتصالات أوجت أحياناً نار الخصومة العرقية، ولكنها كثيراً ما خففت منها. ولعب المالون اليهود في عدة حكومات أدواراً تجلت فيها روح العون والوطنية. وارتفعت الآن أصوات مسيحية تقترح إنهاء الاضطهاد الديني، ففي 1781 نشر كرستيان فلهم دوم، وكان صديقاً لمندلسون، بناء على اقتراحه نبذة خطيرة الأثر سماها "في تحسين الأحوال المدنية لليهود في ألمانيا". وكانت المناسبة نداء وجهه يهود الألاس إلى مندلسون يطلبون إليه كتابة احتجاج على القيود المفروضة عليهم. واضطلع دوم بالمهمة، ووسعها إلى نداء عام لتحرير اليهود. ووصف في تفصيل مؤثر، المعوقات التي يعانيها اليهود في أوروبا، وأشار إلى فداحة الخسارة التي خسرتها الحضارة الغربية لأنها لم تجد فائدة تذكر من مواهب اليهود العقلية - "إن مبادئ التفرقة هذه، المنافية للإنسانية والسياسة على حد سواء، تحمل طابع العصور المظلمة، وهي غير جديرة بتبوير عصرنا هذا" (56) واقترح دوم السماح لليهود بحرية العبادة الكاملة وبالالتحاق بمعاهد التعليم، وبممارسة جميع المهن والحرف، وبإعطائهم جميع الحقوق المدنية، ويستثنى مؤقتاً اختيارهم للمناصب وهو ما لم يكونوا بعد مهيبين له. وأثارت الرسالة التعليق في أقطار كثيرة، فاتهمه بعض خصومه بأنه باع قلمه لليهود، ولكن العديد من رجال الدين البروتستنت سار عوا إلى الدفاع عنه. وأيده المؤرخ السويسري يوهان فون مولر، وطلب ترجمة أعمال موسى بن ميمون إلى الألمانية أو الفرنسية. واكتسبت حركة التحرير دفعا من براءة التسامح الصادرة في 1782 بالنمسا ومن تحرير اليهود السياسي في الولايات المتحدة (1783). واستجابت الحكومة الفرنسية استجابة هزيلة برفع الضرائب الشخصية (1784) التي أنقذت كواهل اليهود. واشترك المركز ميرابو مع ماليرب في تحقيق هذا التخفيف، وساعد الحركة ابنه الكونت ميرابو بمقالة "عن مندلسون والإصلاح السياسي لليهود"

صفحة رقم : 13958

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> اليهود -> نحو الحرية

(1787) ودفع الأب هنري جريجوار الحركة بكتابته مقالاً نال جائزة في مسابقة عن "الأحياء المادي والخلقي والسياسي لليهود" (1789). على أن التحرير السياسي النهائي لم يأت إلا مع الثورة. فقد احتواه ضمناً إعلان حقوق الإنسان الذي أذاعته الجمعية الوطنية (27 أغسطس 1789)، وفي 27 سبتمبر 1791 وافقت الجمعية التأسيسية على إعطاء كامل الحقوق المدنية لليهود فرنسا. وجاءت جيوش الثورة أو جيوش نابليون بالحرية لليهود هولندا في 1796، ولليهود البندقية في 1797، وماينز في 1798، وروما في 1810، وفرانكفورت في 1811. وهكذا اختتمت حقبة العصور الوسطى بالنسبة لليهود.

صفحة رقم : 13959

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> السويسريون

الفصل السادس والعشرون

من جنيف إلى استوكهولم

1- السويسريون

1754-1798

إن الذي استمتعوا منا بالهدوء وسط جنة الطبيعة في سويسرة، وبالإلهام من شجاعة شعبها وأمانته، يشق عليهم أن يدركوا أن من تحت الخلق الهادئ، والفلاحة الصابرة، والصناعة المستقرة التي أعجبت بها أوربا وتعجب بها الآن، كانت تمكن الصراعات الطبقة-صراعات بين الجنس والجنس، وبين اللغة واللغة، وبين العقيدة والعقيدة، وبين الإقليم والإقليم، وبين الطبقة والطبقة. وكان السويسريون في نطاقهم المتواضع قد اقتربوا جداً من تحقيق ذلك المثل الأعلى الذي صوره الأب سان-بيير وحلم به بروسو وكانط: وهو الاتحاد الكونفدرالي يعقد بين دويلات مستقلة في شئونها الداخلية، ملتزمة بالعمل الموحد في علاقاتها بالعالم المحيط بها. في 1760 تكون الاتحاد الهلفيتي لدعم الولاء للأمة أكثر من الإقليم، ولتوحيد الحركات المبعثرة للإصلاح السياسي.

وقد قدر فولتير-الذي كان يعيش عن كثب-سكان سويسرا في 1767 بـ 720.000 نسمة(1). وكان أكثرهم يفلح الأرض أو يزرع الكروم، ويسطب المنحدرات إلى ما يقرب من قمم الجبال. وكانت صناعة النسيج في نمو مطرد لا سيما في إقليم سانت جالن وكانتون زيوريخ؛ وكانت مراكز صناعية أخرى بسبيلها إلى التشكل في جلاروس، وبرن، وبازل؛ أما جنيف ونويشاتل فكانتا المركزين العظيمين لصناعة الساعات. وأنشأ الوكلاء المنتشرون في أرجاء أوربا من لندن إلى الأسناتة (التي كان بها ثمانية وثمانون

صفحة رقم : 13960

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> السويسريون

منهم) لجنيف تجارة صادر حققت الثراء السريع للمدينة الواقعة على الرون. وكثرة المصارف لأن المالبين السويسريين كانوا قد اكتسبوا سمعة دولية بالأمانة. وكانت أغلب الكفاءات، كما هي الحال في كل بلد، مركزة في أقلية الرجال، فأدى هذا إلى تركيز الثروة. وكانت الكانتونات بصفة عامة تحكمها أولجركيات تسلك مسلك أي طبقة حاكمة. فلإشراف رعاة أسخياء للآداب والعلوم والفنون ولكنهم يقاومون كل خطوة للتوسع في حق الانتخاب. وقد اتهم جيون، الذي يسكن لوزان، أولجركية برن بأنها تثبط الصناعة في الأقاليم التابعة لها، وتبقى على هبوط مستوى المعيشة فيها عملاً بالمبدأ اللائق "إن الرعايا الفقراء المطيعين خير من الأغنياء المتمردين" (2). وقد نظمت جماعات لإلغاء الامتيازات الاقتصادية أو السياسية غير مرة، ولكنها صدرت بقوة الدولة والكنيسة المتحالفتين (3). واضطربت أحوال جنيف أنا بعد أن نتيجة حرب الطبقات طوال القرن الثامن عشر. وساد فيها سلام نسبي من 1737 إلى 1762، ولكن إحراق المجلس البلدي لكتاب إميل (1762) فجر الدعوة لتوسيع حق التصويت. وعضد الحركة روسو وفولتير، بعد جدل كثير نزلت طبقة الإشراف للطبقات الوسطى عن قسط صغير في الحكم. وقد خلف هذا ثلاثة أرباع السكان مجردين تماماً من حق التصويت-الوطنيون (أو الأهالي) وهم الأشخاص المولدون في جنيف ولكن الأبوين من غير الوطنيين. وهؤلاء حرموا أيضاً من معظم المهن، ومن المناصب الحربية، ومن الارتقاء معلمين في النقابات الحرفية؛ وقد منعوا من توجيه الملتزمات إلى المجلس الأكبر والمجلس الأصغر اللذين يحكمان الجمهورية. غير أنهم أثقلوا بالضرائب. وفي 4 أبريل 1766 ذهب وفد من "الوطنيين" إلى فرنيه وطلبوا إلى فولتير أن يساعدهم في نيل حق التصويت. فقال لهم: "يا أصدقائي، إنكم تؤلفون أكثر الطبقات عدداً في مجتمع مستقل كادح، وأنتم ترسفون في العبودية ولا تطلبون إلا أن تتمتعوا بميز انكم الطبيعية، أي أن تمنحوا هذا الطلب المتواضع لا أكثر. وسأعنيكم بكل ما أملك من نفوذ...

صفحة رقم : 13961

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> السويسريون

فإذا أكرهتم على الرحيل عن وطن يثري على حساب كدكم، فسأستطيع تقديم العون لكم وحمايتكم في مكان آخر" (4). ولكن الطبقتين الأرستقراطية والبورجوازية اتحدتا في مقاومة نداء "الوطنيين"، وكل ما استطاعه فولتير هو أن يرحب في مستعمرته الصناعية بكل من وفد عليه من الصناع الساخطين (1768). وفي 1782 هب الوطنيين في ثورة أطاحت بطبقة الإشراف وأقامت حكومة نيابية. ولكن النبلاء استجدوا بفرنسا وبرن سردينيا؛ فتدخلت هذه الدول، وأخذ التمرد، وردت الأولجركية إلى الحكم. وكان على الوطنيين أن ينتظروا مجيء الثورة الفرنسية لتأتيهم بالحرية.

وأنجبت الكانتونات في ثلث القرن الذي نحن بصددده بعض الشخصيات ذات الشهرة الدولية. فكان يوهان هاينريش بستالوتسي أحد الأفراد النادرين الذين يتخذون العهد الجديد مرشداً للسلوك. وقد اتفق مع روسو على أن المدنية أفسدت الإنسان، ولكنه أحس أن الإصلاح يمكن أن يأتي لا عن طريق القوانين والنظم الجديدة، ولكن بإعادة تكوين السلوك الإنساني بالتربية. ومن ثم كان طوال حياته يرحب بالأطفال لا سيما الفقراء منهم، وخصوصاً المشردين؛ يؤويهم ويعلمهم، ويطبق في تعليمهم المبادئ التحررية التي احتواها كتاب روسو "إميل"، مع أفكار من عنده. وقد بسط آراءه في كتاب كان أكثر الكتب انتشاراً بين قراء ذلك الجيل. فالبطلة في كتابه "ليونهارد وجرتروود" (1781-85) تصلح قرية بأسرها بمحاولة معاملة الناس كما لو كان المسيح يعاملهم، وبتعليم أطفالها في مراعاة صابرة لغرائزهم

واستعداداتهم الفطرية. ومن رأي بستالوتسي أن يعطي الأطفال من الحرية القدر الذي تسمح به حقوق الآخرين. فينبغي أن يبدأ التعليم المبكر بالقدوة، وأن يعلم الطفل بالأشياء والحواس، والخبرة، لا بالكلمات أو الأفكار أو الصم. وقد مارس بستالوتسي طرائقه في مدارس سويسرية شتى، ولا سيما في إيفردون. وهناك زاره تاليران، ومدام دستال، وغيرهما؛ ومنها انتشرت نظرياته في طول وأوربا وعرضها. على أن جوته شكاه من أن

صفحة رقم : 13962

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> السويسريون

مدارس بستالوتسي تكون أشخاصاً فرديي النزعة، وقحاء، مغرورين، متمردين(5). وهناك انجليكا كاوفمان، المولودة في كانتون جريزون، والتي نافست مدام فيجيه لبرون بوصفها أشهر فنانة في جيلهما. فكانت تجيد الرسم، فضلاً عن إتقانها العزف، حتى وهي في الثانية عشرة، إجادة حملة الأساقفة والنبلاء على أن يجلسوا إليها لتصورهم. وفي الثالثة عشرة (1754) اصطحبها أبوها إلى إيطاليا حيث واصلت دراساتها، واحتقى بها القوم أينما ذهبت تقديراً لمهاراتها وإعجاباً بسحر شخصها. وحين دعت إلى إنجلترا عام 1766 أثارت ضجة بتصويرها جاريك. وأغرم السير جوشو رينولدز جداً بـ "الآنسة اينجل"، وصورها، فصورته بدورها. وقد شاركت في إنشاء الأكاديمية الملكية للفنون، التي كلفتها هي وغيرها في 1773 بتزيين كاتدرائية القديس بولس. وفي 1781 قفلت إلى روما، حيث (1788) سلكت جوته في عداد أصدقائها الأوفياء. وماتت هناك في 1807، وكان ماتمها الذي نظمه كانوا حدثاً من أحداث العصر، وشيعها مجتمع الفنانين بأكمله إلى مثاها الأخير.

أما أبرز شخصيات الجيل السويسرية بعد روسو فهو يوهان كاسبار لافاتر. ولد في زيورخ في 1741، وأصبح راعياً بروتستنتياً، واحتفظ طوال حياته بأحر الولاء للمسيحية التقليدية. وقد رأينا محاولاته لهداية جوته ومندلسون. ولكنه لم يكن دجماطيقياً، فقد احتفظ بصداقاته عبر الحدود الدينية والقومية، واحترمه كل من عرفه، وأحبه الكثيرون(6). وقد ألف كتباً فيها ورع صوفي، وشرح سفر الرؤيا شرحاً مغرباً في الخيال، وأمن بالقوى المعجزية للصلاة ولكاليوسترو، وأعطى زوجته علاجات "تنويمية" عملاً بإرشادات مزير. وكان أخص دعاواه أن خلق الإنسان يمكن الحكم عليه من ملامح وجهه ومحيط دماغه. فآثار اهتمام جوته وهردر بأرائه، وقد أسهما بمقالات لكتابه "شذرات في الفراسة" (1775-78) وقد درس نظرات الأفراد البارزين، وأدمغتهم، وأشكالهم، وربط بين ملامح الجمجمة والوجه وصفات نوعية للعقل والخلق. وقد قبلت

صفحة رقم : 13963

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> السويسريون

تحليلاته واستنتاجاته على نطاق واسع، ولكنها الآن مرفوضة بوجه عام. على أن المبدأ العام الذي نادى به، وهو أن الصفات السيكولوجية تشارك (مع الهواء والبيئة والغذاء والمهنة الخ..) في تشكيل الجسم والوجه، مازال يحوي قدراً كبيراً من الحقيقة، فكل وجه إنما هو ترجمة ذاتية.

تكان لافاتر جزءاً من حركة إزهار شملت روسو، والشاعر والعالم ألبيرشت فون هالر، والشاعر والمصور سلومون جسنر، والمؤرخ يوهان فون مولر، وهوراس دوسيسير، الذي بدأ رياضة تسلق الجبال بارتقائه جبل مون بلان في 1787 بعد محاولات اتصلت سبعة وعشرين عاماً. وأحست الكنتونات خلال ذلك برياح الثورة تهب عليها عبر الحدود من فرنسا. وفي 1797 انضم فردريك سيزار ولاهارب، الذي كان معلماً خاصاً لحفيدي كاترين الكبرى، إلى بيتر أوخس عضو نقابة التجار في بازل، في دعوة حكومة الثورة الفرنسية لتساعدهما على إنشاء جمهورية ديمقراطية في سويسرة. وقد مهدت الطريق لهذه الخطوة ثورة محلية في برن وفو (يناير 1798)؛ فعبر جيش فرنسي الحدود في 28 يناير، ورحب به أكثر السكان السويسريين محرراً لهم من الأوجركية، وفي 19 مارس أعلنت "جمهورية هلفيسية واحدة لا انقسام لها". فأطاحت بكل امتيازات الكانتونات والطبقات والأشخاص، وجعلت سويسرة كلها سواء أمام القانون. وكان زيورخ أطول الأقاليم مقاومة، وفي الهياج الشديد الذي تلا ذلك أصيب بطلق ناري الشيخ الأمين لافاتر (1799)، فمات في 1801 متأثراً بجرحه متأثراً بطيباً.

صفحة رقم : 13964

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> الهولنديون

2- الهولنديون

1715-1795

أعجب الناس جميعاً بالهولنديين. وقد وصف المسرحي الدنمركي هوليرج، الذي زار الأقاليم المتحدة (هولندة) و "بلجيكا" في 1704، هذه البلاد وصفاً تحمس فيه على الأخص لفتواتها التي كانت زوارقها كما قال "تتقلني من مكان لآخر" في هدوء عذب و "تمكنني من إنفاق كل ليلة في مدينة كبيرة، حتى أنني كنت أستطيع في الأمسية ذاتها أن أذهب إلى

صفحة رقم : 13965

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> الهولنديون

الأويرا أو المسرح وصولي رأساً" (7). وقد أعربت عن مثل هذا السرور اللذيذ ماري ورتلي مونتجيو بعد اثني عشر عاماً فقالت:

"إن هذا البلد كله (هولندا) يبدو وكأنه حديقة فسيحة الأرجاء: فالطرق كلها حسنة الرصف، تظلها على الجانبين صفوف الأشجار، وتحفها قنوات واسعة غاصة بالزوارق الغادية الرائحة... وكل الشوارع (في روتردام) ... معنتى بنظافتها جداً... حتى أنني جلست بأرجاء المدينة كلها تقريباً أمس، متكرة، في خفي دون أن تتأني لوثنة قذر واحدة، وترى الخادمت الهولنديات يغسلن الطوار... بعناية تفوق عناية خادمتنا بغسل غرف نومنا. ومراكب التجار تصل (على القنوات) حتى أبواب البيوت. والدكاكين والمتاجر نظيفة بهية إلى حد مدهش، غاصة بمقادير هائلة من السلع الجميلة" (8).

على أن هذه التقارير الوردية وصفت هولندا قبل أن تحس بالآثار الاقتصادية لانتصارها على لويس الرابع عشر في حرب الوراثة الأسبانية. ففيها أراقت دمها ومالها إلى ما يقرب الإنهاك؛ فتضخم دينها العام، وفقدت كثيراً من تجارة النقل التي ذهبت إلى حلفائها العسكريين الذين كانوا رغم تحالفهم العسكري معها منافسين لها في التجارة - إلى ألمانيا. وهبطت أرباح شركة الهند الشرقية من أربعين في المائة إلى 1715 إلى اثني عشر ونصف في المائة في 1737، وأرباح شركة الهند الغربية الهولندية من خمسة في المائة في 1700 إلى اثنين في المائة في 1740 (9). وجرت حرب السنين السبع مزيداً من الأذى. ذلك أن مصرفي أمستردام أثروا بفضل القروض المرتفعة الفائدة التي أقرضوها للدول المحاربة، ولكن صلح 1763 أنهى هذه النعمة الكبرى، فأفلس كثير من المصارف الهولندية، وتضرر نتيجة لذلك كل مشروع تجاري كبير. كتب بوزويل الذي كان في هولندا في 1763 يقول "إن الكثير من كبريات المدن تضعضعت إلى حد محزن... وأنت تلتقي بمجموع من القراء الذين يتضورون جوعاً وهم عاطلون" (10). وزيدت الضرائب فأفضى ذلك إلى هجرة رأس المال والعناصر البشرية الصلبة؛

صفحة رقم : 13966

قصة الحضارة - روسو والثورة - الشمال البروتستنتي - من جنيف إلى استوكهولم - الهولنديون

وفي هذه الفترة امتزجت دماء المستعمرين الهولنديين والألمان في جنوب أفريقيا وانبعث البوير ببطء نتيجة الامتزاج. وجاء الانتعاش بفضل خلق الهولنديين وجددهم وأمانتهم. فقد عكف شعب هادئ قوي مدبر على فلاحه أرضه، وتشحيم طواحين هوائه، ورعي أبقاره، وتنظيف معامل ألبانه، وإنتاج ألوان لذيذة من الجبن الشهي الكريه الرائحة؛ وكانت هولندا سبابة بين دول أوروبا في مضمار الزراعة العلمية (11). واستعادت دلفت سوق البرسلان الذي فقدته. واسترد مصرفيو أمستردام الهولنديون واليهود ما اشتهروا به من جدارة بالثقة وقدرة على التصرف؛ فأقرضوا المال بقليل من الفائدة والمخاطرة، وحصلوا على عقود رابحة بدفع رواتب الجند وتمويلهم؛ ولجأت الحكومات ورجال الأعمال إلى أمستردام طلباً للقروض، وندر أن ردوا فارغين؛ وطوال ذلك القرن المضطرب كله تقريباً كانت بورصة أمستردام المركز المالي للعالم الغربي. كتب آدم سميث حوالي عام 1775 يقول: "إن إقليم هولندا... بالنسبة إلى مساحة أرضه وعدد سكانه، بلد أغنى من إنجلترا" (12).

وأكثر ما راع فولتير في 1725 (13) كان تعايش مختلف الأديان تعايشاً لم يكدر صفوه مكدر. فهنا كان كاثوليك سنيون وكاثوليك جانسنيون (ألم يكن جانسن نفسه هولندياً؟)، وبروتستنت أرمنيون من القائلين بحرية الإرادة، وبروتستنت كلفنيون من القائلين بالقضاء والقدر، ومعمدانيون من القائلين بتجديد العماد، وسويونيون، وإخوان مورافيون ويهود، ثم حفنة من أحرار الفكر يصطلون في دفع التنوير الفرنسي (14). وكان أكثر القضاة من البروتستنت، ولكنهم "كانوا يأخذون النقود بانتظام من الكاثوليك" كما يقول مؤرخ هولندي "للإغضاء عن ممارستهم

شعائر دينهم والسماح لهم بشغل مناصبهم" (15). وكان الكاثوليك الآن ثلث السكان الذين بلغ عددهم ثلاثة ملايين. أما الطبقات العليا، الملمة بأديان كثيرة بفضل اشتغالها بالتجارة، فقد تشككت في هذه الأديان كلها، ولم تسمح لها بالتدخل في القمار، والشراب، والشره في الطعام، وشيء من الفسق المنتشر على الطريقة الفرنسية (16).

صفحة رقم : 13967

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> الهولنديون

وكانت الفرنسية لغة المثقفين. وكثرت المدارس، واشتهرت جامعة ليدن بدراساتها في الطب التي أحيت ذكر بويهافي العظيم. وكان في كل المدن جمعيات للفنون، ومكتبات، و "قاعات للخطابة" تعقد مباريات دورية في الشعر. وكان تجار التحف الهولنديون يتمتعون بشهرة أوربية بكنوزهم وتزييفاتهم (17). وكان عصر الفن الهولندي الذهبي قد ولى بموت هوببما (1709)، ولكن كورنيلس تروست كان على الأقل صدى يردد عظمته. وربما كان أروع نتاج الفن الهولندي في هذا العصر هو الزجاج الرقيق المنقط أو المحفور بأبر من الماس (18). وكانت أمستردام عشاً للناشرين، بعضهم شرفاء وبعضهم قراصنة. وهبط النشاط الخلاق في الأدب إلى مستوى منحط النصف الأول من القرن الثامن عشر، ولكن حوالي 1780 غذت حركة إحياء للأدب شاعراً مطبوعاً هو فلليم بلديريك. ويروي بوزويل أن صديقاً له أخبره أنه سيجد الهولنديين "سعداء في غيابهم" (19)؛ ولكن بوزويل كتب من أوترخت يقول "إننا نعقد اجتماعات متألفة مرتين في الأسبوع، وحفلات خاصة كل مساء تقريباً.. وفي زمرة سيدات جميلات محبوبات هن من الكثرة بحيث لا تستطيع الصحائف الكثيرة أن توفيهن حقهن من الثناء" (20) وأروع الصفحات في مذكرات بوزويل السريعة الموجزة عن هولندا تلك التي تصف غرامه المتردد بزليده أو "حسناً زويلين" -وهي ايزابيللا فان تويل. وكانت تنتمي إلى أسرة عريقة مرموقة؛ فأبوها "سيد زويلين وفستبروك" كان أحد حكام إقليم أوترخت. وقد تلقت من التعليم فوق ما تحتمل، فبانت تجر بهرطقاتها في فخر، وهزأت بالتقاليد، والأخلاق، والدين، ومراتب الشرف، ولكنها فتنت الناس جميعاً بحسنها ومرحها وصراحتها المثيرة. وقد أحجمت عن الزواج المهذب الوفي، وكتبت تقول "لو لم يكن لي أب ولا أم لما تزوجت.. ولا اغتبطت كل الاغتباط بزواج يتخذني كخليلته؛ ولقلت له "لا تنتظر إلى الوفاء على أنه واجب. فما ينبغي أن يكون لك غير حقوق العاشق وغيرته" (21). فأجاب بوزويل أشد الفاسقين إلحاحاً في أوربا "يا للعار يا زليديتي، أي أو هام هذه" ولكنها أصرت على موقفها "إني

صفحة رقم : 13968

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> الهولنديون

لأوثر أن أكون غسالة لحبيبي، وأن أسكن عليّة، على حرية أسرنا الكبيرة الجرداء وآداب سلوكها المهذب" (22).

وجازت زليدة سلسلة من العلاقات الغرامية التي خفتها وحيدة مثخنة بجراح لا تبرحها. وراحت تهدئ أعصابها بالأفيون وهي بعد في الرابعة والعشرين. وحين بلغت الثلاثين (1771) تزوجت سان-هياسنت دشاربير، وهو معلم خاص سويسري، وذهبت لتعيش معه قرب لوزان. فلما وجدته قاصراً من الناحية الفكرية، وقعت في أربعيناتها في حب رجل يصغرها بعشر سنين، فقضى وطره منه ثم هجرها. والتمست التنفيس في كتابة قصة أسمتها "كاليست" (1785-88)، طرب لها سانت-بيف أي طرب. وحين بلغت السابعة والأربعين، التقت في باريس ببنجامن كونستان، وكان فتى في العشرين، فأغوته بفكرها (1787) وكتب يقول "إن لمدام شاربير أسلوباً غاية في الأصالة والحيوية ف النظر إلى الحياة، واحتقاراً عميقاً جداً للتعصب، وفكراً بالغ القوة، وتقوفاً على أوساط الناس عارماً محتقراً... حتى أنني على غرابة أطواري وتكبري مثلها... وجدت في حديثها لذة لا عهد لي بها قط... وقد انتشينا باحتقارنا للنوع الإنساني" (23). وسار الحال على هذا المنوال حتى عام 1794 حين وجد بنجامن نشوة جديدة مع مدام دستال. واعتكفت زليدة في عزلة مرة، وماتت في الخامسة والستين، بعد أن خلقت خواء الحياة الدنيا واستنفدتها. ولو شاءت لوجدت غذاء للتشاؤم في التاريخ السياسي للأقاليم المتحدة في القرن الثامن عشر. ذلك أن حكم البلاد بعد موت وليم الثالث (1702) احتكرته أولجريكه من كبار رجال الأعمال انصرفوا إلى فرض الضرائب على الشعب ومحاباة الأقرباء والدس والتأمر. كتب كاتب هولندي في 1737 يشكو هذه الحال فقال "إن المواطنين ممنوعون من المشاركة في الحكومة... ولا يطلب منهم نصيحة ولا رأي في إدارة شؤون الدولة" (24). وقد تكشف العجز الحربي لهذا النظام حين دخلت هولندا حرب الوراثة النمساوية (1743) فغزاها جيش فرنسي ولم يلق مقاومة تذكر، وسلمت

صفحة رقم : 13969

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> الهولنديون

مدن كثيرة دون جدال. كتب المرشاي دنوال يقول "علينا أن نتعامل مع شعب غاية في اللطف والكرم" (25) على أنهم لم يكونوا كلهم كذلك، فقد ارتفعت أصوات معظم المواطنين مطالبة بزيم حربي ينقذ البلاد على نحو ما فعل وليم الثالث في 1672، ونصب سليله غير المباشر، وليم الرابع أمير أورنج، حاكماً للأقاليم السبعة، وقائداً للجيش، وأميراً للبحرية (3 مايو 1747)؛ وفي أكتوبر جعلت هذه المناصب وراثية في أسرته، ومعنى ذلك أن الملكية أعيدت في واقع الأمر، غير أن وليم الرابع كان فيه من التمسك بالخلق المسيحي ما لا يجعله قائداً حربياً صالحاً؛ فلم يستطع أن يعيد النظام إلى الجيوش، وتوالت الهزائم يقفو بعضها بعضاً، وفي معاهدة إكس-لاشابل (1748) كانت هولندا محظوظة لاحتفاظها بأراضيها سليمة، ولكنها عادت خربة من الناحية الاقتصادية ومات وليم بالحمرة وهو في الأربعين (1751)، وقامت أرملته الأميرة آن-بالوصاية على العرش إلى أن ماتت (1759)، ثم حكم لودفج إرنست أمير برونزويك-فولفنبوتل البلاد حكماً صارماً كفاً حتى بلغ وليم الخامس سن الرشد (1766). وفي الحرب الدائرة بين إنجلترا والمستعمرات الأمريكية احتجت هولندا على عدوان البريطانيين على السفن الهولندية، وانضمت إلى روسيا في "الحياض المسلح" المبرم في 1780؛ وأعلنت إنجلترا عليها الحرب، واستولت على جميع السفن الهولندية تقريباً، وفي معاهدة باريس (1783) كادت مصالح هولندا أن تغفل، فنزلت عن نجابتها (في جنوبي الهند) لإنجلترا، وسمحت للإنجليز بحرية الملاحة في جزر الملقا. وهكذا لم تعد هولندا تلعب دوراً بين الدول. ودمرت هذه الخطوب شعبية وليم الخامس. ثم إن نجاح الثورة في أمريكا حفز الأفكار الديمقراطية في الأراضي الواطنة، وأفضى إلى قيام حزب "الوطنيين" المناهض للأسرة الحاكمة. وكانت القلة صاحبة المال تتمتع بثروة الأمة المتناقصة خلال كل تغيير في الحكومة امتصاصاً لأجراً رجالاً كثيرين إلى التسول ونساء كثيرات إلى البغاء في المدن التي كانت يوماً ما

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> الهولنديون

مزدهرة يسودها النظام. وفي 1783. تكونت سرأ جماعات من "الرماة الأحرار" في أمستردام ولاهاي للإعداد للثورة. وفي 1787 استولى "الوطنيون" على السلطة، ولكن وليم الخامس أعيد إلى عرشه بفضل تدخل بروسيا المسلح. ثم نفخت الثورة الفرنسية الحماسة من جديد في أفئدة الوطنيين، فدعوا فرنسا لتخف لنجدتهم. وعليه ففي 1794 غزت الجيوش الفرنسية هولندا، وبطشت بالجيش الهولندي، وفر وليم الخامس إلى إنجلترا، وانضم أنصار الثورة الهولنديون إلى الفرنسيين في تنظيم الجمهورية البنافية (1795-1806). وفي 1815 أعاد ابن وليم الخامس بيت أورنج-نيساو إلى السلطة باسم الملك وليم الأول، وأسلافه يتربعون على عرش هولندا اليوم (1967).

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> الدنمركيون

3- الدنمركيون

1797-1715

بلغ عدد سكان الدنمرك حسب أول تعداد رسمي للبلاد (1769) 825.000 نسمة، يضاف إليهم 727.600 في النرويج التي ظلت خاضعة للملوك الدنمركيين حتى 1814. وكان كل الفلاحين تقريباً في النرويج يملكون أراضيهم، وفيهم كبرياء ككبرياء الفيكنج. أما الدنمرك فكان نصف فلاحيتها أقتاناً، والنصف الآخر خاضعين للرسوم الإقطاعية. وجهد الملوك لكبح جماح هذا الإقطاع، ولكنهم كانوا معتمدين مالياً على الإشراف، واستمرت القنية حتى 1787. في هذا النظام لم تلق التجارة ولا الصناعة تشجيعاً يذكر، ولم تنم طبقة وسطى ذات شأن؛ وأفاد فتح قناة كيل (1783) الإنجليز والهولنديين أكثر مما أفاد الدنمركيين. وفي 1792 كانت الدنمرك أول دولة أوربية تلغي النخاسة في ممتلكاتها.

وكما سيطر النبلاء على الدولة كذلك سيطرت الكنيسة على المناير والطباعة، وأملت أن تسيطر على العقول أيضاً. فحرمت الرقابة الصارمة التي امتدت من 1537 إلى 1849 كل ما يطبع أو يقال مما لا يتفق والتعاليم اللوثرية

القومية؛ وصور الكثير من الكتب غير اللاهوتية، كقصة جومة "الأم فرتر" لأنها خطر يهدد الأخلاق العامة. وزاد من القيود المعطلة لنمو الأدب استعمال الألمانية في البلاط، واللاتينية في الجامعات، والفرنسية في الآداب

صفحة رقم : 13972

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> الدنمركيون

البحة-التي لم يكد يوجد منها شيء. وكان تدشين الأدب الدنمركي بالتأليف باللغة القومية، وإدخال بصيص من التنوير إلى الدنمرك، من مآثر ألمع دنمركي في القرن الثامن عشر. وتستطيع كل من النرويج والدنمرك أن تنسب إليها لودفج فون هولبرج، لأن ولد في برجن (3 ديسمبر 1684). وبعد أن تلقى العلم في المدرسة اللاتينية المحلية، عبر الماء ليلتحق بجامعة كوبنهاجن. ولكن سرعان ما نضب ماله؛ ففقل إلى النرويج واشتغل مدرساً خصوصياً في أسرة قسيس ريفي. فلما أن ادخر ستين طالراً انطلق ليرى الدنيا من حوله. فنراه في 1704 في هولنفة، وفي 1706-1708 كان يعلم نفسه في مكتبات أكسفورد. فلما عاد إلى كوبنهاجن ألقى محاضرات لم تأته بأكثر كثيراً من تعليم الذات، وعاش أثناء ذلك على التدريس الخصوصي، واغتذى بالطموح. وفي 1714 عينته الجامعة أستاذاً دون راتب، غير أن منحة خاصة أتاحت له الجولان عامين في ربوع إيطاليا وفرنسا، على قدميه أكثر الوقت. فلما أب من أروع رحلة بين الرحلات الرائعة كلها، عين أستاذاً للميتافيزيقا، وهي مادة أبغضها، ثم للاتينية والبيان، وأخيراً (1730) للتاريخ والجغرافيا اللذين أحبهما. ولقد خلق الأدب الدنمركي في لحظات فراغه. فحتى زمنه لم يكن في الدنمركية شيء سوى الأغاني الشعبية والفارصات والترانيم والكتب العقيدية الشعبية. وألف هولبرج مكتبة صغيرة من القصائد والهجائيات والقصص والأبحاث بالدنمركية في السياسة والقانون والتاريخ والعلوم والفلسفة. ولم ينافسه غير فولتير في تعدد جوانبه. وقد استعمل الهزل كما استعمله فولتير ليسوط به الأساتذة المزهوين من عباد الدراسات الكلاسيكية، والمحامين الذين يقيدون حركة العدالة بأغلال الدقائق التقنية، ورجال الدين المتراحمين بالمناكب على المال والمنصب، والأطباء الذين ييسرون دخول المرضى إلى الأبدية. وتناول كل أعمدة المجتمع هؤلاء تقريباً بالتشهير في أول آثاره الأدبية الكبرى، وهو ملحمة ساخرة سماها بيدرباس (1719). وأوجع بعض كبار الدنمركيين وخز هذا الهجاء، فناشدوا الملك فردريك الرابع

صفحة رقم : 13973

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> الدنمركيون

أن يصادر الكتاب باعتباره ضاراً بالأخلاق مستهزئاً بالقساوسة؛ وقرئ على الملك أول قسم في الملحمة كطلبه، فحكم بأنها "عمل بريء مسل"، غير أن المجلس الملكي أحاط هولبرج بأنه كان خيراً لو أن القصيدة لم تكتب قط(26).

وعلى ذلك انصرف إلى المسرح. ففي 1720 افتتح ممثل فرنسي اسمه إتيين كايون في كوبنهاجن أول مسرح دنمركي. فلما افتقد المسرحيات الدنمركية الجديدة بالإخلاق استورد الدرامات من فرنسا وألمانيا. غير أنه استشف من "بيديارس" أن هولبرج يملك المواد والموهبة اللازمة للكوميديا، فلجأ إليه ليمد المسرح الجديد بتمثيلات باللغة العامية، ولم ينقض عام حتى كان هولبرج قد ألف خمس تمثيلات، وفي ثمانية أعوام ألف عشرين، كلها غني في صور الأعراف والعادات المحلية غني حمل خلفه العظيم آدم أو هلنشليجر على أن يقول فيه "إنه عرف كيف يصور الحياة البورجوازية لمدينته كوبنهاجن بأمانة عظيمة بحيث لو انشقت الأرض وابتلعت هذه المدينة، وبعد مائتي عام أميط اللثام عن كوميديات هولبرج، لاستطاع المرء أن يعيد بناء العصر منها، على نحو ما نعرف أيام روما القديمة من أطلال بومبي وهركيولانيوم(27).

ونقل هولبرج القوالب والأفكار عن بلوتوس وترنس وموليير والكوميديا ديلارتي التي شهدتها في إيطاليا. وبعض كوميدياته تمثلياته من فصل واحد ذات موضوعات تافهة فقدت قوة دفعها، مثل "رحلة سجاناريل إلى أرض الفلاسفة"(28). وبعضها ما زال يحتفظ بقوته، مثل "بيي رجل التل" التي نعرف منها أن الفلاحين حين يظفرون بالسلطة يكونون أشد بغساً من سادتهم. وبعضها تمثيلات مكتمة الدول مثل "اراموس مونتائوس"، وهي هجائية مرحة تسخر بتقطع العلماء، وبغطرسة اللاهوتيين وبجهل العوام، مع مسحة خبيثة من صراحة الريفيين وصدقهم، مثل قول لسبيد لأبيها بعد أن سمعت بأن خطيبها عاند من الجامعة "إن فقد صدق حلمي.. لقد حلمت أنني نمت معه البارحة"(29) على أن مسرح كوبنهاجن

صفحة رقم : 13974

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> الدنمركيون

رغم هذه الكوميديات المرحة أغلق أبوابه في 1727 لافتقاره إلى الدعم الشعبي. وكان آخر ما مثل فوق خشبته مسرحية هولبرج "مأتم الكوميديا الدنمركية". لقد صدم زملاءه من أساتذة الجامعة بالكتابة للمسرح؛ أما الآن فقد ألان جانبهم بمؤلفات تاريخية يسرت للقراء الدنمركيين ثمرات الدراسات الأوروبية الغربية. وكانت كتبه "تاريخ للدنمرك" (1732-1735)، تاريخ عام للكنيسة" (1727-1747)، و "تاريخ لليهود" منصفات، ولكنها منقنة. والتمس هولبرج التخفف من هذه الجهود في رائعته. "رحلة نيلس كليم السفلية" (1741). وقد كتبها نثراً لاتينياً لتصل إلى القراء الأوروبيين، فوصلت، ولكن بطريق الترجمة: ترجمها ينز باجيزين إلى الدنمركية فطبعت الترجمة ثلاث مرات، وظهر منها بالألمانية عشر طبعات، بالسويدية، والهولندية، والإنجليزية، وثلاث، وبالفرنسية والروسية اثنتان، وبالمجرية واحدة. هذه "الرحلة السفلية" هي التي جعلت هولبرج "سويفت الدنمرك" وفولتيرها" معاً. والقصة تزوي أن الضوضاء المنبعثة من كهف تنثر فضول نيلس، فيصمم على استقصاء مصدرها ويدليه أصحابه بحبل ينقطع، "وبسرعة مذهلة دفع بي إلى أعماق الهاوية"(30). ثم يعثر في قشرة الأرض على مساحة مكشوفة أو قبة سماوية فيها شمس وكواكبها السيارة، ونجوم كثيرة. ويسقط صوب أحد هذه الكواكب فيصبح قمرأ تابعاً له ويدور حوله عاجزاً، ولكنه يمسك بنسر يحمله حتى يهبط في رفق على الكوكب بوتو (أي يوتويا) مقلوبة. هنا يجد الأشجار هي النوع السائد، وهي غنية بعصارتها العاقلة، ولسوء الحظ "كانت الشجرة التي تسلقتها... هي زوجة العمدة"(31). ولبوتو بعض القوانين الممتازة. فالناس الذين "يتجادلون علانية حول صفات الكائن الأعظم وماهيته ينظر إليها على أن بهم مساً من الجنون"، فيعالجون بفسدهم لتهدب حامهم، ثم يحبسون حتى "يفيقوا من هذا الهديان ب"(32). والأمهات في بوتو يرضعن أطفالهن وهي فكرة سبقت بعشرين سنة دعوة روسو للأمهات إرضاع أطفالهم من ثديهن. وفي إقليم كوكليكو

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> الدنمركيون

تحكم النساء الدولة، ويعني الرجال بشئون البيت أو يصبحون بغايا، وللملكة "حريم" من ثلاثمائة شاب وسيم. وينفق الفلاسفة في كوكليو وقتهم في محاول الوصول إلى الشمس، ولا يهتمون اهتماماً يذكر بشئون الدنيا. وفي إقليم ميكولاك تجد الناس كلهم ملحدين، "يقارفون أي شيء يستطيعون إخفائه عن الشرطة" (33) ويقع نيلس على كتاب بعنوان "رحلة تانيان إلى العالم السفلي" يصف أوربا وعاداتها الغربية: الرعوس التي تكسبها البواريك الضخمة، والقبعات المحمولة تحت الأذرع (كما يفعل نبلاء فرنسا)، "والكعكات الصغيرة أو القرايين تحمل مروراً بالشوارع ويقول الكهان أنها آلهة، والناس الذين خبزوها... يحلفون على الإيمان بأن هذه القرايين خلقت الدنيا" (34). وقد اشتملت "الرحلة السفلية" على انتقادات للعقيدة المسيحية، ودعت إلى إطلاق حرية العبادة لجميع المذاهب، ولكنها أوصت بالإيمان بالله، وبالجنة، وبالنار، باعتبارها ركائز ضرورية لناмос أخلاقي لا تقفأ تهاجمه مطالب النفس والجسد هجوماً شرساً (35). ورقى العلم فردريك الخامس المصلح الذي انصلح أمره باروناً في 1747؛ واستمتع هولبرج بلذة التمرد في سبابه والرضي يعنه في شيخوخته التي اختتمت سنة 1754. وما زال إلى اليوم إمام الأدب الدنمركي.

على أن البعض قد يخصون بهذا المقام يوهان إيفالد الذي ضارعت حياته حياة بايرون وكيتس وشلي مغامرة ومعاناة وقصراً. وقد ولد في كوبنهاجن في 1743 لقسيس لوثرني، وتمرد على المتمزتين من الكبار، ووقع في غرام أرنسي هوليجارد وهو في السادسة عشرة، وهجر مهنة اللاهوت لأنه استبطاً ثمراتها، وتطوع في الجيش البروسي ثم النمساوي، وصمم على الظفر بالثروة والمجد اللذين ينيلاونه أرنسي عروساً. ولكن الحرمان والمرض أتلغا صحته، فعاد إلى كوبنهاجن واللاهوت، وزوجت أرنسي ثروة أعجل، وسكب إيفالد قلبه في الشعر والنثر. فكتب أول مأساة دانمركية أصيلة

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> الدنمركيون

سماها "رولف كراجي" (1770)، ويبلغ قمة الشعر الدنمركي في القرن الثامن عشر بمسرحية "موت بالدر" (1773) وهي دراما ملحمية بالشعر. على أن جهده لم أنه إلا بالكفاف، فاعتكف في عزلة ريفية، وراح يجتر سلسلة من الأوصاب، ثم أنعشه معاش من الحكومة آخر الأمر. وقد رد على الصنيع بتمثيلية "صيادي السمك" (1776) التي احتوت أغنية شعبية وطنية مطلعها "وقف الملك كرستيان إلى جوار الصاري العالي" التي أصبحت أنشودة الدنمركيين القومية المفضلة (36). وكانت دعوة إيفالد إلى المجد، ووداعه للحياة، ومات في 1781 إثر مرض طويل

أليم غير متجاوز الثامنة والثلاثين. ويعد السكندنافيةون "من أعظم شعراء الشمال الغنانيين، بل ربما أعظمهم قاطبة" (37).

وبتقدم القرن الثامن عشر أصبح التقدم السياسي للدنمرك جزءاً من الدراما الحديثة المتصلة أبداً بين التقاليد المتوارثة والتجربة. وقد مزج كرسيتيان السادس (حكم 1730-46) بين القوى المتعارضة. فدفع هو ووزراؤه التنمية الاقتصادية قداماً باستجلاب الغزالين والنساجين لإنشاء صناعة النسيج، وبتكوين الشركات القومية للاتجار مع آسيا وأمريكا، وبتفتح مصرف كوبنهاجن (1744). ونشروا التعليم الابتدائي والثانوي، وأسسوا الأكاديميات لتشجيع الأدب والعلم. على أنهم جددوا قانوناً قديماً يلزم بحضور بخدمات الصلات اللوثرية، وأغلقوا جميع المسارح وساحات الرقص، ونفوا الممثلين، ومنعوا الحفلات التتكرية.

وأبقى فردريك الخامس (حكم 1746-66) ابن كرسيتيان على هذه القوانين ولكنه خفف من وطأتها بروحه اللطيفة وحبه للذات الحسية. ففي 1751 استقدم من هانوفر يوهان هارفينج أرنست فون بيرنشتورف، الذي وفق وهو رئيس للوزراء في رفع مستوى الأمانة والكفاءة في الإدارة، وأصلح شأن الجيش والبحرية، وأبعدهما عن حرب السنين السبع، وحرك مياه الثقافة الدنمركية الراكدة بجلب الأساتذة والشعراء والفنانين والعلماء؛ وقد رأينا كلويشتوك يقبل هذه الدعوة. وفي 1767 توج الكونت فون

صفحة رقم : 13977

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> الدنمركيون

بيرنشتورف سياسته الخارجية السلمية بإقناع كاترين الكبرى بتوقيع اتفاقية نزلت بمقتضاها للدنمرك عن هولشتين-جوتورب.

ومات فردريك الخامس في الثالثة والأربعين (1766) بعد أن أنهكته لذاته. وقد زوج ابنه كرسيتيان السابع (حكم 1766-1808) على عجل وهو بعد في السابعة عشرة من كارولين ماتيلدا أخت جورج الثالث ملك إنجلترا، وقد أفاضت إشرافاً على حياة العاصمة الاجتماعية، ولكن زوجها نصف المجنون أهملها إيثاراً لحياة الخلاعة، وانزلت كاترين إلى غرام مأساوي من طبيب البلاط يوهان فريدريش شتروينزي. وكان ابناً لأستاذ لاهوت في هاله، فدرس فيها الطب، وفقد إيمانه الديني كما يفقده أكثر الأطباء. وقد دان بحظوته عند الملك لبراعته في علاج العواقب الاكلينيكية لغراميات الملك، وعند الملكة لتوقيفه في الأتيان بكرستيان السابع إلى فراشها بما يكفي لإنجاب وريث للعرش. فلما تردى عقل الملك في درك الاكتئاب وعدم المبالاة، وزادت سلطة الملكة في الحكومة، وسمحت لطبيبة بإدارة سياستها كما سمحت له بالاستمتاع بحظوتها فغدا (1770) حاكم الدولة الفعلي. وخرجت الأوامر من القصر الملكي مهوراً من شتروينزي باسم الملك "غير المتمال قواه العقلية". وطرده برنشتورف، فاعتكف بهدوء في ضياعه بألمانيا.

وكان شتروينزي قد قرأ مؤلفات جماعة "الفلاسفة" الفرنسيين، وعلى مبادئهم نوى أن يشكل الحياة الدنمركية من جديد. فألغى استغلال النبلاء لامتيازاتهم، وأنهى الرقابة على المطبوعات، وأسس المدارس، وظهر المصالح الحكومية من الرشوة والاستغلال، وأعتق الأفتان، وحرّم التعذيب القضائي، وأعلن التسامح لجميع الأديان، وشجع الآداب والفنون، وأصلح القانون والمحاكم والبوليس، والجامعة، والمالية، ووسائل حفظ الصحة البلدية... ثم ألغى معاشات كثيرة تخفيفاً من الدين العام، ورصد دخول المؤسسات الدينية للإنفاق على الأغراض العامة. "ولكن النبلاء تأمروا ليسقطوه، واستغلوا حرية النشر لاستنزاف شعبيته.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> الدنمركيون

وكره الأتقياء من الدنمركيين التسامح الديني لأنهم رأوه كفراً، ورددت أحاديثهم عن شتروينزي أنه أجنبي دخيل ليس لسلطته سند غير فراش الملكة. وفي 17 يناير 1772 أقنع لفيف من ضباط الجيش الملك بأن شتروينزي والملكة يبيتان قتله فوق أمرأً بالقبض عليهما. ورحلت كارولين إلى كرونبورج قلعة هاملت. أما شتروينزي فألقي في السجن، وبعد خمسة أسابيع من المعاناة اعترف بزناه مع الملكة. وفي 28 أبريل 1772 قطع إرباً على مقصلة على مرأى من جمهور محبذ لهذا العقاب. وسمح لكارولين بعد إلحاح جورج الثالث بالاعتكاف في تسليله بهانوفر، حيث ماتت في 10 مايو 1775 وهي بعد في الرابعة والعشرين.

وقلد المتآمرون الفائزون الحكم لأوفي جولد بروج، المعلم الخاص للأمير فردريك. ود قاد جولدبرج خلال اثني عشر عاماً من الحكم حركة انتفاض وطنية على النفوذ الأجنبي في الحكومة واللغة والتعليم، وفتح باب المناصب للعامية، وأعاد القنية، والتعذيب القضائي، وسيادة الكنيسة اللوثرية، والتوجيه الديني للجامعة. ووكلت الشؤون الخارجية لأندرياس بيتر فون برنشتورف، ابن أخي الكونت فون برنشتورف ومحسوبه. فلما نصب الأمير فردريك نفسه وصياً (1784) طرد جولدبرج: وأصبح أندرياس فون برنشتورف رئيس الوزراء وظل كذلك إلى يوم مماته. وبارشاده الحكيم ألغيت القنية الثانية (1787)، وأنهيت النخاسة في المملكة الدنمركية، وأطلقت حرية القيام بالمشروعات الاقتصادية. فلما مات برنشتورف (1797) كانت الدنمرك قد ثبتت أقدامها على الطريق إلى ذلك الرخاء السلمي الذي جعلها محسودة من العالم كله.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> السويديون

كانت حياة شارل الثاني عشر المثيرة مأساة للسويد. ذلك أن مراميه لم تسترشد بموارد وطنه بل بظمئه للمجد. وقد احتمله الشعب السويدي بشجاعة وهو يأتي على قوتهم البشرية وثورتهم، ولكنهم كانوا يدركون قبل موته

صفحة رقم : 13980

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> السويديون

بزمان أن مصيره الفشل المحقق. فقد نزلت السويد بمقتضى معاهدات ستوكهولم (1718-20) عن دزقيتي بريمن وفرمن لهانوفر، وعن الجزء الأكبر من بومرانيا لبروسيا. وبمقتضى صلح نيسناد (1721) نزلت عن ليفونيا واستونيا وامجرمانلاند وكاريليا الشرقية لروسيا. وقضى على سلطة السويد على أرض القارة، وأكرهت على التقهقر إلى شبه جزيرة غنية بالمعادن وصلابة الخلق القومي، متطلبة الجهد الشاق والمهارة المتأخرة ثمناً للحياة. وقد أضعفت خزيمة شارل شوكة الملكية، وأتاحت للنبل أن يستردوا سيطرتهم على الحكومة. فأعطى دستور 1720 السلطة الغالبة لمجلس نيابي أو "دايت" مؤلف من أربع "طبقات" أو مجالس. مجلس نبل "ريدار هوس" قوامه رؤساء الأسر النبيلة كلها؛ ومجلس قساوسة من الأساقفة مضافاً إليهم نحو خمسين مندوباً ينتخبهم اكليروس الأبرشيات من بينهم؛ ومجلس سكان المدن، من نحو تسعين مندوباً يمثلون الموظفين الإداريين وأقطاب رجال الأعمال في المدن؛ ومجلس فلاحين، من مائة مندوب تقريباً يختارون بواسطة المزارعين من ملاك الأرض الأحرار ومن بينهم. وكانت كل طبقة تجلس منفصلة عن غيرها، ولا يمكن أن يصبح أي مشروع قانوناً ما لم توافق عليه ثلاث طبقات؛ ولم يكن لطبقة الفلاحين في حقيقة الأمر قوة تشريعية إلا بموافقة طبقتين أخريين. وخلال اجتماعات المجلس النيابي كانت "الجنة سرية" من خمسين نبياً، وخمسة وعشرين قسيساً، وخمسة وعشرين نائباً عن المدن تحضر مشروعات القوانين جميعها، وتختار الوزراء، وتهيمن على السياسة الخارجية. وقد ألقى النبلاء من الضرائب، واحتكروا حق شغل مناصب الدولة العليا (38). فإذا لم يكن المجلس منعقداً سير دفة الحكم "راد" (مجلس) من ستة عشر أو أربعة وعشرين رجلاً يختارهم المجلس النيابي ويسألون أمامه. وكان الملك يرأس هذا المجلس وله صوتان، وفيما عدا هذا لم يكن له سلطة التشريع. وتضافرت روسيا وبروسيا والدنمرك لتأييد هذا الدستور لأنه يحبذ سياسة السلام ويكبح النزعات الحربية للملوك الأقوياء. ولم تعد الملكية وراثية بل أصبحت انتخابية. وبعد موت شارل الثاني

صفحة رقم : 13981

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> السويديون

عشر (30 نوفمبر 1718) كان مأل العرش بالوراثة إلى كارل فريدريش دوق هولشتاين جوتورب، وهو ابن لأخت شارل الكبرى؛ ولكن المجلس النيابي المنعقد في يناير 1719 لأول مرة في عشرين سنة، أعطى التاج لأولريكا اليانورا وهي أخت لشارل، بعد أن وافقت على التخلي عن سياسة الاستبداد الملكي التي مارسها أخوها. ولكن حتى مع هذه الموافقة تبين أنها عسيرة القيادة، وفي 1720 أقتعت بالنزول عن العرش لزوجها الحاكم فردريك الأول أمير هسي-كاسل الذي أصبح الآن فردريكاً الأول ملك السويد. وبفضل الإرشاد الحكيم الذي بذله الكونت أرفيد برنهارد هورن-وكان مستشاراً للدولة-أتيح للسويد ثمانية عشر عاماً من السلام لتراً فيها من جراح الحرب. غير أن الأباة من السويديين سخروا من سياسته السلمية ولقبوا أشياعه "الطواقي" وهم يعنون بهذا اللقب أنهم خرفون نيام بينما تتراجع السويد إلى المؤخرة في ركب الدول. وقام ضد هؤلاء حزب "القبعات" الذي كونه الكونت كارل جيلنبورج، و كارل تسين، وغيرهما. وتسلط هذا الحزب على المجلس النيابي في 1738، وحل جيلنبورج محل هورن. وإذ كان مصمماً على إعادة السويد إلى سابق مكانها بين الدول، فإنه جدد التحالف المتقادم مع فرنسا التي أرسلت معوناتهما المالية للسويد لقاء معارضتها لمطامع روسيا؛ وفي 1741 أعلنت الحكومة الحرب على روسيا، أملاً في استرداد أقاليم البلطيق التي استولى عليها بطرس الأكبر، ولكن لا الجيش ولا البحرية كانا معدين الإعداد الكافي، وقد أعجز المرض رجال البحرية، وسلم الجيش فنلنده كلها أمام الزحف الروسي. على أن القيصرية اليزابث، الحريصة على كسب تأييد السويد، وافقت على رد معظم فنلنده إذا عين ابن عمها أدولفس فردريك أمير هولشتاين-جوتورب للعرش السويدي. وبهذه الشروط أنهى صلح أبو الحرب (1743). فلما مات فردريك الأول (1751) ارتقى أدولفس فردريك العرش. ولم يمض وقت طويل حتى علمه مجلس الطبقات أنه ملك بالاسم

صفحة رقم : 13982

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> السويديون

لا بالفعل. فقد نازعه حقه في تعيين النبلاء الجديد، أو اختيار أعضاء بلاطه، وهدد بالاستغناء عن توقيعه أنه اعترض على التوقيع على قوانين أو وثائق معينة. وكان الملك رجلاً لين العريكة، ولكن كان له زوجة متكبرة أمرة هي لويزة أولريكا أخت فردريك الأكبر. وحاول الملك والملكة الثورة على سلطة المجلس. ولكن الثورة أخفقت، وعذب عملاؤها وقطعت رؤوسهم أما الملك فعفى عنه لأن الشعب كان يحبه. وأما لويزة فعزت نفسها بحب الأدب وبرزت في مضاره. وقد صادقت ليناياوس وجمعت من حولها لفيماً من الشعراء والفنانين نشرت خلالهم أفكار التنوير الفرنسي. وعين المجلس النيابي معلماً جديداً لابنها ذي الأعوام العشرة، وأصدر إليه تعليمات بأنه يحيط ملك المستقبل جوستافس الثالث بأن الملوك في الدول الحرة لا يحتفظون بعروشهم إلا إذا سمح لهم بشروط، وأنهم إنما تخلع عليهم الأبهة والجلال "التشريف المملكة لا لأجل الشخص الذي يتفق أن يشغل المكان الأول في الموكب" وأنه "بما أن بريق البلاط ووجهه" قد يضلهم بأوهام العظمة، فإنهم يحسنون صنعاً أن هم تفقدوا أكواخ الفلاحين بين الحين والحين، ورأوا الفقر الذي يدفع تكاليف الأبهة الملكية" (39).

وفي 12 فبراير 1771 مات أدولفس فردريك ودعا المجلس جوستافس الثالث ليأتي من باريس ويتمثل لمراسم الملكية.

صفحة رقم : 13983

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> السويديون

ب - جوستافس الثالث

كان أكثر الملوك جاذبية بعد هنري الرابع ملك فرنسا. وإذ كان وسيماً مرحاً، عاشقاً للنساء والفنون والسلطة، فقد لمع وتوهج خلال تاريخ السويد كأنه الشحنة الكهربائية دافعاً إلى الحركة كل العناصر الحيوية في حياة الأمة. وكان قد أحسن تعليمه على يد كارل تسين، ودلته أمه المولعة به. وكان من حيث الفكر نابغاً مرهفاً، ومن حيث الخيال والحس الجمالي موفور الحظ، لا يستقر على حال لفرط طموحه وكبريائه، فليس من اليسير أن يكون المرء أميراً متواضعاً. ونقلت إليه أمه عشقها للأدب الفرنسي، فقرأ فولتير بنهم، وبعث إليه بعبارات الاحترام، وحفظ الهنريادة عن ظهر

صفحة رقم : 13984

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> السويديون

قلب. وكان السفير السويدي في باريس يوافيه بكل مجلد من "الموسوعة" عند صدوره. ودرس التاريخ باهتمام واقتنان، وأطربته سير جوستافس فزا، وجوستافس أدولفس، وشارل الثاني عشر؛ وبعد أن قرأ عن هؤلاء الرجال لم يطق أن يكون ملكاً خاملاً. وفي 1766، زوجة المجلس للأميرة صوفياً مجدلينا ابنة فردريك الخامس ملك الدنمرك دون أن يؤخذ رأيه، ولا رضى أبويه. وكانت خجولاً دمثة الطبع تقيه ترى المسرح مكاناً للإثم؛ أما هو فكان شكاكاً، يحب الدراما، ولم يعتق قط للمجلس إقحامه في هذا الزواج المتنافر. وهدأ المجلس ثأرته مؤقتاً بمنحة طيبة نتيج له الرحلة إلى فرنسا (1770-71).

وتوقف في كوبنهاجن، وهمبورج، وبروزويك، ولكن باريس كانت مقصده. وتحدى غضب لويس الخامس عشر بزيارة شوازيل المنفى، وانتهك التقاليد بزيارة مهام دوباري في قصره الريفي في لوفيسيين. والتقى بروسو، ودالامبير، ومارمونتيل، وجريم، ولكن ظنه فيه خاب وكتب لأمه يقول "تعرفت إلى جميع الفلاسفة" وأني لأجد كتبهم ألطف كثيراً من أشخاصهم" (40) وسطع نجماً من نجوم الشمال في صالونات السيدت في جوفران ودودفان ودلسبيناس وديبينييه وكثير. وتلقى وسط انتصاراته نبأ يفيد أنه أصبح ملك السويد. فلم يتعجل الرجوع، بل أقام في باريس رداً أتاح له الحصول على معونات مالية كبيرة للسويد من حكومة فرنسا المشرفة على الإفلاس، و300.000 جنيه لاستعماله الشخصي في ترويض أعضاء مجلس الأمة. وفي الطريق إلى أرض الوطن توقف ليرى فردريك الأكبر الذي أئذره بأن بروسيا ستدافع بالسلاح إن اقتضى الأمر - عن ذلك الدستور السويدي الذي قيد سلطات الملك تقييداً شديداً.

ووصل جوستافس إلى استوكهولم في 6 يونيو. وفي الرابع عشر افتتح أول مجلس أمة في عهده بكلام جميل أشبه بذلك الذي افتتح به ملك آخر معوق، هو جورج الثالث، برلمانه الأول في 1760. قال "إنني قد ولدت ونشأت بين ظهرانيكم

تعلمت منذ نعومة أظفاري أن حب وطني، وأني لأعده أعظم امتياز أنني ولدت سويدياً، وأكبر شرف أن أكون المواطن الأول

صفحة رقم : 13985

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> السويديون

لشعب حر" (41). وقد أكسبته بلاغته ووطنيته تجاوباً حاراً من الأمة، ولكنهما لم تحركا قلوب رجال السياسة. وفاز حزب الطواقي-أصدقاء الدستور وروسيا-الذين تمولهم كاترين الثانية بأربعين ألف جنيه، بأغلبية في ثلاث من مجالس الطبقات الأربع. ورد جوستافس باقتراض 200.000 جنيه من المصرفيين الهولنديين ليشتري انتخاب مرشحه رئيساً للمجلس. ولكن كان عليه أن ينتظر نتيجته، فراجعت مجالس الطبقات التي يسيطر عليها حزب الطواقي يمين التتويج ليربط الملك بتعهد يلتزم فيه بقرار "أغلبية مجالس الطبقات" وأن تكون الكفاية وحدها أساساً لجميع الترقيات. وقاوم جوستافس نصف عام هذه الخطوة نحو الديمقراطية، وأخيراً وقع (مارس 1772)، ولكنه في دخيلة نفسه اعتزم الإطاحة بهذا الدستور الكريه لأول بادرة تسنح له. وقد مهد أرضه بتوطيد شعبيته. ففتح أبوابه للجميع، و "أغدق الهبات كأنه يتلقاها"، ولم يصرف أحداً غير راض. وقد وافقه نفر من قادة الجيش على أنه لا يستطيع تخليص السويد من تسلط روسيا وبروسيا-اللتين كانتا في هذا الوقت بالذات (5 أغسطس 1772) تقطعان أوصال بولندا-إلا حكومة مركزية قوية لا يعوق حركتها مجلس أمة مرتش. وساهم فرجين السفير الفرنسي بمبلغ 500.000 دوقة في نفقات الانقلاب. وفي 18 أغسطس رتب جوستافس أن يقابله ضباط الجيش في الترسانة صباح الغد. وجاء مائتان منهم، فطلب إليهم أن ينضموا إليه في الإطاحة بنظام حكم فاسد قلق يدعى عمه أعداء السويد، فوافقوا كلهم على أن يتبعوه إلا واحداً. أما الخارج على الإجماع، وهو رودبيك الحاكم العام، فقد ركب مخترباً شوارع ستوكهولم داعياً أفراد الشعب إلى حماية حريتهم، ولكنهم ظلوا غير مكترثين، لأنهم كانوا معجبين بجوستافس، ولم يحبوا هذا المجلس الذي كان في رأيهم يستر أولجركية من النبلاء ورجال الأعمال وراء أشكال ديمقراطية. وقاد الملك الشاب (وقد بلغ السادسة والعشرين) الضباط إلى تكتات حرس ستوكهولم فتحدث إليهم حديثاً بلغ من الإقناع مبلغاً جعلهم

صفحة رقم : 13986

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> السويديون

يتعهدون بتأييده. وبدأ أنه يكرر خطوة فخطوة الطريقة التي أوصلت كاترين الثانية إلى السلطة قبل عشر سنوات. فلما التأم شمل مجلس الأمة في 21 أغسطس وجد ساحته يحيط بها الرماة والقاعة نفسها قد احتلها الجنود. ووبخ جوستافس في خطاب صنع التاريخ مجالس الطبقات لأنها لوثت نفسها بالتناحر الحزبي والرشوة الأجنبية، وأمر بأن

يقرأ عليها الدستور الجديد الذي أعدوه معاونوه. وقد احتفظ هذا الدستور بملكية مقيدة، ولكنه وسع سلطات الملك، فحول له الهيمنة على الجيش والبحرية والعلاقات الخارجية، وله وحده حق تعيين الوزراء وإقالتهم، ولا يجتمع مجلس الأمة إلا بدعوة منه، وله أن يفضه متى شاء، ولا يناقش المجلس إلا ما قدمه له الملك، ولكن لا يصبح مشروع قانوناً دون موافقة المجلس، ويحتفظ المجلس بالإشراف على المالية عن طريق مصرف السويد وحق فرض الضرائب. وليس للملك أن يخوض حرباً هجومية دون موافقة المجلس. والقضاة يعينهم الملك ثم يصبحون غير قابلين للعزل، ويحمي حق "الهأبياس كوريس" كل الأشخاص المعتقلين من تعطيلات القضاء. وطلب جوستافس إلى النواب أن يقبلوا هذا الدستور، وأقنعتهم أسنة الحراب فقبلوه، وأقسموا يمين الولاء. وشكر الملك المجلس وفضه واعدأ بدعوته من جديد خلال ستة أعوام. واختفى حزباً الطواقي والقبعات. وقد تم الانقلاب في سرعة لم يرق فيها دم، وبرضى الشعب على ما يلوح. "وقدهتقوا لجوستافس محرراً لهم وأغرقوه دعاء... وتعانق الناس وهم يذرفون دموع الفرح" (42). واغتبطت فرنسا، أما روسيا وبروسيا فهددتا بالحرب لرد الدستور القديم. ولكن جوستافس لم يهتز، وتراجعت كاترين وفرديريك، مخافة أن تعرض الحرب مغانها البولندية للخطر. وسلك جوستافس في العقد التالي مسالك الملك الدستوري-أي أنه خضع للقانون الموضوع. وقام بإصلاحات نافعة، وتبوأ له مكانا بين حكام القرن "المستبدين المستنيرين". وأشاد به فولتير باعتباره "الوريث الجدير باسم جوستافس العظيم" (43). وأما طورجو الذي كان يعاني الإحباط في

صفحة رقم : 13987

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> السويديون

فرنسا. فقد طاب نفساً حين رأى سياساته الاقتصادية تنجح في السويد، حيث أجزت حرية التجارة في الغلال، وأطلق عقال الصناعة من نظم النقابات الحرفية التي شلت حركتها. وحفز التجارة بتنظيم المواني الحرة على البلطيق ومدن الأسواق الحرة في الداخل. واستشير ميرابو الأب في تحسين الزراعة، وكلف لمرسیيه ولا ريفيير بوضع خطة للتعليم العام(44). وأرسل جوستافس إلى فولتير نسخة من الأمر الذي كفل حرية النشر (1774)، وكتب يقول "إنك أنت الذي يجب أن تسدي إليك الإنسانية الشكر على تحطيم تلك العقبات التي ألقاها الجهل والتعصب في طريق تقدمها(45) وقد أصلح القانون والقضاء، وألغى التعذيب، وخفف العقوبات، وثبت العملة. ثم خفف الضرائب على الفلاحين، وأعاد تنظيم الجيش والأسطول، ومنح التسامح لجميع المذاهب المسيحية وللإهود في ثلاث مدن كبرى منهياً بذلك احتكار المذهب اللوثري لتقوى السويديين؛ فلما أن دعا مجلس الأمة للانعقاد في 1778، وافق المجلس على سنوات حكمه الست الأولى دون أن يخرج صوت واحد على الإجماع وكتب جوستافس إلى صديق له "لقد بلغت أسعد مراحل حياتي العملية. فأفرد شعبي مقتنعون بأنني لا أبغي شيئاً غير زيادة رفاهيتهم وتوطيد دعائم حريتهم" (46).

ج - التنوير السويدي

وفي زحمة هذا النشاط التشريعي والإداري، أسهم الملك بكل قلبه في ذلك التفجر الرائع للأداب والعلوم، الذي أوقف السويد على قدم المساواة مع التطورات الفكرية الأوروبية في القرن الثامن عشر. وكان هذا عصر لينبايوس في النبات، وشيليه وبرجمان في الكيمياء، وقد أشدنا بذكرهما في غير هذا الموضع-ولكن ربما كان من واجبنا أن ندرج في قائمة العلم رجلاً من ألمع السويديين في زمانه، وهو إيمانويل سويد نبورج، لأنه اشتهر أول ما اشتهر بوصفه عالماً. فقد

أنجز عملاً أصيلاً في الفيزياء والفلك والجيولوجيا والبيوتكنولوجيا وعلم المعادن والفسولوجيا وعلم النفس. وحسن المضخة الهوائية باستعمال الزئبق؛ وإجاد وصف المغنطيسية

صفحة رقم : 13988

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> السويديون

والوميض الفوسفوري؛ واقترح نظرية سديمية قبل كانط ولا بلاس بزمان؛ وسبق البحث الحديث في الغدد الصماء. وبين قبل أي عالم آخر بمائة وخمسين عاماً أن حركة المخ مترامنة مع التنفس لا مع النبض. وحدد مكان عمليات العقل الراقية في سحاء المخ، وحدد لأجزاء معينة من المخ وظيفة التحكم في أعضاء معينة من الجسم (47). وخطب مجلس الخطباء في النظام العشري، وإصلاح العملة، وموازنة التجارة. وبدا أن عبقريته كلها موجهة إلى العلم. ولكنه حين خلص إلى أن دراساته تقوده إلى نظرية ميكانيكية للعقل والحياة، وأن هذه النظرية مفضية إلى الإلحاد، انتقص على العلم بقوة وتحول إلى الدين. وفي 1745 بدأ يرى رؤى للجنة والنار، وانتهى به الأمر إلى تصديق هذه الرؤى حرقياً، فوصفها في رسالته "السماء وعجائبها والجحيم" وأخبر قراءه الذين يعدون بالألوف أنهم في الجنة لن يكونوا أرواحاً مجردة من جسمها بل رجالاً ونساء حقيقيين من لحم ودم، يستمتعون بمباهج الحب الجسدية والروحية. جمعاً ولم يعظ، ولا ألف مذهباً أو شيعة، ولكن تأثيره انتشر في طول أوروبا وعرضها، فتأثر به وبسلي، ووليم بليك، وكولردج، وكارليل، وإمرسن، وبراوننج، وأخيراً (1788) كون أتباعه "كنيسة أورشليم الجديدة". على أن السويد رغم معارضته أسلمت عقلها أكثر فأكثر للتنوير. وسرعان ما أسفر استيراد المؤلفات الفرنسية والإنجليزية أو ترجمتها عن علمنة للثقافة وتهذيب للذوق والأشكال الأدبية. ووجدت النزعة التحررية الجديدة في عهد جوستاف الثالث وأمه قبولاً واسعاً في الطبقتين والوسطى والعلية، حتى بين كبار رجال الدين، الذين بدأوا يبشرون بالتسامح وبعقيدة ربوبية بسيطة (48). وكانت الشعارات السائدة في كل مكان هي "العقل"، و "التقدم"، و "العلم" و "الحرية" و "الحياة الطيبة هنا على الأرض". ونظم لينايبوس وغيره الأكاديمية الملكية السويدية للعلوم في 1739، وأسس كارل تسين الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة في 1733. وكانت الأكاديمية الملكية للأداب البحتة قد عاشت فترة قصيرة على عهد الملكة لويزا أولريكا، فأحياها جوستافس (1784) بوقف سخي، ووجهها لمنح مدالية كل عام

صفحة رقم : 13989

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> السويديون

قيمتها عشرون دوقاتية لأفضل إنتاج سويدي في التاريخ أو الشعر أو الفلسفة، وفاز هو نفسه بأول جائزة كوفى بها على ثنائه لنارت تورشتسن ألمع قواد جوستافس أدولفس. وفي 1786 أسس الملك، (على حد قوله) "أكاديمية جديدة لتهديب لغتنا وصقلها، على غرار الأكاديمية الفرنسية، ويطلق عليها اسم الأكاديمية السويدية، وتتألف من ثمانية عشر

عضواً. "وأمدت هذه الأكاديمية هي وأكاديمية الآداب البحتة بالمال اللازم لصرف المعاشات للدارسين والمؤلفين السويديين(49). وكان جوستافيس يساعد شخصياً رجال الأدب أو العلم أو الموسيقى؛ وقد أشعرهم بأن وجوده حق لهم، ورفعهم إلى مقام اجتماعي جديد بدعوتهم إلى بلاطه، ثم حفزهم بمنافسته إياهم. وكان في السويد دراما قبل عهده، لا سيما بتشجيع من أمه، ولكنها كانت تزوده بالمثلثين الفرنسيين الذين يقدمون المسرحيات الفرنسية. فصرف جوستافيس الفرقة الأجنبية، واستهض المواهب الوطنية لإخراج تمثيلات لمسرح سويدي حقاً. وتعاون هو نفسه مع يوهان فيلاندر في تأليف أوبرا "تينطس وبيليه"، وعرضت أول مرة في 18 يناير 1773، واستمر عرضها ثماني وعشرين ليلة. ثم انصرف الملك إلى السياسة ثمانية أعوام. غير أنه عاد إلى تناول القلم من جديد في 1781 وألف سلسلة من التمثيلات ما زالت تحتفظ بمكانة مرموقة في الأدب السويدي، وأولى هذه التمثيلات-المسماة (أريحية جوستافيس أدولفس، 1782)-كانت فاتحة الدراما السويدية. وكان الملك يستقي موضوعاته من سجلات التاريخ، وقد علم شعبه تاريخ أمتهم كما علم شكسبير الإنجليزي. وفي 1782 بنى على حساب الدولة مسرح منيف للدراما والموسيقى. وكان جوستافيس يكتب مسرحياته نثراً، ثم يصوغها يوهان كلجرين شعراً، ثم يدفعها إلى مؤلفين موسيقيين أجانب ليضعوا موسيقاها، وهكذا أصبحت تمثيلاته أوبرات. وكانت أشهى ثمرات هذا التعاون "جوستاف أدولف وإيبا براهي" التي أحببت ذكرى قصة غام القائد العظيم، وجوستاف فاز، التي وصفت تحرير أول جوستاف للسويد من الحكم الدنمركي. وبفضل هذه القيادة الملكية، وبفضل ثلاث جامعات (أوبسالا،

صفحة رقم : 13990

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> السويديون

وأبو، ولوند) دخلت السويد حركة تنويرها الخاصة. ومهد للحركة أولوف فون دالين بتمهيد أديسوني (أي على طريقة جوزف أديسون) بكتابه غفلاً من التوقيع، ونشره دورياً (1733-34) مجلة دن سفنسا أرجوس" التي ناقس فيها كل شيء إلا السياسة، بأسلوب صحيفة سبكتيتور المهدب، وابتهج كل قارئ تقريباً بما كتب، ووافق مجلس الأمة على إجازة الكتب الذي طلع الآن من مخبئه. وعينته الملكة لويزة أولريكا شاعراً للبلاط ومعلماً لابنها الذي أصبح جوستافيس الثالث. فقيد المنصب شاعريته وبلدها، ولكنه أتاح له من الوقت والمال ما أعانه على كتابة رائعته في تاريخ السويد، وهو أول تاريخ نقدي للملكة السويد.

وكانت أطرف الشخصيات في كوكبة الشعراء الجديدة امرأة تسمى هدفيج نوردنفليشت، وهي للسويد قريع لسافو، وأسبانيا، وشارلوت بروننتي في أوطانهم. وقد أفرغت أبويها المترمئين بقراءتها المسرحيات والشعر، فعاقباها، ولكنها لم تنته، وكتبت شعراً فيه من الحلاوة والفتنة ما أكرههما على أن يروضا نفسيهما على هذه الفضيحة. ولكنهما أجبراها على الزواج من ناظر ضيعتهما، وكان رجلاً حكيماً دميم الوجه، قالت "كنت أحب أن أصغي إليه فيلسوفاً، ولكن منظره عاشقاً كان لا يحتمل" (50). وتعلمت أن تحبه، ولكنه لم يلبث أن مات بين ذراعيها بعد زواجهما بثلاث سنين. وأنهى قسيس وسيم حدادها بخطبتها، فأصبحت زوجاً له، واستمعت "بأسعد حياة تتاح لإنسان فإن في هذا العالم الناقص"، ولكنه مات بعد سنة، وكان هدفيج تجن حزناً عليه. فاعتكفت في كوخ على جزيرة صغيرة، وبثت حزنها فقصائد حظيت بقبول حسن حملها على الانتقال إلى ستوكهولم حيث ظلت تصدر كل سنة (1744-50) "حكماً للنساء، بقلم راعية من الشمال" وأصبح بيتها صالوناً يلتقي فيه صفوة المجتمع والفكر. وحذا حذوها الشعراء الشبان أمثال فردريك جلينبورج وجوستاف كروتز في اتخاذ الأسلوب الفرنسي الكلاسيكي وفي اعتناق التنوير. وفي 1758، حين بلغت الأربعين، وقعت في غرام يوهان فشرشتروم، وكان في الثالثة والعشرين، واعترف لها بأنه يحب امرأة غيرها، ولكنه حين رأى

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> السويديون

هيدفج وحيدة مبتنسة عرض عليها الزواج. فرضت هذه التضحية، وحاولت إغراق نفسها حلاً للمشكلة، فأنقذت، ولكنها ماتت بعد ثلاثة أيام. وما زالت "راعية الشمال" علماً من أعلام الأدب السويدي. وحذا كروتز حذو خيالها الرومانسي المحلق بمجموعة رقيقة جداً من الأغاني سماها "أتيس وكاميللا" (1762). ظلت سنين كثيرة أعظم ما يعجب به القراء من قصائد في هذه اللغة. فكاميللا، بوصفها كاهنة لديانا، تنذر للعفة، ولكن أتيس الصياد يراها فتفهو في نفسه إليها ويضرب في الغابات يائساً. وتتحرك عاطفة كاميللا أيضاً فتسأل ديانا "أليس ناموس الطبيعة مقدساً قداسة أملاك؟" ثم تصادف أياً جريماً فتعني به وتخفف ألمه، فيعلق يدها، ويتوسل إليها أن أتيس أن تهبه امتيازات مماتلة، فتوبخه، فيقفز من جرف عال طلباً للموت، ولكن كيوييد يعترض سقطته، وتحنو عليه كاميللا وترضى بعناقه، غير أن ثعباناً ينشب نياه في صدرها المرمرى، فتموت بين ذراعي أتيس. ويمتص أتيس السم من جرحها فيشرف على الموت. وتلين قناة ديانا، فتردهما إلى الحياة، وتحل كاميللا من نذورها العذرية، وينتهي كل شيء نهاية سعيدة. وقد أشاد بهذه القصيدة الرعوية المثقفون السويديون كما أشاد بها فولتير، ولكن كروتز انصرف إلى السياسة وأصبح مستشاراً للسويد.

وإذا كان هدفيج نورد نغليشت هي سافو السويد، فإن كارل بلمان كان روبرت بيرنز السويد. نشأ في أحضان العز والتقوى، ولكنه تعلم أن يفضل أغاني الحانات المرحية على ترانيم بيته الكئيبة. ففي الحانات كانت حقائق الحياة والوجدان تعلن دون اكتراث بالتقاليد واللباقة، وفيها يعري الخمر كل نفس فتتيح للحقيقة أن تكتشف بين الوهم والغضب. وكان أكثر الشخصيات بعثاً للأسى في هذا الحطام البشري يان فريدمان، الذي كان يوماً ما صانع ساعات البلاط، والذي حاول الآن أن ينسى في الشراب فشل زواجه. وأكثرها مرحاً ماريان كليشتروم، ملكة الأعماق السفلى. وقد غني بلمان أغانيهم معهم، وألف الأغاني عنهم، وأنشدها أمامهم على أنغام موسيقى من تأليفه. وقد شاب بعض أغانيه شيء من التحلل، فوبخه

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> السويديون

كلجرين، الأمير غير المتزوج لشعراء العصر. ولكن حين أعد بلمان "رسائل فريدمان" للطبع (1790) قد كلجرين لهذه الرسائل الشعرية بمقدمة حماسية، وحظي الكتاب بجائزة من الأكاديمية الملكية السويدية. واستمع جوستافس الثالث إلى بلمان في سرور، ولقبه "أنكريون الشمال" ومنحه وظيفة شرفية في الحكومة. على اغتيال الملك (1792) ترك الشاعر بغير مورد، فتردى في مهاوي الفقر، وحبس للدين، ثم أفرج عنه بمعونة أصدقائه. وبينما كان مشرفاً على الموت بالسل وهو في الخامسة والخمسين أصر على زيارة حانته الأثيرة لآخر مرة، وراح يغني فيها حتى بح

صوته. ولم يلبث أن وافته منيته في 11 فبراير 1795. ويعدّه البعض "أكثر الشعراء السويديين أصالة" و "بالإجماع أعظم شاعر في زمرة الشعراء" الذين شرفوا هذا العهد (51). ولكن الرجل الذي أقر معاصروه بأنه لا يفضلهُ سوى الملك في حياة العصر الفكرية هو يوهان هنريك كليجرين. كان ابناً لقسيس، ولكنه تنكّر للعقيدة المسيحية، وسار في ركاب التنوير الفرنسي، ورحب بكل لذات الحياة ومتعها بأقل قدر من الندم. وكان أول كتبه "ضحكى"، أغنية طويلة للفرح، بما فيه أفراس العشق؛ وقد أشاد كليجرين بالضحك باعتباره "العلامة الوحيدة الإلهية المميزة للبشرية" وناشده أن يصحبه حتى آخر أيامه (52). وفي 1778، وهو في السابعة والعشرين، اشترك مع كارل بيتر لنجرين في تأسيس مجلة "بريد ستوكهولم"، وقد جعل قلمه المرح هذه المجلة الصوت الغالب في الحياة العقلية السويدية على مدى سبعة عشر عاماً؛ وفي صفحاتها بسط التنوير الفرنسي سلطانه كاملاً، وشرف الأسلوب الكلاسيكي باعتباره أسماً معياراً للنقود. وسخرت المجلة من الرومانسية الألمانية، وامتدحت خليلات كلجرين في قصائد أفرعت المحافظين في البقاع النائية. على أن اغتيال مليكه المحبوب انتزع من فلسفة اللذة التي دان بها الشاعر. وفي 1795 أفلت منه زمام إحدى علاقاته الغرامية فعمقت حتى أصبحت حباً صادقاً. وبدأ كليجرين يعترف بحقوق الرومانس، والمثالية، والدين، وعدل من إدانته لشيكسبير وجوته، ورأى أن رأس الحكمة قد يكون مخافة

صفحة رقم : 13993

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> السويديون

الله (رغم كل شيء). على أنه حين مات (1795) غير متجاوز الرابعة والأربعين. طلب ألا تفرغ لموته نواقيس (53) وهكذا عاد في النهاية ابناً لفولتير. ومن النواحي السحرة في خلقه استعداداه لفتح أعمدة مجلته لمعارضيه آرائه. وكان أعنفهم توماس توريلد، الذي أعلن الحرب على التنوير باعتباره الإعجاب بالفكر السطحي. وقد روع توريلد ستوكهولم وهو في الثانية والعشرين بكتابه "العواطف المشبوبة" الذي قال عنه أنه "يحوي القوة الكاملة لفلسفتي والبهاء كله لخيالي طليقاً، نشوان، رائعاً". وصرح بأن "حياته بأسرها مكرسة... للكشف عن الطبيعة وإصلاح العالم" (54). والتف حوله نفر من الأدباء المتمردين الذين أججوا نارهم بوقود الحركة الزوبعية وفضلوا كلويشتوك على جوته، وشكسبير على راسين، وروسو على فولتير. فلما أخفق توريلد في كسب جوستافس لصفه، هاجر إلى إنجلترا (1788)، وغذى روحه بجيمس طومس، وإدوارد يونج، وصموئيل تشردنس، وانضم إلى المتطرفين الذين ناصروا الثورة الفرنسية. وفي 1790 قفل إلى السويد ونشر دعوة سياسية حملت الحكومة على نفيه وبعد أن قضى عامين في ألمانيا سمح له بالعودة إلى السويد حيث استكان إلى كرسي في الجامعة. وقد لمع في سماء الأدب نجوم آخرون، منهم كارل جوستاف آف ليوبولد الذي سر الملك بما اتسم به شعره من شكل كلاسيكي وطابع مهذب؛ ومنهم بنجت ليدنر الذي أثار الرومانس كما أثاره توريلد. وقد طرد من جامعة لوند لمغامراته الطائشة (1776)، ثم واصل دراساته وانحرفاته في روستوك، فوضع على ظهر سفينة مبحرة إلى جزر الهند الشرقية، ولكنه هرب منها، وعاد إلى السويد، وأثار انتباه جوستافس بديوان من القصص الخرافية الشعرية؛ وقد عين سكرتيراً للكونت كرويتز في سفارة باريس، وهناك درس النساء أكثر من السياسة، فأرسل إلى وطنه، حيث مات فقيراً

صفحة رقم : 13994

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> السويديون

في الخامسة والثلاثين (1793). وقد كفر عن حياته بثلاثة دواوين تضطرم بنار بايرونية. ثم هناك شاعرة متواضعة هي أنا ماريا لنجرين، زوجة مساعد كليجرين في تحرير مجلة بريد ستوكهولم. فقد أسهمت فيها بشعر أكسبها ثناءً خاصاً من الأكاديمية الملكية السويدية. ولكنها لم تسمح ليرة شعرها أن تعوقها عن أداء واجباتها المنزلية، وفي قصيدة موجهة إلى ابنة وهمية نصحتها بأن تتجنب السياسة والمجتمع وتقع بواجبات البيت ومباهج الحياة البيئية. ونسأل الآن، هل قامت في الفن السويدي أي حركة تتجاوب مع الأدب والدراما؟... قليلاً ما... ومن أمثلتها أن كارل جوستاف التسيني زخرف بالروكوك (حوالي 1750) القصر الملكي الذي بناه أبوه نيقوديموس تسودين في 1693097، وجمع مجموعة وافرة من الصور والتماثيل هي الآن جزء من متحف ستوكهولم القومي. وحفر يوهان طوبياس زرجيل بالأسلوب الكلاسيكي تمثالاً لفينوس وآخر لفون سكران (وهو إله الحقول والقطعان)، وولد في الرخام ملامح يوهان باش الغليظة. وكان هناك أربعة مصورين في أسرة باش: لورنتس الأكبر، وأخوه يوهان، وأخته أولريكا، ولورنتس الأصغر، وصور كل منهم الملكية والنبالة، وكانوا جانباً متواضعاً في التنوير الرائع الذي ازدان به هذا الحكم.

صفحة رقم : 13995

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> الاغتيال

5- الاغتيال

كان الملك ذاته هو الذي ختم هذا الازدهار الرائع ختاماً حزيناً. ذلك أن الثورة الأمريكية التي عضدتها فرنسا أعظم تعضيد بدت له خطراً يهدد كل الملكيات، فوصف المستعمرين بأنهم "رعايا متمردون" وأقسم أنه لم يعترف بهم أمة حتى يحلهم ملك إنجلترا من يمين الولاء له (55). وراح في العقد الأخير من عمره يحكم زمام السلطة الملكية أكثر فأكثر، ويحيطها بالاحتفالات والمراسم، ويقصي معاونيه الأكفاء ذوي العقول المستقلة ليحل محلهم خداماً له يمثلون لرغباته دون تردد أو معارضة. وبدأ يقيد الحرية التي منحها للمطبوعات. وحين وجد زوجته امرأة غيبية خاملة انغمس في

صفحة رقم : 13996

لروسيا هددت بشن الحرب على الدنمرك، فانسحب الدنمركيون من الأرض السويدية. وعاد جوستافس ظافراً إلى عاصمته.

أما وقد اشتد ساعده بجيش جديد موال له فقد دعا مجلس الأمة للانعقاد في 26 يناير 1786. وأيد سبعمائة عضو من أعضاء مجلس النبلاء وعددهم 950-الضباط المتمردين، ولكن المجالس الأخرى-القساوسة، وأهل المدن، والفلاحين- ناصروا الملك بأغلبية ساحقة. وأعلن جوستافس الحرب السياسية على النبلاء بتقديمه لمجلس الأمة "قانوناً للوحدة والأمن" أنهى كثيراً من امتيازات الطبقة الأرستقراطية، وفتح باب المناصب كلها تقريباً للعامة، وأعطى الملك سلطات ملكية مطلقة في التشريع والإدارة والحرب والسلم. وقبلت الطبقات الثلاث الدنيا القانون، أما طبقة النبلاء فقد رفضته باعتباره غير دستوري. واعتقل جوستافس واحداً وعشرين نبيلاً، ومنهم

صفحة رقم : 13998

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> الاغتيال

الكونت فردريك أكسل فون فرسن والبارون كارل فردريك فون بكلين-وأحدهما رجل شريف الخلق غير فعال، والآخر ذكي غادر. ولكن سلطة المال ظلت في يد مجلس الأمة، وكانت موافقة المجالس الأربعة جميعها شرطاً لإقرار الاعتمادات المالية. ووافقت مجالس الطبقات الثلاث الدنيا على المال الذي طلبه الملك للفترة التي يراها ضرورية-لمواصلة الحرب ضد روسيا، أما مجلس النبلاء فرفض أن يوافق على الاعتمادات لأكثر من سنتين. وفي 17 أبريل دخل الملك مجلس النبلاء، واتخذ مقعد الرئيس، وطلب إلى النبلاء أن يوافقوا على قرار المجلس الثلاثة الأخرى. ورجحت كفة الراضين، ولكن الملك أعلن أن اقتراحه فاز. وشكر النبلاء على تأييدهم الكريم، ثم خرج بعد أن خاطر باغتباله بأيدي النبلاء الساخطين.

وأحس الآن أنه مطلق اليد في خوض الحرب. فأعاد فيما بقي من عام 1789 بناء الجيش والأسطول. وفي 9 يوليو 1790 التقت بحريته في البحرية الروسية في الجزء السفنيسكوندي من خليج فنلندا، وأحرز أعظم نصر حاسم في تاريخ السويد البحري، وخسر الروس ثلاثاً وخمسين سفينة و9.500 رجل. واستعدت كاترين الثانية لعقد الصلح وهي ما تزال مشغولة بالترك، فوافقت بمقتضى معاهدة فارالا (15 أغسطس 1790) على أنها جهودها للهيمنة على سياسة السويد، وأعيدت الحدود إلى ما كانت عليه قبل الحرب. وفي 19 أكتوبر 1791 أقنعتها جوستافس بأن تبرم معه حلفاً دفاعياً تعهدت فيه بأن ترسل للسويد كل عام 300.000 روبل.

ولا ريب في أن خوف العدوين القديمين المشترك من الثورة الفرنسية حولهما إلى هذه المشاركة الجديدة. وتذكر جوستافوس في عرفان أن فرنسا كانت الصديق الوفي للسويد طوال 250 عاماً، وأن لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر أمداه بمعونة بلغت 38.300.000 جنيه بعد عامي 1772 و1789. واقترح تأليف عصبة من الأمراء والملوك تغزو فرنسا وتعيد الملكية إلى سابق قوتها، وأوفد هانز أكسل فون فرسن (وهو ابن عدوه الكونت فون فرسن) ليدبر فرار لويس السادس عشر من باريس،

صفحة رقم : 13999

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> الاغتيال

وذهب بنفسه إلى إكس-لاشابل ليقود جيش الحلفاء، وسمح للمهاجرين الفرنسيين بالالتجاء إلى معسكرة. وقدمت كاترين المال دون الرجال. ورفض ليوبولد الثاني التعاون، وقفل جوستافس إلى ستوكهولم ليحمي عرشه. ذلك النبلاء الذين قضى على سيادتهم السياسية لم يرتضوا الهزيمة. وكانوا يرون في حكم جوستافس الاستبدادي انتهاكاً صريحاً للقانون الذي أقسم من قبل على مسانده. وأطل يعقوب أنكارشتروم التفكير في سقوط طبقته، "لقد فكرت كثيراً في أنه قد يكون هناك سبيل مشروع لجعل الملك يحكم وطنه وشعبه بمقتضى القانون ومحبة الخير، ولكن كل الأدلة قامت ضدي... فخير أن يغامر إنسان بحياته في سبيل المصلحة العامة". وفي 1790 حوكم بتهمة التحريض "لقد عقدت هذه المحنة... عزمي على أن أموت خيراً من أن أحيا حياة تعسة، حتى إن قلبي الذي طبع في غير هذا على الحساسية والمحبة انقلب قاسياً أشد القسوة فيما يتصل بهذه الفعلة الشنيعة" (57). وانضم بكلين-كونت كارل هورن وغيره إلى المؤامرة التي بيئت قتل الملك.

وفي 16 مارس 1792، وهو تاريخ يذكر بقيصر ذكرى مشنومة، تلقى جوستافس رسالة تحذره من الذهاب إلى مرقص تنكري حددت له تلك الليلة في المسرح الفرنسي. وذهل الملك نصف مقنع، ولكن الأوسمة التي حملها على صدره كانت تشي بمقامه. فتعرف عليه أنكارشتروم، وأطلق عليه النار، ثم فر هارباً. وحملوا جوستافس إلى مركبة مضوا بها إلى القصر الملكي مخترقين جمعاً هائجاً مضطرباً. وكان ينزف نزفاً خطراً، ولكنه علق مداعباً بأنه أشبه ببابا يحمل في موكب يخترق طرق روما. ولم يمض على الهجوم ثلاثة ساعات حتى قبض على أنكارشتروم، ثم على رؤوس المؤامرة أجمعين بعد أيام. واعترف هورن بأن المؤامرة تضم مائة متآمر.

صفحة رقم : 14000

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> الشمال البروتستنتي -> من جنيف إلى استوكهولم -> الاغتيال

وطالبت الجماهير بإعدامهم، وأوصى جوستافس بالترفق بهم. فجلد أنكارشتروم، وقطع رأسه، ومزق جسده أرباعاً، وأفسح لـجوستافس في الأجل عشرة أيام، فلما أنبى بأنه لم يبق له في الحياة غير ساعات، أملى وثائق بتعيين هيئة وصاية تحكم البلاد والعاصمة. ثم مات في 26 مارس 1792 بالغاً من العمر خمسة وأربعين عاماً. ويكته الأمة كلها تقريباً، لأنها تعلمت أن تحبه رغم أخطائه، وأدركت أن السويد تحت قيادته عاشت عصراً من أمجد العصور في تاريخها.

صفحة رقم : 14001

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الثورة الصناعية -> أسبابها

الكتاب السادس

إنجلترا جونسن

1789-1756

الفصل السابع والعشرون

الثورة الصناعية

1- أسبابها

لم بدأت الثورة الصناعية أول ما بدأت في إنجلترا؟ لأن إنجلترا قد انتصرت في حروب عظمى على القارة وحفظت في الوقت نفسه أرضها من خراب الحرب؛ ولأنها حققت السيطرة على البحار فظفرت بمستعمرات وفرت لها الخامات واحتاجت إلى السلع المصنوعة؛ ولأن جيوشها، وأساطيلها، وسكانها المترابدين، هيئوا لها سوقاً متسعة للمنتجات الصناعية؛ ولأن النقابات الحرفية عجزت عن تلبية هذه المطالب المتسعة؛ ولأن مكاسب التجارة المترامية الحدود كدست رأسمال يبحث عن وجوه جديدة للاستثمار؛ ولأن إنجلترا سمحت لنبلاتها ولثرواتهم بالاشتغال بالتجارة والصناعة؛ ولأن إجلال الرعي تدريجياً محل فلاحه الأرض أجبر الفلاحين على النزوح من الحقول إلى المدن حيث زادوا من عدد العمال المتاحين للصناعة؛ ولأن العلم في إنجلترا كان يواجه رجال ذوو نزعة علمية، في حين كان على القارة منصرفاً أغلبه إلى البحث المجرد؛ وأخيراً لأن إنجلترا كان لها حكومة دستورية حساسة لمصالح التجارة، شاعرة على نحو غامض بأن السبق في الثورة الصناعية سيحقق لإنجلترا الزعامة السياسية للعالم الغربي طوال حقبة قرن أو يزيد.

أما سيطرة بريطانيا على البحار فكانت قد بدأت بهزيمتها للأرمادا الأسبانية؛ وامتدت هذه السيطرة بفضل الانتصارات على هولندا في الحروب الإنجليزية الهولندية، وعلى فرنسا في حرب الوراثة الأسبانية؛ ثم جاءت حرب السنين السبع فكادت تجعل المحيط حكراً على بريطانيا، وكان

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الثورة الصناعية -> أسبابها

للبحرية البريطانية التي لا تقهر الفضل في تحويل القتال الإنجليزي إلى ما يشبه الخندق المائي الحالي لهذا "الحصن الذي شيدته الطبيعة.. ليدرأ عنها شر المرض وذراع الحرب"(1) (كما قال شكسبير). فلم يعف الاقتصاد الإنجليزي من نهب الجند المغيرين وسلبهم فحسب، بل غذته وحفزته حاجات الجيوش البريطانية وجيوش الحلفاء المحاربة في القارة، ومن هنا هذا التوسع الزائد في صناعات النسيج والمعادن، والحاجة لآلات تزيد من سرعة الإنتاج ولمصانع تستكثر منه.

وسهلت السيطرة على البحار فتح المستعمرات، وكانت كندا وأغنى بقاع الهند المثمرة التي وقعت من نصيب إنجلترا في حرب السنين السبعة، وأكسبت رحلات كرحلات الكابتن كوك (1768-76) الإمبراطورية البريطانية جزائر أفادتها من الناحية الاستراتيجية في الحرب والتجارة، وثبت انتصار رودني على دجراس (1782)-السيطرة البريطانية على جميعا، وبربيدس، وجزر البهاما. ثم ظفرت بنينوزيلنده في 1787، وباستراليا في 1788. وأتاحت تجارة المستعمرات وغيرها من أقطار ما وراء البحار للصناعة البريطانية سوقاً أجنبية لا ينافسها فيها منافس في القرن الثامن عشر، وكانت التجارة مع المستوطنات الإنجليزية في أمريكا الشمالية تستخدم 1.078 سفينة و29.000 ملاح(2). وازدهرت لندن وبرستل ولغربول وجلاسجو ثغوراً هامة لتجارة الأطلنطي هذه. وأخذت المستعمرات السلع المصنوعة وأرسلت عوضاً عنها الطعام والتبغ والتوابل والشاي والحريير والقطن والخامات والذهب والفضة والأحجار الكريمة. وقيد البرلمان استيراد المصنوعات الأجنبية بفرض الرسوم العالية عليها وثبط تنمية صناعات المستعمرات أو الصناعات الأيرلندية المنافسة لصناعات بريطانيا. ولم تقم مكوس داخلية (كتلك التي عرقلت سير التجارة الداخلية في فرنسا) عقبة في سبيل انتقال السلع في أرجاء إنجلترا وإسكتلنده وويلز؛ وكانت هذه الأقاليم أوسع منطقة للتجارة الحرة في غربي أوروبا. وحظيت الطبقتان العليا والوسطى برخاء عظيم جداً، وبقدرة شرائية كانت حافظاً إضافياً للإنتاج الصناعي.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الثورة الصناعية -> أسبابها

ولم تكن النقابات الحرفية كفنناً لتلبية حاجات الأسواق المتسعة في الداخل والخارج. لقد أسست أولاً لسد حاجات البلدة وما حولها، وغلت يدها نظم عتيقة تثبط الابتكار والتنافس والاقتحام، ولم تكن معدة لجلب المواد الخام من مصادر نائية، أو للحصول على رأس المال اللازم للإنتاج الموسع، أو لحساب الطلبات من الخارج أو الحصول عليها أو تلبيةها. وحل محل معلم النقابة الحرفية شيئاً فشيئاً "مقاولون" ومتعهدون يعرفون كيف يجمعون المال، ويتوقعون الطلب أو يخفقونه، ويحصلون على الخامات، وينظمون الآلات والعمال للإنتاج لأسواق في كل أركان المسكونة.

أما المال فقد جاء من أرباح التجارة أو الأعمال المالية، ومن غنائم الحرب ومراكب القرصنة، ومن التعدين أو استيراد الذهب أو الفضة، ومن الثروات الكبيرة التي تحققت في تجارة الرقيق أو في المستعمرات. كان الإنجليز يرحلون عن بلادهم فقراء، فيعود بعضهم أغنياء. ففي تاريخ ميكر (1744) أتيج لخمسة عشر رجلاً عائدين من جزر الهند الغربية من المال ما يكفي لشراء انتخابهم للبرلمان(3)، وما وافى عام 1780 حتى كان "النوابون" Nabobs الذين أتروا في الهند قوة في مجلس العموم، والكثير من هذا المال المجلوب كان متاحاً للاستثمار. وبينما كان النبلاء يفرسنا ممنوعين من الاشتغال بالتجارة أو الصناعة، وكان نظراءهم في إنجلترا معفين من هذا الخطر، ونمت الثروة المتأصلة في الأرض بفضل استثمارها في المشروعات التجارية؛ من ذلك أن دوق بردجووتر غامر بميراثه في تعدين الفحم. وأودع آلاف البريطانيين مدخراتهم في المصارف التي كانت تقرض النقود بفوائد منخفضة. وانتشر مقرضو المال في كل مكان، فقد اكتشف المصرفيون أن أيسر طرق الإثراء هي التعامل في نقود غيرهم. فكان في لندن عشرون مصرفاً في 1750، وخمسون في 1770، وسبعون في 1800(4). وعد بيرك اثني عشر مصرفاً خارج لندن في 1750؛ وفي 1793 كان هناك أربع مائة(5). وأضافت النقود الورقية إلى اللقاح المخصب، فبلغت في 1750 اثنين في المائة من العملة وفي 1800 بلغت عشرة في المائة(6). وغامرت الأموال المختزنة بالاستثمار حين نشرت التجارة والصناعة أرباحهما المتصاعدة.

صفحة رقم : 14004

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الثورة الصناعية -> أسبابها

واحتاجت الحوانيت والمصانع المتكاثرة إلى رجال. وتعاضم المدد الطبيعي من العمال بفضل العدد المتزايد من الأسر الريفية التي لم تعد قادرة على كسب قوتها من الفلاحة. وطالبت صناعة الصوف المزدهرة بالصوف؛ وانتزع المزيد من الأرض من الفلاحة وخصص للرعي؛ وحلت الأغنام محل الرجال؛ ولم تكن قرية "أوبرن" (التي حزن عليها جولدسمث) القرية المهجورة الوحيدة في بريطانيا. ففي الفترة من 1702 إلى 1760 كان هناك 246 قانوناً برلمانياً يصرح بنزع أربع مائة فدان من الزراعة، ومن 1760 إلى 1810 كان هناك 2.438 قانوناً، تأثرت بها خمسة ملايين فدان تقريباً(7). ولما تحسنت الآلات الزراعية، لم تعد الملكيات الصغيرة مرغوبة، لأنها عجزت عن استعمال الآلات الجديدة أو دفع ثمنها؛ فباع الألوفا من المزارعين أراضيهم وأصبحوا أجراء في مزارع واسعة أو في مصانع ريفية أو في المدن. وأنتجت المزارع الكبيرة المزودة بطرائق وتنظيم وآلات أفضل غلة للفدان أكثر من مزارع الماضي، ولكنها كادت تمحو كل أثر للمزارعين الأحرار، أو الفلاحين الملاك، الذين كانوا الدعامة الاقتصادية والحربية والأخلاقية لإنجلترا. وزودت أثناء ذلك الهجرة من أيرلنده والقارة أعداد الرجال والنساء والأطفال المتنافسين على الاشتغال في المصانع.

ولم يلعب العلم إلا دوراً متواضعاً في التحول الاقتصادي الذي طرأ على إنجلترا القرن الثامن عشر. وقد استعان وات ببحوث ستيفن هيلز في الغازات، وجوزف بلاك في الحرارة والبخار، على تحسين الآلة البخارية. وكانت جمعية لندن الملكية يتألف أكثرها من رجال عمليين يحبون الدراسات التي يرجى تطبيقها على الصناعة. وكذلك كان استعداد البرلمان البريطاني لمراعاة الاعتبارات المادية؛ ومع أن ملاك الأرض كانوا مهيمنين عليه، فإن العديد منهم شاركوا في التجارة أو الصناعة، وكان أكثر الأعضاء ميالين إلى قبول الهدايا واستجابة إلى الالتماسات من رجال الأعمال لتخفيف القيود التي فرضتها الحكومات السابقة على الاقتصاد. وظفر المدافعون عن حرية المشروعات وحرية التجارة-وترك الأجور والأسعار حرة في الصعود أو الهبوط طبقاً لقوانين العرض والطلب-هؤلاء ظفرت بتأييد عدة زعماء

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الثورة الصناعية -> أسبابها

برلمانيين، فتحطمت ببطء الحواجز القانونية المعوقة لانتشار التجارة والمصنوعات. وهكذا تحققت جميع الشروط اللازمة لتفوق إنجلترا في الثورة الصناعية.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الثورة الصناعية -> مقوماتها

2- مقوماتها

كانت العناصر المادية للثورة الصناعية هي الحديد والفحم والنقل والآلات والطاقة والمصانع. ولعبت الطبيعة دورها بتزويدها إنجلترا بالحديد والفحم وسيولة الطرق. ولكن الحديد على الصورة التي جلب بها من المناجم كانت تتخلله الشوائب التي لا بد من إزالتها بصهره بالنار. وكذلك كان الفحم تختلط به الشوائب التي أزيلت بتسخينه أو "طهوه" حتى يستحيل إلى "الكوك" وتحول خام الحديد المحمي المنقى لدرجات متنوعة بالكوك المحروق إلى حديد مشغول أو زهر أو صلب.

ورغبة في زيادة الحرارة بنى أبراهام درابي (1754 وما بعدها) أفراناً عالية تزود فيها النار بهواء إضافي من منفاخ تشغله ساقية. وفي 1760 استعاض جون سمينن عن المنفاخ بمضخة هواء مضغوط تشغلها المياه من جهة والبخار من جهة أخرى، ورفع تيار الضغط العالي الثابت إنتاج الحديد الصناعي من اثني عشر طناً إلى أربعين طناً للفرن في اليوم (8). ورخص الحديد رخصاً أتاح استعماله في مئات النواحي الجديدة؛ مثال ذلك أن ريتشارد رينولدز بنى في 1763 أول سكة حديد معروفة وكانت طرقاً حديدية يسرت إحلال المركبات محل خيول الحمل ف ينقل الفحم والحديد. وبدأ الآن عصر ساد فيه كبار صناع الحديد المشهورون الذين سيطروا على المسرح الصناعي وأثروا ثراء طائلاً باستخدامهم الحديد في أغراض بدت غريبة تمام الغرابة على ذلك المعدن. مثال ذلك أن جون ولكنسن وأبراهام درابي الثاني أقاما أزل قنطرة حديدية على نهر سفرن (1779). وأضحك ولكنسن إنجلترا حين أقترح بناء سفينة حديدية، وقال بعضهم إنه جن؛ ولكنه وقد اعتمد على المبادئ التي أساسها أرخميدس، ركب

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الثورة الصناعية -> مقوماتها

بألواح معدنية أول سفينة حديدية عرفها التاريخ (1787). وأقبل رجال الأعمال من الخارج ليشاهدوا ويدرسوا المصانع الكبرى التي أقامها ولكنسن، أو رتشارد كرونشي أو انتوني بيكن. وأصبحت برمنجهام القريبة من طبقات هائلة من الفحم والحديد أهم مراكز لصناعة الحديد في إنجلترا. ومن هذه الورش تدفق إلى ورش إنجلترا ومصانعها الجديد من العدد والآلات الأكثر قوة والأحق بالأطمئنان إليها.

وكان الفحم والحديد ثقيلين إلى النقل إلا بالماء. وأتاح الساحل الغني بالفجوات العميقة للنقل البحري الوصول إلى الكثير من مدن بريطانيا الكبرى. وكان لا بد من إحداث ثورة في وسائل النقل لجلب المواد والمحاصيل إلى المدن البعيدة عن الساحل والأنهار الصالحة للملاحة وظلت حركة البضائع على البر شاقة رغم شبكة الطرق الرئيسية Turnpikes التي بنيت بين 1751 و1771، (وقد اشتق اسمها من الأبواب الدوارة Turnstiles المرشوفة بالمناخس التي تعوق المرور حتى تدفع المكوس) (9). وقد ضاعفت طرق المكوس هذه سرعة العبور ونشطت التجارة الداخلية. وحل محل خيول الحمل عربات تجرها الخيل، وأخلى السفر على ظهور الخيل مكانه لمركبات البريد. على أن الطرق الرئيسية تركت لأصحاب المشروعات الحرة ليصنوها وسرعان ما تدهورت حالها.

إذن ظلت حركة التجارة تؤثر الطرق المائية. لذلك ظهرت الأنهار لتحمل السفن الثقيلة، وربطت الأنهار والمدن بالقنوات. وقد تحول جيمس برندلي، الذي لم يكن له حظ من التعليم النظامي أو الفني، من مركب طواحين غير متعلم إلى أشهر مهندس قنوات في جيله، إذ حل بميله الميكانيكي مشاكل تمديد القنوات خلال الأهوسة والأنفاق وفوق السقابات. وفي 1759-61 شق قناة جلبت إلى مانشستر الفحم من مناجم دوق بردجوتر في ورسلي؛ فأنقذ هذا إلى النصف ثمن الفحم في مانشستر، ولعب دوراً رئيسياً في جعل تلك المدينة حاضرة صناعية، وكان من أجمل المناظر في إنجلترا القرن الثامن عشر منظر مركب تمخر مياه قناة برندلي بردجوتر الممتدة بسقاية تعلو تسعة وتسعين قدماً فوق نهر ايرويل في بارتن. وفي

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الثورة الصناعية -> مقوماتها

1766 بدأ برندلي شق قناة الجراندي التي ربطت نهر تيرنت ومرزلي ففتحت بذلك طريقاً مائياً عبر وسط إنجلترا من البحر الأيرلندي إلى بحر الشمال. وربطت قنوات أخرى نهر تيرنت بالتيمز، ومانشستر بلفربول، ولم تقتضي ثلاثون سنة حتى خفضت مئات القنوات الجديدة تكاليف نقل التجارة في بريطانيا تخفيضاً كبيراً.

أما وقد توفر للثورة الصناعية المواد والوقود والنقل، فقد بقي عليها بعد ذلك أن تستكثر من السلع. وكان الطلب على الآلات اللازمة لتعجيل الإنتاج على أشده في المنسوجات. فالناس في حاجة إلى الكساء، والجنود والصبايا كان يجب تمويهم بالأزياء الخاصة بهم. وكان القطن يدخل إنجلترا بمقادير تزايد بسرعة ثلاثة ملايين رطل في 1753، واثان وثلاثون مليوناً في 1789 (10)، ولم يكن في طاقة العمل اليدوي أن يصنع بضائع مصقولة في الوقت الذي يلبي فيه الطلب. إن تقسيم العمل الذي كان قد تطور في حرف الكساء أوحى باختراع الآلات وشجعه.

وكان جون كاي قد بدأ ميكنة النسيج بفضل مكوكه الطائر (1733)، ولويس بول ميكن الغزل بطريقة البكر (1783). وفي 1765 غير جيمس هرجريفز، وهو من أهالي مدينة بلاكبيرن بلانكاشير وضع عجلة الغزل فجعلها أفقية يدل أن تكون رأسية، وركبة عجلة فوق أخرى، وشغل ثماني منها ببكرة واحدة وسير، ونسج ثمانية خطوط في وقت واحد، ثم أضاف مزيداً من القوة من المغازل حتى استطاع مغزله Spinning Jenny (وجني هو اسم زوجته) أن ينسج ثمانين خطأ في وقت واحد. وخشي الغزلون اليدويون أن تفقد هذه البدعة حرفتهم وقوتهم، فحطموا آلات هارجريفز فهرب عشرون ألفاً، وكانت عجلة الغزل بسبيلها إلى أن تصبح حلية رومانسية. وفي 1769 وفق ريتشارد آر كرايت بناء على اقتراحات ميكانيكيين شتى في تطوير "إطار مائي" تستطيع قوة الماء بواسطته أن تحرك ألياف القطن

صفحة رقم : 14009

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الثورة الصناعية -> مقوماتها

بين سلسلة متعاقبة من البكرات تجذب وتمد الألياف فتجعلها خيطاً أكثر إحكاماً وصلابة. وحوالي عام 1774 جمع صموئيل كرومبتن بين مغزل هارجريفز وبكرات آر كرايت في آلة هجين لقبها ظرفاء الإنجليز "بلغة كرومبتن". فكانت حركة المغازل المتعاقبة إلى الخلف وإلى الأمام بالتناوب تمد الخيط وتقلته وتلفه فتجعله أرفع وأقوى؛ وقد ظلت هذه الطريقة إلى وقتنا هذا المبدأ الذي تقوم عليه أعقد آلات الغزل والنسيج. وكانت المغزلة القديمة (الجني) والإطار المائي يصنعان من الخشب، أما البقية فقد استخدمت البكرات والعجلات المعدنية بعد 1783، وأصبحت من المتانة بحيث تحتمل سرعة التشغيل الآلي وضغطه. وكانت الأنوال الآلية التي بالكرانك والأثقال تستعمل من قبل في ألمانيا وفرنسا، ولكن حدث في 1787 أن شيد إدموند كارتر ايت في دونكاستر مصنعاً صغيراً شغل فيه عشرون نولاً بقوة الحيوان المحركة. وفي 1789 استبدل بهذا المحرك آلة بخارية. وبعد عامين اشترك مع بعض أصدقاء من ماننستتر في إنشاء كبير يدار فيه أربع مائة نول بالبخار. وهنا أيضاً ثار العمال، فأحرقوا المصنع وسووه بالأرض وهددوا بقتل مؤسسيه. وبنيت في العقد التالي أنوال آلية كثيرة، وحطم المشاغبيون بعضها ونجا بعضها وتكاثر، وانتصرت الآلات. وكان مما أعان إنجلترا على الصناعة توافر القوة المائية المتولدة في أنهار كثيرة يغذيها المطر الغزير. فأقيمت الطواحين والمصانع في القرن الثامن عشر في الريف أكثر مما أقيمت في المدن على أنهار يمكن بناء سدود عليها تحدث مساقط للمياه لها من القوة ما يكفي لإدارة عجلات كبير. هنا قد يتساءل شاعر ألم يكن من الخير لم يحل البخار قط محل الماء قوة محرقة، وان تختلط الصناعة بالزراعة في الريف بدلاً من أن تحشد في المدن. ولكن وسيلة الإنتاج الأكثر فاعلية وربحاً تزيح الوسيلة الأقل، وقد وعدت الآلة البخارية (التي تألفت هي أيضاً إلى وقت قريب بوهج رومانسي) بأن تنتج أو تنقل من السلع والذهب أكثر مما شهد العالم في أي زمان مضى.

صفحة رقم : 14010

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الثورة الصناعية -> مقوماتها

ولقد كانت الآلة البخارية ذروة الثورة الصناعية لا ثمرة لها تماماً. ولا داعي للرجوع بالذاكرة إلى هيرو الإسكندري (200 م؟)، لأن دنتن بابين وصف جميع مكونات ومبادئ آلة بخارية عملية في عام 1690. ثم صنع تومس سافري مضخة يديرها البخار في 1698. وطورها تومس نيوكومن (1708-12) إلى آلة يكتف فيها تيار متدفق من الماء البارد البخاري المولد من الماء المحمي، ويدفع فيها بالتناوب ضغط الهواء كباساً إلى أعلى وأسفل؛ هذه "الآلة الهوائية" ظلت الآلة القياسية حتى حولها جيمس وات إلى آلة بخارية حقيقية في 1765. وكان وات بخلاف معظم مخترعي ذلك الجيل طالباً كما كان رجلاً عملياً. كان جده معلم رياضيات، وأبوه معمارياً وبناء سفن وقاضياً في بلدة جرينوك في جنوب غربي إسكتلندا. ولم يحظ جيمس بتعليم جامعي، ولكنه كان ذا تطلع خارق واستعداد ميكانيكي. ويعرف نصف العالم قصته مع عمته التي وبخته قائلة "الم أر قط ولدأ خاملاً مثلك... فإنك لم تنطق بكلمة واحدة طوال هذه الساعة، بل نزعت غطاء تلك الغلاية، ثم أعدته إلى مكانه، ثم أمسكت تارة فلتنسوة وتارة ملعقة فضية فوق البخار ملاحظاً كيف يتصاعد من البزبوز، وممسكاً بالقطرات محصياً إياها (11)". وفي القصة رائحة الأسطورة، ولكن مخطوطاً خلفه جيمس وات بخط يده يصف تجربة فيها "ثبت الطرف المستقيم لأنبوب على بزبوز غلاية شاي"، وجاء في مخطوطة أخرى: "أخذت أنبوبة زجاجية ملوية وأدخلتها في فم غلاية الشاي، وغمرت الطرف الآخر في ماء بارد" (12). وحين بلغ وات العشرين (1756) حاول أن يبدأ عمله في جلاسجو صانعاً للأدوات العلمية. أبت عليه نقابات حرف المدينة الرخصة بحجة أنه لم يكمل التلمذة كلها، ولكن جامعة جلاسجو أعطته ورشة داخل أرضها. واختلف إلى محاضرات الكيمياء التي يلقاها جوزيف بلاك، وكسب صداقته ومساعدته، واهتم خاصة بنظرية بلاك في الحرارة الكامنة (13).

صفحة رقم : 14011

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الثورة الصناعية -> مقوماتها

ثم تعلم الألمانية والفرنسية والإيطالية ليقراً الكتب الأجنبية بما فيها كتب الميتافيزيقا والشعر. وقد راع السير جيمس روببسون تنوع معلوماته، وكان يعرفه في تلك الأونة (1758)، فقال "رأيت صانعاً ولم أتوقع أكثر من هذا، ولكنني وجدت فيلسوفاً" (14). وفي 1763 طلبت إليه الجامعة أن يصلح نموذجاً من آلة نيوكومن كان يستعمل في تدريس الفيزياء. وأدهشته أن ثلاثة أرباع الحرارة التي تمد بها الآلة تضيق هباء، فبعد كل ضربة كباس تفقد الأسطوانة الحرارة من جراء استعمال الماء البارد لتكثيف كمية البخار الجديدة التي تدخل الأسطوانة، فقد كان قدر كبير من الطاقة يتبدد حتى حكم أكثر أصحاب المصانع بأن الآلة غير مجزية. واعتزم وات تكثيف البخار في وعاء منفصل لا تؤثر درجة حرارته المنخفضة في الأسطوانة التي يتحرك فيها الكباس. وزاد هذا "المكثف" كفاءة الآلة في نسبة الوقود المستعمل إلى العمل المؤدي قرابة ثلاثمائة في المائة. ويضاف إلى هذا أن الكباس بفضل إصلاح وات للآلة أخذ يحركه تمدد البخار لا الهواء؛ لقد صنع وات آلة بخارية لا مرء فيها. أما الانتقال من الخطط والنماذج إلى التطبيق العملي فقد أفنى اثني عشر عاماً من حياة وات. ولكي يصنع عينات ويحدث تحسينات متعاقبة في آله اقترض أكثر من ألف جنيه، وأكثرها من جوزف بلاك، الذي لم يفقد إيمانه به قط. وتتبا جون سميتن، وكان هو نفسه مخترعاً ومهندساً، بأن آلة وات لا يمكن "تعميم استعمالها أبداً لصعوبة تصنيع

أجزائها بالدقة الكافية" (15)، وفي 1765 تزوج وات، وكان عليه أن يكسب مزيداً من المال، فنحى اختراعه وعكف على أعمال المساحة والهندسة، فرسم تصميمات الثغور والكباري والقنوات. وخلال ذلك قدمه لآك إلى جون روبك الذي كان يبحث عن آلة أكثر فاعلية من آلة نيوكومن لضخ الماء من مناجم الفحم التي تمد بالوقود مصانع الحديد التي يملكها في كارون. وفي 1767 وافق على أن يدفع ديون وات ويزوده برأس المال اللازم لصنع آلات طبق مواصفات وات، وذلك لقاء ثلثي الأرباح التي تتحقق من التركيبات

صفحة رقم : 14012

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الثورة الصناعية -> مقوماتها

أو المبيعات. ورغبة في حماية استثمارهما طلب وات في 1769 إلى البرلمان براءة اختراع تعطيه دون غيره حق إنتاج آله، فمنح البراءة حتى عام 1783. وأقام هو وروبك آلة بخارية قرب أدنبره، ولكن صناعة الحدادين الرديئة تسببت في فشلها؛ وفي بعض الحالات كانت الأسطوانات التي صنعت لوات أكبر في قطرها ثمن بوصة في طرف منها في الآخر.

وباع روبك نصيبه في الشركة إلى ماثيو بولتن (1773) بعد أن فتت النكسات في عضده. وبدأ الآن ارتباط ملحوظ في تاريخ الصداقة كما هو ملحوظ في تاريخ الصناعة. ذلك أن بولتن لم يكن مجرد إنسان يجري وراء الربح، فلقد بلغ اهتمامه بتحسين طرائق الإنتاج وميكانيكياته حداً أفقده ثروته في هذا سبيل. ففي 1760 تزوج وهو في الثالثة والثلاثون من أرملة غنية، وكان في وسعه أن يتقاعد ويعيش على دخلها، ولكنه بدلاً من هذا بنى في سوهو قرب برمنجهام مصنعاً من أكبر مصانع إنجلترا، يقوم بصنع أنواع كثيرة من الأدوات المعدنية من مشابك الأحذية إلى الثريات. وكلن يعتمد على القوة المائية لتشغيل الآلات في مباني مصنعه الخمسة ثم اعتزم أن يجرب قوة البخار. وكان على علم بأن وات أثبت عدم كفاية آلة نيوكومن، وأن آلة وات فشلت بسبب الأسطوانات التي تثبت بغير دقة، فغامر مغامرة محسوبة مفترضاً أن هذا العيب يمكن التغلب عليه. وفي 1774 نقل آلة وات إلى سوهو، وفي 1775 لحق به وات. ومد البرلمان أجل البراءة من 1783 إلى 1800.

وفي 1775 اخترع كبير الحدادين ولكنسن قضيب ثقب أسطوانياً مجوفاً مكن بولتن ووات من إنتاج آلات ذات قوة وكفاية لم يسبق لهما نظير، وسرعان ما أخذت الشركة الجديدة تباع الآلات البخارية لأصحاب المصانع والمناجم في طول بريطانيا وعرضها. وقد زار بوزويل سوهو في 1776 وكتب يقول:

"لقد تفضل على مستر هكتور بمر افقتي لرؤية مصانع مستر بولتن الكبرى... ووددت لو كان جونسن معنا، لأنه كان مشهداً كان يسرني

صفحة رقم : 14013

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الثورة الصناعية -> مقوماتها

أن أتأمله على ضوء علمه. ولقد كانت ضخامة بعض الآلات وتعقدها خليقة بأن تكون تقريباً لعقله الجبار. ولن لأنسى ما حبيت عبارة مستر بولتن التي قالها لي "إنني يا سيدي أبيع هنا ما يريد العالم كله أن يملكه-القوة المحركة". وكان يشتغل بمصنعه نحو سبعمائة نفس. وقد رأيت فيه "زعيم قبيلة حديدياً، وبدا أنه أب لقبيلته" (16). على أن آلات وات البخارية كانت لا تزال ناقصة، وقد جاهد على الدوام لتحسينها. ففي 1781 سجل اختراعاً تحول فيه حركة الكباس المتناوبة إلى حركة دوارة، مما جعل الآلة البخارية صالحة لإدارة المكائن العادية. وفي 1782 سجل آلة بخارية ثنائية العمل، يتلقى فيها طرفا الأسطوانة دفعين من الغلاية والمكثف. وفي 1788 سجل اختراع "ضابط على شكل بلية طيارة" ينظم تدفق البخار ليزيد من السرعة المتماثلة في الآلة. وخلال سنوات التجريب هذه كان مخترعون آخرون يصنعون آلات منافسة، وكان على وات أن ينتظر حلول عام 1783 حتى تسدد مبيعاته ديونه وتبدأ في أن تؤتي ثمراتها. فلما انتهت فترة براءته اعتزل العمل النشط، وواصل العمل في شركة بولتن ووات أبناءهما. وتسلى وات بالاختراعات الصغيرة، واستمتع بشيخوخة رضية، ومات 1819 وقد بلغ الثالثة والثمانين. وكان هناك اختراعات أخرى كثيرة في هذا العصر الزاخر الذي "يملك كل معلم صناعة فيه تقريباً اختراعاً جديداً من بنات أفكاره، ويدخل كل يوم تحسينات على مخترعات غيره" (17) على حد قول الدين تكرر. وتوصل وات نفسه إلى طريقة لاستخراج النسخ المطابقة باستعمال حبر غروي وضغط الصفحة المكتوبة أو المطبوعة على فرخ ميلل من الورق الرفيع (1780): وطبق أحد موظفيه المدعو وليم مردوك آلة وات البخارية على الجر، وصنع نموذجاً لقاطرة سرعتها ثمانية أميال في الساعة (1784)، وقاسم مردوك رجلاً فرنسياً يدعى فليب لوبون امتياز استعمال غاز الفحم في الإضاءة، وأثار بهذه الطريقة خارج مصنع سوهو (1798)، والمنظر المحوري للاقتصاد الإنجليزي في نهاية القرن الثامن عشر هو منظر الآلة البخارية تقود المسيرة

صفحة رقم : 14014

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الثورة الصناعية -> مقوماتها

وتزيد السرعة، وتسخر نفسها للآلات في عشرات الصناعات، وتصرف مصانع الغزل والنسيج عن قوة الماء إلى قوة البخار (1785 وما بعدها)، وتغير وجه الريف، وتغزو المدن، وتحجب السماء بغياب الفحم وأبخرته، وتختبئ في أحشاء المراكب لتسبغ قوة جديدة على سيادة إنجلترا على البحار. واقتضى الأمر عنصرين آخرين لجعل الثورة تامة، المصانع ورأس المال. وكانت مقومات الصناعة-وهي الوقود والقوة المحركة والمواد والآلات والعمال-تتعاون على خير وجه إذا جمعت في مبنى أو مصنع واحد، وفي تنظيم وضبط واحد، تحت رئيس واحد. لقد كانت المصانع موجودة من قبل؛ ولكنها الآن تكاثرت عدداً وحجماً لأن السوق الموسعة تطلبت الإنتاج المنتظم الواسع النطاق، وأصبح "نظام المصنع" علماً على النظام الجديد في الصناعة. فلما أصبحت الآلات الصناعية والمصانع غالية التكاليف، قوى سلطان الرجال والمؤسسات القادرة على جمع رأس المال أو تقديمه، وتسلمت المصارف على المصانع، وأخذ المركب كله اسم الرأسمالية-وهو اقتصاد يسيطر عليه الممولون. أما وقد توافرت كل حوافز الاختراع والمنافسة، وتحررت المشروعات الصناعية تحراً متزايداً من قيود النقابات الحرفية والمعوقات التشريعية، فإن الثورة الصناعية تهيأت لتشكّل من جديد وجه بريطانيا وسماءها وروحها.

صفحة رقم : 14015

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الثورة الصناعية -> ملابساتها

3- ملابساتها

كان على صاحب العمل والعمال كليهما أن يغيرا عاداتهما ومهارتهما وعلاقاتهما. فأما صاحب العمل الذي أخذ يتعامل مع عمال لا يفتأ عددهم في ازدياد، وفي دورة أسرع لرأس المال، فقد الصلة الحميمة بهم، واضطر أن ينظر إليهم لا بوصفهم معارف عاكفين على عمل مشترك، بل يشتغلون جزئيات في عملية لا يحكم عليها إلا بالأرباح. وكان معظم الحرفيين قبل في ورش النقابات أو في بيوتهم حيث لا تكون ساعات العمل صارمة 1760 لا تلين، وحيث يسمح بفترات للراحة؛ وفي عهد أسبق كانت هناك عطلات دينية تحرم الكنيسة فيها كل عمل يأتي بربح. وعلينا ألا نتمثل حال الرجل

صفحة رقم : 14016

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الثورة الصناعية -> ملابساتها

من عامة الشعب قبل الثورة الصناعية في صورة مثالية؛ ولكن لا نخطئ إذا قلنا أن المشاق التي تعرض لها آنذاك كانت تخفف منها التقاليد، والتعود، والهواء الطلق في كثير من الحالات. فلما تقدم التصنيع خفف من عناء العامل تخفيض ساعات العمل، وزيادة أجره، واتساع قدرته على الحصول على نصيب من السلع التي ازداد تدفقها من الآلات. ولكن تصف القرن الذي حدث فيه الانتقال من الحرفة والبيت إلى المصنع بعد 1760، كان لعمال إنجلترا نصف قرن حافلاً بالذل اللإنساني الذي كان أحياناً شراً من العبودية. كان أكثر المصانع في تلك الفترة يشترط اثنتي عشر ساعة إلى أربع عشرة ساعة من العمل في اليوم على مدى ستة أيام في الأسبوع (18). وكانت حجة أرباب العمل أنه لا مفر من الاحتفاظ بالعمال ساعات طويلة لأنه لا يمكن الاعتماد عليه في الحضور بانتظام: ذلك أن عمالاً كثيرين كانوا يسرفون في الشراب يوم الأحد إسرافاً يعوقهم عن الحضور إلى المصنع يوم الاثنين؛ وكان هؤلاء بعد أن يشتغلوا أربعة أيام يلزمون ببيوتهم في الثلاثة الباقية. وقد فسر أدن سميث هذه الظاهرة فقال "أن الجهد المفرط خلال أربعة أيام من الأسبوع هو في حالات كثيرة السبب الحقيقي للتبطل في الأيام الثلاثة الباقية"؛ ونبه إلى أن إطالة فترة العمل أو الزيادة في سرعته قد تؤدي إلى الانهيار البدني أو العقلي؛ وأردف "أن الرجل الذي يعتدل في العمل اعتدالاً يمكنه من أن يعمل باستمرار لا يحتفظ بصحته أطول من غيره فحسب بل أنه على مدى السنة يؤدي أكبر قدر من العمل" (19). أما الأجور الحقيقية فلا يمكن بالطبع قياسها إلا مرتبطة بالأسعار. ففي 1770 كان رغيغ الخبز الذي يزن أربعة أرطال في نتجهام يباع بنحو ستة بنسات، ورطل الجبن أو لحم الخنزير بأربعة، ورطل الزبد بسبعة، وقد حسب آدم سميث حوالي عام 1773 متوسط أجر العامل اللندني بعشرة شلنات، وفي المراكز الأصغر بسبعة، وفي إدنبرة بخمسة (20). وقال آرثر يونج حوالي عام 1770 أن الأجر الأسبوعي للعامل الصناعي الإنجليزي

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الثورة الصناعية -> ملابساتها

يتفاوت جغرافياً من ستة شلنات وستة بنسات إلى أحد عشر شلناً. وظاهر أن الأجور كانت أقل بالنسبة للأسعار منها الآن، ولكن بعض العمال اشتغلوا بعض الوقت بالعمل الزراعي. وبعد 1793، حين بدأت إنجلترا حربها الطويلة مع فرنسا الثائرة، ارتفعت الأسعار بأسرع كثيراً من ارتفاع الأجور، وبات الفقر مدقماً. وأوصى كثير من اقتصاديي القرن الثامن عشر بخفض الأجور حفزاً للتشغيل المتصل. وحتى أرثر يونج صرح بهذا الرأي، وهو الذي أزعجه ما شهد من فقر في بعض أقاليم فرنسا: "لا يجهل إلا أبله أنه لا بد من الإبقاء على فقر الطبقات الدنيا وإلا لما نشطت أبداً" (21). أو كما قال ج. سميث:

"من الحقائق التي يعرفها جيداً كل خبير بهذا الموضوع أن العوز، إلى حد ما، يحفز على الاجتهاد، وأن الصانع (أي العامل اليدوي) الذي يستطيع العيش على شغل ثلاثة أيام، سيظل متبطلاً سكران بقية الأسبوع، ويمكننا على العموم أن نؤكد منصفين أن خفض الأجور في صناعة الصوف سيكون بركة على الشعب، ولن يضار منه الفقراء حقيقياً. وبهذه الطريقة قد نصون تجارتنا، وندعم دخولنا، ونصلح الشعب بالإضافة إلى هذه المنافع" (22).

واستخدمت النساء والأطفال في المصانع، عادة لأداء العمليات التي لا تحتاج إلى مهارة. وكانت بعض النساجات الماهرات يتقاضين أجوراً لا تقل عن أجور أزواجهن، ولكن الأجور العادية لعاملات المصانع بلغت في المتوسط ثلاثة شلنات وستة بنسات - ولم تزد على نصف أجور العمال إلا فيما ندر (23). وكانت مصانع الغزل والنسيج وحدها في 1788 تشغل 56.000 امرأة و48000 طفلاً (24). وكان السير روبرت بيل يستخدم نيفاً وألف طفل في مصنعه بلانكاشير (25). ولم يكن تشغيل الأطفال بدءاً في أوروبا، فقد كان أمراً مسلماً به في المزارع والصناعة الأسرية. وإذا كان التعليم العام أمراً لم يرض عنه المحافظون لأنه يفضي إلى فائض في المتعلمين

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الثورة الصناعية -> ملابساتها

وندره في العمال البيديين، فإن قلة قليلة جداً من الإنجليز في القرن الثامن عشر هي التي رأت ضيراً في ذهاب الأطفال إلى المصنع بدلاً من المدرسة. وحين كانت الآلات من البساطة بحيث يستطيع الأطفال أن يقوموا عليها، رحب أصحاب المصانع بالعلمان والفتيات ذوي العوام الخمسة أو يزيد. وكان المسئولون في الأبرشيات الذين ضاقوا بالإنفاق على الأيتام أو أطفال الفقراء يجهزونهم لرجال الصناعة مغتبطين، أحياناً في أفواج من خمسين أو ثمانين أو مائة؛ وفي حالات عدة كانوا يشترطون أن يأخذ صاحب العمل طفلاً معتوهاً واحداً في كل عشرين طفلاً (26). وكان يوم العمل العادي للعمال الأطفال يتراوح بين عشر ساعات وأربع عشرة. وكثيراً ما كانوا يسكنون جماعات، وفي

بعض المصانع كانوا يعملون في ورديات من اثنتي عشرة ساعة، بحيث ندر أن توقف الآلات أو خلت الأسرة من شغلها. وكان النظام يحفظ باللمس أو الركل. وقد وجد المرض ضحايا عاجزين عن درئه في صبيان المصانع هؤلاء؛ وكثير منهم أصابه العمل بتشوّهات في جسده أو الحوادث بعاهات مقعدة، ومنهم من قتل نفسه. وكان في بعض الرجال من رقة الشعور ما يكفي لدم تشغيل الأطفال هذا، على أن هذا التشغيل تقلص لا لأن الناس أصبحوا أكثر رحمة، بل لأن الآلات أصبحت أشد تعقيداً.

وأخضع الأطفال والنساء والرجال في المصانع لظروف ونظم لم يعرفوها من قبل. وكانت المباني في حالات كثيرة تشيد على عجل دون توخ للمتانة، مما أعان قطعاً على كثرة الحوادث وتفشي المرض. وكانت القواعد صارمة، وانتهاكاتها تعاقب بغرامات قد تفقد العامل أجر يومه (27). وكانت حجة أرباب العمل أن العناية الواجبة بالآلات وضرورة التنسيق بين مختلف العمليات، والعادات المنسببة لسكان لم يألفوا النظام أو السرعة-كل هذا يتطلب ضبطاً صارماً إذا أريد ألا تقضي الفوضى والتبديد على الأرباح وترفع سعر المنتجات بحيث تخرجها من السوق في داخل البلاد وخارجها. واحتمل العمال الانضباط لأن الصانع العاقل كان يواجه الجوع والبرد هو وأسرته، وكان العامل المشتغل يعرف أن العمال العاطلين يتوقون

صفحة رقم : 14019

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الثورة الصناعية -> ملابساتها

إلى أخذ وظيفته، ومن ثم كان من مصلحة رب العمل أن يكون هناك "وعاء" من المتعطلين يأخذ منه البدائل للعمال المقعدين أو الساخطين أو المرفوتين. وحنى العامل الكفاء الحسن السير والسلوك كان يواجه الرفق إذا تشبعت السوق المتاحة بـ "إنتاج زائد" يفوق قدرتها الشرائية، أو إذا وضع السلام نهاية لاستعداد الجيوش المبارك لطلب مقادير متزايدة من السلع واستهلاكها بأسرع ما يمكن.

وكان العمال ف يظل نظام النقابات الحرفية محميين بالأوامر النقابية أو البلدية، أما في حركة التصنيع الجديدة فلم يجدوا حماية تذكر من القانون أو أي حماية إطلاقاً. وكانت دعوة الفزيوقراطيين لتحرير الاقتصاد من التنظيم قد تقدمت في إنجلترا كما تقدمت في فرنسا؛ وأقنع أصحاب الأعمال البرلمان بأنهم لا يستطيعون مواصلة عملياتهم أو التصدي للمنافسة الأجنبية ما لم تترك الأجور لتحكمها قوانين العرض والطلب. وكان قضاة الصلح يحتفظون من قبل ببعض الإشراف على الأجور في مصانع القرى، أما في المصانع بعد 1757، فلم يكن لهم أي إشراف (28). ولم تر الطبقتان العليا والوسطى مبرراً للتدخل في شؤون أقطاب الصناعة، وكان فيض الصادرات المتعاطم يفتح أسواقاً جديدة للتجارة البريطانية؛ وكان الإنجليز القادرون على الشراء مسرورين بوفرة المصنوعات.

ولكن العمال لم يصيبوا قسطاً من هذا الثراء فقد ظلوا رغم تكاثر السلع بفضل الآلات التي يقومون عليها فقراء عام 1800 كما كانوا قبل قرن (29). ثم أنهم لم يعودوا يملكون أدوات حرفتهم، ولم يكن لهم نصيب يذكر في تصميم السلعة المنتجة، ولم ينالوا كسباً من توسع السوق التي يغذونها. وزادوا فقراً على فقر بمواصلة الإنجاب المرتفع الذي يؤتي ثماره في المزرعة؛ ووجدوا أكبر عزاء لهم في الشراب والجنس، وظلت نساؤهم يقومون بعدد من يلدن من الأطفال. وانتشر الفقر المدقع؛ وارتفعت المصروفات المخصصة لإغاثة الفقراء من 600.000 جنيه في 1742 إلى 2.000.000 جنيه في 1784 (30). ولم تستطع الزيادة في الإسكان أن

صفحة رقم : 14020

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الثورة الصناعية -> ملابساتها

تساير هجرة العمال الصناعيين أو تكاثرهم، وكثيراً ما أكرهوا على العيش في مساكن متداعية تتزاحم في شوارع ضيقة كئيبة. وعاش بعض العمال في أقباء زادت رطوبتها من أسباب المرض. ولم يحل عام 1800 حتى كانت كل المدن الكبرى قد قامت فيها أحياء فقيرة مزدحمة باتت ظروف العيش فيها أسوأ من أي ظروف عرفت في تاريخ إنجلترا السابق.

وحاول العمال تحسين ظروفهم بالمشاغبات أو الاضطرابات أو التنظيم، فهاجموا المخترعات التي تهددهم بالبطالة أو العمل الشاق والأجر الحقيقير، وقرر البرلمان في 1769 اعتبار تخريب الآلات جنائية(31). ولكن العمال في مصانع لانكاشير تجمعوا رغم ذلك عام 1779 في حشد من الغوغاء تعاضم من خمسمائة رجل إلى ثمانية آلاف؛ ثم جمعوا الأسلحة النارية والذخيرة؛ وصهروا الأطباق البيوترية ليصنعوا منها الأعبرة، وأقسموا أن يدمروا كل آلة في إنجلترا. وفي بولتن حطموا مصنعاً وأجهزته تحطيماً تاماً؛ وفي أولدم اقتحموا عنوة مصنع نسيج روبرت بيل (أبي السير روبرت الوزير)، وحطموا أجهزته الغالية. وكانوا في طريقهم للهجوم على مصنع آر كرايت في كرامفورد حين لحق بهم الجنود المرسلون من لفربول، ففروا للفور مدحورين. وقبض على بعضهم وحكم عليهم بالشنق. وعلل قضاة الصلح هذا بأن "تدمير الآلات في هذا البلد لن تكون إلا الوسيلة لنقلها إلى البلاد الأخرى... مما يؤدي تجارة بريطانيا(32). وطلب "صديق للفقراء" مجهول الهوية إلى العمال أن يتحلوا بمزيد من الصبر "أن كل التحسينات بواسطة الآلات ينجم عنها أول الأمر بعض المصاعب لأشخاص بعينهم... أو لم يكن أول أثر للمطبعة هو حرمان الكثير من الناسخين من حرفهم؟"(33).

وكرم القانون تأليف الاتحادات العمالية بهدف المساومة الجماعية؛ ومع ذلك وجدت "جمعيات العمال المهرة" التي يرجع بعضها إلى القرن السابع عشر. وفي القرن الثامن عشر كثر عددها لا سيما بين صنّاع النسيج. وكانت أولاً أندية أو جمعيات لتبادل المنافع، ولكنها بتقدم القرن أصبحت أكثر عدواناً، ونظمت أحياناً الاضطرابات حين كان البرلمان يرفض

صفحة رقم : 14021

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الثورة الصناعية -> ملابساتها

ملتمساتها. مثال ذلك أن السنيتين 1767-68 شهدتا اضطرابات للملاحين والنساجين وصانعي القبعات والخياطين وطاحني الزجاج؛ وصاحب العديد من هذه الاضطرابات العمالية عنف مسلح من الطرفين(34). وقد أجمل آدم سميث النتائج حتى 1776:

"ليس من العسير أن نتكهن بانتظار أحد الفريقين حتماً" في النزاع في جميع الظروف العادية، وإكراهه الفريق الآخر على الامتنال لشروطه، فأرباب الأعمال يستطيعون لقلّة عددهم أن يتكثروا بأسهل كثير من العمال، والقانون... لا يحرم تجمعاتهم، في حين يحرم تجمعات العمال. وليس لدينا قوانين برلمانية تمنع التكتل لخفض أجور العمال، ولكن القوانين الكثيرة تمنع التكتل لرفعها. وفي جميع هذه النزاعات يستطيع أصحاب المصانع الصمود زمناً أطول بكثير...

وكثير من العمال لا يستطيعون العيش وهم متعطلون ولو أسبوعاً واحداً، وقليلون يستطيعونه شهراً وندر من يستطيعونه سنة" (35).
وأنفذ أصحاب العمل مشيئتهم سواء في المصانع أو في البرلمان؛ ففي 1799 قضى مجلس العموم بعدم شرعية أي اتصالات ترمي إلى الحصول على أجور أعلى أو إلى تغيير ساعات العمل، أو إلى إنقاص كمية العمل المطلوبة من العمال. ويعاقب العمال الداخلون في تكتلات كهذه بالسجن ويؤمن المبلغون عن هؤلاء العمال (36).

صفحة رقم : 14022

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الثورة الصناعية -> عواقبها

4- عواقبها

كانت نتائج الثورة الصناعية هي تقريباً كل شيء تلاها في إنجلترا إذا استثنينا الأدب والفن؛ وليس في الاستطاعة إيفاء هذه النتائج حقها من الوصف إلا إذا كتبنا تاريخاً للقرنين الأخيرين. على أننا يجب أن نلفت النظر ولو إلى القمم البارزة لعملية التغيير المستمرة والتي لم تنته بعد.
1- تغيير الصناعة نفسها بتكاثر المخترعات والآلات وهي عملية من الكثرة بحيث تختلف طرائقنا الحاضرة في إنتاج السلع وتوزيعها عن

صفحة رقم : 14023

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الثورة الصناعية -> عواقبها

طرائق عام 1800 أكثر من اختلاف هذه عن الطرائق التي سادت قبلها بألفي عام.
2- انتقال الاقتصاد من النقابات الحرفية المنظمة والصناعات الأسرية إلى نظام الاستثمار الرأسمالي والمشروعات الحرة. وكان آدم سميث الصوت البريطاني للنظام الجديد، وأسبغ بت الثاني على النظام التكريس الحكومي في 1796.
3- تصنيع الزراعة-أي الاستعاضة عن المزارع الصغيرة بمساحات كبيرة من الأرض تدار رأسمالياً، وتستخدم الآلات والكيمياء والقوة الميكانيكية على نطاق واسع لإنتاج الطعام والألياف لسوق قومية أو دولية-هذا التصنيع ماض في طريقه اليوم. والمزرعة التي كانت تقلحها الأسرة تتضم إلى النقابات الحرفية في ركب ضحايا الثورة الصناعية.

- 4- تشجيع العلم وتطبيقه وبثه. وقد انصب التشجيع أولاً على البحوث العلمية ولكن الدراسات في العلم البحت أفضت إلى نتائج عملية هائلة، ومن ثم فقد مولت البحوث النظرية أيضاً، وأصبح العلم هو الطابع المميز للحياة الحديثة كما كان الدين للحياة الوسيطة.
- 5- أعادت الثورة الصناعية (لا نابليون كما توقع بيت الثاني) رسم خريطة العالم بضمونها سيادة بريطانيا على البحار وعلى أكثر المستعمرات جلباً للأرباح على مدى 150 عاماً. وقد عززت الإمبريالية لأنها حملت إنجلترا ثم غيرهم من الدول الصناعية-على فتح أصقاع أجنبية تستطيع أن توفر الخامات أو الأسواق أو التسهيلات للتجارة أو الحرب. وأكرهت الشعوب الزراعية على التصنيع وتقوية نفسها عسكرياً لتحصل على حريتها أو تصونها، وخلقت روابط اقتصادية أو سياسية أو حربية جعلت الاستقلال وهمياً والتكافل واقعياً.
- 6- غيرت إنجلترا طابعاً وحضارة بتكثير سكانها، وتصنيع نصفها، وتحريكها شمالاً وغرباً إلى مدن مجاورة لمنجم الفحم أو الحديد، أو للطرق

صفحة رقم : 14024

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الثورة الصناعية -> عواقبها

- المائية أو البحر؛ وهكذا نمت ليدز وشيفيلد ونيوكاسل وماتشستر وبرمنجهام ولفربول وبرستل... وقد حولت الثورة الصناعية مناطق شاسعة من إنجلترا، ومن غيرها من الدول المصنعة، إلى بقع ملطخة من الأرض تتفث دخان المصانع وتختنق بالغازات والغيار، وأرسبت الخبث البشري في أحياء قذرة مدخنة بائسة.
- 7- مكنت الحرب ووسعتها وجردتها من الطابع الشخصي ورفعت قدرة الإنسان على التدمير أو القتل بدرجة هائلة.
- 8- فرضت تحسيناً وسرعة في المواصلات والنقل وبهذا يسرت تكتلات صناعية أكبر وسهلت في مناطق أوسع من رأس مال واحد.
- 9- ولدت الديموقراطية برفعها طبقة رجال الأعمال إلى مكانة الثراء المهيمن، وإلى التفوق السياسي نتيجة تدريجية لذلك. ولأحداث هذا الانتقال الخطير للسلطة ورغبة في حمايته، جندت الطبقة الجديدة تأييد قطاع مترابدين من الجماهير، واثقة من أن في الإمكان الاحتفاظ بولائها بالهيمنة على وسائل الإعلام وتلقين المبادئ. ولكن رغم هذه الهيمنة أصبح شعب الدول الصناعية أفضل الجماهير إعلاماً في التاريخ الحديث.
- 10- وإذا كانت الثورة الصناعية المتطورة تتطلب مزيداً من التعليم في العمال والمديرين، فإن الطبقة الجديدة مولت المدارس والمكتبات والجامعات على نطاق لم يحلم به أحد من قبل. وكان الهدف تدريب الذكاء التقني، وكانت الحصيلة الجانبية توسعاً لم يسبق له نظير في الذكاء العلماني.
- 11- نشر الاقتصاد الجديد السلع وأسباب الرفاهية بين نسبة من السكان تفوق كثيراً أي نظام سابق لم يكن من سبيل أمامه لصيانة إنتاجيته المطردة الارتقاع إلا بقوة شرائية مطردة الاتساع في الشعب.
- 12- أرهفت العقل الحضري، ولكنها بلدت الحس الجمالي؛ وأصبحت مدن كثيرة قبيحة المنظر قبحاً يغم النفوس وفي النهاية أفلح الفن نفسه عن نشدان الجمال. وكان من آثار إسقاط الأرستقراطية عن عرشها زوال حفظة المعايير والأذواق وحكمتها، وهبط مستوى الأدب والفن.

صفحة رقم : 14025

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الثورة الصناعية -> عواقبها

- 13- رفعت الثورة الصناعية أهمية الاقتصاد ووضعه، وأفضت إلى التفسير الاقتصادي للتاريخ، وعودت الناس على التفكير بلغة العلة والمعلول الماديين، وأفضت إلى نظريات ميكانيكية النزعة في علم الأحياء فحواها محاولة تفسير جميع عمليات الحياة على أنها أفعال ميكانيكية.
- 14- تضافرت هذه التطورات في العلم، والنزعات الشبيهة في الفلسفة، مع الأحوال الحضرية والثراء المتسع، على إضعاف العقيدة الدينية.
- 15- غيرت الثورة الصناعية من الأخلاقية. إنها لم تغير طبيعة الإنسان ولكنها أعطت قروى وفرصاً جديدة لغرائز قديمة نافعة بدائياً، مكدرة اجتماعياً. وأكدت حافز الكسب إلى حد بدا فيه مشجعاً ومكثفاً لأنانية الإنسان الفطرية. لقد كانت الغرائز غير الاجتماعية تجد كاحاً لجماعها في سلطة الوالدين، وفي التعليم الأخلاقي في المدارس، وفي التلقين الديني. ولكن الثورة الصناعية أضعفت هذه الكوابح كلها. وكانت الأسرة في النظام الزراعي هي وحدة الإنتاج الاقتصادي كما كانت وحدة الاستمرار العرقي والنظام الاجتماعي؛ وكانت تعمل جماعة على الأرض خاضعة للنظام الذي يفرضه الأبوان والفصول؛ وقد علمت التعاون وشكلت الخلق. أما النزعة الصناعية فقد جعلت الفرد والشركة هما وحدتي الإنتاج، وفقد الأبوان والأسرة الأساس الاقتصادي لسلطتهما ووظيفتهما الأخلاقية. وإذ أصبح تشغيل الأطفال غير مجز في المدن لم يعد الأطفال نفع اقتصادي. وانتشر ضبط النسل، وأكثر انتشاره بين الأفراد الأكثر ذكاء، وأقله بين الأقل ذكاء، مما أحدث نتائج غير متوقعة للعلاقات العرقية والسلطة الثيوقراطية: وإذ حرر تحديد الأسرة والأجهزة الميكانيكية المرأة من هموم الأمومة واجبات البيت، فقد جذبت إلى المصانع والمكاتب؛ وكان التحرير معناه التصنيع. وإذ استغرق الأبناء فترة أطول حتى يصلوا إلى الاعتماد على ذواتهم اقتصادياً فإن الفترة التي طالت بين النضج البيولوجي والاقتصادي جعلت العفة السابقة للزواج أشق، وحطمت الناموس الأخلاقي الذي كان ممكناً في المزرعة بفضل النضج الاقتصادي المبكر، والزواج المبكر، والعقوبات الدينية

صفحة رقم : 14026

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الثورة الصناعية -> عواقبها

ووجدت المجتمعات الصناعية نفسها منساقعة على غير هدى في فترة فاقدة لحس المسؤولية الأخلاقية، بين ناموس أخلاقي يحتضر وآخر جديد لم يتشكل بعد. وما تزال الثورة الصناعية ماضية في طريقها قدماً، وليس في قدرة عقل واحد أن يستوعبها في جميع مظاهرها، أو أن يصدر حكماً أخلاقياً على نتائجها. ولقد مقادير وأنواعا جديدة من الجرائم، وألهمت العلماء كل ما اتصف به المبعوثون الدينيون والراهبات من إخلاص وتقان، وأنتجت المباني القبيحة، والشوارع الكئيبة، والأحياء الفقيرة القذرة، ولكن هذه لم تكن مستمدة من صميمها، هو إحلال القوة المكنية محل الجهد البشري. وهي الآن تهاجم شرورها، لأنها وجدت أن الأحياء الفقيرة القذرة تكلف أكثر من التعليم، وأن التخفيف من الفقر يثري الأغنياء. وفي استطاعة المعمار الوظيفي والبراعة الميكانيكية كما نرى في الكباري مثلاً- أن يخلقوا جمالاً يزوج بين العلم والفن. وأخذ الجمال يصبح مجزياً، والتصميم الصناعي يتبوأ مكانه بين فنون الحياة وأسباب تجميلها.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> البنية السياسية

الفصل الثامن والعشرون

المسرحية السياسية

1792-1756

1- البنية السياسية

كانت الثورة الصناعية أهم عملية أساسية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر في إنجلترا، والصراع السياسي أكثر الدرامات إثارة فيها. فقد جعل عمالقة الخطابة الإنجليزية شاتام، وبيرك، وفوكس، وشريدان-هؤلاء جعلوا مجلس العموم مسرحاً لصراعات مريرة خطيرة بين البرلمان والملك، وبين البرلمان والشعب، وبين إنجلترا وأمريكا، وبين ضمير إنجلترا وحكام الهند الإنجليز، وبين إنجلترا والثورة الفرنسية. وكان البناء السياسي إطار المسرحية وأداتها. كانت حكومة بريطانيا العظمى ملكية دستورية، بمعنى أن الملك كان يوافق ضمناً على أن يحكم وفق القوانين الراهنة والممارسات التقليدية، وألا يضع قوانين جديدة دون موافقة البرلمان. أما الدستور فلم يكن وثيقة بل تراكمًا للسوابق بإبستنائين، أولهما المجناكارتا الذي وقعه الملك يوحنا في 1215، والثاني نشأ حين أرفق مؤتمر وستمنستر في 1689 (الذي عرض تاج إنجلترا على وليم أورنج وزوجته ماري) بهذا العرض "قانوناً يعلن حقوق وحرية الرعية ويسوي مسألة وراثته التاج" وقد أكد "قانون الحقوق" هذا كما سمي اختصاراً، أن "سلطة وقف القوانين أو تنفيذ القوانين بأمر ملكي دون موافقة البرلمان غير قانونية" وأن "جباية المال للتاج أو لاستعماله بالدعوى الحق الملكي الخاص، دون إذن البرلمان... عمل غير قانوني" ثم أرفق: "ونظراً إلى الثقة الكاملة بأن... أمير أورنج سوف

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> البنية السياسية

بحميم (أي البرلمان) من انتهاك حقوقهم التي أكدوها هنا، ومن أي اعتداءات أخرى على دينهم وحقوقهم وحررياتهم، فإن.. اللوردات الروحيين والزمنيين ونواب العموم.. يقررون أن يكون وليم وماري، أمير وأميرة أورنج، وأن ينادى بهما ملكاً وملكة على إنجلترا وفرنسا وإيرلندا. "ومعنى هذا إن وليم الثالث وماري الثانية يقبولهما العرش قبلاً ضمناً القيود التي وضعتها أرستقراطية إنجلترا المزهوة القوية على سلطة الملك بهذا التصريح. وحين عرض البرلمان في "قانون تسوية" لاحق (1701)، وبشروط معينة، التاج على "الأميرة صوفيا" (الهانوفرية) وورثتها البروتستانت "افترض أنها هي وهؤلاء الورثة وافقوا بقبولهم العرش على "قانون للحقوق" سلبهم كل حق في وضع القوانين إلا بموافقة البرلمان. وبينما كانت جميع دول أوروبا تقريباً حتى 1789 يحكمها ملوك مستبدون يضعون القوانين ويلغونها، كان لإنجلترا حكومة دستورية امتدحها الفلاسفة وحسدها نصف العالم.

وقد قدر تعداد 1801 (1) سكان بريطانيا العظمى بتسعة ملايين نسمة ينقسمون إلى الفئات التالية:

1- في القمة 287 نبيلاً ونبيلةً زمنيين (علمانيين) بوصفهم رؤساء أسر مجموعها نحو 7.175 شخصاً. وكان داخل هذه الفئة مراتب في ترتيب تنازلي: أمراء الدم (الملكي)، وأدواق، وماركيزات، وايرلات، وفيكونتات، وبارونات. وانحدرت هذه الألقاب إلى الإبن الأكبر جيلاً بعد جيل.

2- ستة وعشرون أسقفاً- "اللوردات رويون" وكان من حقهم هم واللوردات الزمنيون الـ 287 أن يجلسوا في مجلس اللوردات. وقد ألف هؤلاء معاً-وجملتهم 313 أسرة-طبقة النبلاء الأصليين، ويصح استعمال لقب "الورد" لهم جميعاً إلا الأدواق والأمراء. وكان من الممكن اكتساب نبالة دون ذلك رسمية، ودون حق توريتها، بفضل التعيين في الوظائف العليا في الحكومة أو الجيش أو البحرية؛ ولكن كان المتبع عادة أن يعين في هذه الوظائف أشخاص رفعا إلى مقام النبالة من قبل.

صفحة رقم : 14029

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> البنية السياسية

3- نحو 540 بارونتاً، وزوجاتهم، يحق لهم أن يضعوا لقب "سير" و"ليدي" في صدر أسمائهم الأولى، وأن يورثوا هذين اللقبين.

4- نحو 350 فارساً وزوجاتهم يحق لهم استعمال اللقبين السابقين، دون توريتها.

5- نحو ستة آلاف "سكواير" (Squires e) وهم الـ "Gentry" أو الطبقة الكبرى من ملاك الأرض الرئيسيين. وكان البارونيات، والفرسان، وهؤلاء الملاك، وزوجاتهم، يؤلفون "الطبقة الدنيا من النبلاء" ويندرجون بوجه عام هم وكبارهم في الطبقة "الأرستقراطية".

6- نحو عشرين ألف "سيد" (جنتلمان "أو سيدة" (ليدي) يعيشون على دخول دون عمل يدوي، لهم شعارات نبالة، ومفروض أنهم من أصل كريم "Gentle"- أي ولدوا في مجموعة الأسر العريقة المقبولة "Gens".

7- وأسفل هؤلاء جميعاً جاءت بقية السكان، الأكليرس الأدنى، وموظفوا الدولة، ورجال الأعمال، والمزارعون، وأصحاب المتاجر، ومهرة الصناع، والعمال، والجنود، والبحارة، كذلك نحو 104.000 من المعدمين الذين يتلقون المعونة من الدولة ونحو 222.000 من "المتشردين، والعجر، والأشرار، واللصوص، والمحتالين، ومزيفي العملة البخسة، داخل السجون أو خارجها، وعامة البغايا"(2).
وقد هيمنت الطبقة الأرستقراطية على الحكومة، دون أن تلقى من المقاومة إلا العارضة بفضل ثرائها (وقد أصاب النبلاء الـ 287 تسعة وعشرين في المائة من الدخل القومي في 1801)(3)، وبروزها في الوظائف العليا مدنية أو حربية. وهيبة عراقتها، وهيمنتها على الانتخابات البرلمانية والتشريع. وكانت إنجلترا من الناحية الانتخابي مقسمة إلى أربعين إقليماً أو مقاطعة ريفية (Counties) و 203 مدينة ذات ممثلين (Boroughs). وكان يستثنى من حق التصويت النساء، والمعدمون، والمجرمون المحكوم عليهم، والكاثوليك الرومان، والكويكرز، واليهود، واللاأدريون، وغيرهم ممن

صفحة رقم : 14030

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> البنية السياسية

لا يستطيعون حلف يمين الولاء لسلطان الكنيسة الإنجليزية وعقائدهم. ولم يكن حق التصويت للبرلمان مخولاً في الأقاليم إلا للملاك البروتستانت الذين يدفعون ضريبة سنوية قدرها أربعون شلناً، ومجموعهم نحو 160.000. ولما كان التصويت علنياً، فإن قليلين جداً من الناخبين كانوا يجرون على تأييد أي مرشح غير الذي رشحه كبار ملاك الإقليم، ومن ثم لم يكثر بالتصويت إلا نفر قليل نسبياً من الناخبين، وكان الكثير من الانتخابات ينقر بترتيب يتفق عليه الزعماء دون اقتراع على الإطلاق. وكان كبار ملاك الأرض يرون أن من الإنصاف لهم وهم يراهنون بالكثير في سياسة الحكومة ومصير الأمة-أن يكون تمثيلهم في البرلمان متناسباً مع ثروتهم. وقد وافق على هذا الرأي معظم صغار الملاك.

أما المدن فقد تمثل فيها تنوع مربك من الأنماط الانتخابية. ففي مدينة وستمنستر (وسط لندن حالياً) كان هناك نحو تسعة آلاف ناخب، وفي مدينة لندن كما كانت مكونة آنذاك ستة آلاف؛ وفي برستل خمسة آلاف؛ ولم تضم أكثر من ألف ناخب سوى اثنتين وعشرين مدينة(4) وفي اثنتي عشرة مدينة كان التصويت من حق جميع الذكور؛ وفي معظم المدن الباقية اقتصر على ذوي الملاك؛ وفي عدة مدن كان المرشحون ينتخبهم "تكتل" بلدي عرف بأنه "أولجركية حضرية من المحامين والتجار والسماصرة وصانعي الجعة، تحصنت في تكتل ينتخب ذاته، وخولت له براءة ملكية الهيمنة وحده على أملاك المدينة"(5). وكان بعض هذه التكتلات يعطي صوته للمرشح (أو المرشحين) الذي يدفع راعيه (أو راعيه) أعلى ثمن. ففي 1761 أعلنت مدينة صديري صراحة عن بيع صوتها؛ وفي الانتخاب التالي عرضت بلدية أكسفورد رسمياً أن تعيد انتخاب أعضائها في البرلمان إذا دفعوا ديون البلدية(6). وكان امتياز اختيار المرشح في بعض المدن يملكه بحكم العادة أفراد أو أسر معينة لا تسكن هناك بالضرورة، وآية ذلك أن اللورد كاملفورد كان يفاخر بأنه لو شاء لاستطاع أن ينتخب ساقيه الزنجي للبرلمان(7). وكانت "دوائر الجيب" هذه تباع أحياناً كالمسلح. فاشترى اللورد أجرمونت مدهرست ودفع فيها 40.000 جنيه(8) وفي بعض "الدوائر

صفحة رقم : 14031

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> البنية السياسية

الفاسدة Rotten Boroughs كانت حفنة من الناخبين تستطيع أن تبعث إلى البرلمان نائباً أو أكثر في حين لم يكن نصيب مدينة لندن غير أربعة. وحتى حين كان حق التصويت للجميع تقريباً وكان العامل الذي يحسم الانتخاب عادة هو الرشوة أو العنف أو إثمال الناخب العنيد بالخمر إلى درجة تعجزه عن الإدلاء بصوته(9). وقد سيطر 111 "راع" على الانتخابات بمختلف الوسائل في 205 مدينة(10). وبلغ عدد الناخبين نحو 85.000 في المدن، و160.000 في الأقاليم والجملة 245.000.

من هذه الانتخابات المتباينة جاء أعضاء مجلس العموم البالغ عددهم 558 عضواً في 1761. فأرسلت إسكتلندة خمسة وأربعين، وأقاليم إنجلترا وويلز أربعة وتسعين، والمدن 415، والجامعتين نائبين عن كل. وكان مجلس اللوردات يضم آنذ 224 من كبار النبلاء، علمانيين أو روهيين. وكان "الامتياز البرلماني" يشمل حق البرلمان في إقرار مشروعات القوانين المقدمة للتشريع، وفي فرض الضرائب وبهذا يملك "قوة المال"، وفي الحكم على مسوغات الأشخاص الذين يطالبون بقبولهم في عضويته، وأن يعاقب بالسجن إن شاء-أي ضرر يلحق بأعضائه أو أي عصيان لقواعده؛ وأن يتمتع بكامل حرية الكلام، وبما في ذلك الحصانة من العقاب على الألفاظ التي يتقوه بها في البرلمان. أما انقسام الأعضاء إلى محافظين Tories وأحرار Whigs فكان في 1761 قد فقد تقريباً كل دلالة، وكان الانقسام الحقيقي بين المؤيدين والمعارضين لـ "الحكومة" الحالية، أو الوزراء، أو الملك. وكان المحافظون بوجه عام يحملون مصالح ملاك الأرض؛ والأحرار على استعداد بين حين وحين للنظر في رغبات طبقة رجال العمال؛ وفيما خلا ذلك كان كلا المحافظين والأحرار محافظين على السواء. ولم يشرع أحد الحزبين قوانين لمصلحة الجماهير. والمشروع لا يصبح قانوناً إلا إذا وافق عليه مجلسا البرلمان ووقعه الملك. وكان الملك يملك "الحق الملكي الخاص" أي السلطات، والامتيازات،

صفحة رقم : 14032

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> البنية السياسية

والحصانات الممنوحة له بحكم العرف والقانون الإنجليزيين. فكان له سلطات حربية: فهو القائد الأعلى للجيش والبحرية، يستطيع إعلان الحرب، ولكنه يحتاج إلى المخصصات البرلمانية ليخوضها؛ ويستطيع المفاوضة لإبرام المعاهدة وعقد الصلح. وكان له بعض الحقوق التشريعية، فهو يستطيع الامتناع عن الموافقة على مشروع أقره البرلمان ولكن كان في استطاعة البرلمان أن يحمل على الموافقة بما يملك من قوة المال، وعلى ذلك لم يمارس ذلك الحق إطلاقاً بعد 1714؛ وكان يستطيع الإضافة إلى القوانين بالتصريح أو بالأوامر الصادرة من مجلسه الخاص، ولكنه لا يستطيع تغيير القانون العام، أو استحداث جريمة جديدة؛ أما المستعمرات فيستطيع أن يشرع لها كما يشاء. وكان له سلطات تنفيذية. فله وحده أن يدعو البرلمان أو يؤجله أو يفرضه، وكان يعين الوزراء الذين يوجهون السياسة والإدارة. وكان بعض الضجة التي اصطبخت في العقود الأولى (1760-82) من حكم جورج الثالث الذي امتد سنتين عاماً يدور حول مدى حق الملك في اختيار الوزراء وتقرير السياسة.

وقد ضيق حق الملك في التشريع ولم يكن ممكناً جعل المشاريع التي يقترحها وزراءه على البرلمان قانوناً إلا بإقناع مجلسي البرلمان كليهما بقبولهما. وكان هذا يتم بالمساومات السياسية، أو بالوعود بالمناصب أو المعاشات أو بقبضها،

أو بالرشوة (في 1770 كان أكثر من 190 عضواً في مجلس العموم يملكون وظائف تعيين في الحكومة). أما الأموال والمكافآت التي تتطلبها هذه العمليات فكان أكثرها يأتي من "القائمة المدنية" للملك، وهي حساب نفقاته لشخصه ولأسرته (المخصصات الملكية)، وليبوتيه وخدمه، وللرواتب التي يدفعها، وللمعاشات الممنوحة على سبيل المكافأة. وقد خصص البرلمان لجورج الثالث 800.000 جنيه في العام لهذه القائمة المدنية؛ ولكنه كثيراً ما تجاوز هذا المبلغ في نفقاته؛ وفي 1769 أضاف البرلمان 513.511 جنيهًا، وفي 1777 أضاف 618.340 جنيهًا ليدفع الديون الملكية. وكان بعض مال الملك يستخدم في شراء الأصوات في الانتخابات البرلمانية (11)،

صفحة رقم : 14033

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> البنية السياسية

وبعضه لشراء الأصوات في البرلمان نفسه. وفي حالات كثيرة كانت الاعتمادات التي يوافق عليها البرلمان للخدمات السرية ترد إلى البرلمان على هيئة رشاي. فإذا أضفنا إلى هذه التجارة الملكية المال الذي ينفقه في الانتخابات أو التشريع "النوابون" العائدون إلى إنجلترا بثروة جمعوها من الهند، أو رجال الأعمال الساعون إلى عقود حكومية أو إلى تقاضي تدخل الحكومة، اكتملت لنا صورة للفساد السياسي منقطعة النظير غربي الأودر، تكشف عن طبيعة البشر كشفاً لا يشرح الصدور.

وينبغي أن نلاحظ هنا بعض التفاصيل الصغيرة للنظام البريطاني. فقد فرضت الضرائب على جميع ملاك الأرض كباراً أو صغاراً؛ وربما كان هذا عاملاً من عوامل الاحترام الذي أيداه عامة الشعب نحو طبقة النبلاء. ولم يسمح البرلمان بجيش دائم بل سمح بميليشيا فقط؛ وكان هذا عاملاً وكان هذا عاملاً صغيراً في ثراء إنجلترا المتفوق في وقت كانت فرنسا تتفق فيه على جيش دائم عدته 180.000 مقاتل وبروسيا 190.000، وروسيا 224.000. على أنه في زمن الحرب كانت القوات المسلحة تجند دون هوادة سواء بالتطوع أو الإكراه، وكانت انتهاكات الحرية الشخصية نتيجة لهذه العادة، وألوان القسوة الموحشة في حياة الجيش والبحرية، أطيافاً قاتمة تلوث المسرح الإنجليزي. وفي رأي بلاكستون (حوالي 1765) أن بناء إنجلترا السياسي كان خير ما سمحت به طبيعة الناس وتعليمهم في تلك الحقبة. وقد استشهد بالرأي القديم القائل بأن خير أنواع الحكم ما جمع بين الملكية والأرستقراطية والديموقراطية، وقد وجد هذه كلها "مجتمعة اجتماعاً حسناً وموفقاً" في الدستور البريطاني. ويقول:

"فيما أن السلطة التنفيذية للقوانين عندنا مخولة لشخص فرد، فإن لها كل مزايا القوة والنجاز التي توجد في أكثر الملكيات استبداداً؛ وبما أن تشريع المملكة موكول إلى سلطات متميزة ثلاث، مستقلة كل الاستقلال بعضها عن بعض؛ أولاً الملك، ثانياً اللوردات الروحانيين والزمنيين الذين

صفحة رقم : 14034

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> البنية السياسية

يؤلفون مجلساً أرسقراطياً من أشخاص اختيروا لتقواهم أو عراقتهم أو حكمتهم أو بسالتهم أو ثرائهم؛ ثالثاً مجلس العموم الذي يختاره أفراد الشعب اختياراً حراً من بينهم، مما يجعله نوعاً من الديموقراطية؛ وبما أن هذه الهيئة الكلية التي تحركها مختلف الدوافع والتي تعنى بمختلف المصالح... لها التصرف الأعلى في كل شيء، فلا يمكن أن يكون هناك عمل مزعج يحاوله أي فرع من الفروع الثلاثة إلا حال دونه الفرعان الآخران؛ لأن كل فرع مسلح بسلطة سلبية تكفي لصد أي بدعة تراها غير لائقة أو خطيرة. وهنا إذن تكمن سيادة الدستور البريطاني، وتكمن على خير ما يمكن للمجتمع(12).

وقد تبتسم لنزعة المحافظة المشوبة بحب الوطن لفقيه قانوني شامخ ينظر إلى الأمر من موقعه العالي المريح، ولكن أغلب الظن أن حكمه كانت تكرسه تسعون في المائة من الشعب الإنجليزي أيام جورج الثالث.

صفحة رقم : 14035

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> أبطال الدراما

2- أبطال الدراما

كان أشخاص الدراما من أشهر من حواهم التاريخ الإنجليزي. فعلى القمة جورج الثالث الذي تربع على العرش طوال العوام المنحوسة (1760-1820) التي مرت بإنجلترا خلال الثورتين الأمريكية والفرنسية وحروب نابليون. وكان أول الملوك الهانوفرين المولودين في إنجلترا، أول من نظر إلى نفسه كرجل إنجليزي، وأول من استغرقه الاهتمام بالشئون الإنجليزية. وهو حفيد جورج الثاني، وابن فردريك لويس أمير ويلز العتيد الذي كان قد مات في 1715. وكان ملك المستقبل جورج الثالث أنذ في الثانية عشرة من عمره. وخافت عليه أمه، أوجستا أميرة ساكسي-جوتا من "شباب الطبقة العليا الأردال سيئ التربية" الذين كانت تلقاهم، فعزلته عن مثل هذه المعاشرات، ونشأته واحداً من ثمانية أطفال في عزلة مانعة عن اللعب والأفراح والضجيج والتفكير في أتراه وفي جيله. ومن ثم شب هيباباً، كسولاً، متديناً، سيئ التعليم، تعساً. وقد قال لأمه اللوامة "لو أنني رزقت ولداً لما جعلته تعساً كما جعليني(14)". وقد بث فيه احتقارها لجدده لأنه أطاق تسيد البرلمان، وكانت تردد على مسامعه المرة بعد المرة، "كن ملكاً يا جورج!" - وأهابت به أن ينتزع قيادة الحكم النشيطة من جديد.

صفحة رقم : 14036

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> أبطال الدراما

وهناك رواية متواترة كثيراً ما يشوبها تنسب إلى الفتى الشرف التأثر بكتاب بولنجبروك "مفهوم الملك الوطني" (1749) الذي حث الحكام على "أن يحكموا ولا يكتفوا بأن يملكو" وأن يسنوا القوانين لتحسين الحياة الإنجليزية (15) مع "السماح للبرلمان بأن يحتفظ بالسلطات التي يملكها". وقد وصف اللورد وولد جريف جورج في عام 1758، وكان أحد معلميه، بأنه "أمين غاية الأمانة، ولكنه يفتقر إلى العزيمة، ولكنها مشوبة بعناد شديد... وفي طبعة ضرب من الشعور بالتعاسة... مما سيكون مصدراً لقلق دائم" (16). وقد لازمته هذه الصفات إلى نهاية الحقبة التي كان عقله فيها سليماً.

وبعد أن مات أبو جورج وثقت الأرملة صداقتها بجون ستيوررت، إيرل بيوت، أمين الأرواب في البيت الأميري. وكان بيوت في الثامنة والثلاثين في 1751، متزوجاً منذ خمسة عشر عاماً بماري ورتلي منتجيو ابنة الليدي ماري موننجيو الشهيرة. وفي الأعوام الأخيرة السابقة لارتقاء جورج العرش اتخذ بيوت كبيراً لأمنائه ومعلميه. وكان معجباً بعلم هذا الاسكتلندي ونزاهته، وتقبل مشورته شاكراً، ولقي منه التشجيع على إعداد نفسه للقيادة العدوانية في الحكم. وحين خطر للأمير الشاب أن يعرض الزواج على حسناء في الخامسة عشرة تدعى الليدي ساره لينوكس، أذعن في حزن ولكن في محبة لنصح بيوت بوجوب زواجه من أمير أجنبية تعينه على دعم تحالف سياسي نافع. وكتب إليه يقول "أنني أسلم مستقبلي بين يديك، وأمنع نفسي من التفكير حتى في غرامي الحبيب، وأجتز حزني في صمت، دون أن أذكرك بعد اليوم إطلاقاً بهذه القصة التعسة؛ لأنه لو فرض على الخيار بين فقد صديقي أو حبيبتني، لضحيت بالأخيرة يقيناً، لأنني أقدر صداقتك فوق أي متعة أرضية" (17) وقد أخذ جورج بيوت معه حين ارتقى العرش. وشهد ملكه خطوباً وكوارث من أفجع ما منيت به إنجلترا في تاريخها، وعليه وقع جانب من التبعة. ومع ذلك كان هو ذاته دون ريب رجلاً مسيحياً،

صفحة رقم : 14037

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> أبطال الدراما

وإنساناً مهذباً عادة، قبل لاهوت الكنيسة الإنجليكانية، وتمسك بطقوسها في إخلاص وتواضع، ووبخ واعظاً للبلطام متدحه مرة في عظة. وقد حاكى خصومه السياسيين في استعمال الرشوة، وبز معلميه في هذا المضمار، ولكنه كان مثلاً في الفضيلة في حياته الخاصة. وفي جيله الذي اشتهر بالإباحية الجنسية أعطى إنجلترا قدوة في الوفاء الزوجي كانت نقيض لحيات أسلافه وانحرافات أخوته وأبنائه. وكان آية في اللطف والعطف في ظل شيء إلا الدين والسياسة، بسيط العادات والميول وإن كان مسرفاً في العطاء. وقد منع القمار في بلاطه، وكد وكدح في الحكم بعزيمة صادقة، فكان يهتم بالتفاصيل الدقيقة، ويبعث بتعليماته لمساعدته ووزرائه مراراً كل يوم. ولم يكن بيوريتانياً متزمتاً مكتئباً، فقد أحب المسرح والموسيقى والرقص. ولم تعوزه الشجاعة: فقد حارب خصومه السياسيين بعناد طوال نصف قرن؛ وواجه جمهوراً عنيفاً من الرعاع ببسالة في 1780، واحتفظ برباطة جأشه خلال محاولتين للاعتداء على حياته. وقد أفر في صراحة بعيوب تعليمه، وظل إلى النهاية بريئاً نسبياً من الأدب والعلم والفلسفة. وإذا كان ضعيف العقل بعض الشيء فلعل ذلك مرده التواء في الجينات أو إهمال في معلميه، كما كان مرده مئات الضغوط التي تكثفت الملك.

ومن مأخذه أنه كان يغار من الأكفاء النزاعين إلى الاستقلال برأيهم ويشك فيهم. فلم يستطع قط أن يعترف لوليم بت الأول ما شعر من تفوق في الرؤية والفهم السياسيين، وفي نفوذ الحكم، وفي قوة الخطابة وبلاغتها. وقد سبق أن رأينا (18) سيرة هذا الرجل الفذ منذ دخوله البرلمان (1735) حتى انتصاره في حرب السنين السبع. وكان في استطاعته أن يكون متغطرساً عنيداً. أكثر كثيراً من جورج الثالث؛ فقد شعر أنه هو الحارس الحقيقي للإمبراطورية التي خلفت تحت قيادته؛ فلما التقى الملكان -الملك الاسمي والملك الفعلي- تلا اللقاء صراع بينهما على العرش. وكان

بت رجلاً نزيهاً لم تلوثة الرشوة التي استشرت من حوله، ولكنه لم يفكر في السياسة إلا بلغة المنعة القومية، ولم يسمح لأي عاطفة رحمة أن تثني عزمه على إحراز التفوق الأعظم لإنجلترا. وقد لقب "العامي العظيم" لا لأنه فكر في تحسين ظروف

صفحة رقم : 14038

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> أبطال الدراما

وأحوال عامة الشعب بل لأنه كان أعظم رجل في مجلس العموم؛ على أنه انبرى للدفاع عن الأمريكيين وشعب الهند ضد ظلم الإنجليز وكان كالمملك يكره النقد "غير مبال للنسيان أو الصفح" (19) وكان يأبى أن يخدم الملك إلا إذا استطاع أن يسيطر عليه، وقد استقال من الوزارة (1761) حين أصر جورج الثالث على انتهاك اتفاق إنجلترا مع فردريك وعقد صلح منفرد مع فرنسا. وإذا كان قد قهر في النهاية فإن العدو الذي قهره لم يكن غير النفرس. ويضارع تأثير بت في السياسة الإنجليزية تأثير إدموند بيرك في الفكر الإنجليزي. وقد اختفى بت من المسرح في 1778، وظهر عليه بيرك في 1761، وظل يشد انتباه المتقنين من الإنجليز في فترات متقطعة حتى عام 1794، وربما كان مولده في دبلن (1729) لأحد المحامين عقبة في طريق كفاحه للمنصب والسلطة السياسيين، فهو لم يكن إنجليزياً إلا بالتبني، ولا عضواً في أي أرسنقراطية إلا أرسنقراطية الذهن. ولا بد أن كثلكة أمه وأخته كان لها دخل في عطفه طوال حياته على كاثوليك إنجلترا وإيرلندا، وتأكيديه الذي لا بنى على الدين بوصفه حصناً لا غنى عنه للأخلاق والدولة. وقد تلقى تعليمه المدرسي في مدرسة للكويكر في بالتبور، وفي كلية ترنتي بدبلن. وتعلم من اللاتينية ما يكفي للإعجاب بخطب شيشرون وجعلها الأساس لأسلوبه البلاغي. وفي 1750 انتقل إلى إنجلترا ليدرس القانون في "مدل تميل". وقد امتدح القانون فيما بعد لأنه "علم يعين على شحذ الفهم وتنشيطه أكثر من جميع ألوان المعرفة مجتمعة" ولكنه ذهب إلى أنه "لا يصلح لفتح مغاليق العقل وتحريره بذات القدر بالضبط، اللهم إلا في أشخاص محظوظي المولد" (20) وحوالي 1775 قبض أبوه عنه الراتب الذي يمدده به بحجة أنه يهمل دراسة القانون مؤثراً عليها هوايات أخرى. ويبدو أن آدموند كان قد هوى الأدب، وكان يختلف إلى مسارح لندن وأنديتها الخطابية. وسرت أسطورة زعمت أنه هام بالممثلة الشهيرة بيج ووفنجتن. وكتب إلى صديق

صفحة رقم : 14039

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> أبطال الدراما

في 1757 يقول: "لقد كسرت كل قاعدة، وأهملت كل لياقة"، ووصف "أسلوب حياته" بأنه تتنوع فيه مختلف الخطط، فأنا في لندن، وأنا في أنحاء نائية من الريف، وأنا آخر في فرنسا، واما قريب في أمريكا أن استجاب لي الله". وفيما

خلا هذا لا نعرف عن بيرك شيئاً في سني الاختبار والتجريب تلك، اللهم إلا أنه في 1756، في تعاقب غير مؤكد، نشر كتابين رائعين وتزوج. وأحد الكتابين عنوانه "دفاع عن المجتمع الطبيعي، أو نظرة إلى ألوان الشقاء والشر التي يجرها على البشر كل نوع من أنواع المجتمع الاصطناعي، خطاب إلى اللورد-بقلم كاتب نبيل متوفي". والمقال الذي بلغت صفحاته نحو خمس وأربعين، هو في عنوانه إدانة قوية لكل أنواع الحكم. فيه من النزعة الفوضوية أكثر كثيراً مما في مقال روسو "الأصل في عدم المساواة" الذي ظهر قبل ذلك بسنة فقط. وقد عرف بيرك المجتمع الطبيعي بأنه "مجتمع أساسه الرغبات والغرائز الفطرية لا أي نظام وضعي" (21). "فتطور القوانين كان انحطاطاً" (22)، وما التاريخ إلا سجلاً للمجازر والغدر والحرب (23)، والمجتمع السياسي متهم بحق بأكبر قسط من هذا الدمار" (24). وكل الحكومات تنتج المبادئ المكيافيلية، وترفض كل الضوابط الأخلاقية، وتعطي المواطنين مثلاً مفسداً للجشع والخديعة واللصوصية والقتل (25). والديموقراطية في أثنينا وروما لم تأت بعلاج لشرور الحكم، لأنها سرعان ما انقلبت دكتاتورية بفضل قدرة زعماء الدهماء على الظفر بإعجاب الأغلبية الساذجة. أما القانون فهو الظلم مقتناً، فهو يحمي الأغنياء المتبطلين من الفقراء المستغلين (26)، ويضيف إلى ذلك شراً جديداً- هو المحامون (27) "لقد أحال المجتمع السياسي الكثرة ملكاً للقلّة". فانظر إلى حال عمال المناجم في إنجلترا، وفكر ملياً أكان من الممكن لأن يوجد شقاء كشقائهم في مجتمع طبيعي- أي قبل وضع القوانين- أفينبغي رغم ذلك أن نقبل الدولة، كما نقبل الدين الذي يساندها، على أنها قد استنزمتها طبيعة الإنسان؟ كلا على الإطلاق.

صفحة رقم : 14040

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> أبطال الدراما

" إن كانت نيتنا أن نخضع عقلنا وحريرتنا للاغتصاب المدني، فإنه لا سبيل أمامنا إلا الامتثال بكل ما نستطيع من هدوء للأفكار والتصورات السوقية (الشعبية) المرتبطة بهذا، واعتناق لاهوت السوق وسياساتهم سواء بسواء أما إذا رأينا هذه الضرورة وهمية لا حقيقية، فإننا سننذب أحلامهم عن المجتمع كما ننذب رؤاهم عن الدين، ونحرر أنفسنا حرية كاملة" (29).

وفي هذا رنين شجاع وإخلاص غاضب من راديكالي شاب، فتي متدين روحاً ولكنه يرفض اللاهوت المقرر، شديد الإحساس بما رأى في إنجلترا من فقر وانحطاط، وصاحب موهبة واعية بذاتها ولكنها لم تنزل بغير مكان ولا مقام في خضم العالم. وكل فتى يقظ يمر بهذا الطور في طريقه إلى المنصب، والثراء ثم النزعة المحافظة المرتاعة التي سنجدها في كتاب بيرك "تأملات في الثورة الفرنسية". ونلاحظ أن مؤلف "الدفاع" تخفى وراء اسم مجهول، حتى إلى حد ادعاء الموت. وقد فهم كل القراء تقريباً، بما فيهم وليم وبرتون وإيرل تشستر فيلد الكتيب على أنه هجوم صادق على الرذائل الشائعة (30)، ونسبه الكثيرون إلى الفيكونت بولنجبروك، لأن عبارة "كاتب نبيل متوفي" تنطبق عليه إذ كان قد مات عام 1751. وبعد نشر المقال بتسع سنوات رشح بيرك نفسه للانتخاب في البرلمان. وخشي أن تؤخذ فورة أيام الشباب حجة عليه، فأعاد طبع المقال في 1765 بمقدمة جاء في قسم منها "أن الغرض من القطعة الصغيرة التالية كان أن تبين أن... الأدوات (الأدبية) ذاتها التي استخدمت لتدمير الدين قد تستخدم بنجاح مماثل لقلب الحكومة" (31). وقد قبل معظم كتاب سيرة بيرك هذا التفسير على أنه تفسير صادق مخلص، ونحن لا نستطيع أن نوافقهم على رأيهم ولكن نستطيع أن نفهم جهد المرشح السياسي لحماية نفسه من تحامل الشعب، فمن منا يكون له مستقبل لو عرف ماضيه؟

ويعدل "الدفاع" بلاغة ويفوقه حدقاً وبراعة مؤلف بيرك الآخر الذي نشره في 1756 وعنوانه "تحقيق فلسفي في أصل الجليل والجميل"، وقد أضاف إليه في الطبعة الثانية "مقال في الذوق" ولسنا نملك إلا الإعجاب

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> أبطال الدراما

بشجاعة الشاب ذي السبعة والعشرين عاماً الذي عالج هذه الموضوعات المحيرة قبل "لاوكون" لسبينج بعقد كامل. ولعله استرشد باستهلال الجزء الثاني من كتاب لوكرينويس عن "الطبيعة" الذي نصه "يطيب لك حين تلطم الرياح الأمواج في خضم عجاج أن تشهد من البر ما يكابده إنسان آخر من عنق شديد، لا لأنه مبعث بهجة أن تشهد شدة أي إنسان، بل لأنه جميل أن ترى من أي الشرور أنت نفسك قد نجوت". ومن ثم يكتب بيرك: "أن العواطف المشبوبة التي تنتمي لحفظ الذات تدور حول الألم والخطر؛ فهي ببساطة عواطف مؤلمة حين تؤثر أسبابها فينا تأثيراً مباشراً، وهي مبهجة حين يكون لدينا فكرة عن الألم والخطر دون أن نكون فعلاً في ظروف كهذه... وكل ما يثير هذا الابتهاج أسميه جليلاً". ويلى ذلك أن "كل الأعمال المتسمة بالعظيم من الجهد والنفقة والبهاء جليلة.. وكذلك كل الصروح الفائقة الغنى والأبهة... لأن العقل وهو يتأملها يطبق أفكار عظم المجهود اللازم لإنتاج مثل هذه الأعمال على الأعمال ذاتها" (32). والغموض والظلام والخفاء كلها تعين على انبعاث إحساس بالجلال، ومن هنا حرص معماريي العصر الوسيط على ألا يسمحوا إلا للضوء الخافت المصفى بالتسلل إلى كتدرائياتهم. وقد أفاد القصص الرومانتيكي من هذه الأفكار كما نرى في قصة هوراس ولبول "قلعة أوترانتو" (1764) أو قصة أن رادكف "خفايا أودلفو" (1794). يقول بيرك "أن الجمال اسم سأطلقه على كل الصفات في الأشياء تثير فينا إحساساً بالمحبة والحنان، أو أي عاطفة حارة أخرى قريبة الشبه بهما (33). وقد رفض رد الكلاسيكيين هذه الصفات إلى الانسجام والوحدة والتناسب والتماثل؛ فكلنا نتفق على أن البجعة جميلة مع أن عنقها الطويل وذيلها القصير غير متناسبين مع جسمها. والجميل يكون عادة صغيراً (وبهذا يكون نقيضاً للجليل).

"لست أتذكر الآن شيئاً جميلاً لا يتصف بالنعومة" (34)، فالسطح المكسر أو الخشن، والزاوية الحادة أو النتوء الفجائي، كلها تضايقتنا وتحد من سرورنا حتى في أشياء تكون جميلة لولا هذا "ومظهر الغلظ والقوة

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> أبطال الدراما

مؤذ جداً للجمال. أما مظهر الرقة، لا بل الهشاشة، فيكاد يكون أساسياً للجمال" (35). واللون يزيد من الجمال لا سيما إذا كان متنوعاً مشوقاً، دون أن يكون وهاجاً أو قوياً... ولم يسأل بيرك هل المرأة الجميلة لأنها صغيرة الحجم ناعمة رقيقة مشرقة، أم أن هذه الصفات تبدو جميلة لأنها تذكرنا بالمرأة، التي هي جميلة لأنها تشتهى. على أية حال كانت جون نوجنت مشتهة، فتزوجها بيرك في سنة 1756 المثمرة هذه. وكانت ابنة طبيب إيرلندي. وكانت كاثوليكية، ولكنها لن تلبث أن ارتضت الإنجليكانية مذهباً. وقد لطف طبعها الدمث الرقيق من مزاج زوجها الغضوب.

وفتحت الأبواب أما بيرك بفضل تأثير أسلوب "الدفاع" و "التحقيق" إن لم يكن تأثير حججها. فعينه مركز روكنجهام سكرتيراً له، رغم أن دوق نيوكاسل حذره قائلاً أن بيرك إيرلندي متوحش، وستيوارتي، وبابوي ويسوعي مستخف(36). وفي أواخر عام 1765 انتخب بيرك لعضوية البرلمان عن دائرة وندوفر بفضل نفوذ اللورد فيرنلي، "الذي كان يمتلكها"(37). وفي مجلس العموم اشتهر العضو الجديد بأنه خطيب مفوه وأن لم يكن مقتعاً. كان صوته أجش، ولهجته هيرانية (أي إيرلندية)، وإيماءاته تعوزها الرشاقة، ونكته سوقية أحياناً، واتهاماته حارة مشبوبة في غير موجب. ولم يدرك الناس-إلا حين قرعوا له-أنه إنما يخلق أدباً وهو يتكلم-وذلك بفضل تمكنه من اللغة الإنجليزية، وأوصافه الناصعة، وسعة معرفته وشروحه، وقدرته على تطبيق الرؤية الفلسفية على قضايا الساعة. ولعل هذه المزايا كانت معوقات في مجلس العموم. ويروي لنا جولد سمث أن بعض سامريه "كانوا يحبون أن يروه يتسلل كالثعبان إلى موضوعه"(38)ولكن كثيرين غيرهم ضاقوا ذرعاً بإسرافه في التفاصيل وباستطراداته النظرية، وبخطبه المنمقة، وبجمله المتكررة الضخمة، وبتحليقاته في أجواء التناقض الأدبي؛ فهم يريدون الاعتبارات العملية

صفحة رقم : 14043

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> أبطال الدراما

والموضوعية المباشرة؛ لقد امتدحوا بيانه، ولكنهم تجاهلوا نصيحته. ومن ثم نرى جونسن يرد على بوزويل الذي شبه بيرك بالصقر فيقول: "أجل يا سيدي ولكنه لا يصيد شيئاً"(39)وقد ظل إلى نهاية حياته العملية تقريباً يدافع عن سياسات لا يستسيغها الشعب، ولا الوزارة، ولا الملك. قال: "أنا عليم بأن الطريق الذي أسير فيه ليس طريق الترفي إلى المنصب الرفيع"(40).

ويبدو أنه خلال سنوات قرأ كثيراً وقرأ بفطنة وتمييز. وقد وصفه أحد معاصريه بأنه موسوعي يفيد كل إنسان من ذخيرته العلمية. وقد أتى عليه فوكس ثناء لا حد له إذ قال: "لو أنه (أي فوكس) وضع في كفة كل المعلومات السياسية التي تعلمها من الكتب، وكل ما اكتسبه من العلم، وكل ما علمته الخبرة بالدنيا وشئونها، ثم وضع في الكفة الأخرى الفائدة التي اكتسبها من تعليم صديقه المبجل وحديثه، لاحتار أيهما يفضل"(41)أما جونسن-وهو الضنين بالمدح عادة-فقد اتفق مع فوكس فقال: "إن تستطيع الوقوف خمس دقائق مع ذلك الرجل تحت مظلة أثناء المطر، ولكنه لا بد مقتنع بأنك كنت تقف مع أعظم رجل رأيته في حياتك"(42).

وقد انضم بيرك إلى ندوة جونسن-رينولدز حوالي عام 1758. وندر أن التحم في نقاش ما الناظر الذي لا يقهر، ربما لأنه كان يخشى من حدة طبعه هو كما يخشى من حدة طبعه جونسن؛ ولكنه حين فعل، نكص "الخان الأكبر" (جونسن) على عقبيه. وحين مرض جونسن، وذكر بعضهم بيرك، صاح الدكتور "أن هذا الفتى يستنفر كل قواي، ولو رأيت بيرك الآن لكان في ذلك القضاء علي"(43). ومع ذلك كان الرجلان متفقين على معظم القضايا الأساسية في السياسة والأخلاق والدين. فقد قبلا حكم بريطانيا الأرستقراطي مع أن كليهما كان من العامة؛ واحتقر الديموقراطية لأنها تتويج للكفايات الهزلية؛ ودافعا عن المسيحية التقليدية والكنيسة الرسمية بوصفها معقلين للأخلاق والنظام لا بديل لهما. ولم يفرق بين الرجلين غير ثورة المستعمرات الأمريكية. وقد وصف جونسن نفسه بأنه محافظ (توري)، ورمى الأحرار (الهوجز) بأنهم مجرمون وحمقى.

صفحة رقم : 14044

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> أبطال الدراما

أما بيرك فزعم أنه حري، ودافع عن مبادئ المحافظين دفاعاً أقوى وأفضل تبريراً من أي رجل في التاريخ الإنجليزي.

وبدا أحياناً أنه يؤيد أكثر عناصر النظام القائم عرضة للاعتراض والمساءلة فقد عارض إحداث تغييرات في قواعد انتخاب الأعضاء أو سن القوانين. ورأى أن الدوائر الانتخابية "العفنة" أو دوائر "الجيب" (أي التي يتحكم فيها شخص أو أسرة واحدة (لا غبار عليها ما دامت ترسل رجالاً أكفاء مثله إلى البرلمان. وبدلاً من توسيع حق التصويت. رأى أنه "بخفض العدد سيزداد ثقل ناخبينا واستقلالهم" (44). ومع ذلك احتضن عشرات القضايا التحررية. ودافع عن حرية التجارة قبل آدم سميث، وهاجم النخاسة قبل ولبرفورس. ثم نصح بإزالة المعوقات السياسية المفروضة على الكاثوليك، وأيد التماس المنشقين على الكنيسة الرسمية أو يمنحوا كامل حقوقهم المدنية. وحاول أن يُلطف من صرامة قانون العقوبات الوحشية ويخفف من الأعباء التي تنوء بها حياة الجندي. ودافع عن حرية المطبوعات وإن إكتوى هو نفسه بنارها. ووقف يذود عن إيرلندا وأمريكا والهند في وجه أغلبية شوفينية. وناصر البرلمان على الملك بصراحة وجرأة أفقدته كل أمل في منصب السياسي الرفيع. وقد تختلف معه في آرائه ودوافعه، ولكن لن نستطيع الشك في شجاعته.

وقد كلفته آخر حرب شعواء شنها في حياته العملية وهي حرية على الثورة الفرنسية صداقة رجل طالما كان موضع حبه وإعجابه. وكان هذا الرجل وهو تشارلز جيمس فوكس يرد على محبته بتمثلها ويقاسمه أخطار العقل والخلق تقريباً إلا الإنسانية والشجاعة. فبيرك إيرلندي، فقير، محافظ، متدين، متمسك بالأخلاق، وفوكس إنجليزي، غني، راديكالي، لا يبقى من الدين إلا على القدر الذي يتفق والقمار والشراب والخيليات والثورة الفرنسية. كان ثالث أبناء هنري فوكس ولكنه أثرهم عنده، وقد ورث الأب ثروة، وبددها، ثم تزوج ثروة ثانية، وجمع ثالثة وهو كبير

صفحة رقم : 14045

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> أبطال الدراما

صيارفة القوات المسلحة، وأعان بيوت على شراء أعضاء مجلس العموم، وأثيب بلقب البارون هولند، وشهر به خصومه "مختلساً عاماً لملايين لا تفسير لضياعتها" (45) أما زوجته كارولين لينوكس فكانت حفيذة تشارلز الثاني من لوير ديكرواي، وهكذا جرى في عروق تشارلز جيمس الدم المخفف لملك استيوارتي خليع وامرأة فرنسية ذات مبادئ أخلاقية متسامحة. وكانت أسماؤه ذاتها ذكريات استيوارنية، ولا بد أنها كانت تخدش مسامع الهانوفريين. وحاولت الليدي هولند أن تنتشئ أبناءها على النزاهة والشعور بالمسئولية، أما اللورد هولند فقد تسامح مع تشارلز في كل نزواته، وقلب من أجله الحكم المأثور رأساً على عقب: "لا تعمل أبداً ما تستطيع تأجيله إلى الغد، ولا تقم بنفسك أبداً بعمل تستطيع أن تجعل إنساناً غيرك يقوم به لك". وما كاد الصبي يناهز الرابعة عشرة حتى أخذه أبوه من كلية إيتن في رحلة أوروبية طاف بها على أندية القمار والمنتجعات المعدنية، ورتب له خمسة جنياها إنجليزية في الليلة للعب القمار. وعاد الفتى إلى إيتن مقامراً راسخ القدمين، وواصل اللعب في أكسفورد. وقد وجد متسعاً من الوقت لإدمان الاطلاع على الآداب الكلاسيكية والإنجليزية على السواء، ولكنه غادر أكسفورد بعد عامين لينفق عامين في الرحلات وتعلم الفرنسية والاطليانية، وبدد 16.000 جنيه في نابلي، وزار فولتير في فرنیه، وتلقى منه قائمة بكتب

تتبره في اللاهوت المسيحي(47). وفي 1768 اشترى له أبوه دائرة انتخابية، واتخذ تشارلز مقعداً في البرلمان وهو في التاسعة عشرة. وكان هذا مخالفاً كل المخالفة للقانون، ولكن المعجبين من النواب بسحر الشاب الشخصي وتراثه المرتقب كانوا من الكثرة بحيث لم ينجح أي احتجاج على عضويته. وبعد عامين، وبفضل نفوذ أبيه، عين وزيراً للبحرية في وزارة اللورد نورث. وفي 1774 مات الأب والأم وابن أكبر منه، وغدا تشارلز المتصرف الوحيد في ثروة عريضة. وقد شاب مظهره البدني في السنوات نضجه من التسبب ما شاب أخلاقه. فجواريه مرخاة الأربطة، وسترته وصدرته مجعدتان، وقميصه مفتوح عند

صفحة رقم : 14046

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> أبطال الدراما

العنق، ووجه منتفخ محتقن بالإسراف في الطعام والشراب، وكرشه المتضخم يوشك أن يندلق على ركبتيه وهو جالس. وحين نازل وليم آدم في مبارزة رفض نصيحة شاهده بأن يتخذ الوقفة الجانبية المعتادة، إذ قال "أنني غليظ في ناحية غلظي في الأخرى"(48) ولم يحاول إخفاء عيوبه. وكان من الأقاويل الشائعة عنه أنه أثبت أنه ضحية محببة للنصابين والمحتالين من المقامرین. وذات مرة (في رواية جبون) قامر اثنتين وعشرين ساعة في جلسة واحدة خسر فيها 200.000 جنيه. ومن أقوال فوكس أن أعظم اللذات في الحياة بعد الربح هي الخسارة(49). وكان يملك أسطبلًا لخيول السباق، ويراهن بمبالغ كبيرة عليها، وقد كسب منها أكثر مما خسر (كما يريدنا أن نصدق)(50). وكان أحياناً متسبباً في مبادئه السياسية تسيبه في مبادئه الخلقية وهندامه؛ فقد سمح غير مرة لمنافعه أو خصومته الشخصية أن تقرر مسلكه. وكان أميل إلى الكسل، ولم يكن يعد خطة أو مشروعات قوانينه البرلمانية بالعناية والدرس اللذين تميز بهما بيرك. وكان يملك في ميدان الخطابة مزايا قليلة، ولم يلتمس غيرها. وكثيراً ما كانت خطبه عديمة الشكل كثيرة التكرار، صادمة للنجاة أحياناً. ويقول عنه رتشارد بورسن "كان يقذف بنفسه في مععان جملة ويكل إليه تعالى مهمة إخراجها منها"(50). ولكنه وهب من سرعة البديهة وقوة الذاكرة ما جعله بالإجماع أقدر مناقش في مجلس العموم. وكتب هوراس ولبول "أن تشارلز فوكس أسقط ساتوون (شاتام) العجوز عن عرش الخطابة"(52). وكان معاصرو فوكس متسامحين في أخطائه لأن كثيرين شاركوه فيها، وقد أجمعوا تقريباً على الشهادة بفضائله. فقد ظل معظم حياته بعد عام 1774 أميناً للقضايا التحررية مضحياً في سبيلها تضحيات تستهين بالترقي في المنصب وبالشعبية. أما بيرك الذي كان يحتقر الرذيلة فقد أحب فوكس رغم ذلك لأنه رآه مخلصاً في غير أنانية للعدالة الاجتماعية والحرية الإنسانية. قال بيرك "أنه رجل خلق ليحب، ذو طبع غاية في البراءة والبساطة والصرامة وحب الخير، نزيه في اسراف، له مزاج لطيف سمح إلى حد الإفراط،

صفحة رقم : 14047

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> أبطال الدراما

ليس في كيانه بأسره ذرة حقد واحدة (53) وقد أتفق معه جيون فقال "علله لم يوجد مخلوق أكثر منه تجرداً من لوثة الحقد أو الغرور أو الكذب" (54). ولم يتمتع على هذه الجاذبية التلقائية والسحر الفطري في الرجل غير جورج الثالث. وارتبط ببيرك وفوكس في قيادة عنصر الهوجز التحرري إيرلندي ثان هو ريتشارد برنزي شريدان. وقد نشر جده توماس شريدان الأول مترجمات عن اليونانية واللاتينية، كتاباً سماه "فن التورية"، ربما سرت عدواه إلى حفيده. أما أبوه توماس شريدان الثاني فكان في رأي البعض لا يفوقه غير جاريك ممثلاً ومديراً للمسرح. وقد تزوج فرانسيس تشيمبرلن، وكانت كاتبة مسرحية وروائية ناجحة. ونال الدرجات العلمية من دبلن وأكسفورد وكمبردج، وحاضر في كمبردج في التعلم؛ وكان الواسطة في الحصول على معاش ملكي لجونسن، وحصل على معاش لنفسه. وألف كتاباً مسلياً عن "حياة سويفت" وغامر بنشر "قاموس عام في اللغة الإنجليزية" (1780) ولما ينقض على نشر قاموس جونسن غير خمسة وعشرين عاماً. وأعان ابنه على إدارة مسرح دوروري لين، وشهده يصعد في دنيا الرومانس والأدب والبرلمان.

وهكذا أتاحت لريتشارد عناصر التفوق الفكري والدراما في بيئته إن لم يكن في دمه. وقد ولد في دبلن (1751)، حين بلغ الحادية عشرة أوفد إلى هارو حيث أقام ست سنين واكتسب تعليماً كلاسيكياً جيداً؛ وحين بلغ العشرين ردد صدَى جده بنشره مترجمات عن اليونانية. وفي علم 1771 ذلك بينما كان يعيش في باث مع والديه، وهام حباً بوجه إليزابث آن لنلي الجميلة وصوتها، وكانت في السابعة عشرة، تغني في الحفلات الموسيقية التي يقدمها أبوها المؤلف توماس لنلي. والذين رأوا لوحة من اللوحات التي رسمها لها جينزبرو (55) يدركون أنه لم يكن أمام ريتشارد من سبيل إلا الهيام والإنتشاء، ولا أمامها هي أيضاً إذا صدقنا أخته، إذ رأته فتى مليحاً محبباً على نحو لا يقاوم. "كان خداه يشرقان ببريق العافية، وعيناه أبدع العيون

صفحة رقم : 14048

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> أبطال الدراما

في العالم... وله قلب رقيق محب... وقد شرح صدر أفراد الأسرة وأبهجهم ما اتسمت به كتاباته فيما بعد من خيال عابث وظرف أصيل ودعابة لا تؤذي. ولقد أعجبت به، بل أوشكت أن أعبد. وما كنت لأتردد في أن أضحي بحياتي من أجله" (56).

وكان لإليزابث أن خطاب كثيرون، ومنهم تشارلز أخو ريتشارد الأكبر، واشتدت مضايقاته حتى أفضت بها إلى تعاطي الأفيون بغية قتل نفسها. ثم تماثلت للشفاء، ولكنها فقدت الرغبة في الحياة حتى أنعش الحب ريتشارد روحها المعنوية من جديد. وهدد ماثيوز باغتصابها، فهربت مع شريدان إلى فرنسا بدافع الخوف والحب معاً، وتزوجته (1772)، ثم لجأت إلى دير قرب ليل في حين عاد ريتشارد إلى إنجلترا ليسترضي أباه وأباها. ونازل ماثيوز في مبارزتين، وقد أبقى على حياة ماثيوز في الأول بعد أن انتصر عليه، أما في الثانية فقد أعجز خصمه عن النزال لأنه كان ثملاً بالخمر، وهبط بالمبارزة إلى درك المصارعة ثم عاد إلى باث ملطخاً بالدم والخمر والوحل. وتبرأ منه أبوه، ولكن توماس لنلي أعاد إليزابث أن من فرنسا وبارك زواجهما (1773).

وشرع ريتشارد وهو في الثانية والعشرين في جمع المال بكتابة التمثيليات إذ أبت عليه كيرياؤه أن يترك زوجته تعوله بالغناء أمام الجمهور. وهكذا أخرجت أولى تمثيلياته "المزاحمون" في 17 يناير 1775 في كوفنت جاردن. وكان حظها سيئاً تمثيلاً واستقبالا، ثم وفق شريدان إلى ممثل أكفأ يلعب الدور الرئيسي، وكان العرض الثاني (28 يناير) بداية لسلسلة من الانتصارات المسرحية التي حققت الشهرة والثراء لشريدان. وسرعان ما راحت لندن كلها تتحدث

عن السير انتوني أسبوليت، والسير لوئيس أوتريجر، والآنسة ليديا لانجويش، وتقلد خط السيدة مالا يروب بين الألفاظ (58).

صفحة رقم : 14049

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> أبطال الدراما

وكان شريدان يملك معيماً لا ينضب من النكت في رأسه، ينثرها على كل صفحة، ويخلع الذكاء والظرف على الخدم والاتباع، وجعل الحمقى يتكلمون كالفلاسفة. ولامه النقاد لأن شخصه لم تكن دائماً متوافقة مع حديثها، لأن النكت والدعابات التي تفرقع في كل مشهد وتندفق في كل فم تقريباً قد أثلمت لذعها بالإفراط؛ لا ضير، فقد استناب النظارة هذا المرح، وهم يستطيّبونه إلى يومنا هذا.

ثم أحرزت مسرحيته "القهرمانة" نجاحاً أعظم حتى من نجاح "المزاحمون"، وقد قدمت أول مرة في 2 نوفمبر 1775 على مسرح كوفنت جاردن، واستمر عرضها خمساً وسبعين ليلة في موسمها الأول، فحطمت بذلك الرقم القياسي الذي حققته "أوبرا الشحاذ" في 1728، وهو ثلاث وستون ليلة وهالت هذه المنافسة المثيرة دبفد جاريك الذي كان يمثل على مسرح دروري لين، ولكنه لم يستطع أن يجد رداً سريعاً لاذعاً أفضل من إحياء "الاكتشاف" وهي تمثيلية من تأليف أم شريدان التي ماتت قبيل ذلك. وانتشى شريدان بخمرة النجاح، فعرض على جاريك أن يشتري نصيب النصف الذي يملكه في دروري لين؛ وأحس جاريك بأنه تقدم في العمر، فوافق نظير 35.000 جنيه؛ وأقنع شاريدان حماه وصديقاً له أن يساهم كل منهما بمبلغ 10.000 جنيه؛ أما هو فدفع 1.300 جنيه نقداً، ثم جمع الباقي بقرض (1776). وبعد عامين جمع 35.000 جنيه أخرى، وأصبح مالكاً للمسرح هو وشركاؤه، ثم تولى إدارته. وظن الكثيرون أن ثقته بنفسه جاوزت الحد، ولكن شريدان انتقل إلى نصر حين أخرج (8 مايو 1777) "مدرسة الفضائح" وهي أعظم مسرحيات القرن الثامن عشر نجاحاً. واصطلى أبوه الآن معه بعد أن كان غاضباً عليه منذ فر بحبيته قبل خمس سنوات. وتالا هذه الانتصارات فترة توقف في صعود نجم شريدان. ذلك أن العروض التي قدمت على دروري لين تبين أن الجمهور لا يقبل عليها، ورع الشركاء شبح الإفلاس. وأنفذ شريدان الموقف بمهزلة "فارص" سماها "الناقد" وهي هجاء للدرامات

صفحة رقم : 14050

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> أبطال الدراما

الفاجعة ونقاد الدراما المقطعين. على أن بطأه المؤلف تدخل، فلم يكن قد كتب المشهد الأخير مع أن الافتتاح المحدد لم يبق عليه غير يومين. واستطاع حموه وآخرون بخدعة أن يستدرجوه إلى حجرة في المسرح، وأعطوه ورقاً وقلماً وحبراً وخمراً، وأمره بالفراغ من التمثيلية، وحبسوه في الحجرة. فخرج ومعه النهاية المطلوبة، فجرّبها الممثلون

ووجدت وافية للغرض، وكان العرض الأول (29 أكتوبر 1779) ابتساماً أخرى جاد بها الحظ على الإيرلندي المتحمس.

ثم تلفت من حوله باحثاً عن عوالم جديدة يغزوها، وقرر أن يدخل البرلمان. ودفع لناخبي ستافورد خمسة جنيهات إنجليزية لكل صوت، وفي 1780 اتخذ مكانه في مجلس العموم لبرلياً متحمساً. وشارك فوكس وبيرك في اتهام وارن هيبستجز، وفي يوم واحد رائع سطع نوره فحجب نورهما جميعاً، وكان أثناء هذا يعيش مع زوجته المثقفة في هناة وبذخ، مشهوراً بحديثه، وظرفه وحيويته، ولطفه، ودبونه. وقد لخص اللورد بايرون هذه العجيبه فقال "كل ما فعله شريدان، أو يريد أن يفعله، رائع، والأفضل من نوعه دائماً. لقد كتب أفضل كوميديا، وأفضل دراما... وأفضل فارص... وأفضل خطاب (مونولوج عن جاريك)، تتوجاً لهذا كله، ألقى أفضل خطبة... تصورها الناس أو سمعها في هذا البلد" (59). ثم أنه كان قد ظفر بحب نساء إنجلترا إلى القلوب واحتفظ بهذا الحب.

كان شاريدان كله الخيال والشعر، ومن العسير أن نصوره في عالم وليم بي الثاني وفي جيله نفسه، ذلك الرجل الذي لم يعترف إلا بالواقع، وسما فوق العاطفة وحكم بغير البلاغة. وقد ولد (1759) في أوج مجد أبيه، وكانت أمه أخت جورج جرنفيل، رئيس الوزراء 1763-65؛ رضع السياسة منذ حدثته، وترعرع في جو البرلمان. وإذا كان هساً عالياً في طفولته، فقد أبعد عن ممارسات المدارس "الخاصة" الصارمة واتصالاتها المهينة لحياة المجتمع، فربي في البيت بإشراف أبيه الدقيق، الذي علمه طريقة الإلقاء بأن جعله يتلو شكسبير أو ملتن كل يوم. فما ناهز العاشرة حتى كان دارساً

صفحة رقم : 14051

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> أبطال الدراما

كلاسيكياً ومؤلفاً لمأساة. ثم أرسل إلى إيلي كامبرج حين بلغ الرابعة عشرة، فلم يلبث أن مرض، فعاد إلى بيته، وبعد عام ذهب ثانية، وإذا كان ابناً لشريف من كبار الأشراف فقد تخرج أستاذاً في الآداب عام 1776 دون امتحان. ثم درس القانون في لنكولنزان، ومارس المحاماة برهه قصيرة، ثم رشح للبرلمان في الحادية والعشرين عن دائرة جيب يهيمن عليها سير جيمس لودز. وكان خطابه الافتتاحي في البرلمان مؤيداً تأييداً قوياً لما اقترحه بيرك من إصلاحات اجتماعية حتى أن بيرك وصف بأنه "ليس شطية من الشجرة العجوز (أي سر أبيه) بل هو الشجرة العجوز بعينها" (60).

وإذا كان الابن الثاني لأبيه، فإنه لم ينل غير 300 جنيه راتباً سنوياً، مع المعونة بين الحين والحين من أمه وأخواله؛ وقد شجعت هذه الظروف البساطة الصارمة في سلوكه وخلقه. فتجنب الزواج لأنه نذر نفسه بحملته للسعي إلى السلطان. ولم يلذ قمار ولا مسرح. ومع أنه في مرحلة لاحقة أفرط في الشرب تهدئة لأعصابه بعد صخب السياسة وضجيجها إلا أنه اكتسب شهرة بنقاء الحياة ونزاهة المقصد؛ وكان في وسعه أن يشتري، دون أن يكون في وسع أحد أن يشتريه. وما سعى قط إلى الثراء، وندر أن يذل تنازلات للصدقة، ولم تكتشف غير قلة حميمة، وراء تحفظه البارد وضبطه لمشاعره، ما خفي من مرح ودود، بل من حنان ومحبة في بعض الأحيان.

وفي مطامع عام 1782، حين أوشتك وزارة اللورد نورث على الاستقالة ضمن "الصبي" - كما لقب بعض النواب بت في تعطف - أحد خطبه إعلاناً فيه شيء من الغرابة: "أما عن نفسي، فلا يمكن أن أتوقع أن أكون عضواً في حكومة جديدة، ولكن لو كانت هذه العضوية في متناولي فإنني لزاماً علي أن أعلن أنني لن أقبل أبداً منصباً ثانوياً" (61)، أي أنه لن يقبل منصب أدنى من المقاعد الستة أو السبعة التي ألغت ما أصبح يسمى "مجلس الوزراء". فلما عرضت الوزارة الجديدة أن تعينه نائباً لوزير خزانة إيرلندا بمرتب 5.000 جنيه في العام رفض، وواصل العيش على إيراده البالغ 300 جنيه. وكان واثقاً من التقدم، وأمل أن يظفر به بفضل كفايته الشخصية، فعكف على العمل بهمة، وأصبح أكثر أعضاء مجلس

صفحة رقم : 14052

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> أبطال الدراما

العموم اطلاقاً في ميادين السياسة الداخلية، والصناعة، والمالية. وبعد عام من إعلانه الفخور قصده الملك لا ليكون مجرد عضو في الحكومة بل ليرأسها. ولم يحظر رجل قط قبله برأسه الوزارة وهو في الرابعة والعشرين؛ وقل من الوزراء من ترك على التاريخ الإنجليزي بصمة أعمق مما ترك.

صفحة رقم : 14053

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> الملك ضد البرلمان

3- الملك ضد البرلمان

اختتم جورج الثاني ملكه الذي استغرق ثلاثة وثلاثين عاماً بشعور من النفور البين من السياسة الإنجليزية "لقد سئمت حتى الموت كل هذا الهراء الأبله، وأتمنى من كل قلبي أن يأخذ الشيطان كل أساقفتكم، وأن يأخذ الشيطان وزراءكم، وأن يأخذ الشيطان الجزيرة كلها، على أن أخرج منها وأذهب إلى هانوفر" (62). وقد ألقى راحته في 25 أكتوبر 1760، ودفن في كنيسة وستمنستر.

ولقي ارتقاء جورج الثالث العرش يوم وفاة جده الترحيب الحماسي من كل الإنجليز تقريباً ما عدا قلة ما زالت تواقفة إلى أسرة ستيوارت. وكان في الثانية والعشرين، فتى وسيماً، مجتهداً، متواضعاً. (كان أول ملك إنجليزي منذ حكم هنري السادس يسقط من لقبه دعوى السيادة على فرنسا). وفي خطابه الأول للبرلمان أضاف إلى النص الذي أعده له وزراؤه كلمات ما كان أحد أسلافه الهانوفرين يستطيع أن يفوه بها: "أنني وقد ولدت وربيت في هذا البلد لأفخر بأنني بريطاني". كتب هوراس وليول يقول: أن الملك الشاب يبدو عليه كل مظهر اللطف. ففيه كثير من الكياسة الذي يخفف من الوقار الشديد، وطيبة فائقة تتفجر في جميع المناسبات" (63). وقد زاد من حب الشعب له بالإعلان الذي أصدره في 31 أكتوبر "التشجيع التقوى والفضيلة، ولمنع وعقاب الرذيلة، والتبذل والأخلاقية". وفي 1761 تزوج شارلوت صوفيا أميرة مكلنبورج-ستريلتس، وقد ارتضى

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> الملك ضد البرلمان

خلوها من الجاذبية، فأنجب منها خمسة عشر طفلاً، ولم يجد وقتاً لخيانتها وكان هذا أمراً لا سابقة له في الملوك الهانوفرين.

ولم يحب حرب السنين السابع، يوم كان في الرابعة من عمره، وأحس أن في الإمكان الوصول إلى تسوية ما مع فرنسا. ولكن وليام بت الأول، وزير الدولة للإدارة الجنوبية، والشخصية المسيطرة في وزارة الدوق نيوكاسل، أصر على مواصلة الحرب حتى توهم فرنسا وهنا أمل لها معه في تحدي الإمبراطورية التي خلقتها الانتصارات البريطانية في كندا والهند؛ وقد ألح فوق ذلك على ألا يعقد صالح إلبرضى فردريك الأكبر حليف إنجلترا. وفي مارس 1761 عين الأيرل بيوت وزير الدولة للإدارة الشمالية، وشرع في تنفيذ خطة لعقد صلح منفرد. وعبثاً قاوم بت، فاستقال في 5 أكتوبر. وطبيب جورج خاطره بمعاش قدره 3.000 جنيه له ولوريثه، ولقب الشرف لزوجته التي أصبحت الآن البارونة شاتام. وقد رفض بت (حتى عام 1766) النبالة لنفسه لأنه لو حصل عليها لأبعدته عن ساحة عراكه المحببة وهي مجلس العموم. وإذا كان قد أبدى احتقاره للمعاشات، فقد انتقد بشدة على قبوله هذه الرواتب، ولكنها كانت أقل مما كان يكسب، وقد نال آخرون أكثر كثيراً منها مع أنهم يكسبون أقل منه كثيراً.

وفي 26 مايو 1762 اعتزل الدوق نيوكاسل منصبه بعد أن شغل مكاناً مرموقاً في السياسة طوال خمسة وأربعين عاماً. وبعد ثلاثة أيام خلفه بيوت وزيراً أول. واتخذت الآن أهداف الملك الشاب شكلاً ودفعاً. فرأى هو وبيوت أن من حق الملك أن يقرر الخطوط الكبرى للسياسة لا سيما في الشؤون الخارجية. أضف إلى ذلك أنه كان تواقاً إلى كسر سلطان بعض الأسر الغنية على الحكومة. وفي 1761، حث عضو قديم في حزب الأحرار يدعى وليام بلنتي، إيرل باث، في نبذة غفل عن اسم كاتبها، الملك على ألا يقنع بـ "ظل الملكية، بل يستعمل" امتيازاته القانونية "في كبح جماح" "الدعاوي غير القانونية للأولجركية المتحيزة" (64).

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> الملك ضد البرلمان

وكانت الأغلبية في مجلس العموم تذهب إلى أن على الملك أن يختار وزراءه من الزعماء المعترف بهم للحزب أو العصابة الفائزة في الانتخابات. وأصر جورج على حقه الشرعي في اختيار وزراءه دون اعتبار للحزب، ودون قيود عليه إلا مسئوليته أما الشعب. وكان الأحرار هم الذين دبروا ارتقاء ناخب هانوفر لعرش إنجلترا، وكان بعض المحافظين قد تفاوضوا مع الاستيوارتيين المنفيين. لذلك لم يكن بد من أن يقتصر جورج الأول والثاني في اختيار وزراءهما على الأحرار، وكان أكثر المحافظين قد اعتزلوا في ضياعهم. ولكنهم في 1760 قبلوا الأسرة المالكة الجديدة، وأقبلوا في نفر كبير ليقدّموا ولاءهم للملك البريطاني المولد.

ورحب بهم جورج، ولم ير مبرراً لعدم تعيينه المحافظين الأكفاء كما يعي الأحرار الأكفاء في المناصب الوزارية. واحتج الأحرار بأنه لو كان الملك حراً في اختيار الوزراء وتقرير السياسة دون أن يكون مسئولاً أمام البرلمان لكان

هذا انتهاكاً لمرسوم الحقوق الصادر في 1689، ولصعدت سلطة الملك من جديد إلى المستوى الذي ادعاه تشارلز الأول، ولبطل مفعول ثورتي 1642 و1688. أن للنظام الحزبي عيوبه، ولكنه (في رأي الزعماء) لا غنى عنه للحكومة المسؤولة، فهو يوفر لكل وزارة معارضة تراقبها، وتنتقدها، وتستطيع (إذا شاء الناخبون) أن تحل محلها رجالاً مهياًين لتغيير السياسة دون الإخلال باستقرار الدولة. وهكذا تكونت الخطوط لأول صراع كبير بين القوى في الحكم الجديد.

وتحمل بيوت وطأة المعركة. وكان أكثر النقد يعفي الملك، ولكنه لم يعفي أمه، فاتهمتها الأهاجي الساخرة بأنها خلية بيوت، وأثار هذا التشهير الملك فغضب غضبة مضرية. وعقد بيوت صلحاً منفرداً مع فرنسا، ثم كف عن تقديم المعونة المالية لبروسيا ليكره فرديريك على الإذعان، فوصفه فرديريك بالوغد الخسيس، وواصل القتال، أما الشعب الإنجليزي فرغم سروره لأن الحرب وضعت أوزارها إلا أنه ندد بالصلح لأنه أفرط في اللين مع فرنسا المغلوبة؛ وسخط بت عليه، وتنبأ بأن فرنسا

صفحة رقم : 14056

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> الملك ضد البرلمان

التي خرجت من الحرب ببحريتها سليمة لم يمسهما سوء ستستأنف الحرب على إنجلترا عما قليل-وهو ما فعلته في 1778. وصدق مجلس العموم على المعاهدة، فأغلبية 319 ضد 65. واعتببت أم جورج بانتصار الإرادة الملكية وقالت "أن أبنى الآن ملك على إنجلترا حقاً وفعالاً" (66).

كان الملك الجديد حتى الآن يشتهر بالنزاهة. ولكنه حين رأى الأحرار يشتررون الأصوات البرلمانية، ويستأجرون الصحفيين لمهاجمة سياساته، صمم على أن يبزه في هذا المضمار. فسخر ماله وقوة رعايته لإغراء المؤلفين من أشباه سمولت بالدفاع عن أهداف الوزارة وتصرفاتها. ولعل بيوت كان يفكر في أمثال هذه الخدمات حين أقنع الملك في يوليو 1762 بأن ينفج صموئيل جونسن بمعاش، ولم يخب ظنه في الكاتب. ولكن ما من متشيع للوزير استطاع أن يضارع خطب جون ولكس اللاذعة الذكية، أو هجائيات تشارلز تشرشل الضارية، أو قدح "جوننيوس" الغفل من التوقيع. "وظهرت الآن كل يوم، نثرأ وشعراً، طعون في البلاط فاقت في جرأتها وغلها أي طعن نشر لسنوات كثيرة" (67).

وأخذ البرلمان نقود الملك وأعطاه أصواتاً، ولكنه كره كبير وزرائه، لأنه اسكتلندي لم يرق إلى مقام السلطة جزاء على خدمة طويلة لحزب من الأحزاب في مجلس العموم. واشتد شعور الكراهية لإسكتلندة في إنجلترا التي لم تنزل تذكر غزو 1745 الاسكتلندي. ثم أن بيوت كان قد أعقد الغنائم السياسية على بني جلدته: فعين روبرت آدم معمارياً للبلاط، والن رمزي مصوراً للبلاط (متجاهلاً رينولدز)؛ وأجرى معاشاً على جون هيوم الكاتب المسرحي الإسكتلندي، في حين صن على توماس جراي بكرسي الأستاذية. وأعربت جماهير لندن عن شعورها بشنوق جزمة عسكرية ثقيلة Jackboot أو إحراقها (كناية عن Bute) وبالهجوم على مربكة الوزير، فكان يضطر إلى إخفاء وجهه حين يختالف إلى المسرح. ونفرت أهل الريف منه ضريبة فرضها على عصير التفاح (السيدر)، فبات بيوت أبغض وزير وعاه التاريخ الإنجليزي. فلما أن عجز عن التصدي لهذا السيل

صفحة رقم : 14057

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> الملك ضد البرلمان

الجارف، وتحطم بدنأ وروحاً، وأدرك أنه لا يصلح لمعارك السياسة ودسائسها، استقال (8 أبريل 1763) بعد أقل من سنة وهو كبير وزراء الملك.

أما خلفه جورج جرنفل فعانى من خطوب ثلاثة: فقد هاجمه في الصحف جون ولكس الذي لا يقهر (1763 وما بعدها)؛ وحصل على موافقة البرلمان (مارس 1765) على قانون الدمغة الذي كان أول ما نفر المستعمرات الأمريكية؛ وأصيب في عهده جورج الثالث بأول نوبات جنونه. ذلك أن إخفاق بيوت واستقالته حطما أعصاب الملك وفلا عزيمته، ولم يسبغ عليه زواجه أي سعادة، وكان جرنفل معتداً برأيه إلى حد مؤلم، لا بل يكاد يكون مسيطراً. ثم تماثل جورج للشفاء بعد قليل، ولكنه لم يعد بعدها يشعر بأن فيه من العافية ما يكفي لمقاومة أولجركية الأحرار التي هيمنت على معظم البرلمان والصحافة. فلجأ إلى حل وسط، ودعا المركز روكنجهام وهو من الأحرار لتأليف وزارة جديدة.

وشرع المركز بموافقة البرلمان خلال سنة عدة قوانين مهدئة، ربما عملاً باقتراحات أشار بها سكرتيره إدموند بيرك. فألغيت أو عدلت ضريبة الدبس (السيدر)، وألغيت ضريبة الدمغة، وأعان التجارة إبرام معاهدة مع روسيا، وهدئ الهياج الذي نشب حول ولكس، ويبدو أن هذا التشريع لم تسخر الرشوة لدفعه قدماً. أما الملك فقد ساءه إلغاء الضريبة، والتنازلات التي قدمت لولكس؛ وعليه ففي 12 يوليو 1766 أقال وزارة روكنجهام، وعرض النبالة على بت، وطلب إليه أن يضطلع بالحكم. ووافق بت.

غير أن "نائب العموم العظيم" كانت صحته قد تضععت، وكذلك عقله. وضحى الآن بما بقي له من شعبيته بقبوله لقب إيرل شاتام، فتخلى بذلك عن مكانه في مجلس العموم. وكان له في هذا بعض العذر: فقد أحس بأنه أضعف من أن يثبت لتواترات مجلس العموم وصراعاته، أما مجلس اللوردات فسيتاح له فيه فراغ أكثر وسيكون التوتر فيه أقل. واتخذ منصباً هادئاً نسبياً هو منصب وزير الخاتم الملكي، وسمح لصديقه دوق جرافتن

صفحة رقم : 14058

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> الملك ضد البرلمان

أن يشغل منصب الرئيس الأعلى للخزانة، وهو أبرز المناصب الوزارية اسماً. على أن زملاء بت لاحظوا أنه يقرر السياسة دون أن يشاورهم أو رغم معارضتهم، وقد تنفس كثيرون الصعداء حين ذهب إلى بات ملتسماً تهدئة آلام النقرس الذي يشكوه. وقد حقق هذا الهدف ولكن بعقاقير شوشت عقله. فلما عاد إلى لندن لم يكن في حال تسمح له بالاهتمام بالسياسة. وفي أكتوبر 1768 استقال، وأصبح جرافتن كبيراً للوزراء. وفي فترة الفوضى السياسية هذه (1766-68) تكثرت لفيف عرفوا بـ "أصدقاء الملك" ليدعموا أهداف الملك. فأرشدوا جورج في توزيع الغنائم لقاء تأييد ناتليها لسياسته، واستخدموا كل وسيلة لانتخاب مرشحين وتقديم وزراء موالين للأراء الملكية. فلما تورط جرافتن في مصاعب وأخطاء فاضحة ضاعفوا من ارتبائه حتى استقال (27 فبراير 1770). وفي 10 فبراير أحرزوا أعظم نصر لهم إذ بدأ فردريك نورث سني خدمته الأثنتي عشرة وزيراً للخزانة (وهو معروف لنا اللورد نورث، وإن لم يرث هذا اللقب إلا في 1790).

كان نورث رجلاً ضعيفاً وإن لم يكن شريراً. وإحساسه بالولاء والرحمة هو الذي أبقاه في منصبه وأكسبه مكاناً غير كريم في التاريخ. وقد ابتسم له الحظ لأنه كان ابن إيرل جلفورد، فحظي بكل مزايا التعليم والاختلاط بالمجتمع الراقى، وأصبح نائباً في مجلس العموم ولما تجاوز الثانية والعشرين، واحتفظ بمقعده في قرابة أربعين عاماً. وأكتسب صداقة الكثيرين بفضل تواضعه ولطفه ودمائته وظرفه ولكنه اتبع الجانب المحافظ في ثبات غالى فيه حتى لم يسر أحداً سوى الملك. فقد أيد قانون الدمغة وطرد ولكس، وواصل الحرب مع أمريكا (إلى مراحلها الأخيرة) ودافع عن سياسات جورج الثالث حتى وهو يشك في حكمها، وعد نفسه عاملاً للملك،

صفحة رقم : 14059

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> الملك ضد البرلمان

لا عاملاً للبرلمان فضلاً على أن يكون عاملاً للشعب؛ ويبدو أنه كان مخلصاً في اعتقاده أن للملك الحق التشريعي في اختيار وزرائه وتوجيه السياسة. وبفضل نورث ولباقته في سياسة مجلس العموم وبفضل استخدام الأموال التي أقرها البرلمان-حكم جورج الثالث إنجلترا طوال عقد من ذلك القرن، وعن طريق عملاء نورث اشترى المقاعد والأصوات، وباع المعاشات والمناصب، وأعان الصحفيين بالمال، وحاول أن يقيد الصحافة بالأغلال. وأنه لمحط لشجاعته وعناده أن تتطلب هزيمته كتل جهود جون ولكس، و "جونوس"، وبيرك، وفوكس، وشريدان، وفرانكلن، وواشنطن ضد ليقهروه.

صفحة رقم : 14060

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> البرلمان ضد الشعب

4- البرلمان ضد الشعب

نقر في يومية جيون بتاريخ 23 سبتمبر 1762: "تناول الكولونيل ولكس الغداء معنا... وندر أن التقيت في حياتي برفيق خير منه. فقد أوتي حيوية لا ينضب معينها وذكاء وروح فكاهة لا حد لهما، وقدراً وافراً من المعرفة، ولكنه كان معنأ في الخلاعة والمجون مبدأ وممارسة على حد سواء: فخلقه معيب، وحياته تلوثها كل الموبقات، وحديثه طافح بالتجديف والبذاءة ثم هو فخور معتز بهذه الأخلاق-لأن الخجل ضعف تغلب عليه منذ أمد بعيد. وقد أخبرنا هو نفسه أنه مصمم في فترة الانشقاق العام أن يصبح ثرياً" (69).

هذا رأي محافظ كان يقترح في صف الحكومة طوال الأعوام الثمانية التي كان فيها عضواً في مجلس العموم، ولم يستطع أن يتعاطف بسهولة مع عدو سافر للبرلمان والملك، فياض بالحيوية... على أن ولكس لو سئل لسلم بمعظم هذه التهم. ذلك أنه كان قد نبذ أخلاقيات المسيحية كما نبذ لاهوتها، واستمتع بالجرم بمذهبه في اللذة أمام نواب يشاركونه أخلاقه ولكنهم يفزعون من صراخه.

صفحة رقم : 14061

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> البرلمان ضد الشعب

كان جون ولكس ابناً لمقتر ملت في كلاركنبيل بشمالي لندن. تلقى تعليماً حسناً في أكسفورد ولايدن، كفى لإثارة دهشة جونسن من إمامه بالأداب الكلاسيكية ومن تأدبه بـ "آداب السادة" (70) فلما بلغ العشرين تزوج "سيده تكبرني مرة ونصف"، ولكنها "ذات ثراء عريض" (71) وكانت من جماعة المنشقين على الكنيسة الإنجليكانية، وتميل إلى التقوى المكتنبة؛ فأقبل على الشرب والخليلات. وحوالي عام 1757 انضم إلى السير فرانسيس داشوود، وبب دودنجن، وجورج سلوين، والشاعر تشارلز تشرشل، وإيرل ساندوتش الرابع في "ناد لمار الجحيم" يلتئم شمله في دير مدمنهام البندكتي على ضفاف التيمز قرب مارلو. هناك راحوا وهو ينتحلون صفة "رهبان مدمنهام المجانين" يقلدون في سخرية الطقوس الكاثوليكية بإقامة "قداس أسود" للشيطان، ويطلقون العنان لميولهم التجديفية الشهوانية (72).

وأنتخب ولكس نائباً للبرلمان عن دائرة ايلزبري (1757) بفضل نفوذ رفاقه وبإففاق 7000 جنيه. وانضم أولاً لبيت الأب، ثم لخصوم بيوت بعد عام 1760. ولما كان بيوت يعين بالمال مجلة سمولت "البريطاني"، فقد بدأ ولكس، مستعيناً بتشرشل، في يونيو 1762 إصدار مجلة أسبوعية معارضة سماها "بريطاني الشمال" اكتسبت قراء كثيرين بفضل حيوية أسلوبها وخفته، وضراوة هجمات على الوزارة. وفي عدد منها نفى في إسهاب-أي أنه أذاع-الشائعة التي ارتجت بأن بيوت خال أم الملك. وفي العدد 45 (23 أبريل 1763) ندد بيوت لأنه خرق اتفاق إنجلترا مع بروسيا بإبرامه صلحاً منفرداً مع فرنسا، وبادعائه، في "خطاب العرش" الذي ألقاه الوزير باسم الملك، أن هذه المعاهدة باركها فرديريك الأكبر.

"أن هذا الأسبوع قد أعطى الجمهور مثلاً على وقاحة الوزارة-هو أشد ما حاولته وزارة من قبل تسبياً واستهتاراً... على البشرية. ذلك أن "خطاب الوزير" الذي ألقاه الثلاثاء الماضي لا نظير له في سجلات تاريخ هذا البلد. ولست أدري هل الدجل والخداع أعظم على الملك أم على الأمة. فكل صديق لهذا البلد لا بد يحزن لأن ملكاً أوتي هذا العدد الكبير من الخلال

صفحة رقم : 14062

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> البرلمان ضد الشعب

العظيمة المحببة... يمكن حمله على التصديق باسمه المقدس على أبغض القرارات، وعلى أشد التصريحات العامة حيفاً... وأنا واثق من أن جميع الأجانب، لا سيما بروسيا، سينظرون إلى الوزير نظرة الازدراء والاشمئزاز، فقد جعلنا مليوناً يصيح بالآتي: "لقد تحققت كل توقعاتي تحقيماً كاملاً بفضل النتائج الطيبة التي جناها تاجي المختلفون من المعاهدة النهائية وقد اقتنعت الدول المشتبكة في حرب مع أخي الفاضل ملك بروسيا الموافقة على شروط التسوية التي وافق عليها ذلك الملك العظيم" والمغالطة المخزية في هذه العبارة كلها ظاهرة للناس جميعاً، لأنه من المعروف أن ملك بروسيا... قد خذله رئيس وزراء إنجلترا الاسكتلندي خذلاً خسيماً... أما عن تصديق البرلمان "تصديقاً كلياً" الذي هو موضع فخر ينطوي على غرور شديد، فإن العالم يعرف كيف تم الحصول عليه. والدين الكبير على "القائمة المدنية"... يعلن بوضوح تام صفقات الشناء" (73).

ومع أن ولكس كان قد فسر "خطاب الملك" على أنه في الحقيقة خطاب بيوت، إلا أن جورج الثالث فهم المقالة على أنها إهانة شخصية، وأمر اللوردين هاليفاكس واجرمونت، وزيرى الدولة آنذاك بالقبض على جميع الأشخاص الضالعين في نشر العدد 45 من "بريطاني الشمال". فأصدر أمراً عاماً بالاعتقال - أي أمراً لا يسمي الأشخاص الذين يعتقلون، وبناء على عباراته الغامضة زج في السجن تسعة وأربعون شخصاً منهم ولكس (30 أبريل 1763)، رغم دعوى الحصانة بوصفه نائباً في البرلمان. ووضع طابع المجلة واسمه وليمز في المشهورة، ولكن حسداً من الناس هتفوا له شهيداً وجمعوا مائتي جنيه لإعانتته. وكتب ولكس إلى محكمة الدعاوى العامة أمراً قضائياً من أوامر "هابياس كوريس"، وحصل عليه، ودافع عن قضيته، ونال من قاضي القضاة تشارلز برات (وكان صديقاً لبت) أمراً بإطلاق سراحه تأسيساً على أن اعتقاله فيه انتهاك لحق عضو البرلمان، ورفع ولكس الدعوى على هاليفاكس وآخرين للقبض غير القانوني وللأضرار بماله، وحصل على تعويض قدره 5000 جنيه وأنهت إدانة برات

صفحة رقم : 14063

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> البرلمان ضد الشعب

للتقويضات العامة ذلك الاستعمال السيئ للسلطة الذي لأبغضه البريطانيون بغض الفرنسيين لأوامر القبض المختومة. وشاء ولكس أن يعاند القدر، فاشترك مع توماس بوتز (ابن رئيس أساقفة كنتربري) في تأليف "مقال عن المرأة" وهو معارضة شعرية ساخرة لقصيدة بوب "مقال عن الإنسان (الرجل)". وكان خليطاً من البذاءة والتجديف، مزوداً بحواشي تنبئ بعلم الشاعر الواسع وتنسج على المنوال ذاته، ونسب المقال إلى الأسقف وليم روبرتن، الذي كان قد أضاف هوامش لقصيد بوب. وطبع المقال الصغير في مطبعة ولكس في بيته، لكنه لم ينشر، غير أن ثلاثة عشرة نسخة طبعت خصيصاً لبضعة أصدقاء، وحصل وزراء الملك على تجارب الطبع، وأقنعوا إيرل ساندوتش بأن يقرأها على مجلس اللوردات، ففعل الإيرل (15 نوفمبر)، الأمر الذي أضحك الأشراف، وكانوا عليمين بما اشتهر به ساندوتش من خلاعة وتهتك. ويخبرنا وليول بأنهم "لم يستطيعوا الاحتفاظ برزانتهم" وساندوتش ماض في القراءة، ولكنهم وافقوا على أن القصيدة "قذف فاضح بذيء فاسق"، وطلبوا إلى الملك أن يقدم ولكس للمحاكمة بتهمة التجديف. وحين أخبر ساندوتش ولكس بأنه سيموت إما شقياً أو من مرض سري، أجاب "ذلك يا مولاي اللورد رهن بمن أعانق مبادئك" (75).

وفي ذلك اليوم ذاته يوم 15 نوفمبر قام ولكس في مجلس العموم ليسجل شكوى من إهدار حقه البرلماني بالقبض عليه. ولكن المجلس صوت ضده، وأمر البرلمان الجلال بأن يحرق العدد 45 من "بريطاني الشمال". وفي اليوم السابع عشر تحدى صموئيل مارتن ولكس للمبارزة، وكان قد سبه في ذلك العدد. فالتقيا في هايد بارك، وجرح ولكس جرحاً خطيراً، وألزم الفراش شهراً. وأدان أهالي لندن مارتن باعتباره قاتلاً ماجوراً، وأحدثوا شغباً حين حاول الجلال أن

يحرق العدد 45، وأصبح الهاتقان "ولكس والحريّة" و "العدد الخامس والأربعون" شعارين على تمرد شعبي صاعد ضد الملك والبرلمان (76). ثم حاول اسكتلندي مسعور قتل ولكس،

صفحة رقم : 14064

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> البرلمان ضد الشعب

فرحل إلى فرنسا (26 ديسمبر). وفي 19 يناير 1764 طرد رسمياً من البرلمان. وفي 21 فبراير صدر ضده حكم في محكمة "كنجز بنش" بأنه مذنب بإعادة طبع العدد 45 ويطبع "مقال عن المرأة"، ودعي للمثول وتلقى الحكم عليه، فلم يحضر؛ وفي أول نوفمبر أعلن أنه خارج عن القانون. وظل ولكس أربع سنوات شريداً في فرنسا وإيطاليا يخشى أن يسجن سجناً مؤبداً إن عاد إلى إنجلترا. وفي روما التقى مراراً بفنكلمان، وفي نابلي قابل بوزويل الذي وجده رفيقاً مسلياً: "إن سخرياته المرحّة الحية في المواضيع الأخلاقية حركت روحي المعنوية حركة ليست غير سارة" (77). وفي طريقه عوداً إلى باريس زار ولكس فولتير في فرنیه، وسحر أظرف رجل في أوروبا بظرفه وخفة روحه. ثم فتح رجوع الأحرار إلى السلطة بزعامة روكنجهام وجرافتن لوكس باب الأمل في العفو عنه. وتلقى تأكيدات سرية بأنه لن يمس بسوء إذا لزم الصمت. فعاد إلى إنجلترا (1768) وأذاع من لندن ترشيحه للبرلمان. فلما أن خسر تلك المعركة، التمس انتخابه للبرلمان من مدلسكس، وحصل على أغلبية كبيرة بعد حملة صاخبة؛ وكانت تلك المقاطعة التي تحول أكثرها حضراً (وهي تضم الآن شمال غربي لندن) معروفة بميولها الراديكالية وعدائها للرأسمالية الصاعدة. وفي 20 أبريل مثل ولكس أما المحكمة متوقفاً إلغاء الحكم بخروجه على القانون؛ وألغي الحكم؛ ولكن حكم عليه بغرامة قدرها ألف جنيه وبالسجن اثنين وعشرين شهراً. فأنفذه حشد غاضب من ضباط الشرطة وحملوه في موكب نصر طافوا به شوارع لندن. وبعد أن هرب من المعجبين، سلم نفسه للسجن في سانت جورجز فيلدرز. وتجمع الغوغاء هناك في 10 مايو وأرادوا إطلاق سراحه ثانية. فأطلق الجند النار على مثيري الشغب، وقتل منهم خمسة وجرح خمسة عشر. وفي 4 فبراير 1769 طرده مجلس العموم ثانية، فانتخبته دائرة مدلسكس ثانية (16 فبراير)، وطرد من جديد، فعادت مدلسكس وانتخبته

صفحة رقم : 14065

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> البرلمان ضد الشعب

(13 أبريل)، هذه المرة بأغلبية 1.143 ضد 296 لهنري لوتريل؛ وأعطى البرلمان المقعد للوتريل على أساس أو ولكس بعد أن طرد من البرلمان فقد أهليته شرعاً للنيابة في دورة ذلك البرلمان. وهوجم لوتريل وهو يغادر مجلس

العموم؛ ولم يجرؤ على الظهور في الشوارع(78). وأرسلت سبع عشرة مقاطعة ومدن كثيرة خطابات موجهة إلى العرش تشكو من أن حقوق الملاك الأحرار في اختيار ممثليهم في مجلس العموم قد انتهكت انتهاكاً صارخاً. أما الملك الذي كان قد أيد الطرد بقوة فقد تجاهل الالتماسات، وقال عضو يدعى الكولونيل إسحاق باريه في البرلمان أن تجاهل الالتماسات "قد يعلم الشعب التفكير في الاغتيال"(79). وخلص جون هورن توك، الذي أسلم إيمانه لسخر فولتير، ثوبه الديني وصرح بعد إقصاء ولكس مراراً بأنه سيصيح رداءه (رداء القساوسة) الأسود بالحمرة. وتزعم توك تنظيم "جماعة المؤيدين لمتمس الحقوق"، (1769) التي كان هدفها العاجل إطلاق سراح ولكس، وأداء ديونه، ورده إلى البرلمان. ونشرت الجماعة دعوة في محافل عامة لحل البرلمان الراهن لفساده الذي لا يرجى صلاحه، ولعدم استجابته للإرادة العامة؛ وطالبت ببرلمانات سنوية تنتخب بالتصويت العام للذكور البالغين، وبمسئولية الوزارات أما البرلمان في سياساتها ومصروفاتها(80). ونادت بأن على كل مرشح أن يقسم اليمين بالأبى قبل أي ضرب من ضروب الرشوة، ولا أي وظيفة أو معاش أو مكافأة أخرى من التاج، وبأن على كل عضو أن يدافع عن آراء ناخبي دائرته ولو ناقضت آراءه، وبضرورة رفع المظالم عن إيرلندا، وبأن يكون للمستعمرات الأمريكية وحدها حق فرض الضرائب على شعبيها(81).

وفي يوليو 1769، رفع وليم تكفورد عمدة لندن وكبار موظفيها الرسميين إلى الملك خطاباً يلوم مسلك وزرائه لأنه هادم للدستور الذي أعطي بموجبه بيت هانوفر عرش إنجلترا. وفي 14 مايو 1770 أرسلوا إلى الملك احتجاجاً استخدم لغة الثورة: "أن أغلبية أعضاء مجلس العموم-الواقعيين

صفحة رقم : 14066

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> البرلمان ضد الشعب

تحت التأثير الخفي والخبث الذي أحبط كل النوايا الحسنة وأوحى بكل النوايا السيئة في جميع الحكومات المتعاقبة- هؤلاء حرموا شعبيكم من أعز حقوقهم. لقد اقترفوا عملاً أفدح تدميراً في عواقبه من فرض تشارلز الأول ضريبة السفن، أو سلطة منح المعاشات التي ادعاها جيمس الثاني لنفسه"(82).

وقد ناشد الخطاب الملك أن يعيد "الحكومة الدستورية... وأن تقصي أولئك الوزراء الأشرار عن مجالسك إلى الأبد"(83) وأن يحل البرلمان الحالي. أما الملك المحنق فقد صاح ويده على سيفه "دون ذلك سيفي هذا"(84). وبدت لندن لا باريس قاب قوسين من الثورة في 1770.

وفي هذه الدوامة الملتهبة من دوامات السياسة قذف "جونبوس" بأشد الرسائل إثارة للفتنة في تاريخ إنجلترا. وقد أفلح في إخفاء هويته حتى عن ناشريه إخفاء تاماً، حتى أنه إلى يومنا هذا لا يعرف أحد من هو، وأن حزر معظمهم أنه السر فيليب فرانسيس، الذي سنلتي به الخصم للدود لوارن هيستجز. وكان المؤلف قد وقع بعض رسائله باسم "لوشس"، وبعضها باسم "بروتس"، أما الآن فقد انتحل الاسم الأوسط "لوشس جونبوس بروتس؛ الذي يقول لي في أنه خلع ملكاً (حوالي 510 ق.م.) وأسس الجمهورية الرومانية. وتدل فحولة لغة هذه الرسالة على أن "جونبوس" أوتي تعليم السادة وإن لم يؤت حسن أدبهم. والراجح أنه كان غنياً، لأنه لم يتقاض أجرأ على رسائله التي وسعت قوتها ونقدها اللادع من توزيع صحيفة "المعلن العام" توسيعاً غل الربح الوفير، وهي الصحيفة التي ظهرت فيها من 21 نوفمبر 1768 إلى 21 يناير 1772.

وفي مقاله "إهداء للأمة الإنجليزية" الذي صدر به المؤلف "رسائل جونبوس" (1772) أعلن هدفه وهو "تأكيد حرية الانتخاب، والدفاع عن حقكم أنتم دون غيركم في اختيار ممثليكم" واتخذ نقطة انطلاقه إقصاء ولكس المتكرر، واعتقال كل من له صلة بالعدد 45 من "بريطاني الشمال" بأمر اعتقال عام. "وأن حرية الصحافة هي الحصن المنيع لجميع الحقوق المدنية والسياسية والدينية للرجل الإنجليزي، وحق المحلفين... جزء أساسي من

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> البرلمان ضد الشعب

دستورنا" ومن هذه الزاوية انتقد المؤلف أسس الحكومة البريطانية: "أن سلطة الملك، واللوردات، ونواب العموم، ليست سلطة تعسفية. فهم ليسوا إلا أمناء على التركة لا مالكيها. والملكية المطلقة قائمة فينا نحن... وأنا موقن بأنكم لن تتركوا المشيئة سبعمئة شخص، أفسدهم التاج على نحو مفضوح، الفصل في مستقبل سبعة ملايين من نظرائهم، سيكونون أحراراً أم عبيداً" (85).

ومضى جونيوس يتهم حكومة جرافتن (1768-70) ببيع المناصب وإفساد البرلمان بالإنعامات والرشا. هنا أصبح الهجوم مباشراً وبلغ من الاحتدام حداً يشعر بأنه تصميم على الانتقام لإساءة أو إهانة شخصية. "تقدم أيها الوزير الفاضل وقل للعالم بأي نفوذ زكي مستر هاين لمثل هذه الإمارة الخارقة على رضى جلالته؛ وماذا كان ثمن الامتياز الذي اشتراه؟... إنك تعرض بخسة الرعاية الملكية للمزاد... أو تظن أن في الإمكان أن تقلت هذه الكباير دون اتهام؟ أنها حقاً مصلحتك إلى الدرجة القصوى أن تحتفظ بمجلس العموم الحالي. فهم إذ باعوا الأمة جملة، سيحمونك ولا ريب في التجزئة، لأنهم وهم يناصرون جرائمك يرعون أيضاً جرائمهم هم" (86). واستمر الهجوم بعد استقالة جرافتن بزمان طويل، كما نقرأ في الرسالة المؤرخة 22 يونيو 1771. لست أستطيع بأي مظهر مهذب من مظاهر اللياقة أن أصفك بأنك أنذل وأخس رجل في المملكة. لا يا سيدي، فلست أحسبك كذلك. فسيكون لك منافس وخطر في ذلك الضرب من الشهرة... ما دام هناك رجل واحد حي يحسبك جديراً بثقتة، صالحاً لأن يوكل إليك أي قسط في حكومته". وبدا أن هذا وصف لجورج الثالث ذاته بأنه "أخس رجل في المملكة" وكان جونيوس قد عمد من قبل في الرسالة الخامسة والثلاثين إلى مهاجمة الملك "بإباء وحزم، ولكن دون احترام": "سيدي، أن الخطب الذي

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> البرلمان ضد الشعب

منيت به حياتك... أنك لم تكن لتلم قط بلغة الحقيقة حتى سمعتها في شكاوي شعبك. على أن الوقت لم يفت لتصحيح خطأ تعليمك". ونصح جونيوس جورج بأن يقلل وزراء المحافظين، ويسمح لولكس بأن يشغل المقعد الذي أنتخب له. "أن على الملك إن كان يفتخر بسلامة حقه في التاج أن يتذكر أن اكتسب بثورة، وأنه قد يضيع بأخرى" (87). وقبض على هنري وودفول الذي نشر هذه الرسالة في صحيفة "المعلن العام" بتهمة الفذف المحرض على الفتنة. ورفض المحلفون إدانته وهم يعكسون مشاعر الطبقة الوسطى، فأفرج عنه بعد دفع المصاريف. وكان جونيوس قد بلغ الآن قمة تهوره وقوته. ولكن الملك صمد للهجوم، ودعم مركزه بتعيينه لرياسة الوزارة اللورد نورث اللطيف الثابت

الجأش. وواصل جونيوس رسائله حتى 1772، ثم ترك ساحة القتال. ويلاحظ أنه في 1772 ترك السر فيليب فرانسيس وزارة الحربية (التي كان جونيوس قد أظهر معرفة وثيقة بشؤونها) ورحل إلى الهند. وتنتمي الرسائل إلى التاريخ الأدبي لإنجلترا كما تنتمي إلى تاريخها السياسي، ذلك أنها مثال حي على الأسلوب الذي كان في قدرة الكثير من رجال السياسة البريطانيين أن يرتفعوا أو يتدنأوا إليه حين يلهبهم الغضب ويحميهم التخفي وراء الأسماء المستعارة. فهنا إنجليزية رفيعة اختلطت بالسب، ولكن السب ذاته آية في الطعن المرهف. أو الإجراء الحاد. ولست تجد هنا شفقة، ولا سماحة، ولا تفكيراً في أن الحزب الذي تنتمي إليه رامي الاتهام يشارك المتهم خطيئته وذنبه. ونحن نتعاطف مع السر وليم دراير الذي كتب يقول رداً على الرسالة المؤرخة 21 يناير 1769 "أن المملكة تشغى بعدد غفير من اللصوص المجرمين الذي يسطون على خلق الأفراد وفضيلتهم بحيث لم يعد إنسان شريف واحد في مأمن، ولا سيما لأن هؤلاء القتلة الحقراء الجبناء يطعنون في الظلام دون أن تكون لديهم الشجاعة للتوقيع بأسمائهم الحقيقية على كتاباتهم الشريرة الحقودة" (88).

صفحة رقم : 14069

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسون -> المسرحية السياسية -> البرلمان ضد الشعب

وقد تميز تحرك الصحافة البريطانية صوب حرية ونفوذ متعاضمين بصراع آخر في هذه السنوات. وذلك أن بعض الجرائد بدأت حوالي 1768 ف يطبع تقارير عن الخطب الكبرى التي تلقى في البرلمان. وكان أكثر هذه التقارير متحيزاً وغير دقيق، وبعضها وهمياً، وبعضها محشواً بالبداهات. وفي فبراير 1771 شكى الكولونيل جورج أونسلو إلى مجلس العموم من أن مجلة أشارت إليه بعبارة "الوغد الحقير" و "ذلك الحشرة التافهة الخسيسة" فأمر المجلس في 12 مارس بالقبض على الطابعين. فقاوموا، وقبضوا على من أرادوا اعتقالهم وأتوا بهم إلى عضوين في البلدية (أحدهما ولكس) وبراس كروينتي عمدة لندن. وأبطل العمدة محاولة اعتقال الطابعين بحجة أن مراسم المدينة تحظر اعتقال لندنى إلا بناء على أمر اعتقال يصدره أحد قضاة المدينة، فأمر البرلمان بسجن العمدة في برج لندن، ولكن جماهير العامة هبوا يؤيدونه، وهاجموا مركبات النواب، وهددوا الوزراء، وصفروا للملك استهزاءً، ثم أغاروا على مجلس النواب. فأطلق سراح العمدة، وهتف له جمع غفير. واستأنفت الصحف تقاريرها عن المناقشات البرلمانية. وكف البرلمان عن توجيه الاتهام للطابعين. وفي 1774 بدأ لوك هانسارد بموافقة البرلمان ينشر فوراً وبدقة يوميات مجلس العموم، وواصل نشرها حتى وفاته في 1828.

وقد أثر الانتصار التاريخي الذي أحرزته الصحافة البريطانية في طابع المناقشات البرلمانية، وأسهم في جعل النصف الثاني من القرن الثامن عشر العصر الذهبي للبلاغة الإنجليزية. وأصبح الخطباء أشد حذراً، وربما أكثر رغبة في الإثارة، حين شعروا أن الناس يستمعون إليهم ف يطول الجزر البريطانية وعرضها. وغدا بعض التقدم صوب الديمقراطية أمراً لا مفر منه بعد أن اتسع انتشار الإعلام والفكر السياسيين، ووجدت طبقة رجال الأعمال، والمجتمع المفكر، والراديكاليون الصاعدون، في الصحافة صوتاً ازداد جرأة وفاعلية زيادة مطردة، حتى قهر الملكية ذاتها. واستطاع الناخبون أن يعرفوا الآن إلى أي حد أحسن نوابهم الدفاع عنهم وعن مصالحهم في وضع القوانين وإلغائها. لقد استمر الفساد ولكنه تقلص، لأنه كان في الإمكان فضحه بجهر أكثر. وغدت الصحافة سلطة ثالثة قادرة أحياناً على حفظ التوازن بين الطبقات في الأمة أو في الأحزاب في البرلمان. وأصبح للرجال القادرين على شراء الصحف أو الهيمنة عليها قوة تعدل قوة الوزراء.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> البرلمان ضد الشعب

على أن الحرية الجديدة كمعظم الحريات أسيء استعمالها مراراً، فباتت أحياناً أداة تسخرها أهداف أشد أنانية وتحزباً، ومعارضة أشد سوقية وعنفاً، من أي أهداف أو معارضة ظهرت من قبل البرلمان، وعندها استحققت النعت الذي نعتها به شاتام-"الفاجرة المرخصة"(89) وكان إلزاماً أن يؤدبها هي الأخرى صوت رابع هو الرأي العام، الذي كانت الصحافة مع ذلك جزئياً مصدره، وفي حالات كثيرة مضللة، وأحياناً صوته. وبدأ الرجال والنساء المجردون من الألقاب يجهرون بأرائهم في السياسة وأساليب الحكم بعد أن تسلحوا بمعرفة أوسع، وتجمعوا في محافل عامة. وناقست مناقشاتهم بين الحين والحين مناقشات البرلمان أثراً في التاريخ. واستطاع الآن المال أن يطالب بحق الحكم كشراف الأصل سواء بسواء، وبين الفريقين المتصارعين يسمع صوت الشعب بين الحين والحين.

أفرج عن ولكس في 17 أبريل 1770، فأضيات بيوت كثيرة كأنما تحتفل بعيد، وعلق العمدة على منزله لافتة تحمل كلمة "الحرية" في حروف ارتفاعها ثلاث أقدام(90). ولم يلبث ولكس أن انتخب عضواً في البلدية ثم عمدة، وفي 1774 انتخبته مدلسكس مرة أخرى للبرلمان. ولم يجرؤ النواب الآن على أن يحرموه مقعده، فاحتفظ به طوال الانتخابات حتى 1790. وتزعم لفيفاً صغيراً من "الراديكاليين" في البرلمان، طالبوا بالإصلاح البرلماني وبإعطاء "الطبقات الدنيا" حق التصويت.

"ينبغي في رأبي أن يتاح لكل عامل حر في هذه المملكة حق تمثيله في البرلمان وينبغي بتر دوائر الحضر الصغيرة التافهة، التي نصر على وصفها بأنها الجزء العفن في دستورنا، وأن يسمح للمدن التجارية الغنية الأهلة بالسكان-مثل برمنجهام ومانشستر وشيفيلد وليدز وغيرهما-إرسال نوابها لمجلس الأمة العظيم... أريد يا سيدي برلمانياً إنجليزياً يعبر عن الإحساس الحر، غير متحيز، لسواد الشعب الإنجليزي"(91).

وقد انتظر البرلمان ستة وخمسين عاماً لتقبل هذه الإصلاحات.

ورفض ولكس أن يرشح نفسه للانتخاب في 1790، ثم اعتزل الحياة العامة. ومات في 1797 وقد بلغ السبعين، فقيراً كما ولد، لأنه كان شديد الأمانة في جميع مناصبه(92).

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> إنجلترا ضد أمريكا

5- إنجلترا ضد أمريكا

في 1750 بلغ سكان المستعمرات الإنجليزية في أمريكا الشمالية قرابة 1.750.000 نسمة، أما سكان إنجلترا وويلز فكانوا نحو 6.140.000(93)ولما كان معدل النمو في المستعمرات أعلى بكثير منه في الوطن الأم، فإن المسألة لم تكن إلا مسألة وقت حتى يتمرد الابن على أبيه. وكان مونتسكيو قد تنبأ بأن هذا سيحدث في 1730، بل إنه تنبأ

بالضبط بأن الانفصال ستسببه القيود المفروضة على التجارة الأمريكية. وحوالي 1747 تنبأ المركز دارجنسن بأن المستعمرات ستثور على إنجلترا وتكون جمهورية وتصبح إحدى الدول العظيمة. وبعد أن انتزعت إنجلترا كندا من فرنسا في حرب السنين السبع بقليل قال فرجين لرجل إنجليزي: "ستدم إنجلترا سريعاً على أنها أزال الكابح الوحيد الذي يستطيع أن يبقي على خوف مستعمراتها. فهي لم تعد في حاجة لحمايتها، وستطالب إنجلترا المستعمرات بالمساهمة في الأعباء التي عملت على إيقالها بها، وسترد المستعمرات بالقضاء على كل تبعية لإنجلترا" (94). وكان التاج البريطاني يدعى سلطة نقض القوانين التي توافق عليها مجالس المستعمرات. ولم يلجأ كثيراً لاستعمال تلك السلطة، ولكن حين وافق مجلس كارولينا الجنوبية على قانون يفرض ضريبة باهظة على استيراد العبيد، "شعوره بالخطر الاجتماعي والسياسي العظيم الناجم عن تكاثر العبيد الهائل في المستعمرة" ألغى التاج القانون لأن "تجارة العبيد من أرباح فروع التجارة الإنجليزية" (95) أما في الشؤون الاقتصادية فقد ادعى البرلمان حق التشريع للإمبراطورية البريطانية كلها، وكانت قوانينه عادة تحابي الوطن الأم على حساب المستعمرات. وكان هدفه جعل أمريكا مصدراً للسلع التي لا تنتج بسهولة في إنجلترا، وسوقاً للمصنوعات البريطانية (96). وقد ثبط نمو صناعات المستعمرات التي ستنافس صناعات إنجلترا فحظر على سكان المستعمرات صناعة الأقمشة، والقبعات، والبضائع الجلدية، والمنتجات الحديدية (97). وهكذا أعلن إيرل شاتام، الذي كان فيما خلا هذا كبير

صفحة رقم : 14072

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> إنجلترا ضد أمريكا

الود للمستعمرات، أنه لن يسمح بأن يضع مسمار واحد في أمريكا دون إذن البرلمان (98). ومنعت المستعمرات من إنشاء أفران الصلب أو مصانع القاطرات. وفرضت قيود عديدة على التجار الأمريكيين فهم لا يستطيعون شحن البضائع إلا في السفن الإنجليزية، ولا بيع التبغ والقطن والحريز والبن والسكر والأرز وكثير غيرها من السلع إلا للممتلكات البريطانية، ولا استيراد البضائع من القارة الأوروبية إلا بعد أن ترسي على ساحل إنجلترا، وبعد أن تدفع مكس الميناء، ثم تنقل إلى سفن بريطانية. وحماية لتصدير المصنوعات الصوفية الإنجليزية إلى المستعمرات الأمريكية، حرم على تجار المستعمرات بيع مصنوعات المستعمرات الصوفية خارج المستعمرة التي أنتجتها (99). وفرض البرلمان ضريبة باهظة (1733) على واردات أمريكا من السكر أو الدبس (المولاس) المجلوبة من أي مصدر غير مصادر البريطانية. وتفادى المستعمرون لا سيما في مسانثوستس بعض هذه اللوائح بالتهريب، وبيع الغلات الأمريكية خفية للأمم الأجنبية؛ وحتى الفرنسيين أثناء حرب السنين السبع. ولم يمثل لشرط المرور بالثغور الإنجليزية إلا عشرة في المائة أو نحوها من كميات الشاي التي تستوردها سنوياً للمستعمرات الأمريكية؛ وجملتها 1.500.000 رطل. وكان قدر كبير من الوسكي الذي تنتجه معامل تقطير مسانثوستس في 1750، وعددها ثلاثة وستون، يستعمل السكر والمولاس المهربين إليها من جزر الهند الغربية الفرنسية (101).

وتبريراً لهذه القيود قال البريطانيون أن الأمم الأوروبية الأخرى فوضت نظيرها على مستعمراتها، حماية لأهلها أو مكافأة لهم، وأن الغلات الأمريكية تتمتع باحتكار فعلي للسوق الإنجليزية بفضل إعفائها من رسوم الاستيراد، وأن إنجلترا جديرة ببعض العائد الاقتصادي نظير تكاليف الحماية التي وفرتها بحريتها لسفن المستعمرات، وجيوشها للمستعمرين ضد الفرنسيين والهنود في أمريكا. وكان طرد القوة الفرنسية من كندا والقوة الأسبانية من فلوريدا قد حرر الإنجليز من أخطار طالما هددتهم، ومن ثم شعرت إنجلترا أن لها

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> إنجلترا ضد أمريكا

الحق في أن تطلب إلى أمريكا أن تعينها على سداد الدين الباهظ-البالغ 140.000.000 جنيه-الذي استدانته بريطانيا العظمى في حرب السنين السبع. ورد المستعمرون بأنهم قدموا عشرين ألف جندي لتلك الحرب، وأنهم هم أنفسهم اقترضوا ديناً بلغ 2.500.000 جنيه.

على أية حال قررت إنجلترا أن تقرر الضرائب على المستعمرين. ففي مارس 1763 اقترح جرنفل على البرلمان المطالبة بلصق طابع دمغة على جميع ما يصدر في المستعمرات من وثائق قانونية، ومستندات، ودبومات، وورق لعب، وكمبيالات، وعقود، ورهون، وبوالص تأمين، وجراند، ويقتضي دفع رسم عن طابع الدمغة للحكومة البريطانية. وأشار باترك هنري في فرجينيا، وصموئيل آدمز في مساتشوستس، برفض هذه الضريبة بحجة أن الإنجليز بحكم تقاليدهم الموروثة-المجناكارتا، والعصيان الكبير لتشارلز الأول، و "ملتصم الحقوق-لا يحق فرض ضريبة عليهم إلا بموافقتهم أو بموافقة ممثليهم الشرعيين. فكيف يتأتى إذن أن تقرر على المستعمرين الإنجليز ضريبة من برلمان ليس لهم فيه ممثلون؟ ورد البريطانيون بأن صعوبات السفر والمواصلات تجعل تمثيل الأمريكيين في البرلمان أمراً غير ممكن عملياً، وقالوا أن الملايين من الإنجليز البالغين ظلوا قروناً يقبلون في ولاء أن يفرض البرلمان الضرائب عليهم رغم أنهم لم يكن لهم صوت في انتخابه، وقد أحسوا بما ينبغي أن يحس به الأمريكيون-وهم أنهم ممثلون فعلاً في البرلمان، لأن أعضاءه يعدون أنفسهم ممثلين للإمبراطورية البريطانية كلها.

غير أن المستعمرين لم يقنعوا. وإذا كان البرلمان قد احتفظ بسلطة فرض الضرائب مركزاً للهيمنة على الملك فإن المستعمرات دافعت عن حقها دون سواها في فرض الضرائب على ذواتها بدلاً وحيداً للظلم المالي يقع عليهم من رجال لم يروهم قط ولا وطئت أقدامهم قط التراب الأمريكي. وتهرب المحامون من شرط استعمال الوثائق المدموغة، ووضعت بعض الصحف صورة جمجمة ميت في المكان الذي يفترض أن تظهر عليه الدمغة، وبدأ الأمريكيون يقاطعون البضائع البريطانية، وألغى التجار طلباتهم من المنتجات

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> إنجلترا ضد أمريكا

البريطانية. ورفض بعضهم سداد ديونهم لإنجلترا حتى يلغى قانون الدمغة(102). وأخذت عذارى المستعمرات العهد على أنفسهن بالأ يقبلن خطايا لا ينددون بقانون الدمغة(103). واشتد سخط الشعب حتى بلغ إثارة الشعب في عدة مدن؛ ففي نيويورك شنقت دمية تمثل الحاكم (وهو معين من قبل الملك)، وفي بوسطن أحرق بيت مساعد الحاكم، توماس هتشنسن، وأكره موزعو الدمغة على الاستقالة من وظائفهم تحت التهديد بشنقهم. وشعر التجار البريطانيون بوقع المقاطعة، فطالبوا بإلغاء القانون. وأرسلت الالتماسات إلى الحكومة من لندن وبرستل ولغربول وغيرها من المدن، مقررة أن كثيرين من رجال الصناعة الإنجليز سيفلسون إن لم يلغ القانون، وكان الآلاف من العمال قد طردوا فعلاً للافتقار إلى الطلبات من أمريكا. وربما كان من قبيل الإقرار بهذه الالتماسات أن يعود بت بعد مرض طويل إلى

البرلمان عودة درامية ويصرح قائلًا (14 يناير 1766) "رأيت أن هذه المملكة لا حق لها في فرض ضريبة على المستعمرات". وقد سخر من "الفكرة التي تزعم أن المستعمرات ممثلًا فعلاً في المجلس" فلما قاطع جورج جرنفل زاعماً أنه يلمح بتشجيع الفتنة رد بت في تحد قائلًا "إني مغتبط لأن أمريكا قد قامت" (104). وفي 18 مارس أفتع اللورد روكنجهام البرلمان بإلغاء ضريبة الدمغة. ورغبة في استرضاء "أصدقاء الملك" أضاف إلى الإلغاء "قانوناً له صفة الإعلان" يؤكد من جديد سلطة الملك في أن يضع بموافقة البرلمان قوانين ملزمة للمستعمرات، وسلطة البرلمان في فرض الضرائب على المستعمرات البريطانية. وقبل الأمريكيون الإلغاء، وتجاهلوا قانون الإعلان. وأصبحت المصالحة الآن ممكنة. ولكن في يوليو سقطت وزارة روكنجهام، وفي وزارة جرافتن التي تلتها جدد تشارلز تاونسند، وزير المالية، محاولة إلزام المستعمرات بدفع نفقات القوات الإدارية والحربية اللازمة لحمايتها من اختلال النظام في داخلها أو الهجوم عليها من الخارج. ففي 13 مايو 1767 اقترح على البرلمان فرض رسوم جديدة على الزجاج والرصاص والورق والشاي، الذي تستورده أمريكا، على أن يستخدم الملك حصيلة هذه الرسوم في دفع رواتب الحكام والقضاة الذين يعينهم لأمريكا، فإذا كان هناك فائض وجه

صفحة رقم : 14075

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> إنجلترا ضد أمريكا

للإنفاق على الجنود البريطانيين هناك. ووافق البرلمان. ومات تاونسند بعدها بشهور. وقاوم الأمريكيون الرسوم الجديدة باعتبارها ضرائب مقنعة. وكانوا يتحكمون في جنود الملك وحكامه بجعلهم معتمدين إلى حد كبير في إعالتهم على الأموال التي توافق عليها مجالس المستعمرات، فتسليم قوة المال هذه للملك معناه تسلّم إدارة الحكومة الأمريكية للسلطة الملكية، وأجمعت المجالس على الحض على مقاطعة البضائع البريطانية من جديد، ولقيت الجهود المبذولة لجمع الرسوم الجديدة مقاومة عنيفة، وحاول اللورد نورث حلاً وسطاً بإلغاء جميع الرسوم التي فرضها تاونسند فيما عدا رسماً على الشاي قدره ثلاث بنسات على الرطل، وأرعى المستعمرون مقاطعتهم، ولكنهم صمموا على ألا يشرّبوا من الشاي إلا المهرب. فلما حاولت ثلاثة سفن تملكها شركة الهند الشرقية تفريغ 289 صندوقاً من الشاي في بوسطن، صعد إلى السفن خمسون مستعمراً حانقاً متتكرين في زي هنود الموهوك، وتغلبوا على مقاومة ملاحبيها، وأفرغوا شحنتها في البحر (16 ديسمبر 1773). وعطلت حوادث الشغب في ثغور أمريكية أخرى المزيد من الجهود لتفريغ شاي الشركة. وبقية القصة أكثر يخص أمريكا، ولكن الدور الذي لعبه فيها ساسة بريطانيا وخطابواها وكتابها ورأيها العام هو عنصر حيوي في تاريخ إنجلترا وكما أن أقلية كبيرة نشيطة في أمريكا طالبت بالولاء للوطن الأم ولحكومته، فإن أقلية في إنجلترا يمثلها في البرلمان شاتام، وبيرك، وفوكس، وهوراس ولبول، وولكس، ناضلت لإقرار سلام بشروط في مصلحة أمريكا، بينما كان الجمهور عموماً يؤيد الإجراءات الحربية التي اتخذتها وزارة اللورد نورث. ورأى البعض في انقسام الرأي العام الإنجليزي على هذا النحو إحياء للمعارضة التي قامت بين الملكيين والبرلمانيين في 1642. وناصرت الكنيسة الإنجليزية الحرب ضد المستعمرين مناصرة كاملة، وكذلك المثوديون سيراً وراء زعيمهم وبسلي، ولكن كثيراً من المنشقين غير هؤلاء أسفوا على هذا الصراع لأنهم

صفحة رقم : 14076

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> إنجلترا ضد أمريكا

تذكروا أن أغلبية من المستعمرين تحدرت من جماعات منشقة. ووافق جيون جونسون على إدانة المستعمرات، ولكن ديفد هيوم حذر بريطانيا وهو على وشك الموت من أن محاولة إكراه أمريكا ستقضي إلى كارثة (105) أما أصحاب المصالح التجارية فقد مالوا إلى تأييد الملك لأن طلبات الحرب تجلب لهم الأرزاق. وقال بيرك في حزن أن الحرب "قد أصبحت بديلاً للتجارة حقاً... والطلبات الضخمة على الإمدادات والبضائع من كل نوع... ترفع معنوية عالم التجارة، وتغري التجار بالآيروا في الحرب الأمريكية نكبتهم بقدر ما هي موارد ثرائهم" (106).

وخشي الأحرار أن تقوي الحرب المحافظين على حزبهم، والملك على البرلمان، وفكر أحد الأحرار وهو دوق رتشموند في الرحيل إلى فرنسا قراراً من الاستبداد الملكي (107) وكان في مسلك جورج الثالث ما يبرر مثل هذه المخاوف بعض التبرير. فقد اضطلع بمهمة الحرب كاملة، حتى بتفاصيلها الحربية، وأطاع اللورد نورث والوزراء الآخرون قيادة الملك وإن ناقض هذا رأيهم الخاص في حالات كثيرة، وأحس الملك أنه لو نجح الأمريكيون لواجهت لإنجلترا الثورة في مستعمرات أخرى، ولانحصرت آخر الأمر في جزيرتها، على أن اللورد شاتام حذر البرلمان من أن قمع أمريكا سيكون انتصاراً لمبادئ تشارلز الأول وجيمس الثاني. وفي 20 نوفمبر 1777، بعد أن عانت الجيوش البريطانية هزائم كثيرة في أمريكا، وكانت فرنسا تعين المستعمرات بالمال، استمع شاتام وهو القادم إلى مجلس اللوردات كأنما من القبر إلى "خطاب العرش" الوزاري بضيق متعاضم، وقام ليلقي خطاباً يعد من أروع ما سجلته البلاغة البريطانية من خطب، ففيه اجتمع التاريخ والأدب. قال:

"إنني ياسادتي اللوردات أفأ لأعرب عن مشاعري عن هذا الموضوع البالغ الجد والحظر.. فلست أستطيع الموافقة على خطاب أعنى دليل يوافق ويحاول أن يكرس الإجراءات الرهيبة التي هالت فوقنا العار والخطوب والتي جلبت الخراب إلى أبوابنا.. هذه أيها السادة لحظة خطيرة هائلة!

صفحة رقم : 14077

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> إنجلترا ضد أمريكا

ليس الوقت وقت تزلف.. فاطف التزلف لا يجدي الآن... ومن الضروري الآن إعلام العرش بلغة الصدق.. هذا أيها السادة واجينا، أنه الوظيفة الأصلية لهذا الاجتماع النبيل، المعتمد في انعقاده على سمعنا بالأمانة والوفاء بالوعود في هذا البرلمان، وهو المجلس الوراثي للتاج. فمن هو الوزير-واين هو الوزير-الذي جرؤ على أن يقترح على العرش تلك اللغة العنيدة، غير الدستورية التي ألقيت اليوم منه؟ إن اللغة التي اعتدناها من العرش هي طلب المشورة من البرلمان... أما اليوم، وفي هذا الطارئ الخطورة. فإنه لم توضع ثقة في مشورتنا الدستورية، ولم تطلب نصيحة من عناية البرلمان الرصينة المستنيرة، ولكن التاج، من ذاته ووحده، يعلن تصميماً باتاً على مواصلة إجراءات... مملاة ومفروضة علينا... جلبت الخراب والاحتقار على هذه الإمبراطورية التي كانت بالأمس مزدهرة بالأمس فقط، كان في استطاعة إنجلترا أن تثبت أمام العالم كله، أما الآن فليس هناك أحد بلغ من المسكنة ما يغريه بتقديم الاحترام لها..."

"أيها السادة، أنكم لا تستطيعوا قهر أمريكا.. قد تزدادون غلواً في بذل النفقة والجهد المفرطين، وقد تجمعون وتكومون كل ما تستطيعون شراءه أو اقتراضه من معونة، وقد تتاجرون وتقاوضون مع كل ملك ألماني حقير ضئيل يبيع رعاياه

ويرسلهم إلى الذبح..، قد تفعلون هذا كله، ولكن جهودكم تظل إلى الأبد باطلة عاجزة-ويضعف من بطلانها وعجزها هذا العون المرتزق الذي تعتمدون عليه، لأنه يهيج عقول أعدائكم إلى حد الكراهية التي لا شفاء منها. ولو كنت أمريكياً، كما أنا إنجليزي، ورأيت جندياً أجنبياً يرسي في أرض وطني، لما وضعت سلاحى-أبدأ-أبدأ-أبدأ!(108). أما بيرك فقد سخر كل ملكات جد له في محاولة ثني البرلمان والوزارة بحد سياسة القوة ضد أميركا. وقد مثل من 1774 إلى 1780 في البرلمان مدينة برستل التي عارض تجارها الحرب مع أمريكا أول الأمر(109)، كذلك كان في هذه الفترة وكيلاً براتب لولاية نيويورك(110). ولم ينكر حق البرلمان في فرض الضرائب على المستعمرات كما أنكره شاتام، ولم يؤيد

صفحة رقم : 14078

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> إنجلترا ضد أمريكا

لجوء المستعمرين إلى نظريات تجريدية في "الحق الطبيعي". ولكنه نزل بالمسألة إلى حيث يستطيع الرجال العمليون أن يفهموه: فهل فرض الضرائب على أمريكا ممكن عملياً؟ وفي خطابه عن الضرائب الأمريكية (19 أبريل 1774) لم يكتف بإدانة قوانين تاونسنهند بل أدان أيضاً ضريبة البنسات الثلاثة على الشاي، وحذر من أن إضافة ضرائب على القيود الصناعية والتجارية المفروضة فعلاً على أمريكا ستحمل المستعمرين على المضي في ثورة من شأنها أن تمزق الإمبراطورية البريطانية الوليدة وتلوث سمعة البرلمان.

فلما هزم في هذه القضية جدد في 22 مارس 1775 طلب المصالحة. وقال إن التجارة مع أمريكا قد تضاعفت عشر مرات بين عامي 1704 و1772(111) ثم تساءل أمن الحكمة تمزيق تلك التجارة وربما التصحية بها بالحرب؟ وقال أنه يخشى أن الحرب مع المستعمرين ستترك إنجلترا ومعرضه للهجوم من عدو أجنبي، وهو ما حدث في 1778. ووافق على أن تمثيل الأمريكيين في البرلمان جعله أمراً غير ممكن عملياً، ولكنه اكتفى بأن يطلب بالاعتماد إنجلترا على الضرائب بل على المنح الاختيارية من مجالس المستعمرات، وقد تزيد هذه المنح على حصيلة الضرائب المباشرة بعد خصم نفقات جمعها بالقوة(112).

على اقتراحه هذا رفض بأغلبية 270 ضد 78، ولكن كان عزاء له أن يكسب لقضيته بلاغة وحذق تشارلز جيمس فوكس، وهكذا بدأت صداقة وثقت عراها الثورة الأمريكية وفصمتها الثورة الفرنسية. وقد وصف جيون خطاب فوكس الذي ألقاه في 31 أكتوبر 1776 بأنه أقدر ما ألقاه في حياته من خطب، وذهب هوراس ولبول إلى أنه "من أروع خطب فوكس وأشدها حيوية"(113) وقد وقف ولبول في صف دعاة المصالحة، ورثى لانهبير الحنكة السياسية البريطانية في ظل حكومة اللورد نورث، وفي 11 سبتمبر 1775 كتب إلى هوراس مان يقول: "تقرر أن يجتمع البرلمان في العشرين من الشهر القادم ويصوت على إرسال 26.000 بحار. فياله من قرار دموي! ليت شعري بأي صنوف

صفحة رقم : 14079

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> إنجلترا ضد أمريكا

العذاب لا بد من صيانة الحرية في أمريكا! وفي إنجلترا ما الذي يستطيع إنقاذ الحرية؟ إيه إنجلترا المجنونة، المجنونة! أي جنون أن تتبذ كنوزها، وتضيع ثروتها الطائلة، وتضحى بحريتها، ليكون ملكها الحاكم المطلق لصحاري لا نهاية لها في أمريكا، وجزيرة في أوربا مفتقرة إلى المال، منزوحة السكان، ومن ثم فاقدة الأهمية!"(114).

على أن الذي أفتع الشعب الإنجليزي، ثم حكومته، بأفكار السلام لم تكن حماسة شاتام ولا بيرك ولا فوكس، بل انتصارات المستعمرات وتحركاتها الدبلوماسية. وكان استسلام بروجوين في ساراتاجوا (17 أكتوبر 1777) نقطة التحول، ولأول مرة قدرت إنجلترا تحذير شاتام "لن نستطيعوا قهر أمريكا" فلما اعترفت فرنسا بـ "ولايات أمريكا المتحدة" وانضمت إلى الحرب ضد إنجلترا (6 فبراير 1778) أيد رأي الساسة الفرنسيين رأي شاتام، وأضف ثقل الأسلحة الفرنسية والبحرية الفرنسية المجددة إلى العبء الملقى على كاهل الأمة البريطانية بل أن اللورد نورث ذاته تخاذل، ورجا الأذن له بالإستقالة، ولكن الملك الذي أغرقه بهباته أمره بالبقاء في منصبه. وشعر الكثيرون من الإنجليز البارزين أنه لن يستطيع إقناع المستعمرات بالعدول عن تحالفها مع فرنسا إلى الإتحاد مع إنجلترا ثانية إلا حكومة يتزعمها إيرل شاتام. ولكن جورج أبي أن يستمع لهذا الرأي. فقد قال لنورث "أني أصرح تصريحاً قاطعاً بأنه ما من شيء يحملني على التعامل شخصياً مع اللورد شاتام"(115) وجاء الأيرل إلى مجلس اللوردات لآخر مرة في 7 أبريل 1778 مستنداً إلى عكازين وابنه ولیم، وقد اكفهر وجهه إيداناً بدنو منيته، وضعف صوته حتى لم يكذب يسمع. وعاد ينصح بالمصالحة، ولكنه عارض "تقطيع أوصال هذه الملكية العريقة النبيلة جداً" بمنح الاستقلال لأمريكا(116) ورد الدوق رتشموند بأن هذا المنح وحده هو السبيل إلى رد أمريكا عن حلفها مع فرنسا. وحاول شاتام أن ينهض وينكلم ثانية، ولكنه سقط مصاباً بنوبة فالج، ومات في 11 مايو 1778 وقرر البرلمان أن يشيع في

صفحة رقم : 14080

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> إنجلترا ضد أمريكا

جنازة عامة وأن يقام قبر ونصب في كنيسة وستمنستر. ولقد كان بإجماع الناس أعظم الإنجليز في جيله. وتلاحق الأحداث لتكمل الكارثة التي نتبأ بها. ففي يونيو 1779 انضمت أسبانيا إلى فرنسا في الحرب ضد إنجلترا؛ وحاصرت جبل طارق وأرسلت أسطولها ليشارك في الهجوم على السفن البريطانية. وفي أغسطس دخل أسطول صغير مشترك قوامه سفن فرنسية وأسبانية القنال الإنجليزي؛ واتخذت إنجلترا أهبتها فيما يشبه الحمى لمقاومة الغزو، غير أن المرض أعجز أسطول العدو وأكرهه على الالتجاء إلى برست. وفي مارس 1780 اتحدت روسيا والدنمرك والسويد في إعلان بالحياد المسلح "أقسم على المقاومة ما درجت عليه إنجلترا من اعتلاء ظهور السفن المحايدة بحثاً عن بضائع العدو، ولم تلبث دول محايدة أخرى أن وقعت الإعلان. واستمر تفتيش الإنجليز للسفن الهولندية، وقد وجد الدليل على اتصالات سرية بين مدينة أمستردام ومفاوض أمريكي. وطالبت إنجلترا بمعاينة موظفي أمستردام ولكن الحكومة الهولندية رفضت، فأعلنت عليها إنجلترا الحرب (ديسمبر 1780). وأصبحت الآن كل دول البلطي والأطلنطي تقريباً متحالفة على إنجلترا التي كانت بالأمس متسلطة على جميع البحار.

وعكس مراج البرلمان تكاثر الكوارث. وتساعد الاستياء من إحباط الملك لرغبة وزيره في إنهاء الحرب. ففي 6 أبريل 1780 كان جون دننج قد قدم لمجلس العموم اقتراحاً يعلن "أن نفوذ التاج ازداد، وهو في ازدياد، وينبغي الحد منه"، ووافق المجلس على الاقتراح بأغلبية 233 صوتاً ضد 215. وفي 23 يناير 1781 اتخذت الابن كرسية في

المجلس، وفي خطابه الثاني ندد بالحرب مع أمريكا ناعثاً إياها بأنها "جد ملعونة، شريرة، همجية، قاسية، منافية للطبيعة، ظالمة، شيطانية" (117). ورحب فوكس مبتهجاً ببيت في صفوف المعارضة، غير متوقع أن هذا الفتى سيكون عما قليل أقوى أعدائه. وفي 19 أكتوبر 1781 استسلم اللورد كورنواليس لواشنطن في يوركتاون.

صفحة رقم : 14081

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> إنجلترا ضد أمريكا

وصاح اللورد نورث "رباه، لقد انتهى كل شيء!" ولكن الملك أصر على مواصلة الحرب. وفي فبراير ومارس 1782 جاءت الأنباء بأن الأسبان استولوا على منورقة، والفرنسيين على عدد من جزر الهند الغربية. وارتفعت الأصوات الغاضبة في الاجتماعات العامة التي انعقدت في طول إنجلترا وعرضها مطالبة بالسلام. وهبطت أغلبية نورث في مجلس العموم إلى اثنين وعشرين، ثم إلى تسعة عشر، ثم إلى واحد في التصويت على اقتراح "بأن المجلس لا يستطيع بعد الآن وضع ثقته في الوزراء الحاليين" (15 مارس 1782)، ووضع هذا سابقة تاريخية لطريقة البرلمان في الإلزام بتغيير الوزارة. وفي 18 مارس كتب نورث إلى جورج الثالث رسالة أنبأه فيها في الواقع أن السياسة الملكية نحو أمريكا، ومحاولة توطيد سيادة الملك على البرلمان، كليهما قد فشل. "إن جلالتم على بينة من أن الملك الجالس على عرش هذا البلد لا يستطيع إن كان حقيقياً لأن يعارض القرار المدروس الذي يستقر عليه مجلس العموم... لقد أعرب أعضاء البرلمان عن مشاعرهم، ومشاعرهم صائبة كانت أم مخطئة- لا بد في النهاية أن تكون لها الغلبة. إن جلالتم. لن تفقدوا أي كرامة لو سلمتم" (118). وفي 20 مارس 1782، بعد اثنتي عشر سنة من الخدمة الصابرة والخضوع، استقال اللورد نورث. وكتب جورج الثالث الذي تحطمت روحه خطاب اعتزال ولكنه لم يرسله. وقيل وزارة من الأحرار المنتصرين: روكنجهام، وإيرل شلبيرن، وتشارلز جيمس فوكس، وبيرك، وشريدان. ولما مات روكنجهام (أول يوليو) خلفه شلبيرن وزيراً للخزانة. واستقال فوكس وبيرك وشريدان الذين كانوا يكرهون شلبيرن. وشرع شلبيرن في الترتيبات اللازمة لإبرام معاهدة صلح (باريس، 30 نوفمبر 1782، باريس وفرساي 20 يناير و3 سبتمبر 1783) نزلت إنجلترا بمقتضاها عن منورقة وفلوريدا لأسبانيا، وعن السنغال لفرنسا، ولم تقتصر على الاعتراف باستقلال المستعمرات الأمريكية بل بحقها في جميع الأراضي الواقعة بين الأليجني وفلوريدا والمسيسي والبحيرات العظمى.

صفحة رقم : 14082

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> إنجلترا ضد أمريكا

وكان الشعب الإنجليزي تواقاً للسلام، ولكن ساءه النزول عن هذه الأقاليم الكثير للمستعمرات، وبلغ النقد الموجه لشلبيرن من المرارة حداً حمله على تقديم استقالته (24 فبراير 1783) ولما كان الشقاق بين شلبيرن وفوكس قد قسم حزب الأحرار إلى شيع لم يكن لإحداها من القوة ما يتيح لها الهيمنة على البرلمان، فقد وافق فوكس على تشكيل وزارة ائتلاف مع عدوه القديم اللورد نورث. وأصبح بيرك صيرفياً للقوات المسلحة ثانية. أما شريدان الذي لم يفق من ديونه قط فقد عين وزيراً للخزانة. وكان فوكس وبيرك يفحصان منذ فترة مسلك الإنجليز في الهند، واحتمل ذلك البلد الآن محل أمريكا بوصفه أشد المشاكل إلحاحاً في السياسة البريطانية.

صفحة رقم : 14083

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> إنجلترا والهند

6- إنجلترا والهند

كانت شركة الهند الشرقية البريطانية قد أعيد تنظيمها في 1709 باسم الشركة المتحدة لتجار إنجلترا المتجرة مع الهند الشرقية". وقد خولهما المرسوم الذي حصلت عليه من الحكومة البريطانية احتكار التجارة البريطانية مع الهند. وكان يدير شئونها رئيس وأربعة وعشرون مديراً ينتخبهم سنوياً "مجلس الملاك" لكل مساهم فيه بخمسمائة جنيه أو أكثر من صوت واحد. وقد أصبحت الشركة في الهند منظمة حربية كما كانت منظمة تجارية، وقاتلت الجيوش الهولندية والفرنسية والوطنية للظفر بنصيب من إمبراطورية المغول المتهاوية، وفي حرب من هذه الحروب استولى سراج الدولة، حاكم البنغال، على كلكتا من الشركة، وحبس 146 أوربياً في "جرر كلكتا الأسود" وهو حجرة طولها ثمانية عشر وعرضها أربعة عشر قدماً، ليس فيها غير طاقتين صغيرتين، ومات من السجناء 123 أثناء الليل (20-21 يونيو 1756) من الحر أو الاختناق. وقاد روبرت كلايف حاكم قلعة سانت ديفيد قوة صغيرة لاسترداد كلكتا للشركة وشارك في المؤامرة التي دبرها مير جعفر، وهو نبيل في بلاط سراج الدولة، للإطاحة بهذا الحاكم، ثم استطاع بتسعمائة أوربي و2.300 جندي من الوطنيين أن يهزم خمسين ألف مقاتل في بلاسي (23 يونيو 1757)

صفحة رقم : 14084

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> إنجلترا والهند

وأعدم سراج الدولة، وعين مير جعفر مكانه حاكماً على البنغال. ودخل كلايف العاصمة مرشداباب دخول الفاتحين، وبدأت له مدينة لا تقل عن لندن حجماً وربما أكثر منها ثراء. ورأى في خزانة الحاكم أكداً لا تصدق من الروبيات والجواهر والذهب والفضة وغيرها من الذخائر. فلما طلب إليه أن يحدد مكافأته عن تنصيب جعفر حاكماً، طلب 160.000 جنيه لنفسه، 50.000 لجيشه وبحريته، 24.000 جنيه لكل عضو من أعضاء مجلس إدارة الشركة، و1.000.000 جنيه تعويضاً عن الخسائر التي لحقت بأموال الشركة في كلكتا. وهذه هي المناسبة التي أشار إليها كلايف حين أنبأ مجلس العموم أن يعجب من اعتداله (119). وقد تلقى من مير جعفر هدايا جملة قيمتها 200.000 جنيه (120) واعترف به حاكماً بريطانياً للبنغال. أما الشركة فقد اعترف بها مالكة مطلقة لمساحة حول كلكتا مقدارها 882 ميلاً مربعاً نظير دفع إيجار سنوي قدره 27.000 جنيه لمير جعفر. وفي 1759 وافق مير جعفر على أن يحول لكلايف كل عام الإيجار المدفوع من الشركة لقاء العون الذي قدمه له في إخماد فتنة. فلما أمنت الشركة شر المنافسة، راحت تستغل الرعايا الخاضعين لحكمها في غير شفقة واستعانت بأسلحتها المتفوقة لتكره الحكام الهنود على دفع ثمن باهظ لقاء الحماية البريطانية. وإذا كان كبار موظفيها بمنأى عن إشراف الحكومة البريطانية، وبمأمن من حصين من الوصايا العشر شرقي السويس فقد حققوا أرباحاً ضخمة من التجارة، وعادوا إلى إنجلترا سراة في وسع الرجل منهم أن يشتري "دائرة جيب" أو عضواً في البرلمان دون أن تضار ثروته ضرراً بالغا. وعاد كلايف إلى إنجلترا في 1760 وقد بلغ الخامسة والثلاثين متوقفاً أن ينعم فيها بالشهرة والثراء "فاشترى من الدوائر الانتخابية ما يكفي للسيطرة على جبهة في مجلس العموم، وانتخب هو نفسه نائباً عن شروزبري. غير أن بعض مديري شركة الهند الشرقية الذين شعروا أنه سرق فوق ما تبرره سنة، اتهموه باستخدام وثائق مزورة في تعامله مع سراج الدولة، ومير جعفر. غير أن نبأ وصل إلى لندن بأن الثورات الوطنية، وفساد الموظفين

صفحة رقم : 14085

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> إنجلترا والهند

وارتشاءهم، وعجز الإدارة كلها تهدد مركز الشركة في الهند، فأعيد كلايف على عجل إلى كلكتا (1765) حاكماً للبنغال. وهناك كافح لوقف الفساد بين مساعديه، والتمرد بين جنده، وانتفاضات الحكام الوطنيين المتكررة على الشركة. وفي 12 أغسطس 1765 أقنع شاه علم المغولي بأن يعطي الشركة الإشراف المالي المطلق على ولايات البنغال، وبهار، وأوريسا، التي تضم من السكان ثلاثين مليوناً وتغل إيراداً سنوياً قدره 4.000.000 جنيه. وهذا، بالإضافة إلى انتصار كلايف في بلاسي، خلق الإمبراطورية البريطانية في الهند. وبعد أن تحطمت صحة كلايف من جراء نضال امتد عامين، عاد إلى إنجلترا في يناير 1767. وتجدد هجوم بعض مديري الشركة عليه، وأيد الهجوم موظفون كان قد كبح محاولات ابتزازهم للمال. ثم شارك نبأ مجاعة كبرى في الهند، وهجمات الوطنيين على معاقل الشركة، في إحداث زعر مني من جرأته نفر من أقطاب الإنجليز بخسائر فادحة. وفي 1772 فحصت لجننتان برلمانيتان شئون الهند، فأماطتا اللثام عن ضروب من الابتزاز والقسوة جعلت هوراس وليول يصيح: "لقد فقدنا الأسباب في بيرو! لقد قتلنا، وخلعنا الحكام، ونهبنا؛ واعتصمنا.. أجل، فما قولكم في مجاعة البنغال التي هلك فيها ثلاثة ملايين من الأنفس وسببها احتكار موظفي شركة الهند الشرقية للمؤن؟" (121) وفي 1773 طالبت إحدى لجننتي الفحص كلايف بأن يفسر لمجلس العموم الطرق التي استخدمها والمكاسب التي حققها في الهند. فسلم لهم بجميع الوقائع تقريباً، وكان دفاعه عنها أن العادات المحلية وضرورات الموقف بررتها، ثم أضاف أن على الأعضاء حين يجيئون ليدينو شرفه ألا ينسوا شرفهم. وصوت المجلس بأغلبية 155 ضد 95 بأنه تلقى 234.000 جنيه خلال إدارته الأولى للبنغال، ولكنه "في الوقت نفسه أدى لوطنه في الواقع خدمات جليلة جديرة بالثناء" (122) وبعد عام انتحر كلايف غير متجاوز التاسعة والأربعين (22 نوفمبر 1774):

وفي 1773 استصدر اللورد نورث من البرلمان قانوناً تنظيمياً أقرض الشركة سلفة مقدارها 1.400.000 جنيه لينفذها (هي ومساهميها من النواب)

صفحة رقم : 14086

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> إنجلترا والهند

من الإفلاس، وأخضع جميع الأقاليم التي تحكمها الشركة في الهند لرأسه البنغال على أن تكون هي بدورها مسؤولة أمام الحكومة البريطانية وعين وارن هيستنجز حاكماً على البنغال. وكان قد ارتقى إلى منصبه هذا من أصول متواضعة. فقد ماتت أمه وهي تلده، وانطلق أبوه إلى حياة المغامرة ثم الموت في جزر الهند الغربية. وأرسل أحد أعمامه الغلام إلى مدرسة وستمنستر، ولكن العم مات في 1749، وأبحر وارن وهو في السابعة عشرة طلباً للثراء في الهند. وتطوع في الخدمة العسكرية تحت قيادة كلايف، وشارك في استرداد كلكتا، وأبدى اجتهاداً وكفاية في الإدارة، فعين في المجلس الذي يدير شؤون الشركة في البنغال. وفي 1764 عاد إلى إنجلترا. وبعد أربعة أعوام أقنعه المديرون بالانضمام إلى مجلس مدراس. وفي طريقه إلى الهند التقى بالبارون إيمهوف وزوجته ماريون التي أصبحت خليفة هيستنجز ثم زوجته. وقد أبلى في مدراس، وفي 1774 بدأ حكمه المضطرب والياً على البنغال. وعكف على عمله بهمة، ولكن أساليبه كان دكتاتورية، وكان في بعض تصرفاته ما أتاح للسر فيليب فرانسيس مادة لتوجيه الهجمات إليه في مجلس البنغال، كما وجهها ببرك بعد ذلك في البرلمان. ذلك أنه حين أعادت قبائل المراتا المشاه علم إلى عرش المغول في دلهي فحول إليهم ملكية الأقاليم التي خصصها له كلايف من قبل في كورا والله آباد، باع هيستنجز هذه الأقاليم إلى حاكم أود، لقاء خمسين لك من الروبيات (20.000.000 دولار؟) وكلف جنود الشركة بمساعدة الحاكم في استعادة الإقليم. وسمح له بالاستعانة بجنود الشركة في غزو وتملك إقليم روهلخند، الذي كان حاكمه مديناً له (على حد قول هذا)، وتسلمت الشركة مبلغاً كبيراً لقاء استخدام هؤلاء الجنود. وكان في تصرف هيستنجز خرق واضح للأوامر الصادرة إليه من مديري الشركة (123)، ولكن هؤلاء المديرين كانوا يقدرون أي حاكم بمقدار المال الذي يبعث به إلى إنجلترا. واتهم موظف هندي يدعى نكومار هيستنجز بقبوله الرشوة، وصدق

صفحة رقم : 14087

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> إنجلترا والهند

فرانسيس وغيره من أعضاء المجلس التهمة، وادعوا أنه "ما من ضرب من ضروب الاختلاس رأى الحاكم المحترم أن من المعقول الامتناع عنه" (124).

وقبض على نكومار بتهمة التزوير، وأدين، وأعدم (1775). واشتبه في أن هيبستجز قد استخدم نفوذه في التأثير على قاضي القضاة السير ايليا ايمبي (وكان زميلاً له في الدراسة في ونشستر) ليوقع على المتهم عقوبة صارمة على نحو غير مألوف. وفي 1780 رقي هيبستجز ايمبي إلى وظيفة إضافية تغل له 6.500 جنيه في العام. وقد أفضى تراشق هيبستجز وفرانيس بالتهمة إلى مبارزة جرح فيها فرانيس جرحاً خطيراً.

ثم رأى حيدر علي، مهراجا ميسور، في الخلافات بين هيبستجز ومجلسه فرصة لطرده الشركة من الهند. فهاجم حصون الشركة بدعم من الفرنسيين، وأحرز بعض الانتصارات المنذرة بالخطر (1780). فأرسل هيبستجز الجند والمال من البنغال لمقاومته، ومات حيدر علي (1782) ولكن ابنه تيو صاحب واصل الحرب حتى انهزم نهائياً في 1792. ولعل رغبة هيبستجز في تمويل هذه الحملات هي التي ألجأته إلى حيل لجمع المال أفضت إلى اتهامه. ذلك أنه طالب شايت سنغ، راجا بنارس، بإعانة حرب تضاف إلى الدخل الذي كان ذلك الإقليم يدفعه للشركة سنوياً. واعتذر الراجا بعجزه عن الاستجابة. فقاد هيبستجز قوة صغيرة إلى بنارس (1781)، وخلع سنغ واقتضى مثلي الدخل من خلفه. ثم إن حاكم أوده المترخي في سداد ما فرضته عليه الشركة، أوضح أن في استطاعته السداد إذا ساعدته الشركة على إزامة أمه وجدته، ببحومي (أميرتي) أوده، بتسليمه بعض التركة التي خلفها لهما أبوه وقدرها 2.000.000 جنيه. وكانت أمه قد سلمته من قبل مبلغاً كبيراً بعد أن تعهد بالأبلا يطلب المزيد، وبذلت الشركة مثل هذا التعهد رغم اعتراض هيبستجز. ونصح هيبستجز الحاكم بتجاهل التعهد وأرسل جنود إلى الشركة إلى فيظبار، وأكره خدام الأميرتين الأغوات بالتعذيب على تسليم الثروة (1781)، فدفع الحاكم منها ديونه للشركة. (125)

صفحة رقم : 14088

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> إنجلترا والهند

وعاد السر فيليب فرانيس أثناء ذلك إلى إنجلترا بعد أن شفي من جراحه (1781)، وشرح للمديرين ولأصدقائه في البرلمان ما اعتبره من الجرائم التي اقترفتها هيبستجز. وفي 1782 وجه مجلس العموم اللوم إلى هيبستجز وغيره من وكلاء الشركة لأنهم "في حالات عديدة تصرفوا بطريقة بغيضة مجافية لشرف الأمة وسياستها"، ثم أمر المديرين باستدعائهم وأصدر المديرين الأمر، ولكن مجلس المؤسسين أبطله، ربما لأن ثورة ميسور كانت مستمرة.

وفي نوفمبر 1783 قدم تشارلز جيمس فوكس للبرلمان، بوصفه وزير دولة للشئون الخارجية في الوزارة الائتلافية، "مشروع قانون لإصلاح الهند" الو ووفق عليه لوضع شركة الهند الشرقية تحت هيمنة مندوبين تعيينهم الوزارة. وعلت شكوى النقاد بأن القانون سينتج للأعضاء الأحرار (الهويجز) أمثال فوكس وببرك معيناً من الغنائم تأتيهم بها هذه الرعاية. ومر القانون من مجلس العموم، ولكن الملك أرسل إلى مجلس اللوردات يقول أنه سيعيد أي رجل يصوت للمشروع عدواً له، فصوتوا ضده بأغلبية 95 إلى 76. وأودع نواب العموم احتجاجاً رسمياً يقرر أن هذا التدخل الملكي في التشريع عدوان صارخ على حق أعضاء البرلمان. وأقال الملك الوزارة الائتلافية (18 ديسمبر 1783) مدعياً أنها فقدت ثقة البرلمان، ودعا وليم بت، الذي كان في الرابعة والعشرين، لتأليف حكومة جديدة. وحل جورج الثالث البرلمان معتقداً أن في استطاعته الفوز في انتخاب قومي (23 مارس 1784) وأمر عملاءه ببث الرغبات والعطايا الملكية بين الناخبين ضمناً لعودة أغلبية محافظة. وجاء البرلمان الذي التأم شمله في 18 مايو مؤيداً لبت والملك تأييداً ساحقاً.

كان بت نابغة في الحكم والإدارة السياسيين وقد حقق له تقانيه البالغ في أداء الواجب، وإمامه المفصل بدقائق الأمور، وما عود نفسه عليه من التأمل الدقيق والحكم الحذر، تفوقا سرعان ما سلم به كل زملائه الوزراء تقريباً. وأصبح لإنجلترا الآن لأول مرة "رئيس" وزراء بعد روبرت

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> إنجلترا والهند

ولبول (الذي كان ابنه قد أطلق عليه هذا اللقب في 1773)(126)، لأن زملاء بت لم يكونوا يتخذون أي إجراء هام دون موافقته. والواقع أنه أنشأ "حكومة مجلس الوزراء" -مؤداها المدولة الجماعية والمسئولية الموحدة لكبار الوزراء تحت رئاسة واحدة. ومع أن بت تقلد المنصب مؤيداً للسلطة الملكية، إلا أن جده واجتهاده، وسعة معلوماته رفعتة شيئاً فشيئاً إلى مكان كان فيه مرشداً للملك أكثر منه تابعاً. وبعد نوبة الجنون الثانية التي أصابت الملك (1788) كان بت هو الذي حكم إنجلترا فعلاً.

وقد مكنته إمامه غير العادي بالتجارة والمال من إصلاح خزانة أبهظها خوض حربين ضروسين في جيل واحد إبهاضاً خطراً. وكان بت قد قرأ آدم سميث، ثم استمع إلى التجار ورجال الصناعة، فخفض الرسوم على الواردات، وعقد بعد المفاوضات مع فرنسا معاهدة تنص على خفض التعريفات الجمركية (1786)، وشرح صدر أقطاب الصناعة بتصريحه بأن الصناعيين ينبغي أن يكونوا عموماً معفين من الضرائب ثم عوض عن هذا بفرض الضرائب على الاستهلاك على الأوشحة والشاش والقفازات والقبعات والشموع والأرائك والملح والنيبيذ والأجر والقرميد والورق والشبابيك، وقد لجأت بيوت كثيرة إلى تكسية بعض نوافذها بالخشب خفضاً للضريبة (127). فما وافى عام 1788 حتى ووزنت الميزانية، ونجت إنجلترا من الإفلاس الحكومي الذي كان مفضياً بفرنسا إلى الثورة.

وكان بت قبل الانتخاب قد قدم للبرلمان "مشروع قانون الهند الأول" الذي هزم. فقدم الآن مشروعاً ثانياً: خلاصته أن يدير مجلس إشراف يعينه الملك العلاقات السياسية لشركة الهند الشرقية، أما العلاقات والرعاية التجارية فتترك في أيدي الشركة خاضعة لحق النقض الملكي. وأقر البرلمان المشروع (9 أغسطس 1784) وظل يهيمن على الشؤون البريطانية-الهندية حتى 1858.

أما فوكس وبيرك فقد رأيا في هذا الترتيب استسلاماً مخزياً لشركة اشتهرت بالفساد والإجرام. وكان لبيرك أسباب خاصة تدعوه للسخط. ذلك أن راعيه اللورد فرني، وأحاه رتشارد بيرك، وقربيه وليم بيرك،

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> إنجلترا والهند

كانوا من قبل مستثمرين في شركة الهند الشرقية، ثم نزلت بهم خسائر فادحة من جراء تقلبات أسهمها (128). وحين ذهب وليم بيرك إلى الهند زكاه إدموند لدى السر فيليب فرانسيس قائلاً أنه يحبه حباً جماً. فعين وليم صرافاً للرواتب، وتبين أنه "لا يقل فساداً عن غيره" (129).

وحين عاد فرانسيس إلى إنجلترا أفضى إلى بيرك وفوكس برأيه في إدارة هيبستجز، وكان من المصادر الذي استقى منها بيرك معرفته غير العادية بالشئون الهندية. ولعل هجوم الهويجز اللبراليين على هيبستجز كان بعض ما دفعهم إليه الرغبة في تشويه سمعة وزارة بت والإطاحة بها(130).

وفي يناير 1785 استقال هيبستجز وعاد إلى إنجلترا. وراوده الأمل في أن تشفع له السنون الطويلة التي أنفقها في الإدارة، وإصلاحه مالية الشركة حتى استطاعت الوفاء بديونها، وإنقاذه للقوة البريطانية في مدراس وبومباي، في معاش يثاب به، إن لم يكن ف يلقب نبالة يشرف به. وفي ربيع 1786 طلب بيرك إلى مجلس العموم تقديم السجلات الرسمية لحكم هيبستجز في الهند. ورفض تقديم بعض هذه السجلات، وأعطاه الوزراء بعضها الآخر. وفي أبريل طرح أمام المجلس بياناً بالتهمة الموجهة إلى حاكم البنغال السابق. وقرأ هيبستجز على المجلس رداً مفصلاً. وفي يونيو قدم بيرك تهماً تتصل بحرب روهلند، وطلب توجيه الاتهام إلى هيبستجز، ولكن مجلس العموم رفض تقديمه للمحاكمة. وفي 13 يونيو روى فوكس قصة شايت سنغ، وطلب تقديم هيبستجز للمحاكمة. وفاجأ بت مجلس وزرائه بالإدلاء بصوت في صف فوكس وبيرك، وحذا حذوه كثيرون من الوزراء الأعضاء في حزبه، ولعله رسم هذه السياسة ليفصل الوزارة عن مصير هيبستجز. ووفق على اقتراح تقديمه للمحاكمة بأغلبية 119 إلى 79. وقطع سير الدراما تأجيل البرلمان وحفظ القضايا الأخرى، ولكنها استؤنفت باستحسان عظيم في 7 فبراير 1787، يوم ألقى شريدان خطاباً قال فوكس وبيرك وبت فيه أنه أفضل خطاب سمع في مجلس العموم طوال تاريخه(131)، (عرض على شريدان ألف جنيه نظير نسخة مصححة من الخطاب، ولكنه لم يجد قط وقتاً للقيام بهذه المهمة، ولا تعرف الخطاب إلا من الخلاصات المخفضة)

صفحة رقم : 14091

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> إنجلترا والهند

وقد روى شريدان قصة سلب أميرتي أوده ونهبهما بكل ما أوتي من فن رجل ولد للمسرح، ويكل ما تضطرم به نفس رومانسية من غيرة وحماسة. وبع أن استغرق في خطابه أكثر من خمس ساعات، طالب بتوجيه الاتهام إلى هيبستجز.. وصوت بت ثانية في صف المحكمة، ووفق على الاقتراح بأغلبية 175 إلى 68. وفي 8 فبراير عين المجلس لجنة من عشرين-على رأسهم بيرك وفوكس وشريدان- لإعداد بنود الاتهام. وقدمت البنود، وفي 9 مايو أمر المجلس "المستر بيرك، باسم مجلس العموم.. أن يذهب إلى محكمة مجلس اللوردات ويوجه الاتهام للسيد وارين هيبستجز... بالجرائم والانحرافات الجسيمة". وقبض على هيبستجز وجيء به أمام اللوردات، ولكن أطلق سراحه بكفالة.

ثم بدأت محاكمته، بعد أن تعطلت طويلاً، في 13 فبراير 1788 في قاعة وستمنستر. وكل عشاق الأدب سينذكرون وصف ماكولي الرائع(132) للحشد التاريخي: اللوردات جلوساً وهم في فرائهم وذهبهم بوصفهم المحكمة العليا لمملكة، وأمامهم هيبستجز شاحب اللون مريضاً، وقد بلغ عمره الثالثة والخمسين، وطوله خمسة أقدام وست بوصات، ووزنه 122 رطلاً، والقضاة تتوج هاماتهم بواريك تغطي آذانهم، والأسرة المالكة، وأعضاء مجلس العموم، والشرفات غاصة بالسفراء والأميرات والدوقات، ومسر سيدونز بجمالها المهيب، والسر جوشوا رينولدز وسط العديد من وجوه القوم الذين صورهم، وفي جانب جلست اللجنة التي سميت الآن "المديرين" تتأهب لتقديم حجج الاتهام. ثم قرأ الكتبة بيان التهم وجواب هيبستجز، وراح بيرك في أقوى خطاب ألقاه في حياته، على مدى أربعة أيام، يصب فوق رأس المتهم سيلاً متدفقاً من الاتهامات. وأخيراً، في 15 فبراير، دوى في القاعة التاريخية صوته مجلجلاً يطالب في حماسة بالاتهام:

إني أنتم السيد وارين هيبستجز بجرائم وانحرافات جسيمة.
إني أنهم باسم نواب بريطانيا العظمى... الذي خان تقتهم البرلمانية..

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> إنجلترا والهند

إني أتهمه باسم شعب الهند، الذي هدم قوانينه وحقوقه وحرياته، ودمر ثرواته، وأقفر وطنه وخربه.
 إني أتهمه باسم قوانين العدل الأزلية التي انتهكها، وبمقتضى هذه القوانين...
 إني أتهمه باسم الطبيعة البشرية ذاتها، والتي اعتدى عليها بقسوة، وألحق بها الأذى وظلمها في الجنسين جميعاً، وفي كل عمر للناس، ومقام، ومركز، وحال من أحوال الحياة(133).
 ومضت المحاكمة تتخللها عشرات المقاطعات، وبيرك، وفوكس، وشريدان، وغيرهم يروون قصة ولاية هيستجز.
 فلما شاع أن شريدان سيفدم الدليل في قضية بيجومي أوده، ظهر 3 يونيو، غصت الشوارع المؤدية إلى قاعة
 وستمنستر من الثامنة صباحاً بالناس، وفيهم كثير من علية القوم، وكلهم تواق للعثور على وسيلة الدخول للقاعة. وباع
 البعض ممن حصلوا من قبل على تصريحات بالدخول تصريحاتهم بخمسين جنياً إنجليزياً (1.500 دولار؟)
 للتصريح. وفهم شريدان أن القوم يتوقعون منه درامياً، فأداه. وخطب في أربع جلسات، وفي آخر يوم (13 يونيو
 1788)، بعد أن ظل يخطب خمس ساعات، وقع إعياء بين ذراعي بيرك الذي عانقه. أما جبون الذي كان في الشرفة
 فقد وصف شريدان بأنه "ممثل قدير" ولاحظ أن الخطيب كانت عليه أمارات العافية حين ألم به المؤرخ صباح
 الغد(134).
 وكان ذلك الخطاب قمة المحاكمة. وكانت كل تهمة من قائمة التهم الطويلة تقتضي البحث والتحقيق؛ ولم يتعجل
 اللوردات مهمتهم، ولعلمهم تباطؤوا ليزيلوا الأثر الذي خلفته البلاغة، ويدعوا الاهتمام بالقضية ينصرف إلى أحداث
 أخرى، وجاءت الأحداث، فقد جن الملك جورج في أكتوبر 1788، وجن على نحو خطير تماماً، إذ فدحه ضغط
 المحاكمة وسوء سلوك ولده. فقد كان جورج أوغسطس فردريك، أمير وليم، فتي بديناً، طيب القلب، سمح النفس،
 متلاًفاً، عاشقاً للنساء، وكان

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> إنجلترا والهند

قد احتفظ بسلسلة متصلة من الخليقات، وتجمعت عليه ديون أداها أبوه أو الأمة. وفي 1875 تزوج سرّاً بالسيدة ماري
 آن فتر هيربرت، الكاثوليكية الرومانية التقيّة، التي تزلت من قبل مرتين، وكانت تكبر الأمير بست سنين. واقترح
 الأحرار بزعامة فوكس تأليف مجلس وصاية يرأسه الأمير، الذي ظل ساهراً ليلتين في انتظار إعلان بعد أهلية الملك.
 ولكن جورج الثالث شوش الموقف بفترات من سلامة العقل قطعت حالة جنونه، وكان خلالها يتحدث عن جاريك

وجونسن، ويغني لقطات من هندل، ويعزف على الناي. وفي مارس 1789 شفي، ونفض عنه سترته الضيقة، وأسأنف مراسم الحكم. وجاءت الثورة الفرنسية بمنصرف آخر عن المحاكمة. فقد تخلى بيرك عن مطاردة هيسنتجز وخف لنجدة ماري أنطوانيت. واتى تطرف خطبه وغلوها على البقية الباقية من شعبيته، وراح يشكو من تسلل أعضاء البرلمان إلى خارج القاعة متى بدأ الكلام. وكان أكثر الصحف يناوئه، وقد اتهمها بأن 200.000 جنيه قد استخدمت في شراء الصحفيين ليهاجموه ويدافعوا عن هيسنتجز؛ وما من شك في أن شطراً كبيراً من ثروة هيسنتجز قد أنفق في هذا السبيل (135) ولا بد أن بيرك لم يفاجأ حين برأ مجلس اللوردات ساحة هيسنتجز (1795) في نهاية المطاف، بعد مضي سنوات ثمان على الاتهام. وكان شعور الناس العام أن الحكم عادل: صحيح أن المتهم كان من نواحي كثيرة مذبناً، ولكنه استنقذ الهند لإنجلترا، وعوقب بمحاكمة حطمت صحته وآماله، وخلفته ملوث السمعة مفلساً. وعمر هيسنتجز بعد موت جميع متهميه. وأنقذته شركة الهند الشرقية من الإفلاس بالموافقة على إعطائه منحة قدرها 90.000 جنيه. فاسترد ضيعة أسرته الوراثة في ديلز فورد، وأصلحها، وعاش في بذخ شرقي. وفي 1813 طلب إليه الإدلاء بشهادته عن شئون الهند أمام مجلس العموم، فقوبل فيه بالتصفيق والاحلال، ونوه بخدماته، ومحبت أوزاره مع الزمن. وبعد أربع سنوات رحل عن هذه الدنيا، ولم يبق حياً من جيله الصاحب غير فرد واحد-هو الملك الأعمى المعتوه.

صفحة رقم : 14094

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا وفرنسا -> المسرحية السياسية -> إنجلترا والثورة الفرنسية

7- إنجلترا والثورة الفرنسية

بعد أن أوشك بيرك على استنفاد قوته في الحرب ضد شركة الهند الشرقية، ناصب الثورة الفرنسية العداء الشخصي، وخلال هذه الحملة الجديدة شارك بقسط كبير في الفلسفة السياسية. وكان قد تنبأ بالثورة قبل نشوبها بعشرين عاماً؛ "بهذا الضيق والحيرة البالغين تنوء كل مالية فرنسا، وتفوق نفقتها مواردها في كل ناحية، بحيث لم يعد مناص لك إنسان... نظر في شئونها بأقل اهتمام أو علم، من أن يترقب في كل لحظة حدوث اضطراب هائل في النظام بأجمعه ليس من اليسير التكهن بآثاره على فرنسا بل على أوروبا جميعها" (136). وفي 1773 زار فرنسا، وفي فرساي رأى ماري أنطوانيت وكانت آنذ زوجة لولي العهد، ولم ينس قط رؤياه تلك للجمال والغض والسعادة النضرة والكبرياء الشابة. وقد خلص إلى رأي طبيب في النبالة الفرنسية، وأطبيب منه في الكهنوت الفرنسي. وصدمة دعوة جماعة الفلاسفة المناوئة للكثلكة، بل المناوئة للدين في حالات كثيرة، وحين عاد إلى إنجلترا حذر مواطنيه من الإلحاد لأنه "أبشع وأقسى لظمة يمكن أن توجه إلى المجتمع المتمدن" (137).

فلما أن اندلعت نيران الثورة أفزع ذلك التهليل الذي لقيته من صديقه فوكس، الذي هتف لسقوط الباستيل باعتباره "أعظم حدث وقع في العالم... أفضله" (138). وكانت الأفكار الراديكالية المنبعثة من الحملات التي شنّها ولكس وجمعية مؤيدي الحقوق قد انتشرت في إنجلترا ببطء. واقترح كاتب معجور في 1761 الشيوعية دواء لكل الأدواء الاجتماعية إلا تكاثر السكان الذي خشي أن يبطل كل الجهود المبذولة للتخفيف من الفقر. (139) وتكونت في 1788 جمعية إحياء ذكرى ثورة 1688، وضمت بين أعضائها نفراً بارزاً من رجال الدين والنبلاء. فلما التئم شملها في 4 نوفمبر 1789، بلغ انفعالها وتأثرها بواعظ موحد يدعى رتشرد برايس حداً جعلها تبعث

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> إنجلترا والثورة الفرنسية

برسالة تهنئة للجمعية الوطنية في باريس، معربة عن الأمل في أن "المثل العظيم الذي ضربته فرنسا" قد "يشجع أمماً أخرى على تأكيد الحقوق الثابتة لبني الإنسان" (140) ووقع الرسالة إيرل ستانهوب الثالث، رئيس الجمعية ونسيب ولیم بت.

وأثارت العظة والرسالة مخاوف بيرك وغضبه. وكان ناهز الستين ووصل إلى حقه في أن يكون محافظ النزعة. وكان رجلاً متديناً يملك ضيعة كبيرة. لذلك لن ير في الثورة الفرنسية "أدهش ثورة وقعت في العالم إلى يومنا هذا" (141) فحسب، بل أعتى عدوان على الدين والملكية والنظام والقانون. وفي 9 فبراير 1790 أخبر مجلس العموم أن لو حدث أن أي صديق له وافق على أي إجراءات من شأنها أن تدخل إلى إنجلترا ديموقراطية كذلك التي تتشكل في فرنسا، لأنكر صداقته مهما طال رسوخها وعزت مكانتها. وهدأ فوكس الخطيب بإطرائه المشهور لبيرك كأفضل معلم له. وتأجلت القطيعة بينهما حيناً.

وفي نوفمبر 1790 نشر بيرك "تأملات في الثورة الفرنسية" على شكل رسالة (بلغ طولها 365 صفحة) إلى "سيد في باريس" وأصبح بيرك الآن بطل إنجلترا المحافظة، وهو الذي كان قد تزعم الأحرار خلال الثورة الأمريكية؛ وأعرب جورج الثالث عن ابتهاجه بخصمه القديم. وغدا الكتاب إنجيل الملوك والأرستقراطيات فبعثت كاترين الكبرى، التي كانت يوماً ما صديقة جماعة الفلاسفة وحببيتهم، تهنئاتها للرجل الذي كان قد نوى خلعهم عن عروشهم. (142).

وقد استهل بيرك كتابه بالإشارة إلى الدكتور برايس وجمعية إحياء ذكرى الثورة. ثم تأسف أسفاً شديداً على دخول رجال الدين حلبة المناقشات السياسية، وقال إن مهمتهم إرشاد النفوس إلى المحبة المسيحية لا إلى الإصلاح السياسي، وأنه لا يثق بحق تصويت الذكور العام الذي يدافع عنه برايس، فرأيه أن الأغلبية ستكون أشد طغياناً من الملوك، وأن الديموقراطية ستتحط إلى حكم الغوغاء، فالحكمة ليست في الكثرة بل في الخبرة. والطبيعة

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> إنجلترا والثورة الفرنسية

لا تعرف شيئاً عن المساواة، وما المساواة السياسية إلا أكذوبة بشعة لا يسفر بثها الأفكار الكاذبة والتطلعات الباطلة في رجال كتب عليهم السير في المسالك المجهولة للحياة الشاقة إلا عن تقاوم عدم المساواة الحقيقي، الذي لن تقوى إطلاقاً إلى إزالته" (143). والأرستقراطية لا محيص عنها، كلما أعرقت أجادت أداء وظيفتها، وهي أن توطد في صمت ذلك النظام الاجتماعي الذي بدونه يستحيل الاستقرار والأمان والحرية (144). والملكية الوراثية نظام حسن لأنها تهب الحكومة وحدة واستمراراً بدونهما تتردى علاقات المواطنين القانونية والاجتماعية في سبيل محموم مضطرب. والدين

حسن لأنع يعين على كبح تلك الدوافع غير الاجتماعية التي تستعر كأنها النار من تحت سطح الحضارة، والتي لا سبيل إلى ضبطها إلا بالتعاون المتواصل بين الدولة والكنيسة، وبين القانون والعقيدة، وبؤين الخوف والاحترام. وأولئك الفلاسفة الفرنسيون الذين قوضوا الإيمان الديني بين صفوف شعبهم المتعلمة إنما يحلون بحماقة تلك اللجم التي حالت بين الرجال وبين أن يصبحوا وحوشاً.

وقد أسخط بيريك انتصار الغوغاء في فرساي على "ملك معتدل شرعي" وعلى معاملته "بضراوة وعدوان وإهانة فاقت أي شيء" ثار به شعب على أشد المغتصبين على القانون وأكثر الطغاة تعطشاً للدماء(145). وهنا تقع الصفحة الشهيرة التي إنتشينا لها في شبابنا:

"لقد مضت الآن ستة أة سبعة عشر عاماً منذ رأيت ملكة فرنسا في فرساي وكانت يومها زوجة ولي العهد، والحق أنه ما من منظر أبهج من هذا حظ على هذا الكوكب الذي بدت وكأنها لا تمسه إلا مساً رفيفاً. لقد رأيتها فوق الأفق بقليل، تجمل وتبهج الدائرة الراقية التي همت بالتحرك فيها ساطعة كنجمة الصبح، فياضة بالحياة، والبهاء، والفرح. أية ثورة تلك! وأي قلب يجب أن تضمه جوانحي حتى أتأمل دون انفعال ذلك السمو وذلك السقوط! لم يخطر ببالي يوم كانت تجمع بين ألقاب التبجيل وألقاب

صفحة رقم : 14097

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> إنجلترا والثورة الفرنسية

الحب المتحمس، البعيد، المشرب بالاحترام، أنها ستضطر يوماً ما إلى حمل ذلك الترياق القاطع ضد الخزي، المخفي في ذلك الصدر، ولا خطر ببالي أنني سأعيش لأرى خطوباً كهذه نصيبها في أمة من الرجال البواسل، أمة من رجال كلهم شرف وكلهم شهامة. كنت أظن أن عشرة آلاف سيف لا بد قافزة من إغمارها لتنتأر حتى لنظرة واحدة تهددها بالإهانة. ولكن عصر الفروسية ولى، وخلفه عصر السوفسطائيين والاقتصاديين والحسابيين، وانطفأ مجد أوربا إلى الأبد"(146).

وضحك السر فيليب فرانسيس على هذا كله وقال إنه هراء رومانسي، وأكد لبيريك أن ملكة فلورنسا امرأة فاجرة لعوب(147). وكذلك رأها كثير من الإنجليز الوطنيين، على أن هوراس ولبول أكد أن بيريك صور ماري أنطوانيت "بالضبط كما بدت لي أول مرة رأيتها وهي ودية للعهد"(148).

فلما واصلت الثورة مسيرتها واصل بيريك هجومه فنشر "رسالة لعضو في الجمعية الوطنية" (يناير 1791) اقترح فيها أن تتحد حكومات أوربا لكبح جماح الثورة ورد ملك فرنسا إلى سلطته التقليدية. وروع الاقتراح فوكس، وفي 6 مايو، في مجلس العموم، انتهى الصديقان اللذان حاربا كتنفاً إلى كتف في حملات كثيرة جداً بتفوق طريقهما تفرقاً درامياً. فقد كرر فوكس ثناءه على الثورة. ولكن بيريك قام محتجاً وقال "ليس من الحكمة في أي وقت، خصوصاً في سني هذه، أن أستفز الأعداء، أو أعطي فرصة لأصدقائي ليتخلوا عني، ولكن إذا كان ولائي القوي الثابت للدستور البريطاني يضعني في هذه الورطة فإني على استعداد لركوب هذه المغامرة." فأكد له فوكس أن الخلافات في الرأي بينهما لا تتطوي على فصم لأواصر الصداقة. وأجاب بيريك "كلا كلا، إن فيها فقداً للأصدقاء. إنني أعرف ثمن سلوكي.. لقد انتهت صداقتنا." (149) ولم يعد بعدهما للكلام مع فوكس إلا رسمياً فيما أكرها عليه من اتحاد الموقف في محاكمة هيستنجز.

وقد قدم بيريك في كتاباته عن الثورة الفرنسية تعبيراً كلاسيكياً لفلسفة محافظة. وأول مبادئها عدم الثقة بمنطق فرد أياً كان نكاؤه إذا تعارض

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> إنجلترا والثورة الفرنسية

مع تقاليد النوع الإنساني. فكما أن الطفل لا يستطيع فهم أسباب المحاذير والنواهي الأبوية، فكذلك لا يستطيع الفرد، وما هو إلا طفل بالقياس إلى النوع، أن يفهم دائماً أسباب العادات والتقاليد والأعراف والقوانين التي تجسد تجربة أجيال كثيرة. والحضارة تستحيل "إذا ارتكزت ممارسة جميع الواجبات الأخلاقية، وأسس المجتمع، على جعل أسبابها ومبرراتها واضحة ثابتة بالبرهان لكل فرد". (150) لا بل حتى "الأحكام المسبقة" لها فائدتها، فهي تحكم سلفاً على المشكلات الحاضرة على أساس الخبرة الماضية.

فالعنصر الثاني من عناصر المحافظة إذن هو "حق التقادم": فالتقليد أو المؤسسة يجب احترامها احتراماً مضاعفاً وعدم تغييرها إلا نادراً إذا كانت مكتوبة فعلاً أو مجسمة في نظام المجتمع أو هيكل الحكومة. والملكية الفردية مثال على حق التقادم وعدم معقولية الحكمة في الظاهر. فإنه ليبدو من غير المعقول أن تملك أسرة واحدة ثروة كبيرة وأخرى ثروة ضئيلة، وأمعن في اللامعقولية أن يسمح للمالك بتوريث ثروته لخلقه الذين لم يحركوا أصبعاً في كسبها، ومع ذلك تبين بالتجربة أن الناس بوجه عام لن ينهضوا للعمل والدرس، ولا للتحصير الشاق المكلف، ما لم يصفوا ثمرات جهودهم بأنها ملكهم الخاص، لهم أن ينقلوها لغيرهم، إلى حد كبير، كما يشاءون. وقد أثبتت التجربة أن تملك الثروة أفضل ضمان يكفل حكمة التشريع واستمرار الدولة.

فليست الدولة مجرد تجمع أشخاص في مكان ما في لحظة ما، إنما هي تجمع أفراد على مدى الزمن المستطيل "إن المجتمع هو حقاً تعاقد... شركة لا بين الأحياء فحسب، بل بين الأحياء، والأموال، والذين سيولدون" (115). وذلك الاستمرار هو وطننا. في هذا الكل الثلاثي قد تكون الأغلبية الراهنة أقلية بمضي الزمن، ويجب على المشروع أن يراعي حقوق الماضي (خلال "حق التقادم") وحقوق المستقبل، رعايته لحقوق الحاضر الحي. والسياسة هي، أو ينبغي أن تكون، فن الموازنة بين أهداف الأقليات المتضاربة وصالح الجماعة المستمرة. ويضاف إلى هذا أنه ليس هناك حقوق مطلقة، فما هذه إلا تجريدات ميتافيزيقية لا تعرفها الطبيعة، وليس هناك إلا الرغبات، والقوى، والظروف، و "الظروف تضيء على كل مبدأ سياسي لونه المميز

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> إنجلترا والثورة الفرنسية

وأثره الفارق" (152) والمصلحة أهم أحياناً من الحقوق "ينبغي أن تكيف السياسة لا وفق الحجج البشرية [المجردة] بل وفق الطبيعة البشرية، التي ليس العقل فيها إلا جزءاً وليس أكبر جزء على الإطلاق" (153). "يجب أن ننقح بما يوجد من مواد" (154).

هذه الاعتبارات كلها يوضحها الدين. قد لا تكون عقائد دين من الأديان وأساطيره ومراسمه متفقة مع عقلنا الحاضر، ولكن هذا ليس بذي بال إذا اتفقت وحاجات المجتمع الماضية والحاضرة والمستقبلية. والتجربة قاطعة في أن عواطف الناس المشبوبة لا يمكن السيطرة عليها إلا بتعاليم الدين وشعائره "إذا نحن كشفنا عريناً [أطلقنا غرائزنا] بنبذ ذلك

الدين المسيحي الذي كان... مصدراً عظيماً للمدنية بيننا.. فإننا نخشى (ليقينا بأن الفكر لا يطبق فراغاً) أن تحل محله خرافة خرقاء، مؤذية، محطة (155) ".

ورفض الكثير من الإنجليز نزعة بيرك المحافظة باعتبارها تمجيداً للركود (156)، ورد عليه توماس بين بقوة في كتابه "حقوق الإنسان (1791-92). ولكن إنجلترا التي عاصرت شيخوخة بيرك رحبت عموماً بعبادته للسلف. فلما مضت الثورة الفرنسية في طريقها قدماً إلى مذابح سبتمبر، وأعدم الملكة والملك، وحكم الإرهاب، شعرت الكثرة العظمى من البريطانيين بأن بيرك أحسن التنبؤ بعواقب التمرد والكفر، وتشبثت إنجلترا قرناً كاملاً بدستورها، دستور الملك، والأرستقراطية، والكنيسة الرسمية، وبرلمان يفكر بلغة السلطات الإمبراطورية لا الحقوق الشعبية رغم أنها تخلصت من دوائرها الانتخابية، العفنة ووسعت حق التصويت. وبعد الثورة عادت فرنسا من روسو إلى مونتسكيو، وصاغ جوزف ديمستر آراء بيرك للفرنسيين التائبين صياغة جديدة. وواصل بيرك إلى النهاية حملته من أجل حرب مقدسة، واعتبظ حين أعلنت فرنسا الحرب على بريطانيا العظمى (1793). وأراد جورج الثالث أن يثيب عدوه القديم على خدماته الأخيرة فيرفعه إلى مقام النبالة ويخلع

صفحة رقم : 14100

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> إنجلترا والثورة الفرنسية

عليه لقب اللورد بكنزفيلد الذي شرفه دزرايلي فيما بعد، فرفض بيرك، ولكنه قبل معاشاً قدره 2.500 جنيه (1794). فلما بدأ الحديث يتردد عن إجراء مفاوضات مع فرنسا، أصدر "أربع رسائل عن سلام مع قتلة الملوك" (1797 وما بعدها)، طالب فيها بحرارة أن تستمر الحرب. ولم يطفئ لهيب ناره غير الموت (8 يوليو 1797). واقترح فوكس أن يدفن في كنيسة وستمنستر، ولكن بيرك كان قد ترك تعليمات بأن يشيع في جنازة غير رسمية ويدفن في كنيسة بكنزفيلد الصغيرة. وقد ذهب ماكولي إلى أنه أعظم إنجليزي منذ ملتن - وهو رأي ربما تجاهل شاتام؛ أما اللورد مورلي فقد وصفه في حذر أكثر، بأنه "أعظم أساتذة الحكمة المهذبة في لغتنا"، (157) وهو رأي لعل تجاهل لوك. على أية حال كان بيرك تجسيداً لما تاق إليه المحافظون عبثاً طوال عصر العقل - رجلاً استطاع الدفاع عن العرف بالبراعة التي دافع بها فولتير من قبل عن العقل.

صفحة رقم : 14101

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> الأبطال يتقاعدون

8- الأبطال يتقاعدون

حين تقدمت الثورة الفرنسية وجد تشارلز جيمس فوكس نفسه واحداً من أقلية متضائلة في البرلمان وفي الوطن. وانحاز كثيرون من حلفائه إلى الرأي القائل بوجوب انضمام إنجلترا إلى بروسيا والنمسا في مقاتلة فرنسا. وبعد إعدام لويس السادس عشر وجد فوكس نفسه وقد انقلب على الثورة ولكنه ظل على معارضته الدخول في الحرب. فلما اندلعت الحرب رغم ذلك عزي نفسه بالشراب، وقراءة الأدب القديمة، وبالزواج (1795) من السيدة اليزابيث أرمستد، خليلته السابقة (وخلييلة اللورد كافندش، واللورد داربي، واللورد كولموندلي)، التي أدت عنه ديونه (158). وقد رحب بصلح أميان (1802)، وقام برحلة في فرنسا، فاستقبل هناك بأسباب التكريم الحكومية والشعبية، واستقبله نابليون مواطناً للحضارة. وفي 1806 تقلد وزارة الخارجية في "وزارة جميع المواهب"، وقد جاهد ليحتفظ بالسلام مع فرنسا، وأيد تأييداً قاطعاً حملة ولير فورس على تجارة الرقيق. وحين نتاهى إليه نبأ مؤامرة دبرت لاغتيال نابليون أرسل إلى

صفحة رقم : 14102

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> الأبطال يتقاعدون

الإمبراطور تحذيراً بطريق تاليران، ولعل فوكس كان واجداً سبيلاً التوفيق بين طمع بوناپرت وأمن إنجلترا لولا انهيار صحته. ولكن في يوليو 1806 أعجزه داء الاستسقاء، وأخفقت سلسلة من الجراحات المؤلمة في وقف سير المرض، فتصالح مع الكنيسة الرسمية، وفي 13 سبتمبر مات مبكياً عليه من أصدقائه وأعدائه، وحتى من الملك. لقد كان أوفر رجال جيله حظاً من المحبين. وسبقه إلى أقباء كنيسة وستمنستر بت الابن الذي شاخ قبل أوامه. فقد وجد هو أيضاً أنه لن يستطيع احتمال خطو الحياة السياسية السريع إلا بنشوة السكر تتسبه همومه من حين إلى حين. وكانت سلامة عقل جورج الثالث القلقة مشكلة دائمة، فكل صراع خطير في وجهات النظر بين الملك ووزيره قد يخل باتزان الرأس المتوج بأمير ويلز وصياً، بطرد بت ويستدعي فوكس ليحل محله. وعليه فقد تحلى بت عن خطئه في الإصلاح السياسي، وسحب معارضته لتجارة الرقيق، حين وجد أن في هاتين المسألتين، كما في كثير غيرهما من المسائل، كان جورج مصمماً بروح المشاكسة على تخليد الماضي. وركز بت عبقريته على التشريع الاقتصادي، الذي خدم فيه الطبقة الوسطى الصاعدة. ثم قاد إنجلترا على كره شديد في حرب ضد من سماهم "أمة من الملحدين" (159) ولم يحسن البلاء وزيراً للحرب. فحين خشي أن يغزو الفرنسيون أيرلندة، حاول تهدئة الإيرلنديين ببرنامج من الوحدة البرلمانية والتحرير الكاثوليكي، ولكن الملك تصلب، واستقال بت (1801). ثم عاد (1804) ليرأس وزارته ثلثية. ولم يكن كفوءاً لمقارعة نابليون، فلما جاء نبأ نصر الفرنسيين في أوسترلنز (2 ديسمبر 1805) ذلك النصر الذي جعل نابليون سيد القارة، انهار بت جسداً وروحاً. وحين وقع بصره على خريطة لأوربا قال لصديق له "اطو هذه الخريطة، فلن يكون هناك حاجة إليها هذه السنين العشر" (160). ومات في 23 يناير 1806، فقيراً فقراً مشرفاً، غير متجاوز السادسة والأربعين. ثم اقتضت الحياة وقتاً أطول لتقضي على شريدان. وكان قد انضم إلى بيرك وفوكس في الدفاع عن أمريكا وفي حوض معركة هيبستنز، وأيد فوكس في التصفيق للثورة الفرنسية. غير أن الزوجة التي كان سحرها ودمائة

صفحة رقم : 14103

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> المسرحية السياسية -> الأبطال يتقاعدون

طبعها حديثاً محبباً بين أصدقائه، والتي جعلت من جمالها منبر خطابة لتعيينه على الظفر بكرسي في البرلمان، هذه الزوجة ماتت بالسل وهي في الثامنة والثلاثين من عمرها (1792). فانهار شريدان. وقال أحد معارفه عنه "رأيتَه الليلة بعد الليلة يبكي كأنه طفل" (161) وقد وجد بعض العزاء في الفتاة التي أنجبتها له، ولكنها ماتت في السنة ذاتها. وفي شهور الحزن تلك واجه مهمة إعادة بناء مسرح دروري لين الذي لم يعد مأموناً لقدمه وتداعي مبانیه، ولكي يمول هذه العملية تحمل نفقات باهظة. وكان قد وعد نفسه العيش المترف؛ الذي عجز دخله عن الإنفاق عليه، لذلك استدان ليوصل أسلوب حياته. وحين كان دائنوه يحضرون إليه ليطالبوه بديونهم كان يحتفي بهم كأنهم اللوردات، ويقدم إليهم الشراب والتحية المهدبة والنكتة الذكية ثم يصرفهم في حال من الرضى يكاد ينسى الدائن دينه. وقد ظل نشيطاً في البرلمان حتى 1812 حين أخفق في إعادة انتخابه. وكان من قبل يتمتع بالحصانة من الاعتقال بصفته عضواً في مجلس العموم، أما الآن فقد أطبق عليه دائنوه، واستولوا على كتبه، وصوره، ومجوهراته، وأخيراً أوشكوا على حمله إلى السجن لولا أن طبيبه حذرهم من أن شريدان قد يموت في الطريق. ثم قضى نحبه في 7 يوليو 1806 وهو في الخامسة والستين. وقد عاوده الغنى في مآتمه، لأن سبعة لوردات وأسقفاً شيعوه إلى مقبرة وستمنستر. أما الملك نصف المجنون فقد عمر بعدهم أجمعين، بل عمر حتى رأى انتصار إنجلترا في واترلو وإن لم يعلم به. وقد أدرك بحلول عام 1783 أنه أخفق في محاولته جعل الوزراء مسئولين أمامه لا أمام البرلمان. وأضنته صراعاته الطويلة التي لم يكن كفاء لها مع مجلس العموم، وأمريكا، وفرنسا. وفي 1801 و1804 و1810 انتكس إلى جنونه، وظفر في النهاية بتلك الشعبية التي حرمها أيام كفاحه، مشوية بالشفقة على رجل رأى إنجلترا تصاب بالهزائم الكثيرة ولم يتح له أن يشهد انتصارها. وكان موت ابنته أميليا (1810) الأثيرة لديه ما أكمل القطيعة بينه وبين دنيا الواقع. وفي 1811 كف بصره وبات مجنوناً جنوناً لا شفاء منه، وظل معزولاً تفرض عليه الحراسة حتى مات (29 يناير 1820).

صفحة رقم : 14104

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الشعب الإنجليزي -> أساليب الحياة الإنجليزية

الفصل التاسع والعشرون

الشعب الإنجليزي

1- أساليب الحياة الإنجليزية

حسبنا هذا القدر عن الحكومة، فلننظر الآن في أحوال الشعب. أولاً تأمل أشكال بنيتهم. فما من شك في أن رينولدز تسامى بها، فأظهرنا غالباً على المحظوظين حملة ألقاب النبالة، وأضفى على أجسادهم البدينة بهاء من أرواب الشرف وشاراته. ولكن استمع إلى جوته يصف الإنجليز الذين شاهدتهم في فايمار! "يا لهم من قوم ملاح الوجوه رائعي السميت!" -وأقلقه الخوف من أن يصرف هؤلاء البريطانيون الشبان، المملوون ثقة في أنفسهم، الذين تفيض عنهم السلطة عفواً، الفتيات الألمان عن الافتتان بالرجال الألمان(1). وقد احتفظ كثيرون من هؤلاء الشبان بقوامهم حتى تقدم بهم العمر، ولكن الكثيرين انتفخت كروشهم وخطوهم حين خلفوا ملاعب مدارسهم إلى لذات المائدة، وتفتحو كأثم الورود الحمراء القانية، وكافحوا في هدأة الليل ذلك النقرس الذي غدوه أثناء النهار المرح. وقد ضاع شيء من الخشونة الإليزابيثية في القصف الذي رافق عودة الملكية. أما النساء الإنجليزيات فقد أصبحن أجمل مما كن في أي وقت مضى، على لوحات الرسامين على الأقل: قسماً دقيقة، شعر تجمله الأزهار والأشرطة، وأسرار غامضة يغلفها الحرير، وقصائد من الشعر كلها رشاقة وجلال. وكانت فوارق الزي الطبقية في طريقها إلى الزوال بفضل ما جد من وفرة في الثياب القطنية التي تنتجها المصانع المتكاثرة، ولكنه ظلت على

صفحة رقم : 14105

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الشعب الإنجليزي -> أساليب الحياة الإنجليزية

حالتها في المناسبات الرسمية. وقد ركب اللورد ديرونتووتر إلى موضع إعدامه في سترة قرمزية وصدريّة موشاة بالذهب(2). أما البواريك فكانت دولتها تدول، ثم اختفت حين فرض بت الثاني الضرائب على المسحوق الذي يزيل رائحتها الكريهة، ولكنها عمرت على رعوس الأطباء، والقضاة، والمحامين، وعلى رأس صموئيل جونسن؛ وقنع معظم الرجال الآن بشعرهم الطبيعي يلملمونه على أقبعتهم في ضفيرة معقودة بشريط. وحوالي 1785 أطال بعض الرجال سراويلهم من الركبة إلى ريلة الساق؛ وفي 1793 تركوها تصل إلى الكاحل تقليداً للهان-كيلوت الفرنسيين الطافرين، هكذا ولد الرجل العصري، أما النساء فظللن يغطين صدورهن بالمخمرات حتى يشرفن على الاختناق، ولكن التنورة المطوقة أخذت تقفد ذبوعها وعرضها، وبدأت الفساتين تتخذ تلك الخطوط الإنسيابية التي استهوتنا أيام الشباب.

أما النظافة فلم تكن من الإيمان إلا فيما ندر، لأن الماء كان ترفاً. فالأنهار جميلة ولكنها عادة ملوثة، وكان التيمز أشبه بالمصرف(3). وكان الماء يفرغ في مواسير بيبوت لندن ثلاث مرات في الأسبوع نظير ثلاث شلنات للكوارتر(4)، وكان لبعض المنازل مراحيض آلية، وقليل منها كان له حمامات بماء جار. وكان معظم المراحيض (التي درج القوم على تسمية الواحد منها أريحا) خارج الأسوار، مبنية فوق حفر مكشوفة ترسل نزاها خلال التربة إلى آبار يأتي منها

قدر كبير من ماء الشرب(5). على أن العناية بالصحة العامة أخذت تتحسن، والمستشفيات تكثر، وهبطت وفيات الأطفال من أربعة وسبعين في كل مائة مولود عام 1749 إلى واحد وأربعين عام 1809(6). ولم يكن أحد من الناس يشرب الماء إذا استطاع الحصول على شراب أكثر أمناً. وكانت الجعة تعد طعاماً، لا غنى عنه لأي عمل شاق، أما النبيذ فدواء مفضل، أما الويسكي فموقد متنقل، وأما السكر فخطيئة عرضية، إن لم تكن جزءاً ضرورياً لمسايرة المجتمع. قال الدكتور جونسن "أذكر الأيام التي كان فيها جميع الأشخاص المهذبين من أهل لتشفيلد

صفحة رقم : 14106

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الشعب الإنجليزي -> أساليب الحياة الإنجليزية

يسكرون كل ليلة، ولم يسؤ رأي الناس فيهم لسكرهم هذا"(7). وكان بت الثاني يحضر إلى مجلس العموم مخموراً، واللورد كورنواليس يذهب إلى الأوبرا ثملاً(8). وكان بعض سائقي عربات الأجرة يزيدون دخولهم بطواف الشوارع في جوف الليل والتقاط السادة "الميسوتين" وتوصيلهم لبيوتهم. ثم تناقص السكر بتقدم القرن، واضطلع الشاي ببعض مهمة تدفئة الأوصال وإطلاق الألسنة. وزادت واردات الشاي من مائة رطل عام 1668 إلى أربعة عشر مليون رطل عام 1786(9). وكانت مشارب القهوة الآن تقدم الشاي أكثر من القهوة. أما وجبات الطعام فكانت شهية، دامية، هائلة الحجم. وكان الغداء يقدم حوالي الساعة الرابعة عصراً لعلية القوم، ثم آخر شيئاً فشيئاً إلى السادسة باقتراب القرن من نهايته. وقد يهدئ رجل مستعجل جوعه بشطيرة (ساندوتش). وقد اتخذت هذه البدعة اسمها من إيرل ساندوتش الرابع الذي ألف أن يتناول شريحتين من الخبز بينهما لحم متحاشياً قطع القمار بالغداء. أما الخضراوات فتؤكل على مبيض. وقد قال جونسن لبوزويل في 1773 "أن التدخين انتهت موضته"، ولكن القوم كانوا يتناولون التبغ نشوقاً. وشاع استعمال الأفيون مسكناً أو علاجاً. وكان في وسع الرجل الإنجليزي وهو على المائدة أن يشرب حتى ينطلق لسانه، وعندها قد يضارع الحديث نظيره في صالونات باريس ظرفاً وبيزه جوهراً. وذات يوم (9 أبريل 1778) اجتمع فيه جونسون، وجبون، وبوزويل، وآلن رمزي، وغيرهم من الأصدقاء، في بين السر جوشوا رينولنز، قال الدكتور (جونسون) ملاحظاً "أشك في إمكان جمع شمل لفيف كهذا الذي يجلس حول هذه المائدة في باريس في أقل من نصف سنة"(10). وكانت المحافل الأرسنقراطية تؤثر الحديث الطريف على حديث العلماء، وتفضل سلوبين على جونسن. وكان جورج سلوبين أوسكار وابلد القرن الثامن عشر. وقد طرد من أكسفورد (1745) لأنه "زعم في زندقته أنه يتقمص شخصية المخلص المبارك، ولأنه سخر من سر القربان المقدس"(11)،

صفحة رقم : 14107

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الشعب الإنجليزي -> أساليب الحياة الإنجليزية

ولكن هذا لم يحل بينه وبين الحصول على وظائف شرفية مجزية في الإدارة الحكومية، أو الجلوس والنوم في مجلس العموم من 1747 إلى 1780، وكان له العديد من الأصدقاء، ولكنه لم يتزوج قط. وكان ولوعاً بمشاهدة تنفيذ أحكام الإعدام، ولكنه تغيب عن مشهد إعدام رجل كان سميّاً لتشارلز جيمس فوكس، عدوه السياسي الذي كان يتطلع إلى رؤيته يتأرجح على حبل المشنقة قال "أنني حريص على ألا أحضر "البروفات" أبداً" (12). وقد ظل هو وهوراس ولبول صديقين حميمين طوال ثلاثة وستين عاماً دون أن تكدر صفو صداقتهما سحابة أو امرأة. أما الذين لم يستمتعوا بمناظر الإعدام فكان في وسعهم أن يتخبروا ما طاب لهم من بين عشرات الملاهي الأخرى، من لعبة الورق المسماة "هويست" أو مشاهدة قتال الطيور، إلى سباقات الحفل أو النزال بين خصوم للظفر بجائزة. وكان الكريكت الآن اللعبة القومية. وكان الفقراء يبددون أجورهم في الحانات، والأغنياء يقامرون بثروتهم في الأندية أو البيوت الخاصة ويقول ولبول عن جلسة قمار في بيت الليدي هرتفورد "إنني خسرت ستة وخمسين جنيهاً في لحظات" (13). وقد أطلق جيمس جلراي، في رسومه الكاريكاتورية الشهيرة على أمثال هؤلاء المضيفات "بنات فرعون" (14) وكان تقبل الخسائر في هدوء أول الصفات المطلوبة في الرجل الإنجليزي المهذب، حتى ولو انتهى به الأمر إلى إطلاق الرصاص على رأسه.

ولقد كان ذلك العالم عالم الرجل، قانونياً واجتماعياً وأخلاقياً. فكان الرجال يستمتعون بمعظم لذاتهم الاجتماعية مع غيرهم من الرجال، ولم ينظم لعضوية الجنسين حتى عام 1770. وكان الرجال يشبثون الثقافة والفكر في النساء، ثم يشكون من عجز النساء عن الحديث المثقف. ومع ذلك وفقت بعض النساء في تثقيف عقولهن. فتعلمت السيدة إليزابيث كارتير التكلم باللاتينية والفرنسية والإيطالية والألمانية، ودرست العبرية والبرتغالية.

صفحة رقم : 14108

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الشعب الإنجليزي -> أساليب الحياة الإنجليزية

والعربية، وترجمت ابكتيس بدرية باليونانية ظفرت بثناء جونسن. وقد احتجت على عزوف الرجال عن مناقشة الأفكار مع النساء، وكانت إحدى السيدات اللاتي جعلن "نوات الجوارب الزرقاء" (أي النساء المثقفات) حديث المثقفين من أهل لندن.

وقد أطلق هذا اللقب أول مرة على الاجتماعات المخلطة في بيت السيدة إليزابيث فزي بشارع هرتفورد بحي مايفير. في هذه اللقاءات المسائية حضر لعب الورق وشجع النقاش في الأدب. والتقت السيدة فزي ذات يوم بينامين ستيلنجفيليت، الذي اشتهر فترة قصيرة بأنه شاعر وعالم نباتي وفيلسوف، فدعته إلى حفل استقبالها القادم، فاعتذر بأنه لا يملك ملابس تصلح لأن يحضر بها حفلة. وكان يرتدي جورباً أزرق. فقالت له "لا تهتم باللباس، تعال لابساً جواربك الزرقاء". وذهب. ويروي بوزويل "أن حديثه كان غاية في الروعة حتى... ألف القوم أن يقولوا.. "لا نفعل شيئاً بدون الجوارب الزرقاء"، وهكذا ثبت اللقب شيئاً فشيئاً" (15)، وأصبح يطلق على جماعة السيدة فزي "جماعة الجوارب الزرقاء" Bas Bleu Society. وكان يختلف إليهم جاربيك وولبول، وذات مساء روع جونسن الحاضرين جميعاً بحديث من أحاديثه الفخمة الطنانة.

أما "ملكة الزرق" كما لقبها جونسن فهي إليزابيث روبنسن مونتاجيو. وكانت زوجة إدوارد مونتاجيو، حفيد إيرل ساندوتش الأول وقريب إدوارد ورتلي مونتاجيو، زوج السيدة ماري الهوائية التي نوهنا بها في صفحات سالفة (16). وكانت إليزابيث مفكرة، ودارسة، ومؤلفة، وقد دافع مقالها "كتابات شكسبير وعبريته" (1769) في سخط عن الشاعر القومي ضد نقد فولتير القاسي. وكانت غنية في وسعها أن تضيف زوارها على مستوى رفيع. وقد جعلت من الحجرة الصينية التي في بيتها الواقع في ميدان باركلي الملتقى المحبوب لمفكري لندن وحسانها، فأم الندوة رينولدز وجونسن وبيرك وجولدسمث وجاربيك وهوراس ولبول وفاني وبيرني وهانا مور؛ وهناك التقى الفنون بالمحاميين، والأساقفة بالفلاسفة، والشعراء بالسفراء. وكان "الطاهي البارح" الذي استخدمته السيدة مونتاجيو يطهو لهم من الطعام

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الشعب الإنجليزي -> أساليب الحياة الإنجليزية

ما يشرح لهم صدورهم جميعاً، ولكن لم يكن يقدم للجماعة مسكر، وكان السكر محظوراً. وكانت تلعب دور الراحية لبراعم المؤلفين، وتنتشر هباتها يمنة ويسرة. وفتح غيرها من سيدات لندن كالسيدة ثريل، والسيدة بوسكاوين، والسيدة مونكتون-بيوتهن للموهبة والجمال. وغدا المجتمع مزدوج الجنس، وبدأ ينافس باريس في شهرة صالوناته وعقريتها.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الشعب الإنجليزي -> الأخلاق الإنجليزية

2- الأخلاق الإنجليزية

يقول آدم سميث "في كل مجتمع رسخ فيه التمييز بين مراتب الناس يوماً رسوخاً تاماً، كان هناك على الدوام مخططان أو نظامان للأخلاق ساريان في الوقت معاً، يمكن أن يسمى الواحد الصارم أو المترمتم، والآخر المتحرر، أو إن شئت المتحلل. أما الأول فتعجب به وتبجله عامة الشعب بوجه عام، وأما الثاني... فيلقي تقديراً واعتناقاً أكثر ممن نسميهم المجتمع العصري" (17) وقد وصف جون وسلي، الذي كان ينتمي للطبقة المترمتم، الأخلاق الإنجليزية في 1757 بأنها خليط من التهريب، والإيمان الكاذبة، والفساد السياسي، والسكر، والقمار، والغش في المعاملات، والخداع والتحايل في المحاكم، والخنوع في رجال الدين، ومحبة العالم بين الكويكرز، واختلاس أموال البر سرراً (18). وتلك شئنا نعرفها منذ القدم.

وكان التمييز بين الجنسين يومها كما هو اليوم غير كامل إطلاقاً. فحاول بعض النساء أن يكن رجالاً، وكدن ينجحن في هذه المحاولة؛ ونسمع عن حالات تنكر فيها النسوة في هيئة الرجال واحتفظن بهذا المظهر الخداع حتى مماتهن؛ والتحق بعضهن بالجيش أو البحرية بوصفهن رجالاً، وكن يسكرن ويدخن ويشتمن الرجال، ويقاتلن في المعارك، ويحتملن الجلد بشجاعة الرجال (19). وحوالي 1772 انتشر الغنادير Macaronis في شوارع لندن. وكانوا شباناً أرسلوا شعورهم في خصلات معقوفة طويلة، يلبسون ثياباً غالية ذات ألوان لافتة للنظر و "يعاشرون البغايا بغير حرارة"، وقد وصفهم سلوين بأنهم "ضرب من الحيوان لا هو بالذكر ولا بالأنثى، ولكنه جنس بين بين" (20) وكان للواط مواخيره، رغم أن الأفعال الجنسية الشاذة كان عقابها الإعدام إن اكتشفت وثبت ارتكابها.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الشعب الإنجليزي -> الأخلاق الإنجليزية

وقد زكا المعيار الأخلاقي المزدوج. فكانت مئات المواخير ترفه عن الرجال المنتخبين، ولكن هؤلاء الرجال كانوا يسمون انعدام العفة في المرأة جريمة لا يكفر عنها غير الموت. فانظر إلى جولدسميث الرقيق يقول؛ "إذا تدنت امرأة جميلة إلى إتيان الحماسة ثم اكتشفت بعد الأوان أن الرجال خوافون فأى تميمة تستطيع أن تهدئ اكتئابها، وأي حيلة يمكن أن تمحو ذنبها؟ لا حيلة تجدي لإخفاء ذنبها، ولمواراة عارها عن أعين الناظرين، وإتاحة الندم لحبيبها وإشعاره بالوجعة-لا حيلة إلا الموت" (21).

وقد نصحووا بالزواج الباكر وأقياً من هذه الكوارث وأجاز القانون زواج البنات في الثانية عشرة، والصبيان في الرابعة عشرة. وتزوج معظم نساء الطبقات المتعلمة صغراً وأجلن انحرافاتهن، ولكن المعيار المزدوج كان يكبح جماحهن. استمع إلى جونسون يقول في الزنا (1768): "أن اختلاط الأنساب لب هذه الجريمة، فالمرأة التي تحنت بعهود الزواج أشد إجراماً من الرجل الحانت بعهوده. حقاً أن الرجل مجرم أمام الله، ولكنه لا يؤذي إماته أذى بالغاً جداً إن لم يهنها، أي إذا تسلل مثلاً إلى مخدعها لفرط شهوته. على الزوجة يا سيدي ألا يسوئها هذا كثيراً. ولن أستقبل في بيتي ابنة لي هربت من زوجها لهذا السبب. وينبغي للزوجة أن تحاول إصلاح حال زوجها ببذل المزيد من الاهتمام براضاته. سيدي، أن الرجل لن يترك زوجته حتى في حالة واحدة من مائة حالة، ويذهب إلى مومس، ما لم تهمل زوجته في إمتاعه" (22).

وكانت الفكرة المسلم بأنها شيء عادي تماماً في حلقة بوزويل وأصحابه هي أن يختلف الرجل إلى المومسات بين الحين والحين. وكان الزنا في الطبقة الأرستقراطية وحتى في الأسرة المالكة واسع الانتشار. فكان الدوق

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الشعب الإنجليزي -> الأخلاق الإنجليزية

جرافتن يعاشر نانسي بارسونز علانية وهو كبير الوزراء، ويصحبها إلى الأوبرا على مرأى من الملكة (23). أما الطلاق فنادر، ولا سبيل للحصول عليه إلا بقانون برلماني، ولما كان هذا يكلف "عدة آلاف من الجنيهات" فإنه كان ترف الأغنياء، ولم يسجل في الفترة من 1670 إلى 1800 غير 132 إذن بالطلاق (24). وكان الظن بوجه عام أن أخلاق العامة خير من أخلاق أشرافهم، ولكن جونسن ذهب إلى العكس (1778): "لا يقل الزنا والخيانة والزوجية بين الزارع عنهما بين النبلاء" و "على قدر ما لاحظت، كلما علا مقام السيدات وازددن ثراء، كن أفضل تهديباً وأكثر عفة" (25). وقد صور أدب ذلك العصر الفلاح، كما نرى في فيلدينج وبيرنز، يشارك كل نهاية أسبوع تقريباً في الحفلات الصاخبة ويسرف في الشراب، وينفق نصف أجره في الحانات، وبعضه على المومسات. ولقد كانت كل طبقة تأثم وفق طرائقها ومواردها.

وكان الفقراء يقتتلون بقبضات أيديهم وبالنبابيت، والأغنياء بالطبجات والسيوف. وكانت المبارزة مسألة تتصل بالشرف في طبقة النبلاء. فقد بارز فوكس آدم، وشلبيرن فولرتن، وبت الثاني تيرني؛ وكان عسيراً على المرء أن يجوز حياة النبالة دون جرح واحد على الأقل. وتشهد القصص الكثيرة على هدوء السادة البريطانيين ورباطة جأشهم في هذه اللقاءات. وقد أكد اللورد شلبيرن لشاهديه اللذين ساورهما القلق حين أصابه جرح في أصل فخذه "لست أظن أن الليدي شلبيرن سيزيدها هذا الجرح سوءاً" (26).
وشر من تجلج الأخلق الجنسية ما شاع من ضراوة الاستغلال الصناعي: ذلك الاستهلاك القاسي للحياة الإنسانية في سبيل التنكالب على الأرباح؛ واستخدام الأطفال في سن السادسة في المصانع أو تطهير المداخن؛ وإفقار الآلاف من الرجال والنساء فقراً مدقعاً بكرههم على بيع أنفسهم إلى العبودية لأجر لها نظير الرحلة إلى أمريكا؛ والحماية الحكومية لتجارة الرقيق باعتبارها مصدراً غالباً من مصادر ثروة إنجلترا.
وكان التجار يبحرون إلى أفريقيا من لفربول وبرستل ولندن كما

صفحة رقم : 14113

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الشعب الإنجليزي -> الأخلاق الإنجليزية

يبحر غيرهم من هولندا وفرنسا فيشترون الزنوج ويقتنصونهم، ويشحنونهم إلى جزر الهند الغربية، ويبيعونهم هناك، ثم يعودون إلى أوربا بشحنات رابحة من السكر أو التبغ أو الروم. وبحلول عام 1776 كان التجار الإنجليز قد حملوا إلى أمريكا ثلاثة ملايين من العبيد، ويضاف إليهم 250.000 ماتوا في الرحلة وقذف بهم في البحر. وقد منحت الحكومة إعانة سنوية قدرها 10.000 جنيه للشركة الأفريقية وخليفتها "الشركة المنظمة" لدعم قلاعها ومحطاتها في أفريقيا، بحجة أنهما "أنفع ما كونه تجارنا من شركات لهذه الجزيرة" (27). وحظر جورج الثالث (1770) على حاكم فرجينيا "أن يوافق على أي قانون يحرم أو يعوق استيراد شحنات العبيد على أي وجه" (28). وفي 1771 كان في إنجلترا نحو أربعة عشر ألف زنجي جلبهم سادتهم المستعمرون أو أبقوا منهم، وقد استخدم بعضهم خدماً في البيوت دون أن يكون له حق في تقاضي الأجور (29). وبيع البعض في المزادات العلنية، كما حدث في لفربول علم 1766 (30). على أن محكمة إنجليزية قضت في 1772 بأن العبد يصبح حراً تلقائياً في اللحظة التي يطأ فيها أرض إنجلترا (31).

ثم تنبه ضمير إنجلترا ببطء إلى التناقض بين هذه التجارة وأبسط أوامر الدين أو الأخلاق. فندد بها ألمع العقول في بريطانيا: جورج فوكس، ودانيال ديفو، وجيمس طومسن، ورتشرد ستيل، والكسندر بوب، ووليم بالي، وجون وسلي، ووليم كوبر، وفرنسيس هنتسن، ووليم روبرتسن، و آدم سمت، وجوسيا ودجوود، وهوراس ولبول، وصموئيل جونسون، وإدموند بيرك، وتشارلز جيمس فوكس. أما أول معارضة منظمة للرق فقد قامت بها طائفة الكويكرز في إنجلترا وأمريكا؛ ففي 1761 حرموا من عضويتهم كل مشتغل بهذه التجارة، وفي 1783 كونوا جمعية "الإغاثة وتحرير العبيد الزنوج في الجزر الهند الغربية، ولتنشيط تجارة الرقيق على ساحل أفريقيا" (32). وفي 1783 ألف جرانفل شارب لجنة للتعجيل بإلغاء تجارة الرقيق؛ وفي 1789 بدأ وليم ولبرفورس حملته الطويلة في مجلس العموم لإنهاء التجارة الإنجليزية في العبيد. وقد أقتع

صفحة رقم : 14114

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الشعب الإنجليزي -> الأخلاق الإنجليزية

التجار المجلس المرة بعد المرة بتأجيل مشروعه، ولم يصدر المجلس القانون الذي حرم على أي سفينة أن تحمل عبيداً من أي ثغر في الممتلكات البريطانية بعد أول مايو 1807، أو لأي مستعمرة بريطانية بعد أول مارس 1808، إلا عام 1807.

أما في ميدان الأخلاق السياسية فإن إنجلترا كانت الآن في الحضيض. فقد زكا نظام الدوائر الانتخابية العفنة، وعرض الدهاقنة من ولاية الهند السابقين لها أثماناً باهظة. وقد أسف فرانكلين أسفاً شديداً على نشوب الحرب الأمريكية لسبب غريب: "لم لم يتركوني امضي في طريقي؟ لو أنهم (أي المستعمرين) أعطوني ربع المال الذي أنفقوه على الحرب، لحصلنا على استقلالنا دون أن نريق قطرة دم. كنت أشتري البرلمان كله، وحكومة بريطانيا بأسرها" (34). واستشرى الفساد في الكنيسة، والجامعات، والقضاء، والوظائف المدنية، والجيش والبحرية، ومجالس الملك. وكان النظام العسكري أشد صرامة منه في أي بلد أوربي آخر (35) بما باستثناء بروسيا، فإذا سرح المقاتلون لم يتخذ أي إجراء لتيسير انتقالهم إلى حياة ناعمة ملتزمة بالقانون.

أما الخلاق الاجتماعية فقد تآرجحت بين الطيبة الأصيلة في الفرد الإنجليزي ووحشية الغوغاء المستهتره. وقد وقعت في الفترة من 1765 إلى 1780 تسع فتن كبرى، وكلها تقريباً في لندن، وسنرى مثلاً منها بعد قليل. وكانت الحشود تهرول للفرجة على مشهد الشنق كأنهم في يوم عيد، وقد يرشون الجلاذ ليعنف في جلد سجين (36). وكان قانون العقوبات أشد القوانين صرامة في أوربا. أما اللغة في جميع الطبقات تقريباً فكانت تتحو إلى العنف والسوقية. واشتبتك الصحف في معارك رهيبه من القذح والافتراء. وكان الكل تقريباً يقامرون، ولو في اليانصيب القومي، والكل تقريباً يشربون حتى يثملوا.

واتحدت عيوب الخلق الإنجليزي مع صفته الأساسية وهي النشاط الشديد والعافية العارمة. وقد أنفقها الفلاح وعامل المصنع في العمل الشاق،

صفحة رقم : 14115

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الشعب الإنجليزي -> الأخلاق الإنجليزية

وأبدتها الأمة في كل أزمة إلا واحدة. فمن هذه العافية انبثقت الشهية المفرطة، وروح المرح، واللجوء إلى المومسات والمشاجرات في الحانات والمبارزات في الميادين، وعنق المناقشات البرلمانية، والقدرة على المعاناة في صمت، ومفاخرة كل إنجليزي بأنه بيته قلعه التي لا يسمح باقتحامها إلا بمقتضى القانون. وحين هزمت إنجلترا في هذا العصر، كان الذي هزمها هم الإنجليز الذي إزدرعوا في أمريكا ذلك الولع الإنجليزي بالحرية. وقد لاحظت مدام دوقة وضوح الفروق بين الأفراد في الإنجليز الذي التقت بهم، والذين لم تبصر معظمهم قط. قالت "كلهم نسيج وحده، ولا تجد منهم اثنين على شاكلة واحدة. أما نحن (الفرنسيين) فعلى النقيض منهم تماماً، فإذا رأيت فرداً من حاشيتنا فكأنك رأيت الكل" (37). وقد وافق على رأيها هوراس ولبول فقال "من المؤدك أنه ما من بلد آخر يجب كما تتجب إنجلترا هذا العدد الكبير من الشخصيات المنفردة المتميزة" (38) ثم انظر إلى الرجال الذين رسمهم رينولدز: فهم لا ينفقون إلا في الاعتزاز بوطنهم وطبقتهم، وفي تورد وجوههم، وفي تصديهم الجسور للعالم. لقد كانت سلالتهم سلاله قوية حقاً.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الشعب الإنجليزي -> الإيمان والشك

3- الإيمان والشك

ظلت الجماهير الإنجليزية وفيه لعقيدها المسيحية في مختلف صورها. وكان أوسع الكتب قراءة بعد الكتاب المقدس "الأعياد والأصوام" تصنيف نلسن. وهو دليل للسنة الكنسية (39). وقد طبع كتاب جونسون "صلوات وتأملات" الذي نشر بعد وفاته أربع طباعات في أربع سنين. وكان الدين في الطبقات العليا يحظى بالاحترام بوصفه وظيفة اجتماعية، ومعوناً على الأخلاق، وذراعاً للحكومة، ولكنه كان قد فقد تصديق الفرد له في دخيلة نفسه وضاع كل سلطان له على السياسة. وكان الملك يعين الأساقفة، أما القساوسة فيعينهم كبار ملاك الأرض ويجرون عليهم أرزاقهم. وكان هجوم الربوبيين على الدين قد هدأت فورته إلى حد مكن ببيرك من أن يتساءل في 1790 "من ممن ولدوا في السنين الأربعين الأخيرة

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الشعب الإنجليزي -> الإيمان والشك

قرأ كلمة واحدة مما كتبه كولنز، تولاند، وتندال، وتشب، ومورجن، إلى آخر تلك السلالة التي سمت نفسها أحرار الفكر؟" (40). ولكن إذا لم يكن أحد قد انبرى للرد عليه فربما لأن هؤلاء المتمردين كانوا قد كسبوا المعركة، وأن المتعلمين لم يبالوا الموضوعات القديمة لكونها قد بت فيها وماتت. وقد وصف بوزويل جيله في 1765 (ناسياً عامة الشعب) بأنه "عصر اشتد ولع الناس فيه بالشكوكية حتى لكانهم يتفخرون بتضييق دائرة إيمانهم ما استطاعوا" (41). وقد رأينا سلووين يسخر من الدين في أكسفورد، وولكس في مدمنام أبي. وقد روت الليدي هستر ستانهوب أن بت الابن "لم يذهب إلى الكنيسة قط في حياته" (42). ولن يكون فرضاً على الواعظ أن يكون مؤمناً بما يعظ. كتب بوزويل في 1763 يقول "بين رجال الدين كثيرون من غير المؤمنين الذين إذ رأوا الدين مجرد نظام سياسي فهم ينظرون إلى الوظيفة الكهنوتية ذات الدخل نظرتهم إلى أي وظيفة مدنية، ويسهمون بجهودهم للإبقاء على هذا الوهم المفيد" (43). يقول جبون "أن إقرارات العقيدة القويمة، ومواد الإيمان، يوقعها رجال الدين العصريون بزفرة أو بابتسامة" (44).

وقد أتاحت أندية العصرية تخفيفاً من الامتثال العلني لعقيدة الكنيسة. فانضم كثيرون من الطبقة الأرستقراطية لمحفل أو آخر من محافل الماسون الأحرار. وقد أدانت هذه المحافل الإلحاد لسخفه، واشترطت في أعضائها إيماناً بالله، ولكنها عرست فيهم التسامح في الخلافات القائمة على غير ذلك من عقائد الدين(45). وفي جمعية برمنجهام القمرية كان رجال الصناعة من أمثال ماثيوبولتن وجيمس وات وجوسيا ودجوود يستمعون دون فزع إلى هرطقات جوزف بريستلي وإرازمس داروين(46). على أن ضجة الربوبية كانت قد ولت، وقبل جميع أحرار الفكر تقريباً هدنة لا يتدخلون بمقتضاها في الدعوة للإيمان ما دامت الكنيسة تغضي شيئاً ما عن الإثم. وتجنبنا الطبقات العليا الإنجليزية. بما فطرت عليه من حس بالنظام والاعتدال-ذلك التطرف المستهتر الذي اندفع إليه حركة التنوير الفرنسية، فقد أدركت

صفحة رقم : 14118

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الشعب الإنجليزي -> الإيمان والشك

ما بين الدين والحكم من وحدة حميمة، وأوتيت من القصد ما عصمها من إحلال نظام بوليسي لا آخر له محل أخلاقية غيبية.

وإذ كان الأساقفة الأنجليكان الآن خداماً للدولة كما كان الكرادلة الكاثوليك، فقد رأوا أن لهم الحق في قسط من متع الدنيا. وقد هجا كوبر في أبيات لاذعة(47) رجال الدين الذين كانوا يتهافتون تهافت رجال السياسة على الوظائف الدينية الأكثر مغنماً أو الملحقة بوظائفهم؛ ولكن غير هؤلاء كثيرون عاشوا حياة العكوف الهادئ على واجباتهم، وعديدون كانوا المدافعين الأكفاء المتبحرين عن الإيمان. وقد كشف كتاب بالي "مبادئ الفلسفة الأخلاقية والسياسية" (1785) عن روح سمحة ذات أفق واسع وتسامح عقيدي، وعرض كتابه "البراهين على المسيحية" (1794) عرضاً مقنعاً البرهان القائم على القصد في الكون. وقد لقي الترحيب في صفوف الأكليروس رجال ذوو ميول للتحرر الفكري ما داموا يعظون بجوهر الدين ويكونون القدوة الأخلاقية في مجتمعاتهم(48).

أما المنشقون على الكنيسة الإنجليزية من المعمدانيين ومشيخيين ومستقلين (بيورتان) فقد تمتعوا بالتسامح الديني ما داموا متمسكين بمسيحية التثليث؛ ولكن حظر شغل الوظائف السياسية أو الحربية، أو الالتحاق بجماعة أكسفورد أو كمبردج، على من لا يعترف بالكنيسة الإنجليزية وموادها التسع والثلاثين. واستمر انتشار الميثودية بين الطبقات الدنيا. وفي 1784 فصمت هذه الكنيسة عراها الواهية مع الكنيسة الرسمية. ولكنها كانت أثناء ذلك قد بثت "الحركة الإنجيلية" في قلة من رجال الدين الإنجليكان، الذين أعجبوا بزعيمها وسلي، ووافقوه على أن الإنجيل ينبغي أن يبشر به بالضبط كما سلم إلينا في العهد الجديد، دون تنازلات للنقد العقلاني أو النصي.

وظل تذكر إنجلترا المؤامرة البارود والثورة الكبرى، وحكم جيمس الثاني، يبقى في سجلات الدولة على تلك القوانين القديمة التي شرعت ضد اتباع كنيسة روما الكاثوليكية. ولم يعد أكثر هذه القوانين يطبق، ولكن

صفحة رقم : 14119

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الشعب الإنجليزي -> الإيمان والشك

معوقات كثيرة ظلت مفروضة على الكاثوليك. فهم مثلاً لا يستطيعون شراء أو وراثة أرض شرعياً إلا بالتحايل القانوني ويدفع ضريبة مضاعفة على أملاكهم. وقد حظر عليهم الخدمة في الجيش والبحرية، واحترف المحاماة، والتصويت أو الترشيح للبرلمان، وجميع المناصب الحكومية. ومع ذلك كان عددهم في ازدياد. وفي 1786 كان منهم سبعة من كبار النبلاء، واثنان وعشرون بارونياً و150 "جنتماناً". وكان يحتفل بترتيل القداس في البيوت الخاصة، ولم يسجل غير حالتين أو ثلاث من حالات الاعتقال عقاباً على هذه الجريمة طوال الستين عاماً التي حكمها جورج الثالث.

وفي 1778 قدم السر جورج سافيل للبرلمان مشروع قانون هدفه "التخفيف عن الكاثوليك" فهو يبيح شراء الكاثوليك للأرض ووراثتهم لها، والتطوع في القوات المسلحة دون التخلي عن مذهبهم. وأجيز المشروع، ولم يلق معارضة تذكر من الأساقفة الإنجليكان في مجلس اللوردات. ولم يكن ينطبق إلا على إنجلترا، ولكن في 1779- اقترح اللورد نورث تطبيقه على إسكتلندا. فلما بلغ نياً هذا الاقتراح إقليم السهول الاسكتلندية، اندلعت الفتن في إدنبرة وجلاسجو (يناير 1779)، وأحرقت عدة بيوت يسكنها الكاثوليك وسويت بالأرض، ونهبت وحطمت حوانيت التجار الكاثوليك، كذلك هوجمت بيوت البروتستانت الذين أعربوا عن عطفهم على الكاثوليك-مثل المؤرخ روبرتسن-ولم يخمد أوار الفتنة إلا حين أذاع قضاة إدنبرة أن قانون التخفيف عن الكاثوليك لن يطبق على إسكتلندا.

ثم تبنى عضو اسكتلندي في البرلمان يدعى اللورد جورج جوردن قضية "الابوية في إنجلترا" ففي 29 مايو 1780 رأس اجتماعاً لـ "جمعية البروتستانت" التي خططت لمسيرة جماهيرية لتقديم ملتمس بإلغاء قانون التخفيف الصادر في 1778. وفي 2 يونيو أحاط ستون ألف رجل يرتدون أشرطة زرقاء معقودة بمبنى البرلمان واعتدى على كثير من الأعضاء وهم في طريقهم إلى المبنى، وحطمت مركبات مانسفيلد وثيرلو، وستورمونت، ووصل بعض اللوردات النبلاء إلى كراسيهم بغير باروكاتهم

صفحة رقم : 14120

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الشعب الإنجليزي -> الإيمان والشك

شعناً يرتعدون خوفاً(49). ودخل جوردن وثمانية من اتباعه مجلس العموم، وقدموا ملتمساً، قيل أنه يحمل 120.000 توقيع، يدعو لإلغاء القانون، ويطالب بإجراء عاجل هو البديل الوحيد لغزو الغوغاء للمجلس. فقاوم الأعضاء، وأرسلوا في طلب الجند لكبح جماح الغوغاء، وغلقت جميع الأبواب، وأعلن قريب لجوردين أنه قاتله في اللحظة التي يقتحم فيها القاعة دخيل، ثم وافق المجلس على رفع الجلسة حتى 6 يونيو. ووصل الجند وأفسحوا طريقاً للأعضاء ليعودوا إلى بيوتهم. وأتلفت محتويات كنيسة كاثوليكية تين تخصصان قساوسة سردينيين وبقاريين، وكوم أثاثهما في نار أشعلت في الشوارع. ثم تفرق الجمع، ولكن في 5 يونيو نهب القائمون بالشغب كنائس أجنبية أخرى وأحرقوا عدة بيوت خاصة.

وفي 6 يونيو عاد الغوغاء إلى التجمع، واقتحموا سجن نيو جيت، وأطلقوا سراح السجناء، واستولوا على ترسانة سلاح، وساروا وهم مسلحون مخترفين شوارع العاصمة. وتحصن النبلاء بمتاريس في بيوتهم. وهنأ هوراس وليول نفسه على حمايته دقة في "قلعته" بميدان باركلي(50). وفي 7 يونيو نهب وأحرق المزيد من البيوت، واقتحم الرعايع معامل تقطير الخمر، وأطفأوا ظمأهم بغير قيود، واحترق نفر منهم وهم رقاد سكارى في الأبنية المحترقة. ورفض قضاة لندن المخول لهم وحدهم السلطة القانونية على الحرس البلدي أن يأمرهم بإطلاق النار على الجمع. واستنفر جورج الثالث مليشيا المواطنين، وأمرهم بإطلاق النار كلما استعمل الرعايع العنف أو هددوا باستعماله. وظفر عضو

البلدية جون ولكس بالعفو من الملك، وفقد شعبيته لدى الجماهير، إذ امتطى جواداً وانضم إلى الميليشيا في محاولة تفريق الجمع. فلما هاجم المشاغبيون الميليشيا أطلقوا الرصاص فقتلوا منهم اثنين وعشرين، ولاذ الباقيون بالفرار. وفي 9 يونيو اندلعت الفتنة من جديد ونهبت البيوت وأحرقت سواك الكاثوليكية أو البروتستانتية، ومنع جنود الإطفاء من إخماد النيران (51). وأحمد الجند الفتنة بعد أن قتل فيها 285 رجلاً وجرح 173؛ وقبض على

صفحة رقم : 14121

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الشعب الإنجليزي -> الإيمان والشك

135 من المشاغبيين، وشنق واحد وعشرون. وقبض على جوردن وهو يفر إلى إسكتلندا، وأثبت أن لم يكن له ضلع في حوادث الشعب، فأفرج عنه، وحصل ببيرك على موافقة مجلس العموم على إعادة تأكيد قانون التخفيف عن الكاثوليك في إنجلترا. ووسع قانون صدر في 1791 التسامح الشرعي في شؤون العبادة والتعليم الكاثوليكين، ولكن الكنائس الكاثوليكية حظر عليها أن يكون لها برج أو جرس (52).

صفحة رقم : 14122

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الشعب الإنجليزي -> بلاكستون وبنتام والقانون

4- بلاكستون وبنتام والقانون

زعم فقيه ضليح أن "نشر كتاب بلاكستون" التعليقات" يعد من بعض الوجوه أبرز حدث في تاريخ القانون" (53) وهذا رأي فيه تحيز للوطن، ولكنه يعيننا على بيان مبلغ الرهبة والإجلال اللذين كان الطلاب المتحدثون بالإنجليزية، حتى عصرنا هذا، يتناولون بهما كتاب "تعليقات على قوانين إنجلترا" الذي نشره وليم بلاكستون في أربعة مجلدات وألفي صفحة في 1765-69. وقد أتى عليه القراء رغم حجمه هذا أو بسببه، أثراً جليلاً من آثار العلم والحكمة، فكان كل لورد يفتنيه في مكتبته، وأحبه جورج الثالث حباً جماً بوصفه تمجيداً للملوك. أما بلاكستون هذا فكان ابن تاجر لندني أتاح له ثراؤه أن يعلم ابنه في أكسفورد ثم يرسله إلى "المدل تميل" ليمارس المحاماة وقد وردت محاضراته في أكسفورد (1753-63) تناقضات القوانين وسخاقتها إلى شيء من النظام المنطقي، ثم بسطت النتيجة بوضوح وتشويق. وفي 1761 أنتخب عضواً في البرلمان، وفي 1763 عين محامياً عاماً للملكة شارلوت، وفي 1770 بدأ خدمته قاضياً في محكمة الدعاوي العامة. وإذ كان مدمناً للدرس كارهاً للحركة، فقد أصابه تطل هادئ تدريجي ولكنه سابق لأوانه، ومات في 1780 بالغا السابعة والخمسين.

وكان لرائعته الكبرى فضائل محاضراته: الترتيب المنطقي، والعرض الناصع، والأسلوب الرشيق، وقد امتدحه خصمه اللود جريمي بنتام،

صفحة رقم : 14123

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الشعب الإنجليزي -> بلاكستون وبنتام والقانون

لأنه الرجل الذي "علم القضاء أن يتكلم لغة الدارس والجنّلمان، وهذب ذلك العلم العصبي، ونفض غبار المنصب ونسيح العناكب" (54). وقد عرف بلاكستون القانون بأنه "قاعدة للعمل يملئها كائن أعلى" (55)، وكان يدين بتصوير مثالي مستقر للقانون، يراه مؤدياً في مجتمع ما الوظيفة التي تؤديها قوانين الطبيعة في العالم؛ وكان ميلاً إلى التفكير في قوانين إنجلترا على أنها تضارع قوانين الجاذبية في جلالها وخلودها. وقد أحب إنجلترا والمسيحية على الصورة التي وجدها عليهما، وما كان ليسلم بأي عيب في واحدة منهما. وكان أكثر سنية من الأسقف واربرتن، وأكثر ملكية من جورج الثالث. "ليس ملك إنجلترا أكبر قاض للأمة فحسب، بل هو بالضبط القاضي الوحيد لها، الذي له أن يرفض أي مشروعات قوانين، ويبرم أي معاهدات،... ويعفو عن أي جرائم شاء، إلا إذا كان الدستور قد نص بصراحة أو بحكم النتيجة المنطقية الواضحة على استثناء أو قيد ما" (56) ووضع بلاكستون الملك فوق البرلمان وفوق القانون، فليس الملك "غير قادر على ارتكاب الخطأ فحسب، بل حتى على التفكير الخطأ" -وهي عبارة عني بها بلاكستون أنه ليس هناك قانون فوق الملك يمكن أن يدان به الملك. ولكنه أبهج كبرياء إنجلترا بأسرها حين عرف "الحقوق المطلقة لكل إنجليزي: حق الأمن الشخصي، وحق الحرية الشخصية، وحق الملكية الشخصية" (57).

وقد سرّ جبل بلاكستون سروراً عظيماً بتصوره القانون الإنجليزي نظاماً صالحاً على الدوام لأنه في النهاية مبني على الكتاب المقدس بوصفه كلمة الله، ولكن هذا التصور ثبط تطوير القضاء الإنجليزي وإصلاح قانون العقوبات والسجون؛ غير أن من مفاخره أنه امتدح جهود هوارد التي بذلها لتحسين الأحوال في السجون البريطانية (58). وقد فهم هوارد المسيحية لا على أنها نظام قانوني بل نداء للقلب. ذلك أن الأحوال في السجن المحلي أفرغته حين عين مأموراً في بدفورد (1773) فالمأمور ومساعدوه لا رواتب لهم، ورزقهم على ما يقتضون من السجناء

صفحة رقم : 14124

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الشعب الإنجليزي -> بلاكستون وبنتام والقانون

من رسوم؛ فكان السجن إذا قضى مدة عقوبته لا يفرج عنه إلا بعد أن يدفع جميع الرسوم المطلوبة منه، وكان الكثيرون يظلون رهن السجن شهوراً بعد أن تتبين للمحكمة براءتهم. وقد وجد هوارد في رحلاته من مقاطعة إلى مقاطعة مظالم مماثلة أو أسوأ. فكان المدينون الذين يقصرون في الوفاء بدينهم، والمذنبون لأول مرة، يلقون معاً في

مكان واحد مع مدمني الجريمة. وكان أكثر السجناء يوثقون بالأغلال التي تنقل أو تخف حسب الرسم الذي يدفعونه. وكانت جراية السجن في اليوم خبزاً ثمنه بنس أو بنسان، فإذا أراد مزيداً من الطعام فعليه أن يدفع ثمنه أو يعتمد فيه على الأقرباء أو الأصدقاء. أما الماء فجرأيته للسجين ثلاثة بنسات في اليوم للشرب والاعتسال. ولا يزود السجناء بوسائل للتدفئة في الشتاء، أما في الصيف فتهدية لا تذكر. وكان النتن الذي يفوح من هذه الزنانات من الشدة بحيث ظل لأصفاً بتياب هوارد بعد خروجه منها بزمان. وكانت "حمى السجون" وغيرها من الأمراض تقتك بالكثير من السجناء، وكان البعض يموت بالجوع البطيء (59). وفي سجن نيوحيث بلندن كان خمسة عشر إلى عشرين سجيناً ينزلون حجرة طولها ثلاثة عشر وعرضها خمسة وعشرون قدماً.

وفي 1774 قدم هوارد للبرلمان تقريره عن خمسين سجيناً زراها، ووافق مجلس العموم على قانون يشترط الإصلاحات الصحية في السجون، وتوفير الرواتب للسجانين، والإفراج عن جميع السجناء الذين لم تجد هيئة المحلفين الكبرى شكواي مقدمة للمحكمة ضدهم. وفي 1775-76 زار هوارد سجون القارة، فوجد سجون هولندا خيرها تجهيزاً وترفقاً نسبياً بالسجناء، ومن أسوأها سجون هانوفر التي يحكمها جورج الثالث. وقد أيقظ ضمير الأمة من سباته كتاب هوارد "حالة السجون في إنجلترا وويلز... ووصف لبعض السجون الأجنبية" (1777). فوافق البرلمان على تخصيص صندوق لـ "مؤسستين إصلاحيتين" تبذل فيهما محاولة لإصلاح السجناء بالمعاملة الفردية والعمل الخاضع للملاحظة، والتعليم الديني. واستأنف هوارد رحلاته، وروى نتائجها في طبعاة جديدة من كتابه. وفي 1789 جاب أنحاء روسيا، وفي خرسون أصيب بحمى المعسكرات

صفحة رقم : 14125

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الشعب الإنجليزي -> بلاكستون وبنتام والقانون

ومات (1790). ولم تثمر جهوده للإصلاح إلا نتائج متواضعة. فقانون 1774 أهمله معظم السجانين والقضاة. ولم تظهر أوصاف سجون لندن في 1804 و1817 أي تحسين منذ عصر هوارد، "العل الأحوال أصبحت أسوأ لا أحسن" (60)، وكان على الإصلاح أن ينتظر. ووصف دكنز لسجن نيو مارشالسيا في قصته "دوريت الصغيرة" (1855).

أما جرمي بنتام فإن جهوده المتنوعة لإصلاح القانون والحكومة والتعليم بذل أكثرها بعد هذه الفترة، ولكن كتبه "مقال صغير عن الحكومة" (1776) مكانه هنا، لأنه في المقام الأول نقد لبلاكستون. فقد احتقر عبادة الفقيه للتقاليد الموروثة، وذكر أن "ما رسخ الآن كان يوماً بدعة" (61)، ونزعة المحافظة الحاضرة إنما هي تجميل للراديكالية الماضية؛ إذن فالذين يدعون إلى الإصلاحات لا يفلون وطنية عن أولئك الذين يرتعدون فرقا لفكرة التغيير. "في ظل حكومة القوانين ما هو شعار المواطن الصالح؟ أن يطيع في دقة وأن ينفذ في حرية" (62). وقد رفض بنتام رأي بلاكستون في السيادة الملكية؛ فالحكومة الصالحة توزع السلطات، وتشجع كلاً منها على كبح شطط غيرها، وتسمح بحرية الصحافة، والتجمع والمعارضة السلميتين. والثورة في نهاية المطاف قد تحدث للدولة ضرراً أقل مما يحدثه الخنوع المبلد للطغيان (63). وقد نشر هذا الكتيب سنة الإعلان الأمريكي للاستقلال.

وقد شرح بنتام في هذا المقال ذاته "مبدأ السعادة العظم" الذي أطلق عليه جون ستيوارت مل في 1863 اسم "مذهب المنفعة". "أن أعظم سعادة لأكثر عدد هو مقياس الحق والباطل" (64)، وينبغي الحكم على جميع المقترحات والممارسات الأخلاقية والسياسية بمقتضى "مبدأ المنفعة" هذا، لأن "وظيفة الحكومة أن تزيد من سعادة المجتمع" (65). وقد اقتبس بنتام "مبدأ السعادة" هذا من هلفتيوس، وهيوم، وبريستلي، وبكاريا، (66) وتكونت وجهة نظره العامة من قراءته لجماعة الفلاسفة (67).

وفي 1780 ألف كتاب "مقدمة لمبادئ الأخلاق والتشريع" الذي نشره في 1789، وضمنه عرضاً لأفكاره أكثر تفصيلاً وفلسفة. وقد رد

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الشعب الإنجليزي -> بلاكستون وبنتام والقانون

كل فعل واع إلى الرغبة في اللذة أو الخوف من الألم، وعرف السعادة بأنها "الاستمتاع باللذة، والأمان من الألم" (68). ولاح أن هذا يبرر الأنانية المطلقة، غير أن بنتام طبق مبدأ السعادة على الأفراد كما طبقه على الدول، فهل أفضى فعل الفرد إلى أعظم قدر من السعادة له؟ في رأيه أن الفرد في المدى البعيد ينال أعظم لذة أو أقل ألم بتوحيه الإنصاف مع أخوانه البشر.

وقد مارس بنتام ما بشر به، لأنه كرس حياته لسلسلة طويلة من مقترحات الإصلاح: التصويت العام للذكور البالغين والمتعلمين، والاقتراع السري، والبرلمانات السنوية، وحرية التجارة، والنظافة الصحية العامة، وتحسين أحوال السجون، وتطهير القضاء، وإلغاء مجلس اللوردات، وتحديث القانون وجمعه وتنسيقه في لغة مفهومة لغير القانونيين، وتوسيع القانون الدولي (وبنتام هو مخترع هذا المصطلح) (69). وقد خرج إلى النور الكثير من هذه الإصلاحات في القرن التاسع عشر، وأكثر الفضل في ذلك لمجهود "اتباع مذهب المنفعة" و "الراديكاليين الفلاسفة" من أمثال جيمس وجون ستيوارت مل، وديفيد ريكاردو، وجورج جروت.

كان بنتام آخر صوت من أصوات حركة التنوير، والمعبر بين فكر القرن الثامن عشر المحرر وإصلاحات القرن التاسع عشر. ولقد وثق بالعقل ثقة أكثر حتى من ثقة جماعة الفلاسفة به، وظل أعزباً لآخر حياته مع أنه كان أحب الرجال وأطفهم. وحين مات (6 يونيو 1832) وهو في الرابع والثمانين أوصى بأن تشرح جنته في حضرة أصدقائه. فشرحت، وما زال هيكله محفوظاً في الكلية الجامعية بلندن، مرتدياً ثياب بنتام المألوفة (70). وغداة موته وقع الملك "قانون الإصلاح" التاريخي الذي جسد الكثير من مقترحاته.

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الشعب الإنجليزي -> المسرح

كان هذا النصف الثاني من القرن الثامن عشر غنياً في المسرح فقيراً في الدراما. فقد شهد لفيماً من أروع الممثلين في التاريخ، ولكنه لم ينجب غير

صفحة رقم : 14128

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الشعب الإنجليزي -> المسرح

كاتبين مسرحيين اثنين أفلنت أعمالهما من منجل الحصاد: شريدان الذي ودعناه منذ هنيهة، وجولد سمث الذي سيختص بركن تحت سماء الأدب. وربما كان هذا القحط في التمثيلات الجادة سبباً ونتيجة للإحياء الشكسبيرى الذي استمر حتى نهاية القرن.

وقد عانى الكتاب المسرحيون من أدواق النظارة. فقد كان هناك نقاش كثير للتقنية والفن التمثيليين، ونقاش قليل للتقنية والفن التأليفين. وكان أجر المؤلف، وهو في الغالب مكافأته المادية الوحيدة، حصيلة الحفلة الثالثة، وإن كان هناك حفلة ثالثة. على أن بعض الممثلين والممثلات أثروا ثراء رؤساء الوزارة. وكان في استطاعة الهاتفين المأجورين أن يقضوا على أي مسرحية جيدة بافتعالهم الضوضاء المعادية، أو أن يجعلوا المسرحية الحقيرة تتجح نجاحاً مثيراً. ولم يظفر بعروض تمتد عشرين ليلة في موسم واحد إلا أكثر المسرحيات حظاً. وكانت الحفلات تبدأ في السادسة أو السادسة والنصف، وتحتوي عادة على مسرحية من ثلاث ساعات، وتمثيلية هزلية ساحرة "فارص" أو إيمائية "باننومايم". أما المقاعد فتكلف من شلن إلى خمسة، ولا حجز غلا بإرسال خادم يشتري التذكرة ويشغل المقعد حتى يحضر السيد أو السيدة. وكانت كل المقاعد بنوكاً بغير ظهور (71)، وكان بعض النظارة المقربين يجلسون على خشبة المسرح حتى أنهى جاريك هذا العيب المنكر (1764). أم الإضاءة فكلها بالشموع في ثريات "تظل مضاءة طوال البرنامج. وكانت الملابس قبل عام 1782 هي ملابس القرن الثامن عشر الإنجليزية دون اعتبار لزمان المسرحية أو مكانها. فكان كاتو، وقبصر، ولير، بيدون في سراويل للركبة وشعور مستعارة.

وازدهر المسرح، سواء في لندن أو في "الأقاليم"، رغم معارضة رجال الدين ومناقسة الأوبرا والسرك. وكانت بات وبرزنتل ولغربول ومنتجهام ومانشستر وبرمنجهام ويورك وإدنبرة ودبلن تملك مسارح جيدة؛ وكان لبعضها فرقها الخاصة، وإذ كانت الفرق الكبرى تجوب البلاد، فإن كل مدينة تقريباً شهدت التمثيل الجيد. وقد أثار لندن المنافسة الحادة بين مسرحيين رئيسيين. ففي 1750 مثل: كلاهما "روميو وجولييت" كل

صفحة رقم : 14129

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الشعب الإنجليزي -> المسرح

ليلة في ذات الأسبوعين، وأدى الأدوار الرئيسية سبرانجو باري وسوزانا كبر في مسرح كوفنت جاردن، وجاريك ومس بيلامي في مسرح دورري لين. ثم كان لصموئيل فوت مسرحه الصغير في هايماركت، حيث تخصص في التقليد الهجاء، وكانت تقليداته لجاريك شفاء طال أمده في حياة ديفد.

ولم تشهد خشبة المسرح الإنجليزي قط من قبل هذا العدد الغفير من الممثلين الأفاضل. وقد استهل تشارلز ماكلين هذا العصر المجيد في 1741 بإخراجه تمثيلات شكسبير؛ وكان أول ممثل قدم شيلوك شخصية جادة وإن ظل وهداً لا يرحم (ولم يمثل شيلوك بشيء من العطف حتى جاء هنري إرفنج). ثم اختتم جون فيليب كمبل هذا الإحياء الشكسبيري الذي استغرق قرناً كاملاً. وكانت أعظم ساعات تجلبه حين مثل هو وأخته ساره مسرحية مكبث على مسرح دورري لين في 1785.

وازدانت خشبة المسرح الآن بنفر من الممثلات الجديرات بالذكر. منهن بچ وفنتن التي وهبت الجمال المثير في قوامها وطلعتها، ولكنها عاشت عيشة منحلة، وأصابتها النقطة في منتصف التمثيلية (1757) وماتت قبل أوانها غير متجاوزة السادسة والأربعين (1760). ثم كتي كلايف التي ظلت تمثل مع فرقة جاريك اثنتين وعشرين سنة، وقد أدهشت لندن بأخلاقها التي كانت مضرب المثل، وبعد أن هجرت خشبة المسرح (1769) عاشت ست عشرة سنة في بيت أعطاها إياه هوراس ولبول في تويكنام. أما مسز هانا برنشارد فكانت تحتل مكان الصدارة بين الممثلات التراجيديات قبل أن تبرزها مسز سيدونز في أداء دور الليدي مكبث؛ وقد أفنت عمرها في التمثيل، ولم تقرأ كتاباً قط (فيما روى)؛ وقد وصفها جونسون بأنها "بلهاء مهملة" (72)، ولكنها عمرت بعد الكثيرات من الحسان، وظلت تمثل حتى قبل موتها ببضعة شهور. وتألقت مسز فرانسيس أبجتن في أدوار بياتريس وبورشيا، وأوليفيا، وديدمونه، ولكن أشهر أدوارها كان دور الليدي تيزل في مسرحية "مدرسة الفضائح"، وقد اكتسبت ماري روبنسون اسمها الشعبي "برديتا" بفضل إجادتها تمثيل ذلك الدور في "قصة الشتاء"؛

صفحة رقم : 14130

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الشعب الإنجليزي -> المسرح

وكانت خلية لأمير ويلز وغيره من العشاق الأقل شأنًا، وصورها رينزلدز وجينزبرو ورومني.

أما ربة المسرح الواعية بقدرها فكانت سارة كمبل سيدونز. ولدت لممثل جوال في خان بويلز (1755). وتزوجت في الثامنة عشرة بالممثل وليم سيدونز، ثم لمعت وهي في التاسعة عشرة في مسرحية أوترواي "فينيسيا المصونة". ثم استخدمها جاريك بعد سنة، ولكن النقاد حكموا بأن "قدرتها لا ترقى إلى مستوى المسرح اللندني"، ونصحها هنري وودوارد الذي كان يمثل الأدوار الهزلية لجاريك بأن تعود إلى مسارح الريف فترة. ففعلت، وظلت ست سنوات تمثل في البنادر. فلما أن دعيت ثانية إلى دروري لين عام 1782، أدهشت كل إنسان بتطورها ممثلة. وكانت البادئة بارتداء زي العهد الذي تمثله في أدوارها. ولم يلبث جاريك أن فضلها في تمثيل الأدوار الشكسبيرية، وبهتت لندن من الجلال والأسى اللذين سمت بهما بدور الليدي مكبث. وقد اكتسبت حياتها الخاصة احترام وصدقة كبار معاصريها، وكتب جونسون اسمه على هذب ثوبها في اللوحة التي صورها فيها رينولدز ربة للمأساة، وقد وقع من نفسه "بالغ تواضعها وكياستها" حين زارته (73). وواصل أخوان وأخت لها واثنتان من بنات اخوتها مشاركة أسرة كمبل في المسرح حتى 1893، وبفضلها وبفضل جاريك ارتفع مقام الممثلين الاجتماعي، وحتى في بلد كإنجلترا جعل من الفوارق الطبقة روح الحكومة وأداتها.

ب- جاريك

كل الذين عرفوا أخبار جونسون يذكرون أن ديفد جاريك ولد في لنتشفيلد (1717)، والتحق بمدرسة جونسون في ايدبال (1736)، ورافقه في هجرتهم التاريخية إلى لندن (1737). وإذ كان يصغر جونسون بسبع سنين، فإنه لم يكسب قط صداقة جونسون الكاملة، لأن أكبر الرجلين سناً لم يستطع أن يغفر لديفيد كونه ممثلاً وغنياً.

صفحة رقم : 14131

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسون -> الشعب الإنجليزي -> المسرح

فلما بلغ جاريك لندن انضم إلى أخيه في استيراد النبيذ وبيعه. واقتضاه هذا زيارات متكررة للجانان، وهناك التقى بالمثلين، فاستهواه حديثهم؛ وتبع بعضهم إلى ايسويتش حيث سمحوا له بلعب أدوار صغيرة. وتعلم فن التمثيل بسرعة فائقة حتى اضطلع بعد قليل بتمثيل الدور الرئيسي في "رتشارد الثالث" في مسرح غير مرخص بجود مانز فيلدز بالطرف الشرقي للندن. وقد استطاب ذلك الدور لأنه كان ضئيل الحجم مثل الملك الأحدب، ولأنه استسمع بالموت على خشبة المسرح وقد لقي أدأؤه من حسن الاستقبال ما جعله يهجر تجارة الخمر، الأمر الذي أخزى أقاربه في لنتشفيلد وأحزنهم. ولكن وليم بت الأب ذهب وراء الكواليس ليهنئه. أما الكسندر بوب، الذي كان صاحب عاهة مثل رتشارد، فقد قال لمشاهد آخر، "إن هذا الفتى لم يكن له نظير قط، ولن يكون له منافس أبداً" (74). فهنا ممثل سكب كل جسمه وروحه في الدور الذي يؤديه؛ ممثل تقمص رتشارد الثالث بوجهه وصوته ويديه وهيكله المحطم وعقله الماكر وأهدافه الشريرة؛ ممثل لا يكف عن لعب دوره حين يتكلم الآخرون، وينساه بمشقة إذا ترك خشبة المسرح. وسرعان ما غدا حديث رواد مسارح لندن، فذهب عليه القوم لمشاهدته، وتعشى معه اللوردات، وكتب توماس جراي يقول "في جودمانز كفيلدز اثنا عشر دوقاً كل ليلة" (75) وأعلن آل جاريك بلنتشفيلد في زهو قرابة ديفد لهم. ثم جرب بعد هذا دور لير (11 مارس 1742)، ففشل؛ فقد كان فيه من نشاط الحركة ما منعه من تمثيل دور شيخ في الثمانين، ولم يكن قد اكتسب وقار الملوك. على أن الفشل هذبه وتبين أنه عظيم النفع له. فأقلع عن لعب الدور حيناً، ودرس المسرحية، ودرب نفسه على تعبيرات سحنة لير التعس، ومشيته الهزيلة، وبصره المضعضع، ونبراته الحادة الباكية. وفي أبريل عاود التجربة. ورأى النظارة أنه تغير تماماً، فبكوا وهتفوا، ذلك أن جاريك خلق دوراً آخر من الأدوار التي ستذكر الناس باسمه قرابة قرن من الزمان. وصفق الناس جميعاً إلا جونسون الذي انتقد التمثيل زاعماً أنه مجرد باننومايم، وهوراس ولبول الذي زعم أن في تعبيرية جاريك غلواً،

صفحة رقم : 14132

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسون -> الشعب الإنجليزي -> المسرح

وجراي الذي أسف على الهبوط من الانضباط الكلاسيكي إلى الانفعالية والعاطفية الرومانتيكيين. وشكا الدارسون من أن جاريك لم يمثل نصاً شكسبيرياً خالصاً بل طبعة مراجعة منقحة، أحياناً بقلم جاريك نفسه؛ فنصف أبيات رتشارد الثالث كما مثلها كتبه كولي كير (76)، وآخر فصل في "هاملت" كما مثله قد غير فيه وبدل ليقدّم خاتمة رقيقة للمأساة. في ذلك الموسم (1741-42) لعب جاريك ثمانية عشر دوراً وهو عمل جبار يدل على ملكات خارقة في التذكر والتركيز. وكان إذا مثل امتلاً المسرح برواده؛ فإذا لم يكن له دور خلا نصفه. وعانت المسارح المرخصة من تناقص روادها. وأكره مسرح جودمانز فيلدز بتدابير من وراء الستار على أن يغلق أبوابه. فوقع جاريك لموسم 1742-43 عقداً مع مسرح دروري لين حين أسقط في يده بدون خشبة المسرح، نظير 500 جنيه وكان راتباً قياسياً للممثل. ثم رحل إلى دبلن أثناء ذلك لموسم الربيع. وكان هندل قد استهوى أهل المدينة لتوه بأوراتوريو "المسيا" (13 أبريل 1742)؛ فغزاها الآن جاريك وبج وافنجنن بشكسبير. فلما عاد إلى لندن أقام في معيشة واحدة، واشترى جاريك خاتم الخطبة. ولكن غاظها منه شحه، وغازه منها إسرافها. فبدأ يسائل نفسه أي زوجة تراها منبعثة من ماضي بج المخلط. واحتفظ بالخاتم، ثم افترقا (1744).

ولقد كان تمثيله في دروري لين استهلالاً لعهد جديد في الفن. كان يبذل لكل دور يؤديه قصارى طاقته وحرصه المتواصل على أن تتوافق كل حركة من حركات جسمه وكل نبرة من نبرات صوته مع شخصية الدور. ولقد بث الحيوية كلها في رعب مكبث وفزعه، حتى ظل هذا الدور، أكثر من أي من أدواره الأخرى، باقياً في ذاكرة الشعب. وأحل محل الأسلوب الخطابي الذي جرى عليه قدامى التراجيديين كلاماً أكثر طبيعية. وقد أحرز حساسية في تعبير الشخصية كانت تتغير مع أسس تغيير في التفكير أو المزاج في النص. وقال جونسون ملاحظاً بعد سنوات، "إن ديفد يبدو أكثر سناً مما هو بكثير، لأن وجهه كانت مهمته ضعف مهمة أي رجل آخر، فهو

صفحة رقم : 14133

قصة الحضارة - روسو والثورة - إنجلترا جونسون - الشعب الإنجليزي - المسرح

لا يستقر أبداً" (77). ثم هناك تعدد قدراته، فقد لعب الأدوار الكوميديّة تقريباً بكل العناية والكمال اللذين بذلتهما في لعب دور مكبث أو هملت أو لير.

وبعد أن قضى جاريك خمسة مواسم ممثلاً وقع (9 أبريل 1747) عقداً يقسم إدارة دروري لين بينه وبين جيمس ليسي: فيضطلع ليسي بالأعمال الإدارية، ويختار جاريك التمثيليات والممثلين ويدير البيروفات. وخلال فترة إدارته التي امتدت تسعة وعشرين عاماً أخرج خمساً وسبعين مسرحية مختلفة، وكتب هو نفسه مسرحية (بمشاركة جورج كولمان)، وراجع أربعاً وعشرين تمثيلية لشكسبير، وألف عدداً كبيراً من المقدمات، والخواتيم، والفارصات، وكتب للصحف مقالات غفلاً من الإمضاء تدعم عمله وتشيد به. وكان يقدر البرلمان، وكيف اختياره للمسرحيات وفق أعظم قدر من السعادة لأعظم عدد من رواد المسرح. وقد أحب التصفيق كما لا بد أمن يحبه الممثلون والكتاب ورتب الأدوار ليحظى بأكثره. وكان رأي ممثليه أنه مستبد بخيل، وشكوا من أنه يغمطهم أجورهم بينما هو ثري. ولقد أقر النظام والانضباط بين أفراد فيهم غيرة وإفراط في الحساسية ويشرف كل منهم على العبقرية أو يطيل التفكير فيها. وكانوا يتدمرون، ولكن أبهجم أن يبقوا معه، لأنه ما من فرقة أخرى أبليت هذا الحسن في التصدي لرياح الحظ وتقلبات الذوق.

وفي 1794 تزوج جاريك إيفا ماريا فاجيل، وهي راقصة من فيينا قدمت إلى إنجلترا باسم "الآنسة فيولليت" وظفرت بالتصفيق والاستحسان الحار على أدائها في باليهات الأوبرا. وكانت كاثوليكية تقية، وظلت كذلك، وقد ابتسم جاريك لاعتقادها بقصة القديسة أو رسولاً والأحد عشر ألف عذراء (78)، ولكنه احترم إيمانها لأنها عاشت أمينة لناموسه الأخلاقي. ولقد فعلت الكثير بمحبتها ووفائها لتخفيف التوتر الذي تنطوي عليه حياة الممثل المدير. فأعقد ثراه عليها،

واصطحبها في سياحات بالقاهرة، وابتاع لها بيتاً غالياً في قرية هامتن. وهناك، وفي بيته اللندني على أدلبي تراس، كان يستضيف زائريه في بذخ، وأسعد الكثير من اللوردات وكبار

صفحة رقم : 14134

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الشعب الإنجليزي -> المسرح

الأجانب أن ينزلوا ضيوفاً عليه. وهناك كان يقصف ويمرح مع فاني بيرني، وأوى هانا مور. وفي 1763 اعتزل التمثيل إلا في المناسبات الخاصة. قال "الآن سأقعد وأقرأ شكسبير" (79). وفي 1768 اقترح وخطط وأشرف على أول مهرجان لشكسبير في ستراتفورد-أن-إيفن. وواصل إدارته لدروري لين، ولكنه وجد غضبات الممثلين ومشاجراتهم تزداد ضغطاً على أعصابه الشائخة. وعليه ففي مطلع عام 1776 باع نصيبه في الشركة لرتشارد برنسلي شريدان، وفي 7 مارس أعلن أنه سيتقاعد بعد قليل. وظل ثلاثة أشهر بعد هذا الإعلان يقوم بتمثيل الوداع لأدواره الحبيبة ويحظى بسلسلة من الانتصارات لعل ممثلاً آخر لم يعرفها قط على امتداد التاريخ. وقد أثار رحيله عن خشبة المسرح من الحديث في لندن قدر ما أثارته الحرب مع أمريكا. وفي 10 يونيو 1776 اختتم حياته المسرحية بإعانة مالية وهبها لصندوق الممثلين العجزة. ومد له في الأجل ثلاث سنين أخرى. ثم مات في 20 يناير 1779 بالغاً الثانية والستين. وفي أول فبراير حمل جثمانه إلى كنيسة وستمنستر على أكتاف أفراد نبلاء بريطانيا، ووري ركن الشعراء عند قدمي تمثال شكسبير.

صفحة رقم : 14135

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الشعب الإنجليزي -> لندن

6- لندن

بدأت لندن أول مرة لجونسن (1737) في صورة ملؤها الاشمزاز الشديد الغيور على الفضيلة. "الحقد هنا ياتمر مع السلب وسوء الحظ، ويثور رعا أحياناً، ويشب حريق أحياناً، وطعام أوباش يختبئون هنا. ويجوس محام يلتمس فريسة، وبيوت هاوية ترعد من فوقك، وامرأة كافرة تغرقك حديثاً يز هق روكك (80).

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الشعب الإنجليزي -> لندن

هذه بالطبع كانت بعض جوانب لندن اختيرت وقوداً لغضب الشباب الذي لم يجد له مكاناً بعد . ولكن جونسن وصف لندن بعد ذلك بثلاث سنوات بأنها "مدينة اشتهرت بالثراء والتجارة ووفرة الخيرات وبكل لون من ألوان الكياسة والأدب، ولكنها تعج بأكوام القذارة التي لو رآها إنسان متوحش لأخذته الدهشة" (81). ذلك أن السلطات البلدية في ذلك الحين كانت تترك مهمة تنظيف الشوارع للمواطن، الذي أوصي بأن يحتفظ بالمظهر الأنيق للرصيف-أو التراب-أمام منزله. وفي 1762 رتبته قوانين وسمنستر للرصف تنظيف البلدية للشوارع، وجمع القمامة، ورصف الطرق الرئيسية وترميمها، وإنشاء نظام للمجاري تحت الأرض. وسرعان ما نهجت أقسام أخرى من لندن هذا النهج. فكانت الطرقات المرتفعة تحمي المشاة، والبالوعات تصرف مياه الشوارع. وشقت الشوارع الجديدة في خطوط مستقيمة، وبنيت البيوت بناء أصلب وأمتن، وأطلقت العاصمة الوقور رائحة ألطف. وخلت المدينة من مصلحة عامة للحريق، ولكن شركات التامين احتفظت بفرق خاصة للإطفاء بالخرطوم، للحد من خسائرها. وكان تراب الفحم والضباب أحياناً يتضافرا ليبلدا المدينة بغطاء قاتم صفيق يستحيل على المرء معه أن يميز صديقه من عدوه. فإذا انجلت السماء أشرفت بعض الشوارع الحوانيت الزاهية. وفي حي الستراند كانت أكبر وأغنى المتاجر في أوربا تعرض وراء نوافذها منتجات نصف العالم. وغير بعيد منها قامت مئات الحوانيت التي تشغى بعشرات الحرف، ثم انبثت هنا وهناك الفواخير ومصانع الزجاج ودكاكين الحدادين ومعامل الجعة. وأسهمت ضوضاء الصناعات والتجار، والعربات والجياد، والباعة الجائلين والمغنين في الطرقات، في ضجيج الحياة وفي الإحساس بها. فإذا أراد المرء مكاناً أهدأ وهواء أنقى ففي وسعه أن يمشي الهويناً في حديقة سانت جيمس، أو يتطلع إلى السيدات الفاتنات يطوحن تنانيرهن الفضفاضة ذات اليمين وذات الشمال ويعرضن أحذيتهم الحريرية في البلبل. وفي الصباح يستطيع المرء شراء الحليب الطازج من فتيات يحلبن الأبقار على عشب الحديقة. وفي المساء قد

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الشعب الإنجليزي -> لندن

يجوس كيبوزويل بحثاً عن فتاة من بنات الهوى أو ينتظر هبوط الليل الذي يستر كثرة من الأوزار. وأكثر بعداً ناحية الغرب يستطيع أن يركب جواداً أو عربة في هايد بارك. ثم هناك منتجات اللهو الكبرى. فوكسهول بحشودها الزاهية، وأفدنة حدائقها ومماشيتها المشجرة، ورانلاج بقاعتها الفسيحة المدرجة، حيث عزف موتسارت وهو طفل في الثامنة. وكان للفقراء مشارب للجعة، وللطبقتين الوسطى والعليا أندية، وللجميع حانات. فكان هناك حانة "البورز هد" و "المايتر" حيث كان يتعشى الخان الأكبر (جونسون)، وحانة الجلوب الحبيبية إلى قلب جولد سمث، وحانة الشيطان التي رفعت عن نفر من مشاهير الرجال من (بن) جونسون إلى (صموئيل) جونسون. وكان هناك مكانان باسم "تيركس هد" (رأس التركي) أحدهما حانوت قهوة في الستراند، والآخر حانة في شارع جرارد، أصبحت مقراً لـ "النادي". وكانت النساء يختلفن إلى الحانات كالرجال، وبعضهن معروضات للبيع. وفي أندية كنادي هوايت أو نادي

ألماك (الذي أصبح نادي بروكس) كان سراة القوم يستطيعون الشراب ولعب القمار في خلوة من نفر مختار. ثم هناك المسارح بكل ما تتبجحه منافساتها من إثارة وبيعته نجومها من تآلق وبهاء. وقامت المواخير على مقربة من المسارح. فشكا الوعاظ من أنه "إلى التمثيليات والفواصل الموسيقية المذكورة تختلف عادة أعداد غفيرة من سفلة القوم وعاطليهم وشذاذهم، وبعد أن ينتهي التمثيل ينطلقون إلى بيوت الدعارة" (82). وكانت أكثر الطبقات التي في طاقتها الاختلاف إلى المومسات تتعامل معهن تعامل الزبائن الدائمين، وتجمع على الأعضاء عن هذه العادة باعتبارها لا محيص عنها في الحالة الراهنة لتطور الذكور. وكان هناك بعض الغواني الملونات اللاتي اجتذبن الزبائن حتى من طبقة النبلاء. ويصف بوزويل اللورد بمبورك وقد أنهكت قواه بعد ليلة قضاهها في ماخور للسود (83). واستمر وجود الأحياء الفقيرة المزدهمة، ولم يكن أمراً غير عادي أن تعيش أسرة من أسر الطبقات الدنيا في حجرة واحدة من حجرات المبنى.

صفحة رقم : 14138

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الشعب الإنجليزي -> لندن

وكان أفقر القوم يسكنون أقباء رطبة غير مدفأة، أو عليات يتسرب الماء من أسطحها؛ والبعض ينامون على أسرة في الجدران وفي مداخل البيوت أو تحت السفائف. قال جونسن للأنسة رينولدز إنه "وهو عائد إلى مسكنه نحو الساعة الأولى أو الثانية صباحاً كثيراً ما رأى أطفالاً فقراء ينامون على العتبات والأكشاك وأنه ألف أن يضع بنسات في أيديهم ليشتروا بها فطورهم" (84). وأخبر قاض جونسن أن أكثر من عشرين لندنياً في الأسبوع يموتون جوعاً (85). وكانت الأوبئة تتفشى في المدينة بين أن وأن. ومع ذلك ازداد سكانها من 674.000 عام 1700 إلى 900.000 في 1800 (86)، ربما بسبب هجرة الفلاحين الذين لا يملكون أرضاً، وبسبب نمو التجارة والصناعة. وغص التيمز وأرصفتها بالسفن التجارية وشحناتها. كتب معاصر يقول "إن سطح التيمز بأكمله يغص بصغار السفن، والصنادل، والزوارق، والمراكب الخفيفة، الغادية الرائحة، وتحت الكباري الثلاثة غابة من الصواري تمتد أميلاً بطولها حتى ليخيل إليك أن سفن العالم كله قد احتشدت هنا" (87). وقد أضيف كبيران جديان في هذه الفترة: بلاكفرايرز وبارتريسي. وقد رسم المصور كاناليتو الذي قدم إلى لندن من البندقية (1747 و 1751) مناظر بهية للمدينة وللنهر؛ وأتاحت النسخ المطبوعة من هذه المناظر للأوربيين المتعلمين التعرف على نمو لندن التي أصبحت أهم ثغر في العالم المسيحي.

ولم يعرف التاريخ منذ أيام روما القديمة مدينة بلغت هذه المبلغ من الاتساع والثراء والتعدد (باستثناء القسطنطينية). ففي قصر سانت جيمس الملك والملكة وحاشيتهما، والبلاط ومراسمه؛ وفي الكنائس الأساقفة السمان يتمتمون بعبارات منومة، والمصلون المتصنعون يستريحون من عناء الواقع وبطلبون العون الإلهي؛ وفي البرلمان اللوردات وأعضاء مجلس العموم يمارسون لعبة السياسة وبيادقهم أرواح البشر؛ وفي قصر العمدة يضع العمدة ومعاونوه ذو البزة الرسمية اللوائح الخاصة بالكنائس والمواخير، ويتساعلون عن السبيل إلى السيطرة على الوباء القادم أو شغب الغوغاء التالي؛ وفي الثكنات الجنود يقامرون ويفسقون وينجسون الهواء؛ وفي الحوانيت

صفحة رقم : 14139

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> الشعب الإنجليزي -> لندن

الخياطون يقوسون ظهورهم، والسباكون يستنشقون الرصاص، والصاغة والساعاتيون والأساكفة والحلاقون والخمارون يهرولون لتلبية مطالب السيدات والسادة؛ وفي جراب ستريت أو فليت ستريت الكتاب المأجورون يتملقون زبائنهم، ويسقطون الوزارات، ويتحدون الملك؛ وفي السجون رجال ونساء يموتون بالعدوى أو يرقون إلى جرائم أشد نكراً؛ وفي المباني الحفيرة والأقباء قوم جياح عاثروا الحظ مهزومون يستكثرون من أشباههم في شوق وبغير توقف. ورغم هذا كله أحب جونسون وكاتب سيرته لندن. فقد أعجب بوزويل بـ "الحرية والنزوات... والشخصيات العجيبة، وبما في دنيا التجارة واللهو من شدة الزحام والعجلة والصخب، وبالعدد الغفير من الملاهي العامة، والكنايس الرفيعة والأبنية الباذخة، ورضى المرء وهو ينفذ ما يحلو له من خطط دون أن يعرفه أو يلحظه أحد" (88)- هذا الانغمار في الزحام انغماراً حامياً حاناً للشخصية المجهولة. أما جونسون الذي استطاب وعمق "التدقق الشديد لحديث لندن" فقد حسم الأمر بسطر واحد كان حجة في بابه "إذا مل إنسان لندن فقد مل الحياة" (89).

صفحة رقم : 14140

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> عصر رينولدز -> الموسيقيون

الفصل الثلاثون

عصر رينولدز

1790-1756

1- الموسيقيون

أولعت إنجلترا بالموسيقى الرائعة، ولكنها عجزت عن إنجابها. لقد تكاثرت ذوقها. ففي اللوحة التي رسمها زوفاني "أسرتا كوبر وجور" نرى الدور الذي لعبته الموسيقى في البيوت الراقية. ونسمع عن مئات المغنين والعازفين الذين جمعوا معاً لحفلة تخليد ذكرى هندل في 1784. وقد أعلنت "المورننج كرونكل" في عدد 30 ديسمبر 1790 إعلاناً للشهور التالية عن سلسلة من "حفلات موسيقية يؤديها المحترفون"، وسلسلة أخرى من "حفلات للموسيقى القديمة"، و "حفلات موسيقية للسيدات المتبرعات" في أمسيات الأحاد، وعن أوراتوريوات مرتين في الأسبوع، وست حفلات للموسيقى السمفونية يقودها المؤلف بشخصه جوزف هايدن (1). وهذا ينافس ثروة لندن الموسيقية اليوم. وكما أن البندقية ألقت من اليتامى فرقةً للإنشاد، فكذلك كان "أطفال المبرة" في كندرائية القديس بولس يحيون حفلات موسيقية سنوية كتبها هايدن عنها يقول:

"لم تؤثر في أي موسيقى أخرى في حياتي هذا لتأثير الشديد" (2)، وكانت الحفلات الموسيقية والأوبرات الخفيفة تقدم في قاعة رانيلاج وفي حدائق ماريلبون. وقدمت اثنتا عشرة جمعية من هواة الموسيقيين حفلات عامة. وذاع حب الإنجليز للموسيقى ذبوعاً اجتذب الكثير من العازفين

صفحة رقم : 14141

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> عصر رينولدز -> الموسيقيون

والمؤلفون إلى الجزيرة-جيمناي، وموتسارت، وهايدن، ويوهان كريستيان باخ؛ ومكث فيها باخ ولم يرحل عنها. وفتن الميل إلى الأوبرا الجادة في إنجلترا بعد أن أتخمها هندل. ثم عاد شيء من التحمس لها حين استهل جوفاني مانتزولي موسم 1764 بأوبرا "اتسيو"، وقد وصف بيرني صوته بأنه "أقوى وأضخم سوبرانو سمع على مسرحنا منذ فارينللي" (3) وكان هذا على ما يبدو آخر انتصار للأوبرا الإيطالية في إنجلترا في ذلك القرن. فلما احترقت دار الأوبرا الإيطالية في لندن (1789) اغتبط هوراس ولبول وتمنى ألا يعاد بناؤها أبداً (4).

وإذا كان العهد قد خلا من المؤلفين الموسيقيين الجديرين بالذكر فإنه أنجب مؤرخين موسيقيين بارزين صدرت أعمالهم في ذات السنة (1776) "سنة العجائب" التي ظهر فيها كتاب "اضمحلال وسقوط الدولة الرومانية" و "ثروة الأمم"، فضلاً عن الإعلان الأمريكي للاستقلال. فكتاب السر جون هو كنز ذو الأجزاء الخمسة "التاريخ العام لعلم الموسيقى وممارسته" عمل ينبئ عن دراسة مدققة، ومع أنه هو نفسه لم يكن موسيقياً (إذ كان محامياً ثم قاضياً) فإن معاييرها ثبتت وسط تقلبات الرأي الناقد. أما المؤرخ الثاني "تشارلز بيرني" فكان عازف أرغن في كاتدرائية القديس بولس وأكثر معلمي الموسيقى زبائن في إنجلترا. وقد أكسبته طلعته الوسيمة وشخصيته المحبوبة فضلاً عن ثقافته المتعددة صداقة جونسون وجاريك وبيرك وشريدان وجبون ورينولدز-الذي رسم له لوحة جذابة دون أن ينقاض عنها أجراً (5). وقد جاب أرجاء فرنسا وألمانيا والنمسا وإيطاليا ليجمع المواد لكتابه "التاريخ العام للموسيقى"، وتكلم كلام خبير على المؤلفين الموسيقيين الذين كانوا يومها على قيد الحياة. وحوالي 1780 قال أن "شيوخ الموسيقيين يشكون من غلو شبابهم، وشبابهم يشكون من جفاف الشيوخ وخشونتهم" (6).

صفحة رقم : 14142

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> عصر رينولدز -> المعماريون

2- المعماريون

اشتبك البناءون الإنجليز الآن في منافسة ساخنة بين الإحياء القوطي والإحياء

صفحة رقم : 14143

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> عصر رينولدز -> المعماريون

الكلاسيكي. ذلك أن بهاء الكاتدرانيات القديمة، وفخامة الزجاج الملون الأثرية، والأطلال المكسوة بالبلابل والمتخلفة من أديرة العصر الوسيط في بريطانيا، كل أولئك حفز الخيال ليصور العصور الوسطى في صورة الكمال، وتوافق مع الإنتقاص الرومانتيكي المتراد على طراز الثنائيات الكلاسيكية، والأعمدة الجامدة، والقواصر الثقيلة. فاستخدم هوراس وليول سلسلة من معماري المرتبة الثانية ليعيدوا بناء بيته "ستروبريس هل" في توبكنام بطراز وحلية قوطيين (1748-73)، وأنفق أعواماً من الاهتمام البالغ ليجعل من بيته الحفيظ على الطراز المضاد للطراز البلاديوي. وكان يضيف إليه الحجرات عاماً بعد عام حتى أكتمل له منها اثنتان وعشرون وبلغ طول إحداهما وهي "قاعة الفنون" التي ضمت مجموعات تحفة خمساً وستين قدماً. وغلب عليه استعمال الشرائح الخشبية المكسوة بالجص بدلاً من الحجر، ويتضح لنا حتى من أول نظرة ما هذا الطراز من هشاشة قد تغتفر في الحلية الداخلية ولكنها لا تغتفر في البناء الخارجي. وقد وصف سلوين قصر ستروبري هل هذا بأنه "قوطي هش مثل كعكة الزنجبيل" (7)، وقدر ظريف آخر أن وليول عمر بعد تهدم ثلاثة مجموعات من الأسوار المفرجة التي (8) اقتضى الأمر ترميمها المرة بعد المرة. على أن بلاديو وفتروفويس ظلا رغم هذه التجارب الربيب الحارسين للعمارة الإنجليزية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر كما كان في نصفه الأول. وقد تدعمت الروح الكلاسيكية بفضل الحفائر التي أجريت في صركولانيوم وبومبي، وذاعت بفضل الأوصاف المنشورة عن الأطلال الكلاسيكية التي عثر عليها في أثينا وتدمر وبعلبك. ودافع السر وليم تشيمبرز عن الرأي البلاديوي في كتابه "بحث في العمارة المدنية" (1759) وعزز النظرية بالتطبيق حين أعاد تشييد "سومرست هاوس" (1776-86) بواجهة عريضة فيها النوافذ بطراز النهضة والأروقة الكورنثية المعقدة.

ثم وفدت من إسكتلندا أسرة لامعة من اخوة أربع هو جاك وروبرت وجيمس ولليم آدام ليهيمنوا على العمارة الإنجليزية في نصف القرن الذي نحن بصددده. وقد ترك روبرت أقوى البصمات على جيله. فقد أنهى دراسته

صفحة رقم : 14144

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> عصر رينولدز -> المعماريون

في جامعة إندبرة، ثم أنفق ثلاث سنين في إيطاليا حيث التقى ببيرانيزي وفنكلمان. وقد لاحظ أن القصور الخاصة التي امتدحها فتروفيبوس قد اختفت من روما، وانتهى إليه أن واحداً منها ما زال سليماً نسبياً، وهو قصر دقلديانوس في سبالاتو (وهي الآن سبليت في يوغوسلافيا) فاتخذ سمته إلى تلك العاصمة الدلماشية العتيقة، وأنفق خمسة أسابيع يقيس ويرسم، ثم ألقت السلطات القبض عليه ظناً منها أنه جاسوس، ثم أفرج عنه، وألف كتاباً عن أبحاثه، وقفل إلى إنجلترا وقد عقد العزم على استعمال الطرز الرومانية في العمارة البريطانية. ففي 1768 استأجر هو وأخوته مساحة من الأرض المنحدرة بين الستراند والتميز لتسعة وتسعين عاماً، وشيدوا فوقها "أدلفي تراس" الشهير -وهو حي من شوارع بديعة وبيوت جميلة فوق جسر تدعمه البواكي والعقود الرومانية الضخمة؛ هنا عاش بعض الدراميين الكبار، من جاريك إلى برنادشو. كذلك صمم روبرت بعض القصور المشهورة، مثل قصر "بيوت" المسمى لوتن هو "أي بيت لوتن، على ثلاثين ميلاً شمالي لندن). قال جونسون "هذا أحد الأماكن التي لا أندم على أنني جئت لأشدها(9)"، ومعروف أنه كان رجلاً عسير الإرضاء.

وقد انتصرت الطرز الكلاسيكية بوجه عام على الأحياء القوطي، وشيد كثير من قصور هذا العهد الكبرى، مثل كارلتن هاوس بلندن، وهيرود هاوس بيور كشير، بالطراز الكلاسيكي الحديث. ولم يعمر ولبول ليشهد عودة الطراز القوطي مكللاً بالنصر والبهاء في داري البرلمان (1840-60).

صفحة رقم : 14145

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> عصر رينولدز -> ودجود

3- ودجود

لم يقنع الأخوة آدم بتصميم المباني وما احتوته من داخلها، بل صنعوا بعضاً من أجمل أثاث العصر. غير أن ألمع الأسماء في هذا المضمار هو اسم توماس تشينديل، الذي نشر في 1754 وهو في السادسة والثلاثين كتاب "مرشد الجنتلمان ونجار الأثاث"، الذي كان لفن صناعة الأثاث ما كانه

صفحة رقم : 14146

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> عصر رينولدز -> ودجود

كتاب رينولدز "أحاديث" لفن التصوير. وكانت المنتجات التي تقرد بها هي المقاعد ذات "الظهور الشريطية" الرقيقة والقوائم الجذابة. ولكنه أبهج النبلاء والنبيلات في عهد جورج الثالث كذلك بالخزائن، والمكاتب، والمناضد، ودواليب الكتب، والمرايا، والموائد، والأسرة ذات الأعمدة الأربعة-كلها أنيق، وأكثرها مبتكر، هش رقيق عموماً. وظلت هذه الرقة طابع فن منافسه جورج هبلوايت، وخلفهما توماس شيراتون. وبدا أنهم اعتنقوا نظرية بيرك التي زعمت أن الجمال يجب أن يكون هشاً رقيقاً، في الفن كما هو في الحياة. أما شيراتون فقد دفع الخفة والرشاقة إلى الذروة، وتخصص في الخشب الملون وغيره من المنتجات البديعة التجزع. وكان يصقلها في أناة، ويلونها في رقة، ويكفنها أحياناً بزخارف معدنية. وقد أورد في "قاموس الأثاث" (1802) قائمة حوت 252 من "كبار صناع الأثاث" يشتغلون في لندن أو قربها. وناقست الطبقات العليا في إنجلترا الآن نظائرها الفرنسية في صقل أثاتها وتجهيزاتها الداخلية.

وكانوا أسبق من الفرنسيين في تصميم الحدائق والبساتين. وقد لقب لانسوت براون "Capability" (أي القدرة) لأنه كان يظن بسرعة كبيرة للقدرات التي تتيحها أرض زبونه للتصميمات الغربية-والغالية؛ وبهذه الروح صمم الحدائق في بلنهم وكيو. واتجهت موضة الحدائق الآن إلى الطراز الدخيل، أو غير متوقع، أو البهي المنظر. واستعملت نماذج مصغرة من الهياكل القوطية والباجودات الصينية زخارف خارجية؛ وأدخل السر ولیم تشيمبرز في زخرفة حدائق كيو (1757-62) الهياكل القوطية، والجوامع المغربية، والباجودات الصينية (المتعددة الأدوار). وكانت الجرار الجنائزية حليات محببة للحدائق، تضم أحياناً رفات أصدقاء رحلوا عن هذه الدنيا. أما فنون الخزف فقد تطورت تطوراً كاد يكون ثورياً. فكانت إنجلترا تنتج زجاجاً لا يقل جمالاً عن أي زجاج مصنوع في أوربا (10). وكانت مصانع الخزف في تشلسي وداربي تصنع الأشكال المبهجة بالبرسلان، بطراز سيفر عادة. ولكن أنشطة مراكز الخزف كانت "المدن الخمس"

صفحة رقم : 14147

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> عصر رينولدز -> ودجود

في ستافورد شير-لا سيما ببر سليم وستوك-أن-نرنت. وقبل مجيء جوسيا ودجود كانت هذه البضاعة فقيرة في طرائقها ومكاسيها؛ وكان الخزافون أجلاً جهلة، قذفوا وسلي بالوحل حين وعظهم أول مرة، وكانت بيوتهم عششاً وسوقهم تسدها طرقات لا سبيل إلى اختراقها. وفي 1755 اكتشفت في كورنول رواسب غنية من الكاولين-وهو طفل أبيض قاس كالذي يستعمله الصينيون؛ ولكن الموقع كان يبعد مائتي ميل عن المدن الخمس. وقد بدأ ودجود وهو في التاسعة من عمره (1739) العمل على دولاب الخزاف. ولم يتلق من التعليم إلا القليل، ولكنه قرأ كثيراً. وأهمته دراسته لكتاب "كابلوس" "مختارات من الآثار المصرية والأثرورية واليونانية والرومانية والغالية" (1752-67) الطموح إلى تقليد الأشكال الزخرفية الكلاسيكية ومنافستها. وفي 1753 بدأ العمل بمصنعه الخاص في "أبي هاوس"، وبنى حوله قرب بيرسليم مدينة أطلق عليها اسم إتروريا، وبهمة المحارب وبصيرة لأجل الدولة شن حرباً على الظروف التي عوقت هذه الصناعة. ورتب وسيلة أفضل لنقل الكاولين من كورنول إلى مصانعه، وشن حملة لإصلاح الطرق وشق القنوات، وأسهم في دفع نفقاتها، وصحت نيته على أن يفتح مسالك من المدن الخمس إلى العالم. وكانت سوق الخزف الجميل الإنجليزية حتى ذلك العهد يسيطر عليها خزف مايسون وديفلت وسيفر، فاستولى ودجود على السوق المحلية، ثم على جانب كبير من السوق الأجنبية، وما وافى عام 1763 حتى

كانت مصانع خزفه تصدر كل عام 550.000 قطعة لأوروبا وأمريكا الشمالية. وأوصت كاترين الكبرى على طقم للمائدة من ألف قطعة.

وبحلول عام 1785 كانت مصانع خزف ستافوردشير تشغل 15.000 عامل. وأدخل ودجود تخصص العمل، وأرسي الانضباط في المصنع، ودفع أجوراً حسنة، وبنى المدارس والمكتبات. وكان يصير على جودة الصناعة، وقد وصف كاتب ترجم له قديماً بأنه كان يذب في أرجاء ورشته على ساقه الخشبية، وتحطم بيده كل إناء يظهر به أي عيب صغير؛ وفي مثل هذه الحالات كان يكتب بالطباشير عادة على مقعد الصانع المهمل هذا

صفحة رقم : 14148

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> عصر رينولدز -> ودجود

التحذير "هذا لا يرضي جوسيا ودجود" (11) وابتكر العدد الدقيقة، وجلب الآلات البخارية لتحريك ماكانته. ونتيجة لإنتاجه الواسع للخزف التجاري، بطل الاستعمال العام لمعدن البيوتر في إنجلترا. وتفاوت إنتاجه بين مواسير الفخار لمجاري لندن، وأبدع وأدق الأواني للملكة شارلوت. وكان يقسم أوانيهِ المعروضة للبيع إلى "النافع" و "الزخرفي" ولصنع الخزف الزخرفي كان يقلد النماذج الكلاسيكية في غير موارد، كما يرى في فازاته العتيقة الفاخرة، ولكنه طور أيضاً أشكالاً من نبات أفكاره، خصوصاً خزف الشب الشهير ذا الأشكال الإغريقية المنقوشة نقشاً رقيقاً باللون الأبيض على أرضية زرقاء.

وقد جاوز اهتمامه وحماسه الخزف بكثير. فهدته تجاربه التي أجراها للعثور على أخلاط من التراب والكيماويات أكثر إرضاء له، وعلى طرائق أفضل للحريق، إلى اختراع "البيرومتر" لقياس درجات الحرارة المرتفعة. وإتاح له هذا الاختراع وغيره من البحوث عضوية الجمعية الملكية (1783) وكان عضواً سابقاً في جمعية إلغاء الرق، وقد صمم ختمها وصنعه. وقام بحملة لتعميم حق التصويت للذكور وللإصلاح البرلماني، وناصر المستعمرات الأمريكية من بداية ثورتها إلى نهايتها. ورحب بالثورة الفرنسية بشيراً بفرنسا أسعد حالاً وأعظم رخاء.

وقد هدته فطنته إلى تكليف جون فلاكسمان بعمل الرسوم الجديدة المهذبة ومن هذه المهمة انتقل فلاكسمان إلى توضيح أعمال هومر وأسخيلوس ودانتي برسوم قائمة على أساس من فن رسامي الفازات اليونان. وهي رائعة في خطوطها، ولكنها لافتقارها إلى الجسم واللون لا تزيد في جاذبيتها عن جاذبية المرأة مجردة من اللحم. وانتقل بعض هذا البرود إلى تماثيل فلاكسمان، كما نرى في تمثاله لنلسن في كاتدرائية القديس بولس، ولكنه في تمثال "كيبويد وماربيسا" (12) الرخامي حقق أشكالاً فائضة بالحياة في عمل من أفضل تقليدات التماثيل الكلاسيكية. ثم أصبحت التماثيل الجنائزية

صفحة رقم : 14149

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> عصر رينولدز -> ودجود

مجال تخصصه، فأقامها لنشأترتن في برستل، ولرينولدز في كاتدرائية القديس بولس، ولباولي في كنيسة وستمنستر. وقام في إنجلترا بالدور الذي قام به كازانوفا في إيطاليا وهو المحاولة الكلاسيكية الحديثة لالتقاط رشاقة براكتيليس الناعمة الشهوانية من جديد.

وهناك أقل، وحية أكثر، في التماثيل النصفية التي نحتها جوزف نولكنز لأعلام الإنجليز. وقد ولد في لندن لأبوين فلمنكيين، ودرس فيها حتى بلغ الثالثة العشرين، ثم قصد روما، حيث عاش واشتغل عشر سنين يبيع العاديات الأصلية والمزيفة (13). فلما عاد إلى إنجلترا، نحت تمثالاً نصفياً لجورج الثالث وفق فيه توفيقاً لم يلبث أن كثر الطلب عليه. فجلس إليه ستيرن وجاريك وفوكس وبت الثاني، كذلك جلس إليه جونسون، وكان في ذلك ما أسفوا عليه أحياناً، لأن نولكنز لم يجامل أحداً في نحت تماثله. وقد سخط جونسون قائلاً أن المثال أظهره وكأنه تعاطى مسهلاً (14).

كان العصر عصر حفارين شعبيين، وكان الجمهور شديد الاهتمام بالشخصيات القوية التي وطنت مسرح السياسة وغيره من المسارح، وقد نثرت في طول إنجلترا وعرضها نسخ مطبوعة من صور أشكالها ووجوههم. وكادت رسوم جيمس جلري الكاريكاتورية تبلغ في أذاها مبلغ رسائل جونيس؛ وقد أعترف فوكس بأن هذه الرسوم أنزلت به "أذى أكثر من المناقشات في البرلمان" (15). وصور توماس رولاند سن الرجال وحوشاً، ولكنه رسم أيضاً مناظر طبيعية مبهجة، وأضحك أجيالاً عديدة بكتابه "سياحات الدكتور سنتاكس". أما بول ساند باي وإدموند داير فقد طورا الرسم بالألوان المائية حتى كاد يبلغ القمة في الصقل.

وكان البريطانيون العائدين من سياحتهم الكبرى "في أوربا" يجلبون معهم نسخ الرسوم المطبوعة والمحفورات والصور الزيتية وغيرها من التحف. وانتشر تذوق الفن، وتكاثر الفنانون، ورفعوا هاماتهم، وأجورهم، ومكانتهم في المجتمع، وأنعم على بعضهم بلقب الفروسية. ومنحت جمعية تشجيع الفن والصناعة والتجارة (1754) المبالغ الطيبة

صفحة رقم : 14150

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسون -> عصر رينولدز -> ودجود

جوائزها للفنانين الوطنيين، ونظمت المعارض. وعرض المتحف البريطاني مجموعاته في 1759. وفي 1761 افتتحت جمعية قائمة بذاتها للفنون معارض سنوية. وما لبثت أن انقسمت إلى محافظين ومجددين. فألف المحافظون أكاديمية لندن الملكية بمرسوم و 5.000 جنيه من جورج الثالث. وجعلوا جوشوا رينولدز رئيساً لها ثلاثة وعشرين عاماً. وهكذا بدأ العصر العظيم للتصوير الإنجليزي.

صفحة رقم : 14151

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسون -> عصر رينولدز -> جوشوا رينولدز

وكان قائد المسيرة هو ريتشارد ولسن، الذي ولد لقسيس ويلزي، وقدم إلى لندن في الخامسة عشرة من عمره، وكسب قوته برسم الأشخاص. وفي 1749 قصد إيطاليا، وفيها وفي فرنسا استوعب تراث نيقولا بوسان وكلود لوران، وتعلم أن يؤثر تصوير الأحداث التاريخية والمناظر الطبيعية على تصوير الأشخاص. فلما عاد إلى إنجلترا رسم مناظر طبيعية مشرقة الجو ولكنها مكدسة بالأرباب والرباب وغيرها من الأطلال الكلاسيكية. وتميزت بالجمال صورة "نهر التيمز في تويكنام" (16) التي تلتقط روح نهار صيف إنجليزي - المستحمون يسترخون، والأشجار والزوارق الشراعية لا يكاد يحركها النسيم المترقق. غير أن الإنجليز لم يقبلوا على شراء صور المناظر الطبيعية، فقد أرادوا لوحات تخلد وجوههم في عنفوانهم. ولكن ولسن أصر على رأيه، وعاش فقيراً في حجرة نصف مؤنثة في توتنام كورت رود، وخفف مرارته بالشراب. وفي 1776 أنقذته الأكاديمية الملكية إذ عينته أميناً لمكتبتها. وخلف له موت أخ له ثروة صغيرة في ويلز، فأنفق سنيه الأخيرة هناك مغموراً حتى لقد أغفلت الصحف كلها نبأ موته (1782). وعلى النقيض من هذا كانت حياة رينولدز في فنه مهرجاناً موصولاً من أسباب التشريف والثراء، فقد أسعده الحظ بمولده (1723) لقسيس ديفونشيري يدير مدرسة لاتينية ويعشق الكتب التي عثر بينها على "مقال في فن فنون التصوير" (1719) من تأليف جونان ريتشاردسن. وقد ألهمه الكتاب رغبة في أن يكون مصوراً ووافقه أبواه العطوفان على اختياره إرضاء

صفحة رقم : 14152

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> عصر رينولدز -> جوشوارينولدز

له، فأوفده إلى لندن ليتلمذ على توماس هيدسن، وهو رجل ديفونني تزوج بابنة ريتشاردسن وكان يومها أروج مصور للأشخاص في إنجلترا. وفي 1746 مات أبوه، وأقام الفنان الشاب مع أخته في بلدة هي اليوم بليمث. في ذلك الثغر الشهير التقى بالملاحين وضباط البحرية وصورهم وكون صداقات غالبية. فلما كلف الكابتن أوجستس كيبيل بحمل الهدايا إلى داي الجزائر، عرض على جوشوا أن ينقله مجاناً إلى مينورقة، لأنه علم لأن الشاب يتوق للدرس في إيطاليا. ومن مينورقة شق رينولدز طريقه إلى روما (1750). وأقام بإيطاليا ثلاث سنين يرسم وينسخ الصور. وجهد ليكتشف الطرق التي استعملها ميكيل أنجيلو وروفانيل في حدقهما للخط واللون والضوء والظل والنسيج والعمق والتعبير والمزاج. وقد دفع الثمن، فبينما كان ينسخ روفانيل في بعض حجرات الفاتيكان غير المدفأة أصيب ببرد وأنه أضر بأذنه الداخلية. ثم انتقل إلى البندقية، حيث درس تتسيانو، وتنتوريتو، وفيرونيزي، وتعلم كيف يضيء وقار الأدواج البنادقة على أي إنسان بصوره. وفي طريق عودته إلى وطنه توقف شهراً في باريس، ولكنه وجد في فن التصوير الفرنسي المعاصر من الأوثنة ما لا يسيغه ذوقه. وبعد أن قضى شهراً في ديفون استقر به المقام مع أخته فرانسيس في لندن (1753)، وهناك أقام ما بقي من عمره. وللتو تقريباً استرعى الأنظار بصورة أخرى للكابتن كيبيل (17) -وسمياً متحمساً، أمراً ناهياً؛ هنا أعيد التقليد الفانديكي حتى تصيح اللوحات صوراً متألقة للأرستقراطية. ولم يمضي عامان حتى بلغ عدد زبائنه 120 زبوناً، واعترف به القوم أبرع مصور في إنجلترا. وكان عيبه التيسير. فقد أصبح شديد الاستغراق والخبرة بتصوير الأشخاص حتى افتقد الوقت والمهارة لرسم الصور التاريخية أو الأسطورية أو الدينية. وقد أجاد رسم بعضها، مثل "الأسرة المقدسة" و "رباب الحسن الثلاثة" (18) ولكن الهامة لم يكن فيها. كذلك لم يكن بزبائنه حاجة إلى هذه الصور، فقد كانوا كلهم تقريباً

بروتستانتاً يستكرون الصور الدينية لأنها تشجع عبادة الأوثان فيما يزعمون؛ وقد أحبوا الطبيعة، ولكنهم أحبوا ذليلاً تلحق به أشخاصهم

صفحة رقم : 14153

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> عصر رينولدز -> جوشوا رينولدز

أو رحلات، وكانوا يتمنون أن يروا أنفسهم دائمي الشباب على جدرانهم، مخلفين انطباعاتاً قوياً على ذرايعهم. ومن ثم أقبلوا على رينولدز، ألفان منهم عدداً، وأرسلوا إليه أزواجهم وأبناءهم، وأحياناً كلابهم. ولم ينصرف أحد من هؤلاء حزياً، لأن خيال رينولدز اللطيف استطاع دائماً أن يعوضهم عما حرمتهم الطبيعة. ولم يحدث على مدى التاريخ أن حفظ جيل أو طبقة حفظاً كاملاً كذلك الذي تراه في لوحات رينولدز الباقية وعددها 630 "فهنا رجال الدولة الذين عاشوا في ذلك العصر المفعم حيوية: هنا بيوت في مهرجان من اللون (19)، وبيرك في اكتتاب عاجله وهو بعد في الثامنة والثلاثين، وفوكس مستكراً، حزياً، هماماً في الرابعة والأربعين... وهنا الكتاب: وليول، وستيرن، وجولد سمث (20) وهو يبدو حقيقة مثل "بل المسكين"، وجيون بوجنتيه الممثلين اللتين حسبتهما المركزية دودفان-التي لم تبصر إلا بيديها-مقعدة طفل" (21) وبوزويل (22) فخوراً كأنه خلق جونسون، ثم جونسون نفسه، مصوراً في حب خمس مرات، وجاساً في 1772 إلى رينولدز ليرسم له أشهر ما رسم من صور الرجال (23). وهنا أعلام المسرح: جاريك "نهياً بين ريتي التراجيديا والكوميديا المتنافستين"، وماري روبنسن في دور برديتا، والسيدة آبنتن في دور ربة الكوميديا، وسارة سيدونز في دور ربة التراجيديا (24)، وقد نقد أحد المتحمسين رينولدز سبعمائة جنيه (18.200 دولار؟) ثمناً لهذه الرائعة الفاخرة. ويغلب على هذا المتحف الذي لا ضريب له كثرة عدد النبلاء-أولئك الذين أعطوا نظاماً اجتماعياً لشعب نزاع إلى الفردية، واستراتيجية ظافرة للسياسة الخارجية، ودستوراً مقيداً للملك فانظر إليهم أول الأمر في صباهم الحلو، كصورة توماس لستر ذي الأثني عشر ربيعاً-هذه الصورة التي رسمها رينولدز واسمها "الصبي الأسمر" تتحدى صورة "الصبي الأزرق" التي رسمها جينزبرو. ثم أوجسطس كبيل ذاته الذي كان رائع السميت وهو كابتن في 1753، ولكنه انتفخ كثيراً وهو أميرال في 1780. وقد وفق

صفحة رقم : 14154

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> عصر رينولدز -> جوشوا رينولدز

رينولدز برغم هذه البدانات، وبرغم الحرير والمخزومات التي اكتسوا بها، في تحويل الشجاعة والكبرياء غير الملموستين إلى لون وخط. خذ مثلاً جسم اللورد هينفيلد المتين وشخصيته القوية، ويبدو جسوراً في اللون الأحمر

البريطاني، ممسكاً بالمفتاح إلى جبل طارق الذي دافع عنه دفاعاً مستميتاً ضد حصار الأسبان والفرنسيين الذي امتد أربعة أعوام.

وهكذا تنتهي بنا المسيرة إلى أولئك الرباط بين النساء "الدياي جيناياكون" اللائي وجدهن رينولدز في زوجات النبلاء البريطانيين وبناتهم. وإذا كان عزباً فقد كان حراً في أن يجبهن جميعاً بعينيه وفرشاته، ويخلع عليهن بهاء وجلالاً بلباس فضفاض رفيع في خفة الزغب، خليق بأن يجعل فينوس تواقاً إلى كساء عريها. فانظر إلى الليدي اليزابث كبيل، مركيزة تافيسنوك، وقد ارتدت ثياب القصور التي لبستها قبل سنين يوم كانت إشبينة للعروس الملكة شارلوت، ترى ماذا تكون بغير تلك الطيات من الحرير الملون تطوق ساقين لا يمكن على أية حال أن تختلفا كثيراً عن ساق زانتيب (زوجة سقراط)؛ وكان رينولدز أحياناً يجرب ما تستطيع فرشاته أن تصنع بالمرأة وهي في ثياب بسيطة؛ فصور ماري بروس دوقة رتشموند في عباءة عادية تخطط رسماً في وسادة(25)؛ هذا وجه يمكن أن يلم بأحلام فيلسوف. وفي ما يقرب من هذه البساطة في الملابس والصورة الجانبية الملائكية نرى السيدة بوفري تصغي إلى السيدة كريوي(26). وكان هناك جمال أعمق حتى من هذا في وجه إيما جلبرت، كونتيسة مونت ادجكوم، الهادئ الرقيق(27)، وقد دمرت هذه اللوحة الجميلة بفعل غارات العدو في الحرب العالمية الثانية.

وكان لكل هؤلاء النسوة تقريباً أطفال، لأنه كان جزءاً من التزام الأرستقراطية الاحتفاظ بالأسرة والملكية في استمرار لا تنفصم عراه. وهكذا صور رينولدز الليدي اليزابث سبنسر، كونتيسة بمبورك، مع ابنها ذي السنين الست، وهو الذي سيصبح فيما بعد اللورد هيربرت(28)؛ وصور السيدة إدوارد بوفري مع ابنتها جورجيانا ذات السنين الثلاث(29)؛ وصور هذه الأبنه، بعد أن أصبحت دوقة ديفونشير (الحسنة المرححة التي اشترت

صفحة رقم : 14155

قصة الحضارة - روسو والثورة - إنجلترا جونسن - عصر رينولدز - جوشوا رينولدز

بالقبات أصوات الناخبين لفوكس لانتخابات البرلمان) مع ابنتها ذات السنين الثلاث، وهي جورجيانا أخرى أصبحت فيما بعد كونتيسة كارليل(30).

وأخيراً، وربما أكثر هن جميعاً جاذبية، الأطفال أنفسهم، متحف كامل منهم، وكلهم تقريباً رسمه متقرباً كروح لا تكرر لها، وفهمه بتعاطف في تساؤل الصبي وعدم اطمئنانه. ويعرف العالم رانعة رينولدز في هذا القطاع، وهي "عصر البراءة"(31)، التي رسمها في 1788، في آخر سني إحصاره؛ بيد أن السرعة التي بلغ جمالها في الوصف رسمها في 1758 للورد روبرت سبنسر وهو في الحادية عشرة(32). وبعدها راح يرسم الأطفال في كل عمر: في سنتها الأولى الأميرة صوغيا ماتيلده؛ وفي سنته الثانية الغلام وين مع حملة؛ وفي الثالثة الأنسة باولز مع كلبها؛ وفي الرابعة الغلام كريوي في تقليد كامل لهنري الثمن؛ وفي نحو هذه السن "الفتاة بائعة الفراولة"(33)؛ وفي الخامسة ولدا بروميل، ولیم جورج (الذي أصبح فيما بعد يلقب "بو بروميل")؛ وفي السادسة الأمير ولیم فردريك؛ وفي السابعة اللورد جورج كونواي؛ وفي الثامنة الليدي كارولين هوارد؛ وفي التاسعة فردريك، إيرل كارليل؛ وهكذا قدما إلى الشباب والزواج والإنجاب.

وقد اعترف رينولدز بإيثاره زبائنه من ذوي الألقاب، "أن التدرج البطيء للأشياء بالطبع يجعل الأناقة والتهذيب آخر آثار الغنى والسلطة"(34) ولا قبل إلا الأغنياء بدفع الجنيهاً الثلاثمائة التي يطلبها أجراً عن "لوحة كاملة الطول مع طفلين"(35). أياً كان المرء، فإنه كان قد وقه على منجم ذهب، وما لبث دخله أن ارتفع إلى 16.000 جنيه في العام. وفي 1760 اشترى بيتاً في رقم 17 ميدان لستر، وكان يومها أرقى أحياء لندن، فأنشئه تأثيثاً فاخراً، وجمع له الصور من صنع قدامى الفنانين، واتخذ مرسماً له قاعة في سعة صالة الرقص. وكان للي مركبته الخاصة، تجملها اللوحات المرسومة والعجلات المذهبة، وطلب إلى أخته أن تركيبها طائفة بالمدينة، لأنه كان يعتقد أن مثل هذا الإعلان عن الثراء كفيل بأن يأتي بالمزيد(36).

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> عصر رينولدز -> جوشوا رينولدز

وفي 1760 منح لقب الفروسية. وكان يلقي الترحيب في كل مكان يحل به ضيفاً، واستضاف هو نفسه أصحاب العبقرية والجمال والنبيل؛ وكان يلتقي على مائدته من رجال الأدب عدد يفوق ضيوف أي رجل آخر في إنجلترا (37). وقد أهداه جولد سمث قصيدته "القرية المهجورة" وأهداه بوزويل "حياة صموئيل جونسون". ورينولدز هو الذي أسس في 1764 "النادي" لبيتج لجونسون منبراً من نظائره. ولا بد أنه أحب جونسون، فقد رسم له صوراً كثيرة جداً. ورسم لنفسه أكثر. غير لأنه لم يوهب وسامة الطلعة، فقد كان وجهه شديد الحمرة به ندوب من جدري أصابه في طفولته؛ وكانت ملامحه جافية، وشفته العليا شوهتها كبوة في مينورقة. وفي الثلاثين رسم نفسه وهو يظلل عينيه ويحاول اختراق نبيه من الضوء والظل ليلتقط الروح الكامنة وراء وجهه (38). ثم صور نفسه في الخمسين وهو في رداء الدكتوراه، لأن جامعة أكسفورد كانت قد منحته لتوها الدكتوراه في القانون المدني. وأبدع هذه السلسلة صورته المحفوظة في قاعة الصور القومية، التي رسمها حوالي 1775، وفيها يبدو وقد غدا وجهه أكثر تهذيباً، ولكن شعره خطه الشيب، ويده مضمومة إلى أذنه، لأنه كان في طريقه إلى الصمم. وحين أسست أكاديمية الفنون الملكية في 1768 أنتخب رينولدز رئيساً لها بالإجماع. وظل خمسة عشر عاماً يفتتح موسمها بحديث إلى الطلاب. وكان بوزويل من الأصدقاء الذين جلسوا في الصف الأمامي في حديثه الأول (2 يناير 1769). وقد أدهشت الكثيرين ممن استمعوا إلى هذه الأحاديث بلاغتها الأدبية، وظن بعضهم أن بيرك أو جونسون كتبها له، ولكن السر جوشوا كان قد تعلم الكثير من اتصالاته، وانشأ له أسلوباً وتفكيراً خاصين. وبالطبع شدد على أهمية الدرس بوصفه أكاديمياً، واستنكر الفكرة التي تزعم أن العبقرية قد تغني صاحبها عن التعلم وبذل الجهد الشاق، وازدري "شبح الإلهام هذا"، وأصر على أن "الجهد هو الثمن الوحيد للشهرة الراسخة" (40). ثم أنه "ينبغي اغتنام كل فرصة لاستنكار ذلك الرأي السوقي الباطل وهو

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> عصر رينولدز -> جوشوا رينولدز

أن القواعد أغلال تقيد العبقرية" (41) ويجب أن يمر التطور الطبيعي للفنان بمراحل ثلاث: أولاً: مرحلة الوصاية-تعلم القواعد، والرسم، والتلوين، والتشكيل؛ ثانياً: دراسة كبار الفنانين الذين نالوا الاستحسان على طوال الزمن، وبطريق هذه الدراسات "تلتئم الآن أسباب الكمال المتناثرة بين مختلف الفنانين في فكرة عامة واحدة تقضي إلى تعديل ذوق الطالب وتوسيع خياله. والمرحلة الثالثة والأخيرة تحرر الطالب من الخضوع لأي سلطان إلا ما يرى بنفسه أن العقل يؤيده" (42). وعندها فقط ينبغي له أن يجدد ويبدع. "فإذا أحسن إرساء حكمه وإثراء

ذاكرته، استطاع أن يجرب قوة خياله دون أن يعرّوه خوف. والعقل الذي درب على هذا النحو يمكنه أن يشبع رغبته في الحماسة المفرطة ويغامر باللعب على حدود الأعراب الشديد" (43). وكان هوجارث قد رفض "قدامى الأساتذة" ولقبهم "الأساتذة السود"، وأشار بتصوير الطبيعة تصويراً واقعياً. أما رينولدز فذهب إلى أن هذه الخطوة ينبغي أن تكون مجرد إعداد لفن أكثر مثالية. "أن الطبيعة نفسها يجب عدم الغلو في نقلها.. ومطمح المصور الأصيل لا بد أن يكون أوسع من هذا. فبدلاً من محاولته الترويح عن البشر بالأحكام الدقيق لتقليده، عليه أن يحاول تحسينها بسمو أفكاره... وعليه أن يكافح لبلوغ الشهرة بأسره للخيال" (44). أن كل شيء في الطبيعة ناقص قاصر عن إدراك الجمال، وفي صميمه عيب أو نقص ما، والفنان يتعلم أن يحذف هذه العيوب من إبداعاته، وهو يجمع في مثل أعلى واحد مزايا الكثير من الأشكال الناقصة؛ "أنه يصحح الطبيعة بذاتها، وحالتها الناقصة بحالتها الأكثر كمالاً.. وهذه الفكرة، فكرة الحالة الكاملة للطبيعة، التي يسميها الفنان "الجمال المثالي" هي المبدأ الرئيسي العظيم الذي تؤدي العمال العبقريّة طبقاً له. ولكي يميز الفنان الناقص من الكامل، والرفيع من الخسيس، ولكي يدرب الخيال ويهذبه ويرفعه، يجب أن يثري نفسه بالأدب والفلسفة، وب "حديث الرجال المتقنين والمبدعين" (45). وكذلك فعل رينولدز.

صفحة رقم : 14158

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> عصر رينولدز -> جوشوا رينولدز

وفي 1782 أصيب بالنقطة، ثم شفي شفاء جزئياً من إصابته. وواصل التصوير سبع سنين أخرى. ثم غامت عينه اليسرى، وسرعان ما فقدت البصر. وفي 1789 بدأت اليمنى في الضعف، فوضع فرشاته، وقد ملاًه جزعاً وقنوطاً أن يضاف العمى الكامل تقريباً إلى نصف الصمم الذي ألحاه منذ سنته السابعة والعشرين إلى استعمال بوق الأذن. وفي 10 ديسمبر 1790 ألقى آخر أحاديثه. وقد أعاد تأكيد إيمانه بالمبادئ الأكاديمية والمحافظة التي نادى بها في أحاديثه القدم عهداً، وجدد نصيحته بدرس الخط على اللون، والمصورين القدامى قبل محاولة التجديد. ثم اختتم بالثناء الحار على ميكيل أنجيلو:

"لو أتيت لي الآن أن أبدأ الحياة من جديد، لاقتفيت خطى ذلك الفنان العظيم، فلثم هذب ثوبه، والنقط الطفيف من مواطن كماله، فيه فخر وامتياز كافيان لرجل طموح... ويخيل إلي، في شعور لا يخلو من الغرور، أن هذه الأحاديث تشهد بإعجابي بهذا الرجل الملهم حقاً، وأود أن تكون آخر كلمة أفوه بها في هذه الأكاديمية ومن هذا المكان، هي اسم ميكيل أنجيلو" (46).

وتوفي المصور الأسف في 23 فبراير 1792، وشرف تسعة نبلاء بحمل رفاته إلى كاتدرائية القديس بولس.

صفحة رقم : 14159

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> عصر رينولدز -> توماس جينزبرو

كان رينولدز رجل دنيا، لا يتردد في تقديم فروض الاحترام التي يقتضيها قبوله في المجتمع، أما جينزبرو فكان ذا نزعة فردية حارة، تسخطه التضحيات التي تطالب بها شخصيته وفنه ثمناً للنجاح. وكان أبواه من المنشقين على الكنيسة الرسمية، وورث توماس عنهما استقلال الروح دون أن يرث التقوى. وتروي القصص عن هروبه من المدرسة في مسقط رأسه صدبري ليجوب أرجاء الريف راسماً رسوماً تخطيطية للشجر والسماء، وللماشية ترعى في الحقول أو تشرب عند البركة. فلما فرغ من رسم جميع الأشجار في منطقته وهو بعد في الرابعة عشرة، حصل على إذن من أبيه

صفحة رقم : 14160

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> عصر رينولدز -> توماس جينزبرو

ليذهب إلى لندن ويدرس الفن. وهناك درس نساء المدينة، كمال نستنتج من نصيحته التي بذلها في تاريخ لاحق لممثل شاب: "لا تسرح في شوارع لندن، متوهماً أنك تلتقط لمحات من "الطبيعة" على حساب بدنك. تلك كانت أول مدرسة لي، أنا عميق الخبرة بالنساء، فاسمح لي إذن أن أذكرك" (47).
وفجأة، وهو ما يزال في التاسعة عشرة، ألفى نفسه زوجاً لفتاة اسكتلندية في السادسة عشرة تدعى مارجريت بور. وتجمع أكثر الروايات على أنها كانت ابنة غير شرعية أحد الأدواق، ولكنها كانت تملك دخلاً قدره مائتا جنيه في السنة (48). وفي 1748 استقر بهما المقام في ابستش. وهناك التحق بناد موسيقي لأنه كان مولعاً بالموسيقى، وكان يعزف على عدة آلات- "أنني أرسم لوحات للأشخاص لأكسب قوتي، ولمشاهد الطبيعة أنني أحبها، وأعزف الموسيقى لأنني لا أملك منع نفسي من العزف" (49) وقد وجد في مصوري "اللاندسكيب" (المناظر الطبيعية) الهولنديين دعماً لولعه بالطبيعة. وكلفه فليب تكنيس، حاكم قلعة لاند جارد القريبة منه، بأن يصور القلعة، والتلال المجاورة لها، وهاروتش، ثم نصحه بأن يلتبس عملاء أغنى وأكثر في مدينة بات.
فلما بلغها جينزبرو (1759) بحث عن الموسيقيين لا المصورين، وسرعان ما أدخل يوهان سبستيان باخ في عداد أصدقائه. ذلك أنه كان يملك روح الموسيقى وحساسيته، وتراه في لوحاته يحول الموسيقى إلى دفء للون ورشاقة الخط. وكان باث بعض مجموعات الصور الجيدة، فاستطاع الآن أن يدرس لوحات الطبيعة التي رسمها كلود لوران وجسبار بوسان، ولوحات الأشخاص التي رسمها فاندريك، وأصبح الوريث وأسلوب فاندريك الإنجليزي-لوحات أشخاص تضيف رهافة بالغة في الفن إلى تفرد الشخصية وأناقة الملابس.
وفي باث أنتج بعضاً من أفضل فنه. وكان آل شريدان يسكنونها، فرسم جينزبرو زوجة رتشارد الشابة الفاتنة (50) ثم أفاض كل صنعته الأخذة في النضج على لوحة "النبيلة مسز جراهام" (51) التي أتاح له رداؤها الأحمر

صفحة رقم : 14161

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> عصر رينولدز -> توماس جينزبرو

بتناياه وطياته أن يبرز أرق تدريجات اللون والظل. وحين عرضت هذه اللوحة في الأكاديمية الملكية بلندن (1777) خيل لكثير من المشاهدين أنها تبرز أي لوحة رسمها رينولدز. وحوالي عام 1770 أصفى جينزبرو البهاء على صورة غلام يدعى جوناثان بتال، وهو ابن تاجر حديد، فغيره إلى "الصبي الأزرق" وهي لوجه دفع فيها متحف صور هنتجتن 500.000 دولار. وكان رينولدز قد أعرب عن اقتناعه بأنه لا يمكن رسم لوحة شخصية مقبولة باللون الأزرق، وقبل غريمه الصاعد التحدي وانتصر؛ وأصبح اللون الأزرق بعدها لوناً مفضلاً في التصوير الإنجليزي. ورغب كل وجوه باث الآن في أن يصورهم جينزبرو. ولكنه، كما قال لصديق، "لقد مللت تصوير الأشخاص، وبني رغبة شديدة في أن أخذ كماني وأنطلق إلى قرية جميلة، حيث أستطيع رسم مشاهد الطبيعة وأستمتع بالبقية الباقية من عمري في هدوء ودعة" (52). ولكنه عوضاً عن هذا نزع إلى لندن (1774) واستأجر مسكناً فاخراً في شومبيرج هاوس، بشارع بل مل، ودفع فيه 300 جنيه في السنة، فهو لا يرضى بأن يتفوق عليه رينولدز في مظهره. وتشاجر مع الأكاديمية على عرض صورته، وظل أربع سنين (1773-77) رافضاً عرض لوحاته فيها؛ وبعد علم 1783 لم ينييسر مشاهدة لوحاته الجديدة إلا في الافتتاح السنوي لمرسمه. وبدأ نقاد الفن حرباً غير كريمة من المقارنات بين رينولدز وجينزبرو. وكان رينولدز عموماً يفضل عليه، ولكن الأسرة الملكة أثرت جينزبرو، فصور أفرادها جميعاً. ولم يلبث نصف الإنجليز يجري في عروقهم الدم الأزرق أن تقاطروا على شومنرج هاوس طلباً للخلود القلق في الصور. ورسم جينزبرو الآن شريدان، وبيرك، وجونسون، وفرانكلين، وبلاكستون، وبت الثاني، وكلايف... ولكي يوطد مكانته، ويدفع إيجاره، راض نفسه على الانقطاع لرسم الأشخاص. وقد وجدته زبائنه رجلاً صعب الإرضاء. ومن ذلك أن أحد اللوردات غالى في خياله بينما كان جالساً إلى جينزبرو، فصرفه دون أن يرسمه، وكانت ملامح جاريك كثيرة الحركة والتغير (فهذا كان نصف سر تفوقه ممثلاً)

صفحة رقم : 14162

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> عصر رينولدز -> توماس جينزبرو

بحيث لا يستطيع المصور أن يجد تعبيراً يطول فترة تكفي للكشف عن الرجل. ولقي هذا العنت في تصوير صموئيل فوت، منافس جاريك. وصاح جينزبرو تياً لهما من وغدين! إن لهما وجه كل إنسان إلا وجههما" (53) ثم وجد صعوبة مختلفة في تصوير السيدة سيدونز "لعن أنفك يا سيدتي! أنه بلا نهاية" (54) وكان يصفو مزاجه مع النساء، فهو شديد الإحساس بجاذبيتهن الجنسية، ولكنه تسامى بها إلى شعر من الألوان الناعمة والعيون الحاملة. فلما أن فاض لديه المال بعد نفقات مسكنه الغالية رسم المناظر الطبيعية التي كان الطلب على لوحاتها قليلاً. وكثيراً ما كان يضع زبائنه الجلوس. أو الوقوف -ومن خلفهم منظر ريفي، كما نرى في لوحته "روبرت أندروز وزوجته" (التي بيعت بمبلغ 364.000 دولار في مزاد 1960). وإذ منعت زحمة العمل من الذهاب إلى الريف والرسم في مواجهة الطبيعة الحية، فقد جلب إلى مرسمه أصول الشجرة والحشائش البرية والأغصان والأزهار والحيوانات، ثم نظمها في لوحة (55) -مع دمي ألبسها ثياباً لتبدو كأنها ناس، ومن هذه الأشياء؛ ومن ذكرياته، ومن خياله، رسم المناظر الطبيعية. وكان فيها نوع من الافتعال، وشكلية وانتظام ندر أن يوجد في الطبيعة، ومع ذلك فالنتيجة أوحى بجو من شذى الريف وسكينته. وفي أخريات عمره رسم بعض "الصور الغربية" التي لم يدع أنه توخى فيها الواقعية، ولكنه أطلق العنان

لمزاجه الرومانتيكي؛ وفي إحداها، وهي "فتاة الكوخ ومعها كلب وإبريق" كل العاطفة التي تجيش بها لوحو جرور "الإبريق المكسور" وكلتا الصورتين رسمت في 1785(56). ولا يستطيع أن يقدر جينزبرو حق قدره غير فنان. كان في أيامه يعد أقل تقديراً من رينولدز، ويعاب على رسمه أنه مهمل، وعلى تكويناته أنها تفتقد الوحدة، وعلى أشكاله أنها غير صحيحة الأوضاع؛ ولكن رينولدز نفسه أثنى على التألق الخفيف الذي اتسم به تلوين مزاجه. وكان يصاحب فن جينزبرو شعر وموسيقى لم يستطع مصور الأشخاص العظيم فهمه في حرارة، لقد كان لرينولدز عقل أكثر ذكورة، وتفوق على منافسه في رسم الرجال؛ أما جينزبرو فكان روعاً أكثر رومانسية، أثر تصوير النساء

صفحة رقم : 14163

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> عصر رينولدز -> توماس جينزبرو

والصبيان. لقد فاتته التدريب الكلاسيكي الذي تلقاه رينولدز في إيطاليا، وافتقد الاتصالات المنبهة التي أثرت عقل رينولدز وفنه. وكان جينزبرو مقلداً في قراءته، قليل الاهتمامات الفكرية، يتجنب جماعة الأدباء والظرفاء الذين التقوا حول جونسون. وكان سمح النفس ولكنه متهور نزاع إلى الانتقاد، وما كان يمكن قط أن يستمع في صبر لمحاضرات رينولدز أو أحكام جونسون. ومع ذلك احتفظ بصداقة شريدان إلى النهاية. فلما تقدم به العمر ران عليه الغم والاكتئاب، فالنفس الرومانسية تقف عاجزة أمام الموت ما لم تكن متدنية. وفي كثير من لوحات الطبيعة التي رسمها جينزبرو تقحم شجرة ميتة نفسها "تذكرة الموت" وسط الورق الغض والعشب الوافر. ولعله ظن أن السرطان يخترقه، وأحسن بمرارة متزايدة لفكرة عذاب يستطيل إلى هذا الحد. وقبل أن يموت بأيام كتب رسالة مصالحة إلى رينولدز وطلب إلى أكبر الرجلين أن يزوره. وجاء رينولدز، وتبادل الرجلان الحديث الودي وهما اللذان لم يتشاجرا بشخصيهما بقدر ما كانا موضوع نزاعات بين رجال أقل منهم شأنًا. وحين افترقا قال جينزبرو "وداعاً حتى نلتقي في الآخرة، وفي صحبتنا فانديك" (57) ومات في 2 أغسطس 1788 بالغا الحادية والستين. وشارك رينولدز شريدان في حمل جثمانه إلى فناء كنيسة كيو. وبعد أربعة أشهر أثنى عليه رينولدز في حديثه الرابع عشر ثناء منصفاً. وقد ذكر بصراحة العيوب كما ذكر الحسنات في فن جينزبرو، ولكنه أضاف "لو أتيح لهذه الأمة أن تتجنب من العباقرة عدداً يكفي لإكسابنا الامتياز الرفيع، امتياز "مدرسة إنجليزية"، فإن اسم جينزبرو سينحدر إلى الأجيال القادمة، في تاريخ الفن، فناناً من الرعيل الأول في تلك المدرسة الصاعدة" (58). أما جورج رومني فقد كافح ليبلغ شعبية رينولدز وجينزبرو، ولكن عيوب تعليمه وخلقه ألزمتة مكاناً أكثر تواضعاً. وقد افتقد التعليم المدرسي بعد الثانية عشرة، فاشتغل في ورشة نجارة أبيه بلانكاشير حتى بلغ التاسعة عشرة. وقد أكسبته رسومه المال الذي تلقى به دروساً في التصوير

صفحة رقم : 14164

قصة الحضارة -> روسو والثورة -> إنجلترا جونسن -> عصر رينولدز -> توماس جينزبرو

من فنان متبطل في بلدته. فلما بلغ الثانية والعشرين مرض مرضاً خطيراً، فلما شفي تزوج ممرضته، ولكنه لم يلبث أن ضاق بها، فهجرها بحثاً عن رزقه، ولم يرها سوى مرتين في الأعوام السبعة والثلاثين التالية، ولكنه كان يرسل إليها بعض مكاسبه. وقد كسب ما يكفي لزيارة باريس وروما، حيث تأثر بالنزعة الكلاسيكية الحديثة. فلما عاد إلى لندن اجتذب رعاية رعاة الفن بقدرته على لباس زبائنه في رشاقة أو وقار. وكان منهم إيما ليون، التي أصبحت فيما بعد الليدي هاملتن، وقد بلغ من افتتان رومني بجمالها أنه صورها في صورة إلهة، وكاسندرا، وسورسي، والمجدلية، وجان دارك، والقديسة. وفي 1782 رسم صورة لليدي سذرلاند، نقد عنها 18 جنيهًا؛ وقد بيعت مؤخرًا بمبلغ 250.000 دولار. وفي 1799 عاد إلى زوجته محطم الجسد والعقل، فعادت تمريضه كما فعلت قبل أربع وأربعين سنة. وطال به الأجل ثلاثة أعوام من الشلل، ثم مات في 1802. وبفضل رينولدز وجينزبرو انطلقت إنجلترا الآن، في نصف القرن الذي نحن بصدده، في التصوير كما انطلقت في السياسة والأدب، في تيار الحضارة الأوربية المتدفق.

صفحة رقم : 14165

منتدى حديث المطابع
موقع الساخر
www.alsakher.com